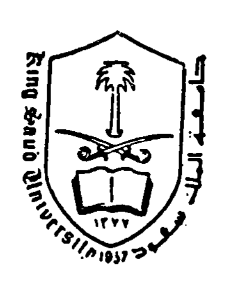
المملكة العربية السعودية
جامعة الملك سعود
كلية الدراسات العليا للبنات
قسم الثقافة الإسلامية
شعبة العقيدة



منهج الامام النووى رحمه الله فى تقرير مسائل الاعتقاد من خلال شرحه لصحيح مسلم

«في ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة»

بحث مقدم لاستكمال متطلبات درجة الماجستير فى العقيدة

إعداد الطالبة
زكية بنت يوسف مصباح ابو قرن
٤١٧٩٩٥٦

إشراف الدكتور
الشفيع الماحي أحمد

١٤٢١هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية

جامعة الملك سعود

كلية التربية

قسم الثقافة الإسلامية

شعبة (عقيدة)

(إجـــــــــــــــــازة)

بحث مقدم استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير (عقيدة)

بعنوان :(منهج الإمام النووي رحمه الله في تقرير مسائل الاعتقاد من خلال شرحه لصحيح مسلم في ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة) .

إعداد الطالبة / زكية بنت يوسف أبوقرن

نوقشت هذه الرسالة في يوم الثلاثاء ١٥/٧/١٤٢٢هـ

وتم إجازتها

أعضاء لجنة المناقشة

التوقيع

١ـ د/الشفيع الماحي أحمد مشرفاً ومقرراً

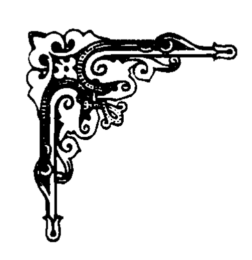
٢ـ أ.د/محمد عبدالمهيمن عبدالرحمن عضواً

٣ـ أ.د/عبدالقادر عبد القادر البحراوي عضواً

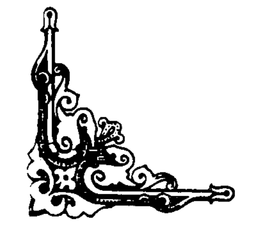
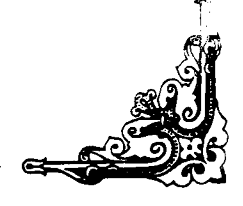
للعام الجامعي ١٤٢١هـ/١٤٢٢هـ

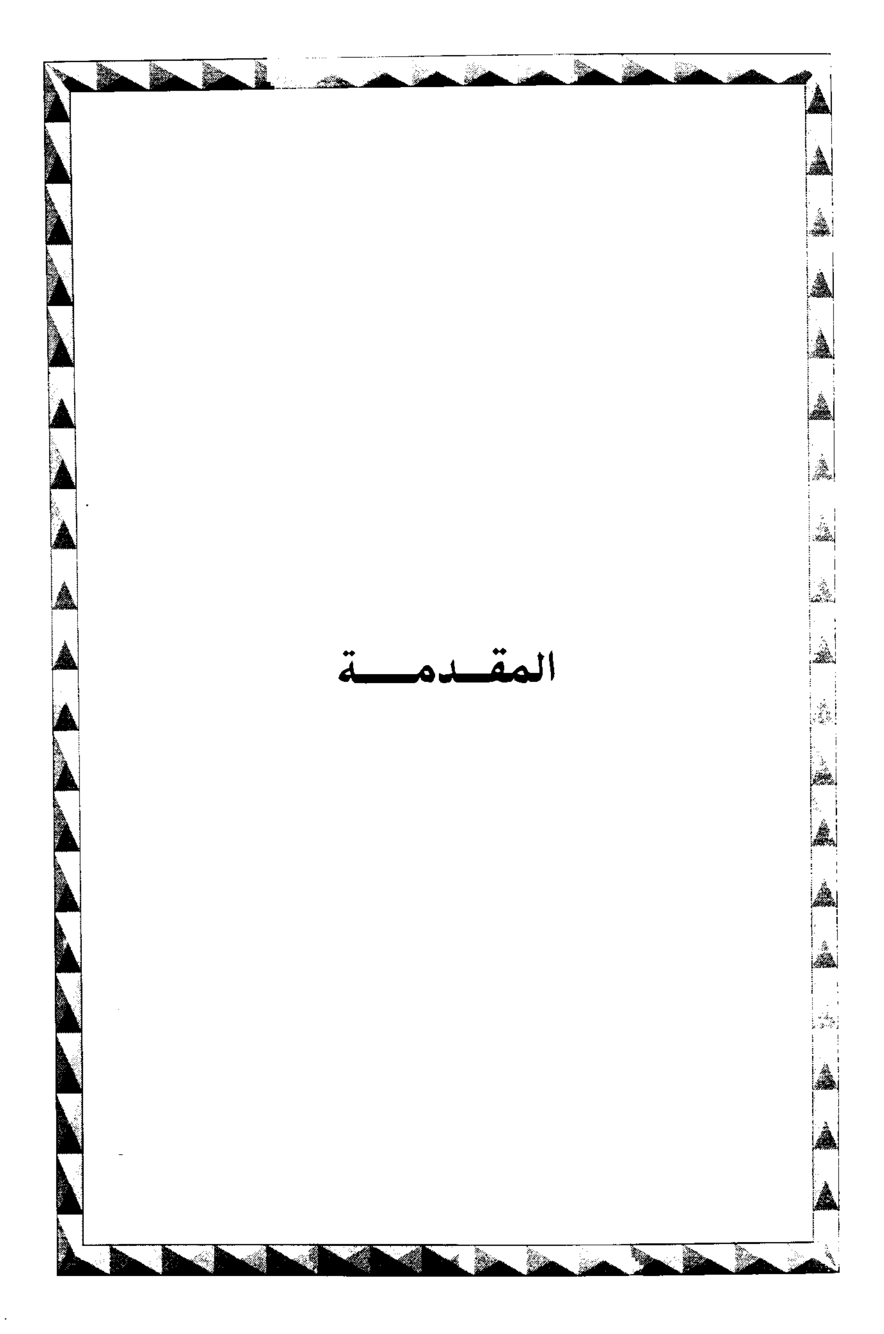
عبدله/ ٤






بسم الله الرحمن الرحيم



المقـــدمـــــة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾[1] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[2].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾[3].

أما بعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالىٰ، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

إن العقيدة الصحيحة هي أساس الإسلام ولا يصح الدين ولا يقبل العمل إلا بسلامتها من الشرك، وإن الله جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه بعث محمداً ﷺ بالهدىٰ ودين الحق ليظهره علىٰ الدين كله، ولو كره المشركون، وقد بقي في مكة يدعو الناس إلىٰ التوحيد ثلاث عشرة سنة، ليحرر القلوب من عبادة غير الله، وعندما رسخ التوحيد في قلوبهم، جاء الأمر بالعمل بأحكام الدين وشرائعه، فلم يمت ﷺ إلا وقد بلغ الرسالة وأدىٰ الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده حتىٰ أتاه اليقين.

---

(١) آل عمران، آية: [١٠٢].

(٢) النساء، آية: [١].

(٣) الأحزاب، الآية: [٧٠ـ٧١].

ثم خلفه أصحابه - رضي الله عنهم - الذين كانوا يتلقون عنه ما يأتيهم به من الوحي ووعوه، وحفظوه، وفهموه، وعملوا به، ثم قاموا بالدعوة إليه ونشره وحمل لوائه في كل مكان، فأعزهم الله بالإسلام، وأعز الإسلام بهم فكان عصرهم أزهى العصور وأفضلها.

ثم جاء بعدهم التابعون لهم بإحسان، فتتلمذوا على أيديهم، ولازموهم وأخذوا عنهم ما تلقوه من رسول الله ﷺ فعلموه وعملوا به فصار منهم العلماء والفقهاء، فكان عصرهم من أفضل العصور بعد عصر الصحابة.

ثم جاء أتباع التابعين، فكانوا كأسلافهم من الحرص على العلم وطلبه ونشره والدعوة إليه، والدفاع عن العقيدة الصحيحة والحث على الاتباع وذم الابتداع، والسير على منهج السلف الصالح، كانوا مصداق قوله ﷺ: **(خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)**[1] ولحكمة يعلمها الله عز وجل ظهرت الأهواء، والبدع، والفرق ﴿ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين (١١٨) إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين﴾[2].

فافترقت الأمة إلى طوائف وأحزاب، واتخذ كل لنفسه طريقة ومنهاجًا، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام: « ... **وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة**»[3].

---

(١) متفق عليه: البخاري [فتح ٧/ ٣] مسلم بشرح النووي، ص٧٠/ ١٦ برقم (٢٥٣٣) مكرر.

(٢) هود، آية: ١١٨-١١٩.

(٣) جزء من حديث أخرجه أبو داود في سننه - إعداد وتعليق الدعاس وعادل: (٥/ ٤-٦) برقم (٤٥٩٦) ورقم (٤٥٩٧) والترمذي في سننه بتحقيق أحمد شاكر: (٥/ ٢٥-٢٧) برقم (٢٦٤٠) وبرقم (٢٦٤١)، وقال - في الأول -: حديث حسن صحيح، وابن ماجه في سننه.

وهذه الفرقة الناجية هم أهل السنة والجماعة السائرون على منهج السلف الصالح في كل زمان ومكان، السالمون من البدع والأهواء في الدين، وهم الذين وصفهم الرسول ﷺ بقوله: «**لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك**»(١).

وإذا تبين هذا فإن منهج أهل السنة والجماعة في العقيدة هو الذي يجب الأخذ به والسير عليه، والجزم بصحته ونقائه وكماله، وأن ما خالفه من العقائد والمناهج باطل مردود.

ولا يخفى على كثير ممن درس العقيدة الإسلامية وتاريخها أنّ المنهج الكلامي المبتدعي قد أضر كثيراً بعقيدة المسلمين بما أحدثه من الشبه والقواعد الفاسدة في هذا الباب وأنه قد أثر كثيراً في بعض العلوم الإسلامية، وأن آثاره لا تزال باقية في بعض المصنفات العلمية التي أصبحت عمدة لدى العلماء وطلاب العلم.

ولذا كان الرد على الشبه الكلامية، والتنبيه على الأخطاء العلمية، والكشف عن المناهج العقدية عند المُصَنِّفين كل ذلك من منهج أهل السنة والجماعة في كل زمان ومكان نصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، ودفاعًا عن العقيدة الإسلامية ضد تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين.

ولا يخفى أيضًا على كثير من الدارسين أن في العلماء المتأخرين من هذه الأمة من لا يشك أحد في علمهم وحسن نواياهم، لما لهم من جهود بارزة في خدمة السنة النبوية والذب عنها، ولما جعل الله لهم من لسان صدق في جماهير الأمة بحيث يمتدحون ويثنى عليهم، وهم مع ذلك قد وقعوا في أخطاء عقدية وخالفوا منهج أهل

---

(١) أخرجه مسلم. بشرح النووي (١٣/ ٦٥-٦٦) كتاب الإمارة، من حديث ثوبان رضي الله عنه، وروي نحوه من حديث المغيرة ومعاوية رضي الله عنهما أخرجهما البخاري في صحيحه- مع الفتح- (٦/ ٦٣٢) برقم (٣٦٤٠) ورقم (٣٦٤١).

السنة والجماعة في مسائل من غير قصد، بل لأسباب عديدة تتعلق ببيئاتهم وأزمانهم التي عاشوا فيها فهذا الصنف من العلماء لا يحسن السكوت على أخطائهم العقدية بل يجب التنبيه عليها حتى لا يأخذ بها من يجهل حالها، ولكن مع المحافظة على مكانتهم في قلوب المسلمين.

وهؤلاء بخلاف أولئك الذين عقدوا ألوية البدعة، وأطلقوا ألسنة الفتنة، وأجمعوا على مفارقة الكتاب والسنة بما أحدثوا من الكلام الباطل الذي يُسمُّونه حقائق وعقليات. فهؤلاء يجب ذمُّهم والتحذير منهم ومن كتبهم وطرقهم الضالة، لشدة ضررهم على الأمة.

وممن تنطبق عليهم حال الصنف الأول من العلماء الإمام النووي - رحمه الله -، وكان يعلم أنّ كتابه «شرح صحيح مسلم» هو أحسن شروح صحيح مسلم وأشملها، وأنه من المراجع الهامة عند علماء أهل السنة والجماعة وأئمة الدعوة السّلفية.

قال الشيخ عبدالله بن الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب[1].

- رحمهما الله - في معرض بيانه لمنهج أئمة الدعوة: (ثم إنا نستعين على فهم كتاب الله بالتفاسير المتداولة المعتبرة، ومن أجلها لدينا: تفسير ابن جرير، ومختصره لابن كثير الشافعي، وكذا البغوي، والبيضاوي، والخازن، والحداد، والجلالين،

---

(١) هو محمد بن عبدالوهاب بن سليمان بن علي بن محمد المشرفي التميمي النجدي الإمام المجدد، والعالم المصلح. ولد سنة (١١١٥هـ) في العيينة: ونشأ نشأة طيبة، وتخرج على كتب الإمامين شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم، وكان حاد الذهن متوقد الذكاء، قام برحلات علمية في عدد من أقطار العالم الإسلامي، وقام بالدعوة الإصلاحية السلفية في القرن الثاني عشر، وألف كتبًا ورسائل مفيدة في التوحيد والحديث والفقه وغيرها، وظلّ مجاهدًا حتى وافقته المنية سنة (١٢٠٦) رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

انظر: علماء نجد خلال ستة قرون، للشيخ عبدالله البسام ص (١٢٥-١٦٨/ ١)، ومقدمة كتاب الجامع الفريد (٣-٤).

وغيرهم. وعلىٰ فهم الحديث بشروح الأئمة المبرزين، كالعسقلاني، والقسطلاني علىٰ البخاري، والنووي علىٰ مسلم، والمناوي علىٰ الجامع الصغير)[1].

وهذا النص المنقول ذو دلالة علىٰ مكانة الإمام النووي ـ رحمه الله ـ ومكانة كتابه (المنهج) الذي أحيا الله به العقيدة السلفية في هذه العصور المتأخرة.

ولما وفقني الله تعالىٰ للالتحاق بقسم العقيدة، في جامعة الملك سعود المباركة، وكان لابد للطالب في هذا القسم من تقديم رسالة علمية لنيل الدرجة العلمية اجتهدت في البحث عن موضوع مناسب أستفيد منه علمًا ودربة، فوقع اختياري علىٰ هذا الموضوع بعد أن ساعدني علىٰ ذلك الاختيار أحد أساتذتي الفاضلين ممن درسوني وكان له الفضل في تنوير طريقي ودربي. وكان هذا الموضوع هو منهج الإمام النووي في تقرير مسائل الاعتقاد من خلال شرحه لصحيح مسلم في ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة.

أسباب اختيار الموضوع:

١ ـ أهميته، وتكمن تلك الأهمية في أمور هي:

أ ـ كون الكتاب الذي هو محلّ البحث يعدّ أهم شرح لأوثق نصوص السنة النبوية التي هي مصدر العقيدة بعد كتاب الله عز وجل.

ب ـ كون مصنفه الإمام النووي من أشهر علماء هذه الأمة الذين خدموا السنة النبوية، وأسهموا في الدفاع عنها.

ج ـ إن في دراسة المنهج العقدي في (شرح صحيح مسلم) تيسيراً للاستفادة منه بدون توجّس مما خالف فيه المصنف عقيدة السلّف في بعض المسائل، عن اجتهاد منه وحسن نيّة، غير قاصد تقرير الباطل، ولكن الله تعالىٰ لم يكتب العصمة إلا لرسله عليهم الصلاة والسلام.

٢ ـ إن هذا الموضوع رغم أهميته لم تكتب فيه رسالة علمية حسب علمي وإن كان

---

(١) الدرر السنية في الأجوبة النجدية، جمع عبدالرحمن بن محمد بن قاسم، ص ١٥١/ ٢.

بعض العلماء قد قام بدراسته من جوانب أخرىٰ ولكن ليس في رسائل علمية خاصة في باب العقيدة.

٣ ـ أنني أحببت وأنا في بداية التخصص في هذا العلم الذي هو أشرف العلوم، أن يكون موضوع بحثي شاملاً لجلّ أبواب العقيدة لكي يتأتىٰ لي الإلمام بمسائلها والاطلاع علىٰ كلام أهل العلم فيها، فوجدت في هذا الموضوع ما يحقق هذه الرغبة الغالية.

٤ ـ أنني استشرت فيه بعض الأساتذة الفضلاء ممن لهم التمكن في هذا الباب فوجدت منهم الاستحسان والتشجيع.

٥ ـ أنني استخرت فيه الله العليم القدير، فانشرح له صدري، فعزمت علىٰ الكتابة فيه مستعينة بالله تعالىٰ.

جهود سابقة في هذا الموضوع:

أشرت انفًا إلىٰ أنني لم أقف علىٰ رسالة علمية في هذا الموضوع، ولا يعني ذلك أنّ الموضوع لم يطرح بوجه ما. فإن هناك جهود مشكورة لبعض أفاضل العلماء في هذا العصر حول هذا الموضوع ومن أمثلة ذلك كتاب (الردود والتعقبات علىٰ ما وقع للإمام النووي من شرح صحيح مسلم من التأويل في الصفات وغيرها من المسائل المهمات) لأبي عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان فقد قام مشكوراً بإبراز أخطاء الإمام النووي في كتابه شرح صحيح مسلم وناقشها ولقد استفدت منه في تأكيد ما تبين مما قد أخطأ فيه النووي، وذلك بعد حصولي عليه بعد مشقة وعناء.

خطة البحث:

وقد قسمت البحث في هذا الموضوع إلىٰ مقدمة وتمهيد، وستة فصول وخاتمة، أما المقدمة، فاحتوت علىٰ:

١ ـ الافتتاحية.

٢ ـ بيان أهمية الموضوع وأسباب اختياره.

٣ ـ وذكر ما وقفت عليه الباحثة من جهود سابقة في هذا الموضوع.

٤ ـ بيان خطة البحث.

٥ ـ وبيان المنهج الذي سارت عليه الباحثة.

٦ ـ وكلمة الشكر والتقدير لمن يستحقها.

وأما التمهيد:

فتناولت فيه ما رأيت أن بيانه لازم قبل الدخول في صلب الموضوع، وهو التعريف بكلمة منهج، والتعريف بالإمام النووي ـ رحمه الله ـ والتعريف بكتابه «شرح صحيح مسلم» والكشف عن أهم مميزات وخصائص منهجه في تقرير مسائل الاعتقاد من خلال شرحه لصحيح مسلم. وجعلت كل مسألة من هؤلاء على حدة في بحث مستقل فتكلمت في البداية عن التعريف بكلمة منهج فذكرت معناها في اللغة والاصطلاح مع الاستدلال على معناها في اللغة. وتكلمت في المسألة الثانية عن الإمام النووي ـ عن عصره ـ وعن حياته الشخصية، وعن حياته العلمية.

وتكلمت في المسألة الثالثة عن كتاب شرح صحيح مسلم من حيث اسمه وزمن تأليفه وطريقته، ونوع الشرح ومنهجه وميزاته والملاحظات عليه، ومكانته وقيمته العلمية من خلال تصريحات العلماء فيه في ستة مباحث.

وتكلمت في المسألة الرابعة عن خصائص وميزات منهجه في تقرير مسائل الاعتقاد في كتابه شرح صحيح مسلم.

وأما الفصل الأول: فخصصته لبيان منهجه في الإيمان بالله تعالى ويشمل على مباحث هي:

المبحث الأول: في توحيد الربوبية.

المبحث الثاني: في توحيد الأسماء والصفات.

المبحث الثالث: في توحيد الألوهية.

المبحث الرابع: في مفهوم الإيمان عند الإمام النووي.

المبحث الخامس: في مسألة زيادة الإيمان ونقصانه.

المبحث السادس: في دخول العمل في مسمى الإيمان.

المبحث السابع: في مسألة الاستثناء في الإيمان.

المبحث الثامن: في حكم مرتكب الكبيرة وأثر المعاصي على الإيمان.

والفصل الثاني: عن الإيمان بالملائكة وفيه مبحثان:

المبحث الأول: في وظائف الملائكة وأصنافهم.

المبحث الثاني: في المفاضلة بين الملائكة والأنبياء، وتفضيل نبينا محمد ﷺ على جميع الخلائق.

الفصل الثالث: في الإيمان بالكتب، وفيه مباحث:

المبحث الأول: في موقفه من متشابه القرآن.

المبحث الثاني: في حكم الإختلاف في القرآن.

المبحث الثالث: في نماذج من تفسيره لبعض الآيات.

الفصل الرابع: في الإيمان بالرسل وما يتعلق به من مسائل وفيه مباحث:

المبحث الأول: في الفرق بين النبي والرسول.

المبحث الثاني: في مفهوم الوحي إلى الأنبياء.

المبحث الثالث: في عموم رسالة الرسول ﷺ.

المبحث الرابع: في معجزات الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

المبحث الخامس: في عصمة الأنبياء.

المبحث السادس : في حوض الرسول ﷺ .

المبحث السابع : في ختم النبوة بمحمد ﷺ .

الفصل الخامس: في الإيمان باليوم الآخر وما يتعلق به من مسائل وفيه مباحث:

المبحث الأول : في الإيمان بأشراط الساعة .

المبحث الثاني : في الإيمان بعذاب القبر ونعيمه .

المبحث الثالث : في البعث والجزاء .

المبحث الرابع : في إثبات العرض والحساب .

المبحث الخامس : في الإيمان بالجنة والنار وأنهما موجودتان مخلوقتان لا تفنيان .

المبحث السادس : في الشفاعة ومراتبها .

الفصل السادس: في الإيمان بالقضاء والقدر وفيه مباحث:

المبحث الأول : في حقيقة القدر عند الإمام النووي .

المبحث الثاني : في مراتب الإيمان بالقدر .

المبحث الثالث : في موقفه من القدرية .

المبحث الرابع : في مسألة احتجاج آدم وموسى عليهم السلام .

المبحث الخامس : في تأويل قوله تعالى ﴿يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ .

المبحث السادس : في بيان أن الآجال والأرزاق وغيرها لا تزيد ولا تنقص عما سبق به القدر .

وأما الخاتمة فعرضت فيها خلاصة البحث ونتائجه .

منهج البحث:

واتبعت في إعداد هذا البحث المنهج التالي :

١ ـ أنني تتبعت مسائل العقيدة في شرح صحيح مسلم ابتداء من مقدمته، وانتهاءً بالمجلد الثامن .

٢ ـ اعتمدت في القراءة على النسخة التي ضُبط نصها ورقمت كتبها وأبوابها وأحاديثها على الطبعة التي حققها محمد فؤاد عبدالباقي نشر دار الكتب العلمية بيروت ـ الطبعة الأولى عام ١٤١٥هـ .

٣ ـ حصرت جميع المسائل المتعلقة بالعقيدة في «الشرح» حسب علمي القاصر .

٤ ـ قمت بتقسيم المسائل إلى موضوعات علم العقيدة وعنونت لها بحسب ما فهمت من مضامينها .

٥ ـ جمعت شتات كلام الإمام على المسألة الواحدة من مواضعها المختلفة في «الشرح» للتوصل إلى معرفة منهج الإمام النووي في تلك المسألة بعينها .

٦ ـ حرصت على نقل كلام الإمام بالنص في كلّ موضوع، ليقف القارئ على عباراته بدون أن أتصرف فيها . وهذا ما لم تدع الحاجة إلى نقل كلامه بالمعنى من أجل تلخيصه إذا كان طويلاً بحيث يصعب نقله بالنص، وما لم تدع الحاجة إلى سياق كلامه المفرق مساقًا واحدًا لإعطاء القارئ صورة متكاملة عن رأي الإمام في المسألة، إذا كان بعض كلامه يكمّل بعضًا .

٧ ـ إذا تكرر كلامه على مسألة واحدة ولم يكن في الموضع المكرر اختلاف ولا زيادة فإني أنقل كلامه من أول موضع ورد فيه مع الإحالة على المواضع الأخرى، وإذا تكرر كلامه مع اختلاف أشرت إلى ذلك، أو مع زيادة بلا اختلاف اعتمدت في النقل على الموضع الذي توسع فيه مع الإحالة على المواضع الأخرى أيضًا .

٨ ـ إذا ورد في بعض النصوص التي نقلتها عن الإمام في باب العقيدة، عبارة «قال العلماء» فإنه يقصد بذلك علماء الأشاعرة، وإن صرح أحيانًا بأسمائهم أو لم يصرح.

٩ ـ قد يتكرر نقل بعض كلامه في بعض المواضع لاشتمال كلامه على أكثر من مسألة.

١٠ ـ إذا كان كلام الإمام متعلقًا بحديث من أحاديث صحيح مسلم وكان بحيث لا يفهم كلامه بدون ذكر الحديث ذكرته، وإلا فلا. لكني أذكر الحديث مع إمكان عدم ذكره لفائدة ما.

١١ ـ بعد عرض كلام الإمام على المسألة أبيّن ما إذا كان ما قاله موافقًا لقول أهل السنة والجماعة أو مخالفًا له، مع بيان الصواب فيها من قول أهل السنة والجماعة.

واعتمدت كثيرًا في نقد كلام الإمام على كلام شيخ الإسلام ابن تيمية، في «مجموع الفتاوى» لكونه في رأيي أبرز عالم سني شرح المسائل العقدية، وكشف عن منهج السلف منها، وناقشت الأقوال المخالفة لهذا المنهج بحيدة ونزاهة.

كما حرصت على نقل تعليقات سماحة الشيخ العلامة ابن باز ـ رحمه الله ـ وتعقباته على الحافظ ابن حجر في المواضع التي أخطأ فيها، حيث أن الحافظ كان ممن اعتمد على كلام النووي كثيرًا حتى أنه وقع في نفس الأخطاء التي وقع فيها النووي، فاستفدت منه في ذلك.

وكذلك استفدت من تعليقات الشيخ عبدالله الدويش ـ رحمه الله ـ التي سبقت الإشارة إليها.

ومن الكتب التي استفدت منها كذلك في نقد كلام الإمام «كتاب شرح صحيح البخاري» لفضيلة الشيخ عبدالله الغنيمان، وكتاب الردود والتعقبات، وهذه الكتب إنما أشرت إليها هنا لكونها من أهم ما استفدت منها، وبخاصة في مسائل الفصل الأول من هذا البحث.

١٢ ـ لم ألتزم في مسائل الفصول الثاني، والثالث، والرابع، والخامس، والسادس، من هذا البحث بجميع المنهج الذي تقدّم ذكره، وذلك لأن مسائل الفصل الأول هي أهم الجوانب التي يتوجه فيها النقد للإمام النووي، وبخاصة في باب الأسماء والصفات، بخلاف مسائل الفصول الأخرىٰ، فإنه في أغلب تلك المسائل سار علىٰ منهج أهل السنة والجماعة، وربما خالف في مسائل قليلة.

١٣ ـ عزوت الآيات الواردة في البحث إلىٰ مواضعها في القرآن الكريم، بذكر اسم السورة، ورقم الآية.

١٤ ـ خرّجت الأحاديث النبوية الواردة في البحث من مصادرها المعتمدة، فإن كان الحديث في الصحيحين أو أحدهما اكتفيت بهما أو بأحدهما في التخريج. وإلا خرجته من كتب السنن الأربعة، أو غيرها إن تيسّر.

١٥ ـ شرحت ما رأيت الحاجة إلىٰ شرحه من الألفاظ الغريبة.

١٦ ـ ترجمت للأعلام المذكورين في صلب البحث، في أوّل موضع يرد ذكره فيه، ما عدا الأنبياء، والخلفاء الراشدين، والأئمة الأربعة.

وقد اعتمدت في غالب هذه التراجم علىٰ كتاب «تقريب التهذيب» للحافظ ابن حجر، خاصة في رجال الكتب الستة، وعليه وعلىٰ كتابه «الإصابة» في تراجم الصحابة، كما اعتدمت كثيرًا علىٰ كتاب سير أعلام النبلاء وكتاب «تهذيب سير أعلام النبلاء»، وكتاب «تذكرة الحفاظ» للإمام الذهبي، والبداية والنهاية لابن كثير، و«الأعلام» للزركلي وغيره.

١٧ ـ عرّفت بالفرق والطوائف التي ذكرت في الرسالة تعريفًا موجزًا في أول موضع تذكر فيه.

١٨ ـ التزمت عند النقل من أي مصدر أو مرجع الإشارة في الهامش إلىٰ اسم الكتاب واسم المؤلف ورقم الصفحة والجزء أو العكس والإشارة إلىٰ المحقق أو دار

النشر إذا اختلفت النسخة التي اعتمدت عليها وإلا فالإشارة إلى المحقق والطبعة وتاريخها ودار النشر يكون في الفهرس، وإذا لم يوجد من البيانات المذكورة سكت عنها.

١٩ ـ إذا قلت في الإحالة: (انظر) فإمّا أنّ النقل كان بالمعنى لا بالنص وإما أنني أحيل القارئ إلى موضع آخر فيه كلام عن الموضوع المحال به.

٢٠ ـ ذيلت البحث بفهارس لتيسر الاستفادة منه، وهي:

أ ـ فهرس الآيات القرآنية.

ب ـ فهرس الأحاديث النبوية، والآثار الموقوفة.

ج ـ فهرس الأعلام المترجم لهم.

د ـ فهرس الشعر.

هـ ـ فهرس الطوائف والفرق.

و ـ فهرس المصادر والمراجع.

ل ـ فهرس محتويات الرسالة.

وفي الختام أحمد الله تعالى، وهو للحمد أهل، أن وفقني وأعانني على إنجاز هذا العمل، الذي أتقرب به إليه رجاء ثوابه وإبتغاء مرضاته، على ما فيه من ضعف البشر، وقصر النظر، وقلة العلم، فما كان فيه من صواب فهو من فضل الله تعالى وتوفيقه، وما كان فيه من خطأ فمن نفسي، وأستغفر الله العظيم وأتوب إليه، ولا عدمت ـ إن شاء الله ـ إخوان ناصحون وقفوا على شيء من ذلك فنبهوني إليه مشكورين مأجورين.

كلمة شكر وتقدير:

وأتوجه بالشكر الجزيل إلىٰ القائمين علىٰ هذه الجامعة المباركة علىٰ رعايتهم الحميدة للعلم وأهله وطلابه، وعلىٰ قيامهم بتعليم العلوم الإسلامية علىٰ المنهج السلفي القويم الذي أحوج ما يحتاجه أبناء العالم الإسلامي اليوم. فجزاهم الله تعالىٰ خير الجزاء ووفقهم وسدّد خطاهم.

وأتقدم بالشكر للدكتور الشفيع الماحي أحمد علىٰ قبوله الإشراف علىٰ هذا البحث وعلىٰ ما قدمه لي من النصائح والتوجيهات القيمة والذي لم يبخلّ عليّ بأي منها أسأل الله أن يبارك له في علمه وعمله وعمره وولده إنه علىٰ ذلك قدير.

ثم أتقدم بوافر الشكر وبالغ التقدير إلىٰ شيخي الأستاذ الدكتور/ شوقي إبراهيم، علىٰ ما أولاني من عناية تامة في الإشراف علىٰ هذا البحث، وعلىٰ ما أفادني به من التوجيهات القيمة، والملاحظات النافعة، فالله تعالىٰ أسأل أن يجزل له المثوبة، وأن يبارك في وقته وعلمه وعمله وولده.

ولا يفوتني أن أشكر شيخي الدكتور/ محمد عبدالحافظ، الذي تتلمذت عليه في السنة المنهجية، ثم تكرم بالإشراف علىٰ هذا البحث من بدايته واستفدت كثيراً من إرشاداته فجزاه الله تعالىٰ عني خير الجزاء.

كما أشكر الدكتور محمد الوهيبي الذي لم يحرمني من إرشاداته وتوجيهاته القيمة في بداية إختياري لموضوع البحث.

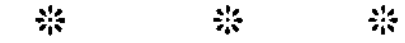
كما أشكر استاذيّ الفاضلين الدكتور/ محمد الفرت، والدكتور/ رزق الشامي اللذين كانا من الأساتذة الذين يذكرون فيشكرون وكل أساتذتي أهل للشكر.

كما أشكر الدكتور/ خالد بن محمد الردادي الذي وفر لي كل ما يُهيىء لي التفوق والتحصيل النافع من بداية حياتي الجامعية وكان ينتظر اليوم الذي أتوج فيه وهو بكل ما فعله كان مثالاً للتضحية وإيثار النفس ولعلي أدعوا الله أن يُهيىء له من أسباب الفلاح والنجاح ما هُيىء لي فكان بمثابة الأب الحنون والصديق الصادق والزوج

الناصح والصدر الرحب والجسر الذي أعبر به إلى الفلاح .

كما أشكر والدي ووالدتي اللذان رعياني حق الرعاية ولم يحرماني الدعاء وزرعا في نفسي الثقه والقدرة على مواجهة الصعاب وكانت السبب الرئيسي في أن أسير مسيرة العلم هذه رغم الصعوبات التي واجهتني .

كما أشكر كلّ من ساعدني في هذا العمل بإشارة أو عبارة أو إعارة كتاب، أو غير ذلك من أوجه المساعدة، وإن كنت خاصة أحد بالذكر وكلهم أهل للذكر فالأستاذ الفاضل / فهد بن محمد الداوود رئيس قسم الكتب العامة في مكتبة جامعة الملك سعود. والأستاذ عبدالله الجريس الموظف بمكتبة الملك فهد الوطنية وأخي باسم يوسف أبو قرن. وأخيراً الشكر الجزيل للأستاذ الفاضل سيد البحيري الذي قام بطباعة هذا البحث وإخراجه بهذا الشكل وأسأل الله أن يوفق الجميع وأن ينفع بهذا البحث عامة المسلمين والحمد لله رب العالمين .



التمهيد ويشمل

١ - التعريف بكلمة (منهج)

٢ - التعريف بالإمام النووي ويشمل :

أ - التعريف بالإمام رحمه الله .

ب - التعريف بكتابه شرح صحيح مسلم .

٣ - خصائص منهج الإمام النووي .

أولاً: التعريف بكلمة منهج في اللغة والإصطلاح

أ - معنى المنهج في اللغة[1]:

المنهج مادة نهج، ينهج نهجا، وهو الطريق البين الواضح، ويطلق على الطريق المستقيم. والمنهج، والنهج، والمنهاج: بمعنى واحد. وفي التنزيل قوله تعالى: ﴿لكُلٍّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجا﴾[2]. قال ابن عباس - رضي الله عنه -: (سبيلاً وسنة)[3]، وهو مروي عن مجاهد، وعكرمة، والحسن البصري، وغيرهم.

وروي عن ابن عباس (سنة وسبيلا) ورجح ابن كثير - رحمه الله - التفسير الأول لظهوره في المعنى ومناسبته[4]. وقال الحافظ ابن حجر - رحمه الله -: (والمنهاج:

---

(١) انظر: لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري ص ٧٢٧/ ٢. مادة نهج، والقاموس المحيط لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز أبادي من مادة نهج ص ٢٠٨.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

(٣) صحيح البخاري ص ٤٦/ ١، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، كتاب الإيمان باب قول النبي ﷺ «بني الإسلام على خمس» والحديث المذكور في ترجمة الباب معلقًا بتحقيق: الشيخ عبدالعزيز بن باز رحمه الله، وفؤاد عبدالباقي، ومحب الدين الخطيب، ورواه الطبري في تفسيره ص٢٧٠ـ ٢٧١/ ٦.

واللالكائي من ٩٦/ ١ رقم (٦٥) في شرح اعتقاد أهل السنة والجماعة.

(٤) انظر: تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم) ص ٦٢/ ٢.

السبيل ، أي الطريق الواضح)[1]، وتفسير ابن عباس الأول هو المختار .

ب - معنى المنهج في الاصطلاح :

المنهج هو الطريق المؤدي إلى التعرف على الحقيقة في العلوم ؛ بواسطة طائفة من القواعد العامة ؛ والتي تهيمن على سير العقل ، وتحدد عملياته ؛ حتى يصل إلى نتيجة معلومة[2]. وبعبارة أوجز : هو القانون ، أو القاعدة التي تحكم أي محاولة للدراسة العلمية ، وفي أي مجال[3]. ومن ثم تختلف المناهج باختلاف العلوم التي تبحث فيها ؛ فلكل علم منهج يناسبه ، مع وجود قاسم مشترك بين المناهج المختلفة ، وقد تتعاون - وهو - الغالب - مجموعة من المناهج لخدمة ومعالجة فن واحد[4].

مما تقدم من تعريف للمنهج ؛ يمكن القول : بأن علم المناهج علم بعدي ؛ بمعنى أنه يقف من وراء العلوم ؛ كي يحلل طرائقها ، ويحدد مسالكها - ، عليه ، فالاشتغال بالقضايا العملية ، والمسائل التفصيلية في العلوم ، غير الاشتغال بمسالك تلك القضايا والمسائل ، وكيفية ورودها على هذه الحال ، أو تلك الحال ، ومعرفة مصادرها وأدلتها ، وهو ما يسمى عند المحدثين من العلماء بفلسفة العلوم[5].

---

(١) انظر : فتح الباري بشرح صحيح البخاري من ٤٨ / ١ .

(٢) انظر : العلم والبحث العلمي - دراسة في مناهج العلوم - لحسن عبدالحميد رشوان ، ص١٤٣ - ١٤٥ . منهج البحث العلمي عند العرب ، في مجال العلوم الطبيعية والكونية ، لجلال محمد عبدالحميد موسى ص٢٧٣ .

والصواب نتيجة مطلوبة لأن النتائج لا تكون معلومة مسبقًا ونستخدم المنهج لنصل إلى معرفة النتيجة التي لم تكن معلومة لنا من قبل أي أن المنهج يساعدنا على التوصل إلى معرفة النتيجة .

(٣) انظر : منهج البحث العلمي عند العرب لجلال موسى ص ٢٧١ .

(٤) انظر : المرجع السابق ، ص٢٧١ .

(٥) انظر : المرجع السابق ، ص٣١ ، ٣٢ .

ثانيًا : التعريف بالإمام النووي

أ - التعريف بالإمام النووي .

ب - التعريف بكتابه (شرح مسلم).

ج - خصائص منهج الإمام النووي .

أ - التعريف بالإمام النووي

كلمة بين يدي التعريف بالإمام النووي

كلمة بين يدي التعريف بالإمام النووي :

لقد اعتنىٰ العلماء والباحثون قديمًا وحديثًا بترجمة الإمام أبي زكريا يحيىٰ بن شرف النووي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ، وأفرده بالترجمة غير واحد، في كتب لطيفة مستقلة؛ منهم :

ـ تلميذه الشيخ الإمام العالم الزاهد علاء الدين علي بن إبراهيم بن داود بن العطار[1] الشافعي، في كتابه «تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين»[2].

ـ الشيخ العلامة شمس الدين محمد بن عبدالرحمن بن أبي بكر ابن عثمان بن محمد السخاوي (ت ٩٠٢هـ)[3] في كتابه «المنهل العذب الروي في ترجمة الإمام النووي»[4].

ـ الشيخ العلامة جلال الدين عبدالرحمن السيوطي[5] (ت ٩١١هـ)، في كتاب :

---

(١) سوف تأتي ترجمته ضمن طلاب الإمام النووي .

(٢) طبع هذا الكتاب الطبعة الأولىٰ، دار الصميعي، الرياض، بتحقيق أبو عبدة مشهور آل سليمان .

(٣) هو : محمد بن عبدالرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد الملقب بشمس الدين، والمكني بأبي الخير وبأبي عبدالله السخاوي الأصل القاهري المولد والمنشأ، الشافعي المذهب، ولد سنة ٨٣١هـ، وتوفي بالمدينة المنورة سنة ٩٠٢هـ، ودفن ببقيع الغرقد، انظر مقدمة كتاب المنهل العذب الروي من ص٧ .

(٤) طبع هذا الكتاب الطبع الأولىٰ، طبع ونشر مكتبة التراث المدينة المنورة، بتحقيق محمد العيد الخطراوي .

(٥) هو جلال الدين أبو الفضل عبدالرحمن بن كمال الدين أبي بكر بن محمد بن سابق المصري الخضيري الأسيوطي، الطولوني الشافعي، ولد سنة ٨٤٩هـ، رحل إلىٰ الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكروروجاب . مدن مصر، توفي سنة ٩١١ هـ . شذرات الذهب ص٥٢/ ٨ .

«المنهاج السوي في ترجمة الإمام النووي»[1].

- محمد بن الحسن اللخمي (ت ٧٣٨ هـ) في أربع ورقات، كما قال السخاوي[2].

- العلامة الرباني كمال الدين إمام الكاملية وشيخها، في جزء سمَّاه: «بغية الراوي في ترجمة الإمام النواوي».

- العلامة أبو الفضل النويري خطيب مكة، في جزء سماه: «تحفة الطالب والمنتهي في ترجمة الإمام النووي».

قال السخاوي:

«وأفردها - أي: ترجمة الإمام النووي - أيضًا من مدَّة العلامة الرَّباني كمال الدين إمام الكاملية وشيخها في جزء سمَّاه: «بغية الراوي في ترجمة النواوي - رحمه الله -. وقرأها - على ما بلغني - العامة أبو الفضل النويري - خطيب مكة شرفها الله -.

وقد أخذها بعض الجماعة، فقال: إنه رتبها، وزاد عليها، لكونه استحسن جمعها: وما رضي وضعها، وسمّاها «تحفة الطالب والمنتهي في ترجمة الإمام النووي» ومن نفس التسمية يعلم المقصود.

ولو فرض - على سبيل التنزل - أن صاحب «التحفة» لم تكثر أوهامه وكان ما زعمه - والعياذ بالله - صحيحًا، ما كان يجمل به هذا القول، بل اللائق الأدب مع أهل العلم والولايات، وإنزالهم منازلهم في البدايات والنهايات، ومن لم يجعل الله له نورًا، فما له من نور، وكأني به - ألهمنا الله رشدنا - قد أخذ ما وقع لي من الزوائد الفرائد، التي لا أعلم من سبقني إليها غير عزو، غافلاً عن قول القائل.

---

(١) طبع هذا الكتاب الطبعة الأولى، طبعة ونشر مكتبة التراث المدينة المنورة.

(٢) ترجمة الإمام النووي ص١٤٧، بتحقيق الدكتور محمد العيد الخطراوي.

« شكر العلم عزوُه لقائله » [١].

« ولا حول ولا قوة إلا بالله » [٢].

ـ الشيخ شمس الدين محمد ابن الفخر عبدالرحمن بن يوسف البعلي، كما قال السخاوي [٣].

ـ أحمد بن محمد السُّحَيمي المصري الشافعي (ت ١١٧٨ هـ).

قال الأستاذ خير الدين الزركلي في «الأعلام» من (٨/١٤٩).

« وأفردت ترجمته في رسائل، إحداها : للسحيمي ».

وأما ما كتب عن الإمام النووي حديثًا، فأوسع وأحسن ما وقفت عليه من ذلك خمس كتابات :

* أولاها ـ «الإمام النووي شيخ الإسلام والمسلمين، وعمدة الفقهاء والمحدثين» تأليف الشيخ عبدالغني الدقر (معاصر)[٤].

---

(١) قائلها أبو عبيدة القاسم بن سلام ذكر ذلك أبو عبدالله محمد ابن القاضي عياض بسنده في كتابه في التعريف بوالده القاضي عياض ص (٨٢)، من طريق عبدالغني من سعيد الأزدي به.

وقال الحافظ عبدالغني . . . . . : «علقت هذه الحكاية مستفيداً لها ومستحسناً، وجعلتها حيث أراها في كل وقت، لأقتدي بأبي عبيد وأتأدب بآدابه».

انظر : التعريف بالقاضي عياض ص ٨٢ لولده أبي عبدالله محمد.

(٢) ترجمة الإمام النووي ص ١٤٩.

(٣) قال السخاوي في ترجمة الإمام النووي ص (٥٧) : «ومن علمته الآن ترجم الشيخ سوىٰ من تقدم» وذكره، ثم ذكر من ترجمه ضمن كتاب من غير إفراد، ثم قال (ص٦٣)، واستيفاء الكلام في هذا المعنىٰ يعسر.

(٤) طبع في سوريا عن دار القلم، من سلسلة أعلام المسلمين، رقم (١٠) آخر طبعاته سنة (١٤٠٧هـ-١٩٨٧م).

* الثانية : «الإمام النووي» تأليف الشيخ علي الطنطاوي [1].

* الثالثة : «الإمام النووي وأثره في الفقه الإسلامي»، تأليف الشيخ محمود رجا مصطفى حمدان [2].

* الرابعة : «الإمام النووي وجهوده في التفسير» تأليف : الشيخ شحادة حميدي العَمْري [3].

* الخامسة : الإمام النووي وأثره في الحديث وعلومه.

تأليف أحمد عبدالعزيز قاسم الحداد [4].

فهذه بعض الدراسات الحديثة التي ترجمت للإمام النووي، ورأيت أن أصحابها قد أجادوا وأفادوا بما كتبوا.

ولما كان بحثي هذا متعلقًا بهذا العلم الكبير، وجدت أنه لابد من تقديم تعريف به، ليكون القارئ على دراية عمن أتحدث عن منهجه في العقيدة، فعزمت على كتابة هذه الترجمة، وحاولت أن تكون وسطًا بين الموجز المخل، والمطول الممل، مركزًا فيها على الجوانب ذات الصلة القوية بموضوع البحث مختارًا الحديث أولاً عن العصر الذي

---

(١) طبع في سورية، عن دار الفكر، ضمن سلسلة «أعلام التاريخ» رقم (٤)، أول طبعة له سنة (١٣٨٠هـ-١٩٦٠م).

(٢) أطروحة دكتوراه، مقدمة لقسم الدراسات الإسلامية : بجامعة البنجاب، بإشراف الدكتور خالد علوي سنة (١٤٠٤هـ-١٩٨٤م) مضروبة على آله كاتبة.

(٣) أطروحة للماجستير بإشراف الدكتور : فضل حسن عباس، مقدمة لقسم أصول الدين في كلية الشرعية، في الجامعة الأردنية، سنة (١٤٠٧هـ-١٩٨٧م).

(٤) رسالة مقدمة لقسم الكتاب والسنة بجامعة أم القرئ بمكة المكرمة عام ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م، وما كتبه هذا المؤلف يعتبر أحسن التراجم الحديثة للإمام النووي فيما وقفت عليه، ولقد استفدت منه كثيراً فجزاه الله خيراً كثيراً.

عاش فيه الإمام النووي ـ رحمه الله ـ لما لبيئة الإنسان وظروفه المحيطة به من أثر واضح في تكوين شخصيته وتوجيه أفكاره، ثم عن حياته الشخصية، وأخيراً عن حياته العلمية .

والله تعالىٰ الهادي إلىٰ سواء السبيل ، ومنه استمد العون والتوفيق .

❊ ❊ ❊

أولاً : عصر الإمام النووي

أ - الناحية السياسية

ب - الناحية الاجتماعية .

ج - الناحية العلمية .

عصر الإمام النووي

عاش الإمام النووي - رحمه الله - في الفترة الواقعة ما بين عام إحدىٰ وثلاثين وستة مئة، حيث كانت ولادته، وست وسبعين وستة مئة حيث كانت وفاته.

وكان الحكم في هذه الحقبة من الزمن لسلاطين المماليك[1] الذين استولوا علىٰ مصر وأجزاء من العالم الإسلامي بعد إنهيار الدولة الأيوبية[2] سنة (٦٤٨ هـ)، وما تلي ذلك من سقوط «بغداد» دار الخلافة ومركز العالم الإسلامي آنئذ - علىٰ أيدي المغول -، وقتل آخر الخلفاء العباسيين بها سنة (٦٥٦ هـ)[3].

وعمرّت دولة المماليك زهاء ثلاثة قرون، من سنة (٦٤٣ هـ)، وحتىٰ سنة (٩٢٣هـ)، بلغ عدد سلاطينها سبعة وأربعين سلطانًا[4] عاش الإمام النووي في كنفها

(١) المماليك: طائفة من الأرقاء جلبهم الأيوبيون إلىٰ مصر عن طريق الشراء بالمال ثم حرّر وهم وعنوا بتنشئتهم عسكريًا، واتخذوهم سندًا لدولتهم، وكانت هناك عوامل ساعدت علىٰ ظهور المماليك حتىٰ استأثروا بالحكم بعد سلسلة من الأحداث. وهؤلاء المماليك ترجع أصولهم إلىٰ أجناس متنوعة من أتراك، وجراكسة، ومغول، ويونانيين.

انظر: «التاريخ والمنهج التاريخي لابن حجر» للدكتور محمد كمال عز الدين. ص٤٩ - ٥١.

(٢) نسبة إلىٰ مؤسسها السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب (ت ٥٨٩ هـ). الذي استولىٰ علىٰ مصر بعد القضاء علىٰ الدولة الفاطمية سنة (٥٦٧ هـ).

انظر: كتاب «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (خطط المقريزي) لتقي الدين المقريزي: ص٢٣٣/ ٢».

(٣) انظر: أحداث سقوط وقتل الخليفة في «البداية والنهاية» للحافظ ابن كثير ص٢٠٠ - ٢٠٤/ ١٣.

(٤) انظر: «عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي» لمحمود رزق سليم، ص٢٢ - ٦٣/ ١.

فترة بسيطة امتدت نحواً من خمسة وأربعين عامًا[1] .

ولإعطاء القارئ تصوراً عامًا عن هذا العصر ، لابدّ من عرض سريع لحالاته السياسية ، والاجتماعية ، والدينية ، والعلمية ، كما يأتي :

أ - الحالة السياسية :

نشأت دولة المماليك وهي تحمل عوامل ضعف سياسية ، لكون سلاطينها في الأصل أرقاء ليسوا بمستوى الحكم ، ولوجود أخطار عندئذ تهدّد المسلمين ، وأكبرها الخطر الصّليبي ، والخطر المغولي (التتاري) .

وهذا ما جعل المماليك يبذلون الجهد الكبير في مواجهة الأخطار لتبرير ضرورة بقائهم في الحكم أمام رعاياهم ، فأبدوا بطولة نادرة في الدّفاع عن البلاد وحمايتهم من الأخطار ، وحققوا ـ بعد معارك ظافرة ـ انتصارات ساحقة على الصّليبيين وعلى التتار ، وهزموهم شرّ هزيمة ، وطهروا البلاد الإسلامية منهم [2] .

وكذلك حرص المماليك على إصباغ الشّرعية على حكمهم ، ففكروا في إحياء الخلافة الإسلامية ونقلها إلى مصر[3] ، وتحقّق ذلك بعد ثلاث سنين من سقوط «بغداد» حيث نُصب أحد أبناء البيت العباسي[4] خليفة للمسلمين ، وبويع بالخلافة في

---

(١) وذلك من سنة (٦٣١هـ) إلى سنة (٦٧٦ هـ) .

(٢) انظر : «الأيوبيون والمماليك في مصروالشام» ، للدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور ، (ص١٣١ ـ ٢٣٢) .

وأيضًا الإمام النووي وأثره في الحديث وعلومه ص١٢ ـ ١٥ .

(٣) كانت بغداد هي مركز الخلافة الإسلامية ، وقد سبق أنها سقطت على أيدي التتار وقتل فيها الخليفة العباسي . وبذلك ماتت الخلافة الإسلامية حتى أحياها المماليك في مصر .

(٤) هو : أبو القاسم أحمد بن الخليفة الظاهر بأمر الله العباسي (ت ٦٦ هـ) ، وكان معتقلاً ببغداد فأطلق ، ثم قدم مصر بطلب السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقواري .

القاهرة سنة (٦٥٩ هـ) [١].

وقد استمرت الخلافة من ذلك الحين - ومركزها القاهرة . حتي زالت بزوال دولة المماليك. وتوالى عليها - خلال هذه الفترة سبعة عشر خليفة [٢]، وكان منصب الخلافة في هذه الدولة منصبًا صوريًا، وأمّا الحكم الفعليّ فكان للسّلطان، وليس للخليفة فيه أمر ولا نهي، بل حسبه أن يقال له : أمير المؤمنين [٣].

ومما أتسم به عصر المماليك كثرة الفتن والقلاقل وعدم الاستقرار من جراء المنازعات المستمرة بين طوائف المماليك للاستيلاء على السلطة، وكان يصاحب ذلك أحيانا سفك للدماء واضطهاد من جانب المنتصر .

إلا أن سلاطين الدّولة كانوا يعملون دائمًا على حصر تلك الفتن والإضطرابات في دائرة داخلية بحتة، والحفاظ على شوكة دولتهم وسطوتها، فلم يمكّنوا قوة خارجية من التدّخل في شئون البلاد. أو الانتقاص من سيادتها وأطرافها [٤].

---

(١) انظر : «البداية والنهاية» ص(٢٣١ - ٢٥٥ / ١٣)، وعصر سلاطين المماليك. لمحمود رزق سليم ص(١٠/ ٢) .

والأيوبيون والمماليك في مصر والشام ص (٢٠٩ - ٢١٠) للدكتور سعيد عبدالفتاح عاشور.

(٢) انظر : «عصر سلاطين المماليك» ص (١٠-١٥/ ٢) .

(٣) انظر : «خطط المقريزي» من (١٠٠-١٠١/ ٣)، والأيوبيون والمماليك في مصر والشام، من (٢١٠- ٢١١) .

(٤) انظر : «الأيوبيون والمماليك في مصر والشام» (٢١٠ - ٢٩٣)، والإمام النووي وأثره في الحديث وعلومه ص (١٢ - ١٥)، لأحمد عبدالعزيز الحداد.

ب - الحالة الاجتماعية:

كانت الحياة الاجتماعية في مصر على عهد المماليك مليئة بالحركة والحيوية، وكانت القاهرة والمدن الكبرى تفيض بالنشاط، فقد عني السلاطين بتجميلها ونظافتها، وإنشاء كثير من المنشآت الاجتماعية فيها، كالضيافات، والخانات، والوكالات، والأسبلة، والحمّامات، وغيرها[1].

وكذلك امتازت الحياة الاجتماعية في مصر بكثرة الأعياد الدّينية والقومية، والمبالغة في إحياء تلك الأعياد. وكانت هناك احتفالات بجلوس السلطان، أو شفائه من مرض، أو خروجه من القاهرة وعودته إليها، أو زواجه. كما كانت هناك مجالس للسمر والغناء في المناسبات.

وقد أدى كثير مما ذكر إلى إنتشار أماكن الفساد في هذه البيئة، مما جعل السلطان يضطر أحيانًا إلى إبطالها، أو تعزير من يفعل ذلك[2].

وكان التفاوت الطبقي سائدًا في هذا العصر، حيث كان المجتمع منقسمًا إلى طبقات هي:

١ ـ طبقة المماليك والأمراء، وهي أعلى وأقوى طبقة في المجتمع، ويتمتعون بالجزء الأكبر من خيراته.

٢ ـ طبقة العلماء، وهم القضاة، والمدّرسون في المدارس والمساجد وغيرها، ولهم مكانة مرموقة لدى الشعب، وكلمة مسموعة لدى السلاطين.

٣ ـ طبقة التّجّار، والصّنّاع، وهم في يسر من العيش، وأحسن حالاً من غيرهم.

---

(١) الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، من (٣١٧ـ٣١٩).

(٢) المرجع السابق، و«عصر سلاطين المماليك»، من (٣٢٤ـ٣٢٦ / ٧)، «وبدر الدين وأثره في علم الحديث»، ص ٣٠.

٤ ـ طبقة الفلاّحين، والسّقّائين، وهم سواد الشّعب، وأدنى الطبقات. وكانوا يعيشون حياة أقرب إلى البؤس والحرمان(١).

ج - الحالة الدينية:

كانت مصر أوائل عصر المماليك لا يزال بها أثر التشيع على الرغم من الجهود التي بذلها صلاح الدين الأيوبي وخلفاؤه لتدعيم مذهب السّنّة عقب إسقاط الدّولة العبيدية (٢).

ولكن سلاطين المماليك اتبعوا سياسة واضحة للقضاء على تلك الآثار الشيعية، وهي أنهم حرّموا أيّ مذهب عدا المذاهب الأربعة، بحيث لا تقبل شهادة أحد، ولا يرشح لوظائف القضاء، أو الإمارة أو الخطابة، أو التدريس إلا إذا كان من أتباع أحد هذه المذاهب(٣). ولذلك غلب على علماء هذا العصر الانتماء إلى المذاهب الأربعة، فكان كل منهم يضيف إلى اسمه في النهاية كلمة: الشّافعيّ، أو الحنفيّ، أو المالكيّ، أو الحنبليّ. وكانت هذه النسبة لصيقة بالاسم لا تفارقه، بل صارت إحدى مميزاته(٤).

---

(١) انظر: «مقدمة وتحقيق» تغليق التعليق لابن حجر من (٣٤ـ٣٥/ ١)، وهي رسالة دكتوراه تقدم بها المحقق في كلية أصول الدين بجامعة الأزهر سنة (١٤٠٠ هـ)، ثم طبعها ونشرها المكتب الإسلامي، ببيروت سنة (١٤٠٥ هـ)، تحقيق: سعيد عبدالرحمن موسى القزقي.

(٢) نسبة إلى (عبيد عبيدالله بن القداح) الذين كانوا ملوكًا بالديار المصرية مائتي عام، إلى أن انقرضت دولتهم على يد صلاح الدين الأيوبي سنة (٥٦٧هـ)، وكانوا يقولون: «إنهم من أولاد فاطمة الزهراء ـ رضي الله عنها ـ، ولذلك عرفت دولتهم بالدولة الفاطمية. وأهل العلم بالنسب يقولون: ليس لهم نسب صحيح، وكانوا يظهرون التشيع، ويبطنون مذهب القرامطة الباطنية.

انظر: «مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ص(٥٠٨/ ٤)، والبداية والنهاية لابن كثير من ٢٦٦/ ١١، ومن (٢٧٦ـ٢٧١/ ١٢).

(٣) انظر: «الأيوبيون والمماليك في مصر والشام» ص (٣١٩ـ ٣٢٠).

(٤) انظر: «عصر سلاطين المماليك من (٤٧/ ٢)، و«بدر الدين العيني وأثره في علم الحديث» ص(٣٠) تأليف صلاح يوسف معتوق.

وكان المذهب الشّافعيّ هو المذهب الرّسميّ للدّولة، لأن المماليك كانوا شوافع تبعًا لأسيادهم الأيوبيين الذين عملوا على نشر هذا المذهب في البلاد، وقضوا به في الأحكام[1].

وعلى الرغم من أن المماليك قد طبّقوا في عهدهم نظام تعدّد القضاة، بحيث صار لكل مذهب من المذاهب الأربعة قاضيًا يحكم بأحكام المذهب، فإن السّلطان يعيّن قاضي قضاة شافعيًا، يكون هو أرفع القضاة منزلة، وأكثرهم اختصاصًا، وهو المقدم على زملائه، وأقربهم إلى السلطان مجلسًا[2].

وكذلك كان المذهب الأشعري في العقيدة[3] هو المذهب السائد والرسمي في

---

(١) انظر: «عصر سلاطين المماليك» ص (٥٥/ ٢).

(٢) انظر: المرجع نفسه ص (٦١، ٦٢/ ٢).

(٣) نسبه إلى الإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري (ت ٣٢٤ هـ)، وينتسب إلى الصحابي الجليل أبو موسى الأشعري - رضي الله عنه -.

وهذا المذهب المنسوب إليه في العقيدة إنما هو ما كان عليه في طوره الثاني، فإنه رحمه الله نشأ في أول أمره على مذهب المعتزلة، ثم رجع عن ذلك، وسلك مذهب الكلابية (نسبة إلى أبي محمد عبدالله ابن سعيد بن كلاب البصري)، وهو مذهب يميل إلى مذهب أهل الحديث والسنة، ولكن فيه نوع من البدعة لأنه وإن أثبت قيام الصفات بذات الله تعالى إلا أنه لم يثبت قيام الأمور الاختيارية. ويمثل هذا الطور لأبي الحسن الأشعري كتابة «اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع».

كما في كتابه «مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين» من (٣٤٥ - ٣٥٠/ ١)، وألف فيه كتابه «الإبانة على أصول الديانة» ولكن مذهبه الذين كان عليه في الطور الثاني هو الذي انتشر عنه لأنه قد انتسب إليه في هذا الطور خلق كثير غالبهم من فقهاء الشافعية، وأصبح لهذا المذهب أئمة وأنصار، ووضعت فيه مؤلفات كثيرة بدعوى أنه مذهب أهل السنة والجماعة، وقد علمت أنه مذهب الكلابية وأنا أبا الحسن قد رجع عنه، فلا يبقى لنسبته إليه أي معنى، والله الهادي إلى سواء السبيل.

انظر كتاب: «شعبة العقيدة بين أبي الحسن الأشعري والمنتسبين إليه في العقيدة» للشيخ أبي زكريا خليل الموصلي من (١٧ - ٥٥). =

عصر المماليك، ويرجع انتشار العقيدة الأشعرية في مصر إلىٰ أيّام صلاح الدين الأيوبي، فإنّه ـ رحمه الله ـ كان قد نشأ علىٰ هذه العقيدة، وحفظ في صباه بعض الكتب منها، فصار هو أيضًا يحفظّها صغار أولاده، ولم يكونوا يعرفون غيرها؛ فلذلك عقدوا الخناصر، وشدّوا البنان على المذهب الأشعري، وحملوا الناس عليه أيام دولتهم[١]، واستمر الوضع علىٰ ذلك أيّام مواليهم سلاطين المماليك[٢].

وكما كان غير المذاهب الأربعة في الفقه محظوراً في هذا العصر، كذلك كان غير المذهب الأشعري في العقيدة محظوراً، وكان الذي يتكلم في عقيدة الأسماء والصفات علىٰ منهج السلّف يعتبر ـ عندهم ـ مخالفًا لعقيدة أهل السنة[٣] ويؤذىٰ بسببه.

ومن أهم الظواهر التي اتصفت بها الحياة الدينية في عصر سلاطين المماليك انتشار التصوف[٤]، وتقديس الأشياخ، والاعتقاد فيهم، فقد آمن الشعب بالصوفية إيمانًا

= وكتاب «العقيدة الإسلامية وتاريخها» للشيخ الدكتور محمد أمان لجامي، من (٤٥ ـ ٤٧) ط١ .

(١) انظر: «خطط المقريزي» ص (٣٠٦/ ٣) .

(٢) انظر: المصدر السابق ص٣٠٦/ ٣.

(٣) كانت العقيدة الأشعرية تعتبر ـ كما سبق ـ هي عقيدة أهل السنة، وهذا بلا ريب غلط، لأن عقيدة أهل السنة هي ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته ـ رضي الله عنهم ـ والتابعون لهم بإحسان إلىٰ يوم الدين، والعقيدة الأشعرية تخالف ذلك في بعض المسائل، كما ستأتي الإشارة إلىٰ شيء من ذلك أثناء هذا البحث .

(٤) التصوف: تفعّل من الصوفية، والصوفية، طائفة مبتدعة، اخترعت لأنفسها منهجًا في تربية النفس وتزكيتها لم يكن معروفًا في عهد الرسول ﷺ وأصحابه ـ رضي الله عنهم ـ. كانت بدعتهم في أول الأمر عملية فقط، وهي المبالغة في الزهد والتقشف، ومجاهدة الطباع برياضيات نفسيه متنوعة، ثم تطورت من البدع العملية إلىٰ بدع قولية واعتقادية خطيرة، وذلك بعد أن دخلتها عناصر خارجية، وانتسب إليها منحرفة، وأفكار فلسفات أغريقية، وخرافات وشركيات أمم مختلفة، وانقسمت =

راسخًا، وقصدوهم لمشاركتهم في أورادهم، أو لقضاء حوائجهم، أو طلب النذور عند قبورهم. ولم يكن هناك إلا فئة قليلة من العلماء تنكر هذه الظواهر دون أن يكون لهم تأثيرًا إلا ما ندر بل يكونون على خطر بسبب هذا الإنكار.

ومما اشتهر به عصر سلاطين المماليك كثرة الموالد التي تُحتفل بها، فهناك مولد للنبي ﷺ، ومولد بعض آل البيت النّبويّ، ولبعض الأولياء ذوي الأضرحة الشهيرة في البلاد. وكانت هذه الموالد ملقى اهتمامًا ومراعاة من الملوك والسّوقة على حدّ سواء، مع ما تشمل عليه من الفساد والمنكرات[1].

ومما يُلفت النّظر أيضًا في هذا العصر أن «صحيح البخاري» الذي يعتبر أهم مصدر للإسلام بعد كتاب الله تعالى، كان حظه أن يتبرك بقراءته في المناسبات، أو يتوسل به عند وقوع الكوارث[2]، أما ما وراء ذلك من الأخذ بما في هذا الكتاب

=الصوفية إلى فرق ومذاهب تتفق وتختلف في الأصول والفروع، ولذلك عسر أن يوجد لهم تعريف جامع، كما عسر أن يعرف حقيقة نسبتهم (الصوفية)، وإن كان أقرب الأقوال أنها نسبة إلى «لبس الصوف».

وعلى كل فإنّ الصوفية قد جنت على الإسلام جنايات كبيرة، وتركت على المسلمين آثارًا سلبية كثيرة.

انظر: «تلبيس إبليس» لأبي الفرج عبدالرحمن بن الجوزي من (١٦٠ـ١٦٩)، تحقيق: محمد علي أبو العباس. ومجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية، من (٥ـ٢٠/ ١١).

وتقديس الأشخاص في الفكر الصوفي ص (٤٠ـ٤٤/ ١)، تأليف محمد أحمد نوح.

(١) انظر: أنباء الغمر بأنباء العمر، ص (٣٥٧/ ١)، وعصر سلاطين المماليك من (٣٤٣ـ٣٤٤/ ٢).

(٢) انظر: «المرجعين السابقين الأول: من (٣٥٣ـ٣٥٤/ ١)، والثاني من (٣٣/ ٧) ولا شك أن هذه البدع التي شاعت في ذلك العصر.

الصحيح عقيدة وعملاً فهو ما لا يكاد يوجد . وبهذا كله يُعلم أن الحالة الدينية في هذا العصر كانت سيئة ؛ وبعيدة عن هدي الكتاب والسنّة ومنهج السلف الصالح إلا ما ندر . والله تعالى المستعان .

د - الحالة العلمية والثقافية :

لقد شهدت مصر والشام في عهد سلاطين المماليك نشاطًا علميًا فريدًا في كميته ونوعيته[1]، ويرجع السبب في ذلك إلى عدّة عوامل خارجية داخلية .

أما العوامل الخارجية ، فأهمها سقوط بغداد ، حيث اتجهت الأنظار بعد ذلك إلى مصر والشام ، ولاذ إليها من نجا من العلماء والأدباء .

وكذلك سقوط أجزاء كثيرة من الأندلس في أيدي الأسبان ، فهاجر منها كثير من العلماء إلى مصر ، وبهذا انتقل النّشاط العلمّي من العراق والأندلس إلى مصر ، فأصبحت القاهرة تتبوأ مركز القيادة في كلّ شيء حتى في مختلف العلوم ، وصنوف المعارف ، زهاء ثلاثة القرون التي عاشت فيها دولة المماليك[2] .

وأما العوامل الداخلية فأهمها :

١ ـ ما شعر به العلماء من عظم المسئولية التي تحتّم عليهم تعويض الخسارة الكبرى التي لحقت بالمكتبة الإسلامية من جراء غزوا التّتار ، فقاموا بالتدوين والتأليف ، وتنافسوا في ذلك تنافسًا شديدًا كان له أثره الفعال في قيام تلك الحركة العلمية النّاهضة[3] .

---

(١) انظر : الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ، ص (٣٢١) . والقسم الدراسي لكتاب «شرح علل الترمذي» ، لابن رجب الحنبلي ، ص (٢٣/ ١) .

(٢) انظر : «عصر سلاطين المماليك» ص (٩ ـ ١٣/ ٣) ، والمقدمة الدراسية لكتاب تغليق التعليق ، ص (٣/ ١) .

(٣) انظر الإمام النووي وأثره في الحديث وعلومه لعبدالعزيز الحداد ، ص (١٥) .

٢ ـ ما أبداه السلاطين والأمراء من رعاية واضحة للعلم وأهله تمّثلت في الأمور التالية :

أ ـ تعظيم أهل العلم، وتقديمهم في مسائل كثيرة، واستشارتهم في أمور الدولة.

ب ـ إنشاء دور التعليم ونظامها، ورصد الأوقاف عليها، وتزويدها بمساكن لإيواء شيوخها وطلاّبها .

ج ـ إنشاء دور الكتب، وتزويدها بالمراجع المهمة التي تعين المدرّسين، وطلاب العلم في تحصيلهم العلميّ [١].

وقد نتج عن هذا النشاط العلمّي في عصر سلاطين المماليك نبوغ عدد كبير من العلماء في كلّ فنّ من فنون العلم والمعرفة، فازدان العصر بكبار العلماء، حتى غدا من الصعب جدًا حصر مشاهير علماء هذا العصر، وحسب القارئ أن ينظر في واحد من كتب التراجم لذلك العصر، ليقف مبهوراً أمام تلك الكثرة الكاثرة من أساطين العلم والمعرفة [٢].

كما نتج عن هذا النشاط العلمي كثرة المؤلفات الموسوعية في كل المجالات العلّمية من تفسير، وحديث، وفقه، وأدب، وتاريخ، وجغرافيا، وفلك، وفلاحة، ومعارف عامة [٣].

« ومن يستعرض بعض هذه الموسوعات ير أنّها عنوان تحدّ كبير من هذه الأمة لأعدائها، وردّ فعل للمحاولات التي بذلها المغول والصليبيون لطمس الحضارة الإسلامية. والباحث في هذه الموسوعات يخيل إليه كأن العلوم قد نُسيت فوقف أهل هذا العصر أنفسهم على جمعها، وتبويبها، وعرضها من جديد، وتحمل هذه

---

(١) انظر : «عصر سلاطين المماليك»، ص (٢٠ ـ ٧٠/ ٣) .

(٢) انظر : الإمام النووي وأثره في الحديث وعلومه، ص (١٥) .

(٣) انظر : المرجع السابق، ص (١٥) .

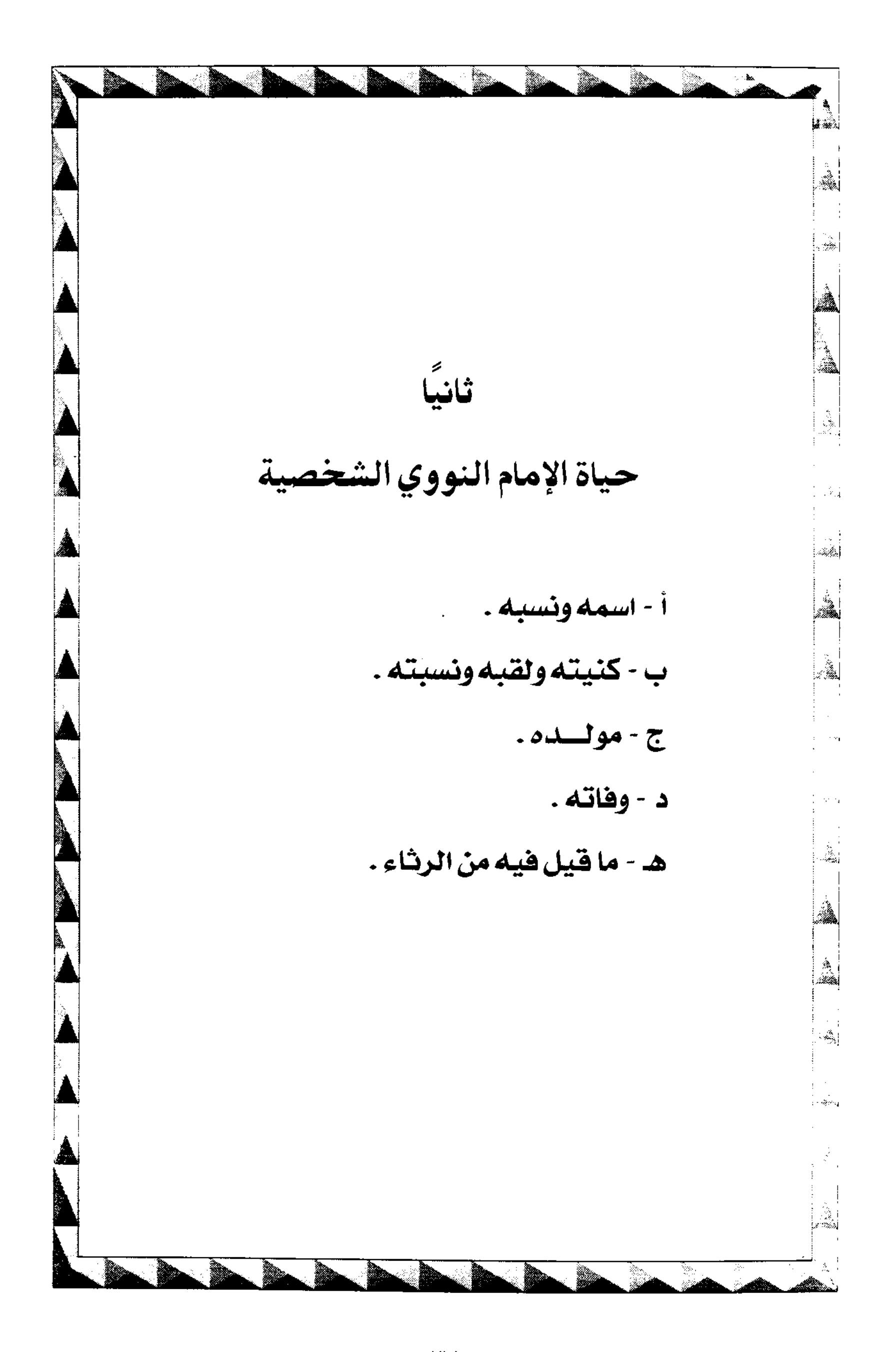
الموسوعات بين طياتها الثقافة المتكاملة التي حفظت شخصية الأمة أمام أشرس الهجمات»[1].

ولا شك أنّ هذا التراث الضخم الذي خلفه أولئك العلماء الأفذاذ يحتاج منا ـ نحن أهل هذا العصر الحاضر ـ إلى خدمة جليلة بما أوتينا من إمكانات مادية ومعنويّة، محافظة عليه، وتيسيراً للإفادة منه .

والله تعالى ولي التوفيق

---

(١) القسم الدراسي لكتاب «شرح علل الترمذي»، لابن رجب، الحنبلي، تحقيق الدكتور همام عبدالرحيم، ص (١/٢٣٣) .



ثانيًا

حياة الإمام النووي الشخصية

أ - اسمه ونسبه .

ب - كنيته ولقبه ونسبته .

ج - مولـــده .

د - وفاته .

هـ - ما قيل فيه من الرثاء .

أ - اسمه ونسبه :

هو يحيى بن شرف بن مرابن حسن بن حسين بن محمد بن جمعة بن حزام[1]، وقد اختلف المؤرخون في اسم جده الأول، فأكثرهم جعلوا اسمه (مُرّي)، وهذا هو الراجح. بدليل أن الإمام السيوطي قال في كتابه «المنهاج السوي في ترجمة الإمام النووي» قال في ترجمته: «بضم الميم وكسر الراء كما رأيته مضبوطًا بخطّه»[2].

وما كتبه هو بخطه يكون هو الراجح، أما تسمية المؤرخين له «مرأ» أو «مري» فلعل ذلك جاء على سبيل التخفيف، وقلد بعضهم بعضًا في هذا ولا إشكال في القضية فيما يظهر.

ب - كنيته ولقبه ونسبته :

١ – كنيته :

كنيته - رحمه الله - أبو زكريا [3].

٢ – لقبه :

لقد لقب النووي - رحمه الله - بألقاب كثيرة من أشهرها لقب (محيي الدين) وهذا اللقب يطلقه عليه جمهور مترجميه ولكنه كان يكره هذا اللقب[4].

---

(١) وكان بعض أجداده يزعم أنها نسبة إلى والد الصحابي الجليل حكيم بن حزام رضي الله عنه، لكن أنكر هذا النووي - رحمه الله - وقال: إنّه غلط، وإنّما حزام المذكور رجل من العرب الذين كانوا يرتادون موضع الخصب والكلاء نزل بأرض نوى فأقام بها ورزقه الله ذرية إلى أن صار منهم عدد كثير. السخاوي، ص (٣٥).

(٢) ص (٣٨).

(٣) هذه كنية له، ولا زكريا له، لأنه لم يتزوج.

(٤) انظر: المرجع السابق في ترجمته ص٤.

ويلقب أيضًا (بالإمام) وهذا مما لا خلاف فيه بين من ترجم له، كما يلقب (بالحافظ) و(شيخ الإسلام) و(الشيخ) و(ولي الله) و(إمام الأئمة الأعلام) و(قطب الأولياء الكرام) و(نادرة الزهاد الوافر) و(المجتهد في الصيام والقيام) و(والقائم بخدمة الملك العلام) و(الزاهد الورع) و(شيخ المذهب) وغير ذلك .

٣ - نسبته :

ينسب الإمام - رحمه الله - إلىٰ جده المذكور (حزام)[١] - بالحاء المهملة والزاي - يقال له «الحزامي»، وحزام جده نزل في الجولان بقرية «نوىٰ» علىٰ عادة العرب فأقام بها . كما ينسب إلىٰ «نوىٰ» المذكورة فيقال «النووي وهي بحذف الألف بين الواوين علىٰ الأمثل ويجوز كتبها بالألف علىٰ العادة، وهي قاعدة الجولان الآن من أرض حوران من أعمال دمشق، فهو دمشقي[٢] لأنه أقام بها نحواً من ثمانية وعشرين عاما[٣] .

وينسب إلىٰ الشافعي نسبة مذهب لكونه اعتنق مذهبه، وخدمه خدمة أغنت

---

(١) قال ابن العطار ذكر لي الشيخ - قدس الله روحه - أن بعض أجداده كله يزعم أنها نسبة إلىٰ حزام أبي حكيم الصحابي - رضي الله عنه -، قال: وهو غلط .

انظر: تحفة الطالبين ص٣٩، والمنهل العذب الروي للسخاوي ص٣٠، والسيوطي في المنهاج السوي ص١٠٩، والسخاوي السيوطي نقلا هذا عن ابن العطار .

(٢) راجع البداية والنهاية، ص (٢٧٨/ ١٣)، وتذكرة الحفاظ، ص (١٤٧/ ٤)، وشذرات الذهب، ص (٣٥٤/ ٥) .

(٣) وقال ابن العطار: «وقد قال عبدالله بن المبارك، من أقام في بلدة أربع سنين ينسب إليها» رواه عن عبدالله بن المبارك الحاكم في «تاريخ نيسابور» كما قال الإمام النووي في الإرشاد، ص(٢٤٩)، للنووي تحقيق الدكتور نور الدين عتر ، وتهذيب الأسماء واللغات ١٤/ ١ .

ورد عليه البلقيني في محاسن الإصطلاح ص ٦٠٧ قائلاً وهذا قول ساقط لا يقوم عليه دليل .

أولي الراغبات من التطلع إلى الزيادات، حيث نظر في كتب الشافعي فحررها ونقّحها بما يتقضيه الدليل الذي أوصى الشافعي رحمه الله متبعيه بالتقيد به عند صحته[١] وسوف نتعرض لشرح هذا عند بحث مذهبه الفقهي. والله أعلم.

ج - مولــده:

اتفق المؤرخون على تاريخ ولادة الإمام - رحمه الله - فذهب معظمهم إلى أنه ولد سنة إحدى وثلاثين وستة مئة[٢].

د - وفاتــه:

عاش العلامة الإمام النووي - رحمه الله - خمسة وأربعين عامًا قضى معظمها في التعليم والتعلم والتأليف والتدريس والدعوة إلى الله عز وجل.

وقد اتفقت المصادر عن أن الإمام توفي ليلة الأربعاء، الرابع والعشرين من رجب، سنة ست وسبعين وستة مئة[٣] بنوى ودفن بها، صبيحة الليلة المذكور[٤] - رحمه الله - رحمة واسعة وأجزل مثوبته واسكنه فسيح جناته.

---

(١) انظر مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة للسيوطي، ص (٥١-٥٢).

(٢) انظر: النجوم الزاهرة، ص (٢٧٨/ ٧)، وطبقات الشافعية الكبرى، ص (١٦٦/ ٥)، وتذكرة الحفاظ، ص (١٤٧/ ٤)، وطبقات الحفاظ (٥١)، وشذرات الذهب، ص (٣٥٤/ ٥)، وفوات الوفيات ٢٦٤/ ٤.

(٣) وقد شذ النعيمي في كتابه «الدارس في تاريخ المدارس» ص (٢٠/ ١)، وعمر كحالة في معجم المؤلفين، ص (٢٠٢/ ١٣)، يذكر أن الشيخ النووي توفي سنة ٦٧٧هـ، وضبطه النعيمي بقوله «سنة سبع وسبعين وست مئة» بتقديم السين فيهما.

(٤) انظر تفصيل وفاته في تحفة الطالبين لابن العطار، ص ٩٧-١٠٠.

وقد نقلها عنه الذهبي في تاريخ الإسلام، ص (٥٧٩)، والسخاوي في المنهل، ص١٨٣-١٨٤، والسيوطي في المنهاج، ص (٨٦-٨٩).

هـ - ما قيل فيه من الرثاء:

إن غياب الإمام عن هذه الحياة والانقطاع عنها بالممات، له أثر في الأنفس الزكيات والأفئدة المحبة له، فسيترك فيها أبلغ الوجد عليه وأشد الحنان إليه، وذلك ما حدث فعلاً، فما أن بلغ دمشق خبر موته حتىٰ ارتجت وما حولها بالبكاء عليه، وصُلّي عليه هناك صلاة الغائب، وتأسف المسلمون عليه أسفًا شديدًا الخاص منهم والعام، والمادح والذام، وأحيوا ليالي كثيرة لسننه ورثاه أكثر شعراء وقته بأكثر من ستمائة بيت كما قاله الذهبي ونقله السخاوي[1]. منهم تلميذه أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن مصعب[2] بقصيدة رائعة قال فيها:

أأكتم حــزني والمدامــع تبديــه	لفقد امــرئ كلَّ البريــة تبكيــه
رأى الناس منه زهد يحــيى سَمِيَّه	وتقواه فيما كان يُـبـدي ويخفـيه
ولم يرض بالدنيا ولا مال لحظــة	إلى عيشها فالله لا شـك يرضيــه
تحلى بأوصاف النبــي وصحبــه	وأتباعه هـديًا فمــن ذا يدانيــه
حديث رسول الله والفقـه دأبــه	يضيفه في هذا وهــذاك يرويــه
يرى الموت يحيــى في إماتة بدعة	وكم سـنة أحيا بحسن مساعيــه
شكا فقــده علم الحديث وحفظه	وأهلــوه والكتب الصحاح وقاريه
إذا عدم الإسلام أشــرافه أهلــه	فلا غــرو أنا في المصاب نعزيه[3]

ومنهم أبو الفضل يوسف بن محمد بن عبدالله الكاتب[4] قارئ دار الحديث في

---

(١) السخاوي، ص (١٨٤ ـ ١٨٥).

(٢) انظر: ترجمته في الوافي بالوفيات، ص (٦/٢١١).

(٣) المنهاج السوي ٩٤.

(٤) انظر: ترجمته في فوات الوفيات ص ٢/٣٢٥، والدر الكامنة ٥/٢٤٥.

قصيدة له يرثي بها أشيخاه فذكر ابن الصلاح والسخاوي وأبا شامة وغيرهم ثم قال :

وكذاك محيي الدين فاق بزهده ... وبفقه الفقهاء مع الزهاد
القانت الأواب والحبر الذي ... نصر الشريعة دائمًا بجهاد
تبكيه دار للحديث وأهلها ... لخلوها من فضله المعتاد
لم يبق بعدك للصحيح معرف ... قد كنت فيه جهبذ النقاد
من ذا يبين مسندًا من مرسل ... أو من حديث عد في الأفراد
أو كان مقطوعًا ضعيفًا معضلاً ... أو كان موضوعًا لذي إلحاد
أو من يبين منكرًا في متنه ... أو من يعرف علة الإسناد
من ذا لدفع المنكرات وقد غدت ... بين الأنام كثيرة الترداد
ونصرت دين الله وحدك جاهدًا ... ودفعت عنه شبهة المراد[1]

ومنهم العلامة شيخ الأدب أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عمر بن شاكر الحنفي الأربلي في قصيدة رائعة . قال فيها :

عز العزاء وعمّ الحادث الجلل ... وخاب بالموت في تعميرك الأمل
واستوحشت بعد ما كنت الأنيس بها ... وساءها فقدك الأسحار والأصل[1]
أسلى قواك عن قوم مضوا بدلاً ... وعن قوامك لا مثل ولا بدل
بمثل فقدك ترتاع العقول به ... وفقد مثملك جرح ليس يندمل

---

(١) المنهاج السوي ٩٦ .

(٢) الأصل جمع الأصيل وهو بعد العشي ، وجمعه أيضًا آصال وأصايل ، مجمل اللغة ١/ ٩٧ ، لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا اللغوي .

وكنت تتلوا كتاب الله معتبرًا — لا يعتريك على تكراره ملل

قد كنت للدين نورًا يستضاء به — مسدد منك فيه القول والعمل

وكنت في سنة المختار مجتهدًا — وأنت باليمن والتوفيق مشتمل

وكنت زينًا لأهل العلم مفتخرًا — على جديد كساهم ثوبك السمل[1]

زهدت في باطل الدنيا وزخرفها — عزمًا وحزمًا فمضروب بك المثل

أعرضت عنها احتقارًا غير محتفل — وأنت بالسعي في أخراك محتفل

عزفت في شهوات ما لعزم فتى — بها سواك إذا عنت له قبل

أسهرت في العلم عينًا لم تذق سنة — إلا وأنت به في الحكم مشتغل

ترى دري تربه من غيبوه به — أو نعشه من على أعواده حملوا ؟

يا محيي الدين كم غادرت من كبدٍ — حرى عليك وعين دمعها هطل

وكم مقام كحد السيف لا جلد — يقوي على هوله فيه ولا جدل

أمرت فيه بأمر الله منتضيًا — سيفًا من العزم لم يصنع له خلل

وكم تواضعت عن فضل وعن شرف — وهمة هامة الجوزاء تنتعل[2]

فجعت بالأمس ليلاً كنت ساهره — لله والنوم قد خيطت به المقل[3]

رجاك نور نهار كنت صايمه — إذا الهجير[4] بنار الشمس تشتعل

يا لاهيًا لاهيًا عن هول مصرعه — وضاحك السن منه يضحك الأجل

---

(١) السمل، الثوب الخلق. مجمل اللغة ٢/ ٤٧٤ .

(٢) الهامة : الرأس، والجوزاء اسم نجم سمي بذلك لأنه يعترض في جوز السماء أي وسطها. مجمل اللغة ٤/ ٨٩٧، ١/ ٢٠٢ .

(٣) المقلة، العين . وهي ناظرها، وجمعها مقل، مجمل اللغة ٣/ ٨٣٦ .

(٤) الهجير والهاجرة، نصف النهار عند اشتداد الحر، مجمل اللغة ٣/ ٨٩٩ .

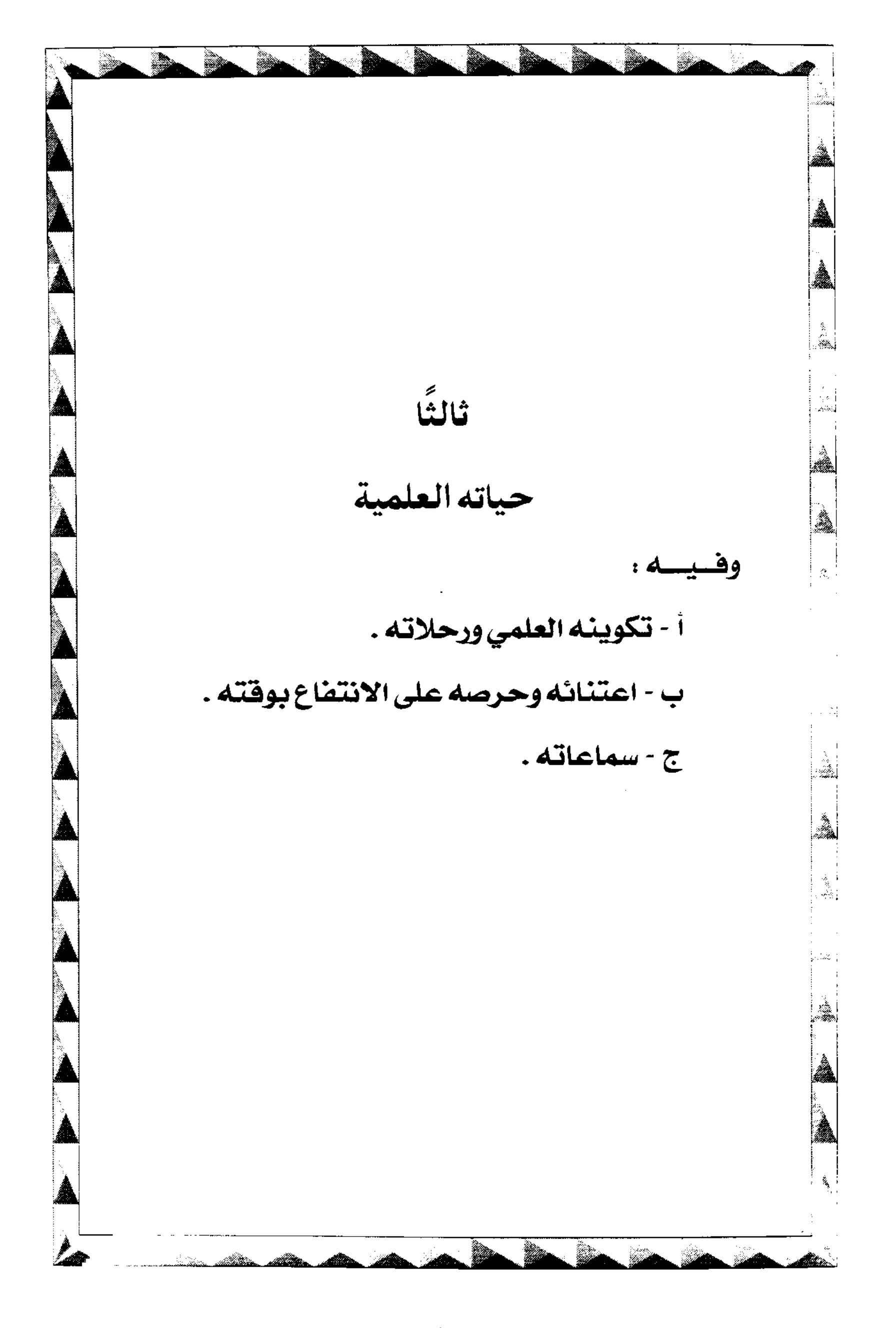
لا تخل نفسك من زادٍ فإنّـــــك من حين الـــولاد مع الأنفـاس مرتحـــل

وما مقـــام يديم الـــسير يتبعـــه إلى محــــل تـــلاه سائق عجــل(1)

* * *

(1) المنهاج السوي ٩٠ .

وانظر ما قيل في رثاه أيضًا في كتب ترجمته السابقة .



ثالثًا

حياته العلمية

وفيــه :

أ - تكوينه العلمي ورحلاته .

ب - اعتنائه وحرصه على الانتفاع بوقته .

ج - سماعاته .

أ - تكوينه العلمي :

لقد كان الإمام - رحمه الله - شغوفًا بحب العلم، وبالأخص تعلم كتاب الله وحفظه، حتى أنه كان «وهو ابن عشر سنين، والصبيان يكرهونه على اللعب، وهو يهرب منهم، ويبكي لإكراههم، ويقرأ القرآن في تلك الحال»[1]، وكان يعمل مع أبيه في دكان له، فجعل لا يشتغل بالبيع والشراء عن القرآن .

وقد ذكر ابن العطار أن الشيخ ياسين بن يوسف المراكشي[2] قال : «فأتيت الذي يقرئه القرآن، فوصيته، قلت له : هذا الصبي يرجى أن يكون أعلم أهل زمانه، وأزهدهم، وينتفع الناس به .

فقال لي ! أمنجم أنت ؟

فقلت : لا وإنما انطقني الله بذلك . فذكر ذلك لوالده، فحرص عليه، إلى أن ختم القرآن وقد ناهز الاحتلام [3] .

---

(١) تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محي الدين ص ٤٣ .

(٢) هو ياسين بن عبدالله، المقرئ، الهجام، الأسود، الصالح، كان له دكان بظاهر باب الجابية، وكان صاحب كرامات، وقد حج أكثر من عشرين مرة، وبلغ الثمانين، اتفق أنه سنة نيف وأربعين مرَّ بقرية (نوى)، فرأى الشيخ محي الدين النووي وهو صبي، فتفرس فيه النجابة، واجتمع بأبيه الحاج شرف . ووصاه به، وحرصه على حفظ القرآن والعلم، فكان الشيخ فيما بعد يخرج إليه، ويتأدب معه، ويزوره ويستشيره في أموره، توفي في ثالث ربيع الأول سنة سبع وثمانين وست مئة، ودفن بمقبرة باب شرقي - رحمه الله - . انظر ترجمته في البداية والنهاية، ص (١٢/ ٣١٢)، وشذرات الذهب (٥/ ٤٠٣) .

(٣) انظر تحفة الطالبين، ص (٢٤)، وقد نقل عنه هذه الفقرة الذهبي في تاريخ الإسلام، ص (٥٧٤)، والسخاوي في ترجمة الإمام النووي، ٣٧ .
والسيوطي في المنهاج السوي، ص (٤٣)، والسبكي في طبقات الشافعية الكبرى، ص (٥/ ١٦٦)، واليونيني في «ذيل مرآة الزمان»، ص (٣/ ٢٨)، والإمام النووي للشيخ عبدالغني الدقر، ص٢١، وعقب عليها .

وقد تم تكوينه العلمي في دمشق[1]، حيث سكن بالمدرسة الرواحية[2]، وبقي فيها نحو سنتين. فحفظ كتاب التنبيه[3]، وربع العبادات من المهذب[4].

ثم أقبل يشرح ويصحح على شيخه الإمام العالم الزاهد أبي إبراهيم اسحاق بن أحمد بن عثمان المغربي الشافعي[5] رحمه الله ولازمه.

ثم أقبل على دراسة الحديث شرحًا وتصحيحًا، فدرس «الوسيط»، والمهذب ودروسًا في الجمع بين الصحيحين. ودروسًا في صحيح مسلم، ودروسًا في اللمع لابن جني في النحو. ودروس إصلاح المنطق لابن السكيت في اللغة، ودروس في

---

(١) لم تسعفنا كتب التراجم عن رسم صورة تفصيلية عن حياته قبل بلوغ هذا السنة، إلا شذرات تدل على أنه كان منصرفًا إلى إعانة أبيه في دكانه. والذي يبدو أن الشيخ النووي بالإضافة إلى هذا كان يتلقى قليلا من العلم على شيوخ نوى.

انظر الإمام النووي وجهوده في التفسير من ٢٩ شهادة العمري. والإمام النووي وأثره في في الفقه الإسلامي ص٣٩. والإمام النووي للطنطاوي ص(٨)، والإمام النووي. ص(٢١) لعبدالغني الدقر.

(٢) المدرسة الرواحية، شرقي مسجد ابن عروة بالجامع الأموي ولصيقه، ودرس بها ابن الصلاح. وابن البارزي. وابن الزملكاني، وأبناء السبكي، وغيرهم. وقد أنشئت هذه المدرسة نحو سنة (٦هـ)، وأصبحت الآن دار سكن.

انظر: خطط الشام ص (٧٦/ ٦) لمحمد كرد علي، والدارس في تاريخ المدارس ص(١٩٩/ ١)، ومنادمة الأطلال ص (١٠٠).

(٣) هو أحد الكتب الخمسة المشهور بين الشافعية، وأكثرها تداولاً، ومؤلفه: أبو إسحاق الشيرازي.
انظر تعريفًا جامعًا له وشروحه، ومختصراته، ومنظوماته في كتاب الأستاذ محمد عقله الإبراهيم للشيخ أبو إسحاق الشيرازي وأثره في الفقه ص١٣٢ ـ ١٤٧/ ١.

(٤) أشهر كتب الشافعية في فروع المذهب وتفصيلاته، يمتاز بالتبويب المتقن، ألفه الشيخ أبوإسحاق الشيرازي. انظر في مدحه وشروحه كتاب الأستاذ الدكتور محمد عقله «أبو إسحاق الشيرازي وأثره في الفقه» ص١٢٤ ـ ١٣٢/ ١

(٥) هو أول شيوخه. كما صرح بذلك، وستأتي ترجمته.

التصريف، وأصول الفقه، تارة في اللمع لأبي اسحاق، وتارة في المنتخب، لفخر الدين الرازي، ودروس في أسماء الرجال ودروسًا في أصول الدين(١).

وكانت دراسته كما ذكرت ـ سابقًا ـ لهذه الدروس شرحًا وتصحيحًا فكان ـ رحمه الله ـ يعلق جميع ما يتعلق به من شرح مشكل، ووضح عبارة، وضبط لغة (٢).

وقد شرع الإمام ـ رحمه الله ـ بالاشتغال بعلم الطب، فاشترىٰ كتاب القانون فيه، فقال ـ رحمه الله ـ : (وعزمت عليها الاشتغال فيه، فأظلم عليّ قلبي، وبقيت أيامًا لا أقدر علىٰ الأشتغال بشيء، ففكرت في أمري ومن أين دخل عليّ الداخل؟ فألهمني الله تعالىٰ أن سببه اشتغالي بالطب، فبعت في الحال الكتاب المذكور، وأخرجت من بيتي كل ما يتعلق بعلم الطب، فاستنار قلبي، ورجع إليّ حالي، وعدت إلىٰ ما كنت عليه أولًا) (٣).

وذلك لأن هذا القلب المتليء نورًا وإيمانًا، المفعم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ لا ينبغي له أن يعي من غير جنس ما قد أودع فيه، ولما كان القانون لابن سيناء وهو مطعون عليه(٤) في دينه، كان لا شك محشيًا بفلسفة اليونان يرىٰ النووي وغيره

---

(١) انظر: تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين ص (٤٦ ـ ٥٠)، ونقلها عنه الذهبي في تاريخ الإسلام ص (٥٧٥)، وتذكرة الحفاظ ص (١٤٧/ ١٤)، والسخاوي في ترجمة الإمام النووي ص (٤٢)، والسيوطي في المنهاج السوي ص (٤٥)، وابن العماد في شذرات الذهب ص (٣٥٥/ ٥) وجميع المعاصرين الذين ترجموا له .

(٢) انظر: تحفة الطالبين ص (٥١).

(٣) انظر: تعليق السخاوي في ترجمة الإمام النووي ص (٤٢ ـ ٤٣)، علىٰ هذا الحادثة والجواب علىٰ: كيف يقول الإمام النووي هذا؟ وقال: قال حرملة بن يحيىٰ: «إن الشافعي يتلهف علىٰ ما ضيع المسلمون من الطب، ويقول «ضيعوا ثلث العلم»، ووكلوه إلىٰ اليهود والنصارىٰ !!

(٤) قال ابن القيم الجوزية: كان ابن سينا كما أخبر عن نفسه هو وأبوه من أهل دعوة الحاكم من القرامطة الباطنيين.

وقال ابن تيمية: تكلم ابن سينا في أشياء من الإلهيات والنبويات والمعاد والشرائع لم يتكلم =

تحريمها، ولا شك أن النظر في كتب الفلاسفة وغيرهم ممّن اتهموا في دينهم كابن سينا وغيره يطفئ نور القلب لأنها مشوبة بالكفريات، وكلامهم مغشي بالظلمات، ولعله رحمه الله لم يكن مستشعرًا ما تتضمنه كتب الطب ممّا هو مخالف للشرع الحنيف لأنه لم يكن يقصد إلاّ معرفة علم الطب فحسب، غير أن الله تعالىٰ طهره مما يثلم عرضه أو يشوش فكره، وكأني بالشاعر العربي يقصده بقوله :

وإذا العناية لا حظتك عيونها فم فالمخاوف كلّهـــن أمان

ولذلك قال في الطبقات الكبرىٰ : (لا يخفىٰ علىٰ ذي بصيره أن لله تبارك وتعالىٰ عناية بالنووي وبمصنفاته)[1]، مع أن الشرع المطهرّ قد أبدلنا عن هذا الطب المشوب بالفلسفة المحرمة، الطب الخالص السائغ للشاربين ألا وهو الطب النبوي فَعلَّ منه الإمام النووي ونهل، ولتعرف له ذلك إرجع إلىٰ كلامه في شرح مسلم شرحًا لقوله ﷺ : « لكل داء دواء فإذا صيب دواء الداء برئ بإذن الله »[1]، فإنك ستجد طبيبًا حاذقًا وخبيرًا ماهرًا إن أمعنت النظر وأحظرت الفكر، طبًا نبويًا لا فلسفة محرمة .

ب – اعتنائه وحرصه على الانتفاع بوقته :

كان رحمه الله لا يضيع له وقتًا في ليل ولا نهار، إلا في وظيفة من الاشتغال بالعلم، حتىٰ في ذهابه في الطرق ومجيئه يشتغل في تكرار محفوظه، أو مطالعة، وأنه بقي علىٰ التحصيل علىٰ هذا الوجه نحو ست سنين .

= بها سلفه، ولا وصلت إليه عقولهم ولا بلغتها علومهم فإنه استفادها من المسلمين وإن كان إنما يأخذ من الملاحدة المنتسبين إلىٰ المسلمين كالإسماعيلية، وكان أهل بيته من أهل دعوتهم من أتباع الحاكم العبيدي الذي كان هو وأهل بيته معروفين بالإلحاد عند المسلمين، انظر الأعلام (٢٤١/ ٢) .

(١) وذكر كلامًا طويلاً استدل به علىٰ ذلك، انظر الطبقات الكبرىٰ، ص (١٦٦/ ٥)، ص (١٤١/ ١٤)

الحديث أخرجه مسلم بشرح النووي ص (١٥٩/ ١٤)، برقم (٦٩) .

ثم إنه اشتغل بالتصنيف، والإشغال[1]، والإفادة، والمناصحة للمسلمين وولاتهم، مع ما هو عليه من المجاهدة لنفسه، والعمل بدقائق الفقه، والاجتهاد على الخروج من خلاف العلماء وإن كان بعيداً، والمراقبة لأعمال القلوب وتصفيتها من الشوائب، يحاسب نفسه على الخطرة بعد الخطرة.

وكان محققًا في علمه وفنونه، مدققًا في علمه وكل شؤونه، حافظًا لحديث رسول الله ﷺ عارفًا بأنواعه كلها، من صحيحه وسقيمه وغريب ألفاظه وصحيح معانيه واستنباط فقهه، واختلاف العلماء، ووفاتهم واجتماعهم، وما اشتهر من ذلك جميعه، وما هُجر، سالكًا في كلها ذكر طريقة السلف، قد صرف أوقاته كلها في أنواع العلم والعمل، فبعضها للتصنيف، وبعضها للتعليم، وبعضها للصلاة، وبعضها للتلاوة، وبعضها للأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر)[2].

ج - سماعاته:

وذكر ابن العطار - رحمه الله تعالى - فصلاً في سماعاته وذكر من سماعاته صحيح البخاري، وصحيح مسلم وسنن أبي داد، والترمذي، والنسائي، وموطأ مالك، ومسند الشافعي، ومسند أحمد بن حنبل، وسنن الدارمي، ومسند أبي عوانة الإسفرايني، ومسند أبي يعلى الموصلي، وسنن ابن ماجة، وسنن الدارقطني، والبيهقي، وشرح السنة للبغوي، ومعالم التنزيل في التفسير له، وكتاب الأنساب للزبير بن بكار، والخطب النباتية، ورسالة القشيري، وعمل اليوم والليلة لابن السنيّ، وكتاب الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب.

قال ابن العطار: وأخرى كثيرة غير ذلك [3].

---

(١) الإشغال من الشغل وهو ضد الفراغ القاموس المحيط ١٠١٩

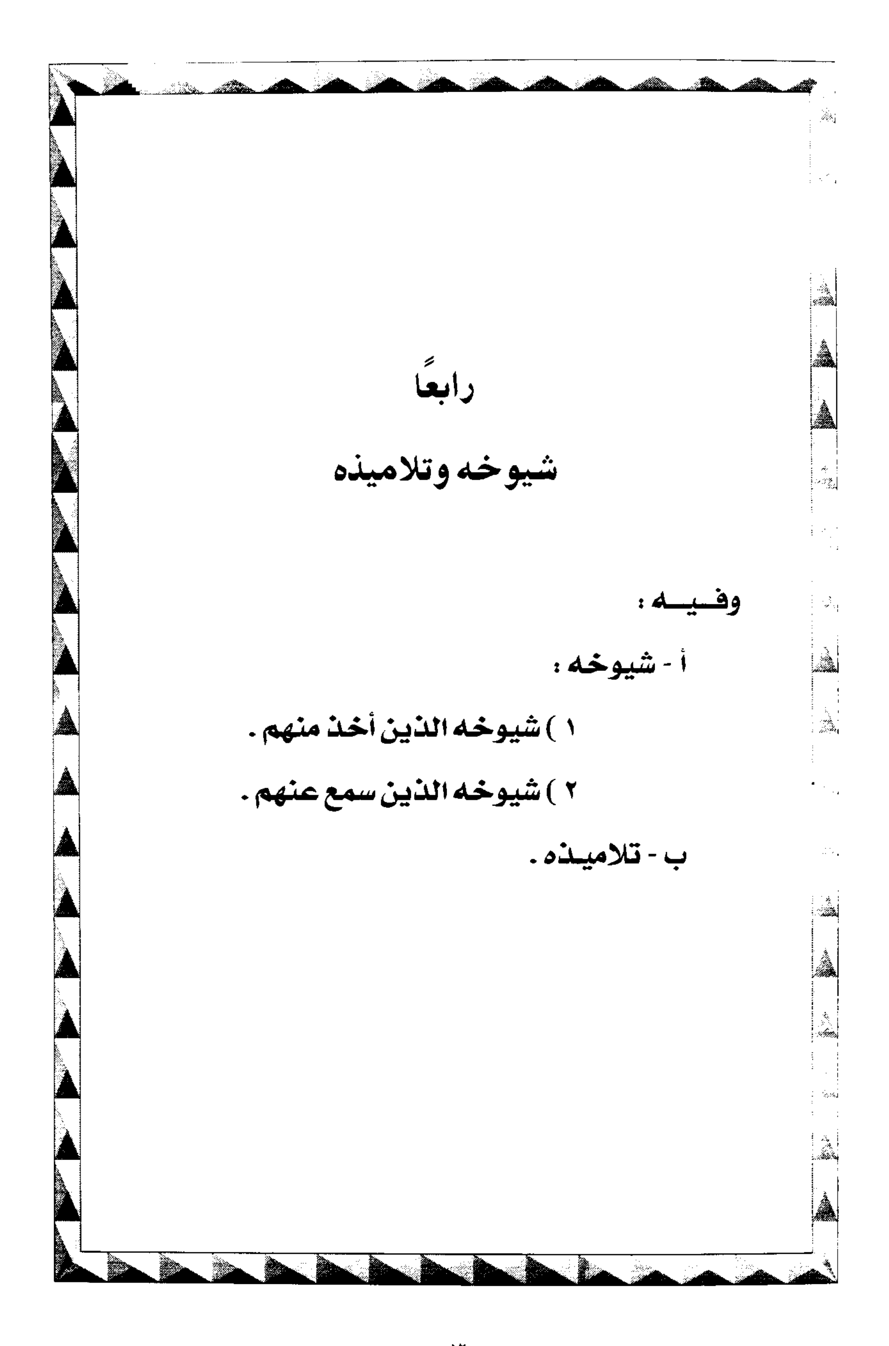
(٢) تحفة الطالبين ص (٦٨)، ونقله عنه الذهبي في تاريخ الإسلام ص (٥٧٦ - ٥٧٧)، والسخاوي في ترجمته ص (٥٤)، والسيوطي في المنهاج السوي ص (٥٢)، والذهبي في تذكرة الحفاظ ص (١٤٧٢/ ٤) وغيرهم.

(٣) تحفة الطالبين ص (٦٣).

فهذه نبذة من مسموعاته التي سمعها على أولئك المشايخ الأعلام، ولقد مرّ بك[1] أنه كان يقرأ في اليوم إثني عشر درسًا في مختلف الفنون، وكل هذا يدل على مبلغ اجتهاده في التحصيل وأهليته بعد ذلك للإمامة في العلم والعمل .



(١) تحفة الطالبين ص (٤٦ ـ ٥٠) .



رابعًا

شيوخه وتلاميذه

وفــيــه :

أ - شيوخه :

١) شيوخه الذين أخذ منهم .

٢) شيوخه الذين سمع عنهم .

ب - تلاميـذه .

أ- شيوخـــه :

١) شيوخه الذين أخذ منهم :

- شيوخه في الفقه :

من هؤلاء الشيوخ الذين أخذ منهم :

١ ـ أبو إبراهيم اسحاق بن أحمد بن عثمان المغربي المقدسي [١] .

قال عنه الإمام «أولهم شيخي : الإمام، المتفق على علمه، وزهده، وورعه، وكثرة عباداته، وعظم فضله، وتميُّزه في ذلك على أشكاله»[٢] .

٢ ـ أبو محمد عبدالرحمن بن نوح بن محمد بن إبراهيم بن ابن موسى المقدسي الدمشقي ـ رحمه الله ـ [٣] .

قال عنه الإمام النووي : «الإمام، العارف، الزاهد، العابد، الورع، المتقن، مفتي دمشق في وقته»[٤] .

٣ ـ أبو حفص عمر بن أسعد بن أبي غالب الربعي[٥] بفتح الراء والباء ـ الأربلي

---

(١) انظر : ترجمته في «طبقات الشافعية الكبرىٰ» ص (٥٠/ ٥)، والبداية والنهاية ص (٢١٣/ ١٣)، وشذرات الذهب ص (٢٤٩/ ٥)، السخاوي في ترجمة الإمام النووي ص (٤٤)، وكان معظم انتفاعه عليه .

(٢) تحفة الطالبين ص (٥٥) .

(٣) انظر : ترجمته في طبقات الشافعية الكبرىٰ ص (٧١/ ٥)، والبداية والنهاية ص (١٩٥/ ١٣)، وشذرات الذهب ص (٢٦٥/ ٥) .

(٤) تحفة الطالبين ص (٥٦) .

(٥) انظر : ترجمته في «طبقات الشافعية الكبرىٰ» ص (١٣٠/ ٥)، وترجمة السخاوي للإمام النووي ص (٤٤) .

قال عنه الإمام: «الإمام المتقن المفتي - رضي الله عنه -»[1].

٤ - أبو الحسن بن سلار بن الحسن الأربلي الحلبي الدمشقي[2].

قال فيه الإمام: «شيخنا الإمام، العالم، المجمع على إمامته، وجلالته، وتقدّمه في علم المذهب على أهل عصره بهذه النواحي»[3].

- **شيوخه في أصول الفقه:**

قرأ على جماعة أشهرهم:

١ - أبو الفتح عمر ابن بندار بن عمر بن علي بن محمد التفليسي الشافعي[4].

قال ابن العطار: قرأ عليه «المنتخب» للإمام فخر الدين الرازي، وقطعة من كتاب «المستصفى» للغزالي، وقرأ غيرهما من الكتب على غيره[5].

- **شيوخه في اللغة والنحو والتصريف:**

١ - فخر الدين المالكي[6] - رحمه الله -.

قال ابن العطار: «ذكر لي الشيخ - رحمه الله - أنه قرأ عليه كتاب اللمع لابن

---

(١) تحفة الطالبين ص (٥٦).

(٢) انظر: ترجمته في البداية والنهاية ص (٢٦٢/ ١٣)، وشذرات الذهب (٣٣١/ ٥).

(٣) تحفة الطالبين ص٥٦.

(٤) انظر: البداية والنهاية ص (١٦٧/ ١٣)، وطبقات الشافعية الكبرى ص (١٣٠/ ٥)، وشذرات الذهب ص (٣٣٧/ ٥)، وطبقات الإسنوي ص (٣١٧/ ١).

وترجمة الإمام النووي للسخاوي ص (٥٠ - ٥١)، والمنهاج السوي ص (٤٧).

(٥) تحفة الطالبين ص (٦٠).

(٦) انظر ترجمته في ترجمة الإمام النووي للسخاوي ص (٥٠).

والمنهاج السوي ص (٤٧).

جني»[1].

٢ ـ أبو العباس أحمد بن سالم المصري[2].

قال عنه ابن العطار: «النحوي اللغوي التصريفي»[3]. قرأ عليه بحثًا في كتاب إصلاح المنطق «لابن السكيت، وكتابًا في التصريف»[4].

٣ ـ أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن مالك الجياني[5].

قرأ عليه «كتابًا من تصانيفه. وعلق عليه شيئًا وأشياء كثيرة غير ذلك»[6].

ب ـ شيوخه في الحديث وأسماء رجاله وما يتعلق به:

١ ـ أبو إسحاق إبراهيم بن عيسى المرادي الأندلسي[7] الشافعي ـ رحمه الله ـ.

قال ابن العطار: «شرح عليه مسلمًا»، ومعظم «البخاري» وجملة مستكثرة من ل في شهر شوال، فقال معه[8].

٢ ـ أبو البقاء خالد بن يوسف بن سعد النابلسي[9].

---

(١) تحفة الطالبين ص (٦١).

(٢) انظر: شذرات الذهب ص (٥/٣١٤)، ومرآة الجنان ص (١٦٣) (٤).

(٣) تحفة الطالبين ص (٦١).

(٤) المصدر نفسه ص (٦١).

(٥) انظر: البداية والنهاية ص (١٣/٢٦٧)، وطبقات الشافعية الكبرى ص (٥/٢٨)، وشذرات الذهب ص (٥/٣٣٩)، وطبقات الأسنوي ص (٢/٤٥٤).
وهو صاحب الألفية النحوية المشهورة باسم «الخلاصة».

(٦) تحفة الطالبين ص (٦١).

(٧) انظر: ترجمته في طبقات الأسنوي ص (٢/٤٥٣)، وشذرات الذهب ص (٥/٣٢٦)، وطبقات الشافعية الكبرى ص (٥/٤٨).

(٨) تحفة الطالبين ص (٦٢).

(٩) انظر: ترجمته في تذكرة الحفاظ ص (٤/١٤٤٧)، والبداية والنهاية ص (١٣/٢٤٦)، وشذرات الذهب (٥/٣١٣).

قال عنه ابن العطار «الحافظ كتاب الكمال في أسماء الرجال، للحافظ عبدالغني المقدسي» قرأه عليه وعلق عليه حواشي، وضبط عنه أشياء حسنة»[1].

٣ ـ قال ابن العطار: «وأخذ علوم الحديث لابن الصلاح عن جماعة من أصحابه»[2].

٢) شيوخه الذين سمع منهم:

١ ـ أبو الفرج عبدالرحمن بن أبي عمر محمد بن أحمد المقدسي[3] وهو أجل شيوخه.

٢ ـ أبو محمد إسماعيل بن أبي اسحاق إبراهيم بن أبي اليسر[4].

٣ ـ أبو العباس أحمد بن عبدالدائم[5].

---

(١) انظر: تحفة الطالبين ص (٦٢).

(٢) ولقد ذكر صاحب «المنجد» ص (٥١٣) أن الشيخ محيي الدين النووي قد أخذ الكثيرين ابن الصلاح وأبي ظاهر السلفي قال محقق كتاب تحفة الطالبين، والصواب أنه لم يأخذ عنهما شيئًا ص (٦٢). وانظر عثرات المنجد ص (٥٩٠). تأليف إبراهيم القطان.

(٣) أبو الفرج عبدالرحمن المقدسي. هو عبدالرحمن بن أحمد بن محمد بن قدامة، شيخ الإسلام، شمس الدين أبو محمد، الجماعيلي، الصالحي، الحنبلي، ولد سنة (٥٩٧)، وتوفي سنة (٦٨٢) سمع من ابن طبرزد، والكندي، وغيرهما، وروى عنه الأئمة، وولي القضاء، ولم يأخذ عليه رزقا. فوات الوفيات (٢٩١/ ٢).

(٤) إسماعيل بن أبي اليسر، أبو محمد التنوخي. ولد سنة (٥٨٩)، وروى عن الخشوعي، وغيره. وله شعر جيد؛ توفي سنة (٦٧٢). الشذرات ص (٣٣٨/ ٥).

(٥) هو أحمد بن عبدالدائم، زين الدين، المقدسي، محدث، من فقهاء الحنابلة، ولد سنة (٥٧٥)، وسمع من ابن صدقة، وابن الموازيني وغيرهما. وسمع منه جماعة منهم. الزكي البرازيلي، والنووي، توفي سنة (٦٦٨)، الشذرات ص (٣٢٥/ ٥).

٤ ـ أبو البقاء خالد النابلسي[١].

٥ ـ أبو محمد عبدالعزيز بن أبي عبدالله محمد بن عبدالمحسن الأنصاري[٢].

٦ ـ الضياء بن تمام الحنفي [٣].

٧ ـ أبو الفضل محمد بن محمد بن محمد البكري[٤].

٨ ـ أبو الفضائل عبدالكريم بن عبدالصمد[٥].

٩ ـ أبو محمد عبدالرحمن بن سالم بن يحيىٰ الأنباري[٦].

١٠ ـ أبو زكريا يحيىٰ بن أبي الفتح الصيرفي الحراني[٧].

---

(١) خالد النابلسي، انظر ترجمته في: تذكرة الحفاظ ص ١٤٤٧/ ٤، والبداية والنهاية ص ٢٤٦/ ١٣، وشذرات الذهب (ص٣١٣/ ٥).

(٢) عبدالعزيز الأنصاري : شرف الدين الدمشقي، الحموي، ولد بدمشق سنة (٥٨٦)، كان أديبًا شاعراً مفرط الذكاء، مات بحماة سنة (٦٦٠)، الشذرات ص (٣٠٩/ ٥).

(٣) هو : إمام كبير محدث، قال محقق كتاب المنهاج السوي: (قال في الجواهر المضيئة : «هو إمام كبير، محدث، ولم يذكر سنة وفاته، وذكر المحقق في الهامش أن اسمه أبو بكر محمد بن مضر الله بن عبدالعزيز)، المنهاج السوي للسيوطي ص (٥٠) .

(٤) هو : محمد بن إسماعيل، ناصر الدين، ولد سنة (٦٦٠)، وهومحدث، وسمع منه جماعة من شيوخ ابن حجر، كأبي إسحاق التنوخي، وأبي بكر بن الحسين وغيرهما، مات سنة (٧٤٧)، الدرر ص(٢١٥/ ٤) .

(٥) أبوالفضائل عبدالكريم الخرساني، عماد الدين، الأنصاري، الدمشقي، الشافعي، ولد سنة (١٥٧٧)، وسمع من الخشوعي، وفقته على أبيه، ودرس بالغزالية، وولي الدار الأشريفة بعد ابن الصلاح، وتوفي سنة (٦٦٢)، الشذرات ص (٣٠٩/ ٥) .

(٦) عبدالرحمن بن سالم الأنباري الدمشقي، الحنبلي، توفي سنة (٦٦١)، التذكرة ص (١٤٥٣/ ٤).

(٧) هو : أبو زكريا الصيرفي، لقبه جمال الدين الحنبلي، ويعرف بابن الحبيشي، سمع من عبدالقادر الرهادي، وابن طبرزد، وغيرها . وكان إمامًا عالمًا، توفي سنة (٦٧٨)، الشذرات ص (٣١٥/ ٥).

١١ ـ أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن أحمد بن فضل الواسطي[١].

ب - تلاميذه:

إن المكانة العلمية التي تبوأها الإمام النووي ـ رحمه الله ـ «اكسبته» شهرة واسعة بين الخاصة والعامة، فأصبح مهوىٰ أفئدة طلاب العلم، ومحط رحالهم، حيث توافدوا إليه من الآفاق، وكثرت طلبته حتىٰ كان رؤوس العلماء والحفاظ، والصدور، والرؤساء، يسمعون فيه وتخرج به خلق كثير من الفقهاء، وسار علمه وفتاويه في الآفاق ووقع علىٰ دينه وعلمه زهده وورعه ومعرفته وكرامته الوفاق، وانتفع الناس في سائر البلاد الإسلامية بتصانيفه، وأكبوا علىٰ تحصيل تواليفه، حتىٰ رأيت من كان يشنؤها في حياته مجتهداً علىٰ تحصيلها والانتفاع بعد مماته»[٢].

وقد سرد السخاوي في «المنهل» العذب الروي، أسماء جماعة من الذين أخذوا عن الإمام النووي رواية ودراية، وأوصل عددهم فوق الستين ويذكر أحياناً مع اسم الشخص ما كان قد قرأه أو سمعه علىٰ الإمام[٣].

١ ـ ابن العطار:

علاء الدين بن العطار: هو علي بن إبراهيم بن داود، الدمشقي، أبو الحسن،

---

(١) هو: إبراهيم الواسطي: تقي الدين، أبوإسحاق، وكان فقيهًا حنبليًا، ولد سنة (٦٠٢)، وسمع بدمشق من ابن الحرستاني، والشيخ موفق الدين وغيرهما، ورحل في طلب العلم، والحديث إلىٰ بغداد وحلب، والموصل، ولي في آخر حياته شيخة دار الحديث الظاهرية. وكان معروفًا بشدة الإنكار علىٰ أهل الزيغ كثير الرواية بالحديث مع علوّ في الإسناد، توفي سنة (٦٩٢)، الشذرات ص(١٤٩/٥).

(٢) تحفة الطالبين ص (٦٧).

(٣) انظر: المنهل العذب الروي ص (٩٨ ـ ١٠٦)، وهذا لا يعني أنهم محصورين في هذا العدد بل هم أكثر من ذلك بكثير بدليل قول السخاوي(قلت: وروىٰ الأئمة ـ حتىٰ من تقدمت وفاته عليه ـ كلامه في تصانيفهم كالمحب الطبري، فإنه نقل عنه في كتابه (القري) أشياء، وكذا اتفق أن كلاً من ابن مهدي ويحيىٰ بن سعيد القطان، كان من المستفيدين من إمامنا الشافعي، المفتخرين به، ومات قبل الشافعي بسنتين، انتهىٰ) المنهل العذب ص ٩٨.

كان أبوه عطاراً، وجده طبيباً، ولد سنة (٦٥٤ هـ)، وسمع على أحد بن عبدالدائم وابن مالك، والكمال بن فارس وغيرهم، كما سمع بالحرمين، ونابلس والقاهرة، من أشياخ يزيد عددهم على المائتين، وكان الذهبي أخاه لأمه من الرضاع، وكان شديد الملازمة للنووي، حتى قيل فيه (مختصر النووي).

توفي سنة (٧٢٤ هـ).

أخذ من علماء لا يحصون، من أجلهم وأكثرهم فيه تأثيراً شيخه الإمام النووي فقد قال ابن العطار، (وكان - رحمه الله تعالى - رفيقاً بي، شفيقاً علي، لا يمكن أحداً من خدمته غيري، على جهد مني في طلب ذلك منه، مع مراقبته لي - رضي الله عنه -، في حركاتي وسكناتي، ولطفه بي في جميع ذلك، وتواضعه معي في جميع الحالات، وتأديبه لي في كل شيء حتى الخطرات، وأعجز عن حصر ذلك».

وقال أيضاً: «وقرأت عليه كثيراً من تصانيفه ضبطاً وإتقاناً»[١].

وأذن لي - رضي الله عنه - . في إصلاح ما يقع لي في تصانيفه، فأصلحت بحضرته أشياء فكتبه بخطه، وأقرّني عليه، ورفع إلي ورقة بعدة الكتب التي كان يكتب منها، ويصنف بخطه، وقال لي:

«إذا انتقلت إلى الله تعالى، فأتم «شرح المهذب» من هذه الكتب، فلم يُقدر ذلك لي»[٢].

وكانت مدة صحبتي له، مقتصراً عليه دون غيره، من أول سنة سبعين وست سنة وقبلها بيسير إلى حين وفاته»[٣].

وقد انتفع ابن العطار بما أخذه عن شيخه النووي وغيره، فكان ذو مصنفات وفوائد ومجاميع، وتخاريج[٤].

---

(١) تحفة الطالبين ص ٥٥.

(٢) تحفة الطالبين ص ٥٥.

(٣) تحفة الطالبين ص (٥٥).

(٤) قاله ابن كثير في البداية والنهاية ص (١١٧/ ١٤).

ومن مصنفاته «شرح العمدة» أخذ شرح ابن دقيق العيد، وزاد عليه من شرح صحيح مسلم للنووي، مع فوائد أخر حسنة، فسماه «إحكام شرح عمدة الأحكام»، و «فضل الجهاد»، و«حكم البلوى وابتلاء العباد» و«حكم الأخبار والاحتكار عند غلاء الأسعار». و«تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محي الدين».

مات رحمه الله سنة (٧٢٤ هـ)، وعلى هذا جمهور مترجميه، وكان يبلغ السبعين وهذا هو الصحيح لأنه ولد كما قدمت ـ سنة أربع وخمسين وستة مئة، ودفن بناسيون في دمشق ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ [١].

٢ ـ أبو عبدالله محمد بن أبي الفتح الحنبلي:

من أبي المفضل، البعلي، الفقيه المحدث، النحوي اللغوي، شمس الدين، ولد ببعلبك، سنة ٦٤٥ هـ سمع من محمد بن عبدالهادي، وعمر الكرماني، وغيرهما، ودرس في دمشق بالصدرية، والجندلية، وتخرج به جماعة. من مصنفاته: «شرح الرعاية»، وتوفي بالقاهرة سنة ٧٠٩ هـ [٢].

٣ ـ شمس الدين بن جعوان.

أحمد بن محمد بن عباس بن جعوان، شهاب الدين (وليس شمس الدين) الشافعي، الزاهد، المفتي. كان عمده في النقل، روى عن ابن عبدالدائم، وتوفي سنة (٦٩٩هـ) [٣].

---

(١) انظر: ترجمته في تذكره الحفاظ للذهبي ص (١٥٠٤ـ١٥٠٥/ ٤)، المعجم الكبير، ترجمة رقم (٥٠٦). «المعجم المختص بالمحدثين، ترجمة رقم (١٩١)، والعبر في خبر من غبر ص (٧١/ ١٤)، والمعين في طبقات المحدثين، ص (٢٣٥)، رقم (٢٤٠١)، أو (مرآة الجنان) لليافعي ص (٢٧٢/ ٤)، البداية والنهاية ص (١١٧/ ١٤)، وشذرات الذهب ص (٦٤٦٣/ ٦)، ومعجم المؤلفين ص (٥/ ٧)، ومعجم المؤرخين الدمشقيين ص (١٢٨)، وغيرهم. انظر مقدمة تحفة الطالبين ص (٢٥ـ٢٦).

(٢) طبقات الحنابلة لابن رجب ص (٣٥٦/ ٢).

(٣) الشذرات ص (٤٤٤/ ٥).

٤ - الجمال رافع الصميدي :

ابن هجرس بن شائع، الصميدي (كذا في الشذرات) السلامي، المقرئ المحدث، جمال الدين، والد الحافظ تقي الدين الأني، تفقه على مذهب الشافعي على العلم العراقي، وأخذ النحو عن البهاء بن النحاس، وتصدر للإقراء بالفاضلية، ولد بدمشق سنة ٦٦٨هـ، ومات بالقاهرة سنة ٧١٨هـ[١].

٥ - جمال الدين المزّي :

يوسف بن الزكي عبدالرحمن بن يوسف، أبو الحجاج، الشافعي، الدمشقي. ولد سنة ٦٥٤هـ، شيخ المحدثين. نشأ بالمزة، وولي دار الحديث الأشرفية وكان عارفًا بالنحو، والتصريف، واللغة، من أهم تصانيفه «تهذيب الكمال»، وتوفي سنة ٧٤٢هـ[٢].

٦ـ العلاء بن أيوب المقدسي :

أبو الحسن، الملقب (عليان) ولد سنة ٦٦٦هـ، وسمع من الفخر ابن البخاري وعبدالرحمن بن الزين، وغيرها، واهتم بالحديث واشتغل بالفقه الشافعي ونسخ «المنهاج» وحرره ضبطًا وإتقانًا، ودرس بالأسدية وغيرها، توفي سنة ٧٤٨هـ[٣].

فهؤلاء المذكورون هم بعض أبرز تلامذة الإمام النووي الذين تلقوا العلم على

---

(١) الشذرات (٦/٥٣).

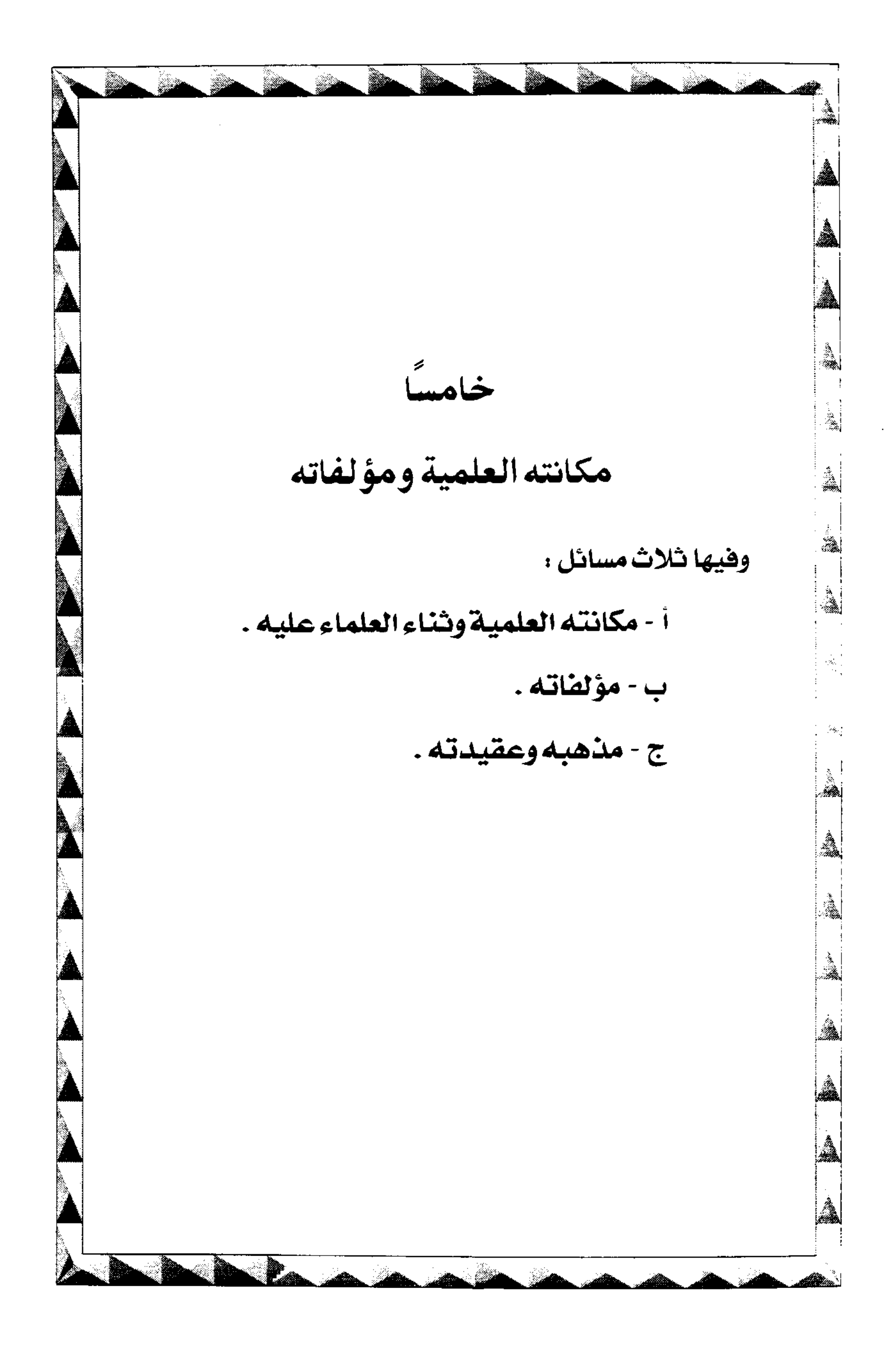
(٢) الشذرات ص (٦/١٣٧).

(٣) الدرر ص (٣/٣٠).

يده[1]. وكان معهم في غاية السماحة والعطاء بعلمه وجاهه وخلقه الفاضل، حيث كان رحمه الله يبسط لهم وجهه، ولا يغلق دونهم بابه .



(١) لقد سرد السخاوي في ترجمة الإمام النووي ص (٩٨ ـ ١٠٦) أسماء لكثير من تلاميذه، وكذلك فعل ـ قبله ـ الذهبي في تاريخ الإسلام ص (٥٧٦)، أما ابن العطار فأشار إلى أنهم كثيراً جداً كان منهم «العلماء والحفاظ، والصدور، والرؤساء، . . . . انظر تحفة الطالبين ص (٦٧) .
وانظر : ثبتا فيهم في كتب المعاصرين، من مثل «الإمام النووي»، «لعبدالغني الدقر»، من (٤ ـ ٩). والإمام النووي، وأثره في الفقه الإسلامي ص (١١٧ ـ ١٣٥)، والإمام النووي وجهوده في التفسير ص (٦٨ ـ ٧١)، وذكر السيوطي في المنهاج السوي ص (٦٢ ـ ٦٣)، بعض من أخذ عنه، ولم يستوعب، ولا قارب .



خامساً

مكانته العلمية ومؤلفاته

وفيها ثلاث مسائل :

أ - مكانته العلمية وثناء العلماء عليه .

ب - مؤلفاته .

ج - مذهبه وعقيدته .

أ - مكانته العلمية وثناء العلماء عليه :

لقد بلغ الإمام النووي - رحمه الله - مبلغًا عظيمًا في العلم وفاق أقرانه فيه وأصبح ذا مكانة علمية رفيعة، إمامًا في كثير من العلوم كالفقه وأصوله والحديث وعلومه، والتفسير، واللغة العربية، وغير ذلك، فإذا ذكر علماء عصره، كان اسمه في المقدمة وفضله وسيرته الحميدة في البال وأقول إلى الآن .

ولا عجب في ذلك، فإن هذا الإمام الجليل، قد ترعرع منذ نعومة أظفاره على طلب العلم، والشغف فيه، وتتلمذ على يد عدد غفير من كبار الشيوخ والأئمة المبرزين في كثير من العلوم وأخذ عنهم - كما سبق بيانه - .

والحقيقة : أن القارئ لمؤلفاته - رحمه الله - ليعجب من قوة بيانه، وعلوه في نفسه، ومن دقة تخريجاته وضبطه، وسعة معارفه وفصاحته ويدرك أنه يتكلم في كل علم من العلوم حتى كأنه لا يعرف غيره، وأكبر دليل على ذلك، مصنفاته المتميزة، والمتعددة التخصصات، وغزارة النقولات في المصادر المختلفة عن كتبه في شتى المسائل والعلوم، بالإضافة إلى شهادة العلماء والأئمة له بعلو المنزلة ورفعه المكانة والتقوى والإمامة والولاية وفيما يلي طرفًا منها :

(١) وقال عنه الإمام السيوطي(١) : (محرر المذهب ومهذبه، ومحققه ومرتبه، إمام أهل عصره علمًا وعبادة، وسيد أوانه ورعًا وسيادة، العلم الفرد، فدونه واسطة الدرّ والجوهر، السراج الوهاج فعنده يخفي الكوكب الأزهر، عابد العلماء، وعالم العباد، وزاهد المحققين ومحقق الزهاد، لم تسمع بعد التابعين بمثله أذن، ولم تر ما يدانيه عين، وجمع له في العلم والعبادة محكم النوعين راقب الله في سره وجهره، ولم يبرح طرفة عين عن امتثال أمره، ولم يضيع من عمره ساعة في غير طاعة مولاه،

---

(١) سبقت ترجمته .

إلىٰ أن صار قطب عصره، وحوىٰ من الفضل ما حواه، بُلغ ما نواه، فتشرفت به نواه[1] ولم يُلف له من ناواه .

وإذا الفتى لله أخلص سره   فعليه منه رداءُ طيب يظهر

وإذا الفتى جعل الإله مراده   فلذكره عرفّ ذكيٌ يُنشر[2]

(٢) وقال عنه أيضًا : (أثنىٰ عليه الموافق والمخالف. وقبل كلامه النائي والآلف. وشاع ثناؤه الحسن بين المذاهب، ونشرت له راية مجد تخفق في المشارق والمغارب من سلك (منهاجه) أيقن بـ(روضة) قطوها دانية، ومن تتبع (أثاره) فهو من الصالحين في (رياض) عيونها جارية ومن لزم (أذكاره) و(مهذب) أخلاقه، فالخبر فيه (مجموع) ومن استقىٰ من بحره ظفر بأروىٰ وأصفىٰ ينبوع. فيه ثبت الله أركان المذهب والقواعد وبين (مهمات) الشرع والمقاصد، فطابت منه المصادر والموارد وعذبت مناهله للصادر والوارد :

وليس على بمستنكر   أن يجمع العالم في واحد)[3]

(٣) وقال عنه الشيخ القاضي محمد بن عبدالله الأنصاري[4]: (لو أدرك القشيري صاحب هذه الرسالة شيخكم وشيخه ـ يعني أبا عثمان المغربي لم قدم عليهما

---

(١) نواه الثانية بلدة : نوا .

(٢) المنهاج السوي للسيوطي ص (٣٨) .

(٣) المنهاج السوي ص (٣٩) .

(٤) هو : القاضي الإمام أبو المفاخر محمد بن عبدالقادر بن عبدالخالق الأنصاري الدمشقي الشافعي المعروف بابن الصائغ، كان عارفًا بالمذهب الشافعي بارعًا في الأصول والمناظرة، وكان مشكور السيرة. ولي القضاء، ثم امتحن فعزل، وسجن ثم خلص، وانقطع بمنزله في بستانه إلىٰ أن توفي في ربيع الآخر سنة (٨٦٣ هـ) .

انظر : ترجمته في البداية والنهاية ص (٣٠٤٨/ ١٣)، وشذرات الذهب ص (٣٨٣/ ٥) ومرآة الجنان ص (١٩٩/ ٤) .

في ذكره لمشائخها ـ يعني (الرسالة) ـ أحد لما جُمع فيهما من العلم والعمل والزهد والورع، والنطق بالحكمة، وغير ذلك)[1].

(٤) وقال السخاوي فيه: «ولشدة ورعه كان يشبه به من يرام الغاية في وصفه، ففي ترجمة الشرف محمود بن محمد بن أحمد بن صالح الصرفوي[2] إنه اشتهر بالورع حتى كان يشبه بالنووي)[3].

(٥) وقال فيه الشيخ تاج الدين السبكي[4] في طبقاته:

« استاذ المتأخرين، وحجة الله على اللاحقين، ما رأت الأعين أزهد منه في يقظه ولا منام، ولا عاينت أكثر أتباعًا منه لطرق السالفين من أمة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، له التصانيف المفيدة، والمناقب الحميدة، والخصال التي جمعت طارف كل فضل وتليده. والورع الذي به قرب دنياه وجعل دينه معموراً، والزهد الذي كان به يحيا سيداً وحصوراً، هذا إلى قدر في العلم لو أطل على المجرة لما ارتضى شربًا في أعطانها، أو جاور الجوزاء لما استطاب مقامًا في أوطانها، أو حلّ في دارة الشمس لأنف من مجاورة سلطانها وطالما فاه بالحق لا تأخذه لومة لائم، ونادي بحضرة الأسود الضراغم، وصدع بدين الله تعالى مقال ذي سريرة، يخاف يوم تُبلى السرائر، ونطق معتصمًا بالباطن والظاهر، غير ملتفت إلى الملك الظاهر، وقبض على دينه

(١) تحفة الطالبين ص (٤٩ ـ ٥٠).

(٢) الشرف محمود الصرفوي: ولد قبل سنة (٧٣٠)، وقدم دمشق وهو شاب فاشتغل بالفقه والورع، حتى كان يشبه بالنووي، وكان يُدرس بالجامع احتسابًا، مات سنة (٧٨١)، الدرر ص (٣٣٣/ ٤).

(٣) المنهل العذب الروي ص (١١١).

(٤) تاج الدين السبكي: هو عبدالوهاب بن علي بن عبدالكافي، أبو منصر، ولد في القاهرة سنة (٧٢٧)، وتوفي بدمشق سنة (٢٧٧١)، وكان فقيهًا مؤرخًا انتهى إليه قضاء القضاء بالشام من تصانيفه طبقات الشافعية الكبرى، والطبقات الوسطى، والطبقات الصغرى، وغيرهما وتعرض لمحن كثيرة منها اتهامه باستحلال شرب الخمر. الدر الكامنة ص (٤٢٥/ ٢).

والجمر ملتهب، وصمم على مقاله والصارم للأرواح منتهب لم يزل - رحمه الله - طول عمره على طريق أهل السنة والجماعة مواظبًا على الخير لا يصرف ساعة في غير طاعة»[1].

(٦) وقال عنه ابن فضل الله[2] في المسالك:

«شيخ الإسلام، وعلم الأولياء، قدوة الزهاد، ورجل علم وعمل، ونجاح سؤل وأمل، وكامل قلّ مثله في الناس من كمُل، وفق للعلم وسهل عليه ويسر له وسير إليه، من أهل بيت نوى من كرام القوى، وكرامة أهل القرى، لهم بها بيت مضيف لا تخمد ناره، ودار جري لا يخمل مناره طلع من أم سادات، وجمع لكرمهم عادات، وجمع لهممهم أطراف السعادات، ونبت فيهم نباتًا حسنًا، ونبغ ذكاء ولسنًا، وأتى دمشق ملتقيًا للأخذ من علمائها، متقللاً من عيشها، حتى كاد يعف فلا يشرب من مائها. فنُبه ذكره، ونهب مدى الأفاق شكره، وحلا اسمه وذكر تصنيفه وعلمه، فلما توسد الملك الظاهر أمانيه، وحدثته نفسه من الظلم بما كاد يأتي قواعد من مبانيه، وكتب له من الفقهاء من كتب، وحمله سوء رأيه على بيع أخرته بشيء من الذهب، ولم يبق سواه، فلما حضرها به، وألقى إليه الفتيا، فألقاها وقال: لقد أفتوك بالباطل، ليس لك أخذ معونة، حتى تنفد أحوال بيت المال، وتعيد أنت ونساؤك ومماليك وأمراؤك ما أخذتم زائدًا عن حقكم، وتردّوا فواضل بيت المال إليه. وأغلظ له في القول فلما خرج قال: اقطعوا وظائف هذا الفقيه ورواتبه، فقيل: إنه لا وظيفة له، ولا راتب، قال: فمن أين يأكل؟ قالوا: مما يبعث إليه أبوه. فقال: والله لقد

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ص (١٦٦/ ٥).

(٢) ابن فضل الله: هو عبدالوهاب بن فضل الله، العدوي شرف الدين، ولد سنة (٦٠٣)، وسمع من أحمد بن عبدالدائم، وأجاز له الرشيد بن مسلمة، وغيره، وتولى كتابة السر بمصر للأشرف خليل ثم نقل إلى كتابة سر دمشق سنة (٧١٢)، واشتهر فيها إلى أن مات سنة (٧١٧)، الدرر ص ٤٢٨/ ٢.

هممت بقتله، فرأيت كأن أسداً فاتحًا فاه بيني وبينه، لو عرضت له لا لتقمني. ثم وقر له في صدره ما وقر، ومدّ له يد المسالمة يسأله وما افتقر»[1].

(٧) وقال الشيخ العارف المحقق المكاشف أبو عبدالرحيم محمد الإخميمي[2]- قدس الله روحه- كان الشيخ سالكًا منهاج الصحابة رضي الله عنه تعالىٰ عنهم، ولا أعلم أحد في عصره سالكًا علىٰ منهاجهم غيره[3]»[4].

(٨) وقال عنه ابن كثير[5]: «وقد كان من الزهادة والعبادة والورع والتحري والانجماح عن الناس علىٰ جانب كبير لا يقدر عليه أحد من الفقهاء وغيره، وكان يصوم الدهر ولا يجمع بينه أدامين، وكان غالب قوته مما يحمله إليه أبوه من نوىٰ.. وكان لا يضيع شيئًا من أوقاته)[6].

(٩) وقال ابن العطار: «ذكر لي صاحبنا أبو عبدالله محمد بن أبي الفتح البعلي الحنبلي الفاضل[7]: (نفع الله به في حياة الشيخ- رحمه الله-)، قال: كنت ليلة في أواخر الليل بجامع دمشق والشيخ واقف يصلي إلىٰ سارية في ظلمة، وهو يرد قوله تعالىٰ: ﴿وقفوهم إنهم مسئولون﴾[8].

---

(١) المنهاج السوي ص (٤٠-٤١).

(٢) الإخميمي: لم أجد له ترجمة.

(٣) قلت: لا شك أن هذا هو الوصف الذي يرفع من شأن النووي رحمه الله، وليست تلك الحكايات الصوفية المختلقة.

(٤) المنهل العذب الروي، ص (١١١).

(٥) هو: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، عماد الدين، إمام حافظ فقيه مفسر مؤرخ، أحد الأعلام، ولد سنة ٧٠١، وتوفي بدمشق سنة ٧٤٤، الدرر الكامنة ٣٩٩-٤٠٠/ ١، والبدر الطالع (١٥٣/ ١). والأعلام (٣٢٠/ ١).

(٦) البداية والنهاية ص (٢٧٨-٢٧٩/ ١٣).

(٧) وهو أحد تلامذة الإمام النووي- رحمه الله-.

(٨) سورة الصافات. الآية: ٢٤.

تكرارًا، بحزن وخشوع، حتىٰ حصل عندي من ذلك شيء الله به عليم»[1].

(١٠) وقال عنه الذهبي[2] في ترجمته: «الإمام الحافظ الأوحد القدوة لشيخ الإسلام وعلم الأولياء، ومحي الدين، أبو زكريا يحيىٰ بن شرف بن مري الحزامي الحوراني الشافعي صاحب التصانيف النافعة»[3].

ب ـ مصنفاته:

لقد كان للإمام النووي ـ رحمه الله ـ إنتاج علمي كبير أثرىٰ به المكتبة الإسلامية بفنونها المتعددة، فألف كثير من المصادر الأساسية لطلبة العلم بل وللمؤمنين علىٰ مر الأجيال، وذلك لما اتسمت به مؤلفاته من الإبداع والجودة والدقة والغزارة العلمية، بالرغم من الفترة القصيرة التي عاشها ـ ولكن كما قال هو ـ رحمه الله: «وبارك الله في وقتي، واشتغالي، وأعانني عليه»[4].

قال الشيخ عبدالغني الدقر في كتابه الإمام النووي علىٰ ما ذكره الإمام هنا: «اثنا عشر درسًا يقرؤها علىٰ المشايخ كل يوم شرحًا وتصحيحًا، ويعلق علىٰ ما يتعلق بها

---

(١) تحفة الطالبين ص (٦٩).

وقد نقل هذا عن ابن العطار الذهبي في تاريخ الإسلام ص (٥٧٧)، والسخاوي في المنهل ص (١١٥ـ١١٦)، والسيرفي في المنهاج ص (٥٣).

(٢) الذهبي هو: محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز، الشيخ الإمام الحافظ شمس الدين أبو عبدالله الذهبي، أتقن الحديث ورجاله، ونظر علله وأحواله، وعرف تراجم الناس، وأبان الإبهام في تواريخهم، والإلباس، ومن تصانيفه: (كتاب «تاريخ الإسلام» وكتاب «تاريخ النبلاء» و«الدول الإسلامية»، «وطبقات القراء»و «طبقات الحفاظ» و «ميزان الاعتدال» و «المشتبه في الأسماء والانساب» وغيرها كثير، ولد سنة ٦٧٣هـ، وتوفي سنة ٦٤٨ انظر: فوات الوفيات والذيل عليها ص ٣١٥ـ٣١٧/ ٣، تأليف محمد بن شاكر الكتبي.

(٣) تذكرة الحفاظ ص (١٤٧/ ١٤).

(٤) تحفة الطالبين ص (٥١).

من شرح مشكل، وإيضاح عبارة، وضبط لغة، تحتاج كل إلى اثنتي عشرة ساعة على أقل تقدير، وتحتاج إلى مراجعة ما يجب أن يراجع، وحفظ ما يجب أن يحفظ - بأدنى التقدير - إلى اثنتي عشرة ساعة، فهذه أربع وعشرون ساعة، فمتى ينام؟ ومتى يأكل؟! ومتى يقوم بعبادته؟! ومتى يتهجد في ليله؟! ومعروف أنه سبَّاق إلى الطاعات والعبادات، ومتى يكون هذا كله وهو محتاج إلى دراسته ومراجعته إلى أربع وعشرين ساعة في اليوم والليلة؟!

هنا يبدو إكرام الله إياه، وتفضله عليه، وذلك بأن بارك الله له في وقته، فمنحه القدرة على أن ينتج في يوم ما ينتج غيره في يومين، وفي سنة ما ينتج غيره في سنتين، وبهذا نفسر هذه الكثرة الهائلة التي جعلت منه في نحو عشر سنوات عالمًا في درجة كبار علماء عصره، ثم جعلت منه إمام عصره، كما نفسر هذه الكثرة الهائلة من مؤلفاته المتقنة الرائعة في فترة لا تتجاوز خمسًا وعشرين سنة هي كل عمره في العلم تعلمًا وتعليمًا، وتأليفًا) (١).

ولقد بلغت مؤلفاته إثنين وسبعين وقد اهتم المترجمون له بذكرها على تفاوت بينهم في ذلك، حيث خصص كل منهن فصلاً ذكر فيه مؤلفات الإمام فمنهم من فصل كالإمام السخاوي، ومنهم من اكتفى بالتعداد كابن العطار والسيوطي وغيرهما(٢).

ومؤلفاته متنوعة الأغراض والفنون نتيجة لتمكنه من علوم عدة، ومشاركته في فنون شتى، فلقد صنف - رحمه الله - في الحديث وعلومه، والفقه، والتربية، واللغة والتراجم والسير.

وأما أسماء مصنفاته فقد سبق ذكر عددها، وهي كثيرة وقد تكفل بسردها السخاوي في «ترجمة الإمام النووي»(٣)، والدكتور أبو عبيدة مشهور آل سليمان في

---

(١) الإمام النووي عبدالغني الدقر ص (٣٣).

(٢) انظر: ترجمته في المصادر السابقة.

(٣) ص ٥٤ - ٦٣.

تحقيقه لكتاب «تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين» لابن العطار [١]. حيث ذكر زيادة على ما لم يذكره ابن العطار من تصانيف وحقق ذلك[٢]، وكذلك الأستاذ أحمد عبدالعزيز الحداد في كتابه «الإمام النووي وأثره في الحديث وعلومه»[٣] وغيرهم.

وسوف أذكر هنا ما أمكن ذكره من كتبه، وإذا تيسر ذكرها كلها، مرتبًا إياه على حروف المعجم كما يلي:

١ ـ الأذكار [٤].

٢ ـ الأربعين [٥].

---

(١) ص ٧٥ ـ ٩٦.

(٢) ولقد استفدت منه كثيرًا في هذا.

(٣) ص ١٤٠ ـ ١٤٤ وما بعدها.

(٤) عزاه إليه بهذه التسمية غالب من ترجم له، وذكر حاجي خليفة باسم «حلية الأبرار وشعار الأخبار في تلخيص الدعوات والأذكار، وقال مشهور بأذكار النووي» انظر كشف الظنون ص (٦٨٨/ ١).
وتبعه على ذلك البغدادي في هداية العارفين ص (٢٢٤/ ٣).

(٥) واسمه «الأربعين في مباين الإسلام وقواعد الأحكام».
عزاها إليه غالب من ترجم له، وشهرتها إليه تغني عن توثيقها، حيث اقترنت بنسبته، فلا تكاد تعرف إلا بالأربعين النووية، ولقد نالت العناية والخطوة التي لم تنالها الأربعينيات الأخرى. ولعل السر في ذلك، هو أن هذه الأربعين قد جمعت مقاصد تلك الأربعينيات كما أراد مؤلفها رحمه الله . . . . . كما قيل «كل الصيد في جوف الفرى». فجذبت همم الراغبين في مفترقات الأربعينيات وحظيت بإقبال الطالبين، وعناية المحدثين، أما الطالبون، بالحفظ والاستظهار، وأما المحدثون، بالشروح الصغار والكبار، والحواشي المتممة المدرار.
وكان أول من فتح لهم الطريق هو مؤلفها ذو التحقيق التدقيق، حيث شرحها بشرح موجز، يتلائم صغر حجمها ثم توالت عليها الشروح الكثيرة ذوات العلوم الغزيرة. انظر المنهاج السوي ص٧٤.
وانظر الإمام النووي وأثره في الحديث وعلومه ص (٢٥٨ ـ ٢٦٣).

٣ ـ الإرشاد [١].

٤ ـ الإيضاح في المناسك [٢].

٥ ـ الإيجاز في المناسك، والمناسك الثالث والرابع، والخامس، والسادس [٣].

٦ ـ الإملاء على حديث «إنما الأعمال بالنيات» [٤].

٧ ـ الأحكام [٥].

---

(١) واسمه إرشاد طلاب الحقائق إلى معرفة سنن خير الخلائق !

ونسبه إليه غالب من ترجم له، غير أنهم اختلفوا في الاسم الكامل له، مع اتفاقهم على صدر التسمية وهو «الإرشاد»، فالاختلاف بعد ذلك غير مؤثر على نسبة الكتاب إلى مؤلفه.

وأصل كتابه هذا هو اختصار لكتاب معرفة علوم الحديث للشيخ الإمام الحافظ. الضابط أبي عمرو عثمان بن الصلاح» . انظر مقدمة إرشاد طلاب الحقائق ص (٥٤ ـ ٥٥)، تحقيق الدكتور نور الدين عتر.

وقد طبع الكتاب في مطبعة الإيمان بالمدينة المنورة عام ١٤٠٨هـ، بتحقيق عبدالباري فتح الله السلفي.

(٢) المنهج السوي ص ٧٤ .

(٣) وقد طبع واحد منها في حيدر أباد (بعنوان)، الإرشادات، انظر تحفة الطالبين ص ٧٨، وهو من الكتب الفقهية.

(٤) قال السيوطي في «المنهاج السوي» ص (٧٤)

«لم يتمه».

وقال السخاوي في ترجمة الإمام النووي ص (٥٥).

قلت: وسمّى بعضهم في تصانيفه «الأمالي» في الحديث في أوراق، وقال: إنه مهم نفيس، صنفه قريب موته، فلا أدري أهو الأول أو غيره».

وعدّه بعضهم من الكتب المفقودة.

(٥) ذكره السخاوي في ترجمة الإمام النووي ص (٥٥ ـ ٥٦)، وقال «قلت سمّاها خلاصة الأحكام»، وصل فيها إلى أثناء الزكاة». =

٨ ـ الأصول والضوابط [١] .

٩ ـ أغاليط الوسيط [٢] .

١٠ ـ أدب المفتي والمستفتي [٣] .

١١ ـ بستان العارفين [٤] .

= وقال ابن المُلقن : رأيتها بخطه، ولو كملت كانت في بابها عديمة النَّظير، وقال غيره: إنه لا يستغني المحدث عنها، خصوصًا الفقيه» .

وسَماه السيوطي في «المنهاج السوي» ص٧٤، «الخلاصة في الحديث» .

(١) عزاه الله السيوطي في المنهاج ص (٨٤)، وعده من الكتب التي لم يتمها ، وابن قاضي شبهة في الطبقات ص (١٥٧/ ٢)، والسيوطي في المنهاج السوي ص (٧٤)، والبغدادي في هداية العارفين ص (٥٢٤/ ٢) .

وقد طبع في دار البشائر الإسلامية عام ١٤٠٦هـ، بتحقيق الدكتور محمد حسين هيتو .

(٢) عدّه محقق كتاب تحفة الطالبين من الكتب المنسوبة إليه ولكن ليست على وجه اليقين .

وقال الإسنوي : «وينسب إليه تصنيفان ليس له : «النهاية في اختصار الغاية، والثاني: أغاليط على الوسيط» . . . ولهذا لم يذكره ابن العطار حين عدد تصانيفه واستوعبها» .

ترجمة الإمام النووي ص (٦٢)، والمنهاج السوي ص (٧٤ـ ٧٥) .

(٣) عده بعضهم من الكتب المستلة من بعض كتبه .

قال السخاوي في ترجمة الإمام النووي ص (٦٣) .

« وأفرد من (شرح المهذب) : «أدب المفتي والمستفتي» .

وعدّ الأستاذ شحادة العمري كتابه ـ تحفة طلاب الفضائل في رسالته «الإمام النووي وجهوده في التفسير ص ٨٠ مفرداً من «شرح المهذب» !! وهذا خطأ، واعتمد على نقل السخاوي المشار إليه سابقا في كتاب «أدب المفتي المستفتي»، والكتاب في مقدمة المجموع ص (٤٠/ ١) وما بعدها .

(٤) عزه إليه .

السيوطي في المنهاج السوي من (٧٤) وقال : « لم يتم » .

وحاجي خليفة في كشف الظنون ص (٦٨٩/ ١) .

والزركلي في الأعلام ص (١٤٩/ ٨) .

=

١٢ ـ التيسير في مختصر الإرشاد في علوم الحديث [١].

١٣ ـ التحرير في ألفاظ التنبيه [٢].

= والبغدادي في هداية العارفين ص (٥٢٤/ ٢) وغيرهم .

قال السخاوي فيه «ما أبدعه ، وعني به الفضلاء قراءة واستذكاراً» .

ترجمة الإمام النووي للسخاوي ص(٦١) .

(١) ذكره السخاوي في ترجمة الإمام النووي ص(٥٦) بعنوان «التقريب والتبشير في معرفة سنن البشير» .

وعزاه إليه غالب من ترجم له ، ووصفه اللخمي في ترجمته (٥/ ب) (بأنه نفيس جداً لا يستغنى عنه) .

وغالب من ذكره اختصر من تسميته على الجزء الأول من التسمية ، وهو التقريب والتيسير أو التقريب فقط .

غير أنه ورد اسمه كاملاً في كشف الظنون ص(٤٦٥/ ١) .

وموضوع هذا الكتاب هو اختصار كتاب الإرشاد الذي اختصر فيه علوم الحديث لابن الصلاح ، وقد تقدم الحديث عنه .

ولقد شرحه عدد من العلماء المتقدمين والمتأخرين . انظر الإمام النووي وأثره في الحديث وعلومه ص(٤١٧ ـ ٤١٨) .

(٢) وعزاه إليه ابن العطار في تحفة الطالبين ص(٧٧) .

وابن كثير في البداية والنهاية ص (٢٧٩/ ١٣) .

والسيوطي في المنهاج السوي ص(٧٣) .

وابن العماد الحنبلي في الشذرات ص(٣٥٦/ ٥) .

وتوجد له خمس مخطوطات مصورة على الميكروفيلم في معهد إحياء التراث الأولى والثانية باسم «تحرير التنبيه» برقم ١١٤ ، ٢٩٦ ، والثالثة باسم «التحرير في ألفاظ التنبيه وتهذيب لغاتها واشتقاقها» برقم (٢٩٧) ، والخامسة باسم بغية التنبيه في تحرير التنبيه» برقم (٣٧٤) ، وكلها في فهرست كتب اللغة العربية ، انظر من (٢٢٨ ـ ٢٢٩) من كتاب الإمام النووي وأثره في الحديث وعلومه .

وموضوع هذا الكتاب ، هو شرح ألفاظ التنبيه لأبي إسحاق الشيرازي . =

١٤ ـ التبيان في آداب حملة القرآن ومختصره [1].

١٥ ـ التهذيب للأسماء واللغات [2].

١٦ ـ التحقيق في الفقه [3].

= وقد طبع هذا الكتاب باسم كتابه الآخر «تصحيح التنبيه» على هامش التنبيه لأبي إسحاق الشيرازي، بمصر، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، سنة ١٣٧٠هـ.

انظر الإمام النووي وأثره في الحديث وعلومه ص (٢٢٩).

قال عنه السخاوي نقلاً عن ابن الملقن «ما أكثر فوائده على إعواز بيّنه في جزء، قال: «وقال قاضي صفد. ما أكثر فوائده وما أعم نفعه، لا يستغني طالب علم عنه» السخاوي ص (٥٧).

وللكتاب طبعات آخر، انظر ص (٢٣١) من كتاب الإمام النووي وأثره في الحديث وعلومه.

(١) وعزه إليه غالب من ترجم له، ونسبته إليه مشهورة.

ولقد حظي هذا الكتاب بالعناية التامة من العلماء الأعلام، من أهل الإسلام، وأول من عني به، هو النووي نفسه. حيث اختصره ليبالغ في تيسير حفظه، وأسمى مختصره «مختار البيان» كشف الظنون ص (٣٤٠/ ١).

ونظمه ابن العماد الأقفهسي (ت ٨٠٨ هـ)، وسماه «تحف الأخوان في التبيان في آداب حملة القرآن» هداية العارفين ص (٥٢٤/ ٢)، ومقدمة آداب الآكل لابن العماد هذا ص(٤)، وترجمة إلى الفارسية، الشيخ محمد بن محمد بن أبي سعيد أبا يحيى وسماه «حديقة البيان» كشف الظنون ص(٣٤١/ ١)، وأخيراً ضعفه منصور بن يعقوب البصاره، وطبع في الكويت عام ١٤٠٧هـ، وقد طبعع عدة طبقات غير محققه.

(٢) عزاه له غالب من ترجم له، وهو من كتبه المشهورة، وقد طبع عدة طبعات، والكتاب مع نفعه ورواجه. لم يكتب للنووي إتمامه، بل الحاصل منه هو جملة منه، ومات قبل إتمامه، كما أفاد ذلك ابن العطار. والذهبي لكان حسنة الليالي والأيام، وتبارى في خدمته الأعلام. ومع ذلك فإنه لم يعدم العناية من أهل العلم والدراية فقد اختصره الحافظ السيرفي، وغيره.

وقد انتزع من مقدمته جزء صغير، وطبع باسم «السيرة النبوية»، ونشره عبدالرؤوف علي، وبسام الجابي، وطبع في دار البصائر بدمشق عام ١٩٨٠م، ويقع في ست وتسعين صفحة.

(٣) عزاه إليه ابن العطار في تحفة الطالبين ص (٨٥). =

١٧ ـ تحفة طلاب الفضائل [١].

١٨ ـ تحفة الوالد بغية الرائدة [٢].

١٩ ـ جامع السنة [٣].

٢٠ ـ جزء في الاستسقاء [٤].

٢١ ـ حزب مشتمل على أحاديث رباعيات [٥].

= وابن قاضي شهبة في الطبقات من (١٥٦/ ٢).

والسيوطي في المنهاج السوي ص (٧٢ـ ٧٣).

والبغدادي في هداية العارفين ص (٥٢٤/ ٢).

والسخاوي في الترجمة ص (٦٠).

وهو من الكتب التي مازالت في عالم المخطوطات.

(١) ذكره السخاوي في ترجمة الإمام النووي ص(٦٣). وقال: «ذكر فيه من التفسير، والحديث، والفقه، واللغة، وضوابط ومسائل من العربية وغير ذلك، جليل في معناه».

(٢) تحفة الوالد وبغية الرائدة، ذكره له صاحب هدية العارفين، ص (٥٢٤/ ٢)، وقد عده بعضهم من الكتب المشكوك في صحة نسبتها إليه، انظر تحفة الطالبين ص (٩٢).

(٣) ذكره السخاوي في ترجمة الإمام النووي ص (٦٠)، وقال: «شرع في أوائله، وكتب منه دون كراسة».

وعده بعضهم من الكتب المفقودة، وبعضهم من الكتب المخطوطة.

(٤) ذكره في كشف الظنون ص (٣٧٦/ ١)، وفي هداية العارفين ص (٥٢٤/ ٢).

(٥) لم أقف على من ذكره له، ولكن قال في تعليقه على إسناد حديث في شرح مسلم ص (٢٤/ ٢).

«وفي هذا الإسناد طريفة، وهو أنه اجتمع فيه أربعين تابعيون».

ثم قال: «وقد جمعت فيه ـ بحمد الله تعالى ـ جزء اشتمل على أحاديث رباعيات، منها أربعة صحابيون بعضهم عن بعضه، وأربعة تابعيون بعضهم عن بعض».

وقال في شرح صحيح مسلم ص (١٦٨/ ٩) أيضاً.

«.... وقد أفردتها في جزء من رباعيات الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ».

٢٢ ـ حزب أدعية [١].

٢٣ ـ خلاصة الأحكام [٢].

٢٤ ـ دقائق الروضة [٣].

---

(١) ذكره السخاوي ص (٦١)، ويعرف بحزب الإمام النووي، وهو مشهور ولم يدونه الإمام النووي على أنه مصنف من مصنّفاته، وإنما روي عنه شفاهية، رواه عنه تلاميذه ثم نقله تلاميذه بالرواية إلى غيرهم.

ولقد شرحه عدد من العلماء، طبع أخيراً في دار الإمام مسلم، بيروت، بتحقيق بسام عبدالوهاب الجابي. ويقع في ستة عشر ومائة صفحة من القطع المتوسط، وقد طبع الحزب عدة طبعات عدا هذه الطبعة، منها طبعة ضمن مجموعة الأذكار والأوراد المأثورة التي جمعها الشيخ عبدالله بن إبراهيم الأنصاري ص (١٠٦ ـ ١١٢) من هذا المجموع.

(٢) نسبه إليه ابن الملقن، وقال: «وصل فيه إلى الزكاة في مجلد»، وقال: رأيته بخط مصنفه، وأثنى عليه بقوله: وهو كتاب نفيس لا يستغني المحدث عنه خصوصًا الفقيه». ترجمة الإمام ص (٥٥ ـ ٥٦).

وقاضي شهبة وقال: إنه لخص فيه الأحاديث المذكورة في شرح المهذب، الطبقات ص (١٥٦/ ٢).

وقال السخاوي ص (٥٥ ـ ٥٦)، والسيوطي ص (٧٤)، وابن العماد الحنبلي (٣٥٦/ ٥)، وذكر أنه لخص فيه الأحاديث المذكورة.

وهي من أهم كتبه الحديثية، وأكثرها نفعًا كما علم من مقالة اللخمي الآنفة الذكر، وقال ابن الملقن كما نقله السخاوي، ورأيتها بخطه، ولو كملت لكانت في بابها عديمة النظير». ترجمة الإمام للسخاوي ص (٥٥ ـ ٥٦)، وقد نال هذه الأهمية لأنه قد ضمنه فني، الحديث رواية ودراية، بأوضح صورة، وأحسن أسلوب . . . . . » انظر الإمام النووي وأثره في الحديث وعلومه.

(٣) قال السيوطي في المنهاج السوي ص (٧٣): «كتب منها إلى أثناء الآذان».

وقال السخاوي في ترجمة الإمام النووي ص (٥٧).

« وصل فيها إلى أثناء الصلاة، وهي نفيسه سماها: (الإشارت لما وقع في الروضة من الأسماء واللغات)».

وانظر الطبقات لابن قاضي شهبة ص (١٥٧/ ٢).

٢٥ ـ دقائق المنهاج [١].

٢٦ ـ رؤوس المسائل [٢].

٢٧ ـ روح المسائل في الفروع [٣].

٢٨ ـ رياض الصالحين [٤].

٢٩ ـ الروضة في مختصر شرح الرافعي [٥].

---

(١) عزاه إليه السخاوي في ترجمة الإمام النووي ص(٥٧)، والزركلي في الأعلام من (٨/٢٤٩).
ورضى كحالة في معجم المؤلفين ص (١٣/٢٠٢)، وغيرهم، وقد طبع بمكة المكرمة عام ١٣٥٣هـ بالمطبعة الماجدية باسم «شرح دقائق المنهاج».
ولقد أشار إليه في مقدمة المنهاج فقال: (وقد شرعت في جمع جزء لطيف على صورة الشرح لدقائق هذا المختصر . . . «المنهاج مع السراج الوهاج») ص(٧).

(٢) ذكره السيوطي في المنهاج السوي ص٦٣. والسخاوي في ترجمة الإمام النووي ص(٧٤). وحاجي خليفة في كشف الظنون ص (١/٣٧٦)، وأفاد بأنه في الفروع في مجلد. وعدّه بعضهم من الكتب المنفردة.

(٣) ذكره البغدادي في هداية العارفين ص (٢/٥٢٤).

(٤) وهو كتاب مشهور. ونسبته إليه أشهر، فقد عزاه له جل من ترجم له، واستطرد لذكر مصنفاته، وهو كتاب حديث، جمع فيه طائفة من أحاديث الرقائق، والزهد، وفضائل الأعمال بلغ مجموع عددها خمسة وتسعمائة وألف حديث. وأول من أعتنى به، هذا العلامة الشيخ محمد بن علان الصديقي المكي (ت ١٠٥٧ هـ) فعمل عليه شرحًا نفيسًا مليئًا بالتحقيقات العلمية والنفائس الحديثية، وسماه دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين. ويقع في أربع مجلدات . . . . . .
وقد طبع هذا الكتاب عدة طبقات. انظر الإمام النووي وأثره في الحديث وعلومه ص (٢٩٦-٣٠٠).

(٥) وعزاها إليه جل من ترجم له، اختصرها ـ رحمه الله تعالى ـ من شرح الوجيز للرافعي (ت٦٢٣هـ)، والمسمى بفتح العزيز على كتاب الوجيز للغزالي.
وتقع في اثني عشر مجلد من القطع المتوسط طبعها المكتب الإسلامي. في سنة ست وثمانين وثلاثمائة وألف. وهي عمدة المذهب وروضة كاسمها.

٣٠ ـ رسالة فيما يعتقده السلف في الحروف والأصوات[١].

٣١ ـ السيرة النبوية[٢].

٣٢ ـ شرح مسلم[٣] والمسمىٰ بالمنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج.

٣٣ ـ شرح سنن أبي داود[٤].

٣٤ ـ شرح التنبيه[٥].

---

(١) ورد ذكرها معزوة إليه في مجلة أخبار الراث العدد ٨، وجاء فيها أنها عشرون ورقة، وصلت إلىٰ معهد إحياء التراث في الكويت الذي يصدر المجلة من جامعة الملك سعود. انظر الإمام النووي وأثره في الحديث وعلومه ص (٢٣٦).

(٢) قال محقق كتاب تحفة الطالبين ص٨٥، وانتزع منه ـ أي كتاب تهذيب الأسماء واللغات ـ عبدالرؤوف علي، وبسام الجابي، ما يتعلق بالسيرة النبوية، وطبع باسم السيرة النبوية» للنووي، في دمشق، عن دار البصائر سنة ١٩٨٠م، في (٩٦ صفحة).

فلقد عده المحقق من كتبه المستلة من بعض كتبه.

(٣) سوف يأتي التعريف به فيما بعد.

(٤) قال السيوطي في «المنهاج السوي» ص (٧٤).

«وصل فيها إلىٰ أثناء الوضوء، سمّاها الإيجاز، وسمعتُ أن زاهد عصره الشهاب ابن رسلان وأودعها برمتها في شرحه الذي كتبه علىٰ السنن، وبنىٰ عليها» والكتاب مازال مخطوطًا.

(٥) ذكره السيوطي في «المنهاج السوي» ص (٧٢)، وقال:

«مطول، مسماه.. «تحفة الطالب النبيه»، ووصل فيه إلىٰ أثناء الصلاة.

وقال السخاوي في ترجمة الإمام النووي ص (٥٩):

« وصل فيه إلىٰ أثناء باب الحيض، وهو غير النبذ الذي رأيته في مجلد، فإنه قد شرح فيه مواضع من جميع الكتاب، وهو من أوائل ما صنف».

وقال البغدادي في إيضاح المكنون ص (٢٥٢/ ١).

« مطول لم يكمل ».

وعدّه بعضهم من الكتب المفقوده.

٣٥ ـ شرح الوسيط[١] .

٣٦ ـ شرح مشكاة الأنوار فيما روىٰ عن الله سبحانه من الأخبار[٢] .

٣٧ ـ شروط الوضوء[٣] .

٣٨ ـ طبقات الفقهاء[٤] .

---

(١) ذكره الذهبي في «تاريخ الإسلام» ورقة (٥٧٨)، فقال: «وقطعة جيدة من الوسيط» وابن العطار في تحفة الطالبين فقال: «وقطعة في شرح الوسيط» ص (٨٢) .

والسيوطي في «المنهاج السوي» ص (٧٢)، فقال:

« وشرح الوسيط والمسمىٰ ب «التنقيح»، قال الأسنوي: وصل فيه إلىٰ شروط الصلاة. قال: وهو كتاب جليل من أواخر ما صنف» .

وعدَّه بعضهم من الكتب المفقودة .

وانظر ترجمة الإمام النووي « السخاوي » ص (٥٩) .

(٢) ذكره له صاحب كشف الظنون ص (١٦٩٤/ ١) .

(٣) ذكره له الأستاذ خضر إبراهيم سلامة في (مخطوطات مكتبة المسجد الأقصىٰ ص (١٢٦/ ١) تحت رقم (١٤١) فقه (١٩/ ٣٥/ ٢) . تحفة الطالبين ص ٩٣ فقال (منظومة في شروط الوضوء، وهي خمسة عشر بيتاً من الشعر) .

(٤) وعزاه إليه ابن العطار في تحفة الطالبين ص (٨٥)، وابن كثير في البداية والنهاية ص (٢٧٩/ ١٣)، والذهبي في تذكرة الحفاظ ص (١٤٧٢/ ٤)، واليافعي في مرآة الجنان ص (١٨٢/ ٤)، وابن قاضي شهبة في الطبقات ص (١٩٨/ ٢)، والسيوطي في المنهاج السوي ص (٧٣)، وحاجي خليفة في كشف الظنون ص (١١٠١/ ٢)، والزركلي في الأعلام ص (١٤٩/ ٨)، وغيرهم .

وقد اختصر النووي ـ رحمه الله ـ هذا الكتاب من طبقات ابن الصلاح الذي كان قد عزم أن يجمع فيهما ما تناهىٰ إليه علمه، غير أن المنية حالت بينه وبين ذلك، فمات قبل أن يتمه وهو مسودة .

فلما وقف عليه الإمام النووي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ أخذه وزاد عليه زيادات وميزها بنسبتها إليه، فيقول: قال النووي، أو قلت، أو قال يحيىٰ ونحوه . وأسماه . . منتخب طبقات الشافعين، ومات عنه مسودة، ثم بيضه الحافظ أبو الحجاج يوسف بن الزكي عبدالرحمن المزي (ت ٧٤٢هـ) .

٣٩ ـ العمدة في تصحيح التنبيه[١].

٤٠ ـ عيون المسائل والفرائد[٢].

٤١ ـ غيث النفع من القراءات السبع[٣].

٤٢ ـ الغاية في الفقه[٤].

٤٣ ـ الفتاوىٰ[٥].

---

(١) ذكره السخاوي في ترجمة الإمام، ص (٥٨)، وقال السيوطي في المنهاج ص (٧٣)، وهو من قديم ما صنف، فلا يعتمد علىٰ ما فيه مخالفة لحديث كتبه» .

طبع في مصر سنة (١٣٢٩هـ ـ ١٩١١م)، كما في ذخائر التراث العربي الإسلامي ص (١٨٨/ ٢)، وحققه الأستاذ الدكتور محمد عقله .

(٢) ذكره رضا كحالة في المستدرك علىٰ معجم المؤلفين ص (٨٣٧)، ولعله روح المسائل الذي ذكره البغدادي والله أعلم .

(٣) ذكره له صاحب «إيضاح المكنون» ص (١٥٢/ ٢)، وهداية العارفين ص (٥٣٥/ ٢)، وفيه أنه مطبوع !! وقال غير واحد أنها للسفاقسي (١١١٧هـ)، انظر تحفة الطالبين ص (٩٢).

(٤) قال ابن الملقن : «وعندي أنها ليست له، قال: وإن كانت له، فلعلها مما صنفه في أول أمره، قال السخاوي : وسماها غيره، النهاية في الاختصار للغاية» السخاوي ص (٦٢) .

(٥) هذا الكتاب من كتبه المهمة النافعة الفقهية وقد عزاه إليه ابن العطار في تحفة الطالبين ص (٧٩)، والذهبي في تذكرة الحفاظ ص (١٤٧٢/ ٤)، وابن قاضي شبهة في الطبقات ص (١٥٧/ ٢)، والسيوطي في المنهاج السوي ص (٧٤)، والبغدادي في هداية العارفين ص (٥٢/ ٢)، والزركلي في الأعلام ص (١٤٩/ ٨) وغيرهم .

والكتاب طبع عدة طبعات، منها طبعة بتعليق الشيخ محمد الحجار في دار البشائر الإسلامية ١٤١٠هـ ـ ولقد اختلف في اسمه انظر تراجمه السابقة .

٤٤ ـ القيام[١].

٤٥ ـ قسمة القناعة ومختصره[٢].

٤٦ ـ المبهمات[٣].

٤٧ ـ مسألة الغنيمة[٤].

٤٨ ـ المجموع في شرح المهذب[٥].

---

(١) عزاه إليه ابن العطار في تحفة الطالبين ص ٧٩، والسيوطي في المنهاج السوي ص (٧٣ـ٧٤).
والبغدادي في هداية العارفين ص (٥٢٤/ ٢).
ورضا كحالة في المستدرك على معجم المؤلفين ص (٨٣٧).
وكشف الظنون لحاجي خليفة ص (٣٩٨/ ١).
وقد طبع الكتاب في دار الفكر بدمشق عام ١٤٠٢هـ، بتحقيق أحمد راتب حموس، وكذلك في دار البشائر الإسلامية بيروت عام ١٤٠٩هـ، بتحقيق الكيلاني محمد خليفة.

(٢) عده بعضهم من الكتب التي ليست له على وجه اليقين، وأشار محقق كتاب «تحفة الطالبين» إلى أنه قد وقع تصحيف في اسم هذا الكتاب. انظر المصدر نفسه ص (٧٩)، وص (٩٥) من الترجمة.

(٣) قال السخاوي في ترجمة الإمام النووي ص (٥٦).
«اختصر فيها كتاب الخطيب أبي بكر البغدادي الحافظ في ذلك».
وكتاب الخطيب بعنوان «الأسماء المبهمة في الأنباء المحكمة»، أو كتاب النووي باسمه «الإشارات إلى بيان الأسماء المبهمات»، مطبوع قديمًا في الهند في بلتان، سنة (١٣٤٠هـ ـ ١٩٢١م)، ومن ثم في مطبعة الخانجي في القاهرة، بتحقيق الدكتور عز الدين علي السيد، سنة (١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٤م)، وألفه في سنة سبع وستين وست مئة، كما صرح به في قائمته ص (٦٢٢).

(٤) ذكره السخاوي في «ترجمة الإمام النووي» ص (٥٩)، وسمّاه: «مسألة تخميس الغنائم»، وابن العطار في تحفة الطالبين ص (٧٩).

(٥) عزاه له من ترجم له، وهو من الكتب المتواتر نقلها عنه.
شرح فيه المهذب لأبي إسحاق الشيرازي شرحًا في غاية الحسن والجودة كما قال الذهبي في ترجمة الإمام السخاوي من (وقال السخاوي: لم يصنف في المذهب مثل أسلوبه).
وقال العماد ابن كثير في تاريخه البداية والنهاية ص (٢٧٩/ ١٣)، إنه لو كمل لم يكن له نظير =

٤٩ ـ المنهاج في مختصر المحرر للرافعي[1].

٥٠ ـ مختصر آداب الاستسقاء[2].

٥١ ـ مختصر أسد الغابة في معرفة الصحابة[3].

٥٢ ـ مختصر البسملة[4].

=في بابه فإنه أبدع فيه وأجاد وأفاد وأحسن الانتقاد . . . ، قد وصفه النووي فقال : (وأرجو إن تم هذا الكتاب أن يستغني به عن كلّ مصنف، ويعلم به مذهب الشافعي علمًا قطعيًا، إن شاء الله تعالى» مقدمة المجموع ص (٤٧/ ١) .

(١) ذكره السيوطي في «المنهاج السوي» ص (٦٨) .

«المنهاج مختصر المحرر، مجلد لطيف، ودقائقه نحو ثلاث كراديس ورأيت سخطه أنه نزع منه تاسع عشرة سنة تسع وسنين. وهو الآن عمدة الطالبين والمدرسين والمقنين .

ثم ذكر من امتدح الكتاب، وما يدل على قيمته عند علماء عصر المصنف، وقصة له حق، فانظره إن شئت للاستزادة .

وكذا فعل السخاوي في ترجمة الإمام النووي، ص (٥٧) .

والكتاب مطبوع له عدة مشروعات، انظر : ذخائر التراث العربي الإسلامي ص (٨٨٩/ ٢)، وكشف الظنون ص (١٨٧٣ ـ ١٨٧٦/ ٢) .

(٢) ذكره السخاوي في ترجمة الإمام النووي ص (٦٢)، بهذا العنوان، والسيوطي في المنهاج السوي ص(٧٣)، بعنوان «وجزء في الاستسقاء»، وقال : قال الأسنوي : وهو من أواخر تصانيفه وأنفعها .

(٣) ذكره الإمام النووي في التقريب والتبشير :

(وجمع الشيخ عز الدين بن الأثير الجزري في الصحابة فقال : كتابًا حسنًا، جمع فيه كتبًا كثيرة، وضبط وحقق أشياء حسنة، وقد أختصرته بحمد الله) . انظر : تحفة الطالبين لابن العطار ص(٨٩) .

وذكره له السخاوي في ترجمة الإمام النووي ص(٩١)، وعدّه بعضهم من الكتب المفقودة .

(٤) ذكره السخاوي في «ترجمة الإمام النووي» ص (٦٢)، وقال : «رأيته بخطه، وهو في «شرح المهذب» بتمامه .

والسيوطي في «المنهاج السوي» ص (٧٤)، وقال : «أحال عليه في (شرح المهذب)» .

٥٣ ـ مختصر تأليف الدارمي في المتحيرة[١].

٥٤ ـ مختصر التذنيب[٢].

٥٥ ـ مختصر الترمذي[٣].

٥٦ ـ مختصر التنبيه[٤].

٥٧ ـ مسألة نية الاغتراف[٥].

٥٨ ـ المقاصد[٦].

---

(١) ذكره السيوطي في «المنهاج السوي» ص (٧٤)، وقال: «أحال عليه في شرح المهذب». وقال الإمام النووي في «المجموع على شرح المهذب» ص (٢/٤٣٤): «.. حتى صنف الدارمي فيها مجلدة ضخمة ليس فيها غير مسألة المتحيرة وتقديرها، وتحقيق أصولها، واستدراكات كثيرة استدركها هو على كثير من الأصحاب. وسترى ما أنقل منها هنا من نفائس التحقيق ـ إن شاء الله تعالى ـ، وقد كنت اختصرت مقاصد تلك المجلدة في نحو خمس كراريس، وقد رأيت الآن الاقتصار على نبذة يسيرة من ذلك».

(٢) ذكره السخاوي في «ترجمة الإمام النووي» ص (٦١)، والسيوطي في «المنهاج السوي» ص(٧٣)، وقال: «سماه مؤلفه «المنتخب»، وقد أسقط في آخر الفصل السادس أوراقًا تزيد على الكراس. فلم يختصره».

وعدّه بعضهم من الكتب المفقودة.

(٣) «مختصر الترمذي»: قال السيوطي في «المنهاج السوي» ص (٧٣): «مجلد، وقفت عليه بخطه، مسوّدة. وبيض منه أوارقًا».

(٤) ذكره السخاوي في «ترجمة الإمام النووي» ص (٦١)، والسيوطي في «المنهاج السوي» ص (٧٤)، وقالا: «كتب منه ورقة واحدة»، وعدَّه بعضهم من الكتب المفقودة.

(٥) ذكره السخاوي في «ترجمة الإمام النووي» ص (٦٢)، وعدَّه بعضهم من الكتب المفقودة.

(٦) قال محقق كتاب تحفة الطالبين ص(٩١)، رسالة صغيرة في التوحيد والعبادات، طبعت عدة مرات ـ فيما أعلم ـ في بيروت. عن المطبعة الأهلية، سنة (١٣٢٤ هـ ـ ١٩٠٦هـ) في ص (١٦)، ومن ثم في سورية عن دار الأرقم، دون تاريخ، ولم يذكرها مترجموا النووي له فيما وقفت عليه، ونسبها له الزركلي في «الأعلام» (٩/ ١٨٥)، وشكك بعضهم في صحة نسبتها للإمام النووي!

٥٩ ـ مناقب الشافعي[١].

٦٠ ـ مناقب علي بن أبي طالب[٢].

٦١ ـ مهمات الأحكام[٣].

٦٢ ـ المنتخب من كتاب التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد[٤].

٦٣ ـ المبهم من حروف المعجم[٥].

٦٤ ـ مرآة الزمان في تاريخ الأعيان[٦].

---

(١) ذكره السيوطي في «المنهاج السوي» ص (٧٤)، وقال:
«أحال عليه في شرح المهذب».
والسخاوي في «ترجمة الإمام النووي» ص (٦١)، وقال: «اختصر فيه كتاب البيهقي الحافل في ذلك بحذف الأسانيد، وهي في مجلد». وذكره الزركلي في «الأعلام» (٩/ ١٨٤)، ضمن كتبه المخطوطة.

(٢) قال محقق كتاب تحفة الطالبين: «ذكره له الأستاذ خضر إبراهيم سلامة في «فهرس مخطوطات المكتبة البديرية» (٢/ ٥٥٣)، تحت رقم (٥٥٣ / التاريخ ٩/ ٢٨٠/ ب).
قلت: هو جزء من «تهذيب الأسماء واللغات» (١/ ٣٤٤ـ٣٤٩)، بدليل وافق ديباجة المخطط فيما ذكره الأستاذ خضر مع ما في الكتاب المذكور، والله تعالى أعلم.

(٣) ذكره السخاوي في «ترجمة الإمام النووي» ص (٦١)، والسيوطي في «المنهاج السوي» ص (٧٣)، وقالا: «هو قريب من التحقيق في كثرة الأحكام، إلا أنه لم يذكر فيه خلافًا، وقد وصل فيه إلى أثناء طهارة الثوب والبدن».
وعده بعضهم من الكتب المفقودة.

(٤) ذكره التجيبي في «برنامجه» ص (٢٦٠)، وقال: «تأليف: الحافظ أبي بكر محمد بن عبدالغني بن نقطة البغدادي، رحمه الله، انتخبه محيي الدين أبو زكريا النواوي ـ رحمه الله تعالى ـ».

(٥) ذكره له صاحب «إيضاح المكنون» ص (٤٢٥/ ٢).

(٦) ذكره له صاحب «كشف الظنون» ص (١٦٤١/ ٢).

٦٥ ـ منار الهدى في الوقف والابتداء[١].

٦٦ ـ ما تمن إليه حاجة القارئ لصحيح الإمام البخاري[٢].

٦٧ ـ مختصر صحيح مسلم[٣].

٦٨ ـ النهاية في اختصار الغاية[٤].

٦٩ ـ نكت على الوسيط[٥].

٧٠ ـ نكت المهذب[٦].

٧١ ـ نكت التنبيه[٧].

---

(١) ذكره له الزركلي في «الأعلام» (٩/ ١٨٥)، وقال :
«إنه مطبوع». ولقد عدّه محقق كتاب تحفة الطالبين من الكتب المنسوبة للإمام خطأ، انظر ص(٩٣).

(٢) ذكر محقق كتاب تحفة الطالبين ص (٨٣).
أنه هذا الكتاب مستل من كتاب شرح البخاري، حيث قال: «واستل منه صديقنا الفاضل علي حسن عبدالحميد المقدمة، وعمل على تحقيقها، ونشرها باسم. ما تحسن إليه حاجة القارئ الصحيح الإمام البخاري» في بيروت، عن دار الكتب العلمية، دون تاريخ.

(٣) جاء في ترجمة الإمام النووي للسخاوي ص (٦٠ ـ ٦١).
ابن الملقن فوقف في نسبته له، قال: «وأن مصنفه أخذ تراجمه من شرح صحيح مسلم له، وركب عليها متونة وعزاه إليه».

(٤) قال الأسنوي : «وينسب إليه تصنيفان ليس له : «النهاية في اختصار الغاية»، والثاني: «أغاليط على الوسيط».
ترجمة الإمام النووي ص (٦٢)، والمنهاج السوي ص (٧).

(٥) أشار إليه في مقدمة المجموع ص(٣/ ١)، وذكره ابن قاضي شهبة (٢/ ١٥٧)، والسيوطي (٧٢).

(٦) ذكره السيوطي (٧٣).

(٧) ذكره الإسنوي قال: وهي من أوائل ما صنف لا ينبغي الاعتماد على ما فيها من التصحيحات، قال: ولعل جمعها من كلام شيوخه وذكره ابن قاضي شهبه ص (١٥٧/ ٢)، والسيوطي ص (٧١ـ٧٢).

٧٢ ـ . . . . الترجيحات في الأحاديث الموهمة التعارض[١] .

هذا ما وقفت عليه من كتب الإمام النووي بعد الفحص والتتبع ، في الكتب التي جمعت تلك الكتب وسردتها ، وعلقت على بعضها وجعلت بعضها من المخطوط والمفقود ، وبعضها مشكوك في نسبته إليه ، وبعضها مستلة من بعض كتبه ، وبعضها ليست على وجه اليقين . والله أعلم

* * *

(١) أشار في مقدمة مسلم ص (١/٣٨) إلى أنه جمعها مختصرة من كتاب الناسخ والمنسوخ لأبي بكر الحازمي .

جـ ـ مذهبه وعقيدته:

أ ـ مذهبه الفقهي:

يذكر كثير من المصادر التي ترجمت للإمام النووي ـ رحمه الله ـ بأنه كان شافعيًا في مذهبه الفقهي، بل هو محرره كما وصفه بذلك السيوطي وغيره فقال: (محرر المذهب ومهذبه، ومحققه ومرتبه)[١].

ولقد فسر الزين العراقي[٢] عبارة السيوطي فقال: (عادة المتقدمين السكوت على ما أورده من الأحاديث في تصانيفهم من غير بيان لمن أخرج ذلك الحديث من أئمة الحديث، ومن غير بيان للصحيح من الضعيف إلا نادراً وإن كان من أئمة الحديث، ولكنهم مشوا على عادة من تقدمهم من الفقهاء، حتى جاء الشيخ محيي الدين النووي، فصار يُسند في تصانيفه الفقهية الكلام على الحديث وبيان من أخرجه وبيان صحيحة من ضعفه، قال: وهذا أمر مهم مفيد فجزاه الله خيراً)[٣].

فغدا الإمام النووي ـ رحمه الله ـ بذلك محرر المذهب، لا يفتَى في المذهب إلا

---

(١) المنهاج السوي للسيوطي، ص: ٣٨.

(٢) هو: عبدالرحيم بن الحسين بن عبدالرحمن بن أبي بكر بن إبراهيم المهراني المولد، العراقي الأصل، الكردي، نزيل القاهرة، الشيخ زين الدين أبو الفضل، الشهير بالعراقي، ولد سنة (٧٢٥هـ) وأحب علم الحديث فعني به، فتقدم فيه واشتهر به، حتى صار المنظور إليه في هذا الفن له مصنفات عدة منها: نظم الألفية في علوم الحديث المعروف بألفية العراقي، و «المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء عن الأخبار» وهو تخريج لأحاديث (إحياء علوم الدين) للغزالي. وغير ذلك توفي سنة ٨٠٦هـ. انظر: أنباء العمر ص ٢٧٥ ـ ٢٧٩/ ٢، والجواهر والدرر ٦٧/ ١١، والضوء اللامع ص ١٧٥ ـ ١٧٧/ ٤.

(٣) الفوائد المدنية في بيان اختلاف العلماء من الشافعية للكردي ص ٢٦، نقلاً عن كتاب الإمام النووي وأثره في الحديث وعلومه ص ٢١.

بكلامه أو بكلام الرافعي[1]، وجرىٰ الاصطلاح في المذهب تسميتهما بالشيخين.

قال ابن حجر الهيتمي[2] الفقيه (أجمع المحققون علىٰ أن المفتي به ما ذكراه أي الرافعي والنووي، أي إذا اختلفا، وعلىٰ أنه لا يفتىٰ عمن يعترض عليهما بنص الأم أو كلام الأكثرين أو نحو ذلك. قال: لأنهما أعلم بالنصوص وكلام الأصحاب من المعترض عليهما، فلم يخالفاه إلا لموجب علمه من علمه وجهله من جهله)[3].

وأفتىٰ بمثل ذلك الإمام الرملي[4] فقال: (من المعلوم أنّ الشيخين قد اجتهدا في تحرير المذهب غاية الاجتهاد، ولهذا كانت عنايات العلماء وإشارات من سبقنا من الأئمة المحققين متوجهة إلىٰ ما عليه الشيخان والأخذ بما صححاه بالقبول والإذعان، مؤيدين ذلك بالدليل والبرهان، فإذا انفرد أحدهما عن الآخر فالعمل ما عليه الإمام النووي، قال: وما ذاك إلا لحسن النية وإخلاص الطوية)[5].

ب ـ مذهبه العقدي:

لقد استوقفني هذا الأمر في التعريف بالإمام النووي ـ رحمه الله ـ ولكون موضوع بحثي هو بيان منهجه في تقرير مسائل الاعتقاد من خلال كتابه «شرح صحيح مسلم»

---

(١) هو شيخ الشافعية عالم العجم والعرب، إمام الدين أبو القاسم عبدالكريم ابن العلامة أبي الفضل محمد بن عبدالكريم الرافعي القزويني ولد سنة خمس وخمسين انتهت إليه معرفة المذهب له (الفتح العزيز في شرح الوجيز). توفي سنة ثلاث وعشرين وستمائة. انظر: تهذيب سير أعلام النبلاء ص٢٠٧/ ٣.

(٢) هو أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي (نسبة إلىٰ محله «أبي الهيتم» من إقليم الغربية بمصر) السعدي، المكي شهاب الدين، أبو العباس، ولد سنة (٨٩٩هـ)، وتوفي سنة (٩٧٣هـ أو ٩٧٤هـ). انظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي ص ٣٧٠ ـ ٣٧٢/ ٨.

(٣) الفوائد المدنية، ص: ١٩، نقلاً عن كتاب الإمام النووي وأثره في الحديث وعلومه ص ٢١.

(٤) لم أجد له ترجمة.

(٥) الفوائد المدينة، ص: ٢١، وانظر هذا المبحث في الكتاب المذكور ص: ١٦ ـ ٢٩، نقلاً عن كتاب الإمام النووي وأثره في الحديث وعلومه ص ٢١.

وله علاقة وثيقة بالمذهب الذي كان عليه في العقيدة في حياته.

ولكن الكتب التي ترجمت للإمام النووي وخاصة القديمة منها - لا تكاد - تكشف عن شيء يتعلق بمذهبه العقدي، اللهم إلا عبارات قالها السخاوي عن الشيخ أبو عبدالرحيم محمد الأخميمي[1]، يقول فيها عن الإمام النووي -: (كان الشيخ سالكًا منهج الصحابة رضي الله تعالى عنه، ولا أعلم أحدًا في عصره - سالكًا على مناهجهم غيره) [2]وعلق السخاوي على ذلك فقال: (قلت: ونقل التاج السبكي في التوشيح عن والده: أنه قال: ما اجتمع بعد التابعين الجموع الذي اجتمع في النووي، ولا التيسير الذي يُسر له)[3].

وقال في موضع آخر من الكتاب نفسه (قلت: وصرح اليافعي والتاج السبكي - رحمهما الله - أنه أشعري، وقال الذهبي في (تاريخه) أن مذهبه في الصفات السمعية السكوت وإمرارها كما جاءت، وربما تأول قليلاً في شرح مسلم. كذا قال: والتأويل كثير في كلامه)[4] فقوله - سابقًا - «على منهاج الصحابة» يفهم منه أن الإمام النووي كان على المذهب الحق، ومعلوم أن مذهب الصحابة في العقيدة، هو ما كان عليه الرسول ﷺ، وهو مذهب أهل السنة والجماعة قاطبة، وهذا المذهب مدّون في كتب السنة، وكتب العقيدة التي ألفها أئمة السلف وأتباعهم في كل عصر ومصر.

وأما قول السخاوي: «أن اليافعي والسبكي قد صرحا بأنه أشعري، مع أنه نقل عن الأخميمي - قوله السابق - بأنه كان على منهاج الصحابة - يفسره ما تناولته من قبل فيما سبق في الكلام على عصر الإمام النووي وهو أن المذهب الأشعري في العقيدة كان هو المذهب الذي عمل الأيوبيون وخلفهم المماليك على تثبيته في دولتهم، وهو ما

---

(١) لم أجد له ترجمة.

(٢) المنهل العذب الروي، ص ١١١.

(٣) المصدر نفسه ص ١١١.

(٤) المنهل العذب الروي للسخاوي، ص١١٦.

قاله عنه الأخميمي (منهاج الصحابة) ووصف المذهب الأشعري في العقيدة بذلك على الإطلاق غير مسلّم لما أشرت إليه سابقًا بأن في العقيدة الأشعرية أموراً خالفت منهاج الصحابة والذي هو عقيدة أهل السنة والجماعة، وأهم ذلك تأويلهم لكثير من الصفات الإلهية الثابتة بنصوص الكتاب والسنة، وهذا ما أشار إليه السخاوي حين قال: «والتأويل كثير في كلامه».

وهو بقوله هذا يرد على كلام الذهبي حين قال: «إن مذهبه في الصفات السمعية السكوت وإمرارها كما جاءت، وأنه تأول قليلاً في شرح مسلم».

وأقول أن الإمام النووي أول الكثير من الصفات الإلهية في شرحه لصحيح مسلم والأدلة على ذلك أكثر من أن تحصر[1].

كذلك وصفه السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى» بـ «شيخ الإسلام» أستاذ المتأخرين، وحجة الله على اللاحقين، والداعي إلى سبيل السالفين وله الزهد والقناعة، ومتابعة السالفين من أهل السنة والجماعة»[2].

قلت: عندما يطلق السبكي وغيره من الأشعرية أهل السنة والجماعة، فيريدون بهم الأشاعرة أو الماتردية، وصرح بذلك الزبيدي[3].

ولقد كان الإمام النووي -رحمه الله- في عصرٍ قريب عهد بانتشار مذهب، الأشاعرة، (فمن المعلوم أن إمام الأشعرية المتأخر الذي ضبط المذهب وقعد أصوله هو الفخر الرازي (ت ٦٠٦)، ثم خلفه الآمدي (ت٦٣١هـ)، والآرموي (ت ٦٨٢هـ) فنشروا فكره في الشام ومصر، واستوفيا بعض القضايا في المذهب)[4].

فتأثر -رحمه الله تعالى- بكلام هؤلاء وغيرهم، إذ كان ما ضبطوه وقعّدوه هو

---

(١) سوف يتضح ذلك عندما نأتي لمبحث الأسماء والصفات ومنهجه فيها فيما بعد.

(٢) ٣٩٥/ ٨.

(٣) الإتحاف بشرح الاحياء للزبيدي، ص ٦/ ٢.

(٤) منهج الأشاعرة في العقيدة ص ٢٥ للشيخ سفر بن عبدالرحمن الحوالي.

السائد المنتشر آنذاك، لا سيما في الديار الشامية والمصرية، ولم يقيض الله ـ بعد ـ من يمحص كلام هؤلاء، كما وقع لشيخ الإسلام ابن تيمية، فإن كتابه «درء التعارض» ـ مثلاً ـ قائم موضوعه على رد ما كتبه هؤلاء الثلاثة.

وكما إضطرب المتقدمون في عقيدة الإمام النووي رحمه الله اضطرب المطلعون والباحثون المعاصرون، فمنهم من وصفه بأنه «كان سلفيًا في اعتقاده لكنه يؤول أحيانًا إذا دعت الضرورة لذلك»(١).

ومنهم من وصفه بأن (له أغلاط في الصفات وسلك مسلك المؤولين وأخطأ في ذلك فلا يقتدىٰ به في ذلك، بل الواجب التمسك بقول أهل السنة وهو إثبات الأسماء والصفات الواردة في الكتاب العزيز والسنة الصحيحة المطهرة، والإيمان بذلك على الوجه اللائق بالله جل وعلا من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل عملاً بقوله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(٢). وما جاء في معناها من الآيات)(٣).

ومنهم من قال عنه: (لا يصح اعتباره أشعريًا، وإنما يقال: وافق الأشاعرة في أشياء)(٤).

ومنهم من نعته بأنه من أهل السنة في جملة الاعتقاد، ونحتاج نسبته إلى الأشاعرة إلى شيء من البيان والتحقيق، وهو إلى أهل الحديث أقرب من المتكلمين(٥).

ومنهم من قال: «أن التأويل واقع في كلامه كثير(٦)»، وأنه «انطلق فيما سار إليه

---

(١) الإمام النووي وجهوده في التفسير، ص ٣٤٩.

(٢) سورة الشورىٰ، الآية: [١١].

(٣) إجابة اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، جواب السؤال الثاني عشر في الفتوىٰ رقم (٤٢٦٤)، وانظر فتاوىٰ اللجنة، ص ١٦٣/ ٣.

(٤) منهج الأشاعرة في العقيدة، ص(٢٩) للحوالي.

(٥) مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة وموقف الحركات الإسلامية المعاصرة منها، ص ٩٣.

(٦) الردود والتعقبات، ص ٢٠.

في الأسماء والصفات من وجوه مختلفة في فهم النص أدى إلى القول بالتفويض أو التأويل وخاصة في الصفات الخبرية، كالنزول، والفرح، والغضب، والضحك، والإتيان، والمجيء ونحوها. . .

(وهو مع هذا كله ليس أشعريًا صرفًا فلا يرد البتة في كلامه ما يردده الأشاعرة ممن كانوا قبله أو في عصره أو جاءوا بعده في هذا الباب من أقسام الصفات، ثمل: (النفسية، والسلبية) و (صفات المعاني أو الثبوتية) و (الصفات المعنوية[1]))[2].

ومنهم من قال: (وكثيراً ما تجد في كتب الجرح والتعديل ومنها «لسان الميزان» للحافظ ابن حجر قولهم عن الرجل أنه وافق المعتزلة في أشياء من مصنفاته، أو وافق الخوارج في بعض أقوالهم، وهكذا ومع هذا لا يعتبرونه معتزليًا أو خارجيًا، وهذا المنهج إذا طبقناه على الحافظ ابن حجر، وعلى النووي وأمثالهما لم يصح اعتبارهم أشاعرة، وإنما يقال: وافقوا الأشاعرة في أشياء، ومع ضرورة بيان هذه الأشياء واستدراكها عليهم حتى يمكن الاستفادة من كتبهم بلا توجس في موضوعات العقيدة»[3].

وهذه الأقوال كلها لا تبرئ الإمام النووي على إطلاقه، وإنما تبرئه من أن يكون على غرار متكلمي الأشاعرة الذين بنوا عقيدتهم على أصول المذهب الأشعري، ودافعوا عنها.

وبعد: فهذا ما ذكرته بعض المراجع الحديثة عن عقيدة الإمام النووي ـ رحمه الله ـ

---

(١) وعلى هذا التقسيم قام مبحث العقيدة في كتاب المقاصد المنسوب كذبًا وزوراً للإمام النووي ـ رحمه الله تعالى.

قاله أبو عبيدة مشهور من آل سلمان صاحب كتاب «الردود والتعقبات» ص ٢٥، وانظر من نفس الكتاب ص ٢٠، في كلامه على نسبة هذا الكتاب للإمام.

(٢) الردود والتعقبات، ص ٢٥.

(٣) منهج الأشاعرة في العقيدة، ص٢٩، للحوالي.

ويظهر لي أن هذا الاختلاف في تحديد مذهبه العقدي يعود إلى أمرين:

أحدهما: أن الإمام ليس له كتاب مستقل في العقيدة[1] حتى يمكن من خلاله معرفة مذهبه العقدي.

والآخر: عدم وجود دراسة علمية متجردة، ومستقصية لأراء الإمام العقدية في جميع مصنفاته الموجودة. وعلى الرغم مما في هذه الدراسة من الصعوبة المتناهية لكثرة مصنفاته، وكبر حجم بعضها من جانب، ولكون بعضها مخطوطات متفرقة في مكتبات العالم من جانب آخر، لكنّ هذا النوع من الدراسة - إن حصلت - فإنه يعطي التصور الذي يمكن به الحكم على مذهبه في العقيدة، إذ الحكم على الشيء فرع عن تصوره.

ولذلك نرى أن الأقوال التي سبق ذكرها اعتمد كل واحد منها على بعض الدلائل التي ظهرت له من كلام الإمام في بعض مصنفاته، وبخاصة كتابه العظيم «شرح صحيح مسلم»، ولكنّ أيًا منها لم ينطلق عن مثل تلك الدراسة التي أشرت إليها. ولذلك لم تتفق على الحكم. والعلم عند الله تعالى ومع ما سبق، لابد من التنبيه هنا على أمور منها:

١ - أنّه قد تبين لي من دراسة حياة الإمام النووي العلمية أن علم العقيدة من العلوم التي لم يعتني بها الإمام النووي كثيرًا، وقد اشتغل بعلم الحديث أكثر منها، وكان كثير النقل في مسائل العقيدة عن من سبقه كالإمام القاضي عياض، والإمام المازري، وهؤلاء هم على العقيدة الأشعرية، ولم يكن ضمن تلك الكتب التي نقل عنها الكتب التي تمثل المنهج السلفي والتي كتبها علماء السلف في تقرير العقيدة الإسلامية الصحيحة أو في الرد على المنحرفين.

---

(١) وهذا في حد علمي، إذا لم يرد في أسماء مصنفاته اسم مصنف شامل في أبواب العقيدة سوى كتاب المقاصد، وهو كتاب منسوب إليه كما ذكر ذلك أكثر من واحد من المحققين.

٢ - إن الإمام قد نشأ وعاش في بيئة أشعرية وصوفية، وتلقى العلم على أيدي علماء معظمهم - إن لم يكن جميعهم - كانوا على المذهب الأشعري في الاعتقاد. ولا شك أن للبيئة أثرها القوي على الشخص وعلى أفكاره واتجاهاته إلا ما شاء الله تعالى.

وبالنسبة للإمام النووي يظهر أن صلته بعلم الأثر، قد أنجاه من التورط في مهالك منهج الخلف في العقيدة، ولكن يصعب في مثل هذه الحال التخلص تمامًا من جميع أوضار البيئة. ولكن كانت هناك شبهات قوية جعلت الإمام يميل إلى المذهب الأشعري في بعض المسائل العقدية عن اجتهاد وحسن نية منه ظانًا أنه الصواب.

ورحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية عندما قال: (وقلّ طائفة من المتأخرين إلا وقع في كلامها نوع غلط لكثرة ما وقع من شبه أهل البدع، ولهذا يوجد في كثير من المصنفات في أصول الفقه، وأصول الدين، والفقه، والزهد، والتفسير والحديث، من يذكر في الأصل العظيم عدّة أقوال، ويحكي من مقالات الناس ألوانًا، والقول الذي بعث الله به رسوله لا يذكره، لعدم علمه به، لا كراهية لما عليه الرسول»[١].

وقوله السابق ينطبق تمامًا على الإمام أبي زكريا النووي رحمه الله تعالى.

٣ - إن الغرض من هذه الدراسة ليس مثل غرض من يتكأ على زلات العلماء وسقطات الفضلاء، ويتترس بها، مزخرفًا القول بغرور، وملبسًا على العوام والدهماء بشرور، منقطعًا بذلك غير مراع لحرمة أحد من أهل المنهج الحق.

والأصل في هذا المضمار ما أصله وقعده ودوّنه شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم، فإنهما رحمهما الله أزاحا الستار، وكشف العور الموجود عند الأشرار من المبتدعين الفجار، ونبها على ما يخالف الحق الواقع في كلام بعض الأخيار، على نحو ما وقع

---

(١) وقد سبق بيان ذلك عند الكلام على الحالة الدينية في عصر الإمام.

للإمام النووي الذي هو منهم، وإن كان لم يوفق لمتابعة منهج أهل الآثار في بعض المسائل العقدية الواردة في بعض الأخبار، عفى الله عنا وعنه.

٤ - وأريد في هذا المقام أن أنبه على أمر مهم جداً، وهو إنّ في الأشعرية علماء لهم قدم في خدمة الشّريعة أمثال: الحافظين أبي بكر البيهقي، وأبي القاسم بن عساكر، والإمام العزّ بن عبدالسلام، وغيرهم من فضلاء الأشعرية نذكرهم بما لهم من المحاسن. غير أننا نبه على ما وقعوا فيه من البدعة، فإن الحق لا محاباة فيه، ولا تحرمنا بدعتهم من الانتفاع بعلومهم في السنن والفقه والتفسير والتاريخ وغير ذلك، مع الحذر.

ولنا أسوة بالسلف والأئمة فإنهم رووا عن الكثير من المبتدعة لعلمهم بصدقهم.

ونجتنب التكفير والتضليل والتفسيق للمعين من هذا الصنف من العلماء، فإنه هذا ليس من منهج السلف، وإنما نكتفي ببيان بدعته وردها إذا تعرضنا لها.

وهذا كله في حق العالم إذا لم تغلب عليه البدع والأهواء، وعلمنا منه حرصه على متابعة الرسول ﷺ، وتحري الحق من الكتاب والسنة إلا أنه لم يصبه لشبهة ما أو غير ذلك)[1]. وهذا شأن الإمام النووي - رحمه الله تعالى - فإن له اجتهاداً في طلب الحق، والوقوف عليه، والأخذ به - ولا نزكي على الله أحداً.

وقال الإمام ابن تيمية في شأن الحكم على العالم المتأول الذي من عادته وديدنه الوقوف على الحق (وليس لأحد أن يتبع زلات العلماء، كما ليس له أن يتكلم في أهل العلم والإيمان إلا بما هم له أهل، فإن الله تعالى عفا للمؤمنين عما أخطؤوا، كما قال

---

(١) العقيدة السلفية في كلام رب البرية، وكشف أباطيل المبتدعة الردية (ص٤٤٩) تأليف: عبدالله بن يوسف الجديع.

تعالىٰ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[1].

قال الله: «قد فعلت»[2].

فأمرنا أن نتبع ما أنزل إلينا من ربنا ولا نتبع من دونه أولياء، وأمرنا أن لا نطيع مخلوقًا في معصية الخالق، ونستغفر لإخواننا الذين سبقونا بالإيمان، فنقول: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾[3]، وهذا أمر واجب على المسلمين في كل مكان يشبه هذا من الأمور ونعظم أمره تعالىٰ بالطاعة لله ورسوله، ونرعىٰ حقوق المسلمين، لا سيما أهل العلم منهم، كما أمر الله ورسوله، ومن عدل عن هذه الطريق فقد عدل عن اتباع الحجة إلىٰ اتباع الهوىٰ في الثقلين، وأذىٰ المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا، فهو من الظالمين، ومن عظم حرمات الله، وأحسن إلىٰ عباد الله، كان من أولياء الله المتقين، والله سبحانه أعلم)[4].

٥ ـ أنه لا سبيل ـ بناء علىٰ ما سبق ـ إلىٰ الجزم بكون الإمام أشعري العقيدة علىٰ طريقة علماء الأشاعرة المعروفين، أو كونه سلفي العقيدة في كليات العقيدة وجزئياتها، وإنما الذي ينبغي هو النظر فيما وافق فيه السلف أو الخلف والموازنة بينهما لمعرفة ما غلب عليه من المنهجين، ولا يتأتىٰ ذلك إلا بدراسة علمية متجردة لمصنفاته ـ كما سبق الإشارة إليه ـ ولعلّ هذا البحث الذي أنا بصدده يسهم في تقريب هذا الأمر لا سيما كتاب «شرح صحيح مسلم» وهو أكبر وأهم كتب الإمام التي تعرض فيها للبحث في مسائل العقيدة، والذي تبين من خلالها أنه ليس أشعريًا صرفًا كما سيأتي بيانه فيما بعد والله تعالىٰ أعلم بالصواب.

---

(١) سورة البقرة، الآية: [٢٨٦].

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه رقم (١٢٦).

(٣) سورة الحشر، الآية: [١٠].

(٤) مجموع الفتاوىٰ، ص ٢٣٩/ ٣٢.

ب: التعريف بكتاب «شرح صحيح مسلم»

* كلمة بين يدي التعريف .

* اسم الكتاب .

* زمن وطريقة تأليفه .

* نوع الشرح ومنهجه .

* مميزاته .

* الملاحظات عليه .

* مكانته وقيمته العلمية من خلال أقوال العلماء .

* * *

كلمة بين يدي التعريف بـ «شرح صحيح مسلم للنووي».

قبل الشروع في هذا التعريف لابد من التنبيه على أنه ليس المقصود هنا كتابة تعريف مفصل شامل لجميع ما يمكن الكلام فيه فيما يتعلق بهذا الكتاب العظيم، فإن ذلك يحتاج إلى بحث مستقل.

ولكن لما كان البحث يتركز على هذا الكتاب وحده، كان من المناسب تقديم تعريف مقتضب يفيد القارئ عنه معرفة إجمالية ويبين أهميته.

ولذا سيكون التعريف قاصراً على النقاط السبعة السابقة، وبالله التوفيق.

* * *

اسم الكتـــاب

واشتهر باسم (شرح مسلم) فقط، وحكاه بهذه التسمية المشهورة كثير من عدد مصنفات النووي، ووردت تسميته باسم «المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج» عند ابن قاضي شهبة، والسخاوي، وابن العماد في الشذرات، وسزكين في تاريخ التراث[١]، وذكر له بروكلمان إضافة إلى هذا الاسم إسماً آخر. هو «منهاج المحدثين وسبيل تلبية المحققين»[٢]، ولعل هذا هو اسمه الكامل، غير أن من ذكروه في مؤلفات النووي ما لوا إلى اختصار التسمية فكانوا بين مخل ومتوسط. أما من أخل في الاختصار فذكره بالمضمون وهو شرح مسلم، وأما من توسط فذكره باسم المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج[٣].

ولقد أشار إليه الإمام في كلٍ من كتابه تهذيب الأسماء[٤]، وفي شرح البخاري[٥]، وفي بستان العارفين[٦].

وعزاه إليه إلى من غالب من ترجم له، كابن العطار[٧]، واللخمي[٨].

---

(١) ص ٢١٢ ـ ٢١٥/ ١.

(٢) تاريخ الأدب العربي ص ١٨١/ ٣.

(٣) وانظر كتاب: (تحقيق اسمي الصحيحين واسم جامع الترمذي) بقلم عبدالفتاح أبو غدة، ص٣٣ ـ ٥٢.

(٤) ص ٩٨/ ١، ٩٠/ ٢.

(٥) ص ١١٧، ٢١٨، ٢٦١، ٢٦٢.

(٦) ص ١٧٩.

(٧) ص ٧٥ باسم المنهاج في شرح صحيح مسلم.

(٨) في ترجمته ص ٥/ ١.

والذهبي[1]، وابن كثير[2]، واليافعي[3]، وابن قاضي شهبة[4]، وغيرهم ممن تقدم ذكرهم عدا السيوطي، والزركلي.

* * *

(1) تذكرة الحفاظ ص ١٤٧٢/ ٤.

(2) البداية والنهاية لابن كثير ص ٢٧٩/ ١٣.

(3) مرآة الجنان، ص١٨٢/ ٤.

(4) الطبقات ١٥٦/ ٢.

سبب تأليفه

يستفاد من كلام الإمام النووي في افتتاحية كتابه «شرح صحيح مسلم» أن أهمية صحيح مسلم، وكونه متلقىٰ بالقبول لدىٰ المسلمين عامة، هو السبب الحامل له علىٰ تأليف الشرح له[1].

وهذا السبب معلوم بطبيعة الحال، كما أنه مشتمل علىٰ ما ذكرناه علىٰ بيان حال أفضل المخلوقات[2]، وأيضًا رغبته في المشاركة في العناية بعلم الحديث الشريف[3].

كما أن من الأسباب التي دفعته لتأليف هذا الكتاب ويمكن استشفاف ذلك من قوله: (ولقد كان أكثر اشتغال العلماء بالحديث في الأعصار الخاليات، حتىٰ لقد كان يجتمع في مجلس الحديث من الطالبين ألوف متكاثرات، فتناقص ذلك وضعفت الهمم فلم يبق إلا آثار من آثارهم قليلات والله المستعان علىٰ هذه المصيبة وغيرها من البليات. وقد جاء في فضل إحياء السنن المماتات أحاديث كثيرة معروفات مشهورات. فينبغي الإعتناء بعلم الحديث والتحريض عليه لما ذكرناه من الدلالات ولكونه أيضًا من النصيحة لله تعالىٰ وكتابه ورسوله ﷺ وللأئمة وللمسلمين والمسلمات، وذلك هو الدين كما صح عن سيد البريات صلوات الله وسلامه عليه وعلىٰ آله وصحبه وذريته وأزواجه الطاهرات)[4].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١/١٣، المقدمة.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١/١٢ المقدمة.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص١٢/ ١ المقدمة.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٢-١/١٣.

زمن وطريقة تأليفه:

أ ـ زمن تأليفه:

صرح النووي أنه ألفه بعد سنة أربع وسبعين وست مئة، أي قبل وفاته بأقل من سنتين[1].

ب ـ طريقة تأليفه:

إتبع الإمام في تأليف كتابه طريقة النقل من المؤلفات التي ألفت من قبله في شرح صحيح مسلم وقد نقل كثيراً من شرح المازري، والقاضي عياض، ولكنه رحمه الله لم يكتفِ بالنقل عنهم، فلقد استفاد منهم وزاد عليهم فهذب ونقح، ووسع البحث وأوضح، هذا مشاهد بالعيان لا يمتري فيه إثنان ـ قال ابن كثير في وصف «شرح مسلم» «إنه جمع فيه شروحات من تقدم من المغاربة وغيرهم، وزاد فيه ونقص»[2].



(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص٥٠/ ١٢.

(٢) نقلاً عن كتاب المنهل العذب الروي، للسخاوي، ص٨٩.

نوع الشرح ومنهجه

في «شرح صحيح مسلم»

أ ـ نوع الشرح[1]:

الذي يقرأ في «شرح صحيح مسلم» يجد أن نوع الشرح فيه هو ما يعرف بالشرح الموضعي، أو الشرح بالقول، وهو الذي يتصدىٰ فيه الشارح لمواضع معينة من سند الحديث ومتنه، فيذكر اللفظ أو العبارة ويصدرها بكلمة (قوله)، ثم بعد ذلك يشرح اللفظ أو العبارة من مختلف جوانبها، وإن تعددت موضوعاتها.

ب ـ منهج الشرح:

بين الإمام النووي ـ رحمه الله ـ منهجه في الشرح فقال: (وأما صحيح مسلم رحمه الله فقد استخرت الله تعالىٰ الكريم الرؤوف الرحيم في جمع كتاب في شرحه متوسط بين المختصرات والمبسوطات. لا من المختصرات المخلات، ولا من المطولات المملات. ولولا ضعف الهمم وقلة الراغبين وخوف عدم انتشار الكتاب لقلة الطالبين

---

(١) أنواع الشرح ـ بالتتبع ـ ثلاثة:

أ ـ الشرح الموضعي: وهو المذكور أعلاه.

ب ـ الشرح الموضوعي: وهو شرح بحسب موضوعات الكتاب المشروح لا بحسب ترتيبه، بحيث يقوم الشارح بتقسيم الكتاب إلىٰ موضوعات، ويشرح كل موضوع علىٰ حدة، ولو اقتضىٰ ذلك شرح المتأخر في السياق قبل المتقدم منه.

جـ ـ الشرح الممزوج: وهو الذي يذكر النص المشروح ممزوجًا بشرحه بحيث لا يتميز المتن إلا بوضعه بين أقواس، أو بتحبير نوع خطه، أو لون الحبر الذي كتب به. أفاده الدكتور أحمد معبد عبدالكريم، في مقدمة تحقيقه لكتاب. النفح الشذي في شرح جامع الترمذي، لابن سيد الناس ص ٩١ ـ ٩٢.

للمطولات. لبسطته فبلغت به ما يزيد على مائة من المجلدات. من غير تكرار ولا زيادات عاطلات. بل ذلك لكثرة فوائده وعظم عوائده الخفيات والبارزات وهو جدير بذلك فإنه كلام أفصح المخلوقات ﷺ صلوات دائمات. لكني أقتصر على التوسط وأحرص على ترك الإطالات. وأوثر الإختصار في كثير من الحالات. فأذكر فيه إن شاء الله جملاً من علومه الزاهرات من أحكام الأصول والفروع والآداب والإشارات الزهديات. وبيان نفائس من أصول القواعد الشرعيات. وإيضاح معاني الألفاظ اللغوية وأسماء الرجال وضبط المشكلات. وبيان أسماء ذوي الكنى وأسماء أباء الأبناء والمبهمات. والتنبيه على لطيفة من حال بعض الرواة وغيرهم من المذكورين في بعض الأوقات.

واستخراج لطائف من خفيات علم الحديث من المتون والأسانيد المتضادات وضبط جمل من الأسماء المؤتلفات والمختلفات. والجمع بين الأحاديث التي تختلف ظاهرا ويظن بعض من لا يحقق صناعتي الحديث والفقه وأصوله كونها متعارضات. وأنبه على ما يحضرني في الحال في الحديث من المسائل العمليات. وأشير إلى الأدلة في كل ذلك إشارات إلا في مواطن الحاجة إلى البسط للضرورات. وأحرص في جميع ذلك على الإيجاز وإيضاح العبارات. وحيث أنقل شيئًا من أسماء الرجال واللغة وضبط المشكل والأحكام. المعاني وغيرها من المنقولات.

فإن كان مشهورًا لا أضيفه إلى قائليه لكثرتهم إلا نادرًا لبعض المقاصد الصالحات. وإن كان غريبًا أضفته إلى قائليه إلا أن أذهل عنه في بعض المواطن لطول الكلام أو كونه مما تقدم بيانه في الأبواب الماضيات. وإذا تكرر الحديث أو الاسم أو اللفظة من اللغة بسطت المقصود منه في أول مواضعه وإذا مررت على المواضع الأخر ذكرت أنه تقدم شرحه وبيانه في الباب الفلاني من الأبواب السابقات. وقد أقتصر على بيان تقدمه من غير إضافة أو أعيد الكلام فيه لبعد الموضع الأول أو ارتباط كلام أو نحوه أو غير ذلك من المصالح المطلوبات. وأقدم في أول الكتاب جملاً من المقدمات

مما يعظم النفع به إن شاء الله تعالى ويحتاج إليه طالبوا التحقيقات . وأرتب ذلك في فصول متتابعات . ليكون أسهل في مطالعته وأبعد من السآمات)[1] .

ثم قال : (وأنا مستمد المعونة والصيانة واللطف والرعاية من الله الكريم رب الأرضين والسموات ، ومبتهلاً إليه سبحانه وتعالى أن يوفقني ووالدي ومشايخي وسائر أقاربي وأحبابي ومن أحسن إلينا بحسن النيات ، وأن ييسر لنا الطاعات ، وأن يهدينا لها دائمًا في ازدياد حتى الممات)[2] .



(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٣ ـ ١٤/ ١ مقدمة الشارح .

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٤/ ١ المقدمة .

ميزات «شرح مسلم»

لقد امتاز شرح الإمام النووي على غيره من الشروح بميزات كثيرة، وليس بالإمكان الإحاطه بها جميعًا، ومن أهم تلك الميزات - في نظري - ما يأتي:

١) إن الإمام النووي - رحمه الله - لم يكن ناقلاً فقط كما يزعم البعض، بل لو سلم ذلك، لما كانت عليه غضاضة فيه، لأنه إن نقل فلا ينقل إلا عمن يركن إليه، ونقله عنه يعد تقوية له.

ولكن لبيان الحقيقة يلزم القول بأنه - رحمه الله - لا ينقل إلا حين يجد أنه قد سبق إلى ذلك القول.

٢) حله للإشكالات الحديثية من حيث المعاني أو من حيث تعارض الروايات، فقد كانت له اليد الطولى في رفعها في هذا الكتاب بل وفي سائر كتبه، عند عثوره على شيء من ذلك[١].

٣) دقة معرفته بدلالات الألفاظ الحديثية، فلقد كان - رحمه الله - ممن جمع بين الفقه والحديث، واستنباط الأحكام الشرعية من الأدلة، وهذا غير يسير على كل أحد، إذ أن ملكة الاستنباط لا تحصل إلا لمن تبحر في العلوم وأتقن الفنون، ولقد كانت ملكته في الاستنباط كاملة ومعرفته لمواطن الدلالات محكمة، عُني كثيراً بتبيان المستفادات الحديثية من الأحكام والآداب الشرعية، ويتعقب من يستدل في غير موضع الدليل.

أما تبيينه للمستفادات الحديثية، فكثيرة بحيث تغني كثرتها عن التمثيل لها.

وأما تعقبه على من استدل من الحديث على دلالة فيه، فإنه وإن كان كثيراً إلا أنه لتباعد مواطنه يصعب تتبعه، وتيسيراً لبيانه أذكر بعض الأمثلة على ذلك. فمن ذلك

---

(١) انظر مثال ذلك ص١٩٣/ ١، وص ٣٦-٣٨/ ٢.

حديث المسيء ووضوءه، قال الإمام: (واستدل القاضي عياض ـ رحمه الله ـ وغيره بهذا الحديث على وجوب الموالاة في الوضوء، لقوله ﷺ: «أحسن وضوءك» ولم يقل: (اغسل الموضع الذي تركته) قال: (وهذا الاستدلال ضعيف أو باطل، فإن قوله ﷺ «أحسن وضوءك» محتمل للتعميم والاستئناف، وليس حمله على أحدهما أولى من الآخر والله أعلم[1].

٤) دقة معرفته لأسرار مسلم ولطائفه في صحيحه[2].

٥) مع ما فهم عنه من تعظيمه لمسلم وكتابه الصحيح وغير ذلك مما لم أذكره من إشاراته المتكرره إلى تفخيمه[3] مع ذلك كله، فإنه لم يعف الإمام مسلماً من المؤخذات العلمية التي لا يسلم بشر عن مثلها، وذلك منه نصحًا، ولهذا الدين وإحقاقًا للحق المبين[4].

٦) اعتناؤه بالضبط، والإمام النووي ـ رحمه الله ـ له اليد الطولى في ذلك حيث ألف كتاب تهذيب الأسماء واللغات، الذي خصص القسم الأول للأسماء وضبطها والثاني لضبط اللغة وفقهها.

أما في صحيح مسلم فقد اهتم بالضبط في متون الأحاديث، وفي الأعلام وفي اللغات[5].

٧) اشتماله على بحوث وتحقيقات علمية فذة نادرة، في مسائل متنوعة

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، ص ١١٣/ ٢.
وانظر: ص ٥١/ ١٣ وص ٥٢/ ١٤.
(٢) انظر: ص ١٣٤ـ١٣٥/ ١، ص ٤٧/ ٢، ص ٦٣/ ٣، ٦٥/ ٣.
(٣) كما في ص ٩١/ ٢.
(٤) انظر ص ١٤٨/ ٤، و ص ٤٥/ ١٧.
(٥) انظر على سبيل المثال ص ٤١، ٦٣، ١٠٠/ ٦، ٤٧، ٧٥/ ٧، ٥٧/ ٤، ص ١٧٤، ١٨٢/ ٥.

وموضوعات شتى، لا يكاد الباحث المطلع يجدها في غيره من المصادر.

٨) كثرة موارده التي استقى منها مادة الشرح، وتنوعها حتى شملت كل لون من ألوان المعرفة والعلوم، لا سيما كتب الحديث وعلومه. ولذلك ازدحم كتابه بأسماء العلماء والكتب التي تعتبر بعضها الآن في عداد المفقودات مما يجعل الشرح مصدراً بديلاً لتلك المصادر المفقودة.

٩) عنايته بالفقه وأصوله، وكان لا يتعصب إلا للدليل لا لقول شيخ ولا مذهب بل ينحو فيه منحى يخالف المذهب أو الراجح فيه تبعًا للدليل[١].

١٠) تعقباته العلمية لمن استفاد منهم في هذا الشرح، بحيث يسوغ القول: إن كونه ناقدًا، أكثر منه ناقلاً، فقد فاقت تعقباته لأقوال أهل العلم ـ غير القاضي عياض والمازري ـ على الثمانين، كل ذلك بأسلوب علمي دقيق أديب، يوضح فيه ما يرى صوابه ويبينه على ما يرى خطأ، أيا كان قائله، طالما وأن الحجة يراها في غير ما رأى[٢].

❊ ❊ ❊

---

(١) انظر على سبيل المثال ص ١٢٣/ ٣، ص ١٩/ ٦، ص ٦٤/ ٨.

(٢) هذه الميزات استخلصتها من كتاب الإمام النووي وأثره في الحديث وعلومه، انظر ص ٣١٣ـ ٣٧٥ تأليف عبدالعزيز الحداد، ومن أراد الاستزادة فليراجع المرجع السابق.

الملاحظات على شرح صحيح مسلم

إن عمل الإنسان مهما بلغ في الدقة والإتقان، فإنه لا يخلو من نقص، لكون الإنسان مفطوراً على النقص، وهو ملازم له على كل حال، والكمال المطلق لله تعالى وحده، وإنما يكفي المرء أن يكون صوابه أكثر من خطئه، كما قيل: كفى المرء نبلاً أن تعدّ معايبه.

ولهذا فإن «شرح صحيح مسلم» وعلى الرغم من مزاياه الكثيرة التي يصعب حصرها، وقع فيه بعض الهفوات، والأخطاء التي لا ينفك عنها كثير من الأئمة المعتمدين، كما نبه الإمام على الأوهام الكثيرة التي وقعت من العلماء الكبار، وردّ على أخطائهم، ولم يكن ذلك كله خطأ فيهم[1] ومن الملاحظات على شرح صحيح مسلم ما يلي:

١) وجود بعض الأخطاء العلمية فيه، وأخطر ذلك ما كان في مجال العقيدة كتأويل بعض صفات الله عز وجل، ونقل أقوال بعض المؤولة مع السكوت المشعر بالإقرار عليها، وهذه الملاحظات العلمية في مجال العقيدة هي ما أشار إليها الأستاذ أبو عبيدة مشهور آل سلمان - حفظه الله - حيث قال في مقدمة كتابه الردود والتعقبات على ما وقع للإمام النووي في شرح صحيح مسلم من التأويل في الصفات وغيرها من المسائل المهمات، (وأرى من اللازم عليّ هنا أن أبين جملة من المهمات، وهي كتابة ملاحظة تخص «عقيدة الإمام النووي وموقفنا منه ومنها» فقد أخطأ في هذا الباب اثنان ممن أخذ كلام النووي على وجه الرضا والتسليم، ومن رد كلامه بالجملة والتفصيل، من غير تفريق بين الأصيل والدخيل، والغث والسمين، وتوقف في

---

(١) وانظر مثال ذلك: ص ١٥٩/ ٤، ص ٢٨/ ٥، ص ٨٠/ ٥.

الترحم عليه وهاجم من مدحه وأثنى عليه!! ودين الله بين الجافي عنه والغالي فيه)[١].

٢) ومن الملاحظات العلمية في شرح صحيح مسلم أنه كانت صفة النقل فيه سائدة في جانب العقيدة، فقد نقل عن الكثير من العلماء فكان نقله إما عن القاضي عياض[٢]، وإما الإمام المازري[٣] ويصرح بذلك تارة، ويلمح أخرى، ويأتي بالنص أحيانًا، وينقله بالمعنى في أحايين أخرى، ولكنه - رحمه الله - لم يكن محققًا في هذا الباب، وإنما وقعت له عبارات من سبقه من العلماء، فارتضاها، من غير تمحيص وتحقيق وتدقيق وصدقت عليه فيها مقولة الأسنوي[٤] كما قال عنه في أوائل «المهمات».

«اعلم أن الشيخ محيي الدين النووي - رحمه الله - » لما تأهل للنظر والتحصيل رأى المسارعة إلى الخيرات، أن جعل ما يحصله ووقف عليه تصنيفًا ينتفع به الناظر فيه. فجعل تصنيفه تحصيلاً، وتحصيله تصنيفًا، وهو غرض صحيح، وقصد جميل، ولولا ذلك لم يتيسر له من التصانيف ما تيسر له[٥].

---

(١) الردود والتعقبات (المقدمة) ص ١١.

(٢) هو: القاضي عياض ابن موسى ابن عياض بن عمر اليحصبي، أبو الفضل السبتي الأندلسي العلامة الحافظ. عالم المغرب، له تصانيف بديعة، توفي سنة ٥٤٤هـ، ويسمى شرحه: (الإكمال في شرح مسلم). كمل به كتاب المعلم للمازري. انظر: تذكرة الحفاظ ص ١٣٠٥ - ١٣٠٦/ ٤.

(٣) هو محمد بن علي بن عمر التميمي، أبو عبدالله المازري، الصقلي المتوفى سنة (٥٣٦هـ)، من مؤلفاته (المعلم بفوائد مسلم)، ويعد من أول شروح صحيح مسلم وهو مطبوع. انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان ص ٢٨٥/ ٤، وشذرات الذهب ص١١٤/ ٤.

(٤) هو سليمان بن جعفر الأسنوي محيي الدين خال الشيخ جمال الدين. ترجم له في الطبقات وقال إنه اشتغل وأفتى ودرس وناب في الحكم وولي المواريث الحشرية - جمع طبقات الفقهاء مات عنها مسودة. مات في جمادى الآخرة سنة ٧٠٦، انظر: الدرر الكامنة ص ٣٤٠/ ٢.

(٥) تحفة الطالبين ص ٦٢ - ٦٣.

وقد سبق قول ابن كثير في وصف شرح مسلم إنه جمع فيه شروحات من تقدم من المغاربة وغيرهم وزاد فيه ونقص[1].

قلت: وكان جمعه لهذه الشروح في بعض مواضع منها لم يكن محققًا، وهذا سببه ما ذكره الأسنوي.

٣) وجود بعض الملاحظات المنهجية، منها:

أحدهما: حرصه -رحمه الله- على الإيجاز في مواضع تحتاج إلى الإطناب والإسهاب وهذا تكرر منه في كذا موضع من الكتاب وهذا هو ما أشار إليه الإمام في بيان منهجه في الشرح فقال: «وأوثر الاختصار في كثير من الحالات»[2].

ولا سيما أن مكانة هذا الشرح العظيمة تستدعي أن يبسط فيه المقال في مواضع مهمات.



(١) نقلا عن السخاوي في المنهل العذب الروي ص ٨٩.

(٢) شرح صحيح مسلم ص ١٠/٢٣، المقدمة.

مكانة الشرح وقيمته العلمية

من خلال أقـوال العلماء

لقد شرح صحيح مسلم جمع غفير من أجلة أهل العلم قبل الإمام النووي وبعده[1] ووصل عددهم العشرات بل مئات من الشروح، ولم يشتهر كـ «شرح الإمام النووي» الذي وسمه بـ (المنهاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج) وهكذا سائر تصانيفه عليه الرحمة والرضوان. وهذا لأن الله قد وضع القبول في الأرض بين الناس لمؤلفاته.

و «شرح صحيح مسلم» من الكتب المهمة، التي باتت مشهورة، منتشرة.

وتدرسه بعض الجامعات ومناهجها، وبعض المشايخ في حلقات العلم، وهو

---

(١) مثل: تفسير ما في الصحيحين، تأليف محمد بن أبي خضر الحميدي (ت ٤٨٨هـ) و «شرح مسلم» لأبي عبدالله محمد بن إسماعيل بن محمد الأصفهاني (٥٣٠هـ) و «المفهم في شرح مسلم» للإمام عبدالغافر بن إسماعيل الفارسي (ت٢٩هـ) «الإيجاز والبيان لشرح خطبة كتاب مسلم مع كتاب الإيمان» لابن الحاج قاضي قرطبة (ت ٥٢٩هـ)، «شرح مسلم» للإمام أبي القاسم إسماعيل بن محمد ابن الفضل بنعلي بن أحمد بن طاهر العلمي الأصبهاني (ت ٥٣٥هـ) و «المعلم في شرح مسلم» لأبي عبدالله المازري محمد بن علي ابن عمر المالكي (ت: ٥٣٦هـ)، و «إكمال المعلم بفوائد مسلم» للإمام أبي الفضل عياض بن موسى اليحصبي (ت ٥٤٤هـ)، و«الإفصاح عن معاني الصحاح» أو «شرح الجمع بين الصحيحين» الوزير أبو المظفر عون الدين يحيى بن محمد بن هبيرة (ت: ٥٦٠هـ) و «شرح مسلم» لعماد الدين عبدالرحمن بن عبدالعلي المصري (ت: ٦٢٤هـ)، و «صيانة صحيح مسلم من الإخلال والغلط وحميته من الاسقاط والسقط» لأبي عمرو عثمان بن عبدالرحمن الشهرزوري (ت: ٦٤٣هـ). وانظر «الإمام مسلم» للاستاذ محمد فاخوري فضل و «شروح صحيح مسلم» (ص ١٢٩ ـ ١٣٠) وانظر مقدمة شرح صحيح مسلم للإمام النووي راجعه الشيخ خليل الميس ـ دار العلم ـ بيروت ، الطبعة الثالثة ص ٣٣ـ ٤٠/ ١ تحقيق لجنة من العلماء.

جدير بهذا الاهتمام ولذلك تطابقت أقوال العلماء قديمًا وحديثًا في الثناء على «شرح صحيح مسلم للنووي» والإشادة بجلالته وعظمته، وأذكر ما تيسر منها بما يناسب المقام وذلك ما يأتي :

١) قال السخاوي «وهو عظيم البركة»[١].

٢) وقال العلامة الحسين بن عبدالله الطيبي (ت ٧٤٣هـ) في كتابه الكاشف عن حقائق السنن الذي اعتمد فيه على هذا الشرح اعتمادًا كبيرًا، قال ما نصه (وكان اعتمادي وغاية اهتمامي بشرح مسلم للإمام المتقن محيي الدين النووي لأنه كان أجمعها ـ أي الكتب التي اعتمد عليها في شرحه ذاك ـ فوائد وأكثرها عوائد، وأضبطها للشوارد والأوابد)[٢].

٣) وقال الشيخ الدكتور مصطفى السباعي ـ رحمه الله ـ (ت ١٣٨٤هـ) وهو يذكر أشهر شروح مسلم (وقد شرحه كثير من الأئمة الحفاظ وذكر منها صاحب كشف الظنون خمسة عشر شرحًا من أشهرها شرح الإمام الحافظ أبي زكريا يحيى بن شرف النووي الشافعي (٦٧٦هـ))[٣].

٤) وقال الأستاذ الدكتور أبو عبيدة مشهور آل سلمان وهو يتحدث عن شرح صحيح مسلم للنووي وقد مارس شرح صحيح مسلم للنووي قراءة ودراسة، فسبر غوره ووقف على دقائقه (وصنف عشرات بل مئات من العلماء شروحًا لـ «صحيح مسلم» ولم يشتهر شرح كـ «شرح الإمام النووي»[٤].

٥) وقال محقق كتاب شرح صحيح مسلم في مقدمته في ذكر الشروح على

---

(١) المنهل العذب الروي ص ٥٥.

(٢) الكاشف عن حقائق السنن ، مخطوط نقلاً عن كتاب الإمام النووي وأثره في الحديث وعلومه ص ٣٧٦.

(٣) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي للدكتور مصطفى السباعي ـ رحمه الله ـ ص ٤٤٨.

(٤) الردود والتعقبات للإمام النووي، ص ٧.

صحيح مسلم (. . . ومنها ماجمع بين المتن وشرحه كشرح الإمام النووي وهو أعظم الشروح)[1].

٥) وقال صاحب كتاب الإمام النووي وأثره في الحديث وعلومه وهو يتحدث عن شرح صحيح مسلم للنووي (غير أن مكانة هذا الشرح العظيمة تستدعي أن يبسط فيه المقال، ويؤتى منه بالنماذج والأمثال، لكي يعرف أن هذا الكتاب تشد إلى مثله الرحال، بغير نزاع ولا جدال ولما كانت معارفه كثيرة، كما يلمسها أهل البصيرة، استدعى ذلك أن يُذكر أنموذج من هذا الشرح، ثم نذكر نماذج من أبرز العلوم التي احتوى عليها في الحديث وعلومه، وفقهه، وحل مشكله، والجمع بين متعارضه ودقيق استنباطه، واستدلاله، ومعرفته لأسرار الكتاب ومؤلفه، وأبرز مؤخذاته عليه، وعنايته بالضبط وبالأصول والفقه وغير ذلك مما تكرر ذكره وبرز وجوده)[1].

فهذه الأقوال النيرة من هؤلاء الشهور الثقات تعكس لنا أهمية «شرح صحيح مسلم» وقيمته العلمية التي جعلته يتبوأ المنزلة الرفيعة بين شروح الحديث النبوي بعامة، وشروح مسلم بخاصة، وينفرد عنها بالشهرة والانتشار الواسع.

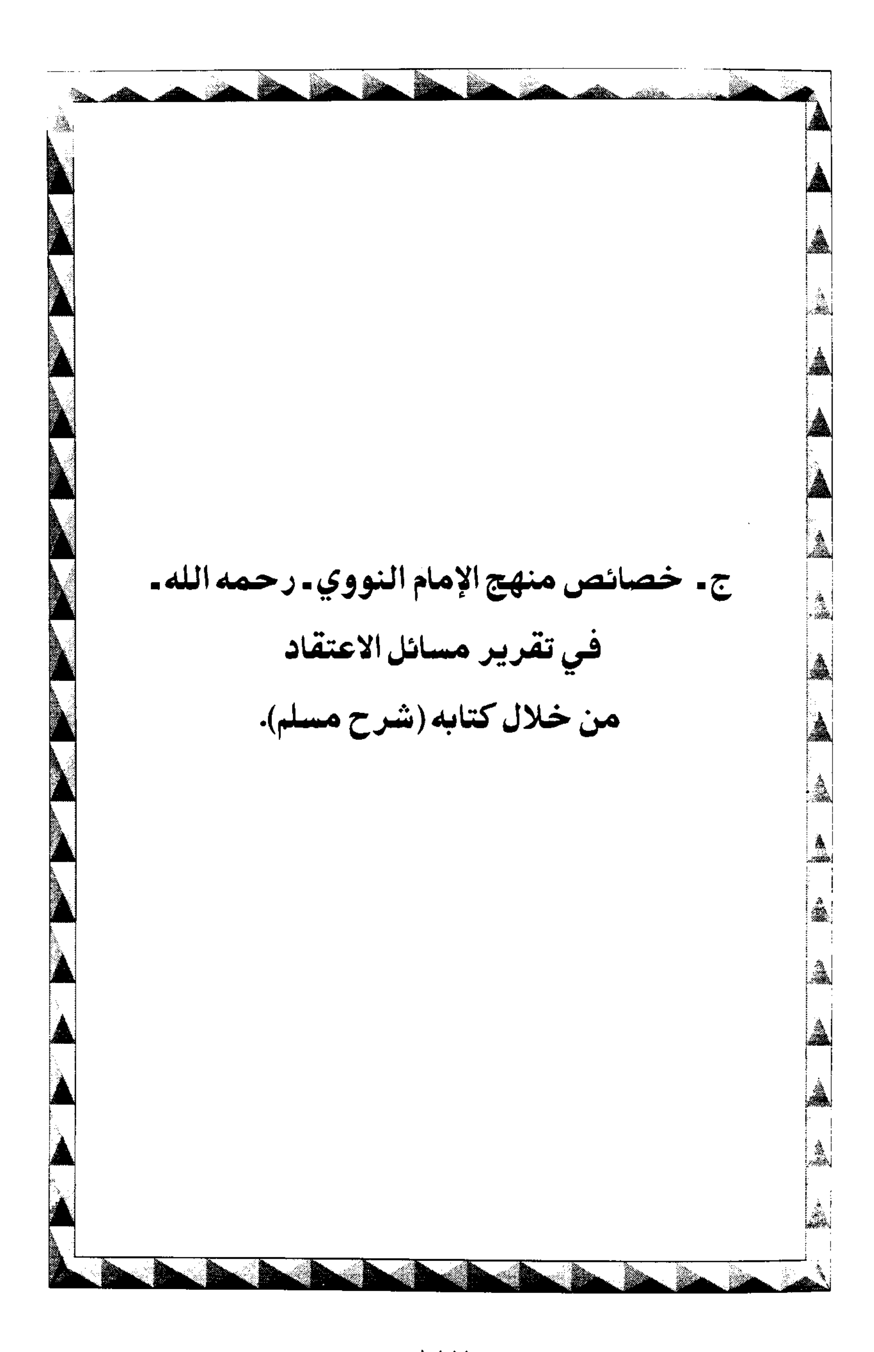
وهكذا ظل «شرح صحيح مسلم للنووي» متميزاً أو مفضلاً لدى العلماء إلى وقتنا الحاضر وسيظل. وظهرت آثاره واضحة في كتب أهل العلم ممن عاصروا مؤلفه وممن أتوا بعده.

فجزى الله تعالى الإمام النووي على ما قدم من جهود مباركة لخدمة العلم وأهله جزاءً موفوراً.

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي من ١/٦ راجعه فضيلة الشيخ خليل ألميس.

(٢) الإمام النووي وأثره في الحديث وعلومه، ص٣١٣ تأليف أحمد عبدالعزيز قاسم الحداد.



ج- خصائص منهج الإمام النووي- رحمه الله- في تقرير مسائل الاعتقاد من خلال كتابه (شرح مسلم).

ج: خصائص منهج الإمام النووي - رحمه الله - في تقرير مسائل الاعتقاد من خلال كتابه (شرح مسلم).

يمكن إدراج منهج الإمام النووي في تقريره لمسائل الاعتقاد ومعالجته لقضاياها تحت الخصائص الآتية:

١ - استدلاله بالنص في غالب ما يقرره، فإن أكثر كلامه - رحمه الله - إنما ورد في أثناء شرحه للأحاديث النبوية، وهذا أظهر من أن يحتاج إلى أمثلة، ولعل غالب ما سأورده في هذه الرسالة هو على هذا النحو.

٢ - استعماله للصناعة الحديثية في تقريره - أيضًا - لما يعرض له من المسائل وهذا التصنيع منه واضح جلي في مواطن متعددة من شرح صحيح مسلم، وغيره من مؤلفاته، وإن كان الموجود منها في هذه الرسالة قليلاً.

ومن أمثلته الواردة - هنا - حديثه عن بعض الأسانيد التي لا يرتضى متونها، أو العكس.

كما هو في قوله ﷺ: «فأما النار لا تمتلئ حتى يضع الله تبارك وتعالى رجله»[1] قال الإمام (وأما الرواية التي فيها يضع الله فيها رجله فقد زعم الإمام أبو بكر بن فورك أنها غير ثابتة عند أهل النقل ولكن رواها مسلم وغيره في صحيحه وتأويلها كما سبق في القدم ....»[2].

كذلك كان استعمال للصناعة الحديثية في مواطن تتطلب الجمع بين الأحاديث ومن ذلك قوله في حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: (لا يزني

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ١٥٠ - ١٥١/ ١٧ برقم (٣٦).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص ١٥١/ ١٧.

الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن)[1].

قال: «هذا الحديث مما اختلف العلماء في معناه، فالقول الصحيح الذي قاله المحققون. أن معناه: لا يفعل هذه المعاصي وهو كامل الإيمان، قال: وهذا من الألفاظ التي تطلق على نفي الشيء، ويراد نفي كماله ومختاره . . . وإنما تأولناه على ما ذكرناه لحديث أبي ذر وغيره: (من قال لا إله إلا الله دخل الجنة، وإن زنى وإن سرق)[2] وحديث عبادة بن الصامت، الصحيح المشهور أنهم بايعوه ﷺ على أن لا يسرقوا ولا يزنوا ولا يشربوا . . . الخ [3] ثم قال. فهذان الحديثان مع نظائرهما في الصحيح مع قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[4] مع إجماع أهل الحق على أن الزاني والسارق والقاتل وغيرهم من أصحاب الكبائر غير الشرك لا يكفرون بذلك، بل هم مؤمنون ناقصوا الإيمان إن تابوا سقطت عقوبتهم وإن ماتوا مصرين على الكبائر كانوا في المشيئة، فإن شاء الله تعالى عفا عنهم، فأدخلهم الجنة أولاً، وإن شاء عذبهم ثم أدخلهم الجنة، قال: وكل هذه الأدلة تضطرنا إلى تأويل هذا الحديث وشبهه.

قال: ثم إن هذا التأويل ظاهر سائغ في اللغة مستعمل فيها كثير، وإذا ورد حديثان مختلفان ظاهراً وجب الجمع بينهما، وقد ورد هنا فيجب الجمع وقد جمعنا»[5].

٣ ـ اعتماده على اللغة العربية في الشرح والبيان والتعزيز، فالمتتبع لمؤلفاته،

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ٣٦/ ٢ برقم (١٠٠).

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز ص٨٩/ ٢، وأخرجه مسلم بشرح النووي من ٨١/ ٢ برقم ٥٣ .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان ١٢/ ١، وأخرجه مسلم بشرح النووي ص ١٨٥/ ١١ برقم (٤١).

(٤) سورة النساء، الآية: [٤٨].

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي ص ٣٦ـ٣٧/ ٢.

وخاصة شرح مسلم، تبين له القدرة اللغوية والبلاغية التي يتمتع بها بما يظهر في أسلوب المتين الرصين.

أما تقريره لبعض المسائل العقدية باستخدام التحليل اللغوي، فمنها حديثه عن تفسير (الساق) الوارد في قول النبي ﷺ فيكشف ربنا عن ساقه . . .

قال: «قوله ﷺ (فيكشف عن ساق) ضبط يكشف بفتح الياء وضمها وهما صحيحان وفسر ابن عباس وجمهور أهل اللغة، وغريب الحديث «الساق» هنا بالشدة أي يكشف عن شدة وأمر مهول. وهذا مثل تضربه العرب لأمر ولهذا يقولون قامت الحرب على ساق وأصله أن الإنسان إذا وقع في أمر شديد شمر ساعده وكشف عن ساقه للاهتمام به»[(1)].

٤ ـ تقريره لمنهج السلف ودعوته إليه وتأكيده أنه هو الأحوط والأسلم وإن كان ـ رحمه الله ـ لم يلتزم به في بعض جوانبه، لكنه اعتمد وسلكه من حيث الجملة، ومما قاله بهذا الصدد (إعلم أن لأهل العلم في أحاديث الصفات وآيات الصفات قولين:

أحدهما: وهو مذهب معظم السلف أو كلهم أنه لا يتكلم في معناها بل يقولون يجب علينا أن نؤمن بها ونعتقد لها معنى يليق بجلال الله تعالى، وعظمته مع اعتقادنا الجازم أن الله تعالى ليس كمثله شيء وأنه منزه عن التجسم والانتقال والتحيز في جهة وعن سائر صفات المخلوق وهو مذهب جماعة من المتكلمين واختاره جماعة من محققيهم وهو أسلم[(1)].

وقال في موضع آخر «وأما قوله ﷺ (فإن الله خلق آدم على صورته فهو من أحاديث الصفات، وقد سبق في كتاب الإيمان بيان حكمها واضحًا مبسوطًا وأن من

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص ٢٤ـ٢٥/ ٣.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص ١٧/ ٣.

العلماء من يمسك عن تأويلها، ويقول نؤمن بأنها حق، وأن ظاهرها غير مراد، ولها معنىٰ يليق بها وهو مذهب جمهور السلف وهو أحوط وأسلم[1].

٥ - تأثره بمنهج المتكلمين في بعض تقريراته، فإنه - كما تقدم - يوافق المسلك السلفي في أغلب مسائل العقيدة وقضاياها، لكنه يخرج أحيانًا عن طريقهم ومذهبهم. ومن ذلك استخدامه لبعض المصطلحات كلفظ الجسم مثلاً، فإن المتكلمين يستعملونه لنفي الجسمية عن الله - عز وجل - وهم يريدون بذلك أنه - سبحانه - ليست له ذات يشار إليها بالبنان. أو لا يحكم له - عز وعلا - أنه مستند علىٰ عرشه فوق مخلوقاته.

والنووي - رحمه الله - قد استعمل هذا الاصطلاح كما هو ظاهر في النص السابق - والذي أشار هو فيه أن مذهب معظم السلف وليس هو ذلك كما سوف يتبين فيما بعد - ومن نصوصه الواردة في ذلك أيضًا: (وأما الحجاب فأصله في اللغة المنع والستر وحقيقة الحجاب إنما تكون للأجسام المحدودة والله تعالىٰ منزه عن الجسم والحد ...»[2].

وقال أيضًا: (قال القاضي عياض: (إذ النور من جملة الأجسام والله تعالىٰ سبحانه وتعالىٰ يجل عن ذلك هذا مذهب جميع أئمة المسلمين)[3].

٦ - يكثر الإمام من استعمال لفظ «التأويل» وهو كثير في كلامه، وقل في شرحه أن ترد كلمة التفسير.

والتأويل عنده بالمعنيين السلفي والمتأخر - أي بمعنىٰ التفسير والبيان، والمتأخر بمعنىٰ صرف اللفظ من معناه الراجح إلىٰ معناه المرجوح، والتأويل بمعناه الأول ورد في

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص١٣٦/١٦.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص ١٢/ ٣.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص١١/ ٣.

قوله عند شرحه حديث عائشة رضي الله عنها. قالت (كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي تأول القرآن»[1].

قال رحمه الله في تعليقه على الحديث: (يتأول القرآن أي يفعل ما أمر به فيه أي في قوله عز وجل. ﴿فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابًا[2]﴾[3].

أما المعنى الآخر الذي اصطلح عليه المتأخرين قال الإمام «والقول الثاني وهو مذهب معظم المتكلمين أنها تتأول على ما يليق بها على حسب واقعها وإنما يسوغ تأويلها لمن كان من أهله بأن يكون عارفًا بلسان العرب»[4].

وقال في موضع آخر نقلاً عن القاضي عياض «قال القاضي عياض أظهر التأويلات أنهم قوم استحقوها وخلقوا لها، قالوا: ولابد من صرفه عن ظاهره لقيام الدليل القطعي العقلي على استحالة الجارحة على الله تعالى[5].

٧ ـ للإمام النووي موقف من أهل البدع، والبدعة نفسها والتحذير منها على الرغم مما ذكرناه عنه من أمور فيها عدم إصابة الحق، وبعد عن الدليل والمنهج السلفي القديم، لكنه إمام من أئمة الأثر؛ فقد عاش مع كلام النبي ﷺ، وقضى أغلب وقته في سماع الحديث الشريف.

ولقد كان يتمثل موقفه من أهل البدعة في كتابه (شرح مسلم) في ثلاث نقاط:

١ ـ بيان حكم قبول رواية المبتدع.

٢ ـ بيان حكم إيمان أهل البدع.

٣ ـ بيان بعض البدع التي حذر منها الإمام في (شرحه لصحيح مسلم).

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ١٦٨/ ٤ برقم (٢١٧).

(٢) سورة النصر، الآية: [٣].

(٣) شرح النووي ص ١٦٨/ ٤.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص ١٦٨/ ٤ برقم (٢١٧).

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي ص ١٥١/ ١٧.

أما عن بيان حكم قبول رواية المبتدع فقال (قال العلماء من المحدثين والفقهاء وأصحاب الأصول. المبتدع الذي يكفر ببدعته لا تقبل روايته بالاتفاق، وأما الذي لا يكفر بها فاختلفوا في روايته فمنهم من ردها مطلقًا لنفسه ولا ينفعه التأويل. ومنهم من قبلها مطلقًا إذا لم يكن ممن يستحل الكذب في نصرة مذهبه أو لأهل مذهبه سواء كان داعية إلى بدعته أو غير داعية، وهذا محكي عن إمامنا الشافعي - رحمه الله - لقوله أقبل شهادة أهل الأهواء إلا الخطابية من الرافضة لكونهم يرون الشهادة بالزور لموافقيهم. ومنهم من قال تقبل إذا لم يكن داعية إلى بدعته ولا تقبل إذا كان داعية. وهذا مذهب كثير من العلماء وهو الأعدل الصحيح. وقال بعض أصحاب الشافعي - رحمه الله -. «اختلف أصحاب الشافعي في غير الداعية واتفقوا على عدم قبول الداعية». وقال أبو حاتم بن حبان - بكسر الحاء - «لا يجوز الاحتجاج بالداعية عند أئمتنا قاطبة لا خلاف بينهم في ذلك». وأما المذهب الأول فضعيف جدًا ففي الصحيحين وغيرهما من كتب أئمة الحديث الاحتجاج بكثير من المبتدعة غير الدعاة ولم يزل السلف والخلف على قبول الرواية منهم، والاحتجاج بها والسماع منهم وإسماعهم من غير انكار منهم والله أعلم)(١).

وأما عن حكم إيمانهم - أي أهل البدع - فقال: (واعلم أن مذهب أهل الحق أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب، ولا يكفر أهل الأهواء والبدع وأن من جحد ما يعلم من دين الإسلام، ضرورة حكم بردته وكفره إلا أن يكون قريب عهد بالإسلام، أونشأ ببادية بعيدة ونحوه ممن يخفى عليه فيعرف ذلك، فإن استمر حكم بكفره، وكذا حكم من استحل الزنا أو الخمر أو القتل أو غير ذلك من المحرمات التي يعلم تحريمها ضرورة)(٢).

وأما عن بيان بعض البدع والتحذير منها فكان موقفه منها يتمثل في أمرين:

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص ١/٥٩.

(٢) المصدر نفسه ص ١/١٣٤ و ص ٢/٤٣.

١ ـ تعريف البدعة وبيان ما تشمله.

٢ ـ تحذيره من بعض البدع.

أما عن تعريف البدعة فقد عرفها فقال عند شرح حديث (كل بدعة ضلالة)[1] (قال أهل اللغة: هي كل شيء عمل على غير مثال سابق)، قال العلماء ـ البدعة خمسة أقسام واجبة ومندوبة ومحرمة ومكروهة ومباحة، فمن الواجبة، نظم أدلة المتكلمين للرد على الملاحدة والمبتدعين وشبه ذلك، ومن المندوبة تصنيف كتب العلم وبناء المدارس والربط وغير ذلك، ومن المباح التبسط في ألوان الأطعمة وغير ذلك، والحرام والمكروه ظاهران، وقد أوضحت المسألة بأدلتها المبسوطة في تهذيب الأسماء واللغات، فإذا عرف ما ذكرته علم أن الحديث من العام المخصوص، وكذا ما اشبهه من الأحاديث الواردة، ويؤيده ما قلناه، قول عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في التراويح «نعمت البدعة»، ولا يمنع من كون الحديث عاماً مخصوصاً، قوله: كل بدعة مؤكداً بكل، بل يدخله التخصيص مع ذلك كقوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾[2])[3].

أما تحذيره من البدع، فكان من البدع التي حذر منها في كتابه (شرح مسلم).

* رواية الحديث الموضوع والضعيف وعدم بيان حاله، وأن من يفعل ذلك، فهو داخل في قوله ﷺ: (إن كذبا عليّ ليس ككذب على أحد، فمن كذب عليّ متعمداً، فليتبؤ مقعده من النار)[4].

وبين ـ رحمه الله ـ أن لا فرق في ذلك بين ما كان في الأحكام، وما لا حكم فيه؛ كالترغيب، والترهيب، والمواعظ، وغير ذلك فقال: (لا فرق في تحريم الكذب عليه

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ١٣٤ ـ ١٣٥/ ٦ برقم (٨٦٧).

(٢) سورة الأحقاف، الآية: [٢٥].

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص ١٣٤ ـ ١٣٥/ ٦، وعلى تعريفه هذا مآخذ لبعض أهل العلم، انظر: ص ٢٦١ ـ ٢٧٥ من كتاب الردود والتعقبات.

(٤) أخرجه البخاري في الصحيح ص ١١٧/ ١ برقم (١٠٥)، ومسلم في مقدمة الصحيح ص ١٦٥/ ١ برقم (٤) من حديث المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ.

ﷺ بين ما كان في الأحكام، وما لا حكم فيه، كالترغيب والترهيب، والمواعظ، وغير ذلك فكله حرام، من أكبر الكبائر، وأقبح القبائح، بإجماع المسلمين الذين يُعتد بهم في الإجماع، خلافًا للكرامية، الطائفة المبتدعة في زعمهم الباطل أنه يجوز وضع الحديث في الترغيب والترهيب، وتابعهم على هذا كثيرون من الجهلة الذين ينسبون أنفسهم إلى الزهد، أو ينسبهم جهلة مثلهم وشبهة زعمهم الباطل أنه جاء في رواية.

«من كذب علي متعمداً، ليضل به، فليتبوأ مقعده من النار»[1].

وزعم بعضهم أن هذا كذب له عليه الصلاة والسلام لا كذب عليه، وهذا الذي افتعلوه وفعلوه واستدلوا به غاية الجهل، ونهاية الغفلة، وأدل الدلائل على بعدهم من معرفة شيء من قواعد الشرع، وقد جمعوا فيه جملاً من الأغاليط اللائقة بأقوالهم السخيفة، وأذهانهم البعيدة الفاسدة، فخالفوا قول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولًا﴾[2].

وخالفوا صحيح هذه الأحاديث المتواترة، والأحاديث الصريحة المشهورة في إعظام شهادة الزور.

وخالفوا إجماع أهل الحل والعقد، وغير ذلك من الدلائل القطعيات في تحريم الكذب على آحاد الناس، فكيف من قوله شرع، وكلامه وحيٌ؟!

وإذا نظر في قولهم، وجد كذبًا على الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[3].

ومن أعجب الأشياء قولهم: هذا كذب له! وهذا جهل منهم بلسان العرب وخطاب الشرع، فإن كل ذلك عندهم كذب عليه.

---

(١) وهو منكر بهذه الزيادة، انظر «السلسلة الصحيحة» رقم (١٠١١).

(٢) سورة الإسراء، الآية: [٣٦].

(٣) النجم، الآية: [٤].

وأما الحديث الذي تعلقوا به، فأجاب العلماء عنه بأجوبة:

أحسنها وأحضرها: أن قوله: «ليضل الناس»، زيادة باطلة، اتفق الحفاظ على إبطالها، وأنها لا تعرف صحيحة بحال.

الثاني: جواب أبي جعفر الطحاوي، وأنها لو صلحت، لكانت للتأكيد، كقول الله تعالى: ﴿فمن أظلمُ ممّن افترىٰ على الله كذبًا ليُضلَّ الناس﴾[1].

الثالث: أن اللام في (ليضل) ليست لام التعليل، بل هي لام الصيرورة العاقبة، معناه: أن عاقبة كذبه ومصيره إلى الإضلال به، كقوله تعالى: ﴿فالتقطهُ آلُ فرعونَ ليكونَ لهم عدوًا وحزنًا﴾[2] ونظائره في القرآن وكلام العرب أكثر من أن يحصر، وعلى هذا يكون معناه: فقد يصير أمر كذبه إضلالاً.

وعلى الجملة: مذهبم أرك من أن يعتنى بإيراده، وأبعد من أن يهتم بإبعاده، وأفسد من أن يحتاج إلى إفساده، والله أعلم.

الرابعة: يحرم رواية الحديث الموضوع على من عرفه كونه موضوعًا، أو غلب على ظنه وضعه، فمن روى حديثًا ـ علم أو ظن وضعه ـ، ولم يبين حال روايه وضعه، فهو داخل في الوعيد، مندرج في جملة الكاذبين على رسول الله ﷺ.

ويدل عليه أيضًا الحديث السابق.

«من حدث عني بحديث يَرىٰ أنه كذب، فهو أحد الكاذبين»[3]، ولهذا قال العلماء: ينبغي لمن أراد رواية حديث، أو ذكره، أن ينظر، فإن كان صحيحًا أو حسنًا، قال. قال رسول الله ﷺ: «كذا أو فعله، أو نحو ذلك من صيغ الجزم، وإن كان

(١) سورة الأنعام، الآية: [١٤٤].

(٢) سورة القصص، الآية: [٨].

(٣) أخرجه مسلم في مقدمة صحيحه (ص٦٢/ ١)، والترمذي في الجامع رقم (٢٦٦٤)، وابن ماجه في السنن رقم (٣٨).

ضعيفًا، فلا يقال: قال، أو فعل، أو أمر، أو نهى، وشبه ذلك من صيغ الجزم، بل يقول: رُوي عنه كذا، أو جاء عنه كذا، أو يروى، أو يُذكر، أو يُحكى، أو يُقال، أو بلغنا، وما أشبهه، والله سبحانه أعلم»[١].

ومن البدع التي حذر منها في «شرح مسلم» بدع شهر شوال.

ومنها اعتقاد الجاهلية من كراهة التزوج والدخول في شهر شوال، فقال معلقًا على قول عائشة - رضي الله عنها - (تزوجني رسول الله ﷺ في شوال، وبنى بي في شوال، فأي نساء رسول الله ﷺ كان أحظى عنده مني؟! وكانت تحب أن تدخل نساءها في شوال»[٢].

«فيه استحباب التزويج والتزوج والدخول في شوال، وقد نص أصحابنا على استحبابه. واستدلوا بهذا الحديث، وقصدت عائشة بهذا الكلام ردّ ما كانت الجاهلية عليه، وما يتخيله بعض العوام اليوم، من كراهة التزوُّج والتزويج والدخول في شوال، وهذا باطل لا أصل له، وهو من آثار الجاهلية، كانوا يتطيرون لما في اسم شوال من الإشالة والرفع»[٣].

* ومن البدع أيضًا بدع الفرق والطوائف وهذه البدع نالت الحظ الأوفر من عنايته رحمه الله في كتابه شرح مسلم.

فقد حذر كثيراً من كثير من آراء الفرق والطوائف المبتدعة، مثل القدرية[٤]، والمعتزلة[٥]، والخوارج[٦]، والروافض[٧].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص (٦٧-٦٨/ ١).

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ١٧٨-١٧٩/ ٩ برقم ٧٣.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص ١٧٩/ ٩.

(٤) شرح النووي لصحيح مسلم ص ١٣٨، ١٤٠/ ١.

(٥) شرح النووي لصحيح مسلم ص ٩٩-١٠٠، ١٨٧، ١٩٤/ ١.

(٦) شرح النووي لصحيح مسلم ص ١٤٩، ١٥٣/ ٧.

(٧) شرح صحيح مسلم ص ١٧٧/ ١.

فحذر من أكاذيب الروافض على عليّ - رضي الله عنه - بقوله: «. . . أشار بذلك إلى ما أدخلته الروافض والشيعة في علم عليّ - رضي الله عنه - وحديثه، تقولوه عليه من الأباطيل، وأضافوا إليه من الروايات والأقاويل المفتعلة والمختلقة، وخلطوا بالحق، فلم يتميز ما هو صحيح عنه عما اختلقوه»[1].

وحذر من قولهم بالرجعة، فقال: «الرجعة: ما تقوله الرافضة وتعتقده بزعمها الباطل: أن عليًا - رضي الله عنه - في السحاب، فلا تخرج - يعني مع من يخرج من ولده - حتى ينادي من السماء: أن اخرجوا معه».

وهذا نوع من أباطيلهم، وعظيم من جهالاتهم، اللائقة بأذهانهم السخيفة وعقولهم الواهية»[2].

وأكتفي بهذا القدر من الأمثلة الواضحة حول موقف الشيخ النووي من البدع وأصحابها، ووجدنا ميزانه في ذلك أن ما وافق السنة هو الحق الذي لابد من اتباعه والسير على وفقه، وما خالف السنة من أشياء محدثة مبتدعة لابد من تجنبها والابتعاد عنها ابتعادًا كليًا.

وكان كثيرًا ما يتعرض في مصنفاته لبعض البدع ومحدثات الأمور، ببيان خطرها، والدعوة لأجل تجنبها والابتعاد عنها[3].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص ١٩٤.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي من ص (٩٢/ ١) وانظر أيضًا في موقفه من الروافض ص ٩٠/ ١، ١٤٢/ ١٦، ص١٢٦/ ١٥.

(٣) هناك كثير من البدع حذر منها في مصنفاته الأخرى غير شرح مسلم، انظر على سبيل المثال (ص ٤٩، ٥١) من فتاويه ومن (٢٧٧/ ٨) من المجموع على شرح المهذب ومن ٣٧٦/ ٨، (٢٧٥/ ٨) والأذكار (ص٢٠٣)، وروضة الطالبين (ص٣٢٦/ ١).

وانظر أيضًا شرح صحيح مسلم ص: ٥٦، ٥٨، ٥٩، ٧٧، ٨٧، ٩٢، ٩٣، ١٣٤/ ١، ص: ٤٣، ٢٥/ ١٢، ص: ١٤، ٤٥، ٤٦، ٤٧، ١١٧/ ٣، ص٢٤/ ٤، ص١١/ ٥، =

٨ ـ **جعل العقل الحكم في إثبات الصفات أوردها بحجة أن العقل هو أصل** الشرع، وقد بنى على هذه القاعدة الباطلة **تأويل كثير من الصفات التي زعم أن العقل** يحيل أن يكون ظاهرها مراداً لله تعالى، جرياً **بذلك على عادة المتكلمين من الأشاعرة** وغيرهم.

فاسمع إليه يقول: (وإذا ورد لفظ الشرع ولم يمنع من اجرائه على ظاهره عقل ولا شرع وجب حمله على ظاهره)[1].

وقال أيضاً في تعليقه على شرح حديث النبي ﷺ والذي جاء فيه (فقلت يا جبريل: ما هذه الأنهار؟ قال: أما النهران الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات..» الحديث[2].

قال الإمام: «وهذا لا يمنعه عقل ولا شرع وهو ظاهر الحديث، فوجب المصير إليه والله أعلم»[3].

كما أنه نقل قولاً للقاضي عياض في شرح قوله ﷺ «ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام»[4].

جاء فيه (وما يتأول هذا ويحيله عن ظاهره إلا ضعيف النظر والإيمان إذ جاءت به الشريعة المطهرة ودلائل العقول لا تحيله له»[5].

= ص ٦/١٣٥، ٦، ٩٢، ٤٢، ١٤٦، ١٤٩، ١٥٢، ٧/١٦٢، ص١٧، ٨/١٩٣، ص١٢١، ٩/١٢٨، ص: ١٣٧، ١١/١٣٨، ص: ١٤، ١٥، ٦٦، ٧٩، ٨٧، ١٥٩، ١٦٩، ١١٣، ١٩٣، ١٩٩، ١٢/٢٠٤، ص: ٢٩، ٨٩، ٩٠، ١٢٠، ١٦٠، ١٤/١٦١، ص: ١٢٦، ١٥/١٤٢، ص: ٤٨، ٦٨، ١٦/١١٢، ص: ٧٧، ٨٣، ١١٩، ١٣٢، ١١٧، ١٨/٤٦.

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص ١٦/١١٢.

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ١٨٨/٢ برقم (٢٦٣).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص ١٩٣/٢.

(٤) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ١٩٠/٢ برقم (٢٦٣).

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي ص ٢/١٩٠.

قلت: القاضي عياض من الذين يعظمون العقل ويجعلونه الحكم في إثبات الصفات أوردها[1] وغير ذلك، ولقد سار على منهجه إمامنا ـ عفا الله عنهما ـ ولا شك أن هذا من منهج المتكلمين وليس من منهج السلف في شيء.

فالله سبحانه أمرنا إذا اختلفنا في شيء أن نرده إلى الكتاب والسنة، ولم يأمرنا برده إلى عقولنا قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾[2].

فالرد إلى الله ورسوله دليل الإيمان إذ به يحصل الخير وينتفي الخلاف والشر، لأنه لو رد الأمر إلى عقول الرجال وآرائهم ومقاييسهم لم يزدهم هذا الرد إلا اختلافًا وشكًا وإرتيابًا لأنه لا يمكن الحكم بين الناس إلا بوحي منزل تطمئن إليه النفوس، ثم إن الله عز وجل قد أنكر أشد الإنكار من لم يكتف بالكتاب والسنة فابتغى الهدى من غيرهما فقال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[3].

فالمؤمن حقًا يكتفي بما أنزل الله وما جاء به رسول الله، ولا يتقدم عليهما شيئًا كائنا من كان، سواء كان شيخًا أو عقلاً أو مذهبًا أو غير ذلك.

فإن من قدم شيء على النصوص الشرعية كان مقدمًا بين يدي الله ورسوله، وقد نهى الله عن ذلك فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾[4]، فكيف يجوز أن نقدم العقل إذا اختلف مع الشرع وهو مخلوق من مخلوقات الله.

---

(١) انظر: رسالة الدكتوراه والتي بعنوان (القاضي عياض اليحصبي ومنهجه في العقيدة) إعداد غسان أحمد عبدالرحمن ص (٢٥٥).

(٢) سورة النساء الآية: [٥٩].

(٣) سورة العنكبوت، الآية: [٥١].

(٤) سورة الحجرات، الآية: [١].

ونجعله يتطاول ليتدخل في خصائص الخالق العظيم وينصب نفسه حكمًا عدلاً لا يرجع من حكمه ولا يعترض على قراره؟ إن ذلك والله لهو الضلال البعيد وصدق الله إذ يقول: ﴿ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾[1].

فنصوص الكتاب والسنة هي المقدمة عند المؤمنين الصادقين في كل أمور حياتهم لأنها وحي من الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، أما العقل الضعيف المخلوق لله فليس كذلك، لأنه من المسلم به أن العقل قدرته محدودة في معرفة ما يصلحه وما يضره، وفي معرفة الحسن من القبيح، هذا إذا لم يمسخ أو تغيره طوارئ فكيف يكن حكمًا ومقدمًا على الوحي؟! ثم إذا قدمناه فعلى أي العقول نعتمد؟!.

٩ ـ بقيت مسألة مهمة وهي موقف الإمام من الاستدلال بخبر الواحد، وهل من منهجه الاستدلال بخبر الواحد على مسائل الاعتقاد، والحقيقة أن الإمام ـ رحمه الله ـ يستدل بالخبر الواحد على الاعتقاد وغيره، فهو يستدل بالخبر الصحيح مطلقًا دون تفريق بين ما كان منها متواترًا أو آحادًا، وما رأيته في موضع رد حديثًا في مسألة عقدية لكونه خبر واحد غير متواتر وهذا يدركه كل من مارس (شرحه لصحيح مسلم).

وأما عموم كلامه على حجية خبر الواحد فإنه قد نص في الشرح في مواضع كثيرة جدًا على حجية خبر الواحد مستدلاً على ذلك بأحاديث كثيرة من أحاديث مسلم. وما كان يفصل بين العمليات والاعتقاديات، بل يؤخذ من بعض كلامه، ومن استدلاله ببعض الأحاديث على حجية خبر الواحد أنه يقول بحجيته في الاعتقادات والعمليات معًا، ومن ذلك ـ مثلاً ـ:

* أنه في شرح حديث أنس بن مالك[2] رضي الله عنه الذي جاء يثبت من رسالة

---

(١) سورة القصص، الآية: [٥٠].

(٢) هو: أبو حمزة أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بفتح الضادين المجمعين بن زيد بن حرام بالراء =

النبي ﷺ «وفيه قوله (زعم رسولك أنك تزعم أن الله أرسلك قال صدق»[1].

قال الإمام (وفي هذا الحديث العمل بخبر الواحد)[2].

فالإمام يستدل بهذا الحديث على حجية خبر الواحد، وهو في أمر عقدي، لأن هذا الذي بعثه النبي ﷺ للدعوة إلى الله، وأن محمد رسول الله، كان واحداً، كما أن الرجل الذي سأل الرسول ﷺ سوف يرجع إلى قومه وحده ويدعوهم إلى الإيمان، فلو لم يكن خبر الواحد في العقيدة حجة ما صح إيمانهم.

* وفي شرح حديث ابن عباس[3] الذي رواه في باب كتاب النبي ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام والذي جاء فيه (قال ابن عباس ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه فإذا فيه باسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم فأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيئن ﴿يا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سواء بيننا وبينكم﴾[4] الآية. قال الإمام (في هذا الكتاب جمل من القواعد وأنواع من الفوائد.. منها وجوب العمل بخبر الواحد، وإلا فلم يكن في بعثه دحية فائدة، وهذا إجماع من يعقد به)[5].

= خادم رسول الله ﷺ وكان يفتخر بذلك توفي سنة ٩٣ وقد تجاوز عمره المائة. تهذيب الأسماء واللغات ص ١٢٧/ ١.

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص ١٥١/ ١ برقم (١٠).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص ١٥٣/ ١.

(٣) هو عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب بن هاشم أبو العباس الهاشمي الصحابي بن الصحابي المكي ابن عم رسول الله ﷺ كان يقال له حبر الأمة والبحر لكثرة علمه ولد عام الشعب في الطائف قبل الهجرة بثلاث سنين، وتوفي بالطائف سنة ثمانية وستين. انظر: تهذيب الأسماء واللغات ص ٢٧٤- ٢٧٦/ ١.

(٤) سورة آل عمران، الآية: [٦٤].

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي ص ٩٢/ ١٢، وأخرجه مسلم بشرح النووي ص ٨٧/ ١٢ برقم (٧٤).

* وقال الإمام في شرح حديث أنس، أن نبي الله ﷺ كتب إلىٰ كسرىٰ، وإلىٰ قيصر، وإلىٰ النجاشي، وإلىٰ كل جبار، يدعوهم إلىٰ الله تعالىٰ . وليس بالنجاشي الذي صلىٰ عليه ﷺ)[1].

قال الإمام (وفي هذا الحديث جواز مكاتبة الكفار ودعائهم إلىٰ الإسلام والعمل بالكتاب وبخبر الواحد والله أعلم)[2].

* وقال الإمام في حديث أنس في شأن الخمر (أنهم أراقوها بخبر الرجل الواحد) فيه العمل بخبر الواحد، وأن هذا كان معروفًا عندهم)[3].

* وقال - رحمه الله - في تسمية الله (رفيقًا): (والصحيح جواز تسميته الله رفيقًا وغيره مما ثبت بخبر الواحد)[4].

قلت: ومسألة تسمية الله، من المسائل العقدية الهامة وتجويزه تسمية الله بخبر الواحد، دليل علىٰ أنه لا يفرق في قبول خبر الآحاد بين الاعتقادات أو العمليات.

هذه بعض الأمثلة من كلام الإمام علىٰ حجية خبر الواحد - وكلامه في ذلك كثير لعلها تكفي لبيان موقف الإمام من الاحتجاج بأخبار الآحاد في العقيدة.

ولكن دعنا نتعرف علىٰ رأي الإمام فيما يفيده الخبر الواحد لأن الخلاف في الاحتجاج مبني في الأصل علىٰ الخلاف فيما يفيده.

فلقد ذهب الإمام إلىٰ أن خبر الواحد في الأصل يفيد الظن فقال رحمه الله: (أن خبر الواحد الثقة حجة من حجج الشرع يلزم العمل بها ويفيد الظن ولا يفيد العلم،

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ٩٥/ ١٢.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص ٩٦/ ١٢.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ١٢٩/ ١٣.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ١٢٠/ - ١٢١/ ١٦.

وأن وجوب العمل به عرفنا بالشرع لا بالعقل)[1].

ثم قال (وأما من قال يوجب العلم فهو مكابر للحس، وكيف يحصل العلم واحتمال الغلط والوهم والكذب وغير ذلك متطرق إليه والله أعلم)[2].

وقال نقلاً عن الشيخ أبو عمر وابن الصلاح - رحمه الله - (والذي نختاره أن تلقي الأمة للخبر المنحط عن درجة التواتر بالقبول يوجب العلم النظري[3] بصدقه خلافًا لبعض محققي الأصوليين حيث نفى ذلك بناء على أنه لا يفيد في حق كل منهم إلا الظن، وإنما قبله لأنه يجب عليها العمل بالظن والظن قد يخطئ)[4] ثم قال ابن الصلاح «وقد بان لي الآن أنه ليس كذلك وأن الصواب أنه يفيد العلم»[5].

ولقد علق على قول الإمام ابن الصلاح فقال: (وهذا الذي ذكره الشيخ في هذه المواضع خلافًا ما قاله المحققون الأكثرون، فإنهم قالوا أحاديث الصحيحين التي ليست متواترة إنما تفيد الظن، فإنها آحاد والآحاد إنما تفيد الظن على ما تقرر ولا فرق بين البخاري ومسلم وغيرهما في ذلك، وتلقي الأمة بالقبول إنما أفادنا وجوب العلم بما فيهما وهذا متفق عليه، فإن أخبار الآحاد التي في غيرهما يجب العمل بها إذا صلحت أسانيدها ولا تفيد إلا الظن، فكذا الصحيحان، وإنما يفترق الصحيحان وغيرهما من الكتب في كون ما فيهما صحيحًا لا يحتاج إلا النظر فيه، بل يجب العمل به مطلقًا،

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص ١١٧/١.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص ١١٧/١.

(٣) العلم النظري هو العلم المكتسب عن طريق النظر والاستدلال. انظر نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر للحافظ ابن حجر، ومعه النكت على نزهة النظر للشيخ علي بن حسن الحلبي ص (٥٩-٦٠).

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص ٢٥/١ مقدمة الإمام النووي.

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي ١٥/١.

وما كان في غيرهما لا يعمل به حتىٰ ينظر وتوجد فيه شروط الصحيح، ولا يلزم من إجماع الأمة علىٰ العمل بما فيهما إجماعهم علىٰ أنه مقطوع بأنه كلام النبي ﷺ، وقد اشتد إنكار ابن برهان الإمام علىٰ من قال بما قاله الشيخ وبالغ في تغليطه»[١].

وظاهر كلامه هنا أنه يرىٰ أن خبر الواحد، لا يفيد إلا الظن، وهذا هو مذهب الأصوليين الذين يرون أن خبر الواحد يفيد الظن ولا يحتج به في العقائد، وهو مذهب مخالف للمذهب الوسط الذي هو مذهب السلف الذين هم وسطًا في كل شيء.

ولكن قبل أن أختم هذه المسألة أريد أن أذكر أن للإمام موقف موافق لمذهب السلف فيما يفيد خبر الواحد فقال ـ رحمه الله ـ (فإن قيل هذا نسخ للمقطوع به بخبر الواحد. وذلك ممتنع عند أهل الأصول، فالجواب أنه احتفت به قرائن ومقدمات أفادت العلم وخرج عن كونه خبر واحد مجردًا)[٢].

ومن خلال قوله هذا نعلم أن الإمام يرىٰ أن خبر الواحد الذي يفيد الظن هو الخبر الذي لم تحفه القرائن، أما الذي حفته القرائن فهو خبر واحد يفيد العلم، وهذا هو المذهب الوسط في هذه القضية[٣].

١٠ ـ ظهر لي أن من منهجه رحمه الله جواز المجاز في اللغة وعلىٰ غرار منهج المتكلمين.

ومن نصوصه في ذلك قوله في حديث الرسول ﷺ «إئتني بالكنف والدواة (أو اللوح والدواة) أكتب لكم كتابًا لن تضلوا بعده أبدًا فقالوا إن رسول الله ﷺ يَهْجُرُ)

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص ١/٢٦.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص ١/٢٦.

(٣) انظر: الخلاف فيما يفيده خبر الواحد، وأدلة كل قول في كتاب (خبر الواحد وحجيته) لفضيلة الشيخ الدكتور أحمد محمود عبدالوهاب الشنقيطي ص ٦٧ ـ ١٢٢.

قال فيه (وفي هذا الحديث فوائد سوىٰ ما ذكرناه منها جواز كتابة العلم، . . . ، ومنها جواز استعمال المجاز لقوله ﷺ: أكتب لكم أي أمر بالكتابة)[1] .

وقال في موضع آخر: (قوله فذهبت إلىٰ أبي طلحة وهو زوج أم سليم بنت ملحان فقلت (يا أبتاه) فيه استعمال المجاز، لقوله: يا أبتاه وإنما هو زوج أمه . . .)[2].

وأيضًا قوله في قوله ﷺ (لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر) أنه مجاز قال (قال العلماء: وهو مجاز وسببه أن العرب كان شأنها أن نسب الدهر عند النوازل والحوادث والمصائب النازلة بها من موت أو هرم أو تلف مال أو غير ذلك . . .)[3].

وأيضًا أشار إلىٰ أحد أدلة الأصوليين التي اعتمدوا عليها في إثبات المجاز ووجوده في اللغة. وهو قوله تعالىٰ: ﴿فوجدا فيها جدارًا يريد أن ينقض﴾ فقال: (هذا من المجاز لأن الجدار لا يكون له حقيقة إرادة ومعناه قرب من الانقضاض وهو السقوط واستدل الأصوليون بهذا علىٰ وجود المجاز في القرآن وله نظائر معروفة)[4].

ومن أمثلة المجاز التي علىٰ غرار منهج المتكلمين قال ـ رحمه الله ـ قوله ﷺ: «العز إزاره والكبرياء رداؤه فمن ينازعني عذبته» (وأما تسميته إزارًا ورداءًا فمجاز واستعارة حسنة كما تقول العرب فلان شعاره الزهد ودثاره التقوىٰ لا يريدون الثوب الذي هو شعار أو دثار بل معناه صفته . . . »[5].

كما أنه يرىٰ ـ رحمه الله ـ أنه لا يصار إلىٰ المجاز إلا إذا تعذرت الحقيقة فقال:

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص ٧٩/ ١١ .

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص ١٨٧/ ١٣ .

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص ٣ـ ٤ / ١٥ .

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص ١١٥/ ١٥ ، وانظر ص ٨٢/ ١٦ .

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي ص ١٤٣/ ١٦ .

(والصحيح الأول لأنه لا يصار إلىٰ المجاز إلا إذا تعذرت الحقيقة، والحقيقة غير متعذرة بل في الحمل علىٰ الحقيقة فائدة مهمة . . .)[1].

١١ - إمساكه - رحمه الله - عن الحديث عما شجر بين الصحابة، وتعظيمه لهم فلا يذكر اسم أحدهم إلا ترضىٰ عنه، وكان منهجه في ذلك منهج السلف رحمه الله، ولعل كتابه (مختصر أسد الغابة) من أصدق المثل علىٰ صدق هذا الجانب.

ومن أقواله الدالة علىٰ موقفه منهم - رحمه الله - (وأما الحروب التي جرت فكانت لكل طائفة شبهة اعتقدت تصويبها أنفسها بسببها وكلهم عدول رضي الله عنهم ومتأولون في حروبهم وغيرها، ولم يخرج شيء من ذلك أحدًا منهم عن العدالة لأنهم مجتهدون اختلفوا في مسائل من محل الاجتهاد كما يختلف المجتهدون بعدهم في مسائل من الدماء وغيرها ولا يلزم من ذلك نقص أحد منهم واعلم أن سبب تلك الحروب أن القضايا كانت مشتبهة فلشدة اشتباهها اختلف اجتهادهم وصاروا ثلاثة أقسام قسم ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق في هذا الطرف وأن مخالفه باغ فوجب عليهم نصرته وقتال الباغي عليه فيما اعتقدوه ففعلوا ذلك ولم يكن يحل لمن هذه صفته التأخر عن مساعدة إمام العدل في قتال البغاة في اعتقاده، وقسم عكس هؤلاء ظهر لهم بالاجتهاد أن الحق في الطرف الآخر، فوجب عليهم مساعدته وقتال الباغي عليه وقسم ثالث اشتبهت عليهم القضية وتحيروا فيها ولم يظهر لهم ترجيح أحد الطرفين فاعتزلوا الفريقين وكان هذا الاعتزال هو الواجب في حقهم لأن لا تحل الأقدام علىٰ قتال مسلم حتىٰ يظهر أنه مستحق لذلك ولو ظهر لهؤلاء رجحان أحد الطرفين وأن الحق معه لما جاز لهم التأخر عن نصرته في قتال البغاة عليه فكلهم معذورون رضي الله عنهم، ولهذا اتفق أهل الحق ومن يعتد به في الإجماع إلىٰ قبول شهاداتهم ورواياتهم

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص ٨٢/ ١٣.

وكمال عدالتهم رضي الله عنهم أجمعين)[1].

١٢ ـ ولا تفوتني الإشادة بالسمات الشخصية للإمام النووي وشخصيته العلمية، والتي اتسمت بالأمانة العلمية، والتجرد لطلب الحقيقة والبحث عن القول المدلل بأدلة الوحيين، وحسن مناقشته للأقوال المخالفة، للدليل اجتهاداً، وتأدبه مع أصحابها، واستصحابها لحسن النية والظن بهم، فالترحم عليهم والدعاء لهم[2].

كذا عدم التعصب لرأيه أو لقول شيخه، أو من ينقل عنه، وتظهر عنايته بالحديث وتخريجه، والكلام على الروايات صحة وضعفًا وتخريجًا وتعليلاً واستنباطًا، حتى ربما غلب عليه ذلك في البحث ولا ريب وهو رحمه الله من أصحاب الحديث وصناعته.

* * *

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص ١٢١ ـ ١٢٢/ ١٥ وانظر أيضًا: أول صفحة ١٢١/ ١٥ حيث تعرض لمسألة تفضيل بعض الصحابة على بعض، ونقل أقوال العلماء فيها.

(٢) انظر ص ٤/ ١٤ مثالاً على ذلك.

الفصل الأول

الإيمـــان بالله

ويشتمل على:

- **تمهيد.**
- **المبحث الأول:** توحيد الربوبية.
- **المبحث الثاني:** توحيد الأسماء والصفات.
- **المبحث الثالث:** توحيد الألوهية.
- **المبحث الرابع:** حقيقة الإيمان ومفهومه عند الإمام النووي رحمه الله.
- **المبحث الخامس:** مسألة زيادة الإيمان ونقصانه.
- **المبحث السادس:** دخول العمل في مسمى الإيمان.
- **المبحث السابع:** مسألة الاستثناء في الإيمان.
- **المبحث الثامن:** حكم مرتكب الكبيرة وأثر المعاصي على الإيمان.

* * *



تمهيد

الإيمان بالله هو أول ركن من أركان الإيمان التي جاءت في حديث جبريل عليه السلام قال رسول الله ﷺ «قال جبريل فأخبرني عن الإيمان؟ فقال: رسول الله ﷺ: أن تؤمن بالله . . . »[1] والإيمان بالله يتضمن الاعتقاد بأن الله خالق ومعبود بحق، وله أسماء وصفات سبحانه وتعالىٰ.

وهذه هي أنواع التوحيد الثلاثة، توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

وإلىٰ هذا أشار الإمام بقوله ـ رحمه الله ـ (أما النصيحة لله تعالىٰ فمعناها منصرف إلىٰ الإيمان به، ونفي الشريك عنه وترك الإلحاد في صفاته ووصفه بصفات الكمال والجلال كلها وتنزيهه سبحانه وتعالىٰ من جميع النقائص والقيام بطاعته واجتناب معصيته، والحب فيه والبغض فيه وموالاة من أطاعه ومعاداة من عصاه وجهاد من كفر به والاعتراف بنعمته وشكره عليها، والإخلاص في جميع الأمور والدعاء إلىٰ جميع الأوصاف المذكورة والحث عليها . . .)[2].

وقال في شرح قوله ﷺ: «إن الله وتر يحب الوتر» (الوتر الفرد ومعناه في حق الله تعالىٰ الواحد الذي لا شريك له ولا نظير، وقيل معناه: منصرف إلىٰ صفة من يعبد الله بالواحدانية والتفرد ومخلصًا له والله أعلم)[3].

كما أن مسألة الإيمان كانت إحدىٰ المسائل الرئيسية التي وقع فيها الخلاف بين أهل السنة والجماعة، وبين غيرهم من الفرق، وشمل هذا الخلاف جوانب عديدة هي:

---

(١) حديث متفق عليه أخرجه البخاري مع الفتح ص ١١٤/١، برقم (٥٠) و ٥١٣/٨ برقم (٤٧٧) ومسلم بشرح النووي ص ١٤١/١ كتاب الإيمان برقم (٨).

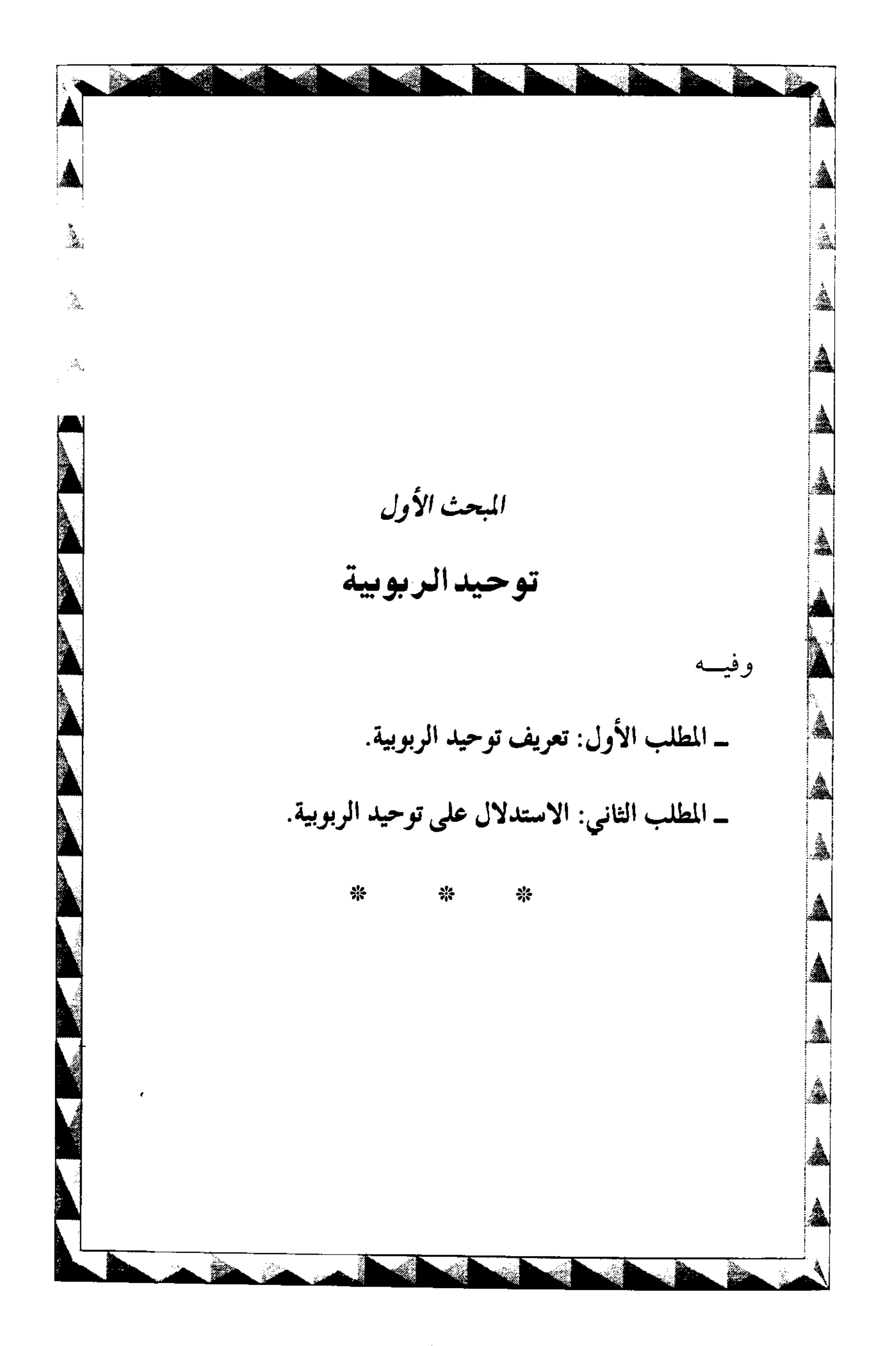
(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص ٣٣/٢.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٧/٦.

تعريف الإيمان وما يدخل في مسمّاه شرعًا، وزيادته ونقصانه، وحكم الاستثناء فيه، ومن يستحق اسم الإيمان ومن لا يستحقه، وما مصير مرتكب الكبيرة في الآخرة؟

وهذه الأمور كلها مما تعرض لها الإمام في كتابه «شرح صحيح مسلم» بالإضافة إلىٰ ما سبق من أنواع التوحيد الثلاثة ـ وقرر فيها مذهب أهل السنة والجماعة، مدعمًا ذلك بالأدلة من الكتاب والسنة وأقوال السلف، وردّ علىٰ الفرق الذين خالفوا الحق في هذه الأمور. كما كان للإمام النووي نصيب في تحقيق التوحيد وتثبيته في النفوس بكل ما أوتي من قوة، ودفع شبه المبطلين عنه. وذلك ليبقىٰ جانب التوحيد مصونًا، ومنارة عالية. ولئلا يكون لأحد حجة علىٰ الله تعالىٰ بعد ذلك، فتناول أثناء شرحه لأحاديث الصحيح مسائل التوحيد من جوانب مختلفة، وفي مواضع متعددة من كتابه «شرح صحيح مسلم»، وذلك ما أردت تتبعه وعرضه في المباحث التالية. مع بيان مدىٰ موافقة ما ذكره لمنهج السلف وعدمها والله الهادي إلىٰ سواء السبيل.





المبحث الأول

توحيد الربوبية

وفيـــه

- المطلب الأول: تعريف توحيد الربوبية.

- المطلب الثاني: الاستدلال على توحيد الربوبية.

* * *



المبحث الأول

«توحيد الربوبية»

توطئة:

توحيد الربوبية هو أحد أنواع التوحيد التي سبق بيانها، وهو أحد قسمي توحيد المعرفة والإثبات المسمىٰ بالتوحيد العلمي الخبري[1] أو التوحيد الاعتقادي القولي[2].

وهذا التوحيد قائم علىٰ إثبات وجود الله تعالىٰ، واعتقاد تفرده بالخلق والملك والتدبير والتصرف المطلق في أمور الكون، فهو الرب وحده ولا رب سواه، والخلق جميعًا مقهورون تحت قبضته فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ولا راد لقضائه ولا معقب لحكمه[3].

وهذا النوع من التوحيد هو كالأساس بالنسبة لبقية أنواع التوحيد، وهو منها كالمقدمة من النتيجة، فإن أول ما يتعلق القلب يتعلق بتوحيد الربوبية، ثم يرتقي إلىٰ توحيد الإلهية، والأسماء والصفات ولا يغلط في الإلهية والأسماء والصفات إلا من

---

(١) سمي علميًا نسبة إلىٰ العلم، لأن المقصود منه أن يعلم العبد ذلك علمًا يقينيًا وسمي خبريًا نسبة إلىٰ الخبر، لأن الكلام فيه باب الخبر الدائر بين النفي والإثبات من قبل المتكلم، المقابل بالتصديق أو الكذب من قبل المخاطب. انظر: تقريب التدمرية، ١٧.

(٢) هو اعتقادي لأنه لابد فيه من الاعتقاد الجازم، وقولي: يعني قول القلب الذي هو الاعتقاد وقول اللسان الذي هو الإقرار.

(٣) انظر: مدارج السالكين، ص ١/١١٢، ودعوة التوحيد للهراس، ص٧٢.

لم يعط الربوبية حقها[1].

ومن هنا فإن مجرد الإقرار بتوحيد الربوبية من دون بقية الأنواع لا يكون به المرء موحداً، ولا يخرج بذلك من الشرك[2] وقد سبق أن أنواع التوحيد كلها متلازمة، لا ينفك واحد منها عن الآخر[3].

وينبغي أن يعلم هنا أن الكلام على توحيد الربوبية يشمل عدة مسائل مما له علاقة بوجود الله تعالى، وأفعاله العامة، وأحكامه الكونية والشرعية وفي أثناء قراءتي لشرح صحيح مسلم للنووي وجدت أن الإمام النووي - رحمه الله -.

قد تطرق إلى بعض المسائل التي تندرج في باب توحيد الربوبية، غير أن تلك المسائل توجد مبثوثه في مواضع مختلفة ولابد من جمعها والتنسيق بينها ليتضح به منهجه في هذا النوع من التوحيد، وذلك ما أردت القيام به في هذا المبحث متمثلاً في المطالب الآتية والله ولي التوفيق.



---

(١) انظر: مدارج السالكين ص ٤١٣/١، ودعوة التوحيد للهراس، ص٧٢، والدرر السنية في الأجوبة النجدية ٤٣/٢.

(٢) فإن المشركين في وقت الرسول ﷺ كانوا يقرون بهذا التوحيد ومع ذلك لم يخرجون من الشرك الذي وصفهم الله به في القرآن وقاتلهم عليه الرسول ﷺ لأنهم لم يقروا بتوحيد الإلهية الذي هو الغاية من خلق الإنسان.

(٣) انظر ص ١٢٣ ـ ١٢٤ من الرسالة.

المطلب الأول

تعريف توحيد الربوبية

تعرض الإمام النووي للكلام في معاني الرب، بما يمكن أن نفهم منه المراد بتوحيد الربوبية لغة وشرعًا، كما تكلم على حكم إطلاق هذا اللفظ «الرب» على غير الله تعالى وبيان ذلك كما يلي:

المسألة الأولى: معنى الرب لغة:

قال الإمام في شرح قوله ﷺ: «أنت رب السموات والأرض ومن فيهن» (قال العلماء: للرب ثلاث معاني في اللغة السيد المطاع، فشرط المربوب أن يكون ممن يعقل وإليه أشار الخطابي يقول «ولا يصح أن يقال سيد الجبال والشجر»، قال القاضي عياض: هذا الشرط فاسد بل الجميع مطيع له سبحانه وتعالى، قال الله تعالى ﴿أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [(1)])[(2)].

وقال أيضًا في شرح قوله ﷺ «رب العالمين». (في معنى رب أربعة أقوال حكاها الماوردي وغيره المالك والسيد والمدبر والمربي، فإن وصف الله تعالى برب لأنه مالك أو سيد فهو من صفات الذات وإن وصف لأنه مدبر خلقه ومربيهم فهو من صفات فعله)[(3)].

وقال في موقع آخر من الشرح: (قال أهل اللغة وبعل الشيء ربه ومالكه وقال

---

(1) سورة فصلت، الآية: [11].

(2) شرح صحيح مسلم للنووي ص49/6 صلاة المسافرين.

(3) شرح صحيح مسلم للنووي، ص 51/6.

ابن عباس رضي الله عنها والمفسرون في قوله سبحانه وتعالى: ﴿أتدعون بعلاً﴾ أي ربًا. وقيل المراد بالبعل في الحديث الزوج[1]). وقال أيضًا في شرح قوله ﷺ: «أن تلد الأمة ربها» (معنى ربها وربتها سيدها ومالكها وسيدتها ومالكتها)[2].

قلت: هذه بعض المعاني اللغوية التي أشار إليها الإمام للفظ «الرب»[3] وهي موافقة لما جاء في كتب اللغة، بل تذكر كتب اللغة معاني زائدة على ما ذكره والرب في الأصل: التربية، وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام، يقال: ربه، ورباه، وربيه. وقيل: لأن يربني رجل من قريش أحب إليّ من أن يربني رجل من هوازن. فالرب مصدر مستعار للفاعل[4]»[5] والإسم منه الرِّبابة - بالكسر - والربوبية - بالضم»[6].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص١٤٢/١.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٤٢/١.

(٣) يطلق الرب في اللغة أيضًا على ما يصلح للشيء والخالق والمدبر والمتمم، والصاحب، ويقال رب زيد الأمر ربًا، من باب «فعل» إذا رأسه وقام بتدبيره ومنه قيل للحاضنة، رابة. انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس، مادة (رب) ص ٣٨١ - ٣٨٣، والمصباح المنير للفيومي، ص٨١ - ٨٢.

(٤) وعلى هذا فلفظ «رب» أصله مصدر: ربّ، يَرُبّ، ربًا. ثم استعمل في الفاعل. فمعناه: راب - على وزن فاعل -.

انظر: تجريد التوحيد المفيد، للشيخ تقي الدين المقريزي، ص ٤ - ٥.

(٥) المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني ص (١٨٤).

(٦) القاموس المحيط لفيروز آبادي «مادة ربب» ص٨٧ .

المسألة الثانية: تعريف الربوبية في الشرع

قال الإمام رحمه الله في شرح قوله ﷺ: «ولا يقولن أحدكم عبدي وأمتي كلكم عبيد الله وكل نساءكم إماء الله ولكن ليقل غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي»[1].

قال: (قال العلماء مقصود الأحاديث شيئان: أحدهما نهي المملوك أن يقول لسيده ربي لأن الربوبية إنما حقيقتها لله تعالى لأن الرب هو المالك أو القائم بالشيء ولا يوجد حقيقة هذا إلا في الله تعالى)[2].

فبين الإمام النووي - رحمه الله - أن حقيقة الربوبية مختصة لله تعالى دون سواه، وهذا هو معنى توحيد الربوبية في الشرع، فإن معناه: إفراد الله تعالى بالربوبية على ما تقتضيه من المعاني الكثيرة[3].

فالله سبحانه وتعالى هو الرب وحده لا شريك له، بمعنى أنه هو الخالق، الموجد لعباده، القائم بتربيتهم وإصلاحهم، المتكفل بصلاحهم من خلق، ورزق، وعافية، وإصلاح ودين ودنيا»[4]، وهو عز وجل: السيد الذي لا شبيه له، ولا مثل في مثل سؤدده، والمصلح أمر خلقه بما أسبغ عليهم من نعمه، والمالك الذي له الخلق والأمر[5]. وتربيته تعالى، لخلقه نوعان: عامة، وخاصة.

فالعامة: هي خلقه للمخلوقين، ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم التي فيها بقاءهم في الدنيا.

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص٥/ ١٥ كتاب الألفاظ من الأدب برقم (١٣).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٥-٦/ ١٥.

(٣) انظر شرح العقيدة الطحاوية، ص١١٦/ ١.

(٤) تجريد التوحيد المفيد، للمقريزي (ص٥).

(٥) تفسير الطبري المسمى «جامع البيان في تأويل آي القرآن» للإمام محمد بن جرير الطبري، ص: ٤٨/ ١.

والخاصة: تربيته لأوليائه فيربيهم بالإيمان، ويوفقهم له، ويكملهم، ويدفع عنهم الصوارف والعوائق الحائلة بينهم وبينه.

وحقيقتها تربية التوفيق لكل خير، والعصمة من كل شرّ.

ولعل هذا المعنى هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ «الرب» فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة(١).

وقال بعض العلماء: إن هذا الاسم هو الاسم الأعظم(٢)، لكثرة دعوة الداعين به، وتأمل ذلك في القرآن، كما في آخر آل عمران، وسورة إبراهيم وغيرهما، ولما يشعر به هذا الوصف من الصلة بين الرب والمربوب، مع ما يتضمنه من العطف، والرحمة، والافتقار في كل حال(٣).



(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، ص٣٤ /١ .

(٢) سيأتي الكلام على الاسم الأعظم والخلاف فيه عند الكلام على توحيد الأسماء والصفات.

(٣) حكاه الإمام القرطبي في تفسيره «الجامع لأحكام القرآن» ص ١٣٧/ ١ .

المسألة الثالثة: حكم إطلاق لفظ الرب على غير الله تعالى:

لقد عرف مما تقدم أن للفظ «الرب» معاني عديدة في اللغة وأن تلك المعاني لا توجد على التمام والكمال إلا لله تعالى المتفرد بربوبية خلقه إيجاد أو إمدادًا، وخلقًا وتدبيرًا.

وإذا كان كذلك فهل يجوز إطلاق لفظ «الرب» على المخلوق إطلاقًا لغويًا على إرادة معنى خاص من تلك المعاني، تسمية المالك للشيء المتصرف فيه ربًا له؟ وهل يتنافى ذلك مع توحيد الربوبية[1]؟

إن مُثار هذا التساؤل من حديثين يظهر أن بينهما تعارضًا وهما:

١ - حديث جبريل الطويل الذي يسأل فيه النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان. وعلم الساعة[2]، وجاء فيه بيان أشراط الساعة[3]، «إذا ولدت الأمة ربها» وفي رواية «ربتها» بالتأنيث فظاهر هذا الحديث جواز إطلاق لفظ «الرب» مضافًا على غير الله تعالى.

٢ - حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال. قال رسول الله ﷺ: «لا يقل أحدكم: أطعم ربك، وضيء ربك، ولا يقل أحدكم ربي وليقل سيدي، مولاي ولا يقل أحدكم: عبدي، أمتي. وليقل فتاي، وفتاتي وغلامي»[4].

وظاهر هذا الحديث عدم جواز إطلاق لفظ «الرب» على غير الله تعالى.

---

(١) أما إطلاق لفظ «الرب» على إرادة المعنى العام، فذلك من خصائص الخالق. وإذا ما أطلق على المخلوق بهذا المعنى كان - بلا شك - شركًا أكبر في الربوبية كقول فرعون - فيما حكاه الله تعالى عنه - ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ النازعات، آية: ٢٤.

(٢) هو حديث متفق عليه. أخرجه البخاري مع الفتح، ص ١١٤/ ١، برقم (٥٠) و ٥١٣/ ٨، برقم (٤٧٧٧). ومسلم بشرح النووي، ص ١٤١/ ١ كتاب الإيمان برقم (٨).

(٣) أشراط الساعة، علاماتها، وسيأتي الكلام عليها في فصل الإيمان باليوم الآخر إن شاء الله.

(٤) هذا الحديث أيضًا متفق عليه، أخرجه البخاري مع الفتح، ص ١٧٧/ ٥ برقم (٢٥٥٢) ومسلم بشرح النووي، ص ٦ - ٧/ ١٥، كتاب الألفاظ من الأدب واللفظ لمسلم.

١ـ رأي الإمام النووي في ذلك:

مال الإمام رحمه الله إلى التفصيل في هذه المسألة من حيث أنها فيها تفصيل بين إطلاق لفظ الرب بلا إضافة وبين إطلاقه مع الإضافة ولقد تعرض الإمام النووي لهذه المسألة عند شرح الحديث الثاني. فقال رحمه الله تعالى: (قال العلماء: مقصود الأحاديث شيئان أحدهما نهي المملوك أن يقول لسيده ربي لأن الربوبية إنما حقيقتها لله تعالى لأن الرب هو المالك أو القائم بالشيء ولا يوجد حقيقة هذا إلا في الله تعالى فإن قيل فقد قال النبي ﷺ في أشراط الساعة أن تلد الأمة ربتها وربها فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن الحديث الثاني لبيان الجواز وأن النهي في الأول للأدب والكراهة للتنزيه لا للتحريم.

والثاني: أن المراد النهي عن الإكثار من استعمال هذه اللفظة واتخاذها عادة ولم ينه عن إطلاقها في نادر من الأحوال واختار القاضي هذا الجواب ولا نهي في قول المملوك سيدي لقوله ﷺ وسيدي لأن لفظة السيد غير مختصة بالله تعالى اختصاص الرب ولا مستعملة فيه كاستعمالها حتى نقل القاضي عن مالك أنه كره الدعاء بسيدي ولم يأتي تسمية الله تعالى بالسيد في القرآن، ولا في حديث متواتر وقد قال النبي ﷺ: «إن ابني هذا سيد وقوموا إلى سيدكم» يعني سعد بن معاذ وفي الحديث الآخر: «اسمعوا ما يقول سيدكم» يعني سعد بن عبادة فليس في قول العبد سيدي إشكال ولا بأس لأنه يستعمله غير العبد والأمة ولا بأس أيضًا بقول العبد لسيده مولاي فإن المولى وقع على ستة عشر معنى سبق بيانها منها الناصر والمالك. قال القاضي: وأما قوله في كتاب مسلم في رواية وكيع وأبي معاوية عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رفعه ولا يقل العبد لسيده مولاي فقد اختلف الرواة عن الأعمش فيما ذكر هذه اللفظ فلم يذكرها عنه آخرون وحذفها أصح والله أعلم)[١].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٥ ـ ٦ / ١٥.

وقال في الموضع الثاني الذي تعرض فيه لهذه المسألة (ومتىٰ دخلت الألف واللام فقيل الرب اختص بالله تعالي، وإذا خذفتا جاز إطلاقه علىٰ غيره فيقال رب المال ورب الدار ونحو ذلك)[١].

٢ ـ القول الراجح في هذه المسألة:

هذا ما ذكره الإمام رحمه الله في حكم إطلاق لفظ «الرب» علىٰ غير الله تعالىٰ، وعند التأمل فيه يظهر أنه هو القول الراجح في هذه المسألة من حيث أنها فيها تفصيل بين إطلاق لفظ الرب بلا إضافة وبين إطلاقه مع الإضافة، فعند عدم الإضافة لا يجوز إطلاقه علىٰ غير الله تعالىٰ، بل يختص ذلك بالله عز وجل وعند الإضافة يجوز إطلاقه علىٰ الله سبحانه وعلىٰ غيره، وقد مال إلىٰ هذا التفصيل عدد من أهل العلم فيما اطلعت[٢] وعلل بعضهم ذلك بأن لفظ «رب» إذا دخل عليه الألف واللام كانت للعهد أو للعموم، فيختص الله تعالىٰ به، وإذا خذفتا منه صار مشتركًا بين الله وبين عباده[٣].

ولكن يعترض علىٰ القول بجواز إطلاقه علىٰ غير الله تعالىٰ في حالة الإضافة بأن النهي في الحديث إنما هو عن إطلاقه مضافًا، حيث أضيف لفظ «رب» فيه إلىٰ ضمير المملوك «ربك» أو ضمير السيد «ربي» فيكون منهيًا عنه حتىٰ في حالة الإضافة، خلافًا لما ذهب إليه هؤلاء من التفصيل.

وعلىٰ هذا يمكن أن يتوجه ما ذهب إليه الإمام النووي ـ رحمه الله ـ من التفريق بين إطلاقه مضافًا إلىٰ من يعقل، كقوله «ربك» في الحديث، وبين إطلاقه مضافًا إلىٰ ما لا يعقل، كقوله «رب الدار»، ففي الأول يمنع ذلك في غير الله تعالىٰ، لكون العاقل

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص ٦/٥١، باب صلاة المسافرين.

(٢) منهم الإمام القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القران، ص ١/١٣٧، والحافظ ابن كثير في تفسيره ص١/٢١، والراغب الأصفهاني في كتاب المفردات ص١٨٤، والفيروز آبادي في القاموس المحيط ٨٧ـ٨٨.

(٣) تفسير القرطبي ص ١/١٣٧، والمصباح المنير للفيومي، ص ٢١٤.

متعبد بإخلاص التوحيد لله، وترك الإشراك معه. وفي الثاني: يجوز لكونه علة المنع منتفية عن غير العاقل. ويؤيد ذلك ما جاء في حديث اللقطة[1]، وفيه عندما سئل عليه الصلاة والسلام عن ضالة الإبل - فقال: «دعها، فإن معها حذاءها وسقاءها، ترد الماء، وتأكل الشجر حتى يجدها ربها» الحديث[2] ففيه إطلاق لفظ «رب» مضافًا إلى ضمير ما لا يعقل، وهي الإبل، في قوله «ربها» إلا أنه يرد على هذا القول أيضًا ما في حديث جبريل، حيث أضاف لفظ «رب» إلى ضمير من يعقل، في قوله: «إذا ولدت الأمة ربها» وظاهر ذلك الجواز، لكن يمكن أن يجاب عنه بأنّ. هذا ليس فيه إلا وصفها بذلك لا دعائها به، وتسميتها به، وفرق بين الدعاء والتسمية، وبين الوصف، كما تقول: زيد فاضل، فتصفه بذلك ولا تسميه به، ولا تدعوه به»[3].

وهذا يتفق مع ما تقدم - فيما ذكره الإمام - من أن المراد النهي عن الإكثار من ذلك واتخاذ استعمال هذه اللفظة عادة شائعة، وليس المراد النهي عن ذكرها في الجملة، أي في نادر الأحوال[4]. وهذا - في نظري - أحسن ما يصار إليه في هذه المسألة، وعليه يكون النبي ﷺ قد نهى عن إشاعة إطلاق لفظ «الرب» مضافًا على المخلوق - وإن كان يطلق لغة - «تحقيقًا للتوحيد وسدًا للذرائع الشرك، لما فيها من التشريك في اللفظ، لأن الله تعالى هو رب العباد جميعهم، فإذا أطلق على غيره مشاركة في الاسم، فينهى عنه

---

(١) اللقطة: الشيء الذي يلتقط، وهو بضم اللام وفتح القاف على المشهور عند أهل اللغة والمحدثين. قاله الحافظ ابن حجر في فتح الباري (ص٧٨/ ٥).

(٢) وهو متفق عليه، أخرجه البخاري - مع الفتح - ص: ٨٣/ ٥ برقم (٣٤٢٨)، ومسلم بشرح النووي ص ٢٠/ ١٢، كتاب اللقطة.

(٣) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، (ص٥٨٨).

(٤) وهذا هو اختيار القاضي عياض رحمه الله، كما في اكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض ص ١٨٨ - ١٨٩/ ٧. كما في إكمال إكمال المعلم في شرح «صحيح مسلم» للإمام أبي عبدالله الأبي، ومعه «مكمل إكمال إكمال المعلم» للسنوسي ص ٤٦٤/ ٧.
وانظر: شرح صحيح مسلم للنووي ص٦ - ٧/ ١٥.

لذلك، وإن لم يقصد بذلك التشريك في الربوبية التي هي وصف الله تعالى. وإنما المعنى أن هذا مالك له، فيطلق عليه هذا اللفظ بهذا الاعتبار - فالنهي عنه حسمًا لمادة التشريك بين الخالق والمخلوق وتحقيقًا للتوحيد، وبعدًا عن الشرك في اللفظ.

وهذا من أحسن مقاصد الشريعة، لما فيه من تعظيم الرب تعالى، وبعده عن مشابهة المخلوقين، فأرشدهم ﷺ إلى ما يقوم مقام هذه الألفاظ، وهو قوله «سيدي ومولاي»[(1)](2).

ومن هذا الباب أيضًا نهيه ﷺ أن يقول الرجل «عبدي وأمتي»(3) قال الإمام - رحمه الله -: «الثاني يكره للسيد أن يقول لمملوكه عبدي وأمتي بل يقول غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي لأن حقيقة العبودية إنما يستحقها الله تعالى ولأن فيها تعظيمًا بما لا يليق بالمخلوق استعماله لنفسه وقد بين النبي ﷺ العلة في ذلك فقال: «كلكم عبيد الله»(4) فنهى عن التطاول في اللفظ كما نهى عن التطاول في الأفعال وفي إسبال الإزار وغيره. وأما غلامي وجاريتي وفتاي وفتاتي فليست دالة على الملك، كدلالة عبدي مع أنها تطلق على الحر والمملوك، وإنما هي للاختصاص. قال الله تعالى: ﴿وإذ قال موسى لفتاه﴾(5) ﴿وقال لفتيانه﴾(6) وقال لفتيته. ﴿قالوا سمعنا فتى

---

(1) وإنما أرشد إلى هذين اللفظين لأنهما وإن كانا يطلقان على الله تعالى أيضًا لكنهما ليسا مختصين بالله تعالى باختصاص لفظ الرب، وليسا كذلك في الشهرة والاستعمال كلفظ الرب. فيعلم الفرق بذلك. والله أعلم.

انظر: «فتح الباري» ص ١٨٩ - ١٨٠/ ٥، وإكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم، ص ١٨٨ - ٧/١٨٩.

(2) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد للشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ ص٤٥٥.

(3) جزء من حديث أخرجه مسلم بشرح النووي، كتاب الألفاظ من الأدب، ص٥/ ١٥ رقم (٢٢٤٩).

(4) جزء من حديث أخرجه مسلم بشرح النووي، كتاب الألفاظ من الأدب ص ٥/ ١٥، رقم (٢٢٤٩).

(5) سورة الكهف، آية: [٦٠، ٦٢].

(6) سورة يوسف، آية: [٦٢].

يذكرهم﴾[1] وأما استعمال الجارية في الحرة الصغيرة فمشهور معروف في الجاهلية والإسلام والظاهر أن المراد بالنهي من استعمله على جهة التعاظم والارتفاع لا للوصف والتعريف والله أعلم»[2].

وهذا من باب حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد، فقد بلغ ﷺ أمته كل ما فيه لهم نفع، ونهاهم عن كل ما فيه نقص في الدين. فلا خير إلا دلهم عليه، خصوصًا في تحقيق التوحيد، ولا شر إلا حذرهم منه، خصوصًا ما يقرب من الشرك لفظًا، وإن لم يقصد به وبالله التوفيق[3].

* * *

---

(١) سورة الأنبياء، آية: [٦٠].

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٦ ـ ٧/ ١٥ .

(٣) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، ص ٤٥٥ .

المطلب الثاني

الاستدلال على توحيد الربوبية

إن الإقرار بالربوبية فطري في البشر، ولذلك نجد أن القرآن الكريم، يطرح قضية الربوبية على أنها قضية مسلمة بها عند الناس، وإنما يناقشهم في لازمها، وهو توحيد الألوهية، ويدعوهم إلى إخلاص العبادة لله رب العالمين.

كما نجد في أدلة الكتاب والسنة من البراهين العقلية الصريحة ما يناسب جميع الناس - ولكن المرء حين يرجع إلى ما كتبه علماء المسلمين في هذا الباب يجد أنهم قد سلكوا في الاستدلال على وجود الله تعالى وربوبيته مناهج مختلفة بين موافق لمنهج الكتاب والسنة ومخالف له.

ويعتبر المتكلمون أكثر من شغلوا أنفسهم بتقرير توحيد الربوبية والاستدلال عليه، غير أنهم لم يسيروا في ذلك على منهج الكتاب والسنة ومنهج السلف الصالح، وإنما أتوا فيه بمنهج مخترع مستمد من الفلسفة والمنطق اليوناني[1]، فترتب على ذلك مفاسد عديدة في العقيدة.

* * *

(١) سوف يظهر لنا عند عرض منهج المتكلمين في الاستدلال على وجود الله كيف أنهم اعتمدوا في ذلك على الجوهر والعرض وقضية التركيب.

المسألة الأولى

منهج المتكلمين في الاستدلال على وجود الله

تمهيد:

سبق القول أن الإيمان بوجود الله وربوبيته أمر فطري، لكنه قد يحتاج إلى دليل عند فساد هذه الفطرة أو تغييرها، لتقام الحجة على المخالف لعله يتوب إلى رشده.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية[1] - رحمه الله (الإقرار بالخالق وكماله يكون فطريًا ضروريًا في حق من سلمت فطرته، وإن كان مع ذلك تقوم عليه الأدلة الكثيرة، وقد يحتاج إلى الأدلة عليه كثير من الناس عند تغيير الفطرة وأحوال تعرض لها)[2].

لذا اهتم علماء الإسلام من مختلف الطوائف والفرق بقضية الإستدلال على وجود الله، وتباينت طرقهم وآرائهم في ذلك بسبب اختلاف مشاربهم ومناهجهم.

وقد رأيت من المناسب أن أذكر نبذة موجزة عن مسلك المتكلمين في هذه القضية قبل أن أورد مسلك الإمام النووي في ذلك لكي يتضح منهجه في هذه الأمور ونعرف

---

(١) هو الإمام العلامة وحيد عصره وفريد دهره، تقي الدين أبو العباس، أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية الحراني الدمشقي الحنبلي، بل المجتهد المطلق، كان آية في التفسير والأصول والفقه وغيرها من العلوم. إذا تكلم في علم فكأنه لا يعرف غيره، ولهذا برز في جميع العلوم وكان فصيح اللسان قوي الحجة شديد التمسك بالسنة وبمنهج السلف داعية إلى ذلك ومحاربًا لأهل الفساد والإنحراف في الدين بقلمه ولسانه وسيفه وقد لقي في سبيل ذلك شتى أنواع البلاء من سجن وتغريب وغير ذلك، ولد سنة (٦٦١هـ) وتوفي في السجن سنة (٧٢٨هـ) رحمه الله تعالى. انظر ترجمته في: تذكرة الحفاظ ١٤٩٦/ ٤، وطبقات الحفاظ ص٥١٦، والبداية والنهاية ص ١٦٣/ ١٤، والنجوم الزاهرة ص ٢٧١/ ١٥.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ص ٧٣/ ٦.

مدىٰ تأثره بهم في هذه المسألة أم لا وذلك فيما يلي :

أ ـ ذكر منهج المتكلمين:

اعتمد المتكلمون في الاستدلال علىٰ وجود الله علىٰ أساس حدوث العالم وإحتياجه إلىٰ محدث ـ هو الله عز وجل ـ وقد بذلوا في ذلك جهوداً كبيرة تكلموا فيها بكلام طويل ملئت به كتبهم ليحتجوا به لما ذهبوا إليه في هذا الشأن ويردوا به علىٰ من قال بقدم العالم(١) .

وقد سلكوا في منهجهم هذا أساليب عدة يمكن حصرها في أربعة طرق . لخصها الإيجي(٢) حيث قال : «قد علمت أن العالم إما جوهر(٣) وإما عرض(٤) وقد يستدل بكل واحد منهما ، أو بإمكانه ، أو بحدوثه ، فهذه أربعة وجوه :

الأول : الاستدلال بحدوث الجوهر ، وهو أن العالم حادث ، وكل حادث فله محدث .

الثاني : بإمكانها ، وهو أن العالم ممكن لأنه مركب وكثير ، ولكل ممكن علة فاعلة .

---

(١) انظر : علي سبيل المثال ، الإنصاف للباقلاني (ص٢٧ ـ ٢٨) ، وأصول الدين للبغدادي (ص٥٩ ، ٦٩) ، والتبصير في الدين للأسفراييني ، ص ١٥٣ ، ١٥٤ ، والعقيدة النظامية لأبي المعالي الجويني ، ص ١٦ ، ١٧ ، وشرح جوهرة التوحيد للبيجوري ، ص٣١ ، ٣٢ .

(٢) هو عضد الدين أبو الفضل ، عبدالرحمن بن أحمد الإيجي ، عالم بالأصول والمعاني والعربية ، وعلم الكلام ، له تصانيف عديدة منها : المواقف في علم الكلام والعقائد العضدية ، توفي سنة (٧٥٦هـ) انظر : مفتاح السعادة ٢١١ ـ ٢١٢ / ١ ، والأعلام للزركلي ٢٩٥ / ٣ .

(٣) الجوهر هو المتحيز وكل ذي جسم متحيز . الإرشاد للجويني ، ص ٣٩ .

(٤) العرض هو الموجود الذي يحتاج إلىٰ موضع أو محل يقوم به . التعريفات للجرجاني ص١٥٣ .

الثالث: بحدوث الأعراض، مثل ما نشاهد من انقلاب النطفة علقة، ثم مضغة ثم لحماً ودماً. إذ لابد من مؤثر صانع حكيم.

الرابع: بإمكان الأعراض، وهو أن الأجسام مماثلة، فاختصاص كل بماله من الصفات جائز، فلابد في التخصيص من مخصص له[1].

وقد شرح المتكلمون طريقة الحدوث بقولهم: أن العالم مركب من جواهر فردة وأعراض وإن الأعراض لا تبقى زمانين متتاليين، وإنما يطرأ عليها التحول والتغيير، فهي حادثة بحدوثها، لأن ما لا يخلو من الحوادث فهو حادث. وحيث أن العالم مكون من الجواهر والأعراض - وقد ثبت حدوثها - فهو حادث، وإذا ثبت حدوث العالم كان لابد له من محدث يخرجه من حيز العدم إلى حيز الوجود[2].

ب - بطلان هذا المسلك:

والحق أن هذه الطريقة التي سار عليها المتكلمون مما يعلم بالإضطرار أن رسول الله ﷺ لم يدع الناس بها إلى الإقرار بالخالق جل جلاله، ولهذا اعترف حذاق أهل الكلام - كالأشعري[3] وغيره - بأنها ليست طريقة الرسل وأتباعهم، ولا سلف الأمة وأئمتها. وذكروا بأنها طريقة محرمة، بل المحققون على أنها باطلة، وأن مقدماتها فيها تفصيل وتقسيم يمنع ثبوت المدعي بها مطلقاً، لأنها سبب كل ما التزم به المتكلمون من متناقضات عقلية في الصفات الإلهية، وغيرها، وقد التزموا لأجلها نفي صفات الرب عز وجل مطلقاً أو بعضها، والقول بخلق القرآن، وإنكار رؤية الله في الآخرة،

---

(١) المواقف في علم الكلام، الموقف الخامس، ص ٢٦٦.

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل ص ٣٠٢ ٣٠٣/١.

(٣) رسالة إلى أهل الثغر ص ١٨٤ - ١٨٧.

وعلوه على عرشه إلى غير ذلك من اللوازم الباطلة التي التزموها[1] .

وبالإضافة إلى هذه اللوازم والمحاذير ، فإن هذا المنهج شاق ومعقد يصعب فهمه وتصوره على المتخصصين ، فضلاً عن جمهور الناس ، وفيه من الغموض واللبس ما لايخفى ، فلا يجوز أن يكون سبيلاً لتحصيل أشرف العلوم وهو علم التوحيد والإيمان بالله

* * *

(١) انظر درء تعارض العقل والنقل ٣٨ـ٤٥و ١٠٠ـ١١٢/ ١١ .

المسألة الثانية

منهج الإمام النووي في الاستدلال على وجود الله وعلاقته بمنهج المتكلمين

١ ـ رأي الإمام النووي في الاستدلال على وجود الله:

لقد نهج الإمام النووي في الإستدلال على وجود الله منهج السلف، حيث وجدت ـ بحسب تتبعي ـ أن الأدلة التي ذكرها الإمام النووي أو أشار إليها في معرفة الله تعالى، والإقرار بربوبيته أدلة هي: دليل الفطرة ودليل السمع، ودليل المعجزة، ودليل الإحكام والإتقان. وفيما يلي بيان لذلك:

أ ـ الدليل الأول: دليل الفطرة

يقرر الإمام النووي ـ رحمه الله ـ أن معرفة الله تعالى فطرية، وأن الفطرة دليل على وجود الله تعالى، وربوبيته، وكلامه في ذلك يتناول معنى الفطرة، ودلالتها على توحيد الربوبية، وربطها بالميثاق الذي أخذه الله تعالى على بني آدم في عالم الذرة[١] وهو كما يأتي:

الفرع الأول : معنى الفطرة:

أما في اللغة ففسرها بابتداء الخلق فقال: فطر السموات والأرض: أي ابتدأ خلقها»[٢].

وأما في الشرع: ذكر الإمام في معنى الفطرة فيما يتعلق بمعناها في الشرع كما

---

(١) سمي بذلك تشبيهًا بالذر، أخذًا من الحديث الوارد في أن الله تعالى أخرج ذرية آدم من صلبه، كأمثال الذر، وأخذ عليهم العهد، قبل أن يخرجهم إلى هذه الدنيا كما سيأتي ص: ١٥٦ من الرسالة.

وردت في بعض الآيات والأحاديث .

وجاء كلامه متفرقًا حسب ورود هذا اللفظ في نصوص صحيح مسلم وذلك في ستة مواضع :

الموضع الأول: في شرح حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال . قال النبي ﷺ : «كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه أو ينصرانه ، أو يمجسانه كما تنتج البهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟»

قال أبو هريرة : اقرأوا إن شئتم ﴿**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ**﴾ (١)(٢) .

وهذا الحديث هو العمدة في المسألة التي يدور عليها البحث هنا ، وذكر الإمام في شرحه أن السلف قد اختلفوا في المراد بالفطرة في هذا الحديث على أقوال كثيرة فقال : (وأما الفطرة المذكورة في هذه الأحاديث ، فقال المازري : قيل هي ما أخذ عليهم في أصلاب آبائهم وأن الولادة تقع عليها حتى يحصل التغيير بالأبوين ، وقيل : هي ما قضى عليه من سعادة أو شقاء يصير إليهما ، وقيل : هي ما هيىء له ، هذا كلام المازري ، وقال أبو عبيد : سألت محمد بن الحسن عن هذا الحديث فقال : كان هذا في أول الإسلام قبل أن تنزل الفرائض وقبل الأمر بالجهاد ، وقال أبو عبيد كأنه يعني أنه لو كان يولد على الفطرة ، ثم مات قبل أن يهوداه أبواه أو ينصرانه لم يرثهما ولم يرثاه لأنه مسلم وهما كافران ولما جاز أن يسبى فلما فرضت الفرائض وتقررت السنن على خلاف ذلك علم أنه يولد علي دينهما ، وقال ابن المبارك يولد على ما يصير إليه من سعادة أو شقاوة فمن علم الله تعالى أنه يصير مسلمًا ولد على فطرة الإسلام ومن علم أن يصير كافرًا ولد على الكفر ، وقيل : معناه كل مولود يولد على معرفة الله تعالى

(١) سورة الروم، الآية : [٣٠].

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي، برقم (٢٢) كتاب القدر . ص : ١٦٩/ ١٦ .

والإقرار به فليس أحد يولد إلا وهو يقر بأن له صانعًا وإن سماه بغير اسمه أو عبد معه غيره والأصح أن معناه أن كل مولود يولد متهيئًا للإسلام فمن كان أبواه أو أحدهما مسلمًا استمر على الإسلام في أحكام الآخرة والدنيا وإن كان أبواه كافرين جرى عليه حكمهما في أحكام الدنيا وهذا معنى يهودانه وينصرانه ويمجسانه أي يحكم له بحكمهما في الدنيا فإن بلغ استمر عليه حكم الكفر ودينهما فإن كانت سبقت له سعادة أسلم وإلا مات على كفره وإن مات قبل بلوغه فهل هو من أهل الجنة أم النار أم يتوقف فيه ففيه المذاهب الثلاثة قريبًا . .)[1] .

فهذه سبعة أقوال ذكرها الإمام النووي فيما ورد في تفسير الفطرة شرعًا ، وقد رجح منها القول السابع وهو القول المعروف عند عامة السلف ، وهو أن المراد بالفطرة : الإسلام .

الموضع الثاني: في شرح حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «الفطرة خمس - أو خمسة من الفطرة - الختان والإستحداد ، وتقليم الأظفار ، ونتف الإبط ، وقص الشارب»[2] .

قال الإمام في شرحه : (وأما الفطرة فقد اختلف في المراد بها هنا . فقال أبو سليمان الخطابي ذهب أكثر العلماء إلى أنها السنة[3] وكذا ذكره جماعة غير الخطابي قالوا ومعناه أنها من سنن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وقيل : هي

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص ١٦٩/ ١٦ .

(٢) الحديث أخرجه البخاري مع الفتح ، ص٣٣٤/ ١٠ ، برقم (٥٨٨٩ ، ومسلم في الطهارة برقم ٤٩ ، ٥٠ .

(٣) انظر : أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري ، للخطابي ، ص٢١٥٤/ ٣ .

الدين . .)[1].

وتفسير الفطرة في هذا الحديث بالسنة لا ينافي تفسيرها بالإسلام فيما تقدم، لأن المقصود أن هذه الخصال المذكورة في الحديث من سنن الأنبياء، وسنن الأنبياء هو الإسلام. ومن هنا فسر بعض العلماء الفطرة في هذا الحديث بالدين، والمراد به دين الإسلام.

الموضع الثالث: في شرح حديث الإسراء برسول الله ﷺ والذي رواه أنس بن مالك والذي جاء فيه قوله ﷺ: «فجاء بي جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن فقال جبريل: اخترت الفطرة»[2].

قال الإمام: (وقوله «اخترت الفطرة» فسروا الفطرة هنا بالإسلام والاستقامة ومعناه والله أعلم اخترت علامة الإسلام والاستقامة وجعل اللبن علامة لكونه سهلاً طيبًا طاهرًا سائغًا للشاربين سليم العاقبة وأما الخمر فإنها أم الخبائث وجالبة لأنواع من الشر في الحال والمآل والله أعلم)[3].

وما قاله الإمام هنا من تفسير الفطرة موافق للمعنى الذي رجحه في الحديث السابق. وهو أن الفطرة الإسلام، والإسلام هو الدين الحق، فالمعنيان متوافقان.

الموضع الرابع: في شرح حديث عياض بن حمار[4] عن النبي ﷺ - فيما يرويه

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٢٦/ ٣، كتاب الطهارة، باب خصال الفطرة.

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ١٨٤/ ٢ برقم (٧٤) كتاب الإيمان.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٨٤/ ٢.

(٤) هو عياض بن حمار بن أبي حمار بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع التميمي، المجاشعي، صحابي، سكن البصرة، وعاش إلى حدود الخمسين من الهجرة، رضي الله عنه. =

عنه ربه ـ : «وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتلاتهم[1] عن دينهم. وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن يشركوا بي مالم أنزل به سلطانًا» الحديث[2].

قال الإمام (قوله تعالى. «وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم» أي مسلمين، وقيل طاهر من المعاصي، وقيل مستقيمين منبين لقبول الهداية، وقيل المراد حين أخذ عليهم العهد في الذر، وقال: ألست بربكم. قالوا: بلى)[3].

وهذا الحديث لم يرد فيه لفظ «الفطرة» ولكن أهل العلم بالتأويل أجمعوا على أن المراد بقوله تعالى: ﴿فطرتَ اللهِ الَّتِي فطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[4] الإسلام، واحتجوا بقول أبي هريرة في آخر حديث الباب : اقرأوا إن شئتم ﴿فطرتَ اللهِ الَّتِي فطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾[5]

= انظر: الإصابة في تمييز الصحابة «لابن حجر ص ٧٥٢/ ٤، وتحرير تقريب التهذيب له أيضًا، ص ١٣٤/ ٣، تأليف بشار عواد، شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

(١) فاجتالتهم «قال الإمام» أي استخفوهم فذهبوا بهم وأزالوهم عما كانوا عليه وجالوا معهم في الباطل كذا فسره الهروي وآخرون. وقال شمر: اجتال الرجل الشيء ذهب به واجتال أموالهم ساقها وذهب بها. قال القاضي: ومعنى فأختالوهم بالخاء على رواية من رواه أي يحبسونهم عن دينهم ويصدونهم «شرح صحيح مسلم للنووي ص ١٦٣/ ١٧، كتاب الجنة وصفة نعيمها.

(٢) حديث طويل. والمذكور هنا جزء منه أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي ص ١٦٢ ـ ١٦٤/ ١٧، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٦٢ ـ ١٦٣/ ١٧.

(٤) سورة الروم، الآية: [٣٠].

(٥) هذه الرواية موجودة بهذا اللفظ ـ في صحيح مسلم بشرح النووي ـ ص (١٧٠/ ١٦)، كتاب الغدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وهي في صحيح البخاري ـ مع الفتح ـ ص ٢١٩/ ٣، بلفظ «... ثم يقول أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ ﴿فطرتَ اللهِ الَّتِي فطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ الآية ورقمه (١٣٥٨).

وبهذا الحديث استدلالاً على أن المراد بالفطرة الإسلام[1] وهذا واضح جلي من تفسير الإمام لهذا الحديث والله أعلم.

الموضع الخامس: في شرح حديث أنس بن مالك، قال كان رسول الله ﷺ يُغير إذا طلع الفجر، وكان يستمع الآذان، فإن سمع أذانًا أمسك، وإلا فأغار. فسمع رجلاً يقول الله أكبر الله أكبر فقال رسول الله ﷺ «على الفطرة ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ خرجت من النار»[2].

قال الإمام (قوله ﷺ: «على الفطرة» أي على الإسلام وقوله ﷺ «خرجت من النار» أي بالتوحيد..)[3].

الموضع السادس: في شرح حديث البراء بن عازب أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أخذت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن، ثم قال: اللهم إني أسلمت وجهي إليك. وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك. لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك. آمنت بكتابك الذي أنزلت. وبنبيك الذي أرسلت واجعلهن من آخر كلامك. فإن مت من ليلتك مت وأنت على الفطرة»[4].

قال الإمام في شرحه: (قوله ﷺ: «مت على الفطرة» أي الإسلام وأن أصبحت أصبت خيرًا أي حصل لك ثواب هذه السنن واهتمامك بالخير ومتابعتك أمر الله

---

(١) انظر: فتح الباري، ص ٢٤٨/ ٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه برقم (٩). كتاب الصلاة، بشرح النووي ص ٧٢/ ٤.

(٣) شرح صحيح مسلم (٧٢/ ٤).

(٤) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ٢٧/ ١٧ (٥٦) كتاب الذكر.

ورسوله ﷺ»[1].

الفرع الثاني: دلالة الفطرة على توحيد الربوبية:

ذكر الإمام أن معنى الفطرة هو أن معرفة الله تعالى والإقرار بربوبيته مركوزة في الفطرة البشرية، وأن الإنسان يولد مفطوراً على توحيد الله تعالى والاعتراف بأنه الخالق المدبر المتصرف في الكون ومعنى ذلك أن معرفة الله تعالى فطرية، وأن الفطرة دليل على وجود الله تعالى، وعلى ربوبيته لخلقه أجمعين.

وقد ذكر الإمام في موضع آخر من الشرح غير ما سبق - ما يؤيد هذا المعنى ويثبته. وذلك في شرح أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينته»[2].

قال الإمام: (وأما قوله ﷺ «فمن وجد ذلك فليقل آمن بالله» وفي الرواية الأخرى فليستعذ بالله ولينته، فمعناه الإعراض عن هذا الخاطر الباطل والالتجاء إلى الله تعالى في إذهابه. قال الإمام المازري رحمه الله. ظاهر الحديث أنه ﷺ أمرهم أن يدفعوا الخواطر بالإعراض عنها والرد لها من غير استدلال ولا نظر في إبطالها، قال: والذي يقال في هذا المعنى أن الخواطر على قسمين: فأما التي ليست بمستقرة ولا اجتلبتها شبهة طرأت فهي التي تدفع بالإعراض عنها، وعلى هذا يحمل الحديث وعلى مثلها ينطلق اسم الوسوسة فكأنه لما كان أمراً طارئاً بغير أصل دفع بغير نظر في دليل، إذ لا أصل له ينظر فيه، وأما الخواطر المستقرة التي أوجبتها الشبهة فإنها لا تدفع

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص (٢٧/ ١٧).

(٢) أخرجه البخاري - مع الفتح - ص ٦/٣٣٦، برقم ٣٢١٦، ومسلم في الإيمان برقم (٢١٤).

إلا بالاستدلال والنظر في إبطالها والله أعلم.

وأما قوله ﷺ: «فليستعذ بالله ولينته» فمعناه إذا عرض له هذا الوسواس فليلجأ إلى الله تعالى في دفع شره عنه وليعرض عن الفكر في ذلك وليعلم أن هذا الخاطر من وسوسة الشيطان، وهو إنما يسعى بالفساد والإغواء فليعرض عن الإصغاء إلى وسوسته وليبادر إلى قطعها بالاشتغال بغيرها والله أعلم»(١).

فبين الإمام - رحمه الله - بهذا الكلام أن وجود الله تعالى الخالق لكل شيء معلوم بالعلم الضروري الفطري لكل من سلمت فطرته من بني آدم وأنه يمتنع أن يكون لخالق كل مخلوق خالق، فإنه لو كان له خالق لكان مخلوقًا، ولم يكن خالقًا لكل مخلوق، بل كان يكون من جملة المخلوقات والمخلوقات كلها لابد لها من خالق، وهذا معلوم بالضرورة والفطرة من دون توقف على نظر ولا احتجاج.

وما قرره الإمام النووي من كون معرفة الله تعالى فطرية، وأن الفطرة دالة على توحيد الربوبية. هو الصواب الذي أكد عليه الكتاب والسنة، وقامت الأدلة العقلية على صدقه، وشهدت عليه المخلوقات.

أما دليل ذلك من الكتاب والسنة، فقد تقدم ذكر بعضه(٢)، ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهذا استفهام إنكار بمعنى النفي والإنكار على من

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٣١ - ١٣٢/ ٢ كتاب الإيمان.

(٢) ص ١٦٠ - ١٦٥ من الرسالة.

(٣) سورة إبراهيم، الآية: [١٠].

لم يقر بهذا النفي . والمعنى : ما في الله شك ، وأنتم تعلمون أنه ليس في الله شك ، ولكن تجحدون انتفاء الشك جحوداً تستحقون أن ينكر عليكم هذا الجحد .

فدل ذلك على أنه ليس في الله شك عند المخاطبين ، وهذا يبين أنهم مفطورون على الإقرار ، وإلا فالأمر النظري مستلزم للشك قبل العلم ولا سيما إذا كانت طرقه خفيه طويلة . .[1] .

وأما الأدلة العقلية المصدقة لذلك فبيانها من وجوه عديدة ، ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية [2] وملخصها كالآتي :

١ ـ أن الإنسان مدفوع بطبعه إلى ترجيح ما فيه منفعته ودفع ما فيه مضرته ، فيرجح الصدق على الكذب ، والحق على الباطل ، كما يميل بطبعه إلى طلب الأكل عند الجوع والماء عند العطش . وفي هذا دليل كاف على أن في فطرة كل إنسان قوة تقتضي اعتقاد الحق وإرادة النافع ، وحينئذ فالإقرار بوجود الخالق ومعرفته والإيمان به هو الحق أو نقيضه؟ والثاني معلوم الفساد قطعًا ، فتعين الأول . وحينئذ فيجب أن يكون في الفطرة ما يقتضي معرفة الخالق والإيمان به .

٢ ـ أن من المعلوم أن كل نفس قابلة للعلم وإرادة الحق ، ومجرد التعليم والتحضيض لا يوجب العلم والإرادة لولا أن في النفس قوة تقبل ذلك ، وإلا فلو علم الجماد والبهائم وحضضا لم يقبلا ومعلوم أن حصول إقرارها بالخالق ممكن من غير

---

(١) درء تعارض العقل والنقل ، ص ٨/٤٤١ .

(٢) في كتابه «درء تعارض العقل والنقل» ص ٤٥٦ ـ ٨/٤٦٨ ، وذكرها أيضًا شارح العقيدة الطحاوية ، ص ٣٤ ـ ١/٣٥ . وذكرها كذلك الدكتور محمد السيد الجليند في مقدمة تحقيقة «لكتاب التوحيد» لشيخ الإسلام ابن تيمية ، ص ٤٩ ـ ٥١ .

سبب منفصل من خارج. وتكون الذات كافية في ذلك، فإذا كان المقتضي قائماً في النفس وقدر عدم المعارض، فالمقتضي السالم عن المعارض يوجب مقتضاه، فعلم أن الفطرة السليمة إذا لم يحصل لها من يفسدها كانت مقرّةً بالخالق عابدة له.

٣ ـ أن النفس لا تخلو عن الشعور والإرادة، بل هذا الخلوّ ممتنع فيها، فإن الشعور والإرادة من لوازم حقيقتها، ولا يتصور أن تكون النفس إلا شاعرة مريدة، وإذا كان كذلك فإنه لا يمكن للنفس أن تكون خالية عن الشعور بخالقها وعن الإحساس بوجوده. وما دامت النفوس لا تكون إلا مريدة، فلا بد لها من مراد تمسه وتطلبه، وتحاول الوقوف عليه. وكل نفس لها مرادات كثيرة ومتنوعة غير أنها على كثرتها وتنوعها لابد أن تنتهي إلى مراد واحد تكون إراداتها لذاته لا لغيره، وهذا لا يكون إلا الله. فهو الذي تريده القلوب وتطلبه النفوس، فإذًا لابد لكل عبد من إله. فعلم أن العبد مفطور على معرفة إلهه ومحبته.

وأما شهادة الواقع على ذلك فتظهر في عدة أمور منها:

١ ـ أن مشركي العرب الذين بعث فيهم الرسول ﷺ كانوا يقرون بتوحيد الربوبية. كما أخبر القرآن الكريم عنهم في عدة مواضع عديدة منها: قوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلقهم ليقولُنَّ الله فأنَّى يُؤفكون﴾(١) وقوله تعالى: ﴿ولئن سألتهم مَّنْ خلق السموات والأرض ليقولُنَّ الله قُلِ الْحمدُ لله بلْ أكثرُهُمْ لا يَعْلَمُون﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ من يرزُقُكم مّن السَّماءِ والأرْضِ أمَّن يملكُ السَّمْعَ والأبْصارَ ومن يُخْرِجُ الحي من الْميت ويُخْرِجُ الْميّت من الْحيّ ومن يُدبّرُ الأمْرَ فسيقُولُون الله فقُلْ أفلا تتّقُون﴾(٣).

---

(١) سورة الزخرف، آية: [٨٧].

(٢) سورة لقمان، الآية: [٢٥].

(٣) سورة يونس، الآية: [٣١].

إلى غير هذه من الآيات التي تفيد إقرار المشركين من العرب بتوحيد الربوبية.

٢ ـ أنه «هذا التوحيد ـ توحيد الربوبية ـ لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم، بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات»(١).

وأشهر من عرف تجاهله وتظاهره بإنكار الصانع فرعون، وقد كان مستيقنًا به في الباطن، كما قال له موسى عليه السلام: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ(٢)﴾(٣).

وكذلك «الدهرية الذين يجحدون الصانع(٤). وهم الشيوعيون(٥) الآن، والملاحدة، ويزعمون أن العالم يسير بنفسه ويقولون ما حكاه عنهم القرآن ﴿مَا هِيَ إِلاَّ

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية، ص ٢٥ ـ ٢٦/ ١.

(٢) سورة الإسراء، الآية: [١٠٢].

(٣) درء تعارض العقل والنقل (ص٣٨/ ٨).

(٤) الدهرية: فرقة خالفت ملة الإسلام، وادعت قدم الدهر وأسندت الحوادث إليه وأنكرت الخالق والبعث والإعادة. وقالت بالطبع المحيي والدهر المغني، ويسمون بالملاحدة.
ويمكن رد أصل الدهرية إلى مدارس الفلسفة الإغريقية. انظر: الملل والنحل للشهرستاني ص ٥٨٢/ ٢.

(٥) نسبوا إلى «الشيوعية» وهي مذهب فكري يقوم على الإلحاد وأن المادة هي أساس كل شيء، ويفسر التاريخ بصراع الطبقات وبالعامل الاقتصادي، ظهرت في ألمانيا على يد ماركس، وإنجلترا، وتجسدت في الثورة البلشفية التي ظهرت في روسيا سنة (١٩١٧م) بتخطيط من اليهود. وانظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، من إعداد الندوة العالمية للشباب الإسلامي ـ بالرياض ص ٩٢٩ ـ ٩٣٤/ ٢، وانظر الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة، تأليف: ناصر بن عبدالله القفاري، ناصر بن عبدالكريم العقل، ص٩٠.

حياتنا الدنيا نموتُ ونحْيا وما يُهلكُنا إلاَّ الدَّهْرُ﴾[1])[2] .

ولكن هؤلاء ينكرون بأفواههم في الظاهر ما تقر به فطرهم في الباطن، كما قال الله تعالى ﴿وجحدُوا بها واسْتيْقنتْها أنفُسُهُمْ ظُلْمًا وعُلُوًّا﴾[3] .

٣ ـ أن النفس البشرية تضطر إلى هذه العقيدة، «وذلك لما تحتاج إليه النفوس من جوئها إلى قوة عليا تستنقذ بها عند حلول المصائب بها أيًا كانت هذه النفوس: مؤمنة أو كافرة. فإن النفس البشرية مضطرة عند حلول المصائب بها إلى الركون إلى تلك القوة العليا التي تتوجه إليها بالدعاء والاستغاثة بكشف الضر. ولقد لفت القرآن أنظارنا إلى هذا الاعتراف الفطري حيث قال تعالى: ـ في صيغة الاستفهام التقريري ـ: ﴿أمن يجيبُ المُضْطرَّ إذا دعاهُ ويكْشفُ السُّوء﴾[4][5] .

وهذه طبيعة مركوزة في كل نفس مؤمنة أو كافرة، والنفوس تحسها بطبعها وتشعر بها، وإن غابت عنها في بعض الأحيان، لسبب طارئ فسرعان ما تجد نفسها مضطرة إلى اللجوء إليها عند الشدائد. ولو لم تكن النفوس مفطورة على هذه المعرفة لما تطلعت إليها، بل لم تكن مطلوبة لها»[6] .

٤ ـ أن أرباب المقالات الذين جمعوا ما قيل في الملل والنحل، والآراء والديانات، لم ينقلوا عن أحد ممن يقرّ بالخالق القول بأن للعالم صانعين متكافئين في

---

(١) سورة الجاثية، الآية: [٢٤].

(٢) دعوة التوحيد، للشيخ محمد خليل هراس (ص ٣٠).

(٣) سورة النمل، الآية: [١٤].

(٤) سورة النمل، الآية: [٦٢].

(٥) مقدمة الدكتور الجليند لـ «كتاب التوحيد لابن تيمية» ص ٤٢ .

(٦) مقدمة الدكتور الجليند لـ «كتاب التوحيد لابن تيمية» ص ٤٩ .

الصفات والأفعال، وغاية ما نقلوا قول «الثنوية» من المجوس[1] القائلين بالأصلين: النور والظلمة، وأن النور خلق الخير، والظلمة خلقت الشر، وقول النصارىٰ القائلين بالتثليث[2] لكن هاتين الطائفتين مع ذلك لا تقولان بالتساوي بين هذه الأرباب، فالثنوية لا يسوون الظلمة بالنور، بل هم متفقون علىٰ أن النور خير من الظلمة وهو الإله المحمود وأن الظلمة شريرة مذمومة، وهم متنازعون في الظلمة: هل هي قديمة أو محدثة؟ فلم يثبتوا ربين متماثلين.

والنصارىٰ القائلون بالتثليث لم يثبتوا للعالم ثلاثة أرباب ينفصل بعضهم عن بعض، بل هم متفقون علىٰ أن صانع العالم واحد، ويقولون: باسم الأب، والابن، وروح القدس إله واحد[3]».

«وأما من قال من الناس إن بعض الحوادث مخلوقة بغير الله، كالقدرية الذين

---

(١) الثنوية: هم أصحاب الاثنين الأزليين. يزعمون أن النور والظلمة أزليان قديمان. بخلاف المجوس، فإنهم قالوا بحدوث الظلام. وذكروا سبب حدوثه.

وهؤلاء قالوا بتساويها في القدم، واختلافهما في الجوهر والطبع والفعل والخير والمكان والأجناس والأبدان والأرواح. انظر: «الملل والنحل» ص ٢٧/ ١.

(٢) التثليث ـ عند النصارىٰ هو أن طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم: الله الأب، والله الابن، والله الروح القدس. وهم مضطربون في فهم هذا التثليث، وفي التعبير عنه، لا يكاد أحد منهم يعبر عنه بمعنىٰ معقول، ولا يكاد اثنان يتفقان علىٰ معنىٰ واحد، فإنه يقولون: هو واحد بالذات، ثلاثة بالأقنوم أو الأقانيم يفسرونها تارة بالخواص، وتارة بالصفات، وتارة بالأشخاص، وقد فطر الله العباد علىٰ فساد هذه الأقوال بعد التصور العام. انظر: شرح العقيدة الطحاوية، ص ١٧/ ١، ومحاضرات في النصرانية للشيخ حمد أبو زهرة، ص ١٠٩ـ١١٦.

(٣) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، ص ٢٧/ ١، ودعوة التوحيد للهراس ص ٣٠ـ٣١، وتقريب التدمرية، للشيخ العثيمين، ص ١٢٧.

يقولون إن العباد خلقوا أفعالهم، فإنهم يقرون بأن العباد مخلوقون، والله تعالى هو خالقهم وخالق قدرتهم. وكذلك أهل الفلسفة والطبع والنجوم الذين يجعلون بعض المخلوقات مبدعة لبعض الأمور، يعتقدون أن هذه الفاعلات مخلوقة حادثة(١).

«والحاصل أنه لا يوجد بين طوائف البشر من يقول بوجود ربين أو إلهين متكافئين في الصفات والأفعال(٢).

٥ - أثبت تاريخ دعوة التوحيد أن الصراع بين الرسل وبين أممهم إنما وقع في توحيد الألوهية، ولم يقع في توحيد الربوبية(٣)، كما قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾(٤) فهم أنكروا هنا إفراد الله تعالى بالألوهية، بينما أقروا بإفراده بالربوبية كما جاء ذلك في آيات أخرى سبق ذكر بعضها.

ولو لم تكن معرفة الله تعالى ثابتة في الفطرة لكان الرسول إذا قال لقومه: أدعوكم إلى الله، لقالوا: ما الله؟! فيطلبون معرفته أولاً، ولكن ذلك لم يحصل(٥). بل إننا نجد أن القبائل البدائية، وأكثر الناس جهلاً وتخلفًا إذا أتيتهم تدعوهم إلى الله

---

(١) تقريب التدمرية، ص (١٢٧).

(٢) دعوة التوحيد، ص٣٠، وتقريب التدمرية، ص ١٢٦.

(٣) انظر: المرجع نفسه، (ص٣٢)، ودرء تعارض العقل والنقل.

(٤) سورة ص، الآيتان: [٤، ٥].

(٥) - أما قول فرعون - عندما دعاه موسى إلى الله. «وما رب العالمين، فإنه كما سبق لم يقل هذا لعدم معرفته في الباطن بالخالق، ولكن أظهر خلاف ما في نفسه ظلمًا وعلوًا في الأرض - انظر: درء تعارض العقل والنقل، ص٤٤٠/٨.

تعالى، فإنك لا تحتاج أن تبين لهم ما الله؟ ولا أن تثبت لهم وجوده؛ لأنهم بفطرتهم يعرفون الله وأنه موجود، ولذلك ما من شعب من شعوب العالم إلا وفي لغتهم اسم فكل هذه الأمور التي سبق ذكرها تعتبر بعض دلائل الفطرة على معرفة الله عز وجل، يتبين من خلالها فطرية الدين في القلوب، وأنها إنما تنحرف بسبب ما يعتريها من فساد في المجتمع أو الأسرة.

ولكن قد تحتاج هذه الفطرة إلى إيقاظ أو تنبيه بسبب هذا الفساد والذي يطرأ عليها. ولذلك فإن القرآن الكريم قد أشار إلى طريقة إيقاظها وتنبيهها من أيسر الطرق وأسهلها[1].

وهذا ما سيتبين - بمشيئة الله تعالى - في المطالب الآتية بعد الفرع التالي.

الفرع الثالث: ربط الفطرة بالميثاق الذي أخذه الله تعالى على عباده في عالم الذرّ.

هناك ارتباط وثيق بين المعرفة الفطرية التي سبق تقريرها، وبين الميثاق الذي أخذه الله تعالى على بني آدم في عالم الذر، كما جاء ذلك في القرآن الكريم حيث قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[2].

وقال الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية: «يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني

---

(١) مقتبس من كتاب «فطرية المعرفة وموقف المتكلمين منها» لفضيلة الشيخ الدكتور أحمد بن سعد بن حمدان، ص٢٣.

(٢) سورة الأعراف، الآيات: [١٧٢، ١٧٣، ١٧٤].

آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه»[1].

«فالآية تقرر بوضوح أن الله عز وجل قد أشهد ذرية آدم على ربوبيته سبحانه وتعالى فأقروا له بذلك واعترفوا، ثم أشهد على هذا الاعتراف. وسواء كان هذا العهد هو قبل الخروج إلى الدنيا في عالم الذر، أو كان عهد الفطرة على خلاف بين العلماء[2]. . . فإن ذلك لا يؤثر في حدوث المعرفة، فالآية تقرر هذه القضية تقريراً واضحًا»[3].

وقد أشار الإمام النووي ـ رحمه الله ـ إلى ارتباط الفطرة بهذا الميثاق الذي أخذه الله تعالى على عباده في عالم الذر، وذلك في مواضع من شرح صحيح مسلم كما يأتي:

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ص ٢٧٢/ ٢.

(٢) في تفسير الآية قولان: أحدهما: أن الله أخرجهم من جملة واحدة في وقت واحد حين مسح ظهر آدم فأخرج من ذريته إلى يوم القيامة أمثال الذر، وأشهدهم على أنفسهم، ألست بربكم؟ قالوا بلى، فليس أحد إلا هو يقر بأن له صانعًا مدبرًا، وإن سماه بغير اسمه. والآخر: أن المراد هو الإخراج المتدرج من بطون أمهاتهم وأصلاب ابائهم في كل جيل، وأن السؤال هنا والشهادة هما حاليان. وليست مقالين، فهم يعترفون بقلوبهم بخالقهم بما أودعه الله في فطرهم من الإقرار بأنه ربهم. وبكل من القولين قال جماعة من علماء أهل السنة سلفًا وخلفًا، ولكل منهما أدلته ووجهته التي قد بينت في محلها، ويطول الكلام بذكرها. وقد بحث أستاذنا الدكتور أحمد سعد حمدان ـ حفظه الله ـ هذه المسألة بتوسع في كتابه «فطرية المعرفة وموقف المتكلمين منها» (ص٣٤ـ١٣٨).
وانظر: الكلام على الآية أيضًا. تفسير ابن كثير ص ٢٤١ـ٢٤٤/ ٢، وتفسير السعدي «تيسير الكريم الرحمن» ص ١١٣ ـ ١١٥/ ٣، ودرء تعارض العقل والنقل ص ٢٨٢ـ٤٩٢/ ٨، والروح لابن القيم الجوزية.

(٣) فطرية المعرفة وموقف المتكلمين منها (ص١٧).

١ ـ قال الإمام ـ فيما ذكره من الأقوال في معنى حديث «كل مولود يولد على الفطرة» ـ (وأما الفطرة المذكورة في هذه الأحاديث، فقال المازري: قيل هي ما أخذ عليهم في أصلاب آبائهم وأن الولادة تقع عليها حتى يحصل التغيير بالأبوين)[١].

٢ ـ وعند شرح حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ[٢] عن النبي ﷺ، قال: «يقول الله تبارك وتعالى لأهون أهل النار عذابًا لو كانت لك الدنيا وما فيها، أكنت مفتديًا بها؟ فيقول: نعم. فيقول: قد أردت منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم: أن لا تشرك (أحسبه قال) ولا أدخلك النار فأبيت إلا الشرك»[٣].

قال الإمام «المراد بأردت في الرواية الأولى طلبت منك وأمرتك وقد أوضحه في الروايتين الأخيرتين، بقوله: قد سألت أيسر فيتعين تأويل أردت على ذلك جمعًا بين الروايات لأنه يستحيل عند أهل الحق أن يريد الله تعالى شيئًا فلا يقع)[٤].

٣ ـ قال الإمام في شرحه قول النبي ﷺ فيما رواه عن ربه (وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم) قال بعد أن ذكر عدة معاني لذلك ومن بينها (وقيل المراد حين أخذ عليهم العهد في الذر، وقال ألست بربكم. قالوا بلى)[٥].

الدليل الثاني: دليل السمع

قد سبق بيان ما قرره الإمام النووي من فطرية معرفة الله تعالى، وأن الفطرة دليل على توحيد الربوبية. ولكن لما كانت الفطرة قد تنحرف بسبب البيئة الفاسدة التي قد

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٦/١٧٠.

(٢) سبق ترجمته ص ١٣١.

(٣) أخرجه البخاري مع الفتح ص ٦/٣٦٣، برقم: ٣٣٣٤، ومسلم بشرح النووي، ص ٧/١٢، برقم (٥١) كتاب صفات المنافقين.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٧/١١٢، كتاب صفات المنافقين.

(٥) شرح صحيح مسلم، للنووي ص ١٦٢ ـ ١٧/١٦٣.

ينشأ فيها الإنسان، جاءت الأدلة السمعية من الكتاب والسنة تقرر هذا التوحيد أبدع تقرير وأبينه، وتذكر الإنسان بما استقر في فطرته من معرفة الله تعالى وتوحيده.

ومن الآيات الدالة على توحيد الربوبية قوله تعالى في سورة الفاتحة ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدين﴾[1].

قال الإمام في شرحها «وقوله: وربما قال: فوض إلى عبدي وجه مطابقة، هذا لقوله مالك يوم الدين أن الله تعالى المنفرد بالملك ذلك اليوم وبجزاء العباد وحسابهم، والدين الحساب، وقيل الجزاء ولا دعوى لأحد ذلك اليوم، ولا مجاز، وأما في الدنيا فلبعض العباد ملك مجازي، ويدعي بعضهم دعوة باطلة، وهذا كله ينقطع في ذلك اليوم هذا معناه وإلا فالله سبحانه وتعالى هو المالك والملك على الحقيقة للدارين وما فيهما ومن فيهما وكل من سواه مربوب له عبد مسخر، ثم في هذا اعتراف من التعظيم والتمجيد وتفويض الأمر إلى الله[2].

وقد أشار الإمام النووي - رحمه الله - إلى إثبات الخلق لله تعالى وحده ونفيه عن غيره.

قال الإمام قوله ﷺ: «وجهت وجهي» أي قصدت بعبادتي للذي فطر السموات والأرض، أي ابتدأ خلقها»[3].

وقال أيضًا في حديث أنس عن النبي ﷺ: «سلوني لا تسألوني عن شيء إلا بينته لكم» فقال أنس. أنشأ رجل ثم أنشأ عمر. قال النووي: «قال أهل اللغة معناه ابتدأ ومنه أنشأ الله الخلق: أي ابتدأهم»[4] وقال: «قوله أحسن الخالقين» أي المقدرين

---

(١) سورة الفاتحة، الآية: [٣].

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٨٩/ ٤.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٢٠/ ٦.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٩٤/ ١٥.

والمصورين[1]، وفي قوله تعالىٰ: ﴿والله خلقكم وما تعملون﴾[2].

قال الإمام: (وأراد أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالىٰ)[3]. قلت: وهذا فيه إثبات الخلق لله تعالىٰ وحده ونفيه عن غيره، كما أن من أسمائه تعالىٰ «الخالق» فالله سبحانه هو الخالق وحده لا خالق غيره وخلقه شامل لكل شيء.

ومن الأحاديث الدالة علىٰ توحيد الربوبية قوله ﷺ «اللهم أنت الملك» وقال الإمام في شرح قوله ﷺ: «اللهم أنت الملك» أي القادر علىٰ كل شيء المالك الحقيقي لجميع المخلوقات)[4].

ومن أدلة توحيد الربوبية في الأحاديث الصحيحة حديث ابن عباس[5] - رضي الله عنهما - قال: «وكان النبي ﷺ إذا قام من الليل يتهجد قال: اللهم ربنا لك الحمد، أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت رب السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت ملك [وفي رواية لك ملك] السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد. أنت نور السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت الحق، ووعدك الحق، وقولك حق، ولقاؤك حق، والجنة حق، والنار حق، والساعة حق، ... الخ[6].

قال الإمام - في شرح هذا الحديث -(قوله: «أنت الحق» قال العلماء: الحق في

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٦/٥٣.

(٢) سورة الصافات، الآية: [٢٤].

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص ١١/٩٢.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٦/٥١.

(٥) سبق ترجمته ص ١٣٢.

(٦) أخرجه مسلم بشرح النووي. ص٤١/ ٥ برقم (٧٦٩).

أسمائه سبحانه وتعالى معناه المتحقق وجوده وكل شيء صح وجوده وتحقق فهو حق ومنه الحاقة أي الكائنة حقًا بغير شك ومثله قوله ﷺ في هذا الحديث «ووعدك الحق وقولك الحق، ولقاؤك حق، والجنة حق والنار حق والساعة حق» أي كله متحقق لا شك فيه»[1]. وقال: قال صاحب التحرير: إعلم أن الحق كل موجود متحقق أو ما سيوجد لا محالة والله سبحانه وتعالى هو الحق الموجود الأزلي الباقي الأبدي»[2].

فهذه بعض أدلة توحيد الربوبية من القرآن والحديث[3] مما تعرض له الإمام النووي - رحمه الله - في شرح صحيح مسلم للنووي.

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٦/٤٩.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١/٢٠٤.

(٣) أدلة توحيد الربوبية من السمع «الكتاب والسنة» كثيرة جدًا، فقد أفصح القرآن وكذلك السنة عن هذا النوع من التوحيد جدّ الإفصاح، ولا تكاد سورة من سور القرآن تخلو عن ذكر هذا النوع من التوحيد، أو الإشارة إليه، فهو - كما سبق - كالأساس بالنسبة لأنواع التوحيد الأخرى. ومن هنا ينبغي أن نعلم أن ما ورد في السمع من أدلة توحيد الربوبية إنما هو لبيان استحقاق الله تعالى للعبادة وحده دون سواه، ومن ذلك أنه يقرر توحيد الربوبية، ويبين أنه لا خالق إلا الله، وأن ذلك مستلزم أن لا يعبد إلا الله، لأنه الخالق المالك المدبر، هو الجدير وحده بالتوجه إليه بالعبادة، والخشوع والخضوع، وهو المستحق وحده للحمد، والشكر والذكر، والدعاء، والرجاء، والخوف، وغير ذلك من أنواع العبادة. قال الله تعالى: ﴿يا أيها الناسُ اعبُدُوا ربكُمُ الَّذي خلقكُم والَّذين من قبلكُم لعلكُم تتقون (٢١) الذي جعل لكُمُ الأرض فراشًا والسماء بناءً وأنزل من السَّماء ماءً فأخرج به من الثَّمرات رزقا لكُم فلا تجعلُوا لله أندادا وأنتم تعلمون﴾ البقرة، الآيتان: [٢١، ٢٢]. انظر: تفسير ابن كثير (٤٩ - ١/٥١) وشرح العقيدة الطحاوية (٣٦ - ١/٣٧)، ودعوة التوحيد للهراس (٣٠) والإيمان - أركانه، حقيقته، نواقضه للدكتور محمد نعيم ياسين ص (١٦ - ٢١).

الدليل الثالث: دليل المعجزة.

وهي الاستدلال بمقدمات النبوة ومعجزات الرسالة[1]، إذ أن أمر النبوة وما يصحبها من الآيات البينات والمعجزات الباهرات، مع ما يوصف به المرسل من الصدق والرزانة وكمال الخلق والخلق، ودعوته إلى الفضائل ومكارم الأخلاق، يدل كل هذا على صحة دعوته وتثبيت نبوته.

لو لم تكن فيه آيات بينة كانت براهينه تأتيك بالخبر[2]

ومعلوم أنه إذا ثبت هذا الأمر لزم تصديق صاحب الرسالة ووجوب قبول كل ما يخبر به وينبئ عنه، لكونه رسولاً مأموراً بالبلاغ والبيان.

والإمام النووي استدل على وجود الله أيضًا بدلائل المعجزات فقال رحمه الله، ردا على بعض المبتدعة الذين أنكروا حديث «سحر رسول الله يهودي حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله» فقال - نقلاً عن المازري - (وقد أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث بسبب آخر فزعم أنه يحط منصب النبوة ويشك فيها وأن تجويزه يمنع الثقة

---

(١) المعجزة: هي أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة، وهي إما حسية تشاهد بالبصر أو تسمع، كخروج الناقة من الصخرة، وانقلاب العصا حية وكلام الجمادات ونحو ذلك، وإما معنوية تشاهد بالبصيرة كمعجزة القرآن. انظر: اعلام السنة المنشورة، ص ٤٧، للشيخ حافظ الحكمي، دار النور - ألمانيا الغربية - الطبعة (١)، وانظر كتاب خوارق العادات في القرآن الكريم، ص١٩، تأليف عبدالرحمن إبراهيم الحميضي.

(٢) هو لعبد الله بن رواحه - رضي الله عنه - يمدح به رسول الله ﷺ. انظر: البيان والتبيين للجاحظ (١٤ - ١٥/ ١)، ومن الضائع من معجم الشعراء للمرزباني (ص٩١) تأليف: إبراهيم السامرائي، والإصابة ص (٦٧/ ٤).

بالشرع وهذا الذي ادعاه هؤلاء المبتدعة باطل لأن الدلائل القطعية قد قامت على صدقه وصحته وعصمته فيما يتعلق بالتبليغ والمعجزة شاهد بذلك . . . »[1].

وقال أيضًا : « فإن قيل إذا جوزت الأشعرية خرق العادة على يد الساحر فبماذا يتميز عن النبي فالجواب أن العادة تنخرق على يد النبي والساحر لكن النبي يتحدى بها الخلق ويستعجزهم عن مثلها ويخبر عن الله تعالى بخرق العادة بها لتصديقه فلو كان كاذبا لم تنخرق العادة على يديه ولو خرقها الله على يد كاذب لخرقها على يد المعارضين للأنبياء[2]. وأما الولي والساحر فلا يتحديان الخلق ولا يستدلان على نبوة ولو ادعيا شيئًا من ذلك لم تنخرق العادة لهما . . »[3].

وقال ـ رحمه الله ـ في قول هرقل : «قوله إن يكن ما يقول حقًا أنه نبي» (قال العلماء : هذا الذي قاله هرقل أخذه من الكتب القديمة . ففي التوراة هذا أو نحوه من علامات رسول الله ﷺ فعرفه بالعلامات ، وأما الدليل القاطع على النبوة فهو المعجزة

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ، ص ٢٤٦/ ١٤ .

(٢) تنقسم الأمور الخارقة للعادة على يد أولياء الشيطان قسمين : ١ ـ قسم يجريه الرب سبحانه وتعالى على أيديهم استدراجًا يستدرجهم بها ليزدادوا إثمًا على إثمهم عقوبة لهم على جريمتهم جريمة عبادة الشيطان وطاعته واتخاذه وليًا من دون الله .

٢ ـ القسم الثاني : ما يجري على أيدي بعضهم من قبيل السحر وقد أثبتت التجربة أن كثيراً من الدجالين مهرة في السحر فكثيراً ما يسحرون أعين الناس فيقوم أحدهم بأعمال غريبة ومثيرة وخارقة عن المعتاد . وهو في واقع الأمر لم يعمل شيئًا من تلك الأعمال بل كان على حالته العادية إلا أن سحر أعين الحاضرين فيخيل إليهم من سحره أنه يفعل شيئًا .

انظر : تصحيح المفاهيم في جوانب من العقيدة ، للدكتور محمد أمان بن علي الجامي ، ص٥٣ .

(٣) المصدر نفسه ص ١٤٧/ ١٤ .

الخارقة للعادة، فهكذا قاله المازري والله أعلم»[1].

هذا ما ذكره الإمام النووي في الاستدلال بالمعجزة على توحيد الربوبية وقد تضمن كلامه الإشارة إلى وجه دلالة المعجزة على وجود الله تعالى وهو أنه إذا ثبتت نبوة النبي ﷺ بقيام المعجزة وجب تصديقه في كل ما يخبر به، ويدعو إليه، وأعظم ذلك ما أخبر به عن وجود الله تعالى، وما دعا إليه من توحيده عز وجل.

ويمكن تقرير دلالة المعجزة بطرق أخرى، كما بينها شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - حيث ذكر كلام الخطابي ثم قال: «وهذا الكلام يمكن تقريره بطرق:

أحدها: بأن يقال: الإقرار بالصانع فطري ضروري لا يحتاج إلى نظر، فإذا شوهدت المعجزات أمكن أن يعلم بها صدق الرسل.

الثاني: أن يقال: نفس المعجزات يعلم بها صدق الرسول المتضمن إثبات مرسله، لأنها دالة بنفسها على ثبوت الصانع المحدث لها، وأنه أحدثها لتصديق الرسول، وإن لم يكن قبل ذلك قد تقدم من العبد معرفة الإقرار بالصانع»[1].

وكذلك علق شيخ الإسلام - رحمه الله - في موضع آخر على طريقة الاستدلال بالمعجزة على توحيد الربوبية بأنها طريقة صحيحة قد جاء بها القرآن، فقال - رحمه الله - «وأما الطريقة التي ذكرها المتقدمون فصحيحة إذا حررت، وقد جاء بها القرآن في قصة فرعون، فإنه كان منكرًا للرب. قال تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص٩١/ ١٢.

(٢) درء تعارض العقل والنقل، ص٤١/ ٩.

بني إسرائيل (٢٢) قال فرعون وما رب العالمين (٢٣) قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين (٢٤) قال لمن حوله ألا تستمعون (٢٥) قال ربكم ورب آبائكم الأولين (٢٦) قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون (٢٧) قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون (٢٨) قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين (٢٩) قال أو لو جئتك بشيء مبين (٣٠) قال فأت به إن كنت من الصادقين (٣١) فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين (٣٢) ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾(١).

فهنا: قد عرض عليه موسى الحجة البينة التي جعلها دليلاً على صدقه في كونه رسول رب العالمين، وفي أنه له إلهًا غير فرعون يتخذه.

وكذلك قال تعالى: ﴿فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو﴾(٢) فبين أن المعجزة تدل على الوحدانية والرسالة، وذلك لأن المعجزة التي هي فعل خارق للعادة تدل بنفسها على ثبوت الصانع كسائر الحوادث بل هي أخص من ذلك، لأن الحوادث المعتادة ليست في الدلالة كالحوادث الغريبة، ولهذا يسبح الرب عندها، ويمجد ويعظم ما لا يكون عند المعتاد، إذ هي آيات جديدة فتعطي حقها، وتدل بظهورها على الرسول، وإذا تبين أنها تدعو إلى الإقرار بأنه رسول الله فتقرر بها الربوبية والرسالة»(١).

ويرى الإمام ابن القيم ـ تلميذ شيخ الإسلام، رحمهما الله ـ أن طريق المعجزة هي من أقوى الطرق التي يستدل بها على وجود الله تعالى وتوحيده وأصحها وأدلها، حيث نقل كلام الخطابي أيضًا ثم قال معلقًا عليه: «وهذه الطريق من أقوى الطرق

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: [١٦ ـ ٣٣].

(٢) سورة هود، الآية: [١٤].

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، ص ٣٧٨ ـ ٣٧٩/ ١١.

وأصحها وأدلها على الصانع، وصفاته، وأفعاله، وارتباط أدلة هذه الطريق بمدلولاتها أقوى من ارتباط الأدلة العقلية الصريحة بمدلولاتها، فإنها جمعت بين دلالة الحس والعقل، ودلالتها ضرورية بنفسها، ولهذا يسميها الله سبحانه آيات بينات، وليس في طرق الأدلة أوثق ولا أقوى منها، فإن انقلاب عصا تقلها[1] اليد ثعبانًا عظيمًا يبتلع ما يمر به، ثم يعود عصا كما كانت، من أدل الدليل على وجود الصانع وحياته، وقدرته، وإرادته. وعلمه بالكليات والجزئيات، وعلى رسالة الرسول، وعلى المبدأ والمعاد، فكل قواعد الدين في هذه العصا، وكذلك اليد، وفلق البحر طرقًا والماء قائم بينهما كالحيطان، ونتق[2] الجبل من موضعه ورفعه علي قدر العسكر العظيم فوق رءوسهم، ومزب حجر مربع بعصا فتسيل منه اثنتها عشرة عينًا تكفي أمة عظيمة[3]، وكذلك سائر آيات الأنبياء فإخراج ناقة عظيمة من صخرة تمخضت بها ثم انصدعت عنها والناس حولها ينظرون[4] وكذلك تصوير طائر من طين ثم ينفخ فيه النبي فينقلب طائرًا ذا لحم ودم وريش وأجنحة يطير بمشهد من الناس[5]، وكذلك إيماء الرسول إلى القمر فينشق نصفين[6]. بحيث يراه الحاضر والغائب فيخبر به كما رآه الحاضرون، وأمثال ذلك مما هو من أعظم الأدلة على الصانع وصفاته وأفعاله، وصدق رسله،

---

(١) أي تحملها. قال في «القاموس المحيط» مادة «القل» ص ١٤٩ـ ١٥٠، استقله: حمله ورفعه، كفله وأقله».

(٢) أي زعزعته ونقضه. كما في المصدر نفسه ـ مادة «نتق»، ص ٩٢٥.

(٣) هذه المذكورات هي من معجزات نبي الله موسى عليه السلام.

(٤) وهذه من معجزة نبي الله صالح عليه السلام.

(٥) وهذه من معجزات نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام.

(٦) معجزة إنشقاق القمر هي إحدى معجزات نبينا محمد ﷺ، كما سيأتي الكلام عليها إن شاء الله، وانظر: صحيح البخاري مع الفتح، ص ١٨٢ـ ٧/١٨٦.

واليوم الآخر، وهذه من طرق القرآن التي أرشد إليها عباده ودلهم بها»[1].

وبكل ما سبق يعرف أن معجزات الأنبياء أدلة قوية على توحيد الربوبية، وهي أدلة شرعية جاء بها القرآن، وقررها السلف.

وأما إدراك دلالتها فهو من طريق الحس لمن شاهدها، ومن طريق الاستفاضة لمن غاب عنها[2] فهي إذاً دليل عام لجميع الناس.

د ـ الدليل الرابع: الأحكام والإتقان.

إن مما لا شك فيه أن النظر[3] والتفكير في مخلوقات الله تعالى الكثيرة والعظيمة في خلقها والعجيبة في إحكامها وجمالها، لمن أهم الأسباب المفضية إلى الإيمان به عز

---

(١) كتاب «الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة» لابن قيم الجوزية، تحقيق: الدكتور علي بن محمد الدخيل الله، ص ١١٩٧ ـ ١١٩٨/ ٣.

(٢) انظر: الاعتقاد للبيهقي (ص٤٥).

(٣) دليل النظر دليل عقلي، وهو الاستدلال بآيات الله الكونية ـ ابتداء من الإنسان نفسه وانتهاء بالأجرام السماوية في أعماق السماء ـ، ثم الانتقال من هذا النظر إلى الإقرار بالرب الخالق المدبر لهذه المخلوقات. وهذا النظر دليل قطعي لا يدع مجالاً للشك والارتياب في وجود الله تعالى ولا في وحدانيته، لأن في وجود هذه المخلوقات على اختلاف أنواعها وأشكالها دلالة قاطعة على وجود خالقها وعلى قدرته وكماله، وهذا يدركه الإنسان ببديهة عقله من غير حاجة إلى مقومات منطقية أو فلسفية. ولذلك جاءت الآيات القرآنية الكريمة توجه أنظارنا إلى هذا الكون وتناسقه، لتبين لنا أن وراء هذا كله إله خالق قادر مدبر. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ البقرة، الآية: [١٦٤]، وانظر: كتاب بدائع الفوائد لابن قيم الجوزية، ص ١٦٢ ـ ١٦٣/ ٤.

وجل ومحبته وتعظيمه، فإن الإنسان إذا نظر في هذا الكون العظيم واستعرض ما فيه من الآيات البينات. أيقن بأن هذه الكائنات لم تخلق صدفة ـ كما زعم الملاحدة والدهريون ـ بل لابد لها من موجد عظيم أوجدها هو الله سبحانه وتعالى، ولذلك لما سئل بعض الأعراب بم عرفت ربك؟ قال: يا سبحان الله!! إن البعرة تدل على البعير. وإن أثر الأقدام لتدل على المسير فسماء ذات أبراج، وبحار ذات أمواج. ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟![1] وإلى هذا أشارت الرسل عليهم السلام ـ فيما حكى الله عنهم ـ ﴿أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[2] فقولهم فاطر السموات والأرض إشارة إلى استنكار الشك فيمن هذا صنيعه وأثره، والأثر الحقير يدل على صاحبه. فكيف لا يدل هذا الأمر العظيم بما اشتمل عليه من الآيات والأعاجيب على صانعه تعالى؟![3].

ولم يقف الإمام النووي ـ رحمه الله ـ في الاستدلال على توحيد الربوبية عند دليل الفطرة أو السمع أو المعجزة، وإنما تعرض في بعض المواضع من كتابه «شرح صحيح مسلم» لبيان مايدل على توحيد الربوبية من النظر أيضًا ففي شرح حديث «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول. من خلق ربك؟..» الحديث[4].

---

(١) تفسير ابن كثير، ص ١/٥٨.

(٢) سورة إبراهيم، آية: [١٠].

(٣) انظر: ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان لابن الوزير اليماني (ص٨٣).

(٤) أخرجه البخاري مع الفتح، ص ٦/٣٣٦، برقم (٣٢٧٦) وقد سبق ذكره، وأخرجه مسلم بشرح النووي. ص ١/١٣٢ برقم (١٣٤) مكرر باب بيان الوسوسة في الإيمان.

قال النووي نقلاً عن المازري: «ظاهر الحديث أنه ﷺ أمرهم أن يدفعوا الخواطر بالإعراض عنها والرد لها من غير استدلال ولا نظر في إبطالها، قال: والذي يقال في هذا المعنى أن الخواطر على قسمين: فأما التي ليست بمستقرة ولا اجذبتها شبهة طرأت فهي التي تدفع بالإعراض عنها، وعلي هذا يحمل الحديث وعلى مثلها ينطلق اسم الوسوسة فكأنه لما كان أمرًا طارئًا بغير أصل دفع بغير نظر في دليل، إذ لا أصل له ينظر فيه، وأما الخواطر المستقرة التي أوجبتها الشبهة فإنها لا تدفع إلا بالاستدلال والنظر في إبطالها والله أعلم»[1].

وقال رحمه الله «فالأظهر والله أعلم أن نفس التصديق يزيد بكثرة النظر وتظاهر الأدلة، ولهذا يكون إيمان الصديقين أقوى من إيمان غيرهم بحيث لا تعتريهم الشبه ولا يتزلزل إيمانهم بعارض، بل لا تزال قلوبهم منشرحة نيرة، وإن اختلفت عليهم الأحوال. وأما غيرهم من المؤلفة ومن قاربهم ونحوهم فليسوا كذلك. فهذا مما لا يمكن إنكاره ولا يتشكك عاقل في أن نفس تصديق أبي بكر الصديق رضي الله عنه لا يساويه تصديق آحاد الناس ولهذا قال البخاري في صحيحه: قال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول أنه على إيمان جبريل وميكائيل والله أعلم)[2].

وفي شرح حديث أنس بن مالك، قال نيهنا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء. فكان يعجيبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية العاقل. فيسأله ونحن نسمع. فجاء رجل من أهل البادية. فقال: يا محمد! أتانا رسولك. فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك؟ قال: صدق. قال: فمن خلق السماء؟ قال: الله. قال: فمن خلق

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٣٢/ ٢.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص١٣٣/ ١ كتاب الإيمان.

الأرض؟ قال: الله. قال: فمن نصب هذه الجبال، وجعل فيها ما جعل. قال: الله. قال: فبالذي خلق السماء وخلق الأرض ونصب هذه الجبال. الله أرسلك؟ قال: نعم. قال: وزعم رسولك أن علينا . . . »[١].

قال الإمام: (هذه جملة تدل على أنواع من العلم قال صاحب التحرير: هذا من حسن سؤال هذا الرجل وملاحقة سياقته وترتيبه فإنه سأل أولاً عن صانع المخلوقات من هو، ثم أقسم عليه به أن يصدقه في كونه رسولاً للصانع ثم لما وقف على رسالته وعلمها أقسم عليه بحق مرسله وهذا ترتيب مفتقر إلى عقل رصين. .)[٢].

وقال أيضًا نقلاً عن القاضي عياض: في شرح حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذ إلى اليمن قال: إنك تقدم على قوم أهل كتاب. فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله عز وجل، فإذا عرفوا الله . . . الحديث[٣] «هذا يدل على أنهم ليسوا بعارفين الله تعالى، وهو مذهب حذاق المتكلمين في اليهود والنصارى أنهم غير عارفين الله تعالى وإن كانوا يعبدونه ويظهرون معرفته لدلالة السمع عندهم على هذا، وإن كان العقل لا يمنع أن يعرف الله تعالى من كذب رسولاً، قال القاضي عياض رحمه الله. ماعرف الله تعالى من شبهه وجسمه من اليهود أو أجاز عليه البداء، أو أضاف إليه الولد منهم، أو أضاف إليه الصاحبة والولد، وأجاز الحلول عليه، والانتقال والامتزاج من النصارى، أو وصفه مما لا يليق به أو أضاف إليه الشريك والمعاند في خلقه من المجوس والثنوية، معبودهم الذي عبدوه ليس هو الله وإن سموه به، إذ ليس موصوفًا بصفات الإله الواجبة له، فإذا ما عرفوا الله سبحانه فتحققت هذه

---

(١) أخرجه مسلم للنووي (ص١٥٣/ ١) كتاب الإيمان، باب السؤال عن أركان الإسلام برقم (١٢).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي (ص١٥٣/ ١).

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووي (ص١٧٧/ ١).

النكتة واعتمد عليها، وقد رأيت معناها لمتقدمي أشياخنا)[1].

فهذا ما ذكره الإمام النووي ـ رحمه الله ـ للاستدلال على وجود الخالق وربوبيته من النظر العقلي، وهذا استدلال صحيح وقاطع لكل شبهة تعرض للإنسان في عقيدة توحيد الربوبية.

وهذا الدليل إلى جانب ما ذكره الإمام من الأدلة الأخرى على توحيد الربوبية يدل على أنه ـ رحمه الله ـ يرى أن معرفة الله تعالى لا تنحصر في طريقة بعينها بحيث لا يعرف الله سبحانه إلا من تلك الطريقة المعينة، فطرق المعارف متنوعة في نفسها والمعرفة بالله أعظم المعارف وطرقها أوسع وأعظم من غيرها، فمن حصرها في طريق معين بغير دليل يوجب نفيًا عامًا لما سوى تلك الطريق لم يقبل منه، فإن النافي عليه الدليل كما أن المثبت عليه الدليل[2].

٢ ـ موافقته للسلف في ذلك

وإذا كان كذلك، فالمنهج الذي سلكه الإمام في الاستدلال على توحيد الربوبية بالأدلة المتنوعة، وعدم حصر طرق معرفة الله تعالى في طريقة واحدة فقط، هو المنهج الصحيح الذي دل عليه الكتاب والسنة، ومنهج السلف الصالح رضي الله عنهم[3].

وخالف المتكلمين في دليلهم، دليل الحدوث ولم يعتمد عليه كغيره من العلماء وهذا مما يؤكد مدى قرب منهجه من منهج السلف والله أعلم.

المسألة الثالثة: وجوب النظر والاستدلال

قد أنكر كثير من المتكلمين المعرفة الفطرية، وذهبوا إلى أن معرفة الله تعالى لا

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٧٨/ ١ كتاب الإيمان.

(٢) مقتبس من «درء تعارض العقل والنقل» لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص٤٦/ ٨).

(٣) انظر: درء تعارض العقل والنقل لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٤٦ ـ ٤٧/ ٨.

تحصل إلا بالنظر والاستدلال، على الطريقة التي ابتدعوها في علم الكلام[1].

ومن هذا المنطلق قالوا بوجوب النظر والاستدلال، بل جعلوه أول واجب على العبد. فهذا القاضي أبو بكر الباقلاني[2] يقول في كتابه «الإنصاف». «أول ما فرض الله عز وجل على جميع العباد: النظر في آياته، والاعتبار بمقدورته على الاستدلال عليه باثار قدرته وشواهد ربوبيته، لأنه سبحانه غير معلوم باضطرار، ولا مشاهد بالحواس، وإنما يعلم وجوده وكونه على ما تقتضيه أفعاله بالأدلة الظاهرة، والبراهين الباهرة»[3].

وهذه المسألة مما ابتدعها المتكلمون، وخالفوا بها منهج السلف في باب التوحيد.

---

(١) انظر كتاب فطرية المعرفة وموقف المتكلمين منها ص ٢٠٢، إعداد د/ أحمد بن سعد بن حمدان. حيث ذكر «أن معرفة الله عند المتكلمين ليست فطرية بل نظرية أي لا يوجد في القلوب معرفة للخالق سبحانه وتعالى مثل النظر في الآيات الكونية والنفسية، ومن باب أولى لا يكون فيها ميل إلى عبادة الله عز وجل أو محبته وتوضيحه».

وانظر كتاب الإنصاف للباقلاني، ص٢٢، وقال أبو المعالي الجويني: (أجمع العلماء على وجوب معرفة الله) فتح الباري، ص ٧٠/ ١، وعلق عليه ابن حجر بقوله: (وفي نقل الإجماع نظر كبير ومنازعة طويلة حتى نقل جماعة الإجماع في نقيضه واستدلوا بإطباق أهل العصر الأول علي قبول الإسلام ممن دخل فيه من غير تنقيب). المصدر السابق، ص ٧٠/ ١.

(٢) هو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن قاسم، أبو بكر، الباقلاني، البصري ثم البغدادي، القاضي الإمام العلامة، أوحد المتكلمين، ومقدم الأصوليين، كان يضرب المثل بفهمه وذكائه، وكان ثقة بارعًا، كثير التصنيف في الكلام والرد على الفرق، وانتصر لطريقة أبي الحسن الأشعري في العقيدة، وقد يخالفه في مضايق فإنه من نظرائه، أخذ علم النظر عن أصحابه وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «هو أفضل المتكلمين المنتسبين إلى الأشعري، ليس فيهم مثله لا قبله ولا بعده، وإليه انتهت رئاسة المالكية في وقته، توفي ـ رحمه الله ـ سنة (٤٠٣هـ). انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ص ٩٨/ ٥، وسير أعلام النبلاء للذهبي، ص ١٩٠ ـ ١٩٣/ ١٧.

(٣) الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به للقاضي أبي بكر الباقلاني تحقيق: محمد زاهد الكوثري (ص٢٢).

أ ـ رأي المتكلمين في هذه القضية

اختلف المتكلمون في هذه المسألة، فرأىٰ بعضهم أن أول واجب علىٰ المكلف هو معرفة الله تعالي. وقال بعضهم: هو النظر فيها، وقال آخرون: هو أول النظر، أي المقدمة الأولىٰ من نحو قولك العالم حادث وكل حادث لابد من محدث، فمجموع المقدمتين هو النظر، والمقدمة الأولىٰ هو أول النظر، وقال بعضهم، بل أول الواجبات هو القصد إلىٰ النظر، وقالوا من آمن بغير طريق النظر فهو مقلد.

واختلفوا في حكمه، فرجح بعضهم تكفيره، واكتفىٰ بعضهم بتفسيقه[1] قلت: ولاشك أن هذه الأقوال كلها باطلة معلومة الفساد لمناقضتها لنصوص الكتاب والسنة ـ كما سيأتي ـ.

ب ـ رأي الإمام النووي في القضية

خالف الإمام ـ رحمه الله ـ المتكلمين في هذه القضية ووافق مذهب السلف ورأىٰ أن أول واجب علىٰ المكلف، هو الإقرار بالشهادتين، وفي ذلك يقول عند شرحه حديث الجارية التي سألها رسول الله ﷺ، «أين الله؟ قالت: في السماء، قال من أنا؟ قالت أنت رسول الله، فقال لصاحبها: اعتقها فإنها مؤمنة»[2] (فيه دليل علىٰ أن الكافر لا يصير مؤمنًا إلا بالإقرار بالله تعالىٰ وبرسالة رسول الله ﷺ، وفيه دليل علىٰ أن من أقر بالشهادتين واعتقد ذلك جزمًا كفاه ذلك في صحة إيمانه وكونه من أهل القبلة والجنة ولا يكلف مع هذا إقامة الدليل والبرهان علىٰ ذلك ولا يلزمه معرفة الدليل وهذا هو الصحيح الذي عليه الجمهور، وقد سبق بيان هذه المسألة في أول

---

(١) لمزيد من التفصيل في المسألة راجع المواقف في علم الكلام للأيجي، ص ٣٢ ـ ٣٣، وشرح جوهرة التوحيد، ص ٥٩ ـ ٦٥.

(٢) رواه مسلم في كتاب المساجد باب تحريم الكلام في الصلاة، ص ٢١ ـ ٢٢/ ٥، برقم (٥٣٧).

كتاب الإيمان مع ما يتعلق بها وبالله التوفيق»[1].

قلت: صدق الإمام النووي في ذلك حيث التزم بحديث رسول الله وقال به، وهذا الحديث كما هو ظاهر يحكم للإنسان بالإيمان إذا نطق بالشهادتين وعرف ربه ورسوله ﷺ، وأقر بعلوه تعالى على خلقه واعتقد بأنه سبحانه فوق سماواته إذ كل ما علا فهو سماء، حيث أخبرنا عز وجل عن نفسه في سبعة مواضع في كتابه أنه على العرش استوى من ذلك قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[2] وفي الحديث أيضًا رد على من نفى عن الله صفة العلو، وفيه أيضًا جواز إطلاق لفظ «أين» في السؤال عن الله إذ لو كان ذلك لا يجوز - كما زعم بعض المؤولون الضالون - لما سأل رسول الله ﷺ بأين.

وفي موضع آخر يؤكد الإمام النووي أيضًا أن النطق بالشهادتين مع الإيمان بها هو أول واجب على الإنسان ولا يحكم له بالإيمان بدون ذلك فقال - رحمه الله - (واتفق أهل السنة من المحدثين والفقهاء والمتكلمين من اعتقد بقلبه دين الإسلام اعتقادًا جازمًا خاليًا من الشكوك، ونطق بالشهادتين فإن اقتصر على إحداهما لم يكن من أهل القبلة أصلا إلا إذا عجز عن النطق لخلل في لسانه أو لعدم التمكن منه لمعاجلة النية أو لغير ذلك، فإنه يكون مؤمنًا.. »[3].

ومن الأحاديث التي استدل بها الإمام النووي. حديث معاذ بن جبل[4] - رضي

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي (ص٢٣/ ٥).

(٢) سورة طه، آية: [٥].

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٣٣/ ١ لكتاب الإيمان.

(٤) هو الصحابي الجليل أبو عبدالرحمن، معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي من أعيان وكبار الصحابة، شهد بدرًا والمشاهد كلها وكان إليه المنتهى في علم الحلال والحرام، =

الله عنه - حيث قال له عليه الصلاة عندما أرسله لليمن «إنك تأتي قومًا أهل كتاب فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم . . . الحديث»[1] .

فقد قال عند شرحه لهذا الحديث : (وفيه أنه لا يحكم بإسلامه إلا بالنطق بالشهادتين وهذا مذهب أهل السنة كما قدمنا بيانه في أول كتاب الإيمان»[2] .

ومن الأحاديث التي استدل بها الإمام النووي أيضًا . قوله ﷺ : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله . فمن قال لا إله إلا الله عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه وحسابه على الله»[3] .

قال الإمام : «وفيه دلالة ظاهرة لمذهب المحققين والجماهير من السلف والخلف أن الإنسان إذا اعتقد دين الإسلام اعتقادًا جازمًا لا تردد فيها ، كفاه ذلك وهو مؤمن من الموحدين ولا يجب عليه تعلم أدلة المتكلمين ومعرفة الله تعالى بها خلافًا لمن أوجب ذلك وجعله شرطًا في كونه من أهل القبلة وزعم أنه لا يكون له حكم المسلمين

= وكان من أجمل الرجال وأفضل شباب الأنصار حلمًا وحياء وسخاء ، لا يسأل الله شيئًا إلا أعطاه إياه . أرسله النبي ﷺ إلى اليمن وأمره على أهلها . فقدم من اليمن في خلافة أبي بكر رضي الله عنه . روى أحاديث عن النبي ﷺ ، توفي بالطاعون في الشام سنة (١٧ أو ١٨هـ) وعمره ٣٤ سنة . انظر : ترجمته في مشاهير علماء الأمصار ص ٨٤ ، تأليف أبي حاتم محمد بن حبان ، وانظر : تهذيب سير أعلام النبلاء ، ص ٤٤/ ١ برقم (٩٢) .

(١) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب الدعاء إلى الشهادتين ، ص ١٧٥/ ١ ، برقم (١٩) .

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ، ص ١٧٦/ ١ .

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووي ، ص ١٨٧/ ١ ، كتاب الإيمان - باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله . برقم (٢٠) .

إلا به وهذا المذهب هو قول كثير من المعتزلة وبعض أصحابنا المتكلمين وهو خطأ ظاهر فإن المراد التصديق الجازم وقد حصل، ولأن النبي ﷺ اكتفى بالتصديق بما جاء به ﷺ، ولم يشترط المعرفة بالدليل فقد تظاهرت بهذا أحاديث في الصحيحين يحصل بمجموعها التواتر بأصلها والعلم القطعي وقد تقدم ذكر هذه الفائدة في أول كتاب الإيمان . . »[1].

وقال أيضًا: (وفيه أن الإيمان شرطه الإقرار بالشهادتين مع اعتقادهما واعتقاد جميع ما أتى به رسول الله ﷺ وقد جمع ذلك بقوله ﷺ أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ويؤمنوا بي وبما جئت به)[2].

قال الإمام نقلاً عن القاضي عياض «وقد يحتج به أيضًا من يرى أن مجرد معرفة القلب نافعة دون النطق بالشهادتين لاقتصاره على العلم. ومذهب أهل السنة أن المعرفة مرتبطة بالشهادتين لا تنفع إحداهما ولا تنجي من النار دون الأخرى إلا لمن لم يقدر على الشهادتين لآفة بلسانه أو لم تمهله المدة ليقولها بل اخترمته المنية[3]»[4].

وقال أيضًا في نفس الباب في حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ له: «فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه فبشره بالجنة»[5].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٨٧/ ١.

(٢) المصدر نفسه (ص١٨٨/ ١).

(٣) أي توفي يقال: اخترمته المنية أي أخذته انظر: المعجم الوسيط، ص ٢٣٨/ ١.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٩٤/ ١.

(٥) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ٢٠٧ـ ٢١١/ ١، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا برقم (٣١).

قال الإمام: (معناه أخبرهم أن من كانت هذه صفته فهو من أهل الجنة وإلا فأبو هريرة لا يعلم استيقان قلوبهم، وفيه دلالة ظاهرة لمذهب أهل الحق أنه لا ينفع اعتقاد التوحيد دون، النطق ولا النطق دون الاعتقاد بل لابد من الجمع بينهما وقد تقدم أيضًا إيضاحها في أول الباب وذكر القلب هنا للتأكيد ونفي توهم المجاز وإلا فالاستيقان لا يكون إلا بالقلب)[١].

وقال أيضًا: (وفيه ما قدمناه من الدلالة لمذهب أهل الحق أن الإيمان المنجي من الخلود في النار لابد فيه من الاعتقاد والنطق)[٢].

وقال في شرح حديث أنس بن مالك قال: نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء فكان يعجبنا أن يجيء الرجل من أهل البادية. العاقل[٣] فيسأله ونحن نسمع فجاء رجل من أهل البادية. فقال يا محمد[٤] أتانا رسولك. فزعم[٥] لنا أنك تزعم أن

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، (ص٢٠٩/ ١).

(٢) المصدر نفسه، (ص٢١١/ ١).

(٣) العاقل لكونه أعرف بكيفية السؤال وآدابه والمهم منه. وحسن المراجعة فإن هذه أسباب عظم الانتفاع بالجواب، ولأن أهل البادية هم الأعراب. ويغلب فيهم الجهل والجفاء. والبادية والبدو بمعنى، وهو ما عدا الحاضرة والعمران والنسبة إليها بدوي. والبداوة الإقامة في البادية، وهي بكسر الباء عن جمهور أهل اللغة.

(٤) قال الإمام «قال العلماء لعل هذا كان قبل النهي عن مخاطبته باسمه قبل نزول قول الله عز وجل ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضًا﴾ على أحد التفسيرين: أي لا تقولوا يا محمد بل يا رسول الله يا نبي الله ويحتمل أن يكون بعد نزول الآية، ولم تبلغ الآية هذا القائل. انظر شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١/١٥٢.

(٥) قوله زعم وتزعم مع تصديق رسول الله ﷺ إياه دليل على أن زعم ليس مخصوصًا بالكذب والقول المشكوك فيه، بل يكون أيضًا في القول المحقق الصدق الذي لا شك فيه. انظر: شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١/١٥٢.

الله أرسلك؟ قال: صدق، قال: فمن خلق السماء؟ قال: الله. قال: فمن خلق الأرض؟ قال: الله. قال: فمن نصب هذه الجبال، وجعل فيها ما جعل. قال: الله . . . الحديث»[1].

وعند بيانه لصحة إيمان المقلد. قال الإمام: (وفيه دلالة لصحة ما ذهب إليه أئمة العلماء من أن العوام المقلدين مؤمنون وأنه يكتفى منهم بمجرد اعتقاد الحق جزمًا من غير شك وتزلزل خلافًا لمن أنكر ذلك من المعتزلة، وذلك أنه ﷺ قرر ضمامًا على ما اعتمد عليه في تعرف رسالته وصدقه ومجرد إخباره إياه بذلك ولم ينكر عليه ذلك، ولا قال يجب عليك معرفة ذلك بالنظر في معجزاتي والاستدلال بالأدلة المنطقية. هذا كلام الشيخ . . .)[2].

ومذهب الإمام في كتابه شرح صحيح مسلم في مسألة أول واجب على الإنسان وجدته مدونًا بقلمه في كتابه «المجموع على شرح المهذب» حيث قال فيه: (وأما أصل واجب الإسلام، وما يتعلق بالعقائد، فيكفي فيه التصديق بكل ما جاء به رسول الله ﷺ واعتقاده اعتقادًا جازمًا سليمًا من كل شك. ولا يتعين على من حصل له هذا تعلم أدلة المتكلمين. هذا هو الصحيح الذي أطبق عليه السلف والفقهاء «المحققون من المتكلمين» من أصحابنا وغيرهم، فإن النبي ﷺ لم يطالب أحدًا بشيء سوى ما ذكرناه وكذلك الخلفاء الراشدون، ومن سواهم من الصحابة. فمن بعدهم من الصدر الأول، بل الصواب للعوام وجماهير المتفقهين والفقهاء والكف عن الخوض في دقائق الكلام مخافة من اختلال يتطرق إلى عقائدهم يصعب عليهم إزاحته، بل الصواب لهم الاقتصار على ما ذكرناه من الاكتفاء بالتصديق الجازم، وقد نص على هذه الجملة

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ١٥١ ـ ١/١٥٣، كتاب الإيمان، باب السؤال عن أركان الإسلام برقم (١٢).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي (ص١٥٣/ ١).

جماعات من حذاق أصحابنا وغيرهم، وقد بالغ إمامنا الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ في تحريم الاشتغال بعلم الكلام أشد المبالغة، وأطنب في تحريم وتغليظ العقوبة لمتعاطيه، وتقبيح فعله وتعظيم الإثم فيه، فقال: لأن يلقى الله العبد بكل ذنب ما خلا الشرك خير من أن يلقاه بشيء من الكلام[1] وألفاظه بهذا المعنى كثيرة

(١) المقصود بعلم الكلام في كلام الإمام الشافعي ذلك الجدال الذي كان يثار في عصره حول بعض مسائل القضاء والقدر، وفتنة القول بخلق القرآن وما شابههما: لا بقصد الوصول إلى الحق، وخدمة الدين، بل بقصد الانتصار للنفس، والاستعلاء على الآخرين، وتملق الحاكمين كل ذلك على حساب الدين.

والمقصود بعلماء الكلام هم أهل الأهواء والبدع (والنزعات الإبليسية) من شيعة ومعتزلة وجهمية.

قال البيهقي: (أراد بالكلام: ما وقع فيه أهل الإلحاد من الإلحاد، وأهل البدع من البدع).

وقد كان الشافعي يطلق على المجادلين في القدر: أهل الأهواء:

قال الربيع: انحدر علينا الشافعي من درجته يوماً ـ وهم يتجادلون في القدر ـ فقال: إما أن تقوموا عنا، أو تجاورونا بخير، فلأن يلقى الله العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير من أن يلقاه بشيء من هذه الأهواء. فاعتبر الجدل في القدر من الأهواء وهو كذلك. انظر السنن الكبرى للبيهقي، ص٢٠٦/ ٣.

وهذه الروايات تدل على مراده بما أطلق عنه فيما تقدم وفيما لم يذكر ها هنا، وكيف يكون كلام أهل السنة والجماعة مقدماً عنده، وقد تكلم فيه وناظر من ناظره فيه، وكشف تمويه من ألقى إلى سمع بعض أصحابه من أهل الأهواء شيئاً مما هم فيه، ولقد كان الإمام على علم بعلم الكلام حيث قال: (أتظنون أني لا أحسنه؟ لقد دخلت فيه حتى بلغت منه مبلغاً) وقد كان الشافعي يقبل شهادة أهل الأهواء جميعاً إلا الرافضة، وذلك لاستحلالهم الكذب، وهذا يدل على علمه بمعتقدات هذه الفرق، ومناظرته لهم، وأنهم المعنيون بأهل الكلام عنده.

قال الشافعي: (أجيز شهادة أهل الأهواء كلهم إلا الرافضة، فإنهم يشهد بعضهم لبعض، وقال: (لم أر أحداً أشهد بالزور من الرافضة)). انظر: الإمام الشافعي وعلم الكلام ص ٣٣ـ ٣٥ تأليف محمد ربيع محمد جوهري، وانظر ص ٣٧ ـ ٤٢ حيث ذكر فيها مؤلف الكتاب الأسباب التي دعت الشافعي إلى هذا الموقف من علم الكلام وهي من الأهمية بمكان.

مشهورة)[1].

ج ـ مذهب السلف في أول الواجبات:

الحق الذي عليه سلف الأمة ومن سار على منهجهم، أن أصل الإسلام هو توحيد الله عز وجل وأن أول ما يؤمر به العباد وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ﷺ لا المعرفة ولا النظر ولا القصد إلى النظر ولا الشك في الله كما هي أقوال أهل الكلام المذموم، الذين ضلوا وأضلوا وخالفوا النصوص الشرعية، وقد رد عليهم وفند مذاهبهم وبين ضلالهم وبعدهم عن الحق في ذلك كثير من أئمة أهل السنة والجماعة[3] مستدلين لما يقولون به بنصوص الكتاب والسنة وأقوال السلف الذين اتفقوا أن من نطق بالشهادتين قبل بلوغه لم يؤمر بتجديد ذلك عقب بلوغه لكونه قد أدى الواجب قبل ذلك. فالشهادتان هما أول واجبات الإسلام بهما يصير الكافر مسلماً معصوم الدم والمال، فإن كان صادقًا كان مسلمًا ظاهرًا وباطنًا وإن كان كاذبًا في الباطن فهو منافق لقوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني

---

(١) المجموع (ص ٤١ ـ ٤٢/ ١)، وانظر أيضًا مذهبه في ذلك كتابه شرح الأربعين النووية، ص ٢٤٠.
وانظر: الكبرى للبيهقي، ص ٢٠٦/ ١٠.

(٢) من هؤلاء الأئمة شيخ الإسلام ابن تيمية في عدة مواضع من كتبه في ذلك: درء تعارض العقل والنقل ص ٤٠٥ ـ ٤٦٤/ ٧، ومجموع فتاوى ص ١ ـ ١٢/ ١٥، ومنهم الإمام ابن القيم في مدارج السالكين، ص ٤٦٢/ ٣، وإغاثة اللهفان، ص ٣٠/ ١، تأليف ابن القيم الجوزية، وكذلك الحافظ ابن حجر في كتابه الفتح، ص ٣٦١/ ١٣، وقد نقل أقوالاً كثيرة في الرد عليهم ومنهم أيضًا الإمام الشوكاني. في إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، ص ٢٦٦، ٢٦٧، وذكلك ابن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية، ص ٢٣/ ١، وغيرهم.

دماءهم وأحق لهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله» متفق عليه[1]، وبهذا يعلم أن النجاة والسعادة والخير فيما جاءت به النصوص، وأن الضلال والشر والشقاء فيما سوى ذلك. نسأل الله أن يثبتنا على الحق إنه سميع مجيب.

موافقة الإمام للسلف في هذه القضية.

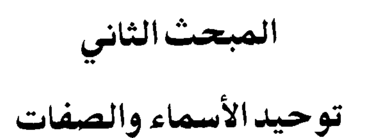
والإمام النووي في هذه المسألة موافق للسلف، وسائر على منوالهم وما ذهب إليه الإمام هنا موافق لمذهب السلف الذي رجحه كثير من العلماء سبق الإشارة إليهم والحمد لله رب العالمين.



---

(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان باب فإن تابوا وأقام الصلاة فخلوا سبيلهم، ص ١/٩٥، برقم (٢٥). ومسلم في كتاب الإيمان باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، ص ١/١٨٧، برقم (٢٠) شرح النووي.





المبحث الثاني

توحيد الأسماء والصفات

المطلب الأول: تعريف توحيد الأسماء والصفات.

المطلب الثاني: موقف الناس من توحيد الأسماء والصفات.

المطلب الثالث: منهج السلف الصالح في توحيد الأسماء والصفات.

المطلب الرابع: أسماء الله تعالى.

المطلب الخامس: منهج الإمام النووي في صفات الله عز وجل.

المطلب السادس: الإيمان برؤية الله تعالى.

المبحث الثاني

توحيد الأسماء والصفات

المطلب الأول

تعريف توحيد الأسماء والصفات

أ ـ تعريفه:

توحيد الأسماء والصفات هو الإيمان بأن الله عز وجل متصف بجميع صفات الجلال والكمال ومنزه عن جميع صفات النقص، وإفراده سبحانه بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ التي وردت في الكتاب والسنة وإثباتها له علىٰ ما يليق بجلاله من غير تحريف[1] لألفاظها أو معانيها، ولا تعطيلها[2] بنفيها أو نفي بعضها، ولا تكييفها[3] بتحديد كنهها أو إثبات كيفية معينة لها، ولا تمثيلها[4]، ولا تشبيهها[5]، بل تمر كما

---

(١) التحريف: لغة التغيير واصطلاحًا: تغيير النص لفظًا أو معنىٰ، وتحريف أسماء الله وصفاته هو تغيير ألفاظها أو معانيها إلىٰ معان باطلة لا يدل عليها الكتاب والسنة. ومن أمثلة التحريف اللفظي نصب لفظ الجلالة في قوله تعالىٰ ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [سورة النساء، ١٦٤] كما قرأه بعض المبتدعة بالفتح، ليكون التكلم من موسىٰ فينفي كلام الله تعالىٰ، ومن أمثلة التحريف المعنوي، تحريف معنىٰ استوىٰ إلىٰ معنىٰ استولىٰ، وتحريف صفة اليدين إلىٰ النعمة والقوة ونحو ذلك، وتحريف صفة الوجه إلىٰ الذات وما أشبه ذلك.

(٢) التعطيل: لغة التفريغ والتخلية، واصطلاحًا: إنكار ونفي ما يجب إثباته لله تعالىٰ من الأسماء والصفات.

(٣) التكييف: هو بيان الهيئة والكيفية التي تكون عليها صفات الله، مثل أن يقال: إن الصفة الفلانية علىٰ هيئة كذا أو كيفية كذا.

(٤) التمثيل: هو إثبات المثل والنظير للشيء، كمن يقول يد الله كيدي وما أشبه ذلك، تعالىٰ الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

(٥) التشبيه: هو إثبات المشابه للشيء، فالمشبه هو الذي يشبه صفات الخالق بصفات المخلوقين، أو يتعرض لمعرفة كنهها وحقيقتها التي لا يعلمها إلا الله، والفرق بين التمثيل والتشبيه: أن التمثيل =

وردت مع اعتقاد مدلولها ومعانيها على ما يليق بجلالة الله وعظمته.

فهذا التوحيد قائم على تنزيه الله تعالى عن مشابهة الخلق، وإثبات ما أثبت تعالى لنفسه وما أثبته له رسوله ﷺ، مع قطع الطمع عن إدراك كيفية هذه الصفات، لأن إدراكها مستحيل كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[1] ﴿ولا يحيطون به علما﴾[2].

وقد فسر الشيخ العلامة سليمان عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب ـ رحمهم الله جميعًا ـ هذا التوحيد بقوله: (توحيد الأسماء والصفات هو الإقرار بأن الله بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، له المشيئة النافذة والحكمة البالغة، وأنه سميع بصير رؤوف رحيم، على العرش استوى وعلى الملك احتوى، وأنه الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر، سبحان الله عما يشركون، إلى غير ذلك من الأسماء الحسنى والصفات العلى)[3].

ب ـ تعريف الإمام النووي لتوحيد الأسماء والصفات:

بين الإمام النووي معنى توحيد الأسماء والصفات في أكثر من موضع من كتابه ـ شرح صحيح مسلم ـ فقال عند بيان معنى النصيحة لله فقال رحمه الله (أما النصيحة

= يقتضي المماثلة والمساواة من كل وجه، أما التشبيه فيقتضي المشابهة في أكثر الوجوه أو الصفات. في هذا انظر: شرح الرسالة التدمرية ص ٣١ ـ ٣٢، و ص٢٧٤ وفتح رب البرية بتلخيص الحموية للشيخ ابن عثيمين ضمن رسائل في العقيدة، الرسالة الثانية، ص ٥٤ ـ ٥٥ وشرح العقيدة الواسطية للدكتور صالح الفوزان ص ١٣ ـ ١٤.

(١) سورة الشورى، آية: [١١].

(٢) سورة طه، آية: [١١٠].

(٣) تيسير العزيز الحميد ص ٣٤ـ٣٥.

لله فمعناها منصرف إلىٰ الإيمان به، ونفي الشريك عنه وترك الإلحاد في صفاته ووصفه بصفات الكمال والجلال وتنزيهه سبحانه وتعالي من جميع النقائص)[1].

وقال نقلاً عن القاضي عياض (واعلم أن الآذان كلمة جامعة لعقيدة الإيمان مشتملة علىٰ نوعية من العقليات، والسمعيات فأوله إثبات الذات وما يستحقه من الكمال والتنزيه عن أضدادها، وذلك بقوله «الله أكبر» وهذه اللفظة مع إختصارها دالة علي ما ذكرناه)[2].

وقوله في معنىٰ «سبوح» (المبرأ من النقائص والشريك وكل ما لا يليق بالإلهية. وقدوس المطهر من كل ما لا يليق بالخالق)[3].

وقوله عند شرحه كلمة «سبحان الله» قال: (أهل اللغة العربية وغيرهم التسبيح التنزيه وقولهم سبحان الله منصوب علىٰ المصدر. يقال: سبحت الله تسبيحًا وسبحانًا فسبحان الله معناه براءة وتنزيهًا له من كل نقص وصفة للمحدث . . .)[4].

وبهذه التعريفات لتوحيد الأسماء والصفات وافق الإمام النووي رحمه الله السلف رحمهم الله في ذلك، ولكنه رحمه الله لم يسير في منهجهم علىٰ ذلك بل خالف في تأويل كثير من الصفات الفعلية ومنهجه فيها سائر بين التفويض والتأويل وسنرىٰ ذلك فيما بعد.

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص (٣٣/ ٢) كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة.

(٢) نفس المصدر، (ج٢) كتاب الصلاة باب استحباب القول مثل ما يقول المؤذن.

(٣) المصدر السابق (ص١٧٢/ ٤) كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود.

(٤) المصدر السابق (ص١٦٩/ ٤).

وردت مع اعتقاد مدلولها ومعانيها على ما يليق بجلالة الله وعظمته .

فهذا التوحيد قائم على تنزيه الله تعالى عن مشابهة الخلق، وإثبات ما أثبت تعالى لنفسه وما أثبته له رسوله ﷺ، مع قطع الطمع عن إدراك كيفية هذه الصفات، لأن إدراكها مستحيل كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(١) ﴿ولا يحيطون به علماً﴾(٢) .

وقد فسر الشيخ العلامة سليمان عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب ـ رحمهم الله جميعاً ـ هذا التوحيد بقوله: (توحيد الأسماء والصفات هو الإقرار بأن الله بكل شيء عليم، وعلى كل شيء قدير، وأنه الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، له المشيئة النافذة والحكمة البالغة، وأنه سميع بصير رؤوف رحيم، على العرش استوى وعلى الملك احتوى. وأنه الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر. سبحان الله عما يشركون. إلى غير ذلك من الأسماء الحسنى والصفات العلى)(٣).

ب ـ تعريف الإمام النووي لتوحيد الأسماء والصفات:

بين الإمام النووي معنى توحيد الأسماء والصفات في أكثر من موضع من كتابه ـ شرح صحيح مسلم ـ فقال عند بيان معنى النصيحة لله فقال رحمه الله (أما النصيحة

= يقتضي المماثلة والمساواة من كل وجه، أما التشبيه فيقتضي المشابهة في أكثر الوجوه أو الصفات. في هذا انظر: شرح الرسالة التدمرية ص ٣١ ـ ٣٢، و ص٢٧٤ وفتح رب البرية بتلخيص الحموية للشيخ ابن عثيمين ضمن رسائل في العقيدة، الرسالة الثانية، ص ٥٤ ـ ٥٥ وشرح العقيدة الواسطية للدكتور صالح الفوزان ص ١٣ ـ ١٤ .

(١) سورة الشورى، آية: [١١].

(٢) سورة طه، آية: [١١٠].

(٣) تيسير العزيز الحميد ص ٣٤ ـ ٣٥.

لله فمعناها منصرف إلى الإيمان به، ونفي الشريك عنه وترك الإلحاد في صفاته ووصفه بصفات الكمال والجلال وتنزيهه سبحانه وتعالي من جميع النقائص)[1].

وقال نقلاً عن القاضي عياض (واعلم أن الآذان كلمة جامعة لعقيدة الإيمان مشتملة على نوعية من العقليات، والسمعيات فأوله إثبات الذات وما يستحقه من الكمال والتنزيه عن أضدادها، وذلك بقوله «الله أكبر» وهذه اللفظة مع إختصارها دالة علي ما ذكرناه)[2].

وقوله في معنى «سبوح» (المبرأ من النقائص والشريك وكل ما لا يليق بالإلهية. وقدوس المطهر من كل ما لا يليق بالخالق)[3].

وقوله عند شرحه كلمة «سبحان الله» قال: (أهل اللغة العربية وغيرهم التسبيح التنزيه وقولهم سبحان الله منصوب على المصدر، يقال: سبحت الله تسبيحًا وسبحانًا فسبحان الله معناه براءة وتنزيهًا له من كل نقص وصفة للمحدث . . .)[4].

وبهذه التعريفات لتوحيد الأسماء والصفات وافق الإمام النووي رحمه الله السلف رحمهم الله في ذلك، ولكنه رحمه الله لم يسير في منهجهم على ذلك بل خالف في تأويل كثير من الصفات الفعلية ومنهجه فيها سائر بين التفويض والتأويل وسنرى ذلك فيما بعد.

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص (٣٣/ ٢) كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة.

(٢) نفس المصدر، (ج٢) كتاب الصلاة باب استحباب القول مثل ما يقول المؤذن.

(٣) المصدر السابق (ص١٧٢/ ٤) كتاب الصلا ة، باب ما يقال في الركوع والسجود.

(٤) المصدر السابق (ص١٦٩/ ٤).

ج ـ بعض الأدلة على توحيد الأسماء والصفات.

فاضت نصوص الكتاب والسنة الدالة على هذا النوع العظيم من أنواع التوحيد، بل لا تكاد تخلو سورة من الكتاب العزيز ولا صفحة من صفحاته من ذكر أسماء الله وصفاته.

فمن السور التي تحدثت عن هذا التوحيد سورة الإخلاص، تلكم السورة العظيمة التي تعدل ثلث القرآن كما ثبت بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ[1]، والتي تضمنت إثبات كل كمال لله ونفي كل نقص عنه. قال سبحانه: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[2].

ومعنى الأحد: المنفرد بالكمال الذي لا نظير له، ولا وزير ولا نديد، ولا شبيه ولا عديل، الذي له الأسماء الحسنى والصفات العلى والأفعال المقدسة، ولا يطلق هذا اللفظ ﴿الأحد﴾ على أحد في الإثبات إلا عليه تعالى، لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله[3].

ومعنى ﴿الصمد﴾ أي الذي لا جوف له، أو الذي يُصْمد إليه في الحاجات، أي يُقْصَدُ لكونه القادر على قضائها، والسيد الذي كمل في جميع أنواع السؤدد،

---

(١) فقد قال أبو سعيد الخدري إن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿قل هو الله أحد﴾ يرددها فلما أصبح جاء إلى رسول الله ﷺ فذكر ذلك ـ وكأن الرجل يتقالها ـ فقال الرسول ﷺ (والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن) الحديث متفق عليه، واللفظ هنا للبخاري، ورواه مسلم بشرح النووي، ص ٨٢/ ٦، برقم ١١٨ بلفظ آخر.

(٢) سورة الإخلاص، الآيات: [١ ـ ٤].

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٥٢٠/ ٤، وتفسير السعدي، المسمى تسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان ص ٦٨٦/ ٧.

والكامل في جميع صفاته وأفعاله، والباقي بعد فناء خلقه الذي ليس فوقه أحد[1].

ومعنى ﴿لم يلد ولم يولد ۝ ولم يكن له كفوا أحد﴾ أي لم يصدر عنه ولد ولم يصدر عن شيء، لأنه ليس له صاحبة ولا ولد ولا والد، لأن الله لايجانسه شيء، ولاستحالة نسبة العدم إليه سابقًا ولاحقًا، وإذا كان متصفًا بالصفات المتقدمة كان متصفًا بكونه لم يكافئه أحد، ولا يماثله ولا يشابهه ولا يشاركه في شيء سبحانه وتعالى، لأنه ليس كمثله شيء[2].

ومن الآيات الجامعة الدالة على هذا التوحيد آية الكرسي التي أخبر رسول الله ﷺ أنها أعظم آية في كتاب الله[3]، وهي قوله سبحانه: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾[4].

فهذه الآية العظيمة اشتملت على صفات وأسماء لله كل منها يمثل قاعدة من قواعد العقيدة الإسلامية[5].

---

(١) انظر: تفسير البغوي المسمى (معالم التنزيل) ٤/ ٥٤٤ـ٥٤٥، إعداد وتحقيق خالد عبدالرحمن العك - مروان سوار، وتفسير ابن كثير ٥٢٠/ ٤، وتفسير السعدي ٦٨٦/ ٧، وتفسير الجزائري ٦٢٧/ ٥.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٥٢١/ ٤، وفتح القدير / ٥١٦/ ٥، وأيسر التفاسير ٦٢٨/ ٥.

(٣) فعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «يا أبا المنذر، أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟»: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله أعظم؟» قلت: الله لا إله إلا هو الحي القيوم قال: فضرب على صدري وقال: (لِيَهْنِك العلم أبا المنذر) رواه مسلم بشرح النووي ص ٨٠/ ٦ برقم ٢٥٨.

(٤) سورة البقرة، آية: [٢٥٥].

(٥) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٧/ ٥٠، ٥١، ١٨٣، ١٨٤، ١٩٢، ١٩٥.

ومن الآيات أيضًا قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرحمنُ الرَّحِيمُ (٢٢) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا في السموات والأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١).

ومن الآيات كذلك قوله تعالىٰ: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢) هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ (٥) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾(٢)، والآيات في هذا الباب كثيرة جدًا.

أما النصوص الواردة في السنة في إثبات هذا التوحيد فهي كثيرة جدًا أيضًا يصعب حصرها. منها علىٰ سبيل المثال حديث ثوبان(٣) رضي الله عنه قال: (كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثًا وقال: «اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ذا الجلال والإكرام»(٤).

وحديث ابن عباس رضي الله عنهما (أن رسول الله ﷺ كان يقول عند الكرب:

---

(١) سورة الحشر، آية: [٢٢-٢٤].

(٢) سورة الحديد، الآيات: [١-٦].

(٣) هو أبو عبدالرحمن، ثوبان بن يحدد الهاشمي مولىٰ رسول الله ﷺ، أصله من اليمن أصابه سبي فاشتراه النبي ﷺ فأعتقه، توفي رضي الله عنه بحمص سنة (٥٤هـ) انظر ترجمته في أسد الغابة ١/ ٢٥٠، والإصابة ١/ ٢٠٥.

(٤) رواه مسلم في كتاب المساجد، باب استحباب الذكر بعد الصلاة ص ٧٦/ ٥، برقم ٥٩١.

«لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم لا إله إلا الله رب السموات والأرض ورب العرش الكريم»[1].

ـ وحديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ (أن النبي ﷺ كان يأمرنا إذا أخذنا مضجعنا أن نقول: «اللهم رب السموات، ورب الأرض ورب العرش العظيم، ربنا ورب كل شيء فالق الحب النوى منزل التوراة والإنجيل والفرقان، أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بنصايتها، اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين وأغننا من الفقر»[2].

ومنها الأحاديث الصحيحة والواردة في إثبات صفة العينين والأصابع واليدين والقدمين والنزول والكلام والضحك والفرح لله تعالى[3]، وغير ذلك من الصفات التي وصف الرسول ﷺ بها ربه في الأحاديث الصحيحة التي تلقاها أهل السنة والجماعة بالقبول، وآمنوا بها وأثبتوا أنها صفات لله تعالى حقيقة، لا تشبه صفات المخلوقين ـ كما سيأتي تفصيل ذلك ـ.

* * *

---

(١) رواه البخاري في كتاب الدعوات، باب الدعاء عند الكرب ٨/٤٣١ برقم (١٢١٤).

(٢) رواه مسلم في كتاب الذكر، باب ما يقال عند النوم ١٧/٣٠، برقم (٢٧١٣).

(٣) سيأتي إن شاء الله تخريج هذه الأحاديث وغيرها والتي تثبت الصفات لله وذلك في المطلب الخامس.

المطلب الثاني

موقف الناس من توحيد الأسماء والصفات

اختلفت الأمة الإسلامية في باب توحيد الأسماء والصفات اختلافًا كبيرًا. فأصبحت فرقًا ومذاهب متعددة مخالفة بذلك للمذهب الحق الذي كان عليه سلف الأمة ومن تبعهم بإحسان، وتتمثل هذه المذاهب والفرق المخالفة للإعتقاد الصحيح في الآتي:

١ ـ مذهب المثلة: وهو الذين مثلوا الله بخلقه في الصفات والأفعال. وضربوا له الأمثال. وهؤلاء قلدوا اليهود والنصارىٰ ـ قبحهم الله ـ الذين وصفوا الله بصفات النقص الدنيئة من التعب والراحة والفقر وغير ذلك.

ويمثل هذا المذهب الكرامية[١] وغلاة الرافضة[٢] وهو مذهب ظاهر البطلان

---

(١) الكرامية طائفة من المرجئة وهم أصحاب محمد بن كرام من أهل سجستان المتوفى سنة (٢٥٥هـ) وهؤلاء يثبتون صفات الله، إلا أنهم ينتهون فيها إلى التجسيم. ومن عقيدتهم أن الإيمان هو الإقرار باللسان دون تصديق القلب. فالمنافقون عندهم مؤمنون لأنهم يقرون بألسنتهم. انظر: مقالات الإسلاميين ١/٢٢٢، والفرق بين الفرق للبغدادي ص ٢٠٢، والملل والنحل للشهرستاني. ص ١/١٢٤.

(٢) الرافضة: هم جماعة الشيعة الذين يتبرؤن من الصحابة إلا قليلاً منهم، ويغالون في بغضهم وتبرئتهم من الشيخين أبي بكر وعمر، ويقدمون عليًا على سائر الصحابة، ويزعمون أنه وصي رسول الله ﷺ وخليفته من بعده، وأن الخلفاء الثلاثة قبله قد اغتصبوا حقه في ذلك، ولهم مذاهب وعقائد خارجة عن الإسلام لا مجال لذكرها ههنا، وأول ما أطلق عليهم هذا الاسم (الرافضة) في عهد هشام بن عبدالملك، عندما بويع لزيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بالكوفة، والذي كان يتولى الشيخين أبا بكر وعمر، فسمع من أصحابه الذين بايعوه من يطعن بهما. فأنكر ذلك عليهم وتولاهما لما سئل عنها فتفرقوا عنه، فقال لهم رفضتموني فسموا رافضة من ذلك الحين، =

معتقده كافر[1].

٢ ـ مذهب المشبهة: وهم الذين زعموا أن صفات الله تشبه صفات المخلوقين ـ تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ـ وقال بهذا المذهب جماعة من الناس وزعموا أنهم يجرون النصوص على ظاهرها دون تأويل أو تعطيل، ويقولون نعتقد بأن صفاته تعالى تشبه صفاتنا فيقولون مثلاً له يد كأيدينا وعينان كأعيننا ونحو ذلك ولا شك بأن معتقد هذا المذهب كافر لأنه قد انتقص الله تعالى وشبهه بخلقه وقد قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[2].

٣ ـ مذهب المعطلة: التعطيل هو عدم إثبات الصفات أو بعضها لله تعالى على الوجه اللائق به سبحانه وهو أنواع أربعة كما قال شيخ الإسلام[3] ـ طيب الله ثراه ـ.

الأول: سلب النقيضين[4] عنه تعالى كقوله أصحاب هذا المعتقد الفاسد ـ وهم الباطنية[5] والجهمية ومن شابههم ـ الله لا موجود ولا معدوم ولا حي ولا ميت ولا

= انظر مقالات الإسلاميين ١/ ٦٦ـ١٣٦، والفرق بين الفرق ص ١٥ـ١٦، ٢٢ـ٥٤، والملل والنحل ص ١٦٩ـ٢٢٨، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٣/ ٣٦ وغير ذلك.

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣/ ٣٠ وما بعدها.

(٢) سورة الشورى، آية: ١١، ولهذا قال نعيم بن حماد شيخ البخاري: (من شبه الله بشيء من خلقه فقد كفر، ومن أنكر ما وصف الله به نفسه فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله تشبيه) وقال إسحاق بن راهوية: (من وصف الله فشبه صفاته بصفات أحد من خلقه فهو كافر بالله العظيم) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣/ ٨٤ـ٨٧، وشرح الطحاوية بتحقيق: د. التركي والأرناؤط ١/ ٨٥.

(٣) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣/ ٨٠٧

(٤) سلب النقيضين: السلب هو انتزع النسبة، والنقض: نقيض كل شيء رفع تلك القضية فإذا قلنا كل إنسان حيوان بالضرورة فنقضيها أنه ليس كذلك. انظر التعريفات للجرجاني ص ١٣٩ وص ٣١٥.

(٥) الباطنية لقب إصطلاحي تندرج تحته إتجاهات وفرق مختلفة، يجمع بينها تأويل النص الشرعي الظاهر عن المعنى المراد إلى معنى باطن ادعوه وزعموه هو المراد، فجعلوا للنصوص ظاهراً وباطناً، مبطلين أحكام الإسلام، وهم فرق شتى كالقرامطة (والخرمية البابكية) والإسماعيلية والدروز =

عالم ولا جاهل، وهذا المذهب لا يتصور وجوده في الذهن والواقع وأصحابه من أكفر وأجهل الناس بربهم وأكثرهم لدينه عداوة.

النوع الثاني: وصف الله بالسلوب[(١)] والإضافات[(٢)] دون صفات الإثبات، وجعله سبحانه وتعالى هو الوجود المطلق[(٣)]، ويقول بهذا المذهب الفلاسفة[(٤)]

= والنصيرية وغيرهم، وكل هذه الفرق متفقة على عداء الإسلام والكيد لأهله، وعلى إعتقاد الإمامة والعصمة لإمام لا يخلو منه عصر قائم بالحق يرجع إليه، واتفقوا أيضًا على القول بأبدية الكون وقدمه، وعلى إنكار المعاد والجنة والنار وغير ذلك من الأمور الغيبية مأولين ذلك تأويلاً غريبًا فهي فرق عدوة للإسلام خارجة عنه انظر فضائح الباطنية للإمام الغزالي ص ١١ وما بعدها بتحقيق عبدالرحمن البدوي، والملل والنحل للشهرستاني ص ٢٠٣ ـ ٢٢٨.

(١) الصفات السلبية: وهي التي تنفي عن الله معنى لا يليق بالله وهي التي لا تتضمن كمال ضدها وإلا فقد وصف الله بها نفسه ووصفه بها رسوله كقوله تعالى: ﴿لا تأخذه سنة ولا نوم﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقوله ﴿وما مسنا من لغوب﴾ [سورة ق ٣٨] فالأول يتضمن كمال حياته والثاني يتضمن كمال قدرته.

(٢) الإضافة كل صفة يتوقف فهمها على فهم غيرها، كالفوقية والتحتية والإنفصال والدخول والخروج، وكذلك قولهم ليس فوق العرش ولا تحته ولا داخل العالم ولا خارجه، لأن هذه المعاني يتوقف تصورها على تصور ما يقابلها.

(٣) الوجود المطلق هو الوجود الذهني الذي لا يتحقق في الخارج.

(٤) الفلسفة باليونانية ـ كما قال الشهرستاني ـ محبة الحكمة، والفيلسوف محب الحكمة والحكمة نوعان (١) قولية عقلية وقد اختلف فيها إختلافًا لا يحصى (٢) وحكمة فعلية وهي كل ما يفعله الحكيم لغاية كماله. والفلاسفة أنواع وفرق كثيرة، فمنهم الدهريون والصابئة والباطنيين والقائلون بقدم الأفلاك والقائلون بقدم العالم ومنهم الفلاسفة القدماء والمتأخرون والإلهيون وغيرهم، وكل هذه الأنواع وغيرها كافرة بالله العظيم عدوة لدينه، فالمتسبون منهم للإسلام مثلاً كابن سينا وغيره، يسمون الله العقل الفعال أو علة العلل ويجردونه من الصفات ويقولون بقدم العالم ويجيزون الكذب على الأنبياء إلى غير ذلك، انظر الملل والنحل ص ٣٦٩ ـ ٥٧٣ =

وملاحدة الصوفية[1].

النوع الثالث: إثبات الأسماء دون الصفات وهذا مذهب المعتزلة فيقولون: الله سميع بلا سمع عليم بلا علم بصير بلا بصر وهكذا فيثبتون الاسم دون ما يتضمنه من الصفة، أو يخرجون الصفة من ظاهرها المراد إلىٰ غير المراد، كتأويلهم الوجه بالذات، واليد بالقدرة، والإستواء بالإستيلاء، وغير ذلك وهذا مذهب باطل ومن أخبث المذاهب.

النوع الرابع: إثبات بعض الصفات دون بعض، كمن يثبت سبع صفات الله تعالىٰ أو أكثر وينفي ويؤول غيرها. ويمثل الأشاعرة ومن نحا نحوهم هذا المذهب، وهو باطل وحجة علىٰ أصحابه لأن إثبات بعض الصفات يستلزم إثبات ما عداها إذ المتصف بها واحد، ولأن القول في بعض الصفات كالقول في بعضها الآخر.

٤ ـ مذهب المفوضة: التفويض هو التوقف وعدم الخوض أو الكلام في صفات الله، وأصحاب هذا المذهب يقولون لا ندري هل ظاهر الصفات هو المراد اللائق بجلال الله أم لا. لذا نفوض الأمر لله، وهذه طريقة كثير من الفقهاء وغيرهم،

= ودرء تعارض العقل والنقل ١/ ٨، ١٢٦، ٢/ ٢٩٢، ٦/ ٢١١، ٢٣٨، ٨/ ٣٠٩ وغيرها، والرد علىٰ الأخناني لشيخ الإسلام أيضًا ص ٢١٤ ـ ٢١٥ وغير ذلك.

(١) الصوفية: نسبة إلىٰ الصوف علىٰ أرجح الأقوال، وهي فرقة تنتسب إلىٰ الإسلام تقوم علىٰ جملة من العقائد الغيبية والأخلاق الفلسفية، معتمدة بذلك علىٰ التأمل والتعبد والتقشف والزهد في الدنيا والإنصراف إلىٰ الروح، وما إلىٰ ذلك من المجاهدات والرياضيات الروحية مما لم يقم علىٰ صحة ذلك دليل في الشرع ولا في العقل، وذلك بهدف الوصول إلىٰ الغاية المنشودة وهي التجرد من الدنيا وما فيها، والإتصال بالذات الإلهية والفناء فيها، حسب زعمهم ـ علىٰ تفاوت في الضلال والإنحراف في طريقهم ومسالكهم، انظر مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ج٧، ص١١.

وبعض الناس ينسب هذا المذهب للسلف الصالح وهو كذب عليهم، لأن مذهبهم - رحمه الله - هو إثبات الصفات لله على المعنى اللائق بجلاله - كما سيأتي بيانه -.

ومن المفوضة من يمسك عن الكلام نهائيًا فلا يزيد على تلاوة الآية وقراءة الحديث معرضين بألسنتهم وقلوبهم عن هذه التقديرات(1).

ولا شك بأن كل هذه المذاهب والطوائف ضالون في باب الأسماء والصفات، بعيدون كل البعد عن مذهب السلف الصالح، لأن إثبات الصفات لله على الوجه اللائق به لا يستلزم أي محذور من التشبيه أو التمثيل أو التعطيل أو التحريف وغير ذلك من المحاذير، بل فيه التسليم التام لله ولرسوله، لأنه لا أحد أعلم بالله من الله، ولا أحد أعلم به من رسوله ﷺ، ولو كانت ظواهر الصفات غير مراده لله - كما يزعم الضالون - لما وردت في الكتاب والسنة، ولما تركها الناصح الأمين ﷺ بدون تبيينه للناس وهو المبلغ عن ربه عز وجل، إذ كيف يبين لأمته ويعلمهم كل شيء حتى دخول الخلاء(2) ويترك هذه المسألة التي هي من أهم أركان ومسائل الدين لأنها من التوحيد الذي لا يقبل الله من العبد دينه مالم يحققه، وتوحيد الأسماء والصفات أحد أقسام

---

(1) لمزيد من التفصيل في هذا الأمر يراجع فتاوى شيخ الإسلام ٣/ ٧-٩، والفتوى الحموية له ص ٨٦-٨٨.

(2) كما قال سلمان الفارسي رضي الله عنه: (لقد علمنا رسول الله ﷺ كل شيء حتى الخراءة لقد نهانا أن نستقبل القبلة بغائط أو بول، أو أن نستنجي باليمين أو أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار، أو أن نستنجي برجيع (أي الروث والعذرة) أو عظم. رواه مسلم في كتاب الطهارة، باب الإستطابة ٣/ ١٣٠، برقم ٢٦٢، وأبو داود في كتاب الطهارة، باب كراهية استقبال القبلة عند قضاء الحاجة ١/ ١٧-١٨، برقم ٧.

هذا التوحيد ومن أجلّها، لأنه يصف الباري جلت قدرته بصفات الكمال والجلال، فهل يعقل أن يصف الله نفسه أو يصفه رسوله ﷺ بما لا يجوز، أو بما ظاهره كفر أو ضلال؟ كما هي أقوال لمن لم يدر ما بعث الله به نبيه ﷺ ولم يفهم معاني الكتاب والسنة؟! سبحانك ربنا هذا بهتان عظيم، نبرأ إليك مما يقول هؤلاء.

ولهذا شن سلفنا الصالح وعلماء أهل السنة السائرون على نهجهم حربًا شعواء على من حرف الصفات أو أولها أو عطلها، وألفوا في ذلك الكثير من الكتب والرسائل[1]، مبينين عقيدة أهل الحق، ولا شك أن كل خير في إتباع من سلف وكل شر في إبتداع من خلف.



(١) من ذلك كتاب الرد على الجهمية للإمام أحمد والسنة له والرد على الجهمية والرد على المريسي للدارمي، والتوحيد لابن خزيمة، والسنة للخلال، والإبانة للأشعري، والشريعة للآجري، والإيمان والتوحيد لابن منده، والإبانة لابن بطة، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي، وعقيدة السلف أصحاب الحديث للصابوني، والحجة في بيان المحجة للأصبهاني، وشرح الطحاوية لابن أبي العز، والرسالة التدمرية والفتوى الحموية لشيخ الإسلام ابن تيمية وغيرها، والصواعق المنزلة على الجهمية والمعطلة لابن القيم، إلى غير ذلك من الكتب الكثيرة في هذا الباب . .

المطلب الثالث

منهج السلف الصالح في توحيد الأسماء والصفات

عرفنا أن أهدىٰ الطرق وأعدلها في كل أمر من الأمور ـ ومنها توحيد الأسماء والصفات ـ هو ما سلكه السلف الصالح ـ رحمه الله ـ من فهمٍ لها علىٰ مراد الله ورسوله ﷺ منها، ولذلك أصبح منهجهم هو الواجب إتباعه والسير علىٰ طريقهم.

المسألة الأولى: خلاصة مذهبهم في ذلك.

يتلخص مذهب السلف في النقاط التالية:

ـ أنهم يقرون ويعتقدون بجميع ما في الكتاب والسنة في أسماء الله وصفاته وأفعاله.

ـ أنهم يثبتون لله جميع ما أثبت لنفسه وما أثبته له رسوله ﷺ من صفات الكمال ونعوت الجلال والجمال.

ـ أنهم ينفون عن الله جميع ما نفاه عن نفسه أو نفاه عنه رسوله ﷺ من النقائص والعيوب من غير تحريف ولا تعطيف ولا تكييف ولا تمثيل.

هذا هو المذهب الحق الذي لا مرية فيه، فهو النور الهادي إلىٰ السواء السبيل، وهو المنقذ من ظلمات الباطل وغياهب الشرك والجهل والإبتداع.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ في الرسالة التدمرية ملخصًا مذهب السلف في هذا الأمر: (فالأصل في هذا الباب أن يوصف الله بما وصف به نفسه وبما وصف به رسله نفيًا وإثباتًا، فيثبت لله ما أثبته لنفسه وينفي عنه ما نفاه عن نفسه، وقد علم أن

طريقة سلف الأمة وأئمتها إثبات ما أثبته الله من الصفات، من غير تكييف ولا تمثيل. ومن غير تحريف ولا تعطيل، وكذلك ينفون ما نفاه عن نفسه مع إثبات ما أثبته من الصفات، من غير إلحاد في أسمائه ولا في آياته، فإن الله تعالى ذم الذين يلحدون في أسمائه وآياته كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[1] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾[2] فطريقتهم تتضمن إثبات الأسماء والصفات مع نفي مماثلة المخلوقات، إثباتًا بلا تشبيه وتنزيهًا بلا تعطيل كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[3] ففي قوله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ رد للتشبيه والتمثيل، وفي قوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ رد للإلحاد والتعطيل)[4] ا. هـ.

هذا هو منهج السلف الصالح في باب الأسماء والصفات وقد بني على أسس متينة راسخة.

المسألة الثانية: الأسس التي بني عليها مذهب السلف الصالح.

لقد بنى السلف الصالح منهجهم في باب الأسماء والصفات على ثلاثة أسس عظيمة، من جاء بها كلها فقد وافق الحق والصواب، وكان على الاعتقاد الذي كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ومن سار على نهجهم بإحسان، ومن لم يأخذ بها أو أخذ ببعضها وترك الآخر فقد ضل. وهذه الأسس تتلخص فيما يلي[5]:

---

(١) سورة الأعراف، آية: [١٨٠].

(٢) سورة فصلت، آية: [٤٠].

(٣) سورة الشورى، آية: [١١].

(٤) الرسالة التدمرية ص٤، نشر قصي محب الدين الخطيب.

(٥) انظر منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، ص١٣ وما بعدها.

الأساس الأول : الإثبات:

فهم يثبتون لله ما أثبته لنفسه وما أثبته له رسوله ﷺ من الأسماء والصفات على ما يليق بجلال الله وعظمته، ويعتقدون أنها دالة على معان ثابتة كاملة عظيمة لله، من غير أن يحرفوا هذه المعاني أو يعطلوها أو يشبهوها أو يكيفوها بشيء، وأقوالهم - رحمهم الله - في هذا الشأن أكثر من أن تحصى سيأتي طرف منها في المطلب اللاحق.

ومذهبهم أنهم يؤمنون بكل ما أخبر الله به عن ذاته وأسمائه وصفاته، وما أخبر عنه رسوله ﷺ ولا يفرقون بين الذات والصفات - كما فعلت الجهمية والمعتزلية - كما أنهم لا يفرقون بين الصفات فيثبتون البعض ويؤولون البعض - كما فعلت الأشاعرة وأتباعهم -، ومنهج السلف في الإثبات يرتكز على قاعدتين عظيمتين ذكرهما شيخ الإسلام ابن تيمية[1] رحمه الله وهما :

القاعدة الأولى: أن القول في الصفات كالقول في الذات:

فكما أن لله تعالى ذاتًا حقيقية ثابتة في نفس الأمر لا يشبهها شيء فكذلك له تعالى صفات حقيقية ثابتة لا يشبهها شيء، فيلزم على من أقر بهذه الذات الحقيقية الثابتة لله أن يقر أيضًا بأن له صفات حقيقية لا تشبه شيئًا، لأنه تعالى هو الذي وصف بها نفسه ووصفه بها رسوله ﷺ، إذ لا أحد أعلم به منه، ولا أحد أعلم به بعده من رسول الله ﷺ. فإذا قال قائل : أنا أنفي الاستواء لله خشية من تشبيهه بخلقه، فيقال له : انف وجود الله وذاته لأنه يلزم من ذلك تشبيه الله لخلقه، فإن قال : لله وجود

---

(١) انظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣/ ١٧ - ٢٧.

يخصه وذات تخصه، لا تشبه ذاته الذوات، قلنا: وكذلك استواؤه ونزوله وغير ذلك من الصفات.

القاعدة الثانية: أن القول في بعض الصفات كالقول في بعضها الآخر:

فإن من أثبت بعض الصفات وأول الباقي قد وقع في تناقض، فيقال مثلاً لمن أثبت الحياة والقدرة والإرادة لله، وأول المحبة والرضا والغضب وغير ذلك وجعل ذلك في المجاز، يقال له: ما الفرق بين ما أثبته وما نفيته؟! بل القول في أحدهما كالقول في الآخر، فإن قال: إن إرادته كإرادة المخلوقين، قل له فكذلك رضاه ومحبته وغضبه، وهذا هو التمثيل، وإن قال: إن لله إرادة تليق بجلاله كما أن للمخلوق إرادة تليق به، قيل له فكذلك له محبة ورضا وغضب تليق به، كما أن ذلك للمخلوق ولا تشابه بين صفات الخالق والمخلوق، فإن قال: الغضب غليان دم القلب لطلب الإنتقام، يقال له الإرادة ميل النفس إلى جلب منفعة أو دفع مضرة، فإن قال: هذه إرادة المخلوق، قيل وهذا غضب المخلوق، وكذلك يلتزم القول في بقية الصفات فيجب أن تثبت الكل كما أثبت البعض ويقال له في الكل كما يقال في البعض.

الأساس الثاني: التنزيه.

أي تنزيه الله عن مشابهة أي شيء من مخلوقاته كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾[1] فأهل السنة يعتقدون أنه سبحانه لا يشبهه شيء لا في ذاته ولا في أسمائه وصفاته وأفعاله، لأن من شبه الله بخلقه وألحد في أسمائه وصفاته فقد كفر، وليس فيما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ تشبيه أو تمثيل، لأنه سبحانه لاسمي ولا كفوء ولا ند له، ولا يقاس بخلقه عز وجل كما قال سبحانه ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا

(١) سورة الشورى، آية: [١١].

أَحَدٌ﴾[1] وكما قال أيضًا ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾[2] وكما قال كذلك ﴿فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ﴾[3] إلىٰ غير ذلك من الآيات علىٰ هذا الأمر.

فمن المستحيل عقلاً أن يصف رب السموات والأرض نفسه بما يلزمه منه محذور أو محال، أو يؤدي إلىٰ نقص، لأنه سبحانه لا يصف نفسه إلا بوصف بالغ في الشرف والعلو والكمال وما يقطع جميع علائق المشابهة بينه وبين صفات المخلوقين[4].

يقول أبو عثمان الصابوني[5] ـ رحمه الله ـ مبينًا عقيدة السلف أصحاب الحديث: (إن أصحاب الحديث المتمسكين بالكتاب والسنة ـ حفظ الله أحياءهم ورحم أمواتهم ـ يشهدون لله تعالىٰ بالوحدانية وللرسول ﷺ بالرسالة والنبوة ويعرفون ربهم عز وجل بصفاته التي نطق بها وحيه وتنزيله أو شهد له بها رسوله ﷺ علىٰ ما وردت به الأخبار الصحاح ونقله العدول الثقات عنه ويثبتون له جل جلاله منها ما أثبته لنفسه في كتابه وعلىٰ سنة رسوله ﷺ، ولا يعتقدون تشبيهًا لصفاته بصفات خلقه فيقولون إنه خلق آدم بيده كما نص سبحانه في قوله عز من قائل ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ

---

(١) سورة الإخلاص، آية: [٤].

(٢) سورة مريم، آية: [٦٥].

(٣) سورة النحل، آية: [٧٤].

(٤) انظر منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات للشنقيطي، ص٢١.

(٥) هو إسماعيل بن عبدالرحمن بن أحمد الصابوني، كان أبوه من كبار الواعظين بنيسابور، ففُتك به لأجل التعصب والمذهب، فتولىٰ الوعظ بعد أبيه وعمره عشر سنوات، وكان يحضر وعظه كبارُ أئمة عصره، ارتفع شأنه فأصبح مقدم أهل الحديث في بلاده خراسان، لقب بشيخ الإسلام، وكان بالغًا في العفاف والسداد وصيانة النفس، مشهوراً بالعبادة يضرب به المثل في ذلك. ولد سنة (٣٧٢هـ) وتوفي سنة ٤٤٩هـ انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ١٨/ ٤٠، وشذرات الذهب ٣/ ٢٨٢.

لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾[1] ولا يحرفون الكلم عن مواضعه، بحمل اليدين على النعمتين أو القوتين تحريف المعتزلة والجهمية ولا يكيفونهما بكيف أو يشبهونهما بأيدي المخلوقين تشبيه المشبهة، وقد أعاذا الله أهل السنة من التحريف والتكييف والتشبيه واتبعوا قول الحق عز وجل ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[2] وكذلك يقولون في جميع الصفات التي نزل بذكرها القرآن ووردت بها الأخبار الصحاح، من السمع والبصر والوجه وغيرها من غير تشبيه بشيء من ذلك بصفات المربوبين المخلوقين، بل ينتهون فيها إلى ما قاله الله تعالى وقاله رسوله ﷺ، من غير زيادة عليه ولا إضافة إليه، ولا تكييف ولا تشبيه ولا تحريف ولاتبديل، ولا تغيير ولا إزالة للفظ الخبر عما تعرفه العرب وتضعه عليه بتأويل منكر، ويجرونه على الظاهر ويكلون علمه إلى الله تعالى، ويقرون بأن تأويله لا يعلمه إلا الله كما أخبر الله عن الراسخين في العلم أنهم يقولونه في قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ [3]﴾[4].

الأساس الثالث: قطع الأطماع من إدراك الكيفية والكنه:

يقطع السلف رحمهم الله أطماعهم عن إدراك كيفية وكنه الصفات، لأن ذلك مستحيل وليس في إمكان البشر الإحاطة بذاته سبحانه، كما قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾[5]. أي لا تحيط علومهم بذاته ولا

---

(١) سورة ص، آية: [٧٥].

(٢) سورة الشورى، آية: [١١].

(٣) سورة آل عمران، آية: [٧].

(٤) عقيدة السلف أصحاب الحديث للصابوني ص ٣ ـ ٥، وانظر كتاب أبطال التأويلات لأبي يعلى ١/ ٤٣ ـ ٤٤، فقد قال نحواً من هذا الكلام.

(٥) سورة طه، آية: [١١٠].

بمعلوماته[1]، فمعرفة كيفية صفاته لا سبيل إليها البتة، فلابد إذًا من اليأس من إدراكها، وذلك لأن معرفة إدراك الصفة متوقف على كيفية الذات، لأن الصفات تختلف بإختلاف موصوفاتها، وذات الله لا يسأل عن كنهها وكيفيتها فكذلك صفاته سبحانه لا يصح السؤال عن كيفيتها، ولهذا لما سئل رجل الإمام مالك بن أنس رحمه الله عن قوله تعالىٰ: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾[2] كيف استوىٰ فأطرق مالك رأسه ثم قال: (الكيف مجهول - وفي رواية - غير معقول والإستواء منه غير مجهول - وفي رواية معلوم - والإيمان به واجب السؤال عنه بدعة وإني لأخاف أن تكون ضالاً)[3].

وقد سبق كلام الإمام الصابوني في بيان مذهب السلف، حيث ذكر أنهم يمرون الصفات على ظاهرها المراد ويكلون علم حقيقتها إلى الله تعالى ويقرون بأنه لا يعلم ذلك إلا هو عز وجل[4].

وهكذا تبين لنا بعد ذكر أسس منهج السلف في باب الصفات، أنه يقوم على إثبات الصفات لله تعالى إثباتًا بلا تمثيل وتنزيهًا بلا تعطيل، يفسرونها - رحمهم الله - كما جاءت مع اعتقاد معناها اللائق بجلال الله ويفوضون كيفيتها إلى الله عز وجل

---

(١) انظر: تفسير البغوي ٣/ ٢٣٢، وفتح القدير ٤/ ٥٢٨.

(٢) سورة طه، آية: [٥].

(٣) روىٰ هذا الأثر الدارمي في الرد على الجهمية ص ٢٧، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٣/ ٣٩٨، برقم ٦٦٤، والبيهقي في الأسماء والصفات ص ٥١٦، والبغوي في شرح السنة ١/ ١٧١، وأورده الذهبي في العلو، انظر: مختصر العلو للألباني ص ١٤١، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية بعد ذكر قول مالك ومثل هذا الجواب ثابت عن ربيعة شيخ مالك، انظر: مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ٥/ ٣٦٥.

(٤) انظر: عقيدة السلف أصحاب الحديث ص٥.

وهذا هو المنهج القويم، وهو الصواب الذي يجب على كل مسلم الأخذ به وترك ما عداه، وإليك بعض أقوالهم في هذا الأمر.

المسألة الثالثة: نماذج من أقوال السلف في ذكر منهجهم في توحيد الأسماء والصفات:

لو أردنا أن نستقصي أقوال السلف الصالح - رحمهم الله - في إثبات منهجهم الحق في باب الصفات، لاحتاج الأمر إلى رسالة خاصة، لذا سأقتصر على ذكر نماذج من أقوالهم بما أظن أن فيه الغنية والكفاية إن شاء الله.

- فهذا الإمام الأوزاعي[1] - رحمه الله - يحكي إجماع التابعين على إثبات الصفات لله تعالى ومنها علو الله على خلقه، فيقول (كنا والتابعون متوافرون نقول إن الله تعالى ذكره فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السنة من الصفات)[2].

(١) هو أبو عمرو، عبدالرحمن بن عمرو بن محمد الأوزاعي، شيخ الإسلام وعالم وإمام أهل الشام، كان من كبار تابعي التابعين، والأوزاع التي ينتسب إليها هي قرية من قرى دمشق خارج باب الفراديس، كان أحد أئمة الدنيا، فقهًا وورعًا وحفظًا وفضلاً وعبادة وضبطًا مع زهد في الدنيا وله مذهب مستقل في الفقه عمل به فقهاء الشام والأندلس مدة، ولد ببعلبك سنة (٨٨هـ) وقيل سنة (٨٠هـ) ومات ببيروت بلبنان مرابطًا سنة (١٥٧هـ)، وقيل (١٥١هـ) انظر: ترجمته في مشاهير علماء الأمصار ص ١٨٠، وحلية الأولياء ٦/ ١٣٥، وسير أعلام النبلاء ٧/ ١٠٧.

(٢) الأسماء والصفات للبيهقي ص ٥١٥، وذكره ابن تيمية وصححه في الفتوى الحموية ص ٢٥، والذهبي في تذكرة الحفاظ ص ١٨١، وسير أعلام النبلاء ٨/ ٣٥٥، وفي العلو كما في مختصره =

ووصف [1] الأوزاعي بأنه أحد الأئمة الأربعة في عصر تابعي التابعين الذين هم مالك بن أنس إمام أهل الحجاز المتوفى سنة (١٧٩هـ) والأوزاعي إمام أهل الشام المتوفى سنة (١٥٧هـ) والليث بن سعد إمام أهل مصر، المتوفى سنة (١٧٥هـ)، والثوري[2] إمام أهل العراق، المتوفى سنة (١٦١هـ).

وإنما حكى الأوزاعي - رحمه الله - شهرة القول في زمن التابعين بأن الله تعالى فوق العرش وبصفاته السمعية وقال ذلك بعد ظهور مذهب جهم[3] بن صفوان الذي ينفي فيه صفات الله، وينكر أن الله تعالى فوق عرشه، وذلك ليعلم الناس أن مذهب السلف يخالف هذا المذهب الفاسد.

وقال الأوزاعي رحمه الله كان الزهري[4]

= للألباني ص ١٣٨، وكذا ذكره ابن قيم الجوزية في إجتماع الجيوش الإسلامية ص ٤٣ط، المكتبة السلفية، وذكره ابن حجر في الفتح ١٣/ ٤٠٦، وقال أخرجه البيهقي بسند جيد عن الأوزاعي.

(١) انظر : الفتوى الحموية ص ٢٣ـ ٢٤.

(٢) هو أبو عبدالله، سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي، أمير المؤمنين في الحديث وأحد أئمة المسلمين وأعلام الدين وفقهائه، لزم الحديث والفقه وواظب على العبادة والورع حتى أصبح مرجعًا يقتدى به في الأمصار، ولد سنة (٩٥هـ) وتوفي سنة (١٦١هـ) انظر ترجمته في مشاهير علماء الأمصار ١٦٩، وتذكرة الحفاظ ١/ ٢٠٣.

(٣) هو جهم بن صفوان السمرقندي، رأس الجهمية وإليه ينتسبون، قال عنه الذهبي الضال المبتدع رأس الجهمية، هلك في زمان التابعين وقد زرع شرًا عظيمًا قتله سلمة بن أهوز سنة (١٢٨هـ) انظر : ميزان الإعتدال ١/ ٢٤٦، والكامل في التاريخ ٥/ ٣٤٣.

(٤) هو أبو بكر، محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهري، الإمام العلم الحافظ، كان فقيهًا محدثًا من أئمة التابعين، ومن أحفظ أهل زمانه للسنن وأحسنهم لها سياقًا، كتب عمر بن عبدالعزيز إلى الآفاق (عليكم بابن شهاب فإنكم لا تجدون أحدًا أعلم بالسنة الماضية منه) توفي سنة (١٢٤هـ) انظر ترجمته في مشاهير علماء الأمصار ص ٦٦، ووفيات الأعيان ٣/ ٣١٧.

ومكحول[1] يقولان: أمروا الأحاديث: (أي أحاديث الصفات) كما جاءت بلا كيف)[2]. وقد ثبت مثل هذا الكلام عن وكيع بن الجراح[3] ومالك بن أنس والأوزاعي وسفيان بن عيينة[4] وغيرهم[5].

ومراد السلف بهذا الكلام إثبات الصفات الواردة في الكتاب والسنة على ما يليق بجلال الله مع تفويض الكيفية في ذلك إلى الله تعالى، كما أجاب الإمام مالك بن أنس من سأله عن قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[6] كيف استوى فقال

---

(١) هو أبو عبدالله، مكحول بن عبدالله الدمشقي، التابعي الجليل، كان من فقهاء أهل الشام وصالحيهم، قال أبو حاتم فيه (ما بالشام أحد أفقه من مكحول) توفي سنة (١١٣هـ) وقيل غير ذلك. انظر ترجمته في مشاهير علماء الأمصار، ص ١١٤، ووفيات الأعيان ٥/ ٢٨٠.

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٣/ ٤٣١ برقم (٧٣٥) وإبطال التأويلات ١/ ٤٧، وأورد هذا ابن عبدالبر في جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٩٦.

(٣) هو أبو سفيان، وكيع بن الجراح بن مليح بن عدي، الإمام الحافظ محدث العراق، كان من كبار اتباع التابعين قال فيه الإمام أحمد بن حنبل (وكيع بن الجراح إمام المسلمين في وقته) ولد سنة (١٢٩هـ) وتوفي سنة (١٩٦هـ وقيل ١٩٧هـ) انظر ترجمته في: مشاهير علماء الأمصار، ص ١٧٣، وسير أعلام النبلاء ٩/ ١٤٠.

(٤) هو أبو محمد، سفيان بن عيينة بن عمران الهلالي الكوفي، كان من كبار أتباع التابعين ومن الحفاظ المتقنين وأهل الورع والدين، قال فيه الشافعي (ما رأيت أحداً أحسن تفسيراً للحديث منه) حج نيفاً وسبعين حجة واشتهر بكثرة تلاوة القرآن والسهر في ذلك. توفي سنة (١٩٨هـ) انظر ترجمته في: مشاهير علماء الأمصار ص ١٤٩، وسير أعلام النبلاء ٨/ ٤٥٤.

(٥) إبطال التأويلات ١/ ٤٧ـ٥٤، وكتاب الصفات للدارقطني ص ٦٩ـ٧١، وجامع بيان العلم وفضله ٢/ ٩٦.

(٦) سورة طه، آية: [٥].

مالك: (الكيف غير معقول، والإستواء منه غير مجهول والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة وإني لأخاف أن تكون ضالاً)[1].

ـ وقال سفيان بن عيينة ـ رحمه الله ـ (كل شيء وصف الله به نفسه في القرآن فقراءته تفسيره لا كيف ولا مثل)[2].

ـ وقال أبو حنيفة النعمان بن ثابت ـ رحمه الله ـ (وما ذكر الله في القرآن من الوجه واليد والنفس، فهو له صفات بلا كيف، وغضبه ورضاه صفتان من صفاته بلا كيف)[3].

ـ وقال محمد بن الحسن[4] صاحب أبي حنيفة (اتفق الفقهاء كلهم من المشرق إلىٰ المغرب علىٰ الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله ﷺ في صفة الرب عز وجل من غير تغيير ولا وصف ولا تشبيه، فمن فسر اليوم شيئًا من ذلك فقد خرج عما كان عليه النبي ﷺ وفارق الجماعة. فإنهم لم يصفوا ولم يفسروا)[5].

ـ وقال إمام أهل السنة والجماعة أحمد بن حنبل رحمه الله: (أحاديث الصفات تمر كما جاءت، نؤمن بها ونصدق بها، ولا نرد شيئًا منها، ونعلم أن ما قاله الرسول

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه الدارقطني في ك الصفات ص ٧٠ برقم ٦١، وكذلك اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٣/ ٤٣١ برقم ٧٣٦، والبغوي في شرح السنة ١/ ١٧١.

(٣) شرح كتاب الفقه الأكبر لأبي حنيفة ص ٣٦ـ٣٧ بشرح ملا علي القاري.

(٤) هو أبو عبدالله، محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني، الإمام الفقيه الأصولي، ولد بواسط سنة (١٣١هـ) ونشأ بالكوفة فسمع من أبي حنيفة، وغلب عليه مذهبه وعرف به فكان من أشهر من نشره بين الناس، له مصنفاته عدة منها الجامع الكبير والجامع الصغير توفي سنة (١٨٩هـ) انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ٩/ ١٣٤، وشذرات الذهب ١/ ٣٢١.

(٥) شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٣/ ٤٣٢ برقم ٧٤٠.

ﷺ حق إذا كانت بأسانيد صحيحة)[1].

ـ وقال أيضًا: (ولا يوصف الله بشيء أكثر مما وصف به نفسه عز وجل ووصفه به رسوله ﷺ لا يتجاوز القرآن والحديث)[2]. وقال أيضًا: (صفات الله له ومنه كما وصف نفسه لا تدركه الأبصار بحدٍ ولا غاية وهو يدرك الأبصار، نؤمن به ولا نرد على رسول الله ﷺ ما قال، بل نؤمن بالله وبما جاء به الرسول ﷺ قال الله عز وجل: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا [3]﴾[4].

ـ وقال ـ رحمه الله ـ أيضًا: (ليس كمثله شيء في ذاته كما وصف نفسه، قد أجمل الله الصفة فحدَّ لنفسه صفة ليس يشبهه شيء وصفاته غير محدودة ولا معلومة إلا بما وصف به نفسه، فهو سميع بصير بلا حد ولا قدر، ولا يبلغ الواصفون صفته ولا يتعدىٰ القرآن والحديث كما قال، ونصفه بما وصف به نفسه ولا يتعدىٰ ذلك ولا يبلغ صفته الواصفون، نؤمن بالقرآن كله محكمه[5] ومتشابهه ولا نزيل عنه تعالىٰ

(١) أبطال التأويلات ١/ ٤٤ ـ ٤٥.

(٢) ذكرت محنة الإمام أحمد لحنبل بن إسحاق ص ٦٨ نقلاً عن المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد ١/ ٢٧٦، ومجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ٥/ ٢٦، ولمعة الاعتقاد ص ٩.

(٣) سورة الحشر، آية: [٧].

(٤) طبقات الحنابلة ١/ ١٤٤، واجتماع الجيوش الإسلامية ص ١٥٢، لابن القيم الجوزية، تحقيق: بشير محمد عيون.

(٥) اختلف العلماء رحمهم الله في معنىٰ المحكم والمتشابه علىٰ أقوال كثيرة، فقال جماعة المحكم ما فيه الحلال والحرام وما سوىٰ ذلك فهو متشابه يشبه بعضه بعضًا في الحق ويصدق بعضه بعضًا، وقال الآخرون: المحكم هو الناسخ الذي يعمل به، والحلال والحرام والفرائض، وما يؤمن به ويعمل به، والمتشابه منسوخة ومقدمه، ومؤخرة وأمثاله وأقسامه، وما يؤمن به ولا يعمل به، وقال جماعة المحكم هو: أوقف الله الخلق علىٰ معناه، والمتشابه ما استأثر الله بعلمه، ولعل الراجح والله أعلم أن المحكم هو البين المعنىٰ الذي لا يشتبه بغيره وتكون حجته واضحة، ودلائله لائحة، والمتشابه هو غير الظاهر الدلالة بل المحتمل لمعان يصعب علىٰ غير الراسخين في العلم القول فيها، وقد ابتلىٰ الله به العباد كما ابتلاهم بالحلال والحرام ألا يصرفن إلىٰ الباطل ويحرفن عن الحق، وقيل غير ذلك انظر تفسير البغوي ١/ ٢٧٨ ـ ٢٧٩، تفسير ابن كثير ٣٠٢ ـ ٣٠٧/ ١، وتفسير السعدي ١/ ٣٥٧.

صفة من صفاته بشناعة شنعت، وما وصف به نفسه من كلام ونزول وخلوة بعبده يوم القيامة، ووضعه كنفه عليه، فهذا كله يدل على أنه يرىٰ في الآخرة، والتحديد في هذا كله بدعة، والتسليم فيه بغير صفة ولا حد، إلا ما وصف به نفسه، سميع بصير لم يزل متكلمًا عالمًا غفورًا رحيمًا، عالم الغيب والشهادة علام الغيوب، فهذه صفات وصف الله بها نفسه، لا ندفع ولا نرد وهو علىٰ العرش بلا حد، كما قال تعالىٰ: ﴿اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾[1] كيف شاء، والمشيئة إليه والإستطاعة إليه ليس كمثله شيء وهو خالق كل شيء تعالىٰ عما يقول الجهمية والمشبهة)[2].

ـ وقال الإمام الدارمي[3] ـ رحمه الله ـ ذاكرًا عقيدة السلف التي يعتقدها ويدعو إليها في مقدمة كتابه الرد علىٰ الجهمية[4] (... نحمده تعالىٰ بجميع محامده، ونصفه بما وصف به نفسه ووصفه به الرسول ﷺ فهو الرحمن الرحيم قريب مجيب متكلم، فعال لما يريد، الأول قبل كل شيء والآخر بعد كل شيء. له الأمر من قبل ومن بعد، وله الخلق والأمر فتبارك الله رب العالمين، وله الأسماء الحسنىٰ يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم يقبض ويبسط، ويتكلم ويرضىٰ، ويسخط ويغضب، ويحب ويبغض، ويكره ويضحك، ويأمر وينهي، ذو الوجه الكريم،

---

(١) سورة السجدة، آية: [٤].

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية ص ٣٨، ١٦٢.

(٣) هو أبو سعيد، عثمان بن سعيد بن خالد الدارمي السجستاني، محدث هراة وأحد الحفاظ الأعلام الثقات، كان إمامًا من أئمة السنة يقتدىٰ به، قال فيه أبو داود صاحب السنن (منه تعلمنا الحديث)، له مصنفات عديدة منها الرد علىٰ الجهمية والرد علي بشر المريسي، قال فيها ابن قيم الجوزية (وكتاباه من أجل الكتب المصنفة في السنة وأنفعها، وينبغي لكل طالب سنة مراده الوقوف علىٰ ما كان عليه الصحابة والتابعون والأئمة أن يقرأ كتابيه، وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يوصي بهذين الكتابين أشد الوصية ويعظمها جدًا) اجتماع الجيوش ص ٩٠، ولد الدارمي سنة (٢٠٠هـ) وقيل قبلها بيسير وتوفي سنة (٢٨٠هـ) انظر ترجمته في: تذكرة الحفاظ ٣/ ٦٢١ ـ ٦٢٢، وشذرات الذهب ٢/ ١٧٦.

(٤) الرد علىٰ الجهمية ص ١ ـ ٢.

والسمع السميع، والبصر البصير، والكلام المبين، واليدين والقبضتين، والقوة والسلطان، والعظمة والعلم الأزلي، لم يزل كذلك ولا يزال استوىٰ علىٰ عرشه فبان من خلقه، لا تخفىٰ عليه خافية، وعلمه بهم محيط وبصره فيهم، نافذ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير، فبهذا الرب نؤمن، وإياه نعبد وله نصلي ونسجد، فمن قصد بعبادته إلهًا بخلاف هذه الصفات فإنما يعبد غير الله، وليس معبوده بإله كفرانه لا غفرانه).

ـ وقال أبو بكر بن خزيمة[1] ـ رحمه الله ـ عند كلامه علىٰ صفة الوجه (فنحن وجميع علمائنا من أهل الحجاز وتهامة واليمن والعراق والشام ومصر، مذهبنا أننا نثبت لله ما أثبته لنفسه، نقر بذلك بألسنتنا ونصدق بذلك بقلوبنا من غير أن نشبه وجه خالقنا بوجه أحد من المخلوقين، عز ربنا أن يشبه المخلوقين، وجلَّ ربنا عن مقالة المعطلين، وعزَّ أن يكون عدمًا كما قال المبطلون، لأن مالا صفة له عدم، تعالىٰ الله عما يقول الجهميون الذين ينكرون صفات خالقنا الذي وصف بها نفسه في محكم كتابه وعلىٰ لسان نبيه محمد ﷺ)[2].

ـ وقال الإمام أبو الحسن الأشعري موضحًا عقيدة أهل السنة . (قولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها، التمسك بكتاب ربنا عز وجل وسنة نبينا محمد ﷺ، وما روي عن السادة الصحابة والتابعين، وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل ـ نضر الله وجهه ورفع درجته وأجزل مثوبته ـ قائلون، ولما خالف قوله مخالفون، لأنه الإمام الفاضل، والرئيس

---

(١) هو أبو بكر، محمد بن إسحاق بن خزيمة النيسابوري الإمام الحجة الحافظ الفقيه، أحد أئمة الشافعية في عصره، كان محدثًا جليلاً شديد التمسك لمذهب السلف، قويًا علىٰ خصومة له مصنفات عظيمة مفيدة من أشهرها كتاب التوحيد وصحيح ابن خزيمة، توفي سنة (٣١١هـ) انظر: ترجمته في سير أعلام النبلاء ١٤/ ٣٦٥، وطبقات الشافعية ٣/ ١٠٩ ـ ١١٠.

(٢) كتاب التوحيد لابن خزيمة ص١٠.

الكامل، الذي أبان الله به الحق ودفع به الضلال، وأوضح به المنهاج، ودفع به بدع المبتدعين وزيغ الزائغين وشك الشاكين، فرحمة الله عليه من إمام مقدم، وجليل معظم وكبير مفهم، وجملة قولنا أنا نقر بالله وملائكته وكتبه ورسله وبما جاؤا به من عند الله وما رواه الثقات عن رسول الله لا نرد من ذلك شيئًا)[١].

قلت: ليت الأشاعرة الذين يدعون الإنتساب إلىٰ هذا الإمام الجليل يعلمون ما هم عليه من انحراف في العقيدة[٢] ويلتزمون بمذهب السلف الصالح الذي ارتضاه إمامهم وأوصىٰ به بعد أن منَّ الله عليه بالهداية.

ـ وقال أبو محمد البربهاري[٣] ـ رحمه الله ـ: «اعلم رحمك الله أنه لا يتكلم في الرب إلا بما وصف به نفسه عز وجل في القرآن وما بيّن رسول الله ﷺ لأصحابه فهو جل ثناؤه واحد ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٤] ربنا أول بلا متىٰ، وآخر بلا منتهىٰ، يعلم السر وأخفىٰ، وهو علىٰ عرشه استوىٰ، وعلمه في كل مكان، ولا يخلو من علمه مكان ولا يقول في صفات الرب تعالىٰ لم إلا شاك في الله تبارك وتعالىٰ، والقرآن كلام الله وتنزيله ونوره، ليس مخلوقًا لأن القرآن من الله وما كان من الله

---

(١) الإبانة عن أصول الديانة للأشعري ص ١٥، تقديم د. صالح الفوزان، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

(٢) من أمثلة إنحرافاتهم: قولهم أن أول واجب علىٰ المكلف النظر، وهو عند أهل السنة والجماعة الشهادتان فحسب، كذلك إثباتهم الصفات السبعة ونفي ما عداها من الصفات الفعلية ومنها العلو، وتأويلهم لها وتفويضها أخيراً كما فعل متأخريهم كالرازي، وقولهم في كلام الله وأنه كلام نفسي، وميلهم إلىٰ الجبرية حيث أثبتوا أن العبد قادر علىٰ فعله ولكن قالوا بالكسب فمالوا إلىٰ الجبر والله أعلم.

(٣) هو أبو محمد، الحسن بن علي بن خلف البربهاري (نسبة إلىٰ بربهار وهي الأدوية التي تجلب من الهند) كان إمامًا حافظًا متقنًا ثقة فقيهًا، قوالاً بالحق داعية إلىٰ السنة، لا يخاف في الله لومة لائم، شديد الإنكار علىٰ أهل البدع والأهواء، شديد المباينة لهم باليد واللسان، وكان صاحب هيبة عند السلطان وعند الناس، زاهداً في الدنيا لا يأبه بها، من كتبه شرح السنة، توفي سنة (٣٢٩هـ) عن عمر يناهز السبعين، وقيل التسعين. انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء ١٥/ ٩٠، والبداية والنهاية ١١/ ٢٠١، وشذرات الذهب ٢/ ٣١٩.

(٤) سورة الشورىٰ، آية: [١١].

فليس بمخلوق)[1].

وقد سار على هذا المنهج السلفي ووضحه ودعا إليه جماهير المحققين من المحدثين والفقهاء والمجتهدين قديمًا وحديثًا[2].

- يقول الإمام ابن قدامة[3] المقدسي رحمه الله: (وكل ما جاء في القرآن، أو صح

(١) شرح السنة للبربهاري ص ٢٤-٢٥.

(٢) منهم على سبيل المثال، الإمام ابن بطة المتوفى سنة (٣٨٧هـ) في كتبه الإبانة الصغرى والكبرى وغيرها، والإمام ابن منده المتوفى سنة (٣٩٥هـ) انظر كتاب التوحيد له ٣/ ٧، والإمام اللالكائي المتوفى سنة (٤١٨هـ) في كتابه شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، وشيخ الإسلام الصابوني المتوفى سنة (٤٤٩هـ)، في كتابه عقيدة السلف أصحاب الحديث، والإمام البيهقي المتوفى سنة (٤٥٨هـ) في كتابه الاعتقاد، وإن كان عليه بعض المآخذ في العقيدة كتأويل الصفات الفعلية الاختيارية على المذهب الأشعري وقوله أن أول واجب على المكلف معرفة الله تعالى، وهذا مخالف لمذهب أهل السنة والجماعة كما مر معنا سابقًا والله أعلم، وابن عبدالبر إمام المغرب المتوفى سنة (٤٦٣هـ) في كتابه التمهيد ٧/ ١٤٥، والإمام الهروي المتوفى سنة ٤٨١هـ، في كتابه الأربعين في دلائل التوحيد ص ٤٥ مثلاً، والحافظ التيمي المتوفى سنة (٥٣٥هـ) في كتابه الحجة في بيان المحجة، والإمام ابن قدامة المقدسي المتوفى سنة (٦٢٠هـ) في كتابه لمعة الاعتقاد وغيره، وشيخ الإسلام ابن تيمية المتوفى سنة (٧٢٨هـ) انظر مثلاً مجموع الفتاوى المجلد الثالث والسادس، والإمام الذهبي المتوفى سنة (٧٤٨هـ) في كتابيه العلو والأربعين في صفات رب العالمين، والإمام ابن القيم المتوفى سنة (٧٥١هـ) في كتابيه الصواعق المرسلة وإجتماع الجيوش الإسلامية، وابن أبي العز الحنفي المتوفى سنة (٧٩٢هـ) انظر: شرح الطحاوية له ص ٩٩-٣١٣، والإمام ابن رجب الحنبلي المتوفى سنة (٧٩٢هـ) في فضل علم السلف على علم الخلف ص ١١٩-١٤٠، والشيخ مرعي بن يوسف الكرمي المتوفى سنة (١٠٣٣هـ) في كتابه أقاويل الثقات، والشيخ السفاريني المتوفى سنة (١١٨٨هـ) في لوامع الأنوار البهية ١/ ٢٠-٢٢ والشيخ محمد صديق حسن خان المتوفى سنة (١٣٠٧هـ) في كتابه قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر، والشيخ حافظ الحكمي المتوفى سنة (١٣٧٧هـ) في معارج القبول وغيرهم كثير.

(٣) هو أبو محمد، عبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي، عالم الشام في زمانه، الثقة الحجة، الفقيه، كان نبيلاً عزيزاً صاحب فضل وكرم، ورعًا من أئمة السلف في عصره، له مؤلفات كثيرة عظيمة منها المغني ولمعة الاعتقاد وإثبات صفة العلو وغيرها ولد سنة (٥٤١هـ) وتوفي سنة (٦٢٠هـ) انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء ٢٢/ ١٦٥، وذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ٢/ ١٢٣، وشذرات الذهب ٥/ ٨٨.

عن النبي ﷺ من صفات الرحمن، وجب الإيمان به وتلقيه بالتسليم والقبول، وترك التعرض له بالرد والتأويل والتشبيه والتمثيل. . . ، وعلىٰ هذا درج السلف وأئمة الخلف[1] رضي الله عنهم، كلهم متفقون علىٰ الإقرار والإمرار والإثبات لما ورد من الصفات في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من غير تعرض لتأويله، وقد أمرنا بالإقتداء لآثارهم والإهتداء بمنارهم، وحذرنا المحدثات وأخبرنا أنها من الضلالات)[2].

ذلك هو منهج السلف الصالح علىٰ سبيل الإجمال، وهذه بعض من أقوالهم - وما أكثرها - في توحيد الأسماء والصفات، فحري بمن يريد النجاة لنفسه، والسعادة في دنياه وآخرته، أن يقتدي بهؤلاء الأخيار ويسير علىٰ نهجهم علىٰ الهدىٰ المستقيم، نسأل الله الهداية لنا ولجميع المسلمين.

المسألة الرابعة: خصائص ومميزات المنهج السلفي.

في ختام الحديث عن منهج السلف الصالح في باب الأسماء والصفات - والذي سبق بيانه - أحب أن أشير إلىٰ أهم الخصائص والمميزات التي انفرد بها منهج السلف، وذلك ليطمئن قلب المتمسك به ويزداد رسوخًا وتعلقًا به، وليدرك الباحثون عن الحق صحة وعظمة وأهمية هذا المنهج فأقول:

أولاً: إن أول هذه الخصائص (أنه منهج قائم ومعتمد على الكتاب والسنة)، ولاشك أن التمسك بالكتاب والسنة هو طريق السعادة في الدنيا والآخرة، وعصمة للعقول من الضلال، وللنفوس من الزيغ، وللقلوب من الإنحراف، قال سبحانه:

---

(١) يقصد رحمه الله من جاء بعد السلف من الخلف ممن سار علىٰ منهج أهل السنة والجماعة (منهج السلف الصالح).

(٢) لمعة الإعتقاد لابن قدامة ص ٤ - ٧.

﴿وأن هذا صراطي مُستقيمًا فاتَّبعُوهُ ولا تَتَّبعُوا السُّبُلَ فتفرَّقَ بكُمْ عن سَبيله﴾[1]. وقال رسول الله ﷺ «تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا بعدي أبدًا كتاب الله وسنتي»[2].

ولهذا كان علماء السلف رحمهم الله يقولون الإعتصام بالسنة نجاة. فقد صح عن إمام دار الهجرة مالك بن أنس رحمه الله قوله (السنة مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها هلك)[3].

ثانيًا: أنه هو المذهب الأكمل والأعلم والأسلم والأحكم.

لأنه الحق الذي لا ريب فيه، والنور الهادي إلى سواء السبيل، والمنقذ من ظلمات الباطل والإنحراف وغياهب الجهل والشرك، وقد كان كذلك لأنه مستمد من نصوص الوحي - الكتاب والسنة - ويقف أهله حيث وقف الدليل، فلا يتقدمون بين يدي الله ورسوله في شيء، بل يسلمون وينقادون ويثبتون ما أثبت الله لنفسه وما أثبته له خليله محمد ﷺ على ما يليق بجلال الله، فلم يتعرضوا للصفات بتأويل أو تحريف أو تشبيه أو تمثيل أو تعطيل، بل أمروها كما جاءت على ظاهرها بلا كيف، لتيقنهم أنه لو كان ظاهرها غير لائق أو غير مراد - كما يدّعي من يبطل الصفات أو يؤولها - لما سكت رسول الله ﷺ عن بيانها وهو الذي علم صحابته كل شيء حتى أدب الخراءة وقال فيما صح عنه: «ما بعث الله من نبي إلا كان حقًا عليه أن يدل أمته على

---

(1) سورة الأنعام، آية: [153].

(2) رواه مالك في كتاب القدر، باب النهي عن القول بالقدر ٢/ ٦٨٦، برقم ٣، والحاكم ١/ ٩٣، وهو حديث حسن كما قال الألباني، انظر: مشكاة المصابيح برقم ١٨٦، وسلسلة الأحاديث الصحيحة ٤/ ٣٦١، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ.

(3) ذكره شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى ٤/ ١٣٧.

خير ما يعلمه لهم وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم»[1].

ومعلوم أنه لا خير أشرف وأعظم من علم التوحيد المتصل بالله عز وجل فلما ترك ﷺ بيان هذا الأمر دلّ يقينًا على أن ظاهر الصفات هو المراد على ما يليق بجلال الله، فوسع السلف الصالح ما وسع رسول الله ﷺ، فسلم بذلك منهجهم واستقامت طريقتهم وكمال علمهم. لأنه يستحيل أن يكون أفراخ المتفلسفة وضلال أهل الكلام ممن خالف منهجهم، أعلم بالله وبما جاء عن رسول الله من ورثة الأنبياء وحملة القرآن والعاملين به.

ثالثًا: أنه مذهب الإعتدال والتوسط:

فالسلف أهل الإعتدال والتوسط في الأمور كلها - وأعظمها باب الإعتقاد - فهم وسط بين المذاهب الجافية والمذاهب الغالية، فهم في باب الأسماء والصفات وسط بين أهل التمثيل الذين مثلوا الله بخلقه، وبين النفاة أهل التعطيل الذين عطلوا الباري عز وجل عن صفاته، ولقد صدق شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - عندما وصف منهجهم بقوله: (فإن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة هم الوسط في الفرق. كما أن الأمة هي الوسط في الأمم، فهم وسط في صفات الله بين أهل التعطيل وأهل التمثيل، وهم وسط في أفعال الله بين الجبرية والقدرية وغيرهم، وفي باب وعيد الله بين المرجئة والوعيدية من القدرية وغيرهم، وفي باب أسماء الإيمان والدين بين الحرورية (الخوارج) والمعتزلة وبين المرجئة والجهمية، وفي أصحاب رسول الله بين الرافضة والخوارج)[2].

---

(1) رواه مسلم في كتاب الإمارة، باب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول ٣/ ١٤٧٢ - ١٤٧٣ برقم ١٨٤٤، وابن ماجه في كتاب الفن باب ما يكون من الفتن ٢/ ١٣٠٦ - ١٣٠٧ برقم ٣٩٥٦ وأحمد ٢/ ١٦١ و ١٩١.

(2) العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام بشرح الشيخ صالح الفوزان ص ١٢٤.

رابعًا: أنه مذهب سهل ميسر في أسلوبه ومعانيه لا تعقيد فيه ولا تناقض، لأنه مستمد من نصوص الوحي، ومن المعلوم أن أسلوب القرآن والسنة يمتاز بالسهولة واليسر والوضوح، ويخلو من التناقضات والمعارضات، مما يجعل إدراك العقيدة والأحكام وغيرهما سهلاً ميسوراً، ليس للعلماء فحسب، بل لكافة مستويات المجتمع على اختلاف مداركهم وفطرهم يأخذ كل منهم حسب طاقته من الفهم والتفكير، بخلاف المناهج الكلامية والفلسفية المعقدة المليئة بالمصطلحات، التي لا يدركها إلا القلة المتخصصون من الناس. وهي مع ذلك لا تشفي غليلاً، وكثير منا يعلم أن كبار المتكلمين تبرؤا منها وذموها، ومدحوا منهج السلف السهل الميسور الملائم للفطرة[1].

خامسًا: أنه منهج تطمئن إليه القلوب وتسكن باعتقاده: وهذه الميزة لا يعلمها ولا يحس بها ولا يجد حلاوتها إلا من وفقه الله باعتقاد هذا المنهج أو خالط المخالفين له، ورأى ما هم فيه من خبط واضطراب وعدم اطمئنان لما يعتقدون، وكيف لا يكون هذا المنهج السلفي كما أسلفت. وأهله هم المتبعون لهداه ووحيه الذي ضمن الله سعادة المتمسك به حيث قال: ﴿فمن اتبع هُدَايَ فلا يَضِلُّ ولا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ له معيشة ضنكا ونحشره يَوْمَ القيامة أعمىٰ﴾[2]، ومن المعلوم أن النفوس السليمة المؤمنة لا تطمئن ولا تسكن لأقوال البشر، لأنها تبقى محل نظر وبحث، أما نصوص الكتاب والسنة. فإن القلوب تخضع لها، وتطمئن لخبرها، وتسكن لهداها، لأنها من الله رب العالمين أصدق القائلين الذي يعلم السر وأخفى.

المطلب الرابع: أسماء الله تعالى.

أسماء الله تعالى هي أعلام وأوصاف له سبحانه سمى بها نفسه وسماه بها

---

(١) كتاب منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة ص٦٦٥ ـ ٦٩٠، تأليف خالد بن عبداللطيف نور.

(٢) سورة طه. آية: [١٢٣ ـ ١٢٤].

رسوله ﷺ، فهي أعلام بإعتبار دلالتها على ذات الله تعالى، وأوصاف بإعتبار ما دلت عليه من المعاني، وهي بالإعتبار الأول مترادفة لدلالتها على مسمى واحد وهو (الله عز وجل)، وبإعتبارها أوصافًا فهي متباينة المعاني، إذ كل اسم له معنى خاص يدل عليه، فالعليم غير معنى السميع، والقدير غير معنى الحكيم والغفور غير معنى الجبار .. وهكذا[1].

وهذه الأسماء الحسنى لله تعالى كثيرة جدًا لا يعلم عددها إلا الله تعالى، ومعلوم أن كثرة الأسماء تدل على عظم المسمى بها، وكل اسم من هذه الأسماء مشتق من مصدره، فالعليم مثلاً مشتق من العلم، وهو يدل على صفة العلم لله وهكذا بقية الأسماء. ونظرًا لأهمية هذا الموضوع وما يتصل به من مسائل فقد أفردت الحديث عنه في المسائل الآتية:

المسألة الأولى: أسماء الله كلها حسنى.

لقد ورد في الكتاب العزيز عدة نصوص تدل على أن أسماء الله تعالى كلها حسنى.

- من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون﴾[2].

- وقوله أيضًا: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾[3].

---

(١) انظر كتاب التوحيد لابن منده ٢/ ١٩، بتحقيق شيخنا الدكتور علي ناصر فقيهي فقد نص فضيلته على هذا الأمر.

(٢) سورة الأعراف، آية: [١٨٠].

(٣) سورة الإسراء، آية: [١١٠].

- وقوله سبحانه كذلك: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾(1).

- وقوله عز وجل أيضًا: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾(2).

فقد دلت هذه الآيات المباركات على أن الله عز وجل قد اتصف بالأسماء الحسنى على الجملة دون التفصيل، والحسنى تأنيث الأحسن، ومعناها: أي التي هي أحسن الأسماء لدلالتها على أحسن مسمى وأشرف مدلول من الصفات الكاملة العظيمة لله تعالى وبذلك كانت حسنى، فإنها لو لم تدل على الصفات، بل كانت أعلامًا محضة أو دلت على صفات، ولكنها ليست بصفات كمال، لم تكن حسنى، ومن تمام كونها حسنى أنه لا يدعى إلا بها، ولذلك قال سبحانه ﴿فَادْعُوهُ بِهَا﴾ وهذا شامل لجميع أنواع الدعاء، فيُدعى سبحانه في كل مطلوب بما يناسب ذلك، فيقول الداعي مثلاً: اللهم اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم وتب عليّ يا تواب وارزقني يا رازق ونحو ذلك، فإنه سبحانه إذا دعي بهذه الأسماء كان ذلك من أسباب الإجابة(3).

المسألة الثانية: الإلحاد في أسماء الله:

لقد نهى الله عز وجل عن الإلحاد في أسمائه الحسنى وذم الذين يفعلون ذلك وتوعدهم بالعذاب الأليم فقال سبحانه ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(4).

وقد ورد في سبب نزول هذه الآية أن رجلاً مسلمًا دعا الله في صلاته ودعا

---

(1) سورة طه، آية: [8].

(2) سورة الحشر، آية: [24].

(3) انظر فتح القدير 2/ 368، وتفسير السعدي 3/ 120-121.

(4) سورة الأعراف، آية: [180].

الرحمن، فسمعه بعض مشركي مكة فقال: إن محمداً وأصحابه يزعمون، أنهم يعبدون ربًا واحدًا فما بال هذا يدعو اثنين، فأنزل الله هذه الآية[1].

معنى الإلحاد في أسماء الله.

الإلحاد لغة: هو الميل والعدول عن القصد والجور والإنحراف، يقال ألحد يلحد إلحادًا، ولحد يلحد لحودًا إذا مال، والإلحاد أيضًا هو العدول عن الحق وإدخال ما ليس منه فيه. يقال ألحد في الدين ولحد به[2].

ومعنى الإلحاد في أسماء الله، الشرك فيها، والتكذيب بها، واشتقاق أسماء للآلهة الباطلة من أسماء الإله الحق سبحانه، كاشتقاق المشركين العزىٰ من اسمه العزيز ومناة من المنان واللات من الله - كما قال ابن عباس - رضي الله عنهما - وغيره من أئمة السلف -. ومن الإلحاد في أسماء الله أيضًا تسمية الأصنام آلهة، وكذلك تسميته تعالىٰ بما لم يتسمَّ به ولم ينطق به كتاب ولا سنة، فإن أسماءه عز وجل مبنية على التوقيف، فإنه تعالىٰ يسمىٰ جوادًا ولا يسمىٰ سخيًا، وإن كان في معنىٰ الجواد، ويسمىٰ عالمًا ولا يسمىٰ عاقلاً فيدعىٰ سبحانه بأسمائه التي ورد بها التوقيف علىٰ وجه التعظيم فيقال يا الله يا رحمن يا رحيم ونحو ذلك[3].

ولا شك أن نفي معاني أسماء الله الحسنىٰ - كما هو مذهب المعتزلة كقولهم سميع بلا سمع عليم بلا علم بصير بلا بصر الخ.. من أعظم الإلحاد فيها، لأنها لو لم تدل

---

(١) انظر تفسير البغوي ٢/ ٢١٧.

(٢) انظر القاموس المحيط ص ٣١٧، والمصباح المنير ص ٢١٠، وتفسير البغوي ٢/ ٢١٧، وتفسير ابن كثير ٢/ ٢٤٨.

(٣) انظر: تفسير البغوي ٢/ ٢١٧-٢١٨، وتفسير ابن كثير ٢/ ٢٤٨.

على معاني وأوصاف لم تكن حسنى ـ كما تقدم ـ ولم يجز أن يخبر عنها بمصادرها ويوصف بها، لذا نجد أن الله قد أخبر عن نفسه بمصادر هذه الأسماء وأثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله ﷺ، من ذلك قوله سبحانه ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾[1]، نعلم أن المتين من أسمائه ومعناه الموصوف بالقوة.

ومن ذلك قوله تعالى أيضًا: ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾[2] فالعزيز من له العزة، ولولا ثبوت العزة والقوة له تعالى لم يُسَمَّ قويًا ولا عزيزًا.

وأيضًا لو لم تكن أسماؤه عز وجل مشتملة على معان وصفات لم يسغ أن يخبر عنه بأفعالها، فلا يقال يسمع ويرى ويعلم ويقدر وغير ذلك، لأن ثبوت أحكام الصفات فرع من ثبوتها، فإذا انتفى أصل الصفة استحال ثبوت حكمها، وأيضًا فإنه لو لم تكن أسماؤه ذوات معان وأوصاف لكانت جامدة كالأعلام المحضة التي لم توضع لمسماها باعتبار معنى قام فتكون كلها سواء، ولم يكن فرق بين مدلولاتها، ولا شك أن هذه مكابرة صريحة وبهتان بين عظيم، فإن من جعل اسم (القدير) هو بمعنى اسم (السميع) ومعنى اسم (التواب) هو بمعنى (المنتقم) ومعنى اسم (المعطي) هو بمعنى اسم (المانع)، فقد كابر العقل واللغة والفطرة، بل وكان فيه شبه بالباطنية القرامطة، فإن الله قد أنكر على المشركين الذين امتنعوا عن تسميته بالرحمن فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾[3] فاتضح إذًا أن نفي معاني أسماء الله من أعظم أنواع الإلحاد فيها[4].

---

(١) سورة الذاريات، آية: [٥٨].

(٢) سورة فاطر، آية: [١٠].

(٣) سورة الفرقان، آية: [٦٠].

(٤) انظر شرح العقيدة الأصفهانية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ٧٦ ـ ٧٨، ومدارج السالكين ١/ ٥٤.

ومن أنواع الإلحاد أيضًا، إنكارها بالكلية كما هو مذهب الجهمية الذين نفوا ثبوت الأسماء والصفات، زاعمين أن إثباتها يستلزم تشبيه الخالق بالمخلوق، مدّعين تصور ذات مجردة عن الأسماء والصفات، وهذا من أعظم أنواع الإلحاد في أسماء الله سبحانه وصفاته، بل وضرب من المحال أيضًا[1].

المسألة الثالثة: طريق إثبات أسماء الله تعالى.

إن طريق إثبات أسماء الله عز وجل عند أهل السنة والجماعة هو التوقيف، بمعنى أنها توقيفية لا تعرف إلا عن طريق الكتاب والسنة وإجماع الأمة، وهذا الأمر من المسلمات التي تحتاج إلى إمعان نظر ولا تقبل الجدال والمراء[2].

فلا يجوز إذًا لأحد أن يشتق من الأفعال الثابتة لله تعالى أسماء إلا إذا ورد بها نص من كتاب أو سنة.

وقد نبه الإمام النووي ـ رحمه الله ـ إلى ذلك ورجح هذا المذهب بقوله (وأسماء الله توقيفية لا تطلق إلا بدليل صحيح . .)[3].

وقال في موضع آخر نقلاً عن أبو المعالي الجويني (وما ورد الشرع بإطلاقه أطلقناه في أسماء الله وصفاته أطلقناه وما منع الشرع من إطلاقه منعناه وما لم يرد فيه إذن واضح لم نقض فيه بتحليل ولا تحريم فإن الأحكام الشرعية تتلقى من موارد الشرع ولو قضينا بتحليل أو تحريم لكنا مثبتين حكمًا بغير الشرع، قال ثم لا يشترط في جواز

---

(١) انظر: كتاب التوحيد لابن خزيمة ص ٢٨، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣/ ٨، ومختصر الصواعق المرسلة ص ٣٤٢ ـ ٣٤٣/ ٢.

(٢) انظر الأسماء والصفات للبيهقي ص١٠، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣/ ٤١٣و ٥/ ٥٧، وبدائع الفوائد لابن القيم ١٦٢/ ١، وفتح الباري ١١/ ٢٢٦.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٦٥/ ٧ .

الإطلاق ورود ما يقطع به في الشرع ولكن ما يقتضي العمل وإن لم يوجب العلم فإنه كاف إلا أن الأقيسة الشرعية من مقتضيات العمل ولا يجوز التمسك بهن في تسمية الله تعالىٰ ووصفه، هذا كلام إمام الحرمين ومحله من الاتقان والتحقيق بالعلم مطلقًا وبهذا الفن خصوصًا معروف بالغاية العليا)[1].

وقال: (وقد اختلف أهل السنة في تسمية الله تعالىٰ ووصفه من أوصاف الكمال والجلال والمدح بما لم يرد به الشرع ولا منعه، فأجازه طائفة ومنعه آخرون إلا أن يرد به شرع مقطوع به من نص كتاب الله وسنة متواترة، أو إجماع علىٰ إطلاقه، فإن ورد خبر واحد فقد أختلفوا فيه فأجازه طائفة وقالوا الدعاء به والثناء من باب العمل وذلك جائز بخبر الواحد، ومنعه آخرون لكونه راجعًا إلىٰ اعتقاد وما لا يجوز أو يستحيل علىٰ الله تعالىٰ، وطريق هذا القطع قال القاضي: والصواب جوازه لاشتماله علىٰ العمل، وقول الله تعالىٰ ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾[2] والله أعلم)[3].

قلت: يشير الإمام النووي رحمه الله ههنا إلىٰ الخلاف الذي وقع حول هذه المسألة بين السلف وجماهير الأشاعرة من جهة، وبين الأشاعرة كالباقلاني[4] والكرامية والمعتزلة من جهة أخرىٰ، حيث قال السلف ومن وافقهم أن أسماء الله تعالىٰ توقيفية لا تثبت إلا بالكتاب أو السنة، من حيث جوّز الاخرون إطلاق اسم علىٰ

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٧/١٦٥، أول كتاب الصيام.

(٢) سورة الأعراف، آية: [١٨٠]. .

(٣) نفس المصدر ص ٧٨-٧٩/ ٢، كتاب الإيمان باب تحريم الكسر وبيانه.

(٤) سبق ترجمته.

الله إذ دل النقل على معنى ثابت في حقه تعالى، سواء ورد التوقيف فيه أو لم يرد، وهو ما يسمى عند علماء الكلام بالطرق القياسية[1].

ولا شك أن مذهب السلف هو الحق الراجح، لأن الإخبار عن الله وأسمائه وصفاته مما لا يعلم بالعقل، بل هو متوقف على الوحي، ولأنه لا أحد أعلم بالله من الله. ولا أحد أعلم به تعالى من رسوله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، فالمؤمن يقف حيث وقف الوحي ولا يقول على الله بغير علم.

المسألة الرابعة: عدد أسماء الله تعالى.

أما عن عدد أسماء الله الحسنى فقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا مائة إلا واحدًا من أحصاها دخل الجنة»[2].

وقد اختلف العلماء رحمهم الله هل أسماء الله محصورة بهذا العدد أم لا؟

١ ـ أسماء الله غير محصورة في عدد معين.

يكاد ينعقد الإجماع على أن العدد الوارد في الحديث السابق لا مفهوم له يقتضي الحصر لأسماء الله تعالى في تسعة وتسعين، ولم يخالف في ذلك سوى ابن حزم الظاهري ـ رحمه الله ـ الذي أخذه بظاهر الحديث من غير أن يأخذ بالأحاديث الأخرى الواردة في هذا الشأن. فقد قال في دفاعه عن رأيه هذا: (إن له عز وجل تسعة وتسعين اسمًا مائة غير واحد وهي أسماؤه الحسنى، من زاد شيئًا من عنده فقد ألحد في

---

(١) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣/ ٤١٣، ٥/ ٥٧، وبدائع الفوائد ١٦٢/١، وفتح الباري ٢٢٦/١١. وجوهرة التوحيد ص ٨٩، وشرح الأسماء الحسنى للرازي ص ٣٦.

(٢) رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب إن لله مائة اسم مائة إلا واحدًا ٣٨٩/١٣، برقم (٧٣٩٢)، ومسلم في كتاب الذكر، باب في أسماء الله ص ١٧/٥، برقم ٢٦٧٧، والترمذي في كتاب الدعوات، باب ذكر أسماء الله ٤٩٦/٥، برقم ٣٥٠٧، وأحمد ٢٥٨/٢، ٢٦٧ وغيرهم.

أسمائه، وهي الأسماء المذكورة في القرآن والسنة . . وقد صح أنها تسعة وتسعون اسما فقط، ولا يحل لأحد أن يجيز أن يكون له تعالىٰ اسم زائد لأنه عليه السلام قال: «مائة غير واحد» فلو جاز أن يكون له اسم زائد لكان مائة اسم، ولو كان هذا لكان قوله عليه السلام «مائة غير واحد» كذبًا ومن أجاز هذا فهو كافر»(١).

٢ ـ الرد على ابن حزم في زعمه أن أسماء الله محصورة.

الحقيقة أن ابن حزم ـ رحمه الله ـ قد أخطأ وخالف المذهب الصحيح في هذه المسألة، لأنه ليس في الحديث السابق ما ينفي أسماء الله تعالىٰ غير التي ذكر (مائة إلا واحدا) وإنما وقع التخصيص بذكرها، لأنها أشهر الأسماء وأبينها معاني، وفيها ورد الخبر (أن من أحصاها دخل الجنة) سواء أحصاها مما ورد في الحديث السابق ـ كما في بعض طرقه ـ أو من سائر ما دل عليه الكتاب والسنة، إذ معنىٰ الحديث أن في أسمائه تعالىٰ تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة، كما يقول القائل إن لي ألف درهم أعددتها للصدقة وإن كان ما له أكثر من ذلك، والله تعالىٰ قال في كتابه ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾(٢) فأمر أن يدعىٰ بأسمائه الحسنىٰ مطلقًا، ولم يقل ليست أسماؤه الحسنىٰ إلا تسعة وتسعين اسمًا والحديث قد سلم معناه(٣).

وأيضا فإنه قد صح عن رسول الله ﷺ ما يدل علىٰ أن العدد ليس محصورًا في تسعة وتسعين، من ذلك قوله ﷺ: «ما أصاب أحدًا قط هم ولا حزن، فقال اللهم إني عبدك وابن عبدك وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك،

---

(١) المحلى لابن حزم ١/ ٣٦ ـ ٣٧، والفصل في الأهواء والملل والنحل له أيضًا ١/ ٤٢١ . .

(٢) سورة الأعراف، آية: ١٨٠.

(٣) انظر الاعتقاد للبيهقي ص ١٥، والأسماء والصفات له ص ١٧، وشرح السنة للبغوي ٥/ ٣٥، ومجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ٢٢/ ٤٨٦، وشرح صحيح مسلم ١٧/ ٥، وفتح الباري ١١/ ٢٢٣.

أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي، إلا أذهب الله همه وحزنه وأبدله مكانه فرجاً. ـ وفي بعض النسخ فرحًا بالحاء المهملة ـ فقيل يا رسول الله: ألا نتعلمها؟ قال بلى ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها»[1].

فهذا الحديث نص ظاهر على أن العدد غير محصور بتسعة وتسعين فقط.

ـ ومن ذلك أيضًا قوله ﷺ في حديث الشفاعة «فأقوم فآتي تحت العرش. فأقع ساجدا لربي عز وجل، ثم يفتح الله عليّ ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتحه على أحد قبلي..»[2].

ففي هذا الحديث دليل أيضًا على أن أسماءه وصفاته غير محصورة لأن الذي ستأثر به في علم الغيب عنده غير هذا الوارد المعروف بدليل قوله ﷺ «لم يفتح على أحد قبلي» ومعلوم أن الدعاء لا يكون بغير أسمائه تعالى وصفاته، فهي زائدة على تسعة وتسعين ولا يجوز حصرها عليها، لأنها محامده تعالى ومدائحه وفواضله وهي غير متناهية، فبطل بهذا قول ابن حزم ومن وافقه.

---

(١) رواه أحمد في المسند ١/ ٣٩١، ٤٥٢، والحاكم في المستدرك ١/ ٥٠٩، وغيرهما وعزاه الهيثمي في مجمع الزوائد ١٠/ ١٣٦ أيضًا لأبي يعلى والبزار والطبراني ثم قال (ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني وقد وثقه ابن حبان)، وقد صحح الحديث الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ٣٣٦ برقم ٩٩ وفي تخريج الكلم الطيب ص ٧٣ وكذلك صححه أحمد شاكر في شرح المسند ٥/ ٢٦٦ـ٢٦٨، ٦/ ١٥٣.

(٢) رواه البخاري في كتاب التفسير (١٧) سورة الإسراء باب ذرية من حملنا مع نوح ٨/ ٢٤٧ برقم ٤٧١٢ ومسلم في كتاب الإيمان باب أدني أهل الجنة منزلة فيها ٣/ ٥٦، برقم ٣٢٧ وأحمد ٢/ ٤٣٦.

٣ ـ رأي الإمام النووي في حصر أسماء الله.

وافق الإمام النووي رحمه الله جمهور العلماء في كون أسماء الله تعالى غير محصورة بعدد معين، وقد ضعف الحديث الذي رواه الترمذي[١] والذي فيه ذكر تسعة وتسعين اسمًا فقال: (واتفق العلماء على أن هذا الحديث ليس فيه حصر لأسمائه سبحانه وتعالى. فليس معناه أنه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين وإنما مقصود الحديث أن الحديث الوارد في ذكر هذه الأسماء، قد ضعفه وأعله غير واحد من العلماء، وبينوا بأن سرد الأسماء إدراج من بعض الرواة وليس من كلام النبي ﷺ، وقد تفرد بعض الرواة بذكر الأسماء مطولاً وقد خالف غيره من الثقات بذلك، وعليه فالحديث ضعيف بذكر الأسماء التسعة والتسعين أما بدون ذكر الأسماء فهو متفق عليه[٢].

قال الإمام النووي « معناه أنه ليس له أسماء غير هذه التسعة والتسعين وإنما مقصود الحديث أن هذه التسعة والتسعين من أحصاها دخل الجنة. فالمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها لا الإخبار بحصر الأسماء ولهذا جاء في الحديث الآخر «أسألك بكل اسم سميت به نفسك أو استأثرت به في علم الغيب عندك وقد ذكر الحافظ أبو بكر بن العربي المالكي عن بعضهم أنه قال: لله تعالى ألف اسم قال ابن العربي وهذا قليل فيها والله أعلم)[٣].

---

(١) هو الحافظ الإمام البارع، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك السلمي الترمذي، مصنف (الجامع) وكتاب العلل وغيرهما ولد في حدود سنة ٢١٠هـ وتوفي سنة ٢٧٩ هـ بترمذ. انظر سير أعلام النبلاء ١٣/ ٢٧٠، وتذكرة الحفاظ (٢/ ٦٣٣) وتهذيب التهذيب ٩/ ٣٨٧، وطبقات الحفاظ ص٢٧٨.

(٢) انظر شرح السنة ٥/ ٣٥ ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ٦/ ٣٧٩، ٢٢/ ٨٤٢. وبدائع الفوائد ١/ ١٦٦، وميزان الاعتدال ٢/ ٦٢٧، والجرح والتعديل ٥/ ٣٨٠، وفتح الباري ١١/ ٢١٨ـ٢٢٠ وغيرها.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٥/ ١٧.

وقد أصاب الإمام النووي رحمه الله في ما ذهب إليه هو والعلماء الذين نقل اتفاقهم من أن أسماء الله ليست محصورة في عدد معين، وما ذهب إليه الإمام النووي يكاد ينعقد الإجماع عليه، ولقد نقل الحافظ ابن حجر في كتابه (الفتح» مذهب النووي هذا ووافقه عليه[1].

كما أن ما ورد عن بعض العلماء أنها ألف وخمسمائة، فتلك دعوىٰ لا دليل عليها، لأن من أسمائه سبحانه ما استأثر عز وجل بعلمه، فكيف لنا أن نصل إلىٰ حصرها وعدّها.

٤ ـ معنى الإحصاء في حديث «من أحصاها دخل الجنة»

اختلف العلماء رحمهم الله في معنىٰ الإحصاء الذي ورد في الحديث «من أحصاها دخل الجنة» فذهب الكثير منهم إلىٰ أن المراد به حفظها[2] مستدلين برواية البخاري «لا يحفظها أحد إلا دخل الجنة»[3]، وقيل: أحصاها أي قرأها كلمة كلمة كأنه يعدها، وقيل علمها وتدبر معانيها واطلع علىٰ حقائقها، وقيل: أطاق القيام بحقها، وقيل: عرفها، وقيل: عدها وحفظها، وقيل: هو العمل والتعقل بمعانيها والإيمان بها، وقيل: عرفها، وقيل: عدها وحفظها، ويتضمن ذلك الإيمان بها والتعظيم لها، والرغبة فيها، والإعتبار بمعانيها، إذ ليس المراد بالإحصاء عدها، لأنه قد يعدها الفاجر، وإنما المراد العمل بها والقيام بعبوديتها[4].

رأي الإمام النووي:

مال الإمام النووي إلىٰ القول بأن معنىٰ الإحصاء الوارد في الحديث هو بمعنىٰ (حفظها)، ولقد أشار إلىٰ أن هذا هو قول المحققين منهم الإمام البخاري وغيره فقال:

---

(١) فتح الباري، ص ٢٢/ ١١.

(٢) انظر الأسماء والصفات للبيهقي ص ١٣، وشرح صحيح مسلم ١٧/ ٥، وفتح الباري ١١/ ٢٢٩.

(٣) تقدم تخريجه ص ٤٢٥.

(٤) انظر فتح الباري ١١/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠.

(اختلفوا في المراد بإحصائها فقال البخاري وغيره من المحققين معناه حفظها وهذا هو الأظهر لأنه جاء مفسراً في الرواية الأخرى (من حفظها) وقيل أحصاها عدها في الدعاء بها، وقيل أطاقها أي أحسن المراعاة لها والمحافظة على ما تقتضيه وصدق بمعانيها. وقيل معناه العمل بها والطاعة بكل اسم والإيمان بها لا يقتضي عملاً، وقال بعضهم: المراد حفظ القرآن وتلاوته كله لأنه مستوف لها وهو ضعيف والصحيح الأول»[1].

القول الراجح في هذه المسألة:

فالإمام النووي - رحمه الله - ذكر هذه الآراء، وعين الرأي الذي يختاره، ونقل أن هذا الرأي هو رأي المحققين وهم الأكثرية الذي منهم الإمام البخاري والذين يرون أن المراد بالإحصاء هو الحفظ. وأن معنى من أحصاها أي من حفظها. وهذا القول للإمام النووي - رحمه الله - نقله عنه الحافظ ابن حجر في كتابه (الفتح) وعلق عليه بقوله: وأنه قال، وهذا هو الأظهر لثبوته نصاً في الخبر[2]. ثم علق عليه أيضاً بقوله: قلت: وفيه نظر لأنه لا يلزم من مجيئه بلفظ حفظ تعيين السرد وعن ظهر قلب، بل يحتمل الحفظ المعنوي»[3].

فهو يرى أن الحفظ يحتمل الحفظ الحسي الذي هو السرد عن ظهر قلب والحفظ المعنوي الذي هو فهم معانيها والعمل بها ولعل هذا الرأي هو الراجح والله أعلم.

أما بقية الأقوال التي ذكرها الإمام النووي وهي «وقيل من أحصاها عدها في الدعاء بها وقيل أطاقها أي أحسن المراعاة لها والمحافظة على ما تقتضيه وصدق

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٧/٥.

(٢) فتح الباري، ص ١١/٢٢٦.

(٣) انظر: نفس المصدر.

بمعانيها، وقيل معناه: العمل بها والطاعة بكل اسم والإيمان بها لا يقتضي عملاً، وقال بعضهم حفظ القرآن وتلاوته كله لأنه مستوف لها وهو ضعيف والصحيح الأول»[1].

فهذه الأقوال التي نقلها الإمام النووي - رحمه الله - لبيان المراد بإحصاء أسماء الله تعالى كما ورد في الحديث، وأغلب - هذه الأقوال - كما يظهر متقارب ويمكن رد بعضها إلى بعض وهي أيضًا في مجملها أقوال صحيحة تتضمن المفهوم الأكمل للإحصاء، وأنه على مراتب[2]. وأن للعبد الثواب قدر ما بلغ منها في الإحصاء مع إخلاص النية لله تعالى، ومع أن الإمام النووي ضعفها وبالذات الأخير منها بقوله والصحيح الأول. فإن قوله بالتضعيف للأقوال الأخرى ذلك لأن القول الصحيح عنده يؤيده أمرين:

(١) كونه ورد في بعض طرق الحديث، كما سبق.

(٢) وكونه هو معنى الإحصاء في اللغة، كما أن ما يؤيد الأقوال الأخرى أن ليس المقصود حفظ الحروف فحسب، بل مع العلم والعمل، كما قال تعالى: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾[3] كما أن الإمام ابن تيمية، قد تكلم على حديث سرد الأسماء أيضًا، وذكر أنه ليس من كلام النبي ﷺ باتفاق أهل المعرفة بالحديث، وأن الوليد[4] جمعه عن بعض شيوخه لما جاء مفسراً في بعض طرق حديثه»[5].

---

(١) شرح صحيح مسلم ص ١٧/٥.

(٢) انظر بدائع الفوائد، ص ١/١٦٤.

(٣) سورة التوبة، آية: [١١٢].

(٤) هو الوليد بن مسلم الإمام، عالم أهل الشام أبو العباس الدمشقي مولى بني أمية كان من أوعية العلم ثقة حافظا، لكن رمي بالتدليس ولد سنة تسع عشرة ومئة قال الإمام أحمد بن حنبل ليس أحد أروى لحديث الشاميين من الوليد بن مسلم. مات الوليد في شهر المحرم سنة خمس وتسعين ومئة. انظر: تهذيب سير أعلام النبلاء ص ١/٣١٩.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام، ص ٦/٣٧٩.

المسألة الخامسة : اسم الله الأعظم

جاء في كثير من الأحاديث أن لله تعالى إسماً أعظم إذا دعي به أجاب، وإذا سئل به أعطى، ولذا كان لهذا الاسم ومعرفته شأن عظيم عند العلماء قديماً وحديثاً وتكلم فيه الناس كثيراً بحق وبباطل.

١ - رأي الإمام النووي: ذهب الإمام النووي إلى أن اسم الله الأعظم غير معين. ولقد تطرق - رحمه الله - في كلامه لهذه المسألة فقال - رحمه الله - «وقد روى أن الله هو اسمه الأعظم قال أبو القاسم الطبري «وإليه ينسب كل اسم له فيقال: «الرؤوف والكريم من أسماء الله تعالى، ولا يقال من أسماء الرؤوف أو الكريم الله»[(١)].

* وفي قول آخر له تحدث فيه عن تعيين أسماء الله تعالى وأنها مسألة مخفية، كما أن الإسم الأعظم لله تعالى مخفي فقال: «وقيل أنها مخفية التعيين كالاسم الأعظم وليلة القدر ونظائرها»[(٢)].

٢ - الرأي الراجح:

ما ذكره الإمام النووي - رحمه الله - من أن الاسم الأعظم غير متعين كالأسماء الحسنى التسعة والتسعين ليست متعينة لأن كلاً منهما لم يثبت تعيينه بدليل قطعي الدلالة فيجب المصير إليه، ولذا الإمام النووي - رحمه الله - قد اجتهد في هذه المسألة كما اجتهد غيره من العلماء في تعيين الاسم الأعظم وفي تعيين سائر الأسماء ووصل في اجتهاده إلى أنه غير معلوم ومحدد. حيث أن العلماء انقسموا في شأن الإسم

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٧/٥، كتاب الذكر.

(٢) نفس المصدر.

الأعظم إلى ثلاثة فرق ذكرهم الحافظ ابن حجر في كتابه الفتح فقال:

١ ـ فريق أنكره، وبنوا إنكارهم على أنه يلزم من إثباته أن يكون بعض أسماء الله تعالى أفضل من بعض[1] فقالوا: لا يجوز تفضيل بعض الأسماء على بعض» وحملوا ما ورد من ذلك على أن المراد بالأعظم: العظيم، وأن أسماء الله كلها عظيمة».

وذكر الحافظ من هؤلاء: أبا جعفر الطبري، وأبا الحسن الأشعري، وجماعة بعدهما، كأبي حاتم بن حبان والقاضي أبي بكر الباقلاني.

٢ ـ وفريق قالوا: استأثر الله تعالى بعلم الإسم الأعظم، ولم يطلع عليه أحد من خلقه ولم يشير الحافظ إلى أحد ممن قال بهذا من العلماء[2].

٣ ـ وفريق آخرون أثبتوا الاسم الأعظم معيناً، إلا أنهم لم يتفقوا في تعيينه بل اضطربوا في ذلك. قال الحافظ: «وجملة ما وقفت عليه من ذلك أربعة عشر قولاً ثم ذكرها قولاً قولاً..»[3] وذكر من ضمنها القولين السابقين للإمام النووي رحمه الله.

أما بالنسبة لقوله الأول وهو أن الله هو الاسم الأعظم ذهب إليه الإمام أبو

---

(١) قد تكلم شيخ الإسلام ابن تيمية على مسألة تفاضل أسماء الله وصفاته، وبين أن قول من قال: أسماء الله وصفاته لا تفاضل، قول لا دليل عليه، بل هو مورد النزاع، وقال بأن تفاضل الأسماء والصفات من الأمور البينات، قال: «وكما أن أسماؤه وصفاته متنوعة، فهي أيضًا متفاضلة، كما دل على ذلك الكتاب والسنة والإجماع مع العقل» قال: وإنما شبهة من منع تفاضلها من جنس شبهة من منع تعددها وذلك يرجح إلى نفي الصفات، كما يقوله الجهمية لما ادعوه من التركيب» مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ص ٢١١ـ٢١٢/ ١٧.

(٢) انظر: فتح الباري ص ٢٢٤ـ٢٢٥/ ١١.

(٣) انظر كتاب الفتح، ص ٢٢٤ـ٢٢٥/ ١١.

عبدالله بن منده في كتابه «التوحيد» واستدل بكونه معرفة ذاته عز وجل، حيث منع أن يسمى به أحد من خلقه، أو يدعى به إله من دونه[1] ومال إلى هذا الإمام القرطبي في تفسيره[2] ويرى الإمام ابن القيم أن الله هو الاسم الأعظم [3]وفي كلام لشيخ الإسلام ابن تيمية رجح فيه أن الإسم الأعظم هو «الحي» بدليل وروده في أعظم آية في القرآن وهي قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[4] ولأن اسم (الحي) مستلزم لجميع الصفات وهو أصلها، بحيث لو اكتفى في الصفات بالتلازم لاكتفى بالحي»[5].

فالمسألة لم يرد فيها كما ذكر دليل قطعي الدلالة يجب المصير إليه، ولذا اجتهد العلماء في تعيينه كما اجتهدوا في تعيين سائر الأسماء والله أعلم.

المسألة السادسة: حقيقة الاسم والمسمى

هذه القضية من القضايا الرئيسية التي كثر النزاع فيها بين المسلمين، وقد تعرض الإمام النووي لها بإيجاز شديد، وقبل بيان رأيه في ذلك لابد أن أذكر أولاً وبصورة مجملة هذه الآراء التي فصلها شيخ الإسلام ابن تيمية[6] - رحمه الله - منبهاً إلى أن هذا الخلاف قد وقع بعد عصر الأئمة الأربعة، وتتلخص المذاهب في ذلك بخمسة أقوال هي:

---

(١) كتاب التوحيد لابن منده، ص ٢١/ ٢، تحقيق: د. علي بن محمد بن ناصر الفقيهي.

(٢) تفسير القرطبي «الجامع لأحكام القرآن» ص ١٠٢/ ١.

(٣) مدارج السالكين لابن منازل (إياك نعبد وإياك نستعين) ص ٥٥ - ٥٦/ ١.

(٤) سورة البقرة، آية: [٢٥٥].

(٥) انظر: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية، ص ٣١١/ ١٨.

(٦) انظر تفصيل هذه الأقوال وأسماء القائلين بها وأدلتهم في مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٦/ ١٨٥ - ١٨٩.

المذاهب في حقيقة الإسم والمسمى:

المذهب الأول: أن الاسم هو المسمى (أو عين المسمىٰ) وهو رأي أكثر المنتسبين إلىٰ السنة كاللالكائي[1] والبغوي وغيرهم، وهو أحد قولي أصحاب أبي الحسن الأشعري والذي اختاره ابن فورك[2] وغيره[3].

المذهب الثاني: أن الاسم غير المسمى: وهو رأي الجهمية والمعتزلة وتابعهم في ذلك جماعة من الأشاعرة كالغزالي[4] والرازي[5].

وقد بني الجهمية رأيهم هذا علىٰ أن أسماء الله مخلوقة، وما دامت كذلك فهي

---

(١) هو أبو القاسم، هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري الرازي الشافعي اللالكائي، الإمام الحافظ المجود المفتي، محدث بغداد، صنف كتاب شرح السنة وغيره وعاجلته المنية، خرج إلىٰ الدينور فادركه أجله بها في شهر رمضان سنة ٤١٨هـ، انظر سير أعلام النبلاء ١٧/ ٤١٩، وشذرات الذهب ٣/ ٢١١.

(٢) هو محمد بن الحسن بن فورك، متكلم أصولي، أديب نحوي واعظ من فقهاء الشافعية، صاحب المصنفات العديدة منها شرح مشكل الحديث الذي سار فيه علىٰ منهج الأشاعرة، توفي سنة (٤٠٦)هـ انظر ترجمته في: وفيات الأعيان ٤/ ٢٧٢ وطبقات الشافعية للسبكي ٣/ ٥٢ ـ ٥٦.

(٣) عزا البيهقي هذا الرأي للإمام الشافعي، والحارث المحاسبي، وأبي عبيد القاسم بن سلام انظر الاعتقاد للبيهقي ٢٧، وشعب الإيمان له ١/ ١٢٥ ـ ١٢٦ بتحقيق زغلول.

(٤) هو أبو حامد، محمد بن محمد الغزالي الطوسي، أحد علماء المسلمين، كان فيلسوفًا متصوفًا، له كثير من المصنفات، من أشهرها إحياء علوم الدين والمنقذ من الضلال، توفي سنة (٥٠٥هـ) وكانت خاتمة أمره إقباله علىٰ حديث الرسول ﷺ ومجالسة أهله ومطالعة الصحيحين، قال عنه شيخ الإسلام نقلاً عن ابن الصلاح (أبو حامد كثر القول فيه ومنه فأما هذه الكتب ـ يعني المخالفة للحق ـ فلا يلتفت إليها، وأما الرجل فيسكت عنه ويفوض أمره إلىٰ الله) انظر: نقض المنطق لشيخ الإسلام ص ٥٥ ـ ٦١، وطبقات الشافعية للسبكي ٤/ ١١١.

(٥) هو أبو عبدالله محمد بن عمر بن الحسين الفخر الرازي العالم المفسر، كان إمامًا من أئمة الفلسفة والكلام فمن الله عليه بالهداية إلىٰ مذهب السلف آخر حياته، له مؤلفات عديدة منها مفاتيح الغيب في التفسير وشرح الأسماء الحسنىٰ، ولد سنة ٥٤٤هـ، وتوفي سنة (٦٠٦هـ). انظر ترجمته في: البداية والنهاية ١٣/ ٥٥، وسير أعلام النبلاء ٢١/ ٥٠٠.

غيره، وهؤلاء هم الذين ذمهم السلف - كما قال شيخ الإسلام - وغلظوا القول فيهم، لأن أسماء الله من كلامه وكلامه غير مخلوق بل هو المتكلم به وهو المسمىٰ لنفسه بما شاء من الأسماء[1].

وقد ناصر هذا المذهب بشدة ابن حزم - غفر الله له - وبالغ في تأييده والتشنيع علىٰ أصحاب القول الأول[2].

المذهب الثالث: التوقف، وهو قول جماعة من السلف منهم الإمام الحربي[3] وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله عن أصحاب هذا المذهب أنهم توقفوا في ذلك نفياً وإثباتاً، أي أنهم لا يقولون إن الاسم هو المسمىٰ ولا غيره إذ كل من الإطلاقين بدعة بنظرهم، لأنه لا يعرف في ذلك قول لأحد من الأئمة كما قالوا.

المذهب الرابع: أن الاسم للمسمى، وهو إختيار أكثر المنتسبين إلىٰ السنة من أصحاب الإمام أحمد وغيره.

المذهب الخامس: التفصيل، فتارة يراد بالاسم المسمىٰ، وتارة يكون غيره، وتارة لا يكون هو ولا غيره، وقد ذكر شيخ الإسلام أن هذا المذهب هو المشهور عن أبي الحسن الأشعري وفصل طريقته في ذلك[4].

ولسنا بحاجة إلىٰ الإطالة في بيان هذه الأقوال وأدلتها إذ المراد هو معرفة رأي الإمام النووي في ذلك ومدىٰ موافقته للصواب في ذلك.

---

(١) انظر: مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ٦/ ١٨٦.

(٢) انظر الفصل في الملل والأهواء والنحل ٥/ ٢٧ - ٣٦.

(٣) هو الإمام الحبر، أبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق بن بشير الحربي، كان حافظًا ثقة ثبتًا، تفقه علىٰ الإمام أحمد بن حنبل وبرع في العلم، من كتبه غريب الحديث ولد سنة (١٩٨هـ) وتوفي سنة (٢٨٥هـ). انظر ترجمته في تاريخ بغداد ٦/ ٢٧، وشذرات الذهب ٢/ ١٩٠.

(٤) انظر: تفصيل هذا المذهب في مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ٦/ ١٨٨ - ١٨٩.

- رأي الإمام النووي في حقيقة الاسم والمسمى:

اختار الإمام النووي - رحمه الله - المذهب الأول من الأقوال السابقة فقال في شرحه حديث (إن لله تسعة وتسعين اسمًا) المتقدم. قال النووي: (قال الإمام أبو القاسم القشيري وفيه دليل على أن الاسم هو المسمى إذ لو كان غيره لكانت الأسماء لغيره لقوله تعالى: ﴿ولله الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾[1])[2].

وقال أيضًا نقلاً عن القاضي عياض: (ولا شك عند القائلين بأن الاسم هو المسمى من أهل السنة وجماهير أهل اللغة أو مخالفيهم من المعتزلة)[3].

قلت: ما اختاره الإمام النووي فيما نقله عن الإمام القشيري والقاضي عياض، والذي نسب هذا القول لأهل السنة مردود، فإن جمهور أهل السنة لم يختاروا هذا المذهب، بل اختاروا التفصيل في هذا الأمر الذي هو مذهبهم كما سيأتي، كما إن القول بأن الاسم هو المسمى لا دليل صريح عليه، لأن عليه مآخذ كثيرة لا مجال لذكرها هنا)[4].

- الراجح في المسألة:

الراجح في هذه المسألة هو ما اختاره جمهور أهل السنة والمحققون منهم - كشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وشارح الطحاوية وغيرهم - وهو التفصيل في ذلك (فإن الاسم يراد به المسمى تارة، ويراد به اللفظ الدالة عليه أخرى. فإذا قلت قال

---

(١) سورة الأعراف، الآية: [١٨٠].

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٥/ ١٧.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٦٥/ ١٥.

(٤) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٦/ ١٩٠ - ٢٠٢، وفتح القدير ١/ ١٨.

الله كذا أو سمع الله لمن حمده ونحو ذلك، فهذا المراد به المسمى نفسه، وإذا قلت الله اسم عربي والرحمن اسم عربي والرحيم من أسماء الله تعالى ونحو ذلك، فالاسم ههنا هو المراد لا المسمى ولا يقال غيره لما في لفظ الغير من الإجمال، فإن أريد بالمغايرة أن اللفظ غير المعنى فحق، وإن أريد أن الله سبحانه كان ولا اسم له حتى خلق لنفسه أسماء أو حتى سماه خلقه بأسماء من صنعهم فهذا من أعظم الضلال والإلحاد في أسماء الله)[1].

وهذا التفصيل كما ترى سليم بعيد عن التعقيد، وهو موافق لصريح الكتاب والسنة وللمعقول أيضًا لأن الله تعالى قال عن نفسه: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾[2]. وقال: ﴿أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾[3] وقال رسول الله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا»[4].

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - أن أصحاب هذا الرأي - وهم جمهور أهل السنة - إنما يلجأون إلى التفصيل الآنف الذكر عندما يسألون هل الاسم هو المسمى أم غيره. وقد ردّ على الذين زعموا بأن الاسم هو المسمى ردًا علميًا دقيقًا وبيَّن بأنه لا دليل لهم فيه ودحض ما استدلوا به بكلام نفيس يطول ذكره[5].

ولا شك أن في التفصيل الوارد عن جماهير السلف عند الحاجة إليه الغنية عن كل قول سواه لأنه هو الصواب المستند إلى الشرع والعقل معًا.

---

(١) شرح الطحاوية، ص ١٠٢/١.

(٢) سورة الأعراف، آية: [١٨٠].

(٣) سورة الإسراء، آية: [١١٠].

(٤) تقدم تخريجه، ص ٤٢٥.

(٥) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٦/ ١٩١-٢٠٦.

المسألة السابعة

أسماء وصفات لا يصح إطلاقها على الله تعالى

١ ـ تسميته تعالى بالدهر:

قال ـ رحمه الله ـ (قوله سبحانه وتعالى: «يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر بيدي الليل والنهار» وفي رواية قال الله عز وجل: «يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر أقلب الليل والنهار» وفي رواية «يؤذيني ابن آدم فيقول يا خيبة الدهر فإني أنا الدهر أقلب ليله ونهاره فإذا شئت قبضتهما» وفي رواية: «ولا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر» أما قوله عز وجل« يؤذيني ابن آدم» فمعناه يعاملني معاملة توجب الأذى في حقكم وأما قوله عز وجل: «أنا الدهر» فإنه برفع الراء هذا هو الصواب المعروف الذي قاله الشافعي وأبو عبيد وجماهير المتقدمين والمتأخرين وقال أبو بكر ومحمد بن داود الاصبهاني الظاهري[1] إنما هو الدهر بالنصب على الظرف أي أنا مدة الدهر أقلب ليله ونهاره وحكى ابن عبدالبر هذه الرواية عن بعض أهل العلم وقال النقاش يجوز النصب أي فإن الله باقٍ مقيم أبدًا لا يزول[2]. قال القاضي « قال بعضهم: هو منصوب على التخصيص، قال: الظرف أصح وأصوب، أما رواية الرفع وهي الصواب فموافقة لقوله «فإن الله هو الدهر» قال العلماء: وهو المقصود من المجاز

---

(١) هو محمد بن داود بن علي بن خلف الظاهري، إمام ابن إمام، مشهور كأبيه وهو حامل علمه وناقله بعده، ولد ببغداد سنة ٢٥٥، وبها عاش، ومات قتيلاً سنة ٢٩٧، تاريخ بغداد ص ٢٥٥ـ ٢٦٣/ ٥، ووفيات الأعيان ٢٥٩ـ ٢٦١/ ٤، وسير أعلام النبلاء ص ١٠٩ـ ١١٦/ ١٣.

(٢) وما ذكره النووي عن أبي بكر الظاهري ذكره الخطابي في شأن الدعاء ص ١٠٧ـ ١٠٩، ومعالم السنن ١٥٩/ ٤، وابن حجر في الفتح ص ٥٧٥/ ٨.

وسببه أن العرب كان شأنها أن تسب الدهر عند النوازل والحوادث والمصائب النازلة بها من موت، أو هرم، أو تلف مال، أو غير ذلك فيقولون: «يا خيبة الدهر»، ونحو هذا من ألفاظ سب الدهر[1].

ثم قال النووي ـ رحمه الله ـ فقال النبي ﷺ: «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر[2]» أي لا تسبوا فاعل النوازل فإنكم إذا سببتم فاعلها وقع السب على الله تعالى لأنه هو فاعلها ومنزلها وأما الدهر الذي هو الزمان فلا فعل له بل هو مخلوق من جملة خلق الله تعالى ومعنى فإن الله هو الدهر أي فاعل النوازل الحوادث وخالق الكائنات والله أعلم»[3].

وقول النووي ـ هنا يقرر أن الدهر ليس من أسماء الله تعالى، وهو الصواب الذي عليه أكثر العلماء وإن خالفهم فيه بعض من ـ العلماء ـ يظن أن الدهر من أسماء الله تعالى من أمثال: نعيم بن حماد[4] وطائفة من أهل الحديث والصوفية[5]، وهو أيضاً ما ذهب إليه ابن حزم وعده من الأسماء الحسنى[6].

---

(١) انظر: بعض ذلك في: تأويل مختلف الحديث ص ٢٦٣ ـ ٢٦٤، وفي التمهيد ص ١٥٤/ ١٨، وما بعدها. وفي مجموع الفتاوى ص ٤٩٣/ ٢. وفي تفسير ابن كثير ص ١٦٢/ ٤، عند قوله تعالى: ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾.

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ٤/ ١٥ برقم (٢٢٤٦) مكرر.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص ٤٠٣/ ١٥.

(٤) هو أبو عبدالله نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث، الخزاعي المروزي، نزيل مصر، فقيه عارف بالفرائض. صدوق يخطي كثيراً، مات سنة ٢٢٨. انظر ترجمته في: تهذيب التهذيب ص ٤٥٨ ـ ٤٦٣/ ١٠، وتقريب التهذيب (ص٥٦٤)، ترجمة (٧١٦٦).

(٥) نسب القول إلى هؤلاء الشيخ ابن تيمية في مجموع الفتاوى ٢٩٤/ ٢.

(٦) ذكره عنه القرطبي في الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، نقلاً عن ابن كثير في تفسيره، ص ١٦٣/ ٤. والتلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير لابن حجر العسقلاني، ص ١٧٣/ ٤، توزيع دار أحد، ص ١٧٣/ ٤، وتيسير العزيز الحميد، ص (٥٤٦ ـ ٥٤٧).

وهذا ليس بصحيح قطعًا، وإلا لكان قول الذين قالوا ﴿**وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ**﴾[1] صوابًا ولكانت مقولتهم هذه سدادًا، إذ يكونون قد نسبوا ذلك إليه سبحانه حقيقة، ولما كان ذلك فاسدًا، وعن الحق بعيدًا، ذموا عليه وعيبوا به، فقال تعالى: ﴿**وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ**﴾[2] وهذا وحده كافٍ في الرد على من سمى الجليل بهذا الاسم بنص القرآن.

قال أبو العباس القرطبي[3] ـ وهو يتحدث عن من روى الحديث بالنصب ـ والذي حمله ذلك خوف أن يقال: إن الدهر من أسماء الله تعالى. وهذا عدول عما صح إلى ما لم يصح. فإن الرواية الصحيحة عند أهل التحقيق بالضم. ولم يروا «الفتح» من يعتد به».

ولا يلزم من ثبوت «الضم» أن يكون الدهر من أسماء الله تعالى. لأن أسماء الله تعالى لابد فيها من التوقيف عليها، واستعمالها استعمال الأسماء من الكثرة والتكرار فيخبر به وعنه وينادى به. كما تبين في سائر أسماء الله تعالى، كالغفور والشكور والعليم والحليم، وغير ذلك من أسمائه، فإنك تجدها في الشريعة في لسان أهلها. تارة يخبر بها، وأخرى يدعى وينادي بها ولم يوجد للدهر شيء من ذلك، فلا يكون إسمًا من أسمائه تعالى[4].

---

(١) سورة الجاثية، الآية: [٢٤].

(٢) سورة الجاثية، الآية: [٢٤].

(٣) هو أحمد بن عمر بن إبراهيم الأنصاري الأندلسي الفقيه المالكي. يلقب بضياءالدين. ويعرف بابن المزين، ولد سنة ٥٧٨هـ، وتوفي بالاسكندرية سنة ٦٢٦، «كذا قال ابن مزمومة، وما وجدت هذا لغيره بل تؤرخ وفاته سنة ٦٥٦. انظر: الديباج المذهب ص ٢٤٠ـ٢٤٢/ ١، وحسن المحاضرة ص ٤٥٧/ ١.

(٤) المفهم في شرح مختصر مسلم. أو المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، للقرطبي ص ٥٤٨ـ ٥٤٩/ ٥.

وقال ابن كثير: (وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية في عدهم الدهر من الأسماء الحسنى أخذًا من هذا الحديث»[1].

وقال الشيخ سليمان بن عبدالله[2] بعد كلام له في الموضوع «فقد تبين بهذا خطأ ابن حزم في عده الدهر من أسماء الله الحسنى، وهذا غلط فاحش، ولو كان كذلك لكان الذين قالوا . . ﴿وما يُهْلِكُنَا إلاَّ الدَّهْرُ﴾[3] مصيبين»[4].

وبهذه النقول العلمية عن هؤلاء الأئمة ـ ومثلها مما لم أذكره ـ يتبين صحة ما ذهب إليه الإمام النووي ـ رحمه الله ـ من عدم عده الدهر اسم من أسماء الله تعالى وأما معنى الحديث فقد سبق بيانه عن الإمام النووي نفسه، ولا يخرج قوله فيه عما ذكره العلماء في تفسيرهم وشرحهم له وبيان المراد منه، وإن اختلفت في ذلك عباراتهم وتنوعت أساليبهم.

ولقد أشار الحافظ ابن حجر إلى خلاصة الآراء في معنى الحديث فقال: «ملخص ما قيل في تأويله ثلاثة أوجه: أحدها: أن المراد بقوله «إن الله هو الدهر» أي المدبر للأمور. ثانيها: أنه على حذف مضاف، أي: صاحب الدهر، ثالثها: التقدير

---

(١) تفسير ابن كثير ص ١٦٣/ ٤، عند قوله تعالى: ﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر﴾.

(٢) هو الشيخ سليمان بن عبدالله ابن الشيخ محمد بن عبدالوهاب، فقيه، محدث، مولده بمدينة الدرعية عام ١٢٠٠هـ، في أواخر أيام جده الشيخ ابن عبدالوهاب، مات رحمه الله قتيلاً سنة ١٢٣٣، علماء نجد خلال ستة قرون (٢٩٣ـ١٢٩٨، وهداية العارفين ص ٤٠٨/ ١، والأعلام ١٩١/ ٣.

(٣) سورة الجاثية، آية: [٢٤].

(٤) تيسير العزيز الحميد، ص ٦١١، طبعة المكتب الإسلامي ـ بيروت.

مقلب الدهر. ولذلك عقبه بقوله« بيدي الليل والنهار»[1].

وأرجح هذه الأوجه هو الثالث والأخير، لأنه يوافق سياق الحديث وقريب منه.

الوجه الثاني، أما الوجه الأول فليس عليه دليل كما سبق وبهذا يثبت أن «الدهر» ليس من أسماء الله تعالى.

ولابن القيم ـ رحمه الله ـ تعليق جميل على هذا الحديث، تضمن بيان المحاذير التي تترتب على سب الدهر الذي هو محل للحوادث وليس اسمًا من أسماء الله عز وجل فقال ـ رحمه الله ـ (في هذا ثلاث مفاسد:

الأولى: سبه من ليس بأهل من يسب، فإن الدهر هو خلق مسخر من خلق الله، منقاد لأمره، مذلل لتسخيره، فسابه أولى بالذم والسب منه.

الثانية: أن سبه متضمن للشرك، فإنه إنما سبه لظنه أن يضر وينفع، وأنه مع ذلك ظالم قد ضر من لا يستحق الضرر، وأعطى من لا يستحق العطاء، ورفع من لا يستحق الرفعة، وحرم من لا يستحق الحرمان، وهو عند شاتميه من أظلم الظلمة، وأسفار هؤلاء الظلمة الخونة في سبه كثيرة جدًا، وكثير من الجهال يصرح بلعنه وتقبيحه.

الثالثة: أن السب منهم إنما يقع على من فعل هذه الأفعال، التي لو اتبع الحق فيها أهواءهم لفسدت السموات والأرض، وإذا وقعت أهواؤهم حمدوا الدهر وأثنوا عليه وفي حقيقة الأمر فرب الدهر تعالى هو المعطي المانع، الخافض الرافع، المضر المذل، والدهر ليس له من الأمر شيء فمسبتهم للدهر مسبة لله عز وجل، ولهذا كانت مؤذية

---

(١) فتح الباري (ص ٥٦٥/٨).

تذرب تعالى)[1].

ولا شك أن ما قرره الإمام النووي سابقًا في هذه المسألة هو يوافق قول ابن القيم وغيره.

٢ ـ تسميته تعالى برمضان:

قال ـ رحمه الله ـ معقبًا على من ادعى تسميته ـ تعالى ـ بهذا الاسم: (وقولهم أنه اسم من أسماء الله تعالى ليس بصحيح ولم يصح فيه شيء وإن كان قد جاء فيه أثر ضعيف. وأسماء الله تعالى توقيفية لا تطلق إلا بدليل صحيح)[2].

والإمام النووي هنا يقرر أن هذا الإسم غير ثابت لله عز وجل، وقد علم أن أسماؤه توقيفية، ويحق للإمام النووي وغيره أن يرغب عنه ولا يقول به، ولا يعرف له وجه بحال في تلك النسبة الخاطئة.

قال النووي في كتاب التهذيب[3] (وقد صنف جماعة لا يحصون في أسماء الله تعالى مصنفات مبسوطة فلم يثبتوا هذا الاسم)[4].

وقال الخطابي موافقًا في ذلك ما ذهب إليه الإمام النووي قال ـ رحمه الله ـ (وها

---

(١) زاد المعد ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥ / ٢، لابن القيم الجوزية.

(٢) شرح صحيح للنووي، ص ١٦٥ / ٧، كتاب الصيام، وانظر: تهذيب الأسماء واللغات ص ١٢٧ / ٣. وتحرير ألفاظ التنبيه ص١٢٣، والأذكار ص ٤٠٩، تحقيق محيي الدين الشامي.

(٣) يعني تهذيب الأسماء واللغات للنووي.

(٤) المصدر نفسه ص ١٢٧ / ٣.

هنا حرف يروىٰ عن مجاهد[1] ، أنا مرتاب بصحته أبدًا ، وهو ما يروىٰ عنه قوله : لا يقولن أحدكم : جاء رمضان وذهب رمضان ، فلعله اسم من أسماء الله)[2] .

---

(١) هو أبو الحجاج مجاهد بن جبر المكي ، من أعلام التابعين ، لازم ابن عباس رضي الله عنهما ، فأخذ عنه علمًا كثيرًا حتىٰ أضحىٰ شيخًا للقراء والمفسرين ، وقد كان مولده سنة ٢١ ، ووفاته سنة ١٠٠ وقيل غير ذلك . انظر : سير أعلام النبلاء ص ٤٤٩ـ٤٥٧/ ٤ ، ومعرفة القراء الكبار ص ٦٦ـ ٦٧/ ١ ، وشذرات الذهب ص ١٢٥/ ١ .

(٢) روىٰ بن عدي في الكامل (ص٥٢/ ٧) بسنده حديثًا عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا لا تقولوا رمضان ، فإن رمضان اسم من أسماء الله تعالىٰ ، ولكن قولوا شهر رمضان . وفي سنده أبو معشر نجيح السندي . وقد نقل بن عدي تضعيفه عن جمع من أهل العلم في الموضع المذكور . انظر : مختصر الكامل في الضعفاء للإمام تقي الدين المقريزي ، ص ٧٦٦ ، ترجمته رقم ١٩٨٤ ، وعلل الحديث لابن عدي ، وكذا رواه البيهقي في سننه ص ٢٠١ـ٢٠٢/ ٤ ، ونقل أيضًا تضعيفه عن يحيىٰ بن معين ويحيىٰ القطان ، ثم ساق ـ أي البيهقي ـ سنده . عن بن كعب قال : «لا تقولوا رمضان ، فإن رمضان اسم من أسماء الله عز وجل ، ولكن قولوا : شهر رمضان» ثم قال البيهقي : ورروىٰ ذلك عن مجاهد والحسن البصري والطريق إليهما ضعيف .

قال الذهبي في المغني . ص ٣٤٨/ ٢ ، وفي ترجمة نجيح السندي ، مشهور عن أصحاب أبي هريرة ليس بالعمرة ، قال ابن معين : ليس بقوي ، كان أميًا يتقىٰ من حديثه المسند ، وقال أحمد : كان بصيرًا بالمغازي ، وقال ابن مهدي ، تعرف وتنكر ، وقال النسائي والدارقطني : ضعيف ، وقال البخاري : منكر الحديث ، وقال ابن معين : ليس بشي .

انظر : تفسير الطبري ص ١٤٤/ ٢ ، وبدائع الفوائد ص ١٠٤/ ٢ ، وتفسير ابن كثير ص ٢٢٢/ ١ ، وفتح الباري ص ١١٣/ ٤ ، واللآلئ المصنوعة ص ٨٣/ ٢ تخريج أبو عبدالرحمن بن عويضة ، وتنزيه الشريعة ص ١٥٣/ ٢ لأبي الحسن بن علي بن عراق الكنعاني .

حدثنا ابن السماك، قال: حدثنا يحيى بن أبي طالب[1] قال: حدثنا عبدالوهاب ابن عطاء[2] قال: حدثنا طلحة بن عمرو عن حميد الأعرج عن مجاهد قال ذلك وهذا شيء لا أعرف له وجهًا بحال، وأنا أرغب عنه ولا أقول به)[3].

* * *

(١) هو أبو بكر جعفر بن عبدالله بن الزبرقان، محدث مشهور، وثقه الدارقطني وغيره. توفي سنة ٢٧٥. انظر: تاريخ بغداد ص ٢٢٠ ـ ٢٢١/ ١٤، وسير أعلام النبلاء ص ٦١٩ ـ ٦٢٠/ ١٢، ولسان الميزان ص ٢٦٢ ـ ٢٦٣/ ٦.

(٢) هو أبو نصر عبدالوهاب بن مضر الخفاق البصري، إمام محدث، سكن بغداد وأخذ عنه الإمام أحمد، توفي في آخر سنة ٢٠٤، وقيل غير ذلك. انظر: تاريخ بغداد ٢١ ـ ٢٥/ ١١، وتذكر الحفاظ ص ٣٣٩/ ١، وتهذيب التهذيب ٤٥٠ ـ ٤٥٣/ ٦.

(٣) شأن الدعاة، ص ١٠٩ ـ ١١٠.

المسألة الثامنة

الأسماء التي أثبتها الإمام النووي وشرح بعضها

تعرض الإمام النووي ـ رحمه الله ـ لشرح بعض الأسماء الحسنى التي ورد ذكرها في بعض الأحاديث، أو ذكرها هو لمناسبة ما، وقد بلغ عدد الأسماء التي وقفت عليها مشروحه عنده في شرحه لصحيح مسلم واحد وعشرين اسمًا، والتي لم يشرحها ثلاثين إسمًا وبيان ذلك فيما يلي:

١ ـ **الظاهر**: قال الإمام «وأما معنى الظاهر من أسماء الله فقيل: هو من الظهور بمعنى الغلبة وكمال القدرة، ومن ظهر فلان على فلان. وقيل: الظاهر بالدلائل القطعية»(١).

٢ ـ **الباطن**: قال الإمام: «والباطن احتجب عن خلقه، وقيل العالم بالخفيات»(٢).

٣ ـ **الآخر**: قال الإمام: «وأما تسميته سبحانه بالآخر، فقال الإمام أبو بكر الباقلاني: معناه الباقي بصفاته من العلم والقدرة وغيرها التي كان عليها في الأزل ويكون كذلك بعد موت الخلائق وذهاب علومهم وقدرهم وحواسهم وتفرق أجسامهم، قال وتعلقت المعتزلة بهذا الاسم فاحتجوا به لمذهبهم في فناء الأجسام وذهابهم بالكلية، قالوا: ومعناه الباقي بعد فناء خلقه ومذهب أهل الحق خلاف ذلك، وأن المراد الآخر بصفاته بعد ذهاب صفاتهم، ولهذا يقال آخر من بقي من بني فلان

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٣٠/ ١٧، كتاب الذكر باب الدعاء عند النوم.

(٢) المصدر نفسه، ص ٣٠/ ١٧.

فلان يراد حياته ولا يرد فناء أجسام موتاهم وعدمها هذا كلام ابن الباقلاني)[1].

٤ ـ **الباقي**: قد سبق أن شرحه الإمام نقلاً عن الباقلاني وهو عندهم بمعنى الآخر[2].

٥ ـ **الصبور**: قال الإمام (قال القاضي: والصبور من أسماء الله تعالى وهو الذي لا يعاجل العصاة بالانتقام وهو بمعنى الحليم في أسمائه سبحانه وتعال)[3].

٦ ـ **الحليم**: قال الإمام: (والحليم هو الصفوح مع القدرة على الانتقام)[4].

٧ ـ **الرفيق**: قال الإمام بعد إثباته لهذا الاسم قال قال المازري (ويحتمل أن يكون الرفيق صفة فعل وهي ما يخلقه الله تعالى من الرفق لعباده هذا آخر كلام المازري)[5].

٨ ـ **الجميل**: قال الإمام «اختلفوا في معناه فقيل أن معناه أن كل أمره سبحانه وتعالى حسن جميل وله الأسماء الحسنى وصفات الجمال والكمال، وقيل جميل بمعنى مجمل ككريم وسميع بمعنى مكرم ومسمع قال الإمام أبو القاسم القشيري ـ رحمه الله ـ معناه الجليل، وحكى الإمام أبو سليمان الخطابي أنه بمعنى ذي النور والبهجة أي مالكهما وقيل معناه جميل الأفعال بكم باللطف والنظر إليك يكلفكم اليسير من العمل ويعين عليه ويثبت عليه الجزيل ويشكر عليه واعلم أن هذا الاسم ورد في هذا الحديث الصحيح ولكنه من أخبار الآحاد، وورد أيضاً في حديث الأسماء الحسنى وفي إسناده مقال والمختار جواز إطلاقه على الله تعالى ومن العلماء من منعه»[6].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٧/٣٠، كتاب الذكر باب الدعاء عند النوم.

(٢) شرح صحيح مسلم ص ١٧/٣٠، وانظر ص ٢١٢ من الرسالة.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٧/١٢١، كتاب صفات المنافقين، باب في الكفار.

(٤) نفس المصدر، ص ١٧/١٢١.

(٥) المصدر السابق ص ١٦/١٢٠، كتاب البر والصلة، بال فضل الرفق.

(٦) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٢/٧٨، كتاب الإيمان باب تحريم الكبر وبيانه.

٩ ـ **الملك**: قال الإمام «قوله اللهم أنت الملك» أي القادر على كل شيء المالك الحقيقي لجميع المخلوقات[(١)] وقال في موضع آخر: «لقد حكمت بحكم الملك» الرواية المشهورة «الملك بكسر اللام وهو الله سبحانه وتعالى . . .»[(٢)].

١٠ ـ **القادر**: وهو ثابت في كلامه عند بيان معنى إسم الملك.

١١ ـ **السبوح**: قال الإمام: «سبوح . . . وقال بن فارس والزبيدي وغيرهما: سبوح هو الله عز وجل فالمراد بالسبوح القدوس المسبح المقدس فكأنه قال سبّح مقدّس رب الملائكة والروح، ومعنى سبوح المبرأ من النقائص والشريك وكل ما لا يليق بالإلهية»[(٣)].

١٢ ـ **القدوس**: قال: «وقدوس المطهر من كل ما لا يليق بالخالق ـ وقال الهروي: قيل القدوس المبارك. قال القاضي عياض وقيل فيه سبوحًا قدوسًا على تقدير أسبح سبوحا أو أذكر أو أعظم أو أعبد . . .»[(٤)].

١٣ ـ **المقدم**: قال الإمام: «قوله ﷺ أنت المقدم وأنت المؤخر» يقدم من يشاء من خلقه إلى رحمته بتوفيقه . .[(٥)].

١٤ ـ **المؤخر**: قال الإمام: «ويؤخر من يشاء عن ذلك لخذلانه»[(٦)].

---

(١) نفس المصدر ص ٥١/ ٦، كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة النبي ﷺ ودعائه بالليل.

(٢) المصدر السابق ص ٨٠/ ١٢، كتاب الجهاد، باب جواز قتال من نقض العهد.

(٣) المصدر السابق، ص ١٧١/ ٤، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، وانظر: (ص١٦/ ١٧)، كتاب الذكر والدعاء، باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء.

(٤) المصدر السابق، ص ٤٧١/ ٤.

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٣٣/ ١٧، كتاب الذكر، باب في الأدعية.

(٦) المصدر نفسه، ص ٣٣/ ١٧.

١٥ ـ السلام: قال الإمام «السلام اسم له سبحانه وتعالىٰ وتقديره الله عليكم حفيظ وكفيل كما يقال الله معك بالحفظ والمعونة واللطف، وقيل معناه السلامة والنجاة لكم ويكون مصدراً كاللذاذة واللذاذ كما قال الله تعالىٰ فسلام لك من أصحاب اليمين . . . »[1] وقال في موضع آخر : «السلام اسم من أسماء الله تعالىٰ، ومعناه السالم من النقائص وسمات الحدوث، ومن الشريك والند»[2].

١٦ ـ القيام ـ القيم: قال الإمام : «قال العلماء من صفاته القيام والقيم كما صرح به هذا الحديث والقيوم بنص القرآن وقائم ومنه قوله تعالىٰ ﴿أفمن هو قائم علىٰ كل نفس﴾ قال الهروي. ويقال قوام قال ابن عباس القيوم الذي لا يزول ـ وقال غيره : هو القائم علىٰ كل شيء، ومعناه مدبر أمر خلقه وهم سائقان في تفسير الآية والحديث»[3].

١٧ ـ الرب: قال الإمام : «في معنىٰ رب أربعة أقوال حكاها الماوردي وغيره، المالك والسيد والمدبر والمربي، فإن وصف الله تعالىٰ برب لأنه مالك أو سيد فهو من صفات الذات وإن وصف لأنه مدبر خلقه ومربيهم فهو من صفات فعله ومتىٰ دخلته الألف واللام فقيل الرب اختص بالله تعالىٰ وإذا أحذفتا جاز إطلاقه علىٰ غيره فيقال رب المال ورب الدار ونحو ذلك»[4].

وقد أثبت النووي ومن قبله الماوردي في هذا القول أربعة أسماء أخرىٰ وهي :

---

(١) المصدر السابق، ص ٩٩/ ٤، كتاب الصلاة، باب التشهد في الصلاة.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٩٩/ ٤.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٤٨/ ٦، كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة النبي ﷺ، ودعائه بالليل.

(٤) نفس المصدر، ص ٥١/ ٦، كتاب صلاة المسافرين، وانظر نفس الكتاب والباب، ص ٥٠/ ٦.

١٨ ـ المالك. ١٩ ـ السيد. ٢٠ ـ المدبر. ٢١ ـ المربي.

كلها معاني لاسم واحد، وهو اسم الرب الذي عرف به الإمام سابقًا[١].

١٩ ـ الحق: قال الإمام (قال العلماء: الحق في أسمائه سبحانه وتعالىٰ ومعناه المتحقق وجوده وكل شيء صح وجوده وتحقق فهو حق ومنه الحاقة أي الكائنة حقًا بغير شك ومثله قوله ﷺ في هذا الحديث «وعدك الحق وقولك الحق ولقاؤك حق والجنة حق والنار حق والساعة حق» أي كله متحقق لا شك فيه وقيل معناه خبرك حق وصدق وقيل أنت صاحب الحق وقيل محق الحق وقيل الإله دون ما يقوله الملحدون كما قال تعالىٰ. ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه الباطل﴾ وقيل في قوله: ﴿وعدك الحق﴾ أي ومعنىٰ صدق لقاؤك حق أي البعث وقيل الموت وهذا القول باطل في هذا الموضع وإنما نبهنا عليه لئلا يغتر به، والصواب البعث فهو الذي يقتضيه سياق الكلام وما بعده وهو الذي يرد به علىٰ الملحد لا بالموت)[٢].

٢٣ ـ القاهر: قال الإمام: «قال القاضي عياض لكن ما أطلقه الشرع من أنه القاهر فوق عباده وأنه استوىٰ علىٰ العرش مع التمسك بالآية الجامعة للتنزيه الكلي الذي لا يصرح في المعقول غيره وهو قوله تعالىٰ: ﴿ليس كمثله شيء﴾ عصمة عن وقفة الله تعالىٰ وهذا كلام القاضي رحمه الله تعالىٰ)[٣].

٢٤ ـ المحيط: فقال في إثباته، (قوله أنت كما أثنيت علىٰ نفسك اعتراف بالعجز عن تفصيل الثناء إلىٰ أن قال: فوكل ذلك إلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ المحيط بكل شيء جملة وتفصيلاً)[٤].

---

(١) انظر ص ١٤٥ـ١٤٦ من الرسالة.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٦/٤٩، كتاب صلاة المسافرين، وانظر ص ١/٢٠٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥/٢٢، كتاب المساجد باب تحريم الكلام في الصلاة.

(٤) المصدر السابق، ص ٤/١٧١، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود.

٢٥ ـ النور: قال الإمام («أنت نور السماوات والأرض»، قال العلماء معناه منورهما وخالق نورهما، وقال أبو عبيد معناه بنورك يهتدىٰ أهل السموات والأرض قال الخطابي في تفسير اسمه: سبحانه وتعالىٰ، النور ومعناه الذي بنوره يبصر ذو العماية وبهدايته يرشد ذو الغواية قال ومنه الله نور السموات، أي منه نورهما. قال ويحتمل أن يكون معناه ذو النور ولا يصح أن يكون النور صفة ذات لله تعالىٰ، وإنما هو صفة فعل أي هو خالقه، وقال غيره معنىٰ نور السموات والأرض مدبر شمسها وقمرها ونجومها»)[1].

وقال في موضع آخر من شرحه لصحيح مسلم «قوله ﷺ (رأيت نوراً) معناه رأيت النور فحسب ولم أر غيره وروي نوراني . . . ويحتمل أن يكون معناه راجعًا إلىٰ ما قلناه أي خالق النور المانع من رؤيته فيكون من صفات الأفعال قال القاضي عياض ـ رحمه الله ـ هذه الرواية لم تقع إلينا ولا رأيتها في شيء من الأصول ومن المستحيل أن تكون ذات الله تعالىٰ نوراً إذا النور من جملة الأجسام والله سبحانه منزه عن ذلك، هذا مذهب جميع أئمة المسلمين، ومعنىٰ قوله تعالىٰ: ﴿الله نور السموات والأرض﴾ وما جاء في الأحاديث من تسميته سبحانه وتعالىٰ بالنور معناه ذو نورهما وخالقه، وقيل: هادي أهل السموات والأرض، وقيل: منور قلوب عباده المؤمنين، وقيل: معناه ذو البهجة والضياء، والجمال والله أعلم)[2].

٢٦ ـ الوتر: قال الإمام «الوتر الفرد ومعناه في حق الله تعالىٰ الواحد الذي لا شريك له ولا نظير»[3].

---

(١) شرح صحيح مسلم ص ٤٨/ ٦، كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة النبي ﷺ ودعائه بالليل.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١١/ ٣، كتاب الإيمان، باب معنىٰ قول الله عز وجل ﴿ولقد رآه نزلة أخرىٰ﴾.

(٣) المصدر نفسه، ص ٦/ ١٧، كتاب الذكر.

٢٧ ـ الواحد: وهو بمعنى الوتر والفرد كما سبق[١].

٢٨ ـ الفرد: وهو بمعنى الوتر أيضًا.

٢٩ ـ الله: قال الإمام (قال الخطابي: وفيه دليل على أن أشهر أسمائه سبحانه وتعالى الله لإضافة هذه الأسماء إليه وقد روى أن الله هو اسمه الأعظم قال أبو القاسم الطبري وإليه ينسب كل اسمه له فيقال الرؤوف والكريم من أسماء الله تعالى ولا يقال من أسماء الرؤوف أو الكريم الله)[٢].

٣٠ ـ الرؤوف وهو ثابت عند إسم (الله).

ومن الأسماء التي أثبتها ولم يتعرض لشرحها.

٣١ ـ الرحمن.

٣٢ ـ المهيمن.

٣٣ ـ خالق الخلق.

٣٤ ـ ملك الملوك.

قال الإمام نقلاً عن القاضي عياض عن اسم ملك الملوك «واعلم أن التسمي بهذا الاسم حرام وكذلك التسمي بأسماء الله المختصة به كالرحمن والقدوس والمهيمن وخالق الخلق ونحوها . . .»[٣].

٣٥ ـ البر. ٣٦ ـ الجواد. ٣٧ ـ الموفق. ٣٨ ـ المان. ٣٩ ـ الهادي.

قال في إثبات هذه الأسماء في متن شرح صحيح مسلم «الحمد لله البر الجواد

---

(١) المصدر السابق، ١٧/٦.

(٢) المصدر السابق ١٧/٥.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٢/١٠٣، كتاب الآداب، باب تحريم التسمي بملك الملوك.

الذي جلت نعمه عن الإحصاء والإعداد، خالق اللطف والإرشاد، الهادي إلىٰ سبيل الرشاد، الموفق بكرمه لطرق السداد. المان بالاعتناء بسنة حبيبة وخليله عبده ورسوله صلوات الله وسلامه عليه وعلىٰ من لطف به من العباد»[1].

٤٠ ـ الكريم: قال في إثباته «نثبت بما ذكرناه أن الاشتغال بالحديث من أجل العلوم الراجحات، وأفضل أنواع الخير وآكد القربات ولكي لا يكون كذلك وهو مشتمل مع ما ذكرناه علىٰ بيان حال أفضل المخلوقات عليه من الله الكريم أفضل الصلوات والسلام والبركات»[2].

وقال أيضًا، (وأنا مستمر في شرحه راج من الله الكريم في إتمامه المعونات)[3].

٤١ ـ المستعان: قال في إثبات هذا الإسم ما نصه: «حتىٰ لقد كان يجتمع في مجلس الحديث من الطالبين ألوف متكاثرات فتناقص ذلك وضعفت الهمم فلم يبق إلا آثار من آثارهم قليلات والله المستعان علىٰ هذه المصيبة وغيرها من البليات»[4].

٤٢ ـ السميع. ٤٣ ـ البصير.

وقال في صفة إثبات السمع «وأنتم تدعون الله تعالىٰ، وهو ليس بأصم ولا غائب بل هو سميع قريب وهو معلم بالعلم والإحاطة»[5].

وقال في صفة البصر والسمع معًا قال القاضي عياض «والله أعلم بمراد نبيه ﷺ

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١/١١.

(٢) نفس المصدر ص ١/١٢، لم يشرحه بل اكتفىٰ بإثباته والله أعلم.

(٣) المصدر نفسه، ص ١/١٣، وانظر: ص ١٦/١٠٩ في إثبات صفة الكرم.

(٤) المصدر السابق. ص ١/١٣.

(٥) المصدر السابق. ص ٧/٢٢، كتاب الذكر، باب استحباب خفض الصوت بالذكر.

فيما ورد في هذه الأحاديث من مشكل ونحن نؤمن بالله تعالىٰ وصفاته ولا نشبه شيئًا به ولا نشبهه بشيء» ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ[1]﴾[2].

٤٤ ـ القابض. ٤٥ ـ الباسط.

قال الإمام في الكلام على هذين الاسمين «قال القاضي: وقبض النبي ﷺ أصابعه وبسطها تمثيل لقبض هذه المخلوقات وجمعها بعد بسطها وحكاية للمبسوط والمقبوض الذي هو السموات والأرضون لا إشارة إلى القبض والبسط الذي هو صفة القابض والباسط سبحانه وتعالىٰ ولا تمثيل لصفة الله تعالىٰ السمعية المسماة باليد التي ليست بجارحة»[3].

٤٦ ـ الجبار. وهذا الاسم لم يشرحه[4].

٤٧ ـ الحي: وهذا الاسم أيضًا لم يشرحه وإنما أثبته بثبوته في الآية الكريمة «الله لا إله إلا هو الحي القيوم» وأثبت لله من خلاله صفة الحياة لله سبحانه وتعالىٰ[5].

٤٨ ـ القاهر: لم يشرحه أيضًا[6].

٤٩ ـ الطيب: «قال الإمام قال القاضي: «الطيب في صفة الله تعالىٰ بمعنى المنزه

---

(١) سورة الشورىٰ، الآية: [١١].

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١١٠/ ١٧، كتاب صفات المنافقين.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١١٠/ ١٧، كتاب صفات المنافقين.

(٤) انظر: نفس المصدر، ص ١١٢/ ١٧، كتاب صفات المنافقين.

(٥) المصدر السابق، ص ٨٢/ ٦.

(٦) انظر كتاب الزهد والرقائق من شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٠٧/ ١٨، باب حديث جابر الطويل وقصة أبي اليسر.

عن النقائص، وهو بمعنى القدوس وأصل الطيب الزكاة والطهارة والسلامة من الخبث»[1].

٥٠ ـ العظيم. ٥١ ـ الحليم:

وهذان الإسمان لم يشرحهما بل هم ثابتان في الحديث الشريف «أن نبي الله ﷺ كان يقول عند الكرب: لا إله إلا الله العظيم الحليم لا إله إلا الله رب العرش العظيم...» الحديث. ولقد رواه مسلم في كتاب الذكر[2].

* * *

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٨٨/ ٧، كتاب الزكاة، باب في المنفق والممسك.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٣٩/ ١٧، كتاب الذكر.

المسألة التاسعة

حكم التسمي بأسماء الله تعالى

لقد ذهب الإمام النووي رحمه الله إلى تحريم التسمي بأسماء الله الخاصة به فقال: (قال القاضي عياض واعلم أن التسمي بهذا الاسم حرام - وهو ملك الملوك - وكذلك التسمي بأسماء الله المختصة به كالرحمن والقدوس والمهيمن وخالق الخلق ونحوها)[1].

أما عند الإضافة فهي مما يستحب عند الإمام النووي - رحمه الله - حيث قال في هذا: (قال في حديث استحباب تحنيك المولود عند ولادته وحمله إلى صالح يحنكه وجواز تسميته يوم ولادته واستحباب التسمية بعبد الله وإبراهيم وسائر الأنبياء عليهم السلام. (وفي هذا الحديث فوائد منها تحنيك المولود عند ولادته . . . ومنها استحباب التسمية بعبد الله ومنها استحباب تفويض تسميته إلى صالح فيختار إسمًا يرتضيه . . .)[2].

والذي قرره الإمام موافق للتقسيمات التي جعلها بعض العلماء لأسماء الله تعالى بحسب ما يطلق منها على الله وعلى غيره قال الحافظ ابن حجر في كتابه الفتح، قال: (والمعروف عند الشافعية والحنابلة وغيرهم من العلماء أن أسماء الله ثلاثة أقسام:

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٠٣/ ١٣، كتاب الآداب، باب تحريم التسمي بملك الملوك.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٠٥/ ١٣، كتاب الآداب، باب استحباب تحنيك المولود عند ولادته . . واستحباب التسمية بعبد الله وسائر أسماء الأنبياء عليهم السلام.

أحدها: ما يختص بالله، كالجلاله، والرحمن، ورب العالمين، فهذا ينعقد به اليمين إذا أطلق، ولو نوىٰ به غير الله.

ثانيهما: ما يطلق عليه وعلىٰ غيره، لكن الغالب إطلاقه عليه وأنه يقيد في حق غيره بضرب من التقييد، كالجبار، والحقّ، والرب، ونحوها، ما لحق به عين، فإن نوىٰ به غير الله فليس بيمين.

ثالثها: ما يطلق في حق الله وفي حق غيره علىٰ حد سواء كالحي، والمؤمن. فإن نوىٰ به غير الله فليس بيمين، وإن نوىٰ الله تعالىٰ فوجهان.[1].

فمن أسمائه سبحانه ماهو خاص به، كالرحمن والقدوس والجلاله. ورب العالمين. وملك الملوك، أو مالك الملك، وأن من الأسماء الخاصة ما هو مركب ولله الأسماء الحسنىٰ والله أعلم.

قال ابن القيم ـ يرحمه الله ـ «اختلف النظار في الأسماء التي تطلق علىٰ الله وعلىٰ العبد. كالحي والسميع. والبصير والعليم والقدير. والملك ونحوها. فقالت طائفة من المتكلمين. هي حقيقة في العبد مجاز في الرب، وهذا قول غلاة الجهمية وهو أخبث الأقوال. وأشدّا فساداً.

الثاني: مقابلة. وهو أنها حقيقة في الرب مجاز في العبد، وهذا القول لأبي العباس الناشيء.

الثالث: أنها حقيقة فيهما، وهذا قول أهل السنة وهو الصواب، واختلاف الحقيقتين فيهما لا يخرجهما عن كونها حقيقة فيهما، وللرب تعالىٰ منها ما يليق

---

(١) فتح الباري، ص ٢٢٥/ ١١.

بجلاله، وللعبد منها ما يليق به[1].

فأسماء الله تعالى المختصة به لها حقيقتها التي تليق بالله تعالى، وأسماء العبد المختصة به وإن تشابهت أسماء مع الله في ظاهرها فحقيقة كل منهما مختلفة من الآخر لاختلاف الخالق جل وعلا عن المخلوق، والله أعلم.

* * *

(١) بدائع الفوائد، ص ١/١٦٤.

المسألة العاشرة

العلاقة بين الأسماء والصفات

إن مذهب أهل السنة والجماعة هو تحقيق ما وصف الله به أسماءه بأنها حسنى أي بالغة في الحسن غايته، وذلك لأنها متضمنة لصفات كاملة لا نقص فيها بوجه من الوجوه لا احتمالاً ولا تقديراً[1].

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - «أسماء الرب تبارك وتعالى دالة على صفات كماله، فهي مشتقة من الصفات، فهي أسماء، وهي أوصاف، وبذلك كانت حسنى إذ لو كانت ألفاظًا لا معاني فيها لم تكن حسنى، ولا كانت دالة على مدح ولا كمال ولساغ وقوع أسماء الانتقام والغضب في مقام الرحمة والإحسان، وبالعكس فيقال اللهم إني ظلمت نفسي، فاغفر لي، إنك أنت المنتقم، واللهم أعطني فإنك أنت الضار المانع، ونحو ذلك»[2].

وبهذا عُلم ضلال من سلبوا أسماء الله تعالى معانيها من أهل التعطيل، وقالوا: «إن الله تعالى سميع بلا سمع، وبصير بلا بصر وعزيز بلا عزّة، وهكذا»[3].

وبهذا يتقرر أن أسماء الله دالة على ذاته وعلى صفاته[4]، فهي من جهة دلالتها

---

(١) القواعد المثلى لفضيلة الشيخ ابن عثيمين، (ص٩).

(٢) مدارج السالكين، ص ٥١-٥٢/١.

(٣) القواعد المثلى (ص١١).

(٤) دلالة أسماء الله تعالى على ذاته وصفاته تكون بالمطابقة وبالتضمن، وبالالتزام، فتكون مطابقة إذا فسرنا الاسم بجميع مدلوله، وتضمنًا إذا فسرناه ببعض مدلوله، والتزامًا إذا استدللنا به على =

على الذات مترادفة[1]، لدلالتها على مسمى واحد، وهو الله عز وجل، وهي من جهة دلالتها على معانيها التي هي صفات لله تعالى متباينة[2] لدلالة كلّ واحد منهما على معناه الخاص[3] هذه هي العلاقة بين الأسماء والصفات من جهة وبين الأسماء والصفات والذات من جهة أخرى.

والإمام النووي وافق مذهب أهل السنة والجماعة في هذه المسألة عند إثباته الكثير من أسماء الله تعالى مثل السميع، البصير، المالك، الصبور، وغيرها من الأسماء الأخرى. ولكنه خالف مذهب أهل السنة والجماعة من جهة أخرى وافق فيها مذهب الأشاعرة وهو أنه عند إثبات بعض الأسماء، إذا كان دالاً على صفة يؤولونها نفوا دلالة الإسم على هذا المعنى الذي ينفونه وإن كان موافقًا لمذهب السلف وهذا هو ما فعله الإمام في بعض الأسماء ومنها اسم النور. حيث قال في شرحه وبيان معناه بعدما أثبته «قال العلماء: معناه منورهما وخالق نورهما. وقال أبو عبيد: معناه بنورك

= غيره من الأسماء التي يتوقف هذا الاسم عليها، ومثال ذلك «الخالق يدل على ذات الله، وعلى صفة الخلق بالمطابقة، ويدل على الذات وحدها، وعلى صفة الخلق وحدها بالتضمن، يدل على صفتي العلم والقدرة بالالتزام». انظر: توضيح الكافية الشافية، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، (ص ٩٦ - ٩٧) والقواعد المثلى (ص ١٤).

(١) المترادف. ما كان معناه واحدًا وأسماؤه كثيرة، أخذًا من الترادف الذي هو ركوب أحد خلف آخر، كان المعنى مركوب. واللفظين راكبان عليه، كالليث والأسد. انظر: التعريفات للجرجاني، ص ٢١٠.

(٢) المتباين. ما كان لفظه ومعناه مخالفًا لآخر كالإنسان والفرس، التعريفات للجرجاني ص ٢١٠.

(٣) انظر: القواعد المثلى (ص ١١).

يهتدي أهل السموات والأرض، قال الخطابي: في تفسير اسمه: سبحانه وتعالى النور، ومعناه الذي بنوره يبصر ذو العماية وبهدايته يرشد ذو الغواية، قال: ومنه. الله نور السموات، أي منه نورهما. قال ويحتمل أن يكون معناه ذو النور ولا يصح أن يكون النور صفة ذات الله تعالى وإنما هو صفة فعل أي هو خالقه، وقال غيره معنى نور السموات والأرض مدبر شمسها وضياء نجومها»[1].

وقال في موضع آخر « قوله ﷺ «رأيت نوراً، معناه رأيت النور فحسب ولم أر غيره وروي نوراني . . . ويحتمل أن يكون معناه راجعاً إلى ما قلناه أي خالق النور مانع من رؤيته فيكون من صفات الأفعال، قال القاضي رحمه الله. هذه الرواية لم تقع إلينا ولا رأيتها في شيء من الأصول ومن المستحيل أن تكون ذات الله تعالى نوراً إذ النور من جملة الأجسام والله سبحانه يجل عن ذلك. هذا مذهب جميع أئمة المسلمين. ومعنى قوله تعالى. والله نور السموات والأرض «وما جاء في الأحاديث من تسمية سبحانه وتعالى بالنور معناه ذو نورهما وخالقه، وقيل: هادي أهل السموات والأرض وقيل منور قلوب عباده المؤمنين، وقيل معناه ذو البهجة والضياء والجمال والله أعلم»[2].

وكان ممن تأول هذا الاسم بهذا المعنى من الأشاعرة الرازي ولقد رد عليه الإمام ابن تيمية هو وغيره.

قال الرازي في تأويله لهذا الاسم بعد أن ذكر وجوهاً تمنع عنده من إطلاق لفظة النور على الله «فثبت بهذه الوجوه لا يمكن حمل النور على ما ذكروه بل معناه أنه

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٦/٤٨، كتاب صلاة المسافرين.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٣/١١.

هادي أهل السموات والأرض، أو معناه منوّر السموات والأرض على الوجه الأحسن. والتدبير الأكمل كما يقال فلان نُور هذه البلدة، إذا كان سببًا لصلاحها. وقد قرأ بعضهم الله نور السموات والأرض، وبالله التوفيق»[1].

وقال البيهقي في شرح اسم النور ما قاله الرازي «النور هو الهادي وقيل المنوّر، وهو من صفات فعله. وقيل هو الحق، وقيل هو الذي لا يخفى على أوليائه بالدليل، وتصح رؤيته بالأبصار، وهذه صفة يستحقها الباري تعالى بذاته»[2].

ولقد رد شيخ الإسلام ابن تيمية على جميع التأويلات التي ذكرها النووي وغيره في كتاب مجموع الفتاوى فقال: (على المؤمنين خاصتهم وعامتهم قبول كل ما ورد منه عليه السلام بنقل العدل عن العدل، حتى يتصل به ﷺ، وإن مما قضى الله علينا في كتابه ووصف به نفسه، ووردت السنة بصحة ذلك أن قال. الله نور السموات والأرض ثم قال عقب ذلك «نور على نور وبذلك دعاه ﷺ «أنت نور السموات والأرض» ثم ذكر حديث أبي موسى «حجابه النور ـ أو النار ـ لو كشفه لأحرقت سبحان وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» وقال: سبحان وجهه جلاله ونوره، نقله عن الخليل وأبي عبيد، وقال: قال عبدالله بن مسعود، نورّ السموات نور وجهه»[3].

* كذلك فعل النووي في اسم الظاهر والباطن صرفهما عن معناهما اللائق إلى

---

(١) أساس التقديس للرازي، ص ٧٩ ـ ٨٠، وانظر من نفس الكتاب ص ٦٧، وانظر ص ٤٥، ١/ ٣ من كتاب موقف ابن تيمية من الأشاعرة لعبد الرحمن المحمود.

(٢) الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد للبيهقي (ص٦٦).

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ص ٧٣ ـ ٧٤/ ٥، وانظر ص ٣٧٤ ـ ٣٧٩، ٣٨٢ ـ ٣٩٦/ ٦. والصواعق المرسلة لابن القيم ص ١٩١ وما بعدها.

معاني أخرى بعضها هي من لوازمه وبعضها لا يتفق معه فقال: (وأما معنى الظاهر من أسماء الله فقيل هو من الظهور بمعنى القهر والغلبة وكمال القدرة، ومنه ظهر فلان على فلان، وقيل: الظاهر بالدلائل القطعية والباطن احتجب عن خلقه. . .)[1].

قلت: ومعلوم أن معنى الظاهر عند السلف له معنى مغاير لهذا المعنى الذي ترتب على جحود الأشاعرة وغيرهم لصفة العلو ولقد سار الإمام النووي - رحمه الله - في هذا على منهج الأشاعرة.

قال ابن القيم يوضح منهج أهل السنة والجماعة في إثبات الأسماء عامة، واسم الظاهر خاصة قال: «وكذلك اسمه الظاهر من لوازمه: أن لا يكون فوقه شيء كما في الصحيح عن النبي ﷺ «أنت الظاهر فليس فوقك شيء» بل هو سبحانه فوق كل شيء، فمن جحد فوقيته سبحانه فقد جحد لوازم اسمه، الظاهر ولا يصح أن يكون الظاهر هو من له فوقية القدر فقط كما يقال الذهب فوق الفضة، والجوهر فوق الزجاج، لأن هذه الفوقية تتعلق بالظهور، بل قد يكون المفوّق أظهر من الفائق منه، ولا يصح أن يكون ظهور القهر والغلبة فقط، وإن كان سبحانه ظاهراً بالقهر والغلبة لمقابلة الاسم « لأن الباطن وهو الذي ليس دونه شيء، كما قابل الأول بالذي ليس قبله شيء بالآخر الذي ليس بعده شيء»[2].

وقال ابن الأثير: «هو الذي ظهر فوق كل شيء وعلا عليه، وقيل هو الذي عُرف بطرق الاستدلال العقلي، بما ظهر لهم من آثار أفعاله وأوصافه»[3].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٣/ ١٧، كتاب الذكر.

(٢) مدارج السالكين، ص ٥٥/ ١.

(٣) النهاية لابن الأثير، ص ١٦٤/ ٣.

هذا هو منهج أهل السنة والجماعة في العلاقة بين الأسماء والصفات، وهو الحق الذي يجب اتباعه لإثبات أكمل الكمال لله تعالىٰ، وما فعله النووي وغيره مخالفًا لإثبات هذا الكمال الذي هو يكون بإثبات الأسماء الدالة علىٰ الصفات، وكان بطريقته من الذين يثبتون العكس، وبذلك هي ليست صفات كمال، وبالتالي لم تكن حسنىٰ. وهو بهذا مخالف لقول الله تعالىٰ الذي يقول ﴿ولله الأسماء الحسنىٰ فادعوه بها﴾، وهذا شامل لجميع أنواع الدعاء. فيدعىٰ سبحانه في كل مطلوب بما يناسب ذلك. والله أعلم.



المطلب الخامس

منهج الإمام النووي في صفات الله عز وجل

سبق الحديث عن أسماء الله عز وجل وعن موقف الإمام النووي منها، وفي هذا المطلب سأتعرض لموقفه من صفات الباري عز وجل، مقتصرة بذلك على ذكر جملة من الصفات التي تعرض لها في شرح صحيح مسلم وقبل أن أبين منهجه في ذلك أرى من المناسب أن أتكلم عن تقسيم الصفات عند كل من السلف والخلف، وذلك في عدة مسائل .

المسألة الأولى تقسيم الصفات :

١ ـ **أنواع الصفات عند السلف الصالح** : لم يتوسع السلف الصالح ـ رحمهم الله ـ في تقسيم الصفات وتنويعها، إذ ليس من عادتهم الإسراف في الكلام في المطالب الألهية، بل إنهم لايكادون يتجاوزون الكتاب والسنة في مبحث الصفات، إلا أن أولئك الذين حضروا زمن الفتنة بعد نشأة علم الكلام وابتلوا بمناقشة علماء الكلام والرد عليهم فاضطروا للخوض في تقسيم الصفات .

وقد قسموها إلى قسمين من حيث العموم ، صفات ذاتية وصفات فعلية تنقسم كل منها إلى قسمين :

١ ـ الصفات الذاتية : وهي الصفات المتعلقة بذاته المقدسة التي لم يزل ولا يزال متصفًا بها ولا تنفك عنه ولا تتعلق به مشيئته وقدرته . كالوجه واليدين وغيرها وهي قسمان :

١/ سمعية عقلية : وهي التي يشترك في إثباتها الدليل الشرعي السمعي والدليل

العقلي والفطرة السليمة، كصفة الحياة والعلم والقدرة والإرادة والقوة وغيرها .

٢/ خبرية : وهي التي لا سبيل للعقل على إنفراده إلى إثباتها إلا بطريق السمع والخبر عن الله ورسوله ﷺ كالوجه والعينين واليدين وغيرها .

٢ ـ الصفات الفعلية : وهي الصفات المتعلقة بمشيئته وقدرته إن شاء فعلها وإن لم يشأ لم يفعلها كصفة النزول والإستواء، وهي قسمان أيضًا :

١/ سمعية عقلية، كالخلق والرزق والإعطاء والإحياء والإماتة .

٢/ خبرية كالاستواء على العرش، والنزول إلى السماء الدنيا والمجيء والإتيان يوم القيامة والغضب والمحبة وغيرها [(١)] .

وقد تكون الصفة ذاتية فعلية بإعتبارين كصفة الكلام مثلاً، فإنها صفة ذاتية لا تنفك عنه تعالى لأنه عز وجل لم يزل ولا يزال متكلمًا، وبإعتبار آحاد الكلام هي صفة فعلية لأن الكلام متعلق بمشيئته عز وجل فإنه يتكلم متى شاء كيف شاء بما شاء كما قال تعالى : ﴿ **إنما أمرُهُ إذا أرادَ شَيْئًا أن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُون** ﴾[(٢)] .

ولا شك أن تقسيم السلف الصالح للصفات هو الراجح لأنه يشمل جميع أنواع الصفات الثابتة للباري سبحانه فلا تخرج عن القسمين (الذاتية والفعلية) ولأن نصوص الكتاب والسنة تدل عليها حيث إنه قد ورد بعضها بإثبات صفات لازمة للذات وبعضها الآخر ورد بإثبات صفات تتعلق بها مشيئته وإختياره .

---

(١) انظر : الأسماء والصفات للبيهقي ص١١، والاعتقاد له ص٢١، وشرح الفقه الأكبر لملا علي القاري ص١٥، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ٦/ ٢٥، ٦٨، ٢٦٨، ٣٤٨، و١٢/ ٤٣٦ـ٤٣٧ ١٦/ ٣٦٤ـ ٣٧٠، وشرح الطحاوي ١١٠ـ١١٢/ ١، وشرح لمعة الاعتقاد لابن عثيمين ص١١ ـ١٢، وتفسيره أيضًا ١/ ٢٥٦، والكواشف الجلية للسلمان ص ٢٢٧ ، الحق الواضح المبين للسعدي ص ١٣ـ١٤ـ٢٣ .

(٢) سورة يس، الآية: ٨٢ .

ب - أنواع الصفات عند المتكلمين :

لقد أولع المتكلمون بتقسيم الصفات وتنويعها . ولهم في ذلك طريقة خاصة بهم ، وقد درجوا على تقسيم صفات الله إلى أربعة أقسام ، نفسية وسلبية وصفات معان وصفات معنوية .

١ ـ الصفات النفسية : هي الحال الواجبة للذات ما دامت الذات غير معللة بعلة وهي الوجود .

٢ ـ الصفة السلبية : وهي التي سلبت أمرًا لا يليق بالله سبحانه ، وهي خمس صفات ، القدم ، والبقاء ، والوحدانية ، ومخالفته تعالى للحوادث ، والغنى المطلق المعروف (بالقيام بالنفس) .

٣ ـ صفات المعاني : وهي كل صفة قائمة بموصوف زائدة على الذات موجبة له حكمًا ، وهي سبع : القدرة ، والإرادة ، والعلم ، والحياة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، وإنما سميت بذلك لأن كل صفة منها زائدة على ذاته تعالى ، وهي ما يسمونه أيضًا (بالصفات الوجودية) .

٤ ـ الصفات المعنوية : وهي ملازمة للصفات السبع الأولى ، وهي الحال الواجبة للذات ما دامت المعاني قائمة بالذات ، وقد عللوا تسمية هذه الصفات بهذا الاسم ، بأن الإتصاف بها فرع عن الإتصاف بالسبع الأولى ، فإن إتصاف محل من المحال بكونه عالمًا أو مثلا لا يصح إلا إذا قام به العلم أو القدرة . . . وهكذا قس على ذلك ، فصارت السبع الأولى صفات معنوية ، وهذه الصفات المعنوية هي كونه تعالى قادرًا ومريدًا وعالمًا وحيًا وسميعًا وبصيرًا ومتكلمًا [1] .

---

(١) انظر : شرح أم البراهين للسنوسي ص٢٥ ـ ٣٣ ، وانظر أيضًا أضواء البيان للشنقيطي ٢ / ٣٠٦ ، فقد زاد على هذه الصفات صفتين هما الصفة الفعلية والصفة الجامعة وأخبر أن هذا هو تقسيم الصفات عند المتكلمين .

ولا يخفىٰ أن هذا التقسيم الذي قال به المتكلمون الصفاتية منبي علىٰ اعتقادهم إثبات بعض الصفات دون بعض، وعلىٰ التفويض في بعضها الآخر أو إرجاعه إلىٰ معان فيها تنزيه لله تعالىٰ عن مشابهة المخلوقات كما قالوا، وذلك بتأويل الصفة عن ظاهرها، إلىٰ معنىٰ آخر، ولا يخفىٰ خطؤهم في ذلك وموقف السلف منهم في هذا كله .

ج - رأي الإمام النووي في تقسيم الصفات :

لم أجد للإمام النووي كلامًا يقسم فيه الصفات، سوي إشارات عابره يفهم منه ميله إلىٰ تقسيم المتكلمين لها، من ذلك قوله عند شرح حديث الرسول ﷺ: «**اللهم بلغ عنا نبينا أنا قد لقيناك فرضينا عنك ورضيت عنا**» (١) .

قال الإمام: (رضي الله عنهم: بطاعتهم ورضوا عنه بما أكرمهم به وأعطاهم إياه من الخيرات والرضا من الله أفاضه الخير والإحسان والرحمة. فيكون من صفات الأفعال، وهو أيضًا بمعنىٰ إرادته فيكون من صفات الذات)(٢) .

وقال في معنىٰ رب العالمين: (في معنىٰ رب العالمين أربعة أقوال حكاها الماوردي وغيره المالك والسيد والمدبر والمربي، فإن وصف الله تعالىٰ برب لأنه مالك وسيد فهو من صفات الذات، وإن وصف بالمدبر والمربي لأنه مدبر خلقه ومربيهم فهو من صفات فعله . .)(٣) .

كذلك قال في شرح سورة الفاتحة: (قال العلماء وقوله تعالىٰ «حمدني عبدي وأثنىٰ علي ويحمدني» إنما اله لأن التحميد الثناء بجميل الفعال والتمجيد الثناء

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ٤١/ ١٣ برقم (٦٧٧) .

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص ٤٢/ ١٣ .

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص ٥١/ ٦ .

بصفات الجلال، ويقال: أثنى عليه في ذلك كله، ولهذا جاء جوابًا للرحمن الرحيم لاشتمال اللفظين على الصفات الذاتية والفعلية)[1].

وقال عند حديثه عن صفات القبض والبسط: (... إشارة إلى القبض والبسط الذي هو صفة القابض الباسط سبحانه وتعالى ولا تمثيل لصفة الله تعالى السمعية المسماة باليد التي بست جارحه)[2].

وعند تعليقه على فضل آية الكرسي قال: (قال العلماء: إنما تميزت آية الكرسي لكونها أعظم لما جمعت في أصول الأسماء والصفات الإلهية، والوحدانية والحياة والعلم، والملك، والقدرة، الإرادة، وهذه السبعة أصول أسماء والصفات والله أعلم)[3].

بهذا يعلم أنه يقسم الصفات إلى سمعية، وذاتية، وفعلية، ويجعل للصفات أصول سبعة وهي الصفات السبع التي أثبتها الأشاعرة وأطلقوا عليها اسم صفات المعني من غير أن يعرف بتلك الأقسام.

المسألة الثانية: العلاقة بين الصفات والذات:

الإيمان بالله تعالى إنما يعني الإيمان بالذات العليا المقدسة، وما اتصفت به من أسماء حسنى وصفات عليا، فالمؤمن عندما يقول آمنت بالله إنما يعني هذا الإيمان الشامل بذات لا تشبه الذوات، متصفة بصفات بصفات الكمال التي لا تشبه صفات خلقه، بل لصفاته تعالى حقائق ومعاني تليق بجلاله كما أن لهم صفات تناسب حالهم.

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص٨٥/ ٤.

(٢) المصدر نفسه ١١/ ١٧.

(٣) المصدر السابق ٨١/ ٦.

أ - الذات والصفات يستلزم كل منها الآخر :

وبناء على هذا الإيمان الشامل فإن العلاقة بين الصفات والذات علاقة التلازم الضرورية، فالإيمان بالذات يستلزم الإيمان بالصفات وكذلك العكس .

فكما أن الصفة تدل على الذات، فالذات أيضًا دليل على الصفة، بمعنى أن الصفة إذا ذكرت منفردة فهي تدل بطريق اللزوم على الاسم أو الذات، والذات إذا ذكرت منفردة دلت بطريق اللزوم على الصفة التي اشتقت منها، لأنه لا يتصور وجود ذات مجردة من الصفات في الخارج، كما لا يتحقق وجود صفة من الصفات في الخارج إلا وهي قائمة بالذات، فتصور (ذات) على حدة وتصور (صفة) على حدة إنما هو تصور ذهني .

ولقد سبق أن أشرت في المبحث السابق[1] عند الحديث عن أسماء الله إلى مذهب المعتزلة الذي يثبتون الأسماء وينفون الصفات ويجعلون الاسم غير المسمى وبينت أن ذلك من نوع الإلحاد في أسماء الله .

ب - هل الصفات عين الذات أم غيرها :

مما له صلة بهذا الأمر مسألة هل الصفات هي عين الذات أو غيرها :

١ - رأي الإمام النووي في ذلك :

لم أجد للإمام النووي رحمه الله قولاً يتكلم فيه في هذه المسألة ولا شك أن هذه من أحد الأدلة التي تدل على مدى قرب الإمام لمنهج السلف .

٢ - منهج السلف في ذلك :

لا شك أن هذا القول (الصفات عين الذات أم غيرها) مما أحدثه علماء الكلام ولا عهد لعلماء السلف الأوائل بهذا الأسلوب، بل إنهم - رحمهم الله - كانوا يكرهون مثل

---

(١) ص ٢٣٦ .

هذه الألفاظ المجملة، رغبة منهم في الوقوف مع النصوص الشرعية، لكن المتأخرين من أتباع السلف الذين اضطروا إلى الخوض مع أهل الكلام للذوذ عن العقيدة السلفية والحفاظ عليها، ففصلوا الكلام في ذلك فقالوا: إن مثل هذه الألفاظ مجملة تحتمل معنىً صحيح وباطل ولا ينفصل النزاع ويتضح وجه الصواب إلا بالتفصيل، فإن أريد بقولهم إن الصفة (غير الذات) أو زائدة عن الذات، بمعنى أن هناك ذاتًا مجردة قائمة بنفسها منفصلة عن الصفات الزائدة عليها، فهذا غير صحيح وإن أريد أن الصفات زائدة على الذات بمعنى أن للذات معنى غير معنى الصفة ومفهوم الصفات زائد على مفهوم الذات، بيد أنها لا تنفك عن الذات، فهذا صحيح[1].

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: (ويرى القوم في لفظة (الغير) أنه يراد بها معنيان، أحدهما المغايرة لتلك الذات المسماة بـ(الله) وكل ما غاير الله مغايرة محضة بهذا الإعتبار فلا يكون إلا مخلوقًا، ويراد به - أي لفظ الغير - مغايرة الصفة للذات إذا خرجت عنها. فإذا قيل: علم الله وكلام الله غيره، بمعنى أنه غير الذات المجردة من العلم والكلام كان المعنى صحيحًا، لكن الإطلاق باطل، وإن أريد أن العلم والكلام مغايران لحقيقته المختصة التي امتاز بها عن غيره كان باطلاً لفظًا ومعنى)[2].

قلت: لأن الحقيقة المختصة به تعالى والتي لا يشاركه أحد فيها، هي اتصافه بصفات الكمال المطلق الذي لا يشاركه فيه غيره، من العلم المحيط بجميع المعلومات وبكلماته التامات التي لا نفاذ لها، وبقدرته الكاملة التي لا يعجزها شيء بل هو سبحانه على كل شيء قدير.

وهكذا يتضح أنه لا ينبغي إطلاق المغايرة بين الصفات والذات، ويتضح أيضًا أن

---

(1) استقيت معنى هذا الكلام من مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٥/ ٣٢٥-٣٢٦، ٦/ ٩٨-١٠١، ٣٤٧-٣٥٠، ودرء تعارض العقل والنقل ١/ ٢٢٩-٢٣٠، وشرح الطحاوي ص ٩٧/ ١.

(2) بدائع الفوائد لابن القيم ١/ ٢١.

صفات الله تعالى ملازمة لذاته ولا تنكف عنها، فلا يقال عن الصفات هي عين الذات لأنه من المعلوم بداهة أن صفة الرحمة مثلاً ليست هي نفس اسم الرحيم، بل هي ملازمة له لا تنفك عنه، هذا هو المفهوم الصحيح الذي فهمه السلف الصالح وسلموا به من الخوض في بحث العلاقة بين الصفات والذات، وهو الذي تؤيده النصوص الشرعية ـ فضلاً عن تأييد الأدلة العقلية ـ فإن صفة الله تعالى داخلة في مسمى أسمائه، فمن استعاذ بصفة من صفات الله أو حلف بها فإنما استعاذ بالله وحلف به تعالى، ويشهد لهذا تعليمه ﷺ لأمته الإستعاذة بعزة الله وقدرته ـ وهما صفتان من صفاته ـ عندما يصب عبداً ألم أو مرض فيضع يده موضع الألم ويقول: «بسم الله ثلاثًا أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر»(1)، ومنه قوله ﷺ في دعائه: «أعوذ برضاك من سخطك»(2). فقد استعاذ ﷺ برضا الله وهو صفة من صفاته، وليس هذا من الاستعاذة بغير الله. فتبين إذاً أن أسماء الله تعالى مشتملة على صفاته ظاهراً ومضموناً. وصفاته ليست خارجة عن مسمى اسمه وذاته.



---

(1) الحديث رواه مسلم في ك السلام باب استحباب وضع يده على موضع الألم مع الدعاء ١٥٨/ ١٤، برقم ٢٢٠٢، وأبو داود في ك الطب باب كيف الرقي ٤/ ٢١٧ـ٢١٨، برقم ٣٨٩١، والترمذي في ك الطب باب (٢٩) ٤/ ٣٥٥ـ٣٥٦ برقم ٢٠٨٠، وأحمد ٤/ ٢١٧٤، ٦/ ٣٩٠.

(2) رواه مسلم في ك الصلاة باب ما يقال في الركوع والسجود ١٧٠/ ٤، برقم ٤٨٦، وأبو داود في ك الصلاة باب الدعاء في الركوع والسجود ١/ ٥٤٧ برقم ٨٧٩، والترمذي في ك الدعوات باب (٨٦) برقم ٣٤٩٣، وابن ماجه في ك إقامة الصلاة باب ما جاء في القنوت في الوتر ١/ ٣٧٣، برقم ٣٤٩٣. وابن ماجه في ك إقامة الصلاة باب ما جاء في القنوت في الوتر ١/ ٣٧٣ برقم ١١٧٩.

المسألة الثالثه : طريقة الإمام النووي في إثبات الصفات لله تعالى :

اضطربت طريقة الإمام النووي - غفر الله له - إضطرابًا كبيرًا في باب الصفات، فحين يقول إنا معنى النصيحة لله، والتي هي منصرفة إلى الإيمان بالله ونفي الشريك عنه، وترك الإلحاد [1] في صفاته ووصفه بصفات الكمال والجلال وتنزييه سبحانه وتعالى عن جميع النقائص [2].

نجده مع هذا القول يختار مذهب المتكلمين الأشاعرة وغيرهم الذين يعظمون العقل أي تعظيم فيؤولون صفات الباري عز وجل ولا يثبتون منها إلا النذر اليسير مما ارتضه عقولهم، والذين يخالفون طريقة القران فيبالغون في النفي ويفصلون فيه، بحجة تنزيه الباري عنه، ويجملون في الإثبات زاعمين أن طريقتهم التي ساروا عليها من التأويل والمجاز وغير ذلك هي من أساليب اللغة العربية التي نزل بها القران الكريم، والإمام النووي مع هذا كله يقلدهم ويسير على منوالهم في باب الصفات، وأحيانًا نجده يتردد فيقع في التفويض في بعض الصفات ويزعم أنه مذهب المحققين [3].

تلك بإختصار الطريقة أو المنهج الذي سار عليه الإمام النووي في إثباته للصفات وهو ما سأفصله في النقاط الآتية :

---

(١) هذه عند الأشاعرة، وقد نصوا على تنزيه الأسماء الحسنى من الإلحاد وذكروا وجوهًا له، انظر: كتاب منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله ص ٤٩٨ - ٥٠١ / ٢، ولقد أشار المؤلف إلى أن الأشاعرة حين نفوا الإلحاد بصورة وقعوا فيه بصورة أخرى وأن الإلحاد عندهم إما جلي أو خفي. انظر ص ٤٩٩ / ٢.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص٣٣ / ٢ .

(٣) انظر: شرح صحيح مسلم للنووي ص١٧ - ١٨ / ٣، وص ١٦٤ / ١٦، ١٦٧ / ١٦ .

النقطة الأولى : إدخال نصوص الصفات في المتشابه :

نقل الإمام هذا القول عن الإمام الغزالي ومفاده أن الصفات من المتشابه ولم يعلق عليه. ففي باب النهي عن اتباع متشابه القرآن، والتحذير من متبعيه والنهي عن الاختلاف في القرآن، قام بتفسير الآية ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**﴾ إلى آخر الآية[1]. قال النووي : (قد اختلف المفسرون والأصوليون وغيرهم في المحكم والمتشابه إختلافًا كثيرًا. قال الغزالي[2]: في «المستصفى» بل الصحيح أن المحكم يرجع إلى معنيين :

أحدهما : المكشوف المعنى الذي لا يتطرق إليه إشكال واحتمال. والمتشابه ما يتعارض فيه الاحتمال.

والثاني : أن المحكم ما انتظم ترتيبه مفيداً إما ظاهراً وإما بتأويل، وأما المتشابه فالأسماء المشتركة كالقرء، والذي بيده عقدة النكاح، وكاللمس فالأول متردد بين الحيض والطهر، والثاني بين الولي والزوج، والثالث بين الوطء والمس باليد ونحوهما.

قال : ويطلق على ما ورد في صفات الله تعالى مما يوهم ظاهرة الجهة والتشبيه ويحتاج إلى تأويل واختلف العلماء في الراسخين في العلم هل يعلمون تأويل المتشابه ويكون الواو في (والراسخون) عاطفة أم لا ويكون الوقف على وما يعلم تأويله إلا الله».

ثم يبتدأ في قوله تعالى : ﴿**والراسخون في العلم يقولون أمنا بالله**﴾ وكل واحدة من القولين محتمل واختاره طوائف والأصح الأول وأن الراسخين يعلمونه لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق معرفته وقد اتفق أصحابنا وغيرهم من المحققين على أنه يستحيل أن يتكلم الله تعالى بما لا يفيد والله أعلم»[3].

---

(١) سورة آل عمران، الآية : ٧ .

(٢) سبق ترجمته ص ٢٥٠ .

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٧٧ ـ ١٧٨ / ١٦ ، كتاب القدر باب النهي عن إتباع متشابه القران.

● **أبطال ما أدعاه الإمام النووي :**

إن الذي نقله الإمام النووي عن الغزالي فيه أن بعض نصوص الصفات من المتشابه الذي يحتاج إلىٰ تأويل وسكوته علىٰ ذلك مع إقراره في آخر النص أنه يستحيل أن يكون في القرآن مما لا يعرف معناه . ويستحيل أن يخاطب الله الناس بما لا يفيد .

مناقشته في هذا الأمر :

إن القول بأن نصوص الصفات أو بعضها من المتشابه الذي يحتاج إلىٰ تأويل قول مجانب للصواب ، مخالف لمذهب السلف كما تقدم ، وقد أطال شيخ الإسلام ابن تيمية في بيان خطأ هذا القول[1] . وذكر أن إدخال أسماء الله وصفاته ، أو بعض ذلك في المتشابه ، الذي لا يعلم أحد معناه ، بل المنقول عنهم يخالف هذا ، فإن السلف من الصحابة والتابعين وسائر الأمة قد تكلموا في جميع نصوص القرآن : آيات الصفات وغيرها ، وفسروها بما يوافق دلالتها وبيانها ، وردوا عن النبي ﷺ أحاديث كثيرة توافق القرآن والصحابة نقلوا عن النبي ﷺ أنهم كانوا يتعلمون منه التفسير مع التلاوة ، ولم يذكر أحد منهم عنه قط أنه أمتنع من تفسير آية ، وكذلك الأئمة كانوا إذا سئلوا عن شيء من ذلك لم ينفوا معناه ، بل يثبتون المعنىٰ ، وينفون الكيفية ، وكقول مالك بن أنس لما سئل عن قوله تعالىٰ : ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾[2] ، كيف استوىٰ؟ فقال : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وقد بين أن الاستواء معلوم كما أن سائر ما أخبر به معلوم ، ولكن الكيفية لا تعلم ، ولا يجوز السؤال عنها ، لا يقال : كيف استوىٰ ؟

---

(١) انظر تفسير سورة الإخلاص ، ومجموع الفتاوىٰ ص ٤١٨ ـ ٤٢٤/ ١٧ ، ومجموعة الرسائل والمسائل ٥ ـ ٣٦/ ٢ .

(٢) سورة طه ، الآية : ٥ .

وحينئذ نفرق بين المعنىٰ المعلوم، وبين الكيف المجهول، فمن سمىٰ الكيف تأويلاً ساغ أن يقال: هذا التأويل لا يعلمه إلا الله[1].

هذا ملخص ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية وهو القول الفصل في هذا الموضوع، والإمام النووي من خلال نقله لقول الغزالي يبين لنا أن الأشاعرة وغيرهم ممن أتخذ نفي الصفات أو بعضها مذهبًا لهم يحتجون علىٰ تأويلهم للصفات أو تفويضهم بها بأنها من المتشابه ويستدلون علىٰ ذلك بالآية المشهورة من سورة آل عمران، وهي قوله تعالىٰ: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ** ﴾[2].

ويبنون إحتجاجهم بها علىٰ أن الصفات من المتشابه، ويقررون ذلك بأمرين:

الأمر الأول: إما بالاستدلال بها علىٰ أن مذهب السلف هو التفويض الكامل، للمعنىٰ، وللكيفية[3]. وذلك عند ردهم علىٰ من يثبت الصفات ويحتج بها تواترًا من إثبات السلف - رحمهم الله - لها. فيحتجون بهذه الآية علىٰ قراءة الوقف علىٰ «إلا الله». وهذا التفويض الذي جعلوه مذهب السلف يقصدون منهم - أي السلف - جعلوا هذه الصفات من المتشابه، وأثبتوا ألفاظًا مجردة لا تدل علىٰ معان ولا يفهم منها شيء. وهل فهم من ذلك أن يجعلوا تأويلهم للصفات وصرفها عن ظواهرها اللائقة بالله، موافقًا ضمنًا لما يدعونه من تفويض السلف إذا علىٰ كلا الحالتين لا تدل لنصوص علىٰ الصفات اللائقة بجلال الله وعظمته.

والأمر الثاني: أن يستدلوا بالآية علىٰ جواز التأويل الذي هو عند المتأخرين

---

(١) مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية (١٣/ ٢٩٤ - ٣١٣)، و(١٧/ ٤٢٣ - ٤٢٥).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧.

(٣) أساس التقديس للرازي (ص ١٣٧ - ١٣٨).

صرف اللفظ من الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح[1]. ويقولون: أن الراسخين في العلم يعلمون تأويل المتشابهات منها على زعمهم الصفات - وهذا على قراءة مجاهد وغيره يعطف (الراسخون في العلم على ما قبله)[2].

والإمام النووي يقرر الأمر الثاني من حيث أنه يقرر أن الصفات من المتشابه الذي يعلم تأويله الراسخون في العلم، ومن قبله قرر أن الصفات هي المتشابه الذي يحتاج إلى تأويل، ولم يقل أنها من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله وهو التفويض.

والحق أن السلف كانوا على خلاف ذلك، فهم لا يدخلون أسماء الله وصفاته الواردة في الكتاب والسنة في المتشابه، فهذا ابن جرير - رحمه الله - قد تطرق في تفسيره عند هذه الآية إلى بيان المراد بالمتشابه، وذكر أقوال السلف ولم يذكر أن أحداً منهم قال بدخول آيات الصفات في المتشابه[3].

وتابعه على ذلك تلميذه ابن كثير - رحمهم الله -[4].

والآية المذكورة فيها قراءتان:

الأولى: الوقف على قوله: ﴿إلا الله﴾ والثانية «عدم الوقف على ذلك».

ويراد بالأولى المتشابه في نفسه الذي استأثر الله بعلم تأويله، ويراد بالثانية المتشابه الإضافي الذي عرف الراسخون تفسيره وهو تأويله.

---

(١) أساس التقديس للرازي (ص ١٣٤-١٣٦).

(٢) الملل والنحل للشهرستاني (١/١٨٨-١١٩).

(٣) تفسير الطبري (٣/ ١١٥) وما بعدها.

(٤) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (ص٣٠٢-٣٠٦/ ١).

ولا يصح على القراءة الأولى أن يكن التأويل بمعنى التفسير للمعنى؛ لأنه يلزم من ذلك أمرًا بالملأ، وهو أن يكون الله أنزل على رسوله كلامًا لا يعلم معناه جميع الأمة ولا الرسول ﷺ، ويتساوى الراسخون في العلم بغيرهم من أعوام المسلمين في معرفة معنى الآيات. والواجب أن يمتاز الراسخون عن غيرهم في ذلك[1].

فالسلف ـ رحمهم الله ـ لا يدخلون أسماء الله وصفاته الواردة في الكتاب والسنة في المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله؛ بل نجد أنهم تكلموا في آيات الصفات التي تسمى لدى الجهمية بالمتشابهات، وفسروها بما يوافق معناها ودلالتها، أمثال، ابن مسعود، وابن عباس، وابن جرير، وغيرهم من أئمة المفسرين، فلم يتوقفوا أو يستكوا عن بيان معنى دلالة آية ما.

ولقد فصل الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ الجواب عن هذه المسألة تفصيلاً حسنًا، حيث قال في معرض رده على من زعم أن آيات الصفات متشابة، وآيات الأمر والنهي محكمة ـ قال: التشابه والإحكام نوعان:

١ ـ تشابه وإحكام يعم الكتاب كله.

٢ ـ تشابه وإحكام يخص بعضه دون بعض.

فالأول: كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا﴾[2]، وقوله: ﴿كتابٌ أُحكِمت آياته﴾[3]، وقوله: ﴿يسٓ ۝١ والقُرْآنِ الحَكِيمِ﴾[4].

والثاني: مثل قوله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية (١/ ٢٥٤).

(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

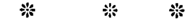
(٣) سورة هود، الآية: ١.

(٤) سورة يس، الآيتان: ١ـ٢.

وأخر متشابهات﴾ (١)، فإن أردتم بتشابه آيات الصفات النوع الأول، فنعم هي متشابهة غير متناقضة يشبه بعضها بعضًا، وكذلك آيات الإحكام. وإن أردتم أن يشتبه المراد بها بغير المراد. فهذا وإن كان يعرض لبعض الناس، فهو أمر نسبي إضافي، فيكون متشابهًا بالنسبة إليه دون غيره .

ولا فرق في هذا بين آيات الأحكام وآيات الصفات فإن المراد قد يشتبه فيها بغيره على بعض الناس دون بعض، وقد تنازع الناس في المحكم والمتشابه تنازعًا كثيرًا، ولم يعرف عن أحد من الصحابة قط أن المتشابهات آيات الصفات، بل المنقول عنهم يدل على خلاف ذلك. فكيف تكون آيات الصفات متشابهة عندهم، وهم لايتنازعون في شيء منها. وآيات الأحكام هي المحكمة، وقد وقع بينهم النزاع في بعضها، وإنما هذا قول بعض المتأخرين (٢).

ولعل سبب وقوع كثير من المتكلمين وغيرهم في هذا الخطأ، وهو الخلط وعدم التفريق بين معنى الآية، الذي خوطبنا به وبين تأويلها الذي هو حقيقتها وكنهها المحجوب عنا. فزعم أولئك أن السلف حين نهوا عن الخوض في هذه الآيات كان مرادهم من النهي البحث عن معاني الآيات لأنها من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله والحق خلاف ذلك كما سبق بيانه .



(١) سورة آل عمران، الآية : ٧ .

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة (١/ ٢١٣-٢١٤)، لابن القيم الجوزية .

النقطة الثانية : جعل بعض نصوص الصفات من باب المجاز [١]:

حكم الإمام النووي على العديد من الصفات الإلهية الواردة في بعض الأحاديث بأنها مجاز، ومن الأمثلة على ذلك :

قوله في شرح حديث: **«لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»**[٢].

(قال العلماء: وهو مجاز وسببه أن العرب كان شأنها أن تسب الدهر عند النوازل والحوادث والمصائب النازلة بها من موت، أو هرم، أو تلف حال أو غير ذلك. .)[٣].

وقوله في شرح حديث: **«العز إزاره والكبرياء رداؤه. فمن ينازعني، عذبته»**[٤].

قال الإمام: (وأما تسميته إزاره ورداءه فمجاز واستعارة حسنة كما تقول العرب فلان شعاره الزهد ودثاره التقوى، لا يريدون الثوب الذي هو شعاراً ودثار بل معناه صفته كذا قال المازري: ومعنى الاستعارة هنا أن الإزار والرداء يلصقان بالإنسان ويلزمانه وهما جمال له قال فضرب ذلك مثلاً لكون العز والكبرياء بالله تعالى أحق، وله ألزم واقتضاهما جلاله ومن مشهور كلام العرب فلان واسع الرداء وغمر الرداء أي واسع العطية)[٥].

والمجاز والاستعارة عند الإمام النووي بمعنى واحد ويؤيده القول ـ السابق ـ له.

---

(١) المجاز هو: اسم لما أريد به غير ما وضع له لمناسبة بينهما. وهو فعل بمعنى فاعل، من «جاز» إذا تعدى سمي به لأنه جاوز وتعدي عن محله الموضوع إلى غيره. انظر التعريفات للجرجاني (ص٣١٣ـ ٣١٥).

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي ص٣/ ١٥ برقم (٥).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي (ص ٣ ـ ٤/ ١٥) كتاب الألفاظ من الأدب باب النهي عن سب الدهر.

(٤) أخرجه مسلم بشرح النووي ص١٤٢/ ١٦، برقم (١٣٦).

(٥) شرح صحيح مسلم للنوي (ص١٤٣/ ١٦)، كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم الكبر.

وأيضًا قوله في شرح حديث: «إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن». وبعد أن ذكر المذهب الأول وهو الإمساك عن التأويل قال: (والثاني يتأول بحسب ما يليق بها فعلى هذا المراد المجاز كما يقال: فلان أقلبه كيف شئت أي أنه مني على قهره والتصرف فيه كيف شئت فمعنى الحديث أنه سبحانه وتعالى منصرف في قلوب عباده وغيرها كيف شاء لا يمتنع عليه منها شيء ولا يفوته ما أراده كما يمتنع على الإنسان ما كان بين أصبعيه فخاطب العرب بما يفهمونه ومثله بالمعاني الحسية تأكيدًا له في نفوسهم فإن قيل فقدرة الله تعالى واحدة والإصبعان للتثنية، فالجواب أنه قد سبق أن هذا مجاز واستعارة فوقع التمثيل بحسب ما اعتادوه غير مقصود به التثنيه والجمع والله أعلم»[1].

إبطال ما ادعاه الإمام النووي:

قلت: ما ذكره الإمام النووي من القول بالمجاز والإستعارة في لغة العرب هو مستند الأشاعرة في تأويل ما عدا الصفات السبع التي أثبتوها وأخرجوا بقية الصفات عن ظاهرها وحقيقتها إلى المجاز، تنزيهًا لله تعالى عن مشابهة الخلق وبعدًا عن التجسيم - كما زعموا - إن هم أثبتوا الصفات وحقائها، والحق أن ما ذهبوا إليه من التأويل والقول بالمجاز باطل، فإنه لم ينقل عن السلف الصالح القول بالمجاز كما أكد ذلك محققوا علماء أهل السنة كشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وغيرهما[2]، حيث قالوا إن تقسيم الألفاظ إلى حقيقة ومجاز ليس تقسيمًا شرعيًا ولا

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٦٧/ ١٦ .

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام (ص ٨٨ - ٩٠) (٩٦ - ٩٧/ ٧)، وص(٢٣٥ - ٢٣٦/ ١٩)، وص(٤٠٣ - ٤٠٥/ ٢٠).

والإيمان له من ص٧٩ - ٩٠، وانظر مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم ص ٢٧١ - ٣٩٢، اختصره الشيخ محمد بن الموصلي رحمه الله.

لغويًا ولا عقليًا، وإنما هو إصطلاح محض حدث بعد القرون الثلاثة المفضلة، فإنه لم يتكلم به أحد من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان، ولا يعرف لدىٰ أوائل المصنفين في أصول الفقه، وإنما كان منشؤه من جهلة المعتزلة والجهمية ومن سلك طريقتهم من المتكلمين. وقد أبطل شيخ الإسلام رحمه الله المجاز من وجوه عديدة دقيقة، أما ابن القيم رحمه الله فقد أبطل منها خمسين وجهًا، ومن أراد التوسع في ذلك فليراجع كلامهما [1].

الأمر الثالث: الإمام النووي يقول بالتأويل[2] في الصفات:

لقد اختار الإمام النووي مذهب التأويل و ارتضاه، وقال عنه أنه مذهب معظم

---

(١) انظر: مجموع الفتاوىٰ ص (٨٨-٩٠/٧)، (٩٦ ٩٧)، ومختصر الصواعق المرسلة لابن القيم ص ٢٧١ ٣٩٢.

(٢) أحب أن أشير هنا إلى أن التأويل على نوعين: مذموم وممدوح. وفالمذموم: هو الذي قال به القاضي عياض تبعًا للأشاعرة وغيرهم ومعناه عندهم (صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدلالة توجب ذلك) أو هو (صرف اللفظ عن حقيقته وظاهره إلى معنى آخر يوجبه) وهذا التأويل هو الذي أنكره السلف ونفوه وذموا أهله: أما التأويل الممدوح الذي جاء في الكتاب والسنة فهو قسمان: الأول: (الحقيقة التي يؤول إليها اللفظ) فتأويل الخبر هو عين المخبر به وتأويل الأمر هو نفس الفعل المأمور به كما قالت عائشة رضي الله عنها كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه(سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي) يتأول القرآن، رواه البخاري في ك الآذان باب الدعاء في الركوع ٢/ ٣٢٨ برقم ٧٩٤، ومسلم في ك الصلاة باب ما يقال في الركوع والسجود ١/ ٣٥٠ برقم ٤٨٤. ومنه قوله تعالى: ﴿**هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق**﴾ سورة الأعراف، الآية: ٣٥، ومنه تأويل الرؤيا وتأويل العمل كقوله تعالى حكاية عن يوسف: ﴿**هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَاي مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا**﴾ سورة يوسف، الآية: ١٠٠. وقوله: ﴿**وَيُعَلِّمُكَ من تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ**﴾ يوسف: ٦، وقوله تعالى في قصة موسىٰ والخضر: ﴿**ذلك تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً**﴾ الكهف: ٨٢، وغير ذلك. والقسم الثاني: التأويل هو تفسير الكلام وبيان معناه سواء وافق ظاهره أو خالفه، وهذا اصطلاح كثير من المفسرين كابن جرير الطبري وغيره وهو إصلاح معروف، وهذا التأويل كالتفسير يحمد حقه =

المتكلمين: (ومن ذلك قوله: والقول الثاني: وهو مذهب معظم المتكلمين أنها تتأول على ما يليق بها على حسب مواضعها وإنما يسوغ تأويلها لمن كان من أهله بأن يكون عارفًا بلسان العرب وقواعد الأصول والفروع ذا رياضة في العلم)[1].

وقال في موضع آخر: (والثاني أنها تتأول على حسب ما يليق بتنزيه الله تعالى وأنه ليس كمثله شيء[2]).

ويدل على اختياره مذهب التأويل أيضًا قوله: (اختلفوا في آيات الصفات وأخبارها، هل يخاض فيها بالتأويل أم لا ؟).

فقال قائلون: تتأول على ما يليق بها، وهذا أشهر المذهبين للمتكلمين.

وقال آخرون: لا تتأول بل يمسك عن الكلام في معناها، ويوكل علمها إلى الله تعالى، ويعتقد مع ذلك تنزيه الله تعالى وانتفاء صفات الحادث عنه، فيقال مثلاً: نؤمن بأن الرحمن على العرش استوى ولا نعلم حقيقة معنى ذلك، والمراد به، مع إنا نعتقد أن الله تعالى: ﴿**ليس كمثله شيء**﴾ وأنه منزه عن الحلول وسمات الحوادث.

. وهذه طريقة السلف، وهي أسلم إذ لا يطالب الإنسان بالخوض في ذلك، فإذا اعتقد التنزيه فلا حاجة إلى الخوض في ذلك والمخاطرة فيما لا ضرورة، بل لا حاجة إليه، فإن دعت الحاجة إلى التأويل لرد مبتدع ونحوه تأولوا حينئذ، وعلى هذا يحمل

= ويرد باطله. ومن الأدلة على هذا القسم قوله تعالى: ﴿**وما يعلم تأويله إلا الله**﴾ آل عمران: ١٧، ومنه قوله ﷺ في دعائه لحبر الأمة ابن عباس رضي الله عنهما «اللهم فقه في الدين وعلمه التأويل» رواه أحمد ١/ ٢٦٦، ٣١٤، ٣٢٨، ٣٣٥، والطبراني في الكبير ١/ ٨٤، وهو صحيح كما قال الألباني في هامش الطحاوية ص١٧٤، لمزيد من البحث انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ص ٣٥/ ٥، وشرح الطحاوية ص ٢٥١ـ٢٥٢/ ١، والقواعد المثلى لابن عثيمين ص ٤٩ . .

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ١٧ـ١٨/ ٣.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ١٦٧/ ١٦.

ما جاء عن العلماء في هذا، والله أعلم)[1].

ونسب التأويل في «شرح صحيح مسلم» إلى «جماعات من السلف»[2]، وقد نقل عن مالك والأوزاعي أنهما أولا النزول، والحق أن هذا النقل عنهما غير صحيح كما سوف نبينه في موضعه[3] بالتفصيل، وأنه لم يثبت عن أحد من السلف ألبتة أول الصفات الواردة في النصوص الشرعية، وكل من ينقل عنهم إما هو مكذوب عليهم، وإما هو بمعنى التفسير والبيان، وليس بمعنى صرف الكلام عن ظاهره، وإما هو مرجوع عنه، وستمر بك أمثلة من هذا في المباحث القادمة.

١ - الإمام النووي لا يقطع بالتأويل رغم قوله به :

مما ينبغي التنبيه إليه ههنا أن الإمام النووي رغم اختياره لمذهب التأويل إلا أنه لا يقطع به. ويرى أن الأحوط والأسلم هو مذهب التفويض الذي نسبه هو إلى السلف، وليس هو لهم - كما سيمر معنا - وكذلك يظهر لنا هذا من خلال ما نقله عن القاضي عياض ما نصه :

(نحن نؤمن بالله تعالى وصفاته ولا نشبه شيئًا به ولا نشبه بيء ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾[4]، وما قاله الله وما قاله رسوله ﷺ وثبت عنه فهو حق وصدق، فما أدركنا علمه فبفضل الله تعالى، وما خفي علينا آمنا به ووكلنا علمه إليه سبحانه وتعالى وحملنا لفظه على ما احتمل من لسان العرب الذي خوطبنا به ولم نقطع على أحد معنييه يعد تنزيهه سبحانه عن ظاهره الذي لا يليق به عز وجل)[5].

قلت : إن إثبات الصفات على ما يليق بجلال الله تعالى ليس فيه تشبيه ولا تمثيل

(١) المجموع على شرح المهذب ١/٤٢.

(٢) شرح صحيح مسلم ص ٣٢-٦/٦٦.

(٣) سوف أبين هذا عند تناول صفة النزول.

(٤) سورة الشورى ، الآية : ١١.

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي ص ١١٠ / ١٧.

للخالق بالمخلوق ولا العكس، لأن كل ما ثبت عن الله فهو حق وصدق كما قال القاضي عياض. وأما قوله أن من النصوص من ظاهره لا يليق بجلال الله فهو قول باطل، وقول على الله بغير علم لأنه لا أحد أعلم بالله من الله، ولا أحد أعلم به بعده من رسوله ﷺ، فلو كان من النصوص ما ظاهرها لا يليق بالله لما جاءت في الكتاب ولا في السنة ولما ترك تأويل هذا الذي لا يليق إلى عقولنا القاصرة المتناقضة، بل كان بينه الناصح الأمين ﷺ. ولهذا يجب على المرء أن يعتقد أن الله لا يصف نفسه ولا يصفه رسوله ﷺ إلا بما يليق به عز وجل، لأن الأمر غيبي لا يدرك بالعقل بل بالنصوص الشرعية الثابتة. فماصح منها قلنا وما لم يصح لم نقل به فنقف حيث وقف الدليل.

٢ - الإمام النووي يرى القول بالتأويل والحاجة إليه هي لرد مبتدع ونحوه:

ومن ذلك قوله الذي مر معنا: (فإن الحاجة إلى التأويل لرد مبتدع ونحوه تأولوا حينئذ، وعلى هذا يحمل ما جاء عن العلماء في هذا والله أعلم)[١].

الرد على ما ذهب إليه:

الحق أن ما ذهب إليه الإمام هنا ليس بشيء، لأن منهج إثبات الأسماء والصفات وغيرها مماأثبته السلف هو المنهج الحق وليس فيما اثبتوه بدعة أبتدعوها هم بأنفسهم بل إثبات الصفات وغيرها ثابت بنصوص القرآن والسنة، فجعل التأويل هنا من أجل حاجة الرد على المبتدع، تلاشت، وبقي أن المبتدع يرد عليه بنصوص الكتاب والسنة وما أجمع عليه سلف الأمة، وليس بالتأويل.

ولقد جنى التأويل على هذه الأمة الويلات وفتح باب الشر على مصراعيه، فصار حجة لكل من سولت له نفسه رأيًا من الآراء، أو مذهبًا من المذاهب المخالفة

---

(١) المجموع على شرح المهذب للنووي ص ١/٤٢.

للحق، أن يقول فيه ما شاء. فالتأويل مسلك خطير وطريقة المبتدعة الضالين، وليس من منهج سلف هذه الأمة الكرام، فيجب تركه ونبذه وتحذير الناس منه [1].

والحقيقة أن الذين سلكوا التأويل بحجة أنهم فروا من التجسيم والتشبيه قد وقعوا في التعطيل، ولو أثبتوا ظواهر النصوص على حقيقتها بمعنى معلوم يليق بجلال الله وكيف مجهول لسلموا من ذلك كله . فاتضح إذًا أن حجة الإمام التأويل داحضة بحمد الله.

الأمر الرابع: أنه يثبت بعض الصفات ويؤول الباقي.

إن مما جرى عليه الإمام النووي أيضًا في طريقته لإثبات الصفات أنه يثبت بعض الصفات ويؤول الباقي، بحجة أن ظاهرها غير مراد فوجب تأويلها وذلك جريًا على طريقة الأشاعرة وغيرهم. ومما يدل على ذلك أنه لم يثبت سوى بعض الصفات كما سيأتي تفصيل ذلك.

والحقيقة أن القول في بعض الصفات كالقول في الباقي، فمن يثبت بعضها وينفي الباقي فقد وقع في التناقض، لأن المتصف بها كلها واحد، وهو الله سبحانه وتعالى.

فيقال لمن هذه طريقته: ما المانع أن تثبت جميع الصفات الثابتة لله بالأدلة النقلية دون أن تفرق بينها على حد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [2]؟! والآية قد جمعت بين التنزيه والإثبات كما نرى ومعها آيات أخرى كبيرة في هذا المعنى، والحق في هذا - أن النووي - رحمه الله تعالى - قد خالف السلف فيما ذهب إليه من إثبات بعض الصفات ونفي أو تأويل بعضها - وقد تقرر أنه تعالى ليس كمثله شيء في ذاته، وكذا في أفعاله وأسمائه وصفاته، فكذلك الشأن هنا القول في صفة كالقول في غيرها، وممن أثبت بعض الصفات وأول البعض الآخر. فتصرفه لا يستند إلى

---

(١) كتاب ذم التأويل، تأليف الإمام موفق الدين ابن قدامة المقدسي، ص٩ وما بعدها.

(٢) سورة الشورى، الآية: ١١.

دليل نقلي أو عقلي مقبول لدى غيرهم من العقلاء، بل هو مجرد التقليد للشيوخ وللمذهب، وهذا هو سر تناقض هؤلاء القوم في تفريقهم بين إثبات بعض الصفات وتأويل البعض، والذي يقتضيه المنطق السليم إما أن يثبت هؤلاء جميع الصفات الثابتة بالكتاب والسنة، دون أن يفرقوا بين صفة وصفة، وهذا هو المنهج السلفي الذي أشار إليه علماء الحديث والسنة قديمًا وحديثًا، وهو الذي يساير العقل والنقل، وفيه الطمأنينة والنجاة - كما أسلفت، عند ذكر منهجهم وقواعدهم في إثبات الأسماء والصفات - وإما أن ينفوا جميع الصفات دون التفريق بينها - كما فعل المعتزلة - ولكن الواقع بخلاف ذلك اتضح أنهم قد ضلوا وأخطأوا كما ضل المعتزلة من قبل وأسأل الله أن يقيض لهذا الدين من ينصره ويقوي من وقع من أهله في الخطأ والزلل إنه قادر على ذلك وهو السميع المجيب .

الأمر الخامس : تجويز التفويض والتأويل في نصوص الصفات .

قرّر الإمام أن الصّفات التي ورد النص بإثباتها لله تعالى مما لا سبيل للعقل إلى إثباتها الواجب فيها الإيمان بها، ثم اعتقاد أن ظاهرها غير مراد، مع عدم التعرض لبيان معانيها، وهو مذهب التفويض، كما أنه قرر وجوب المصير إلى التأويل في كثير من أحاديث الصفات، ومال إليه .

ومن الأمثلة على ذلك :

* قال في تأويل صفة الإتيان والمجيء : (إعلم أن لأهل العلم في أحاديث الصفات وآيات الصفات قولين :

أحدهما : وهو مذهب معظم السلف أو كلهم أنه لا يتكلم في معناها بل يقولون يجب علينا أن نؤمن بها ونعتقد لها معنى يليق بجلاله الله تعالى وعظمته، مع اعتقادنا الجازم أن الله تعالى ليس كمثله شيء وإنه منزه عن التجسم والانتقال، والتحيز في جهة وعن سائر صفات المخلوق، وهذا القول هو مذهب جماعة من المتكلمين واختاره جماعة من محققيهم وهو أسلم .

والقول الثاني: وهو مذهب معظم المتكلمين أنها تتأول على ما يليق بها على حسب مواقعها، وإنما يسوغ تأويلها لمن كان من أهله بأن يكون عارفًا بلسان العرب وقواعد الأصول والفروع ذا رياضة في العلم)[1].

* وقال في تأويل صفة القدم أو الرجل: (هذا الحديث من مشاهير أحاديث الصفات وقد سبق مرات بيان اختلاف العلماء فيها على مذهبين:

أحدها: وهو قول جمهور السلف وطائفة من المتكلمين أنه لا يتكلم في تأويلها بل نؤمن أنها حق على ما أراد الله ولها معنى يليق بها وظاهرها غير مراد.

والثاني: وهو قول جمهور المتكلمين أنها تتأول بحسب ما يليق بها)[2].

من الأقوال السابقة للإمام النووي وغيرها ما سوف يمر بنا فيما بعد يوضح لنا أن الإمام النووي يرتضي تفويض المعنى وزعم أن هذا مذهب السلف معظمهم أو كلهم وهذا مما بينت فساده قبل ذلك عند دعواه أن نصوص الصفات من المتشابه. كما أنه قرر أن هناك مذهب آخر في آيات وأحاديث الصفات وهومذهب معظم المتكلمين وهو أيضًا مذهبه الذي مال إليه واختاره وارتضاه ـ وهذا يدل عليه تأويله لأكثر الصفات كما سبق بيانه. كذلك اعتمد في شرحه لنصوص الصفات على أقوال العلماء منهم القاضي عياض[3]، والإمام المازري[4]، وهما مما اشتهر عنهم أنهما

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٦ ـ ١٧/ ٣، كتاب الإيمان باب معرفة طريق الرؤية.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص(١٥/ ١٧) كتاب الجنة.

(٣) وهو أشعري وقد تكلم الأستاذ غسان بن أحمد بن عبدالرحمن في رسالة للدكتوراه منهج القاضي عياض في العقيدة (ص٥٣ ـ ٦٠) على عقيدة القاضي عياض. بكلام استفدت في كلامي على عقيدة النووي.

(٤) هو أشعري وقد صرح بذلك في مواطن من المعلم، انظر منه (٧٤ ـ ١٠٤)، وقد أفاد ابن السبكي أن المغاربة ومنهم القاضي عياض والمازري يستصعبون مخالفة الأشعرية ويرونها هجنة عظيمة راجع «طبقات الشافعية الكبرى» (ص١٩٥/ ٥).

أشعريان في المذهب وهذا ملاحظ في تأويلاتهم التي نقلها عنهم الإمام النووي في تأويل كثير من الصفات الذاتية منها والفعلية .

ومثال ذلك مما نقله عن العلماء . قال الإمام نقلاً عن القاضي عياض : «قال من أظهر التأويلات أنهم قوم استحقوها وخلقوا لها . قالوا : ولابد من صرفه عن ظاهره لقيام الدليل القطعي العقلي على استحالة الجارحة على الله تعالى»[1] .

وهذا القول للقاضي عياض هو سبب الوقوع في مثل هذه المخالفات للمنهج الحق منهج السلف من حيث أنهم جعلوا العقل حاكمًا وهاديًا فما أقره العقل وجاء به النقل أيضًا أقروه وما أبعده العقل وإن جاء به النقل أبعدوه ، وسوف نرى كيف أن الإمام النووي رحمه الله وقع في التناقض كغيره من الأشاعره من ناحية العقل فمذهب أهل الحق أن الدليل العقلي قائم على إثبات صفات الله ومن قبله النقل .

* ومما يدل على أن مذهبه التأويل أنه اختاره ونسبه إلى جماعات من السلف[2] .
وقد نقل أن مالك والأوزاعي أولا النزول ، والحق أن هذا النقل عنهما غير صحيح كما بينته في موضعه بالتفصيل ، وأنه لم يثبت عن أحد من السلف ألبتة أنه أوَّل الصفات الواردة في النصوص الشرعية ، وكل ما ينقل عنهم فهو مكذوب عليهم ، وإنما هو بمعنى التفسير والبيان وليس بمعني صرف الكلام عن ظاهره .

وأحب أن أبين أن التأويل نوعان : مذموم وممدوح . فالمذموم هو الذي قال به القاضي عياض ومن بعده النووي وغيره تبعًا للأشاعرة وغيرهم ومعناه عندهم (صرف اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدلالة توجب ذلك)[3] أو هو : (صرف اللفظ عن حقيقته وظاهره إلى معنى آخر يوجبه)[4] ، وهذا التأويل هو الذي

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص ١٥١/ ١٧ ، كتاب الجنة .

(٢) المصدر نفسه ص٣٦-٣٧/ ٦ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٥٦/ ١ ، ومنهج ودراسات ص ٣٢ - ٣٣ .

(٤) منهج ودراسات ص ٣٣ .

أنكره السلف ونفوه وذموا أهله . أما التأويل الممدوح الذي جاء في الكتاب والسنة فهو قسمان .

الأول : الحقيقة التي يؤول إليها اللفظ ، فتأويل الخبر هو عين الخبر وتأويل الأمر هو نفسه النص المأمور به كماخالف عائشة رضي الله عنها كان رسول الله ﷺ يقول في ركوعه : «سبحانك اللهم ربناوبحمدك اللهم اغفر لي ، يتأول القرآن»[1] . وصفه قوله تعالى : ﴿ هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾[2] . ونصه تأويل الرؤيا وتأويل العمل كقوله تعالى حكاية عن يوسف : ﴿ هَٰذَا تأويل رءياي من قبل قد جعلها ربي حقًّا ﴾[3] ، وقوله : ﴿ ويُعَلِّمُكَ من تأْوِيلِ الأَحَادِيث ﴾[3] ، وقوله تعالى في قصة موسى والخضر : ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَلَيْهِ صَبْراً ﴾ [5] وغير ذلك .

و الثاني : التأويل هو تفسير الكلام وبيان معناه سواء وافق ظاهره أو خالفه ، وهذا إصطلاح كثير من المفسرين كابن جرير الطبري وغيره وهو اصطلاح معروف وهذا التأويل كالتفسير يحق حقه ويرد باطله .

ومن الأدلة على هذا القسم قوله تعالى : ﴿ وما يعلم تأويله إلا الله ﴾[6] ، ومنه قوله ﷺ في دعائه لهذه الأمة ابن عباس رضي الله عنهما : «اللهم فقه في الدين وعلمه

---

(١) رواه البخاري في كتاب الآذان باب الدعاء في الركوع ص٣٢٨/ ٢ برقم ٧٩٤، ومسلم في كتاب الصلاة باب ما يقال في الركوع والسجود برقم ٤٨٤ .

(٢) سورة الأعراف ، الآية : ٣٥ .

(٣) سورة يوسف ، الآية : ١٠٠ .

(٤) سورة يوسف ، الآية : ٦٠ .

(٥) سورة الكهف ، الآية : ٨٢ .

(٦) سورة آل عمران ، الآية : ١٧ .

التأويل [1]»[2].

والإمام النووي كما يظهر لنا سلك مسلك من قبله بدون تحقيق، فمذهب السلف عنده دائر بين التفويض والتأويل، وعنده شيء من الاضطراب كشأن ممن سبق في هذا الميدان ومنهم. القاضي عياض الذي اختار مذهب التأويل ورغم اختياره له لا يقطع به وهو يقول: «نحن نؤمن بالله تعالى وصفاته ولا نشبه شيئًا ولا نشبهه بشيء ﴿**ليس كمثله شيء وهو السميع البصير**﴾[3]» وما قاله الله، وما قال رسول الله ﷺ وثبت عنه فهو حق وصدق، فما أدركنا علمه فبفضل الله تعالى وما خفي علينا آمنا به ووكلنا علمه إليه سبحانه وتعالى، وحملنا لفظه على ما احتمل من لسان العرب الذي خوطبنا به، ولم نقطع على أحد معنييه بعد تنزيهه سبحانه عن ظاهره الذي لا يليق به عز وجل»[4].

قلت: إن صفات الخالق لا تشبه ولا تمثيل فيها بصفات المخلوق ولا العكس فإثباتها على الوجه اللائق بجلاله وعظمته ليس فيه شيء من ذلك.

كما أن كلها ثبتت عن الله ورسوله فهو حق وصدق كما قال القاضي عياض، وما زعمه - عفا الله عنا وعنه - أن من النصوص من ظاهره لا يليق بجلال الله فهو زعم باطل، وقول على الله بغير علم لأنه لا أحد أعلم بالله من الله، ولا أحد أعلم بعده من رسول الله ﷺ، فلو كان من النصوص ما ظاهرها لا يليق بالله لما جاءت في الكتاب ولا

---

(١) رواه أحمد ص٢٦٦، ٣١٤، ٣٢٨، ٣٣٥/١، والطبراني في الكبير ص ١٨٤/١، وهو صحيح كما قال الألباني في هامش الطحاوية ص٢٣٤.

(٢) لمزيد من البحث انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ص٣٥/٥، وشرح العقيدة الطحاوية ص (٢٥١-٢٥٢/١). والقواعد المثلى لابن عثيمين ص٤٠.

(٣) سورة الشورى، الآية: ١١.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ١١٠/١٧، كتاب صفة القيامة.

في السنة ولما ترك تأويل هذا الذي لا يليق إلا لعقولنا القاصرة المتناقضة، بل كان بينه الناصح الأمين ﷺ.

وكذلك من الأمور الدالة على إضطراب الإمام - رحمه الله - أنه يرى أن التفويض أسلم وأحكم ومع ذلك لم يختاره واختار التأويل مع علمه بالمحاذير التي قد يقع فيها، وذلك لأنه قرر بنفسه أنه: «يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق معرفة وقد اتفق أصحابنا وغيرهم من المحققين على أنه يستحيل أن يتكلم الله تعالى بما لا يفيد والله أعلم»(١).

وأقول التفويض الذي أراده الإمام ليس بأحكم ولا أسلم إلا إذا كان تفويضًا للكيفية، أما المعنى فلا يكون كذلك لأن من فوض المعنى جهله، بل أدعى أنه يجهله ولقد شنع ابن القيم على قوم سماهم أهل التجهيل يدعون جهل معاني أسماء وصفات الله فيفوضونها (٢).



---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص ١٦/١٧٨، كتاب العلم.

(٢) الصواعق المرسلة لابن القيم ص٢/٤٢٢.

المسألة الرابعة: ذكر جملة من الصفات الذاتية والفعلية وموقف الإمام منها.

ذهب الإمام النووي إلى إثبات بعض الصفات الذاتية وتأويل بعضها الآخر، وكذلك أول الصفات الفعلية، والتي أثبتها من الصفات الذاتية هي بعينها التي أثبتها الأشاعرة وهي الصفات السبع، العلم، والقدرة، والإرادة، والكلام، والسمع، والبصر، والحياة، وقد قال عنها أنها أصول الأسماء والصفات[1].

وسأقتصر ههنا على ذكر الصفات التي أوردها الإمام النووي وظهر فيها مذهبه إثباتا أو تأويلاً وأبدأ بصفة العلم.

١ - صفة العلم.

أثبت الإمام - رحمه الله - صفة العلم لله تعالى كما يليق بجلاله سبحانه ومن نصوصه الصريحة في إثباته صفة العلم وغيرها من الصفات قال في فضل آية الكرسي: (قال العلماء إنما تميزت آية الكرسي لكونها أعظم لما جمعت من أصول الأسماء والصفات الإلهية، والوحدانية، والحياة، والعلم، والملك، والقدرة، والإرادة، وهذه السبعة أصول الأسماء والصفات، والله أعلم)[2].

وكانت أدلته في إثبات صفة العلم هي أدلة السنة والجماعة كما صرح بذلك في هذا الموضع من الشرح فقال في شرح حديث قصة الغلام الذي قتله الخضر عليه السلام قال: (قوله ﷺ: وكان أبواه قد عطفاه عليه فلو أدرك أرهقهما طغيانًا وكفرًا»[3] أي حملهما عليها وألحقهما بهما والمراد بالطغيان هنا الزيادة في الضلال، وهذا الحديث مذهب أهل السنة في أن الله تعالى أعلم بما كان وبما يكون وبما لا يكون لو كان كيف

---

(١) كتابه شرح صحيح مسلم ص ٦/٨٢.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص (٦/٨٢)، كتاب صلاة المسافرين باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي.

(٣) جزء من حديث أخرجه مسلم بشرح النووي ص ١١٩/ ١٥ برقم ٢٣٨٠.

يكون ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾[1]، وقوله تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا ﴾[2] وغير ذلك من الآيات)[3].

* وأشار إلىٰ هذا أيضًا في قوله ﷺ: «الله أعلم بما كانوا عاملين»[4].

قال: (وفي قوله ﷺ: الله أعلم بما كانوا عاملين» بيان لمذهب أهل الحق أن الله أعلم بما كان وما يكون وما لا يكون لو كان كيف كان يكون وقد سبق نظائره من القرآن والحديث)[5].

* وفي قوله ﷺ للناس حين جهروا بالتكبير: (أيها الناس أربعوا علىٰ أنفسكم إنكم ليس تدعون أصم ولا غائبًا إنكم تدعون سميعًا قريبًا وهو معكم»[6].
قال: (معناه أرفقوا بأنفسكم وأخفضوا أصواتكم فإن رفع الصوت إنما يفعله الإنسان لبعد من يخاطبه ليسمعه وأنتم تدعون الله تعالىٰ ليس بأصم ولا غائب بل هو سميع قريب وهو معكم بالعلم والإحاطة)[7].

ففي قوله هذا يثبت كلا من صفتي السمع والعلم.

وعند إثباته لقدر الله في قوله ﷺ: «جفت به الأقلام»، قال: (أي مضت به المقادير وسبق علم الله تعالىٰ به وتمت كتابته في اللوح المحفوظ وجف القلم الذي كتب به وامتنعت به الزيادة والنقصان، قال العلماء: وكتاب الله ولوحه وقلمه والصحف المذكورة في الأحاديث كل ذلك مما يجب الإيمان به، وأما كيفية ذلك وصفته فعلمها

---

(١) سورة الأنعام، الآية: [٢٨].

(٢) سورة الأنعام، الآية: [٩].

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي (ص١١٩ ـ ١٢٠/ ١٥)، كتاب الفضائل باب من فضائل الخضر عليه السلام.

(٤) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ١٧٢/ ١٦ برقم (٢٦٥٩).

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي (١٧٣/ ١٦) كتاب القدر باب معنىٰ كل مولود يولد علىٰ الفطرة.

(٦) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ٢١/ ١٧ برقم (٢٧٠٤).

(٧) شرح صحيح مسلم للنووي (ص٢٢/ ١٧)، كتاب الذكر باب استحباب خفض الصوت بالذكر إلا في المواضع التي ورد الشرع برفعه فيها.

إلى الله تعالى، ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء» والله أعلم)[1].

كما استدل الإمام أيضًا على أن الله هو أعلم العالمين بحديث عبدالله رضي الله عنه في أطوار خلق الجنين في بطن أمه وما يكتب من رزقه وأجله وعمله، حيث قال في شرح الحديث: (قال العلماء: طريق الجمع بين هذه الروايات أن للملك ملازمة ومراعاة لحال النطفة وأنه يقول يا رب هذه علقة هذه مضغة في أوقاتها فكل وقت يقول فيه ما صارت إليه بأمر الله تعالى وهو أعلم سبحانه)[2].

وقرر الإمام أن علم الله تام لا نقص فيه بحال من الأحوال ولهذا قال في شرح عبارة «ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور في البحر»[3] الواردة في قصة موسى مع الخضر عليهما السلام.

قال: (قال العلماء: لفظ النقص هنا ليس على ظاهره وإنما معناه أن علمي وعلمك بالنسبة إلى علم الله تعالى كنسبة مانقره هذا العصفور إلى ماء البحر هذا على التقريب إلى الأفهام وإلا فنسبة علمها أقل وأحقر وقد جاء في رواية البخاري ما علمي وعلمك في جنب الله إلا كما أخذ هذا العصفور بمنقاره أي في جنب معلوم الله وقد يطلق العلم بمعنى المعلوم وهو من إطلاق المصدر لإرادة المعقول كقولهم ضرب السلطان أي مضروبه)[4].

قال القاضي: (وقال بعض من أشكل عليه هذا الحديث إلا هنا بمعنى ولا أي ولا نقص علمي وعلمك من علم الله ولا مثل ما أخذ هذا العصفور، لأن علم الله تعالى لا يدخله نقص. قال القاضي: ولا حاجة إلى هذا التكلف بل هو صحيح كما بينا والله أعلم)[5].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي (ص١٦٢/ ١٦)، كتاب القدر باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص(١٥٦ ـ ١٥٧/ ١٦) كتاب القدر باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه.

(٣) جزء من حديث طويل أخرجه مسلم بشرح النووي ١١١/ ١٥ برقم (٢٣٨٠).

(٤) شرح صحيح مسلم ص ١١٦/ ١٥.

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي ص(١١٦/ ١٥)، كتاب الفضائل باب من فضائل الخضر عليه السلام.

وفي النهاية أكد أن علم الله لمخلوقاته لا يعلمها إلا هو فقال: (قوله ﷺ: «فعتب الله عليه إذا لم يرد العلم إليه»[1]. أي كان حقه أن يقول الله أعلم، فإن مخلوقات الله تعالى لا يعلمها إلا هو قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾[2] كما ثبت الإمام النووي: «أن علم الله لا أول له فقال: (فإن علم الله تعالى وما قدره على عباده وأراده من خلقه أزلي)[3].

وما سلكه الإمام في إثبات صفة العلم موافق لمنهج أهل السنة والجماعة.

٢ـ صفة الإرادة.

أثبت النووي ـ رحمه الله ـ صفة الإرادة لله تعالى، وسلك في إثباتها المسلك الذي سلكه في إثبات صفة العلم بالأدلة النقلية والعقلية، حيث قال أن الإرادة صفة قديمة يريد بها جميع المخلوقات فقال: (وإرادته سبحانه وتعالى صفة له قديمة يريد بها جميع المخلوقات...)[3].

كما أثبت أن الله مريد كما هو مذهب أهل الحق فقال: (ومذهب أهل الحق أن الله مريد لجميع الكائنات خيرها وشرها ومنهاالإيمان والكفر وهو سبحانه وتعالى مريد لإيمان المؤمن ومريد لكفر الكافر خلافًا للمعتزلة في قوله: إنه أراد إيمان الكافر ولم يريد كفره تعالى عن قولهم الباطل فإنه يلزم من قوله إثبات العجز في حقه سبحانه وأنه وقع في ملكه ما لم يُرد»[5].

فهذا كلام النووي في إثبات صفة الإرادة لله تعالى، وسيأتي الكلام على صفة الإرادة في فصل القضاء والقدر.

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي ص (١١١ـ١١٢/ ١٥)، برقم (١١٧).

(٢) سورة المدثر، الآية: [٣١].

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص(١١٢/ ١٥)، كتاب القدر باب حجاج آدم وموسى.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص (٥٧/ ١٧).

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي ص (١٢٢/ ١٧).

٢ - صفة الكلام .

تعد صفة الكلام من أشهر الصفات الإلهية التي حصل فيها النزاع في العقيدة، وامتحن بسببها العديد من الأئمة الثابتين على الحق، كما يعرف ذلك من درس تاريخ نشأة البدع العقدية في الإسلام . وموضوع صفة الكلام - كما يصفه كثير من العلماء - موضوع طويل، ولقد ضل فيه كثير من الناس .

قال ابن حجر في موضوع صفة الكلام (طويل الذيل، قد أكثر أئمة الفرق فيه القول، وذهبوا فيه مذاهب شتى» [١] .

وقال شارح الطحاوية عنه : (ضل فيه طوائف من الناس) [٢] .

ولقد هدى الله تعالى أهل السنة والجماعة لما أختلف فيه من الحق في هذا الباب، كما هو شأنهم في أبواب العقيدة كلها، بل وفي جميع أبواب الدين .

وخلاصة مذهب السلف في هذه الصفة أنهم يثبتون الكلام صفة قائمة بذات الله سبحانه وأنه تعالى لم يزل متكلمًا إذا شاء ومتى شاء، وكيف شاء وهو يتكلم به بصوت يسمع وأن نوع الكلام قديم، وإن لم يكن الصوت المعين قديمًا» [٣] .

وهذا هو الحق الذي دلت عليه الأدلة من الكتاب والسنة لمن تدبرها، وشهدت به الفطرة السليمة التي لم تضر بالشبهات، والشكوك والأراء الباطلة» [٤] .

---

(١) فتح الباري ص(٤٥٤/ ١٣) .

(٢) شرح الطحاوية ص(١٧٢/ ١) .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص(١٧٤/ ١) .

(٤) المصدر نفسه ص(١١٢/ ١) .

رأي الإمام النووي.

أثبت الإمام النووي صفة الكلام لله تعالىٰ - مستدلاً بقوله ﷺ: «ائتوا موسىٰ عليه السلام الذي كلمه الله وأعطاه التوارة»[1].

قال: «هذا بإجماع أهل السنة علىٰ ظاهره وأن الله تعالىٰ كلم موسىٰ حقيقة كلامًا سمعه بغير واسطة، ولهذا أكد بالمصدر، والكلام صفة ثابتة لله تعالىٰ، لا يشبه كلام غيره»[2].

كما قال رحمه الله قولاً يثبت أن القران هو كلام الله فقال: «وقد اتفق أصحابنا وغيرهم من المحققين علىٰ أنه يستحيل أن يتكلم الله تعالىٰ بما لا يفيد والله أعلم»[3].

وكان هذا تعليقًا منه رحمه الله علىٰ الفرق بين المحكم والمتشابه ومعناهما.

وقال مثبتًا صفة الكلام لله: «قوله تعالىٰ ﴿من وراء حجاب﴾[3]. فقال الواحدي وغيره غير مجاهر لهم بالكلام بل يسمعون كلامه سبحانه وتعالىٰ من حيث لا يرونه..»[4].

كما قال رحمه الله في حديث الرسول ﷺ ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم، «قيل معنىٰ لا يكلمهم تكليم أهل الخيرات وبإظهار الرضىٰ بل بكلام أهل السخط والغضب، وقيل المراد الإعراض عنهم، وقال جمهور المفسرين لا يكلمهم كلامًا ينفعهم ويسرهم، وقيل: لا يرسل إليهم الملائكة ....»[5].

* كما أثبت الكلام لله من خلال قوله ﷺ: «من قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ٤٩/ ٣ برقم (٣٢٢).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٤٩/ ٣)، كتاب الإيمان باب أوفىٰ أهل الجنة منزلة فيها.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص ١٧٨/ ١٦١ كتاب العلم.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٦/ ٣) كتاب الإيمان.

(٥) شرح صحيح مسلم ص(٩٨/ ٢)، كتاب الإيمان.

وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبدالله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه . . . . »[1].

قال رحمه الله : «هذا حديث عظيم الموقع وهو أجمع أو من أجمع الأحاديث المشتملة على العقائد فإنه ﷺ جمع فيه ما يخرج عن جميع ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدهم فاختصر ﷺ في هذا الأحرف على ما يباين به جميعهم ، وسمى عيسى عليه السلام كلمة لأنه كان الكلمة كن فحسب من غير أب بخلاف غيره من بني آدم . قال الهروي : سمي كلمة لأنه كان عن الكلمة فسمى بها كما يقال للمطر رحمة . . . »[2].

فالله له صفة الكلام ثابتة بالقرآن والسنة ، ومن كلامه كلمة «كن» ، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة بأن كلامه قديم لا يشبه كلامه غيره ، وهو يتكلم بكلام مسموع سبحانه وتعالى .

وبالأقوال السابقة يظهر لنا موافقة الإمام النووي لمذهب السلف في إثبات صفة الكلام لله تعالى ، وأن القران كلامه سبحانه ، وكلامه صفة من صفاته وأنه غير مخلوق كما قال تعالى . ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ [3]. وأنه سبحانه يتكلم بحرف وصوت مسموع كما قال ﷺ : «يقول الله يا آدم ، فيقول : لبيك وسعديك ، فينادي بصوت : إن الله يأمرك أن تخرج من ذريتك بعثًا إلى النار»[4].

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي ص(٢٠٠/ ١) برقم (٢٨).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٢٠٠/ ١) كتاب الإيمان، برقم ٢٤٦ .

(٣) سورة التوبة، الآية : ٦

(٤) رواه البخاري ص(٤٥٣/ ١٣).

وأن كلام الله ليس بمعنى واحدًا، بل كلام الله لا حد له، ولا يستطيع أحد أن يحصيه كما قال تعالى .

﴿ قُل لو كانَ الْبحْرُ مدادًا لكَلمات ربِّي لنَفدَ الْبحْرُ قبْلَ أن تنفدَ كلماتُ ربِّي ولَوْ جئْنَا بمثله مددا ﴾[1]، قال الإمام النووي قوله ﷺ: «أعوذ بكلمات الله التامات»، قيل معناه الكاملات التي لا يدخل فيها نقص ولا عيب، وقيل: النافعة الشافية، وقيل: المراد بالكلمات هنا القرآن والله أعلم»[2]. وأن هذا القرآن منه سبحانه بدا، فعن ابن عباس - رضي الله عنه - أنه صلى على جنازة فقال: «اللهم رب القرآن اغفر له، فقال ابن عباس، ثكلتك أمك إن القرآن منه»[3]. وأن كلامه سبحانه وتعالى لا يشبه كلام المخلوقين وصوته لا يشبه صوت المخلوقين، كما أن ذاته لا تشبه ذات المخلوقين، قال تعالى: ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾[4].

قال عن سويد بن سعيد[5] قال سمعت مالك بن أنس، وحماد بن زيد وسفيان بن عيينه والفضيل بن عياض - وذكر أنواعًا غيرهم - إلى أن قال: (جميع من حملت

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١٠٩ .

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٢٦/ ١٧) كتاب الذكر .

(٣) رواه اللالكائي في شرح اعتقاد أهل السنة ص(٢٣٠ - ٢٣١/ ٢)، والبيهقي في الأسماء والصفات، وقال: وروي في ذلك عن عمر وعثمان وعلي - رضي الله عنهم - ص(٣١٢)، والأباطيل، والمناكير والصحاح والمشاهيد للجوزقاني ص ٢٨٨/ ٢ .

(٤) سورة الشورى، الآية: [١١].

(٥) هو سويد بن سعيد بن سهل الهروي، المحدثاني، أبو محمد الأنبارة، صدوق في نفسه إلا أنه عمي فصار يتلقن ما ليس من حديثه، فأمتحن فيه ابن معين القول وهو من رواة الموطأ، مات سنة ١٢٤هـ، تحرير التقريب ص(٩٢/ ٢) .

عنهم العلم يقولون القرآن كلام الله تعالىٰ، وصفة ذاته غير مخلوق، من قال: إنه مخلوق، فهو كافر بالله العظيم»[1].

٣ - موافقته لمنهج السلف في ذلك.

ما ذكره الإمام رحمه الله موافق لمذهب أهل السنة والجماعة. كما أنه لم يتعرض رحمه الله للمسائل الكثيرة المتعلقة بموضوع صفة الكلام، والتي آثارها المبتدعون من الفرق الكلامية وهذا يدل علىٰ مدىٰ قربه رحمه الله من مذهب السلف في كثير من المواطن فيما نرىٰ فيما بعد.

٤ - صفة القدرة.

تكلم الإمام علىٰ صفة القدرة في شرح قوله ﷺ: «اللهم أنت الملك»[2] فقال: (أي القادر علىٰ كل شيء المالك الحقيقي لجميع المخلوقات)[3].

وعند شرح معنىٰ كلمة الرب أثبت قدرة الله سبحانه وتعالىٰ قال: (... فكل ذلك وشبهه وصف له سبحانه دلائل العظمة وعظيم القردة والملك، ولم يستعمل ذلك فيما يحتقر ويستصغر فلا يقال: رب الحشرات وخالق القردة والخنازير وشبه ذلك علىٰ الإفراد وإنما يقال خالق المخلوقات وخالق كل شيء وحينئذ تدخل هذه في العموم والله أعلم)[4].

كما أثبت قدرة الله تعالىٰ عند شرحه حديث: «قلوب بني آدم كلها بين اصبعين من أصابع الرحمن..»، قال: (يتأول بحسب ما يليق بها فعلىٰ هذا المراد المجاز كما

---

(١) رواه البيهقي في الأسماء والصفات ص (٣١٨-٣١٩)، والسنن الكبرىٰ ص (٢٠٦/ ١٠).

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ٦/٥١ برقم (٧٧١).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٦/٥١) كتاب صلاة المسافرين باب صلاة النبي ﷺ.

(٤) المصدر نفسه ص (٦/٥٠)، و ص(٦/٥١).

يقال فلان في قبضتي وفي كفي لا يراد به أنه حال في كفه بل المراد تحت قدرتي ويقال فلان بين أصبعي أقلبه كيف شئت أي أنه مني على قهره والتصرف فيه كيف شئت فمعنى الحديث .

أنه سبحانه وتعالى متصرف في قلوب عباده وغيرها كيف شاء لا يمتنع عليه منها شيء ولا يفوته ما أراده كما لا يمتنع على الإنسان ما كان بين إصبعيه فخاطب العرب بما يفهمونه ومثله بالمعاني الحسية تأكيداً له في نفوسهم فإن قيل : فقدرة الله تعالى واحدة والإصبعان للتثنية ، فالجواب أنه قد سبق أن هذا مجاز واستعارة فوقع التمثيل بحسب ما اعتاده غير مقصود به التثنية والجمع والله أعلم)[١] .

فإثبات النووي رحمه الله لقدرة الله صحيح ولكن تأويله للأصابع والتي هي صفة ثابتة لله خطأ منه رحمه الله وكل هذا ظن منه أن هذا لا يليق بالله .

كما أول صفة اليد لله عز وجل في بعض المواضع بالقدرة كما سيأتي بيانه عند التعرض لصفة اليد في موضعها ، ولقد بينت قبل ذلك ، أن ما اتبعه النووي من طريق التأويل كان خطأ منه عفا الله عنه ، وعن المسلمين عامة .

٥ - صفة العلو والفوقية .

صفة العلو : من أعظم صفات الله تعالى التي اختلفت الأراء حولها ، على الرغم من وضوحها ، وتضافر الأدلة على إثباتها ، وذلك من آثار علم الكلام الذي شوّه صفاء العقيدة ، وغير سلامة الفطرة ، ولولاه ما أنكر مسلم علو الله تعالى عن خلقه الثابت بالكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة والعقل والفطرة .

وقد وجدت الإمام النووي - رحمه الله - تعرّض لهذه الصفة في كتابه : (شرح صحيح مسلم) في أكثر من موضع ، ولكنه (عفا الله عنه) خالف الحق فيها ، وجرى مع

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص(١٦/١٦٧) كتاب القدر باب تصريف الله القلوب .

النفاة في تأويلها، ولم يثبت إلا العلو المعنّوي، وهو علوّ القدر والقهر، وأما علو الذات فينفيه متعلقًا بالشبهة التي اختلقتها المؤولة لنفي صفات الله تعالىٰ، وصرفها عن ظاهرها بدعوىٰ التنزيه .

وأول موضع تعرض فيه لنفي صفة العلو كما في حديث الجارية التي سألها رسول الله ﷺ: «أين الله ؟ قالت في السماء . . .»[1].

قال النووي (هذا الحديث من أحاديث الصفات وفيها مذهبان تقدم ذكرهما مرات في كتاب الإيمان به من غير خوض في معناه مع اعتقاد أن الله تعالىٰ ليس كمثله شيء وتنزيهه عن سمات المخلوقات . **والثاني :** تأويله بما يليق به، فمن قال بهذا قال: كان المراد امتحانها هل هي موحدة تقر بأن الخالق المدبر الفعال هو الله وحده، وهو الذي إذا دعاه الداعي استقبل السماء كما إذا صلىٰ استقبل الكعبة، وليس ذلك لأنه منحصر في السماء كما أنه ليس منحصر في جهة الكعبة بل ذلك لأن السماء قبلة الداعين، كما أن الكعبة قبلة المصلين، أو هي من عبدة الأوثان العابدين للأوثان التي بين أيديهم فلما قالت: في السماء علم أنها موحدة وليست عابدة للأوثان)[2].

وقال ناقلاً عن القاضي : (لا خلاف بين المسلمين قاطبة فقيههم ومحدثهم ومتكلمهم ونظائرهم ومقلدهم أن الظواهر الواردة في ذكر الله في السماء. لقوله تعالىٰ: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ ﴾[3] ونحوه ليست علىٰ ظاهره بل متأولة عند جميعهم فمن قال بإثبات جهة فوق من غير تحديد ولا تكييف من المحدثين والفقهاء والمتكلمين تأول في السماء أي علىٰ السماء. ومن قال من دهماء النظار والمتكلمين وأصحاب التنزيه بنفي الحد واستحالة الجهة في حقه سبحانه وتعالىٰ

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص (٢٢/ ٥) برقم (٣٣).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٢٢/ ٥) كتاب المساجد باب تحريم الكلام في الصلاة .

(٣) سورة الملك، الآية: ١٦ .

تأولوها تأويلات بحسب مقتضاها، وذكر نحو من سبق قال: ويا ليت شعري ما الذي جمع أهل السنة والخلق كلهم على وجوب الإمساك عن التفكر في الذات، كما أمرو وسكتوا لحيرة العقل واتفقوا على تحرم التكييف والتشكيل وأن ذلك من وقوفهم وإمساكهم غير شاك في الوجود وغير قادح في التوحيد بل هو حقيقته ثم تسامح بعضهم بإثبات الجهة خاشيًا مثل هذا التسامح وهل بين التكييف وإثبات الجهة فرق لكن ما أطلقه الشرع من أنه القاهر فوق عباده وأنه استوى على العرش مع التمسك بالآية الجامعة لتنزيه الكلي الذي لا يصح في المعقول غيره وهو قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾ عصمة لمن وفقه الله تعالى وهذا كلام القاضي رحمه الله تعالى)[١].

فهذا القول للإمام النووي فيه تأثر واضح بالمذهب الأشعري الذي ينفي علو الله الذاتي. ثم وجد هو وغيره. أن هناك من النصوص الصحيحة الصريحة تصادم ما اعتقدوه فلم يجدوا سبيلاً للتخلص إلا بتوجيهها هذا التوجيه الذي يعوزه الدليل، ولقد كان يكفيهم أن يقفوا مع هذه النصوص ويأخذوا بفهم السلف الصالح فيها، وفي ذلك النجاة والسلامة، ولكن التوفيق بيد الله والله يهدي من يشاء.

ثم قول الإمام النووي: (ومذهب السلف هو الإيمان بها من غير خوض في معناه مع اعتقاده أن الله تعالى ليس كمثله شيء وتنزيهه عن سمات المخلوق)[٢]. قول بلا دليل مضمونه أن مذهب السلف التفويض القائم على عدم فهم المعاني وقد ذكرت بطلان هذا ـ سابقًا ـ كما أن ما توهمه الإمام من أن إثبات الصفات لله يلزم منه التشبيه ومشابهة المخلوقات فيلزم ذلك التنزيه، والذي هو قائم عنده على نفي الصفات وتأويلها طريق خاطئ، وقع فيه كل ما توهم ذلك، وأما تأويله للحديث وصرفه عن ظاهره، فمردود لأن السلف أثبتوا لله علواً وفوقيه تليق بجلال الله وعظمته، وقوله أن السماء قبلة الدعاء معترض عليه وهوقول فاسد. والصحيح فيه ما قاله الطحاوي في شرحه.

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٢٢/ ٥)، كتاب المساجد باب تحريم الكلام في الصلاة.

(٢) شرح صحيح مسلم ص ٢٢/ ٥، ٣٢ـ٣٣/ ٦.

قال رحمه الله : (وأجيب عن هذا الاعتراض من وجوه : أحدهما : أن قولكم : إن السماء قبلة الدعاء لم يقله أحد من سلف الأمة، ولا أنزل الله به من سلطان، وهذا من الأمور الشرعية الدينية، فلا يجوز أن يخفى على جميع سلف الأمة وعلمائها.

والثاني : أن قبلة الدعاء هي قبلة الصلاة، فإنه يستحب للداعي أن يستقبل القبلة، وكان النبي ﷺ يستقبل القبلة في دعائه في مواطن كثيرة، فمن قال : إن للدعاء قبلة غير قبلة الصلاة، أو أن له قبلتين : إحداهما الكعبة والأخرى السماء فقد ابتدع في الدين، وخالف جماعة المسلمين.

والثالث : أن القبلة : هي ما يستقبله الإنسان بوجهه، كما تستقبل الكعبة في الصلاة كالدعاء والذكر، والذبح، وكمايوجه المحتضر والمدفون، ولذلك سميت وجهة، والاستقبال خلاف الإستدبار، فالاستقبال بالوجه والاستدبار بالدبر، فأما ما حاذاه الإنسان برأسه أو يديه أو جنبه فلا يسمى قبلة لا حقيقة ولا مجاز، فلو كانت السماء قبلة الدعاء، لكان المشروع أن يوجه الداعي وجهه إليها وهذا لم يشرع..)[1]. ثم نأتي للقول الذي نقله الإمام عن القاضي عياض والذي هو بمجمله مخالف لمذهب السلف من أول كلمة إلى آخرها ومن ذلك أن لا خلاف بين المسلمين قاطبة بين فقيههم ومحدثهم ومتكلمهم ونظائرهم ومقلدهم أن الظواهر الواردة في ذكر الله في السماء لقوله تعالى : ﴿أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض﴾[2]، ونحوه ليست على ظاهرها بل متأولة عند جميعهم»[3].

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص(٣٩٢-٣٩٣/ ٢) ولقد أعتنى في هذا الكتاب بذكر الأدلة التي ثبت علو الله تعالى على منهج أهل السنة والجماعة بأنواع من الطرق، وأوجه من الدلالة مع رد الشبه حولها انظر ص(٣٨٩-٣٩٢/ ٢) من نفس المصدر.

(٢) سورة الملك، الآية: ١٦ .

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي (ص٢٢/ ٥)، كتب المساجد، باب تحريم الكلام في الصلاة.

أقول: كيف هذا وقد جعل السلف رحمهم الله هذه الآية وغيرها من أدلة الكتاب على إثبات صفة العلو، وهي على ظاهرها.

كما أن إثبات العلو بما يليق بالله تعالى وجلاله، لا تكييف فيه ولا تشكيل، لأن التكييف ليس من مذهب أهل السنة والجماعة أما المعاني فهي معلومة متبادرة إلا الإفهام بما يليق بجلال الله وعظمته.

وأخيراً فقول القاضي: «لكن ما أطلقه الشرع من أنه القاهر فوق عباده، وأنه استوى على العرش، مع التمسك بالآية الجامعة للتنزيه الكلي الذي لا يصح في المعقول غيره وهو قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء﴾ عصمه لمن وفقه الله تعالى.

هنا يثبت القاضي العلو المعنوي الذاتي، أما العلو المكاني فهو مرفوض من أجل ما توهمه القاضي وغيره، أن وصف الله تعالى بالعلو الفوقي مفضٍ إلى كونه سبحانه في جهة تحيط به وتحويه وفي مثل هذا قال النووي قوله ﷺ: «فإن الله قبل وجهه». قال العلماء: تأويله أي الجهة التي عظمها أو الكعبة التي عظمها قبل وجهه».

ظنًا منه أنه بذلك يثبت الجهة والتحيز وكونه سبحانه متحيزاً تعالى الله عن ذلك، وقد تقدم أن هذا التوهم كذب وضلال في العقيدة، إذ لا يفهم ذلك من النصوص الواردة في إثبات صفة العلو الفوقي لله عز وجل ولم ينقل ذلك عن أحد من السلف فليس، له أساس إلا اختلاف نفاة صفات الله تعالى الذين عارضوا الكتاب والسنة، وخالفوا سلف الأمة وكابروا الوارد في العقل والفطرة.

أما الموضع الثاني الذي تعرض فيه الإمام لنفي صفة العلو كان عند شرحه لمعنى اسم الظاهر الوارد في حديث رسول الله ﷺ «وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء»[1].

---

(١) باب الدعاء عند النوم أخرجه مسلم بشرح النووي، ص(٢٩ ـ ٣٠)، كتاب الذكر رقم (٢٧١٣).

قال في شرحه: (وأما اسم الظاهر من أسماء الله تعالىٰ، فقيل: هو من الظهور بمعنىٰ القهر والغلبة، وكمال القدرة، ومنه ظهر فلان علىٰ فلان، وقيل: الظاهر بالدلائل القطعية والباطن احتجب عن خلقه . . . .)[1].

وهذا المعنىٰ موافق لما ذهب إليه معظم الأشاعرة فقال: البيهقي في شرح معنىٰ الظاهر: (هو الظاهر بحججه الباهرة، وبراهينه المنيرة، وشواهد أعلامه الدالة علىٰ ثبوت ربوبيته وصحة وحدانيته، وقد يكون الظهور بمعنىٰ العلو والرفعة، وقد يكون بمعنىٰ الغلبة)[2].

وقال ابن الأثير: (هو الذي ظهر فوق كل شيء وعلا عليه وقيل: هو الذي عرف بطرق الاستدلال العقلي، بما ظهر لهم من آثار أفعالة وأوصافه)[3].

والمعنىٰ الأول الذي ذكره ابن الأثير رحمه الله موافق للحق، الذي دلت عليه النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة، وشهد به العقل والفطرة، وأجمع عليه السلف والأئمة من أن لله تعالىٰ الفوقية المطلقة من كل وجه، فله سبحانه فوقية القهر، وفوقية القدر، وفوقية الذات، ومن أثبت البعض ونفىٰ البعض فقد تناقض. قال ابن القيم: (وكذلك اسمه العلي واسمه «الحكيم» وسائرأسمائه، فإن من لوازم اسم «العلي» العلو المطلق بكل اعتبار، فله العلو المطلق من جميع الوجوه، علو القدر، وعلو القهر، وعلو الذات، فمن جحد علو الذات فقد جحد لوازم اسمه العلي).

وكذلك اسمه الظاهره من لوازمه، أن لا يكون فوقه شيء كما في الصحيح عن النبي ﷺ، (وأنت الظاهر، فليس فوقك شيء)[4]، بل هو سبحانه فوق كل شيء.

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٣٠/ ١٧)، كتاب الذكر باب الدعاء عند النوم.

(٢) الاعتقاد والهداية إلىٰ سبيل الرشاد ص ٦٣.

(٣) النهاية لابن الأثير ص(١٦٤/ ٣).

(٤) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ٣٠/ ١٧ برقم (٢٧١٣).

فمن نفىٰ فوقيته سبحانه فقد جحد لوازم اسمه «الظاهر» ولا يصح أن يكون الظاهر هو من له فوقية القدر فقط. كما يقال الذهب فوق الفضة، والجوهر فوق الزجاج، لأن هذه الفوقية تتعلق بالظهور بل قد يكون المفوق أظهر من الفائق فيها، ولا يصح أن يكون ظهور القهر والغلبة، وإن كان سبحانه ظاهراً بالقهر والغلبة لمقابلة الإسم بـ«الباطن» وهو الذي ليس دونه شيء كما قابل «الأول» ليس قبله شيء بـ«الآخر» الذي ليس بعده شيء)[1].

وكما أن الكتاب والسنة يدل كلا منهما علىٰ العلو لله فالعقل والفطرة. تدلان كذلك فالعقل يوجب صفة الكمال لله سبحانه وتعالىٰ، وينزهه عن النقص، والعلو صفة كمال والسفل صفة نقص، فثبت وصح أن الله تعالىٰ مكانه العلو[2].

وأما الفطرة: فقال ابن عبدالبر: (ومن الحجة أيضًا في أنه عز وجل علىٰ العرش فوق السموات السبع أن الموحدين أجمعين من العرب والعجم إذ كربهم أمرًا ونزلت بهم شدة، رفعوا وجوههم إلىٰ السماء يستغيثون ربهم تبارك وتعالىٰ، وهذا أشهر وأعرف عند الخاصة. والعامة من أن يحتاج فيه إلىٰ أكثر من حكايته، لأنه اضطرار لم يؤنبهم عليه أحد، ولا نكره عليهم مسلم، وقد قال ﷺ للأمة التي أراد مولاها عتقها إن كانت مؤمنة، فأختبرها رسول الله ﷺ بأن قال لها: أين الله؟ فأشارت إلىٰ السماء، ثم قال لها من أنا؟ قالت: رسول الله قال: «أعتقها فإنها مؤمنة»[3]. فاكتفىٰ رسول الله ﷺ منها برفعها رأسها إلىٰ السماء، واستغنىٰ بذلك عما سواه»[4].

وقال ابن القيم: (ومن أبين ما شهدت به الفطرة والعقول والشرائع، علوه

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم ص(٥٥/ ١).

(٢) انظر: شرح العقيدة الطحاوية ص(٣٨٩-٣٩٠/ ١).

(٣) رواه مسلم بشرح النووي ص(٢٢/ ٥) كتاب المساجد تحريم الكلام في الصلاة.

(٤) التمهيد لابن عبدالبر (٧/ ١٣٤)، تحقيق عبدالله بن الصديق ١٣٩٩هـ.

سبحانه فوق جميع العالم، فإن الله فطر على هذا الخليقة حتى الحيوان البهيم، ومن أنكر هذا فهو في جانب والفطر السليمة والعقول المستقيمة وجميع الكتب السماوية، وما أرسل بها في جانب»[1].

٦ - صفة المعية:

علو الله على خلقه واستواءه على عرشه لا ينافي معيته سبحانه لخلقه، فإنه جل وعلا ليس كمثله شيء، حيث أن المعية لا تقتضي أن يكون الله مع خلقه بذاته، بل إن معنى ذلك أنه معهم بعلمه وإحاطته بهم سمعًا وبصرًا وقدرة وتدبيرًا وهذه تسمى المعية العامة.

وأنه سبحانه معهم بالنصرة والتأييد. وهذه المعية الخاصة [2].

ومثال: المعية العامة قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[3].

ومثال المعية الخاصة قوله تعالى: ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾[4]. وقوله تعالى: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [5].

هذا ما دلت عليه النصوص الواردة في المعية وهو المعنى الذي فسر به السلف تلك النصوص. فالله تعالى مع الخلق كلهم بالعلم والقدرة والسلطان، ويخص بعضهم وهم أنبياؤه أولياؤه بالإيمان والنصر والتأييد.

---

(١) الصواعق المرسلة (٤/ ١٢٧٨).

(٢) انظر: الرد على الجهمية للأمام أحمد بن حنبل (١٣٨ - ١٤٢)، وشرح حديث النزول لابن تيمية (١٢٥-١٣٩).

(٣) سورة الحديد، الآية: ٤.

(٤) سورة النحل، الآية: ٤.

(٥) سورة التوبة، الآية: ٤٠.

ومذهب السلف أن معية الله تعالىٰ حق علىٰ حقيقتها، وأنها لا تقتضي الممازجة ولا بأن الله تعالىٰ بائن عن مخلوقاته، وهم منه بائنون[1]، وعلوه عز وجل لا يناقض معيته، ومعيته لا تبطل علوّه بل كلاهما حق[2]، ولذلك جمع بينهما في آية واحدة فقال: ﴿ **هُوَ الذي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرض وما يَخْرُجُ مِنْهَا وما يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تعملون بصير** ﴾[3]»[4].

ولقد وافق الإمام النووي السلف علىٰ إثبات صفة المعية لله تعالىٰ، وأثبت كلاً من المعية الخاصة، والمعية العامة. فقال في شرح حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ - يقول الله تعالىٰ - أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني»[5]. قال الإمام: (قوله تعالىٰ: ﴿ **وأنا معه حين يذكرني** ﴾ أي معه بالرحمة والتوفيق والهداية والرعاية[6]، وأما قوله تعالىٰ: ﴿ **وهو معكم أينما كنتم** ﴾

---

(١) مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (٣/ ١٤٢ - ١٤٣) (٥/ ١٠٣).

(٢) مختصر الصواعق المرسلة (٢/ ٣٩٢).

(٣) سورة الحديد، الآية: ٤.

(٤) مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (٥/ ٢٢٧ - ٤٩٧)، وانظر: إثبات صفة العلو لابن قدامة المقدسي، ص(١٦٦ - ١٦٧)، ومختصر العلو، للذهبي، ص(١٣٣)، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، وانظر نور الاقتباس من مشكاة وصية النبي لابن عباس ص(٣٤ - ٣٥).

(٥) أخرجه مسلم بشرح النووي ٣/ ١٧ برقم (٢٦٧٥).

(٦) لقد ذكر الحافظ ابن حجر في فتح الباري أن المراد بالمعية معية العلم وهو ليس دقيقًا لأن العلم عام وهذه المعية خاصة وهي كما ذكرها النووي رحمه الله.

فمعناه بالعلم والإحاطة)[1].

وفي موضع آخر ذكر حديث مسلم وهو قوله ﷺ للناس حين جهروا بالتكبير: «أيها الناس أربعوا على أنفسكم إنكم ليس تدعون أصم ولا غائبًا إنكم تدعون سميعًا قريبًا وهو معكم»[2]. قال النووي: (.... معناه أرفقوا بأنفسكم واخفضوا أصواتكم فإن رفع الصوت إنما يفعله الإنسان لبعد من يخاطبه ليسمعه وأنتم تدعون الله تعالى وليس هو بأصم ولا غائب بل هوسميع قريب وهو معكم بالعلم والإحاطة. ففيه الندب إلى خفض الصوت بالذكر إذا لم تدع حاجة إلى رفعه)[3].

فكلام الإمام في هذين الموضعين كليهما موافق لما ذكر السلف في معنى المعية والله تعالى ولي التوفيق.

٧ - صفة القرب والدنو:

القرب كالدّنو: ضد البعد، وهو ظاهر في اللغة[4].

وقد وصف الله تعالى نفسه بالقرب، فقال عز وجل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ﴾[5]، ووصف نفسه بالدنو على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام، فقال ﷺ: «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبدًا من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة، فيقول ما أراد هؤلاء ؟؟»[6].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي (ص٤/ ١٧)، كتاب الذكر باب الحث على ذكر الله تعالى.

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ٢١/ ١٧ بدقم ٢٧٠٤.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي (ص٢٢/ ١٧) كتاب الذكر باب استحباب خفض الصوت بالذكر إلا في المواضع التي ورد الشرع برفعه فيها.

(٤) القاموس المحيط، مادة (قرب، ص١٢٣، ومادة (دنا)، ص(٤٠).

(٥) سورة البقرة، الآية: ١٨٦.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي (٩/ ٩٩-١٠٠)، كتاب الحج باب فضل يوم عرفه.

ولم يرد في الكتاب والسنة وصف الله تعالىٰ بقرب عام من كل موجود[1]، وإنما ورد وصفه بالقرب من عباده في بعض الأحوال[2]، ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (ما نطق به الكتاب والسنة من قرب الرب من عابديه وداعيه، هو مقيد مخصوص لا يطلق علىٰ جميع الخلق، فبطل قول الحلولية[3])[4].

ولقد أثبت السلف صفة القرب لله تعالىٰ علىٰ حقيقتها، كما يليق بجلاله وعظمته، قالوا: إن قربه لا ينافي علوّه وفوقيته، فإنه سبحانه ليس كمثله شيء في جميع نعوته، وهو عليّ في دنوه، قريب في علوّه»[5].

وأما الإمام فإنه لم يأخذ بقول السلف في هذه الصفة.

* فقال في شرح قوله ﷺ: «والذي تدعونه أقرب إلىٰ أحدكم من عنق راحلة أحدكم»[6]، (وهو بمعنىٰ ما سبق وحاصله أنه مجاز كقوله تعالىٰ: ﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾[7]، والمراد تحقيق سماع الدعاء)»[8].

* وقال أيضًا في موضع آخر متأولاً صفة القرب: قوله ﷺ: قال تعالىٰ: «وإن تقرب مني شبرًا تقربت إليه ذراعًا وإن تقرب إلي ذراعًا تقربت منه باعًا، وإن أتاني

---

(١) مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (٥/ ٤٩٤).

(٢) نفس المصدر (٥/ ٢٣٦).

(٣) الحلولية: هي في الجملة عشر فرق كلها كانت في دولة الإسلام، وغرضها جميعها التصد إلىٰ إفساد القول بتوحيد الصانع وتفصيل فرقها في الأكثر يعود إلىٰ غلاة الروافض، وذلك أن البيئة والبيانية والجناحية والخطابية والنميرية منهم بأجمعها حلولية، وظهر بعدهم المقفعية، ثم الرزاحية، والبركوكية، ثم الحلمانية، ثم الحلاجية ثم العزافرة ثم الخدمية. انظر الفرق بين الفرق ص ٢٥٤، والملل والنحل ص ٢٦/ ١.

(٤) المصدر السابق (٥/ ٢٤٧).

(٥) كتاب التوحيد لابن منده (٣/ ١٢٥ ـ ١٢٨)، ومجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (٣/ ١٤٣، ٥/ ٤٦٦، ٥٦٠).

(٦) أخرجه مسلم للنووي ص (٢٢/ ١٧)، برقم ٤٤.

(٧) سورة ق، الآية: ١٦.

(٨) شرح صحيح مسلم للنووي ص (٢٢/ ١٧).

يمشي أتيته هرولة»، قال الإمام: (هذا الحديث من أحاديث الصفات، ويستحيل إرادة ظاهره وقد سبق الكلام في أحاديث الصفات مرات، ومعناه من تقرب إلي بطاعتي تقربت إليه برحمتي والتوفيق والإعانة ومن زاد زدت فإن أتاني يمشي وأسرع في طاعتي أتيته هرولة، أي صببت عليه الرحمة وسبقته بها ولم أحوجه إلى المشي الكثير في الوصول إلى المقصود، والمراد أن جزاءه يكون تضعيفه على حسب تقربه)[1].

* وقال معلقًا في موضع آخر على هذا الحديث: (الباع والبوع بضم الباء وبفتحها كلمة بمعنى واحدة وهو طول ذراعي الإنسان وعضديه وعرض صدره قال الباجي[2]: وهو قدر أربع أذرع وهذا حقيقة اللفظ والمراد بها في هذا الحديث المجاز كما سبق في أول كتاب الذكر في شرح هذا الحديث مع الحديثين بعده)[3].

فالإمام النووي رحمه الله يجعل صفة القرب الواردة في الحديث، والتي أثبتها السلف يجعلها مجازًا، بينما حملها في الحديث الثاني بمعنى المعية الخاصة، وهي الرحمة والتوفيق والإعانة وربما كان ذلك ظنًا منه أن لفظ «القرب» مثل لفظ «المعية» في المعنى وليس كذلك فإن المعية تكون عامة وخاصة كما سبق، بخلاف القرب، فلم يثبت إلا خاصًا والله أعلم .

فكلام النووي ليس فيه إثبات لصفة القرب كما أثبتها السلف، بل فيه تأويل للقرب بما يخصه الله تعالى به بعض عباده، باللطف والنصرة، وهذا مخالف لأنه لم يرد دليل من كتاب ولا سنة بإثبات قرب عام بجميع الناس»[4].

وأما ما يتعلق فيما ورد في صفة الدنو فحال الإمام فيه يشبه حاله في صفة القرب

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٤ ـ ٥/ ١٧) كتاب الذكر باب فضل الذكر والدعاء .

(٢) هو الحافظ القاضي أبو الوليد، سليمان بن خلف بن سعد التجيبي الأندلسي القرطبي الباجي أصله من بطليوس فتحول جده إلى باجه بليدة بقرب إشبيلية فنسب إليها، ولد سنة (٤٠٣هـ) له تصانيف منها الاستغناء والستديد إلى معرفة التوحيد ولي قضاء أماكن تصغر عن قدره توفي سنة (٤٧٤)هـ انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ١٨/ ٥٣٥ .

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص(١٠ ـ ١١/ ١٧) كتاب الذكر .

(٤) انظر: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية (٥/ ٤٨٤) .

من حيث التأويل والإصرار عليه .

* ففي حديث فضل يوم عرفة، وهو قوله ﷺ: «ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة وأنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة فيقول ما أراد هؤلاء»[1] .

قال الإمام : (قال القاضي عياض : قال المازري : إن معنى يدنو في هذا الحديث أي تدنو رحمته وكرامته لا دنو مسافة ومماسة، قال القاضي يتأول ما سبق في حديث النزول إلى السماء الدنيا كما جاءت في الحديث الآخر من غيظ الشيطان يوم عرفة من تنزل الرحمة، قال القاضي : وقد يراد دنوا الملائكة إلى الأرض أو إلى السماء بما ينزل معهم الرحمة ومباهاة الملائكة بهم عن أمره سبحانه وتعالى، قال : وقد وقع الحديث في صحيح مسلم مختصر أو ذكره عبدالرزاق في سنده من رواية ابن عمر، قال : إن الله ينزل إلى السماء الدنيا فيباهي بهم الملائكة، يقول . . . . »[2] .

* وفي موضع آخر قال في تفسير آية : ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾[3] .

قال القاضي عياض رحمه الله : (. . . وكذلك اختلفوا في قوله تعالى : ﴿ثُمَّ دَنَا فتدلى﴾[4] .

فالأكثرون على أن هذا الدنو والتدلي منقسم ما بين جبريل والنبي ﷺ أو مختص بأحدهما من الآخر من سدرة المنتهى، وذكر عن ابن عباس والحسن ومحمد بن كعب وجعفر ابن محمد وغيرهم، أنه دنو من النبي ﷺ إلى ربه سبحانه وتعالى أو من الله تعالى وعلى هذا القول يكون الدنو والتدلي متأولاً من النبي ﷺ بل كما قال جعفر ابن محمد الدنو من الله تعالي لا حد له ومن العباد بالحدود فيكون معنى دنو النبي ﷺ من ربه سبحانه وتعالى وقربه منه ظهور عظيم منزلته لديه وإشراق أنوار معرفته عليه

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي ص(٩٩/ ٩) برقم (١٣٤١) .

(٢) شرح صحيح مسلم ص(٩٩ـ١٠٠/ ٩) كتاب الحج فضل يوم عرفه .

(٣) سورة النجم، الآية : ١٣ .

(٤) سورة النجم، الآية : ٨ .

وإطلاعه من غيبه وأسرار ملكوته على ما لم يطلع سواه عليه . والدنو من الله سبحانه له إظهار ذلك له وعظيم بره وفضله العظيم لديه ويكون قوله تعالى قاب قوسين أو أدنى . على هذا عبارة عن لطف المحل وإيضاح المعرفة والإشراق على الحقيقة من نبينا محمد ﷺ ومن الله إجابة الرغبة وإبانة المنزلة ، ويتأول في ذلك ما تأول في قوله ﷺ عن ربه عز وجل «من تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعًا» . الحديث)[1] .

ولأن الإمام النووي يرى ما يراه القاضي رحمهم الله وعفا عنهما ، لم يعلق على هذا القول مما يؤكد منهجه في تأويل كلاً من صفتي القرب والدنو ، والتي تأولها في موضع آخر في نص صريح له . قال قوله ﷺ : (يدني المؤمن يوم القيامة من ربه حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه ، إلى آخره)[2] ، وقال : (والمراد بالدنو هنا دنو كرامة وإحسان لا دنو مسافة والله تعالى منزه عن المسافة وقربها)[3] .

وما ذكره الإمام رحمه الله تأويل للأحاديث على خلاف منهج السلف ، فهو وغيره لم يفهموا من حقيقة صفة الله تعالى إلا مثل ما هي عند المخلوق ، فصرفوها عن الحقيقة إلى المجاز ، لذلك فشبهوا أولاً ثم أولوا ثانيًا فجمعوا بين أمرين فاسدين : التشبيه ، والتعطيل وأما السلف أهل السنة والجماعة . يذكرون هذه النصوص على ظاهرها وحقيقة معناها اللائق بالله عز وجل ، من غير تكييف ولا تمثيل والله أعلم .

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٥/ ٣) كتاب الإيمان باب معنى قول الله عز وجل : ﴿ولقد رآه نزلة أخرى﴾ .

(٢) أخرجه مسلم في شرح النووي ص (٧١-٧٢/ ١٧) برقم (٥٢) .

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص (٧٢/ ١٧) كتاب التوبة باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله .

٨- صفة النزول:

وهي نزول الباري جل وعلا آخر الليل، في ثلثه الآخير إلى السماء الدنيا كما ثبت بحديث أبي هريرة في الصحيحين من أنه سبحانه ينزل في الثلث الأخير من الليل فيقول: «هل من داع فاستجيب له، هل من مستغفر فأغفر له . . . الحديث»[١].

قال الحافظ ابن رجب مثبتًا صفة النزول لله الواردة في الحديث: «. . . وكذلك آخر الليل أفضل من أوله كذا قال السلف واستدلوا بحديث النزول الإلهي. وهذا كله مما يُرجح به قول من قال إن صلاة العصر هي الوسطى وأما الوقت الثالث فهو الدلجة والإدلاج، سير أخير الليل، والمراد هنا العمل في آخر الليل، وهو وقت الاستغفار، كما قال تعالى: ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ﴾[١]، وقال تعالى: ﴿وبالأسحار هم يستغفرون﴾[٢]، وهذا آخر أوقات النزول الإلهي، المتضمن لاستعراض حوائج السائلين، واستغفار المذنبين، وتوبة التائبين . . .»[٣].

وقد أخرج الإمام مسلم الخبر الوارد في نزول الرّب جلّ وعلا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بطريقين أحدهما: أن رسول الله ﷺ قال: «وينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له»[٤].

والثاني: عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل الله إلى السماء الدنيا كل ليلة حين، تمعنى ثلث الليل الأول، فيقول: أنا الملك، أنا الملك. من ذا الذي يدعوني فأستجيب له من ذا الذي يسألني فأعطيه! من ذا الذي يستغفرني فأغفر له! فلا يزل

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ٣٣/٦، برقم (٧٥٨).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٧ .

(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٧ .

(٤) المحجة في سير الدلجة ص(٦٤ـ ٦٥) لابن رجب الحنبلي.

(٥) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ٣٣/٦ برقم (١٦٨).

كذلك حتى يضيء الفجرُ»(١).

وتعرض الإمام النووي لشرح هذا الحديث في شرحه لصحيح مسلم، ولكنه خالف فيه منهج السلف، وذلك أنه عندما شرح الحديث قال فيه:

(هذا الحديث من أحاديث الصفات وفيه مذهبان مشهوران للعلماء سبق إيضاحهما في كتاب الإيمان ومختصرهما:

أحدهما: وهو مذهب جمهور السلف وبعض المتكلمين أنه يؤمن بأنها حق على ما يليق بالله تعالى. وأن ظاهرها المتعارف في حقنا غير مراد ولا يتكلم في تأويلها مع اعتقاد تنزيه الله تعالى، عن صفات المخلوق وعن الانتقال والحركات وسائر سمات الخلق.

والثاني: مذهب أكثر المتكلمين وجماعات من السلف وهو محكي عن مالك والأوزاعي أنها تتأول على ما يليق بحسب مواطنها فعلى هذا تألوا هذا الحديث: تأويلين:

أحدهما: تأويل مالك عن أنس وغيره. معناه تتنزل رحمته وأمره، وملائكته كما يقال فعل السلطان كذا إذا فعله أتباعه بأمره)(٢).

والثاني أنه على الاستعارة، ومعناه: الإقبال على الداعين بالإجابة واللطف والله أعلم)(٣).

وأقول: القول في صفة النزول كالقول في غيرها من الصفات الفعلية، ومذهب

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي ص(٦/٣٣) برقم (١٦٩) ص(٣٢-٣٣/٦)، كتاب صلاة المسافر من باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل.

(٢) كذلك نسب تأويل النزول إلى مالك الحافظ ابن حجر في كتابه فتح الباري. انظر (٣/ ٣٠).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٣٢-٣٣/ ٦)، كتاب صلاة المسافر من باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل.

الأشاعرة فيها واحد، والسلف رحمهم الله تعالىٰ أثبتوا هذه الصفة كما وردت، وردوا علىٰ من تأولها بنزول أمره أو رحمته أو ملك أو غير ذلك وأقوالهم في ذلك مشهورة ومتواترة[1].

وما ذكره الإمام من أن ظاهرها المتعارف في حقنا غير مراد ـ معلوم في الدين بالضرورة، وأما أنه لا يتكلم في تأويلها بمعنىٰ تكييفها فهو حق، وإن كان مراده لا يتكلم في معناها فهو قول مردود، رده كثير من السلف الذين أثبتوا أن الصحابة وغيرهم كانوا يفسرون آيات الصفات وأحاديث الصفات ولا يتعرضون لكيفيتها؛ كما أن توهم الإمام أن إثبات مثل هذه الصفات الفعلية يوهم التشبيه بالمخلوقات كان سبب ما وقع به من أخطاء هو وغيره، كما أن الإمام النووي رحمه الله كان يظن أن السلف قد يكون غائبًا عنهم أن لله صفات لا يشابه فيه أحد من خلقه، كما أن للخلق صفات خاصة بهم وهي صفات ناقصة، وهم عندما يثبتونها يعلمون تمام العلم أن منهجهم هذا هو المنهج الحق والمنهج الوسط الذي يقوم علىٰ الإثبات بلا تشبيه والتنزيه بلا تعطيل، فنزوله سبحانه نزول من غير تحديد أو تشبيه أو تأويل وهم مجمعون علىٰ ذلك.

قال الدارمي: «فهذه الأحاديث قد جاءت كلها أو أكثر منها في نزول الرب تبارك وتعالىٰ في هذه المواطن، وعلىٰ تصديقها والإيمان بها، أدركنا أهل الفقه والبصر من مشائخنا لا ينكرها منهم أحد، ولا يمتنع من روايتها»[2].

وقال الصابوني: «ويثبت أصحاب الحديث نزول الرب سبحانه وتعالىٰ كل ليلة إلىٰ السماء الدنيا من غير تشبيه له بنزول المخلوقين ولا تمثيل ولا تكييف بل يثبتون ما

---

(١) شرح حديث النزول مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (٥/ ٣٢٢، ٣٧٤)، ٣٧٥، ٣٨٧ـ ٣٩٥)، ومنهاج السنة (٢/ ٥١١ ـ ٥١٣) طبعة دار العروبة المحققة.

(٢) الرد علىٰ الجهمية للدارمي ص(٣٨ـ ٥٣).

أثبته رسول الله ﷺ وينتهون فيه إليه ويمرون الخبر الصحيح الوارد بذكره على ظاهره ويكلون علمه إلى الله ، وكذلك يثبتون ما أنزل الله - عز اسمه - في كتابه من ذكر المجيء والإتيان المذكورين في قوله عز وجل : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ ﴾ [(١)] .

وقوله عز وجل : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [(٢)]»[(٣)] .

وقال ابن رجب : (وقد اعترض بنص من كان يعرف هذا على حديث النزول ثلث الليل الآخر ، وقال : ثلث الليل يختلف باختلاف البلدان ، فلا يمكن أن يكون النزول في وقت معين . ومعلوم بالضرورة من دين الإسلام قبح هذا الاعتراض ، وأن رسول الله ﷺ وخلفاؤه الراشدين لو سمعوا من يعترض به لما ناظروه ، بل بادروا إلى عقوبته وإلحاقه بزمرة المخالفين المنافقين المكذبين)[(٤)] .

ولقد ذكر الإمام ابن عبدالبر أقوالاً للعلماء عن هاتين الروايتين تبين ضعفهما . أذكر منها على سبيل المثال :

١ - ذكر ابن عبدالبر رواية حبيب وضعفها بقوله : «وقد قال قوم من أهل الأثر أيضاً أنه ينزل أمره ، وتنزل رحمته ، وروى ذلك عن حبيب كاتب مالك وغيره ، وأنكر منهم آخرون ، وقالوا : هذا ليس بشيء لأن أمره ورحمته لا يزالون ينزلان أبداً في الليل والنهار ، وتعالى الملك الجبار الذي إذا أراد أمراً قال له : كن فيكون ، في أي وقت شاء . تخص برحمته من يشاء متى يشاء لا إله إلا هو الكبير المتعال»[(٥)] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢١٠ .

(٢) سورة الفجر ، الآية : ٢٢ .

(٣) عقيدة السلف ص(٢٦ - ٢٧) ، للصابوني .

(٤) من فضل علم السلف على الخلف لابن رجب ص(١٣٤) ، وانظر شرح حديث النزول بمجموع فتاوى شيخ الإسلام (٥/ ٤١٨) ، وما بعدها (٤٦٧ - ٤٨٠) ، ونقض التأسيس (٢/ ٢٢٨- ٢٣٠) .

(٥) التمهيد لابن عبدالبر (٣/ ٤٤٣) .

وقال شيخ الإسلام عند كلامه على بعض من أول النزول :

« وكذلك ذكر هذه الرواية مالك، رويت من طريق كاتبه حبيب بن أبي حبيب لكن هذا كذاب باتفاق أهل العلم بالنقل لا يقبل أحد منه نقله عن مالك، وقال: عن الرواية الثانية رواية مطرف ورويت عن طريق آخر وذكرها ابن عبدالبر وفي إسنادها من لا نعرفه»[1].

« فلا تضربوا لله الأمثال ﴾ [2]، ينزل كيف شاء بقدرته وعلمه وعظمته أحاط بكل شيء علمًا»[3].

وأما ما ثبت عنه واشتهر في الصفات عمومًا، فما رواه الوليد بن مسلم أنه سأل مالكا وغيره عن أحاديث الصفات فقال: أمروها كما جاءت بلا تفسير»[4].

وأما القول الثاني الذي ذكر أنه أيضًا من مذهب المتكلمين وهو أنه على الاستعارة، ومعناه الإقبال على الداعين بالإجابة واللطف، فمردود كما رد الذي قبله لأن التأويل كله تحريف، ذلك لأنه مخالف لمنهج السلف الذي ذكرناه سابقًا .

وأقول هنا مثلما قال ابن عبدالبر ـ رحمه الله ـ (وقد يحتمل أن يكون كما قال مالك ـ رحمه الله ـ على معنى أنه تتنزل رحمته وقضاؤه بالعفو والاستجابة، وذلك من أمره أي : أكثر ما يكون في ذلك الوقت والله أعلم»[5]. أي أن المقصود هنا كما قال

---

(١) شرح حديث النزول (٥٥/ ٥٨)، وانظر الأقوال الأخرى من كتاب منهج الإمام مالك في العقيدة ص (٢٥٣ ـ ٢٥٤)، إعداد سعود الدعجان الطبعة الأولى .

(٢) سورة النحل، الآية: ٧٤ .

(٣) مختصر الصواعق ص(٣٨٤) .

(٤) رواه اللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٣/ ٤٣٠ ـ ٤٣١) وابن عبدالبر في جامع العلم (٢/ ٩٦) .

(٥) التمهيد لابن عبدالبر (٧/ ١٤٣ ـ ١٤٤) .

ابن القيم: «أما قول من قال يأتي أمره وينزل رحمته» فإن أراد أنه سبحانه إذا نزل وأتى حلت رحمته وأمره فهذا حق وإن أراد النزول والمجيء والإتيان للرحمة والإتيان ليس إلا. فهو باطل من وجوه عديدة، قد تقدمت»[1].

كما أن رحمته وأمره لا يختص بوقت دون وقت، فلا تقطع رحمته ولا أمره عن العالم العلوي والسفلي طرفة عين[2]، أضف إلى ذلك أن ليس هناك دليل صحيح يثبت ما يقولون.

* * *

---

(١) هذه الوجوه في مختصر الصواعق (٤٥١ ـ ٤٥٢).

(٢) مختصر الصواعق ٤٥٢.

٩ - صفة الإتيان والمجيء .

الإتيان والمجيء صفتان فعليتان ثابتتان لله عز وجل على الوجه اللائق به، ومن أدلتهما :

* قوله تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ ﴾[١] .

* وقوله تعالى : ﴿ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [٢] .

والذي عليه أهل السنة والجماعة الإيمان بذلك على حقيقته والابتعاد عن التأويل الذي هو في الحقيقة إلحاد وتعطيل[٣] .

والإتيان كما هو ثابت بالقرآن ثابت بالحديث فلقد ثبت الإتيان في حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - الطويل في بيان أحوال الناس يوم القيامة، والشاهد منه قوله ﷺ - (وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله تبارك وتعالى، في صورة غير صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم فيقولون : نعوذ بالله منك . هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا . فإذا جاء ربنا عرفناه فيأتيهم الله تعالى في صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم فيقولون أنت ربنا فيتبعونه»[٤] .

وجاء شرح الإمام النووي لهذا الحديث في «صحيح مسلم» على منهج أهل التأويل . حيث قال كعادته في كل موضع من مواضع أحاديث الصفات : (إعلم أن لأهل العلم في أحاديث الصفات وآيات الصفات قولين :

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٠ .

(٢) سورة الفجر، الآية: ٢٢ .

(٣) التحفة المهدية في شرح التدمرية ص(٣١-٣٤)، وانظر : شرح العقيدة الواسطية للهراس، ص(١١٢-١١٣) .

(٤) أخرجه البخاري بطوله مع الفتح، (١١/ ٤٢٤-٤٤٥)، مسلم للنووي ص(١٧/ ٣)، كتاب الإيمان باب معرفة طريق الرؤية .

أحدهما : وهو مذهب معظم السلف أوكلهم أنه لا يتكلم في معناها بل يقولون يجب علينا أن نؤمن بها ونعتقد لها معنىٰ يليق بجلال الله تعالىٰ وعظمته، مع إعتقادنا الجازم أن الله تعالىٰ ليس كمثله شيء، وأنه منزه عن التجسم والإنتقال والتحيز في جهة وعن سائر صفات المخلوق، وهذا القول هومذهب جماعة من المتكلمين واختاره جماعة من محققيهم وهو أسلم .

والقول الثاني : وهو مذهب معظم المتكلمين أنها تتأول علىٰ ما يليق بها علىٰ حسب مواقعها وإنما يسوغ تأويلها لمن كان من أهله بأن يكون عارفًا بلسان العرب وقواعد الأصول والفروع ذا رياضة في العلم فعلىٰ هذا المذهب أن يقال في قوله ﷺ : «فيأتيهم الله» أن الإتيان والمجيء رؤيتهم إياه لأن العادة أن من غاب عن غيره لا يمكن رؤيته إلا بالإتيان، فعبر بالإتيان والمجيء هنا عن الرؤية مجازًا، وقيل الإتيان فعل من أفعال الله تعالىٰ سماه إتيانًا، وقيل المراد بيأتيهم الله أي يأتيهم بعض ملائكة الله . قال القاضي عياض ـ رحمه الله ـ هذا الوجه أشبه عندي بالحديث قال : ويكون هذا الملك الذي جاءهم في الصورة التي أنكروها من سمات الحدث الظاهرة علىٰ الملك قال أو يكون معناه يأتيهم الله في صورة أي يأتيهم بصورة ويظهر لهم من صور ملائكته ومخلوقاته التي لا تشبه صفات الإله ليختبرهم وهذا آخر امتحان المؤمنين فإذا قال لهم هذا الملك أو هذه الصورة أنا ربكم وأما عليه من علامات المخلوقات ما ينكرونه ويعلمون أنه ليس ربهم ويستعذون بالله منه)[1] .

ثم قال : وأما قوله ﷺ : «فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون» (فالمراد بالصورة هنا الصفة ومعناه فيتجلىٰ الله سبحانه وتعالىٰ لهم علىٰ الصفة التي يعلمونها ويعرفون بها وإنما عرفوه بصفته وإن لم تكن تقدمت لهم رؤية له سبحانه وتعالىٰ لأنهم يرونه لا يشبه شيئًا من مخلوقاته فيعلمون أنه ربهم فيقولون أنت ربنا إنما عبر بالصورة عن

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص(١٦ـ١٧/ ٣) كتاب الإيمان باب معرفة طريق الرؤية .

الصفة لمشابتها إيهاها ولمجانسة الكلام فإنه تقدم ذكر الصورة)[١].

(وأما قولهم نعوذ بالله منك، فقال الخطابي: «يحتمل أن تكون هذه الاستعاذة من المنافقين خاصة وأنكر القاضي هذا أو قال: لا يصح أن تكون من قول المنافقين ولا يستقيم الكلام به، وهذا الذي قاله القاضي هو الصواب ولفظ الحديث مصرح به أو ظاهر فيه، وإنما استعاذوا منه لما قدمناه من كونهم رأوا سمات المخلوق)[٢].

ثم يشرح قوله ﷺ: «فيتبعونه، فيقول: فمعناه يتبعون أمره إياهم بذهابهم إلى الجنة أو يتبعون ملائكته الذين يذهبون بهم إلى الجنة والله أعلم»[٣].

وفي كلاً من شروحه الأربعة لأقوال رسول الله ﷺ «يذهب مذهب التأويل، في كل المواضع، حيث نقل أقوالاً في شرح معنى الإتيان كانت عددها أربعة، كلاً منها لم يوافق مذهب أهل السنة والجماعة، بل هي في مجملها على خلاف ظاهرها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «والأحاديث المتواترة عن النبي ﷺ في إتيان الرب يوم القيامة كثيرة، وكذلك إتيانه لأهل الجنة يوم الجمعة، وهذا مما احتج به السلف على من ينكر الحديث فيبينوا له أن القرآن يصدق من هذا الحديث»[٤].

وصرف الإمام النووي الإتيان عن ظاهره فمرة يجعله الرؤية، ومرة يجعله إتيان الملائكة وتارة يجعله فعل من أفعال الله يجب الإيمان به مع تنزيه من سمات المخلوق.

ثم يذكر أن القاضي عياض رجح أن المراد بيأتيهم الله بأن يأتيهم بعض ملائكة الله.

---

(١) المصدر السابق ص(١٩/ ٣).

(٢) المصدر السابق ص(١٩/ ٣).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص(١٩/ ٣).

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (ص ٣٧٤/ ٥).

ومن العلماء[1] ـ وللأسف ـ قد فعل ما فعله الإمام النووي وسار على طريقته، في تأويل الصفات الإختيارية، ومنها الإتيان والمجيء، وذكر الأقوال نفسها في تأويل الإتيان كما ذكر ترجيح ابن عياض، كأنه ينقل عن الإمام النووي والله أعلم[2].

ولقد وجد من العلماء المعاصرين من يرد على مثل هذه الإفتراءات كما وجد من قبل، ومن الذين ردوا على الحافظ ابن حجر في هذا فضيلة الشيخ عبدالله الغنيمان في كتابه (شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري) ويمكن جعله رداً على الإمام ـ رحمه الله ـ لكونه ذكر نفس التأويلات فنرد عليه بنفس الردود.

قال: (والجواب أن هذه التأويلات مخالفة لكتاب الله تعالى، ولأحاديث رسول الله ﷺ مخالفة صريحة، بحيث يجوز أن تقول: «إنها تكذيب لكلام الله، وكلام رسوله، وردّ له، وفتح لباب الزندقة والكفر، لأن النصوص في ذلك جليّة واضحة فإذا صح تأويلها بما ذكر أمكن كل مبطل أن يؤول ما شاء من التأويل قال تعالى: ﴿ **هَلْ ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلائكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّه تُرْجَعُ** الامور ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيهِمُ الْمَلائكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ** آيات **ربك** ﴾[4]. فبين تعالى أن إتيانه غير إتيان الملائكة، وغير إتيان الآيات، وقال جلا وعلا: ﴿ **وجاء ربُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صفا** ﴾[5].

وغير ذلك من الآيات، وأما الأحاديث فكثيرة جداً[6]»[7].

---

(١) مثل الحافظ ابن حجر في كتابه فتح الباري شرح صحيح البخاري ص(٤٥٠/ ١١).

(٢) المصدر السابق ص ٤٥٠/١١.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٠.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٥٨.

(٥) سورة الفجر، الآية: ٢٢.

(٦) وقد ذكر الشيخ بعض هذه الأحاديث في رده: انظر: شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري ص(٥٦/ ٢).

(٧) شرح كتاب التوحيد من «صحيح البخاري» الغنيمان ص(٤٦ ـ ٤٧/ ٢).

ثم ناقش الشيخ تلك الأقوال المذكورة قولاً قولاً، فقال حفظه الله: «وقوله: نسبة الإتيان إلى الله عبارة عن رؤيتهم إيّاه.

(فنقول: هذا من التحريف الجليّ، فالناس كلهم يفرقون بين الإتيان، والرؤية، فإن الإتيان المذكور في الحديث فعل الله تعالى يفعله إذا شاء، وأما الرؤية فهي تقع من الخلق . . . » إلى أن قال: «فهذا التأويل بطلانه ظاهر، وهو أشبه باللعب في كلام رسول الله ﷺ، بل هو تحريف كتحريف الباطنية، والفلاسفة، وأهل الزندقة».

وأما قوله: وقيل: الإتيان فعل من أفعال الله يجب الإيمان به مع تنزيه الله عن سمات الحدث. فيقال: لو أن الحافظ ـ رحمه الله ـ اختصر على هذا القول الذي ذكره بصيغة التمريض. لكان أولى له، وأعذر عند الله تعالى، وعند عباده المؤمنين. لأنه لا يخالف لفظ الحديث وإن كان الفعل عند الأشعرية يقصد به المفعول، كما تقدم.

وأما قوله ـ وقيل: فيه حذف، تقديره: يأتيهم بعض ملائكة الله، ورجحه عياض فيقال: بطلان هذا أظهر مما تقدم، وكل من قبل ما جاء به الرسول ﷺ، له منقاداً، فإنه يعلم يقيناً بطلان هذا القول، بل هذا يعلمه كل عاقل يتصور ما يقول.

ونحن نسأل أصحاب هذا القول الذي رجحه القاضي عياض هل يجوز للملك أن يأتيهم ـ كما زعموا ـ أن يقول لأهل ذلك الموقف: أنا ربكم، وقد قال الله تعالى: ﴿ومن يقل منهم إني إلهٌ من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين﴾[1].

والله تعالى يأمره بذلك، لأن الله لا يأمر بالفحشاء والمنكر، فإن هذا شرك، كفر والله تعالى لا يأمر به.

ومثل هذا التأويل الرابع الذي جعله محتملاً له، وهو قولهم، إن الله تعالى يأتيهم بصورة مخلوقة يقول لهم: أنا ربكم، فهذا كلام سخيف مضحك وشر البلية ما

(١) الأنبياء، الآية: ٢٩.

أضحك فلولا أنه سطور في الكتب المتداولة بين طلبة العلم لنزهت كتابي عن ذكره، فإن مثله يجب أن تنزه عنه كتب العلم، لأنه منكر القول وزور، وهو أقرب إلى السخرية والتهكم بكلام رسول الله ﷺ، من كونه يحتمله، ولا يشك من يعرف معاني الكلام أن هذا تحريف لكلام رسول الله ﷺ، وتعطيل لله تعالى عن الإتيان، والصور، والاستواء، أو فعل ما يريد من ذلك)(١).

وبهذا بعد أن علمنا أن واحد من هذه التأويلات لا يوافق منهج السلف في إثبات صفة الإتيان، والقائم على إثبات الصفات بلا تشبيه وتنزيه لله بلا تعطيل وهذا المنهج هو الموافق للكتاب والسنة اللذان هما طريقا من هدى الله، وعلمنا أن طريق التأويل أوله حيرة وآخره عذاب وإضطراب، لبعده عن طريق أهل السنة والكتاب.

١٠- إطلاق النفس على الله تعالى.

لقد جاء في الكتاب والسنة إطلاق النفس على الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾(٢)، وكما في حديث عائشة رضي الله عنها في دعاء النبي ﷺ في صلاته «... لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»(٣). وغير ذلك من الآيات والأحاديث.

وعند بعض السلف النفس من صفات الله تعالى، كابن خزيمة، فإنه قال في كتابه «التوحيد». (فأول ما ابتدأ به من ذكر صفات خالقنا جل وعلا في كتابنا هذا: ذكر نفسه جلّ ربنا من أن تكون نفسه كنفس خلقه، وعن أن يكون عدمًا لا نفس له» ثم ذكر بعض النصوص في ذلك (٣).

---

(١) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري لفضيلة الشيخ الغنيمان ص(٤٩-٥١/ ٢).

(٢) آل عمران، الآية: ٢٨، والآية: ٣٠.

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووي ص(٢٠٣/ ٤)، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود.

(٤) كتاب التوحيد وإتيان صفات الرب لابن خزيمة ص(٥-٦).

ولكن شيخ الإسلام ابن تيمية فسر النفس بذات الله المقدسة[1] وبين أن لفظ النفس الذي ورد في بعض النصوص من إطلاقه على الله تعالى، يراد به - عند جمهور العلماء - رحمهم الله نفسه التي هي ذاته المتصفة بصفاته، ليس المراد بها ذاتًا منفكة عن الصفات، ولا المراد بها صفة للذات»[2] قال: « . . . . وطائفة من الناس يجعلونها من باب الصفات، كما يظن طائفة أنها الذات المجردة عن الصفات، وكلا القولين خطأ»[3].

ولقد تعرض الإمام النووي - رحمه الله - في الموضع الأول في شرح النفس بقول نقله عن المازري: وذلك عند حديث مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ يقول الله عز وجل: «أنا عند ظن عبدي بي . . وأنا معه حين يذكرني، ن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي . . . »[4] الحديث.

قال النووي في شرحه له: قال المازري: «النفس تطلق في اللغة على معان. منها الدم، ومنها نفس الحيوان، وهما مستحيلان في حق الله تعالى، ومنها الذات والله تعالى له ذات حقيقة، وهو المراد بقوله تعالى «في نفسي» ومنها الغيب، وهو أحد الأقوال في قوله تعالى - تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك» أي ما في غيبي فيجوز أن يكون أيضًا مراد الحديث أي إذا ذكرني خاليًا أثابه الله وجازاه على عمل بما لا يطلع عليه أحد)[5].

وأقول: أن ظاهر الحديث لا ينطبق عليه قول المازري بل لله جل وعلا نفس مغايرة لنفس المخلوقات وليس المراد بها هنا الغيب كما ذكر المازري ونقل عنه هذا

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ص(١٩٦ - ١٩٧/ ١٤).

(٢) المصدر السابق ١٩٦ - ١٩٧/ ١٤.

(٣) المصدر الصابق، ص(٢٩٢ - ٢٩٣/ ٩).

(٤) أخرجه مسلم بشرح النووي ص(٣/ ١٧) برقم (٢).

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٣/ ١٧)، كتاب الذكر باب الحث على ذكر الله تعالى.

القول الإمام النووي ولم يعلق عليه ولم يذكر أي الأقوال القول الحق . . وما جوزه النووي ـ رحمه الله ـ أخيراً من التأويل المردود والمخالف لمنهج السلف، وما ذكره أولاً من أن المراد بالنفس الذات فله وجه في العربية، فإن النفس في كلامهم بمعنى الذات كما فصلّه شيخ الإسلام ابن تيمية[1] وعليه حمل النصوص المذكورة التي فيها إثبات النفس صفة الله تعالى.

* وفي الموضع الثاني الذي تعرض فيه النووي لشرح النفس عند حديث الرسول ﷺ عن الله تعالى: ﴿إني حرمت الظلم على نفسي﴾ قال: قال العلماء: معناه. تقدست عنه وتعاليت والظلم مستحيل في حق الله سبحانه وتعالى كيف يجاوز سبحانه حداً وليس فوقه من يطيعه، وكيف يتصرف في غير ملك والعالم كله ملكه وسلطانه وأصل التحريم في اللغة المنع فسمى تقدسه عن الظلم تحريمًا لمشابهته للممنوع، في أصل عدم الشيء)[2].

* والموضع الثالث الذي تعرض فيه الإمام لشرح النفس عند شرحه قوله ﷺ (أنت كما أثنيت على نفسك)[3].

قال الإمام: (وقوله: «أنت كما أثنيت على نفسك» اعتراف بالعجز عن تفصيل الثناء وأنه لا يقدر على بلوغ حقيقته ورد للثناء إلى الجملة دون التفصيل والإحصاء والتعيين فوكل ذلك إلى الله سبحانه وتعالى المحيط لكل شيء جملة وتفصيلاً وكما أنه لا نهاية لصفاته لا نهاية للثناء عليه لأن الثناء تابع للمثنى عليه، وكل ثناء أثني به عليه وإن كثر و طال وبولغ فيه)[4].

---

(١) راجع مجموع الفتاوى له ص ٦/٢٩٢ وبنحو هذا صرح عثمان بن سعد الدامي في رده على بشر المريسي العنيد، ص ١٩٦ والبيهقي في الأسماء والصفات ص ٣٦٤.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص(١٠٨/ ١٦)، البر والصلة باب تحريم الظلم.

(٣) أخرجه مسلم شرح النووي ص(١٧١/ ٤)، برقم (٢٢٢).

(٤) المصدر السابق ص(١٧١/ ٤)، كتاب الصلاة باب ما يقال في الركوع والسجود.

* وفي الموضع الأخير الذي ورد ذكر النفس وإثباتها لله كان في حديث مسلم عن جويرية[1] أن النبي ﷺ عندما خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى، وهي جالسة، فقال: ما زلت على الحال الذي فارقتك عليها؟ فقالت: نعم. قال النبي ﷺ: «لقد قلت بعدك أربع كلمات، ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته»[2].

والإمام لم يتعرض في شرحه للحديث، لذكر النفس الواردة فيه وقال: (والمراد المبالغة به في الكثرة لأنه ذكر أولاً ما يحصره العد الكثير من عدد الخلق ثم زنة العرش، ثم إرتقى إلى من هو أعظم من ذلك وعبر عنه بهذا أي ما لا يحصيه عد كما لا تحصى كلمات الله تعالى)[3].

ويظهر مما سبق أن الإمام النووي يرى أن نفس الله هي ذاته، لأنه في الثلاثة النصوص الأخيرة لم يعرض لشرحها بينما شرحها في النص الأول بما نقله عن المازري الذي ذكر أقوالاً عدة ولم يرجح الإمام النووي أصحهما. ولكن الإمام النووي تكلم في تهذيبه[4] عن لفظ الذات، واستخدمه بمعنى الحقيقة والنفس في حق الله تعالى».

فقال: (وأما قولهم - أي الفقهاء - في باب الأيمان: بأن حلف بصفة من صفات الذات، وقول صاحب المهذب في كتاب الطلاق، اللون السواد والبياض أعراض تحل

---

(١) جويرية: هي أم المؤمنين بنت الحارث بن أبي ضرار المصطلقية. سبيت يوم غزو المرُيسيع في السنة الخامسة وكان اسمها برة، فغير، وكانت من أجمل النساء، توفيت سنة خمسين، وقيل سنة ست وخمسين رضي الله عنها، جاء لها سبعة أحاديث منها عند البخاري حديث وعند مسلم حديثان انظر: تهذيب سير أعلام النبلاء ص(٦/ ١)، برقم (١٤٠).

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي ص(٣٦-٣٧/ ١٢) كتاب الذكر باب التسبيح أول النهار وعند النوم.

(٣) المصدر السابق ص(٣٧/ ١٧).

(٤) يعني تهذيب الأسماء واللغات للنووي.

الذات فمرادهم بالذات الحقيقة وهذا اصطلاح المتكلمين وقد أنكره بعض الأدباء عليهم وقال لا يعرف ذات بمعنى صاحبة وهذا الإنكار منكر بل الذي قاله الفقهاء والمتكلمون صحيح . وقد قال الإمام أبو الحسن الواحدي[1] في أول سورة الأنفال في قول الله تعالى : ﴿ فاتقوا اللَّهَ وأصلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ ﴾[2] . قال أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب معنى ذات بينكم أي الحالة التي بينكم فالتأنيث عنده للحالة وهو قول الكوفيين . وقال الزجاج معنى ذات بينكم حقيقة وصلكم والبين الوصل ، قال الواحدي فذات عنده بمعنى النفس كما يقال ذات الشيء ونفسه . . . »[3] .

١١ - وصف الله تعالى بأنه شخص .

إن وصف الله تعالى بأنه شخص ثبت عن رسول الله ﷺ كما في حديث : «لا شخص أغير من الله ، ولا شخص أحب إليه العذر من الله ، من أجل ذلك بعث الله المرسلين مبشرين ومنذرين ، ولا شخص أحب إليه المدحة من الله ، من أجل ذلك وعد الله الجنة»[4] .

لكن شرح الإمام النووي لهذا الحديث جاء على خلاف مراد أهل السنة والجماعة ، وهو إثبات وصف الله تعالى بالشخص والغيرة كما فعل البخاري رحمه الله عندما ترجم في كتاب التوحيد من صحيحه : «باب قول النبي ﷺ لا شخص أغير من الله» . وهو يريد بهذا الباب إثبات وصف الله تعالى بالشخص والغيرة .

---

(١) هو علي بن حسن بن أحمد بن علي بن جويه الواحدي ، المفسر صاحب التفاسير الثلاثة البسيط والوسيط والوجيز ، وله أسباب النزول ، توفي سنة ٤٦٨هـ . رحمه الله . انظر : البداية والنهاية ص(١٢١ـ١٢٢/ ١٢) .

(٢) سورة الأنفال ، الآية : ١ .

(٣) تهذيب الأسماء واللغات للنووي ص١١٢ ـ ١١٣/ ٣ .

وانظر : فتح الباري لابن حجر ص(٣٨١ـ٣٨٣/ ١٣) .

(٤) أخرجه مسلم للنووي ص(١١١/ ١٠) كتاب اللعان .

ولكن الحافظ ابن حجر الذي تناول شرحه خالف مراد أهل السنة والجماعة[1]، كما فعل ذلك قبله النووي والذي قال في قوله ﷺ ولا شخص أحب إليه العذر من الله تعالى . . . ». (معنى الأول ليس أحد أحب الأعذار من الله تعالى بالعذر بمعنى الأعذار والإنذار قبل أخذهم بالعقوبة، ولهذا بعث المرسلين كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾[2]. والمدحة بكسر الميم وهو المدح بفتح الميم، فإذا ثبتت الهاء كسرت الميم، ومعنى من أجل ذلك وعد الجنة، أنه لما وعدها ورغب فيها كثر سؤال العباد إياها منه والفناء عليه والله أعلم)[3].

فشرح النووي لكلمة شخص «أنها بمعنى لا أحد»، وقال أن المراد بـ «لا شخص» استعارة، كما أن قوله «قيل معناه لا ينبغي لشخص أن يكون أغير من الله ولا يتصور ذلك، هذا كان منه لنفي صفة الشخص الثابتة في الحديث. وقول الإمام النووي «لا أحد» يشبه قوله من قال أن المراد «بلا شخص» لا مرتفع ولا شيء» .

قال ابن حجر قال القرطبي: (أصل وضع الشخص يعني في اللغة - لجرم الإنسان وجسمه يقال شخص فلان وجثمانه، واستعمل في كل شيء ظاهر، يقال شخص الشيء إذا ظهر وهذا المعنى محال على الله تعالى، فوجب تأويله فقيل: لا مرتفع، وقيل لا شيء وهو أشبه من الأول وأوضح منه لا موجود، أو لا أحد وهو أحسنها وقد ثبت في الرواية الأخرى، وكأن لفظ «الشخص» أطلق مبالغة في إثبات إيمان من يتعذر على فهمه موجود ولا يشبه شيئًا من الموجودات، لئلا يفضي ذلك إلى النفي

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر ص(٣٩٩/ ١٣) . وانظر: شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، للغنيمان ص(٣٣٨/ ١) .

(٢) الإسراء، آية: [١٥].

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص(١١٢/ ١٠) كتاب اللعان .

والتعطيل . . .)[1] .

قلت : كلام القرطبي يشبه من قبل كلام النووي وهو مبني على أن إطلاق الشخص في صفات الله غير جائز ، لأن الشخص لا يكون إلا جسمًا مؤلفًا ، ولفظ الشخص ، إذا أطلق على الله تعالى يستلزم تشبيه سبحانه بأشخاص المخلوقين ، وهذا أصل فاسد ، واعتقاد باطل ، فإذا كان لفظ «الشخص» كما ذكر «في اللغة» هو ما شخص وارتفع وظهر[2] ، ومعلوم بالضرورة أن الله تعالى أظهر من كل شيء وأعظم وأكبر ، ومعلوم أن أهل السنة والجماعة لا يجدون محذورًا في إطلاق ما قاله الله ورسوله من الصفات مع اعتقادهم أن الله ليس كمثله شيء في ذاته وصفاته ، وأن نصوص الصفات تمر كما جاءت من غير تشبيه ولا تكييف ، ومن غير تأويل ولا تعطيل .

فالإمام وإن اقتصر على ذكره أن معنى (لا لشخص) (لا أحد) وصرح بأنها استعارة ولكن يمكن حمل قوله على ما ذكرت سابقًا والله أعلم .

١٢- وصف الله تعالى بالصورة .

ثبت وصف الله تعالى بالصورة في عدة أحاديث أخرج البخاري منها ثلاثة أحاديث في صحيحه[3] ، كما أخرج مسلم في صحيحه حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ـ عن النبي ﷺ : «خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعًا . . »[4] الحديث .

---

(١) فتح الباري ص(٤٠٢/ ١٣) .

(٢) القاموس المحيط للفيروز آبادي ، مادة (شخص) ص ٦٢١ ، ومجمل اللغة العربية ص(٥٢٤/ ٢) .
وفيه أن لفظ الشخص يعني سواد الإنسان تراه من بعد وغيره .

(٣) فتح الباري ص(٤٤٤ ـ ٤٤٥) كتاب الرقاق ، وص(٤٢٠ـ ٤٢٢) ، كتاب التوحيد ، وانظر : صحيح البخاري (١١/ ٣) ، برقم(٦٢٥٧) ، كتاب الاستئذان .

(٤) أخرجه مسلم بشرح النووي ، ص ١٤٧/ ١٧ برقم (٢٨٤١) .

وأخـرج حـديث أبي هريرة رضي الله عنه الطويل في رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة. وفيه: «وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله في صورة غير صورته التي يعرفون فيقول أنا ربكم فيقولون نعوذ بالله منك هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا فإذا جاء ربنا عرفناه فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون فيقول: ﴿أنا ربكم فيقولون أنت ربنا فيتبعونه﴾[1].

وجمهور السلف أثبتوا صفة الصورة لله تعالى استدلالاً بهذه الأحاديث وما في معناها من الأحاديث، ولكن بعض العلماء من أهل السنة خالف في وصف الله تعالى بالصورة وأشهر من خالف في ذلك من الأئمة الإمام ابن خزيمة رحمه الله[2]، والإمام أبو عبدالله بن منده[3].

قال شيخ الإسلام بن تيمية ـ رحمه الله ـ: «لم يكن بين السلف من القرون الثلاثة نزاع في أن الضمير في هذا الحديث عائداً إلى الله تعالى، فإنه مستفيض من طرق متعددة عن عدد من الصحابة وسياق الأحاديث كلها تدل على ذلك . . .».

إلى أن قال: « . . . ولكن لما انتشرت الجهمية في المائة الثالثة، جعل طائفة الضمير فيه عائداً إلى غير الله تعالى، حتى نقل ذلك عن طائفة من العلماء المعروفين بالعلم والسنة في عامة أمورهم، كأبي ثور[4]، وابن خزيمة، وأبي الشيخ الأصبهاني

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي ص(١٧/ ٣)، كتاب الإيمان برقم (١٨٢).

(٢) كتاب التوحيد ص(٨٤-٩١/ ١).

(٣) كتاب التوحيد ص(٢٢٢ـ ٢٢٤/ ١).

(٤) هو أبو إبراهيم بن أبي خالد بن أبي اليمان الكلبي، أبو ثور البغدادي، يكنى أيضًا أبا عبدالله الإمام الحافظ المجتهد، أحد الفقهاء، صاحب الإمام الشافعي، ثقة مأمور، صنف الكتب وفرع على السنن وذب عنها، توفي سنة (٢٤٠هـ) رحمه الله تعالى، انظر: تذكرة الحفاظ (٥١٢ـ ٥١٣/ ٢)، ونحو تقريب التهذيب ص(٨٦/ ١).

وغيرهم ولذلك أنكر عليهم أئمة الدين وغيرهم من علماء السنة»[1].

فأما الإمام النووي ـ رحمه الله ـ فقد تعرض لهذه المسألة في شرحه لأحاديث الصورة وذكر أقوال الناس في تفسيرها، وأكثرها تأويلات للأحاديث لنفي صفة الصورة عن الله تعالىٰ، علىٰ خلاف مذهب السلف في إثباتها علىٰ ظاهرها كما يليق بالله تعالىٰ، وبيان ذلك:

* أخرج مسلم حديث أبي هريرة رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «إذا قاتل أحدكم فليتجنب الوجه، فإن الله خلق آدم علىٰ صورته»[2].

وفي شرح هذا الحديث قال فيه: (فهو من أحاديث الصفات وقد سبق في كتاب الإيمان بيان حكمها واضحًا مبسوطًا وأن من العلماء من يمسك عن تأويلها ويقول: نؤمن بأنها حق وأن ظاهر غير مراد ولها معنىً يليق بها وهذا مذهب جمهور السلف وهو أحوط وأسلم).

والثاني: أنها تتأول علىٰ حسب ما يليق بتنزيه الله تعالىٰ ﴿وأنه ليس كمثله شيء﴾».

ثم نقل قول المازري: (هذا الحديث بهذا اللفظ ثابت ورواه بعضهم إن الله خلق آدم علىٰ صورة الرحمن وليس بثابت عند أهل الحديث وكأن من نقله رواه بالمعنى الذي وقع له وغلط في ذلك)، قال المازري: (وقد غلط ابن قتيبة في هذا وأجراه علىٰ

---

(١) نقل هذا الكلام الشيخ العثيمان في كتابه «شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري» ص(٦٠-٦٨/ ٢)، ونسبه إلىٰ كتاب نقض التأسيس لشيخ الإسلام ابن تيمية (٢٠٢٢/ ٣) فما بعد.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص(١٣٦/ ١٦) كتاب البر والصلة والآداب باب النهي عن ضرب الوجه.

ظاهره، وقال لله تعالى صورة لا كالصور هذا الذي قاله ظاهر الفساد لأن الصورة تفيد التركيب وكل مركب محدث، والله تعالى ليس بمحدث فليس مركبًا فليس مصورًا، قال: وهذا كقول المجسمة جسم لا كالأجسام لما رأوا، أهل السنة يقولون عن الباري سبحانه وتعالى شيء لا كالأشياء طردوا الاستعمال، فقال: جسم لا كالأجسام، والفرق أن لفظ شيء لا يفيد الحدوث، ولا يتضمن ما يقتضيه، وأما جسم وصورة فيتضمنان التأليف والتركيب وذلك دليل الحدوث، قال: العجب من ابن قتيبة في قوله: «صورة لا كالصور» أنه ليس بمؤلف ولا مركب فليس بصورة «حقيقة» ليست اللفظة على ظاهرها وحينئذ يكون موافقًا على افتقاره إلى التأويل، واختلف العلماء في تأويله فقالت: طائفة الضمير في صورته عائد على الأخ المضروب وهذا ظاهر رواية مسلم. وقالت: طائفة يعود إلى آدم وفيه ضعف، وقالت: طائفة يعود إلى الله ويكون المراد إضافة تشريف وإختصاصه كقوله تعالى: ﴿ناقة الله﴾، وكما يقال في الكعبة. بيت الله ونظائره والله أعلم»(١).

أما قول النووي ـ رحمه الله ـ أن مذهب السلف هو الإمساك عن التأويل فهو حق أما قوله: «نؤمن بأنها حق وأن ظاهرها غير مراد»، فهو مجانب للصواب لأن مراده من ذلك كما ذكرت سابقًا أن مذهب السلف هو التفويض، وقوله لها «معنى يليق بها».

أقول: بل يليق بالله تبارك وتعالى بدون صرفها عن ظاهرها وتأويلها ظنًا أن إثباتها ينافي التنزيه والكمال لله تعالى، وهذا مخالف لمنهج السلف، وخطأ وقع فيه

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص(١٣٥ـ١٣٧/ ١٦) كتاب البر والصلة باب النهي عن ضربه الوجه.

الإمام ـ رحمه الله ـ ومن سار على طريقته .

وقوله : «أحوط وأسلم» إذا قصد بذلك إمرارها على ظاهرها مع تفويض كيفيتها فنعم .

وأما قوله : «والثاني إنها تتأول على حسب ما يليق بتنزيه الله تعالى وأنه ليس كمثله شيء» .

ثم نقله لقول المازري : «الذي علق على الحديث وأنكر صحة الزيادة الواردة في حديث أبي هريرة : «إن الله خلق آدم على صورة الرحمن» .

قلت : الزيادة أخرجها ابن أبي عاصم في السنة[1]، والطبراني[2]، من حديث ابن عمر بإسناد رجاله ثقات، وأخرجها ابن أبي عاصم أيضًا من طريق أبي يونس[3] عن أبي هريرة بلفظ يرد التأويل الأول»[4]، قال : من قاتل فيلجتنب الوجه، فإن صورة وجه الإنسان على صورة وجه الرحمن»[5] .

فيتعين إجراء ما في ذلك على ما تقرر بين أهل السنة من إمراره كما جاء من غير اعتقاد وتشبيه .

وقد قال : أن المازري : قال غلط ابن قتيبة فأجري هذا الحديث على ظاهره، وقال : صورة لا كالصور وأقول : ما جعله غلط كان هو الصواب . فإن ابن قتيبة حكى

---

(١) السنة لابن أبي عاصم ص(٢٣٠) برقم (٥٢١) .

(٢) المعجم الكبير للطبراني (١٣/ ٤٣٠) .

(٣) هو سليم بن جبير الدوسي أبو يونس المصري، مولى أبي هريرة، ثقة، توفي سنة (١٢٣هـ)، تقريب التهذيب ص(٦٣/ ٢) .

(٤) يعني ما تقدم ذكره من قول من قال : إن الضمير في قوله (على صورته) يعود على المضروب .

(٥) السنة لابن أبي عاصم (ص٢٣٠)، برقم (٥٢١) .

أقوال أهل التأويل، ثم قال: «الذي عندي ـ والله تعالى أعلم» أن الصورة ليست بأعجب من اليدين والأصابع والعين، وإنما وقع الألف لتلك لمجيئها في القرآن، ووقعت الوحشة من هذه لأنها لم تأت في القرآن. ونحن نؤمن بالجميع، ولا نقول في شيء منه بكيفية ولا حد)[1]، وهذا هو الحق الذي يتحتم على المؤمن أن يتمسك به، ويسير عليه في حديث الصورة وغيرها من أحاديث الصفات.

فالغلط إذًا ليس غلط ابن قتيبة بل الغلط هو ما وقع فيه المازري وغيره عند ما نفوا ما أطلقه الله على نفسه في كتابه أو على لسان رسول الله ﷺ.

* وفي شرح حديث: (وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله في صورة غير صورته)[2].

أشار الإمام إلى المذهبين لأهل العلم كطريقته المعتادة في آيات وأحاديث الصفات قال: (وأما قوله ﷺ «فيأتيهم الله في صورته التي يعرفون»[3].

فالمراد بالصورة هنا الصفة ومعناه فيتجلى الله سبحانه وتعالى لهم على الصفة التي يعلمونها ويعرفونه بها وإنما عرفوه بصفته وإن لم تكن تقدمت لهم رؤية له سبحانه وتعالى لأنهم يرونه لا يشبه شيئًا من مخلوقاته وقد علموا أنه لا يشبه شيئًا من مخلوقاته فيعلمونه أنه ربهم فيقولون «أنت ربنا» وإنما عبر الصورة عن الصفة لمشابهتها إياها ولمجانسة الكلام فإنه تقدم ذكر الصورة)[4].

أقول: تأويل الصورة بالصفة هنا تأويل فاسد. وذلك لأن الصورة: هي

(١) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة، تحقيق عبدالقادر أحمد عطا ص(٩٦).

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ١٦/ ٣ برقم (١٨٢).

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ١٦/ ٣ برقم (١٨٢).

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص(١٩/ ٣)، كتاب الإيمان باب معرفة طريق الرؤية.

الصورة الموجودة في الخارج، ولفظ «صَوَرَ» يدل على ذلك، وما من موجود من الموجودات إلا له صورة في الخارج، وأما الصفة: فهي - في الأصل - مصدر وصفت الشيء، أصفه وصفًا، ثم يسّمون المفعول باسم المصدر صفة. كما نقل قبل قوله هذا قول القاضي عياض حيث قال: هذه الوجه أشبه عندي بالحديث قال ويكون هذا الملك الذي جاءهم بالصورة التي أنكروها من سمات الحدث الظاهرة على الملك والمخلوق، قال: (أو يكون معناه يأتيهم الله في صورة أي فيأتيهم بصورة ويظهر لهم من صور ملائكته ومخلوقاته التي لا تشبه صفات الإله ليختبرهم وهذا آخر امتحان المؤمنين فإذا قال لهم هذا الملك أو هذه الصورة أنا ربكم رأوا عليه من علامات المخلوقات ما ينكرون ويعلمون أنه ليس ربهم ويستعيذون بالله منه» .

أقول: ربما أن الإمام والقاضي عياض كان قد غاب عن أنظارهما قول الله تعالى: ﴿ ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين ﴾[1] .

فتأويل وتفسير الصورة بمجرد الصفة التي تقوم بالأعيان كالعلم والقدرة، فاسد لأنه لا يوجد في الكلام أن قول القائل مثلاً صورة فلان، يراد بها مجرد الصفات القائمة به من العلم والقدرة ونحو ذلك، بل هذا البهتان على اللغة وأهلها .

وأيضًا فحيث دل لفظ الصورة على صفة قائمة بالموصوف، أو على صفة قائمة بالذهن واللسان، فلابد مع ذلك، أن يدل على الصورة الخارجة ومما يبين بطلان هذا التأويل أيضًا: «أن يقال: المشاركة في بعض الصفات، واللوازم البعيدة، وإما أن يصحح قول القائل : إن الله خلق آدم على صورة الله، أو لا يصحح ذلك، فإن لم يصحح ذلك، بطل قولك» .

وإن كانت المشاركة تصحح هذا الإطلاق، جاز أن يقال: إن الله خلق كل ملك من الملائكة على صورته، بل خلق كل حيّ على صورته، إذ ما من شيء من الأشياء

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٢٩ .

إلا وهو يشاركه في بعض اللوازم البعيدة، كالوجود، والقيام بالنفس، وحمل الصفات.

فعلىٰ هذا يصح أن يقال في كل جسم، وجوهر[1]، إن الله خلقه علىٰ صورته، فبطل هذا التأويل علىٰ التقديرين)[2].

* وفي شرح حديث «خلق الله آدم علىٰ صورته ستون ذراعًا، قال الإمام: (هذا الحديث سبق شرحه وبيان تأويله وهذه الرواية ظاهرة في أن الضمير في صورته عائدًا إلىٰ آدم وأن المراد أنه خلق في أول نشأته علىٰ صورته التي كان عليها في الأرض، وتوفي عليها وهي طوله ستون ذراعًا ولم ينتقل أطوارًا كذريته، لذريته، وكانت صورته في الجنة هي صورته في الأرض لم تتغير)[3].

وما ذكره الإمام في هذا الموضع ـ وإن ذهب إليه بعض الأئمة من أهل السنة فقد سبق أنه مخالف لما ذهب إليه السلف في القرون المفضلة، وأنه من التأويلات التي أحدثتها الجهمية لنفي صفات الله تعالىٰ.

وقد رد الإمام أحمد ـ رحمه الله ـ علىٰ هذا التأويل المذكور هنا، حيث قال: (من قال إن الله خلق آدم علىٰ صورة آدم فهو جهمي، وأي صورة كانت لآدم قبل أن يخلقه)[4]. كما أن تأويلها بصور الملائكة من أبطل الباطل، لأنه فوق كونه بعيد عن

---

(١) الجوهر: هو ماهية إذا وجدت في الأعيان كانت لا في موضع وهو مختصر في خمسة: هيولي وصورة وجسم ونفس وعقل. انظر: التعريفات للجرجاني ص ٨٣، والجوهر ينقسم إلىٰ بسيط وروحاني كالعقول والنفوس المجردة وإلىٰ بسيط جسماني كالعناصر وإلىٰ مركب في العقل دون الخارج كالماهيات الجوهرية المركبة من الجنس والعقل وإلىٰ مركب منها كالمولّدات الثلاث.

(٢) هذه الردود مأخوذة ـ بتصرف ـ وباختصار من كلام شيخ الإسلام الذي نقله الشيخ الغنيمان في كتابه شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري ص(٦١/ ٨٣ـ ٨٢/ ٢).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص(١٤٧/ ١٧) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير.

(٤) المسائل والرسائل من الإمام أحمد في العقيدة ص(٣٥٧/ ١) برقم (٣٣٤)، وانظر أيضًا: ص(٣٥٨)، رقم (٣٣٦).

ظاهر النص، يتضمن شركاء بالله تعالى، حيث جعلوا الملك هو الذي يدعي الربوبية، ويحاسب العباد ويسجدون له، وأي شرك بعد هذا ؟[1].

هذا ما ذكره الإمام النووي في تأويل صفة «الصورة» ولقد تبين أن قول ابن قتيبة هو القول الموافق لقول السلف وهو القول الصحيح في هذا الباب لأنه مذهب السلف في القرون المفضلة قبل نشأة بدعة التأويل، كما يعلم خطأ من وصف من أثبت الصورة لله بالمجسمة كدأب غيره من المؤوله والنفاة في قذف أهل السنة المثبتين لصفات الله تعالى، بما هم بريئون منه، والاحتمالات التي أبداها في معنى الصورة هي من جنس تفسير الصورة بالصفة، وقد تقدم بيان فساده، وأن الصورة لا تكون إلا حقيقة موجودة في الخارج»[2].

وقولهم - صورة حديثك كذا، وصورة الأمر كذا، يعني أن له صورة موجودة في الخارج ثم تلك الصورة الموجودة في الخارج ترتسم في النفس صورة ذهنية تكون مطابقة للصورة الخارجية وإذا كان ما في النفس من العلم بالشيء يسمى مثلاً له وصفة. فالصورة الذهنية : هي المثل الذي يسمى أيضًا صفة، ومثلاً. ولهذا يقال : تصورت الشيء، وتمثلت الشيء، وتخيلته، إذا صار في نفسك صورته ومثاله وخياله، كما يسمى مثاله الخارجي صورة، فبطل قول ابن بطال والحديث والأمر لا صورة لها حقيقة[3].

---

(١) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، للغنيمان ص(٨٣- ٨٤/ ٢).

(٢) المصدر السابق ص(٨٣- ١٨٤/ ٢).

(٣) المصدر السابق، ص ٨٣- ١٨٤/ ٢.

١٣- صفة الوجه

الوجه من صفات الله الذاتية الثابتة له تعالىٰ بدلالة الكتاب والسنة وإجماع السلف. قال الله تعالىٰ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾(١).

وفي حديث أبي موسىٰ الأشعري - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ في وصف الله تعالىٰ «حجابه النور» وفي رواية: النار لو كشفه لأحقرت سبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه»(٢).

والنصوص في إثبات الوجه من الكتاب والسنة لا تحصىٰ كثرة. غير أن السلّف قد أجمعوا علىٰ إتيان الوجه لله تعالىٰ، بدون تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف ولا تمثيل. وهو وجه حقيقي يليق بالله تعالىٰ.

قال الإمام ابن خزيمة رحمه الله تعالىٰ: (ونحن نقول وعلماؤنا جميعًا في جميع الأقطار والإكرام لمعبودنا، جل وجهًا، كما أعلمنا في محكم تنزيله، فذواه(٣) بالجلال والإكرام، وحكم له بالبقاء، ونفي عنه الهلاك).

ونقول: إن لوجه ربنا عز وجل من النور، والضياء، والبهاء ما لو كشفت حجابه لأحرقت في الدنيا الفانية)(٤).

وتكلم الإمام النووي علىٰ صفة الوجه عند شرحه حديث: «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحانه وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه»(٥).

---

(١) سورة الرحمن، الآيتان: ٢٦-٢٧.

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي ص(١٣/ ١٢).

(٣) فوصفه بـ(ذو) في قوله تعالىٰ: ﴿ذو الجلال والإكرام﴾.

(٤) كتاب التوحيد وإثبات الرب لابن خزيمة ص(٢١-٢٢/ ١).

(٥) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص١٣/ ٣، برقم (٧٩).

قال الإمام: «المراد بالوجه : الذات »[1].

وقال في البداية عند تعليقه على الحديث : (فالسبحات بضم السين ورفع التاء في آخره، وهي جمع سبحة قال صاحب العين والهروي وجميع الشارحين للحديث من اللغويين والمحدثين معنى سبحات وجهه نوره وجلاله وبهاؤه)[2].

قلت: الواجب : إثبات الوجه على حقيقته كما يليق بالله تعالى. وقول الإمام المراد بالوجه الذات قول مردود ويرد عليه ابن القيم فيقول في ذلك: «لا يعرف في لغة من لغات الأمم وجه الشيء بمعنى ذاته ونفسه»[3].

فحمل الوجه على الذات لا يصح، وهو تأويل للنص على خلاف ظاهره، لأنه يتضمن إنكار لصفة الوجه التي أثبتها الله تعالى لنفسه في القرآن والسنة .

ومذهب أهل السنة والجماعة أن لله وجه لا كالوجوه، يليق به ولا يشبه وجوه المخلوقين كذلك: «أن اللفظ الموضوع بمعنى لا يمكن أن يستعمل في معنى آخر إلاّ إذا كان المعنى الأصلي ثابتًا للموصوف، حتى يمكن للذهن أن ينتقل من الملزوم إلى لازمه»[4].

ولفظ الوجه: «إن أضيف إلى من ﴿ **ليس كمثله شيء** ﴾[5]، كان وجهه تعالى كما يليق بجلاله وعظمته وكيفيته غير معلومة لخلقه»[6].

وقوله الآخر في تفسير سبحات وجهه، بأن المراد بها نوره وبهاؤه وجلاله، ونقله

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص(١٢/ ٣)، كتاب الإيمان باب معرفة طريق الرؤية .

(٢) المصدر السابق ص(١٢/ ٣) .

(٣) مختصر الصواعق المرسلة ص(٣٨٦/ ٢) .

(٤) شرح العقيدة الواسطية للهراس، ص (١١٤).

(٥) سورة الشورى، الآية: ١١ .

(٦) مختصر الصواعق، المرسلة ص ٣٨٨/ ٢.

إجماع الشارحين من اللغويين والمحدثين على ذلك دليل على أن المراد بالوجه، الوجه الحقيقي الثابت لله بما يليق به، وليس الذات كما ذهب إلى ذلك الإمام النووي وغيره من العلماء[1]. والله أعلم.

١٤ - صفة العين.

صفة العين من صفات الله تعالى الذاتية الثابتة بالأدلة الصحيحة الصريحة من الكتاب والسنة، وآمن بها السلف، وأثبتوها لله عزّ وجل على الوجه الذي يليق به من غير تكييف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تأويل[2].

ولقد تكلم الإمام النووي ـ رحمه الله ـ على هذه الصفة في مواضع «في شرح صحيح مسلم» في شرح حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «ما بعث الله من نبي إلا أنذر وقومه الأعور الكذاب، إنه أعور، وإنا ربكم ليس بأعور مكتوب بين عينيه كافر»[3].

فهذا نص صريح في إثبات العين لله تعالى، وفي نفي العور عنه تعالى إثبات أن له عينين، كما قال الإمام الدارمي[4]: (والعور عند الناس ضد البصر والأعور عندهم ضد البصير بالعينين)[5].

---

(١) فتح الباري ص ٥٠٥/٨.

(٢) عقيدة السلف أصحاب الحديث، لأبي عثمان الصابوني، ص(٤) ولوامع الأنوار البهية ص(٢٣٨-٢٤٠/١).

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووي ص(٤٧-٤٨/١٨)، تاب الفتن باب ذكر الدجال، والإمام الدارمي في الرد على المريسي ص ٤٢ ـ ٤٣، وعقيدة أهل السنة والجماعة، للشيخ محمد الصالح العثيمين، ص(١٢). وانظر: مختصر الصواعق المرسلة ص(٣٥/ ١).

(٤) سبق ترجمته ص ٢٢٦.

(٥) رد الإمام الدارمي على بشر المريسي ص ٤٢ ـ ٤٣.

وقال فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين ـ حفظه الله ـ: (وأجمع أهل السنة على أن العينين إثنتان، ويؤيده قول النبي ﷺ في الدجال: إنه أعور وإن ربكم ليس بأعور . . .)[1].

أما الإمام النووي ـ رحمه الله ـ فقد ذكر في شرحه لهذا الحديث ما يوافق أهل السنة والجماعة في إثبات صفة العين لله تعالى، وأشار إلى المعنى ـ السابق ـ الذي أشار إليه الدارمي وغيره فقال: (قوله ﷺ: «إن الله تبارك وتعالى ليس بأعور إلا أن المسيح الدجال أعور العين اليمنى أحد عينه طافئة»[2]).

قال: والعور في اللغة: العيب وعيناه معيبتان عوراً، وأن إحداهما طافئة بالهمز لا ضوء فيها، والأخرى طافية بلا همزة ظاهرة ناتئة، وأما قوله ﷺ: «إن الله تعالى ليس بأعور» والدجال أعور فبيان لعلامة بينة تدل على كذب الدجال، دلالة قطعية بديهية يدركها كل واحد ولم يقتصر على كونه جسماً أو غير ذلك من الدلائل القطعية يكون بعض العوام لا يهتدي إليها والله أعلم)[3].

* كما تكلم على هذا الحديث في موضع آخر من كتابه الشرح، فقال: (قوله ﷺ: إن الله تبارك وتعالى ليس بأعور، ألا إن المسيح الدجال أعور عين اليمنى»، معناه: أن الله تعالى منزه عن سمات الحدث وعن جميع النقائص، وأن الدجال مخلوق من خلق الله تعالى ناقص الصورة فينبغي لكم أن تعلموا هذا وتعلموه الناس لئلا يغتر بالدجال لما يرى ما معه من الفتنة)[4].

---

(١) عقيدة أهل السنة والجماعة للشيخ محمد العثيمين ص ١٢.

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي ص(٢٠٣/ ٢)، برقم (٢٧٤) وص(٤٧/ ١٨) برقم (١٠٠).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٤٦ـ٤٧/ ٨٨)،

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٢٠٤/ ٢)، كتاب الإيمان، باب ذكر المسيح ابن مريم والمسيح الدجال.

وما قرره الإمام النووي في القولين السابقين له، موافقًا للسلف رحمهم الله في إثبات صفة العين من حيث أن الأعور ضد البصير بالعينين، والله أعلم .

١٥- صفتا السمع والبصر

السمع والبصر صفتان ذاتيتان ثابتتان لله عز وجل بالكتاب والسنة، وبالعقل والفطرة، وأجمع على إثباتها جميع الصفاتية من المسلمين، ولم ينكر ذلك إلا شواذ الطوائف المارقة من الحق، كالجهمية وإخوانهم من بعض المعتزلة(١) .

ومن أسماء الله الحسنى، السميع البصير، وكثيراً ما يرد هذان الاسمان مقترنين في كتاب الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾(٢) . وقد تقدم في مبحث الأسماء الحسنى إثبات هذين الأسمين الواردين في قوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وذلك نقلاً عن القاضي عياض كما سيأتي الآن .

ومما ذكره الإمام النووي في إثبات هاتين الصفتين ما يلي :

* قال الإمام في إثبات صفة السمع قوله ﷺ للناس حين جهروا بالتكبير «أيها الناس أربعوا على أنفسكم إنكم ليس تدعون أصم ولا غائبًا إنكم تدعون سمعيًا قريبًا وهو معكم»، قال النووي: (معناه أرفقوا بأنفسكم وأخفضوا أصواتكم فإن رفع الصوت إنما يفعله الإنسان لبعد من يخاطبه ليسمعه وأنتم تدعون الله تعالى وهو ليس بأصم ولا غائب بل هو سميع قريب وهو معكم بالعلم والإحاطة)(٣) .

* وقال في إثبات صفة البصر لله تعالى، قال في قوله ﷺ: «حجابة النورلو كشفه لأحرقت سبحانه وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» .

---

(١) شرح كتاب التوحيد، من صحيح البخاري، للغنيمان ص(١٨٣-١٨٧/ ١) .

(٢) سورة الشورى، الآية: ١١ .

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٢٢/ ١٧)، كتاب الذكر باب استحباب خفض الصوت، بالذكر إلا في المواضع التي ورد الشرع برفعه فيها .

(. . . والمراد ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه، جميع المخلوقات لأن بصره سبحانه وتعالىٰ محيط بجميع الكائنات ولفظة «من» لبيان الجنس لا للتبعيض والتقدير لو أزال المانع من رؤيته وهو الحجاب المسمىٰ نورًا أو نارًا وتجلي لخلقه لأحرق جلال ذاته جميع مخلوقاته والله أعلم)(١).

* كما نقل قولاً عن القاضي عياض قال فيه: (والله أعلم بمراد نبيه ﷺ فيما ورد في هذه الأحاديث من مشكل ونحن نؤمن بالله تعالىٰ وصفاته ولا نشبه شيئًا به ولا نشبهه بشيء ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾.

وما قاله رسول الله ﷺ وثبت عنه فهو حق وصدق فما أدركنا علمه فبفضل الله تعالىٰ، وما خفي علينا أمنا به ووكلنا علمه إليه سبحانه وتعالىٰ وحملنا لفظه علىٰ ما احتمل في لسان العرب الذي خوطبنا به ولم نقطع علىٰ أحد معنييه بعد تنزيهه سبحانه عن ظاهره الذي لا يليق به سبحانه وتعالىٰ وبالله التوفيق)(٢).

ومن هذا القول الذي نقله الإمام عن القاضي وأيده فيه، بتركه بدون تعليقه عليه نجد أن الإمام والقاضي قررا هنا مذهب أهل السنة والجماعة في إثبات صفتا السمع والبصر الواردتان في الآية، وفي حين قد خالفهما في أن مذهب كلاً من الإمام والقاضي التفويض فيما لم يعرف معناه أو خالف المعقول لديهم، أو التأويل وهو الذي يميل إليه الإمام - رحمه الله - وكلاً من المذهبين مخالفين لمذهب السلف فمذهب السلف كما ذكرت - سابقًا - هو تفويض للكيفية، كما أن ليس هنا من شيء ورد به الشرع لا يفقه معناه، إلا لمن أتبع هواه فضل، ومن تبع الحق فهدي إلىٰ طريق الصواب.

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص(١٣/ ٣)، كتاب الإيمان، باب قوله عليه السلام إن الله لا ينام وفي حجابه النور.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص(١١٠/ ١٧) كتاب صفات المنافقين باب صفة القيامة والجنة والنار.

١٦ - صفة الأذن

الأذن ـ بالتحريك ـ الاستماع . يقال أذِن إليه ، وله ، يأذن ، أذنًا ـ من باب فرح ـ استمع معجبًا ، أو عامّ [١] .

وقد ثبتت صفة الأذن لله تعالى بالحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال : «ما أذن الله بشيء ما أذن لنبي أن يتغنى بالقرآن» [٢] .

أي : ما استمع الله لشيء كاستماعه لنبي يتغنى بالقرآن ، أي يتلوه يجهر به» [٣] .

وفي شرح الإمام النووي لهذا الحديث قال : (هو بكسر الذال ، قال العلماء : معنى أذن في اللغة الاستماع ، ومنه قوله تعالى : ﴿وأذن لربها﴾ ، قالوا : ولا يجوز أن تحمل هذه على الاستماع بمعنى الإصغاء فإنه يستحيل على الله تعالى بل هو مجاز ، ومعناه الكناية عن تقريبه القارئ وإجزال ثوابه لأن سماع الله تعالى لا يختلف فوجب تأويله) [٤] .

وهذا الكلام الذي ذكره النووي لا شك أنه يثبت لله صفة السمع ولكن كان الواجب عليه أن يقول : «لأن سماع الله يليق بجلاله وعظمته» فوجب إثباته كذلك . وقوله : ولا يجوز أن تحمل هنا على الاستماع بمعنى الإصغاء ، فإنه يستحيل على الله تعالى بل هو مجاز معناه الكناية عن تقريبه للقارئ وإجزال ثوابه لأن سماع الله لا يختلف فوجب تأويله» .

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر ص(٣٣/ ١)، والقاموس المحيط مادة (أذن) ص(١٥١٦) .

(٢) أخرجه البخاري مع الفتح ص(٦٨/ ٩) برقم (٥٠٢١)، ومسلم بشرح النووي ص(٦٩/ ٦)، كتاب صلاة المسافرين .

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر ص(٣٣/ ١) .

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٦٩/ ٦) كتاب صلاة المسافرين .

أقول: وهل يكون الاستماع إلا بالإصغاء وإلا كيف يكون سماعًا كما أن صفة السمع التي لا تكون إلا للسماع صفة كمال تليق بالله تعالىٰ، كما أن حمل النووي لكثير من الصفات علىٰ أنها من المجاز مخالف لمنهج السلف الذين يثبتون أن لله سماع يليق به بجلاله، مع التنزيه المطلق الذي لا ينافي الكمال.

وقول النووي: «لأن سماع الله لا يختلف فوجب تأويله» مبني علىٰ النزعة الأشعرية الكلابية التي تقول بأن الله يسمع المسموعات، ويبصر المبصرات بسمع واحد قديم وببصر واحد قديم، وأنه لا يتجدد سمع ولا بصر عند حدوث المسموعات والمبصرات، إنما يتجدد التعلق وهكذا يقولون في جميع الصفات التي يثبتوتها كالعلم والإرادة، والكلام، أنها معنىٰ واحد في الأزل، لا يستجد لله شيء.

وهذا القول مبني علىٰ أصلهم الفاسد في امتناع قيام الحوادث بذاته لأن ما لا يخلو من الحوادث يكون حادثًا، كما زعموا، وهو أصل فاسد التزموا بسببه نفي قيام الأفعال الإختيارية بذات الله تعالىٰ، كالاستواء، والنزول، والمعية، والغضب، وغيرها)[١].

وهم في مذهبهم هذا مخالفون للسلف، فإن السلف يثبتون لله تعالىٰ سمعًا وبصرًا أزليًا يسمع ويبصر بهما كل مسموع وكل مبصر عند حدوثه، وهذا هو طريق الحق الذي يدل عليه الكتاب والسنة ويقبله العقل[٢].

وقول الإمام «وجب تأويله»، قول مردود، وتأويل مردود، والصواب كما قاله الشيخ عبدالله الدويش ـ رحمه الله ـ في تعليقاته[٣]: «هذا تأويل مردود، والصواب

---

(١) للإمام ابن تيمية كلام طويل في مناقشة الأشاعرة والكلابية في مذهبهم هذا في عدد من كتبه: انظر علىٰ سبيل المثال ـ جامع الرسائل لابن تيمية ص(١٨١ ـ ١٨٣/ ١)، وص(١٥، ٢٢، ١٤٠/ ٢).

(٢) جامع الرسائل ص(١٥ـ١٧/ ٢).

(٣) في تعليقاته علىٰ فتح الباري لابن حجر والذي ذهب في ذلك إلىٰ ما ذهب إليه النووي من تأويل صفة الأذن وذكر ما ذكره الإمام النووي في شرحه، ولقد استفدت منه في مناقشة الإمام.

إثبات هذه الصفة لله حقيقة على ما يليق بجلاله وعظمته من غير أن يشبه ذلك باستماع المخلوق، هذا مذهب أهل السنة والجماعة، خلافًا لأهل البدع من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة ونحوهم»[١].

١٧- صفة النظر

وصف الله تعالىٰ نفسه بالنظر، ووصفه رسوله ﷺ، كما جاء ذلك في نصوص كثيرة في الكتاب والسنة.

قال الله تعالىٰ: ﴿ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾[٢].

وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال: «إن الله لا ينظر إلىٰ صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم»[٣].

ومذهب أهل السنة والجماعة إثبات النظر حقيقة لله عز وجل بلا تأويل، لدلالة النصوص من الكتاب والسنة عليه[٤].

وقال الإمام ابن مندة في بعض فصول كتاب «التوحيد»: (ذكر ما امتدح الله عز وجل صفتا الرؤية والنظر إلىٰ خلقه، ودعا عباده الصالحين إلىٰ مدحه بذلك)[٥].

والنظر صفة فعلية، فالله ينظر إلىٰ من يشاء، ويعرض عما يشاء فلا ينظر إليه، كما دلت عليه النصوص»[٦].

---

(١) التعليق على فتح الباري للشيخ عبدالله الدويش ص(١٨-١٩).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧٧.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي ص(١٦/٩٩) كتاب البر والصلة.

(٤) الحجة في بيان المحجة لقوام السنة أبي القاسم التيمي ص(٤٩١-٤٩٢/٢).

(٥) كتاب التوحيد لابن منده ص(٥٦/٣).

(٦) المصدر نفسه، ص(٦٠-٦٦/٣).

وقد تكلم الإمام النووي على صفة النظر في «شرحه صحيح مسلم» في ثلاثة مواضع ولكنه، لم يثبتها كما أثبتها أهل السنة والجماعة. وإنما أوّلها، كما يتبين فيما يلي:

* أخرج مسلم الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم . . .»[1] الحديث.

قال الإمام النووي في صفة النظر الثابتة لله في هذا الحديث: (ومعنى لا ينظر إليهم أي يعرض منهم، ونظره سبحانه وتعالى لعباده رحمته ولطفه بهم)[2].

وما قاله الإمام النووي هنا هو تأويل لصفة النظر على خلاف ظاهر اللفظ.

* كما أخرج الإمام مسلم - رحمه الله - الحديث الصحيح. قال رسول الله ﷺ: «لا ينظر الله إلى من جر ثوبه خيلاء»[3].

قال النووي في شرح هذا الحديث: «لا ينظر إلى من جر ثوبه خيلاء وفي رواية: «إن الله من جر إزاره بطراً . . .».

قال: (ومعنى لا ينظر إليه أي لا يرحمه، ولا ينظر إليه نظرة رحمة)[4].

أقول: تأويل النظر بالرحمة، تأويل فاسد، وهو تأويل قائم على قياس فاسد، وهو قياس الخالق على المخلوق، - تعالى الله عن ذلك - لأن الله تعالى ليس كمثله شيء[5]، وهذا المعنى الذي أوله النووي لنظر الله كالذي قبله، وكلاهما خطأ،

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي ص(٩٨/ ٢) برقم (١٧١).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٩٨/ ٢)، كتاب الإيمان باب بيان غلظ تحرم اسبال الإزار والمن بالعطية وتنفيق السلعة بالحلف.

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووي ص(٥٢/ ١٤) برقم (٤٢).

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٥٣ - ٥٤/ ١٤) كتاب اللباس باب تحريم جر الثوب خيلاء.

(٥) سورة الشورى، الآية: ١١.

والصواب إثبات النظر لله تعالىٰ علىٰ حقيقته، كما وردت به النصوص علىٰ طريقة أهل السنة والجماعة، وفي ذلك السلامة لدين المرء وعقيدته في ربه سبحانه وتعالىٰ.

* وأخرج مسلم الحديث الصحيح لرسول الله ﷺ قال: «إن الله لا ينظر إلىٰ أجسادكم ولا إلىٰ صوركم، ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم»، وفي رواية: «إن الله لا ينظر إلىٰ صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلىٰ قلوبكم وأعمالكم»[(1)].

وقال الإمام عن صفة النظر الثابتة لله في هذا الحديث الصحيح: (ومعنىٰ نظر الله هنا مجازاته ومحاسبته، أي أنما يكون ذلك علىٰ ما في القلوب دون الصور الظاهرة. ونظر الله رؤيته محيط بكل شيء . . .)[(2)].

قلت: والإمام هنا أول صفة النظر الثابتة لله بالمجازاة والمحاسبة، وهو تأويل فاسد. فالصواب إثبات أن لله نظراً يليق به حقيقة، وأما حمله النظر علىٰ الرؤية، فالرؤية لم تثبت بهذا الحديث وإنما الثابت فيه صفة النظر لله تعالىٰ، ونحن نثبت ما جاء في الحديث ونترك ما عداه مما لم يثبت لا في الكتاب ولا في السنة، كما أن حمل النظر علىٰ الرؤية لم يرد فيه دليل صحيح نسلم به والله أعلم.

١٨- صفة اليد

جاءت النصوص الكثيرة في الكتاب والسنة بإثبات اليد لله عز وجل: فقد قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾[(3)].

وقال تعالىٰ: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾[(4)]، وقال جل وعلا: ﴿أَوَلَمْ

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي ص(١٦/٩٩) برقم (٣٤).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص(١٦/٩٩-٩٨) كتاب البر والصلة باب تحريم ظلم المسلم وخذله.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٧٣.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٦٤.

يرَوْا أنا خَلَقْنا لهُم مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴾[١].

وقد تواترت في السنة مجيء «اليد» في حديث النبي ﷺ كحديث: «إن الله تعالى يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل»[٢].

وحديث: «إن الله عز وجل يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون لبيك وسعديك والخير في يديك . . .»[٣].

وهذه النصوص وغيرها المفهوم منها: «أن لله تعالى يدين، مختصتان به، ذاتيتان له كما يليق بجلاله»[٤].

وأجمع أهل السنة والجماعة على إثبات اليدين لله تعالى، فيجب إثباتهما بدون تحريف ولا تكييف ولا تمثيل، وهما يدان حقيقتان له لله تعالى، تليقان به»[٥].

وقد كانت هذه الصفة من أكثر ما تعرض له الإمام النووي في كتابه «شرح صحيح مسلم» حيث تكلم عليها في ثمانية مواضع أو أكثر.

ولقد نهج الإمام النووي في هذه الصفة وغيرها منهج الأشاعرة، القائم على التأويل وهذا سيتضح فيما يلي:

---

(١) سورة يس، الآية: ٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي ص(٦٤/ ١٧) كتاب التوبة.

(٣) طرف حديث متفق عليه. أخرجه البخاري مع الفتح ص(٤٨٧/ ١٣) برقم ( )، ومسلم بشرح النووي ص(١٣٩/ ١٧) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ص(٣٦٢-٣٦٣/ ٦).

(٥) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي ص(٤١٢/ ٣) وما بعدها وعقيدة السلف أصحاب الحديث، للصابوني ص(٢-٧)، وشرح لمعة الاعتقاد لابن عثيمين، ص(٤٨)، وعقيدة أهل السنة والجماعة له ص(١٢).

* قال الإمام في هذه الصفة الواردة في حديث الرسول ﷺ عند ما تحاج آدم وموسى. قال ﷺ: «اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده»[1]. قال: (في اليد هنا المذهبان السابقان في كتاب الإيمان ومواضع في أحاديث الصفات.

أحدهما: الإيمان بها ولا يتعرض لتأويلها مع أن ظاهرها غير مراد.

والثاني: تأويلها على القدرة، ومعنى اصطفاك أي اختصك وأثرك بذلك)[2].

والإمام هنا يحكي أن هناك مذهبان في صفة اليد، ولأهل السنة والجماعة في صفة اليد الثابتة لله وغيرها من الصفات منهج واحد فقط، وهو الإثبات بلا تشبيه، والتنزيه بلا تعطيل كما تقدم بيانه.

وأما قوله الإيمان بها مع أن المراد منها غير ظاهرها، قول مجانب للصواب، بل الصواب أن منهج السلف هو إثبات الصفات وإجراءوها على ظاهرها.

وأما تأويله اليد على القدرة، ما هو إلا امتداد لمذهب المعتزلة، الذين ينفون الصفات، أو يؤولوها على القدرة وغيرها، أما أهل السنة والجماعة فالله يد حقيقة تليق بجلاله وعظمته، ولا يقولون تستلزم إثباتها التجسيم، وهذا التأويل فاسد، لأنه مخالف لظاهر اللفظ، وأجماع السلف، وليس عليه دليل»[3].

وحتى لو فرض مجيء اليد بمعنى القدرة ـ من باب تسمية الشيء باسم سببه، لأن القدرة هي التي تحرك اليد[4] لكن لا يجوز إطلاق هذا المعنى إلا في حق من اتصف

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي ص(٦٣ـ٦٤/ ١٦) برقم (١٣).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص(١٦٢ـ١٦٤/ ١٦) كتاب القدر باب حجاج آدم وموسى عليهما السلام.

(٣) التعليقات الزكية على العقيدة الواسطية، للشيخ عبدالله الجبرين ص(١٦٨ـ١٧٥)، وأيضًا المحاضرات السنية في شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية شرح الشيخ ابن عثيمين، ص ٢٤٦ـ٢٦١.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ص(٣٦٤/ ٦).

باليد على الحقيقة، ولذلك لا يقال يهد الهوى، ولا يد الماء[1].

فالواجب إثبات اليد على ظاهرها، إذ لا موجب لصرفها عن ذلك[2].

* وفي شرح معنى التلبية: «الواردة في حديث الرسول ﷺ عن ابن عمر رضي الله عنهما ـ أن تلبية رسول الله ﷺ لبيك اللهم لبيك»[3]. قال الإمام: (قال القاضي قال المازري: التلبية مثناة للتكبير والمبالغة ومعناه إجابة بعد إجابة ولزومًا لطاعتك فتثنى للتوكيد لا تثنية حقيقية بمنزلة قوله تعالى: ﴿بل يداه مبسوطتان﴾ أي نعمتاه على تأويل اليد بالنعمة هنا ونعم الله لا تحصى)[4].

وتأويل اليد بالنعمة، مثله مثل تأويلها على القدرة تأويل فاسد، لا دليل عليه ويخالف ظاهر اللفظ.

* وفي شرح حديث عبدالله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «يطوي الله عز وجل السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون، أين المتكبرون، ثم يطوي الأرضين بشماله. ثم يقول: أنا الملك. أين الجبارون؟ أين المتكبرون»[5].

قال الإمام: (وأما إطلاق اليدين لله تعالى فمتأول على القدرة، وكنى عن ذلك باليدين لأن أفعالنا تقع باليدين فخوطبنا بما نفهمه ليكون أوضح وأوكد في النفوس وذكر اليمين والشمال حتى يتم المنال لأنا نتناول باليمين ما نكرمه، وبالشمال ما دونه، ولأن اليمين في حقنا يقوي مما لا يقوى له الشمال ومعلوم أن السموات أعظم من

---

(١) نفس المصدر ص(٦/٣٧٠).

(٢) نفس المصدر ص(٦/٣٦٧-٣٦٨).

(٣) جزء من حديث أخرجه مسلم بشرح النووي ص(٨/٧١) برقم (١٩).

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٨/٧١) كتاب الحج باب التلبية وصفتها ووقتها.

(٥) أخرجه مسلم بشرح النووي ص(١٧/١٠٩) برقم (٢٤).

الأرض فأضافها منها إلىٰ اليمين والأرض إلىٰ الشمال ليظهر التقريب في الاستعارة وإن كان الله سبحانه وتعالىٰ لا يوصف بأن شيئًا أخف عليه من شيء ولا أثقل من شيء هذا مختصر كلام المازري)(١).

* كما نقل قول القاضي عياض في تعليقه علىٰ هذا الحديث الذي قال في آخره: (ولا تمثيل لصفة الله تعالىٰ السمعية المسماة باليد التي ليست بجارحة)(٢).

ولا شك أن ما ذهب إليه المازري، وأقره عليه الإمام من تأويل اليد علىٰ القدرة وأن إطلاق صفة اليدين لله تعالىٰ ما هوإلا استعارة لتفهم، وليكون أوضح وأوكد في النفوس. مذهب فاسد، والواضح في النفس والمؤكد تأكيدا لا شك فيه أن لله يدين حقيقة تليق بجلاله وعظمته، كما دلت نصوص القرآن والسنة. وهذا الذي وقع فيه الإمام والمازري نتيجة لما ذكرت ـ سابقًا ـ من استعمالهم القياس الفاسد. وهو قياس صفات الخالق علىٰ صفات المخلوقين وهذا واضح جلي من شرحهما للحديث.

* كما قال في شرح حديث الرسول ﷺ الذي قال فيه: «والذي نفس محمد بيده ما من كلم يكلم في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كلم لونه لون دم وريحه ريح مسك»(٣). قال الإمام: (وفيه دليل علىٰ جواز اليمين وانعقادها بقوله: «والذي نفسي بيده ونحو هذا الصيغة من الحلف، بما دل علىٰ الذات، ولا خلاف في هذا، قال أصحابنا: اليمين تكون بأسماء الله تعالىٰ وصفاته أو ما دل علىٰ ذاته، قال القاضي: «واليد هنا بمعنىٰ القدرة والملك»(٤).

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص(١٠٩/ ١٧) كتاب صفات المنافقين باب صفة القيامة والجنة والنار.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص(١١٠/ ١٧) كتاب صفة الجنة والقيامة والنار.

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووي ص(١٩/ ١٣) برقم (١٠٣).

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٢٠ـ٢١/ ١٣) كتاب الأمارة باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله.

ولقد ذهب إلى ذلك التأويل الحافظ ابن حجر في كتابه «فتح الباري» عند شرحه لهذا الحديث أيضًا ولقد علق العلامة ابن باز ـ رحمه الله ـ على هذا الموضع بقوله: (ذلك لأنه سبحانه مالكها، والمتصرف فيها، وفي ذلك من الفوائد مع ذكر إثبات اليد لله سبحانه على الوجه الذي يليق به، كالقول في سائر الصفات، وهو سبحانه منزه عن مشابهة المخلوقات في كل شيء، موصوف بصفات الكمال اللائق به، فتنبه)(١). وهو رد على كل من ذهب مذهب التأويل لصفة اليد الثابتة لله في هذا الحديث.

* وفي شرح حديث زهير قال: قال رسول الله ﷺ: «إن المقسطين عند الله، على منابر من نور، عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»(٢))(٣).

فقال في شرحه: (وأما قوله ﷺ: «عن يمين الرحمن: (فهو من أحاديث الصفات، وقد سبق في أول هذا الشرح بيان اختلاف العلماء فيها وأن منهم من قال نؤمن بها ولا نتكلم في تأويله ولا نعرف معناه، لكن نعتقد أن ظاهرها غير مراد وأن لها معنى يليق بالله تعالى، وهذا مذهب جماهير السلف وطوائف المتكلمين(٤).

والثاني: أنها تؤول على ما يليق بها، وهذا قول أكثر المتكلمين، وعلى هذا قال القاضي ـ رضي الله عنه ـ المراد بكونهم عن اليمين الحالة الحسنة والمنزلة الرفيعة. قال ابن عرفة يقال: أتاه عن يمين إذا جاءه من الجهة المحمودة، والعرب تنسب الفعل المحمود والإحسان إلى اليمين وضده إلى اليسار، قالوا: اليمين مأخوذة من اليمن،

---

(١) فتح الباري (٢/ ١٢٩)، هامش (١).

(٢) ﴿وما ولوا﴾: أي كانت لهم عليه ولاية.

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووي ص(١٧٧/ ١٢) برقم (١٨).

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص(١٧٨/ ١٢)، كتاب الإمارة باب فضيلة الأمير العادل وتجنب الجائر.

وأما قوله ﷺ: «كلتا يديه يمين تنبيه على أنه ليس المراد باليمين الجارحة تعالى الله عن ذلك فإنها مستحيلة في حقه سبحانه وتعالى)[1].

فهذا قول للإمام النووي يؤول فيه كل من صفتي اليمين الثابتة لله في الحديث، وصفة اليد. وحجته في ذلك أن اليد لا تطلق إلا على اليد الجارحة وهي مستحيلة في حق الله تعالى. وكما ذكرت ـ سابقًا ـ أن صفات الله ليس كصفات المخلوقين كما أن للسلف منهج واحد فريد وحيد، هو الإثبات بلا تشبيه والتنزيه بلا تعطيل وأما التأويل فهو منهج خلفي مبتدع، وهو منهج باطل مذموم.

* وفي شرح حديث «يمين الله ملأى سماء لا يفيضها شيء الليل والنهار»[2].

قال الإمام: (قال القاضي قال المازري: هذا مما يتأول لأن اليمين إذا كانت بمعنى المناسبة للشمال لا يوصف بها الباري سبحانه وتعالى، لأنها تتضمن إثبات الشمال وهذا يتضمن التحديد ويتقدس الله عن التجسيم والحد وإنما خاطبهم رسول الله ﷺ بما يفهمونه وأراد الإخبار بأن الله تعالى لا ينقصه الانفاق ولا يمسك خشية الإملاق جل الله عن ذلك وعبر ﷺ عن توالي النعم بسح اليمين لأن الباذل منا يفعل ذلك بيمينه ـ قال: ويحتمل أن يريد ذلك أن قدرة الله سبحانه وتعالى على الأشياء على وجه واحد لا يختلف ضعفًا وقوة وأن المقدورات تقع بها على جهة واحدة لا تختلف قوة وضعفًا كما يختلف فعلنا باليمين والشمال تعالى الله عن صفات المخلوقين ومشابهة المحدثين.

وأما قوله ﷺ في الرواية الثانية وبيده الأخرى القبض فمعناه أنه وإن كانت قدرته سبحانه وتعالى واحدة فإنه يفعل بها المختلفات ولما كان ذلك فينا لا يمكن إلا بيدين عبر عن قدرته على التصرف في ذلك باليدين ليفهمهم المعنى المراد بما اعتادوه

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص(١٧٨/ ١٢) كتاب الإمارة باب فضيلة الأمير العادل.

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي ص(٦٩ ـ ٧٠/ ٧) برقم (٣٦) (٣٧).

من الخطاب على سبيل المجاز . هذا آخر كلام المازري)[1] .

أقول: قول المازري هذا، هو على خلاف مذهب السلف في إثبات صفة اليد، بإجراء النصوص الواردة فيها على ظاهرها اللائق بالله تعالى، ولم يخوضوا فيها بالظنون، والأوهام، كما فعله المازري وغيره ممن تابعوه فتركوا منهج السلف، وتعلقوا بشبهات المناهج المبتدعة وترهاتهم[2] .

وقوله أن ما ذكر أنما هو مثال للتقريب، فهو كلام باطل، لأنه يقتضي أن اليدين ليستا من الصفات الحقيقية، بل من الصفات المعنوية، أما ما أشار إليه المازري من معنى أن هذا من سبيل المجاز هو من الخطأ في الفهم والتطبيق، وفيها من التناقض ما الله به عليم[3] .

* وفي شرحه حديث الرسول ﷺ الوارد فيه: «إلا أخذها الرحمن بيمينه، وإن كانت ثمرة فتربو في كفة الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل»[4] .

نقل أيضًا قولاً للمازري جاء فيه: (وقد ذكرنا استحالة الجارحة على الله سبحانه وتعالى فإن هذا الحديث وشبهه إنما عبر به على ما أعتادوا في خطابهم ليفهموا فكنى هنا عن قبول الصدقة بأخذها في الكف وعن تضعيف أجرها بالتربية .

قال القاضي ـ لما كان الشيء الذي يرتضي ويعز يتلقى باليمين ويؤخذ بها استعمل في مثل هذا واستعير للقبول والرضا . قال الشاعر :

إذا ما راية رفعت لمسجد تلقاها عرابة اليمين

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٧٠/ ٧) كتاب الزكاة باب الحث على النفيسة .

(٢) لقد ذكر ابن خزيمه أن هذا التأويل لقوله ﷺ: «أن الله خلق آدم بيده» أي تأويل اليد بالقدرة هو تأويل الجهمية، فتنبه .

(٣) إبطال التأويلات لأخبار الصفات، ص(١٦٨ ـ ١٨٦/ ١) . لأبي يعلى محمد بن الحسين الفراء .

(٤) أخرجه مسلم بشرح النووي ص(٨٦ـ ٨٧/ ٧) برقم (٦٣) .

قال: وقيل عبر باليمين هنا من جهة القبول والرضا إذا الشمال بضده في هذا، قال: وقيل: المراد بكف الرحمن هنا ويمينه كف الذي تدفع إليه الصدقة، وإضافتها إلى الله تعالى إضافة ملك واختصاص لو ضع هذه الصدقة فيها لله عز وجل)[1].

* وفي شرح قوله ﷺ: «تكون الأرض يوم القيامة خبزة واحدة يكفأها الجبار بيده...»[2].

قال: (وقد سبق الكلام في اليد في حق الله تعالى وتأويلها قريبًا مع القطع باستحالة الجارحة ليس كمثله شيء ومعنى الحديث أن الله تعالى جعل الأرض كالظلمة والرغيف العظيم ويكون ذلك طعامًا نزلاً لأهل الجنة والله على كل شيء قدير)[3].

والقول في هذا كالقول في الذي قبله أن التأويل منهج خلفي مبتدع وأن صفات الخالق هي ليس كصفات المخلوقين، واليد صفة ثابتة لله والقول في صفة اليد كالقول في غيرها فلم تثبتون صفة الإرادة وتنكرون صفة اليد، وكل كمال الخالق به أولى فالذي له يد أكمل ممن لا يد له فهل من عاقل يرى أن من لا يد له أكمل ممن له يد، بل هذه أوهام سيطرت على عقول المتأولين فنفوا الصفات فعطلوا ثم شبهوا والله بكل شيء عليم.

وهذه الأقوال التي ذكرها الإمام كلها تأويلات لصفة اليد الموصوفة باليمين وإنكار حقيقتها. ولقد علق سماحة الشيخ بن باز رحمه الله على هذا الموضع أيضًا في تعليقاته على فتح الباري، والذي ذكر الحافظ ابن حجر فيه هذه التأويلات.

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٨٦ـ ٨٧/ ٧) كتاب الزكاة باب أن اسم الصدقة يقع على نوع من المعروف.

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي ص(١١٢/ ١٧) برقم (٣٠).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص(١١٢/ ١٧) كتاب صفات المنافقين.

فقال سماحته: (هذه التأويلات ليس لها وجه، والصواب إجراء الحديث على ظاهره وليست في ذلك عن الله محذور عند أهل السنة والجماعة، لأن عقيدتهم الإيمان بما جاء في الكتاب والسنة الصحيحة من أسماء الله سبحانه وصفاته، وإثبات ذلك لله على وجه الكمال مع تنزيهه تعالى عن مشابهة المخلوقات، وهذا هو الحق الذي لا يجوز العدول عنه. وفي هذا الحديث دلالة على إثبات اليمين لله سبحانه، على أنه يقبل الصدقة من الكسب الطيب ويضاعفها)[1].

• هل يوصف الله تعالى بالشمال أو اليسار

مما له صلة بالكلام على صفة اليد من البحث في إطلاق لفظ الشمال، أو اليسار، على يد الله سبحانه وتعالى. فقد ثبت بالنصوص الصحيحة الصريحة أن لله تعالى يدين. وثبت وصف إحدى يديه باليمين، فهل توصف يده الأخرى بالشمال أو لا؟

الواقع أن لفظ الشمال قد ورد إطلاقه في الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «يطوي الله عز وجل السماوات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك. أين الجبارون! أين المتكبرون ثم يطوي الأرض بشماله، ثم يقول: أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون»[2].

وورد هذا الحديث بإطلاق الشمال على إحدى يدي الله تعالى فإن بعض علماء أهل السنة قال بعدم جواز إطلاق ذلك استدلالاً بما ورد في عدد من الأحاديث من قوله ﷺ «كلتا يديه يمين» [3].

---

(١) فتح الباري ص(٢٨٠/ ٣) هامش (١١).

(٢) جاء ذلك صريحاً في قوله تعالى: ﴿**والسموات مطويات بيمينه**﴾ سورة الزمر، الآية: ٦٧.

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووي ص(١٧٨/ ١٢) كتاب الإمارة. برقم (١٨٢٧).

كما جاء ذلك صريحًا في قوله تعالىٰ: ﴿وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾ [١].

ومن هؤلاء العلماء الإمام ابن خزيمة، حيث قال في كتابه التوحيد: (باب ذكر سنة ثامنة تبين وتوضح أن لخالقنا جلّ، علا يدين، كلتاهما يمينان، لا يسار لخالقنا عز وجل إذا اليسار من صفة المخلوقين، فجل ربنا أن يكون له يسار)[٢].

ولقد تطرق الإمام في شرحه إلىٰ هذه المسألة، وذلك عند شرحه حديث مسلم والذي جاء فيه قال رسول الله ﷺ: «يطوي الله السموات يوم القيامة ثم يأخذهن بيده اليمنىٰ، ثم يطوي الأرضين بشماله»[٣].

كما تطرق الإمام لهذه المسألة عند شرحه حديث «يمين الله ملأى».

قال الإمام: (قال القاضي: قال الإمام المازري: هذا مما يتأول لأن اليمين إذا كانت بمعنىٰ المناسبة للشمال لا يوصف بها البارئ سبحانه وتعالىٰ، لأنها تتضمن إثبات الشمال، وهذا يتضمن التحديد ويتقدس الله سبحانه عن التجسم والحد إنما خاطبهم الرسول ﷺ بما يفهمونه . . .)[٤].

وعند حديث: «وكلتا يديه يمين» قال الإمام: (وأما قوله ﷺ «كلتا يديه يمين» تنبيه علىٰ أنه ليس المراد باليمين جارحة تعالىٰ الله عن ذلك فإنها مستحيلة في حقه سبحانه تعالىٰ)[٥].

فمن خلال هذه الأقوال للإمام النووي، والتي نقل بعضها عن بعض العلماء تنحصر في نفي صفة اليد، كما أن صفة اليمين والشمال منفية، لأنها من صفات المخلوقين والله منزه عن النقص.

---

(١) سورة الزمر، الآية: [٦٧].

(٢) كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب لابن خزيمة ص(٦٦).

(٣) أخرجه مسلم للنووي ص(١٠٩/ ١٧) كتاب صفة القيامة والجنة والنار.

(٤) شرح مسلم للنووي ص(٦٧ـ ٧٠/ ٧) باب الحث علىٰ النفقة.

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي ص(١٧٨/ ١٢) كتاب الإمارة باب فضل الأمير العادل.

والحق الذي يجب أن يكون عليه الإمام ومن تابعه أو اتبعه هو، هو أن إطلاق صفة اليد، وصفتي اليمين والشمال ثابت لله تعالىٰ في الأحاديث الواردة عن رسول الله، كما أن الرواية التي ورد فيها ذكر صفة «الشمال» لله سبحانه وتعالىٰ رواية صحيحة ثابتة عن مسلم في صحيحه، وإذا ثبتت صحتها جاز إطلاق لفظ الشمال مع اعتقاد أن الشمال في حق الله تعالىٰ منزه عن النقص. ويكون حديث: «كلتا يديه يمين» جاء تأكيداً لنفي النقص والضعف عن يد الله سبحانه لا كما قال الإمام أنه تنبيه علىٰ أنه ليس المراد باليمين جارحة تعالىٰ الله عن ذلك فإنها مستحيلة في حقه سبحانه وتعالىٰ، لأنه قول يتضمن أن ليس هناك يد حقيقة لله تعالىٰ عن ذلك، ويتضمن إثبات يد معنوية، كما أن لفظ جارحة لفظ دخيل لم يستخدمه السلف وليس معروفًا لديهم.

كما أن حجتهم في ذلك أن إثباتها يلزم منها التجسيم والتحديد، ومشابهة المخلوقين والمحدثين. وهذه الحجة التي اعتمد عليها الإمام في منهجه في تأويل الصفات. هي حجة واهية لا دليل تستند عليه والله أعلم.

١٩- صفة الأصابع

الأصابع من صفات الله الذاتية الخبرية الثابتة في السنة الصحيحة، فقد أخرج الإمام البخاري في صحيحه بسنده عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن يهوديًا جاء إلىٰ النبي ﷺ فقال: «يا محمد»، إن الله يمسك السموات علىٰ إصبع والأرضين علىٰ إصبع، والجبال علىٰ إصبع، والشجر علىٰ إصبع، والخلائق علىٰ إصبع ثم يقول: أنا الملك. فضحك رسول الله ﷺ حتىٰ بدت نواجذه وقرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[1]. وفي رواية: «فضحك رسول الله ﷺ معجبًا وتصديقًا له»[2].

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٧.

(٢) صحيح البخاري على الفتح ص(٣٩٣/ ١٣) برقم (٧٤١٤)، وأخرجه مسلم في صفات المنافقين، برقم (١٩-٢٢)

ففي هذا الحديث إثبات الأصابع لله عز وجل، وجاء ذلك أيضًا في الحديث الذي أخرجه مسلم في صحيحه، عن عبدالله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن كقلب وإن يصرفها كيف شاء . . . »[1].

وقد أخذ السلف أهل السنة بظاهر الحديث، وقالوا: «إن لله تعالىٰ أصابع حقيقية نثبتها له كما أثبتها له رسوله ﷺ».

وتعرض الإمام النووي للكلام علىٰ صفة الأصابع لله تعالىٰ في شرحه لحديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ الذي سبق ذكره، فكان له موقف التأويل، ولم يوفق في إثبات هذه الصفة علىٰ طريقة السلف أهل السنة والجماعة، كما فعل بعض العلماء وقد ذكر بعض الأقوال وهي غريبة عن منهج السلف. وفيما يلي بيان شرحه لهذا الحديث وبالله التوفيق.

قال رحمه الله: (قوله: «إن الله يمسك السموات علىٰ أصبع والأرض علىٰ أصبع إلىٰ قوله: ثم يهزهن» هذا من أحاديث الصفات، وقد سبق فيها المذهب في التأويل والإمساك عنه مع الإيمان بها مع اعتقاد أن الظاهر منها غير مراد فعلىٰ قول المتأولين يتأولون الأصابع هنا علىٰ الاقتدار أي خلقها مع عظمها بلا تعب ولا ملل والناس يذكرون الأصبع في مثل هذه للمبالغة والاحتقار فيقول أحدهم بأصبعي أقتل زيدًا أي لا كلفة علي في قتله، وقيل: يحتمل أن المراد أصابع بعض مخلوقاته.

وهذا غير ممتنع والمقصود أن يد الجارحة مستحيلة.

ثم قال: قوله « فضحك رسول الله ﷺ تعجبًا مما قال الحبر تصديقًا له» ثم قرأ ﴿ وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعًا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص(١٦٧/ ١٦) كتاب القدر باب بتصريف الله القلوب.

بيمينه ﴾[1]. قال الإمام: (ظاهر الحديث أن النبي ﷺ صدق الخبر في قوله إن الله تعالى يقبض السموات والأرض والمخلوقات بالأصابع، ثم قرأ الآية التي فيها الإشارة إلى نحو ما يقول، قال القاضي: وقال بعض المتكلمين ليس ضحكه ﷺ تعجبه وتلاوته للآية تصديقًا للخبر بل هو رد لقوله وإنكار وتعجب من سوء اعتقاده فإن مذهب اليهود التجسيم ففهم منه ذلك وقوله تصديقًا له إنما من كلام الراوي على ما فهم والأول أظهر)[2].

هذه الأقوال التي ذكرها الإمام النووي في شرح الحديث .

وأقول: قول الإمام النووي أن هذا الحديث من أحاديث الصفات، وفي أحاديث الصفات مذهبان، قول فاسد، لأن مذهب السلف كما ذكرت - سابقًا - مذهب واحد في آيات الصفات وأحاديث الصفات وهي إمرارها كماجاءت مع اعتقاد أن لها معنى يليق بالله تعالى .

وقوله: «الإمساك مع الإيمان بها مع اعتقاد أن الظاهر غير مراد، قول مخالف لمنهج السلف أهل السنة والجماعة» .

* وعند شرح حديث: «إن قلوب بني آدم كلها بين إصبعين من أصابع الرحمن». قال أيضًا: متأولاً صفة الإصبع بعد أن ذكر المذهب الأول كطريقته في كل موضع من مواضع أحاديث الصفات قال: (والثاني يتأول بسبب ما يليق بها فعلى هذا المراد المجاز، كما يقال فلان في قبضتي وفي كفي لا يراد به أنه حال به كفه بل المراد تحت قدرتي ويقال فلان بين أصبعي أقلبه كيف شئت أي أنه مني على قهره والتصرف فيه كيف شئت فمعنى الحديث أنه سبحانه وتعالى متصرف في قلوب عباده

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٧).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص(١٧/١٠٨) كتاب صفات المنافقين كتاب صفة القيامة والجنة والنار.

وغيرها كيف شاء لا يمتنع عليه منها شيء، ولا يفوته ما أراده كما لا يمتنع على الإنسان ما كان بين إصبعيه فخاطب العرب بما يفهمونه ومثله بالمعاني الحسية تأكيداً له في نفوسهم فإن قيل فقدرة الله تعالىٰ واحدة والإصبعان للتثنية، فالجواب أنه قد سبق أن هذا مجازاً واستعارة فوقع التمثيل. بحسب ما اعتادوه مقصود به التثنية والجمع والله أعلم)[1].

أقول: تأويل الأصابع على الاقتدار، أو غيره من أنواع التأويلات. مبني على الظن بأن إثباتها على ظاهر يستلزم أن تكون من جنس أصابع المخلوقين. ولذلك صرفوها عن ظاهرها، وهذا ظن سيء بالله، وبكلامه، وكلام رسوله ﷺ. وقع فيه هؤلاء العلماء بسبب تأثرهم بالمنهج الكلامي الفاسد المتناقض. ولو أنهم أتبعوا في هذه الصفة وغيرها من الصفات المنهج السلفي القويم لسلم لهم عقيدتهم وأصولهم.

وهذا ابن قتيبة ـ رحمه الله ـ يقول في كتابه: «تأويل مختلف الحديث»: (قالوا: حديث في التشبيه يكذبه القرآن وحجة العقل، قالوا: رويتم أن قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الله عز وجل، فإن كنتم أردتم بالأصابع ههنا النعم، وكان الحديث صحيحاً فهو مذهب، وإن كنتم أردتم بالأصابع بعينها، فإن ذلك يستحيل. لأن الله تعالىٰ لا يوصف بالأعضاء، ولا يشبه المخلوقين . . .).

هذا قول النفاة يحكيه ابن قتيبة، ثم يقول:

«قال أبو محمد: ونحن نقول: «إن هذا الحديث صحيح، وإنّ الذي ذهبوا إليه في تأويل الأصبع لا يشبه الحديث، لأنه عليه السلام قال في دعائه: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك». فقالت له إحدىٰ أزواجه: أو تخاف ـ يا رسول الله ـ على نفسك؟ فقال: «إن قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الله عزّ وجلّ». فإن كان القلب عندهم بين نعمتين من نعم الله، فهو محفوظ بتينك النعمتين، فلأي شيء دعا بالتثبت

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص(١٦٧/ ١١٦) كتاب القدر باب تصريف الله القلوب.

؟ ولم احتج على المرأة التي قالت له : أتخاف على نفسك بما يؤكد قولها؟ وكان ألا يخاف إذا كان القلب محروساً بنعمتين .

فإن قال لنا : ما الأصبع عندك ههنا ؟ قلنا : هو مثل قوله - في الحديث الآخر - ويحمل الأرض على أصبع، وكذا على أصبعين، ولا يجوز أن تكون الأصبع ههنا نعمة، وكقوله تعالى : ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ﴾[1]. ولم يجز ذلك ولا نقول أصبع كأصابعنا، ولا يد كأيدينا، ولا قبضته كقبضتنا، لأن كل شيء منه عز وجل لا يشبه شيئًا منا)[2].

ما قرره الإمام ابن قتيبة هنا هو القول الفاصل، وهو مذهب أهل الحق من أهل السنة والجماعة .

٢٠ - صفة الساق

الساق صفة ذاتية ثبت وصف الله تعالى بها نصًا في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري ومسلم من رواية أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في وصف أحوال الناس في عرصات القيامة، وفيه قوله ﷺ: «يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة»[3] .

فالضمير في قوله «عن ساقه» راجع إلى الله تعالى، ففي ذلك إثبات الساق صفة لله تعالى[4] .

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٧ .

(٢) تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة ص(١٨٩ـ ١٩٠) .

(٣) أخرجه البخاري مختصراً موضع، ومطولاً في موضع آخر، انظر: الصحيح مع الفتح ص(٦٦٣ـ ٨/٦٦٤)، برقم (٤٩١٩). وص (٤٢٠ـ ٤٢٢/ ١٣)، برقم (٧٤٣٩)، وأخرجه مسلم بشرح النووي ص(٢٣ ـ ٣٠) كتاب الإيمان برقم (١٨٣).

(٤) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري ص(١٢١/ ٢).

وأهل السنة والجماعة يثبتون هذه الصفة كما أثبتوا غيرها مما ورد في الكتاب والسنة. على ما يليق بجلاله وعظمته، من غير تشبيه بصفات المخلوقين(١).

ولقد تكلم الإمام النووي على هذه الصفة في موضع واحد هو كما يلي:

* ففي شرحه للحديث السابق، قال: (قوله ﷺ: «فيكشف عن ساق» ضبط يكشف بفتح الياء، وضمها وهما صحيحان وفسر ابن عباس وجمهور أهل اللغة وغريب الحديث «الساق» هنا بالشدة أي يكشف عن شدة وأمر مهول. وهذا مثل تضربه العرب لهول الأمر ولهذا يقولون قامت الحرب على ساق وأصله أن الإنسان إذا وقع في أمر شديد شمر ساعده وكشف عن ساقه للاهتمام به.

ثم نقل قولاً للقاضي عياض جاء فيه: «قال القاضي رحمه الله.. وقيل المراد بالساق هنا نور عظيم ورد ذلك في حديث عن النبي ﷺ قال ابن فورك: ومعنى ذلك ما يتجدد للمؤمنين عند رؤية الله تعالى من الفوائد والألطاف.

قال القاضي عياض: وقيل: قد يكون الساق علامة بينه وبين المؤمنين من ظهور جماعة من الملائكة على خلقة عظيمة لأنه يقال ساق من الناس كما يقال: رجل من جراد وقيل، قد يكون ساق مخلوقًا جعله الله تعالى علامة للمؤمنين خارجة عن السوق المعتادة وقيل: معناه كشف الخوف وإزالة الرعب عنهم وما كان غلب على قلوبهم من الأهوال فتطمئن حينئذ نفوسهم عند ذلك ويتجلى له فيخرون سجداً. قال الخطابي - رحمه الله - وهذه الرؤية التي في هذا المقام يوم القيامة غير الرؤية التي في الجنة لكرامة أولياء الله تعالى: «إنما هي للامتحان، والله أعلم»)(٢).

وهذا الحديث الذي شرحه الإمام وقع في نص الرواية التي أخرجها البخاري بنص: «يوم يكشف عن ساقه» وفي رواية مسلم: «يكشف عن ساق».

---

(١) «التعليق على فتح الباري» للشيخ الدويش ص(١٨).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٢٤-٢٥/ ٣) كتاب الإيمان باب معرفة طريق الرؤية.

ولقـد وقع بين السلف أنفسـهم نزاع في الآية الكريمة: «ويوم يكشف عن ساق»[1].

وهل هي من آيات الصفات أو لا ؟

ويحكي شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الخلاف فيقول: (إن جميع ما في القرآن من آيات الصفات فليس عن الصحابة اختلاف في تأويلها .

وقد طالعت التفاسير المنقولة عن الصحابة، وما رووه من الحديث، ووقفت عن ذلك على ما شاء الله تعالى من الكتب الكبار والصغار ومن مائة تفسير، فلم أجد إلى ساعتي هذه، عن أحد من الصحابة أنه تأول شيئًا من آيات الصفات أو أحاديث الصفات بخلاف مقتضاها المفهوم المعروف، بل عنهم من تقرير ذلك وتثبيته، وبيان أن ذلك من صفات الله ما يخالف لكلام المتأولين ما لا يحصيه إلا الله، وكذلك فيما يذكرونه آثرين وذاكرين عنهم شيء كثير .

وتمام هذا أنني لم أجدهم تنازعوا إلا في مثل قوله تعالى: ﴿يوم يكشف عن ساقه﴾، فروى عن ابن عباس وطائفة أن المراد به الشدة وإن الله يكشف عن الشدة في الآخرة، وعن أبي سعيد وطائفة أنهم عدوها في الصفات للحديث الذي رواه أبو سعيد في الصحيحين[2])[3].

قال: ولا ريب أن ظاهر القرآن لا يدل على أن هذه من الصفات، فإنه قال: «يوم يكشف عن ساق» نكرة في الإثبات، لم يضفها إلى الله، ولم يقل: عن ساقه، فمع

(١) سورة القلم، الآية: ٤٢) .

(٢) لقد قدم البخاري رحمه الله بالتبويب بالآية، وجعل الحديث بعدها بإعتبار أنه مفسراً لها، وهو بهذا يكون موافق للطائفة الثانية، أما الإمام مسلم فلم يفعل ذلك وهذا لا يعني أن الإمام مسلم من الطائفة الأولى . فلكل من الإمامين منهج معروف في التأليف. انظر: كتاب شروط الأئمة الستة للحافظ أبي الفضل محمد المقدسي ويليه شروط الأئمة الخمسة للحافظ أبي بكر محمد الحزمي، وانظر أيضا: مقدمة كلا من صحيح البخاري، وصحيح مسلم.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ص(٦/٣٩٤).

عدم التصريف بالإضافة لا يظهر أنه من الصفات إلا بدليل آخر[١]، ومثل هذا ليس بتأويل إنما التأويل صرف الآية عن مدلولها ومفهومها، ومعناها المعروف، ولكن كثير من هؤلاء[٢]، يجعلون اللفظ على ما ليس مدلولاً له، ثم يريدون صرفه عنه، ويجعلون هذا تأويلاً وهذا خطأ من وجهين كما قدمناه غير مرَّة»[٣].

وإذا تبين ما قاله شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ علم أن ما روى عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ»، وعن غيره من السلف تفسير قوله تعالى: ﴿ويوم يكشف عن ساق﴾ بالشدة والكرب، ليس من جنس تأويلات المتكلمين المحدثة، لأن ابن عباس وغيره من السلف يثبتون صفة الساق لله تعالى بالحديث الصحيح الذي دل عليها، ولكنهم لم يفهموا من الآية دلالة عليها، ففسروها بعيدة عن كونها دالة على صفة من صفات الله.

وأما العلماء الذين عدوا الآية من آيات الصفات، فيبين الإمام ابن القيم وجهتهم بقوله: «والذين أثبتوا ذلك صفة كاليدين، والإصبع لم يأخذوا ذلك من ظاهر القرآن، وإنما أثبتوه بحديث أبي سعيد الخدري المتفق على صحته، وهو حديث الشفاعة، وفيه: «فيكشف الرب عن ساقة فيخرون له سجداً». ومن حمل الآية على ذلك قال: قوله تعالى: ﴿يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود﴾ مطابقة لقوله ﷺ: «فيكشف عن ساقه فيخرون له سجداً» وتنكره[٤] للتعظيم والتفخيم، كأنه قال: «يكشف عن ساق عظيمة، جلت عظمتها، وتعالى شأنها، أن يكون لها نظيراً ومثيل أو شبيه. قالوا: وحمل الآية على الشدة لا يصح بوجه، فإن لغة القوم في مثل ذلك

---

(١) قلت: الذين عدو الآية من آيات الصفات استدلوا بالحديث السابق، لأن الحديث مفسر لها.

(٢) وهم المتأولين لآيات الصفات وأحاديثها.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ص(٣٩٤-٣٩٥/٦).

(٤) أي تنكير الساق في الآية.

أن يقال: كشفت الشدة عن القوم، لا كشف عنها، كما قال الله تعالى: ﴿ **إذا هم ينكثون** ﴾[1]، وقال: ﴿ **ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر** ﴾[2]، فالعذاب والشدة هو المكشوف، لا المكشوف عنه، وأيضًا فهناك تحدث الشدة وتشتد، ولا تزال إلا بدخول الجنة. وهناك لا يدعون إلى السجود، وإنما يدعون إليه أشد ما كانت الشدة)[3].

ويظهر من خلال هذا البيان قوة موقف الذين عدوا الآية من آيات الصفات من ناحيتين:

الأولى: ظهور التطابق بين الآية والحديث.

الثانية: ضعف تفسير الآية بالشدة، كما سبق.

ويقوي هذا القول ما أخرجه الدارمي في سننه، وابن مندة في «كتاب الإيمان» من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - مرفوعًا، فنحو حديث أبي سعيد، وفيه: «فيكشف لهم عن ساقه، فيقعون سجودًا، وذلك قول الله تعالى: ﴿ **يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون** ﴾ ويبقى كل منافق فلا يستطيع أن يسجد، ثم يقودهم إلى الجنة)[4].

وهذا تفسير نبويّ فاصل في الموضوع، ولذا قال الإمام الشوكاني: (وقد أغنانا الله سبحانه في تفسير هذه الآية بما صح عن رسول الله ﷺ كما عرفت، وذلك لا يستلزم تجسيمًا ولا تشبيهًا. فليس كمثله شيء».

«ودعوا كل قول عند قول محمد   فما آمن في دينه كمخاطـــــر»[5]

---

(١) سورة الزخرف. الآية: ٥٠.

(٢) سورة المؤمنون. الآية: ٧٥.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، لابن القيم ص(٢٥٢ - ٢٥٣/ ١).

(٤) سنن الدارمي: تحقيق فواز موسى، وخالد السبع ص(٤٢٠ - ٤٢١/ ٢) برقم (١٢٨٠٣).

(٥) فتح القدير، للشوكاني ص(٢٧٤ - ٥٢٧٥) عالم الكتب.

والإمام النوي رحمه الله كما سبق في قوله السابق يظهر من خلاله أنه ممن لا يرون أن هذا الحديث من أحاديث الصفات، ولقد فسر الساق بما فسرها به ابن عباس ولقد بينت ضعف هذا الرأي وقوة موقف من يرون هذا الحديث من أحاديث الصفات لتطابقه مع الآية الكريمة ﴿يوم يكشف عن ساقه﴾ .

إن ما ذكره الإمام نقلاً عن القاضي عياض من تأويلات هي مردودة وذلك لمخالفتها مذهب السلف القائم على إثبات أن لله ساقًا تليق به فيجب إثباتها له من غير تكييف، ولا تشبيه، ولا تأويل، ولا تعطيل، كما هو ظاهرها من نص الحديث الذي هو مفسراً للآية .

٢١ - صفة القدم والرجل

في أحاديث عديدة إثبات القدم والرجل لله عز وجل، منها : ما أخرجه البخاري من حديث أبي هرير رضي الله عنه - رفعه : «يقال لجهنم هل امتلأت؟ وتقول : هل من مزيد؟ فيضع الرب تبارك وتعالى قدمه عليها، فتقول : قط قط» [١] .

ما أخرجه أيضًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ : « حتى يضع رجله، فتقول : قط قط قط» [٢] .

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - : «فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع الله تبارك وتعالى رجله، وفي الرواية الأخرى عن أنس بن مالك : «لا

---

(١) أخرجه البخاري مع «الفتح» ص(٨/٥٩٥) برقم (٤٨٤٩) .

(٢) أخرجه البخاري مع «الفتح» ص(٨/٥٩٥) برقم (٤٨٥٠) .

تزال جهنم تقول هل من مزيد حتى يضع فيها الرب العزة تبارك وتعالى قدمه فتقول قط قط. وفي الرواية الأولى فيضع قدمه عليها»[1].

ففي هذه الأحاديث وغيرها من الأحاديث الواردة في معناهما البيان الواضح بأن القدم والرجل - وكلاهما عبارة عن شيء واحد - صفة ذاتية لله تعالى حقيقة على ما يليق بجلاله وعظمته)[2].

والإمام النووي - رحمه الله - شرح الأحاديث الواردة في صحيح مسلم في إثبات صفة القدم والرجل لله عز وجل، ولكنه عفا الله عنا وعنه - ذكر فيها المذهبان السابقان - اللذين يذكرهما عند كل صفة ثابتة لله، وهما إما التفويض زاعمًا أنه مذهب السلف، وإما التأويل وهو طريقته ومذهبه.

وهذا يتضح من قوله التالي:

قال عن الحديث السابق الذي رواه مسلم.

(هذا الحديث من مشاهير أحاديث الصفات وقد سبق مرات بيان اختلاف العلماء فيها على مذهبين:

أحدهما: وهو قول جمهور السلف وطائفة من المتكلمين أنه لا يتكلم في تأويلها بل نؤمن أنها حق على ما أراده الله ولها معنى يليق بها وظاهرها غير مراد.

والثاني: وهو قول جمهور المتكلمين أنها تتأول بحسب ما يليق بها فعلى هذا إختلفوا في تأويل هذا الحديث، فقيل: المراد بالقدم هنا المتقدم وهو شائع في اللغة ومعناه حتى يضع الله تعالى فيها من قدمه لها من أهل العذاب، قال المازري والقاضي: هذا تأويل النضر بن شميل ونحوه عن ابن الأعرابي.

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي ص(١٧/١٥١) كتاب الجنة وصفة نعيمها.

(٢) انظر: شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، للغنيمان ص(١/١٥٦).

الثاني: أن المراد قدم بعض المخلوقين فيعود الضمير في قدمه إلىٰ ذلك المخلوق المعلوم.

الثالث: أنه يحتمل أن في المخلوقات ما يسمىٰ بهذه التسمية، وأما الرواية التي يضع الله فيها رجله فقد زعم الإمام أبو بكر بن فورك: أنها غير ثابتة عند أهل النقل ولكن قدروها مسلم وغيره وهي صحيحة وتأويلها كما سبق في القدم ويجوز أيضًا أن يراد بالرجل الجماعة من الناس، كما يقال: رجل من جراد أي قطعة منه، قال القاضي: أظهر التأويلات أنهم قوم استحقوها وخلقوا لها. قالوا: ولابد من صرفه من ظاهره لقيام الدليل القطعي العقلي علىٰ استحالة الجارحة علىٰ الله تعالىٰ»[1].

فالإمام النووي ـ رحمه الله ـ ذكر أن مذهب السلف هو التفويض، وقد بينت فساد ذلك من قبل.

كما ذكر تأويلات مختلفة، تتشابه في كونها علىٰ طريق التأويل، وفي كونها حشوًا حشا بها الإمام شرحه، وسكت عليها، وختم قوله بقوله: «قالوا: ولابد من صرفه عن ظاهره لقيام الدليل العقلي القطعي علىٰ استحالة الجارحة علىٰ الله تعالىٰ».

أقول: من هم الذين قالوا هذا؟ والإجابة هم علماء الأشاعرة وغيرهم من المؤولة الذين لا نذكر أقوالهم إلا لتبطل وتزيف، لا لتقرر ويعتمد عليها.

كما أن هذا مضمونه أنه إذا ثبت لله جل وعلا قدمًا. فإنه قد أثبت ما ينافي في صفة الخالق، ومعلوم أن صفات الخالق ليس كصفات المخلوق ﴿**ليس كمثله شيء هو السميع البصير**﴾[2].

وأما ما يتعلق بالرواية التي فيها ذكر الرجل، فينقل الإمام أن ابن فورك قد أنكر

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص(١٧/١٥١)، كتاب الجنة باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء.

(٢) سورة الشورىٰ، الآية: ١١.

ثبوتها. ثم تعقب الإمام بقوله: ولكن قد رواها مسلم وغيرها وهي صحيحة.

وذكر أن تأويلها كتأويل القدم وذكر تأويلاً واحداً لها وهو أنه يجوز أن يكون المراد بالرجل «الجماعة من الناس». وكلها أباطيل وتأويلات مردودة، لظهور بطلانها ظهوراً جلياً بعكس ما أكده القاضي عياض قوله: «أن أظهر التأويلات أنهم قوم استحقوها وخلقوا لها». ولذلك لا يتكلف في ردها بالدليل، والله المستعان على ما يصفون.

٢٢- صفة الكنف

الكنف صفة ثابتة لله تعالى بالسنة الصحيحة، فقد أخرج البخاري في صحيحه من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما وعن النبي ﷺ: «يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه ...»(١).

كما أخرج مسلم عن ابن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ: «يدني المؤمن يوم القيامة من ربه عز وجل حتى يضع اليه كنفه فيقرره بذنوبه ..»(٢).

والكنف بالتحريك في اللغة بالجانب، والناحية والستر والحرز.

يقال أنت في كنف الله تعالى، في حرزه وستره (٣).

والحديث المذكور عن مسلم شرحه الإمام النووي فقال في شرحه: «أما كنفه فبنون مفتوحه وهو ستره وعفوه والمراد بالدنو دنو كرامة وإحسان لا دنو مسافة والله تعالى منزه عن المسافة وقربها) (٤).

---

(١) أخرجه البخاري مع الفتح ص(٤٦٨/ ١٠)، برقم(١٠٧٠)، وص(٤٧٥/ ١٣) برقم (٧٥١٤).

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي ص(٧٢/ ١٧) كتاب التوبة باب قبول توبة التائب وإن كثر قتله.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر ص(٢٠٥/ ٢)، والقاموس المحيط ص(١٠٩٩).

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٧٢/ ٧) كتاب التوبة باب توبة القاتل وإن كثر قتله.

قلت : تفسير الإمام الكنف في حق الله تعالىٰ بالستر لا محذور في إثباته لله تعالىٰ علىٰ هذا المعنىٰ، فقد ورد عن السلف تفسير الكنف في حق الله تعالىٰ بالناحية والستر[1]. والله أعلم .

٢٣ - صفة المحبة .

المحبة صفة من صفات الله الفعلية الاختيارية التي تتعلق بمشيئته، والنصوص الواردة في الكتاب والسنة في إثبات هذه المحبة أكثر من أن تحصر .

وقد أجمع سلف الأمة وأئمتها علىٰ إثبات محبة الله تعالىٰ لعباده والمؤمنين ومحبتهم له، وهذا أصل دين الخليل عليه أفضل الصلاة والتسليم»[2] .

وأول من أنكر صفة المحبة في الإسلام شيخ الجهمية الجعد بن درهم، وورث ذلك عنه أتابعه ومن تابعهم من الفرق الضالة»[3] .

وقد جاء في صحيح البخاري أحاديث كثيرة فيها إثبات صفة المحبة لله تعالىٰ كما يليق بجلاله[4] .

كما روىٰ بعض الأحاديث الإمام مسلم، وشرح الإمام النووي هذه الأحاديث وتكلم علىٰ صفة المحبة في أكثر من موضع في شرحه لصحيح مسلم غير أنه عفا الله عنا وعنه ـ نهج في كلامه علىٰ هذه الصفة منهج أهل التأويل ـ كما يلي :

* في شرح حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ : «أن رجلاً زار أخًا له في قرية أخرىٰ فأرصد الله له، علىٰ مدرجه ملكًا فلما أتىٰ عليه قال : أين تريد، قال : أريد أخًا لي في هذه القرية، فقال : هل لك عليه من نعمة تربها؟ قال : لا غير أني أحببته في الله عز وجل . قال : فإني رسول الله إليك فإن الله قد أحبك كما أحببته فيه»[5] .

---

(١) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، للغنيمان ص(٤٢٣/ ٢) .

(٢) مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام بن تيمية ص(٣٥٧/ ٢) .

(٣) المصدر السابق ص(٣٥٤/ ٢)، ص(٤٧٦ ـ ٤٧٣/ ٦) .

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص(١٠١ ـ ١٠٢/ ١٦) كتاب البر والصلة باب فضل الحب في الله تعالىٰ .

(٥) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ١٠١/ ١٦ برقم (٢٥٦٧).

قال الإمام: (قوله بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه، قال العلماء: محبة الله عبده هي رحمته له ورضاه عنه، وإرادته له الخير وأن يفعل به فعل المحب من الخير وأهل المحبة في حق العباد ميل القلب والله تعالى منزه عن ذلك»[1].

* وفي شرح حديث أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله إذا أحب عبداً، دعى جبريل فقال: إني أحب فلان فأحبه»[2].

قال الإمام، قال العلماء: «محبة الله تعالى لعباده هي إرادته الخير له وهدايته وانعامه عليه ورحمته»[3].

أقول: في قوله الحديثين السابقين ـ قال العلماء: «لا شك أنه يقصد علماء الأشاعرة وإلا فإن السلف لا يقولون بهذا لأنهم، لا يأولون الصفات ولا ينفونها.

* وفي شرح حديث الرجل الذي كان يقرأ لأصحابه في صلاته فيختم بـ «قل هو الله أحد» ومنه قوله ﷺ: «أخبره أن الله يحبه»[4].

قال الإمام: (قال المازري: «محبة الله لعباده إرادة ثوابهم وتنعيمهم، وقيل محبته لهم نفس الإثابة والتنعيم، لا الإرادة. قال القاضي: «وأما محبتهم له سبحانه فلا يبعد فيها الميل منهم إليه سبحانه وهو متقدس عن الميل، قال دليل محبتهم له استقامتهم على طاعته، وقيل الاستقامة ثمرة المحبة وحقيقة المحبة له ميلهم إليه لاستحقاقه سبحانه، تعالى المحبة من جميع وجوهها»[5].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص(١٠١-١٠٢/ ١٦) كتاب البر والصلة باب فضل الحب في الله تعالى.

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ١٥١/ ١٦ برقم (٢٦٣٧).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص(١٥١/ ١٦) كتاب البر والصلة والآداب باب إذا أحب الله عبداً أمر جبريل أن يحبه.

(٤) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ٨٣/ ٦، برقم (٨١٣).

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٨٣/ ٦) كتاب صلاة المسافرين باب فضل قراءة مثل قل هو الله أحد.

وفي شرح حديث عباده بن الصامت أن نبي الله ﷺ قال: «من أحب لقاء الله أحب الله لقائه ومن كره لقاء الله كره الله لقائه»(١).

قال الإمام النووي في شرحه للحديث: «.... ويحب الله لقاءهم أي فيجزل لهم العطاء والكرامة»(٢).

وفي شرح حديث أبي هريرة قال رسول الله ﷺ: «إن الله وتر يحب الوتر»(٣).

قال الإمام في شرحه: «إن الله يحب الوتر» (ومعنىٰ يحب الوتر تفضيل الوتر في الأعمال وكثير من الطاعات ويجعل الصلاة خمسًا والطهارة ثلاثًا، والطواف سبعًا ورمي الجمار سبعًا، وأيام التشريق ثلاثًا» إلىٰ أن قال: «وقيل أن معناه منصرف إلىٰ صفة من يعبد الله بالوحدانية والتفرد مخلصًا له والله أعلم»(٤).

ويظهر للقارئ أن الإمام قد أول صفة المحبة في جميع المواضع السابقة، وجعلها من متعلقات الإرادة، وهو بذلك موافق للأشاعرة، فإنهم يرجعون صفة المحبة إلىٰ صفة الإرادة، وينفون حقيقة المحبة عن الله تعالىٰ، بدعوىٰ أنها توهم نقصًا، إذ المحبة في المخلوق معناها ميله إلىٰ ما يناسبه أو يفضله وأما أهل الحق فيثبتون المحبة صفة حقيقة لله تعالىٰ، علىٰ ما يليق به، فلا تفضي عندهم نقصًا ولا تشبيهًا. كما يثبتون لازم تلك المحبة، وهي إرادته سبحانه إكرام من يحبه وإثابته»(٥).

٢٤ - صفة البغض.

والإمام اتبع في صفة البغض الطريقة نفسها في صفة المحبة أو الحب الثابتة لله سبحانه وتعالىٰ فأولها بالإرادة فقال في قوله ﷺ: «.... وإذا أبغض عبدًا دعا

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ١٧/٨ برقم (٢٦٨٣).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص(١٧/٩) كتاب الذكر.

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ١٧/٥ برقم (٢٦٧٧).

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص(١٧/٦) باب أسماء الله تعالىٰ وفضل من أحصاها.

(٥) شرح العقيدة الواسطية للهراس ص(١٢٢).

جبريل فيقول: إني أبغض فلانًا فأبغضه قال: فيبغضه جبريل ثم ينادي في أهل السماء. إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه. قال فيبغضونه ثم توضع البغضاء في الأرض».
قال رحمه الله: « . . . . وبغضه إرادة عقابه وشقاوته ونحوه . . . »[١].

والإمام بقوله العلماء: قصد بذلك علماء الأشاعرة الذين يؤولون معظم الصفات بالإرادة، والإرادة من لوازم صفة البغض وأهل السنة والجماعة يثبتون صفة البغض ويثبتون لازمها وهي إرادته العقاب أو الشقاء له والله أعلم.

٢٥ - صفة الخلة.

الخلة هي كمال المحبة المستغرقة للمحب، وهي أخص من مطلق المحبة[٢].

ن كلام ابن أبأراد حه ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلا﴾[٣]، وقال رسوله محمد ﷺ: «إن الله قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلا»[٤].

ففي هذين الدليلين إثبات لخلة الله تعالى، وخلته سبحانه وتعالى من صفاته الفعلية المتعلقة بمشيئته، وهو موصوف بها على الوجه الذي يليق به من غير تكييف ولا تشبيه وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة ذا.

ولقد أوّل الإمام النووي صفة الخلة على خلاف مذهب أهل السنة والجماعة فقال في شرح حديث جندب عن رسول الله ﷺ: «إني أبر إلى الله أن يكون لي منكم خليل فإن الله تعالى قد اتخذني خليلاً، كما اتخذ إبراهيم خليلاً» قا.

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص(١٥١/ ١٦) كتاب البر والصلة، باب إذا أحب الله عبداً أمر جبريل فأحبه.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص(٣٩٦-٣٦٧/ ٢).

(٣) سورة النساء، الآية: ١٢٥.

(٤) جزء من حديث أخرجه مسلم بشرع النووي ص(١٣/ ٥) كتاب المساجد.

(٥) الفتوى الحموية الكبرى ص(٨٢)، وشرح العقيدة الطحاوية ص(٣٩٦/ ٢).

(٦) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ١٢/ ٥ برقم (٥٣٢).

قال النووي: (قوله ﷺ: إني أبرا إلى الله أن يكون لي منكم خليل إلى آخره؛ معنى أبرأ أي أمتنع من هذا وأنكره، والخليل هو المنقطع إليه، وقيل المختص بشيء دون غيره. قيل: هومشتق من الخلة بفتح الخاء، وهي الحاجة، وقيل: الخلة بضم الخاء، وهي تخلل المودة في القلب، فنفى أن تكون حاجته واستطاعته. إلى غير الله تعالى. وقيل: الخليل ممن لا يتسع في القلب لغيره»[1].

فالإمام النووي لا يثبت حقيقة الخلة لله تعالى كما تليق به. وإنما فسر ذلك بالحاجة والانقطاع أو أنها عائدة على الشخص الذي يتسع قلبه لغيره. وهذا خلاف قول أهل السنة والجماعة كما سبق.

٢٦ - صفة الرضا، والغضب والسخط والكره

هذه الصفات الأربع من صفات الله الفعلية العقلية الثابتة لله بنصوص الكتاب والسنة الصحيحة.

قال الله تعالى: ﴿**رضي الله عنهم ورضوا عنه**﴾[2]، وقال تعالى: ﴿**يا أيها الذين ءامنوا لاتقولوا قوما غضب الله عليهم**﴾[3]، وقال عز وجل: ﴿**لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم**﴾[4].

وقال أيضًا: ﴿**ولكن كره الله انبعاثهم**﴾[5]، وهي عند أهل الحق صفات حقيقة لله عز وجل على ما يليق به، ولا يشبه ما يتصف به المخلوق من ذلك ولا يلزم منها ما يلزم

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص(١٢/ ٥).

(٢) سورة المائدة، الآية: ١١٩، وسورة البينة، الآية: ٨.

(٣) سورة الممتحنة، الآية: ١٣.

(٤) سورة المائدة، الآية: ٨٠.

(٥) سورة التوبة، الآية: ٤٦.

في المخلوق [1].

ولقد تكلم الإمام النووي في بعض المواضع من شرحه لصحيح مسلم على هذه الصفات، ولكن لم يثبتها على حقيقتها كما أثبتها أهل السنة والجماعة، بل أولها كلها، فجعلها راجعة إلى صفة الإرادة، كما فعل في صفة المحبة، وبيان ذلك فيما يلي:

* الرضا والسخط والكراهة، قال الإمام (قال العلماء: الرضا والسخط والكراهة من الله تعالى، المراد بها أمره ونهيه وثوابه وعقابه أوإرادته الثواب لبعض العباد والعقاب لبعضهم» [2].

وقال أيضًا في الرضى: «قال العلماء: رضي الله عنهم بطاعتهم ورضوا عنه بما أكرمهم وأعطاهم إياه من الخيرات والرضا من الله تعالى أفاضة الخير والإحسان والرحمة فتكون من صفات الأفعال، وهو أيضًا بمعنى إرادته فتكون من صفات الذات» [3].

وقال في الكره أيضًا، «ويكره الله لقاءهم» أي يبعدهم عن رحمته وكرامته ...» [4].

وقال في الغضب: «غضب الله تعالى ورضاه يرجعان إلى معنى الإرادة فإرادته

---

(١) شرح العقيدة الواسطية للهراس ص(٩)، وايضًا عقيدة السلف أصحاب الحديث للإمام الصابوني ص(٢٨).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص(١٠/ ١٢) كتاب الأقضية باب النهي عن كثرة المسائل من غير حاجة.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٥١/ ١٧) كتاب التوبة.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٩/ ١٧) كتاب الذكر باب من أحب الله أحب الله لقاءه ومن كره الله كره الله لقاءه.

الإثابة للمطيع ومنفعة العبد تسمىٰ رضا ورحمة وإرادته عقاب العاصي وخذلانه تسمىٰ غضبًا وإرادته سبحانه وتعالىٰ صفة له قديمة يريد بها جميع المخلوقات»[1].

وبهذا يكون الإمام قد وافق الأشاعرة في تأويل هذه الصفات وإراجعها إلىٰ الإرادة خلاف لأهل السنة والجماعة والله تعالىٰ الهادي إلىٰ سواء السبيل .

٢٧ - صفة الفرح

الفرح صفة فعلية إختيارية ثابتة لله عز وجل عن رسوله ﷺ حيث قال : فيما أخرجه البخاري في صحيحه ـ الله أفرح بتوبة العبد من رجل نزل منزلاً . . الحديث»[2].

وأخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : «لله أشد فرحًا بتوبة أحدكم بضالته إذا وجدها»[3].

وهو عند أهل السنة والجماعة ، فرح حقيقي يليق به تعالىٰ ، فلا يصح تفسيره بما يخالف ظاهر اللفظ»[4].

وقال الإمام النووي في شرح هذا الحديث (قال العلماء فرُح الله تعالىٰ هو رضاه وقال المازري : الفرح ينقسم علىٰ وجوه ، منها السرور والسرور يقاربه الرضا بالمسرور به . قال : فالمراد هنا أن الله تعالىٰ يرضىٰ توبة عبده أشد مما يرضىٰ واجد ضالته بالفلاة . فعبر عن الرضا بالفرح تأكيدًا لمعنىٰ الرضا في نفس السامع ومبالغة في تقريره)[5].

هذا ما ذكره الإمام النووي في شرح الحديث ، وهذا تأويل لصفة الفرح ما أنزل

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٥٧/ ١٧) كتاب التوبة باب سعة رحمة الله وأنها تغلب غضبه .

(٢) أخرجه البخاري ص ١٠٥/ ١١ برقم (٦٣٠٩).

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووي ص(٥٠/ ١٧) كتابة التوبة برقم (٢٦٧٥).

(٤) الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية للشيخ زيد بن عبدالعزيز ص(١٧٥-١٧٦) .

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٥١/ ١٧ .

الله به من سلطان، ولقد شرح هذا الحديث رجل من أهل السنة والجماعة[1]، فبين الحق فيه، ورد ردًا إجماليًا على التأويلات الباطلة من أمثال التأويلات السابقة في كلام الإمام النووي فقال فيه: «وفي الحديث إثبات صفة الفرح لله عز وجل والكلام فيه كالكلام في غيره من الصفات، أنه صفة حقيقية لله عز وجل على ما يليق به، وهو من صفات الفعل التابعة لمشيئته تعالى وقدرته فيحدث له هذا المعنى المعبر عنه بالفرح عندما يحدث عبده التوبة والإنابة إليه، وهو مستلزم لرضاه من عبده التائب، وقبوله توبته.

وإذا كان الفرح في المخلوق على أنواع، فقد يكون فرح خفة وسرور وطرب، وقد يكون فرح أشر وبطر، فالله عز وجل منزه عن ذلك كله، ففرحه لا يشبه فرح أحد من خلقه، لا في ذاته ولا في أسبابه، ولا في غاياته، فسببه كمال رحمته وإحسانه التي يحب من عباده أن يتعرضوا لها، وغايته إتمام نعمته على التائبين المنيبين.

وأما تفسير الفرح بلازمه، وهو الرضى، وتفسير الرضا بإرادة الثواب، فكل ذلك نفي وتعطيل لفرحه ورضاه سبحانه، أوجبه سوء ظن هؤلاء المعطلة بربهم، حيث توهموا أن هذه المعاني تكون فيها كما هي في المخلوق، تعالى الله عن تشبيههم وتعطيلهم»[2].

٢٨ - صفة الضحك.

الضحك صفة فعلية إختيارية ثبت وصف الله بها في أحاديث نبوية صحيحة، ذكر بعض أهل العلم أنها بلغت حد التواتر[3].

---

(١) هو الشيخ محمد هراس، المصري المولد والوفاة، كان سلفي المعتقد، شديدًا في الحق، قوي الحجة والبيان، أفنى حياته في التعليم والتأليف ونشر السنة وعقيدة أهل السنة والجماعة، وتوفي سنة (١٩٧٥م) رحمه الله تعالى. انظر: مقدمة شرح العقيدة الواسطية، تحقيق علوي بن السقاف، ص(٤١-٤٢).

(٢) شرح العقيدة الواسطية للهراس ص(١٦٦-١٦٧).

(٣) الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية للشيخ زيد بن عبدالعزيز بن فياض ص(١٨٠).

وأهل السنة والجماعة يثبتون هذه الصفة لله تعالىٰ علىٰ المعنىٰ الذي يليق به سبحانه وتعالىٰ من غير تشبيه لها بضحك المخلوق، ولا تأويل لها علىٰ خلاف ظاهرها(١).

وخالف الإمام النووي أهل السنة والجماعة في هذه الصفة أيضًا، فتأولها علىٰ خلاف ظاهرها وذلك في مواضع عند شرحه لبعض الأحاديث التي أخرجها مسلم وفيها إثبات صفة الضحك لله تعالىٰ وبيان ذلك:

أن مسلم أخرج حديث الرؤية الذي جاء فيه عن رسول الله ﷺ: «ويلك يا ابن آدم ما أغدرك! فيقول: أي رب، إلا أكون أشقىٰ خلقك فلا يزال يدعو الله حتىٰ يضحك الله تبارك وتعالىٰ منه، فإذا ضحك الله منه قال: أدخل الجنة»(٢).

قال النووي: «قوله: فلا يزال يدعوا الله تعالىٰ حتىٰ يضحك الله تعالىٰ منه: قال العلماء: ضحك الله تعالىٰ منه هو رضاه بفعل عبده ومحبته إياه وإظهار نعمته عليه وإيجابها عليه والله أعلم»(٣).

* وقال في موضع آخر عند شرحه لحديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: «أن رسول الله ﷺ قال: يضحك الله إلىٰ رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما في الجنة» فقالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: يقاتل هذا في سبيل الله عز وجل فيستشهد ثم يتوب الله علىٰ القاتل فيسلم: فيقاتل في سبيل الله عز وجل فيستشهد»(٤).

---

(١) شرح العقيدة الواسطية، للهراس ص(١٦٧)، وأيضًا شرح لمعة الاعتقاد للشيخ محمد بن صالح العثيمين ص(٣٠ـ٣١).

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ١٦/ ٣ برقم (١٨٢).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٢٢/ ٣) كتاب الإيمان باب معرفة طريق الرؤية.

(٤) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ٣٢/ ١٣ برقم (١٨٩٠).

قال الإمام في شرحه (قال القاضي: الضحك هذا استعارة في حق الله تعالى لأنه لا يجوز عليه الضحك المعروف في حقنا لأنه إنما يصح من الأجسام ومن يجوز عليه تغير الحالات. والله تعالى منزه عن ذلك، وإنما المراد به الرضا بفعلهما والثواب عليه وحمد فعلهما ومحبتة رسول الله لهما بذلك لأن الضحك من أحدنا إنما يكون عند موافقته ما يرضاه وسروره وبره لمن يلقاه.

قال ويحتمل أن يكون المراد هنا ضحك ملائكة الله تعالى الذين يوجههم بقبض روحه وإدخاله الجنة كما يقال قتل السلطان فلانًا أي أمر بقتله)[١].

* وفي شرح الحديث الذي أخرجه مسلم في كتاب الإيمان عن ابن مسعود الذي جاء فيه: «قالوا مما تضحك يا رسول الله؟ قال من ضحك رب العالمين»[٢].

قال الإمام النووي: (قد قدمنا معنى الضحك من الله تعالى وهو الرضا والرحمة وإرادة الخير لمن يشاء رحمته من عباده والله أعلم)[٣].

* وفي شرحه حديث جابر عن عبدالله الذي جاء فيه: «... ثم يأتينا ربنا بعد ذلك فيقول، من تنظرون: فيقولون: ننظر ربنا، فقول: أنا ربكم، فيقولون: حتى ننظر إليك فيتجلى لهم يضحك ـ قال فينطلق بهم ويتبعونه»[٤].

قال النووي: «وأما التجلي فهو الظهور، وإزالة المانع من الرؤية، ومعنى يتجلى يضحك أي يظهر وهو راض عنهم»[٥].

وهكذا يظهر للقارئ تأويلات الإمام النووي صفة الضحك الثابتة لله تعالى،

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي كتاب الإمارة ص(٣٢/ ١٣) باب فضل الجهاد.

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ٣٥/ ٣ برقم (١٣٠٩).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي كتاب الإيمان ص(٣٨/ ٣) باب آخر أهل النار خروجا.

(٤) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ٣٨/ ٣ برقم (١٨٨).

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي كتاب الإيمان ص (٤٢/ ٣) باب أدنى أهل الجنة منزلاً.

بالرضى وهو قول مبني على الظن والقول على الله بلا علم .

ولقد أطال الإمام الدارمي في الرد على من يؤول ضحك الرب جل وعلا برضاه، أو رحمته، أو صفحه عن الذنوب، أو إضحاكه بعض مخلوقاته، وبين - رحمه الله - أن في هذه التأويلات تكذيبًا لهذه الأحاديث، التي وردت بإتيان الضحك لله تعالى، ثم سرد - بسنده - مجموعة طيبة من تلك الأحاديث[1].

«والصواب إثبات هذه الصفة وغيرها وإجراؤها على ظاهرها على ما يليق بجلال الله وعظمته، وهذا قول سلف الأمة وأئمتها»[2]. فهل يجوز أن يؤول الضحك المضاف إلى الله تعالى والمؤكد بمؤكدات لا تحتمل المجاز أبدًا. وهل يجوز أن تعود الإضافة للملك أو الرسل؟ وأقول: إنما هو مجرد التقليد الذي لا يستند إليه دليل أو قاعدة ثابتة، والذي أدى بهم إلى التخبط والتناقض والله أعلم .

٢٩ - صفة العجب .

العجب من صفات الله الفعلية، الثابتة بالكتاب والسنة الصحيحة، أما الكتاب ففي قوله تعالى: ﴿ **بل عجبت ويسخرون** ﴾[3].

وفي السنة أخرج مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - الذي جاء فيه قوله ﷺ: «عجب الله من صنيعكما بضيفكما الليلة»[4].

ولقد شرح النووي هذا الحديث ولكن تأول هذه الصفة على غير حقيقتها فقال

---

(١) رد الإمام الدارمي على بشر المريسي ص(١٧٤ - ١٨١) . وانظر أيضًا: «الحجة في بيان المحجة» لأبي القاسم التيمي ص(٤٥٧ - ٤٥٨/ ٢) .

(٢) التعليق على فتح الباري، للدويش ص(٩) .

(٣) سورة الصافات، الآية: ١٢ .

(٤) أخرجه مسلم بشرح النووي ص(١٢/ ١٤) كتاب الأشربة باب إكرام الضيف وفضل إيثاره. برقم (٢٠٥٤).

عنه : (قال القاضي : المراد بالعجب من الله رضاه عن ذلك، قال : وقد يكون المراد عجبت ملائكة الله وأضافه إليه سبحانه وتعالىٰ تشريفًا)[1].

لقد خالف الإمام والقاضي مذهب السلف، فلقد أثبت السلف صفة العجب لله تعالىٰ، استدلالاً بقراءة ابن مسعود رضي الله عنه ـ وأهل الكوفة (بل عجبت» بالضم، وبالأحاديث الصحيحة التي وصف الرسول ﷺ فيها ربه عز وجل بالعجب، وهو عجب حقيقي يليق به تعالىٰ، وليس عجبه سبحانه ناشئًا من خفاء في الأسباب، أو جهل بحقائق الأمور، كما هو الحال في عجب المخلوق، بل هو معنىً يحدث له سبحانه علىٰ مقتضىٰ مشيئته وحكمته، وعند وجود مقتضيه، وهو الشيء الذي يستحق أن يتعجب منه[2].

كما أن تفسير العجب بلازمه وهو الرضا ليس فيه إثبات لصفة العجب لله، والله راض بذلك قبل وجود الأفعال من عباده.

والحق الذي يجب اعتقاده والإيمان به أن تحمل صفة العجب علىٰ ظاهرها وعلىٰ ما يليق بالله تعالىٰ لأنه هو الذي وصف بها نفسه ووصفه بها رسوله، وبهذا يسلم المرء من كل المحاذير الآنفة الذكر وغيرها، ويكون متمسكًا بمذهب السلف الصالح الذين قدروا الله حق قدره وصفوه بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله ووقفوا مع الدليل

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٢/ ١٤.

(٢) لقد ذكر العلماء أن العجب نوعان :

إحداهما : أن يكون صادراً عن خفاء الأسباب علىٰ المتعجب فيندهش له ويستعظمه ويتعجب منه، وهو النوع مستحيل علىٰ الله تعالىٰ لأن الله لا يخفىٰ عليه شيء.

الثاني : أن يكون سببه خروج الشيء من نظائره، أو عما ينبغي أن يكون عليه، مع علم المتعجب، وهذا هو الثابت لله تعالىٰ، انظر : شرح لمعة الاعتقاد الهادي إلىٰ سبيل الرشاد، للشيخ ابن عثيمين ص (٣٠).

وداروا معه حيث دار، فكانوا بحق هم الناجين من بين الفرق كلها والسائرين على درب رسول الله ﷺ، نسأل الله أن يرزقنا العمل بطريقتهم إنه سميع مجيب.

٣٠- صف الرحمة

الرحمة من صفات الله تعالى الثابتة بالكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، والنصوص الواردة في إثبات صفة الرحمة، لا تكاد تحصى كثره، ومن أسماء الله الحسنى «الرحمن، الرحيم»، وهم مشتقان من «الرحمة» كما سبق في مبحث الأسماء. وذكر الله التمدح بالرحمة مرارًا جمة أكثر من خمسمائة مرة من كتابه الكريم، منها باسمه الرحمن أكثر من مائة وستين مره، وباسمه الرحيم أكثر من مائتي مرة، وجمعها الله للتأكيد مائة وستة عشر مرة»[١].

وأجمع المسلمون على حسن إطلاق الرحمة على الله تعالى، من غير قرينة تشعر بالتأويل، ولا توقف على عبارة التنزيل، وعزمت ذلك فطر العقول.

وقد تكلم الإمام النووي على صفة الرحمة (في مواضع من كتابه الشرح)، وتناول كلامه على هذه الصفة تفسير معناها، حيث قال ـ رحمه الله ـ في قوله تعالى: «إن رحمتي تغلب غضبي»[٢]، (قال العلماء: غضب الله تعالى ورضاه يرجعان إلى معنى الإرادة. فإرادته الإثابة للمطيع ومنفعة العبد تسمى رضا ورحمة وإرادته عقاب العاصي وخذلانه تسمى غضبًا وإرادته سبحانه وتعالى صفة له قديمة يريد بها جميع المرادات . . .)[٣].

وقوله قال العلماء: يقصد بذلك علماء الأشاعرة الذين كانت طريقتهم التأويل لكل الصفات الفعلية الإختيارية.

---

(١) مقتبس من كلام أبي عبدالله بن الوزير اليماني في كتابه «إيثار الحق على الخلق» في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد ص ١٢٥ طبعة دار الكتب العلمية.

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ١٧/٥٧ برقم (٢٧٥).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص(١٧/٥٧) كتاب التوبة.

والحق أن تأويل الإمام النووي لصفة الرحمة بأنها راجعة لصفة الإرادة قول باطل، وتقليد للمتكلمين الذين يحرفون الكلم عن مواضعه ويعطلون البارئ عز وجل عن صفاته العليا، بحجة تنزيهه عن مشابهة خلقه، فقد فسروا صفة الرحمة بلازمها وعطلوه تعالى من الإتصاف بصفة هي من أجمل وأعظم صفاته، وذلك ناتج في الحقيقة عن توهم التشبيه عند القوم، لأن المعطل شبه أولاً ثم عطل. ولو أنه نزه تعالى عن مشابهة خلقه ووصفه به نفسه ووصفه به رسول الله ﷺ أسلم من كل هذه المحاذير ولقدر الله حق قدره.

والشبهة التي جعلت الإمام يؤول هذه الصفة (الرحمة): تبعًا للأشاعرة وغيرهم، إن لم يذكرها ههنا إلا أنها مشهورة معلومة عند القوم ألا وهي أن إثبات صفة الرحمة على ظاهرها محال، لأن الرحمة رقة في القلب أورقة تكون في الراحم وهي ضعف وخور في الطبيعة وتألم على المرحوم، وهذه المعاني نقص وما كان كذلك فهو مستحيل في حق الله تعالى، فإثبات الرحمة إذامستحيل وإنما المراد لازمها، أو إرادة لازمها، وهو إرادة الخير، أو إرادة الأنعام، والإحسان هكذا يدعون، وبطلان هذا الأمر واضح جلي، لأن قياس صفات الخالق على صفات المخلوق قياس فاسد، وهو سر ضلال الجهمية ومن قلدهم من الأشاعرة وغيره.

وقد سبق الكلام أن الكلام في الصفات فرع من الكلام في الذات، فكما أن له سبحانه ذاتًا تليق بجلاله فله صفات تليق به.

وكذلك تفسير الإمام الرحمة بصفة أخرى وهي الإرادة: «إرادة الإنعام أو الإحسان إلى أخره» هو تفسير مبتدع مرفوض لدى العقلاء لأن الإرادة صفة غير الرحمة وكذلك الغضب والرضى والمحبة والفرح وسائر الصفات التي فسروا بعضها ببعض وكلها ثابتة بالكتاب والسنة.

كما أن العقل دل على أن الله أرحم الراحمين، كما دل من قبله الشرع على

إثباتها، ذلك أن من أتصف بالرحمة كانت عند العقلاء أكمل ممن حرمها، وكل كمال اتصف به المخلوق فالخالق به أولىٰ وأحق .

والأولىٰ وصف الله تعالىٰ بالرحمة من حيث أنها من أسماء الله تعالىٰ الرحمن الرحيم بخلاف المريد فليس من الأسماء الحسنىٰ، لأن الإرادة تتناول ما يحسن إرادته ومالا يحسن فلم يوصف بالاسم المطلق، منها وإن كان فعالاً مريداً، فإذا قيل إنه مريد حقيقة وليس من أسمائه الحسنىٰ المريد، فلا يكون رحماناً رحيماً حقيقة، وهو موصوف بالرحمة حقيقة ومن أسمائه الرحمن الرحيم أولىٰ وأحرىٰ[1] .

فالواجب إثبات صفة الرحمة لله تعالىٰ كما أثبتها لنفسه، وكما أثبتها له رسوله ﷺ مع نفي نقائص المخلوقين عنها، «وكذلك كل صفة يوصف بها الرب سبحانه، ويوصف بها العبد، وأن الرب يوصف بها علىٰ أتم الوصف مجردة عن جميع النقائص والعبد يوصف بها محفوفة بالنقص، وبهذا فسر أهل السنة نفي التشبيه، ولم يفسروه بنفي الصفات وتعطيلها كما صنعت الباطنية الملاحدة»[2] .

والرحمة المضافة إلىٰ الله تعالىٰ نوعان : أحدهما : مضاف إليه إضافة صفة إلىٰ الموصوف بها، كقوله تعالىٰ : ﴿**وسعت رحمتي كل شيء**﴾[3]، وقوله تعالىٰ : ﴿**وربك الغني ذو الرحمة**﴾[4]، وهذه الرحمة ذاتية لازمة لله تعالىٰ بالنظر إلىٰ أصلها، وهي صفة فعلية بالنظر إلىٰ أفرادها وآحادها، لأن الله يرحم بها من يشاء من عباده وكل صفة تتعلق بالمشيئة فهي صفة فعلية، وكلها صفات قائمة به سبحانه، ليست قائمة بغيره فيصف بها سبحانه وتعالىٰ حقيقة كما يليق بجلاله .

---

(١) مختصر الصواعق لابن القيم ص (٣٤٦ / ٢) .

(٢) إيثار الحق علىٰ الخلق لابن الوزير اليماني ص(٣٤٦/ ٢).

(٣) سورة الأعرف، الآية: ١٥ .

(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٣٣ .

والثاني: مضاف إليه إضافة مفعول إلى فاعله، كقوله تعالى: ﴿وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته﴾[1]، وقوله تعالي: ﴿ولئن أذقنا الإنسان منا رحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور﴾[2].

وهذه الرحمة لسيت صفة لله تعالى، بل هي من أثر رحمته التي هي صفته الذاتية الفعلية، وتسمية الأشاعرة هذا النوع صفة فعل غلط لأن الله عز وجل لا يوصف بما خلقه منفصلاً عن ذاته[3].

وبهذا - إن شاء الله - يتضح الحق الذي يجب اعتقاده في صفة الرحمة لله تعالى كماذهب إليه السلف أهل السنة والجماعة، خلافًا لمذهب أهله التأويل الباطل والمنهج المنحرف، والله تعالى الموفق.

٢١- الوصل والقطع

ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ في شأن الرحم، إن الله تعالى قال لها: أما ترضين أن أصل من وصلك، وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، يا رب، قال: فهو لك»[4].

وفي رواية: «من وصلك وصلته، من قطعك قطعته»[5].

وفي مسلم قال ﷺ: «قامت الرحم فقالت هذا مقام العائذ من القطيعة قال نعم.

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٤٨.

(٢) سورة هود، الآية: ٩.

(٣) في كل ما سبق - الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية ص(٩٣)، تأليف عبدالعزيز بن ناصر الرشيد، والتنبيهات السنية على العقيدة الواسطية ص(٧٧)، وشرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري للغنيمان ص(١٨٥-١٨٦/ ٢)، ومثله لابن عثيمين ص(١٨).

(٤) أخرجه البخاري مع «الفتح» ص(٤١٧/ ١٠) برقم (٥٩٨٧).

(٥) أخرجه البخاري مع «الفتح» ص (٤١٧/ ١٠) برقم (٥٩٨٨).

أمـا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك. قـالـت: بلىٰ. قـال: فـذلك لك»[1].

وفي رواية أخرىٰ: «الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله»[2].

ففي هذه الأحاديث وما في معناها إثبات الوصل والقطع لله تعالىٰ، وهي صفتان فعليتان كسائر صفات الله الفعلية، فيجب إثباتها علىٰ الوجه الذي يليق بالله سبحانه، من غير تشبيه ولا تكييف ولا تأويل ولا تعطيل، كما هومذهب السلف في الصفات.

ولقد أول الإمام النووي هاتين الصفتين، كما أول غيرها من الصفات الفعلية التي مضت، وبيان ذلك كما يلي:

* ففي شرحه لمعنىٰ الصلة الواردة في الحديث - السابق - الذي رواه مسلم يرحمه الله. قال الإمام: (قال العلماء حقيقة الصلة العطف والرحمة فصله الله سبحانه وتعالىٰ عبارة عن لطفه بهم ورحمته وعطفه بإحسانه ونعمه، أوصلتهم بأهل ملكوته الأعلىٰ وشرح صدورهم لمعرفته وطاعته)[3].

قلت: «العطف واللطف والرحمة من لوازم الوصل، كما أن الحرمان من لوازم القطع، فإن انتفت حقيقة الوصل والقطع انتفىٰ لازمهما، فإن ثبوت لازم الحقيقة مع انتفائها ممتنع، فالحقيقة لا توجد منفكة عن لوازمها»[4].

ولذلك كـان الواجب إثبات هذه الصفات علىٰ حقيقتها، لأن تأويلها نفي

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي ص(١٦/٩١) كتاب الصلة باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها (٢٥٥٤)

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي ص(١٦/٩٢) برقم (٢٥٥٥).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص (١٦/٩١) كتاب البر والصلة.

(٤) انظر: الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية ص (٩٢).

حقيقتها ويقتضي ذلك نفي لوازمها أيضًا، والله تعالى أعلم» .

٣٢ - صفة الغيرة

الغيره صفة من صفات الله تعالى، الثابتة بالسنة الصحيحة، فقد أخرج البخاري في باب الغيرة من كتاب النكاح في صحيحه خمسة أحاديث فيها وصف الرسول ﷺ ربه عز وجل بالغيرة، منها قوله عليه الصلاة والسلام: «إن الله يغار، وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم الله»(١) .

والغيرة صفة كمال. ولذا يذم من لا غيرة له على الحرمات، كالديوث، ويمدح الذي له غيرة يدفع بها الفواحش، ويعلم أن هذا أكمل من ذلك .

ولهذا وصف النبي ﷺ بالأكملية في ذلك، فقال: «ما من أحد أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش(٢)، وقال أيضًا: «أتعجبون من غيرة سعد، لأنا أغير منه والله أغير مني»(٣) .

وغيرة الله تعالى من جنس صفاته التي يختص بها، فهي ليست مماثلة لغيرة المخلوق بل هي صفة تليق بعظمته، مثل الغضب، والرضا، ونحو ذلك من خصائصه التي لا يشاركه الخلق فيها»(٤) .

وقد تكلم الإمام النووي على صفة الغيرة في مواضع من شرحه لصحيح مسلم وسلك أيضًا فيهامسلك التأويل وهذا يتضح فيما يلي :

---

(١) أخرجه البخاري مع «الفتح» ص(٣١٩/ ٩) برقم ٥٢٢٣، ومسلم في التوبة برقم (٣٦) .

(٢) أخرجه البخاري «مع الفتح» ص(٣١٩/ ٩)، برقم (١٥٢٢٠)، ومسلم في التوبة برقم (٣٣)،

(٣) أخرجه البخاري مع الفتح ص(٣٩٩/ ١٣) برقم (٧٤٧٦)، وانظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ص(١٢٠/ ٦).

(٤) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، للغنيمان ص(٣٣٥/ ١).

* قال ﷺ: «إن سعد يغار وأنا أغير منه والله أغير مني» ويقول الإمام في شرحه: «قال العلماء: الغيرة بفتح العين، وأصلها المنع، والرجل غيور على أهله أي يمنعهم من التعلق بأجنبي بنظر أو حديث أو غيره، والغيرة صفة كما ل فأخبر ﷺ بأن سعد غيور. وأنه أغير منه وأن الله أغير منه ﷺ وأنه من أجل ذلك حرم الفواحش فهذا تفسير لمعنى غيرة الله تعالى أي أنها منعه سبحانه وتعالى الناس من الفواحش، ولكن الغيرة في حق الناس تقارنها تغير حال الإنسان وإنزعاجه، وهذا مستحيل في غيرة الله تعالى»[1].

* وقال في باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش: «قد سبق تفسير غيرة الله تعالى في حديث سعد بن عبادة وفي غيرته، وسبق بيان لا شيء أغير من الله والغيرة بفتح الغين. وهي في حقنا الآنفة وأما في حق الله تعالى قد شرحها هنا حديث عمرو الثابت بقوله ﷺ: «وغيرة الله تعالى أن يأتي المؤمن ما حرم الله عليه أي غيرته منعه وتحريمه»[2].

وما ذكره الإمام في هذين الموضعين سار فيه على طريقة التأويل الأشعري كما اتضح من خلال الصفات التي سبق الحديث عنها، وإن صفة الغيرة من تلك الصفات التي نالت نصيبها من التأويل، وبقوله: قال العلماء، لا شك كما ذكرت مراراً أنه يقصد به علماء الأشاعرة، لأن علماء أهل السنة لا يؤلون، بل يثبتون الصفات على الوجه اللائق بالله تعالى .

ويرد على شبهة الأشاعرة والتي نقلها النووي عنهم بقوله: «ولكن الغيرة في حق الناس تقارنها تغير حال الإنسان وإنزعاجه وهذا مستحيل في غيرة الله تعالى» . بأن كل ما سوى الله مخلوق منفعل ونحن وذواتنا منفعلون، فكون الغيرة إنفعالات فينا

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص(١١١/ ١٠) كتاب اللعان .

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٦٤/ ١٧) كتاب التوبة باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش.

لغيرنا نعجز عن دفعها لا يوجب أن يكون الله منفعلاً لها عاجزاً عن دفعها، إذ كل ما يجرىٰ في الوجود بمشيئته وقدرته، لا يكون إلا ما يشاء ولا شاء إلا ما يكون سبحانه له الملك وله الحمد»[1].

فغيرة الله إذاً تليق بجلاله وعظمته، كما أن غيرتنا تناسب حالنا، فلا مجال ولا مكان لتلك الشبهة التي استدل بها الإمام النووي وغيره فيجب طرحها .

ومن جهة أخرىٰ فإن تفسيره للغيرة إنما هو تفسير لها بلوازمها ومقتضياتها من الزجر عما يغار عليه والنهي عن تعاطيه، وهي غير الغيرة، فلا يصح تفسير الغيرة بها. لأن في ذلك نفيًا لحقيقة الغيرة التي وصف الله تعالىٰ بها نفسه علىٰ لسان رسوله ﷺ.

وأما قوله ﷺ: «وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم الله عليه. فبيان لسبب الغيرة، ولا أدري كيف يستقيم تفسير الغيرة بذلك، كما ذكر ذلك الإمام النووي وغيره ومن وافقه في تأويلها من العلماء. عفا الله عنا وعنهم .

والواقع أن تأويلات كلاً من هؤلاء العلماء قائمة علىٰ الفهم الخاطيء لكلام الله تعالىٰ وكلام رسوله ﷺ. والصواب إثبات ما أثبته الله لنفسه وما أثبته له رسوله ﷺ من الصفات. إثبات بلا تشبيه ولا تكييف وتنزيهًا بلا تعطيل ولا تحريف .

وقد علق العلامة ابن باز ـ رحمه الله ـ علىٰ قول الحافظ ابن حجر في هذا الموضع واذكره هنا لتوافق كلام كلاً من الحافظ والإمام في تأويل صفة الغيرة، فقال ـ رحمه الله (المحال عليه سبحانه وتعالىٰ وصفه بالغيرة المشابهة لغيرة المخلوق، وأما الغيرة اللائقة بجلاله سبحانه وتعالىٰ، فلا يستحيل وصفه بها كما دل عليه هذا الحديث وما جاء في معناه. فهو سبحانه يوصف بالغيرة عند أهل السنة علىٰ وجه لا يماثل فيه صفات

---

(١) مجموع الفتاوىٰ لشيخ الإسلام ص ١٢٠/٦ .

المخلوقين. ولا يعلم كنهها وكيفيتها إلا هو سبحانه كما تقدم في الاستعداد والنزول، والرضا، والغضب وغير ذلك من صفاته سبحانه والله أعلم»[1].

٣٣ - صفة الغيظ

الغيظ صفة ثابتة لله بالسنة النبوية، فقد أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه وأغيظه عليه، رجل كان يسمى ملك الأملاك، لا ملك إلا الله»[2].

ولقد تأول الإمام النووي هذه الصفة بنقل نص عن الماوردي قال فيه: «أغيظ هنا مصروف عن ظاهره والله سبحانه وتعالى لا يوصف بالغيظ فيتأول هنا الغيظ على الغضب وسبق شرح معنى الغضب والرحمة في حق الله سبحانه وتعالى والله أعلم»[3].

وأقول: أن القول في صفة الغيظ كالقول في غيرها من الصفات، فهي ثابتة لله بما يليق بعظمته. وتأويلها بالغضب هو تأويل بلازمها وهو في الحقيقة نفي لها، كما أن الإمام وغيره من الأشاعرة يؤولون صفة الغضب والرحمة بالإرادة والحق الذي عليه أهل السنة والجماعة في صفة الغيظ وغيرها من الصفات.

الإثبات بلا تشيه والتنزيه بلا تعطيل.

فغيظ الله يليق بجلاله وعظمته، كما أن غيظنا يناسب حالنا، فلا مجال ولا مكان لتلك الشبهة التي أوردها الماوردي ونقلها عنه النووي بدون أن يعلق عليها مما يوضح منهجه الذي سار عليه في جميع الصفات الفعلية. أسأل الله أن يعفو عنا وعنه إنه سميع الدعاء.

---

(١) فتح الباري ص(٥٣١/٢) هامش (٢).

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ١٠٢/ ١٤ برقم (٢١٤٣)

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص(١٠٢/ ١٤) كتاب الآداب باب تحريم التسمي بملك الملوك.

٢٤ - صفة الاستطابة

ثبتت هذه النسبة في الحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري وغيره، عن أبي هريرة - رضي الله عنه - في فضل الصوم، مرفوعًا، وفيه: «والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك»(١).

وقال الإمام - رحمه الله -: في شرحه لهذا الحديث (أما معنى الحديث فقال القاضي: وقال المازري: هذا مجاز واستعارة لأن استطابة بعد الروائح من صفات الحيوان الذي له طبائع تميل إلى شيء فتستطيبه وتنفر من شيء تستقذره، والله تعالى متقدس عن ذلك لكن جرت عادتنا بتقريب الروائح الطيبة منا فأستعير ذلك في الصوم لتقريبه من الله تعالى.

ثم ذكر الإمام النووي قولاً عن القاضي فيه ثلاثة أقوال جاء فيها:

قال القاضي: وقيل يجازيه الله تعالى في الآخرة وتكون نكهته أطيب من ريح المسك، كما أن دم الشهيد يكون ريحه ريح المسك.

وقيل: يحصل لصاحبه من الثواب كالذي يحصل لصاحب المسك، وقيل رائحته عند ملائكة الله تعالى أطيب من رائحة المسك عندنا، وإن كانت رائحة الخلوف عندنا خلافه)(٢).

ولقد وافق ابن حجر النووي في شرحه لهذا الحديث، ووافقه في تأويل صفة الاستطابة ولقد علق الشيخ الدويش - رحمه الله - على كلام ابن حجر في هذا الحديث، فقال: «كل هذا تأويل لا حاجة إليه، وإخراج اللفظ عن حقيقته، والصواب أن نسبة الاستطابة إليه سبحانه كنسبة سائر صفاته وأفعاله إليه، فإنها استطابة لا تماثل استطابة

---

(١) أخرجه البخاري مع الفتح ص(١٠٣/ ٤) برقم (١٨٩٤)، ومسلم في الصيام برقم (١٦١ـ ١٦٣).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٢٥ـ ٢٦/ ٨) كتاب الصيام باب فضل الصيام.

المخلوقين كما أن رضاه وغضبه وفرحه، وكراهته، وحبه، وبغضه لا تماثل ما للمخلوق من ذلك كما أن ذاته سبحانه وتعالى لا تشبه ذوات المخلوقين، وصفاته لا تشبه صفاتهم، وأفعاله لا تشبه أفعالهم، قاله العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ في (الوابل الصيب) والله أعلم»[1].

٣٥ - صفة الملل والسآمة

هذه الصفة، صفة ثابتة لله في الحديث الذي رواه مسلم عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «يا أيها الناس عليكم من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا . . .» الحديث[2].

ولقد تكلم الإمام على هذه الصفة في شرحه للحديث ولكنه أولها كما أول غيرها من الصفات فقال، قال العلماء: «الملل والسآمة بالمعنى المتعارف في حقنا محال في حق الله تعالى فيجب تأويل الحديث». قال المحققون معناه لا يعاملكم معاملة المال فيقطع عنكم ثوابه وجزاءه وبسط فضله ورحمته حتى تقطعوا أعمالكم، وقيل معناه: لا يمل إذا مللتم وقاله ابن قتيبة وحكاه الخطابي وغيره»[3].

والقول الذي قاله ابن قتيبة هو ما يمثل مذهب أهل السنة والجماعة في إثبات صفة الله على ما يليق به، وإن كانت صفة كمال فالكمال لله سبحانه وتعالى به أولى وهذا القول جاء فيه: (قالوا حديث يكذبه النظر) قالوا رويتم أن رسول الله ﷺ قال: «كلفوا من العمل ما تطيقون فإن الله تعالى لا يمل حتى تملوا فجعلتم الله تعالى يمل إذا ملوا ـ والله تعالى لا يمل على كل حال ولا يكل)[4].

---

(١) التعليق على فتح الباري ص(٥)، و
انظر: الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب، لابن قيم الجوزية، ص(٥٢ ـ ٥٤).

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ٦٢/٦ برقم (٧٨٢).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٦٢ـ ٦٣/ ٦) كتاب صلاة المسافرين باب فضيلة العمل الدائم من مقام الليل وغيره والأمر بالاقتصاد.

(٤) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ٦٢/٦ برقم (٧٨٢).

* (قال أبو محمد : ونحن نقول أن التأويل لو كان على ما ذهبوا إليه كان عظيمًا فاحشًا ولكنه أراد فإن الله سبحانه لا يمل إذا مللتم ـ ومثال هذا قولك هذا الفرس لا يفتر حتى تفتر الخيل . لا تريد بذلك أنه يفتر إذا افترت ولو كان هذا المراد ما كان له فضل عليها لأنه يفتر معها فآية فضيلة له وإنما تريد أنه لا يفتر إذا فترت ـ وكذلك تقول في الرجل البليغ في كلامه فلا ينقطع حتى تنقطع خصومه . تريد أنه لا ينقطع إذا انقطعوا ولو أردت أنه ينقطع إذا انقطعوا لم يكن له في هذا القول فضل على غيره ولا وجبت له به مدحه ـ وقد جاء مثل هذا بعينه في الشعر المنسوب إلى ابن أخت تأبط شرا ويقال أنه غلف الأحمر .

صليت في هذيل بخرق[1] لا يمل الشر حتى يملوا

لم يرو أنه يمل الشر إذا ملوه ـ ولو أراد ذلك ما كان فيه مدح له لأنه بمنزلتهم ـ وإنما أراد أنهم يملون الشر وهو لا يمله)[2] .

وما ذهب إليه ابن قتيبة هو الأولى لأن كل كمال ثبت للمخلوق فالله تعالى به أولى ، والواجب ترك التأويل ، وإتباع التنزيل والله أعلم .

٣٦ - صفة العندية.

ورد في بعض نصوص الكتاب والسنة التصريح بإختصاص بعض الأشياء بأنها عند الله تعالى ، واستدل علماء أهل السنة والجماعة بذلك على علوا الله تعالى العلو العام على جميع خلقه ، والعلو الخاص على عرشه [3] .

---

(١) يقال صلي بالنار وصليها صلي من باب تعب وجد حرها ـ والخرق بالكسر الشجاع ـ يقول أن هذيلاً قاست الشدائد من شجاع قريب منه ذي جأش وثبات على القتال لا يسأل حتى يجد السآمة من أعدائه فكيف عن قتلاهم رأفة بهم . انظر تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص(٢٣٨) .

(٢) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص(٣٧ـ٣٨) .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص(٣٨٣/ ٢) ، وأيضًا معارج القبول للشيخ حافظ ص(١٥٩ـ١٦٠/ ١) .

ومن هذه النصوص مثلاً : قوله تعالىٰ : ﴿ ... **وله من في السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون**﴾[1] .

ففرق قياس في هذه الآية ـ بين «من له» عمومًا، وبين «من عنده» من مماليكه وعبيده وخصوصًا»[2] .

وقال رسول الله ﷺ: «لما قضىٰ الله الخلق كتب في كتابه، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي غلبت غضبي»[3] .

وهذا الحديث أخرجه البخاري في صحيحه في مواضع واستدل به في بعض هذه المواضع علىٰ علو الله تعالىٰ علىٰ عرشه، والشاهد فيه قوله: فهو فوق العرش» .

فلفظ «عنده» «وفوق» ظرفان مختصان بالمكان، وقد أضيفا إلىٰ الله تعالىٰ، فلابد أن هذه الإضافة تقتضي تخصيصًا للعرش علىٰ غيره من السموات والأرض»[4] .

ولقد أخرج البخاري ومسلم حديث رسول الله ﷺ الذي جاء فيه: «أنا عند ظن عبدي بي»[5] .

ولفظ: «عنده» يحمل علىٰ معناه اللائق بحسب الكلام، كما نقل الحافظ ابن حجر عن الراغب قوله: (عند لفظ موضوع للقرب ويستعمل في المكان، وهو الأصل ويستعمل في الأعتقاد تقول: عندي في كذا كذا، أي اعتقده، ويستعمل في المرتبة،

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ١٩ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص(٣٨٣/ ٢) .

(٣) أخرجه البخاري مع الفتح ص(٢٨٧/ ٦) برقم (٣١٩٤)، ومسلم بنحوه في التوبة رقم (١٦).

(٤) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، للشيخ الغنيمان ص(٣٩٦/ ١) .

(٥) جزء من حديث أخرجه البخاري مع الفتح ص(٣٨٤/ ١٣) برقم (٢٤٠٥)، ومسلم في الذكر برقم(٢).

ومنه: «أحياء عند ربهم[1]»[2].

ولقد أوّل الإمام النووي هذا الحديث فصرفه عن ظاهره بدون موجب فقال: (قوله عز وجل أنا عند ظن عبدي بي». قال القاضي: قيل معناه بالغفران له إذا استغفر والقبول إذا تاب والإجابة إذا دعا والكفاية، وقيل المراد به الرجاء وتأميل العفو وهذا أصح»[3].

أقول - لفظ عند - هنا في هذا الموضع موضوع يستعمل في القرب ويستعمل في المكان وهو الأصل كما تقدم عن الراغب، والإمام صرفه عن هذا إلى أشياء معنوية تكون من لوازم في القرب.

* * *

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

(٢) فتح الباري ص(٣٨٥/ ١٣).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٣/ ١٧) باب الذكر باب الحث على ذكر الله تعالى.

٣٧ ـ صفة الحياة.

وفي شأنها يقول الإمام: (قال العلماء وإنما تميزت آية الكرسي لكونها أعظم لماجمعت من أصول الأسماء والصفات الإلهية، والواحدانية، والحياة، والعلم، والملك والقدرة، والإرادة، وهذه السبعة أصول الأسماء والصفات والله أعلم)[1].

فالإمام يثبت صفة الحياة لله تعالى، وحياته ـ سبحانه ـ حياة حقيقية لائقة بكماله وجلاله، تباين حياة المخلوقين من كل وجه.

يقول ابن أبي العز: «فالحي بحياة باقية لا يشبه الحي بحياة زائلة . . . فإن الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمال. فلا يتخلف عنها صفة منها إلا لضعف الحياة، فإذا كانت حياته تعالى أكمل حياة وأتمها، استلزم إثباتها إثبات كل كمال يضاد نفيه كمال الحياة»[2].

٣٨ ـ صفة القيومية (القيام):

القيوم صفة ثابتة لله تعالى في القرآن في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[3] كما أن وصفه القيام صفة ثابتة لله في السنة النبوية وذلك في قوله ﷺ: «أنت قيوم السموات والأرض[4]» وفي رواية «قيم السموات والأرض»[5] ولقد أثبت الإمام النووي هذه الصفة الواردة في الحديث ـ السابق ـ فقال ـ رحمه الله ـ (قال العلماء من صفاته القيام والقيم كما صرح به هذا الحديث والقيوم بنص القرآن وقائم فيه قوله

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي (ص ٦/٨٢) كتاب صلاة المسافرين، باب فضل سورة الكهف وآية الكرسي.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية، ص ٩٠ ـ ١/٩٢.

(٣) سورة البقرة، آية الكرسي [٢٥٥].

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي، ص ٦/٤٨، كتاب صلاة المسافرين (٧٦٩).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي ص ٤٨ ـ ٦/٤٩ رقم ٧٦٩.

تعالى: ﴿أفمن هو قائم على كل نفس﴾ قال الهروي «ويقال قوام قال ابن عباس القيوم الذي لا يزول. وقال غيره. هو القائم على كل شيء، ومعناه مدبر أمر خلقه وهما سائغان في تفسير الآية والحديث[1].

قال فضيلة الشيخ ابن عثيمين في تفسير قوله تعالى: «﴿الحي القيوم﴾ هذان اسمان من أسمائه تعالى وهما جامعان لكامل الأوصاف، فكمال الأوصاف في الحي. وكمال الأفعال في (القيوم) لأن معنى الحي ذو الحياة الكاملة ويدل على ذلك (أل) المفيدة لاستغراق كمال الحياة من حيث الوجود والعدم ومن حيث الكمال والنقص. فإذا نظرنا إلى حياة الإنسان وجدنا أنها ناقصة لأنها من عدم وإلى عدم[2] ووجدنا أنها ناقصة من حيث الصفات و الأفعال، فسمعه ناقص وبصره ناقص وقوله وفعله ناقص، فهي حياة ناقصة من كل الوجوه من حيث الوجود والعدم، ومن حيث الأوصاف التي تكون من لوازم الحياة، أما الله عز وجل فحياته كاملة فلم تسبق بعدم ولا يلحقها زوال قال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ ﴾[3] وقال: ﴿ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾[4] ولهذا قال بعض السلف ينبغي للإنسان أن يصل لأن هذا هو وجه الكمال ليس وجه الكمال أن تفنى الخليقة فقط بل وجه الكمال لله أن تفنى الخليقة ويبقى الله عز وجل.

أيضًا حياة لا يلحقها عدم ولا عدم: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾[5]، فالله عز وجل له الحياة الكاملة أزلاً وأبدًا، ثم هذه الحياة كاملة الصفات في السمع والبصر والعلم والقدرة والعزة وكل الكمالات ولهذا جاءت «أل» الدالة على الاستغراق من حيث البقاء، ومن حيث الكمال.

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص(ص ٤٨/ ٦).

(٢) إلى عدم في الحياة الدنيا وإلا فسيبعث الناس إلى حياة أبدية.

(٣) سورة الفرقان، آيةك [٥٨].

(٤) سورة الرحمن، آية: [٢٧].

(٥) سورة القصص، آية: [٨٨].

وقوله «القيوم» أصل القيوم من القيام ووزن «قيوم» فيعول وهذه الزنة صيغة مبالغة، ومعنى القيوم القائم بنفسه القائم على غيره قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾[1] يعني «كمن لا يملك شيئًا».

وهو القائم بنفسه كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾[2] فالله غني عن العالمين فهو القائم بنفسه لا يحتاج إلى أكل ولا شرب فهو يُطعُم ولا يُطْعَم ولا يحتاج إلى معين ولا إلى ناصر ولا إلى وزير ولا إلى مشير، فهو سبحانه وتعالى قائم بنفسه.

فإن قلت: كيف الجمع بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾[3] وقوله: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ﴾[4].

فأثبت أنه يُنصر؟ فالجواب: أن المراد تنصروا دينه وهو سبحانه القائم على غيره فكل ما سواه محتاج إليه في الإيجاد والإعداد والإمداد»[5].

٣٩ ـ صفة النور

النور صفة ثابتة لله تعالى، بالقرآن وذلك في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾[6].

وفي الأحاديث قال ﷺ «رأيت نوراً» الحديث[7]. وقوله ﷺ: «... أنت نور

---

(١) سورة الرعد، جزء من آية: [٣٣].

(٢) سورة البقرة، آية: [٢٦٣].

(٣) سورة محمد، آية: [٧].

(٤) سورة الحج، آية: [٤٠].

(٥) تفسير آية الكرسي لابن عثيمين، ص ٧ ـ ١٠.

(٦) سورة النور، آية: [٣٥].

(٧) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ١٢/ ٣ برقم ١٧٨.

السماوات والأرض» الحديث[1].

ولقد تعرض الإمام لشرح هذه الصفة فقال مفسراً قوله تعالىٰ: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ والأرض﴾ وما جاء في الأحاديث من تسميته سبحانه وتعالىٰ.

«معناه: ذو نورهما وخالقه. وقيل: هادي أهل السموات والأرض. وقيل: منوّر قلوب عباده المؤمنين. وقيل: معناه ذو البهجة والضياء والجمال والله أعلم»[2].

وقال أيضًا معلقًا علىٰ قوله ﷺ: «... أنت نور السموات والأرض» قال العلماء: معناه: منوّرهما، وخالق نورهما، وقال أبو عبيد: معناه بنورك يهتدي أهل السموات والأرض.

قال الخطابي في تفسير اسمه سبحانه وتعالىٰ (النور) ومعناه: الذي بنوره يبصر ذو العماية وبهدايته يرشد ذو الغواية.

قال: ومنه ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ﴾، أي منه نورهما. قال: ويحتمل أن يكون معناه ذو النور، ولا يصح أن يكون النور صفة ذات الله ـ تعالىٰ ـ، وإنما هو صفة فعل، أي هو خالقه. وقال غيره: «معنىٰ «نور السموات والأرض» مدبر شمسها وقمرها ونجومها»[3].

ولقد رد عليه صاحب كتاب الردود والتعقيبات علىٰ النووي فقال: (قلت: كلام

---

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ص ١٢/ ٣، باب معنىٰ قوله عز وجل «لقد رآه نزلة أخرىٰ﴾ برقم (١٧٨).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١١/ ٣، كتاب الإيمان، باب معنىٰ قوله عز وجل ﴿ولقد رآه نزلة أخرىٰ﴾.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص ٤٨/ ٦.

المصنف في تأويل هذه الآية شبيه بما قاله المازري في «المعلم بفوائد مسلم» (١/ ٣٠٤) والقاضي عياض في «إكمال المعلم» (٨٠٦) وهذا التأويل قائم على أن النور من فعله سبحانه وتعالى، وإلا فالنور الذي هو من أوصافه قائم به أيضًا، وحمل الآية عليه من باب أولى، وفي هذا يقول العلامة ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ (سمى الله ـ سبحانه وتعالى ـ نفسه نورًا، وجعل كتابه نورًا، ودينه نورًا، واحتجب عن خلقه بالنور، وجعل دار أوليائه نورًا يتلألأ، قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[1] وقد فسر بكونه نور السماوات والأرض، وهادي أهل السموات والأرض، فبنوره اهتدى أهل السماوات والأرض. وهذا إنما هو فعله، وإلا فالنور الذي هو من أوصافه قائم به ومنه اشتق له اسم النور، الذي هو أحد أسمائه الحسنى[2] والنور يضاف إليه سبحانه على أحد وجهين:

ـ إضافة صفة إلى موصوفها.

ـ وإضافة مفعول إلى فاعله.

فالأول: كقوله عز وجل: ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾[3] فهذا إشراقها يوم القيامة بنوره تعالى إذا جاء لفصل القضاء ومنه قول النبي ﷺ في الدعاء المشهور .. «أعوذ بنور وجهك الكريم أن تضلني، لا إله إلا أنت)[4] وفي «معجم الطبراني»، «السنة» له و «كتاب عثمان بن سعيد الدرامي» وغيرهما عن ابن مسعود رضي الله عنه

---

(١) سورة النور، آية: [٣٥].

(٢) تخريج الأسماء الحسنى، لابن حجر العسقلاني، بتحقيق: أبو عبيدة سلمان مشهور ص٤٦.

(٣) سورة الزمر، الآية: [٦٩].

(٤) أخرجه ابن جرير في تاريخ الرسل والملوك، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (ص٣٤٥/ ٢)، والطبراني في الكبير، بإسناد رجاله ثقات، لكن فيه عنعنة ابن اسحاق.

قال: «ليس عند ربكم ليل ولا نهار نور السموات والأرض من نور وجهه»[1] وهذا الذي قاله ابن مسعود رضي الله عنه أقرب إلى تفسير الآية من قول من فسرها بأنه هادئ السماوات والأرض، وأما من فسرها بأنها نور السموات والأرض، فلا تنافي بين قوله وقول ابن مسعود، والحق أنه نور السماوات والأرض، بهذه الاعتبارات كلها»[2].

فقول النووي - رحمه الله - وغيره «ولا يصح أن يكون النور صفة ذات الله - تعالى - وإنما هو صفة فعل. غير صحيح والصواب، ما ذكره ابن القيم آنفًا من صحة إضافة هذا النور إلى ذات الله عز وجل دل على هذا القران في قوله سبحانه ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها﴾»[3].

قال: «وقد أحسن العلامة عبدالرحمن السعدي عندما قال في تفسير قوله: ﴿الله نور السموات والأرض﴾[4].

«الله نور السماوات والأرض .. الحسي والمعنوي، وذلك أنه تعالى بذاته نور، وحجابه نور، الذي لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، وبه استنار العرش والكرسي، والشمس، والقمر، والنور، وبه استنارت الجنة» وكذلك المعنوي يرجع إلى الله، فكتابه نور، وشرعه نور، والإيمان والمعرفة في قلوب

---

(١) أخرجه ابن منده في الرد على الجهمية (ص٩٩). تحقيق الدكتور علي بن محمد ناصر الفقيهي.

(٢) اجتماع الجيوش الإسلامية، ص (١٠) وكتاب فتح العزيز الغفور في أسباب الخروج من الظلمات إلى النور، نشر دار المنار.

(٣) سورة الزمر، آية: [٦٩].

(٤) سورة النور، آية: [٣٥].

رسله وعباده المؤمنين نور»[1].

والعجب من القاسمي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ فإنه صدر الكلام علىٰ تفسير قول سبحانه ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ «بنحو ما ذكره النووي من تأويل، ساكتًا عليه، وكأنه مقر له موافق علىٰ الاقتصار علىٰ المذكور، ثم بعد كلام نقل كلام ابن القيم آنف الذكر تحت عنوان تنبيه «وهو يرد علىٰ ما قرره واختاره»[2].

ولله در شيخ الإسلام ابن تيمية فإنه أسهب في إثبات هذه الصفة لله ـ عز وجل ـ وبين أنها متعلقة بذاته عز وجل، فضلاً عن أفعاله، وأورد شبه المخالفين وفندها بما لا مزيد عليه في مواطن من «مجموع الفتاوىٰ» له، انظر منها: ص ٧٣ ـ ٧٤/ ٥، ٣١٤ ـ ٣٧٩/ ٦، ٣٨٢ ـ ٣٩٦/ ٦، ٤٦٨ ـ ٤٦٩/ ٢٠، وكذا تلميذه ابن قيم الجوزية في كتابه البديع «الصواعق المرسلة» ص ٢٩١/ ٢، وما بعدها ـ مختصر، والتفسير القيم ص ٣٧٤»[3].

٤٠ ـ صفة المكر

صفة المكر صفة ثابتة لله تعالىٰ في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾[4].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص ٤١٩/ ٥.

(٢) راجع. محاسن التأويل، تفسير القاسمي، تأليف محمد جمال الدين القاسمي، تخريج وتعليق، ص ٤٥٢٤ ـ ٤٥٢٩/ ١٢، وأقاويل الثقات تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمتشابهات للإمام زين الدين مرعي، الكرمي المقدسي، ص ١٩٤.

(٣) الردود والتعقبيات علىٰ ما وقع للإمام النووي في شرح صحيح مسلم من التأويل في الصفات وغيرها من المسائل المهمات ص ٢١٥ ـ ٢١٨، تصنيف أبي عبيدة مشهور آل سلمان.

(٤) سورة، آل عمران، الآية: [٥٤].

والإمام النووي ـ رحمه الله ـ تعرض في شرحه لهذه الصفة في موضع واحد فقال شارحًا قوله ﷺ لأسماء بنت أبي بكر «ولا تُحصي فيُحصى عليك ولا توعي فيوعي الله عليكم» ما نصه (هو من باب مقابلة اللفظ باللفظ للتجنيس، كما قال ـ تعالى ـ ﴿ومكرُوا ومكر اللَّهُ﴾ معناه. يمنعك كما منعت، ويفتر عليك كما فترت، ويمسك فضله عنك كما أمسكت، وقيل: معنى «لا عقبى» أي: لا تعديه. فتستكثريه. فيكن سببًا لانقطاع إنفاقك)[1].

قلت: قوله في صفة المكر وغيرها من صفات الفعل لله ـ عز وجل ـ من الأمور المردودة غير المقبولة، ومنهج السلف في فهم الأسماء والصفات على خلافها، ومعلوم من الدين بالضرورة أن ذات الله غير ذواتنا، وصفاته غير صفاتنا، وكذلك أسماؤه غير أسمائنا. والتأويل ما هو إلا تعطيل الذي ينتهي بالتشبيه، فلا داع لصرف اللفظ عن معناه.

وعقب الشيخ بن باز ـ رحمه الله تعالى ـ على الحافظ ابن حجر عندما تأول هذا الحديث بنحو ما قاله النووي، فقال: (.. هذا خطأ لا يليق من الشارح، والصواب إثبات وصف الله بذلك حقيقة، على الوجه اللائق به سبحانه كسائر الصفات، وهو سبحانه يجازي العامل بمثل عمله، فمن مكر مكر الله به، ومن خادع خدعه، وهكذا من أوعى أوعى الله عليه وهذا قول أهل السنة والجماعة، فألزمه تفز بالنجاة والسلامة والله الموفق)[2].

وقال صاحب كتاب الردود والتعقيبات على ما وقع للإمام النووي في شرح صحيح مسلم «واعلم ـ وفقني الله وإياك للصواب ـ أن الصفات إذا كانت كمالاً في

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، (ص١١٩/ ٣).

(٢) فتح الباري، ص ٣٠٠/ ٣، الهامش.

حال، ونقصًا في حال لم تكن جائزة في حق الله، ولا ممتنعة على سبيل الإطلاق، فلا تثبت له إثباتًا مطلقًا، ولا تنفي عنه نفيًا مطلقًا، بل لابد من التفصيل، فتجوز في الحالة التي تكون كمالاً، وتمتنع في الحال التي تكون نقصًا، وذلك كالمكر وهذه الصفات وغيرها من صفات الأفعال، كالكيد، والخداع، فهذه تكون كمالاً إذا كانت في مقابلة من يعاملون الفاعل بمثلها، لأنها حينئذ تدل على أن فاعلها قادر على مقابلة عدوه بمثل فعله أو أشد وتكون نقصًا في غير هذه الحال، ولهذا لم يذكرها الله ولا رسوله ﷺ على أنها من صفاته بإطلاق، وإنما ذكرها في مقابلة من يعاملونه ورسله بمثلها»[1].

كقوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[2]، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾[3] وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾[4]، وقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾[5] وقوله: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ۝ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾[6]، ومن مثله قوله ﷺ: «في هذا الحديث لا تحصي فيحصي الله عليك، ولا توعي فيوعي الله عليك»[7].

---

(١) القواعد المثلى، لابن عثيمين، ص ٢٠.

(٢) سورة الأنفال، آية: [٣٠].

(٣) الطارق، آية: [١٥-١٦].

(٤) الأعراف، الآية: [١٨٢-١٨٣].

(٥) النساء، الآية: [١٤٢].

(٦) البقرة، الآية: [١٤-١٥].

(٧) الردود والتعقيبات على ما وقع فيه النووي، ص ١٥٠-١٥١، لأبي عبيد مشهور آل سلمان وانظر ص ١٥٢-١٥٣، من الكتاب نفسه.

يقول العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ (فنسبة الكيد والمكر ونحوها إليه سبحانه من إطلاق الفعل عليه تعالىٰ، والفعل أوسع من الاسم، ولهذا أطلق الله علىٰ نفسه أفعالاً لم يسم منها بأسماء الفاعل، كأراد وشاء وأحدث، ولم يُسم بـ (المريد)، و (الشافي)، و «المحدث» كما لم يسم نفسه «بـ الصانع» و «الفاعل» و «المتقن»، وغير ذلك من الأسماء التي أطلق أفعالها علىٰ نفسه، فباب الأفعال أوسع من باب الأسماء. وقد أخطأ أقبح الخطأ من اشتق له من كل فعل اسمًا، وبلغ بأسمائه زيادة علىٰ الألف، فسمّاه «الماكر، والمخادع، والفاتن، والكائد، ونحو ذلك» وكذلك باب الإخبار عنه بالاسم أوسع من تسميته به، فإنه يخبر عنه بأنه شيء موجود، ومذكور، ومعلوم، ومراد، ولا يسمىٰ بذلك»[1].

ورحم الله ابن حزم عندما قال «إن الأمة مجتمعه علىٰ أنه لا يدعو أحد فيقول: يا مستوىٰ! إرحمنا! ولا يسمىٰ ابنه عبدالمستوىٰ»[2].

٤١ ـ صفة العزم.

العزم صفة تعرض لها الإمام عند شرحه قول مسلم في مقدمة صحيحه (وظننت حين سألتني تجشم ذلك أن لو عزم لي عليه وقضىٰ لي تمامه كان أول من يصيبه نفع ذلك إياي)[3].

---

(١) مدارج السالكين (ص ٤١٥/ ٣) وانظر: في إثبات هذه الصفات ٣١٢ـ٣١٤، مختصر من الصواعق المرسلة (ص٢٨٩ـ٢٩٢/ ٢)، وطريق الهجرتين ص٥٩٥، لابن القيم الجوزية، تحقيق: يوسف علي بديوي، وأقاويل الثقات (ص٧٢)، وابن جرير ودفاعه عن عقيدة السلف ص ٤٩٥ـ ٥٠٣.

(٢) الفصل بين الأهواء والملل والنحل (ص٣٨١/ ١)، وضع حواشيه: أحمد شمس الدين.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٤٧ـ٤٨/ ١، مقدمة صحيح مسلم.

قال النووي - رحمه الله - (وقوله عزم هو بضم العين وهذا اللفظ مما أعتني بشرحه من حيث أنه لا يجوز أن يراد بالعزم هنا حقيقته المتبادرة إلى الأفهام، وهو حصول خاطر في الذهن لم يكن، فإن هذا محال في حق الله تعالى واختلف في المراد به هنا، فقيل معناه لو سهل لي سبيل العزم، أو خلق فيّ قدره عليه، وقيل: العزم هنا بمعنى الإرادة، فإن القصد والعزم والإرادة والنية متقاربان، فيقام بعضها مقام بعض، فعلى هذا معناه لو أراد الله ذلك لي، وقد نقل الأزهري وجماعة غيره أن العرب تقول: نواك الله بحفظه - قالوا: وتفسيره قصدك الله بحفظه، وقيل معناه لو ألزمت ذلك فإن العزيمة بمعنى اللزوم، ومنه قول أم عطية رضي الله عنها: نهينا عن اتباع الجنائز ولم يعزم علينا أي لم نلزم الترك، وفي الحديث الآخر يرغبنا في قيام رمضان من غير عزيمة أي من غير إلزام، ومثله قوله الفقهاء: ترك الصلاة في زمن الحيض عزيمة أي واجب على المرأة لازم لها والله أعلم. وقوله: كان أول، هو يرفع أول على أنه اسم كان)[1].

قلت: هذا هو قول الإمام النووي، في هذه الصفة، ونفيه لها واضح كما ترى، وممن تعرض لهذه الصفة شيخ الإسلام ابن تيمية فقد ذكر أن هناك خلاف في العزم، هل يوصف الله به على قولين:

أحدهما: المنع. كقول القاضي أبي بكر والقاضي أبي يعلى.

والثاني: الجواز.

وقال شيخ الإسلام عن الثاني: «وهو أصح، فقد أقرأ جماعة من السلف ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾[2] بالعلم وفي الحديث الصحيح: «حديث أم سلمة «ثم عزم الله

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٤٧-٤٨/ ١، شرح مقدمة صحيح مسلم.

(٢) سورة آل عمران، آية: [١٥٩].

لي»[1]، كذلك في خطبة مسلم «فعزم لي» وسواء سمى عزمًا أو لم يسم فهو سبحانه إذا قدرها علم أنه سيفعلها في وقتها، وأراد أن يفعلها في وقتها، فإذا جاء الوقت فلابد من إرادة الفعل المعين، ونفس الفعل ولابد من علمه بما يفعله»[2].

والإمام النووي في شرحه لمسلم نفى هذه الصفة وذكر أقوالاً في تأويلها، وشيخ الإسلام استشهد بقول مسلم هذا لبيان أن أئمة السلف يقولون به، ومسلم قصد أن لو عزم الله لي، قال المازري في المعلم «لا يظن بمسلم أنه أراد لو عزم الله لي عليه لأن إرادة الله سبحانه لا تسمى عزمًا . . »[3] وهذا بناء على مذهب بعض الأشاعرة ولقد رده عليه ابن الصلاح قائلاً: «ليس ذلك كما قال». ثم استشهد بحديث أم سلمة وذكر وجهين في معنى العزم»[4].

والإمام النووي أول هذه الصفة ونفاها في موقع آخر وذلك عند شرحه لحديث أم سلمة « ثم عزم الله، فقلتها» قالت فتزوجت رسول الله ﷺ[5].

قال النووي: «قولها ثم عزم الله لي فقلتها» أي خلق في عزمًا، وقد سبق في شرح أول خطبة مسلم أن فعل الله تعالى لا يسمى عزمًا من حيث أن حقيقة العزم حدوث رأي لم يكن والله منزه عن هذا فتأولوا قول أم سلمة على أن معناه خلق لي أو في عزمًا»[6].

وهذه الصفة من الصفات ذات الصلة بصفة الإرادة، والتي هي عند الأشاعرة

---

(١) رواه مسلم، كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة، ورقمه ٩١٨ مكرر.

(٢) مجموع الفتاوى، ص ٣٠٣-٣٠٤/١٦.

(٣) المعلم بفوائد مسلم للمازري، ص ١٠٢.

(٤) صيانة صحيح مسلم ص ١١٦-١١٧.

(٥) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ١٩٦/٦، كتاب الجنائز.

(٦) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٩٦-١٩٧/٦ كتاب الجنائز.

إرادة واحدة، كما جعلوا العلم واحدًا، حتىٰ لا يقولوا بتجدد العلم والإرادة، ولا شك أن مشكلة الأشاعرة هنا مرتبطة بمذهبهم الأصلي في مسألة الصفات الاختيارية التي تقوم بالله، وهم لما التزموا نفي ذلك في صفات الفعل كالاستواء والمجيء والغضب والرضا وغيرها. أثر ذلك في إثباتهم لهذه الصفات السبع.

ومذهب أهل السنة والجماعة أن الإرادة نوعين إرادة قديمة شاملة سابقة، وإرادة فعل الشيء في وقته، وهو قد يسمىٰ عزمًا وقصدًا وهو ما قصده الإمام مسلم رحمه الله وغيره. والله أعلم.

٤٢ ـ صفتا الخفض والرفع

وهذه الصفتان وردتا مجتمعتان في حديث الرسول ﷺ الذي قال فيه «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور . . »[١].

قال الإمام في شرحه لهذا الحديث «وأما قوله يخفض القسط ويرفعه» فقال القاضي عياض قال الهروي قال ابن قتيبة القسط الميزان وسمي قسطًا لأن القسط العدل وبالميزان يقع العدل، قال: المراد أن الله تعالىٰ يخفض الميزان ويرفعه يوزن أعمال العباد المرتفعة ويوزن من أرزاقهم النازلة وهذا تمثيل لما يقدر تنزيله، فشبه بوزن الميزان. قيل المراد بالقسط الرزق الذي هو قسط كل مخلوق يخفضه فيقتره ويرفعه فيوسعه والله أعلم»[٢].

ومن خلال القول السابق للنووي والذي نقله عن بعض العلماء يظهر أن الإمام يؤول صفتي الخفض والرفع لله تعالىٰ، وهذا علىٰ خلاف مذهب أهل السنة والجماعة

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ١٢/ ٣، برقم (١٧٨).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٢/ ٣، كتاب الإيمان.

في إثبات ما ورد به النص من غير تأويل ولا تعطيل.

والخفض والرفع صفتان دل عليهما اسما الله تعالىٰ الخافض الرافع ولقد اختلف العلماء في معناهما وتعددت الآراء في ذلك ومن الذين أثبتوا هذين الاسمين ولكن أولها وصرفها عن ظاهرها البيهقي الذي قال في معناهما «الخافض هو الذي يخفض من يشاء بانتقامه والرافع هو الذي يرفع من يشاء بإنعامه»[1].

وقال ابن الأثير «الخافض هو الذي يخفض الجبارين والفراعنة، أي يضعهم ويهينهم ويخفض كل شيء يريد خفضه، وقال «الرافع: هو الذي يرفع المؤمنين بالإسعاد وأولياءه بالتقريب. وهو ضد الخفض»[2].

والحق أن الله الخافض الرافع يرفع أي شيء يريد رفعه ويخفض أي شيء يريد خفضه كما يليق بجلاله وعظمته والله أعلم.

٤٣ ـ إطلاق لفظ ذات على الله تعالى.

إن لفظ «ذات» وحكم إطلاقه في حق الله تعالىٰ من حيث الجواز وعدمه له صلة وثيقة بموضوع الصفات، فقد تقدم أن الصفات تنقسم إلىٰ صفات ذات وصفات فعل، وتقدمت الإشارة إلىٰ أن أصول أهل السنة والجماعة في هذا الباب، أن القول في الصفات كالقول في الذات.

ووردت إضافة لفظ «ذات» إلىٰ الله عز وجل في عدة أحاديث سيأتي ذكر بعضها، ولهذا يتطلب المقام التعرض لهذا اللفظ أيضًا وبيان وجه استعماله في حق الله تعالىٰ.

---

(١) الاعتقاد للبيهقي (ص٥٧).

(٢) النهاية لابن الأثير (ص٥٣/ ٢)، (ص٢٤٣/ ٢).

أ ـ المواضع التي ورد ذكر لفظ ذات فيها.

وقد تكلم الإمام النووي على لفظ «الذات» في كثير من المواضع في شرحه لصحيح مسلم وبيان ذلك:

* قال الإمام في شرحه حديث أبي هريرة المتفق عليه في ذكر إبراهيم عليه السلام عن رسول الله ﷺ قال: «لم يكذب إبراهيم النبي ﷺ إلا ثلاث كذبات إثنتين في ذات الله تعالىٰ قوله: إني سقيم، وقوله بل فعله كبيرهم، هذا وواحدة في شأن ساره، وهي قوله: «إن سألك فأخبريه أنك أختي فإنك أختي في الإسلام»[1].

قال الإمام النووي قال المازري «وقد تأول بعضهم هذه الكلمات وأخرجها عن كونها كذبة، قال ولا معنىٰ للامتناع من إطلاق لفظ أطلقه رسول الله ﷺ. قلت: أما إطلاق لفظ الكذب عليها فلا يمتنع لورود الحديث به، وأما تأويلها فصحيح ولا مانع منه. قال العلماء: «الواحدة التي في شأن سارة هي أيضًا في ذات الله تعالىٰ، لأنها سبب دفع كافر ظالم عن موافقة فاحشة عظيمة، وقد جار ذلك مفسراً في غير مسلم، فقال: ما فيها كذبه إلا بما حل بها عن الإسلام، أي يجادل ويدافع، قالوا: وإنما خص الثنتين بأنهما في ذات الله تعالىٰ لكون الثالثة تضمن نفعًا له وحظًا مع كونها في ذات الله تعالىٰ . . »[2].

* والموضع الآخر الذي تعرض فيه لـ «لفظ» «الذات» كان عند حديثه على ما

---

(١) أخرجه مسلم بشرح للنووي، ص (ص١٠١/ ١٦) كتاب الفضائل، باب فضائل إبراهيم عليه السلام.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، (ص١٠٢/ ١٥) كتاب الفضائل، باب من فضائل إبراهيم عليه السلام.

يشمله الآذان. فقال رحمه الله، نقلاً عن القاضي عياض: «وإعلم أن الآذان كلمة جامعة لعقيدة الإيمان مشتملة على نوعية من العقليات والسمعيات فأوله إثبات الذات، وما يستحقه من الكمال والتنزيه من أضدادها، وذلك بقوله «الله أكبر» وهذه اللفظة مع اختصار لفظها دالة على ما ذكرناه...»[1].

* وقد مر معنا من قبل موقف الإمام من إطلاق لفظ «النفس» على الله ووجدنا أنه يطلق النفس على الذات والذات على النفس. وبيان ذلك.

* قوله ﷺ: «أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، إن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي»[2].

قال النووي في شرحه له: (قال المازري: النفس تطلق في اللغة على معان منها الدم، ومنها نفس الحيوان، وهما مستحيلان في حق الله تعالى، ومنها الذات والله تعالى له ذات حقيقية، وهو المراد بقوله تعالى في نفسي، ومنها الغيب وهو أحد الأقوال في قوله تعالى. ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾[3]، أي ما في غيبي فيجوز أن يكون أيضًا مراد الحديث أي إذا ذكرني خاليًا أثابه وجازاه عما عمل بما يطلع عليه أحد)[4].

ب ـ موقف الإمام من إطلاقه لفظ «ذات» على الله تعالى

يظهر مما سبق لنا أن الإمام يجوز استعمال لفظ «ذات» في حق الله تعالى، وهو

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص٧٦ ـ ٧٧/ ٤، كتاب الصلاة باب استحباب القول مثل ما يقول المؤذن.

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ٣/ ١٧، برقم (٢) كتاب الذكر.

(٣) سورة المائدة، الآية: [١١٦].

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي، (ص٣/ ١٧) كتاب الذكر، باب الحث على ذكر الله.

بمعنى النفس، وهذا ما اتضح من خلال قوله ـ السابق [1] ـ الذي نقله عنه الحافظ ابن حجر في فتح الباري فقال. (قال النووي في المهذب: «وأما قولهم ـ أي الفقهاء ـ في باب الأيمان فإن حلف بصفة من صفات الذات، وقول المهذب اللون كالسواد والبياض أعراض تحل بالذات فمرادهم بالذات الحقيقة، وهو اصطلاح المتكلمين، وقد أنكر بعض الأدباء، وقال: لا يعرف في لغة العرب ذات بمعنى حقيقة. قال. وهذا الإنكار منكر. فقد قال الواحدي[2] في قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بينكم﴾[3] قال ثعلب: أي الحالة التي بينكم، فالتي بينكم عنده للحالة، وقال الزجاج: معنى ذات حقيقة، والمراد بالبين الوصل، فالتقدير فأصلحوا حقيقة وصلكم قال. فذات عنده بمعنى النفس..»[4].

وبهذا بعد الكلام ـ السابق ـ يتضح أنه يجيز استعمال لفظ «الذات» وأنها عنده بمعنى النفس والحقيقة. وموقفه هنا موافق لموقف أكثر علماء أهل السنة فإنهم يجيزون إطلاق لفظ الذات على الله تعالى بمعنى الحقيقة والنفس.

قال الإمام أبو القاسم التيمي في كتابه «الحجة» (فصل في بيان ذكر الذات: «قال قوم من أهل العلم: ذات الله حقيقته، وقال بعضهم: انقطع العلم دونها. وقيل استغرقت العقول والأوهام في معرفة ذاته».

---

(١) وذلك عند صفة النفس.

(٢) هو علي بن حسن بن أحمد بن علي بن بويه الواحدي، المفسر، صاحب التفاسير الثلاثة البسيط، والوسيط، والوجيز، وله أسباب النزول، وتوفي سنة ٦٤٨هـ. رحمه الله. انظر: البداية والنهاية، ص ٣٣١ـ١٣٢/ ١٢.

(٣) سورة الأنفال، آية: [١].

(٤) فتح الباري، ص ٣٨١ـ٣٨٣/ ١٣.

وقيل: ذات الله موصوفة بالعلم، غير مدركه بالإحاطة، ولا مرئية بالأبصار في دار الدنيا، وهو موجود بحقائق الإيمان على الإيقان بلا إحاطة إدراك، جل هو أعلم بذاته وهو موصوف غير مجهول، وموجود غير مدرك . . . الخ»[١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية «ويفرق بين دعائه والإخبار عنه فلا يدعى إلا بالأسماء الحسنى، وأما الأخبار عنه فلا يكون باسم سيء، لكن قد يكون باسم حق، أو باسم ليس بسيء، وإن لم يحكم بحسنه، مثل اسم: شيء، وذات وموجود، إذا أريد به الثابت»[٢].

وللإمام ابن القيم أيضًا كلام في هذا الموضوع، بين فيه أن لفظة الذات قد صارت في اصطلاح العلماء عبارة عن نفس الشيء، وحقيقته، وعينه، ولذلك عرفوها باللام، وجردوها من الإضافة»[٣].

وبهذا يتبين أن هذا الاستعمال صحيح لا ينكر، لأنه أمر اصطلاحي على معنى مفهوم معين. وبعض الناس يظن أن إطلاق الذات على الله تعالى كإطلاق الصفات، أي أنه وصف به، فينكر ذلك بناء على هذا الظن، ويقول: هذا ما ورد، وليس الأمر كذلك، وإنما المراد التفرقة بين الصفة والموصوف.

من كل ذلك يتبين أن مراد الذين يطلقون هذا اللفظ أنما يريدون نفس الموصوف وحقيقته فلا إنكار عليهم في ذلك[٤]، والله تعالى أعلم.

*   *   *

(١) الحجة في بيان المحجة، وشرح عقيدة أهل السنة، ص ١٧١ ـ ١٧٢/ ١.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ص ١٤٢/ ٦.

(٣) انظر: بدائع الفوائد (ص ٧ ـ ٨/ ٢).

(٤) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، للشيخ الغنيمان (ص٣٤٥/ ١).

المطلب الخامس

منهجه في الألفاظ التي لم يرد في الشرع إثباتها ولا نفيها

قبل بيان منهج الإمام النووي في هذا الموضوع لابد من بيان أن الإخبار عن الله تعالى بالألفاظ الشرعية النبوية، الإلهية، هو منهج أهل السنة والجماعة، فإنهم يعتصمون بالألفاظ التي ورد بها النص في الإثبات والنفي، فيثبتون ما أثبته الله ورسوله من الألفاظ والمعاني، وينفون ما نفاه الله ورسوله من الألفاظ والمعاني، ويجعلون ما قاله الله ورسوله هو الحق الذي يجب اعتقاده واعتماده هذا ـ بإيجاز ـ منهج أهل الحق في الألفاظ التي يعبر بها عن الله تعالى»[1].

وأما المخالفون لأهل السنة والجماعة يعبرون عن الله تعالى بألفاظ ومعاني لم ترد في كتاب ولا سنة صحيحة، لا إثباتًا ولا نفيًا، ويجعلون ما ابتدعوه من الألفاظ والمعاني هو الحكم الذي يجب اعتقاده واعتماده[2] وكثيرًا ما تكون هذه الألفاظ مجملة تحتمل حقًا باطلاً، مثل لفظ الجهة، والتحيز، والمكان، والجسم، والحركة، وغيرها من الألفاظ المبتدعة التي هي فيها نزال كثير ووقع بسببها ضلال كبير.

ولذلك كان موقف أهل السنة والجماعة من هذه الألفاظ المجملة المحدثة، أنهم أولاً: يمتنعون عن إطلاقها في الإثبات، والنفي، لما تقدم من ذكر منهجهم في التعبير عن الله تعالى.

---

(١) بتصرف من كلام ابن أبي العز ـ رحمه الله ـ في كتابه شرح العقيدة الطحاوية، ص ٧٠ـ٧١، ١/١٢٦.

(٢) المصدر السابق (ص٧١/ ١).

ثانيًا: لا يوافقون أحدًا على إثبات لفظ منها، أو نفيه حتى يعرفوا مراده، فإن أراد حقًا قُبل، وإن أراد باطلاً رُدّ وإن اشتمل كلامه على حق وباطل لم يقبل مطلقًا ولم يرد جميع معناه، بل يوقف اللفظ ويفسر المعنى[1].

إذا تبين كل هذا فإن منهج الإمام النووي في هذا الباب على خلاف منهج أهل السنة والجماعة، وذلك أنه التزم في كتابه «شرح صحيح مسلم» نفي الجهة، والتحيز، والجسم، والحركة، عن الله تعالى نفيًا مطلقًا، من غير تفصيل، على طريقة الخلف الذين خالفوا السلف في العقيدة، واستحدثوا هذه الألفاظ، ويقصدون من نفيها نفي صفات الله تعالى الثابتة بدلالة الكتاب والسنة، وإجماع سلف الأمة.

وفيما يلي عرض لما ذكره الإمام في هذه الألفاظ، مع بيان وجه الحق فيها:

أ ـ لفظ الجهة:

قد تقدم كثير من العبارات التي ذكرها الإمام في نفي الجهة مطلقًا عن الله تعالى وذلك عند بيان منهجه في صفة العلو[2].

فقال مثلاً في شرح حديث الجارية التي سألها الرسول ﷺ «أين الله قالت في السماء..»

قال الإمام: (ليس ذلك لأنه منحصر في السماء كما أنه ليس منحصر في جهة الكعبة...)[3].

وقال في نص آخر ينفي فيه الجهة لأن إثباتها عنده يعد تكييفًا، وكما أن التكييف

---

(١) انظر: التحفة المهدية، شرح التدمرية ص ١٦٥ ـ ١٦٦، وشرح العقيدة الطحاوية، (ص٢٦١/ ١).

(٢) شرح صحيح مسلم (ص٥٢/ ٥) كتاب المساجد.

(٣) المصدر السابق ص ٥٢/ ٥.

منفي كذلك الجهة يجب نفيها، قال: (وهل بين التكييف وإثبات الجهة فرق)[1].

والصواب في هذا ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية، حيث قال: (لفظ الجهة قد يراد به شيء موجود غير الله فيكون مخلوقًا، كما إذا أريد بالجهة نفس العرش، إذ نفس السماوات، وقد يراد به ما ليس بموجود غير الله تعالىٰ، كما إذا أريد بالجهة ما فوق العالم).

ومعلوم أنه ليس في النص إثبات لفظ الجهة ولا نفيه، كما فيه إثبات العلو والإستدار والفوقية والعروج إلىٰ الله ونحو ذلك.

وقد علم أنه ما ثم موجود إلا الخالق والمخلوق، والخالق مباين للمخلوق، سبحانه وتعالىٰ ليس في مخلوقاته شيء من ذاته ولا في ذاته شيء من مخلوقاته. فيقال لمن نفىٰ الجهة، أتريد بالجهة أنها شيء موجود مخلوق، فالله ليس داخلاً في المخلوقات، أم تريد بالجهة ما وراء العالم، فلا ريب أن الله فوق العالم، بائن من مخلوقاته.

وكذلك يقال لمن قال: إن الله في جهة. أتريد بذلك أن الله فوق العالم أو تريد به أن الله داخل في شيء من المخلوقات؟ فإن أردت الأول فهو حق، وإن أردت الثاني فهو باطل)[2].

ب ـ لفظ «التحيّز»

قال الإمام النووي في حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ الطويل في بيان أحوال الناس يوم القيامة والثابت فيه صفة الإتيان لله تعالىٰ والشاهد منه قوله ﷺ: «وتبقىٰ

---

(١) المصدر السابق ص ٢٢/ ٥.

(٢) التدمرية (ص٢٢).

هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله تبارك وتعالىٰ في صورة غير صورته التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم فيقولون . . »[1] .

قال في شرحه: «اعلم أن لأهل العلم في أحاديث الصفات وأيات الصفات قولين أحدهما: وهو مذهب معظم السلف أو كلهم أنه لا يتكلم في معناه بل يقولون يجب علينا أن نؤمن بها ونعتقد لها معنىً يليق بجلال الله تعالىٰ وعظمته مع اعتقادنا الجازم أنه ليس كمثله شيء وأنه منزه عن التجسم والانتقال والتحيز في جهة، وعن سائر صفات المخلوق وهذا القول هو مذهب جماعة من المتكلمين واختاره جماعة من محققيهم وهو أسلم»[2] .

وفي هذا القول قد جمع بين نفي الجهة، والتجسم، والتحيز، والانتقال وقد سبق ذكر قوله هذا في صفة الإتيان، كما سبق الكلام علىٰ لفظ الجهة وسيأتي الكلام علىٰ لفظ الجسم، ولفظ الانتقال قريباً .

وأما لفظ التحيز واسم الفاعل منه «المتحيز» فالصواب فيه أيضًا الاستفصال فيقال: المتحيز يراد به ما حازه غيره، ولا يراد به ما بان عن غيره، فكان متحيزاً عنه فإن أراد بالمتحيز الأول، لم يكن سبحانه متحيزاً، لأنه بائن عن المخلوقات لا يحوزه غيره؛ وإن أردت الثاني فهو سبحانه بائن عن المخلوقات، منفصل عنها، ليس هو حالا فيها، ولا متحداً بها، فبهذا التفصيل يزول الاشتباه والتضليل»[3] .

ج ـ لفظ الجسم

كما مر معنا في ـ القول السابق ـ أن النووي جمع فيه بين نفي التحيز والجهة ونفي الجسم والانتقال .

(١) النووي، ص ١٦/ ٣، برقم (١٨٢) .

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، (ص ١٧/ ٣) كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية .

(٣) مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (ص ٤٠/ ٦) .

كذلك له أقوالاً أخرىٰ كرر ذلك فيها فمثلاً قوله في شرحه قوله ﷺ: «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه» قال النووي، (وأما الحجاب فأصله في اللغة المنع والستر وحقيقة الحجاب إنما تكون للأجسام المحدودة والله تعالىٰ منزه عن الجسم والحد . . .)[1].

* وقال في موضع آخر قوله ﷺ: «رأيت نورًا» قال القاضي عياض: «إذ النور من جملة الأجسام والله سبحانه وتعالىٰ يجل عن ذلك هذا مذهب جميع أئمة المسلمين»[2].

* وقال أيضًا نقلاً عن المازري في شرح قوله ﷺ: «فإن الله خلق آدم علىٰ صورته» قال المازري «وقد غلط ابن قتيبة في هذا الحديث فأجراه علىٰ ظاهره، وقال: لله تعالىٰ صورة لا كالصور، وهذا الذي قاله ظاهر الفساد لأن الصورة تفيد التركيب وكل مركب محدث والله تعالىٰ ليس بمحدث فليس هو مركب فليس مصورًا، قال: وهذا كقول المجسمة جسم لا كالأجسام فلما رأوا أهل السنة يقولون الباري سبحانه وتعالىٰ شيء لا كالأشياء طردوا الاستعمال، فقال جسم لا كالأجسام والفرق أن لفظ شيء لا يفيد الحدوث ولا يتضمن ما يقتضيه، وأما جسم وصورة فيتضمنان التأليف والتركيب وذلك دليل الحدوث»[3].

* وقال نقلاً عن المازري في تأويل صفة اليمين (هذا مما يتأول لأن اليمين إذا كانت بمعنىٰ المناسبة للشمال لا يوصف بها الباري سبحانه وتعالىٰ لأنها تتضمن إثبات

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، (ص١٢/ ٣)، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، (ص١١/ ٣) كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، (ص١٣٦/ ١٦) كتاب البر والصلة، باب النهي عن ضرب الوجه.

الشمال. وهذا يتضمن التحديد ويتقدس الله تعالىٰ عن التجسيم والحد)[1].

ومعلوم أن لفظ الجسم لم ينطق به الوحي إثباتًا فتكون له حرمة الإثبات، ولا نفيًا فيكون له إلغاء النفي، فمن أطلقه نفيًا أو إثباتًا سئل عما أراد به، لأن للناس في لفظ «الجسم» أقوالاً متعددة إصطلاحية غير معناه اللغوي. فإن قال: أردت بالجسم معناه في لغة العرب، وهو البدن الكثيف الذي لا يسمىٰ في اللغة جسم سواه فهذا المعنىٰ منفي عن الله عقلاً وسمعًا. وإن أراد بالجسم المركب من المادة والصورة أو المركب من الجواهر الفردة، كما هو اصطلاح أهل الكلام في لفظ الجسم فهذا منفي عن الله قطعًا، والصواب نفيه عن الممكنات أيضًا، فليس الجسم المخلوق مركبًا من هذا، ولا من هذا.

وإن أراد بالجسم ما يوصف بالصفات، ويرىٰ بالأبصار ويتكلم، ويسمع، ويبصر، ويرضىٰ ويغضب. فهذه المعاني ثابتة للرب تعالىٰ، وهو موصوف بها، فلا ننفيها عنه بتسمية المبتدعة للموصوف بها جسمًا، ولا نرد ما أخبر به الصادق عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله لتسمية أعداء الحديث لنا حشوية، ولا نجحد صفات خالقنا وعلوه علىٰ خلقه واستواءه علىٰ عرشه لتسمية الفرعونية المعطلة لمن أثبت ذلك مجسمًا مشبهًا[2].

د ـ لفظ «الحركة»

قال الإمام النووي في شرح حديث النزول «وهذا الحديث من أحاديث الصفات

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي (ص٧٠/ ٧) كتاب الزكاة، باب الحث علىٰ النفقة.

(٢) بتصرف من كلام الإمام ابن القيم في كتابه الصواعق المرسلة «ص ٩٣٩/ ٣ـ ٩٤٠) وانظر أيضًا التدمرية (ص١٨ـ ١٩).

وفيه مذهبان مشهوران للعلماء سبق إيضاحهما في كتاب الإيمان ومختصرهما أن أحدهما: «وهو مذهب جمهور السلف وبعض المتكلمين أنه يؤمن بأنها حق على ما يليق بالله تعالى وأن ظاهرها المتعارف في حقنا غير مراد ولا نتكلم في تأويلها مع اعتقاد تنزيه الله تعالى عن صفات المخلوق وعن الانتقال والحركات وسائر سمات الخلق»[1].

قلت: قد عُلم أنه لفظ الحركة، والانتقال والتحول، من الألفاظ المجملة التي لم يأت نص بإثباتها أو نفيها، وهي أجناس تحتها أنواع مختلفة باختلاف الموصوفات بذلك» وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في إثبات الحركة لله عز وجل أو نفيها عنه ثلاثة أقوال[2].

* قول بإثبات الحركة لله تعالى، ذكر ذلك الإمام عثمان الدارمي في كتابه «النقض على بشر المريسي»، ونصره على أنه قول أهل السنة والحديث. وذكره حرب الكرماني في السنة عن أهل السنة والحديث قاطبة.

* وقول بنفي الحركة مطلقًا عن الله تعالى، وبكل معنى، هذا القول أول من عرف به هم الجهمية والمعتزلة، انتقل عنهم إلى الكلابية والأشاعرة، ومن وافقهم من أتباع الأئمة الأربعة.

* وقول بالإمساك عن النفي والإثبات، وهو اختيار كثير من أهل الحديث والفقهاء، وكثر من هؤلاء يقولون: المعنى صحيح، لكن لا يطلق هذا اللفظ لعدم

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي (ص ٣٢ - ٦/٣٣) كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ص ٥٦٦، ٥/٥٧١.

مجيء الأثر به[1].

وبعد كلّ هذا ينبغي أن يعلم أن تنزيه الله تعالي عن النقائص بنفي الجهة، أو المكان، أو التحيز، أو الجسم، أو الحركة عنه طريق فاسد، لا يحصل المقصود، ولم يسلكه أحد من سلف الأمة والأئمة، فلم ينطق أحد منهم في حق الله تعالىٰ بالجهة، والجسم، والتحيز، ونحو ذلك، لأنها عبارات وجمل لا تحقّ حقًا، ولا تبطل باطلاً، ولهذا لم يذكر الله تعالىٰ في كتابه فيما أنكره علىٰ اليهود وغيرهم من الكفار ما هو من هذا النوع، بل هذا هو من الكلام المبتدع الذي أنكره السلف والأئمة[2].



---

(١) مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية (ص٥٦٥-٥٦٦، ٥٧٦-٥٧٨/٥، ٤٢٣/١٦)، والاستقامة لشيخ الإسلام: (ص ٧٠-٧٣/ ١)، وأيضًا: فتوىٰ فضيلة الشيخ ابن عثيمين حول إثبات الحركة لله تعالىٰ في «الجواب المختار لهداية المختار» (ص٣٢-٣٣).

(٢) التحفة المهدية في شرح التدمرية (ص١٦٣-١٧٣).

المطلب السادس

الإيمان برؤية الله تعالى

المسألة الأولى: رؤية المؤمنين ربهم في الآخرة والأدلة على ذلك:

إن أعظم نعمة ينالها المؤمنون في الجنة هي النظر إلى وجه الله الكريم بأبصارهم، وقد ثبت هذا الأمر بالكتاب والسنة وإجماع الأمة من الصحابة والتابعين وجميع أئمة المسلمين المعروفين بالإمامة والدين وأهل الحديث وسائر طوائف أهل الكلام المنسوبين إلى أهل السنة كالأشاعرة وغيرهم[1]، ولم يخالف فيه سوى الجهمية والخوارج والمعتزلة ومن شابههم من فرق الضلال ممن أعمى الله قلوبهم فردّوا النصوص الصريحة المتواترة في هذا الأمر وأولوها على غير المعنى المراد منها بحجة استحالتها ومخالفتها للعقل، قالوا: إن إثبات الرؤية على حقيقتها يترتب عليه أن الله في جهة فتكون هناك مقابلة بين الرائي والمرئي، ولأنه لو أمكنت رؤية الله لكان جسمًا ومتحيزًا في المكان إلى آخر تلك الشبه التي توهموها[2] ومنعوا بسببها أمرًا من أجل نعم الله على عباده المؤمنين.

---

(١) انظر: كتاب التوحيد لابن خزيمة ٢/ ٥٤٨، والشريعة للآجري، ص ٢٤٢، وعقيدة السلف أصحاب الحديث ص ٦٥، والحجة في بيان المحجة للأصبهاني ٢/ ٢٣٦، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣٣٧، وحادي الأرواح لابن القيم ص ١٩٥ عالم الكتب-بيروت، وشرح الطحاوية ص ٢٠٧-٢٠٨/ ١، وانظر أيضًا الإنصاف للباقلاني ص ٢٤٠، والاقتصاد للغزالي ص ٤١.

(٢) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبدالجبار ص ٢٣٣-٢٧٧، والكشاف للزمخشري ٢/ ١٥٤، ١٦٢، ودراسات إسلامية في الأصول الإباضية لأعوشت الإباضي ص٥٩-٦٣، وانظر أيضًا شرح الطحاوية ص ٢٠٨-٢١٠/ ١ وما بعدها.

أ ـ موقف الإمام النووي من رؤية الله يوم القيامة.

لقد وافق الإمام النووي ـ رحمه الله ـ مذهب السلف في إثبات رؤية المؤمنين لربهم بأبصارهم وردّ على من أول ذلك واستدل على هذا الأمر بكثير من نصوص الكتاب والسنة التي سيأتي ذكرها حاكية إجماع أهل السنة وسلف الأمة على ذلك ولكنه مع ذلك وقع فيما قال به الأشاعرة من أن رؤية الله تكون بالأبصار لا في جهة من الجهات فقد قال غفر الله له: (اعلم أن مذهب أهل السنة بأجمعهم أن رؤية الله تعالى ممكنه غير مستحيلة عقلاً، وأجمعوا أيضًا على وقوعها في الآخرة، وأن المؤمنين يرون الله تعالى دون الكافرين وزعمت طائفة من أهل البدع المعتزلة والخوارج وبعض المرجئة أن الله تعالى لا يراه أحد من خلقه وأن رؤيته مستحيلة عقلاً وهذا الذي قالوه خطأ صريح وجهل قبيح وقد تظاهرت أدلة الكتاب والسنة وإجماع الصحابة فمن بعدهم من سلف الأمة على إثبات رؤية الله تعالى في الآخرة للمؤمنين ورواها نحو من عشرين صحابيًا عن رسول الله ﷺ وآيات القرآن فيها مشهورة واعتراضات المبتدعة عليها لها أجوبة مشهورة في كتب المتكلمين من أهل السنة وكذلك باقي شبههم وهي مستقصاة في كتب الكلام وليس بنا ضرورة إلى ذكرها ها هنا)[1].

وقال أيضًا: (ثم ذهب أهل الحق أن الرؤية قوة يجعلها الله تعالى في خلقه ولا يشترط فيها اتصال الأشعة ولا مقابلة المرئي، ولا غير ذلك لكن جرت العادة في رؤية بعضنا بعضًا بوجود ذلك على جهة الاتفاق لا على سبيل الاشتراط وقد قرر أئمتنا المتكلمون ذلك بدلالته الجلية ولا يلزم منه رؤية الله تعالى إثبات جهة تعالى عن ذلك بل يراه المؤمنين لا في جهة كما يعلمونه لا في جهة والله أعلم)[2].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٥/ ٣.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٥/ ٣.

مناقشة الإمام النووي فيما قال:

قلت: إن موافقة الإمام النووي لمذهب السلف في أن المؤمنين يرون الله في الآخرة بأبصارهم شيء يشكر عليه وهو المذهب الصحيح الذي دلت عليه النصوص وأجمع عليه أهل السنة والجماعة، وقد أجاد رحمه الله في كلامه حيث دعا إلىٰ الإيمان بالنصوص والعمل بها سواء عقلناها أم لم نعقلها، لأننا مأمورون بها لا بما نراه ونحسه بعقولنا وأفهامنا، لأنها قاصرة ومعرضة للخطأ والصواب. ولكنه رحمه الله أخطأ عندما قال تبعًا للأشاعرة[1]: إنه يمكن رؤية الله تعالىٰ لا في جهة فإن هذا القول قد انفرد به الأشاعرة دون سائر طوائف الأمة، وجمهور العلماء علىٰ فساد هذا معلوم بالضرورة فإنه لا تعقل رؤية بدون مقابلة ومن قال يرىٰ لا في جهة فليراجع عقله!! فإما أن يكون مكابراً لعقله أو في عقله شيء، فإن الفطرة السليمة تنكر هذا الأمر، ولهذا ألزم المعتزلة من نفي العلو بالذات بنفي الرؤية وقالوا: كيف تعقل رؤية بلا مقابلة في جهة؟! وما ألزمهم المعتزلة هذا الإلزام إلا لّما وافقوهم علىٰ أنه سبحانه لا داخل العالم ولا خارجه، فإن من يكون كذلك ولا يشار إليه يمتنع أن يرىٰ بالعين لأن هذا من باب الوهم والخيال الباطل، فالأشاعرة أحبوا نصر مذهب أهل السنة فقالوا: يرىٰ سبحانه لا في جهة لئلا يثبتوا له تعالىٰ العلو ولكن قولهم هذا لا يتصور وجوده ومع هذا فهم أقرب إلىٰ الحق والعقل من المعتزلة الذين نفوا الرؤية والعلو معًا[2].

---

(١) انظر: الإنصاف للباقلاني ص ٢٥٢، والمواقف للإيجي ص ٣٠٠، ٣٠٨، وأيضًا شرح العقائد النسفية للتفتازاني ص ٧٠ بتحقيق كلو وسلامة، وأيضًا شرح جوهرة التوحيد للبيجوري ص ١١٥، وغيرها.

(٢) مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ١٦/ ٨٤-٨٧، ومختصر الصواعق لابن القيم ص ٢١٠، وشرح الطحاوية ص ٥١.

كما أن قوله (أن الرؤية قوة يجعلها الله تعالىٰ في خلقه لا يشترط فيها اتصال الأشعة ولا مقابلة المرئي) فهو كلام تفرد به الأشاعرة دون سائر طوائف الأمة، وجمهور العقلاء علىٰ أن فساد هذا معلوم بالضرورة[1].

ب ـ بعض الأدلة على إثبات رؤية الله تعالى

ذكر الإمام النووي أدلة كثير علىٰ إثبات رؤية الله تعالىٰ بعضها ورد في القرآن والبعض الآخر ورد في السنة، وذلك علىٰ النحو التالي[2].

١ ـ الأدلة من القرآن

وهذه لم يذكرها بسبب أنها مشهورة، وليس هناك ضرورة لذكرها، قال الإمام: (وآيات القرآن فيها مشهورة واعتراضات المبتدعة عليها في أجوبة مشهورة في كتب المتكلمين من أهل السنة وكذلك باقي شبههم وهي مستقصاة في كتب الكلام وليس بنا ضرورة إلىٰ ذكرها هنا)[3].

ولكنه تعرض إلىٰ إثبات الرؤية عند شرحه معنىٰ الإدراك الوارد في الآية الكريمة ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾[4] قال رحمه الله: (فإن الإدراك هو الإحاطة والله تعالىٰ لا يحاط به وإذا ورد النص بنفي الإحاطة لا يلزم منه نفي الرؤية بغير إحاطة)[5].

---

(١) مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية ص ٨٤/ ٦.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٥/ ٣.

(٣) المصدر السابق، ص ٥/ ٣.

(٤) سورة الأنعام، الآية: [١٠٣].

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٦/ ٣.

٢ ـ الأدلة من السنة

الأدلة من السنة علىٰ رؤية الله عز وجل كثيرة جدًا بلغت حدّ التواتر كما صرح بذلك العلماء ومنهم الإمام النووي وإليك تلك الأحاديث التي ذكرها الإمام رحمه الله.

ومن أشهر الأدلة التي استدل بها الإمام النووي علىٰ رؤية المؤمنين ربهم في الآخرة.

(١) حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: (قال أناس: يا رسول الله، هل نرىٰ ربنا يوم القيامة؟ فقال: «هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا، يا رسول الله. قال: «هل تضارون في القمر ليلة البدر ليس دونها سحاب؟ قالوا لا يا رسول الله، قال: فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك.» الحديث[١].

قال الإمام: «قوله ﷺ «هل تضارون في القمر ليلة البدر» وفي الرواية الأخرىٰ هل تضامون وروي تضارون بتشديد الراء بتخفيفها والتاء مضمومة فيها ومعنىٰ المشدد هل تضارون غيركم في حالة الرؤية بزحمة أو مخالفة في الرؤية أو غيرها لخفائه، كما تفعلون أول ليلة من الشهر، ومعنىٰ المخفف هل يلحقكم في رؤيته ضير، وهو الضرر. ورویٰ أيضًا تضامون بتشديد الميم وتخفيفها بمن شددها فتح التاء، ومن خففها ضم التاء. ومعنىٰ المشدد هل تتضامون وتتلطفون في التوصل إلىٰ رؤيته. ومعنىٰ المخفف هل يلحقكم ضيم، وهو المشقة والتعب. ومعناه لا يشتبه عليكم وترتابون فيه فيعارض بعضكم بعضًا في رؤيته»[٢] وقال في شرح معنىٰ قوله ﷺ

---

(١) هو حديث طويل أخرجه البخاري مع الفتح. ص ٤٤٤ـ٤٤٥/ ١١، برقم (١٥٧٢) ومسلم في الإيمان، برقم (٢٩٩).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٧/ ٣، كتاب الإيمان، باب معرفة طريقة الرؤية.

فإنكم ترونه كذلك» معناه تشبيه الرؤية بالرؤية في الوضوح وزوال الشك والمشقة والإختلاف»[1].

٢- واستدل الإمام على إثبات الرؤية في الآخرة بحديث الرسول ﷺ الذي قال: «جنتان من فضة أنيتهما وما فيها. وجنتان من ذهب أنيتهما وما فيهما. وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»[2].

قال الإمام: «قال العلماء: كان النبي ﷺ يخاطب العرب بما يفهمونه ويقرب الكلام إلى أفهامهم ويستعمل الإستعارة وغيرها من أنواع المجاز ليقرب متناولها فعبر ﷺ عن زوال المانع ورفعه عن الأبصار بإزالة الرداء»[3] وهذا القول للإمام وإن كان فيه تأويل مخالف لمنهج أهل السنة والجماعة، ألا أنه يثبت فيه الرؤية والإبصار من المؤمنين لربهم.

٣- كما استدل الإمام بقوله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة، قال يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال فيكشف الحجاب فما أعطوا شيئًا أحب إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل»[4].

٤- واستدل أيضًا بحديث الرسول ﷺ الذي قال فيه: (تعلموا أنه لن يرى أحد منكم ربه عز وجل حتى يموت)[5].

قال الإمام: قال المارزي: «هذا الحديث في تنبيه على إثبات رؤية الله في الآخرة، وهو مذهب أهل الحق ولو كانت مستحيلة كما يزعم المعتزلة لم يكن للتقيد

(١) المصدر السابق، ص ١٧/ ٣.
(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ١٤/ ٣ برقم (١٨٠).
(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، (ص ١٤-١٥/ ٣) كتاب الإيمان، باب إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة لربهم سبحانه وتعالى.
(٤) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ١٥/ ٣ برقم (١٨١).
(٥) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ٤٤/ ١٨ برقم (١٦٩).

بالموت معنىٰ، والأحاديث بالمعنىٰ هذا كثيرة سبقت في كتاب الإيمان جملة منها مع آيات من القرآن، وسبق هناك تقرير المسألة»[1].

٥ ـ استدل رحمه الله بقوله ﷺ (أما أنكم ستعرضون علىٰ ربكم فترونه كما ترون هذا القمر)[2] قال رحمه الله: (أي ترونه رؤية محققة لا شك فيها ولا مشقة كما ترون هذا القمر رؤية محققة بلا مشقة للرؤيا بالرؤية لا المرئي بالمرئي، والرؤية مختصة بالمؤمنين)[3].

والنصوص في هذا الشأن كثيرة جداً وهي تدل دلالة واضحة صريحة علىٰ أن المؤمنين يرون ربهم عز وجل في الآخرة بأم أعينهم بأبصارهم، وهذه الرؤية ليست إدراكًا له تعالىٰ لأنه سبحانه كما أخبر عن نفسه ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصارَ﴾[4]، وليس كما زعم النفاة مستدلين بهذه الآية وبغيرها علىٰ نفي رؤية الله. والحق كما قال علماء السلف[5] أن هذه الآية ردّ عليهم لأن الله تعالىٰ قد ذكرها في سياق التمدح ومعلوم أن المدح إنما يكون بالصفات الثبوتية، وأما العدم المحض فليس بكمال فلا يمدح وإنما يمدح الرب تعالىٰ إذا تضمن أمرًا وجوديًا كمدحه بنفي السنة والنوم المتضمن كمال القيومية إلىٰ غير ذلك فهو سبحانه وإن كان يراه المؤمنون لكنه كمال عظمته لا يرىٰ بحيث يحاط به لأنه أكبر من كل شيء، فإن الإدراك هو الإحاطة بالشيء وهو زائد علىٰ الرؤية، فالله سبحانه لم ينف الرؤية وإنما نفي الإدراك بل هذه

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٤٤ ـ ١٨/٤٥.

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ١١٤/ ٥ برقم (٢١٢).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص ١١٤ ـ ٥/١١٥.

(٤) سورة الأنعام، آية: [١٠٣].

(٥) انظر الرد علىٰ بشر المريسي للدارمي، ص ٥٣ ـ ٦٨. تحقيق زهير الشاويش، تخريج ناصر الدين الألباني، الطبعة الرابعة، المكتب الإسلامي - بيروت، وشرح العقيدة الطحاوية ص ٢٤٩ ـ ١/٢٥٠.

الشمس المخلوقة لا يتمكن رائيها من إدراكها فكيف يدرك ربّ العالمين؟! تعالى الله عن ذلك، فثبت إذًا أنه تعالى يراه في الآخرة المؤمنون، فلا حجة ولا دليل لمن نفى هذه الرؤية.

ومن شدة اهتمام علماء السلف بالرؤية أفردوا لها مؤلفات كثيرة[1]، فاستدلوا على ثبوتها بالكتاب والسنة وإجماع السلف رادين على من تأولها أو نفاها فضلاً عما

---

(١) من ذلك كتاب فيه ما جاء من الحديث في النظر إلى الله تعالى للإمام الحافظ محمد بن وضاح الأندلسي ت: ٢٨٦هـ. ذكر ذلك الزركلي في الأعلام ٧/ ١٢٣، ورضا كحالة في معجم المؤلفين ١٢/ ٩٤.

- وكتاب العمد في الرؤية وكتاب جواز رؤية الله بالأبصار للإمام أبي الحسن الأشعري، قال رحمه الله في الأخير: (نقضنا فيه جميع اعتلالات المعتزلة في نفيها وإنكارها وإبطالها) ذكر الكتابين ابن عساكر في تبيين كذب المفتري ص ١٢٨ - ١٢٩، والبغدادي في هدية العارفين ١/ ٦٧٧.
- وكتاب التصديق بالنظر إلى الله تعالى في الآخرة للإمام الآجري المتوفي ٣٦٠هـ وهو مطبوع متداول.
- وكتاب الرؤية للإمام الحافظ الطبراني صاحب المعاجم الثلاثة توفي ٣٦٠هـ، ذكره الذهبي في السير ١٦/ ١٢٨، وابن تيمية في مجموع الفتاوى ٦/ ٤٨٦.
- وكتاب رؤية الله جل وعلا للإمام الحافظ الدارقطني توفي ٣٨٥هـ، وهو مطبوع متداول.
- وكتاب رؤية الله للإمام المحدث عبدالرحمن بن عمر المعروف بابن النحّاس، توفي ٤١٦هـ، وهو مطبوع.
- وكتاب الرؤية للإمام البيهقي توفي ٤٥٨هـ، ذكره حاجي خليفة في كشف الظنون ٢/ ١٤٢٤، والبغدادي في هدية العارفين ١/ ٧٨.
- وضوء الساري إلى معرفة رؤية الباري عز وجل للإمام الحافظ عبدالرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة توفي ٦٦٥هـ وهو مطبوع.
- والبغية في مسألة الرؤية للإمام محمد بن علي الشوكاني توفي ١٢٥٠هـ، ذكره في البدر الطالع ٢/ ٢٢١، وفتح القدير ٥/ ٣٤٠، إلى غير ذلك من الكتب.

سطروه في ثنايا كتبهم في هذا الأمر. نسأل الله أن لا يحرمنا لذة النظر إلى وجهه الكريم إنه سميع مجيب.

المسألة الثانية: هل يرى الكافرون ربهم؟

يقول الإمام النووي رحمه الله «اعلم أن مذهب أهل السنة بأجمعهم أن رؤية الله تعالى ممكنة غير مستحيلة عقلاً، وأجمعوا أيضًا على وقوعها في الآخرة وأن المؤمنين يرون الله تعالى دون الكافرين»[(١)].

وقال أيضًا رحمه الله في قوله ﷺ: «أما إنكم ستعرضون على ربكم فترونه كما ترون هذا القمر» أي ترونه رؤية محققة لا شك فيها ولا مشقة كما ترون هذا القمر رؤية محققة بلا مشقة، فهو تشبيه للرؤية بالرؤية، لا المرئي بالمرئي، والرؤية مخصوصة بالمؤمنين، وأما الكفار فلا يرونه سبحانه وتعالى، وقيل يراه منافقوا هذه الأمة وهذا ضعيف والصحيح الذي عليه جمهور أهل السنة أن المنافقين لا يرونه كما لا يراه باقي الكفار باتفاق العلماء، وقد سبق بيان هذه المسألة في كتاب الإيمان»[(٢)].

وقال أيضًا في شرح قوله ﷺ: «ولا يبقى من كان يسجد لله تعالى من تلقاء نفسه إلا أذن الله له بالسجود ولا يبقى من كان يسجد إتقاء ورياء إلا جعل الله ظهره طبقة واحدة»[(٣)].

قال: (ثم اعلم أن هذا الحديث قد يتوهم منه أن المنافقين يرون الله تعالى مع المؤمنين وقد ذهب إلى ذلك طائفة حكاه ابن فورك لقوله ﷺ (وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها فيأتيهم الله تعالى« وهذا الذي قالوه باطل بل لا يراه المنافقون بإجماع من

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٤/ ٣.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ١١٤-١١٥/ ٥.

(٣) جزء من حديث أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ٢٣/ ٣ برقم (١٨٣).

يعتد به من علماء المسلمين وليس في هذا الحديث تصريح برؤيتهم الله تعالىٰ وإنما فيه أن الجمع الذي فيه المؤمنون والمنافقون يرون الصورة ثم بعد ذلك يرون الله تعالىٰ وهذا لا يقتضي أن يراه جميعهم وقد قامت دلائل الكتاب والسنة على أن المنافق لا يراه سبحانه وتعالىٰ والله أعلم»[1].

قلت: الواقع أن المسألة خلافية بين أهل السنة أنفسهم فقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فأما مسألة رؤية الكفار فأول ما انتشر الكلام فيها، وتنازع الناس فيها - فيما بلغنا - بعد ثلاثمائة سنة من الهجرة، وأمسك عن الكلام في هذا قوم من العلماء، وتكلم فيها آخرون. فاختلفوا فيها على ثلاثة أقوال»[2].

قال أيضًا: «والأقوال الثلاثة في رؤية الكفار:

أحدها: أنّ الكفار لا يرون ربهم بحال، لا المظهر للكفر، ولا المسّر له، وهذا قول أكثر العلماء المتأخرين، وعليه يدل عموم كلام المتقدمين، وعليه جمهور أصحاب الإمام أحمد وغيرهم.

الثاني: أنه يراه من أظهر التوحيد من مؤمني هذه الأمة ومنافقيها وغبرات من أهل الكتاب، وذلك في عرصة القيامة، ثم يحتجب عن المنافقين فلا يرونه بعد ذلك.

وهذا قول أبي بكر بن خزيمة من أئمة أهل السنة، وقد ذكر القاضي أبو يعلىٰ نحوه في حديث إتيانه سبحانه وتعالىٰ لهم في الموقف، الحديث المشهور.

الثالث: أنّ الكفار يرونه رؤية تعريف وتعذيب - كاللص إذا رأي السلطان - ثم

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٢٥/ ٣، وانظر ص ١٧/ ٣ من نفس الكتاب.

(٢) مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام بن تيمية، ص ٤٨٦/ ١٦.

يحتجب عنهم، ليعظم عذابهم، ويشتد عقابهم، وهذا قول أبي الحسن بن سالم وأصحابه وقول غيره . . »[1].

وقد استدل[2] أصحاب كلّ قول من هذه الأقوال المتقدمة بأدلة من الكتاب والسنة وليس الغرض هنا استيفاء الكلام على هذه المسألة والخلاف فيها، وإنما المقصود بيان أنّ ما ذهب إليه الإمام النووي، فيها كما تقدم ليس خارجًا عن جملة الأقوال المحكية عن أئمة أهل السنة والجماعة، والله تعالى أعلم بالصواب.

المسألة الثالثة: هل رأى النبي صلى الله عليه وسلم ربه في المعراج:

اختلف العلماء - رحمهم الله - من الصحابة والتابعين ومن بعدهم في هذا الأمر، وقد بين الإمام النووي هذا الاختلاف وآراء العلماء فيه وبعض أدلتهم في ذلك وهي تتلخص في ثلاثة مذاهب[3].

وقبل البدء في إيضاح هذه المسألة أحب أن أشير إلى أن الأمة قد أجمعت على أن الله عز وجل لا يراه أحد بعينه[4] في الدنيا لقوله ﷺ «تعلموا أنه لن يرى أحد منكم ربه عز وجل حتى يموت»[5] ولم يختلفوا إلا في رؤية النبي ﷺ في المعراج وإليك تفصيل المذاهب في ذلك:

---

(١) المصدر السابق، ص ٤٨٧-٤٨٨/٦.

(٢) قد أشار شيخ الإسلام إلى بعض تلك الأدلة، كما في المصدر نفسه، ص ٥٠٢/٦.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٤-٦/٣.

(٤) الرد على الجهمية للدارمي ص ٥٤، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ص ٥٠٧-٥٠٨/٦، وشرح الطحاوية ص ٢٢٠-٢٢١/١.

(٥) رواه مسلم في كتاب الفتن، باب ذكر ابن صياد برقم ٢٩٣.

أ ـ مذهب العلماء في رؤية النبي ﷺ لربه عز وجل

اختلف السلف ـ رحمهم الله ـ كما أشرت سابقًا في هذه القضية على ثلاثة مذاهب:

١ ـ المذهب الأول: أنه ﷺ لم يرى ربه تعالى، وبه قال جمع من الصحابة كأم المؤمنين عائشة وابن مسعود رضي الله عنهما وغيرهما من الصحابة، وهو مذهب جمهور العلماء سلفًا وخلفًا[١]، بل قال شيخ الإسلام (قد حكى عثمان ابن سعيد الدارمي إجماع الصحابة على أنه ﷺ لم ير ربه ليلة المعراج، وبعضهم استثنى ابن عباس. وشيخنا يقول ليس ذلك بخلاف في الحقيقة فإن ابن عباس لم يقل رآه بعيني رأسه. وعليه اعتمد أحمد في إحدى الروايتين حيث قال: إنه رآه ولم يقل بعيني رأسه)[٢].

ـ وقد استدل هؤلاء بما رواه الشيخان عن مسروق[٣] عن عائشة رضي الله عنها قال: كنت متكئًا عند عائشة رضي الله عنها فقالت: (ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية)، قلت وما هن؟ قالت: من زعم أن محمدًا رأى ربه فقد

---

(١) انظر: شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٥/ ٣، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام، ص ٥٠٧ـ ٥٠٨/٦، وزاد المعاد ١٢٦/ ٢، ولوامع الأنوار البهية ٢٥٣/ ٢.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ٥٠٧ـ٥٠٨/ ٦، وانظر: الرد على الجهمية للدارمي ص ٥٤.

(٣) هو الإمام القدوة العلم، أبو عائشة مسروق بن الأجدع بن مالك بن أمية الوداعي الهمداني الكوفي، عداده من كبار التابعين ومن المخضرمين الذين أسلموا في حياة النبي ﷺ، كان من تلاميذ عائشة رضي الله عنها ومن الزاهدين العابدين الورعين، روى أنس بن سيرين عن زوجة مسروق قالت: كان مسروق يصلي حتى تتورم قدمه، فربما جلست أبكي مما أراه يصنع بنفسه. توفي سنة (٦٢ وقيل: ٦٣هـ) وله ثلاث وستون سنة. انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ٤/ ٦٣، وتقريب التهذيب ١٠٩/١، وطبقات الحفاظ ص ١٤.

أعظم على الله الفرية، وقال وكنت متكئًا فجلست فقلت: يا أم المؤمنين أنظريني[1] ولا تعجلي، ألم يقل الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ﴾[2] ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾[3]؟ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: «إنما هو جبريل ولم أره على صورته التي خلق عليها غير هاتين المرتين رأيته منهبطًا من السماء ساداً عظم خلقه ما بين السماء والأرض» فقالت: أولم تسمع أن الله يقول: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[4] أولم تسمع أن الله يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[5]، وقالت: ومن زعم أن رسول الله ﷺ كتم شيئًا من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية والله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾[6]، قالت: ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية والله يقول: ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾[7]، متفق عليه[8]، وللحديث روايات أخرى في الصحيحن وغيرهما.

- واستدلوا أيضًا بما رواه مسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه سئل عن قوله

---

(١) من الإنظار وهو التأخير والإمهال.

(٢) سورة التكوير، آية: [٢٣].

(٣) سورة النجم، آية: [١٣].

(٤) سورة الأنعام، آية: [١٠٣].

(٥) سورة الشوري، آية: [٥١].

(٦) سورة المائدة، آية: [٦٧].

(٧) سورة النمل آية: [٦٥].

(٨) أخرجه البخاري في كتاب التفسير سورة النجم باب (١) ص ٨/٤٧٢ برقم ٤٨٥٥، ومسلم بشرح النووي في كتاب الإيمان، باب هل رأى النبي ﷺ ربه، ص٨/ ٣ برقم ١٧٧، واللفظ لمسلم.

الله تعالىٰ: ﴿فكان قاب قوسين أو أدنىٰ﴾[1] فقال: رأىٰ النبي ﷺ جبريل له ستمائة جناح، وسئل عن قول الله تعالىٰ: ﴿ولقد رآه نزلة أخرىٰ﴾[2] فقال: رأىٰ النبي ﷺ جبريل في صورته له ستمائة جناح[3].

- وبما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سئل عن قول الله تعالىٰ ﴿ولقد رآه نزلة أخرىٰ﴾ فقال: رأىٰ جبريل[4].

- وبما رواه مسلم عن أبي ذر[5] رضي الله عنه قال سألت رسول الله ﷺ هل رأيت ربك؟ فقال: «نور أنىٰ أراه» - وفي رواية - قال: «رأيت نورًا»[6] وبقوله ﷺ: «إن الله عز وجل لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل حجابه النور - وفي رواية - حجابه النار

---

(١) سورة النجم، آية: [٩].

(٢) سورة النجم، آية: [١٣].

(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان، با ب في سدرة المنتهىٰ، رقم ١٧٤.

(٤) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب في سدرة المنتهىٰ، رقم ١٧٤.

(٥) الصحابي الجليل المشهور بأبي ذر، وقد اختلف في اسمه واسم أبيه والصحيح أنه جندب بن جنادة الغفاري، أحد السابقين الأولين قيل كان خامس خمسة في الإسلام، ثم إن النبي ﷺ رده إلىٰ قومه ثم قدم المدينة بعد أحد فلازم النبي ﷺ كان رضي الله عنه رأسًا في الزهد والصدق والعلم والعمل قوّالاً بالحق لا يخاف في الله لومة لائم علىٰ حدة فيه، شهد فتح بيت المقدس مع عمر رضي الله عنه، فضائله كثيرة جدًا، توفي بالربذة سنة (٣٢هـ) وصلي عليه عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، انظر: الاستيعاب ٤/ ٦٢، وأسد الغابة ٥/ ١٨٦، وسير أعلام النبلاء ٦/ ٤٦، والإصابة ٤/ ٦٣.

(٦) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب قوله عليه السلام نوراً أني أراه وفي قوله رأيت نوراً ص ١٢/ ٣، برقم: ١٧٨، ومعنىٰ (نور أنىٰ أراه) أي حجابه النور كما ثبت ذلك عنه ﷺ فكيف أراه، ومعناه النور منعني من أن الرؤية كما جرت العادة بإغشاء الأنوار الأبصار ومنعها من إدراك ما حالت بين الرائي وبينه. انظر: شرح صحيح مسلم ٣/ ١٢.

لو كشفه لأحرقت سُبُحات[1] وجهه ما انتهىٰ إليه بصره من خلقه»[2] إلىٰ غير ذلك من النصوص.

٢ ـ المذهب الثاني: أن رسول الله ﷺ رأىٰ ربه، وهو رأي جماعة من السلف والخلف[3]. منهم ابن عباس رضي الله عنهما وعطاء بن أبي رباح

والحسن البصري وأبو الشيخ الأصبهاني واللالكائي وغيرهم، وإليه مال الإمام النووي رحمه الله فقال: «فالحاصل أن الراجح عند أكثر العلماء أن رسول الله ﷺ، رأىٰ ربه بعيني رأسه ليلة الإسراء لحديث ابن عباس وغيره مما تقدم وإثبات هذا لا يأخذونه إلا بالسماع من رسول الله ﷺ هذا مما لا ينبغي أن يتشكك فيه ثم أن عائشة رضي الله عنها لم تنف الرؤية بحديث عن رسول الله ﷺ ولو كان معها فيه حديث لذكرته وإنما اعتمدت علىٰ الاستنباط من الآيات وسنوضح الجواب عنها. فأما احتجاج عائشة بقول الله تعالىٰ ﴿لا تدركه الأبصار﴾[3] فجوابه ظاهر فإن الإدراك هو الإحاطة والله تعالىٰ لا يحاط به وإذا ورد النص بنفس الإحاطة لا يلزم منه نفي الرؤية بغير إحاطة وأجيب عن الآية بأجوبة أخرىٰ لا حاجة إليها مع ما ذكرناه فإنه في نهاية من الحسن مع اختصاره»[4].

---

(١) سبحات: بضم السين والباء جمع سبحة، ومعنىٰ سبحات وجهه أي نوره وجلاله وبهاؤه، المرجع السابق، ٣/ ١٣ ـ ١٤.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب قوله ﷺ إن الله لا ينام ١٣/ ١، برقم: ١٧٩، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة ٣/ ٥١٢ ـ ٥١٧.

(٣) سورة الأنعام، الآية: [١٠٣].

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٦/ ٣.

والعلماء الذين ذهبوا إلى أنه رأى ربه ليلة المعراج ومنهم الإمام النووي قد اختلفوا في الرؤية أكانت بعينه ﷺ أم بقلبه، وحجتهم في ذلك ظواهر النصوص القرآنية التي سبق ذكر بعضها، وبما روي من آثار عن ابن عباس رضي الله عنهما. فقد صح عنه قوله (رآه بقلبه)(١)، وقال مرة: (رآه) (٢) وقال مرة: (رآه بفؤاده مرتين)(٣)، وصح عنه قوله: (أتعجبون أن تكون الخلة لإبراهيم والكلام لموسى والرؤية لمحمد ﷺ) - وفي رواية - (إن الله اصطفى إبراهيم بالخلة، واصطفى موسى بالكلام، واصطفى محمداً بالرؤية)(٤).

وحكي عن الإمام أحمد رحمه الله أنه قال: (رآه) ومرة قال: (رآه بقلبه) أما ما حكي عنه أنه قال رآه بعيني رأسه فليس بصحيح كما قال المحققون من العلماء، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (الألفاظ الثابتة عن ابن عباس هي مطلقة أو مقيدة بالفؤاد تارة يقول رأى محمد ربه، وتارة يقول رآه محمد ﷺ ولم يثبت عن ابن عباس لفظ صريح بأنه رآه بعينه، وكذلك الإمام أحمد تارة يطلق الرؤية، وتارة يقول رآه بفؤاده، ولم يقل أحد أنه سمع أحمد يقول رآه بعينه، لكن طائفة من أصحابه سمعوا بعض كلامه المطلق ففهموا منه رؤية العين، كما سمع بعض الناس مطلق كلام ابن عباس ففهم منه رؤية العين وليس في الأدلة ما يقتضي أنه رآه بعينه ولا ثبت ذلك عن

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب ذكر سدرة المنتهى ص ٧/ ٣، برقم ١٧٦ بشرح النووي، والترمذي في كتاب تفسير القرآن ص ٣٦٩/ ٥، برقم ٣٢٨١، وقال حديث حسن.

(٢) رواه الترمذي في كتاب التفسير ص ٣٦٨/ ٥ برقم ٣٢٧٩ وقال حديث حسن غريب من هذا الوجه، واللالكائي ص ٥٢١/ ٣ برقم ٩٢٠ في شرح اعتقاد أهل السنة.

(٣) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب هل رأى النبي ربه ص ٨/ ٣ برقم ١٧٧، واللالكائي ص ٥١٩/ ٣ برقم ٩١٧.

(٤) ذكره ابن خزيمة في كتاب التوحيد ص ١٩٩ - ٢٠٠، والنووي في شرح صحيح مسلم ص ٥/ ٣.

أحد من الصحابة، ولا في الكتاب والسنة ما يدل على ذلك بل النصوص الصحيحة على نفيه أدل)[1].

والإمام النووي رجح الرؤيا بالعين فقال (أن الراجح عن أكثر العلماء أن رسول الله ﷺ رأى ربه بعيني رأسه ليلة الإسراء)[2].

وقد ذهب جماعة من العلماء إلى الجمع بين ما ثبت عن عائشة وابن عباس رضي الله عنهم ومن وافقهما فقالوا هي رؤية قلبية، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (ومن الناس من جمع بينهما ـ يعني نفي عائشة وإثبات ابن عباس ـ فقال: عائشة أنكرت رؤية العين وابن عباس أثبت رؤية الفؤاد)[3].

وممن ذهب إلى هذا الجمع الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله فقد قال بعد ذكره اختلاف العلماء في هذا الأمر (جاءت عن ابن عباس أخبار مطلقة وأخرى مقيدة. فيجب حمل مطلقها على مقيدها، وعلى هذا فيمكن الجمع بين إثبات ابن عباس ونفي عائشة بأن يحمل نفيها على رؤية البصر وإثباته على رؤية القلب، ثم المراد برؤية الفؤاد رؤية القلب لا مجرد حصول العلم لأنه ﷺ كان عالمًا بالله على الدوام، بل مراد من أثبت له أنه رآه بقلبه أن الرؤية التي حصلت له خلقت في قلبه كما يخلق

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ص ٥٠٩ ـ ٥١٠/ ١، وانظر زاد المعاد ص ١٣٦ ـ ١٣٧/ ٢، وفتح الباري ص ٤٧٥/ ١، فقد ذكر أنه لم يثبت عن أحمد القول بالرؤية بالعين.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٦/ ٣.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ص ٥٠٩/ ٦.

الرؤية بالعين لغيره والرؤية لا يشترط لها شيء مخصوص عقلاً، ولو جرت العادة في العين، وبهذا يتبين مراد أبي ذر بذكر النور، أي النور حال بين رؤيته له ببصره)[1].

٣ ـ المذهب الثالث: الوقف عن القطع بالنفي أو الإثبات في هذه المسألة، وهو ما رجحه جماعة من العلماء[2]، ومنهم القاضي عياض[3].

وقال أيضًا: (ووقف عن هذا بعض متأخري علمائنا لما وقع فيه من الاختلاف في الصدر الأول، وهو أنجا والجواز ثابت والإقدام على القطع بأحد الجائزين عسير)[4].

ب ـ الراجح في المسألة.

الراجح في هذه المسألة هو الرأي الأول، وهو أنه عليه الصلاة والسلام لم ير ربه ليلة الإسراء والمعراج، وإلى هذا ذهب المحققون من العلماء منهم ابن قيم الجوزية رحمه الله، فعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾[5] قال: المراد بالذي دنا فتدلى إنما هو جبريل وليس الله عز وجل كما قالت جماعة، لأن جبريل هو الموصوف بما ذكر من أول السورة ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ﴾[6] كما فسره ﷺ لعائشة حينما سألته عن ذلك فقال: «ذاك جبريل لم أره على صورته التي خلق الله عليها إلا مرتين»[7]، ولفظ القرآن لا يدل على غير ذلك من وجوه:

---

(١) فتح الباري ٨/ ٤٧٤.

(٢) المرجع السابق، ٨/ ٤٧٤ ـ ٤٧٥، والشفا ١/ ٢٠٠ ـ ٢٠١، وشرح صحيح مسلم ٣/ ٤، ولوامع الأنوار البهية ٢/ ٢٥٦.

(٣) كتابه الشفا ١٩٨ ـ ٢٠٢/ ١.

(٤) منهاج العوارف، ص ٣١، مخطوط نقلاً عن رسالة القاضي عياض ومنهجه في العقيدة ص ٦٨٤.

(٥) سورة النجم، آية: [٨ ـ ٩].

(٦) سورة النجم، آية: [١٣ ـ ١٤].

(٧) رواه مسلم وقد تقدم.

الأول: أن الله تعالى قال: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾[1] وهذا هو جبريل الموصوف بالقوة في سورة التكوير ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ⑲ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾[2].

الثاني: أنه سبحانه قال: ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾[3] أي حسن الخلق وهو الكريم في سورة التكوير.

الثالث: أنه سبحانه قال: ﴿فَاسْتَوَىٰ ⑥ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ﴾[4] وهو ناحية السماء العليا، وهذا استواء جبريل بالأفق الأعلى، أما استواء الله سبحانه فعلى العرش وليس في الأفق.

الرابع: أنه سبحانه قال: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ⑬ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ﴾[5] والمرئي عند السدرة هو جبريل وليس الله كما فسره الرسول ﷺ لعائشة.

الخامس: أن مفسر الضمير في قوله ﴿وَلَقَدْ رَآهُ﴾ وقوله ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ وقوله: ﴿فَاسْتَوَىٰ﴾ وقوله: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ﴾[6] واحد، فلا يجوز أن يخالف المفسر المفسَّر من غير دليل.

السادس: أنه سبحانه ذكر في سورة النجم الرسولين الكريمين الملكي والبشري، ونزّه البشري عن الضلالة والغواية، ونزّه الملكي عن أن يكون شيطانًا قبيحًا ضعيفًا، بل هو قوي كريم حسن الخلق وهو نظير المذكور في سورة التكوير سواء بسواء.

---

(١) سورة النجم، آية: [٥].

(٢) سورة التكوير، آية: [١٩-٢٠].

(٣) سورة النجم، آية: [٦].

(٤) سورة النجم، آية: [٦-٧].

(٥) سورة النجم، آية: [١٣-١٤].

(٦) سورة التكوير، آية: [٢٣].

السابع: أنه سبحانه أخبر في سورة التكوير أن الرسول ﷺ رأىٰ جبريل عليه السلام في الأفق المبين، وفي سورة النجم أخبر أنه رآه بالأفق الأعلىٰ، وهو واحد وصف بصفتين فهو مبين وأعلىٰ، فإن الشيء كلما علا بان وظهر.

الثامن: أنه سبحانه قال ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ والمرة الخلق الحسن المحكم، أخبر عن حسن خلق الذي علم النبي ﷺ ثم ساق الخبر كله نسقًا واحدًا.

التاسع: أنه لو كان خبرًا عن الرب سبحانه لكان القرآن قد دلّ أن الرسول ﷺ رأىٰ ربه مرتين مرة بالأفق ومرة عند سدرة المنتهىٰ. ولو كان الأمر كذلك لما قال النبي ﷺ لما سأله أبو ذر هل رأيت ربك؟ نور أنّىٰ أراه[1] فهل يعقل أن يخبر القرآن أنه رأىٰ ربه مرتين ثم يقول ﷺ: «أنّىٰ أراه»؟ إذًا أبلغ من قوله لم أره، لأنه مع النفي يقتضي الإخبار عن عدم الرؤية فقط، وهذا يتضمن النفي وطرفًا من الإنكار علىٰ السائل.

العاشر: أنه لم يتقدم للرب جل جلاله ذكر يعود عليه في قوله: ﴿ ثُمَّ دَنَا فتدلى ﴾[2] والذي يعود الضمير عليه لا يصلح له وإنما هو لعبده.

الحادي عشر: أنه قدم تقدم ذكر ﴿صاحبكم﴾ وأعاد عليه الضمائر التي تليق به، ثم ذكر بعده جبريل ﴿شديد القوىٰ﴾ ذو المرة وأعاد عليه الضمائر التي تليق به، و الخبر كله عن هذين المفسّرِين وهما الرسول الملكي جبريل والرسول البشري محمد ﷺ.

الثالث عشر: أنه لم يماروه ﷺ علىٰ رؤية ربه ولا أخبرهم لتقع مماراتهم له عليها، وإنما ما روه ﷺ علىٰ رؤية ما أخبرهم من الآيات التي أراه الله إياها، ولو

---

(١) رواه مسلم وقد تقدم.

(٢) سورة النجم، آية: [٨].

أخبرهم برؤية الرب تعالىٰ لكانت مماراتهم له عليها أعظم من مماراتهم علىٰ رؤية المخلوقات.

الرابع عشر: أنه سبحانه قرر صحة ما رآه وأن مماراتهم له علىٰ ذلك باطلة بقوله ﴿لقد رأىٰ من آيات ربه الكبرىٰ﴾(١)، ولو كان المرئي هو الرب سبحانه والممارات علىٰ ذلك منهم لكان تقرير تلك الرؤية الأولىٰ والمقام إليها أحوج والله أعلم(٢).

وهكذا يتبين جليًا من خلال هذه الوجوه وغيرها أن المذهب الأول هو الراجح في المسألة. والله أعلم بالصواب.

المطلب الرابع: رؤية الله في المنام

أثبت الإمام النووي رحمه الله رؤية الله في المنام لرسول الله ﷺ لورود الحديث به وقال إنه لم يختلف العلماء في ذلك، وذلك نقلاً عن القاضي عياض رحمه الله(٣).

قلت: صدق الإمام فقد صح بذلك الحديث، فعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: (احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة عن صلاة الصبح حتىٰ كدنا نتراءىٰ قرن الشيطان فخرج رسول الله ﷺ فثوّب(٤) بالصلاة فصلىٰ وتجوز(٥) في صلاته، فلما سلم قال: «كما كنتم» ثم أقبل إلينا فقال: «إني قمت من الليل فصليت ما قدر لي

---

(١) سورة النجم، آية: [١٨].

(٢) التفسير القيم لابن القيم ص ٤٩٥-٤٩٨ ولقد ذكر فيها ستة عشر وجهًا، مراجعة وتقديم مكتبة الدراسات والبحوث العربية والإسلامية، بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٢١/ ١٥، وانظر إكمال المعلم ص ١٤/ ٥.

(٤) التثويب هو الترديد في الصوت، والمراد منه إقامة الصلاة أو أن يقال الصلاة خير من النوم مرتين. انظر: المصباح المنير، ص ٣٤، والقاموس المحيط، ص ٨١.

(٥) أي خفيف في صلاته.

فنعست في صلاتي ثم استيقظت فإذا أنا بربي عز وجل في أحسن صورة. فقال: يا محمد: أتدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت: لا أدري يا ربي - أعادها ثلاثاً - فرأيته وضع كفه بين كتفي حتى وجدت برد أنامله بين يدي فتجلى لي كل شيء وعرفت فقال: يا محمد ففيم يختصم الملأ الأعلى؟ قلت في الجلوس في المساجد بعد الصلوات وإسباغ الوضوء عند الكريهات، قال: وما الدرجات؟ قلت: إطعام الطعام ولين الكلام والصلاة بالليل والناس نيام، قال: سل، قلت: اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردت فتنة بقوم فتوفني غير مفتون، وأسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل يقربني إلى حبك، ثم قال ﷺ: إنها حق فادرسوها وتعلموها)[1] .

فهذه الرؤية إنما كانت منامًا، ومن جعلها يقظة فقد أخطأ وغلط، وعلى هذا يمكن حمل من قال بالرؤية من العلماء كالإمام أحمد عندما سئل هل رأى النبي ﷺ ربه؟ فقال: (نعم رآه حقًا فإن رؤيا الأنبياء حق ولا بد)[2]. وبذلك يجمع بين القولين الأول والثاني اللذين تقدم ذكرهما إلا إذا أراد أصحاب القول الثاني الرؤية ليلة الإسراء، فإن هذه الرؤية المنامية وقعت بالمدينة ولم تقع ليلة الإسراء والمعراج التي كانت بمكة كما تقرر آنفًا.

* * *

---

(١) رواه أحمد ٥/ ٢٤٣، والترمذي في كتاب التفسير، باب ومن سورة ص ٥/ ٣٤٣، برقم: ٣٢٣٥، وقال حديث حسن صحيح، وقال ابن كثير في التفسير ٤/ ٢٥٠، إسناده على شرط الصحيح.

(٢) زاد المعاد ٢/ ١٢٦.

المبحث الثالث

توحيد الألوهيــــة

توطئـــة:

المطلب الأول: شرح كلمة التوحيد ولا إله إلا الله وبيان مكانتها.

المطلب الثاني: بيان معنىٰ العبادة، والحكمة منها، ووجوب تخصيص الله تعالىٰ بها.

المطلب الثالث: الكلام علىٰ بعض أنواع العبادة.

المطلب الرابع: موقف الإمام النووي من التبرك.

المطلب الخامس: موقف الإمام النووي من شد الرحل إلىٰ القبور.

المطلب السادس: منهج الإمام النووي في نواقض التوحيد.

المبحث الثالث

توحيد الألوهية

توطئة:

توحيد الألوهية هو المسمىٰ بالتوحيد الإرادي الطلبي، أو العملي كما سبق بيانه في أنواع التوحيد. «وهو العلم والاعتراف بأن الله ذو الألوهية[1] والعبودية علىٰ خلقه أجمعين، وإفراده وحده بالعبادة كلها، وإخلاص الدين لله وحده»[2].

وهذا النوع من التوحيد يتضمن النوعين السابقين «لأن الألوهية التي هي وصفه تعم أوصاف الكمال وجميع أوصاف الربوبية والعظمة، فإنه المألوه المعبود لما له من أصواف العظمة والجلال، ولما أسداه إلىٰ خلقه من الفواضل والأفضال، فتوحده تعالىٰ بصفات الكمال، وتفرده بالربوبية يلزم منه أنه لا يستحق العبادة أحد سواه[3].

ومعنىٰ ذلك أن يتوجه العبد بأعماله التعبدية كلها، باطنها وظاهرها لله تعالىٰ وحده بحيث لا يكون شيء منها لغيره سبحانه.

ولذا كان هذا التوحيد أهم أنواع التوحيد وأشرفها، وهو أول الدين وآخره،

---

(١) الألوهية. هي العبادة، يقال: أله إلا هه وألوهة وألوهية بمعنىٰ عبد عبادة، القاموس المحيط: مادة «أله» (١٢٤٢)، وألوهية الله تعالىٰ هي مجموع عبادته علىٰ مراده نفيًا وإثباتًا، علمًا وعملاً، وجملة وتفصيلاً. انظر المجموعة النجدية ضمنها مؤلفات الإمام محمد بن عبدالوهاب. كتاب التوحيد، ص (١٧).

(٢) كتاب «القول السديد في مقاصد التوحيد» للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، (ص١٢).

(٣) المرجع السابق ص ١٢.

وباطنه وظاهره، وأول دعوة الرسل وآخرها، وهو معنىٰ قول: «لا إله إلا الله»[1].

فالتوحيد المطلوب في الأساس هو توحيد الألوهية، فمن أتىٰ به فقد وحد الله في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله وربوبيته، لأن الله استعبد خلقه بالألوهية الجامعة لصفات الكمال. فمن شهد أن لا إله إلا الله بصدق فقد وحد الله تعالىٰ التوحيد كله.

ولا يكون العبد موحدًا التوحيد الذي ينجي صاحبه في الدنيا من عذاب القتل والأسر، وفي الآخرة من عذاب النار بمجرد اعتقاده أن الله هو رب كل شيء وخالقه وملكيه، وأنه المدبر للأمور جميعًا، فإن مثل هذا التوحيد كان يقرّ به المشركون الذين أمر الرسول ﷺ بقتالهم، بل لابد مع ذلك من توحيد الألوهية الذي هو الغاية العظمىٰ من بعثة الرسل عليهم الصلاة والسلام، والذي من أجله خلق الله الخلق، وجعل الجنة والنار، وفرق الناس إلىٰ شقي وسعيد»[2].

ومن هنا يدرك المرء الغلطة الكبرىٰ للمتكلمين من المعتزلة والأشاعرة ومن شايعهم، حيث لم يتعرضوا لهذا النوع من التوحيد في كتبهم، ولم يفرقوا بينه وبين النوعين الآخرين، وخلطوا بين معنىٰ الألوهية وبين معنىٰ الربوبية، واعتقدوا أن توحيد الربوبية الذي قرروه هو توحيد الألوهية الذي بينه القرآن، ودعت إليه الرسل عليهم الصلاة والسلام، وليس الأمر كذلك[3].

---

(١) تيسير العزيز الحميد، للشيخ سليمان بن عبدالله ـ رحمه الله ـ ص ٢٠.

(٢) مجموعة التوحيد النجدية ضمنها «كتاب كشف الشبهات» ص ٢١٩ ـ ٢٢٠، ودعوة التوحيد للهراس، ص ٤٠.

(٣) كتاب التوحيد لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق: محمد السيد الجليند، ص (١٢٨)، وشرح العقيدة الطحاوية (ص٢٨/ ١).

وقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ من أكثر العلماء تنبيهًا علىٰ ما وقع فيه المتكلمون من الغلط في مسمىٰ التوحيد، والرد عليهم فيه، كما يوجد ذلك في سائر كتبه الكثيرة.

وكانت هذه الغلطة الفاحشة سبباً في انحرافات عقدية خطيرة، وضلالات علمية شنيعة لكثير من الناس إلا من رحم الله(١).

أما الإمام النووي ـ فقد تقدم ـ عند الكلام على منهجه في الإيمان ما يبين أنه يفرق بين أنواع التوحيد الثلاثة، ويرى أن التوحيد في الشرع قائم على مفهوم الشهادتين، وهو إفراد الله تعالى بالعبادة، وإفراد رسوله ﷺ بالمتابعة، وهما أصل الدين الذي لا يصح شيء غيرهما إلا بهما(٢).

وتكلم الإمام في بعض المواضع في الشرح على شرح كلمة التوحيد: «لا إله إلا الله»، وعلى معنى العبادة واختصاص الله تعالى بها، كما أن له كلامًا على بعض أنواع العبادة، وكان في ذلك سائرًا على المنهج الصحيح الذي دل عليه الكتاب والسنة، وكان عليه السلف الصالح في هذا الباب.

لكن الإمام قد جانب الصّواب في بعض المسائل من هذا الباب، كمسألتي التبرك، وشد الرّحل إلى القبور.

وعلى هذا يمكن بيان منهج الإمام في توحيد الألوهية في المطالب الآتية:

* * *

---

(١) ولهذه الانحرافات والضلالات أمثلة كثيرة، والكلام فيها يطول، وانظر: دعوة التوحيد. د. محمد خليل هراس. ص: ١٢ـ ١٣، ٦٣ـ ٦٩.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص٣٣/ ٢، و ص١٢٣ من الرسالة.

المطلب الأول

شرح كلمة التوحيد «لا إله إلا الله»

وبيان مكانتها

تقدم أن توحيد الألوهية بمعناه الذي سبقت الإشارة إليه هو معنى «لا إله إلا الله». وقد شرح الإمام في مواضع من الشرح معنى هذه الكلمة وما تضمنته من التوحيد. وذلك كما يلي:

* في شرح باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء «وهو يتكلم على المفاضلة بين التسبيح والتهليل في الذكر - قال القاضي في الجواب عن هذا: (أن التهليل المذكور أفضل ويؤيده ما جاء في الحديث بعد هذا أن أفضل الذكر التهليل مع الحديث الآخر أفضل ما قلته أنا والنبيون قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له» الحديث، وقيل أنه اسم الله الأعظم وهي كلمة الإخلاص والله أعلم)[1].

* وقال في شرح حديث أنس بن مالك قال. كان رسول الله ﷺ يغير إذا طلع الفجر. وكان يستمع الآذان. فإن سمع أذانًا أمسك وإلا أغار، فسمع رجلاً يقول. الله أكبر الله أكبر فقال رسول الله ﷺ. على الفطرة. ثم قال. أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن لا إله إلا الله. فقال رسول الله ﷺ خرجت من النار»[2].

قال الإمام: (وقوله ﷺ «خرجت من النار» أي بالتوحيد)[3].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٥-١٦/ ١٧.

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ٧٢- ٧٣/ ٤، كتاب الصلاة برقم (٩).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٧٣/ ٤.

* وفي فصل نقله الإمام عن القاضي عياض - رحمه الله - في باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يسأل له الوسيلة قال الإمام قال القاضي عياض (. . . واعلم أن الآذان كلمة جامعة لعقيدة الإيمان مشتملة على نوعين من العقليات والسمعيات فأوله إثبات الذات وما يستحقه من الكمال والتنزيه عن أضدادها وذلك بقوله الله أكبر وهذه اللفظة مع اختصار لفظها دالة على ما ذكرناه) . ثم قال في شأن قول المؤذن «أشهد أن لا إله إلا الله .

ثم صرح بإثبات الوحدانية ونفي ضدها من الشركة المستحيلة في حقه سبحانه وتعالي وهذه عمدة الإيمان والتوحيد المقدمة علي كل وظائف الدين»[1] .

وأما عن مكانتها فقال رحمه الله في باب التشهد في الصلاة : (وأما ألفاظ الباب ففيه لفظة التشهد، سميت بذلك للنطق بالشهادة والواحدانية والرسالة)[2] .

وقال أيضًا عن هذه الكلمة بأنها هي المخرجة والمنجية من عذاب النار قوله ﷺ : «أئذن لي فيمن قال لا إله إلا الله قال ليس ذلك لك ولكن وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي وجبريائي لأخرجن من قال لا إله إلا الله»[3] (معناه لا تفضلن عليهم إخراجهم من غير شفاعة كما تقدم الحديث السابق شفعت الملائكة، وشفع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين)[4] .

كما أن النطق بالشهادتين يجعل الجنة مستحقة لكل من نطق بها وأنه لابد من دخولها آخرًا، وإن كان لا يدخلها من أول وهلة، لمعاصي ارتكبها يحاسب عليها قال

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص٧٧/ ٤ .
(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٩٩/ ٤ ، باب التشهد في الصلاة .
(٣) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ٥١ - ٥٦/ ٣ برقم (٩٣) مكرر .
(٤) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٥٦/ ٣ .

الإمام النووي: «وإن كان هذا من المخلطين بتضييع ما أوجب الله عليه أو بفعل ما حرم عليه فهو في المشيئة لا يقطع في أمره بتحريمه على النار ولا باستحقاقه الجنة لأول وهلة بل يقطع بأنه لابد من دخوله الجنة أخراً وإدخاله قبل ذلك في نظر المشيئة إن شاء الله تعالى عذبه بذنبه وإن شاء عفا عنه بفضله ويمكن أن تستقل الأحاديث بنفسها ويجمع بينها فيكون المراد باستحقاق الجنة على ما قدمناه من إجماع أهل السنة أنه لابد من دخولها لكل موحداً إما معجلاً معافى وإما مؤخراً بعد عقابه»[1].

وقال أيضًا: (أن مذهب أهل السنة بأجمعهم من السلف الصالح وأهل الحديث والفقهاء والمتكلمين على مذهبهم من الأشعريين أن أهل الذنوب في مشيئة الله تعالى، وأن كل من مات على الإيمان وتشهد مخلصًا من قلبه بالشهادتين فإنه يدخل الجنة . . .)[2].

* * *

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٩٥/١.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٩٤-١٩٥/١.

المطلب الثاني

بيان معنى العبادة، والحكمة منها، ووجوب تخصيص الله تعالى بها

سبق أن توحيد الألوهية هو إفراد الله تعالى بالعبادة، وقد جاء في حديث جبريل المشهور عندما سأل النبي ﷺ عن الإسلام فأجاب ﷺ الإسلام أن تعبد الله لا تشرك به شيئًا وتقيم الصلاة إلى آخره.

قال الإمام: (أما العبادة فهي الطاعة مع خضوع فيحتمل أن يكون المراد بالعبادة هنا معرفة الله تعالى، والإقرار بوحدانيته. فعلى هذا يكون عطف الصلاة والصوم والزكاة عليها لإدخالها في الإسلام، فإنها لم تكن دخلت في العبادة وعلى هذا إنما اقتصر على هذه الثلاث لكونها من أركان الإسلام وأظهر شعائره والباقي ملحق بها ويحتمل أن يكون المراد بالعبادة الطاعة مطلقًا فيدخل جميع وظائف الإسلام فيها، فعلى هذا يكون عطف الصلاة وغيرها من باب ذكر الخاص بعد العام، تنبيهًا على شرفه ومزيته كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾[1] ونظائره)[2].

وأما قوله ﷺ: «لا تشرك به» فإنما ذكره بعد العبادة لأن الكفار كانوا يعبدون سبحانه تعالى في الصورة ويعبدون معه أوثانًا يزعمون أنها شركاء فنفى هذا والله أعلم»[3].

---

(١) سورة الأحزاب، آية: [٧].

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص١٤٥/ ١.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص١٤٥/ ١.

وفي قوله ﷺ: «وأنا عبدك» أي معترف بأنك مالكي ومدبري وحكمك نافذ بي»[1].

وهنا يثبت الإمام توحيد الألوهية المتضمن لتوحيد الربوبية على منهج القرآن والسنة والسلف الصالح. كما فسر الإمام العبادة بالنسك وهي كل ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى فقال: قوله ﷺ: «إن صلاتي ونسكي» قال أهل اللغة: النسك العبادة وأصله من النسيكة وهي اللفظة المذابة المصفاة من كل خلط والنسيكة أيضًا كل ما يتقرب به إلى الله تعالى)[2].

وهكذا بين الإمام - رحمه الله - حقيقة التوحيد الذي لا نجاة للعبد في الدنيا و الآخرة إلا به، والحمد لله رب العالمين.

* * *

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٦/٥٢.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٦/٥١.

المطلب الثالث

الكلام على بعض أنواع العبادة

تبين مما سبق أن العبادة تشمل جميع أفعال الإنسان التي تعبده الله تعالى بها من الأعمال والأقوال والاعتقادات. وقد تكلم الإمام على كثير من هذه العبادات التي ورد ذكرها في الآيات والأحاديث التي تعرض لشرحها في كتابه «شرح صحيح مسلم» ولتمام إيضاح منهجه في توحيد الألوهية رأيت عرض كلامه على بعض أهم أنواع العبادة، وهي ما يلي:

١ - الدعـــاء

تكلم الإمام على هذا النوع في شرحه لقوله ﷺ: «اللهم لك أسلمت وبك أمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لي»[١].

قال: «ومعنى سؤاله المغفرة مع أنه مغفور له أنه يسأل ذلك تواضعًا وخضوعًا وإشفاقًا وإجلالاً وليقتدي به في أصل الدعاء والخضوع وحسن التضرع في هذا الدعاء المعين، وفي هذا الحديث وغيره مواظبته ﷺ على الذكر والدعاء والاعتراف لله بحقوقه والإقرار بصدقه ووعده ووعيده والبعث والجنة والنار وغير ذلك»[٢].

٢ - الاستعاذة

الاستعاذة من أنواع العبادة، وهي طلب العوذ[٣]، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ٦/٤٨ برقم (٧٦٩).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص٦/٤٩.

(٣) العوذ: الالتجاء، كالعياذ، والمعاذ، والمعاذة، والتعوذ، والاستعاذة. القاموس المحيط، مادة «عوذ» ص ٣٣٤.

برب الفلق﴾[1]، و ﴿قل أعوذ برب الناس﴾[2].

وقال الإمام النووي في قول عائشة رضي الله عنها أن الرسول ﷺ كان يقول: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك»[3].

«قال الإمام أبو سليمان الخطابي - رحمه الله تعالى - في هذا الحديث معنى لطيف وذلك أنه استعاذ بالله تعالى وسأله أن يجيره برضاه من سخطه وبمعافاته من عقوبته والرضا والسخط ضدان متقابلان وكذلك المعافاة والعقوبة فلما صار ذكر ما لاضد له والله سبحانه وتعالى استعاذ به منه لا غير، ومعناه الاستغفار من التقصير في بلوغ الواجب من حق عبادته والثناء عليه»[4].

وقال أيضًا: قوله ﷺ: «عائذًا بالله من النار، منصوب على الحال أي أقول هذا في حال استعاذتي واستجارتي بالله من النار»[5].

كما بين أن الاستعاذة لا تكون إلا بالله وذلك عند شرحه قول المرأة التي تزوجها الرسول ﷺ «أعذتك مني»[6].

قال الإمام: (وفي الحديث المشهور أن النبي ﷺ، قال: «من استعاذكم بالله فأعيذوه) فلما استعاذت بالله تعالى لم يجد النبي ﷺ بدًا من إعاذتها وتركها ثم إذا ترك شيئًا لله لا يعود فيه والله أعلم»[7].

---

(١) سورة الفلق، آية: [١].

(٢) سورة الناس، آية: [١].

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ١٧٠ - ١٧١/ ٤ برقم (٤٨٦).

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٧١/ ٤.

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٣٣/ ١٧.

(٦) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ١٥٠/ ١٣ برقم (٢٠٠٧).

(٧) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٥١/ ١٣.

٣ ـ التوكل

التوكل من العبادة لقوله تعالى ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[(١)] قال الإمام في شرح حديث الرسول ﷺ في الذين يدخلون الجنة بلا حساب «هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون»[(٢)].

قال في معنى الحديث: (وقد تكلم العلماء وأصحاب المعاني على هذا مذهب أبو سليمان الخطابي وغيره إلى أن المراد تركها توكلاً على الله تعالى ورضاء بقضائه وبلائه. قال الخطابي: وهذا من أرفع درجات المحققين بالإيمان إلى هذا ذهب جماعة سماهم قال القاضي، وهذا ظاهر الحديث ومقتضاه أنه لا فرق بين ما ذكره من الكي والرقى وسائر أنواع الطب . . .

ثم قال: «والظاهر من معنى الحديث ما اختاره الخطابي ومن وافقه كما تقدم وحاصله أن هؤلاء كمل تفويضهم إلى الله عز وجل فلم يتسببوا في دفع ما أوقعه بهم ولا شك في فضيلة هذه الحالة ورجحان صاحبها وأما تطبب النبي ﷺ ففعله ليبين لنا الجواز والله أعلم»[(٣)].

ولقد ذكر أقوال السلف والخلف في معنى التوكل[(٤)] ولم يرجح شيئًا منها، لكنه مال إلى تسمية التوكل تفويضًا. فقال رحمه الله: قوله ﷺ «وعليك توكلت»[(٥)] أي فوضت أمري إليك[(٦)].

---

(١) سورة المائدة، الآية: [٢٣].

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ٧٦/ ٣ برقم (٢١٨).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٧٧/ ٣.

(٤) المصدر السابق، ص ٧٧ـ٧٨/ ٣.

(٥) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ٣٢/ ١٧ برقم (٢٧١٧).

(٦) المصدر السابق، ص ٣٢/ ١٧.

وقال في شرح قوله ﷺ: «وهم الذين لا يكتوون ولا يسترقون وعلىٰ ربهم يتوكلون» وهم الذين يدخلون الجنة بغير حساب)[1].

قال عنهم: (والظاهر من معنىٰ الحديث ما اختار الخطابي ومن وافقه كما تقدم وحاصله أن هؤلاء كمل تفويضهم إلىٰ الله عز وجل فلم يتسببوا في دفع ما أوقعه بهم ولا شك في فضيلة هذه الحالة ورجحان صاحبها وأما تطبب النبي ﷺ ففعله يبين لنا الجواز والله أعلم)[2].

ورد علىٰ بعض الذين غلطوا في فهم معنىٰ التوكل كبعض طوائف الصوفية الذين قالوا: لا يستحق اسم التوكل إلا من لم يخالط قلبه خوف غير الله تعالىٰ من سبع أو أو عدد حتىٰ يترك السعي في طلب الرزق ثقة بضمان الله تعالىٰ له رزقه.

وبين الإمام أن التوكل لا ينافي فعل الأسباب فقال: «وقالت طائفة هذه الثقة بالله تعالىٰ والإيقان بأن قضاءه نافذ واتباع سنة نبيه ﷺ في السعي فيما لابد منه من المطعم والمشرب والتحرز من العدو كما فعله الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين)[3].

٤ ـ الذبح

الذبح من أنواع العبادة لقول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[4].

والنسك: هو الذبح، فلا يجوز الذبح لغير الله تعالىٰ تقربًا وتعظيمًا.

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص٧٧/ ٣.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص٧٧/ ٣.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٧٧/ ٣.

(٤) سورة الأنعام، الآية: [١٦٢، ١٦٣].

قال الإمام النووي في قوله ﷺ: «لعن الله من لعن والده ولعن الله من ذبح لغير الله ولعن الله من أولى محدثًا ولعن الله من غير منار الأرض»[1].

«وأما الذبح لغير الله فالمراد أن يذبح باسم غير الله تعالى كمن ذبح للصنم أو للصليب أو لموسى أو لعيسى صلى الله عليهما أو للكعبة أو نحو ذلك فكل هذا حرام ولا تحل هذه الذبيحة سواء كان الذابح مسلمًا أو نصرانيًا أو يهوديًا نص عليه الشافعي واتفق عليه أصحابنا فإن قصد مع ذلك تعظيم المذبوح له غير الله تعالى، والعبادة له كان ذلك كفرًا، فإن كان الذابح مسلمًا قبل ذلك صار بالذبح مرتدًا، وذكر الشيخ إبراهيم المروزي[2] من أصحابنا أن ما يذبح عند استقبال السلطان تقربًا إليه أفتى أهل بخارى بتحريمه لأنه مما أهل به لغير الله تعالى. قال الرافعي هذا إنما يذبحونه استبشارًا بقدومه فهو كذبح العقيقة لولادة المولود وقيل هذا لا يوجب التحريم والله أعلم)[3].

٥ ـ الإنابة

قال الإمام عن الإنابة أنها الإقبال على الله. قال رحمه الله في قوله ﷺ: («وإليك أنبت» أي أقبلت بهمتي وطاعتي عما سواك)[4].

وقال في موضع آخر («وإليك أنبت» أي أطعت ورجعت إلى عبادتك أي أقبلت عليها. وقيل معناه رجعت إليك في تدبيره أي فوضت إليك)[5].

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ١٢٠/ ١٣، كتاب الأضاحي باب تحريم الذبح لغير الله ولعن فاعله، برقم (١٩٧٨).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٢/ ١٣، باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٣٢/ ١٧.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٤٩/ ٦.

٦ - التوبــــة

عقد الإمام مسلم في كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار في صحيحه «باب استحباب الاستغفار والإكثار منه».

وقال الإمام في الشرح قوله ﷺ: «يا أيها الناس توبوا إلىٰ الله فإني أتوب في اليوم مائة مرة» هذا الأمر بالتوبة موافق لقوله تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ﴾ (١) وقوله تعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾(٢) وقد سبق في الباب قبله بيان سبب استغفاره وتوبته إلىٰ الله ونحن إلىٰ الاستغفار والتوبة أحوج.

ثم قال: قوله ﷺ: «من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها تاب الله عليه».

«ومعنىٰ تاب الله عليه قبل توبته ورضي بها»(٣).

وقال في باب الحض علىٰ التوبة والفرح بها. (أصل التوبة في اللغة الرجوع يقال تاب وثاب بالمثلثة آب بمعنىٰ رجع والمراد بالتوبة هنا الرجوع عن الذنب وقد سبق في كتاب الإيمان أن لها ثلاثة أركان الإقلاع والندم علىٰ فعل تلك المعصية والعزم علىٰ أن لا يعود إليها أبدًا فإن كانت المعصية لحق آدمي فلها ركن رابع وهو التحلل من صاحب ذلك الحق وأصلها الندم وهو ركنها الأعظم وأتفقوا علىٰ أن التوبة من جميع المعاصي واجبة، وأنها واجبة علىٰ الفور لا يجوز تأخيرها سواء كانت المعصية صغيرة أو كبيرة والتوبة من مهمات الإسلام وقواعده المتأكدة ووجوبها عند أهل السنة بالشرع وعند المعتزلة بالعقل ولا يجب علىٰ الله قبولها بالشرع والإجماع خلافًا لهم..)(٤).

---

(١) سورة النور، الآية: [٣١].

(٢) سورة التحريم، الآية: [٨].

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٢٠-٢١/١٧.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٥٠/١٧ كتاب التوبة.

هذا ما يتعلق ببعض أنواع العبادة التي تكلم عليها الإمام في «الشرح» ذكرتها من باب المثال. وجميع أنواع العبادة يجب صرفها لله تعالىٰ وحده لا شريك له، كما قال عز وجل: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يعلمون﴾(١) وفعلاً فإن كثيراً من المسلمين يصرفون بعض أنواع العبادة لغير الله تعالىٰ جهلهم بمعنىٰ العبادة وحقيقة التوحيد الذي دعا إليه الرسول ﷺ وعمل به السلف الصالح، ومن أسباب ذلك إنتشار العقيدة الأشعرية التي جعلت اعتقاد وانفراد الله بالخلق والتدبير هو حقيقة التوحيد، وعلمت الناس أن «الإله هو القادر على الاختراع، وأن معنىٰ «لا إله إلا الله» أي لا خالق ولا قادر علىٰ الإختراع إلا الله، وأغفلت تماماً توحيد الألوهية الذي أرسل الله تعالىٰ به رسله وأنزل به كتبه(٢) وكان هذا من البلاء العظيم علىٰ المسلمين بعد القرون المفضلة، حيث نشأ كثير من الأجيال علىٰ هذه المفاهيم الخاطئة مما جعل دينهم عرضة للخسران لفقدانه الأصل الأصيل، توحيد العبادة. والله تعالىٰ المستعان والهادي إلىٰ سواء السبيل.



(١) سورة يوسف، الآية: [٤٠].

(٢) لقد كتب الاستاذ الفاضل خالد عبداللطيف السوداني بحثًا قيمًا في بيان منهج الأشاعرة في التوحيد لله تعالىٰ ومقارنته بمنهج السلف، وعنوانه «منهج السلف ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالىٰ» وقد طبع من جزأين، طبعة مكتبة الغرباء الحديثة بالمدينة المنورة، ويمكن الرجوع إليه لمن أراد مزيد البيان.

المطلب الرابع

موقفه من التبرك[1]

١ ـ منهج السلف في التبرك

من عقيدة أهل السنة والجماعة أنّ البركة كلها من الله، وأنّها لا تطلب إلا منه تعالى، وأنّ طلبها من غيره شرك بالله سبحانه وتعالى[2]، وقد دلّ الكتاب والسنة على أنّ الله تعالى اختص بعض الأشياء من الأعيان والأقوال والأفعال بما شاء من الفضل والبركة فجعلها مباركة، ولكن لا يجوز التبرّك بشيء من الأشياء إلاّ بإذن من الشرع، وعلى أساس أنه سبب للبركة وليس واهبًا لها، وإنما واهبها الله تعالى الذي بيده كل شيء، وهو على كل شيء قدير[3].

---

(١) التبرك : هو طلب البركة، والبركة متحركة : النماء والزيادة والسعادة، القاموس المحيط، مادة «برك» ص(١٢٠٤)، وأصلها الثبوت واللزوم «معجم مقاييس اللغة» ص (٢٢٧/ ١)، قال الراغب الأصفهاني البركة : «ثبوت الخير الإلهي في الشيء» المفردات في غريب القرآن ص(٤٤)، والتربك بالشيء : طلب البركة بواسطته، يقال تبركت به : أي تيمنت به، والتيمن : البركة «لسان العرب» ص (٢٠٠/ ١) من الألف إلى الراء.

(٢) جاء في الحديث عن عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال : كنّا مع رسول الله ﷺ في سفر فقل الماء. فقال : «ثم قال : حيّ على الطهور المبارك، والبركة من الله فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله ﷺ، أخرجه البخاري مع الفتح، ص (٥٨٧/ ٦)، برقم (٣٥٧٩/ ١)، كتاب المناقب، ومسلم بشرح النووي أخرج حديث أنس بن مالك أن النبي ﷺ دعى بماء فأتى بقدح راحراح ـ وهو الواسع القصير الجدار ـ فجعل القوم يتوضئون. فحزرت ما بين الستين إلى الثمانين ـ قال فجعلت انظر إلى الماء ينبع من بين أصابعه ص (٣١/ ١٥)، برقم (٢٢٧٩) كتاب الفضائل، باب في معجزات النبي ﷺ.

(٣) انظر : التبرك المشروع والتربك الممنوع للدكتور علي بن نفيع العلياني، ص (١٧/ ٢١).

ويفهم من هذا أن التبرك قد يكون مشروعًا، وقد يكون ممنوعًا، وكلّ ذلك موقوف على بيان من الشرع، كما جاء في الكتاب والسنة وفهمه سلف الأمّة. لكن كثيرا من متأخري الأمة لم يلتزموا بمنهج السّلف في هذا الأمر، فجرّهم ذلك إلى حظيرة البدع والخرافات، وأوقعهم في حمأة الجهل والشركيّات.

٢ـ موقف الإمام النووي من التبرك

لقد وافق الإمام النووي رحمه الله السلف في جواز التبرك برسول الله ﷺ وأثاره في حياته، وخالفهم في تجويزه التبرك به وأثاره بعد مماته، وتجويزه التبرك بأثار الصالحين وفضلاتهم الطاهرة على الإطلاق، وذلك في مواضع عديدة من الشرح، وممّا ذكره في تلك المواضع ما يأتي:

* علق النوويّ ـ رحمه الله تعالى ـ على إرسال عتبان بن مالك إلى رسول الله ﷺ، وقوله له.. تعالى فخُط لي سجداً، فجاء رسول الله ﷺ.. الخ» معدداً الفوائد المستنبطة منه فقال «ففيه التبرك بآثار الصالحين» [١].

* وأعاد نحوه في الكلام على الحديث نفسه فقال ـ وفي حديث عتبان هذا فوائد كثيرة: «... ومنها التُبرك بالصالحين وآثارهم، والصلاة في المواضع التي صلّوا بها، وطلب التبريك منهم»[٢].

* وقال ﷺ للنّسوة اللاتي غسّلن ابنته [٣]: «... فإذا فرغتن فأذنني» فلمّا فرغنا أذنّاه، فألقى إلينا حقوهُ[٤]، فقال: «أشعِرنَها إيَّاه»[٥].

قال الإمام النووي: «ومعنى أشعرنها إياه: اجعلنه شعاراً لها، وهو الثوب الذي

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص (٢١٥/ ١).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص (١٦١/ ٥).

(٣) هي زينب كذا قاله الجمهور وقد صرح به مسلم في «صحيحه إلى روايته التي بعدها وقيل: هي أم كلثوم».

(٤) فسره الإمام النووي ـ رحمه الله ـ بالإزار.

(٥) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ٣/ ٧ برقم (١٣٩).

يلي الجسد، سمي شعارًا، لأنه يلي شعر الجسد» ثم تكلّم على من ذلك بنحو ما قال آنفًا، والحكمة في إشعارها به: تبريكها به» ثم قال الإمام: «ففيه التُبرك بآثار الصالحين ولباسهم»(١).

* ما أخرجه مسلم في صحيحه: (كتاب الفضائل: باب قُرب النبي ﷺ من الناس وتبركهم به) بسنده إلى أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا صلّى الغداة جاء خَدمُ المدينة بآنيتهم فيها الماء، فما يؤتي بإناء إلا غمس يده فيها فربما جاؤوه في الغداة الباردة فيغمس يده فيها»(٢).

* وأخرج أيضًا في صحيحه، في الكتاب والباب نفسه، بسنده إلى أنس أيضًا قال: لقد رأيت رسول الله ﷺ والحلاّق يَحلقُه وأطاف به أصحابه، فما يُريدون أن تقع شَعَرةٌ إلاّ في يد رجلٍ»(٣).

قال النووي -رحمه الله تعالى-: (في هذه الأحاديث... التبرك بآثار الصالحين!! وبيان ما كانت الصحابة عليه من التبرك بآثاره ﷺ، وتبركهم بإدخال يده الكريمة في الآنية، وبتبرُّكهم بشعره الكريم، وإكرامهم إيَّاه أن يقع شيء منه إلاَّ في يد رجل سبق إليه)(٤).

* وفي شرح حديث جابر بن عبدالله قال: (مرضت فأتاني رسول الله ﷺ وأبو بكر يعوداني ماشيان. فأغمي عليَّ. فتوضأ ثم صب علي من وضوئه. فأفقت. قلت يا رسول الله كيف أقضي في مالي؟ فلم يرد علي شيئًا. حتى نزلت آية الميراث ويستفتونك في الكلالة»(٥). قال الإمام النووي -رحمه الله-: «وفيه التبرك بآثار الصالحين وفضل طعامهم وشرابهم ونحوهماوفضل مؤالكتهم ومشاربتهم ونحو

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٣/ ٧).

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي ٦٦/ ١٥ برقم (٢٣٢٤).

(٣) أخرجه برقم (٢٣٢٥) كتاب الفضائل باب قرب النبي ﷺ وبتبركهم به.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي (٦٦-٦٧/ ١٥).

(٥) أخرجه مسلم بشرح النووي ص (٤٦-٤٧/ ١١)، كتاب الفرائض رقم (١٦١٦).

ذلك، وفيه ظهور آثار بركة رسول الله ﷺ، واستدل أصحابنا وغيرهم بهذا الحديث على طهارة الماء المستعمل في الوضوء والغسل ردًا على أبي يوسف القائل بنجاسته وهي رواية عن أبي حنيفة، وفي الاستدلال به نظر لأنه يحتمل أنه صب من الماء الباقي في الإناء، ولكن قد ينال البركة العظمىٰ فيما لاقىٰ أعضاءه ﷺ في الوضوء، والله أعلم)[1].

هذا بعض ما ذكره الإمام في التبرك بالصالحين وآثارهم وفضلاتهم ولعل القارئ قد لاحظ أن الإمام في هذه المواضع المذكورة اعتمد علىٰ الأحاديث التي تدلّ علىٰ أن الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ كانوا يتبركون بالنبي ﷺ، ففهم من ذلك جواز التبرك بغيره من الصالحين ـ ولا شك أنّ هذه الأحاديث وأحاديث أخرىٰ غيرها تدل دلالة ظاهرة علىٰ أن التبرك بالنبي ﷺ مشروع، فإن النبي ﷺ مبارك في ذاته وآثاره وأفعاله، وكان صحابته الكرام يعرفون ذلك، وأقرّهم النبي ﷺ عليه .

ولكن هل يقاس علىٰ النبي ﷺ غيره من الصالحين فيتبرك به وبآثاره كما ذهب إليه الإمام النووي ؟

٣ـ بيان القول الفصل في هذه المسألة

الواقع أنه لا يوجد هناك أي دليل علىٰ جواز التّبرك بغير النبي ﷺ، فلم يؤثر عن النبي ﷺ أنه أمر بالتبرك بغيره من الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ أو غيرهم، سواء بذواتهم، أو بآثارهم، أو أرشد إلىٰ شيء من ذلك . وكذا لم يُنقل حصول هذا النوع من التبرك من قبل الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ بغيره ﷺ، لا في حياته ﷺ ولا بعد مماته عليه الصلاة والسلام[2] .

ولهذا ذهب المحققون من علماء أهل السنة والجماعة إلىٰ أن التبرك بذوات

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص (٤٧ـ٤٨/ ١١) .

(٢) التبرك أنواعه وأحكامه للدكتور ناصر بن عبدالرحمن الجديع ص (٢٦١) .

الصالحين وبآثارهم غير مشروع، بل هو من التبرك الممنوع .

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي: «وهو يشرح قوله ﷺ: «ومن تشبه بقوم فهو منهم»[1]. : «ذكر المبالغة في تعظيم الشيوخ وتنزيلهم منزلة الأنبياء هو المنهي عنه . وقد كان عمر وغيره من الصحابة والتابعين - رضي الله عنهم - يكرهون أن يطلب منهم الدعاء، ويقولون: (أأنبياء نحن ؟) فدلّ على أنّ هذه المنزلة لا تنبغي إلاّ للأنبياء عليهم السلام، وكذلك التبرك بالآثار فإنما كان يفعله الصحابة رضي الله عنهم مع النبي ﷺ، ولم يكونوا يفعلونه مع بعضهم ببعض ولا يفعله التابعون مع الصحابة، مع علوّ قدرهم. فدلّ على أن هذا لا يفعل إلاّ مع النبي ﷺ، مثل التبرك بوضوئه وفضلاته وشعره، وشرب فضل شرابه وطعامه وفي الجملة فهذه الأشياء فتنة للمعظَّم وللمعظِّم لما يخشى عليه من الغلوّ المدخل في البدعة، وربّما يترقى إلى نوع من الشرك. كلّ هذا إنما جاء من التشبّه بأهل الكتاب والمشركين الذي نهيت عنه هذه الأمة»[2].

وبكلّ ما سبق يتبين أن ما رأه الإمام النووي من قياس الصالحين على الرسول ﷺ في جواز التبرك بذواتهم وآثارهم غير صحيح، وأنّ هذا النوع من التبرّك ممنوع، لأنه يخالف إجماع السلف الصالح .

ولقد ذهب الحافظ ابن حجر إلى ما ذهب إليه الإمام النووي من جواز التبرك بالصالحين وأثارهم وذلك في كتابه فتح الباري، ولقد علق الشيخ العلاّمة ابن باز - رحمه الله - على معظم المواضع التي ذكر فيها الحافظ جواز التبرك بذوات الصالحين وآثارهم، وبين - حفظه الله - أن ذلك غلط، وأنه من وسائل الشرك فيجب منعه سداً

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه من (٣١٤/ ٤)، برقم (١٤٠٣١)، وقال حديث صحيح الجامع، الألباني، برقم (٦١٤٦)، ص (١٠٥٩/ ٢) .

(٢) الحكم الجديرة بالإذاعة، لابن رجب الحنبلي، ص(٤٦) .

للذريعة، وحماية لجناب التوحيد[1].

كما أن لصاحب الردود والتعقبات ردود على النووي بين فيها خطأ الإمام النووي ـ رحمه الله ـ فقال: «قلت: التبرك المشروع بالذوات هو أمرٌ خاصٌ بالنبي ﷺ، ولا يُقاس عليه أحد من الصالحين، ففي كلام النووي ـ رحمه الله تعالى ـ توسع غير مرضٍ عند المحققين من أهل العلم، بل له المقرّر في عقيدة أهل السنة والجماعة)[2].

وقال أيضًا: «قلت نعم فيها مشروعية التبرك بذات النبي ﷺ، ولكن تعميم ذلك على سائر من يُظن به الصلاح غير صحيح، إذ لو كان هذا صحيحًا لفهمه بعض الصحابة وعملوا به. فعموم النصوص مفيد الاستدلال به على فهم السلف الصالح ومنهجهم، ولم يؤثر أحد منهم أنّه فُعِل به ذلك، أو فَعل ذلك مع من هو أفضل منه»[3].

فالتبرك بالصالحين وآثارهم من الغلو المفضي إلى الشرك، ويتعارض مع نصوص الشريعة، وما كان عليه السلف الصالح من صفاء العقيدة وكمال التوحيد، والبراءة من وسائل الشرك، والله المستعان.

* * *

---

(١) تعليقات الشيخ في هوامش «فتح الباري» كالتالي ص (٣٢٧/ ٥٢٢، ٥٢٣/ ١ و١٥٥، ١٤٤/ ٣).

(٢) الردود والتعقبات على ما وقع للإمام النووي في شرح صحيح مسلم من التأويل في الصفات وغيرها من المسائل المهمات. تصنيف أبي عبيدة مشهور آل سلمان ص(٢٣٤).

(٣) المصدر السابق ص (٢٣٥ـ٢٣٦)، و ص (٢٤١ـ٢٥٠).

المطلب الخامس

موقفه من شد الرّحل إلى القبور

اتّفق العلماء على أن زيارة القبور من دون شدّ الرحال إليها جائز[1] إذا كانت على الصفة الشّرعيّة[2]، واختلفوا في شد الرحال إليها .

وأصل هذا الخلاف هومفهوم قول ﷺ - في الحديث المتفق عليه - : «لا تشد الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام، ومسجد الرسول ﷺ، والمسجد الأقصى»[3] . حيث فهم البعض من هذا الحديث منع شد الرحل لقصد العبادة، والقربة إلى غير هذه المساجد الثلاثة ولم يفهم البعض الآخر ذلك منه .

١ ـ رأي الإمام النووي في ذلك

وقد تعرض الإمام النووي لهذه القضية في شرحه لصحيح مسلم، فذكر الخلاف فيها، واختار ما أدّى إليه اجتهاده فقال عند قوله ﷺ : «لا تشدو الرّحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد : مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى» فذهب إلى مشروعيّة شد الرّحال إلى قبور الصالحين والمواضع الفاضلة !!

---

(١) حديث : «كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها . . »، أخرجه بنحو مسلم بشرح النووي، ص(٤٦/ ٧) كتاب الجنائز .

(٢) الزيارة الشرعية : ما كانت للعبرة وتذكر الآخرة، وللإحسان إلى الميت بالدّعاء له إذا كان موحداً. أما إذا كانت للتبرك والتمسح بالقبر فهي زيارة بدعية، وإذا كانت لسؤال المقبور أو التقرب إليه بذبح ونحوه، فهي زيارة شركية، انظر «إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان» لابن القيم الجوزية ص(٢١٨ـ ٢١٩/ ١).

(٣) أخرجه البخاري مع الفتح، ص (٦٣/ ٣) برقم (١١٨٩)، ومسلم بشرح النووي ص (١٤٢/ ٩) برقم (١٣٩٧) كتاب الحج باب فضل المساجد الثلاثة .

وهذا نص كلامه:

« واختلف العلماء في شدّ الرّحال، وإعمال المطي إلى غير المساجد الثلاثة كالذهاب إلى قبور الصّالحين، وإلى المواضع الفاضلة، ونحو ذلك، فقال الشيخ أبو محَمد الجويني من أصحابنا: هو حرام، وهو الذي أشار القاضي عياض إلى اختياره.

والصحيح عند أصحابنا ـ وهو الذي اختاره إمام الحرمين والمحقّقون ـ أنه لا يحرم ولا يكره. قالوا: والمراد أنَّ الفضيلة التَّامَّة إنَّما هي في شدّ الرّحال إلى هذه الثلاثة خاصَّة، والله أعلم»[1].

وقال في موطن آخر: (فيه بيان عظيم فضيلة هذه المساجد الثلاثة ومزيتها على غيرها لكونها مساجد الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ولفضل الصلاة منها)[2] شد الرّحال إليها، لأنَّ معناه عند جمهور العلماء: لا فضيلة في شدّ الرّحال إلى مسجد غيرها. وقال الشيخ أبو محمد الجويني من أصحابنا: يحرم شدُّ الرّحال إلى غيرها وهو غلط!! »[3].

٢ ـ القول الراجح في هذه المسألة:

قلت: ما قاله الشيخ أبو محمَّد الجويني هو الصحيح، الذي لا ينبغي العدول عنه ألبتَّة، وما ذكره النّووي من الخلاف عن بعض متأخري الشافعية، ضعيف وفيه تأويل متعسف، لاسيما وقد ورد الحديث عند أحمد بلفظ: «لا ينبغي للمطي أن تعمل..»[3].

ولقد ذهب الحافظ ابن حجر في الفتح إلى أن لفظ «ينبغي» أنه ظاهر في غير

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص (٩/١٤٢).
(٢) شرح صحيح مسلم ص ٩/٨٩.
(٣) شرح صحيح مسلم، ص (٩/١٤٢).
(٤) أخرجه أحمد في المسند، ص (٣/ ٦٣)، الكتب الستة (٢٢).

التحريم، متعقب بما قاله الشيخ عبدالعزيز بن باز في تعليقه على «الفتح» .

فقال ـ رحمه الله ـ: «ليس الأمر كما قال، بل هو ظاهر في التَّحريم والمنع، وهذه اللفظة في عرف الشارع شأنها عظيم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾[1]، وقوله: «قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتَّخذ من دونك من أولياء[2]»[3].

ومن كل ما سبق يعلم أن الإمام النووي كان مجانبًا للصواب في هذه المسألة. غفر الله تعالى لنا وله ورحمه، وبالله التوفيق .

* * *

---

(١) سورة مريم، الآية: ٩٢ .

(٢) سورة الفرقان، الآية: ١٨ .

(٣) فتح الباري ص (٦٥/ ٣)، ومن أراد الاستزادة في هذا المضوع فليراجع كتاب محمد عبدالهادي في «المنكى في الرد على السبكي»، وكتاب «أوضح الإشارة في الرد على من أجاز الممنوع من الزيارة»، للشيخ أحمد ابن يحيى النجمي .

المطلب السادس

منهجه في نواقض التوحيد

إن بيان نواقض التوحيد من تمام توضيح التوحيد، ومعرفة هذه النواقض من تمام تحقيق التوحيد. ولذلك كان الكلام في هذا الأمر من المطالب العالية، وقد أشار إلىٰ هذه الأهمية الشيخ الإمام عبدالله ابن الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب[1] - رحمهم الله - في مقدمة كتابه «الكلمات النافعة في المكفرات الواقعة»، حيث قال: «أعلم أنّ هذه المسائل من أهم ما ينبغي للمؤمن الاعتناء به، لئلا يقع في تلك منها وهو لا يشعر. وليتبين له الإسلام والكفر حتىٰ يتبين له الخطأ من الصواب، ويكون علىٰ بصيرة في دين الله. ولا يغتر بأهل الجهل والارتياب وإن كانوا هم الأكثرين عدداً، فهم الأقلون عند الله وعند رسوله والمؤمنين قدراً. وقد اعتنىٰ العلماء - رضي الله عنهم - بذلك في كتبهم، وبّوبوا لذلك في كتب الفقه في كلّ مذهب من المذاهب الأربعة، وهو (باب حكم المرتدّ)، وهو المسلم الذي يكفر بعد إسلامه، وذكروا أنواعًا كثيرة من كلّ نوع منها يكفر به المسلم ويبيح دمه وماله . . .»[2].

---

(١) كان من كبار علما الجزيرة، ولد في الدرعية سنة (١١٦٥ هـ)، وبرز في علوم عديدة، واضطلع بالدعوة، وألف الكتب والرسائل في نصرة الدين والدفاع عن العقيدة، وكان معروفًا بالشجاعة، شارك في قتال إبراهيم باشا، وجنده حين طوفوا الدرعية ونقله إبراهيم باشا إلىٰ مصر بعد سقوط الدرعية في يده، فظل بها حتىٰ توفي سنة (١٢٤٤هـ) رحمه الله. انظر: علماء نجد خلال ستة قرون، للشيخ عبدالله بن عبدالرحمن البسام ص (١٦٩ - ١٧٩/ ١).

(٢) الكلمات النافعة في المكفرات الواقعة، للشيخ عبدالله بن محمد بن عبدالوهاب. ص(٣)، وكتاب مجموعة التوحيد النجدية ص (٢٨٢ - ٢٨٣).

ومن العلماء الذين اعتنوا بالكلام على هذه الأمور التي تناقض التوحيد الإمام النووي في كتابه (شرح صحيح مسلم)، حيث تعرضّ فيه لبيان بعض الأمور التي تنافي التوحيد من الأقوال والأعمال والاعتقادات، وحذّر منها، وبيّن خطرها، مستنبطًا كلّ ذلك من الأحاديث أو الآيات، مستدلاً عليه بها .

وقد رأيت أن أجعل كلّ ناقض من النواقض التي تكلم عليها الإمام في مسألة على حدة، ليتضح بذلك منهجه في هذا البيان وهي كما يأتي :

المسألة الأولى : وجوب ترك واجتناب ما ينافي التوحيد

تكلم الإمام النووي في بيان معنى «النصيحة لله» والواردة في حديث تميم الداري ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة، قلنا لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[1] .

وبين أن معنى النصيحة لله فقال: «فمعناها منصرف إلى الإيمان، ونفي الشريك عنه وترك الإلحاد في صفاته ووصفه بصفات الكمال والجلال كلها، وتنزيهه سبحانه وتعالى من جميع النقائص والقيام بطاعته واجتناب معصيته، والحب فيه والبغض فيه، وموالاة من أطاعه ومعاداة من عصاه وجهاد من كفر به والاعتراف بنعمته وشكره، عليها، والإخلاص في جميع الأمور، والدعاء إلى جميع الأوصاف المذكورة والحث عليها . . . »[2] .

وتكلم الإمام أيضًا على قوله ﷺ: «إذا قال المؤذن الله أكبر الله أكبر» فقال أحدكم الله أكبر الله أكبر إلى آخره الحديث»[3] .

قال الإمام، قال القاضي: «واعلم أنّ الآذان كلمة جامعة لعقيدة الإيمان مشتملة

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٣٣/ ٢) .

(٢) المرجع السابق ص ٣٣/ ٢ .

(٣) المرجع السابق ٣٣/ ٢ .

على نوعيه من العقليات والسمعيات فأوله إثبات الذات وما يستحقه من الكمال والتنزيه عن أضدادها وذلك بقوله الله أكبر وهذه اللفظة مع اختصار لفظها دالة على ما ذكرناه ثم صرح بإثبات الوحدانية ونفي ضدها من الشركة المستحيلة في حقه سبحانه وتعالى وهذه عمدة الإيمان والتوحيد المقدمة على كل وظائف الدين»[١] .

وفيما قاله الإمام في بيانه معنى النصيحة على أن ما ينافي التوحيد أمورًا كثيرة متداخلة في مجموعها في جانب صرفها إلى غير الله تعالى وهي العبادة بكل أنواع ونحوها، وكل هذه النواقض تنافي التوحيد الذي هو أصل الأصول والمقدم على كل وظائف الدين .

المسألة الثانية: الشرك

تعرض الإمام في بعض المواضع لموضوع الشرّك، فبيّن خطره في الدين، وذكر بعض أسباب الشرك ووسائله التي يكثر وقوعه بها وتجب إزالتها سدًا للذريعة، وحسمًا لمادة الشرّك وتوضيح ذلك كما يأتي :

(أ) تعريف الشرّك

لقد عرف الإمام الشرك وفرق بينه وبين الكفر فقال: «ثم إن الشرك والكفر يطلقان بمعنى واحد وهو الكفر بالله تعالى، وقد يفرق بينهما فيخص الشرك بعبادة الأوثان وغيرها من المخلوقات مع اعترافهم بالله تعالى ككفار قريش، فيكون الكفر أعم من الشرك والله أعلم»[٢] .

ويفهم من هذا معنى الشرك، أن يتخذ العبد مع الله شريكًا في الإلهية كما فسر الإمام الآيات الخمس الأولى من سورة المدثر وبين أن قوله تعالى ﴿والرجز فأهجر﴾[٣] بقوله (والرجز بكسر الراء في قراءة الأكثرين وقرأ حفص بضمها وفسره

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص (٧٧/ ٤) .

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص (٦٢/ ٢) .

(٣) سورة المدثر، الآية: [٥].

في الكتاب بالأوثان، وكذلك قال جماعة من المفسرين والرجز في اللغة العذاب، وسمى الشرك وعبادة الأوثان (رجزًا) لأنه سبب العذاب، وقيل المراد بالرجز في الآية الشرك، وقيل الذنب، وقيل الظلم والله أعلم)[1].

ويؤيد ما قاله الإمام أن الرجز ـ في الآية ـ قد فسّر بتفسيرين ذكرهما الإمام الطبري، فقيل: الرجز هو الأصنام والأوثان التي عبدت مع الله أمره أن يهجرها، فلا يأتيها ولا يقربها.

وقيل: «الرجز معناه المعصية والإثم، فيكون أمرًا له بترك الذنوب صغارها وكبارها ظاهرها وباطنها، فيدخل في هذا الشرك فما دونه»[2].

وقال الإمام في موضع آخر موضحًا ما يشمله لفظ المشرك فقال: قوله ﷺ: (حنيفًا وما أنا من المشركين)[3] بيان للحنيف وإيضاح لمعناه، والشرك يطلق على كل كافر من عابد وثن وصنم ويهودي ونصراني ومجوسي ومرتد وزنديق وغيرهم»[4].

كما أنه سار على مذهب السلف في تفسير «الظلم» الوارد في الآية الكريمة ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾[5]. فسره بالشرك والذي هو أظلم الظلم لأنه عبادة غير الله تعالى مع الله فقال ـ رحمه الله ـ وأعلم النبي ﷺ أن الظلم المطلق هنا المراد به هذا المقيد وهو الشرك . . .

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص (٨٨/ ٢).

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، والطبري ص (١٤٧ ـ ١٤٨/ ٢٩)، وانظر أيضًا «الفتح» ص(٨/ ٦٧٩)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي، ص (٥٠٩/ ٧).

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ٥١/ ٦ برقم (٧٧١).

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص (٥١/ ٦).

(٥) سورة الأنعام، الآية: ٨٢.

ثم قال: «وأصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه ومن جعل العبادة لغير الله تعالىٰ فهو أظلم الظالمين . . . »[1].

وهذا هو حقيقة معنىٰ الشرك في الدين، وهو معنىٰ ما جاء في حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: «سألت النبي ﷺ أي الذنب أعظم عند الله ؟ قال: «أن تجعل لله ندًا وهو خلقك»[2].

قال شيخ الإسلام: «أصل الشرك أن تعدل بالله تعالىٰ مخلوقاته في بعض ما يستحقه وحده، فإنّه لم يعدل أحد بالله شيئًا من المخلوقات في جميع الأمور، فمن عبد غيره، أو توكل عليه، فهو مشرك به»[3].

(ب) خطر الشرك

قال الإمام في باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده في شرح حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: «سألت رسول الله ﷺ أي الذنب أعظم عند الله قال: أن تجعل لله ندًا وهو خلقك»[4].

« أما أحكام هذا الحديث ففيه أن أكبر المعاصي الشرك، وهذا ظاهر لا خفاء فيه»[5].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص (١٢٣/ ١٢) .

(٢) أخرجه البخاري مع الفتح ص (١٦٣/٨) برقم (٤٤٧٧)، وفي مواضع أخرىٰ، ومسلم في الإيمان برقم (١٤١) .

(٣) الاستقامة، لشيخ الإسلام ابن تيمية ص (٣٤٤/ ١).

(٤) تقدم تخريجه .

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي ص (٧٠/ ٢) .

كما مر معنا سابقًا تفسيره للظلم الوارد في الآية الكريمة ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ** ﴾[1].

وروى الإمام مسلم - رحمه الله - حديث عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: «لما نزلت: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ** ﴾ شق على أصحاب رسول الله ﷺ: «وقالوا أينا لا يظلم نفسه فقال الرسول ﷺ ليس هو كما تظنون إنما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿ **يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ** ﴾[2]» [3].

بين الإمام في شرحه أن المراد بالظلم - في الآية الأولى - أعلى أنواعه وهو الشرك فقال: (هكذا وقع الحديث في صحيح مسلم، ووقع في صحيح البخاري لما نزلت الآية قال أصحاب رسول الله ﷺ: «أينا لم يظلم نفسه فأنزل الله تعالي إن الشرك لظلم عظيم فهاتان الروايتان أحداهما تبين الأخرى فيكون لما شق عليهم أنزل الله تعالى - وإن الشرك لظلم عظيم» وأعلم النبي ﷺ أن الظلم المطلق هنا المراد به هذا المقيد وهو الشرك ثم قال: «وأصل الظلم وضع الشيء في غير موضعه ومن جعل العبادة لغير الله تعالى فهو أظلم الظالمين . . . »[4].

وقال الإمام في شرحه حديث: «تبايعوني على ألا تشركو بالله شيئًا ولا تزنوا ولا تسرقوا ولا تقتلوا النفس التي حرم الله . . إلى قوله: ومن أصاب شيئًا من ذلك فستره الله عليه فأواه إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه»[5]. وأعلم أن هذا الحديث عام

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٨٢.

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٣.

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووي ص (١٢٣/ ٢).

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص (١٢٣/ ٢).

(٥) أخرجه مسلم بشرح النووي ص(١٨٥/ ١١)، تاب الحدود باب الحدود كفارة لأهلها برقم (١٧٠٩).

مخصوص وموضع التخصيص قوله ﷺ: «ومن أصاب شيئًا من ذلك» المراد به سوىٰ الشرك وإلا فالشرك لا يغفر له وتكون عقوبته كفارته له»[1].

وفي قوله ﷺ: (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قول الزور وشهادة الزور)[2]. قال الإمام: «فليس علىٰ ظاهره المتبادر إلىٰ الإفهام منه وذلك لأن الشرك أكبر منه بلا شك وكذا القتل. . .»[3].

وكلّ ما سبق من كلام الإمام يبيّن خطر الشرك علىٰ الإنسان، ولذلك وجب عليه وجوبًا مؤكّدًا أن يهتم بهذا الأمر، ويحذر منه أشد الحذر، كما قال الإمام محمد بن عبدالوهاب[4] ـ رحمه الله ـ: «إذا دخل الشرك في العبادة فسدت، كالحدث إذا دخل في الطهارة، فإذا عرفت أنّ الشّرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل وصار صاحبه من الخالدين في النار، عرفت أن أهمّ ما عليك معرفة ذلك، لعلّ الله أن يخلّصك من هذه الشّبكة، وهي الشرك بالله الذي قال الله تعالىٰ فيه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[5]»[6].

ج – أسباب الشرك ووسائله ووجوب إزالتها

قال الإمام ـ عند شرح قوله ﷺ: «لا تجلسوا علىٰ القبور ولا تصلوا إليها»[7] (فيه

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص (١٨٦/ ١١).

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي ١٨٥/ ١١ برقم (١٧٠٩) ص ٧١/ ٢ برقم (١٤٣).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص (٧٦/ ٢).

(٤) سبق ترجمته ص ٥.

(٥) سورة النساء، الآية: ١١٦.

(٦) مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبدالوهاب ضمن مجموعة التوحيد النجدية رسالة القواعد الأربع (الرسالة الرابعة) ص (٢٥٤).

(٧) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ٣٣ برقم (٩٧٢).

تصريح بالنهي عن الصلاة إلىٰ قبر، قال الشافعي رحمه الله: «وأكره أن يعظم مخلوق متىٰ يجعل قبره مسجداً مخافة الفتنة عليه وعلىٰ من بعده من الناس»[1]، وقال: «قال العلماء الجاهلية ما قبل ورود الشرع سموا جاهلية لكثرة جهالتهم وفحشهم»[2].

وأشار الإمام - في مواضع أخرىٰ - إلىٰ بعض الأمور التي يفتتن بها الناس، ويقعون في الشرك بسببها ليحذر منها.

١ - تعظيم قبور الأنبياء والصالحين

ومما ورد في ذلك حديث عائشة وعبدالله بن عباس - رضي الله عنهم - قالا: لما نزل رسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة[3] له علىٰ وجهه، فإذا اغتنم بها كشفها عن وجهه فقال - وهو كذلك -: «لعنة الله علىٰ اليهود والنصارىٰ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر مثل ما صنعوا[4].

قال الإمام: «قال العلماء: إنما نهىٰ النبي ﷺ عن اتخاذ قبره وقبر غيره مسجداً خوفًا من المبالغة في تعظيمه والافتتان به، فربما أدىٰ ذلك إلىٰ الكفر كما جرىٰ لكثير من الأمم الخالية»[5].

قلت: الإمام هنا يقرّ بأن التعظيم للقبور من الأمور المؤدية إلىٰ الشرك التي يجب

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٣٢ - ٣٣/ ٧).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص (١٩/ ٥).

(٣) الخميصة: ثوب خزّ أو صوت معلم. وقيل: لا تسمىٰ خميصة إلا أن يكون سوداء معلمة، وكانت من لباس الناس قديمًا، جمعها: الخمائص «الذيل» علىٰ النهاية في غريب الحديث» ص(١٥٣)، والنهاية لابن الأثير ص (٨٠ - ٨١/ ٢).

(٤) أخرجه البخاري مع الفتح، ص (٥٣٢/ ١)، برقم (٤٣٦)، ومسلم في المساجد برقم (٢٢).

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي ص (١٢/ ٥).

الحذر والتحذير منها، وقد سبق بيان موقفه من التبرك بقبور الصالحين وأنه يجيز ذلك، إلاّ أنه مع هذا التجويز يحذّر من تعظيم القبور ويمنع التّبرك بالقبور إذا كان على وجه يؤدي إلىٰ تعظيمها واتخاذها مساجد، ويدل علىٰ هذا قوله في شرح هذا الحديث: «ولولا ذلك لأبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذو مسجدًا، والله تعالىٰ أعلم بالصواب»(١).

وفي كلامه هنا بيان أن المنع كان سدًا للذريعة، وهو الوجه الأقوىٰ عند الحافظ ابن حجر حيث قال في كتابه «الفتح» «وقد يقول بالمنع مطلقًا من يرىٰ سدّا لذريعة، وهو هنا متّجه قويّ»(٢).

وهذا كما قال الشيخ العلامة ابن باز ـ رحمه الله ـ تعليقًا علىٰ كلام الحافظ: «هو الحق، لعموم الأحاديث الواردة بالنهي عن اتخاذ القبور مساجد، ولعن من فعل ذلك، ولأن بناء المساجد علىٰ القبور من أعظم وسائل الشرّك بالمقبورين فيها والله أعلم»(٣).

ولقد كان من منهج السّلف الصالح محاربة الشرك بجميع أنواعه، وإزالة كل ما يفتتن به النّاس، ويؤدّي بهم إلىٰ الشرّك.

قال: في شرحه باب الأمر بتسوية القبر» عند شرح رواية ثُمامة ابن شفي حدثه، قال: كنا مع نضالة بن عبيد بأرض الروم. . . . . فتوفي صاحب لنا فأمر فضالة بن عبيد بقبره فسوي. ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها»(٤).

قال الإمام: (قوله يأمر بتسويتها، وفي الرواية الأخرىٰ ـ ولا قبرًا مشرفًا إلا

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص (١٢ ـ ١٣/ ٥).

(٢) فتح الباري ص (٢٠٨/ ٣).

(٣) المصدر نفسه، هامش (١).

(٤) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ٣٠/ ٧ برقم (٩٦٨).

سويته» فيه أن السنة أن القبر لا يرفع على الأرض رفعًا كثيرًا ولا يسم بل يرفع نحو شبر ويسطح. وهذا مذهب الشافعي ومن وافقه، ونقل القاضي عياض عن أكثر العلماء الأفضل عندهم تسنيمها وهو مذهب مالك»[1].

وقال: (قال أصحابنا: تجصيص القبر مكروه والقعود عليه حرام، وكذا الاستناد إليه والإتكاء، وأما البناء عليه فإن كان في ملك الباني فمكروه وإن كان في مقبرة سبلة فحرام. نص عليه الشافعي والأصحاب، قال الشافعي في الأم: «ورأيت الأئمة بمكة يأمرون بهدم ما يبنى ويؤيد الهدم قوله: ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته»[2].

٢ - تعظيم صور الأنبياء والصالحين ونحوهما

ويدل على ذلك حديث علي بن أبي طالب، أنه قال: لأبي الهياج الأسدي: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ أنّ لا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته»[3].

قال الإمام: «قوله أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته، فيه الأمر بتغيير صور ذات الأرواح»[4].

وقال معلقًا على قول عمر بن الخطاب: أم والله لقد علمت أنك حجر ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك» وفي رواية وإني لأعلم أنك حجر وأنك لا تضر ولا تنفع»[5] قال الإمام، (وإنما قال وإنك لا تضر ولا تنفع لئلا يغتر بعض قريبي العهد بالإسلام الذين كانوا ألفوا عبادة الأحجار وتعظيمًا ورجاء نفعها وخوف الضرر بالتقصير في تعظيمها وكان العهد قريبًا بذلك»[6].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص (٧/٣١).
(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص (٧/٣٢).
(٣) أخرجه مسلم بشرح النووي ص (٧/٣٠)، برقم (٩٣) كتاب الجنائز.
(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص (٧/٣١).
(٥) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ١٤-١٥ برقم (١٢٧٠).
(٦) المصدر نفسه ص (١٤-١٥/٩).

٣ - صنع الأصنام

آخرج مسلم في صحيحه حديث عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أشد الناس عذابًا يوم القيامة المصورون»[١].

قال الإمام في شرحه: «قيل: هي محمولة على فعل الصورة لتعبد وهو صانع الأصنام ونحوها فهذا كافر وهو أشد عذابًا، وقيل: هي فيمن قصد المعنى الذي في الحديث من مضاهاة خلق الله تعالى وأعتقد ذلك فهذا كافر له أشد العذاب ما للكفار ويزيد عذابه بزيادة قبح كفره فأما من لم يقصد بها العبادة ولا المضاهاة فهو فاسق صاحب ذنب كبير ولا يكفر كسائر المعاصي»[٢].

٤ - المصورون واتخاذ الصور

قال في شرح قوله ﷺ: «إن أصحاب هذه الصور يعذبون ويقال لهم أحيوا ما خلقتم». أما قوله ﷺ: «يقال لهم أحيوا ما خلقتم، فهو الذي يسميه الأصوليون أمر بتعجيز كقوله تعالى: ﴿قل فأتوا بعشر سور مثله﴾، ثم قال: «وهذه الأحاديث صريحة في تحريم تصوير الحيوان وأنه غليظ التحريم»[٣].

٥ - مدح وتعظيم غير الله

لقد تعرض الإمام لهذه المسألة في مواضع منها قوله في شرح باب صدق الإيمان وإخلاصه فقال: قال القاضي: «وأما ما يرويه الأخباريون والمفسرون أن سبب ذلك ما جرى على لسان رسول الله ﷺ من الغناء على آلهة المشركين في سورة النجم فباطل لا

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي ص (٧٨/ ١٤) برقم (٩٨) كتاب اللباس.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص (٧٨/ ٤٤).

(٣) المصدر نفسه ص (٧٦-٧٧/ ١٤).

يصح فيه شيء لا من جهة النقل ولا من جهة العقل لأن مدح إلاه غير الله تعالىٰ كفر ولا يصح نسبة ذلك إلىٰ لسان رسول الله ﷺ ولا أن يقوله الشيطان علىٰ لسانه ولا يصح تسليط الشيطان إلىٰ ذلك والله أعلم»[1].

وأيضًا قال، قال العلماء: «والحكمة في هذا أن بعض الجاهلية الضلال كانوا يعظمون الشمس والقمر فبين أنها أيتان مخلوقتان لله تعالىٰ لا صنع لهما بل هما كسائر المخلوقات يطرأ عليها النقص والتغيير كغيرهما وكان بعض الضلال من المنجمين وغيرهم يقول لا ينكسفان إلا لموت عظيم أو نحو ذلك فبين أن هذا باطل لا يغتر بأقوالهم لاسيما قد صادف موت إبراهيم رضي الله عنه»[2].

فبين - رحمه الله - أن تعظيم غير الله سواء عن طريق المدح أو عن طريق جعل له قوة تأثير في إيجاد الحوادث والأشياء هو كفر منهي عنه. والله أعلم.

المسألة الثالثة: الكفر وأنواعه:

تكلم الإمام: علىٰ الكفر في بعض المواضع من الفتح، واشتمل كلامه في ذلك علىٰ ما يأتي.

أ - تعريف الكفر شرعًا

ذكر الإمام عدة معاني للكفر لغة وشرعًا، وأما التي في الشرع وهي التي اهتم ببيانها في كذا موضع فقال في شرح حديث الرسول ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»[3]. قال: «قيل في معناه سبعة أقوال: أحدهما: أن ذلك كفر في حق المستحل بغير حق، والثاني: المراد كفر النعمة وحق الإسلام، والثالث: أنه يقرب من الكفر ويؤدي إليه، والرابع: أنه كفعل الكفار، والخامس:

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص (١٢٣/ ٢).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص (١٧٨/ ٦).

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ٤٨، برقم (٦٥).

المراد حقيقة الكفر، ومعنا لا تكفر وابل دوموا مسلمين، والسادس: حكاه الخطابي وغيره أن المراد بالكفار المتكفرون بالسلاح، يقال تكفر الرجل بسلاحه إذا لبسه قال الأزهري في كتابه تهذيب اللغة: يقال للابس السلاح كافر»[1].

وقال أيضًا: (وأما قوله: وهذا يومئذ كافر بالعرش فالإشارة بهذا إلىٰ معاوية بن أبي سفيان وفي المراد بالكفر هنا وجهان:

أحدهما: ما قاله المازري وغيره المراد وهو مقيم في بيوت مكة قال ثعلب يقال: اكتفر الرجل إذا لزم الكفور، وهي القرئ وفي الأثر عن عمر - رضي الله عنه - أهل الكفور هم أهل القبور يعني القرئ البعيدة عن الأمصار وعن العلماء.

والوجه الثاني: «المراد الكفر بالله تعالىٰ والمراد أنا تمتعنا ومعاوية يومئذ كافر علىٰ دين الجاهلية، مقيم بمكة وهذا إختيار القاضي وغيره وهو الصحيح المختار»[2].

وقال في موضع آخر عند شرح قوله ﷺ: «يا معشر النساء تصدقن وأكثرن من الإستغفار فإني رأيتكن أكثر أهل النار، فقالت أمرأة منهن جزلة، ومالنا يا رسول الله أكثر أهل النار؟ قال: تكثرن اللعن وتكفرن العشير . . »[3].

قال الإمام: «وفيه إطلاق الكفر علىٰ غير الكفر بالله تعالىٰ ككفر العشير والإحسان والنعمة والحق، ويؤخذ من ذلك صحة تأويل الكفر في الأحاديث المتقدمة علىٰ ما تأولناها» [4].

كما أشار - رحمه الله - إلىٰ أن للكفر معان أخرىٰ في الشرح ومن تلك المعاني كفر إبليس قال عنه عند شرحه قوله ﷺ: «إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص (٤٨/ ٢).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص (١٦٧/ ٨).

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ٥٧٠/ ٢ برقم (٧٩).

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص (٥٨/ ٢). وانظر ص (١٨٨/ ٦).

الصلاة»[1] مقصود مسلم ـ رحمه الله ـ بذكر هذين الحديثين هنا أن من الأفعال ما تركه يوجب الكفر إما حقيقة وإما تسمية، فأما كفر إبليس بسبب السجود فمأخوذ من قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾[2]. قال الجمهور: معناه وكان في علم الله من الكافرين، وقال بعضهم: وصار من الكافرين كقوله تعالى: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾[3]»[4].

قلت: لم يورد الإمام تعريفًا بين فيه جميع معاني الكفر في الشرع، ولكن نصوصه التي جمعتها عنه في شرحه يتضح من خلالها أنه شمل بكلامه تلك المعاني، وبالتالي تأكد أن معنى الكفر في الشرع أعم من الجحود[5]. كما بين ذلك عند شرح الحديث السابق فقال: «وأما تارك الصلاة فإن كان منكرًا لوجوبها فهو كافر بإجماع المسلمين خارج عن ملة الإسلام»[6]. فمن معاني الكفر أيضًا ترك الصلاة أو السجود، وهذا هو كفر الإباء والاستكبار كما هو كفر إبليس والله أعلم.

ب - الفرق بين الكفر والشرك في الاصطلاح الشرعي

يتبين من معنى كلّ من الشّرك والكفر في الشّرع أنّ الكفر أعمّ من الشرك لأن الشرك يتعلّق باتخاذ شريك مع الله فيما يستحقه وحده، والكفر يتعلق بجحد ما هو معلوم من الدين بالضرورة أو الشك فيه، أو تركه إباءً واستكباراً مع عدم الجحود، فيدخل في ذلك الشرك بالله، وسائر الأعمال المضادة للإيمان، ويدلّ على ذلك قوله

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص (٦٢/ ٢)، كتاب الإيمان باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة برقم (٨٢).

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٤.

(٣) سورة هود، الآية: ٤٣.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص (٦١/ ٢).

(٥) مدارج السالكين للإمام ابن القيم الجوزية ص (٣٤٦/ ١).

(٦) شرح صحيح مسلم للنووي ص (٦١/ ٢).

تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ﴾[1]. حيث فرّق الله تعالى بين المشركين وبين الكفّار من أهل الكتاب. لأن كفر هؤلاء لم يكن من باب الشرك، بل من باب الإباء والاستكبار، كما قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾[2].

وهذا لا يمنع أن يرد الشرك مراداً به ما هو أعم من معناه الخاص فيكون بمعنى مطلق الكفر، وذلك بحسب المقام.

وقد بيّن ذلك الإمام النووي حيث قال: قوله ﷺ: «فإن هم أبوا فسلهم الجزية فإن هم أجابوك فأقبل منهم وكف عنهم»[3]. وقال أيضاً: «يتأول هذا الحديث على أن المراد بأخذ الجزية أهل الكتاب لأن اسم المشرك يطلق على أهل الكتاب وغيرهم، وكان تخصيصهم معلوماً عند الصحابة»[4].

وقال -رحمه الله-: «ثم إن الشرك والكفر يطلقان بمعنى واحد وهو الكفر بالله تعالى، وقد يفرق بينهما فيخص الشرك بعبدة الأوثان وغيرها من المخلوقات مع اعترافهم بالله تعالى ككفار قريش، فيكون الكفر أعم من الشرك» والله أعلم[5].

فيتبين لنا أن الشرك قد يراد به الكفر، وهذا النوع من الشرك يطلق على من أنكر نبوة محمد ﷺ مثلاً فهذا يسمى كافراً ولو لم يجعل مع الله إلهاً آخر، والمغفرة منتفية عنه بلا خلاف.

---

(١) سورة البينة، الآية: ٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٨٩.

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ٣٣/ ١٢ برقم (١٧٣١).

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص (٣٥/ ١٢).

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي ص (٦٢/ ٢).

ج – حكم أطفال المشركين في الآخرة

نقل النووي عند شرحه لحديث الصعب بن جثامة قال: (سئل النبي ﷺ عن الذراري من المشركين، يبيتون فيصيبون من نسائهم وذراريهم فقال «هم منهم»[1] ثلاثة أقوال ورجح الأول فهم في الجنة، وهذا نص كلامه: «وفيه أن أولاد الكفار حكمهم في الدنيا حكم أبائهم، وأمّا في الآخرة ففيهم إذا ماتوا قبل البلوغ ثلاثة مذاهب. الصحيح أنهم في الجنة، والثاني: في النار، والثالث لا يجزم فيهم بشيء. والله أعلم)[2].

وأعاد بشيء من التفصيل والتدليل - الكلام على هذه المسألة المهمة فقال عند قوله ﷺ: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة»[3].

ما نصه (وأما أطفال المشركين، ففيهم ثلاثة مذاهب، قال الأكثرون: هم في النّار تبعًا لأبائهم. وتوقفت طائفة فيهم، والثالث: وهو الصحيح الذي ذهب إليه المحققون أنهم من أهل الجنة ويستدل به بأشياء منها: حديث إبراهيم الخليل ﷺ، حين رأه النبي ﷺ في الجنة، وحوله أولاد الناس، قالوا: يا رسول الله وأولاد المشركين؟ قال: «وأولاد المشركين» رواه البخاري في صحيحه.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً﴾[4] ولا يتوجّه على المولود التكليف ويلزمه قول الرسول حتى يبلغ، وهذا متفق عليه، والله أعلم[5].

قلت: المذاهب في أولاد المشركين أكثر من ثلاثة، وقد أوصلها ابن القيم إلى ثمانية، والراجح منها هو الثامن وهو الموافق للأدلة كلها، قال ابن القيم - رحمه الله تعالى - بعد أن ذكرًا أقوالاً ومذاهب سبعة، وأردفها بالثامن، (المذهب الثامن: أنهم

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ٤٣/ ١٢ برقم (١٧٤٥).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص (٤٤/ ١٢) كتاب الجهاد والسير.

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ١٦٩/ ١٦ برقم (٢٦٥٨).

(٤) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي ص (١٧٠ - ١٧١/ ١٦).

يمتحنون في عرصات القيامة، ويرسل إليهم رسول وإلىٰ كل من لم تبلغه الدعوة، فمن أطاع الرسول دخل الجنة، ومن عصاه أدخله النّار. وبهذا يتألف شمل الأدلة كلها، وتتوافق الأحاديث، ويكون معلوم الله الذي أحال عليه النبي ﷺ حيث يقول: «الله أعلم بما كانوا عاملين»[1].

يظهر حينئذ، ويقع الثواب والعقاب عليه حال كونه معلومًا علمًا خارجيًا لا علمًا مجردًا، ويكون النبي ﷺ قد ردّ جوابهم إلىٰ علم الله بهم، والله يرد ثوابهم وعقابهم إلىٰ معلومة منه، والخبر عنهم مردود إلىٰ علمه، ومصيرهم مردود إلىٰ معلومة»[2].

ثمّ دعم هذا القول بأحاديث صحيحة صريحة كثيرة منها:

قوله: «وقد جاءت بذلك آثار كثيرة مؤيد بعضها بعضًا فمنها: ما رواه الإمام أحمد[3]، والبزار[4]، والبيهقي[5] أيضًا بإسناد صحيح. فقال الإمام أحمد: حدثنا معاذ بن هشام عن أبيه عن قتادة عن الأحنف بن قيس عن الأسود بن سريع أنّ النبي ﷺ قال: «أربعة يحتجون يوم القيامة: رجل أصم لا يسمع، ورجل هرم، ورجل

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح كتاب الجنائز باب ما قيل في أولاد المشركين، ص(٢٤٥/ ٣)، ومسلم بشرح النووي ص (٢٧٢/٦) برقم (٢٦٥٩).

(٢) طريق الهجرتين ص (٦٥٢-٦٥٧).

(٣) في المسند ص (٥٤/ ٤) ضمن كتاب الكتب الستة:

وفي الزوائد للبزار برقم (٢١٧٧)، تحقيق صبري عبدالخالق أبو ذر، الطبعة الأولي مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت سنة ١٤١٢هـ.

(٤) مختصر مسند زوائد مسند البزار علىٰ الكتب الستة ومسند أحمد للحافظ ابن حجر ص(١٦٠/ ٢) برقم (١٦١٧).

(٥) في الاعتقاد ص (١٦٩).

أحمق، ورجل مات في الفترة، أما الأصم فيقول: ربّ لقد جاء الإسلام وأنا ما أسمع شيئًا وأما الأحمق فيقول: ربّ لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفونني بالبعر. وأما الهرم فيقول: ربّ لقد جاء الإسلام وما أعقل. وأما الذي في الفترة فيقول ربّ ما أتاني رسول. فيأخذ مواثيقهم ليطيعنّه. فيرسل إليهم رسولاً أن أدخلوا النّار. فو الذي نفسي بيده لو دخلوها لكانت عليهم بردًا وسلامًا»[1].

ثم ذكر أحاديث أخرىٰ في هذا الباب منها: حديث معاذ عند الطبراني في «المعجم الكبير» وفيه: «بالها لك صغيراً . . . »، وفيه: «ويقول الهالك صغيراً: يا رب لو أتيتني عمراً ما كان من أتيته عمراً بأسعد مني».

فيقول الرّب ـ سبحانه ـ لئن أمرتكم بأمر فتطيعوني؟ . . . ، وذكر نحو الحديث السابق»[1].

وذكر المولود في حديث أنس، عند البزار في المسند[2]، وأبي يعلىٰ في المسند[3]، والبيهقي في الاعتقاد[4].

وورد أيضًا في حديث أبي سعيد الخدري عند البغوي في «الجعديات»[5]، والبزار في المسند[6].

---

(١) المعجم الكبير ص (٨٣ـ٨٤/ ٢٠) برقم (١٥٨).

(٢) رواه البزار في مسنده برقم (٢١٧٧)، زوائده.

(٣) رواه أبو يعلىٰ في مسنده برقم (٤٢٢٤)، دار الثقافة العربية، دمشق، ص (٢٢٥/ ٧) تحقيق حسين سليم أسد، الطبعة الأولىٰ ١٤١٣هـ.

(٤) رواه البيهقي في الاعتقاد ص (٩٢).

(٥) رواه البغوي في الجديعات برقم (٢١٢٦).

(٦) رواه البزار في مسنده وهو في الزوائد برقم (٢١٧٦) زوائده.

وأورد ذلك كله ابن القيم وزاد عليه، ثمّ قال: فهذه الأحاديث يشد بعضها بعضًا، وتشهد لها أصول الشرع وقواعده .

والقول بمضمونها هو مذهب السلف وأهل السنة، نقله عنهم الأشعري - رحمه الله - في «المقالات[1] وغيرها»[2].

وهذا ما صَحّحه البيهقي في كتاب الاعتقاد[3]، وابن تيمية أيضًا[4].

د - أنواع الكفر

أشار الإمام في أكثر من موضع إلى أنواع الكفر، تبين أنّ الكفر نوعان: كفر يخرج من الملّة، وكفر لا يخرج من الملّة .

فالنوع الأول - المخرج من الملة - : هو كفر الشرك، والجحود، وهو موجب للخلود في النّار .

والنوع الثاني - الذي لا يخرج من الملة - : هو كفر النعمة، وهو موجب الاستحقاق للوعيد دون الخلود .

وهذا النوع هو مقصود السلف بقولهم «كفر دون كفر» كما بّوب به الإمام مسلم في صحيحه[5]، وقال الإمام في شرح قوله ﷺ: «إن بين الرجل وبين الشرك والكفر

---

(١) راجع مقالات الإسلاميين، واختلاف المصلين ص (١/٣٤٩).

(٢) طريق الهجرتين ص (٦٥٢ - ٦٥٧) .

(٣) الاعتقاد للبيهقي ص (٩١ - ٩٢) .

(٤) انظر هذه المسألة بالتفصيل في التذكرة (٢/٢٣٧ - ٢٤٤) ، فتح الباري ص (٣/٢٩٠)، والمغني والشرح الكبير (١٠/٦٣٣)

(٥) في كتاب الإيمان الباب رقم (٣٤)، قال: باب بيان نقصان الإيمان بنقص الطاعات وبيان إطلاق لفظ الكفر على غير الكفر بالله ككفر النعمة والحقوق .

ترك الصلاة » مقصود مسلم - رحمه الله - بذكر هذين الحديثين هنا أن من الأفعال ما تركه يوجب الكفر إما حقيقة وإما تسمية . . . »[1]. وقال أيضًا في حكم نسب المطر إلى النوء» (وأما معنى الحديث فاختلف العلماء في كفر من قال مطرنا بنوء كفر على قولين :

أحدهما : هو كفر بالله سبحانه وتعالى سالب لأصول الإيمان مخرج عن ملة الإسلام . . . .

ثم قال : «والقول الثاني : في أصل تأويل الحديث أن المراد كفر نعمة الله تعالى لاختصاره على إضافة الغيث إلى الكوكب وهذا فيمن لا يعتقد تدبير الكوكب»[2].

وقال أيضًا في بيان حكم من صلى بلا طهارة (ولو صلى محدثًا متعمدًا بلا عذر أثم ولا يكفر عندنا وعند الجماهير ، وحكى عن أبي حنيفة - رحمه الله - أنه يكفره بتلاعبه ، ودليلنا أن الكفر للاعتقاد ، وهذا المصلي اعتقاده صحيح ، وهذا كله إذ لم يكن للمصلي محدثًا عذرًا ، أما المعذور كمن لم يجد ماء ولا ترابًا ففيه أربعة أقوال للشافعي - رحمه الله - وهي مذاهب للعلماء . . . »[3].

كما فسر - رحمه الله - قوله تعالى : إنما المشركون نجس ، بنجاسة الاعتقاد فقال - رحمه الله - (فالمراد بنجاسة الاعتقاد والاستقذار وليس المراد أن أعضاءهم نجسة كنجاسة البول والغائط ونحوها . . .)[4].

هذا مجمل ما ذكره الإمام في أنواع الكفر ، هو موافق في ذلك ما يقول به السلف ، وقد ذكر مثله الإمام ابن القيم ، في كتابه «مدارج السالكين»[5].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٦١/ ٢) .

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٥٢ - ٥٣/ ٢)، وانظر ص (٤٧/ ٢)، وص(٤٣/ ٢) .

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٨٨/ ٣) .

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص (٥٨/ ٣) .

(٥) مدارج السالكين ص (٣٤٤ - ٣٤٨/ ١)، وانظر شرح العقيدة الطحاوية ص (٤٤٤/ ٢)، حيث ذكر أن الكفر نوعان : اعتقادي وعملي .

المسألة الرابعة: النفاق وأنواعه:

وتكلم الإمام أيضًا على النفاق، فبين تعريفه وأنواعه شرعًا وذلك ما يأتي:

أ – تعريف النفاق

قال الإمام: «فإن النفاق هو إظهار ما يبطن خلافه»[1].

وقال أيضًا: «لا أنه منافق في الإسلام فيظهره وهو يبطن الكفر»[2].

وقال أيضًا: «والمراد بالإساءة عدم الدخول في الإسلام بقلبه، بل يكون منقادًا في الظاهر مظهرًا للشهادتين غير معتقد للإسلام بقلبه، فهذا منافق باق على كفره بإجماع المسلمين فيؤاخذ بما عمل في الجاهلية قبل إظهار صورة الإسلام وبما عمل بعد إظهاره لأنه مستمر على كفره، وهذا معروف في استعمال الشرع»[3].

ب – أنواع النفاق

إن النفاق نوعان نفاق الكفر، ونفاق العمل ويدخل فيه الفعل والترك، وتتفاوت مراتبه[4].

فقال ـ رحمه الله ـ: «إشارة إلى هذين النوعين في شرح حديث رسول الله ﷺ أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خلة منهن كان فيه خلة من نفاق حتى يدعها، إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا وعد أخلف وإذا أوتمن خان». قال: «وهذا المعنى موجود في صاحب هذه الخصال، ويكون نفاقه في حق من حدثه ووعده وأئتمنه وخاصمه وعاهده من الناس، لا أنه منافق في الإسلام فيظهره وهو يبطن

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص (٤٠/ ٢).

(٢) المصدر نفسه ص (٤١/ ٢).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص (١١٧/ ٢).

(٤) فتح الباري (٨٩/ ١)، وأيضًا ص (١٧٢/ ٢)، وفي الكلام على حديث رقم (٦٤٤).

الكفر ولم يرد النبي ﷺ بهذا أنه منافق نفاق الكفار المخلدين في الدرك الأسفل من النار»[1].

فهذا النوع الأول من النفاق وهو نفاق الكفر أما النوع الثاني فقد أشار إليه عند كلامه على هذا الحديث والمراد بالنفاق فيه والذي رجح أنّ المراد بالنّفاق فيه: نفاق العمل. قال: «وقد نقل الإمام أبو عيسى الترمذي ـ رضي الله عنه ـ معناه من العلماء مطلقا فقال: إنما معنى هذا عند أهل العلم نفاق العمل»[2].

إن هذين النوعين اللذين ذكرهما الحافظ ذكرها أيضًا الإمام ابن القيم، وفصلّ القول فيهما في كتابه المذكور سابقًا [3].

وهذه الأمور الثلاثة التي تقدم ذكرها ـ الشرّك، والكفر، والنفاق ـ هي أصول نواقض التوحيد، وعنها تتفرع بقية النواقض، أعاذنا الله منها.

المسألة الخامسة: الرّياء والسّمعة

الرياء من الأنواع الشركية الخطيرة التي تنافي التوحيد، والرياء (هو ترك الإخلاص في العمل بملاحظة غير الله فيه)[4] والفرق بينه وبين السمعة أن الرياء هو إظهار العمل أو العبادة لقصد رؤية الناس لها ليحمدوه عليه، والسمعة إظهارة العبادة لأجل سماعهم، فالرياء يتعلق بحاسة البصر والسمعة بحاسة السمع، ويدخل فيه أن

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص (٤٠ ـ ٤١/ ٢).

(٢) نفس المصدر ص (٤١/ ٢).

(٣) مدارج السالكين ص (٣٥٤ ـ ٣٦٧/ ١)، وانظر: جامع العلوم والحكم ص(٦٣٤ـ٦٣٥)، شرح حديث أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، الحديث ورقمه (٤٨).

(٤) التعريفات للجرجاني ص ١٢٩.

يخفى عمله لله ثم يحدث به الناس[1] وكلاهما مذموم شرعًا فقد قال رسول الله ﷺ «من سمع سمع الله به ومن يرائي رائي الله به» متفق عليه[2].

وقد تكلم الإمام على الرياء والسمعة في موضع واحد، في شرح (باب تحريم الرياء) الذي عقده مسلم في كتاب الزهد والرقائق من صحيحه .

وفي شرح قوله ﷺ : «من سمع سمع الله به، ومن رايا رايا الله به».

قال الإمام : «ومعناه أنا غني عن المشاركة، وغيرها فمن عمل شيئًا لي ولغيري لم أقبله بل أتركه لذلك الغير، والمراد أن عمل المرائي باطل لا ثواب فيه ويأثم به»[3].

وقال (قوله ﷺ : «من سمع سمع الله به، ومن رايا رايا الله به»، قال العلماء : معناه من رايا بعلمه وسمعه الناس ليكرموه ويعظموه ويعتقدوا خيره سمع الله به يوم القيامة الناس وفضحه، وقيل معناه من سمع بعيوبه وأذاعها أظهر الله عيوبه وقيل اسمعه المكروه وقيل : أراه الله ثواب ذلك من غير أن يعطيه إياه ليكون حسرة عليه، وقيل معناه من أراد بعمله الناس أسمعه الله الناس، ولكن ذلك حظه منه»[4].

المسألة السادسة : الحلف بغير الله تعالى

الحلف لغة : هو تأكيد الشيء بذكر معظمّ بصيغة مخصوصة، بالواو أو الياء أو التاء[5]، وهو من الأعمال الشركية التي ذكرها الإمام النووي ـ رحمه الله ـ وقد ورد في

---

(١) فتح الباري ص ٣٤٤/ ١٠، وتيسير العزيز الحميد ص ٥٢٥ .

(٢) رواه البخاري في كتاب الرقاق باب الرياء والسمعة ص ٣٤٣/ ١٠ برقم ٦٤٩٩، ومسلم في كتاب الزهد والرقاق باب من أشرك في غير الله، ص ٢٢٨٩/ ٤ برقم ٢٩٨٧ .

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص (٩٠/ ١٨) .

(٤) المصدر نفسه ص(٩٠/ ١٨) .

(٥) الفوائد المنتقاة من شرح كتاب التوحيد للشيخ محمد بن صالح العثيمين ص(٤٢) .

الحديث عن النبي ﷺ قال: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»[1].

وتكلم الإمام على الحلف بغير الله في شرح باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى من كتاب الأيمان حيث روى مسلم فيه حديث عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل ينهاكم أن تحلفوا بأبائكم» الحديث[2].

ولقد تناول الإمام موضوع الحلف بغير الله عند شرحه لهذا الحديث بشكل واسع وتطرق إلى مسائل عديدة تتعلق بالحلف بغير الله ذاكراً الخلاف فيها بين أهل العلم، وحكمه، ومعنى النهي عن الحلف بغير الله، وهل تنعقد يمين من حلف بغير الله، والسر في النهي عن ذلك وغير ذلك مما سيأتي بيانه كالتالي:

١ - السر في النهي عن الحلف بغير الله

قال الإمام: قال العلماء: «الحكمة في النهي عن الحلف بغير الله تعالى أن الحلف يقتضي تعظيم المخلوق به وحقيقة العظمة مختصة بالله تعالى فلا يضاهي به غيره»[3].

٢ - حكم الحلف بغير الله

ذكر الإمام أن حكم الحلف بغير الله مكروه فقال: «وفيه النهي عن الحلف بغير أسمائه سبحانه وتعالى وصفاته وهو عند أصحابنا مكروه ليس بحرام»[4].

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي ص (٨٨/ ١١)، برقم (١).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ص(٢٥٣-٢٥٤/ ٥) برقم (١٥٣٥)، وقال: هذا حديث حسن، ص(٢٢٣/ ٣)، برقم (٣٢٥١)، بدون ذكر الكفر، وهو في صحيح الجامع للألباني، برقم (٦٢٠٤).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي (٨٨/ ١١).

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص (٨٩/ ١١).

٣ - معنى النهي عن الحلف بغير الله

قال قوله ﷺ: «**ولا تحلفوا بالطواغي ولا بآبائكم**»، هذا الحديث مثل الحديث السابق في النهي عن الحلف باللات والعزىٰ»[١].

٤ - هل تنعقد يمين حلف بغير الله، أو حلف بغير ملة الإسلام، وهل يعد ذلك يميناً أولاً؟ وهل فيه كفّارة أو لا؟

ذكر الإمام أنها لا تنعقد، وقال: (قال أصحابنا: «إذا حلف باللات والعزىٰ وغيرها من الأصنام أو قال إن فعلت كذا فأنا يهودي أو نصراني أو بريء من الإسلام أو بريء من النبي ﷺ أو نحو ذلك لم تنعقد يمينه»[٢].

وقال «بل عليه أن يستغفر الله تعالىٰ ويقول لاإله إلا الله ولا كفاره عليه سواء فعله أم لا هذا مذهب الشافعي ومالك وجماهيز العلماء وقال أبو حنيفة تجب الكفارة في ذلك إلا في قوله أنا مبتدع أو بريء من النبي ﷺ أو اليهودية واحتج بأن الله تعالىٰ وجب علىٰ المظاهر الكفارة لأنه منكر من القول وزوروا الحلف بهذه الأشياء منكر وزورا واحتج أصحابنا والجمهور بظاهر هذا الحديث فإنه ﷺ إنما أمر بقول لا إله إلا الله ولم يذكر كفارة لأن الأصل عدمها حتىٰ يثبت فيها شرع وأما قياسهم علىٰ الطهارة فينتقض بما استثنوه والله أعلم»[٣].

٥ - الجواب عما وقع في القران من الحلف بغير الله

قال الإمام: «فإن قسم الله تعالىٰ بمخلوقاته كقوله تعالىٰ: ﴿والصافات

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص (٩١/ ١١).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص (٩٠/ ١١).

(٣) المصدر نفسه ص (٩٠/ ١١).

والذاريات والطور والنجم﴾ فالجواب أن الله تعالىٰ يقسم بما شاء من مخلوقاته تنبيهًا علىٰ شرفه»[(١)] .

٦ ـ الجواب بما وقع في بعض الأحاديث مما يخالف ذلك :

كقوله ﷺ للأعرابي : «أفلح وأبيه إن صدق»[(٢)] .

ذكر الإمام في الكلام علىٰ هذه المسألة أن جوابها : «أن هذه كلمة تجري علىٰ اللسان لا تقصد بها اليمين»[(٣)] والله أعلم .

❊ ❊ ❊

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٨٨/ ١١) .

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيح بشرح النووي ص(١٦١ـ١٦٨/ ١)، كتاب الإيمان باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام .

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص(٨٨/ ١١) .

المسألة السابعة: قول ما شاء الله وشئت ونحوه

هذه المسألة تكلم عنها الحافظ في شرح «باب تحقيق الصلاة والخطبة في كتابة الجمعة فقال في حديث عدي بن حاتم أن رجلاً خطب عند النبي ﷺ فقال: «من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصيهما فقد غوىٰ فقال رسول الله ﷺ: «بئس الخطيب أنت، قل ومن يعص الله ورسوله»[1].

قال الإمام «قال القاضي وجماعة من العلماء: إنما أنكر عليه لتشريكه في الضمير المقتضي للتوسية وأمره بالعطف تعظيمًا لله تعالىٰ بتقديم اسمه، كما قال في الحديث الآخر، ولا يقل أحدكم ما شاء الله وشاء فلان ولكن ليقل ما شاء الله ثم شاء فلان[2]»[3].

قلت: «ثم» عند أهل اللغة تقتضي الترتيب والتراخي، بخلاف «الواو» فإنها تقتضي مطلق الجمع[4]، ولهذا كان قول ذلك بالواو من الشرك بالله في اللفظ، بخلاف قوله بـ «ثم» والله أعلم[5].

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ٦/١٣٩، كتاب الجمعة برقم (٤٨).

(٢) جزء من حديث أخرجه ابن ماجه في سننه (ص ٣٩٤/ ١) برقم (٢١٣٠) وحسنه الألباني كما في سلسلة الأحاديث الصحيحة (ص٨٥/ ٣) برقم (١٠٩٣)، وفي صحيح الجامع برقم (٤٩٥).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٦/١٣٩.

(٤) مغني اللبيب، لجمال الدين ابن هشام الأنصاري، ص ١٥٨، ٤٦٣.

(٥) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (ص٥٣٥ـ٥٣٦).

المسألة الثامنة: التسمي بملك الأملاك ونحوه

تكلم الإمام على هذه المسألة في شرح (باب تحريم التسمي بملك الأملاك أو بملك الملوك. من كتاب الآداب، حيث أسند الإمام مسلم في الباب حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ «إن أخنع[1] اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك»[2] وفي رواية أخرى: «اغيظ رجل على الله يوم القيامة، وأخبثه وأغيظه عليه، رجل كان يسمى ملك الأملاك، لا ملك إلا الله»[3].

قال الإمام «قوله ﷺ «إن أخنع اسم عند الله عز وجل رجل تسمى ملك الأملاك لا مالك إلا الله. قال سفيان: مثل شاهان شاه، وقال أحمد ابن حنبل. سألت أبا عمرو عن أخنع فقال: أوضع».

وفي رواية أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه وأغيظه عليه رجل كان يسمى ملك الأملاك)[4].

ثم قال: (هكذا جاءت هذه الألفاظ هنا أخنع وأغيظ وأخبث وهذا التفسير الذي فسره أبو عمرو مشهور عنه وعن غيره. قالوا: معناه أشد ذلاً وصغاراً يوم القيامة. والمراد صاحب الاسم ويدل عليه الرواية الثانية أغيظ رجل. قال القاضي: وقد يستدل به على أن الاسم هو المسمى وفيه الخلاف المشهور.

---

(١) اخنع: قال النووي: «قيل أخنع بمعنى أفجر، يقال: خنع الرجل إلى المرأة والمرأة إليه أي دعاها إلى الفجور وهو بمعنى أخبث أي أكذب الأسماء قيل: أقبح. انظر: ص١٠٢/ ١٤، شرح صحيح مسلم للنووي، كتاب الآداب.

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ١٠٢/ ١٤، برقم (٢٠) كتاب الآداب.

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ١٠٣/ ١٤، برقم (٢١) ك تاب الآداب.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٠٢/ ١٤.

ثم قال: واعلم أن التسمي بهذا الاسم حرام وكذلك التسمي بأسماء الله تعالىٰ المختصة به كالرحمن والقدوس والمهيمن وخالق الخلق ونحوها)[1].

هذا ما حكاه الإمام في حكم التسمي بملك الأملاك ونحوه وهو التحريم والله أعلم.

المسألة التاسعة: نسبة المطر إلى النوء[2]

تكلم الإمام علىٰ هذه المسألة في شرح «باب بيان كفر من قال مطرنًا بالنوء» من كتاب الإيمان.

وقد روي مسلم - في الباب - حديث زيد بن خالد الجهني[3] - رضي الله عنه -

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٠٢، ١٠٣/ ١٤.

(٢) قال الإمام: «وأما النوء ففيه كلام طويل قد لخصه الشيخ أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله فقال: النوء في أصله ليس هو نفس الكوكب فإنه مصدر ناء النجم ينوء نوء أي سقط وغاب، وقيل أي نهض وطلع وبيان ذلك أن ثمانية وعشرين نجمًا معروفة المطالع في أزمنة السنة كلها وهي المعروفة بمنازل العمر الثمانية والعشرين، يسقط في كل ثلاثة عشرة ليلة منها نجم في المغرب مع طلوع الفجر ويطلع آخر يقابله في المشرق من ساعته وكان أهل الجاهلية إذا كان عند ذلك مطر ينسبونه إلىٰ الساقط الغارب منهما. وقال الأصمعي: إلىٰ الطالع منهما، قال أبو عبيد: ولم أسمع أحدًا ينسب النوء للسقوط إلا في هذا الموضع، ثم إن النجم نفسه قد يسمىٰ نوءًا تسمية للفاعل بالمصدر، قال أبو إسحاق الزجاج في بعض أماليه: الساقطة في الغرب هي الأنواء والطالعة في المشرق هي البوارح والله أعلم: «انظر شرح صحيح مسلم للنووي ص ٥٣/ ٢، باب بيان كفر من قال مطرنا بالنوء.

(٣) هو أبو عبدالرحمن، وقيل أبو طلحة، المدني، صحابي مشهور، شهد الحديبية وكان معه لواء جهينة يوم الفتح توفي بالمدينة وقيل: بمصر، سنة (٦٨هـ) أو بعدها وله (٨٥سنة) رضي الله عنه. تهذيب الأسماء واللغات ص ٢٠٣/ ١، تحرير تقريب التهذيب (ص٤٣٣/ ١)، تهذيب الأسماء واللغات ص ٢٠٣/ ١.

قال: (صلىٰ بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية في إثر السماء[1] كانت من الليل، فلما انصرف أقبل علىٰ الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «قال أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب. وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»[2].

وبيّن الإمام - في الشرح - حكم نسبة المطر إلىٰ النوء، فقال: «وأما معنىٰ الحديث فاختلف العلماء في كفر من قال مطرنا بنوء كذا علىٰ قولين:

أحدهما: هو كفر بالله سبحانه وتعالىٰ سالب لأصل الإيمان مخرج من ملة الإسلام. قالوا: وهذا فيمن قال ذلك. معتقداً أن الكوكب فاعل مدبر منشيء للمطر كما كان بعض أهل الجاهلية يزعمون ومن اعتقد هذا فلا شك في كفره. وخلاصة القول هو الذي ذهب إليه جماهير العلماء والشافعي منهم وهو ظاهر الحديث.

ثم قال: قالوا: وعلي هذا لو قال مطرنا بنوء كذا معتقداً أنه من الله تعالىٰ وبرحمته، وأن النوء ميقات له وعلامة اعتباراً بالعادة فكأنه قال: مطرنا في وقت كذا، فهذا لا يكفر واختلفوا في كراهته والأظهر كراهته لكنها كراهة تنزيه لا إثم فيها وسبب الكراهة أنها كلمة مترددة بين الكفر وغيره فيساء الظن بصاحبها ولأنها شعار الجاهلية ومن سلك مسلكهم.

وقال: والقول الثاني في أصل تأويل الحديث أن المراد كفر نعمة الله تعالىٰ لاقتصاره علىٰ إضافة الغيث إلىٰ الكوكب وهذا فيمن لا يعتقد تدبير الكوكب، ويؤيد

---

(١) هو إثْر وأَثَر لغتان مشهورتان، أي بعد المطر. والسماء المطر.

(٢) أخرجه البخاري مع الفتح ص ٥٢٢/٢، برقم (١٠٣٨) ومسلم بشرح النووي، ص ٥٢/٢، برقم (١٢٥) كتاب الإيمان.

هذا التأويل الرواية الأخيرة في الباب «أصبح من الناس شاكر وكافر» وفي الرواية الأخرى «ما أنعمت على عبادي من نعمة إلا أصبح فريق منهم بها كافرين»، وفي الرواية الأخرى «ما أنزل الله تعالى من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين»، فقوله بها يدل على أنه كفر بالنعمة والله أعلم»(١).

قلت: وبهذا الشرح يتبين أن نسبة المطر إلى النوء يمكن أن تكون شركًا أكبر، ويمكن أن تكون شركًا أصغر، وذلك بحسب الاعتقاد، عافانا الله من ذلك كله.

المسألة العاشرة: نسبة الحوادث إلى الدّهر

هذه المسألة أعم من المسألة السابقة، وقد تكلم الإمام عليها في شرح حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله عز وجل: يسب ابن آدم الدهر، وأنا الدهر: بيدي الليل والنهار»(٢).

قوله عز وجل: «أنا الدهر...» قال الإمام: قال العلماء: وهو مجاز سببه أن العرب كان شأنها أن تسب الدهر عند النوازل والحوادث والمصائب النازلة بها من موت، أو هرم أو تلف مال، أو غير ذلك، فيقولون يا خيبة الدهر، ونحو هذا من ألفاظ سبّ الدهر. فقال النبي ﷺ «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر» أي لا تسبوا فاعل النوازل فإنكم إذا سببتم فاعلها وقع السب على الله تعالى لأنه فاعلها ومنزلها(٣)

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٥٢-٥٣/ ٢، وانظر: (ص١٨٠/ ١٤).

(٢) أخرجه البخاري مع الفتح ص ٥٦٤/ ١٠، برقم (٦١٨١)، ومسلم بشرح النووي، ص (٣/ ١٥) برقم (١). وسيأتي ذكره مع بعض الكلام عليه في مبحث الأسماء الحسنى.

(٣) لكن لابد في هذه الإضافة من مراعاة الأدب الذي أرشد إليه الشرع، فلا يضاف الشر، كما في الحديث «الشر ليس إليك» وسوف يأتي الكلام على هذا في فصل القدر.

وأما الدهر الذي هو الزمان فلا فعل له بل هو مخلوق من جملة خلق الله تعالىٰ، ومعنىٰ فإن الله هو الدهر أي فاعل النوازل والحوادث وخالق الكائنات والله أعلم)[1].

المسألة الحادية عشرة: اعتقاد العدوى

تكلم الحافظ علىٰ مسألة العدوىٰ بكلام طويل استعرض فيه الأقوال والردود الناجمة عن الخلاف في هذه المسألة بين أهل العلم.

وسألخص من كلامه ما يعطي صورة عامة لما قرره وذهب إليه في المسألة وذلك كما يأتي:

أ ـ بيان المراد بالعدوى

قال الإمام في شرح حديث أبي هريرة «لا عدوىٰ ولا صفر ولا هامة فقال: أعرابي يا رسول الله فما بال الإبل تكون في الرمل كأنها الضباء فيجيء البعير الأجرب يتدخل فيها فيجر بها كلها قال: فمن أعدىٰ الأول»[2] وذكر روايات أخرىٰ ثم قال: (المراد به نفي ما كانت الجاهلية تزعمه وتعتقده أن المرض والعاهة تعدي بطبعها لا بفعل الله تعالىٰ)[3] وتفسير الإمام النووي ـ رحمه الله ـ لمعنىٰ العدوىٰ من إبطال ما كانت العرب تعتقده في العدوىٰ هو المعنىٰ الصحيح الراجح ـ إن شاء الله ـ لأن تلك الأمور كانت منتشره في الجاهلية فجاء الإسلام بإبطالها، وقد جاء الإبطال بصيغة النفي كما قال الإمام ابن القيم. لأن النفي يدل علىٰ بطلان ذلك وعدم تأثيره، والنهي إنما يدل علىٰ المنع فقط[4].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، (٤/ ١٥).

(٢) أخرجه البخاري مع الفتح (ص١٤١/ ١٠)، برقم (٥٧٧٠)، ومسلم في ا لسلام برقم (١٠١).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٧٨/ ١٤.

(٤) تيسير العزيز الحميد ص٤٢٧.

ب ـ نفي الشارع العدوى ومعنى ذلك

وردت أحاديث عن النبي ﷺ في نفي العدوىٰ، وروىٰ بعضها مسلم في صحيحه، منها الحديث السابق.

ولقد بيّن الإمام في شرحه أن قوله ﷺ «لا عدوىٰ» أن معناه: (فقيل هو نهي عن أن يقال ذلك أو يعتقد، وقيل هو خبر أي لا تقع عدوىٰ بطبعها)[1].

وعند شرح قوله ﷺ «فمن أعدىٰ الأول» معناه أن البعير الأول الذي جرب من أجربه أي وأنتم تعلمون وتعترفون أن الله هو الذي أوجد ذلك من غير ملاصقة لبعير أجرب فاعلموا أن البعير الثاني والثالث وما بعدهما، إنما جرب بفعل الله تعالىٰ وإرادته لا بعدوىٰ تعدي بطبعها ولو كان الجرب بالعدوىٰ بالطبائع لم يجرب الأول لعدم المعدي ففي الحديث بيان الدليل القاطع لإبطال قولهم في العدوىٰ بطبعها)[2].

ويفهم من كلام الإمام فيما سبق أنه يذهب إلىٰ نفي حقيقة العدوىٰ أصلاً أخذاً من ظاهر الحديث، لكن يمكن أن يكون مقصود الحديث نفي العدوىٰ علىٰ الوجه الذي كانوا يعتقدون في الجاهلية من إضافة الفعل إلىٰ غير الله تعالىٰ، وأن هذه الأمراض تعدي بطبعها، ولا شك أن هذا شرك بالله تعالىٰ، وليس المقصود نفي العدوىٰ علىٰ إطلاقه، فقد يجعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح المريض سبباً لحدوث ذلك، كما ذهب إلىٰ هذا بعض أهل العلم، وهو أحسن[3]، والله أعلم.

ج ـ موقف الإمام من الأحاديث التي تفيد بظاهرها ثبوت العدوى

لقد مال الإمام النووي ـ رحمه الله ـ إلىٰ الجمع بين الأحاديث الواردة بنفي

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، (ص١٨٢/ ١٤).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي (ص١٨١/ ١٤).

(٣) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد (ص٣٧٣).

العدوىٰ والأخرىٰ التي تأمر بمجانبة المرضىٰ وهو الصواب في هذه المسألة.

وردت أحاديث أخرىٰ عن النبي ﷺ تفيد بظاهرها ثبوت العدوىٰ، لحديث «فرّ من المجزوم كما تفرّ من الأسد»[1] وحديث «لا يورد ممرض علىٰ مصح»[2]، فهذان الحديثان وغيرهما تعارض في الظاهر حديث «لاعدوىٰ» ولقد جمع الإمام بين الأخبار، فبين أن حديث «لا يورد ممرض علىٰ مصح» يراد به مجانبة ما يحصل به الضرر فقال: (فأرشد فيه إلىٰ مجانبة ما يحصل به الضرر عنده في العادة بفعل الله تعالىٰ وقدره فنفىٰ في الحديث الأول العدوىٰ بطبعها ولم ينف حصول الضرر عند ذلك بقدر الله تعالىٰ وفعله وأرشد في الثاني إلىٰ الإحتراز مما يحصل عند الضرر بفعل الله وإرادته وقدره فهذا الذي ذكرناه من تصحيح الحديثين والجمع بينهما وهو الصواب الذي عليه جمهور العلماء ويتعين المصير إليه)[3].

ثم قال: (قوله ﷺ «لا يورد ممرض علىٰ مصح» قوله يورد بكسر الراء والممرض والمصح بكسر الميم والصاد ومفعول يورد محذوف أي لا يورد إبله المراض. قال العلماء: الممرض صاحب الإبل المراض والمصح صاحب الإبل الصحاح فمعنىٰ الحديث: لا يورد صاحب الإبل المراض إبله علىٰ صاحب الإبل الصحاح لأنه ربما أصابها المرض بفعل الله تعالىٰ وقدره الذي أجرىٰ به العادة لا بطبعها فيحصل لصاحبها ضرر بمرضها وربما حصل له ضرر أعظم من ذلك باعتقاد العدوىٰ بطبعها فيكفر والله أعلم)[4].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه مع الفتح (ص١٥٨/ ١٠) برقم (٥٧٠٧)، وهو جزء من الحديث.

(٢) أخرجه البخاري مع الفتح، ص ٢٤١/ ١٠، برقم (٥٧٧١) ومسلم في صحيحه بشرح النووي، برقم (١٠٤) كتاب السلام.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، (ص١٧٨/ ١٤).

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي، ١٨١/ ١٤. انظر: تيسير العزيز الحميد ص ٤٢٥-٤٢٦.

فالإمام هنا يرجح القول بأن المراد بقوله «لا عدوىٰ» اعتقاد أنه ذلك بطبعها وهذا لاشك كفراً وشركًا أكبر والله أعلم.

المسألة الثانية عشرة: الطيرة

تكلم الإمام علىٰ مسألة الطيرة، فبين معنىٰ الطيرة وذكر الأدلة الواردة في النهي عنها. وموقف العلماء من الحديث الوارد في إثبات الشؤم في ثلاثة، كما تكلم علىٰ الفأل والفرق بينه وبين الطيرة، وسأخص كلامه علىٰ هذه الأمور فيما يأتي:

أ ـ تعريف الطيرة وبيان أصلها وبطلانها

قال الإمام «أما الطيرة فبكسر الطاء وفتح الياء علىٰ وزن العنبة هذا هو الصحيح المعروف في رواية الحديث وكتب اللغة والغريب وحكىٰ القاضي وابن الأثير، أن منهم من سكن الياء والمشهور الأول. قالوا: وهي مصدر تطير طيرة، قالوا: ولم يجيء في المصادر علىٰ هذا الوزن إلا تطير طيرة وتخير خيرة بالخاء المعجمة»[1].

«والتطير التشاؤم وأصله الشيء المكروه من قول أوفعل أو مرئىٰ وكانوا يتطيرون بالسوانح والبوارح فينفرون الظباء والطيور فإن أخذت ذات اليمين تبركوا به ومضوا في سفرهم وحوائجهم وإن أخذت ذات الشمال رجعوا عن سفرهم وحاجتهم وتشاءموا بها فكانت تصدهم في كثير من الأوقات عن مصالحهم فنفىٰ الشرع ذلك وأبطله ونهىٰ عنه وأخبر أنه ليس له تأثير بنفع ولا ضر، فهذا معنىٰ قوله ﷺ «لا طيرة» وفي حديث آخر «الطيرة شرك» أي اعتقاد أنها تنفع أو تضر إذا عملوا بمقتضاها معتقدين تأثيرها فهو شرك لأنهم جعلوا لها أثراً في الفعل والإيجاد»[2].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٨٢ ـ ١٨٣/ ١٤.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ١٨٢ ـ ١٨٣/ ١٤.

ب ـ ما ورد في النهي عن الطيرة، وإثبات الشؤم في ثلاثة، وموقف الإمام من ذلك:

١ ـ الأحاديث الواردة في النهي عن الطيرة:

من الأحاديث الواردة في صحيح مسلم في النهي عن الطيرة ما رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: (سمعت النبي ﷺ يقول: «لا طيرة»، وخيرها الفأل قيل: يا رسول الله: وما الفأل؟ قال الكلمة الصالحة وتسمعها أحدكم)[١].

هذا حديث صحيح في النهي عن الطيرة[٢] بمعناها العام، وأن اعتقادها مناقض للتوحيد.

وما أخرجه مسلم ـ رحمه الله ـ عن معاوية الحكم السلمي. قال: (قلت يا رسول الله! أموراً كنّا نصنعها في الجاهلية كنَّا نأتي الكهان. قال: «فلا تأتوا الكهان» قال. قلت: كنا نتطير. قال: «وذاك شيء يجده أحدكم في نفسه، فلا يصدنكم»[٣]) قال الإمام. قوله: « كنا نتطير قال ذاك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنكم» معناه أن كراهة ذلك تقع في نفوسكم في العادة ولكن لا تلتفتوا إليه ولا ترجعوا عما كنت عزمتم عليه قبل هذا. وقد صح عن عروة بن عامر الصحابي رضي الله عنه. قال: ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ، فقال: «أحسنها الفأل ولا يرد مسلمًا فإذا رأىٰ أحدكم ما يكره فليقل اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بك رواه أبو داود بإسناد صحيح[٤].

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ١٨٢ ـ ١٨٣/ ١٤، برقم (١١٠) كتاب السلام.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٨٢ ـ ١٨٥/ ١٤ هناك أحاديث أخرىٰ وردت في النهي عن الطيرة راجعها في مظانها في شرح صحيح مسلم من نفس الباب، وغيره.

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ١٨٦/ ١٤ برقم (٥٣٧).

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٨٨/ ١٤.

٢ ـ التنبيه على أحاديث يظن أن بها جواز الطيرة

ومع هذا فقد ورد حديث آخر صحيح عن النبي ﷺ قال: «لا عدوىٰ ولا طيرة، وإنما الشؤم في ثلاثة: المرأة، والفرس، والدار»[1].

وفي رواية: «إن يكن من الشؤم شيء حق، ففي الفرس والمرأة والدار»[2]، وفي رواية أخرىٰ: «الشؤم في الدار والمرأة والفرس»[3].

وفي رواية أخرىٰ أيضًا «إن كان الشؤم في شيء ففي الفرس والمسكن والمرأة»[4].

ومفهوم هذه الروايات إثبات الشؤم في هذه الأشياء الثلاثة المذكورة، ويتعارض هذا مع ما ورد من النهي عن الطيرة.

٣ ـ موقف الإمام من هذه الأحاديث

وقد تعرض الإمام لهذا الإشكال في شرح باب «الطيرة والفأل وما يكون فيه الشؤم فبين اختلاف العلماء فيه فقال: (واختلف العلماء في هذا الحديث فقال مالك وطائفة هو علىٰ ظاهره وأن الدار قد يجعل الله تعالىٰ سكانها سببًا للضرر أو الهلاك وكذا اتخاذ المرأة المعينة أو الفرس أو الخادم قد يحصل الهلاك عنده بقضاء الله تعالىٰ ومعناه قد يحصل الشؤم في هذه الثلاثة كما صرح به في رواية إن يكن الشؤم في شيء، وقال الخطابي وكثيرون: هو في معنىٰ الاستثناء من الطيرة أي الطيرة منهي عنها إلا أن يكون له دار يكره سكناها أو امرأة يكره صحبتها أو فرس أو خادم فليفارق الجميع بالبيع ونحوه وطلاق المرأة، وقال آخرون شؤم الدار ضيقها وسوء جيرانها

---

(١) أخرجه البخاري مع الفتح، ص ٢١٢/ ١٠، برقم (٥٧٥٣) ومسلم بشرح النووي، ص ١٨٥/ ١٤، برقم (١١٦) كتاب السلام.

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ١٨٥/ ١٤ برقم (١١٧).

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ١٨٤/ ١٤ برقم (١١٦).

(٤) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ١٨٦/ ١٤، برقم (١١٨). وانظر رواية رقم (١١٩) ورقم (١٢٠).

وأذاهم وشؤم المرأة عدم ولادتها وسلاطة لسانها وتعرضها للريب وشؤم الفرس أن لا يعترىٰ عليها. وقيل: حرانها وغلاء ثمنها وشؤم الخادم سوء خلقه وقلة تعهده لما فوض إليه وقيل المراد بالشؤم هنا عدم الموافقة واعترض بعض الملاحدة بحديث لا طيرة على هذا فأجاب ابن قتيبة وغيره بأن هذا مخصوص من حديث لا طيرة إلا في هذه الثلاثة.

ثم قال: قال القاضي. قال بعض العلماء: الجامع لهذه الفصول السابقة في الأحاديث ثلاثة أقسام:

أحدها: ما لم يقع الضرر به ولا اطردت عادة خاصة ولا عامة فهذا لا يلتفت إليه وأنكر الشرع الالتفات إليه وهو الطيرة.

والثاني: ما يقع عنده الضرر عمومًا لا يخصه ونادرًا لا متكررًا كالوباء فلا يقدم عليه ولا يخرج منه.

والثالث: ما يخص ولا يعم كالدار والفرس والمرأة فهذا يباح الفرار منه والله أعلم)[1].

هذا ما حكاه الإمام في أقوال العلماء في المراد بهذا الحديث، ولقد تبين اختلافهم في المراد به فمنهم من مشى على ظاهره، ومنهم من جعل ذلك استثناء ومنهم من حاول الجمع بينه وبين الأحاديث الأخرىٰ في نفي الطيرة وهو ما كان من اختيار القاضي والإمام الذي وافقه على ذلك بنقل قوله بدون تعليق وهؤلاء الذين نهجوا منهج الجمع لم يتفقوا على قول واحد، بل اختلفوا اختلافًا كثيرًا كما نقل الإمام ذلك عن القاضي عياض في أقسامه الثلاثة.

٤ ـ القول الراجح في ذلك

هذا ما يتعلق بموقف الإمام في هذه المسألة، وما قاله الإمام النووي في الرأي

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٨٥/ ١٤.

الأخير ولم يجزم به وهو أن الشؤم على غير المفهوم من معنى التطير هوا لصواب وهو موافق لقول الخطابي ـ السابق ـ ولذلك مال إليه المحققون من أهل العلم فقد قال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ : «إخباره ﷺ بالشؤم في هذه الثلاثة ليس فيه إثبات الطيرة التي نفاها الله، وإنما غايته أن الله سبحانه قد يخلق أعيانًا منها مشؤومة على من قاربها وسكنها، وأعيانًا مباركة لا يلحق من قاربها منها شؤوم ولا شرّ. وهذا كما يعطي غيرهما ولدًا مشؤومًا يريان الشر على وجهه، وكذلك ما يعطاه العبد من ولاية أو غيرها، فكذلك الدار، والمرأة، والفرس، والله سبحانه خالق الخير والشر، والسعود والنحوس، فيخلق بعض هذه الأعيان سعودًا مباركة، ويقتضي بسعادة من قاربها وحصول اليمن والبركة له، ويخلق بعضها نحوسًا يتنحس بها من قاربها، وكل ذلك بقضائه وقدره، كما خلق سائر الأسباب وربطها بمسبباتها المتضادة والمختلفة[1].

وبناء على ما قاله هذا الإمام يكون تخصيص هذه الأشياء الثلاثة بالذكر لكونها أكثر ملازمة وأطول صحبة للإنسان، وأكثر ما يقع التطير فيها وهذا أحسبه ما قصده القاضي في القسم الثالث الذي ذكر سابقًا والله تعالى أعلم بالصواب.

٥ ـ الفأل والفرق بينه وبين الطيرة

إن للفأل علاقة بالطيرة كما يدل عليه حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال قال النبي ﷺ «لا طيرة وخيرها الفأل». قالوا: وما الفأل يا رسول الله؟ قال: «الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم»[2].

---

(١) نقله الشيخ سليمان بن عبدالله في كتابه «تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد» (ص٣٧٦ـ ٣٧٧).

(٢) أخرجه البخاري مع الفتح، ص ٢١٤/ ١٠، برقم (٥٧٥٥) ومسلم بشرح النووي، ص ١٨٢ـ ١٨٣/ ١٤، برقم (١١٠).

قال الإمام: وأما الفأل فمهموز ويجوز ترك همزه وجمعه فؤول كفلس وفلوس وقد فسره النبي ﷺ بالكلمة الصالحة والحسنة والطيبة. قال العلماء: (يكون الفأل فيما يسر وفيما يسوء والغالب في السرور والطيرة لا يكون إلا فيما يسوء. قالوا وقد يستعمل مجازاً في السرور، يقال تفاءلت بكذا بالتخفيف وتفألت بالتشديد وهو الأصل والأول مخفف منه ومقلوب عنه قال العلماء وإنما أحب الفأل لأن الإنسان إذا أمل فائدة الله تعالىٰ وفضله عند سبب قوي أو ضعيف فهو علىٰ خير في الحال وإن غلط في جهة الرجاء فالرجاء له خير، وأما إذا قطع رجاءه وأمله من الله تعالىٰ فإن ذلك شر له والطيرة فيها سوء الظن وتوقع البلاء ومن أمثال التفاؤل أن يكون له مريض فيتفاءل بما يسمعه فيسمع من يقول يا سالم أو يكون طالب حاجة فيسمع من يقول يا واجد فيقع في قلبه رجاء البرء أو الوجدان والله أعلم)(١).

المسألة الرابعة عشرة: التنجيم

يعتبر التنجيم صورة من صور ادعاء الغيب الذي سبق أن أشرت إليه وهو مناف للتوحيد. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية مبيناً حقيقة التنجيم (صناعة التنجيم التي مضمونها الإحكام والتأثير، وهو الاستدلال علىٰ الحوادث الأرضية بالأحوال الفلكية والتمزيج بين القوىٰ الفلكية والقوابل الأرضية، صناعة محرمة بالكتاب والسنة، وإجماع الأمة، بل هي محرمة علىٰ جميع المرسلين(٢).

ولهذا قال الإمام: نقلاً عن القاضي عياض «في الضرب الثالث من الكهانة (المنجمون وهذا الضرب يخلق الله تعالىٰ فيه لبعض الناس قوة ما لكن الكذب فيه أغلب ومن هذا الفن العرافة وصاحبها عراف هو الذي يستدل علىٰ الأمور بأسباب ومقومات يدعي معرفته بها وقد يعتضد بعض هذا الفن ببعض في ذلك بالزجر والطرق والنجوم وأسباب معتادة وهذه الأضراب كلها تسمىٰ كهانة وقد أكذبهم كلهم

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٨٤/ ١٤.

(٢) مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ص ١٩٢/ ٣٥.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٨١/ ١٤.

الشرع ونهى عن تصديقهم وإتيانهم والله أعلم)[٣].

قلت: كفر من نسب الاختراع إلى النجوم محل إجماع عن المسلمين، وأما من جعلها علامة على حدوث أمرفي الأرض، وهو الاستدلال على الحوادث الأرضية بسير الكواكب واجتماعها وافتراقها ونحو ذلك، ويقول: إن ذلك بتقدير الله ومشيئته، فلا ريب في تحريمه، ولكن في تكفيره اختلاف. والذي ذهب إليه بعض العلماء المحققين من أهل السنة والجماعة هو القطع بتكفيره لأنه ادعى علم الغيب الذي استأثر الله تعالى بعلمه بما لا يدل عليه، والله تعالى أعلم)[١].

المسألة الخامسة عشرة: الكهانة والعرافة

ومن أنواع الشرك الأكبر التي ذكرها الإمام النووي الكهانة والعرافة وهما داخلتان في السحر والكهانة كالتنجيم في دعوى علم الغيب، وفي منافاة التوحيد وقد تكلم الإمام على مسألة الكهانة في عدة مواضع، واشتمل كلامه على الأمور الآتية:

أ - **الفرق بين الكهانة والعرافة والتنجيم**

قال الإمام: (قال القاضي - رحمه الله - كانت الكهانة في العرب ثلاثة أضرب:

أحدها: يكون للإنسان ولي من الجن يخبره بما يسترقه من السمع من السماء وهذا القسم بطل من حين بعث الله نبينا ﷺ.

الثاني: أن يخبره بما يطرأ أو يكون في أقطار الأرض وما خفي عنه مما قرب أو بعد وهذا يبعد وجوده ونفت المعتزلة وبعض المتكلمين هاذين الضربين وأحالوهما ولاإستحالة في ذلك ولا بعد في وجوده لكنهم يصدقون ويكذبون والنهي عن تصديقهم والسماع منهم عام.

الثالث: المنجمون وهذا الضرب يخلق الله تعالى فيه لبعض الناس قوة مالكن الكذب فيه أغلب ومن هذا الفن العرافة وصاحبها عراف وهو الذي يستدل على

---

(١) «تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد» ص ٣٨٦-٣٨٨.

الأمور بأسباب ومقدمات يدعي معرفته بها وقد يعتضد بعض هذا الفن ببعض في ذلك بالزجر والطرق والنجوم وأسباب معتادة وهذه الأضرب كلها تسمى كهانة وقد أكذبهم كلهم الشرع ونهى عن تصديقهم وإتيانهم والله أعلم)[1].

قلت: التعريف السابق يدل على أن لفظ «الكاهن» يطلق على أصناف مدعي علم الغيب، وهذا لا يمنع أن يكون لكل صنف منهم مدلوله الخاص، كما سبق في بيان معنى «التنجيم» وقد عرف الإمام العراف في موضع آخر فقال: (أما العراف فقد سبق بيانه وأنه من جملة أنواع الكهان. قال الخطابي وغيره: العراف هو الذي يتعاطى معرفة مكان المسروق ومكان الضالة ونحوهما)[2].

ب ـ استمداد والكهان

إنّ ما يخبر به الكاهن من المعلومات يستمده من مصادر عديدة أشار الإمام إليها في كلامه حيث قال في شرح حديث عائشة ـ رضي الله عنه ـ (سأل أناس رسول الله ﷺ عن الكهان؟ فقال لهم رسول ﷺ: «ليسوا بشيء» قالوا: يا رسول الله! فإنهم يحدثون أحيانًا الشيء حقًا قال رسول الله ﷺ: «تلك الكلمة من الجن يخطفها الجني فيقرها في أذن وليه قرّ الدجاجة. فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة)[3].

قال الإمام. (قال الخطابي وغيره معناه أن الجني يقذف الكلمة إلى وليه الكاهن فتسمعها الشياطين كما تؤذن الدجاجة بصوتها صوابحها فتتجاوب قال: وفيه وجه آخر وهي أن تكون الرواية كنقر الدجاجة تدل عليه رواية البخاري فيقرها في أذنه كما

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٨٦ ـ ١٨٧/ ١٤ .

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٩٠/ ١٤ .

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ١٨٨/ ١٤ .

ثم قال: قوله ﷺ في رواية صالح عن ابن شهاب: «ولكنهم يقذفون فيه ويزيدون» هذه اللفظة ضبطوها من رواية صالح على وجهين.

أحدهما: بالراء.

والثاني: بالذال ووقع في رواية الأوزاعي وابن معقل الراء باتفاق النسخ ومعناه يخلطون فيه الكذب وهو بمعنى يقذفون وفي رواية يونس يرقون. قال القاضي ضبطناه عن شيوخنا بضم الياء وفتح الراء وتشديد القاف. قال: ورواه بعضهم بفتح الياء وإسكان الراء، قال في المشارق: قال بعضهم صوابه بفتح الياء وإسكان الراء وفتح القاف. قال: وكذا ذكره الخطابي: ومعناه معنى يزيدون. يقال: رقى فلان إلى الباطل بكسر القاف أي رفعه وأصله من الصعود أي يدعون فيها فوق ما سمعوا. قال القاضي: وقد يصح الرواية الأولى على تضعيف هذا الفعل وتكثيره والله أعلم[1].

هذه إحدى الطرق التي يستخدمها الكهان أضف إلى ذلك القسمين السابقين، الثاني والثالث. الذين ذكرهما القاضي في تقسيمه للكهان.

وبالجملة فإن الكهانة على أربعة أصناف نقلها الحافظ ابن حجر عن الخطابي وهي:

١ ـ ما يتلقونه من الجن بواسطة استراق السمع من كلام الملائكة في السماء، فيزيدون عليه كذبات كثيرة.

٢ ـ ما يخبر به الجني من يواليه بما غاب عن غيره مما لا يستطيع عليه الإنسان غالبًا، أو يطلع عليه من قرب منه لا من بعد.

٣ ـ ما يستند إلى ظن وتخمين وحدس، وهذا قد يجعل الله فيه لبعض الناس قوة

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٨٨ ـ ١٩٠/ ١٤.

مع كثرة الكذب فيه.

٤ ـ ما يستند إلىٰ التجربة والعادة، فيستدل علىٰ الحادث بما وقع قبل ذلك، ومن هذا القسم الأخير ما يضاهي السحر.

وقد يعتمد بعضهم في ذلك بالزجر، والطرق، والنجوم، وكل ذلك مذمومًا شرعًا[١] وإنما كان مذمومًا لأنه ادعاء لمعرفة الغيب بطرق فاسدة، ووسائل شركية، والعياذ بالله تعالىٰ.

ج: ما ورد في ذم الكهانة

أشار الإمام في شرح باب تحريم الكهانة واتيان الكهان إلىٰ ما ورد في ذمها عند شرح رواية معاوية بن الحكم السلمي، قال: (قلت يا رسول الله! أموراً كنا نصنعها في الجاهلية، كنا نأتي الكهان، قال: فلا تأتوا الكهان. قال قلت: كنا نتطير. قال: «ذاك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنكم»[٢].

قال الإمام: قوله ﷺ «ليسوا بشيء» فمعناه بطلان قولهم وأنه لا حقيقة له وفيه جواز إطلاق هذا اللفظ علىٰ ما كان باطلاً»[٣].

وقال في شرح قوله ﷺ: «من أتىٰ عرافًا فسأله عن شيء لم يقبل له صلاة أربعين ليلة»[٤] (أما العراف فقد سبق بيانه وأنه من جملة الكهان . . . وأما عدم قبول صلاته فمعناه أنه لا ثواب له فيها وإن كانت مجزئة في سقوط الفرض عنه ولا يحتاج معها إلىٰ إعادة ونظير هذا الصلاة في الأرض المغصوبة مجزئة مسقطة للقضاء ولكن لا

---

(١) فتح الباري ص ٢١٧، ٢٢٠/ ١٠.

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ١٨٦، برقم (١٢١) كتاب السلام.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٨٨/ ١٤.

(٤) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ١٩٠/ ١٤ برقم (٢٢٣٠).

ثواب فيها كذا قاله جمهور أصحابنا قالوا: فصلاة الفرض وغيرها من الواجبات إذا أتى بها على وجهها الكامل ترتب عليها شيئان: سقوط الفرض عنه وحصول الثواب، فإذا أداها في أرض مغصوبة حصل الأول دون الثاني ولابد من هذا التأويل في هذا الحديث فإن العلماء متفقون على أنه لا يلزم من أتى العراف إعادة صلوات أربعين ليلة فوجب تأويله والله أعلم)(١).

وكما ذم الشرع الكهانة ذم كذلك ما يعطاه الكاهن مقابل التكهن، ففي الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ «نهى عن ثمن الكلب ومهر البغي وحلوان الكاهن»(٢).

قال الإمام وهو يبين أحكام الحديث، (وأما حلوان الكاهن فهو ما يعطاه على كهانته. يقال منه حلوته حلوانًا إذا أعطيته، قال الهروي وغيره: أصله من الحلاوة شبه بالشيء الحلو من حيث إنه يأخذه سهلاً بلا كلفة ولا في مقابلة مشقة، يقال حلوته إذا أطعمته الحلو، كما يقال: عسلته إذا أطعمته العسل، قال أبو عبيد ويطلق الحلوان أيضا على غير هذا وهو أن يأخذ الرجل مهر ابنته لنفسه وذلك عيب عند النساء، قالت امرأة: تمدح زوجها لا يأخذ الحلوان عن بناتنا)(٣).

ثم بين حكم ذلك فقال: (قال البغوي من أصحابنا والقاضي عياض أجمع المسلمون على تحريم حلوان الكاهن لأنه عوض عن محرم ولأنه أكل المال بالباطل ... وقال الخطابي: قال ابن الأعرابي: ويقال حلوان الكاهن الشنح والصهميم، قال الخطابي: وحلوان العراف أيضًا حرام)(٤).

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٩٠/ ١٤.

(٢) أخرجه البخاري مع الفتح، ص ٤٢٦/ ٤، برقم (٢٢٣٧)، ومسلم بشرح النووي، ص١٩٥/ ١٠، برقم (٣٩) كتاب المساقاة.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٩٦/ ١٠.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٩٦/ ١٠.

وقال أيضًا: (قال الإمام أبو الحسن الماوردي من أصحابنا في آخر كتابه الأحكام السلطانية: يمنع المحتسب من يكتسب بالكهانة واللهو ويؤدب عليه الآخذ والمعطي والله أعلم)[1].

قلت: ومما ورد أيضًا في التحذير من الكهان والعرافين قوله ﷺ: «من أتى كاهنًا أو عرافًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم»[2].

وقد يظن بعض الناس أن بين هذا الحديث وبين الحديث المتقدم «من أتى عرافًا فسأله عن شيء لم يقبل منه صلاة أربعين ليلة»[3] تعارضًا لذا قال بعضهم بتكفير من أتى الكاهن أو العراف كفرًا أكبر مطلقًا، وقال بعضهم هو كفر مجازي، والحقيقة أنه لا تعارض بين الحديثين، بل كل منهما على حقيقته، ويفصل في الأمر فيقال: إن من اعتقد أن الكاهن أو العراف يعلم الغيب ويطلع على الأسرار الإلهية كان كافرًا حقيقيًا، لأن هذا هو الموافق لمنطوق ومفهوم الحديث وهو قوله ﷺ: «فصدقه بما يقول»[4]، أما من لم يعتقد صدقه فإنه لا يكفر بل يكون ارتكب كبيرة من الكبائر رتب عليها وعيد شديد وهو بطلان صلاته أربعين ليلة كما قال)[5].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٩٧/ ١٠.

(٢) رواه أحمد ٢٢٩/ ٢، والحاكم ٨/ ١، وقال صحيح على شرط الصحيحين ووافقه الذهبي ورواه البيهقي في السنن الكبرى ٣٥/ ٨، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢٢٣/ ٥ برقم ٨٥١٥.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) نيل الأوطار للشوكاني ص ٤٦/ ٩.

المسألة السادسة عشر: السحر

الكلام في موضوع السحر طويل الذيول، كثير الفروع لما فيه من خلافات بين العلماء، ولما له من خطر كبير وانتشار واسع في الأمم والشعوب قديمًا وحديثًا.

وقد بسط الإمام الكلام على مسألة السحر في «الشرح» فذكر معناه، وحكى الخلاف في كونه له حقيقة مؤثره أم لا؟ وفي حكمه عملاً وتعلمًا، وتعرض للفرق بينه وبين الولاية، كما تعرض لما ورد من سحر اليهودي للنبي ﷺ وبين موقفه من ذلك. وسأخص من كلامه ما يتناسب مع المقام لبيان ما قرره في مسألة السحر وذلك فيما يلي:

أ- تعريف السحر

قال الإمام في الفرق بين الولي والساحر (وأما الفرق بين الولي والساحر فمن وجهين:

أحدهما: وهو المشهور إجماع المسلمين على أن السحر لا يظهر إلا على فاسق والكرامة لا تظهر على فاسق وإنما تظهر على ولي، وبهذا جزم إمام الحرمين وأبو سعيد المتولي وغيرهما.

والثاني: أن السحر قد يكون ناشئًا بفعلها وبمزجها ومعاناة وعلاج، والكرامة لا تفتقر إلى ذلك وفي ذلك كثير من الأوقات يقع اتفاقًا من غير أن يستوعيه أو يشعر به والله أعلم)(١).

وقال في شرح حديث عائشة رضي الله عنها قالت: (سحر رسول الله ﷺ يهودي من يهود بني زريق يقال له لبيد بن الأعصم. قالت متى كان رسول الله ﷺ

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص١٤٧/ ١٤.

يخيل إليه أنه يفعل الشيء، وما يفعله حتى إذا كان ذات يوم أو ذات ليلة، دعا رسول الله ﷺ. ثم دعا. ثم دعا. ثم قال: يا عائشة أشعرت أن الله أفتاني فيما استفتيته فيه؟ جاءني رجلان فقعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للذي عند رجلي، أو الذي عند رجلي للذي عند رأسي، ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب، قال: من طبه؟ قال: لبيد بن الأعصم. قال في أي شيء؟ قال: في مشط ومشاطه»[1]، قال وجب[2] طلعة ذكر، قال: فأين هو؟ قال في بئر ذي أروان[3]. قالت: فأتاها رسول الله ﷺ في أناس من أصحابه. ثم قال: «يا عائشة أو الله لكأن ماءها نقاعة[4] الحناء، ولكأن نخلها رؤوس الشياطين»[5].

قال الإمام: (قوله ما وجع الرجل قال: مطبوب. المطبوب المسحور، يقال: طب الرجل إذا سحر فكنوا بالطب عن السحر كما كنوا بالسليم عن اللديغ قال ابن الأنباري: الطب من الأضداد، يقال لعلاج الداء طب وللسحر طب وهو من أعظم الأدواء ورجل طبيب أي حاذق سمي طبيبًا لحذقه وفطنته)[6].

هذا ما وجدته عند الإمام من عبارات يمكن اعتبارها تعريفات للسحر، وهي كما ترى عبارات مختلفة لفظًا ومعنى، ولا يتوصل بها إلى معرفة حقيقة السحر في الاصطلاح، والسبب في ذلك هو ما قاله الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله - قال: «اعلم أن السحر في الاصطلاح لا يمكن حدّه بحدّ جامع مانع،

---

(١) أما المشاطة فهي الشعر الذي يسقط من الرأس أو اللحية عند تسريحه.

(٢) وجب وهي بمعنى وعاء طلع النخل، وهو الغشاء الذي يكون عليه ويطلق على الذكر والأنثى، ولذا قيده في الحديث بقوله: طلعة ذكره، وهو بإضافة طلعة إلى ذكره.

(٣) هي بئر بالمدينة في بستان بني زريق.

(٤) نقاعة الحناء النقاعة الماء الذي ينقع فيه الحناء، والحناء قال في المنجد هي نبات يتخذ ورقه للخضاب الأحمر المعروف. وزهره أبيض كالعناقيد. واحدته حناءه. وجمعها: حُنان.

(٥) أخرجه مسلم للنووي، ص ١٤٨/ ١٤ برقم (٢٨١٩).

(٦) شرح صحيح مسلم للنووي ص ١٤٨-١٤٩/ ١٤.

بكثرة الأنواع المختلفة الداخلة تحته، ولا يتحقق قدر مشترك بينها يكون جامعًا لها مانعًا لغيرها، ومن هنا اختلفت عبارات العلماء في حدة اختلافًا متباينًا»[1].

ب ـ الخلاف في حقيقة السحر وتأثيره

الكلام هنا في جانبين: جانب الحقيقة، وجانب التأثير.

* أما الجانب الأول: وهو: جعل للسحر حقيقة أولاً؟ فقد حكى الإمام فيه قولين للعلماء:

القول الأول: مذهب أهل السنة وجمهور العلماء فقال: قال الإمام المازري رحمه الله مذهب أهل السنة وجمهور علماء الأمة على إثبات السحر وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء الثابتة.

القول الثاني: قول من أنكر حقيقته فقال نقلاً عن المازري: خلافًا لمن أنكر حقيقته وأضاف ما يقع منه إلى خيالات باطلة لا حقائق لها.

ورد عليهم المازري بقوله: وقد ذكره الله تعالى في كتابه وذكر أنه مما يتعلم وذكر ما فيه إشارة إلى أنه مما يكفر به وأنه يفرق بين المرء وزوجه وهذا كله لا يمكن فيما لا حقيقة له وهذا الحديث مصرح بإثباته وأنه أشياء دفنت وأخرجت وهذا كله يبطل ما قالوه فإحالة كونه من الحقائق محال ولا يستنكر في العقل أن الله سبحانه وتعالى يخرق العادة عند النطق بكلام ملفق أو تركيب أجسام أو المزج بين قوى على ترتيب لا يعرفه إلا الساحر)[2].

قلت: ما ذكره الإمام النووي فيما نقله عن المازري هنا هو الصحيح المعتمد عند

---

(١) أضواء البيان للشنقيطي، ص ٤٨٢/ ٤.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ١٤٦/ ١٤.

أهل السنة[1].

* **وأما الجانب الثاني** - وهو: هل للسحر تأثير أو لا فذكر الإمام قولاً عن الإمام المازري بين فيه أن الذين قالوا إن السحر تخييل منعوا تأثيره.

والذين قالوا إن للسحر حقيقة أثبتوا له تأثيراً في الجملة واختلفوا في مدى ذلك التأثير.

فقال المارزي رحمه الله (واختلف الناس في القدر الذي يقع به السحر ولهم فيه اضطراب فقال بعضهم لا يزيد تأثيره على قدر التفرقة بين المرء وزوجه لأن الله تعالى إنما ذكر ذلك تعظيماً لما يكون عنده وتهويلاً به في حقنا فلو وقع به أعظم منه لذكره لأن المثل لا يضرب عند المبالغة إلا بأعلى أحوال المذكور قال ومذهب الأشعرية أنه يجوز أن يقع به أكثر من ذلك قال وهذا هو الصحيح عقلاً لأنه لا فاعل إلا الله تعالى وما يقع من ذلك فهو عادة أجراها الله تعالى ولا تفترق الأفعال في ذلك وليس بعضها بأولى من بعض ولو ورد الشرع بقصوره عن مرتبة لوجب المصير إليه ولكن لا يوجد شرع قاطع يوجب الاقتصار على ما قاله القائل الأول وذكر التفرقة بين الزوجين في الآية ليس بنص في منع الزيادة وإنما النظر في أنه ظاهر أم لا)[2].

جـ - الفرق بين النبي والولي والساحر

قال الإمام نقلاً عن المازري قال (فإن قيل إذا جوزت الأشعرية خرق العادة على يد الساحر فبماذا يتميز عن النبي فالجواب أن العادة تنخرق على يد النبي والولي والساحر لكن النبي يتحدى بها الخلق ويستعجزهم عن مثلها ويخبر عن الله تعالى

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص١٤٦/ ١٤.

(٢) تفسير ابن كثير ص ١٤٧-١٤٨/ ١، وفتح الباري ص ٢٣٣/ ١٠، وفتح القدير ١١٩/ ١.

بخرق العادة بها لتصديقه فلو كان كاذبًا لم تنخرق العادة على يديه ولو خرقها الله على يد كاذب لخرقها على يد المعارضين للأنبياء، وأما الولي والساحر فلا يتحديان الخلق ولا يستدلان على نبوة ولو ادعيا شيئًا من ذلك لم تنخرق العادة لهما وأما الفرق بين الولي والساحر فمن وجهين:

أحدهما: وهو المشهور إجماع المسلمين على أن السحر لا يظهر إلا على فاسق والكرامة لا تظهر على فاسق وإنما تظهر على ولي، وبهذا جزم إمام الحرمين وأبو سعيد المتولي وغيرهما.

والثاني: أن السحر قد يكون ناشئًا بفعلها وبمزجها ومعاناة وعلاج، والكرامة ما تفتقر إلى ذلك وفي ذلك كثير من الأوقات يقع اتفاقًا من غير أن يستدعيه أو يشعر به والله أعلم)[1].

د ـ حكم عمل السحر وتعلمه وتعليمه

أما حكمه فهو من أعظم أنواع الشرك، والأدلة على ذلك كثيرة أبرزها ما استدل به الإمام النووي، وهو حديث السبع الموبقات.

قال الإمام (وأما ما يتعلق بالمسألة من فروع الفقه فهل السحر حرام وهو من الكبائر بالإجماع وقد سبق في كتاب الإيمان أن رسول الله ﷺ عده من السبع الموبقات وسبق هناك شرحه ومختصر ذلك أنه قد يكون كفرًا وقد لا يكون كفرًا بل معصية كبيرة فإن كان فيه قول أو فعل يقتضي الكفر كفر وإلا فلا، أما تعلمه وتعليمه فحرام فإن تضمن ما يتقضي الكفر كفر وإلافلا، وإذا لم يكن فيه ما يقتضي الكفر عزر واستتيب منه ولا يقتل عندنا فإن تاب قبلت توبته وقال مالك الساحر كافر يقتل

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٤٧/ ١٤.

بالسحر ولا يستتاب ولا تقبل توبته بل يتحتم قتله والمسألة مبنية على الخلاف في قبول توبة الزنديق لأن الساحر عنده كافر كما ذكرنا وعندنا ليس بكافر وعندنا تقبل توبة المنافق والزنديق، قال القاضي عياض: وبقول مالك، قال أحمد بن حنبل: وهو مروي عن جماعة من الصحابة والتابعين، قال أصحابنا فإذا قتل الساحر بسحره إنسانًا واعترف أنه مات بسحره وأنه يقتل غالبًا لزمه القصاص، وإن قال مات به ولكنه قد يقتل، وقد لا فلا قصاص وتجب الدية والكفارة وتكون الدية في ماله لا عاقلته لأن العاقلة لا تحمل ما ثبت باعتراف الجاني، قال أصحابنا: ولا يتصور القتل بالسحر بالبينة، وإنما يتصور باعتراف الساحر والله أعلم)[1].

وفي شرح حديث أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: (اجتنبوا السبع الموبقات»[2] قيل يا رسول الله، وما هن؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات[3]»[4].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٤٧ـ١٤٨/ ١٤.

(٢) الموبقات هي المهلكات يقال: وبق الرجل يبق ووبق يوبق إذا هلك وأوبق غيره إذا أهلكه، شرح صحيح مسلم ص ٧٢/ ٢.

(٣) المحصنات الغافلات المؤمنات، المحصنات بكسر الصاد وفتحها قراءتان في السبع والمراد بالمحصنات هنا العفائف، وبالغافلات. الغافلات عن الفواحش وما قذفن به. وقد ورد الإحصان في الشرع في خمسة أقسام العفة والإسلام والنكاح والتزويج والحرية.

صحيح مسلم ص ٢٧٢، وقال الأصفهاني في المفردات (ويقال حصان للعفيفة ولذات حرمة وقال تعالى: ﴿ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها﴾ وأحصنت وحصنت قال الله تعالى: «فإذا أحسن» أي تزوجن وأحصن زوجن والحصان في الجملة المحصنة إما بعفتها أو تزوجها أو بما وقع من شرفها وحريتها، ويقال امرأة ومحصن بالمحصن، يقال إذا تصور حصنها من نفسها، والمحصن يقال إذا تصور حصنها من غيرها، ص ١٢١.

(٤) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ٧٢/ ٢، برقم (١٤٥) كتاب الإيمان.

قال الإمام: (وأما عده ﷺ السحر من الكبائر فهو دليل لمذهبنا الصحيح المشهور ومذهب الجماهير أن السحر حرام من الكبائر فعله وتعلمه وتعليمه)(١).

قلت: والذي يظهر - والله أعلم - أن الرأي الذي ذكره الإمام عن الإمام مالك - رحمه الله - هو الراجح، لأنه قول أكثر العلماء، وعليه عمل جماهير الصحابة رضي الله عنهم، ولأنه لا يعلم صدق توبة الساحر، إضافة إلى أن في قتله عبرة لغيره.

هـ - موقف الإمام من القول. بجواز تعلم السحر:

قال الإمام: (وقال بعض أصحابنا أن تعلمه ليس بحرام بل يجوز ليعرف ويرد على صاحبه ويميز عن الكرامة للأولياء وهذا القائل يمكنه أن يحمل الحديث على فعل السحر والله أعلم)(٢).

قلت: لا شك أن موقف الإمام في جواز تعلم السحر واضح وبين وذلك من كلامه السابق، وهو تحريمه ومنعه، وهو الصواب لما في ذلك من المخاطر، قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي(٣). «أعلم أن الناس قد اختلفوا في تعلم السحر من غير عمل به هل يجوز أو لا؟

والتحقيق - وهو الذي عليه الجمهور -: هو أنه لا يجوز، ومن أصرح الأدلة في ذلك تصريحه تعالى بأنه يضر ولا ينفع ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾(٤) وإذا أثبت

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٧٢/ ٢.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص٧٦/ ٢.

(٣) هو محمد الأمين بن محمد المختار بن عبدالقادر الحكمي، الشنقيطي، من أعلام هذا العصر، ولد سنة ١٣٢٥هـ في شنقيط (موريتانيا) واجتهد في طلب العلم، وكان آية في علم التفسير والأصول ومعرفة الشعر، وله مؤلفات كثيرة مفيدة من أشهرها: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، كما كان له جهود في الدعوة ونشر العلم وتوفي بمكة المكرمة سنة (١٣٩٣هـ) رحمه الله تعالى. انظر: ترجمته في آخر الجزء التاسع من أضواء البيان، للشيخ عطية سالم.

(٤) سورة البقرة، الآية: [١٠٢].

الله أن السحر ضار، ونفىٰ أنه نافع، فكيف يجوز تعلم ما هو ضرر محض لا ينفع فيه؟!.

و ـ موقف الإمام مما ورد أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قد سحر

قد ورد في حديث صحيح (أن رجلاً من اليهود[1] سحر النبي ﷺ حتىٰ كان رسول الله ﷺ يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء وما فعله)[2].

وهذا الحديث قد أنكره بعض المبتدعة بزعم أنه يحط منصب النبوة ومشكّكٌ فيها، وأنه يؤدي إلىٰ عدم الثقة بالشريعة إذ يحتمل علىٰ هذا أن يخيل إليه أنه يوحىٰ إليه بشيء ولم يوحىٰ إليه بشيء.

وقد أشار الإمام إلىٰ هذه الشبهة نقلاً عن المازري، ونقل عنه أيضًا ردًا علىٰ الشبهة، فقال: (وهذا الذي ادعاه هؤلاء المبتدعة باطل لأن الدلائل القطعية قد قامت علىٰ صدقه وصحته وعصمته فيما يتعلق بالتبليغ والمعجزة شاهدة بذلك وتجويز ما قام الدليل بخلافه باطل فأما ما يتعلق ببعض أمور الدنيا التي لم يبعث بسببها ولا كان مفضلاً من أجلها وهو مما يعرض للبشر فغير بعيد أن يخيل إليه من أمور الدنيا ما لا حقيقة له.

قال: وقد قيل إنه إنما كان يتخيل إليه أنه وطيء زوجاته وليس بواطئ وقد يتخيل الإنسان مثل هذا في المنام فلا يبعد تخيله في اليقظة ولا حقيقة له.

قال: وقيل إنه يخيل إليه أنه فعله وما فعله ولكن لا يعتقد صحة ما يتخيله فتكون اعتقاداته علىٰ السداد.

---

(١) ذكره أنه رجل من بني زريق، يقال له: لبيد بن الأعصم.

(٢) الحديث روي بلفظ طويل يتضمن قصة سحره ﷺ، وكيف تم شفاؤه منه، وقد أخرجه البخاري في صحيحه مع الفتح، ص ٢٢١/ ١٠، برقم (٥٧٦٣)، ومسلم بشرح النووي، ص ١٤٦/ ١٤، برقم (٤٣) كتاب السلام.

ثم قال الإمام ـ نقلاً عن القاضي عياض ـ (وقد جاءت روايات هذا الحديث مبينة أن السحر إنما تسلط على جسده وظواهر جوارحه لا على عقله وقلبه واعتقاده ويكون معنى قوله في الحديث حتى يظن أنه يأتي أهله ولا يأتيهن ويروى يخيل إليه أي يظهر له من نشاطه ومتقدم عادته القدرة عليهن فإذا أدنى منهن أخذته أخذة السحر فلم يأتيهن ولم يتمكن من ذلك كما يعتري المسحور وكل ما جاء في الروايات من أنه يخيل إليه فعل شيء لم يفعله ونحوه فمحمول على التخيل بالبصر لا لخلل تطرق إلى العقل وليس في ذلك ما يدخل لبساً على الرسالة ولا طعنًا لأهل الضلالة والله أعلم)[1].

قلت: هذا الحديث من الأدلة على أن للسحر تأثيرًا، وأنه يتسلط حتى على الأنبياء والمرسلين بتقدير العلي القدير وحكمته، نسأل الله السلامة والعافية.

المسألة السابعة عشر: النشرة

هذه المسألة لها علاقة بمسألة السحر، وهي أن السحر بمنزلة الداء والنشرة بمنزلة الدواء كما سيأتي:

وقد تكلم الإمام على مسألة النشرة في شرح باب الطب والمرض والرقى، من كتاب السلام في صحيح مسلم، حيث بين الإمام معناها وبعض صفاتها، والخلاف في مشروعيتها، مع بيان الراجح وفيما يلي بيان ما قرره في هذه المسألة:

أ ـ تعريف النشرة

قال الإمام: (والنشرة معروفة مشهورة عند أهل التعزيم، وسميت بذلك لأنها تنتشر عن صاحبها أي تخلى عنه، وقال الحسن هي من السحر)[2].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٤٧/ ١٤.

(٢) شرح صحيح مسلم، للنووي، ص ١٤٢/ ١٤.

ب ـ الخلاف في مشروعية النشرة وما رجحه الإمام فيها

* ذكر الإمام في مشروعية النشرة قولين للعلماء:

(القول الأول: قال الحسن هي من السحر قال القاضي: وهذا محمول على أنها أشياء خارجة عن كتاب الله تعالى وأذكاره وعن المداوة المعروضة التي هي من حسن المباح. وقد اختار هذا بعض المتقدمين فكره حل المعقود عن امرأته.

القول الثاني: أن النشرة جائزة ومشروعة، وهو قول سعيد بن المسيب والبخاري، والإمام الطبري.

قال الإمام: (وقد حكى البخاري في صحيحه عن سعيد بن المسيب أنه سئل عن رجل به طب أي ضرب من الجنون أو يؤخذ عن امرأته أيخلي عنه أو ينشر، قال: لا بأس به إنما يريدون به الصلاح فلم ينه عما ينفع وممن أجاز النشرة البري وهو الصحيح. قال كثيرون أو الأكثرون يجوز الاسترقاء للصحيح لما يخاف أن يغشاه من المكروهات والهوام ودليله أحاديث، ومنها حديث عائشة في صحيح البخاري: كان النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشه تفل في كفه ويقرأ قل هو الله أحد والمعوذتين ثم يمسح بها وجهه وما بلغت يده من جسده والله أعلم)[1].

هكذا رجح الإمام مشروعية النشرة حيث قال بعد أن حكى أن الطبري أجازها بقوله «وهو الصحيح».

ثم قال: (ودليله أحاديث منها حديث عائشة في صحيح البخاري: كان النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشه تفل في كفه ويقرأ قل هو الله أحد والمعوذتين ثم يمسح بها وجهه وما بلغت يده من جسده والله أعلم)[2].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٤٢/ ١٤.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٤٢/ ١٤.

وقال أيضًا قبل ذلك: (قال القاضي وجاء في حديث في غير مسلم سئل عن النشرة فأضافها إلى الشيطان)[1].

قلت: كون النشرة نوعين بلغت يقينًا لا احتمالاً، والتفريق بين ذنيك النوعين هو الفيصل في هذه المسألة، وقد ذكر النوعين الإمام ابن القيم - فيما نقله عنه الإمام محمد بن عبدالوهاب - في «كتاب التوحيد» قال: «قال ابن القيم: النشرة حل السحر عن المسحور وهي نوعان:

أحدهما: حل بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يحمل قول الحسن، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يجب فيبطل عمله عن المسحور، والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة، فهذا جائز)[2].

فبهذا الكلام تبين النشرة الجائزة والنشرة الممنوعة، وبه أيضًا يعرف وجه ذكر النشرة في نواقض التوحيد، لأنها قد تكون من قبل الشياطين والسحرة، فتكون مضادة للتوحيد، وقد تكون مباحة كما سبق تفصيله، وبالله التوفيق.

المسألة الثامنة عشر: الرقى والتمائم

من الرقى والتمائم ما يشتمل على شرك بالله تعالى، فيكون بذلك منافيًا للتوحيد مناقضًا له. وقد تكلم الإمام على كل منهما في كتابه «شرح صحيح مسلم للنووي».

أما الرقى فاشتمل كلام الإمام على أقسامها وشروطها وذكر بعض الأحاديث والآثار الواردة في شأنها.

---

(١) نفس المصدر، ص ١٤٢/ ١٤.

(٢) مجموعة التوحيد النجدية، ص١٢١.

وأما التمائم فتكلم الإمام وذكر النصوص في النهي عنها، وأقوال العلماء فيها، وبين أن منها ما يكون جائزاً غير داخل في المنهي عنه. ومما ذكره في الرقى والتمائم ما يأتي:

أ ـ بيان أقسام الرقى وحكم كل قسم

ذكر الإمام أقسام للرقى وهي أربعة أقسام:

(أحدها: التي من كلام الكفار والرقى المجهولة والتي بغير العربية وما يعرف معناها فهذه مذمومة لاحتمال أن يكون معناها كفر أو قريب منه أو مكروه.

الثاني: الرقى بآيات القرآن وبالأذكار المعروفة فلا نهي فيه بل هو سنة.

والثالث: رقية أهل الكتاب فقال: فجوزها أبو بكر الصديق رضي الله عنه وكرهها مالك خوفًا أن يكون مما بدلوه.

والرابع: الرقى بأسماء الله تعالى[1].

ب ـ بيان الرقى الجائزة والممنوعة شرعًا

قال الإمام: (قال المازري: جميع الرقى جائزة إذا كانت بكتاب الله أو بذكره ومنهي عنها إذا كانت باللغة العجمية أو بما لا يدري معناه لجواز أن يكون فيه كفر. قال ورقية أهل الكتاب فجوزها أبو بكر الصديق رضي الله عنه وكرهها مالك خوفًا أن يكون مما بدلوه ومن جوزها قال الظاهر أنهم لم يبدلوا الرقى فإنهم لهم غرض في ذلك بخلاف غيرها مما بدلوه وقد ذكر مسلم بعد هذا أن النبي ﷺ قال: « اعرضوا علي

---

(١) انظر: شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٤٢ ـ ١٤٣/ ١٤.

رقاكم لا بأس بالرقىٰ ما لم يكن فيها شرك»[1] وأما قوله في الرواية الأخرىٰ: «يا رسول الله إنك نهيت عن الرقىٰ» فأجاب العلماء عنه بأجوبة.

أحدها كان نهي أو اثم نسخ ذلك وأذن فيها وفعلها واستقر الشرع علىٰ الإذن.

والثاني: أن النهي عن الرقىٰ المجهول كما سبق.

والثالث: أن النهي لقوم كان يعتقدون منفعتها وتأثيرها بطبعها كما كانت الجاهلية تزعمه في أشياء كثيرة، أما قوله في الحديث الآخر لا رقية إلا من عين أو حمة، فقال العلماء: لم يرد به حصر الرقية الجائزة فيهما ومعناها فيما عداها وإنما المراد لا رقية أحق وأولىٰ من رقية العين والحمة لشدة الضرر فيهما)[2].

قلت: بهذا الكلام تعرف الرقية الجائزة والرقية الممنوعة، وشروط الرقية الجائزة التي لابد من توفرها في الرقية الجائزة والله أعلم.

وهناك مسائل أخرىٰ وأقوال لبعض العلماء تتعلق بالرقي تعرض لها الإمام في شرحه «رقية المريض بالمعوذات والنفث» وباب جواز أخذ الأجرة علىٰ الرقية بالقرآن والأذكار، ولا مجال لذكرها هنا، وإنما ذكرت من كلامه ما يناسب المقام.

ج- حكم التمائم

قال الإمام: (وقال الداودي المراد بالحديث الذي يفعلونه في الصحة فإنه يكره لمن ليست به علة أن يتخذ التمائم ويستعمل الرقىٰ وأما من يستعمل ذلك ممن به مرض فهو جائز)[3].

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ١٥٦/ ١٤، برقم (٦٤) كتاب السلام.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٤٢/ ١٤.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٧٧/ ٣.

والتمائم هي عبارة عن خرز أو قلادة تعلق في الرأس، كانوا في الجاهلية يعتقدون أن ذلك يدفع الأفات[1].

وقال الإمام في حكم القلائد التي تعلق في رقبة الحيوان والإنسان. (قال القاضي: وقد اختلف الناس في تقليد البعير وغيره من الإنسان وسائر الحيوان ما ليس بتعاويذ مخافة العين فمنهم من منعه قبل الحاجة إليها وأجازه عند الحاجة إليه لدفع ما أصابه من ضرر العين ونحوه، ومنهم من أجازه قبل الحاجة وبعدها كما يجوز الاستظهار بالتداوي قبل المرض، وقال أبو عبيد: كانوا يقلدون الإبل الأوتار لئلا تصيبها العين فأمرهم النبي ﷺ بإزالتها إعلامًا لهم أن الأوتار لا ترد شيئًا، وقال محمد بن الحسن وغيره: معناه لا تقلدوها أوتار القسي لئلا تضيق على أعناقها فتخنقها، وقال النضر: معناه لا تطلبوا الدخول التي وترتم بها في الجاهلية، وهذا تأويل ضعيف فاسد والله أعلم)[2].

وقال (قوله ﷺ: «لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر أو قلادة إلا قطعت، قال مالك: أرىٰ ذلك من العين، هكذا هو في جميع النسخ قلادة من وتر أو قلادة الثانية مرفوعة معطوفة على قلادة الأولىٰ، ومعناه أن الراوي شك هل قال قلادة من وتر أو قال قلادة فقط ولم يقيدها بالوتر، وقول مالك: أرىٰ ذلك من العين هو بضم همزة أرىٰ أي أظن أن النهي مختص بمن فعل ذلك بسبب رفع ضرر العين وأما من فعله لغير

---

(١) انظر فتح الباري، ص ١٩٦/ ١٠، وأيضًا الصحاح، ص (٥/ ١٨٧٨) (٢/ ٥٦٦)، النهاية (١٩٧- ١٩٨/ ١)، والتمهيد (١٦٢/ ١٧)، لسان العرب لابن منظور، ص ١٣٣٢/ ١، مادة تيم.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٨٠/ ١٤.

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٨٠/ ١٤.

ذلك من زينة أو غيرها فلا بأس)[1].

قلت: والقول بجواز التمائم إذا كانت من القرآن وأسماء الله وصفاته قال به جماعة من السلف ومن الخلف، كما منع من ذلك كله جماعة من السلف والخلف أيضًا، فهو محل خلاف معروف بين أهل السنة والجماعة[2].

ويعجبني ما قاله الشيخ السعدي في كتابه «القول السديد» عن هذا الموضوع قال ـ رحمه الله ـ (وأما التعاليق التي فيها قرآن أو أحاديث نبوية أو أدعية طيبة محترمة، فالأولى تركها لعدم ورودها عن الشارع، ولكونها يتوسل بها إلى غيرها من المحرم، ولأن الغالب على متعلقها أنه لا يحترمها ويدخل فيها المواضع القذرة)[3].

ففي هذا بيان لما هو أولى في هذا الموضوع، وتتأكد هذه الأولوية في هذا الزمان الذي جهل فيه كثير من الناس التوحيد ونواقضه والله المستعان.

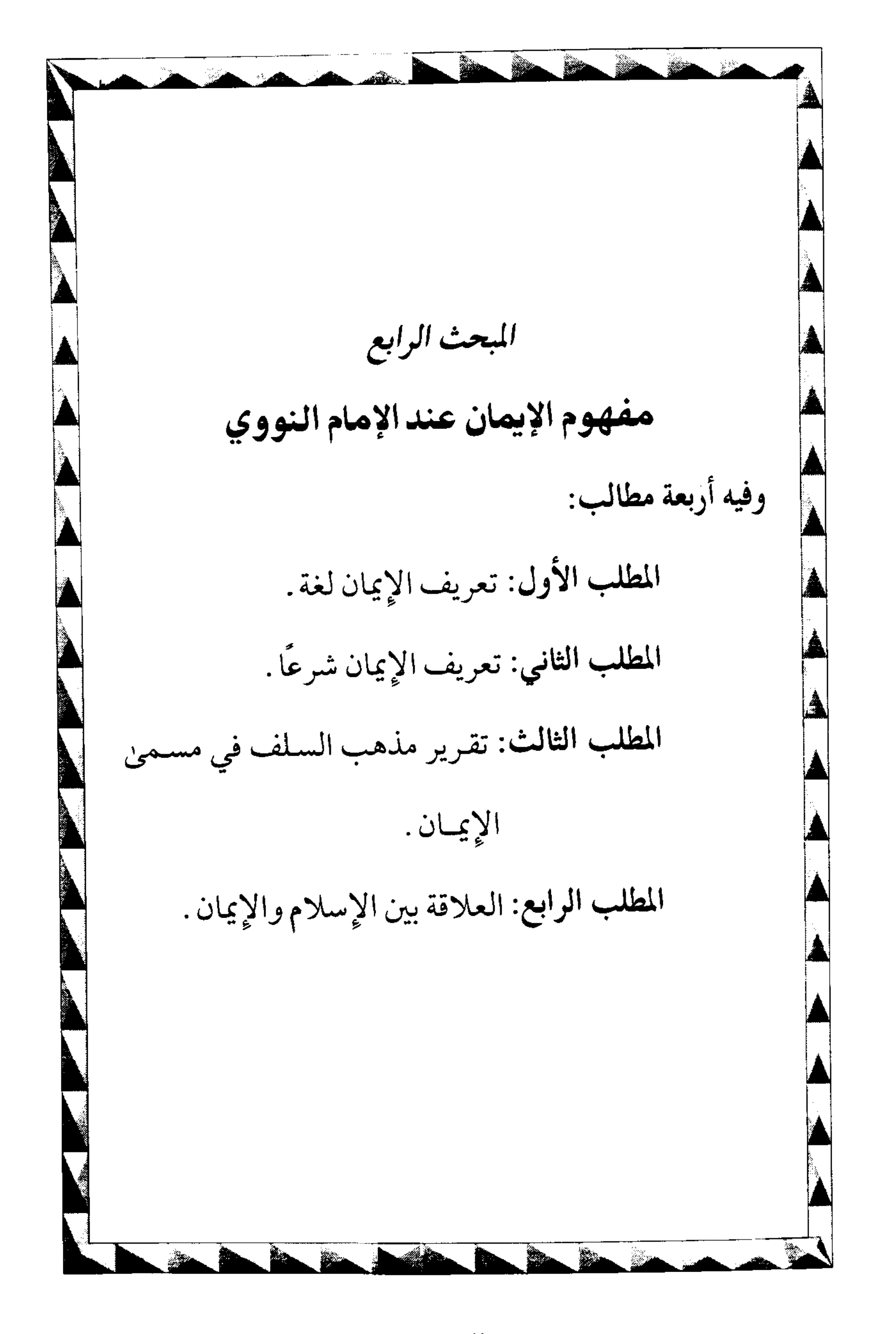
وأيضًا القول بجواز ذلك، مما يؤدي إلى تعطيل قراءة القرآن، والأدعية والأذكار وحفظها والعمل بها، والفوائد التي تحصل للقارئ والسامع من تدبر كلام الله جل وعلا، والتعليق يعطل ذلك كله[4]، والله أعلم.



(٢) انظر في بيان ذلك: تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، ص ١٣١ ـ ١٣٨.

(٣) كتاب «القول السديد» ص ٢٧ ـ ٢٨، الكلم الطيب [الحاشية] ص ٤٥، تأليف ابن تيمية، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني.

(٤) تيسير العزيز الحميد، ص ١٣٧.



المبحث الرابع

مفهوم الإيمان عند الإمام النووي

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: تعريف الإيمان لغة.

المطلب الثاني: تعريف الإيمان شرعًا.

المطلب الثالث: تقرير مذهب السلف في مسمىٰ الإيمان.

المطلب الرابع: العلاقة بين الإسلام والإيمان.

المطلب الأول

تعريف الإيمان لغة

يجدر بي قبل ذكر مفهوم الإيمان عند الإمام النووي - رحمه الله - أن أبين معناه لغة وشرعًا.

تعريف الإيمان لغة

الإيمان كما بيّن علماء اللغة مصدر من آمن يؤمن إيمانًا فهو مؤمن، هو مشتق من الأمن. قال الجوهري: (الإيمان التصديق؛ والله تعالى المؤمن لأنه أمن عباده من أن يظلمهم وأصل آمن أأمن بهمزتين . . . والأمن ضد الخوف)[1].

وقال ابن منظور[2]: (الإيمان ضد الكفر، والإيمان بمعنى التصديق ضده التكذيب، يقال: آمن به قوم وكذب به قوم[3])[4].

---

(١) الصحاح للجوهري ٥/ ٢٠٧١.

(٢) هو جمال الدين أبو الفضل، محمد بن مكرم بن علي الأنصاري المعروف بابن منظور أديب لغوي بارع. وله مشاركة في كثير من العلوم المختلفة، له مصنفات أشهرها (لسان العرب) الذي يعتبر من أمهات مراجع اللغة العربية ومنها (مختصر تاريخ دمشق) لابن عساكر توفي سنة (٧١١هـ). انظر: شذرات الذهب ٦/ ٢٦، والأعلام للزركلي ٧/ ١٠٨.

(٣) لسان العرب ١٠٧ـ١٠٨/ ١.

(٤) إذا كان أصل الإيمان التصديق في اللغة، إلا أنه تصديق مخصوص، كما أن الصلاة دعاء مخصوص، والحج قصد مخصوص، وهذا التصديق له لوازم صارت داخلة في مسماه عند الاطلاق فإن انتفاء اللازم يقتضي انتفاء الملزوم. انظر مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ٧/ ٢٩٧، ولقد انتقد شيخ الإسلام تفسير الإيمان بالتصديق وبين أن لفظ الإيمان لا يرادف لفظ التصديق وذلك من وجوه أربعة وهي: =

وقال الأصبهاني: (آمن إنما يقال على وجهين: أحدهما: متعديًا بنفسه يقال: آمنت أي جعلت له الأمن، ومنه قيل لله مؤمن. والثاني: غير متعد ومعناه: صار ذا أمن. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾[1] معناه: ما أنت بمصدق لنا، إلا أن الإيمان هو التصديق الذي معه أمن)[2].

وخلاصة ما سبق أن الإيمان في اللغة معناه: التصديق الذي معه أمن وليس مجرد التصديق كما قال الإمام النووي نقلاً عن القاضي عياض رحمهما الله[3]. يقول شيخ

= أحدها: أنه يقال للمخبر إذا صدقته: صدقه، ولا يقال: آمنه وآمن به، بل يقال آمن له، كما قال تعالى: ﴿فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، وقال: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ﴾ [يونس: ٨٣]، وقال فرعون: ﴿آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ [الشعراء: ٤٩] فلفظ الإيمان يتعدى إلى الضمير باللام دائما، لا يقال آمنته، وإنما يقال آمنت له، كما يقال أقررت له.

الثاني: وليس مرادفًا له في المعنى، فإن كل مخبر عن مشاهده أو غيب يقال له في اللغة: صدقت، كما يقال: كذبت. أما لفظ الإيمان فلا يستعمل إلا في الخبر عن غائب. فلو قال: طلعت الشمس أو غربت فلا يقال: أمنا، كما يقال: صدقناه، لأن الإيمان مشتق من الأمن فإنما يستعمل في خبر يؤتمن عليه المخبر كالأمر الغائب، ولهذا لم يوجد في القرآن وغيره قط: آمن له، إلا في هذا النوع.

وفي الآية الكريمة المذكورة قالوا ﴿وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧] ومعناها: أنك لا تقر بخبرنا، ولا تثق به، ولا تطمئن إليه، ولو كنا صادقين لأنهم لم يكونوا عنده ممن يؤتمن على ذلك. فلو صدقوا لم يأمن لهم.

الثالث: أن لفظ الإيمان لم يقابل بالتكذيب كلفظ التصديق، وإنما مقابل الإيمان، الكفر، لأن الكفر ليس هو التكذيب به فقط، فكذلك ما يقابله وهو الإيمان ليس هو التصديق فقط.

الرابع: أن من الناس من يقول: الإيمان أصله في اللغة من الأمن الذي هو ضد الخوف: فآمن أي صار داخلاً في الأمن. (انظر مجموع الفتاوى، ص٢٩٠ـ٢٩٣/ ٧).

(١) سورة يوسف، آية: [١٧].

(٢) المفردات للأصبهاني ص ٢٦.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٥/ ٢، وإكمال المعلم ص ٢١٦/ ٢.

الإسلام ابن تيمية: (فإن الإيمان مشتق من الأمن، فإنما يستعمل في خبر مؤتمن عليه المخبر كالأمر الغائب الذي يؤتمن عليه المخبر . . . فاللفظ متضمن مع التصديق معنى الإئتمان أو الأمانة، كما يدل عليه الإشتقاق والإستعمال، ولهذا قالوا - إخوة يوسف - ﴿وما أنت بمؤمن لَنَا﴾ أي لا تقر بخبرنا ولا تثق به ولا تطمئن إليه ﴿ وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ لأنهم لم يكونوا عنده ممن يؤتمن على ذلك فلو صدقوا لم يأمن لهم)[1].

تعريف الإيمان شرعًا

أ- اختلاف الناس في ذلك

اختلف الناس فيما يقع عليه اسم الإيمان شرعًا على أقوال:

١- فذهب أهل السنة والجماعة وأهل الظاهر وجماعة من المتكلمين إلى أنه تصديق بالجنان وإقرار باللسان وعمل بالأركان، وأن الأعمال كلها داخلة في مسمى الإيمان[2]. وهذا هو القول الحق كما سيتبين لك من خلال الأدلة التي استدلوا بها.

٢- وذهب الجهمية: إلى أن الإيمان هو المعرفة بالقلب، وهذا القول هو أفسد الأقوال وأردؤها لأنه لازمه أن إبليس وفرعون وقومه وكل من عرف الحق فلم يؤمن به

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٧/ ٢٩١- ٢٩٢.

(٢) انظر كتاب الإيمان لأبي عبيد ص ٩- ١٠- ١١، وكتاب الإيمان لابن أبي شيبة ص ٤٦، والسنة للخلال ٣/ ٥٨٠- ٥٨٣، والإبانة لابن بطة ٢/ ٨١١، ٨٢٧، والإيمان لابن منده بتحقيق د. الفقيهي ١/ ٣٣١، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٤/ ٨٣٠- ٨٨٩، وعقيدة السلف أصحاب الحديث ص ٦٧- ٧١، ومسائل الإيمان لأبي يعلى ص ١٥٢، والإعتقاد للبيهقي ص ١١٥، والإيمان لابن تيمية ص ١٢٣، ٢٦٤، ٢٧١، وشرح العقيدة الطحاوية ص ٤٥٩/ ٢، وجامع العلوم والحكم لابن رجب ١/ ٦١- ٦٣.

يكون عند هؤلاء مؤمن ولهذا كفر السلف هؤلاء[1].

٣ ـ وذهب المرجئة[2]: إلى نفي أن تكون الأعمال داخلة في مسمى الإيمان وهم على ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: من يقول: الإيمان هو التصديق في القلب، ومن هؤلاء من يدخل فيه أعمال القلوب وهم أكثر فرق المرجئة كما ذكر أبو الحسن الأشعري[3]، ومنهم من لا يدخلها في الإيمان كمذهب الجهمية.

الصنف الثاني: من يقول الإيمان هو مجرد قول اللسان، وهذا لا يعرف لأحد قبل الكرامية، فالمنافقون على مذهبهم مؤمنون كاملوا الإيمان، لكنهم يقولون بأنهم يستحقون العذاب الذي توعدهم الله به، وقول هؤلاء ظاهر البطلان والفساد.

الصنف الثالث: من يقول بأن الإيمان تصديق القلب وقول اللسان، وهذا هو المشهور عند أهل الفقه والعبادة منهم، وهؤلاء غلطوا من وجوه كثيرة[4] والنصوص رد عليهم جميعًا.

---

(١) كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ص ١٦٦.

(٢) الإرجاء له معنيان: أحدهما: بمعنى التأخير كما في قوله تعالى: ﴿ **قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ** ﴾ [الأعراف: ١١١] بمعنى أخره وأمهله، وسمي المرجئة بهذا المعنى لأنهم يؤخرون الأعمال عن النية وعقد القلب، والمعنى الثاني: الإرجاء بمعنى إعطاء الإرجاء. تقول أرجيت فلانًا أي أعطيته رجاء، وسموا بذلك على هذا المعنى لأنهم يقولون (لا يضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة)، والمرجئة أصناف كثيرة وفرق متعددة، فمنهم الغلاة كالجهمية، ومنهم من دون ذلك. ويجمعهم القول بأن الأعمال ليست من الإيمان. انظر مقالات الإسلاميين ٢/ ٢١٣، والملل والنحل ص ١٦١/ ١.

(٣) مقالات الإسلاميين ٢١٣ ـ ٢٢٣ / ٢

(٤) انظر تفصيل ذلك والرد عليهم في كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ص ١١٦ ـ ١٣٤.

ب ـ موقف الإمام النووي من تعريف الإيمان

وافق الإمـام النووي مـذهب السلف في كـون الإيمـان تصـديـق بالقلب وقـول باللسـان وعمل بـالجوارح، فقـد قـال في ذلك «فـالمعنى الذي يستـحق به العبـد المدح والولاية من المؤمنين هو إتيانه بهذه الأمور الثلاثة، التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالجوارح. وذلك أنه لا خلاف بين الجميع أنه لو أقر وعمل على غير علم منه ومعـرفة بربه لا يستحق اسم مؤمن، ولو عـرفه وعـمل وجحد بلسـانه وكذب مـا عرف من التوحـيد لا يستحق اسـم مؤمن، وكذلك إذا أقر بالله تـعالى، وبرسله صلوات الله وسلامه عليـهم أجـمعين ولـم يعـمل بالفـرائض لا يسمـى مؤمنًا بالاطلاق وإن كـان في كلام العـرب يسمى مؤمنًا بالتصديق فـذلك غير مستحق في كـلام الله تعالى لقـوله عز وجله: ﴿ **إنما المؤمنون الذين إذا ذكـروا الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليـهم آياته زادتهم إيمانًا وعلى ربهم يتـوكلون الذين يقيمـون الصلاة ومما رزقناهم ينفقـون أولئك هم المؤمنون حقًا** ﴾ فأخبر سبحانه وتعالى أن المؤمن من كانت هذه صفته»[1].

وقال في موضع آخر «واتفق أهل السنة من المحـدثين والفقهاء والمتكلمين على أن المؤمن الذي يحكم بـأنه من أهل القبلة ولا يخلد في النار لا يكون إلا مـن اعتـقـد بقلبه وبلسانه الإسـلام اعتقادًا جـازمًا خاليًا من الشكوك، ونطق بالشـهادتين، فإن اقتـصرها على أحـدهمـا لـم يكن من أهل الـقبـلة أصـلاً إلا إذا عجـز عن النطق لخلل في لسـانه أو لعدم التمكن منه لمعاجلة المنية أو لغير ذلك فإنه يكون مؤمنًا»[2].

ولقد ذكر الخلاف الواقع في ذلك فقال: نقلاً عن ابن بطال.

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٣٣/ ١ كتاب الإيمان.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٣٢/ ١.

(وقالت الكرامية وبعض المرجئة الإيمان هو الإقرار باللسان دون عقد القلب «ثم رد عليهم» ومن أقوىٰ ما يرد به عليهم إجماع الأمة علىٰ إكفار المنافقين وإن كانوا قد أظهروا الشهادتين. قال الله تعالىٰ: ﴿ولا تصل علىٰ أحد منهم مات أبدًا ولا تقم علىٰ قبره إنهم كفروا بالله ورسوله﴾[1] إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وتزهق أنفسهم وهم كافرون﴾[2])[3].

وقال نقلاً عن القاضي عياض «وقد تقدم أن أصل الإيمان في اللغة التصديق وفي الشرع تصديق القلب واللسان، وظواهر الشرع تطلقه علىٰ الأعمال كما وقع هنا، أفضلها لا إله إلا الله، وآخرها إماطة الأذىٰ عن الطريق وقد قدمنا أن كمال الإيمان بالأعمال وتمامه بالطاعات، وأن التزام الطاعات وضم هذه الشعب من جملة التصديق والدلائل عليه. وأنها خلق أهل التصديق، فليست خارجة عن اسم الإيمان الشرعي ولا اللغوي»[4].

قلت: مراد القاضي في قوله (وقد قدمنا أن كمال الإيمان بالأعمال وتمامه بالطاعات . .) التمام الواجب المستحب بدليل قوله (وظواهر الشرع تطلقه علىٰ الأعمال)، وبهذا يلتقي منهج كلاً من الإمام النووي، ومن قبله القاضي عياض في مسمىٰ الإيمان مع منهج السلف في كون الإيمان اعتقادًا بالقلب وقولاً باللسان، وعملاً بالأركان، وأن الأعمال داخلة في مسماه.

---

(١) سورة التوبة، الآية: [٨٤].

(٢) سورة التوبة، الآية: [٨٥].

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١/١٣٢.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٢/٥، وهذا القول للقاضي عياش موجود في كتابه إكمال المعلم، ص ٤١٦ ـ ٢/٤١٧، نقلاً عن الرسالة التي بعنوان منهج القاضي عياض في العقيدة ص ٤٥٥.

المطلب الثالث

تقرير مذهب السلف في مسمى الإيمان بذكر بعض أقوالهم في ذلك وأدلتهم

عرف السلف (أهل السنة والجماعة) الإيمان كما تقدم بأنه: (تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح) وأقوالهم في هذا الأمر كثيرة جدًا يصعب حصرها وإليك طرفًا منها.

أ ـ ذكر عدد من أقوال السلف في مسمى الإيمان:

ـ قال علي بن أبي طالب وعبدالله بن مسعود رضي الله عنهما (لا ينفع قول إلا بعمل، ولا قول وعمل إلا بنية، ولا نية إلا بموافقة السنة)[1].

ـ وقال الحسن البصري رحمه الله (ليس الإيمان بالتحلي ولا التمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقته الأعمال)[2].

ـ وثبت عن الإئمة الكرام، الثوري ومالك وسفيان بن عيينة والأوزاعي ووكيع بن الجراح والفضيل بن عياض وأحمد بن حنبل وغيرهم أنه لما سئلوا عن الإيمان قالوا: (الإيمان قول وعمل)[3].

---

(١) أخرجه الآجري في الشريعة، ص ١٣١.

(٢) أخرجه الآجري في الشريعة ص ١٣٠، وبنحوه أخرجه اللاكائي ٤/ ٨٤٦، وانظر شرح الطحاوية ص ٤٥٩/ ٢.

(٣) أخرج ذلك القاسم بن سلاّم في كتاب الإيمان ص ٨٣، والخلال في السنة ٣/ ٥٨٠ ـ ٥٨٢، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٤/ ٨٤٨ ـ ٨٤٩، والآجري في الشريعة ص ١٣١ ـ ١٣٢، وشيخ الإسلام الصابوني في عقيدة السلف ص ٦٧ ـ ٧٠.

ـ وقال الإمام أبو بكر بن أبي شيبة[١] رحمه الله (الإيمان عندنا قول وعمل ويزيد وينقص)[٢].

ـ وقال الإمام البربهاري[٣] رحمه الله: (الإيمان قول وعمل ونية يزيد وينقص، يزيد ما شاء الله وينقص حتى لا يبقى منه شيء)[٤].

ـ وقال الإمام الآجري رحمه الله بعد أن ذكر اتفاق الأمة على أن الإيمان تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح: (ثم اعلموا أنه لا تجزئ المعرفة بالقلب والتصديق إلا أن يكون معه الإيمان باللسان نطقًا، ولا تجزئ معرفة بالقلب ونطق باللسان حتى يكون عمل بالجوارح، فإذا كملت فيه هذه الخصال كان مؤمنًا. دل على ذلك الكتاب والسنة وقول علماء المسلمين) ثم قال: (أعلموا رحمنا الله وإياكم أنكم إن تدبرتم القرآن كما أمركم الله عز وجل، علمتم أن الله عز وجل أوجب على المؤمنين بعد إيمانهم به وبرسوله العمل، وأنه عز وجل لم يثن على المؤمنين بأنه قد رضي عنهم وأنهم قد رضوا عنه وأثابهم على ذلك الدخول إلى الجنة والنجاة من النار إلا بالإيمان والعمل الصالح، وقد قرن مع الإيمان العمل الصالح، لم يدخلهم الجنة بالإيمان وحده. حتى ضم إليه العمل الصالح الذي قد وفقهم له، من تدبر القرآن وتصفحه،

---

(١) هو الإمام العلم سيد الحفاظ أبو بكر عبدالله بن محمد بن أبي شيبة إبراهيم بن عثمان الكوفي، صاحب الكتب الكبار المسند والمصنف والتفسير، وهو من أقران أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهوية وابن المديني في السن والمولد والحفظ، ولد سنة (١٩٥هـ) وتوفي سنة (٢٣٥هـ) انظر: سير أعلام النبلاء ١١/ ١٢٢، وتقريب التهذيب ١/ ٥٢٨، وتذكرة الحفاظ ٢/ ٤٣٢.

(٢) الإيمان لابن أبي شيبة ص ٤٦.

(٣) هو أبو محمد، الحسن بن علي بن خلف البربهاري (نسبة إلى بربهار وهي الأدوية التي تجلب من الهند) كان إماماً حافظًا متقنًا ثقة فقيهًا، قوالاً بالحق داعية إلى السنة، لا يخاف في الله لومة لائم، شديد الإنكار على أهل البدع والأهواء، شديد المباينة لهم باليد واللسان، وكان صاحب هيبة عند السلطان وعند الناس، زاهداً في الدنيا لا يأبه بها، من كتبه شرح السنة . توفي سنة (٣٢٩هـ) عن عمر ينهاز السبعين ، وقيل التسعين انظر ترجمته في سير أعلام النبلاء ١٥/ ٩٠، وشذرات الذهب ٢/ ٣١٩.

(٤) شرح السنة للبربهاري ص ٢٧.

وجده كما ذكرت، إني قد تصفحت القرآن فوجدت فيه ما ذكرته في ستة وخمسين موضعًا من كتاب الله عز وجل، إن الله تبارك وتعالى لم يدخل المؤمنين الجنة بالإيمان وحده، بل أدخلهم الجنة برحمته إياهم وبما وفقهم له من الإيمان والعمل الصالح، وهذا رد على من قال (الإيمان المعرفة) ورد على من قال (المعرفة والقول وإن لم يعمل) نعوذ بالله من قائل ذلك)[1].

وتعريف السلف للإيمان بأنه (قول وعمل) يشمل الاعتقاد والنطق باللسان والعمل بالجوارح، فإن القول - كما بينوا[2] رحمهم الله - قسمان قول القلب وهو الإعتقاد وقول اللسان وهو التكلم بكلمة الإسلام، والعمل قسمان، عمل القلب وهو نيته وإخلاصه، وعمل الجوارح.

ب - إجماع السلف على أن الإيمان اعتقاد وقول وعمل

أجمع السلف الصالح - رحمهم الله - ومن سار على نهجهم بإحسان على أن الإيمان هو التصديق بالجنان والقول باللسان والعمل بالأركان، وقد حكى هذا الإجماع عدد كبير منهم.

فقد قال الإمام الشافعي - رحمه الله -: (وكان الإجماع من الصحابة والتابعين لهم ومن بعدهم، ومن أدركنا يقولون: الإيمان قول وعمل ونية، ولا يجزئ واحد من الثلاثة إلا بالآخر)[3].

- وقال الإمام البخاري رحمه الله: (لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء

---

(١) الشريعة للآجري، ص ١١٩، ١٢٢.

(٢) الإيمان لأبي عبيد القاسم بن سلام ص ٧٦-٧٧، والشريعة ص ١٢٢، وشرح الطحاوية ص ٢/٤٦٣.

(٣) نقله اللالكائي عنه في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٥/٨٨٦، وشيخ الإسلام ابن تيمية في كتاب الإيمان ص ٢٦٥.

بالأمصار، فما رأيت أحدًا منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص)[1].

ـ وقال الإمام الآجري ـ رحمه الله ـ: (اعلموا رحمنا الله وإياكم أن الذي عليه علماء المسلمين أن الإيمان واجب على جميع الخلق وهو تصديق بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح . .)[2].

ـ وقال الإمام البغوي ـ رحمه الله ـ: (اتفقت الصحابة والتابعون فمن بعدهم من علماء السنة على أن الأعمال من الإيمان . . . وقالوا: إن الإيمان قول وعمل وعقيدة وأنه يزيد وينقص»[3].

ـ وقال أبو عمر بن عبدالبر ـ رحمه الله ـ: (أجمع أهل الفقه والحديث على أن الإيمان قول وعمل، ولا عمل إلا بنية والإيمان عندهم يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، والطاعات كلها عندهم إيمان إلا ما ذكر عن أبي حنيفة ـ رحمه الله ـ فإنه ذهب إلى الطاعات لا تسمى إيمانًا)[4].

قلت: أبو حنيفة رحمه الله يوجب العمل ويعتبره من لوازم الإيمان، وإن كان لا يدخله في تعريفه، فهو متفق مع السلف في أن الممتنع عن العمل عاص لله ولرسوله ﷺ مستحق للوعيد، وإن مرتكب الكبيرة غير خارج من الملة[5]. ولكن مع هذا يجب طرح هذا الرأي والعمل بقول ما اتفق عليه علماء السلف، لئلا يكون قول أبي حنيفة

(١) ذكره اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٥/ ٨٨٦، وابن حجر في فتح الباري ١/ ٦٧، وقال سنده صحيح.

(٢) الشريعة للآجري ص ١١٩.

(٣) شرح السنة للبغوي ١/ ٣٨ـ٣٩.

(٤) التمهيد لابن عبدالبر ٩/ ٢٣٨.

(٥) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٦٢ ـ ٤٦٣/ ٢.

رحمه الله ومن وافقه ذريعة لأهل البدع والأهواء فيما ذهبوا إليه من آراء منحرفة في هذا الشأن.

ـ وممن نقل إجماع السلف أيضًا شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ فقد قال: (من أصول الدين عند أهل السنة أن الدين والإيمان قول وعمل، قول القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، وأن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية)[1].

ـ وقال شارح الطحاوية ـ رحمه الله ـ: (ذهب مالك والشافعي وأحمد والأوزاعي وسائر أهل المدينة وأهل الظاهر وجماعة من المتكلمين، إلى أنه (الإيمان) تصديق بالجنان وإقرار باللسان وعمل بالأركان)[2]، وقال أيضًا: (لا خلاف بين أهل السنة أن الله تعالى أراد من العباد القول والعمل)[3]. فاتضح مما سبق أن أهل السنة والجماعة متفقون على هذا الأمر.

وقد استدل السلف رحمهم الله لما ذهبوا إليه بالكتاب والسنة وبالإجماع ـ الذي تقدم ذكر بعضه ـ.

❊ ❊ ❊

---

(١) العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام بشرح الهراس ص ١٥٢، وكتاب الإيمان لشيخ الإسلام ص ١٧٣.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية، ص ٣١٣.

(٣) المرجع السابق، ص ٣١٥.

المطلب الرابع

العلاقة بين الإيمان والإسلام

إن المتتبع لآيات الكتاب العزيز وأحاديث الرسول ﷺ يجد أن اسم الإيمان يذكر تارة مفردًا غير مقرون باسم الإسلام، وتارة يذكر مقرونًا به، وكذلك اسم الإسلام يذكر مفردًا أحيانًا غير مقرون باسم الإيمان، وأخرىٰ مقرونًا به، فأحيانًا يكونان مترادفين بمعنىٰ واحد، وأحيانًا متغايرين، فلكل واحد معنىٰ يختلف عن الآخر، ويمكن حصر ذلك في الأقسام التالية:

المسألة الأولى: أقسام النصوص الواردة في معنى الإيمان والإسلام.

وردت نصوص من الكتاب الكريم والسنة المطهرة تدل علىٰ أن الإسلام هو الأعمال الظاهرة، والإيمان هو الأعمال الباطنة.

من ذلك قوله سبحانه: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾(١). ففرقت الآية بين الإسلام والإيمان، فدل ذلك علىٰ تغايرهما، وأن المراد بالإيمان الأعمال الباطنة من تصديق القلب وإقراره ومعرفته، وبالإسلام الأعمال الظاهرة من استسلام العبد لربه تعالىٰ وخضوعه وانقياده وطاعته، فليس كل مسلم مؤمنًا، وإنما كل مؤمن هو مسلم.

ومن السنة حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه المشهور بحديث جبريل وفيه: أخبرني عن الإسلام فقال ﷺ: «أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله

---

(١) سورة الحجرات، آية: [١٤].

وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً، قال: صدقت، فعجبنا له يسأله ويصدقه. قال: فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»[1].

ففي هذا الحديث فرق الرسول ﷺ بين الإسلام والإيمان، حيث فسر الإيمان بالأعمال القلبية الاعتقادية والإسلام بالأعمال الظاهرة.

- ومن السنة أيضًا حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ أعطىٰ رهطًا - وسعد جالس - فترك رسول الله رجلاً هو أعجبهم إليّ فقلت يا رسول الله مالك عن فلان؟ فو الله إني لأراه مؤمنًا، فقال: «أو مسلمًا» ثم غلبني ما أعلم منه فعدت لمقالتي، وعاد رسول الله ﷺ ثم قال: «يا سعد إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليّ منه خشية أن يكبه الله في النار»[2].

فهذه الأدلة وغيرها كثير تدل علىٰ أن الإسلام والإيمان متغايران.

كما وردت آيات وأحاديث تفيد بأن الأعمال الظاهرة داخلة في مسمىٰ الإيمان.

من ذلك قوله سبحانه: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ**﴾[3]، وقوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ

---

(١) تقدم تخريجه، ص ١٠٦.

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب إذا لم يكن الإسلام علىٰ الحقيقة ١/ ١٠٠ برقم: ٢٧، واللفظ له، ومسلم في كتاب الإيمان، باب تألف من يخاف علىٰ إيمانه لضعفه ٢/١٥٦، برقم: ١٥٠. ومعنىٰ (خشية أن يكبه الله في النار) أي أتألف قلبه بالإعطاء مخافة من كفره إذا لم يعط. شرح صحيح مسلم ٢/١٥٥.

(٣) سورة الحجرات، آية: [١٥].

الإسلام﴾[1]، وقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾[2]، وقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[3]وقوله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[4].

فيدخل في الإيمان معنى الإسلام، كما يدخل في الإسلام معنى الإيمان، لأن الإيمان الذي دعا الله إليه عباده وافترضه عليهم، إنما هو الإسلام الذي جعله سبحانه دينًا وارتضاه لهم وأبى أن يقبل منهم غيره وهو ضد الكفر الذي سخطه وكرهه لهم فلم يرتضه عز وجل.

ومن الأحاديث قوله ﷺ: «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان»[5].

ومنها قوله ﷺ في حديث عمرو بن عبسة[6] - رضي الله عنه - قال: قال رجل يا رسول الله ما الإسلام؟ قال: «أن يسلم قلبك لله عز وجل وأن يسلم المسلمون من لسانك ويدك»، قال: فأي الإسلام أفضل؟ قال: «الإيمان»، قال: وما الإيمان؟ قال: «تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت»، قال: فأي الإيمان أفضل؟

---

(١) سورة آل عمران، آية: [١٩].

(٢) سورة المائدة، آية: [٥].

(٣) سورة آل عمران، آية: [٨٥].

(٤) سورة المائدة، آية: [٣].

(٥) تقدم تخريجه ص ٤٥٥.

(٦) هو أبو نجيح، عمرو بن عبسة بن خالد بن عامر بن غاضرة بن امرئ القيسي السلمي، أسلم بمكة ثم رجع إلى بلاده، فلما علم بهجرة النبي ﷺ جاء المدينة فسكنها بعد خيبر وقبل الفتح، وقد كان من أمراء الجيش يوم اليرموك، توفي بالشام في أواخر خلافة عثمان كما قال ابن حجر. انظر: أسد الغابة ٤/ ١١٩، وسير أعلام النبلاء ٢/ ٤٥٦، والإصابة ٣/ ٥.

قال: «الهجرة»، قال: فما الهجرة؟ قال: «تهجر السوء»، قال: فأي الهجرة أفضل؟ قال: «الجهاد»[1].

المسألة الثانية: موقف العلماء من هذه الأقسام

لقد اختلف علماء السلف في هذه المسألة على قولين:

الأول: أن الإسلام والإيمان شيء واحد، أي أنهما مترادفان يراد بأحدهما ما يراد بالآخر. وهذا قول جماعة من العلماء منهم الإمام البخاري، وابن حزم وابن عبدالبر وغيرهم[2].

القول الثاني: وذهب آخرون إلى التفريق بينهما وقالوا إن الإسلام غير الإيمان، واستدلوا لذلك بنصوص من الكتاب والسنة التي تقدم طرف منها في القسم الأول، وهذا القول لجماعة من الصحابة والتابعين منهم ابن عباس والحسن البصري وابن سيرين[3].[4].

---

(١) رواه أحمد ٤/ ١١٤، وعزاه الهيثمي أيضًا إلى الطبراني في الكبير وقال رجاله ثقات. انظر مجمع الزوائد ١/ ٥٩.

(٢) فتح الباري ١/ ٦٠، ١٤٠، وتعظيم قدر الصلاة للمروزي ١/ ٤٠٢، ٢/ ٥٠٦، ٥٣١ بتحقيق الفريواني، والإيمان لابن منده ١/ ٣٢١-٣٢٢، والمحلى لابن حزم ١/ ٣٨، والتمهيد لابن عبدالبر ٩/ ٢٤٩-٢٥٠.

(٣) هو الإمام شيخ الإسلام الثقة الثبت العابد، أبو بكر محمد بن سيرين، الأنصاري البصري مولى أنس بن مالك رضي الله عنه، رأى ثلاثين من الصحابة، كان لا يرى الرواية للحديث بالمعنى، وكان يرى أن أهل الأهواء أسرع الناس ردة وهو القائل: إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم، ولد سنة (٢١هـ) وتوفي (١١٠هـ) وهو ابن (٧٨سنة) انظر: مشاهير علماء الأمصار ص ٨٨، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٦٠٦.

(٤) كتاب الإيمان لابن منده ١/ ٣١١.

وقال به الحافظ ابن رجب[1] ـ رحمه الله ـ وقد نقل التفريق بينهما عن كثير من السلف منهم قتادة وداود[2] بن أبي الهند، والزهري، وحماد بن زيد[3]، وابن مهدي[4]، وابن أبي ذئب[5]، وأحمد بن حنبل، ويحيىٰ بن معين[6]، وغيرهم علىٰ

---

(١) هو الإمام الحافظ المقرئ الزاهد الحجة، أبو الفرج زين الدين عبدالرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، البغدادي الدمشقي، اشتهر بعلمه وشدة تأثيره في الوعظ، فكانت مواعظه صارعة للقلوب وللناس عامة مباركة نافعة، واجتمعت الناس والقلوب عليه بالمحبة له، له مصنفات كثيرة منها جامع العلوم والحكم، والقواعد الفقهية، وغيرها، توفي سنة (٧٩٥هـ) انظر: شذرات الذهب ٦/ ٣٣٩، والأعلام ٣/ ٢٩٥.

(٢) هو الإمام الحافظ، أبو محمد داود بن أبي هند دينار بن عذافر الخراساني ثم البصري، كان ثقة متقنًا لكنه وهم في آخر عمره، كان خياطًا يأكل من كسب يده، توفي سنة (١٣٩هـ) انظر: تاريخ خليفة ص ٤١٨، وسير أعلام النبلاء ٦/ ٣٧٦، وتقريب التهذيب ١/ ٢٨٣.

(٣) هو الإمام الحافظ الثقة الثبت أبو إسماعيل، حماد بن زيد بن درهم الأزدي البصري، كان محدث زمانه قال عنه ابن مهدي (لم أر أحدًا قط أعلم بالسنة ولا بالحديث الذي يدخل في السنة منه). عمي في آخر عمره، توفي في رمضان سنة (١٧٩هـ) انظر: تاريخ خليفة ص٤٥١، وسير أعلام النبلاء ٧/ ٤٥٦، وتقريب التهذيب ١/ ٢٣٨.

(٤) هو الإمام الناقد المجود سيد الحفاظ، أبو سعيد عبدالرحمن بن مهدي بن حسان البصري، كان ثقة ثبتًا عارفًا بالرجال والحديث، قال عنه ابن المديني (هو أعلم الناس بالحديث) ولد سنة (١٣٥هـ) وتوفي سنة (١٩٨هـ) بالبصرة. انظر تاريخ خليفة ص ٤٦٨، وسير أعلام النبلاء ٩/ ١٩٢، وتقريب التهذيب ١/ ٥٩٢.

(٥) هو الإمام شيخ الإسلام، أبو الحارث محمد بن عبدالرحمن بن المغيرة بن الحارث بن أبي ذئب هشام ابن شعبة العامري المدني، كان ثقة فقيهًا قوالاً بالحق ناصحًا للولاة من أورع الناس وأودعهم، ولد سنة (٨٠هـ) وتوفي سنة (١٥٩هـ) بالكوفة انظر مشاهير علماء الأمصار، ص ١٤٠، وتذكرة الحفاظ ١/ ١٩١، وتقريب التهذيب ٢/ ١٠٥.

(٦) هو الإمام الحافظ الثقة الجهبذ، شيخ المحدثين وإمام الجرح والتعديل، أبو زكريا يحيىٰ بن معين ابن عون البغدادي، كان أكثر أئمة الجرح والتعديل صوابًا وأنذرهم خطًا وأشدهم إنصافًا وأبعدهم عن =

اختلاف بينهم في التفريق بينهما، وكان الحسن وابن سيرين يقولان مسلم ويهابان مؤمن[1].

المسألة الثالثة: رأي الإمام النووي في التفريق بين الإسلام والإيمان

ذهب الإمام النووي - رحمه الله - إلى التفريق بينهما، مبينًا أن بين الاسمين تلازمًا مع كونهما مفترقين.

ولقد ألمح الإمام إلى هذه المسألة في عدة مواضع من الشرح ولكنه تكلم عليها بشيء من التفصيل في شرح باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى، . . » من كتاب الإيمان في شرحه لصحيح مسلم.

فقال - رحمه الله -: «أهم ما يذكر في الباب اختلاف العلماء في الإيمان والإسلام وعمومهما وخصوصهما . . »[2].

ثم قال: «قال الإمام أبو سليمان أحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي الفقيه الأديب الشافعي المحقق رحمه الله في كتابه معالم السنن ما أكثر ما يغلط الناس في هذه المسألة، فأما الزهري فقال: الإسلام الكلمة والإيمان العمل واحتج بالآية يعني قوله سبحانه وتعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[3] وذهب غيره إلى أن الإسلام والإيمان شيء واحد واحتج بقوله

= التحامل، ورث له أبوه ألف ألف درهم فأنفقه كله على الحديث، ولد سنة (١٥٨هـ) وتوفي بالمدينة سنة (٢٥٣هـ) انظر: طبقات الحفاظ ص ١٨٥، وسير أعلام النبلاء ١١/ ٢٧١، وتقريب التهذيب ٢/ ٣١٦.

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب ١/ ٢٦.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٢٩/ ١ كتاب الإيمان.

(٣) سورة الحجرات، الآية: [١٤].

تعالىٰ: ﴿فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين (٣٥) فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين﴾[1] قال الخطابي وقد تكلم في هذا الباب رجلان من كبراء أهل العلم وصار كل واحد منهما إلىٰ قول من هذين، ورد الآخر منهما علىٰ المتقدم وصنف عليه كتابًا يبلغ عدد أوراقه المئتين)[2].

قال الإمام « قال الخطابي:[3] والصحيح من ذلك أن يقيد الكلام في هذا ولا يطلق وذلك أن المسلم قد يكون مؤمنًا في بعض الأحوال ولا يكون مؤمنًا في بعضها، والمؤمن مسلم في جميع الأحوال فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمن أو إذا حملت الأمر علىٰ هذا استقام لك تأويل الآيات واعتدل القول فيها ولم يختلف شيء منها. وأصل الإيمان التصديق وأصل الإسلام الاستسلام والانقياد، فقد يكون المرء مستسلمًا في الظاهر غير منقاد في الباطن، وقد يكون صادقًا في الباطن غير منقاد في الظاهر »[4].

قال الإمام «قال الخطابي أيضًا في قول النبي ﷺ «الإيمان بضع وسبعون شعبة». في هذا الحديث بيان أن الإيمان الشرعي اسم لمعنىٰ ذي شعب وأجزاء، له أدنىٰ وأعلىٰ والإسم يتعلق ببعضها كما يتعلق بكلها. والحقيقة تقتضي جميع أجزائها وتستوفيها ويدل عليه قوله ﷺ «الحياء شعبة من الإيمان» وفيه إثبات التفاضل في الإيمان وتباين المؤمنين في درجاته. هذا آخر كلام الخطابي)[5].

---

(١) سورة الذاريات، الآيتان: [٣٥-٣٦].

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٢٩/ ١ كتاب الإيمان.

(٣) هو الإمام العلامة الحافظ المحدث الفقيه الأديب اللغوي حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب الخطابي البستي الشافعي، أبو سليمان ولد سنة ٣١٩هـ، وتوفي سنة ٣٨٨. انظر: سير أعلام النبلاء ص ٢٣. وطبقات الشافعية للسبكي ص ٢٨٢/ ٢.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٣٠/ ١ كتاب الإيمان.

(٥) المصدر السابق ص ١٣٠/ ١.

ثم ذكر قول الإمام البغوي[1] فقال: «وقال الإمام أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي الشافعي ـ رحمه الله ـ في حديث سؤال جبريل عن الإيمان والإسلام وجوابه قال: جعل النبي ﷺ اسمًا لما ظهر من الأعمال وجعل الإيمان اسمًا لما بطن من الاعتقاد وليس ذلك لأن الأعمال ليست من الإيمان والتصديق بالقلب ليس من الإسلام بل ذلك تفصيل لجملة هي كلها شيء واحد وجماعها الدين. ولذلك قال ﷺ: «ذاك جبريل أتاكم يعلمكم دينكم» والتصديق والعمل يتناولها اسم الإيمان والإسلام جميعًا يدل عليه قوله سبحانه وتعالى: ﴿إنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾[2] ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[3] ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾[4] فأخبر سبحانه وتعالى أن الدين الذي رضيه ويقبله من عباده هو الإسلام، ولا يكون الدين في محل القبول والرضا إلا بانضمام التصديق إلى العمل، هذا كلام البغوي»[5].

وقال الإمام الشيخ أبو عمرو بن الصلاح[6] رحمه الله ـ (قوله ـ ﷺ ـ: الإسلام أن

---

(١) هو أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي، أحد الأعلام، إمام محدث فقيه مفسر. ولد سنة ٤٣٦، ومات سنة ٥١٦هـ، سير أعلام النبلاء ١٥/ ٤٣٩ ـ ٤٤٣، وطبقات الشافعية للسبكي. ص ٧٥ ـ ٨٠/ ٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: [١٩].

(٣) سورة المائدة، الآية: [٣].

(٤) سورة آل عمران، الآية: [٨٥].

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي ص ١٣٠/ ١ كتاب الإيمان.

(٦) ابن الصلاح: هو أبو عمرو عثمان بن عبدالرحمن (صلاح الدين) بن عثمان بن موسى الكروي الشهرزوري الموصلي الشافعي، المعروف بابن الصلاح، إمام حافظ علامة، ومن المتقدمين في معرفة علم الحديث والفقه والتفسير ولد سنة ٥٧٧، ومات بدمشق سنة ٦٤٣. انظر: سير أعلام النبلاء ص ١٤٠ ـ ١٤٤/ ٢٣، وتذكرة الحفاظ، ص ١٤٣٠ ـ ١٤٣٣/ ٤، وتهذيب سير أعلام النبلاء ص ٢٦٥/ ٣.

تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً، والإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره». قال: هذا بيان لأصل الإيمان وهو التصديق الباطن وبيان لأصل الإسلام وهو الاستسلام والانقياد الظاهر وحكم الإسلام في الظاهر ثبت بالشهادتين، وإنما أضاف إليهما الصلاة والزكاة والحج والصوم لكونها أظهر شعائر الإسلام وأعظمها. وبقيامه بها يتم استسلامه وتركه لما يشعر بانحلال قيد انقياده أو اختلاله. ثم إن اسم الإيمان يتناول ما فسر به الإسلام في هذا الحديث وسائر الطاعات لكونها ثمرات للتصديق الباطن الذي هو أصل الإيمان ومقويات ومتممات وحافظات له. ولهذا فسر ﷺ الإيمان في حديث وفد عبد القيس بالشهادتين والصلاة والزكاة وصوم رمضان وإعطاء الخمس من الغنائم. ولهذا لا يقع اسم المؤمن المطلق على من ارتكب كبيرة أو بدل فريضة، لأن اسم الشيء مطلقًا يقع على الكامل منه، ولا يستعمل في الناقص ظاهراً إلا بقيد. ولذلك جاز إطلاق نفيه عنه في قوله ﷺ «لا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن» واسم الإسلام يتناول أيضًا ما هو أصل الإيمان وهو التصديق الباطن ويتناول أصل الطاعات، فإن ذلك كله استسلام. قال: فخرج مما ذكرناه وحققنا أن الإيمان والإسلام يجتمعان ويفترقان، وأن كل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمنًا. قال: وهذا تحقيق وافر بالتوفيق بين متفرقات نصوص الكتاب والسنة الواردة في الإيمان، والإسلام، التي طالما غلط فيها الخائضون وما حققناه من ذلك موافق لجماهير العلماء من أهل الحديث وغيرهم. هذا آخر كلام أبي عمرو بن الصلاح»[1].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٣٢ ـ ١٣٣/ ١ كتاب الإيمان.

وقال قال ابن بطال[1] ، قال المهلب: الإسلام على الحقيقة هو الإيمان الذي هو عقد القلب المصدق لإقرار اللسان الذي لا ينفع عند الله تعالى غيره»[2] .

وقال الإمام قال ابن بطال في باب من قال الإيمان هو العمل: (فإن قيل قد تم أن الإيمان هو التصديق قيل التصديق أول منازل الإيمان، ويوجب للمصدق الدخول فيه ولا يوجب له استكمال منازله ولا يسمى مؤمنًا مطلقًا، هذا مذهب جماعة أهل السنة أن الإيمان قول وعمل. قال أبو عبيد وهو قول مالك الثوري والأوزاعي ومن بعدهم من أرباب العلم والسنة الذين كانوا مصابيح الهدى وأئمة الدين من أهل الحجاز والعراق والشام وغيرهم قال ابن بطال: وهذا المعنى أراد البخاري ـ رحمه الله ـ إثباته في كتاب الإيمان وعليه بوب أبوابه كلها، فقال: باب أمور الإيمان، وباب الصلاة من الإيمان، وباب الزكاة من الإيمان، وباب الجهاد من الإيمان وسائر أبوابه. وإنما أراد الرد على المرجئة في قولهم: إن الإيمان قول بلا عمل، وتبيين غلطهم وسوء اعتقادهم ومخالفتهم للكتاب والسنة ومذاهب الأئمة»[3] .

هذه الأقوال التي نقلها الإمام النووي عن أئمة العلم الذين سبقوه في هذا الميدان ـ وهو إن لم يرجح أي منها هو المذهب الذي يميل إليه لكنه ذكر في موضع آخر ما يمثل مذهبه ورأيه في هذه المسألة. فقال في حديث وفد عبد القيس: «وقد سبق أن ما يسمى

---

(١) ابن بطال: شارح صحيح البخاري، العلامة أبو الحسن، علي بن خلف بن بطال البكري، القرطبي، ثم البلنسي، ويعرف بابن اللحام وكان من كبار المالكية، توفي سنة ٤٤٩هـ. انظر: تهذيب سير أعلام النبلاء ص ٢/٣٥٢، والسير نفسها ص ١٨/٤٧ .

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، (ص١٣٢/ ١) كتاب الإيمان.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٣٢/ ١ كتاب الإيمان.

إسلامًا يسمى إيمانًا، وأن الإسلام والإيمان يجتمعان ويفترقان[1].

وقال في قوله ﷺ: «أو مسلمًا فليس فيه انكار كونه مؤمنًا بل معناه النهي عن القطع بالإيمان وأن لفظة الإسلام به أولى به فالإسلام معلوم بحكم الظاهر، وأما الإيمان فباطن لا يعلمه إلا الله تعالى، وقد زعم صاحب التحرير أن في هذا الحديث إشارة إلى أن الرجل لم يكن مؤمنًا وليس كما زعم بل فيه إشارة إلى إيمانه فإن النبي ﷺ قال في جواب سعد: «إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلي منه» معناه أعطي من أخاف عليه لضعف إيمانه أن يكفر، أأدع غيره ممن هو أحب إلي منه لما أعلمه من طمأنينة قلبه وصلابة إيمانه)[2].

وقال أيضًا في قول عائشة ـ رضي الله عنها ـ لرسول الله ـ ﷺ ـ: «قلت كيف أقول يا رسول الله قال: قولي السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين . . »[3] قال: وفيه أن المسلم والمؤمن قد يكونان بمعنى واحد وعطف أحدهما على الآخر لاختلاف اللفظ وهو بمعنى قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[4] ولا يجوز أن يكون المراد بالمسلم في هذا الحديث غير المؤمن لأن المؤمن إن كان منافقًا لا يجوز السلام عليه والترحم)[5].

وقال في قوله ﷺ: «اللهم لك أسلمت وبك آمنت»[6] «معناه لك انقدت وبك صدقت، وفيه إشارة إلى الفرق بين الإيمان والإسلام، وقد سبق إيضاحه في أول كتاب الإيمان»[7].

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٦٤/ ١ كتاب الإيمان.

(٢) شرح مسلم للنووي، ص ١٥٦/ ٢، كتاب الإيمان.

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ٣٥ـ٣٧/ ٧ برقم (٩٧٤).

(٤) سورة الذاريات، الآية: [٣٥ـ٣٦].

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٣٨/ ٧.

(٦) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ٤٨/ ٦ برقم ٧٦٩.

(٧) شرح صحيح مسلم للنووي ص ٤٨/ ٦.

المسألة الرابعة: الرأي الراجح في مسألة التفريق بين الإيمان والإسلام.

أرجح الأقوال في هذه المسألة، ما ذهب إليه أكثر العلماء[1] ـ ومنهم القاضي عياض كما تقدم كلامه ـ من أن الإسلام والإيمان إذا أفرد أحدهما شمل الدين كله أصوله وفروعه من المعتقدات والأفعال الظاهرة والباطنة، وإذا قرن بينهما وذكرا معًا فإنهما يفترقان في المعنى، فيراد بالإسلام الأعمال الظاهرة، مثل الشهادتين والصلاة والزكاة وغير ذلك، ويراد بالإيمان الأعمال الاعتقادية الباطنة وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله إلى آخره.

وهذا القول هو الذي تجتمع فيه النصوص الواردة في هذه المسألة وبه يزول الاختلاف. فيقال إذا اجتمعا افترقا ـ كما في حديث جبريل ـ حيث فرق بينهما فخص الإيمان بالأعمال الباطنة، والإسلام بالأعمال الظاهرة، وإذا افترقا اجتمعا وتلازما، ـ كما في حديث وفد عبد القيس ـ حيث فسّر الإيمان بما فسر به الإسلام في حديث جبريل، وكما في حديث عمرو بن عبسة حيث فسر الإسلام بما فسر به الإيمان. ومن هذا النوع قوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾[2]، وقوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[3]، وقوله: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾[4].

وما أحسن ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حيث شبه الإيمان بالروح

---

(١) كتاب الإيمان لشيخ الإسلام ص ١٥، ٤٨، ٢٢، وشرح الطحاوية ص ٤٩٠ ـ ٤٩٤/ ٢، وجامع العلوم والحكم ١/ ٢٦، وفتح الباري ١/ ١٤١.

(٢) سورة آل عمران، آية: [١٩].

(٣) سورة آل عمران، آية: [٨٥].

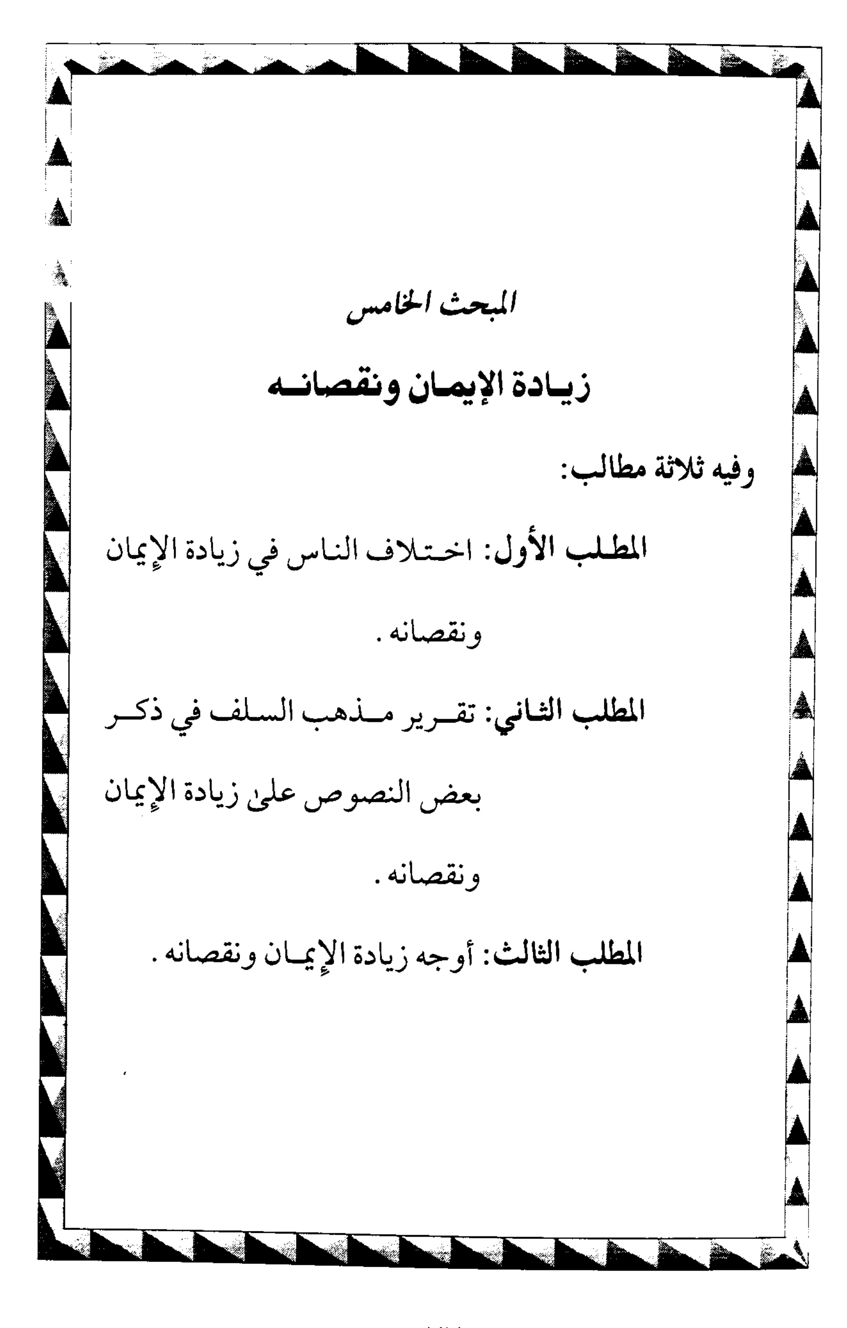
(٤) سورة المائدة، آية: [٣].

والبدن فقال: (فلا يوجد عندنا روح إلا مع البدن ولا يوجد بدن حي إلا مع روح، وليس أحدهما الآخر، فالإيمان كالروح فإنه قائم بالروح متصل بالبدن، والإسلام كالبدن ولا يكون البدن حيًا إلا مع الروح، بمعنى أنهما متلازمان لا أن مسمى أحدهما هو مسمى الآخر)[1].

* * *

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ص ٣٦٧/ ٧.



المبحث الخامس

زيـادة الإيمـان ونقصانــه

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: اختلاف الناس في زيادة الإيمان ونقصانه .

المطلب الثاني: تقرير مذهب السلف في ذكر بعض النصوص على زيادة الإيمان ونقصانه .

المطلب الثالث: أوجه زيادة الإيمان ونقصانه .

المطلب الأول

اختلاف الناس في زيادة الإيمان ونقصانه

اختلف الناس في زيادة الإيمان ونقصانه على ثلاثة مذاهب :

١ ـ مذهب أهل السنة والجماعة من الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم، إلى أن الإيمان قول وعمل ونية واعتقاد، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ولقد أجمعوا على ذلك[١]. وهذا هو المذهب الراجح المعتمد الذي لا يصح غيره ـ كما سيأتي في تفصيل ذلك ـ.

٢ ـ وزعمت الجهمية أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص وكذلك قال الخوارج، أما المعتزلة فهو عندهم يزيد بالتكاليف، فالغني المكلف بالزكاة إيمانه أكثر من إيمان الفقير الذي ليس عليه زكاة، وأما الشخص الواحد فلا يتصور في حقه زيادة الإيمان ونقصانه بالكلية[٢].

٣ ـ وأما الأشاعرة وغيرهم من المتكلمين ممن سلك سبيلهم، فقد اضطربوا في ذلك. فذهب أكثرهم إلى أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، وقالوا متى قيل ذلك كان

---

(١) الإيمان لأبي عبيد ص ٧٢، والإيمان لابن أبي شيبة ص ٤٦، والإيمان للحافظ العدني، ص ٩٤، والسنة للخلال ٣/ ٥٨١ ـ ٥٨٢، والإبانة لابن بطة ٢/ ٨٢٩، الشريعة للآجري ص ١١١ ـ ١١٨، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٥/ ٨١٠، وعقيدة السلف ص ٦٧ ـ ٧١، والحجة في بيان المحجة ١/ ٤٠٥ ـ ٤٠٦، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ٧/ ٢٢٣، وغيرها.

(٢) مقالات الإسلاميين ١/ ٢١٧ ـ ٢٢١، ٢٢٣، والفرق بين الفرق ص ٣٠٢، والملل والنحل ص ٩٧ ـ ١٠٦، ١/ ١٣١، ومجموع فتاوى شيخ الرسلام ٧/ ٢٢٣.

شكًا والشك كفر، وذهب بعضهم إلىٰ تجويز الزيادة والنقصان، وذهب بعضهم إلىٰ أنه يزيد ولا ينقص[1].

رأي الإمام النووي

وافق الإمام النووي ـ مذهب السلف في زيادة الإيمان ونقصانه فقد قال: (فإذا تقرر ما ذكرناه من مذاهب السلف وأئمة الخلف فهي متظاهرة متطابقة علىٰ كون الإيمان يزيد وينقص وهو مذهب السلف والمحدثين وجماعة من المتكلمين وأنكر أكثر المتكلمين زيادته ونقصانه وقالوا: متىٰ قبل الزيادة كان شكًا أو كفرًا، قال المحققون من أصحابنا المتكلمين نفس التصديق لا يزيد ولا ينقص والإيمان الشرعي يزيد وينقص بزيادة ثمراته وهي الأعمال ونقصانها قالوا: وفي هذا توفيق بين ظاهر النصوص التي جاءت بالزيادة وأقاويل السلف وبين أصل وصفه في اللغة وما عليه المتكلمون، وهذا الذي قاله هؤلاء وإن كان ظاهرًا حسنًا فالأظهر والله أعلم أنه نفس التصديق يزيد بكثرة النظر وتظاهر الأدلة ولهذا يكون إيمان الصديقين أقوىٰ من إيمان غيرهم، بحيث لا تعتريهم الشبه ولا يتزلزل إيمانهم بعارض، بل لا تزال قلوبهم منشرحة نيرة، وإن اختلفت عليهم الأحوال أما غيرهم من المغلفة قلوبهم ومن قاربهم ونحوهم فليسوا كذلك. فهذا مما لا يمكن انكاره ولا يشكك عاقل في أن نفس تصديق أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ لا يساويه تصديق أحاد الناس، ولهذا قال البخاري في صحيحه قال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخاف النفاق علىٰ نفسه، ما فيهم أحد يقول أنا علىٰ إيمان جبريل وميكائيل والله أعلم)[2].

قلت: وقد تقدم أنه اختار مذهب السلف في تعريف الإيمان الشرعي فيكون بذلك موافقًا لهم في هذين الأمرين المهمين.

---

(١) الإرشاد للجويني ص ٣٩٩، بتحقيق محمد يوسف موسىٰ، وجوهرة التوحيد ص ٤٩، وفتح الباري ١/ ٦٧.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٣٣/١.

المطلب الثاني

تقرير مذهب السلف وذكر بعض النصوص على زيادة الإيمان ونقصانه

أ ـ ذكر بعض أقوال أئمة السلف على زيادة الإيمان ونقصانه:

لو أردنا استقصاء أقوال علماء السلف في بيان هذا الأمر لتعذر ذلك، لكني سأقتصر على ذكر طرف من أقوالهم في هذا الشأن مبتدئًا بأقوال الصحابة رضي الله عنهم.

ـ فقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأخذ بيد الرجل والرجلين من أصحابه ويقول: (تعالوا نزدد إيمانًا)(١).

ـ وقال أبو هريرة وابن عباس وأبو الدرداء ـ رضي الله عنهم ـ: (الإيمان يزيد وينقص)(٢).

ـ وقال معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ لرجل: (اجلس بنا نؤمن ساعة نذكر الله)(٣).

ـ وقال عمير بن حبيب(٤) رضي الله عنه: (الإيمان يزيد وينقص، فقيل: وما

(١) أخرجه ابن بطة في الربانة ٢/ ٨٤٧، وابن أبي شيبة في كتاب الإيمان ص ٣٦، والآجري في الشريعة ص ١١٢.

(٢) أخرجه ابن بطة في الإبانة ٢/ ٨٤٤ ـ ٨٤٥، ٨٤٩، والآجري في الشريعة ص ١١١.

(٣) أخرجه أبو عبيد في الإيمان ص ٧٢، وابن أبي شيبة في كتاب الإيمان ص ٣٥.

(٤) هو الصحابي الكريم، عمير بن حبيب بن خماشة المدني، كان ممن بايع تحت شجرة الرضوان، قال ابن حجر لن نجد له رواية عن النبي ﷺ من وجه ثابت، وهو جد أبي جعفر الخطمي، انظر: أسد الغابة ٤/ ١٤٢، والإصابة ٣/ ٣١، وتقريب التهذيب ١/ ٣٥٥.

زيادته ونقصانه، قال: إذا ذكرنا الله عز وجل وحمدناه وسبحناه فذلك زيادته، وإذا أغفلنا وضيعنا فذلك نقصانه)[1].

ـ وكتب عمر بن العزيز[2] رحمه الله إلى أحد عماله: (أما بعد: فإن للإسلام شرائع وحدودًا، من استكمله فقد استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان...)[3].

ـ وقال مالك بن أنس رحمه الله: (الإيمان قول وعمل يزيد وينقص)[4].

ـ وقال سفيان الثوري وابن عيينة وابن المبارك ووكيع بن الجراح وأحمد ابن حنبل ـ رحمهم الله جميعًا ـ: (الإيمان قول وعمل يزيد وينقص)[5].

ـ أما الإمام البخاري ـ رحمه الله ـ فقد بوب لذلك بابًا في صحيحه فقال: (باب زيادة الإيمان ونقصانه وقوله الله تعالى: ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾[6]، ﴿وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا

---

(١) أخرجه ابن بطة في الإبانة ٢/ ٨٤٥، والآجري في الشريعة ص ١١٢.

(٢) هو الإمام الحافظ، العلامة المجتهد الزاهد العابد، أمير المؤمنين حقًا، أبو حفص عمر بن عبدالعزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، أشج بني أمية والتابعي الجليل، ولد بمصر سنة (٦١هـ) وتوفي في الشام سنة (١٠١هـ) وهو ابن تسع وثلاثين سنة وستة أشهر، يظرب به المثل بعدله وزهده وتقواه. انظر ترجمته في: تاريخ خليفة ص ٣٢١، وتذكرة الحفاظ ١/ ١١٨، وسير أعلام النبلاء ٥/ ١١٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الإيمان ١/ ٦٠، وابن بطة في الإبانة ٢/ ٨٥٨، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٤/ ٨٤٤، وابن أبي شيبة في كتاب الإيمان ص ٤٥.

(٤) أخرجه الخلال في السنة ٣/ ٥٨٢ ـ ٥٨٣، والآجري في الشريعة ص ١١٧ ـ ١١٨.

(٥) أخرجه الخلال في السنة ٣/ ٥٨٢ ـ ٥٨٣، وابن بطة في الإبانة ٢/ ٨٥٠ ـ ٨٥١، الآجري في الشريعة ص ١١٦ ـ ١١٧.

(٦) سورة الكهف، آية: [١٣].

إيمانا ﴾[1]. ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾[2] فإذا ترك شيء من الكمال فهو نقص)[3]، وتقدم قوله رحمه الله (لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار، فما رأيت أحدا منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص)[4].

ـ وقال الآجري: (إن الإيمان يزيد وينقص، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ولا يجوز أن يقال يزيد ولا ينقص، قال الأوزاعي من زعم أن الإيمان يزيد ولا ينقص فاحذروه فإنه مبتدع)[5].

والواقع أن السلف ـ رحمه الله ـ مجمعون على أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، كما نقل ذلك عنهم غير واحد من الأئمة كالبخاري والبغوي وابن عبدالبر وشيخ الإسلام ابن تيمية وغيرهم[6].

ب ـ بعض الأدلة من الكتاب والسنة على زيادة الإيمان ونقصانه:

النصوص الدالة على زيادة الإيمان ونقصانه كثيرة جداً من ذلك:

قوله: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون﴾[7].

---

(١) سورة المدثر، آية: [٣١].

(٢) سورة المائدة، آية: [٣].

(٣) صحيح البخاري (فتح الباري ١/ ١٢٧).

(٤) ذكره اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٥/ ٨٨٦، وابن حجر في الفتح ١/ ٦٧، وقال سنده صحيح.

(٥) الشريعة للآجري ص ١١٤ ـ ١١٧.

(٦) راجع ص ٤٦٤ ـ ٤٦٥ فقد ذكرت ذلك بما لا داعي لتكراره ههنا.

(٧) سورة الأنفال، آية: [٢].

وقوله تعالىٰ في مدح المؤمنين: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾(١).

وقوله مادحًا عباده المؤمنين: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾(٢). وقوله: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ﴾(٣).

ومن السنة قوله ﷺ: «يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، ثم يقول الله تعالىٰ أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان، فيخرجون منها قد اسودوا فيلقون في نهر الحياة، فينبتون كما تنبت الحبة في جانب السيل، ألم تر أنها تخرج صفراء ملتوئة»(٤).

- وقوله ﷺ: «يخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه وزن بُرّة(٥) من خير، ويخرج من النار من قال لا إله إلا الله وفي قلبه مثقال ذرة(٦) من خير»(٧).

---

(١) سورة الفتح، آية: [٤].

(٢) سورة آل عمران، آية: [١٧٣].

(٣) سورة التوبة، آية: [١٢٤-١٢٥].

(٤) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال ١/ ٩١، برقم: ٢٢.

(٥) البرة: بضم الباء وتشديد الراء المفتوحة هي القمحة. فتح الباري ١/ ١٢٩.

(٦) الذرة: بفتح الذال وتشديد الراء المفتوحة، قيل هي أقل الأشياء الموزونة، وقيل هي الهباء الذي يظهر في شعاع الشمس مثل رؤوس الإبر، وقيل غير ذلك. انظر: المرجع السابق ١/ ١٢٩.

(٧) رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب زيادة الإيمان ونقصانه ١/ ١٢٧ برقم: ٤٤، ومسلم في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها ٣/ ٥١، برقم: ١٩٣.

وقوله ﷺ: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له في أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف[1] يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل»[2].

- وقوله: «من أحب الله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان»[3].

- وقوله: «الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون - شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق والحياء شعبة من الإيمان»[4].

والأحاديث في هذا الباب كثيرة جداً، فهذه النصوص تدل دلالة قطعية لاشك فيه على أن الإيمان يزيد وينقص، ويتفاوت أهله فيه، فلم يبق لقول مخالف مع قول الله ورسوله ﷺ مكان، بل يجب أن يطرح رأيه جانبًا كائنًا من كان.

---

(١) الخلوف بضم الخاء جمع خلف بإسكان اللام وهو الخالف بشر، وأما بالفتح فهو الخالف بخير. هذا هو الأشهر. وقال جماعة من أهل اللغة كل واحد منهما بالفتح والإسكان ومنهم من جوز الفتح في الشر ولم يجوز الإسكان في الخير، شرح صحيح مسلم ٢/ ٢٨.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص ٢/ ٢٠ برقم: ٥٠.

(٣) رواه أبو داود في كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه ٥/ ٦٠، برقم: ٤٦٨١، والترمذي في كتاب صفة يوم القيامة، باب منه ٤/ ٦٧٠، برقم: ٢٥٢١، وزاد (وأنكح لله) وقال هذا حديث حسن، وأحمد ٣/ ٤٣٨، ٤٤٠، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٥/ ٢٢٩ برقم: ٥٨٤١.

(٤) تقدم تخريجه، ص ٥٦٦.

المطلب الثالث

أوجه زيادة الإيمان ونقصانه

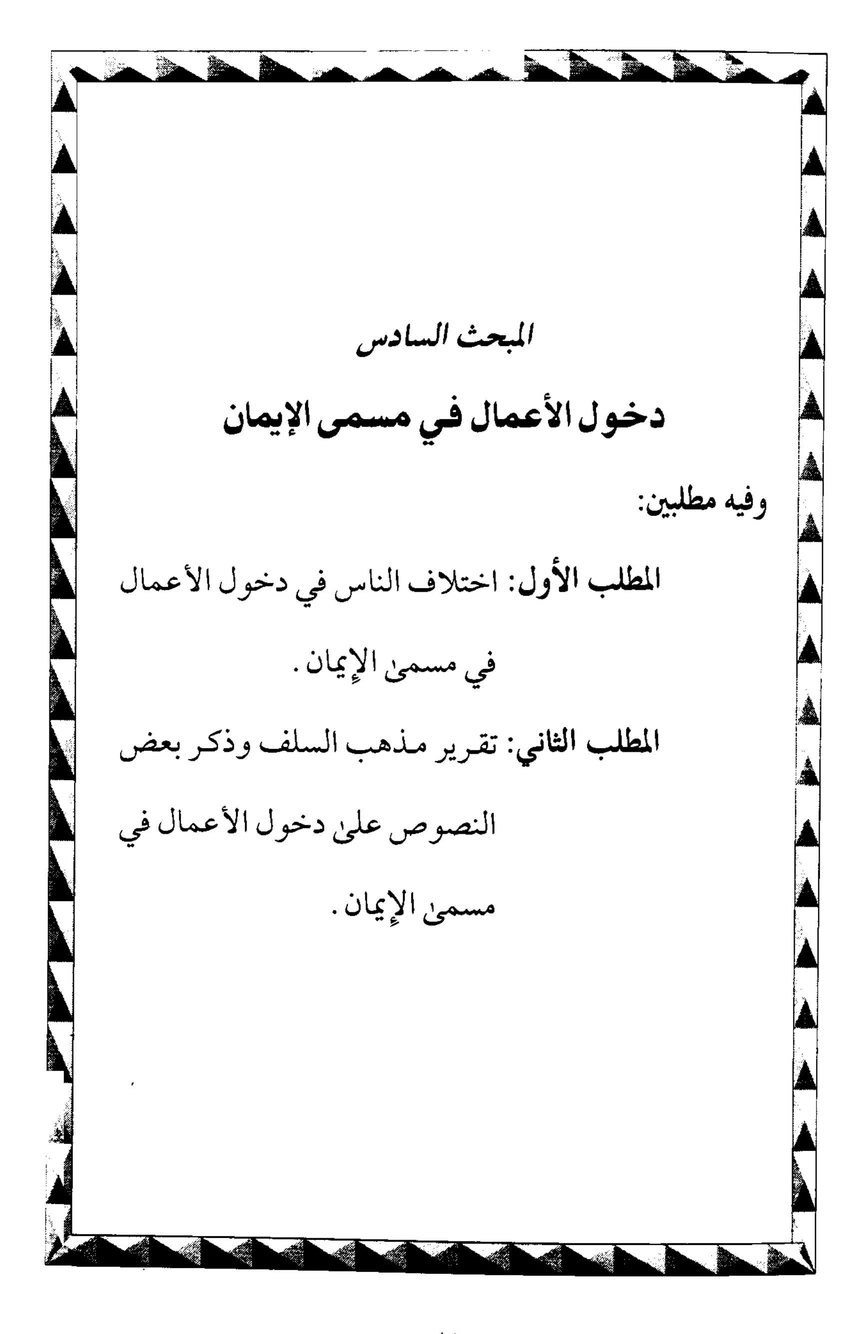
ثبت بالأدلة السابقة أن الإيمان يزيد وينقص، وقد جاء في بعض كلام الإمام النووي ما يبين أوجه زيادته ونقصانه، وأن ذلك بالأمور المعتبرة فيه، من التصديق بالقلب، والقول باللسان، والعمل بالجوارح، قال الإمام «والأظهر المختار أن التصديق يزيد وينقص بكثرة النظر ووضوح الأدلة، ولهذا كان إيمان الصديقين، أقوى من إيمان غيرهم، بحيث لا تعتريهم الشبهة»[1].

ولقد نقل الحافظ ابن حجر قول الإمام هذا وأيده بقوله (ويؤيده أن كل واحد يعلم أن ما في قلبه يتفاضل حتى إنه يكون في بعض الأحيان الإيمان أعظم يقيناً وإخلاصًا وتوكلاً منه في بعضها كذلك التصديق والمعرفة بحسب ظهور البراهين وكثرتها»[2].

* * *

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٠/ ٢، وانظر أيضًا ص ٥٩/ ٢.

(٢) فتح الباري ص ٤٦/ ١.



المبحث السادس

دخول الأعمال في مسمى الإيمان

وفيه مطلبين:

المطلب الأول: اختلاف الناس في دخول الأعمال في مسمى الإيمان.

المطلب الثاني: تقرير مذهب السلف وذكر بعض النصوص على دخول الأعمال في مسمى الإيمان.

المطلب الأول

اختلاف الناس في دخول الأعمال في مسمى الإيمان

لقد أنكر جمهور الأشاعرة دخول العمل في الإيمان وهو على نوعان :

١ ـ عمل القلب. ٢ ـ وعمل الجوارح[١].

وذهبت المرجئة إلى القول بأن الأعمال ليست من الإيمان، ولكنهم مع ذلك يوافقون أهل السنة على أن الله يعذب من يعذب من أهل الكبائر بالنار، ثم يخرجهم منها بالشفاعة وغيرها، وعلى أنه لابد في الإيمان من نطق باللسان، وعلى أن الأعمال المفروضة واجبة يستحق تاركها الذَّم والعقاب، فهذا النوع من الإرجاء ليس كفرًا، وإن كان قولاً باطلاً مبتدعًا، لإخراجهم الأعمال عن الإيمان[٢].

وزعموا أن الإيمان مجرد التصديق بالقلب، وإن لم ينطق به، وسمُّوا بذلك نسبة إلى الإرجاء : أي التأخير ؛ لأنهم أخروا الأعمال عن الإيمان[٣].

قلت : «لا شك أن الإرجاء بهذا المعنى كفر، يخرج صاحبه عن الملة، فإنه لابد في الإيمان من قول اللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان فإذا اختل واحد منها لم يكن الرجل مؤمنًا»[٤] وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة. والله أعلم.

---

(١) مجموع الفتاوى ص ٥٣٧ ـ ٥٤١/ ٧.

(٢) شرح العقيدة الواسطية ص ١٨٩ و ص٥٤٣ ـ ٥٥٥/ ٧ من مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام.

(٣) المصدر السابق ص ١٨٨ .

(٤) المصدر السابق ص ١٨٨ .

المطلب الثاني

تقرير مذهب السلف

مر معنا كلام السلف أن أعمال الجوارح داخلة في الإيمان، وفي هذا المطلب سأشير إلى أدلة أهل السنة والجماعة على إدخال الأعمال في مسمى الإيمان ومنها ما أشار إليها الإمام النووي أثناء شرحه في بعض الأحاديث في صحيح مسلم - وستمر معنا فيما بعد - أما أدلة أهل السنة والجماعة على إدخال الأعمال في مسمى الإيمان.

ذكر بعض النصوص من الكتاب والسنة على أن الإيمان قول وعمل واعتقاد

النصوص الدالة على ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة من أن الإيمان تصديق بالقلب وقول باللسان وعمل بالجوارح كثيرة جدًا، منها ما يخص القول بالقلب واللسان، ومنها ما يخص العمل بالقلب واللسان، ومنها ما يشمل الجميع من العمل باللسان والجوارح.

فمن أدلة قول القلب وهو تصديقه وإيقانه: قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا**﴾[1]، وقوله سبحانه ﴿**وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٣) لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ**﴾[2]، وقوله سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ**﴾ - إلى قوله - ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾[3].

---

(١) سورة الحجرات، آية: [١٥].

(٢) سورة الزمر، آية: [٣٣-٣٤].

(٣) سورة المائدة، آية: [٤١].

ومن أدلة قول اللسان وهو النطق بالشهادتين والإقرار بلوازمهما قوله تعالىٰ: ﴿قولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا وما أُنزل إلىٰ إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أُوتي موسىٰ وعيسىٰ وما أُوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون (١٣٦) فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم﴾[1]، وقوله سبحانه: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[2].

وقوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتىٰ يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله . .» الحديث[3].

ومن أدلة عمل القلب، وهي النية والإخلاص والمحبة والإنقياد والتوكل على الله وغير ذلك، فمن ذلك قوله سبحانه: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾[4]، وقوله عز وجل: ﴿وما لأحد عنده من نعمة تجزىٰ (١٩) إلا ابتغاء وجه ربه الأعلىٰ (٢٠) ولسوف يرضىٰ﴾[5]، وقوله: ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾[6].

وقوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوىٰ»[7].

وقوله ﷺ في الحديث القدسي: «قال الله تعالىٰ: أنا أغنىٰ الشركاء عن الشرك

---

(١) سورة البقرة، آية: [١٣٦-١٣٧].

(٢) سورة الأحقاف، آية: [١٣].

(٣) متفق عليه وقد تقدم تخريجه ص ٨٨.

(٤) سورة الأنعام، آية: [٥٢].

(٥) سورة الليل، آية: [١٩-٢١].

(٦) سورة الرعد، آية: [٢٨].

(٧) متفق عليه وقد تقدم تخريجه.

من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه»[1].

وأما أدلة عمل اللسان والجوارح، فهي كثيرة جدًا، وعمل اللسان هو ما لا يؤدىٰ إلا به، كتلاوة القرآن والذكر وغير ذلك، وعمل الجوارح كالصلاة والصيام والحج والجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك، ومن الأدلة على هذا الأمر قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾[2]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَن تَبُورَ﴾[3]. وقوله: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾[4]، وقوله: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[5]، وقوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ۝ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ۝ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[6]، وقوله عز وجل في شأن الصلاة: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[7]، وسبب نزولها أن رجلاً سأل النبي ﷺ لما حولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة

---

(١) رواه مسلم وقد تقدم تخريجه.

(٢) سورة الأحزاب، آية: [٤١-٤٢].

(٣) سورة فاطر، آية: [٢٩].

(٤) سورة سبأ، آية: [٣٧].

(٥) سورة البقرة، آية: [١٧٧].

(٦) سورة التوبة، آية: [٢٠-٢٢].

(٧) سورة البقرة، آية: [١٤٣].

المشرفة، كيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يصلون إلى بيت المقدس، فنزلت هذه الآية[1].

وقال ﷺ: «الإيمان بضع وستون - وفي رواية بضع وسبعون - شعبة والحياء شعبة من الإيمان»[2]. وقوله ﷺ لوفد عبدالقيس: «أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان، وأن تعطوا من المغنم الخمس» متفق عليه[3]. وغير ذلك من النصوص الكثيرة من الكتاب والسنة في هذا الأمر[4].

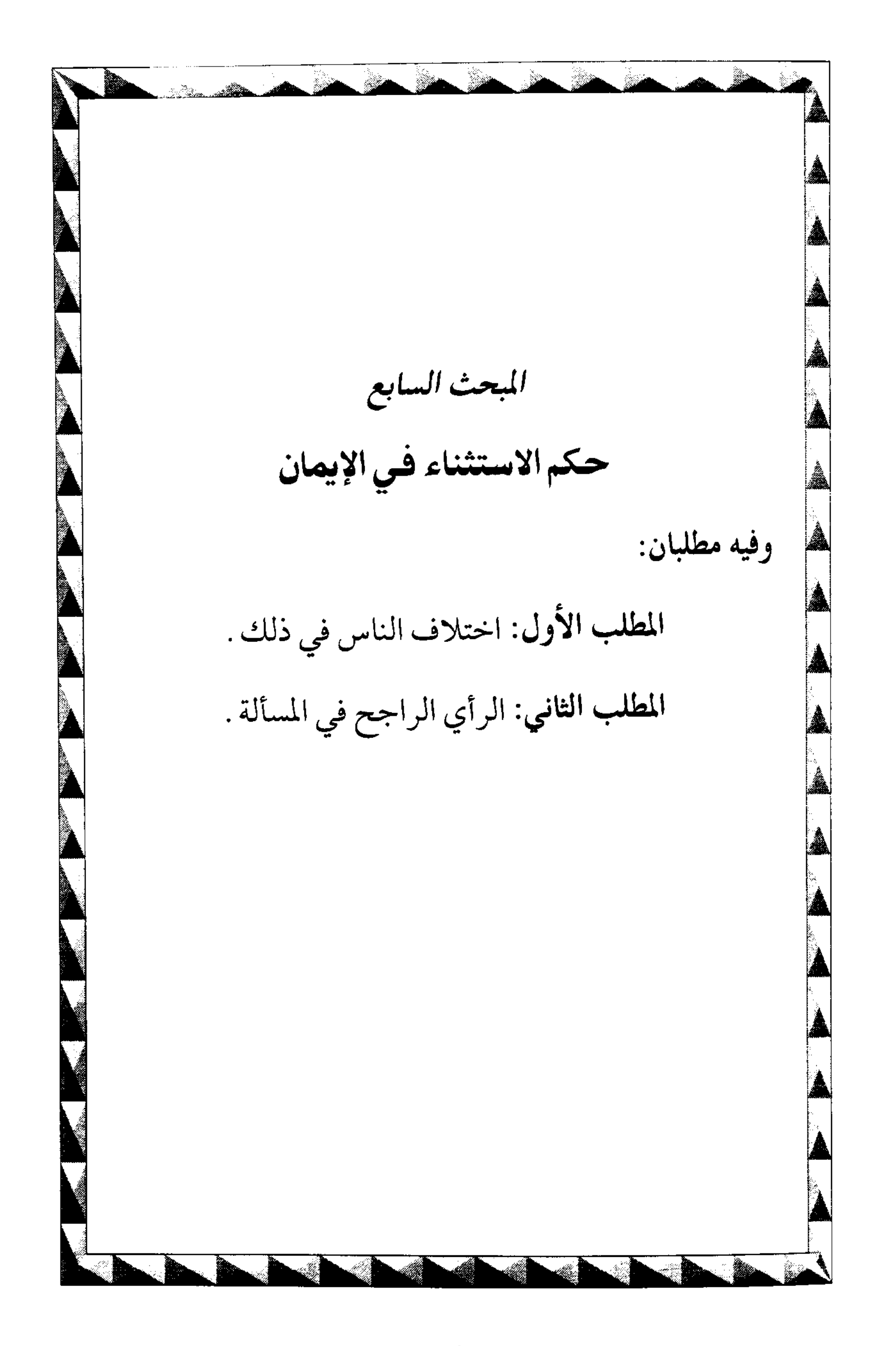


(١) رواه البخاري في كتاب الإيمان باب الصلاة من الإيمان ١/ ١١٨، برقم: ٤٠، وأخرجه أيضًا برقم: ٣٩٩، ٤٤٨٦، ٤٤٩٢، وأبو داود في كتاب السنة باب الدليل على زيادة الإيمان ٥/ ٦٠، برقم: ٤٦٨٠، والترمذي في كتاب التفسير باب ومن سورة البقرة ٥/ ١٩٤، برقم: ٢٩٦٨، وقال حديث حسن صحيح، وابن جرير في تفسيره ٢/ ١٧.

(٢) متفق عليه وقد تقدم.

(٣) متفق عليه وقد تقدم.

(٤) لقد توسع الإمام الآجري في ذكر ذلك. انظر الشريعة ص ١١٩ - ١٢١ - ١٢٣ - ١٣١، وكذلك الشيخ حافظ حكمي في معارج القبول ٢/ ١٧ - ٥٢.



المبحث السابع

حكم الاستثناء في الإيمان

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: اختلاف الناس في ذلك .

المطلب الثاني: الرأي الراجح في المسألة .

المطلب الأول

اختلاف الناس في ذلك

اختلف الناس[1] في مسألة الإستثناء في الإيمان ـ وهو قول المرء أنا مؤمن إن شاء الله ـ على ثلاثة أقوال، طرفان ووسط، فمنهم من يحرمه، ومنهم من يوجبه، ومنهم من يجيزه باعتبار ويحرمه باعتبار، وهو أصح الأقوال ـ كما سيتضح لك فيما بعد ـ.

١ ـ فالذين يحرمونه هم المرجئة والجهمية ونحوهم من يجعل الإيمان شيئًا واحدًا يعلمه الإنسان من نفسه، فيقول أنا أعلم أني مؤمن كما أعلم أني تكلمت بالشهادتين، فقولي أنا مؤمن كقولي أنا مسلم، فمن استثنى في إيمانه فهو شاك فيه، وقد سمى هؤلاء الذين يستثنون في إيمانهم الشكاكة.

٢ ـ والذين يوجبونه هم الكلابية ومن نحا نحوهم، وقد عللوا ذلك بأمرين:

أ ـ أن الإيمان هو ما مات عليه الإنسان، وهو إنما يكون عند الله تعالى مؤمنًا أو كافرًا باعتبار الموافاة وما سبق في علم الله تعالى أنه يكون عليه، وما قبل ذلك لا عبرة به ولا يعلم أحد بما يختم له به، وقد غلت طائفة في هذا المذهب فاستثنوا في الأعمال الصالحة، فصار أحدهم يقول مثلاً صليت إن شاء الله وحججت إن شاء الله، وزكيت إن شاء الله ويكون قد فعل ذلك، بل صار منهم من يستثني في كل شيء فيقول أحدهم هذا حبل إن شاء الله، فإن قيل له هذا لا شك فيه. يقول نعم لكن إذا شاء الله غيره.

---

(١) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠، ٧/ ٢٥٣ ـ ٢٩٥، ٤١٥ ـ ٤١٩، ٤٢٩، ـ ٤٣٥، ٦٦٦ ـ ٦٧٠، ١٣/ ٤٠ ـ ٤٧، وشرح الطحاوية لابن أبي العز ص ٤٩٤ ـ ٤٩٩/ ٢ فقد توسعا في ذكر أدلة كل فرق مع مناقشتها بما لا داعي لذكره ههنا.

ب ـ والحجة الثانية التي احتج بها هؤلاء هو قولهم إن الإيمان المطلق يتضمن فعل جميع ما أمر الله به وترك جميع ما نهىٰ الله عنه، فإذا قال العبد (أنا مؤمن) بهذا الاعتبار فقد زكىٰ نفسه وشهد لها بأنه من الأبرار المتقين، ولازم هذا أنه ينبغي أني شهد لنفسه بالجنة إن مات علىٰ تلك الحال، وهذا مأخذ عامة السلف الذين كانوا يستثنون، وإن جوّزوا تركه بمعنىٰ آخر ـ كما سيأتي .

* * *

المطلب الثاني

الرأي الراجح في المسألـة

المذهب الوسط الصحيح الراجح في المسألة هو تجويز الاستثناء باعتبار ومنعه باعتبار . فإن أراد المستثني الشك في أصل إيمانه منع الاستثناء ـ وهذا مما لا خلاف فيه بين أهل السنة والجماعة ـ وعلى هذا يحمل ما ورد عن بعض السلف من منع الاستثناء في الإيمان . وإن أراد أنه مؤمن من المؤمنين ولا يعلم بما يختم له به فالاستثناء جائز ، وكذلك من استثنى تعليقًا للأمر بمشيئة الله تعالى لا شكًا في إيمانه ، وعلى هذا أيضًا يحمل قول من استثنى من السلف ، وهذا القول في القوة كما ترى وهو ما عليه العمل عند جماهير السلف كالإمام أحمد والآجري وابن تيمية وغيرهم[1] .

ولكن تنبغي الإشارة ههنا إلى أن السلف مع اختيارهم هذا المذهب كانوا يكرهون السؤال عن هذه القضية بأن يقال مثلاً أمؤمن أنت؟ . يقول شيخ الإسلام رحمه الله : (قد كان أحمد وغيره من السلف مع هذا يكرهون سؤال الرجل لغيره أمؤمن أنت؟ ويكرهون الجواب ، لأن هذه بدعة أحدثها المرجئة ليحتجوا بها لقولهم ، فإن الرجل يعلم من نفسه أنه ليس بكافر ، بل يجد قلبه مصدقًا بما جاء به الرسول ﷺ ، فيقول أنا مؤمن فيثبت أن الإيمان هو التصديق لأنك تجزم بأنك مؤمن ، ولا تجزم بأنك فعلت كل ما أمرت به ، فلما علم السلف مقصدهم صاروا يكرهون الجواب ، أو يفصلون في الجواب ، وهذا لأن لفظ (الإيمان) فيه إطلاق وتقييد ، فكانوا يجيبون

(١) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٧/ ٢٥٤ ـ ٢٥٧ ، ٤١٥ ـ ٤٣١ ـ ٤٣٤ ، والشريعة ، للآجري ، ص ١٣٦ ، والمسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد ١/ ١٢٠ ـ ١٢٤ .

بالإيمان المقيد الذي يستلزم أنه شاهد فيه لنفسه بالكمال، ولهذا كان الصحيح أنه يجوز أن يقال: أنا مؤمن إذا أراد ذلك، لكن ينبغي أن يقرن كلامه بما يبين أنه لم يرد الإيمان المطلق الكامل، ولهذا كان أحمد يكره أن يجيب على المطلق بلا استثناء يقدمه)[1].

رأي الإمام النووي في الاستثناء في الإيمان:

رجح الإمام النووي ـ رحمه الله ـ مذهب جماهير السلف في هذه القضية فقد قال: (واختلف العلماء من السلف وغيرهم في إطلاق الإنسان قوله أنا مؤمن فقالت طائفة لا يقول أنا مؤمن مقتصراً عليه، بل يقول أنا مؤمن إن شاء الله وحكى هذا المذهب بعض أصحابنا عن أكثر أصحابنا المتكلمين وذهب آخرون إلى جواز الإطلاق وأنه لا يقول إن شاء الله، وهذا هو المختار وقول أهل التحقيق وذهب الأوزاعي وغيره إلى جواز الأمرين والكل صحيح باعتبارات مختلفة فمن أطلق نظر إلى الحال وأحكام الإيمان جارية عليه في الحال، ومن قال إن شاء الله، فقالوا فيه هو إما للتبرك وإما لاعتبار العاقبة وما قدر الله تعالى، فلا يدري أيثبت على الإيمان أم يصرف عنه والقول بالتخيير حسن صحيح نظراً إلى مأخذ القولين الأولين، ورفعًا لحقيقة الخلاف...)[2].

ولقد مر معنا قريباً أنه يجوز الأمرين بحسب الاعتبارات ولقد اختار الإمام النووي رحمه الله هذا المذهب الذي عليه عامة السلف الذين كانوا يستثنون وإن جوزوا الاستثناء بمعنى آخر.

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٧/ ٤٤٨ـ٤٤٩.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٣٤/١، كتاب الإيمان.

المبحث الثامن

حكم مرتكب الكبيرة وأثر المعاصي على الإيمان

وفيه ثلاث مطالب:

المطلب الأول: تعريف الكبيرة لغة واصطلاحًا.

المطلب الثاني: تقسيم الذنوب إلى كبيرة وصغيرة.

المطلب الثالث: حكم مرتكب الكبيرة.

المطلب الأول

تعريف الكبيرة لغة واصطلاحًا

قبل البدء ببيان حكم مرتكب الكبيرة وتفصيل القول فيها، يحسن إيضاح معنى الكبيرة لغة واصطلاحًا لضبطها وتحديد معالمها ومفهومها.

أ- تعريف الكبيرة لغة:

قال ابن منظور: (الكبر: الإثم الكبير وما وعد الله عليه في النار، والكبرة كالكبر التأنيث للمبالغة، وفي التنزيل العزيز ﴿ والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ﴾[1]، وفي الأحاديث ذكر الكبائر في غير موضع واحدتها كبيرة، وهي الفعلة القبيحة من الذنوب المنهي عنها شرعًا لعظيم أمرها)[2].

ب - تعريف الكبيرة شرعًا:

اختلف العلماء - رحمه الله - في ضابط الكبيرة على أقوال كثيرة[3] أورد الإمام النووي عددًا منها.

فقال الإمام «وإذا ثبت انقسام المعاصي إلى صغائر وكبائر فقد اختلفوا في ضبطها اختلافًا كثيرًا منتشرًا جدًا:

---

(١) سورة الشورى، الآية: [٣٧].

(٢) لسان العرب، ص ٢/٢١٠.

(٣) انظر شرح صحيح مسلم ص ٧٣ـ ٧٤/ ٢، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ص ٦٥٠ـ ٦٦٠/ ١١، ومدارج السالكين ص ٣٤٧/ ١، وفتح الباري ص ٤٢٣ـ ٤٢٤/ ١٠، وص ١٨٩ـ ١٩١/ ١٢، وشرح الطحاوية ص ٥٢٥ـ٢٢٨/ ٢، والزواجر عن اقتراف الكبائر للهيتمي ص ٥ـ ١٠/ ١.

١ ـ فقال ابن عباس رضي الله عنهما (الكبائر كل ذنب ختمه الله تعالىٰ بناراً أو غضب أو لعنة أو عذاب). [١] ونحو هذا قال الحسن البصري.

٢ ـ ثم قال وقال آخرون: «هي ما أوعد الله عليه بنار أو حد في الدنيا».

٣ ـ وقال أبو حامد الغزالي في البسيط: «والضابط الشامل المعنوي في ضبط الكبيرة أن كل معصية يقدم المرء عليها من غير استشعار خوف وحذار ندم كالمتهاون بارتكابها والمتجرئ عليه اعتياداً فما أشعر بهذا الاستخفاف والتهاون فهو كبيرة وما يحمل علىٰ فلتات النفس أو اللسان وفتره مراقبة التقوىٰ، ولا ينفك عن تندم ممتزج به تنغيص التلذذ بالمعصية فهذا لا يمنع العدالة وليس هو بكبيرة . . ».

٤ ـ ثم ذكر قول ابن الصلاح «فقال رحمه الله» وقال الشيخ الإمام أبو عمرو بن الصلاح رحمه الله في فتاويه الكبيرة: «كل ذنب كبر وعظم عظماً يصح معه أن يطلق عليه اسم الكبير ووصف بكونه عظيماً علىٰ الإطلاق، قال فهذا حد الكبيرة ثم لها إمارات منها إيجاب الحد ومنها الإيعاد عليها بالعذاب بالنار. ونحوها في الكتاب أو السنة ومنها وصف فاعلها بالفسق نصاً ومنها اللعن . . . »[٢].

٥ ـ وقال الشيخ الإمام أبو محمد بن عبدالسلام[٣] ـ رحمه الله في كتاب القواعد[٤] (إذا أردت أن تعرف الفرق بين الصغيرة والكبيرة فاعرض مفسدة الذنب

---

(١) شرح صحيح مسلم لنووي ص ٧٤/ ٢.

(٢) شرح صحيح مسلم لنووي، ص ٧٤/ ٢.

(٣) هو الشيخ الجليل المعمر، المسند، أبو منصور، عبدالله بن محمد بن أبي الحسن علي بن هبة الله بن عبدالسلام البغدادي الكاتب. من بيت الرواية والكتابة. ولد في سنة ٥٠٦، ومات سنة ٥٨٩.
انظر: تهذيب سير أعلام النبلاء ص ١٢٦، ترجمة رقم (٥٣١٦).

(٤) كتاب قواعد الأحكام لابن عبدالسلام ص ١٩/ ١.

علىٰ مفاسد الكبائر المنصوص عليها، فإن نقصت عن أقل مفاسد الكبائر فهي من الصغائر وإن ساوت أدنىٰ مفاسد الكبائر أو ربت عليه فهي من الكبائر)[1].

٦ ـ وقال الإمام أبو الحسن الواحدي المفسر وغيره: (الصحيح أن حد الكبيرة غير معروف بل ورد الشرع بوصف أنواع من المعاصي بأنها كبائر، وأنواع بأنها صغائر وأنواع لم توصف، وهي مشتملة علىٰ صغائر وكبائر والحكمة في عدم بيانها أن يكون العبد ممتنعاً من جميعها مخافة أن يكون من الكبائر قالوا وهذا شبيه بإخفاء ليلة القدر وساعة يوم الجمعة وساعة إجابة الدعاء من الليل واسم الله الأعظم ونحو ذلك مما أخفي»[2].

هذه أقوال العلماء في حد الكبيرة والصحيح كما سيأتي.

ج ـ الراجح في المسألة

الراجح في تعريف الكبيرة هو ما اختاره المحقق الرباني شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ معتمداً علىٰ ما رواه ابن جرير ـ رحمه الله ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيره لقوله تعالىٰ: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مدخلا كريما ﴾[3]، قال: (الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار أو غضب أو لعنة أو عذاب)[4]، وقال شيخ الإسلام في سبب ترجيحه لهذا الرأي: (وهذا القول يسلم من القوادح الواردة علىٰ غيره، فإنه يدخل كل ما ثبت في النص أنه كبيرة، كالشرك والقتل والزنا والسحر وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، وغير ذلك من الكبائر

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٧٤ ـ ٧٥ / ٢.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٧٤ ـ ٧٥ / ٢.

(٣) سورة النساء، آية: [٣١].

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره ٥ / ٤١.

التي فيها عقوبات مقدرة مشروعة، وإنما قلنا هذا الضابط أولىٰ من سائر تلك الضوابط المذكورة لوجوه:

أحدها: أنه المأثور عن السلف بخلاف تلك الضوابط فإنها لا تعرف عن أحد من الصحابة والتابعين والإئمة.

الثاني: أن هذا الضابط مرجعه إلىٰ ما ذكره الله ورسوله في الذنوب، فهو حد يتلقىٰ من خطاب الشارع.

الثالث: أن هذا الضابط يمكن الفرق بينه وبين الكبائر والصغائر، وأما تلك الأمور فلا يمكن الفرق بها بين الكبائر والصغائر[١].

وقد اختار هذا القول أيضًا الإمام ابن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية[٢] والإمام الحافظ ابن حجر، فقد قال رحمه الله: (إن كل ما توعد عليه باللعن أو العذاب أو شرع فيه حد فهو كبيرة هو المعتمد)[٣]، وقال أيضًا: (ومن أحسن التعاريف قول القرطبي في المفهم: (كل ذنب أطلق عليه بنص كتاب أو سنة أو إجماع أنه كبيرة أو عظيم، أو أخبر فيه بشدة العقاب أو علق عليه الحد، أو شدد النكير عليه فهو كبيرة) وعلىٰ هذا فينبغي تتبع ما ورد في الوعيد أو اللعن أو الفسق من الكتاب أو الأحاديث الصحيحة أو الحسنة، ويضم إلىٰ ما ورد فيه التنصيص في القرآن والأحاديث الصحاح والحسان علىٰ أنه كبيرة فمهما بلغ مجموع ذلك عرف منه تحرير عدها، وقد شرعت في جميع ذلك وأسأل الله علىٰ تحريره بمنه وكرمه)[٤].

---

(١) مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام، انظر: ١/ ٣٢١ـ ١١/ ٦٥٢ـ٦٥٥.

(٢) شرح الطحاوية ص ٥٢٥ـ٥٢٨/ ٢.

(٣) فتح الباري ١٠/ ٤١٠.

(٤) المرجع السابق ١٢/ ١٩١.

وقد رجح هذا الرأي الإمام الشوكاني أيضًا مستشهدًا كذلك بقول القرطبي السابق[1].

د ـ عدد الكبائر

اختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ في عدد الكبائر كما اختلفوا في ماهيتها، فقيل هي سبع، وقيل هي تسع، وقيل عشر، وقيل اثنتا عشر، وقيل أربعة عشر، وقيل ست وثلاثون، وقيل سبعون، وقد مال الحافظ الذهبي رحمه الله إلىٰ هذا الرأي وصنف في ذلك كتابًا[2]، أنهاها فيه إلىٰ ست وسبعين، وقيل هي إلىٰ سبعمائة أقرب[3]. وقد جمع ابن حجر الهيتمي[4] ـ رحمه الله ـ فيها مصنفًا حافلاً سماه (الزواجر عن اقتراف الكبائر) ذكر فيه نحوًا من أربعمائة معصية.

والراجح: في هذه المسألة أن عدد الكبائر غير منحصر برقم معين، لأنه لا دليل يدل علىٰ انحصارها بعدد معين[5]، وإلىٰ هذا ذهب الإمام النووي[6].

---

(١) انظر فتح القدير ٥/ ١١٢، ونيل الأوطار ١٠/ ٢٤٣.

(٢) أعني كتاب الكبائر، وقد طبع عدة طبعات أفضلها طبعة مكتبة السنة عام ١٤١٣هـ التي حققها أبو عبدالرحمن السلفي حيث حقق فيها الكتاب علىٰ المخطوطة الأصلية له كما قال، بخلاف الطبعات السابقة، فإن فيها قصصًا ومنامات وأحاديث ضعيفة بل وموضوعة يستبعد أن تنسب للإمام الحافظ الذهبي.

(٣) ذكر هذا العدد القاضي عياض ونسبه لابن عباس رضي الله عنهما كما نسب إليه القول الذي قبله. انظر إكمال المعلم ١/ ٣٥٤.

(٤) سبق ترجمته ص ٩٠ من الرسالة.

(٥) انظر: إرشاد الفحول للشوكاني ص ٥٢ ـ ٥٣، وفتح القدير ١/ ٤٥٨، والزواجر عن اقتراف الكبائر ١/ ١٠، ومختصر سنن أبي داود ٤/ ٢٥٤.

(٦) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٧٣/ ٢.

المطلب الثاني

تقسيم الذنوب إلى كبيرة وصغيرة

دلت نصوص الكتاب والسنة على أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، والأدلة على ذلك كثيرة جدًا منها:

١ ـ قول الله عز وجل ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مدخلا كريما ﴾(١).

٢ ـ وقوله عز وجل أيضًا: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ ﴾(٢).

٣ ـ وقوله عز وجل كذلك ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾(٣).

٤ ـ وقوله عليه الصلاة والسلام «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»(٤).

٥ ـ وقوله ﷺ أيضًا: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ـ ثلاثًا ـ، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكان متكئًا فجلس وقال: ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور، ألا وشهادة الزور» ـ قال الراوي ـ فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت)(٥).

---

(١) سورة النساء، آية: [٣١].

(٢) سورة النجم، آية: [٣٢].

(٣) سورة القمر، آية: [٥٣].

(٤) رواه مسلم في كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس ٢/١٠٠، برقم: ٢٣٣.

(٥) رواه البخاري في كتاب الأدب، باب عقوق الوالدين من الكبائر ١٠/٤١٩، برقم: ٥٩٧٦، ومسلم في كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها ٢/٧٠، برقم: ٨٧.

٦ ـ وقوله ﷺ: «ما من امرئ تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها، إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم تؤت كبيرة وذلك الدهر كله»[١]. والنصوص في هذا الباب كثيرة.

أ ـ اختلاف الناس في تقسيم الذنوب

اختلف العلماء في تقسيم الذنوب إلىٰ كبائر وصغائر:

ـ فذهب جماهير[٢] السلف والخلف إلىٰ أنها تنقسم إلىٰ صغائر وكبائر مستدلين لذلك بنصوص الكتاب والسنة ـ والتي تقدم طرف منها ـ بل إن الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ حكىٰ إجماع السلف علىٰ ذلك فقال: (الذنوب تنقسم إلىٰ صغائر وكبائر بنص الكتاب والسنة وبإجماع السلف وبالإعتبار)[٣].

ـ وخالف كثير من الأشاعرة، كالجويني والباقلاني وابن فورك وغيرهم فشذوا وقالوا ليس في الذنوب صغيرة، بل كل ما نهىٰ الله عنه فهو كبيرة، واحتجوا بأن كل مخالفة لله فهي بالنسبة إلىٰ جلاله كبيرة[٤].

ب ـ رأي الإمام النووي في ذلك:

لقد اختار الإمام النووي مذهب جماهير السلف والخلف وجعله من أحسن الأقوال، فقد قال بعد أن ذكر اختلاف الناس في حد الكبيرة (ولا شك في كون

---

(١) رواه مسلم في كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء والصلاة عقبه ٩٦/ ٣ برقم: ٢٢٨.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٧٣/ ٢، وفتح الباري ص ٥٢٤/ ١٠، ونيل الأوطار للشوكاني ٢٣٤ـ٢٣٥/ ١٠.

(٣) مدارج السالكين ص ٣٤٢/ ١.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٧٤/ ٢.

المخالفة قبيحة جداً بالنسبة إلى جلال الله تعالى، ولكن بعضها أعظم من بعض وتنقسم باعتبار ذلك إلى ما تكفره الصلوات الخمس أو صوم رمضان أو الحج أو العمرة أو الوضوء أو صوم عرفة أو صوم عاشوراء أو فعل الحسنة أو غير ذلك مما جاءت به الأحاديث الصحيحة وإلى ما لا يكفره ذلك كما يثبت في الصحيح ما لم يغش كبيرة فسمى الشرع ما تكفره الصلاة ونحوها صغائر وما لا تكفره كبائر ولا شك في حسن هذا، ولا يخرجها هذا عن كونها قبيحة بالنسبة إلى جلال الله تعالى فإنها صغيرة بالنسبة إلى ما فوقها لكونها أقل قبحاً ولكونها متيسرة التكفير والله أعلم»[1].

قلت: رحم الله الإمام ما أدق فهمه!! فإن كلامه ههنا من القوة بمكان كما لا يخفى. ولهذا يقول الإمام الغزالي رحمه الله (إنكار الفرق بين الصغيرة والكبيرة لا يليق بالفقيه. وقد فهما من مدارك الشرع»[2] ولقد أصاب رحمه الله فاختار المذهب الراجح في المسألة، وهو مذهب جماهير السلف والخلف وهو أن الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر.



(١) شرح صحيح مسلم ص ٧٣/ ٢.

(٢) نقله عنه النووي في شرح صحيح مسلم ص ٧٣/ ٢، والشوكاني في نيل الأوطار ص ٢٣٥/ ١٠.

المطلب الثاني

حكم مرتكب الكبيرة

اختلاف الناس في حكم مرتكب الكبيرة

انقسم الناس في حكم مرتكب الكبيرة إلىٰ أقسام ومذاهب عدة متباينة هي كالآتي:

١ ـ مذهب أهل السنة والجماعة

اتفق أهل السنة والجماعة علىٰ أن المؤمن لا يخرج من الإيمان بارتكاب شيء من الكبائر إذا لم يستحل. ذلك وإن مات قبل التوبة منها فلا يخلد في النار كما صحت بذلك نصوص الكتاب والسنة، بل أمره إلىٰ الله عز وجل إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه بقدر ذنوبه ثم أدخله الجنة برحمته، لأن التوحيد مانع لصاحبه من الخلود في النار[1]. وقد استدلوا لذلك بكثير من النصوص التي سيأتي طرف منها إن شاء الله.

٢ ـ مذهب الخوارج

خالف الخوارج بجميع فرقهم أهل السنة والجماعة، فكفروا مرتكب الكبيرة وحكموا عليه بالخلود في النار، إلا فرقة النجدات[2] منهم فإنهم قالوا: إن أصحاب

---

(١) انظر: الشرح والإبانة لابن بطة ص ٢٩٢، والإيمان لأبي عبيد ص ٨٤، ٩٠، ٩٨، وعقيدة السلف أصحاب الحديث ص ٧١، والتمهيد ٤/ ٩٤، ومجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ٦/ ٤٧٩، ٧/ ٦٧٠ ـ ٦٧٢. والعقيدة الواسطية له بشرح الهراس ص ١٥٢ ـ ١٥٦، وفتح الباري ١٢/ ٦١، وشرح الطحاوية ص ٤٤٢ ـ ٢/٤٤٣.

(٢) نسبة إلىٰ نجدة بن عامر الحنفي، ويقال لهم العاذرية، لأنهم يعذرون بالجهالات في أحكام الفروع، =

الكبائر من موافقيهم لا تجوز البراءة منهم، فلعل الله أن يعفو عنهم، وإن عذبهم ففي غير النار بقدر ذنوبهم ثم يدخلهم الجنة[1].

٣ ـ المعتزلة

وافق المعتزلة الخوارج في كون مرتكب الكبيرة مخلد في النار في الآخرة، واختلفوا معهم في حكمه في الدنيا، فقالوا: إنه يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر، فهو في منزلة بين المنزلتين، إذ لا يسمىٰ في هذه الحال مؤمنًا ولا كافرًا وإنما يسمىٰ فاسقًا، وهكذا أيضًا في الحكم عليه، فهو بين الحكمين، فلا يعطىٰ حكم الكافر ولا حكم المؤمن، وإنما له حكم بينهما وجميع هذه الأشياء تخصه في الدنيا[2].

٤ ـ مذهب المرجئة

ذهب المرجئة الخالصة إلىٰ القول بأنه لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة ففتحوا باب شر عظيم، وهوّنوا أمر المعاصي علىٰ الناس لأن مرتكب

= وكانوا يقولون الدين أمران أحدهما: معرفة الله ومعرفة رسله وتحريم دماء المسلمين وأموالهم، والثاني: أن أصحاب الذنوب من موافقيهم لا يكفرون ولكن يكفر بها من خالف مذهبهم ويزعمون أنه من أهل النار، ومن ضلالاتهم أنهم أسقطوا حد الخمر، ويرىٰ هؤلاء أن الذنوب كلها كبائر لا صغائر فيها، فمن نظر نظرة صغيرة أو كذب كذبة صغيرة وأصر عليها فهو مشرك، وقد افترقوا فيما بينهم فرقًا بعد قتل نجدة فصاروا فدكية وعطوية وعاذرية وهم الذين عذروا نجدة. انظر: مقالات الإسلاميين ١/ ١٧٤ ـ ١٧٦، والملل والنحل ص ١٣١/ ١، والفرق بين الفرق ص ٨٦ ـ ٨٩، ٩٤، ١٩٤.

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ١/ ١٦٨ ـ ٢/ ١٦٧، والملل والنحل ص ١٥٦/ ١، والفرق بين الفرق ص ٨٩، وشرح الطحاوية ص ٤٠٣ و ٢/٧٩٢.

(٢) انظر: شرح الأصول الخمسة للقاضي عبدالجبار المعتزلي ص ١٣٧ ، ٦٩٧، ومقالات الإسلاميين ١: ٣٣١.

الكبيرة مؤمن كامل الإيمان لا يستحق دخول النار[1].

ب- موقف الإمام النووي من مرتكب الكبيرة

لقد وافق الإمام النووي مذهب السلف في حكم مرتكب الكبيرة وأجاد في الرد على المخالفين في هذا الأمر وقرر مذهب السلف في كثير من المواضع عند شرحه لأحاديث الوعد والوعيد[1].

ومن ذلك قوله: (نقرر أولاً أن مذهب أهل السنة بأجمعهم من السلف الصالح. أهل الحديث، والفقهاء، والمتكلمين على مذهبهم من الأشعريين أن أهل الذنوب في مشيئة الله تعالى، وأن كل من مات على الإيمان وتشهده مخلصًا من قلبه بالشهادتين فإنه يدخل الجنة، فإن كان تائبًا أو سليمًا من المعاصي دخل الجنة برحمة ربه وحرم على النار بالجملة. فإن حملنا اللفظين الواردين على هذا فيمن هذه صفته كان بينا وهذا معنى تأويلي الحسن والبخاري، وإن كان هذا من المخلطين بتضييع ما أوجب الله تعالى عليه أو بفعل ما حرم عليه فهو في المشيئة لا يقطع في أمره بتحريمه على النار ولا باستحقاقه الجنة لأول وهلة بل يقطع بأنه لابد من دخوله الجنة آخرًا وحاله قبل ذلك في خطر المشيئة إن شاء الله تعالى عذبه بذنبه وإن شاء عفا عنه بفضله ويمكن أن تستقل الأحاديث بنفسها ويجمع بينها فيكون المراد باستحقاق الجنة ما قدمناه من إجماع أهل السنة أنه لا بد من دخولها لكل موحد إما معجلاً معافى وإما مؤخرًا بعد عقابه، والمراد بتحريم النار تحريم الخلود خلافًا للخوارج والمعتزلة في المسألتين ويجوز في حديث من

---

(١) انظر: مقالات الإسلاميين ١/ ٢١٣، والملل والنحل ص ١/٥٥، والإيمان لأبي عبيد ص ٨١-٨٢، وشرح الطحاوية ص ٢٩٦.

(٢) انظر مثلا شرح صحيح مسلم للنووي ص ١/١٨٨، ١٥، ١٦، ٣٦، ٩١، ٢/١١٣، ٣، ٤، ٥، ١٣/ ٣. (٧/٦٥)، ١٨٩ (١١) وغيرها.

كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة أن يكون خصوصًا لمن كان هذا آخر نطقه وخاتمة لفظه وإن كان قبل مخلطًا، فيكون سببًا لرحمة الله تعالىٰ إياه ونجاته رأسًا من النار، وتحريمه عليها بخلاف من لم يكن ذلك آخر كلامه من الموحدين المخلطين، وكذلك ما ورد في حديث عبادة من مثل هذا ودخوله من أي أبواب الجنة شاء يكون خصوصًا لمن قال ما ذكره النبي ﷺ وقرن بالشهادتين حقيقة الإيمان والتوحيد الذي ورد في حديثه، فيكون له من الأجر ما يرجع على سيئاته ويوجب له المغفرة والرحمة، ودخول الجنة لأول وهلة إن شاء الله تعالىٰ والله أعلم)[١].

فهذا الذي ذكره القاضي من أنفس وأجمع ما كتب في هذه المسألة وأدقه وأحسنه مع الاختصار والحسن والوضوح، وقد نقل الإمام النووي عنه. هذا الكلام وقال (وأما معنىٰ الحديث وما أشبهه فقد جمع فيه القاضي عياض رحمه الله كلامًا حسنًا جمع فيه نفائس . . . وهو في نهاية الحسن)[٢].

وقد كانت مسألة الأسماء والأحكام من المسائل التي تعرض لها الإمام النووي في كلامه علىٰ مباحث الإيمان في كتابه «شرح صحيح مسلم» وقررها في مواضع كثيرة فيه[٣] وافق مذهب أهل السنة والجماعة فيها وتناول المسألة بالبيان من نواحي عديدة، استعرضها فيما يلي مع ذكر نماذج من كلامه في ذلك:

(١) التفريق بين أحكام المؤمنين الظاهرة التي يحكم فيها الناس في الدنيا، وبين حكمهم في الآخرة بالثواب والعقاب، قال الإمام رحمه الله.

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٩٤-١٩٥/ ١.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٩٣/ ١، وانظر إكمال المعلم ٣٨٢-٣٨٣/ ٢.

(٣) شرح صحيح مسلم ١٨٨/ ١، (ص ١٥-١٦، ٣٦، ٩١، ١١٣/ ٢)، (ص ٣-٤، ٥٠، ٦٣/ ٣)، (٦٥/ ٧)، (١٨٩/ ١١).

بعد شرحه لحديث المقداد بن الأسود أنه أخبره أنه قال: يا رسول الله أرأيت إن لقيت رجلاً من الكفار، فقاتلني، فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها، ثم لاذ مني بشجرة، فقال: أسلمت لله، أفأقتله يا رسول الله! بعد أن قالها؟ قال رسول الله ﷺ «لا تقتله» قال: فقلت يا رسول الله: إنه قد قطع يدي، ثم قال ذلك بعد أن قطعها أفأقتله؟ قال رسول الله ﷺ: «لا تقتله، فإن قتله فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال»[1].

قال الإمام «فيه دليل للقاعدة المعروفة في الفقه والأصول أن الأحكام يعمل فيها بالظواهر والله يتولى السرائر»[2].

وقال أيضًا: (قوله ﷺ «إنما أنا بشر» معناه التنبيه على حالة البشرية وأن البشر لا يعلمون من الغيب وبواطن الأمور شيئًا لأن يطلعهم الله تعالى على شيء من ذلك، وأنه يجوز عليه في أمور الأحكام ما يجوز عليهم، وأنه إنما يحكم بين الناس بالظاهر والله يتولى السرائر فيحكم بالبينة وباليمين ونحو ذلك من أحكام الظاهر مع إمكان كونه في الباطن خلاف ذلك ولكنه إنما كلف الحكم الظاهر، وهذا نحو قوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله» وفي حديث المتلاعنين لولا الإيمان لكان لي ولها شأن ولو شاء الله تعالى لأطلعه ﷺ على باطن أمر الخصمين فحكم بيقين نفسه من غير حاجة أو يمين لكن لما أمر الله تعالى أمره باتباعه والاقتداء بأقواله وأفعاله وأحكامه أجرى له حكمهم في عدم الإطلاع على باطن الأمور ليكون حكم الأمة في

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي (ص٨٩/ ٢).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، (ص٩١/ ٢).

ذلك حكمه فأجرىٰ الله تعالىٰ أحكامه علىٰ الظاهر الذي يستوي فيه هو وغيره ليصح الاقتداء به وتطيب نفوس العباد للانقياد للأحكام الظاهرة من غير نظر إلىٰ الباطن والله أعلم»[١].

(٢) ترك القطع بالإيمان الكامل لمن لم ينص عليه، ومنع القطع بالجنة أو النار لمسلم مهما بلغ صلاحه أو فجوره ما لم يثبت فيه النص[٢].

(٣) العاصي بما دون الشرك لا يسلب اسم الإيمان، ولا ينسب إلىٰ الكفر المخرج من الملة[٣].

قال الإمام: (فهذان الحديثان مع نظائرهما في الصحيح مع قول الله عز وجل ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾[٤] مع إجماع أهل الحق على أن الزاني، والسارق والقاتل وغيرهم من أصحاب الكبائر غير الشرك لا يكفرون بذلك، بل هم مؤمنون ناقصوا الإيمان...»[٥].

(٤) الموحّد لا يخلّد في النار ولو مات مصراً علىٰ الذنب من غير توبة قال الإمام «قدمنا أن مذهب أهل الحق أن من مات علىٰ التوحيد مصراً علىٰ الكبائر فهو إلىٰ الله تعالىٰ، إن شاء عفا عنه فأدخله الجنة، وإن شاء عاقبه ثم أدخله الجنة والله أعلم»[٦].

وقال في شرح قوله ﷺ: «لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها، وأريد أن أختبئ

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي (ص ٥ـ٦ / ١٢) وانظر ص ١٣٤/ ١، ١٤٥/ ٧، وص ١٤٤/ ١٥، و ص١١٤/ ١٦، ١٢٤/ ١٦، ص ٨٣/ ١٧.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص١٥٦/ ٢ وانظر ص ٨٤/ ٢.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص٣٦/ ٢.

(٤) سورة النساء، الآية: [٤٨].

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي، ص٣٦/ ٢.

(٦) المصدر السابق ص ١٥ـ١٦/ ٢. وانظر أيضًا ص ٦٦/ ١ في المقدمة.

دعوتي شفاعة لأمتي في الآخرة»[1] وفي رواية «فهي نائلة ـ إن شاء الله ـ من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا»[2].

قال الإمام «وأما قوله ﷺ فهي نائلة، ففيه دلالة لمذهب أهل الحق أن كل من مات غير مشرك بالله تعالىٰ لم يخلد في النار وإن كان مصرًا علىٰ الكبائر وقد تقدمت دلائله وبيانه في مواضع كثيرة»[3].

(٥) توجيه النصوص التي تفيد بظاهرها تخليد أهل المعاصي في النار.

* قال الإمام في الكلام علىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خالدا فيها﴾[4] (فالصواب في معناها أن جزاءه جهنم، وقد يجازي به وقد يجازىٰ بغيره، وقد لا يجازىٰ بل يغفر عنه فإن قتل عمدًا مستحلاً له بغير حق ولا تأويل فهو كافر ويخلد به في جهنم بالإجماع وإن كان غير مستحل بل معتقدًا تحريمه فهو فاسق عاصي مرتكب كبيرة جزاؤه جهنم خالدًا فيها لكن بفضل الله تعالىٰ، ثم أخبر أنه لا يخلد من مات موحدًا فيها فلا يخلد هذا، ولكن قد يعفىٰ عنه فلا يدخل النار أصلاً، وقد لا يعفىٰ عنه بل يعذب كسائر العصاة الموحدين، ثم يخرج معهم إلىٰ الجنة ولا يدخل في النار فهذا هو الصواب في معنىٰ الآية ولا يلزم من كونه يستحق أن يجازىٰ بعقوبة مخصوصة أن يتحتم ذلك الجزاء، وليس في الأية إخبار بأنه يخلد في جهنم، وإنما فيه أنها جزاؤه أي يستحق أن يجازىٰ بذلك، وقيل أن المراد من قتل مستحلاً، وقيل: وردت الآية في رجل بعينه، وقيل المراد بالخلود طول المدة لا الدوام، وقيل

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، برقم (٣٣٨).

(٢) أخرجه البخاري ص ١١/ ٩٧ مع الفتح.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٦٣/ ٣.

(٤) سورة النساء، الآية: [٩٣].

معناها هذا جزاؤه إن جازاه، وهذه الأقوال كلها ضعيفة أو فاسدة لأنه يقتضي أنه إذا عفىٰ عنه خرج عن كونها كانت جزاء، وهي جزاء له لكن ترك الله مجازاته عفواً عنه وكرمًا. فالصواب ما قدمناه والله أعلم»[1].

* وقال الإمام في الكلام علىٰ قوله ﷺ: «من قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا .. إلخ» الحديث[2].

«وأما قوله ﷺ فهو في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا» فقيل فيه أقوال:

أحدها: أنه محمول علىٰ من فعل ذلك مستحلاً مع علمه بالتحريم، فهذا كافر وهذه عقوبته.

والثاني: أن المراد بالخلود طول المدة والإقامة المتطاولة حقيقة الدوام كما يقال خلد الله ملك السلطان.

والثالث: أن هذا جزاؤه، ولكن تكرم سبحانه وتعالىٰ فأخبر أنه «لا يخلد في النار من مات مسلمًا، قال القاضي رحمه الله في قوله ﷺ، «من قتل نفسه بحديده فحديدته في يده يتوجأ بها في بطنه» في دليل علىٰ أن القصاص من القاتل يكون بما قتل به محددًا، كان أو غيره اقتداء بعقاب الله تعالىٰ لقاتل نفسه والاستدلال بهذا لهذا ضعيف»[3].

(٦) توجيه النصوص التي تتضمن نفي الإيمان عن العاصي:

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٦٩/ ١٧ كتاب التوبة.

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ١٠١/ ٢، كتاب الإيمان، باب غلط تحريم قتل الإنسان نفسه برقم (١٠٩).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٠٧ـ١٠٨/ ٢.

* قال الإمام في شرح حديث «لا يؤمن أحدكم حتىٰ يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1].

(قال العلماء معناه لا يؤمن الإيمان التام وإلا فأصل الإيمان يحصل لمن لم يكن بهذه الصفة)[2].

* وكذلك حديث «لا يزني حين يزني وهو مؤمن»[3].

قال الإمام: «هذا الحديث مما اختلف العلماء في معناه، فالقول الصحيح الذي قاله المحققون أن معناه لا يفعل هذه المعاصي وهو كامل الإيمان، وهذا من الألفاظ التي تطلق علىٰ نفي الشيء، ويراد نفي كماله ومختاره . . »[4]، وفيه توجيهات أخرىٰ ذكرها[5].

(٧) توجيه ما ورد من إطلاق الكفر علىٰ بعض المعاصي:

قال الإمام في شرح حديث النبي ﷺ: «إذا كفر الرجل أخاه فقد باء بها أحدهما»[6]. (أن مذهب أهل الحق أنه لا يكفر المسلم بالمعاصي كالقتل والزنا، وكذا قوله لأخيه كافر من غير اعتقاد بطلان دين الإسلام وإذا عرف ما ذكرناه فقيل في تأويل الحديث أوجه: أحدها: أنه محمول علىٰ المستحل لذلك، وهذا يكفر، فعلىٰ هذا

---

(١) أخرجه البخاري مع الفتح ص ٥٦ـ٥٧/ ١، برقم (١٣)، ومسلم في الإيمان برقم (٧١).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٥/ ٢.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٣٦/ ٢.

(٥) المصدر السابق (ص ٣٦ـ٣٧/ ٢).

(٦) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ٤٢/ ٢، برقم (١١١).

معنىٰ باء بها أي بكلمة الكفر، وكذا جاز عليه وهو معنىٰ رجعت عليه أي رجع عليه الكفر فباء وجار ورجع بمعنىٰ واحد.

والوجه الثاني: رجعت عليه نقيصته لأخيه ومعصية تكفيره.

والثالث: أنه محمول علىٰ الخوارج المكفرين المؤمنين وهذا الوجه نقله القاضي عياض رحمه الله عن الإمام مالك بن أنس وهو ضعيف لأن المذهب الصحيح المختار الذي قاله الأكثرون والمحققون، أن الخوارج لا يكفرون كسائر أهل البدع، والوجه الرابع معناه أن ذلك يؤول به إلىٰ الكفر . .

والوجه الخامس: معناه فقد رجع عليه تكفيره فليس الراجح حقيقة الكفر بل التكفير)[1].

وكذلك ما ورد في مثل قوله ﷺ: «من ادعىٰ ما ليس له فليس منا»[2]. (قال العلماء: معناه ليس علىٰ هدينا وجميل طريقتنا كما يقول الرجل لابنه لست مني)[3].

وقال في قوله ﷺ: «من حمل علينا السلاح فليس منا»[4]. «فأما تأويل الحديث فقيل: هو محمول علىٰ المستحل بغير تأويل فيكفر ويخرج من الملة، وقيل معناه ليس علىٰ سيرتنا الكاملة وهدينا . .)[5].

(٨) بيان منهج السلف في نصوص الوعيد.

ومع ما سبق من توجيه نصوص الوعيد، فإنّ الإمام قد أشار إلىٰ منهج السلف

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٤٣/ ٢.

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ٤٤/ ٢، برقم (١١٢).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٤٣/ ٢.

(٤) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ٢٩٢/ ٢ برقم (١٦١).

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي ٩٢/ ١.

في نصوص الوعيد، فقال: «وكان سفيان بن عيينة رحمه الله يكره قول من يفسره بليس على هدينا، ويقول: بئس هذا القول يعني بل يمسك عن تأويله ليكون أوقع في النفوس وأبلغ في الزجر والله أعلم)[1].

وقال أيضًا مبينًا منهج السلف في ذلك «وذهب الزهري إلى أن هذا الحديث[2] وما أشبهه يؤمن بها ويمر على ما جاءت ولا يخاض في معناها وإنا لا نعلم معناه، وقال أمروها كما أمرها من قبلكم»[3].

(٩) وكذلك ردّ الإمام في مواضع عديدة على كل من الخوارج والمعتزلة في تكفيرهم أهل المعاصي، وبينّ أن ذلك خلاف ما دل عليه الكتاب والسنة وخلاف مذهب أهل السنة والجماعة[4].

وبكل ما تقدم يعلم أن الإمام النووي موافق لمنهج أهل السنة والجماعة في باب الأسماء والأحكام ويظهر رده الواضح على الفرق المخالفة في هذا الأمر وهم الخوارج والمعتزلة والمرجئة فجزاه الله خيراً.

• ذكر بعض النصوص الشرعية وشيء من أقوال السلف على أن مرتكب الكبيرة فاسق وليس خارجًا عن الملة

في ختام هذه المسألة أرى أنه لا بأس من إيراد بعض الأدلة من الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح، لزيادة توضيح ما نحن بصدده، وتأكيداً لكلام الإمام النووي

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٩٢/ ٢.

(٢) حديث لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، وقد تقدم تخريجه .

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٣٧/ ٢.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي، (ص٨٤، ١١٣/ ٢) (٦٥، ٧) ١٨٦/ ١١ (ص١٤٣/ ١٦).

رحمه الله، ونصرة لما ذهب إليه، ويتضمن ذلك أيضًا الرد على المخالفين من الخوارج والمعتزلة في حكمهم على مرتكب الكبيرة. فأقول مستعينًا بالله وحده: إن الأدلة على ذلك كثيرة جدًا منها:

١ ـ قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنثَىٰ بِالأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[(١)]. فقد سمى الله سبحانه في هذه الآية المحكمة القاتل أخًا للمقتول، وهي أخوة الإيمان بينهما، فدل على أن كبيرة القتل على عظمها لم تخرجه من الإيمان، يقول الإمام البغوي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: (وفي الآية دليل على أن القاتل لا يصير كافرًا بالقتل، لأن الله خاطبه بعد القتل بخطاب الإيمان فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ﴾ وقال في آخر الآية: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾ وأراد به أخوة الإيمان، فلم يقطع الأخوة بينهما بالقتل)[(٢)].

٢ ـ وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾[(٣)].

يقول شيخ المفسرين الإمام ابن جرير ـ رحمه الله ـ في تفسيره لهذه الآية: (. . . وقد أبانت هذه الآية أن كل صاحب كبيرة في مشيئة الله، إن شاء عفا عنه وإن شاء

---

(١) سورة البقرة، آية: [١٧٨].

(٢) تفسير البغوي ١/ ١٤٦، وانظر زاد المسير لابن الجوزي ١/ ١٨٠، فقد قال كلامًا قريبًا منه، وانظر أيضًا تفسير السعدي ١/ ١٢٦.

(٣) سورة النساء، آية: [٤٨].

عاقبه عليه، ما لم تكن كبيرة شركًا بالله)[1].

ويقول ابن كثير رحمه الله: (أخبر تعالىٰ أنه لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك به، ويغفر ما دون ذلك أي من الذنوب لمن يشاء من عباده، وقد وردت أحاديث متعلقة بهذه الآية الكريمة . . .) وذكر ثلاثة عشر حديثًا في هذا الأمر[2].

٣ ـ وقال عز وجل: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا على الأُخْرَىٰ فقاتلوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ الله يحبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[3]. فأطلق سبحانه وتعالىٰ علىٰ كلتا الطائفتين المتقاتلتين من المؤمنين اسم الإيمان وخاطبهم به، فدل ذلك علىٰ أن كبيرة القتل والقتال لم تخرجهما من الإيمان، وبهذه الآية وغيرها استدل السلف الصالح ومنهم الإمام البخاري رحمه الله علىٰ أن المرء لا يخرج من الإيمان بالمعصية، فقد قال في كتاب الإيمان من صحيحه (باب ﴿وإن طائفتان مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ فسماهم المؤمنين) وقال أيضًا (باب المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك)[4].

٤ ـ ومن السنة علىٰ هذا الأمر ما استدل به الإمام النووي من حديث أبي ذر الغفاري ـ رضي الله عنه ـ قال: أتيت النبي ﷺ وعليه ثوب أبيض وهو نائم، ثم أتيته

---

(١) تفسير ابن جرير الطبري ٥/ ١٢٦.

(٢) تفسير ابن كثير ١/ ٥٠٨ ـ ٥١١، وانظر أيضًا فتح القدير للشوكاني ١/ ٤٧٥ ـ ٤٧٦، فقد قال كلامًا قريبًا من هذا.

(٣) سورة الحجرات، آية: [٩].

(٤) فتح الباري ١/ ١٠٦، قال ابن بطال: (غرض البخاري الرد علىٰ من يكفر بالذنوب كالخوارج، وإن مات علىٰ ذلك يخلد) قال ابن حجر وهذا واضح واستدل للمؤلف علىٰ أن المؤمن إذا ارتكب معصية لا يكفر لأن الله أبقىٰ عليه اسم المؤمن فقال ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ ثم قال: ﴿إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم﴾ فتح الباري ١/ ١٠٧.

وقد استيقظ فقال: «ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة» قلت: وإن زنا وإن سرق؟ قال: «وإن زنا وإن سرق» قلت: وإن زنا وإن سرق؟ قال: «وإن زنا وإن سرق» قلت: وإن زنا وإن سرق؟ قال: «وإن زنا وإن سرق على رغم أنف أبي ذر» فكان أبو ذر إذا حدث بهذا الحديث قال وإن رغم أنف أبي ذر)[1].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله عند شرحه لهذا الحديث: (وفي الحديث أن أصحاب الكبائر لا يخلدون في النار وأن الكبائر لا تسلب اسم الإيمان وأن غير الموحدين لا يدخلون الجنة)[2].

٥ ـ وعن عبادة بن الصامت[3] رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ ـ وحوله عصابة من أصحابه ـ «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف. فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئًا فعوقب به في الدنيا فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئًا ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفى عنه وإن شاء عاقبه»[4].

---

(١) متفق عليه وقد تقدم تخريجه.

(٢) فتح الباري ٣/ ١٣٣، وانظر شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٣٦ـ٣٧/ ٢.

(٣) هو الصحابي الجليل أبو الوليد عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي، شهد العقبتين والمشاهد كلها مع النبي ﷺ واستعمله عليه الصلاة والسلام على بعض الصدقات، أرسله عمر إلى الشام ليعلم الناس القرآن ويفقههم في الدين، فأقام في حمص ثم بفلسطين، توفي بالرملة سنة (٣٤هـ) وله (٧٢سنة) وقيل عاش إلى خلافة معاوية. انظر: أسد الغابة ٣/ ١٠٦، وسير أعلام النبلاء ٢/ ٥، والإصابة ٢/ ٢٦٠.

(٤) رواه البخاري في مواضع عدة منها كتاب الإيمان باب رقم: (١١) ١/ ٨١ برقم: ١٨، ومسلم في كتاب الحدود باب الحدود كفارة لأهلها ١٨٥/ ١١ برقم: ١٧٠٩.

قال الحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث: (فيه رد على الخوارج الذين يكفرون بالذنوب، ورد على المعتزلة الذين يوجبون تعذيب الفاسق إذا مات بلا توبة، لأن النبي ﷺ أخبر بأنه تحت المشيئة، ولم يقل لابد أن يعذبه الله، وهذا ما اتفق عليه أهل السنة والجماعة، وفيه إشارة إلى الكف عن الشهادة بالنار على أحد أو بالجنة لأحد إلا من ورد فيه النص بعينه)[1].

وقال الإمام النووي عند شرحه لهذا الحديث والذي قبله: (فهذان الحديثان مع نظائرهما في الصحيح مع قول الله عز وجل ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾[2] مع إجماع أهل الحق على أن الزاني والسارق والقاتل وغيرهم من أصحاب الكبائر غير الشرك بالله لا يكفر بذلك، بل هم مؤمنون ناقصوا الإيمان، وإن تابوا سقطت توبتهم، وإن ماتوا مصرين على الكبائر كانوا في المشيئة، فإن شاء الله تعالى عفا عنهم وأدخلهم الجنة أولاً، وإن شاء عذبهم ثم أدخلهم الجنة)[3].

٦ ـ ومن الأحاديث أيضًا قول النبي ﷺ: «من كان عنده لأخيه اليوم مظلمة من عرض أو شيء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون درهم ولا دينار، وإن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذت من سيئات صاحبه فطرحت عليه ثم ألقي في النار»[4].

---

(١) فتح الباري ١/ ٨٧.

(٢) سورة النساء، آية: [٤٨].

(٣) شرح صحيح مسلم ٣٦ ـ ٣٧/ ٢.

(٤) رواه البخاري في كتاب المظالم باب من كانت له مظلمة عند الرجل ٥/ ١٢١ برقم: ٢٤٤٩، وأخرجه أيضًا في كتاب الرقائق برقم: ٦٥٣٤ بدون (ثم ألقي في النار)، ورواه الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقاق والورع باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص ٤/ ٥٣٠برقم: ٢٤١٩، وأحمد ٢/ ٤٣٥، ٥٠٦.

٧ ـ وقوله أيضًا: «أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار»[1].

ففي هذين الحديثين أثبت النبي ﷺ أن للظالم ومرتكب الكبيرة حسنات يستوفي المظلوم حقه منها يوم القيامة، والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

*** حكاية إجماع أهل السنة والجماعة على أن مرتكب الكبيرة غير مخلد في النار بل هو في مشيئة الله**

اتفق أهل السنة والجماعة ـ كما أشرت ـ على أن مرتكب الكبيرة مؤمن فاسق غير خارج من الملة، وهو في الآخرة في مشيئة الله إن مات ولم يتب، إن شاء الله عفا عنه بكرمه وجوده. وإن شاء عذبه بعدله مستدلين لما ذهبوا إليه بالنصوص المحكمة الظاهرة الكثيرة التي تقدم طرف منها، وقد سبق إيراد بعض أقوالهم عند ذكر هذه النصوص، وإليك طائفة أخرى منها:

قال الإمام ابن بطة العكبري[2] رحمه الله (ويخرج الرجل من الإيمان إلى

---

(١) رواه مسلم بشرح النووي في كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم ١٦/ ١١١ برقم: ٢٥٨١، والترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص ٤/ ٥٣٠ برقم: ٢٤١٨، وأحمد ٢/ ٣٠٣، ٣٣٤، ٣٧٢.

(٢) هو الإمام العابد الفقيه المحدث شيخ العراق، أبو عبدالله عبيد الله بن محمد بن حمدان العكبري الحنبلي المشهور بابن بطة، لما رجع من رحلته العلمية إلى الشام وغيرها اعتزل الفتن ووظائف الدولة وتفرغ للتدريس والعبادة، فلم ير أربعين سنة مفطرًا إلا في عيد، وكان أمّارًا بالمعروف لم يبلغه =

الإسلام، ولا يخرجه من الإسلام إلىٰ الشرك بالله[1] ، أو برد فريضة من فرائض الله عز وجل جاحداً بها، فإن تركها تهاوناً وكسلاً كان في مشيئة الله عز وجل إن شاء عذبه وإن شاء غفر له)[2] .

وقال أيضًا: (وقد أجمعت العلماء لا خلاف بينهم، أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب، ولا نخرجه من الإسلام بمعصية، نرجوا للمحسن ونخاف علىٰ المسيء، ولا نقول بقول المعتزلة فإنها تقول من أتىٰ ذنبًا واحدًا في عمره أو ظلم بحبة في عمره فقد كفر[3] ، فمن قال بذلك فقد أعظم الفرية علىٰ الله عز وجل، وبرأه مما وصف به نفسه من الرأفة والرحمة والتجاوز والإحسان والغفران وقبول التوبة)[4] .

ـ وقال شيخ الإسلام الصابوني ـ رحمه الله ـ : (ويعتقد أهل السنة أن المؤمن وإن أذنب ذنوبًا كثيرة، صغائر أو كبائر، فإنه لا يكفر بها، وإن خرج من الدنيا غير تائب منها ومات علىٰ التوحيد والإخلاص، فإن أمره إلىٰ الله عز وجل، إن شاء عفا عنه

= خبر منكر إلا غيره، وكان مستجاب الدعوة، ومع فضله فإن له أوهامًا كما قال الذهبي، ولد سنة (٣٤٣هـ) وتوفي سنة (٣٧٨هـ). انظر ترجمته في طبقات الحنابلة ١/ ١١٤، وسير أعلام النبلاء ١٦/ ٥٢٩، وشذرات الذهب ٣/ ١٢٢.

(١) قلت بل يخرج العبد من الإسلام بغير ما ذكره ابن بطة كادعاء النبوة وغير ذلك.

(٢) الشرح والإبانة علىٰ أصول السنة والديانة لابن بطة ص ٢٠١.

(٣) قلت: عبارة الإمام ابن بطة ههنا غير دقيقة، لأن المعتزلة لا يكفرون مرتكب الكبيرة ولا يطلقون عليه اسم الإيمان، بل يجعلونه في منزلة بين المنزلتين، وإن كانوا يقولون بخلوده في النار في الآخرة، فهم متفقون بذلك مع الخوارج في النتيجة ـ كما سبق بيانه أول المبحث ـ ومراد ابن بطة هو الرد علىٰ من يكفر مرتكب الكبيرة ويخرجه من الإسلام بالإضافة إلىٰ تقريره لمذهب السلف.

(٤) الشرح والإبانة لابن بطة ص ٢٩١ ـ ٢٩٢.

وأدخله الجنة يوم القيامة سالمًا غانمًا غير مبتلى بالنار، ولا معاقب على ما ارتكبه من الذنوب واكتسبه ثم استصحبه إلى يوم القيامة من الآثام والأوزار، وإن شاء عاقبه وعذبه مدة بعذاب النار، وإذا عذبه لم يخلده فيها، بل أعتقه وأخرجه منها إلى نعيم دار القرار)[1].

ـ وقال الإمام ابن عبدالبر ـ رحمه الله ـ: (فإن مات صاحب الكبيرة فمصيره إلى الله عز وجل، وإن شاء غفر له وإن شاء عذبه، فإن عذبه فبجرمه، وإن عفا عنه فهو أهل العفو وأهل المغفرة، وإن تاب قبل الموت وقبل حضوره ومعاينته وندم واعتقد أن لا يعود واستغفر ووجل، كان كمن لا ذنب، وبهذا كله الآثار الصحاح عن السلف قد جاءت وعليه جماعة المسلمين)[2].

ـ وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ قدس الله روحه ـ: (وأئمة المسلمين وأهل المذاهب الأربعة وغيرهم مع جميع الصحابة والتابعين لهم بإحسان، متفقون على أن المؤمن لا يكفر بمجرد الذنب كما تقوله الخوارج، ولا يسلب جميع الإيمان كما تقول المعتزلة . . .)[3].

وقال أيضًا وهو يتحدث عن أصول أهل السنة والجماعة: (وهم مع ذلك لا يكفرون أهل القبلة بمطلق المعاصي والكبائر كما فعله الخوارج، بل الأخوة الإيمانية ثابتة مع المعاصي، ولا يسلبون الفاسق الملي الإسلام بالكلية، ولا يخلدونه في النار كما تقول المعتزلة، بل الفاسق يدخل في اسم الإيمان المطلق كما في قوله تعالى:

---

(١) عقيدة السلف أصحاب الحديث ص ٧١ـ ٧٢.

(٢) التمهيد لابن عبدالبر ٤/ ٤٩.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٦/ ٤٧٩.

﴿فتحرير رقبةٍ مؤمنةٍ﴾[1] ، وقد لا يدخل في اسم الإيمان المطلق كما في قوله تعالىٰ: ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذُكرَ اللَّهُ وجلت قُلُوبهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾[2] ، وقوله ﷺ : «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن . . . »[3] ، ونقول هو مؤمن ناقص الإيمان، أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، فلا يعطي الاسم المطلق ولا يسلب مطلق الاسم)[4] .

- وقال الإمام ابن أبي العز الحنفي - رحمه الله - : (إن أهل السنة متفقون كلهم علىٰ أن مرتكب الكبيرة لا يكفر كفرًا ينقل عن الملة كما قالت الخوارج، إذ لو كفر كفراً ينقل عن الملة لكان مرتدًا يقتل علىٰ كل حال، ولا يقبل عفو ولي القصاص، ولا تجري الحدود في الزنا والسرقة وشرب الخمر، وهذا القول معلوم بطلانه وفساده بالضرورة من الدين، ومتفقون علىٰ أنه لا يخرج من الإيمان والإسلام ولا يدخل في الكفر، ولا يستحق الخلود مع الكافرين كما قالت المعتزلة، فإن قولهم باطل أيضًا، إذ قد جعل الله مرتكب الكبيرة من المؤمنين وجعله أخًا لولي القصاص، والمراد أخوة الدين بلا ريب، ونصوص الكتاب والسنة والإجماع تدل علىٰ أن الزاني والسارق القاذف لا يقتل، بل يقام عليه الحد، فدل علىٰ أنه ليس بمرتد)[5] .

* * *

---

(١) سورة النساء، آية: [٩٢].

(٢) سورة الأنفال، آية: [٢].

(٣) متفق عليه وقد تقدم تخريجه .

(٤) العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام بشرح الفوزان، ص١٧٨ .

(٥) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤٤٢ ـ ٤٤٣/ ٢ .

الفصل الثاني

الإيمان بالملائكة وما يتعلق بهم من مسائل

وفيه مبحثان وهي:

قدمت الكلام على الملائكة قبل الكلام على الكتب والرسل نظرًا للترتيب الواقع. لأنه سبحانه وتعالى أرسل الملك بالكتاب إلى الرسول[1]، فالملائكة وسائط بين الله وبين الرسل في تبليغ الوحي والشرائع، فناسب أن يقدم الكلام فيهم على الأنبياء[2].

فتقديم الكلام على الإيمان بالملائكة على ما يليه من الفصول، كان نظرًا لورود ذكر الملائكة مقدمًا في القرآن في عدة آيات كما في سورة البقرة وهي قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾[3].

«والإيمان بالملائكة هو التصديق بوجودهم، وأنهم كما وصفهم الله تعالى: ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾[4]»[5].

* * *

---

(١) فتح الباري ص ١/١١٧.

(٢) نفس المصدر، ص ٦/٣٠٦.

(٣) سورة البقرة، آية: [٢٨٥].

(٤) سورة الأنبياء، الآية: [٢٦].

(٥) فتح الباري، ص (١/١١٧).

المبحث الأول

وظائف الملائكة وأصنافهم

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: في وظائفهم وأصنافهم.

المطلب الثاني: بعض صفاتهم.

المبحث الثاني

المفاضلة بين الملائكة والأنبياء، وتفضيل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على جميع الخلائق

المطلب الأول

وظائف الملائكة وأصنافهم

أصناف الملائكة كثير منها ما ذكره الإمام النووي، فمنهم الرسل بين الله وأنبيائه، ومنهم الموكلون بكتابة الوحي والمقادير في اللوح المحفوظ ونسخها، ومنهم خزنة على النار، ومنهم الحفظة الذين يكتبون أعمال العباد، ومنهم الذين يشفعون للمؤمنين في الآخرة، ومنهم الملائكة الموكلون بالصلاة والتأمين فيها وغيرها، ومنهم ملائكة لقبض الأرواح، ومنهم من يتعاقبون في الليل والنهار، ومنهم ملائكة موكلون للاستغفار ونزول السكينة والرحمة، وملائكة في السماء وموكلين بها، وملائكة موكلون بالجنة[١] إلى غير ذلك من الأصناف، ورؤساؤهم أفضلهم الملائكة الثلاثة جبريل الموكل بالوحي الذي به حياة القلوب والأرواح، وميكائيل الموكل بالمطر الذي به حياة الأرض والنبات والحيوان، وإسرافيل الموكل بالنفخ في الصور الذي به حياة الخلق بعد مماتهم[٢].

* * *

(١) انظر أمثلة على ذلك من كتاب شرح صحيح مسلم للنووي فقد أثبت كلاً من هذه الوظائف والأصناف: مثلاً ص (٤٦/ ١)، (١٧٤، ١٧٧/ ٢)، (٦٦/ ٣)، (٧٤/ ٦)، (٩/ ١٤)، (٨٥/ ١٥)، (١٩٠/ ٤)، (٤٦/ ٨)، (١٥٨/ ١٦)، (١٩٥/ ٢)، (١٢/ ٣)، (٣١/ ٣)، (١١ـ ١١/ ٤)، (٤٠/ ١٧)، (١٢/ ٥)، (١٩٧/ ٦)، (١١٣ـ ١١٤/ ٥)، (٢٢ـ ٢٣/ ١٣)، (١٨٥/ ٢) وغيرها.

(٢) انظر للتوسع في هذه المسألة شرح العقيدة الطحاوية، ص ٤٠٥ـ ٤٠٧/ ٢.

المطلب الثاني

بعض صفاتهم

الملائكة خلق عظيم من خلق الله خلقهم من نور وعددهم لا يحصيه إلا الله تعالىٰ وقد طبعهم سبحانه علىٰ طاعته، فهم لا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون. بل يسبحون بالليل والنهار لا يفترون. قال سبحانه: ﴿فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾(1).

وصفات الملائكة وأوصافهم وأصنافهم كثيرة وردت في الكتاب والسنة وقد أشار الإمام النووي إلىٰ بعضها فمن صفاتهم - زيادة علىٰ ما ذكر - أن خلقهم كان من نور ومن ذلك ما أخرجه مسلم عن عائشة - رضي الله عنها - مرفوعًا، «خلقت الملائكة من نور» الحديث(2).

ومن صفاتهم أيضًا أنهم كثرة كثيرة قال الإمام في شرح حديث الإسراء (قوله: «هذا البيت المعمور يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا منه لم يعودوا إليه آخر ما عليهم»(3).

«وفي هذا أعظم دليل علىٰ كثرة الملائكة صلوات الله وسلامه عليهم والله

---

(1) سورة فصلت، الآية: [38].

(2) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص 96/18 برقم (2996).

(3) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص 192/2، برقم (164).

أعلم»[1].

كذلك من صفاتهم أيضًا: «الحياء قال في قوله ﷺ: «ألا أستحيي ممن تستحيي منه الملائكة «فيه فضيلة ظاهرة لعثمان وجلالته عند الملائكة، وأن الحياء صفة جميلة من صفات الملائكة»[2].

ومن الصفات التي ذكرها الإمام أنهم يتأذون بما يتأذىٰ به الإنس قال الإمام: (قوله ﷺ فإن الملائكة تتأذىٰ مما يتأذىٰ منه الإنس)[2].

ومن صفاتهم أنهم لا يدخلون بيتًا فيه كلب ولا تصاوير، وذلك لأن الملائكة ضد الشياطين قال الإمام (قوله ﷺ « لا تدخل الملائكة بيتًا فيه كلب ولا صورة» قال العلماء: سبب امتناعهم من بيت فيه صورة كونها معصية فاحشة وفيها مضاهاة لخلق الله تعالىٰ وبعضها في صورة ما يعبدون من دون الله تعالىٰ وسبب امتناعهم من بيت فيه كلب لكثرة أكله النجاسات ولأن بعضها يسمىٰ شيطانًا كما جاء به الحديث والملائكة ضد الشياطين ولقبح رائحة الكلب والملائكة تكره الرائحة القبيحة . . »[3].

كذلك من صفاتهم أنهم يتصورون علىٰ صور مختلفة فقد أعطاهم الله قدرة علىٰ التصوير في أشكال مختلفة سواء كانت من صور بني آدم أو غيرها وهم مع هذا لهم صور في أصل خلقهم مخصوصة بهم، ولقد كرر هذا القول الإمام رحمه الله في أكثر من موضع ومن ذلك علىٰ سبيل المثال قوله: «إن أم سلمة رأت جبريل في صورة دحية»، (قال هو بفتح الدال وكسرها، وفيه منقبة لأم سلمة رضي الله عنها، وفيه

---

(1) شرح صحيح مسلم للنووي، ١٩٣/ ٢.

(2) شرح صحيح مسلم للنووي، ١٨٥/ ٢.

(3) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٧٢/ ١٤.

جواز رؤية البشر الملائكة ووقوع ذلك ويرونهم على صورة الأدميين لأنهم لا يقدرون على رؤيتهم على صورهم وكان النبي ﷺ يرى جبريل على صورة دحية غالبًا ورآه مرتين على صورته الأصلية»[1].

قلت: هذا مما أجمع عليه أهل السنة والجماعة وجاءت بهذا المعنى أحاديث كثيرة منها حديث جبريل الذي جاء في صورة رجل شديد بياض الثياب شديد سواء الشعر، وحديث الرجل الذي زار أخا له في الله فأرصد الله له ملكًا في صورة رجل فأخبره أن الله يحبه لأنه أحب أخاه وزاره في الله[2] إلى غير ذلك من النصوص[3].

كذلك من صفاتهم حبهم لبعض العباد بأمر من الله قال الإمام: «وحب جبريل والملائكة يحتمل وجهين:

أحدهما: استغفارهم له وثناؤهم عليه ودعاؤهم.

والثاني: أن محبتهم على ظاهرها المعروف من المخلوقين وهو ميل القلب إليه واشتياقه إلى لقائه وسبب حبهم إياه كونه مطيعًا لله تعالى محبًا له»[4].

كذلك من صفاتهم أنهم يقاتلون قال الإمام في قول سعد بن أبي وقاص (رأيت عن يمين رسول الله ﷺ وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بياض ما رأيتهما قبل ولا بعد يعني جبريل وميكائيل عليهما السلام). قال الإمام: (فيه بيان كرامة النبي ﷺ على الله تعالى وإكرامه إياه بإنزال الملائكة تقاتل حيث صرح بأن سعد بن أبي وقاص رأى الملائكة وفيه أن رؤيا الملائكة لا تختص بالأنبياء.

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٦/٧، وانظر: ص٥٤/ ٥.

(٢) رواه مسلم في كتاب البر والصلة، باب فضل الحب في الله ١٦/١٠١ برقم (٢٥٦٧)

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ص ١٢٦/ ٤.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٦/١٥١.

المبحث الثاني

المفاضلة بين الملائكة والأنبياء

اختلف الناس في مسألة المفاضلة بين الملائكة والأنبياء إلى أقسام ومذاهب متباينة هي كالآتي:

١ - ينسب إلى أهل السنة تفضيل صالح البشر أو الأنبياء فقط على الملائكة.

٢ - مذهب المعتزلة تفضيل الملائكة على البشر.

٣ - أتباع الأشعري على قولين: منهم من يفضل الأنبياء والأولياء، ومنهم الذي يقف ولا يقطع في ذلك قولاً، وحكي عن بعضهم ميلهم إلى تفضيل الملائكة، وحكي ذلك عن غيرهم من أهل السنة وبعض الصوفية.

٤ - قالت الشيعة: إن جميع الأئمة أفضل من جميع الملائكة.

٥ - من الناس من فصل تفصيلاً آخر، ولم يقل أحد ممن له قول يؤثر: أن الملائكة أفضل من بعض الأنبياء دون بعض، وجعلها من فضول الكلام[١].

موقف الإمام في هذه المسألة

لقد مال الإمام النووي إلى المذهب الأول، المنسوب لأهل السنة والذي فيه أن الأنبياء وصالحي البشر فقط أفضل من الملائكة.

---

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص ٤١٠/ ٢.

فقال رحمه الله (ومذهب أصحابنا وغيرهم . أن الأنبياء أفضل من الملائكة لقوله تعالى في بني إسرائيل ﴿وفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[1] والملائكة من العالمين)[2].

وقال أيضًا في شرح قوله ﷺ (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وأول من ينشق عنه القبر وأول شافع وأول مشفع)[3] (وهذا الحديث دليل لتفضيله ﷺ على الخلق كلهم لأن مذهب أهل السنة أن الآدميين أفضل من الملائكة، وهو ﷺ أفضل الآدميين وغيرهم)[4].

وقال رحمه الله في شرح قوله ﷺ (إن كل واحد من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم يقول لست هنا كم أو لست لها[5]، قال الإمام (وفيه تفضيله ﷺ على جميع المخلوقين من الرسل والآدميين والملائكة فإن هذا الأمر العظيم وهي الشفاعة العظمى لا يقدر على الإقدام عليها غيره ﷺ وعليهم أجمعين والله أعلم»[6].

قلت: اختلف العلماء في هذه المسألة كما ذكر الإمام ذلك، عندما ذكر مذهب المعتزلة وما استدلت به، ثم ذكره ما هو عليه وأصحابه من المتكلمين، ثم تقريره أن ما هو عليه هو مذهب أهل السنة[7]، والعلماء في هذه المسألة بين مفضل للملائكة ومنهم من فضل الأنبياء - كالإمام النووي وغيره - ومنهم من توقف في ذلك كالإمام الشوكاني رحمه الله.

---

(١) سورة الجاثية، آية: [١٦].

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٣/ ١٧.

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ٣٠/ ١٥ برقم (٢٢٧٨).

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٣٠/ ١٥.

(٥) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ٤٩/ ٣ برقم ١٩٣.

(٦) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٤٩/ ٣.

(٧) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٣/ ١٧.

وحجته في ذلك أنها من بدع الكلام التي لم يتكلم فيها الصدر الأول من الأئمة ولا من بعدهم من أعلام الأئمة، لأن الواجب على العبد الإيمان بالملائكة والأنبياء، وليس عليه أن يعتقد أي الفريقين أفضل، لأنه لو كان واجبًا لجاء البيان به بالنص من الكتاب والسنة ولبينه سلفنا الصالح وإلى هذا الرأي مال أبو حنيفة رحمه الله فيما حكى عنه شارح الطحاوية والشوكاني وغيرهما من العلماء[1] قال الإمام الشوكاني (وقد اشتغل بهذه المفاضلة، قوم من أهل العلم، ولا يترتب على ذلك فائدة دينية ولا دنيوية، بل الكلام في مثل هذا من الاشتغال بما لا يعني، ومن حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)[2].

قال شارح الطحاوية: (الأدلة الواردة في هذه المسألة من الجانبين إنما تدل على الفضل لا على الأفضلية ولا نزاع في ذلك)[3]، ولا شك في منع التفضيل بينهم إذا كان على وجه التنقص أو الحمية والعصبية لأي جنس منهم، أما نبينا ﷺ فهو أفضل من جيمع المخلوقات من البشر والملائكة وغيرهم كما نص على ذلك غير واحد من أئمة السلف منهم شيخ الإسلام ابن تيمية[4] رحمه الله لأن الله رفعه مكانًا لم يصل إليه نبي مرسل ولا ملك مرسل فسمع صريف الأقلام وخاطب رب العزة عز وجل يتجلى ذلك واضحًا في قصة الإسراء والمعراج وغيرها، قال عبدالله بن سلام رضي الله عنه: (ما خلق الله خلقًا أكرم عليه من محمد ﷺ)[5]. وقد ذكر ابن تيمية رحمه

---

(١) انظر: شرح الطحاوية، ص ٤١٣/ ٢.

(٢) فتح القدير للشوكاني ص ١١٨/ ٢.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ٤١٣/ ٢.

(٤) انظر مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ص ٩٤ ـ ٩٥ وشرح الطحاوية ص ٤١٦/ ٢.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك ص ٥٦٨ ـ ٥٦٩/ ٤ وصححه ووافقه الذهبي.

الله كلامًا جيدًا في مسألة المفاضلة بين الأنبياء والملائكة فقال: (إن الملائكة أفضل باعتبار البداية، والأنبياء وصالحوا البشر أفضل من الملائكة باعتبار كمال النهاية، وذلك عندما يدخلون دار القرار وينالون الزلفىٰ بجنات النعيم والدرجات العلىٰ فيها، فلا يظهر فضلهم عند ابتداء أحوالهم وإنما يظهر فضلهم عند كمال أحوالهم بخلاف الذي تشابه أول أمره وآخره)(١).

* * *

(١) انظر مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ص ١١/٩٥.

الفصل الثالث

الإيمان بالكتب المنزلة

الإيمان بالكتب المنزلة ركن من أركان الإيمان كما سبق بيانه، وقد دل على هذا الأمر النصوص الكثيرة. قال تعالى: ﴿الٓمٓ ① اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ② نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ③ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾(1).

وقال سبحانه: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾(2)، وقد ذكر في النصوص الشرعية بعض أسماء الكتب المنزلة على الرسل، وهي التوراة على موسى والإنجيل على عيسى والزبور على داود والقرآن على محمد ﷺ، وقد اتفقت الأمة على أن القرآن أعظم الكتب السماوية كلها وهو وحده الذي سلم من التحريف والتبديل. وقد تضمن هذا الكتاب من الأوامر والنواهي والعلوم والمواعظ والقصص والترغيب والترهيب وذكر أخبار من سبق وأخبار من يأتي من البعث والنشور والجنة والنار . . . إلى آخره مما لم يشتمل عليه كتاب غيره، قال سبحانه ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾(3)، وقال أيضًا: ﴿مَا

---

(1) سورة آل عمران، الآية: [١-٤].

(2) سورة البقرة، الآية: [٢٨٥].

(3) سورة النحل، الآية: [٨٩].

فرطنا في الكتاب من شيء﴾(1)، وقال: ﴿إنَّا نحنُ نزَّلنا الذكرَ وإنَّا لهُ لحافظون﴾(2)، وخصائص هذا القرآن وميزاته كثيرة جدًا تناول الإمام الحديث عن بعضها وسوف نتعرض لها عند الحديث عن خصائص القرآن، وأما ما يخص بقية الكتب المنزلة فإني لم أعثر للإمام النووي كلامًا مفصلاً سوى بعض الإشارات التي تلمح إليها ومن ذلك قوله. (قوله ﷺ: «لا يسمع بي أحد من هذه الأمة» أي: ممن هو موجود في زمني. وبعد إلى يوم القيامة» فكلهم يجب عليه الدخول في طاعته وإنما ذكر اليهودي النصراني تنبيهًا على من سواهما، ذلك لأن اليهود والنصارى لهم كتاب، فإذا كان هذا شأنهم مع أن لهم كتابًا فغيرهم من لا كتاب له أولى والله أعلم»(3).

ولقد تكلم الإمام على مسألتين مهمتين في هذا الباب، وهي مسألة موقفنا من متشابه القرآن، ومسألة حكم الإختلاف في القرآن. وهما مبحثا هذا الفصل ولكن أحببت قبل البدء بهما، الحديث عن كيفية الإيمان بالقرآن، وخصائصه التي تحدث عنها الإمام ليتضح لنا منهجه في ذلك وسوف أبدأ بمسألة الإيمان بالقرآن وكيفيته.

أولا: الإيمان بالقرآن وكيفيته

١ ـ رأي الإمام النووي:

أثبت الإمام ـ رحمه الله ـ أن القرآن هو كلام الله وتنزيله لا يشبه شيء من كلام الخلق فقال ـ رحمه الله ـ (وأما النصيحة لكتابه سبحانه وتعالى، الإيمان بأنه كلام الله تعالى وتنزيله لا يشبه شيء من كلام الخلق، ولا يقدر على مثله أحد من الخلق، ثم تعظيمه وتلاوته حق تلاوته وتحسينها والخشوع عندها وإقامة حروفه في التلاوة والذب عنه لتأويل المحرفين وتعرض الطاعنين والتصديق بما فيه، والوقوف على أحكامه وتفهم علومه وأمثاله، والاعتبار بمواعظه والتكفر في عجائبه والعمل بمحكمه والتسليم لمتشابهه والبحث عن عمومه وخصوصه وناسخه ومنسوخه ونشر علومه

---

(١) سورة الأنعام، الآية: [٣٨].

(٢) سورة الحجر، الآية: [٩].

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٢/١٦٢.

والدعاء إليه وإلى ما ذكرنا من نصيحته)[1].

٢ ـ منهج السلف في ذلك

قلت: لقد وافق الإمام النووي ـ رحمه الله ـ السلف في أن الإيمان بالكتاب هو التصديق بأنه كلام الله وأن ما تضمنه حق[2] ولكنه أخطأ ـ رحمه الله ـ عندما ذكر أن من الإيمان بالقرآن التسليم لمتشابهه ولقد وافق المتكلمين الذين جعلوا آيات الصفات من المتشابه الذي يجب أن يفوض بها وهذه القضية قد فصلت فيما سبق في مبحث الأسماء والصفات، وسوف تمر معنا فيما بعد عند الحديث عن موقف الإمام من متشابه القرآن.

ثانيًا: خصائص القرآن الكريم

إنه كما يجب الإيمان بالكتب المنزلة على العموم، فإنه يجب الإيمان بالقرآن الكريم على الخصوص، واعتقاد ما له من الخصائص على الكتب السابقة، ولقد وافق الإمام السلف في ذلك وسار على نهجهم ومن تلك الخصائص التي أشار إليها الإمام:

(أ) كونه أعظم المعجزات على الإطلاق

جاء في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ قال: وما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله أو من ـ أو آمن ـ عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إلي، فأرجوا أني أكثرهم تابعًا يوم القيامة»[3].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٣٣/ ٢.

(٢) انظر: منهج الإمام مالك في العقيدة ص ٢٢٤ ـ ٢٣٠، إعداد: سعود الدعجان، والفتاوى ص ٨٦، ٢١٠ ـ ٢١٢، ٢٣٥ ـ ٢٣٦، ٣٥٥، ٥٠٤ ـ ٥١٠/ ١٢، وفتح الباري (١١٧/ ١).

(٣) أخرجه البخاري مع الفتح ص (٣/ ٩) برقم (٤٩٨١)، وص (٢٤٧/ ١٣) برقم (٧٢٧٤) ومسلم في الإيمان برقم (٢٣٩).

قال الإمام «أما معنى الحديث فالحديث الأول اختلف فيه على أقوال: أحدها: أن كل نبي أعطي من المعجزات ما كان مثله لمن كان قبله من الأنبياء فآمن به البشر، وأما معجزتي العظيمة الظاهرة فهي القرآن الذي لم يعط أحد مثله، فلهذا قال أنا أكثرهم تابعًا.

والثاني: معناه أن الذي أوتيته لا يتطرق إليه تخييل بسحر وشبهة بخلاف معجزة غيري فإنه يخيل الساحر بشيء مما يقارب صورتها كما خيلت السحرة في صورة عصا موسى ﷺ والخيال قد يروج عن البعض العوام، والفرق بين المعجزة والسحر والتخييل يحتاج إلى فكر ونظر وقد يخطئ الناظر فيعتقدهما سواء.

والثالث: معناه أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم ولم يشاهدها إلا من حضرها بحضرتهم ومعجزة نبينا ﷺ القرآن المستمر إلى يوم القيامة مع خرق العادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات وعجز الجن والإنس عن أن يأتوا بسورة من مثله مجتمعين أو متفرقين في جميع الأعصار، مع اعتنائهم بمعارضته فلم يقدروا وهم أفصح القرون مع غير ذلك من وجوه المجاز المعروفة والله أعلم»[1].

قلت: الأقوال الثلاثة كلها تصب في أن القرآن الكريم هو أعظم المعجزات على الإطلاق من جميع وجوه الإعجاز والتي أشار الإمام إلى بعضها ـ سابقًا ـ والله أعلم.

(ب) كونه جوامع الكلم

وجاء في الحديث الصحيح أيضًا عن النبي ﷺ قال: «بعثت بجوامع الكلم، ونصرت بالرعب . . .» الحديث[2].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص ١٦١ ـ ١٦٢/ ٢، وانظر ص ١١/ ١، مقدمة الإمام النووي.

(٢) أخرجه البخاري مع الفتح ص ٢٢٨/ ٦، برقم (٢٩٧٧)، وص ٢٤٧/ ١٣، ، برقم (٧٢٧٣)، ومسلم في المساجد برقم (٦).

ذكر الإمام - في شرح هذا الحديث - أن الهروي قال: «يعني به القرآن، جمع الله تعالى في الألفاظ اليسيرة منه المعاني الكثيرة، وكلامه ﷺ كان بالجوامع قليل اللفظ كثير المعاني»[1].

ج: كونه محفوظًا من التبديل والضياع

وكون القرآن محفوظًا من التبديل والزيادة والنقصان مما أجمع عليه الأمة إلا من خذلهم الله تعالى من غلاة الشيعة.

وقد قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[2].

قال الإمام: «المحفوظة من أن يتطرق إليها تغيير الملحدين، أعني بها القرآن العزيز كلام ربنا الذي نزل به الروح الأمين على قلبه ليكون من المنذرين بلسان عربي مبين»[3].

ومن خلال هذا القول للإمام نجده قد أشار إلى مسائل مهمات تتعلق بالقرآن وهي ما سوف نتناول بعضها في المباحث التالية:

* * *

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص (٥/ ٥).

(٢) سورة الحجر، آية: [٩].

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١١/ ١، مقدمة النووي.

المبحث الأول

موقفه من متشابه القرآن

للإمام النووي موقف من متشابه القرآن اتضح لنا من خلال قوله السابق وهو التسليم حيث قال (التسليم لمتشابهه)[1].

وقال في نص آخر له نقله عن الغزالي في باب النهي عن اتباع متشابه القرآن والتحذير من متبعيه «قال قولها - أي عائشة رضي الله عنها - تلا رسول الله ﷺ ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات﴾[2] إلى آخر الآية. قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فأحذروهم»[3].

قال الإمام النووي «قد اختلف المفسرون والأصوليون وغيرهم في المحكم والمتشابه اختلافًا كثيرًا. قال الغزالي في المستصفى: إذا لم يرد توقيف في تفسيره فينبغي أن يفسر بما يعرفه أهل اللغة ويناسب اللفظ من حيث الوضع، و يناسبه قول من قال . . المتشابه الحروف المقطعة في أوائل السور، والمحكم ما سواه، ولا قولهم المحكم ما يعرفه الراسخون في العلم والمتشابه ما انفرد الله تعالى بعلمه، ولا قولهم

---

(١) شرح صحيح مسلم ص ١٧٧/ ١٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: [٧].

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ١٧٧/ ١٦ برقم (٢٦٦٥) كتاب العلم ، باب النهي عن اتباع متشابه القرآن.

المحكم الوعد والوعيد والحلال والحرام والمتشابه القصص والأمثال فهذا أبعد الأقوال بل الصحيح أن المحكم يرجع إلى معنيين:

أحدهما: المكشوف المعنى الذي لا يتطرق إليه اشكال واحتمال والمتشابه ما يتعارض فيه الإحتمال.

والثاني: أن المحكم ما انتظم ترتيبه مفيداً إما ظاهراً وإما بتأويل، وأما المتشابه فالأسماء المشتركة كالقرء وكالذي بيده عقد النكاح وكاللمس فالأول متردد بين الحيض والطهر، والثاني بين الولي والزوج. والثالث: بين الوطء واللمس باليد ونحوها. قال: ويطلق على ما ورد في صفات الله تعالى ما يوهم ظاهره الجهة والتشبيه ويحتاج إلى تأويل واختلف العلماء: في الراسخين في العلم هل يعلمون تأويل المتشابه وتكون الواو في والراسخون عاطفة أم لا ويكون الوقف علي ﴿وما يَعْلَمُ تأويله إلا الله﴾ ثم يبتدئ قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ وكل واحد من القولين محتمل واختاره طوائف والأصح الأول وأن الراسخين يعلمونه لأنه يبعد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق معرفته وقد اتفق أصحابنا وغيرهم من المحققين على أنه يستحيل أن يتكلم الله بما لا يفيد والله أعلم»[1].

ومن خلال قوله السابق الذي صرح فيه أن الصفات من باب المتشابه ونقل ذلك عن الغزالي في المستصفى، وأقره عليه، وهذا القول قد بينت فساده واضطرابه، وهو رحمه الله يقصد به تفويض المعنى وهو ما نطق به بقوله والتسليم لمتشابهه.

وسبق أن قررت أن السلف الصالح كفوا عن الخوض في البحث في كيفية

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٧٧ ـ ١٧٨/ ١٦ كتاب العلم.

الصفة الواردة في الآية القرآنية، أو الحديث النبوي وأنهم تكلموا في جميع آيات الصفات وفسروها بما يوافق معناها ودلالتها ولم يسكتوا عن بيان معنى آية ما، سواء في المحكم والمتشابه.

ولكن لابد لنا هنا من وقفة للكلام على المحكم والمتشابه وهل الراسخون في العلم يعلمون معنى المتشابه - كما قرر النووي رحمه الله - أم يفوضون العلم فيه إلى الله كما قرر هو أيضًا بقوله والتسليم لمتشابهه ويقصد بذلك الصفات وهذا من التناقض الواضح في مذهبه رحمه الله.

أما مسألة معرفة: هل الوقف على لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾[1] أم لا، وما معنى التأويل فيها، قد أجبت عليها وبينتها عند مبحث الأسماء والصفات، ولكن نأتي الآن إلى ما هو المحكم؟ وما هو المتشابه؟.

أقول: إذا تتبعنا أقوال العلماء في معنى (المتشابه) فلا نجد رأيًا إلا وقد بين السلف معناه ووضحوه. فإذا جعلنا المتشابه هو المنسوخ كما روى ابن مسعود وابن عباس وقتادة والسدي وغيرهم، علمنا يقينًا أن العلماء يعلمون معنى المتشابه لأنهم يعلمون معنى المنسوخ سواء كان منسوخًا لفظه ومعناه. وهذا يدل على كذب من قال عن ابن عباس وابن مسعود أن الراسخين في العلم لا يعلمون معنى المتشابه.

وإذا جعلنا المتشابه أخبار القيامة وما فيها، فمعلوم بين المسلمين أن وقت قيام الساعة وحقيقتها أمرها لا يعلمه إلا الله، لكن ذلك لا يدل على أننا لم نفهم معنى

---

(١) سورة آل عمران، آية: [٧].

الخطاب الذي خوطبنا به في ذلك. والفرق واضح بين معرفة الخبر وبين حقيقة المخبر عنه.

وإذا جعلنا المتشابهات أوائل السور المفتتحة بحروف المعجم، فهذه الحروف ليست كلامًا تامًا مكونًا من الجمل الاسمية والفعلية، ولهذا فلا تعرب، ولأن الإعراب جزء من المعنىٰ، بل ينطق بها موقوفة كما يقال أ، ب، ت ولهذا تكتب في صورة الحروف المقطعة لا بصورة اسم الحرف «يقول ابن تيمية فإذا كان علىٰ كل سوىٰ هذه محكمًا. حصل المقصود فإنه ليس المقصود إلا معرفة كلام الله وكلام رسوله»[1].

وإذا قيل إن المتشابه آيات الصفات، فمعلوم بين المسلمين أنهم يفهمون من صفة الرحمة معنىٰ غير صفة القدرة، وإنما نفىٰ السلف علمهم بكيفية هذه وتلك، وجهلهم بكيفية الصفة لا ينفي علمهم بمعناها[2].

قلت: ينبغي أن يعلم أن وظيفة القرآن أنه نزل تبيانًا لكل شيء وهدىٰ ورحمة، ثم يكون الرسول نفسه لا يفهم معنىٰ ما يتكلم به، بدعوىٰ أنه لا يعلم تأويله إلا الله،

---

(١) الردود والتعقبات (ص٨١).

(٢) الردود والتعقبات لأبي عبيدة سليمان آل مشهور ص ٨٢، وانظر أيضًا: موقف شيخ الإسلام من المتشابه ورده علىٰ مفوضة المعنىٰ في تفسير سورة الإخلاص ص ١٤٣ وما بعدها. والحموية ص ١٦٠ - ١٦٣، ومجموعة الرسائل لابن تيمية تحقيق: ص ٨٩/ ١، والإمام ابن تيمية وموقفه من التأويل ص ١٦٤، وقد أخطأ رشيد رضا في تفسير المنار ص ١٦٥/ ٣، عندما نقل عن ابن تيمية. وانظر في المسألة: تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص ٦٢/ ٧٣، والموافقات للشاطبي ص ٣٩١/، ومنهج ودراسات للشنقيطي ص ٣٤ - ٣٥، ومنهج الاستدلال علىٰ مسائل الاعتقاد ص ٤٧٢ - ٥٠٠/ ٢.

وبدعوىٰ أن الصفات من المتشابه هذا مما لا يجوز تسطيره فضلاً عن قوله، وهو الذي قاله الإمام النووي نفسه وأيده وأحاله بأن يكون في كتاب الله ما لا يفهم معناه[1] بعد أن قرر أن الصفات من المتشابه، وهذا والله من التناقض الظاهر في مذهبه عفا الله عنا وعنه والله أعلم.

❊ ❊ ❊

(١) انظر: شرح صحيح مسلم ص ١٦/٧٨.

المبحث الثاني

حكم الاختلاف في القرآن

وفيه مطلبان:

المطلب الأول

رأي الإمام النووي في ذلك

لقد بين الإمام رحمه الله أن الاختلاف في القرآن محمول عند العلماء على نوعين:

الأول: اختلاف لا يجوز.

والثاني: اختلاف في استنباط فروع الدين منه.

فقال - رحمه الله - قوله ﷺ «إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب» وفي رواية «اقرؤوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم فإذا اختلفتم فيه فقوموا» المراد بهلاك من قبلنا هنا هلاكهم في الدين بكفرهم وابتداعهم فحذر رسول الله ﷺ من مثل فعلهم والأمر بالقيام عند الاختلاف في القرآن محمول عند العلماء على اختلاف لا يجوز أو اختلاف يوقع فيما لا يجوز كاختلاف في نفس القرآن أو في معنى منه لا يسوغ فيه الاجتهاد أو اختلاف يوقع في شك أو شبهة أو فتنة أو خصومة أو شجار ونحو ذلك.

وأما الاختلاف في استنباط فروع الدين منه ومناظرة أهل العلم في ذلك على سبيل الفائدة وإظهار الحق واختلافهم في ذلك فليس منهيًا عنه بل هو مأمور به وفضيلة ظاهرة وقد أجمع المسلمون على هذا من عهد الصحابة إلى الآن والله أعلم)[1].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٧٨/ ١٩ كتاب العلم.

المطلب الثاني

موافقة الإمام النووي لمذهب السلف في ذلك

وافق الإمام النووي رحمه الله مذهب السلف في تقريره أن الإختلاف في القرآن على نوعين فمنها ما هو جائز ومنها ما لا يجوز والذي لا يجوز ما كان في نفس القرآن أو في معنى منه لا يسوغ فيه الاجتهاد أو اختلاف يوقع في شك أو شبهة أو فتنة و خصومة أو شجار ونحو ذلك.

ومن ذلك كإختلاف بعض المتكلمين ـ عفا الله عنا وعنهم ـ في تكلم الله بالقرآن وتنزيله[1] واختلاف بعضهم في تأويله كما في حديث عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه ذات يوم وهم يختصمون في القدر، هذا ينزع بآية وهذا ينزع بآية، فكأنما فقئ في وجهه حب الرمان، فقال «أبهذا أمرتم؟ أم بهذا وكلتم؟ أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض؟ انظروا ما أمرتم به فاتبعوه، وما نهيتم عنه فانتهوا»[2].

وجميع أهل البدع مختلفون في تأويله، مؤمنون ببعضه دون بعض يقرون بما يوافق رأيهم من الآيات، وما يخالفه، إما أن يتأولوه تأويلاً يحرفون فيه الكلم عن مواضعه، وإن أن يقولوا هذا متشابه لا يعلم أحد معناه، فيجحدون ما أنزل الله معانيه

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٧٨٣/ ٢.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ص ١٨١، ١٨٥، ١٩٥، ١٩٦/ ٢، وأخرجه مسلم في صحيحه بدقم (٢٦٦٦) من حديث عبدالله بن عمر وقال: هجرت إلى رسول الله ﷺ يومًا، قال: فسمع أصوات، رجلين اختلفا في آية فخرج عليهما رسول الله ﷺ يعرف في وجهه الغضب، فقال: «إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب».

وفي معنى الكفر بذلك، لأن الإيمان باللفظ بلا معنى من جنس إيمان أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا﴾[1] وقال تعالى: ﴿ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أماني﴾[2].

أي إلا تلاوة من غير فهم معناه وليس هذا كالمؤمن الذي فهم ما فهم من القرآن فعمل به. واشتبه عليه بعضه، فوكل علمه إلى الله كما أمره النبي ﷺ بقوله: «فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه» فامتثل أمر نبيه ﷺ[3].

النوع الثاني من الاختلاف الذي أشار إليه رحمه الله فهو أيضًا موافق بقوله لمنهج السلف الذين هم الصحابة ومن تابعهم على منهجهم ولكن أشير إلى أمر مهم وهو أن هذا الاختلاف هو أيضًا على نوعين وهما:

الأول: اختلاف تنوع. والثاني: اختلاف تضاد.

فاختلاف التنوع على وجوه قال شارح الطحاوية (منه ما يكون كل واحد من القولين أو الفعلين حقًا مشروعًا، كما في القراءات التي اختلفت فيها الصحابة رضي الله عنهم، حتى زجرهم النبي ﷺ، وقال: كلا كما محسن[4]. ومثله اختلاف الأنواع في صفة الآذان، والإقامة، والاستفتاح، ومحل السجود والسهو، والتشهد، وصلاة الخوف، وتكبيرات العيد، ونحو ذلك مما قد شرع جميعه، وإن كان بعض أنواعه أرجح وأفضل[5].

---

(١) سورة الجمعة، الآية: [٥].

(٢) سورة البقرة، الآية: [٧٨].

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ٧٨٥ـ٧٨٦/ ٢.

(٤) أخرجه البخاري برقم (٢٤١٠) و (٣٤٧٦) و (٥٠٦٢).

(٥) شرح العقيدة الطحاوية ص ٧٧٨/ ٢.

وأما اختلاف التضاد: فهو القولان المتنافيان، إما في الأصول، وإما في الفروع عند الجمهور الذين يقولون: المصيب واحد، والخطب في هذا أشد، لأن القولين يتنافيان. لكن نجد كثيراً من هؤلاء قد يكون القول الباطل الذي مع منازعه فيه حق ما، أو معه دليل يقتضي حقًا ما، فيردا الحق مع الباطل، حتى يبقى هذا مبطلاً في البعض، كما كان الأول مبطلاً في الأصل وهذا يجري كثيرًا لأهل السنة. وأما أهل البدعة، فالأمر فيهم ظاهر. ومن جعل الله له هداية ونور رأى من هذا ما يبين له منفعة ما في الكتاب والسنة من النهي عن هذا أو أشباهه، وإن كانت القلوب الصحيحة تنكر هذا، لكن نور على نور.

والإختلاف الأول الذي هو اختلاف التنوع: الذم فيه واقع على من بغى على الآخر فيه. وقد دل القرآن على حمد كل واحدة من الطائفتين[1] في مثل ذلك إذا لم يحصل بغي كما في قوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ﴾[2].

وكما في قوله ﷺ: «إذا اجتهد الحاكم، فأصاب، فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ، فله أجر»[3] ونظائر ذلك[4].

والإختلاف الثاني ما حمد فيه إحدى الطائفتين، وذمت الأخرى كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ

---

(١) المقصود قوله تعالى: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا . . .﴾ الآية.

(٢) سورة الحشر، الآية: [٥].

(٣) أخرجه البخاري برقم (٧٣٥٣) ومسلم برقم (١٧١٦) بشرح النووي.

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص ٧٧٩، ٢/٧٨١.

آمن ومنهم من كفر ﴾[1][2] وينبغي أن يعلم بأن دين الله واحد كما ثبت في قوله تعالى: ﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾[3].

وثبت في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد»[4] ومعلوم أن سبب هلاك الأولين إنما كان كثرة السؤال ثم الاختلاف.



---

(١) سورة البقرة، الآية: [٢٥٣].

(٢) انظر شرح العقيدة الطحاوية ص٧٨٢/ ٢.

(٣) سورة آل عمران، الآية: [١٩].

(٤) أخرجه البخاري برقم (٣٢٤٣) ومسلم برقم (٢٣٦٥) بلفظ «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء أخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد».

المبحث الثالث

نماذج من تفسيره لبعض الآيات

لقد ضمن الإمام مسلم ـ رحمه الله ـ كتابه الصحيح كتابًا بعنوان «التفسير» تعرض الإمام النووي فيه لتفسير بعض الآيات، وذكر بعض أسباب النزول ومعاني بعض الكلمات الواردة في بعض الآيات.

والمقصد من هذا المبحث بيان منهج الإمام النووي ـ رحمه الله ـ في التفسير وأنه هو منهج السلف حيث كانت طريقة السلف أنهم يفسرون القرآن بالقرآن، أو القرآن بالسنة، أو بالمأثور عن الصحابة رضي الله عنهم[1].

قال الإمام ابن كثير في تفسيره «فإن قال قائل فما أحسن التفسير، فالجواب أن أصح الطريق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن فما أجمل في مكانه فإنه قد يبسط في موضع آخر فإن أعياك ذلك، فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل قد قال الإمام أبو عبدالله محمد بن إدريس الشافعي ـ رحمه الله تعالىٰ ـ وكل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾[2] وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[3] وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[4].

---

(١) لقد ضمن الإمام النووي رحمه الله كتابه (الفتاوىٰ) باب في التفسير ص ١٧٢، تناول فيه بعض الآيات بالتفسير والبيان، من أراد الاستزادة فليراجعها في مظانها.

(٢) سورة النساء، الآية: [١٠٥].

(٣) سورة النحل، الآية: [٦٤].

(٤) سورة النحل، الآية: [٤٤].

ولهذا قال رسول الله ﷺ «ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه»[1] يعني السنة، والسنة أيضا تنزل عليه بالوحي كما ينزل القرآن إلا أنها لا تتلى كما يتلى القرآن، وقد استدل الإمام الشافعي - رحمه الله - وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة ليس هذا موضع ذلك. والغرض أنك تطلب تفسير القرآن منه فإن لم تجده فمن السنة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ حين بعثه إلى اليمن. بم تحكم؟ قال بكتاب الله، قال: فإن لم تجد؟ قال سنة رسول الله، قال فإن لم تجد؟ قال اجتهد رأيي، قال فضرب رسول الله ﷺ في صدره وقال. الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله إلى ما يرضي رسول الله[2]». وهذا الحديث في المسند والسنن بإسناد جيد كما هو مقرر في موضعه. وحينئذ إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوا من القرائن والأصول التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح..»[3].

والآيات التي تعرض الإمام لتفسيرها في شرحه لصحيح مسلم هي:

١ - قوله تعالى: ﴿ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف﴾[4] قال الإمام أنه يجوز للولي أن يأكل من مال اليتيم بالمعروف إذا كان محتاجًا هو أيضًا مذهب الشافعي والجمهور، وقالت طائفة: لا يجوز وحكى عن ابن عباس وزيد بن أسلم قالا: وهذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿إنّ الّذين يأكلون أموال اليتامى ظلما﴾[5] الآية، وقيل بقوله

---

(١) أخرجه أبو داود برقم (٤٦٠٤).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه برقم ١٣٢٧ باب ما جاء في القاضي كيف يقضي، ورواه أبو داود في سننه كتب الأقضية باب اجتهاد الرأي في القضاء حديث رقم ٣٥٩٢.

(٣) تفسير ابن كثير ص ٤/ ١ (المقدمة).

(٤) سورة النساء، آية: [٦].

(٥) سورة النساء، آية: [١٠].

تعالىٰ: ﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾[1] واختلف الجمهور في إذا أكل هل يلزمه رد بدله وهما وجهان لأصحابنا أحدهما لا يلزمه، وقال فقهاء العراق إنما يجوز له الأكل إذا سافر في مال اليتيم والله أعلم)[2].

٢ـ وفي قوله تعالىٰ: ﴿ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها﴾[3] قال الإمام: هذا هو المشهور عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ وروي عنه أن له توبة وجواز المغفرة له لقوله تعالىٰ: ﴿ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما﴾[4] وهذه الرواية الثانية هي مذهب جميع أهل السنة والصحابة والتابعين ومن بعدهم وما روىٰ عن بعض السلف لما يخالف هذا محمول علىٰ التلغيظ والتحذير من القتل والتورية في المنع، وليس في هذه التي احتج بها ابن عباس تصريح بأنه يخلد وإنما فيها أنه جزاءه ولا يلزم منه أن يجازىٰ وقد سبق تقرير هذه المسألة وبيان معنىٰ الآية في كتاب التوبة والله أعلم)[5].

٣ـ وقال في قوله جابر، كان عبدالله بن أبي ابن سلول يقوله لجارية له: اذهبي فابقينا شيئًا فأنزل الله عز وجل ﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا ومن يكرههن فإن الله من بعد إكراههن غفور رحيم﴾[6].

---

(١) سورة البقرة، الآية: [١٨٨].

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٢٢/١٨.

(٣) سورة النساء، آية: [٩٣].

(٤) سورة النساء، آية: [١١٠].

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٢٣/١٨، كتاب التفسير، وانظر ص ٦٩/١٧ كتاب التوبة.

(٦) سورة النور، الآية: [٣٣].

قال الإمام (قوله فأنزل الله تعالىٰ ﴿ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا﴾ إلىٰ قوله ﴿ومن يكرههن فإن الله . . ﴾ هكذا وقع في النسخ كلها ﴿ غفور رحيم﴾ وهذا تفسير ولم يرد به أن لفظة لهن منزلة فإن لم يقرأ بها أحد، وإنما هي تفسير وبيان يردان المغفرة لهن لكونهن مكرهات لا لمن أكرههن، وأما قوله تعالىٰ: ﴿إن أردن تحصنًا﴾ فخرج علىٰ الغالب إذ الإكراه هو لمريد التحصن، أما غيرها فهي تسارع إلىٰ البغاء من غير حاجة إلىٰ الإكراه والمقصود أن الإكراه علىٰ الزنا حرام سواء أردن تحصنًا أم لا، وصورة الإكراه مع أنها لا تريد التحصن أن تكون هي مريدة الزنا بإنسان فيكرهها علىٰ الزنا بغيره وكله حرام)(١).

٤ ـ وفي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ﴾(٢) قال الإمام (هذا تصريح بأن الحسنات تكفر السيئات، واختلفوا بالمراد بالحسنات هنا فنقل الثعلبي أن أكثر المفسرين علىٰ أنها الصلاة الخمس واختاره ابن جرير وغيره من الأئمة وقال مجاهد: هو قول العبد سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ويحتمل أن المراد الحسنات مطلقًا، وقد سبق في كتاب الطهارة والصلاة ما يكفر من المعاصي بالصلاة وسبق في مواضع قوله تعالىٰ: ﴿وزلفًا من الليل﴾ هي ساعته ويدخل في صلاة طرفي النهار والصبح والظهر والعصر، وفي زلفًا من الليل المغرب والعشاء)(٣).

٥ـ وفي قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ﴾(٤) قال: (وهذا استفهام إنكار علىٰ من يقول أن الدخان يكون يوم القيامة كما صرح به في الرواية

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٢٧/ ١٨.

(٢) سورة هود، الآية: [١١٤].

(٣) شرح صحيح مسلم ص ٦٦/ ١٧.

(٤) سورة الدخان، الآية: [١٦].

الثانية فقال ابن مسعود هذا قول باطل لأن الله تعالىٰ قال: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلاً إنكم عائدون﴾[1] ومعلوم أن كشف العذاب، ثم عودهم لا يكون في الآخرة إنما هو في الدنيا)[2].

٦ ـ وأخيرًا قال في تفسير قوله تعالىٰ: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[3] قال في شرح حديث ابن عباس، قال: كانت المرأة تطوف بالبيت وهي عريانه، فتقول من يعيرني تطوافًا؟ تجعله علىٰ فرجها، وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله   فما بدا منه فلا أحله

فنزلت هذه الآية: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾)[4].

قوله «فتقول من يعيرني تطوافًا، هو بكسر التاء المثناة فوق وهو ثوب تلبسه المرأة تطوف به وكان أهل الجاهلية يطوفون عراة ويرمون ثيابهم ويتركونها ملقاة علىٰ الأرض ولا يأخذونها أبدًا ويتركونها تداس بالأرجل حتىٰ تبلىٰ ويسمىٰ اللقاء حتىٰ جاء الإسلام فأمر الله تعالىٰ بستر العورة، فقال تعالىٰ: ﴿خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[5]. وقال النبي ﷺ «ولا يطوف بالبيت عريان[6]»[7].

* * *

(١) سورة الدخان، الآية: [١٥].

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٨/١١٧.

(٣) سورة الأعراف، الآية: [٣١].

(٤) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ١٢٦ ـ ١٨/١٢٧.

(٥) سورة الأعراف، الآية: [٣١].

(٦) أخرجه الترمذي ص ٢٢٢/ ٣، برقم (٨٧١) باب ما جاء في كراهية الطواف عريانًا.

(٧) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٨/١٢٦.

الفصل الرابع

الإيمان بالرسل

وفيه سبعة مباحث :

المبحث الأول : الفرق بين النبي والرسول .

المبحث الثاني : مفهوم الوحي إلى الأنبياء .

المبحث الثالث : عموم رسالة الرسول ﷺ .

المبحث الرابع : معجزات الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم .

المبحث الخامس : عصمة الأنبياء .

المبحث السادس : حوض الرسول ﷺ .

المبحث السابع : ختم النبوة بمحمد ﷺ .



المبحث الأول

الفرق بين النبي والرسول وفيه مطلبان

المطلب الأول: الفرق بين النبي والرسول.

المطلب الثاني: حاجة البشرية إلى النبوة.

* * *

المطلب الأول

الفرق بين النبي والرسول

اختلف العلماء رحمهم الله في تعريف النبي والرسول شرعاً، وبيان الفرق بينهما، والإمام النووي لم يعمد إلىٰ بيان تعريفهما لغة ولا شرعاً، ولكنه تعرض لبيان الفرق بينهما فقال: «وينكر علىٰ مسلم رحمه الله في هذا الكلام شيء آخر وهو قوله: وعلي جميع الأنبياء والمرسلين، فيقال: إذا ذكر الأنبياء لا يبقىٰ لذكر المرسلين وجه لدخولهم في الأنبياء فإن االرسول نبي وزيادة، ولكن هذا الإنكار ضعيف ويجاب عنه بجوابين، أحدهما: أن هذا سائغ وهو أن يذكر العام، ثم الخاص تنويهاً بشأنه وتوضيحاً لأمره وتفخيماً لحاله وقد جاء في القرآن العزيز آيات كريمات كثيرات من هذا مثل قوله تعالىٰ: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ﴾ (١) وقوله تعالىٰ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾(٢) وغير ذلك من الآيات الكريمات قد جاء أيضاً عكس هذا وهو ذكر العام بعد الخاص. قال الله تعالىٰ حكاية عن نوح ﷺ ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلاَّ تَبَارًا﴾(٣) فإن ادعىٰ متكلف أنه عني بالمؤمنين غير من تقدم ذكره فلا يلتفت إليه. الجواب الثاني: أن قوله: والمرسلين أعم من جهة أخرىٰ وهو أنه يتناول جميع رسل الله سبحانه

---

(١) سورة البقرة، الآية [٩٨]

(٢) سورة الأحزاب، الآية[٧]

(٣) سورة نوح، الآية[٢٨]

وتعالى من الآدميين والملائكة، قال الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ والمسجد الحرام الَّذي جعَلْنَاهُ للنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ من عذاب أليم﴾[1] ولا يسمى الملك نبياً، فحصل بقوله المرسلين فائدة لم تكن حاصلة بقوله والنبيين والله أعلم)[2].

وقال أيضاً في موضع آخر في شرح البراء بن عازب[3] والذي جاء فيه أن رسول الله ﷺ قال «إذا أخذت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن، ثم قال: اللهم إني أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك . . . آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت، واجعلهن من آخر كلامك فإن مت من ليلتك مت على الفطرة» فقال البراء« فرددتهن لاستذكرهن فقلت: آمنت برسولك الذي أرسلت قال: آمنت بنبيك الذي أرسلت)[4].

قال الإمام: «اختلف العلماء في سبب إنكاره ﷺ ورده اللفظ فقيل إنما رده لأن قوله آمنت برسولك يحتمل غير النبي ﷺ من حيث اللفظ واختار المازري وغيره أن سبب الإنكار أن هذا ذكر ودعاء فينبغي فيه الاقتصار على اللفظ الوارد بحروفه وقد يتعلق الجزاء بتلك الحروف ولعله أوحى إليه ﷺ بهذه الكلمات فيتعين أداؤها بحروفها وهذا القول حسن، وقيل: لأن قوله ونبيك الذي أرسلت فيه جزالة من حيث صنعة الكلام وفيه جمع النبوة والرسالة فإذا قال رسولك الذي أرسلت فإن هذا الأمر مع ما

---

(١) سورة الحج، الآية [٧٥]

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص ١٦/ ١ المقدمة.

(٣) هو أبو عمارة الأنصاري الحارثي المدني، نزيل الكوفة من أعيان الصحابة له مسند فيه ٣٠٥ حديثاً توفي سنة ٧٢ هـ، وقيل ٧١هـ. انظر تهذيب سير أعلام النبلاء ص ٩٥/ ١.

(٤) أخرجه مسلم بشرح النووي من ٢٨/ ١٧، ص ٩٥/ ١.

فيه من تكرار لفظ رسول وأرسلت وأهل البلاغة يعيبونه، وقد قدمنا في أول شرح خطة هذا الكتاب أنه لا يلزم من الرسالة النبوة ولا عكسه)[1].

قلت: هذا الفرق الذي ذكره الإمام النووي هو الذي يذكره كثير من أهل العلم في كتبهم حتىٰ إن بعض طلبة العلم لا يكاد يعرف غيره ولكن بعضهم ذكر أن كل رسول نبي بلا عكس وهذا خلاف ما ذكره الإمام[2].

الرأي الراجح في التفريق بين النبي والرسول

القول الراجح الذي يتفق مع ظواهر النصوص في التفريق بين النبي والرسول هو ما ذهب إليه المحققون من علماء السلف، يقول ابن تيمية رحمه الله مبيناً هذا الفرق: «فالنبي هو الذي ينبئه الله، وهو ينبئ غيره بما أنبأه الله به، فإن أرسل مع ذلك إلىٰ من خالف أمر الله ليبلغه رسالة من الله فهو رسول، وأما إذا كان إنما يعمل بالشريعة قبله ولم يرسل هو إلىٰ أحد يبلغه عن الله رسالة فهو نبي وليس برسول... فالأنبياء ينبئهم الله فيخبرهم بأمره ونهيه وخبره، وهم ينبئون المؤمنين بهم ما أنبأهم الله به من الخبر والأمر والنهي، فقوله تعالىٰ: ﴿ **مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلاَّ إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾[3] دليل علىٰ أن النبي مرسل، ولا يسمىٰ رسولاً عند الإطلاق لأنه لم يرسل إلىٰ قوم بما لا يعرفونه، بل كان يأمر المؤمنين بما يعرفون أنه حق»[4].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص٥٨/ ١٧

(٢) الإيمان لشيخ الإسلام ابن تيمية ص١١ ـ ١٢

(٣) سورة الحج، الآية [٥٢]

(٤) النبوات لشيخ الإسلام، ص١٧٥ ـ١٧٦ بشيء من الاختصار

ويقول الإمام العلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي[1] رحمه الله مبطلاً ما ذهب إليه كثير من العلماء في هذه القضية: «وآية الحج تبين أن ما اشتهر على ألسنة أهل العلم من أن النبي هو من أوحى إليه وحي ولم يؤمر بتبليغه، وأن الرسول هو النبي الذي أوحي إليه وأمر بتبليغ ما أوحي إليه غير صحيح، لأن قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرسلنا من قَبْلك من رَّسُولٍ وَلا نَبِيٍّ ....﴾ الآية[2] يدل على أن كلاً منهما مرسل، وأنهما مع ذلك بينهما تغاير. واستظهر بعضهم أن النبي هو رسول أنزل إليه كتاب وشرع مستقل مع المعجزة التي ثبتت بها نبوته، وأن النبي المرسل الذي هو غير الرسول هو من لم ينزل عليه كتاب، وإنما أوحي إليه أن يدعو الناس إلى شريعة رسول قبله، كأنبياء بني إسرائيل الذي كانوا يرسلون ويؤمرون بالعمل بما في التوراة، كما بينه تعالى بقوله: (يحكم بها النبيون الذين أسلموا. . .)[3] الآية[4].

وهكذا يتضح أن القول الصحيح المعتمد هو ما بينه هذان الإمامان الجليلان، وأما ما ذهب إليه الإمام النووي جرياً على عادة كثير من العلماء، فهو صحيح، لكن القول الراجح في المسألة ما ذكرته سابقاً والله أعلم.

---

(١) سبق ترجمته.

(٢) سورة الحج، آية [٥٢]

(٣) سورة المائدة، آية [٤٤]

(٤) أضواء البيان للشنقيطي ٥/ ٧٣٥

المطلب الثاني

حاجة البشرية إلى النبوة

المسألة الأولى: النبوة ضرورة من الضروريات التي لا غنى للخلق عنها:

إن النبوة ضرورية من ضروريات حياة الخلق لا غنى لهم عنها بحال من الأحوال، فحاجتهم إليها كحاجة الحياة إلى الروح، فكما أن الحياة لا تصلح ولا تقوم بدون الروح، فكذلك حال البشرية لا يصلح إلا باتباع هدي النبوة.

وتظهر ضرورة النبوة وحاجة الناس إليها إذا عرفنا أن الإنسان مكون من روح وجسد، وأن العالم عالمان علوي وسفلي، وأن الحياة حياتان أولى تنقضي وأخرى تدوم ولا تنتهي، وأن بين الحياتين برزخاً تقضي فيه الأرواح فترة ما بين الإنسان وبعثه للحياة الثانية. وبيان ذلك أن كون الإنسان روحاً يقتضي وحياً إلهياً يخبره عن الروح وصفاتها وأحوالها وأسباب كمالها ونقصانها وسعادتها وشقاوتها، وأن كون الإنسان جسماً يقتضي كذلك وحياً إلهياً يبين له فيه طرق المحافظة على جسمه، ويضع له القوانين التي تساعده على بقائه صالحاً في المدة المحددة له في الحياة، وأن كون العالم عالمين علوياً وسفلياً يقتضي وحياً إلهياً يخبره عن العالم العلوي وما فيه لعجز الإنسان عن معرفة ذلك بوسائله الخاصة وإدراكه دون الوحي الإلهي، وأن كون الحياة حياتين يقتضي كذلك وحياً إلهياً يعرف الإنسان بواسطته الحياة الثانية وماذا فيها، وما الذي يتم للإنسان يوم ينتقل إليها، إذ مثل هذا لا يدركه الإنسان بواسطة عقله مجرداً عن الوحي بحال من الأحوال[1].

---

(١) عقيدة المؤمن للشيخ أبي بكر الجزائري، ص٢٠٧-٢٠٨.

ومما لا شك فيه أن العقل البشري مهما بلغ في كماله وذكائه، فإنه لا يكفي وحده لهداية الخلق وإسعادهم، لأنه مخلوق ضعيف محدد الإدراك والتفكير، ولهذا اقتضت حكمة الله عز وجل ورحمته بخلقه أن يرسل إليهم الأنبياء والرسل ليعبدوه سبحانه ولا يشركوا به شيئاً، وليدلوهم أيضاً على كل خير ويحذروهم من كل شر، ليكونوا من السعداء في الدارين.

يقول الإمام المجتهد ابن قيم الجوزية رحمه الله مبيناً حاجة الخلق إلى الرسل وإلى اتباع تعاليمهم: «ومن هنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول وما جاء به وتصديقه فيما أخبر به وطاعته فيما أمر به، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل. ولا سبيل إلى معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم، ولا ينال رضا الله البتة إلا على أيديهم. فالطيب من الأعمال والأقوال والأخلاق ليس إلا هديهم وما جاءوا به، فهم الميزان الراجح الذي علي أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم توزن الأقوال والأخلاق والأعمال. وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل الضلال، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه، والعين إلى نورها، والروح إلى حياتها، فأي ضرورة وحاجة فرضت، فضرورة العبد وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير[(١)].

قلت: رحم الله الإمام ابن القيم ما أدق وصفه وماأبلغه وأجمله!! فليت الناس يدركون هذه الحقيقة الساطعة، وخاصة أولئك الذين انبهروا بالعقل وبما وصلت إليه المدنية الغربية الحديثة من مستوى رفيع في التقنية والتقدم، ناسين أو متجاهلين ما يعيشه أولئك القوم الضالون من فراغ وجحيم وانحطاط خلقي لا يعرف مداه إلا الله

---

(١) زاد المعاد إلى هدي خير العباد لابن القيم ١/ ٦٩ بتحقيق شعيب الأرناؤوط.

تعالى، وذلك بسبب إهمالهم لرسالة الإسلام الخالدة ومحاربتهم لها، فهم كالأنعام بل أضل سبيلاً، لأنهم يعيشون لأجل شهواتهم البهيمية وملذاتهم الدنيوية التي لم تحقق لهم السعادة والطمأنينة الحقيقية التي لا توجد لغير اتباع نبي الإسلام ﷺ، وصدق الله القائل في هؤلاء وأمثالهم من الكفرة: ﴿...وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾[1]، والقائل أيضاً: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾[2].

فالسعادة الحقيقية في الدارين هي الإيمان بالله تعالى ومحبته وطاعته وطاعة رسوله ﷺ واتباعه.

المسألة الثانية: النبوة واسطة بين الخالق سبحانه وبين خلقه يمن بها على من يشاء منهم ويقيم عليهم بها حجته

النبوة كما هي ضرورة ملحة لا غنى عنها كما سبق بيانه فهي أيضاً واسطة بين الله عز وجل وبين خلقه، فهو سبحانه يصطفي من البشر من يشاء ممن كملوا في الإنسانية والشجاعة والخلق وغير ذلك، ويوحي إليهم لينذروا الناس ويأمروهم بعبادته تعالى وحده، وبما ينفعهم في دنياهم وآخرتهم وينهوهم عن الشرك وعما فيه شقاوتهم في الدارين، كما قال سبحانه: ﴿لَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[3].

---

(١) سورة محمد، آية [١٢]

(٢) سورة طه، آية [١٢٤-١٢٦]

(٣) سورة النحل، آية [٣٦]

فإرساله عز وجل لهم الرسل من أعظم الرحمة بعباده، قال سبحانه ماناً على عباده المؤمنين بإرسال خاتم الرسل محمد ﷺ: ﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾[1]. يقول الإمام ابن كثير رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: «لقد منّ الله على عباده المؤمنين بأن أرسل فيهم رسولاً (من أنفسهم) أي من جنسهم ليتمكنوا من مخاطبته وسؤاله ومجالسته والانتفاع به كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2]. أي من جنسكم، وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾[3] الآية. فهذا أبلغ في الامتنان أن يكون الرسول إليهم منهم بحيث يمكنهم مخاطبته ومراجعته في فهم الكلام عنه، ولهذا قال: (يتلو عليهم آياته) يعني القرآن (ويزكيهم) أي يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر لتزكوا أنفسهم وتطهر من الدنس والخبث الذي كانوا متلبسين في حال شركهم وجاهليتهم، (ويعلمهم الكتاب والحكمة) يعني القرآن والسنة (وإن كانوا من قبل) أي قبل هذا (لفي ضلال مبين) أي لفي غي وجهل ظاهر جلي لكل أحد»[4].

فالأنبياء والرسل وسائط ومنذرون من قبل الله عز وجل للعباد، فيجب عليهم تصديقهم وطاعتهم واتباعهم. وقد أشار إلى ذلك الإمام بقول الله تعالى ﴿ لَا نُفَرِّقُ

---

(١) سورة آل عمران، آية [١٦٤]

(٢) سورة الروم، آية [٢١]

(٣) سورة الكهف، آية [١١٠]

(٤) تفسير ابن كثير، ١/٣٧٣

بين أحد من رسله﴾[1] لا نفرق بينهم في الإيمان فنؤمن ببعضهم ونكفر ببعض كما فعله أهل الكتابين، بل نؤمن بجميعهم وأحد من هذا الموضع بمعنى الجمع ولهذا دخلت فيه بين ومثله قوله تعالى: ﴿فما منكم من أحد عنه حاجزين﴾[2][3].

وقال في شرحه قوله ﷺ «أنا النذير العريان»[4]، (قال العلماء: أصله أن الرجل إذا أراد إنذار قومه وإعلامهم بما يوجب المخافة نزع ثوبه وأشار به إليهم إذا كان بعيداً منهم ليخبرهم بما دهمهم وأكثر ما يفعل هذا ربيئة القوم وهو طليعتهم ورقيبهم قالوا: إنه يفعل ذلك لأنه أبين للناظر وأعزب وأشنع منظراً فهو أبلغ في استحثاثهم في التأهب للعدو وقيل معناه أنا النذير الذي أدركني جيش العدو فأخذ ثيابي فأنا أنذركم عرياناً»)[5].

قلت: لهذا لا يبقى للخلق حجة يحتجون بها على الله بعد إرساله من ينذرهم ويحذرهم من الأنبياء والرسل، قال سبحانه موضحاً للغاية من بعثة أنبياءه ورسله ﴿رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزا حكيما﴾[6].

* * *

---

(1) سورة البقرة، الآية [285]

(2) سورة الحاقة، الآية [47]

(3) شرح صحيح مسلم للنووي، ص124-125/2

(4) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص 39/ 15 برقم (2283).

(5) شرح صحيح مسلم للنووي ص 39-40/15.

(6) سورة النساء الآية [165].

المسألة الثالثة: بيان اتفاق دعوة الرسل

قال تعالى ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه .... ﴾(١) وقال تعالى: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ﴾(٢).

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد»(٣) ولقد أشار الإمام إلى أن دعوة الرسل واحدة فقال: (قال العلماء: أولاد العلات بفتح العين المهملة وتشديد اللام هم الأخوة لأب من أمهات شتى، وأما الأخوة من الأبوين، فيقال لهم أولاد الأعيان، قال جمهور العلماء معنى الحديث أصل إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة فإنهم متفقون في أصول التوحيد، وأما فروع الشرائع فوقع فيها الاختلاف، وأما قوله صلى الله عليهم وسلم: «ودينهم واحد» فالمراد به أصول التوحيد وأصل طاعة الله تعالى، وإن اختلفت صفتها وأصول التوحيد والطاعة جميعاً)(٤).



---

(١) سورة الشورى، الآية [١٣]

(٢) سورة المائدة، الآية [٤٨]

(٣) أخرجه البخاري مع الفتح من ٦/٤٨٧، برقم ٣٤٤٣، ومسلم في الفضائل برقم ١٤٥.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٩٨/ ١٥.

المسألة الرابعة: حكم التفاضل بين الأنبياء وذكر بعض ما فضل به نبينا محمد ﷺ:

أولاً: إجماع العلماء على أن الأنبياء متفاضلون، وجوابهم عما ورد من النهي عن ذلك.

أ ـ بعض النصوص الدالة علي وجود التفاضل:

لقد ثبت في نصوص الكتاب والسنة أن الأنبياء والرسل بعضهم أفضل من بعض، من ذلك:

١ ـ قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ درجات﴾[١].

٢ ـ وقوله تعالى ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ على بعض وآتينا داوُدَ زَبُوراً﴾[٢].

٣ ـ قوله عليه الصلاة والسلام: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع، وأول مشفع»[٣].

٤ ـ وقوله أيضاً: «فضلت على الأنبياء بست أعطيت جوامع الكلم[٤]،

---

(١) سورة البقرة، آية [٢٥٣]

(٢) سورة الإسراء، آية [٥٥]

(٣) رواه مسلم في كتاب الفضائل باب تفضيل نبينا محمد ﷺ على جميع الخلائق، ص٣٠/ ١٥ برقم (٢٢٧٨)

(٤) في رواية أخرى «بعثت بجوامع الكلم» قال النووي: يعني به القرآن، جمع الله تعالى في الألفاظ اليسيرة منه المعاني الكثيرة، وكلامه ﷺ كان بالجوامع قليل اللفظ كثير المعنى. شرح صحيح مسلم، ص٥/ ٥

ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأرسلت إلىٰ الناس كافة وختم بي النبيون»[1] إلىٰ غير ذلك من النصوص.

يقول الإمام النووي ـ رحمه الله ـ في تعليقه علىٰ الحديث الأول «أنا سيد ولد آدم» «وهذا الحديث دليل لتفضيله ﷺ علىٰ الخلق كلهم لأن مذهب أهل السنة أن الآدميين أفضل من الملائكة وهو ﷺ أفضل الآدميين وغيرهم»[2].

قلت: ولهذا أجمعت الأمة[3] علىٰ أن الرسل أفضل من الأنبياء، والرسل بعد ذلك متفاضلون فيما بينهم، وأفضل الرسل والأنبياء خمسةوهم: محمد وإبراهيم ونوح وموسىٰ وعيسىٰ ـ عليهم السلام ـ وهؤلاء هم أولو العزم من الرسل، وهم الذي خصوا بالذكر مجتمعين في آيتين كريمتين هما قوله سبحانه: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾[4]. وقوله ﷻ ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾[5].

---

(١) رواه مسلم في كتاب المساجد، ص٥/ ٥ برقم ٥٢٣

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص٣٠/ ١٥

(٣) انظر الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لشيخ الإسلام ص ٢٧، وتفسير ابن كثير من ص٢٦٦/ ١ وشرح الطحاوية من ٤١٠/ ٢، وفتح القدير ص ٢٦٤، ٥٢٩/ ٤، ولوامع الأنوار من ٤٩_٥٠/ ١.

(٤) سورة الشورىٰ، آية [١٣]

(٥) سورة الأحزاب، آية [٧]

ب ـ جواب العلماء عما ورد من النهي عن التفضيل بين الأنبياء

وردت بعض الأحاديث عن رسول الله ﷺ تنهي عن المفاضلة بين الأنبياء منها: قوله ﷺ: لا تخيروا بين الأنبياء»، وفي رواية: «لا تفضلوا بين أنبياء الله»، وفي رواية: «لا تخيروني على موسىٰ»[1].

وقوله عليه الصلاة والسلام: «ما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متي» متفق عليه[2]. وغير ذلك من الأحاديث، وقد يظن أن هناك تعارضاً بين هذه الأحاديث وبين الآيات والأحاديث المتقدمة، والتي فيها النص على المفاضلة بين الأنبياء. والحق أنه لا تعارض البتة فيما بينها، وقد أجاب العلماء رحمهم الله عن ذلك بعدة أقوال ذكرها الإمام النووي، فقال بعد قوله «وأما الحديث الآخر لا تفضلوا بين الأنبياء فجوابه من خمسة أوجه:

أحدها: أنه ﷺ قال قبل أن يعلم أنه سيد ولد آدم فلما علم أخبر به.

والثاني: قاله أدباً وتواضعاً.

والثالث: أن النهي إنما هو عن تفضيل يؤدي إلىٰ تنقيص المفضول.

والرابع: إنما نهىٰ عن تفضيل يؤدي إلىٰ الخصومة والفتنة كما هو المشهور في

---

(١) رواه البخاري، هذه الروايات في عدة مواضع من صحيحه مختصراً ومطولاً منها في كتاب الخصومات باب ما يذكر في الأشخاص ٥/ ٨٦ برقم: ٢٤١٢، وفي كتاب الديات باب إذا لطم المسلم يهودياً ١٢/ ٢٧٤ برقم: ٦٩١٦، وفي كتاب أحاديث الأنبياء برقم: ٣٤١٤، ٣٤٠٨، ومسلم في كتاب الفضائل باب فضائل موسىٰ ص ١٠٧/ ١٥ برقم ٢٣٧٣.

(٢) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء باب قول الله تعالىٰ (وإن يونس لمن المرسلين) ٦/ ٥١٩ برقم: ٣٤١٣، ومسلم في كتاب الفضائل باب في ذكر يونس عليه السلام ص١٠٨ـ١٠٩/ ١٥ برقم: ٢٣٧٧.

سبب الحديث .

والخامس : أن النهي مختص بالتفضيل في نفس النبوة فلا تفاضل فيها ، وإنما التفاضل بالخصائص وفضائل أخرىٰ ولابد من اعتقاد التفضيل فقد قال الله تعالىٰ ﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم علىٰ بعض﴾[1])[2] .

وقال في شرح حديث «لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متىٰ»[3] ، قال العلماء هذه الأحاديث تحتمل وجهين :

أحدهما أنه ﷺ قال هذا قبل أن يعلم أنه أفضل من يونس بن متىٰ فلما علم ذلك ، قال أنا سيد ولد آدم ، ولم يقل هنا أن يونس أفضل منه أو من غيره من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم .

والثاني : أنه ﷺ قال : هذا زجراً عن أن يتخيل أحد من الجاهلين شيئاً من حط مرتبة يونس صلىٰ الله عليه وسل من أجل ما ذكر القرآن العزيز من قصته . قال العلماء : وما جرىٰ ليونس ﷺ لم يحطه من النبوة مثقال ذرة وخص يونس بالذكر لما ذكرناه من ذكره في القرآن بما ذكر ، وأما قوله ﷺ ما ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس فالضمير في أنا ، قيل ، يعود إلىٰ النبي ﷺ ، وقيل يعود إلىٰ القائل أي لا يقول ذكر بعض الجاهلين من المجتهدين في عبادة أو علم أو غير ذلك من الفضائل فإنه لو بلغ من الفضائل ما بلغ لم يبلغ درجة النبوة ويؤيد هذا التأويل الرواية التي قبله ، وهي

---

(١) سورة البقرة الآية [٢٥٣] .

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي من ١٥/٣١ ، وانظر معارج القبول للحافظ الحكمي فقد نقل عن الإمام هذا أو علق عليه ص٣٥٨ـ٣٥٩/٢ .

(٣) سبق تخريجه

قوله تعالىٰ «لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متىٰ» والله أعلم[1].

قلت: لقد أجاب العلماء[2] بنحو ما قاله الإمام النووي، وأما الوجه الذي ذكره الإمام في بيان معنىٰ «لا ينبغي لعبد أن يقول أنا خير من يونس بن متىٰ» فهو وجه بعيد جداً، لأنه يستبعد أن يخطر ببال مؤمن بالله واليوم الآخر أو يظن بنفسه مهما بلغ من الصلاح والتقىٰ، أنه أفضل من يونس بن متىٰ أو غيره من الأنبياء، لأن من ظن ذلك أو قال ففي إيمانه نظر، إذ هذا من أعظم الانتقاص للأنبياء، ومعلوم حكم ذلك.

أما ما يخص الوجوه الخمسة التي ذكرها الإمام، لا مانع من أن يكون المراد من نهي النبي ﷺ من المفاضلة بين الأنبياء وجه من هذه الوجوه، وهي الوجوه التي ذكرها العلماء رحمهم الله لكونها لا تعارض بينها فكلها لها وجه صحيح[3].

* * *

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٠٨ـ١٠٩/ ١٥ وانظر: معارج القبول للحكمي ص٣٥٩/ ٢

(٢) انظر تفسير القرطبي من ٢٦٢ـ٢٦٣/ ٣، وفتح الباري ص٥١٤/ ٥ وشرح الطحاوية ص٦٥٨ـ ١٦٤/ ٢ وفتح القدير ص٢١٩/ ١.

(٣) انظر نفس المواضع التي أشير إليها في هامش (٢) ص ٦٧١

ثانيا: ذكر بعض الأمور التي فضل الله بها نبيه ﷺ على سائر الأنبياء والمرسلين

لقد اختص عز وجل نبينا وحبيبنا محمداً ﷺ بخصائص جمة ومراتب عالية ومكارم عدة، نال بها التفضيل المطلق على الأنبياء والمرسلين، بل وعلى العالمين من الجن والإنس والملائكة المقربين. يقول حبر الأمة عبدالله بن عباس رضي الله عنهما مشيراً إلى ذلك: «إن الله فضل محمد ﷺ على الأنبياء وعلى أهل السماء، فقالوا: ياابن عباس بم فضل على أهل السماء؟ قال: إن الله قال لأهل السماء ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾[1]، وقال لمحمد ﷺ ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۞ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[2]، قالوا: فما فضله على الأنبياء؟ قال: قال الله عز وجل ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[3] وقال الله عز وجل لمحمد ﷺ ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[4] فأرسله الله إلى الجن والإنس»[5].

ولو أردنا أن نستقصي ما ورد في تفضيله ﷺ على الأنبياء وغيرهم من أمور

---

(١) سورة الأنبياء، آية [٢٩]

(٢) سورة الفتح، آية [١-٢]

(٣) سورة إبراهيم، [آية ٤]

(٤) سورة سبأ، آية [٢٨]

(٥) أخرجه الدارمي في مسنده باب ما أعطي النبي ﷺ من الفضل ٢/ ٣٨ برقم: ٤٦ قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٨/ ٢٥٤-٢٥٥ رجاله رجال الصحيح غير الحكم بن أبان وهو ثقة.

لاحتاج ذلك إلىٰ باب خاص، لذا فأني سأشير إشارات سريعة وأتكلم باختصار عن تلك الأمور مما بينها الإمام النووي رحمه الله وشرحه فمن تلك الأمور:

أ ـ تفضيله ﷺ بختم النبوة وجعل شريعته ناسخة لكل الشرائع والأديان

وسوف أتعرض لهذه الفضيلة عند تناول مبحث ختم النبوة بمحمد ﷺ.

ب ـ تفضيل الله تعالى له ﷺ برفع ذكره في الدنيا والآخرة وجعله سيد ولد آدم

لقد رفع الله عزو جل ذكر نبيه ﷺ فوق ذلك العالمين، فقرن سبحانه الإيمان بنبيه والشهادة له بالرسالة مع الشهادة بالتوحيد له عز وجل، وجعل ذلك شرطاً لصحة الإيمان والعبادة كالصلاة والأذان وغيرها، وأكرم نبيه ﷺ فأعطاه لواء الحمد بيده يوم القيامة. وقد أشار إلىٰ ذلك قول الحق سبحانه: ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾[1]. قال ترجمان القرآن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسيره لهذه الآية: «يريد تعالىٰ الأذان والإقامة والتشهد والخطبة علىٰ المنابر، ولو أن عبداً عبد الله وصدّقه في كل شيء ولم يشهد أن محمدا رسول الله لم ينفعه بشيء وكان كافراً»، وقال تلميذه مجاهد وغيره أي «لا أذكر إلا ذُكرت معي، فليس خطيب ولا متشهد ولا صاحب صلاة إلا ينادي بها أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»[2].

وقد أشار الرسول ﷺ إلىٰ تفضيل الله عز وجل له يوم القيامة بقوله «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر» قال الإمام النووي: «السيد هو الذي

---

(١) سورة الإنشراح، آية [٤]

(٢) ذكر هذه الآثار ذكرها الإمام البغوي في تفسيره ٤/ ٥٠٢، والإمام ابن كثير في تفسيره أيضاً ٤/ ٤٧٧.

يسود قومه في الخير» وقال غيره: هو الذي يفزع إليه في النوائب والشدائد فيقوم بأمرهم ويتحمل عنهم مكارههم ويدفعها عنهم».

وأما قوله ﷺ «يوم القيامة» مع أنه سيدهم في الدنيا والآخرة فسبب التقييد أن في يوم القيامة يظهر سؤدده لكل أحد ولا يبقى ممانع ولا معاند ونحوه بخلاف الدنيا فقد نازعه ذلك فيها ملوك الكفار وزعماء المشركين. وهذا التقييد قريب من معنى قوله تعالى ﴿لمن الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[1] مع أن الملك له سبحانه قبل ذلك لكن في الدنيا من يدعي الملك أو من يضاف إليه مجازاً فانقطع كل ذلك في الآخرة. قال العلماء وقوله ﷺ «أنا سيد ولد آدم» لم يقله فخراً بل مدح بنفي الفخر في غير مسلم في الحديث المشهور «أنا سيد ولد آدم ولا فخر وإنما قال لوجهين:

أحدهما: امتثال قوله تعالى ﴿وأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّث﴾[2].

والثاني: أنه من البيان الذي يجب تبليغه إلى أمته ليعرفوه ويعتقدوه ويعملوا بمقتضاه ويوقروه ﷺ بما تقتضي مرتبته كما أمرهم الله تعالى)[3].

ج ـ تفضيل الله تعالى له بالشفاعة العظمى والمقام المحمود:

مما فضل الله به رسوله ﷺ على الأنبياء والرسل وغيرهم أيضاً، إكرامه بالشفاعة العظمى والمقام المحمود الذي يغبطه عليه الأولون والآخرون، قال الله تعالى ﴿عَسَىٰ أن يبعثك رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[4] وقال رسول الله ﷺ «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة،

---

(١) سورة غافر، الآية [١٦]

(٢) سورة الضحى، الآية [١١]

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي من ١٥/٣٠

(٤) سورة الإسراء، آية [٧٩]

وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع»[1] والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

د ـ تفضل الله تعالى له ﷺ بجعله أول من يدخل الجنة وأكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة

ومما فضل الله به نبيه ﷺ أن جعله أول من يدخل الجنة وأكثر الناس تبعاً يوم القيامة، فقد قال عليه الصلاة والسلام «أنا أول شافع في الجنة وأنا أكثر الأنبياء تبعاً يوم القيامة، وأن أول من يقرع باب الجنة»[2].

وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ «أنا أول من يأخذ بحلقة باب الجنة فأقعقعها»[3]، قال أنس: كأني أنظر إلى يدي رسول الله يحركها[4] وفي رواية: «وأنا أول من يدخل الجنة يوم القيامة ولا فخر وآتي باب الجنة فآخذ بحلقتها فيقولون من هذا؟ فأقول: أنا محمد، فيفتحون لي فأدخل»[5].

---

(١) رواه مسلم وقد تقدم تخريجه

(٢) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب قوله ﷺ أنا أول الناس من يشفع ص ٦٢/ ٣ برقم: ١٩٦

(٣) أي أحركها، والقعقعة حكاية حركة الشيء يسمع له صوت. كذا في النهاية ٤/ ٨٨

(٤) رواه الدارمي في المقدمة باب ما أعطي النبي ﷺ من الفضل ١/ ٤٠ برقم: ٥٠، والترمذي في كتاب التفسير باب سورة الإسراء ٥/ ٢٨٨ برقم: ٣١٤٨، وقال حديث حسن صحيح، وأحمد١/ ٢٨١، وقال الألباني: حديث صحيح. انظر: الجامع الصحيح وزياداته ص ٣٠٦/ ٢ برقم ١٤٧٢.

(٥) رواه الدارمي في المقدمة باب ما أعطي النبي ﷺ من الفضل ١/ ٤٤ برقم: ٥٢ وأحمد ٣/ ١٤٤ بإسناد صحيح

هـ ـ تفضيل الله تعالى له ﷺ بالوسيلة والدرجة الرفيعة

ومما فضل الله به نبيه ﷺ أيضاً ما أعطاه من الوسيلة والفضيلة والدرجة العالية الرفيعة في الجنة، فقد قال ﷺ «إذا سمعتم النداء فقولوا مثلما يقول المؤذن، ثم صلوا عليّ فإنه من صلى عليّ مرة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل الله لي الوسيلة حلت له الشفاعة»[1].

فعلى المسلم أن لا يدع هذا الدعاء عقب الآذان لعل الله يكرمه بشفاعة المصطفى ﷺ.

و ـ تفضيل الله تعالى له ﷺ بالخُلّة

فضل الله نبيه عليه الصلاة والسلام بالخلة كما اتخذ إبراهيم خليلاً، فقال ﷺ: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً»[2].

وقال ﷺ أيضاً: «لو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله»[3].

قال الإمام النووي نقلاً عن القاضي عياض: «وقد ثبتت خلة نبينا ﷺ لله تعالى بهذا الحديث ونفي أن يكون له خليلاً غيره»[4].

---

(١) رواه الدارمي في المقدمة باب ما أعطي النبي ﷺ من الفضل ١/ ٤١ برقم ٥٢ وأحمد ١٤٤/ ٣ بإسناد صحيح

(٢) أخرجه مسلم شرح النووي ص١٢٤/ ١٥ برقم: ٢٣٨٣

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووي ص١٢٤/ ١٥ برقم ٢٣٨٣ مكرر

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٢٣/ ١٥

المسألة الخامسة: نبوة النساء

اختلف العلماء في نبوة النساء على أقوال :

ذهب بعض العلماء[1] إلى أن الله أنعم على بعض النساء بالنبوة ، فمن هؤلاء أبو الحسن الأشعري والقرطبي وابن حزم[2] .

والذين يقولون بنبوة النساء متفقون على نبوة مريم ، ومنهم من ينسب النبوة إلى غيرها ويعدّون من النساء النبيات : حواء وسارة وأم موسى وهاجر وآسية .

وهؤلاء عندما اعترض عليهم بالآية التي تحصر الرسالة في الرجال دون النساء ، قالوا نحن لا نخالف في ذلك ، فالرسالة للرجال ، أما النبوة فلا يشملها النصُّ القرآني ، وليس في نبوة النساء تلك المحذورات التي عددتموها فيما لو كان من النساء رسول ، لأن النبوة قد تكون قاصرة على صاحبها ، يعمل بها ، ولا يحتاج إلى أن يبلغها إلى الآخرين .

أدلتهم :

وحجة هؤلاء أن القرآن أخبر بأن الله تعالى أوحى إلى بعض النساء فمن ذلك أنه أوحى إلى أم موسى : ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**﴾[3] ، وأرسل جبريل إلى مريم فخاطبها ﴿ **فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا** ﴾[4] .

---

(١) يزعم اليهود أن مريم أخت موسى وهارون كانت نبية (لوامع الأنوار البهية) ص٢٦٦/ ٢ .

(٢) انظر : فتح الباري ص٤٤٧ـ٤٤٨/ ٦ ، ٤٧٣/ ٦ ، وانظر لوامع الأنوار البهية ، ص٢٦٦/ ٦

(٣) سورة القصص ، [آية ٧]

(٤) سورة مريم ، الآيات [١٧ ، ١٨ ، ١٩]

وخاطبتها الملائكة قائلة: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾[١].

فيرىٰ أبا الحسن الأشعري أن كل من جاءه الملك عن الله تعالىٰ بحكم من أمر أو نهي أو بإعلام فهو نبي[٢]، وقد تحقق في أمّ موسىٰ ومريم شيء من هذا، وفي غيرهما أيضاً، فقد تحقق في حواء وسارة وهاجر وآسية بنص القرآن.

واستدلوا أيضاً باصطفاء الله مريم علىٰ العالمين ﴿... يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾[٣]، وبقوله ﷺ: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران»[٤]. قالوا: الذي يبلغ مرتبة الكمال هم الأنبياء.

وذهب جمهور العلماء إلىٰ نفي أن يكون من النساء نبيات وجعلوا من صفات النبوة الذكورة، ومنهم القاضي عياض حيث نقل عن جمهور الفقهاء أن مريم ليست نبية[٥]، والإمام الجويني[٦] والحسن البصري حيث قال: «ليس من النساء نبية ولا من الجن»[٧]، وابن كثير نفىٰ أن يكون هناك نبوة للنساء[٨]. وقال السفاريني: وشرط من أكرم بالنبوة حرية ذكورة[٩].

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان [٤٢، ٤٣]

(٢) فتح الباري من ٦/٤٤٧

(٣) سورة آل عمران، الآية [٤٢]

(٤) حديث متفق عليه، انظر مشكاة المصابيح، ص١١٨/ ٣

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٦١/ ١٥

(٦) انظر الأذكار للنووي، ص ١١١ طبعة دار الهجرة.

(٧) فتح الباري ص٦/٤٧١، ٤٧٣.

(٨) انظر تفسير ابن كثير ص٧٦/ ٢، وأيضًا: فتح القدير ص٦٢/ ٢

(٩) لوامع الأنوار البهية للسفاريني ص٢٥٦/ ٢

موقف الإمام النووي من هذه المسألة

تعرض الإمام النووي لهذه المسألة عند شرحه حديث أبي موسى الأشعري[1] رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام»[2].

ولكن الإمام لم يبين موقفه من هذه المسألة، ولكنه عرض الخلاف فيها ولم يرجح أي قول فيها، ومن يطلع على ما ذكره فيها فإنه لا يصل إلى معرفة الصواب فيها.

قال الإمام: قال القاضي: (هذا الحديث يستدل به من يقول بنبوة النساء ونبوة آسية ومريم والجمهور وعلى أنها ليستا نبيتين بل هما صديقتان ووليتان من أولياء الله تعالى ولفظة الكمال تطلق على تمام الشيء وتناهيه في بابه والمراد هنا التناهي في جميع الفضائل وخصال البر والتقوى. قال القاضي: «فإن قلنا هما نبيتان فلا شك أن غيرهما لا يحلق بهما، وإن قلنا وليتان لم تمنع أن يشاركهما من هذه الأمة غيرهما» هذا كلام القاضي وهذا الذي نقله من القول بنبوتهما غريب ضعيف وقد نقل جماعة الإجماع علي عدمها والله أعلم)[3].

هذا أهم ما ذكره الإمام فيما يتعلق بنبوة النساء، وكما هو ظاهر فإنه لم يبت في

---

(١) هو عبدالله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب، الإمام الكبير، صاحب رسول الله ﷺ، أبو موسى الأشعري التميمي الفقيه المقرئ، أقرأ أهل البصرة توفي سنة ٤٢ هـ والأصح ٤٤هـ، انظر تهذيب سير أعلام النبلاء ص٧٠ـ٧١/ ١، والمصدر نفسه ص٣٨٠/ ٢.

(٢) أخرجه البخاري مع الفتح ص٤٤٦/ ٦، برقم: ٣٤١١، ومسلم في فضائل الصحابة برقم ٧٠

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ١٦١/ ١٥

المسألة، وإنما قرر الخلاف فيها. ولكن الإمام في كتابه الأذكار ذكر عن الإمام الجويني أنه نقل الإجماع على أن مريم ليست بنبية[1] ونسبه في شرح المهذب لجماعة[2].

القول الراجح في هذه المسألة

إن القول الراجح في هذه المسألة هو ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة وهو ما نقله عنهم أبو الحسن الأشعري أن ليس في النساء نبيات[3]، وذلك أن من صفات النبوة الذكورة والحاجة إلى الذكورة تستدعيها أسباب وهي ما يلي:

١ ـ أن الرسالة تقتضي الاشتهار بالدعوة، ومخاطبة الرجال والنساء، ومقابلة الناس في السر والعلانية، والتنقل في فجاج الأرض، ومواجهة المكذبين ومحاججتهم ومخاصمتهم، وإعداد الجيوش وقيادتها، والاصطلاء بنارها. وكل هذا يناسب الرجال دون النساء، ولذا عدا الإمام ابن تيمية القول بنبوة النساء من الأقوال المنكرة الشاذة.

٢ ـ الرسالة تقتضي قوامة الرسول على من يتابعه، فهو في أتباعه الآمر الناهي، وهو فيهم الحاكم والقاضي، ولو كانت الموكلة بذلك امرأة لم يتمم ذلك على الوجه الأكمل، ولاستنكف أقوام من الاتباع والطاعة.

---

(١) الأذكار للنووي ص١١١.

(٢) فتح الباري ص ٤٧١، ٤٧٣/ ٦.

(٣) تفسير ابن كثير ص٧٦/ ٢

ولقد نفى القاضي عياض وقوع الإجماع على ذلك بقوله: (جمهور العلماء لا يرون أن مريم نبية، وحكى بعض علماء الأشعرية الإجماع على ذلك، ولكن الإجماع فيه غير صحيح أصلاً، وإلا فقد تلقينا وسمعنا في المذكرات اختلاف العلماء فيها وفي أم موسى وأم إسحاق، وممن قال بنبوتهن أبو محمد ابن حزم، ولكن الجمهور على خلاف ذلك)، انظر منهاج العوارف ص١١٩ للقاضي عياض نقلته عن رسالة القاضي عياض ومنهجه في العقيدة ص ٥١٦ وهي من إعداد غسان أحمد عبدالرحمن، إشراف د/ محمد بن ربيع بن هادي المدخلي. وقصد الإمام هنا أن الإجماع لا يتم إلا بعد معرفة من خالف في ذلك من العلماء إلا أن يكون إجماعاً سابقاً على هذا الخلاف.

٣ ـ الذكورة أكمل كما بينا آنفاً، ولذلك جعل الله القوامة للرجال على النساء ﴿الرجالُ قوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾[1] وأخبر الرسول ﷺ أن النساء ناقصات عقل ودين.

٤ ـ المرأة يطرأ عليها ما يعطلها عن كثير من الوظائف والمهمات، كالحيض والحمل والولادة والنفاس، وتصاحب ذلك اضطرابات نفسية وآلام وأوجاع، عدا ما يتطلبه الوليد من عناية، وكل ذلك مانع من القيام بأعباء الرسالة وتكاليفها.

أما فيما يتعلق بالأدلة التي ذكرها العلماء الذين يثبتون نبوة النساء فالرد عليها من أوجه:

الأول: أننا لا نسلّم لهم أن النبي غير مأمور بالتبليغ والتوجيه ومخالطة الناس، والذي اخترناه أن لا فرق بين النبي والرسول في هذا، وأن الفرق واقع في كون النبي مرسل بتشريع رسول سابق.

وإذا كان الأمر كذلك فالمحذورات التي قيلت في إرسال رسول من النساء قائمة في بعث نبي من النساء، وهي محذورات كثيرة تجعل المرأة لا تستطيع القيام بحق النبوة.

الثاني: قد يكون وحي الله إلىٰ هؤلاء النسوة أم موسىٰ وآسية إنما وقع مناماً، فقد علمنا أن من الوحي ما يكون مناماً، وهذا يقع لغير الأنبياء.

الثالث: لا نسلم لهم قولهم أن كل من خاطبته الملائكة فهو نبي، ففي الحديث أن الله أرسل ملكاً لرجل يزور أخا له في الله في قرية أخرىٰ، فسألة عن سبب زيارته له، فلما أخبره أنه يحبه في الله، أعلمه أن الله قد بعثه إليه ليخبره أنه يحبه، وقصة

---

(١) النساء، آية ٣٤.

الأقرع والأبرص والأعمى معروفة، وقد جاء جبريل يعلم الصحابة أمر دينهم بسؤال الرسول ﷺ والصحابة يشاهدونه ويسمعونه[1].

الرابع: أن الرسول ﷺ توقف في نبوة ذي القرنين مع إخبار القرآن بأنّ الله اوحى إليه ﴿قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾[2].

الخامس: لا حجة لهم في النصوص الدالة على اصطفاء الله لمريم، فالله قد صرح بأنه اصطفى غير الأنبياء: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾[3]. واصطفى آل إبراهيم وآل عمران على العالمين، ومن آلهما من ليس نبي جزماً ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[4].

السادس: لا يلزم من لفظ الكمال الوارد في الحديث الذي احتجوا به النبوة، لأنه يطلق لتمام الشيء، وتناهيه في بابه، فالمراد بلوغ النساء الكاملات النهاية في جميع الفضائل التي للنساء، وعلى ذلك فالكمال هنا كمال غير الأنبياء.

السابع: ورد في بعض الأحاديث النص على أن خديجة من الكاملات[5] وهذا يبين أن الكمال هنا ليس كمال النبوة.

---

(١) ارجع في هذه النصوص والنصوص المشابهة لها إلى الجزء الثاني من هذه السلسلة «عالم الملائكة الأبرار» للدكتور عمر سليمان الأشقر، ص ٤٢ . .

(٢) سورة الكهف، آية [٨٦]

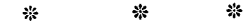
(٣) سورة فاطر، آية [٣٢]

(٤) سورة آل عمران، آية[٣٣]

(٥) الحديث أخرجه ابن مردويه، انظر البداية والنهاية ٢/ ٦١

الثامن: ورد في بعض الأحاديث أن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة إلا ما كان من مريم ابنة عمران[1]، وهذا يبطل القول بنبوة من عدا مريم كأم موسى وآسية، لأن فاطمة ليست بنبية جزماً؛ وقد نص الحديث على أنها أفضل من غيرها، فلو كانت أم موسى وآسية نبيتان لكانتا أفضل من فاطمة.

التاسع: وصف مريم بأنها صديقة في مقام الثناء عليها والإخبار بفضلها، قال تعالى: ﴿**مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾[2]، فلو كان هناك وصفاً أعلى من ذلك لوصفها به، ولم يأت في نص قرآني ولا في حديث نبوي صحيح إخبار بنبوة واحدة من النساء[3].



(١) رواه أحمد واسناده جيد، فتح الباري ص٦/٤٧٧

(٢) سورة المائدة، آية [٧٥]

(٣) الرسل والرسالات لسليمان الأشقر، ص٨٧ـ٨٩

المبحث الثانى

مفهوم الوحي إلى الأنبياء

تقدم أن الكتب السماوية من وحي الله الذي أنزله على رسله، ولذا كان الكلام على الوحي من تمام الكلام على الرسل الذين أرسلت إليهم الكتب بالوحي.

وموضوح الوحي قد تعرض له الإمام في عدة مواضع، وإن لم يعرض إلى تعريف الوحي لغة وشرعاً ولكن أقواله فيه تحدد لنا مفهومه الذي أراد، كما تكلم الإمام في أثناء ذلك على بعض الأمور التي تشترك مع الوحي من بعض الوجوه، كالرؤيا المنامية والإلهام، وبيان ذلك كله في المطالب التالية.

* * *

المطلب الأول

مفهوم الوحـــــي في الشرع

أ ـ مفهوم الوحي في الشرع:

للإمام النووي رحمه الله نصوص يتضح من خلالها مفهوم الوحي عنده ومن هذه الأقوال:

قال رحمه الله في احتجاج عائشة رضي الله عنها بقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[1].

فالجواب عنه من أوجه:

أحدهما: أنه لا يلزم من الرؤية وجود الكلام حال الرؤية فيجوز وجود من غير كلام.

والثاني: أنه عام مضمون بما تقدم من الأدلة.

الثالث: ما قاله بعض العلماء أن المراد بالوحي الكلام من غير واسطة وهذا الذي قاله هذا القائل وإن كان محتملاً ولكن الجمهور علىٰ أن المراد بالوحي هنا الإلهام والرؤية في المنام وكلاهما يسمىٰ وحياً.

وأما قوله تعالىٰ ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ فقال الواحدي وغيره «معناه غير مجاهر بالكلام بل يسمعون كلامه سبحانه وتعالىٰ من حيث لا يرونه وليس المراد أن هناك

---

(١) سورة الشورىٰ، الآية [٥١]

حجاباً يفصل موضعاً من موضع ويدل على تحديد المحجوب فهو بمنزلة ما يسمع من وراء الحجاب حيث لم يتكلم والله أعلم»[١].

قلت: من معاني الوحي في اللغة: الإعلام في خفاء، والوحي أيضاً: الكتابة، والمكتوب، والبعث، والإلهام، والأمر، والإيماء والإشارة والتصديق شيئاً بعد شيء، وقيل: أصله التفهيم وكل ما دلت به من كلام أو كتابة أو رسالة أو إشارة فهو وحي»[٢] كما أن معناه في الشرع: هو الإعلام بالشرع. وقد يطلق الوحي ويراد به اسم المفعول منه أي الموحى، وهو كلام الله المنزل على النبي ﷺ[٣]

ولقد أشار الإمام إلى بعض هذه المعاني من خلال كلامه السابق.



---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ٦/ ٣.

(٢) فتح الباري من ٩/ ١، وانظر القاموس المحيط مادة وحي ١٣٤٢ وانظر الرسل والرسالات ص٦١.

(٣) المصادر السابقة نفس الصفحات.

المطلب الثانى

طــرق الوحـــــي

أشار الإمام إلى أن الوحي يأتي الأنبياء على أنحاء مختلفة يمكن إجمالها فيما يلي:

١ - أن يسمعه من الله تعالى بلا واسطة كما كلم الله موسى، وكتكليم الله لنبيه ﷺ ليلة الإسراء بلا واسطة[١].

٢ - أن يأتيه بواسطة الملك، وهو قسمان:

أ - ما جاء به الملك وهو على صورة آدمي وهذا أكثر.

ب - ما جاء به الملك وهو على صورته، وهذا لم يقع للنبي ﷺ إلا مرتين.

٣ - أن يأتيه بواسطة الإلقاء في القلب، وهو الإلهام.

٤ - أن يلقيه روح القدس في روعه، وهو النفث في الروع.

٥ - أن يأتيه مثل صلصلة الجرس.

٦ - أن يأتيه في النوم، وهو الرؤيا المنامية.

---

(١) انظر شرح صحيح مسلم للنووي ص٦/ ٣

(٢) انظر هذه الطرق والحالات في شرح صحيح مسلم للنووي ص٥/ ٣، ص١٤٤/ ١ وص٧/ ٣، ٨/ ٣، ٩/ ٣ ص١٧/ ٢ ص٦/ ٣، ص١٣٥/ ١٥، وص٧٧/ ١٥ وص٧٢/ ١٥، وص١٨/ ١٥، وص١٧٤/ ٢

قلت: هذه طرق الوحي وحالاته جملة[2] وهذه الطرق والحالات مأخوذة بالنظر في النصوص التي ورد فيها ذكر الوحي وكيفية مجيئه من الكتاب والسنة[1] والله تعالى أعلم.

* * *

(١) انظر الرسل والرسالات لسليمان الأشقر ص٦٢ حيث ذكر أن مقامات وحي الله إلى رسله ثلاثة، ١ الإلقاء في روع النبي الموحى إليه وجعل من ضمن المقام الأول الرؤيا في المنام، ٢ تكليم الله لرسله من وراء حجاب. ٣ الوحي إلى الرسول بواسطة الملك

المطلب الثالث

الكلام على الرؤيا والإلهام

إفراد هذين النوعين بالكلام عليهما لكونهما يشترك فيهما الأنبياء وغيرهم، كما أشار إلى ذلك الإمام النووي حين ذكر أن الأنبياء لا يعلمون من الغيب إلا ما علمهم الله تعالى وذلك عند شرحه قول الرسول ﷺ لابن صياد «لقد خبأت لك خبئاً» فقال دخ، فقال رسول الله ﷺ اخسأ فلن تعدو قدرك»[1].

قال الإمام نقلاً عن البيهقي[2]: «أي لا تجاوز قدرك وقدر أمثالك من الكهان الذي يحفظ من إلقاء الشيطان كلمة واحدة من جملة كثيرة بخلاف الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم فإنهم يوحي الله تعالى إليهم من علم الغيب ما يوحي إليهم فيكون واضحاً كاملاً وبخلاف ما يلهمه الله الأولياء من الكرامات والله أعلم[3].

وقال في شرح قوله صلى الله عليه وسم «إذا اقترب الزمان لم تكن رؤيا المسلم تكذب. . أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثاً، ورؤيا المسلم جزء من خمسة وأربعين جزءاً من النبوة. . . » الحديث[4].

قال الإمام النووي بعد أن ذكر اختلافات الروايات في قوله ﷺ ورؤيا المسلم جزء من خمسة وأربعين جزء من النبوة، (قال القاضي: أشار الطبري إلى أن هذا

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ٣٨/١٨ برقم (٢٩٢٤).

(٢) هو الإمام الحافظ شيخ خراسان، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، كان فقيهًا جليلاً حافظًا كبيرًا حيث كتب الحديث وحفظه من صباه وصنف التصانيف الكثيرة من أشهرها، السنن الكبرى، والجامع لشعب لإيمان، ومعرفة السنن والآثار، ولد سنة ٣٨٤هـ، وتوفي سنة (٤٥٨هـ)، انظر: تذكرة الحفاظ ١١٣٢ـ١١٣٥/ ١٣.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي من ٣٨/١٨ كتاب الفتن.

(٤) أخرجه مسلم بشرح النووي ص١٨/ ١٥ برقم: ٢٢٦٤.

الاختلاف راجع إلى اختلاف حال الرائي فالمؤمن الصالح تكون رؤياه جزء من ستة وأربعين جزءاً والناس جزءاً من سبعين جزء. . . »[1].

فأفاد أن الرؤيا المنامية والإلهام يمكن أن يقع الاطلاع على بعض الغيب بواسطتها لغير النبي، وهو الولي.

ولهذا احتاج هذان الأمران إلى ضوابط وقيود بالأدلة الشرعية لأنهما من مداخل الشيطان التي أضل عن طريقهما جبلاً كثيراً من الناس، أعاذنا الله من نزغاته وهمزاته.

أ ـ الكلام على الرؤيا

قال الإمام نقلاً عن المازري «مذهب أهل السنة في حقيقة الرؤيا أن الله تعالى يخلق في قلب النائم اعتقادات لا يخلقها في قلب اليقظان وهو سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء لا يمنعه نوم ولا يقظة فإذا خلق هذه الاعتقادات فكأنه جعلها علماً علي أمور أخرى يخلقها في ثاني الحال أو كان قد خلقها فإذا خلق في قلب النائم الطيران وليس بطائر فأكثر ما فيه أنه اعتقد رمزاً على خلاف ما هو فيكون ذلك الاعتقاد علماً على غيره. . . . ثم قال فالرؤيا اسم للمحبوب والحلم اسم للمكروه[2].

رؤيا الأنبياء

وقرر الإمام أن رؤيا الأنبياء وحي، والوحي لا يدخله خلل[3] وأنها حق وأنها إحدى ثمرات النبوة لأن الرؤيا في المنام إخبار بالغيب، وهو إذا وقع لا يكون إلا صدقاً، مع التأكيد أن الإخبار بالغيب ليس في حد النبوة لأنه يجوز أن يبعث الله نبياً

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٨/ ١٥

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٤/ ١٥

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ٣٨/ ١٨

ليشرع الشرائع ويبين الأحكام ولا يخبر بغيب أبداً ولا يقع ذلك في نبوته ولا يؤثر في مقصودها)[1].

رؤيا غير الأنبياء

وأما رؤيا غير الأنبياء فقرر الإمام أنها ليست وحياً، ويمكن أن يدخلها خلل لأنها قد يحضرها الشيطان[2].

وقد يكون رؤيا غير الأنبياء صادقة، وهي التي دل عليها قوله ﷺ (الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة)[3].

وعظم الإمام قدر هذه الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح، وجوّز الاستناد إليها في الاستدلال علي الأمور الوجودية ولكن بشرط أن صاحب الرؤيا صادقاً[4].

وأما كونها جزءاً من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، فذكر الإمام أنه قد استشكل مع أن النبوة انقطعت بموت النبي ﷺ ثم نقل في هذا الاستشكال أقوالاً في بعضها الغرابة والنكارة والله أعلم[5].

ب- الكلام على الإلهام

لقد فرق الإمام بين الوحي إلى الأنبياء وبين الإلهام الذي يحدث لبعض الأولياء فقال: «في قوله ﷺ لابن صياد ولقد خبأت لك خبيئاً فقال (دخ) فقال رسول الله ﷺ

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي من ١٨/ ١٥

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٤/ ١٥

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ١٧/ ١٥

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٧/ ١٥

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي من ١٨/ ١٥

اخسأ فلن تعدو قدرك»[1].

قال الإمام نقلاً عن البيهقي فيما نقله هو عن الخطابي فقال: «وأما امتحان النبي ﷺ بما خبأه له من أية الدخان فلأنه كان يبلغه ما يدعيه من الكهانة ويتعاطاه من الكلام في الغيب فامتحنه ليعلم حقيقة حاله ويظهر إبطال حاله للصحابة وأنه كان ساحر يأتيه الشيطان يتلقى على لسانه ما يلقيه الشياطين إلى الكهنة فامتحنه باخبار قول الله تعالى ﴿**فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين**﴾[2]. وقال: خبأت لك خبيئاً فقال هو الدخ أي الدخان وهي لغة فيه فقال له النبي ﷺ: اخسأ فلن تعدو قدرك» أي لا تجاوز قدرك وقدر أمثالك من الكهان الذين يحفظون من إلقاء الشيطان كلمة واحدة من جملة كثيرة بخلاف الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم فإنهم يوحي الله تعالى إليهم من علم الغيب ما يوحي فيكون واضحاً كاملاً، بخلاف ما يلهمه الله الأولياء من الكرامات والله أعلم)[3].

قلت: الإلهام نوع من أنواع الوحي، وإلى هذا أشار الإمام فقال (ما قاله بعض العلماء أن المراد بالوحي الكلام من غير واسطة وهذا الذي قاله هذا القائل وإن كان محتملاً ولكن الجمهور على أن المراد بالوحي هنا الإلهام والرؤية في المنام وكلاهما يسمى وحياً)[4].

ولكن يتضح من خلال قوله السابق أن الأنبياء والأولياء مشتركون في الإلهام

---

(١) سبق تخريجه

(٢) سورة الدخان، الآية [١٠]

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص٣٨/ ١٨

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص٦/ ٣

ولكن ما يخص الأنبياء لا يأتيه الباطل من كل مكان، أما فيما يتعلق بالأولياء من أن كل ما استقام على الشريعة المحمدية ولم يكن في الكتاب والسنة ما يرده فهو مقبول، وإلا فمردود ويقع من حديث النفس ووسوسة الشيطان.

وأحسن ما ذكر في هذه المسألة ما نقله الحافظ ابن حجر عن أبي المظفر بن السمعاني[1] وبه يعرف الفرق بين إلهام الوحي الذي بواسطة الملك، وبين إلهام الوسوسة الذي بواسطة الشيطان «فإن كان ما ألقى في النفس مما دل الكتاب والسنة على أنه تقوى الله فهو الإلهام المحمود، وإن كان مما دل على أنه فجور فهو من الوسواس المذموم، وهذا الفرق مطرد لا ينتقض»[2] وبالله التوفيق.



(١) انظر فتح الباري ص٣٨٨-٣٨٩/ ١٢، وأيضاً ص٣٤٥/ ١١، و٣٧٦/ ١٢.

(٢) مقتبس من كلام شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى، ص٥٢٩/ ١٧

المبحث الثالث

عموم رسالة الرسول ﷺ وأنه خاتم النبيين

إن الإيمان بجميع الأنبياء أصل من أصول الإيمان التي لا يكون العبد مؤمناً حتى يؤمن بها جميعاً، وأن الإيمان بهم يكون تفصيلاً فيما فصل، وإجمالاً فيما أجمل. ويخص نبينا محمد ﷺ بوجوب الإيمان به على التفصيل. لما له ﷺ من أوصاف كثيرة ميزه الله بها عن من سواه من الأنبياء والمرسلين، فضلاً عن سائر البشر ويرشد إلى هذا المعنى ما ورد في دعائه في التهجد بالليل من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وفيه «ولك الحمد أنت الحق، ووعدك الحق، ولقاؤك حق، وقولك حق، والجنة حق، والنار حق. والنبيون حق، ومحمد حق، والساعة حق»(١) فقد ذكر ﷺ النبيين، وذكر نفسه بعد ذلك خاصة.

وذكر الإمام في عدة مواضع بعض الأمور التي تدخل في الإيمان به ﷺ ويجب التصديق بها جميعاً، وذلك كما يأتي:

* * *

(١) أخرجه البخاري في الفتح ص٣/ ٣ برقم: ١١٢٠

المطلب الأول

فرض الإيمان بنبوة محمد ﷺ وبعض الأدلة عليه

أ ـ حكم الإيمان بالنبي ﷺ وبعض الأدلة عليه

الإيمان بنبوة محمد ﷺ ورسالته والاعتقاد بأن الله أرسله للعالمين بشيراً ونذيراً، وأنه عبد الله ورسوله وصفيه وخليله وخاتم أنبيائه ورسله. . . . الإيمان بهذا كله أصل عظيم من أركان الإسلام، وشرط من شروط الإيمان، فلا يحصل للعبد إيمان ولا إسلام إلا بتحقيقه لذلك. وقد قرر الإمام النووي ذلك كله في أثناء كلامه في شرحه لكثير من الأحاديث.

قلت: والأدلة على ذلك كثيرة جداًومن الأدلة على ذلك قوله سبحانه: ﴿وَمَن لَّمْ يؤمن بالله ورسُوله فإنَّا أعْتَدْنَا للْكَافرينَ سَعيراً ﴾[1] وقال: ﴿فَآمنُوا باللَّه وَرَسُوله وَالنُّور الَّذي انزلنا والله بما تعْمَلُونَ خَبيرٌ ﴾[2]، وقال: ﴿ إنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذيرًا ﴿٨﴾ لتؤمنوا بالله ورسُوله وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصيلاً ﴾[3] وقال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله. . .»[4] وقوله

---

(١) سورة الفتح، الآية [١٣]

(٢) سورة التغابن، آية [٨]

(٣) سورة الفتح، آية [٨ـ٩]

(٤) متفق عليه وقد تقدم تخريجه

ﷺ في حديث جبريل حين سأله عن الإسلام فقال النبي ﷺ: «أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» وذكر أركان الإسلام، ثم سأله عن الإيمان فقال ﷺ: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله. .»[1] الحديث.

ومن الأدلة أيضاً على هذا الأمر قوله سبحانه ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾[2]، وقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[3] وقوله: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[4] إلى غير ذلك من النصوص.

ب- معنى الإيمان برسول الله ﷺ

الإيمان برسول الله ﷺ يعني تصديقه فيما أخبر به وبما جاء به من عند الله عز وجل، وطاعته فيما أمر، والانتهاء عما نهى عنه وزجر، والالتزام بشريعته ومحبته أكثر من النفس والأهل والمال والناس أجمعين، وتوقيره ومؤازرته ونصرته، وإحياء سنته وإعظام أمره، وترك التقدم بين يديه إلى غير ذلك من الأمور التي سيأتي تفصيل الحديث عنها لاحقاً، لأنه لا ينفع إيمان به ﷺ بالقول واللسان بدون تصديق القلب وعمل الجوارح.

---

(١) رواه مسلم وقد تقدم تخريجه

(٢) سورة الأعراف، آية [١٥٨]

(٣) سورة سبأ، آية [٢٨]

(٤) سورة الأحزاب، آية [٤٠]

يقول الإمام: «وأما النصحية لرسول الله ﷺ، فتصديقه على الرسالة والإيمان بجميع ما جاء به، وطاعته في أمره ونهيه ونصرته حياً وميتاً، ومعاداة من عاداه وموالاة من والاه، وإعظام حقه وتوقيره وإحياء طريقته وسنته وبث دعوته ونشر شريعته ونفي التهمة عنها، واستثارة علومها والتفقه في معانيها والدعاء إليها والتلطف في تعلمها وتعليمها وإعظامها وإجلالها، والتأدب عند قراءتها والإمساك عن الكلام فيها بغير علم وإجلال أهلها لانتسابهم إليها، والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه ومحبة أهل بيته وأصحابه ومجانبة من ابتدع في سنته أو تعرض لأحد من أصحابه ونحو ذلك»[1].



(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص٣٣/ ٢

المطلب الثانى

وجوب طاعته ﷺ والتمسك بسنته

إن طاعة الرسول ﷺ فيما أمربه، والإنقياد له والانتهاء عما نهى عنه والتسليم التام لما جاء به من عند الله، والاقتداء به واتباعه والتمسك بسنته، كل ذلك من أوجب الواجبات على كل عبد ومن أعظم حقوقه على الخلق، وذلك من مستلزمات الإيمان به عليه الصلاة والسلام، بل إنه لا سعادة ولا نجاة ولا فوز لمخلوق في المرجع والمآل إلا بذلك.

ولقد فاضت نصوص الكتاب والسنة وأقوال السلف الصالح في الأمر بذلك والحث عليه، والترغيب فيه والتحذير من ضده. وقد اهتم الإمام النووي جزاه الله خيراً اهتماماً بالغاً بهذا الموضوع في كتابه شرح صحيح مسلم حيث أشار إلى هذه المسألة عند شرحه لكثير من الأحاديث فيه ورغبة مني في عدم الإطالة فإني ألخص كلامه ومقصوده.

أ ـ وجوب طاعته ﷺ

قال الإمام رحمه الله عند شرح حديث عروة بن الزبير الذي جاء فيه: «أن عبدالله بن الزبير حدثه، أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير عند رسول الله ﷺ في شراج الحرة التي يسقون بها النخل، فقال الأنصاري: سرح الماء يمر فأبي عليهم، فاختصموا عند رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ للزبير: «اسق يازبير، ثم أرسل الماء إلى جارك، فغضب الأنصاري فقال: يارسول الله إن كان ابن عمتك! فتلون

وجه نبي الله ﷺ، ثم قال: يازبير اسق ثم احبس الماء متىٰ يرجع إلىٰ الجدر»[1] فقال الزبير: والله إني لأحسب هذه الآية نزلت في ذلك: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يحكموك فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تسليما[2]﴾[3].

قال الإمام في تعليقه علىٰ الحديث: «وقد سبق شرح هذا الحديث واضحاً في بابه. قال العلماء: ولو صدر مثل هذا الكلام الذي تكلم به الأنصاري اليوم من إنسان من نسبته ﷺ إلىٰ هوىٰ كان كفراً وجرت علىٰ قائله أحكام المرتدين فيجب قتله بشرطه. قالوا: وإنما تركه النبي صلي الله عليه وسلم لأنه كان في أول الإسلام يتألف الناس ويدفع بالتي هي أحسن ويصبر علىٰ أذىٰ المنافقين، ومن في قلبه مرض، ويقول يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا ويقول لا يتحدث الناس أن محمد يقتل أصحابه وقد قال الله تعالىٰ ﴿ .... وَلا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ واصفح إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ[4]﴾[5].

وعند شرح قول عائشة رضي الله عنها أنها قالت: قدم رسول الله ﷺ لأربع مضين من ذي الحجة، أو خمس فدخل عليّ وهو غضبان، فقلت: أغضبك، يارسول الله! أدخله الله النار. قال: «أوما شعرت أني أمرت الناس بأمر فإذا هم يترددون؟»

---

(١) الجدر: بفتح الجيم وكسرها، هو الجدار

(٢) سورةالنساء، الآية [٦٥]

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووي ص٨٩/ ١٥ برقم ١٢٩

(٤) سورة المائدة ،الآية [١٣]

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي ص٨٨ـ ٨٩/ ١٥

قال الحكم: كأنهم يترددون أحسبها: «ولو أني استقبلت من أمري ما استدبرت، ما سقت الهدي معي حتىٰ أشتريه، ثم أحل كما حلوا»[1].

قال الإمام: «أما غضبه صلي الله عليه وسلم فلانتهاك حرمة الشرع وترددهم في قبول حكمه. وقد قال الله تعالىٰ (فلا وربك لا يؤمنون حتىٰ يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) فغضب ﷺ لما ذكرناه من انتهاك حرمة الشرع والحزن عليهم في نقص إيمانهم بتوقفهم وفيه دلالة لاستحباب الغضب عند انتهاك حرمة الدين وفيه جواز الدعاء علىٰ المخالف لحكم الشرع والله أعلم)[2].

وقال رحمه الله (فأما ما قاله باجتهاده ﷺ ورأه شرعاً يجب العمل به وليس إبان الفعل من هذا النوع بل من النوع المذكور قبله مع أن لفظة الرأي إنما أتىٰ بها عكرمة علىٰ المعنىٰ لقوله في آخر الحديث، قال عكرمة «أو نحو هذا فلم يخبر بلفظ النبي ﷺ تحفظاً»[3].

فيتبين من النصوص السابقة التي ذكرها الإمام النووي أن طاعة الرسول ﷺ هي شرط من شروط الإيمان بالله ورسوله، وأنها سبب الهداية والرحمة والفوز برضا الله تعالىٰ ودخول جنته والنجاة من عذابه وعقابه، وقد كانت طاعته ﷺ بهذه المنزلة العالية الرفيعة، لأنه عليه الصلاة والسلام لا يأمرنا إلا بكل خير وسعادة لنا في الدارين، ولا ينهانا إلا عما فيه الشقاوة والشر في الدنيا والآخرة، ففي طاعته الحياة

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي ص١٢٥ـ١٢٦/ ٨ برقم: ١٣٠

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٢٦/ ٨

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص٩٥/ ١٥

الحقيقية للقلوب والأرواح والأبدان، وفي معصيته الموت لها، وقد صدق الله عز وجل حيث يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾(١).

فلا عجب إذاً أن تفيض نصوص الكتاب والسنة بالأمر بهذه الطاعة والحث عليها، فقد وردت في كتاب الله تعالىٰ وحده أكثر من ثلاثين مرة، يقول الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: «نظرت في المصحف فوجدت فيه طاعة رسول الله ﷺ في ثلاثة وثلاثين موضعاً» ثم جعل يتلو: ﴿... فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(٢)، وجعل يكررها ويقول: «ما الفتنة الشرك لعله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيزيغ قلبه فيهلكه، وجعل يتلو هذه الآية: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(٣).

وقال: «من رد حديث رسول الله ﷺ فهو على شفا هلكة»(٤).

* * *

---

(١) سورة الأنفال، آية [٢٤]

(٢) سورة النور، آية [٦٣]

(٣) سورة النساء، آية [٦٥]

(٤) أخرج هذا الأثر ابن بطة في الإبانة ص٢٦٠/ ١ برقم ٩٧، وسنده صحيح كما قال محقق الكتاب

ب ـ وجوب التمسك بسنته ﷺ

قال الإمام في شرح قوله ﷺ «ما بال رجال بلغهم عني أمر ترخصت فيه، فكرهوه وتنزهوا عنه، فوالله لأنا أعلمهم بالله وأشدهم له خشية»[1]. قال: (فيه الحث على الاقتداء به ﷺ والنهي عن التعمق في العبادة وذم التنزه عن المباح شكاً في إباحته)[2].

وقال رجلاً يخطب عند رسول الله ﷺ: «من يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد غوى»[3] قال الإمام: «والصواب الفتح وهو من الغي، وهو الانهماك في الشر»[4].

لقد تبين من خلال ما ذكره الإمام النووي رحمه الله أن الاقتداء بالرسول ﷺ والتمسك بسنته من أوجب الواجبات على كل عبد، بل هو شرط الإيمان ودليل صدق محبة الرحمن جل جلاله، حيث أقسم الرب بنفسه المقدسة العظيمة أنهم لا يؤمنون حتى يحكموه ﷺ فيما شجر بينهم وحتى لا يكون في أنفسهم أدنى حرج لحكمه، وحتى ينقادوا عن طواعية ورضا تامين، وقد اشترط سبحانه وتعالى لصدق محبة العبد له أن يقتدي برسوله صلي الله عليه وسلم فقال: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[5]، وهذه الآية كما يقول الإمام ابن كثير رحمه الله «حاكمة على كل من ادعى محبة الله وليس هو علي الطريقة

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي ص٨٧/ ١٥ برقم: ٢٣٥٦

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص٨٧/ ١٥

(٣) أخرجه مسلم بشرح للنووي ص١٣٩/ ٦ برقم: ٤٨

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٤٠/ ٦

(٥) سورة آل عمران، آية [٣١]

المحمدية، فإنه كاذب في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله، ولهذا قال: (إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله)، أي يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه وهو محبته إياكم وهو أعظم من الأول، كما قال بعض العلماء وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية [1]. فمن كان صادقاً في حبه لله تعالى أحب رسوله ﷺ واتبعه ولم يقدم على قوله وسنته قول أحد، ولهذا أوجب الله عز وجل على المؤمنين التحاكم إلى كتابه وإلى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم عند الاختلاف مبيناً أن ذلك هو خير لهم وأحسن مآلاً وعاقبة، فقال سبحانه وهو أصدق القائلين: ﴿ . . . . فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [2] فأمرنا عز وجل أن نرد كل خلاف في أي من أمور الدين إلى حكم الكتاب والسنة لأن فيهما السعادة والخير لنا، ولأن ما يحكم به الكتاب والسنة ويشهد له بالصحة فهو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال؟! لذلك قال: (إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ واليوم الآخر)، فدل كما قال الإمام ابن كثير [3] على أن من لم يتحاكم في محل النزاع إلى الكتاب والسنة ولا يرجع إليهما في ذلك فليس مؤمناً بالله ولا باليوم الآخر. والرد إلى الله والرسول المذكور في الآية هو الرد إلى الكتاب وإلى الرسول في حياته وإلى سنته بعد مماته كما قال ذلك غير واحد من أئمة السلف» [4].

---

(١) تفسير ابن كثير ١/٣١٤

(٢) سورة النساء، آية [٥٩]

(٣) تفسير ابن كثير ١/٤٦٠

(٤) المرجع السابق، وانظر أيضًا تفسير البغوي ١/٤٤٦، والشريعة للآجري ص٥٣، والإبانة ١/٢١٨، والاعتقاد للبيهقي ص١١١، وتفسير السعدي ٣/٨٩.

وقد أثنى الله عز وجل في كتابه العزيز على المؤمنين وبشرهم بقوله: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾(١)، فهكذا يجب أن يكون حال كل مؤمن، أن يقول سمعت وأطعت إذا جاءه أمر من الكتاب أو السنة، فيستقبل ذلك بالقبول والرضا والتطبيق، وينقاد لأمر الله ورسوله ﷺ ويتلقى خبره عليه السلام بالتصديق والقبول دون أدنى معارضة مما يوسوس به الشيطان أو النفس أو المذهب أو غير ذلك من خيال باطل يسميه معقولاً، أو أي شبهة أو شك فيما قال أو حكم به ﷺ، ودون أن يقدم على سنته رأي أحد أو قوله كائناً من كان، فإن المرء إذا كان بخلاف ذلك لم يكن من المفلحين الفائزين، بل من الهالكين الضالين والعياذ بالله فإن توحيد المرء إن لم ينقاد لحكم الله ورسوله ينقص وينتقض بقدر خروجه عما جاء به الرسول ﷺ، فليحذر المؤمن من ذلك كل الحذر.

جـ التحذير من مخالفة النبي ﷺ والابتداع في دينه

أ ـ ذكر عدد من النصوص للإمام في ذلك:

قال الإمام في شرح حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي فيه أن رسول الله ﷺ خرج إلى المقبرة، وذكر الحديث في صفة أمته وفيه: «فليُذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال، فأناديهم ألا هلم ألا هلم، فيقال: إنهم قد بدلوا بعدك، فأقول سحقاً سحقاً»(٢).

(وقوله وهل تدري ما أحدثوا بعدك، وفي الرواية الأخرى قد بدلوا بعدك،

---

(١) سورة النور، آية [٥١ـ ٥٢]

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي ص٧٧/ ٣ برقم: ٣٧

فقوله سحقاً سحقاً هذا مما اختلف العلماء في المراد به على أقوال :

أحدهما : أن المراد به المنافقون والمرتدون فيجوز أن يحشروا بالغرة والتحجيل فيناديهم النبي ﷺ للسيما التي عليهم فيقال ليس هؤلاء مما وعدت بهم أن هؤلاء بدلوا بعدك، أي لم يموتوا على ما ظهر من إسلامهم.

والثاني : أن المراد من كان في زمن النبي ﷺ ثم ارتد بعده فيناديهم النبي ﷺ وإن لم يكن عليهم سيما الوضوء لما كان يعرفه في حياته من إسلامهم فيقال ارتدوا بعدك.

والثالث : أن المراد به أصحاب المعاصي والكبائر الذين ماتوا على التوحيد وأصحاب البدع الذين لم يخرجوا ببدعتهم عن الإسلام وعلى هذا القول لا يقطع لهؤلاء الذين ينادون بالنار بل يجوز أن يزادوا عقوبة لهم ثم يرحمهم الله سبحانه وتعالى فيدخلهم الجنة بغير عذاب، قال أصحاب هذا القول ولا يمنع أن يكون لهم غرة وتحجيل ويحتمل أن يكون كانوا في زمن النبي ﷺ وبعده لكن عرفهم بالسيما وقال الإمام الحافظ أبو عمر بن عبدالبر كل من أحدث في الدين فهو من المطرودين عن الحوض كالخوارج والروافض وسائر أصحاب الأهواء، قال وكذلك الظلمة المسرفون في الجور وطمس الحق المعنون بالكبائر، قال وكل هؤلاء يخاف عليهم أن يكونوا عنوا بهذا الخبر والله أعلم)[1].

وقال في شرح قوله ﷺ «فمن رغب عن سنتي فليس مني» (سبق تأويله وأن معناه من تركها إعراضاً عنها غير معتقد لها على ما هي عليه، أما من ترك النكاح على الصفة التي يستحب له تركه كما سبق، أو ترك النوم على الفراش لعجزه عنه أو اشتغاله بعبادة مأذون فيها أو نحو ذلك فلا يتناوله الذم والنهي)[2].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص١١٧/ ٣

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص ١١٧/ ٣

وقال رحمه الله في شرح حديث عائشة، قالت: قال رسول الله ﷺ «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد»[1].

(قوله ﷺ «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد» وفي الرواية الثانية «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» قال أهل العربية الرد هنا بمعنى المردود فهو باطل غير معتد به وهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام وهو من جوامع كلمه ﷺ فإنه صريح في رد كل البدع والمخترعات، وفي الرواية الثانية زيادة وهي أنه قد يعاند بعض الفاعلين في بدعة سبق إليها فإذا احتج عليه بالرواية الأولى يقول: أنا ما أحدثت شيئاً فيحتج عليه بالثانية التي فيها التصريح بكل المحدثات سواء أحدثها الفاعل أو سبق بإحداثها، ومن هذا الحديث دليل لمن يقول من الأصوليين أن النهي يقتضي الفساد، ومن قال لا يقتضي الفساد ويقول: هذا خبر واحد ولا يكفي في إثبات هذه القاعدة المهمة وهذاجواب فاسد، وهذا الحديث مما ينبغي حفظه واستعماله في إبطال المنكرات وإشاعة الاستدلال به)[2].

ب ـ تأكيد هذا الأمر وشرح النصوص السابقة

إن مخالفة النبي ﷺ والابتداع في دينه أمر في غاية الخطورة على إيمان العبد كما ظهر جلياً من خلال النصوص الآنفة الذكر التي ذكرها الإمام النووي، وذلك لأن هذا الأمر سبب لنزول غضب الله وعقابه على العبد، وطريق يؤدي بصاحبه إلى الخسران والوبال العظيم، ودخول جهنم والعياذ بالله والبعد عن طريق الرشد والهداية والفوز بجنات النعيم.

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي ص١٤/ ١٢ برقم: ١٧١٨

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٥/ ١٢

وقد رأينا كيف أن النبي ﷺ تبرأ ممن رغب عن سنته أو ابتدع في دينه أو أحدث فيه ودعا عليه بالهلاك والخسران وهو السحق، وقد زعم الرافضة قاتلهم الله أن الصحابة رضي الله عنهم هم المعنيون بذلك فكفروهم إلا قليلاً منهم مستدلين بالحديث الآنف الذكر «فأقول سحقاً سحقاً»، وهذا من سوء فهمهم وشدة حقدهم وبغضهم لأولئك الأبرار، وقد نسي هؤلاء أو تناسوا أن الحديث يقصد المرتدين والمنافقين والمبتدعة الضالين ممن تستر بالإسلام[1]، وحاشا أصحاب رسول الله ﷺ أن يوصفوا بذلك. وهم خير الأمة بعد نبيها المتمسكون بمنهج نبيهم عليه الصلاة والسلام، الحماة لدينه وسنته المحاربون لأعداء ملته، والذين رضي الله عنهم ورضوا عنه بنص كتابه الكريم وصحيح سنة رسوله عليه الصلاة والسلام، وفي مقدمة هؤلاء الخلفاء الراشدون رضي الله عنهم أجمعين، فعلى المؤمن أن يحذر كل الحذر من مخالفة رسول الله ﷺ أو الابتداع في دينه لئلا يهلك ويضل ويكون ممن قال الله فيه ﴿...ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً﴾[2]، ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حدوده يُدْخله نارا خالدًا فيها وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[3]، ﴿...وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جهنم خالدين فيها أبدا﴾[4].

فمعصية الله ورسوله وعدم الإنقياد لأمرهما هي طريق الشقاء والبوار وسبب لدخول النار. كما أن خطر الابتداع في الدين عظيم لكونه يجر على صاحبه غضب الله عز وجل، ويحجب عنه التوبة، ويأبى قبول عمله منه حتى يدع بدعته، قال

---

(١) شرح صحيح مسلم ص١١٧/ ٣

(٢) سورة الأحزاب، آية [٣٦]

(٣) سورة النساء، آية [١٤]

(٤) سورة الجن، آية[٢٣]

رسول الله ﷺ: «إن الله حجب التوبة عن كل صاحب بدعة حتى يدع بدعته». وفي لفظ «أبى الله أن يقبل عمل صاحب بدعة حتى يدع بدعته»[1]، وإنما استحق المبتدع هذا الجزاء، لأنه قد افترى على الله تعالى وعاند شرعه واتبع هواه، فنزل نفسه منزلة المضاهي للشارع الحكيم الذي أنزل الشرائع وأمر خلقه بالسير عليها، فهو سبحانه المتفرد بالتحليل والتحريم، فالمبتدع يقول بلسان حاله أومقاله إن الشريعة ناقصة لم تتم فجاء هو ببدعته ليكملها، وإلا فما معنى أن يأتي ببدعته بعد علمه بأن الدين قد اكتمل؟! قال سبحانه: ﴿... **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ...﴾[2]، وقد توفي رسول الله ﷺ ولم يترك شيئاً من أمر الدين إلا وبينه أكمل بيان امتثالاً لأمر الله تعالى له: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾[3]، وقد شهد له بذلك أصحابه الكرام رضي الله عنهم أجمعين كما في خطبة عرفة بحجة الوداع وغيرها. وكذا شهد له بذلك من جاء بعدهم من المؤمنين، ونحن على ذلك من الشاهدين. فكيف لا يكون المبتدع مبغوضاً عند الله مع وضوح هذا كله؟!

* * *

---

(١) رواه ابن ماجه في المقدمة باب اجتناب البدع والجدل ١/ ١٩ برقم: ٤٩ ـ ٥٠، وابن أبي عاصم في السنة باب ذكر البدع وإظهارها ١/ ٢١ برقم: ٣٧، وهذان الحديثان صحيحان كما قال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب للمنذري ص ١/ ٢٦ برقم ٥٢ ـ ٥٣

(٢) سورة المائدة، آية [٣]

(٣) سورة المائدة، آية [٦٧]

المطلب الثالث

وجوب محبته ﷺ وثوابها وعلاماتها

أ ـ وجوب محبته ﷺ وبعض الأدلة عليها

إن لمحبة النبي ﷺ شأناً عظيماً ودرجة رفيعة في الإسلام، لأنها من أعظم واجبات الإيمان وأكبر أصوله وأجل قواعده، فلا إيمان للعبد بدونها ولا نجاح له إلا بتحقيقها، فهي فرض متحتم على كل عبد ومن أعظم حقوق النبي ﷺ على العباد. لذا وجب أن تكون محبته ﷺ فوق محبة النفس والأهل والمال والخلق أجمعين.

وقد تضافرت نصوص الكتاب والسنة الدالة على هذه المحبة والآمرة بها والمثنية على أهلها.

من ذلك قوله تعالى: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ .. ﴾[1]، فقد دلت هذه الآية على أن من لم يكن النبي ﷺ أولى من نفسه فليس من المؤمنين، كما قال الإمام ابن القيم رحمه الله وهذه الأولوية تقتضي أموراً منها:

* أن يكون عليه الصلاة والسلام أحب إليه من نفسه لأن الأولوية أصلها الحب، ونفس العبد أحب إليه من غيره، ومع هذا يجب أن يكون الرسول ﷺ أولى به منها، فبذلك يحصل له اسم الإيمان المطلق.

* ويلزم من هذه الأولوية والمحبة، كمال الإنقياد والطاعة والرضا والتسليم وسائر لوازم المحبة من الرضا بحكمه وإيثاره على ما سواه.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية [٦]

* ومنها: أن لا يكون للعبد حكم على نفسه أصلاً، بل الحكم على نفسه للرسول ﷺ يحكم عليها أعظم من حكم السيد على عبده، أو الوالد على ولده، فليس له في نفسه قط إلا ما تصرّف فيه الرسول ﷺ الذي هو أولى به منها. فمن العجب أن يدعي حصول هذه الأولوية والمحبة التامة من كان سعيه واجتهاده ونصبيه في الاشتغال بأقوال غيره والغضب والمحبة لها، والرضا بها والتحاكم إليها، وعرض ما قاله الرسول ﷺ عليها فإن وافقها قبله وإن خالفها التمس وجوه الحيل وبالغ في رده لياً وإعراضاً[1].

ومن النصوص الدالة على هذه المحبة التي ذكرها الإمام النووي في كتابه شرح صحيح مسلم وهي عدة أحاديث منها:

الحديث الأول: حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»[2].

قال الإمام النووي رحمه الله: (وفي الرواية الأخرى «من ولده ووالده والناس أجمعين» قال الإمام أبو سليمان الخطابي: لم يرد به حب الطبع بل أراد به حب الاختيار لأن حب الإنسان نفسه طبع ولا سبيل إلى قلبه، قال فمعناه لا تصدق في حبي حتى تفنى في طاعتي نفسك وتؤثر رضاي على هواك وإن كان فيه هلاكك. هذا كلام الخطابي.

وقال ابن بطال والقاضي عياض وغيرهما رحمة الله عليهم «المحبة ثلاثة أقسام،

---

(١) الرسالة التبوكية لابن القيم ص٢٩ـ٣٠

(٢) أخرجه البخاري، في باب حب الرسول ﷺ من الإيمان برقم ٢٤. ومسلم في كتاب الإيمان باب وجوب محبة الرسول أكثر من الأهل ص١٤/ ٢ برقم ٢٤

محبة إجلال وإعظام كمحبة الوالد، ومحبة شفقة ورحمة كمحبة الولد ومحبة شاكله واستحسان كمحبة سائر الناس، فجمع ﷺ أصناف المحبة في محبته. قال ابن بطال رحمه الله معنى الحديث أن من استكمل الإيمان علم أن حق النبي ﷺ آكد عليه من حق أبيه وابنه والناس أجمعين، لأن به ﷺ استنقذنا من النار وهدينا من الضلال. قال القاضي عياض رحمه الله «ومن محبته ﷺ نصرة سنته والذب عن شريعته وتمني حضور حياته فيبذل ما له ونفسه دونه، قال وإذا تبين ما ذكرناه تبين أن حقيقة الإيمان لا يتم إلا بذلك. ولا يصح الإيمان إلا بتحقيق إعلاء قدر النبي ﷺ ومنزلته على كل والد وولد ومحسن ومفضل، ومن لم يعتقد هذا واعتقد سواه فليس بمؤمن، هذا كلام القاضي رحمه الله والله أعلم)[1].

ومعنى قوله ﷺ «لا يؤمن أحدكم» أي لا يحصل له الإيمان الذي تبرأ به ذمته ويستحق به دخول الجنة بلا عذاب حتى يكون الرسول ﷺ أحب إليه من أهله وولده والناس أجمعين، ومن نفسه أيضاً كما سيأتي في حديث عمر رضي الله عنه. أما من لم يكن كذلك فهو من أصحاب الكبائر إذا لم يكن كافراً والعياذ بالله لأنه لم يعهد في لسان الشرع الحنيف نفي اسم مسمى أمر الله به ورسوله ﷺ إلا إذا ترك بعض واجباته. فأما إذا كان الفعل مستحباً في العبادة لم ينفها لانتفاء المستحب، إذ لو صح هذا النفي عن جمهور المؤمنين اسم الإيمان والصلاة والزكاة والحج وحب الله ورسوله، لأنه ما من عمل إلا وغيره أفضل منه، وليس أحد يفعل أفعال البر مثل ما فعلها رسول الله ﷺ حتى الصديق والفاروق رضي الله عنهما، فلو كان من لم يأت بكمالها المستحب يجوز نفيها عنه لجاز أن ينفي عن جمهور المسلمين من الأولين والآخرين. وهذا لا يقوله عاقل، وعلى هذا فمن قال إن المنفي هو كمال الواجب

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٤/ ٢

الذي يذم تاركه ويتعرض للعقوبة فقد صدق، وإذا أراد نفي الكمال المستحب فهذا خطأ. فإنه لم يقع في كلام الله ورسوله ﷺ)[1].

الحديث الثاني: حديث أنس أيضاً أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»[2]. يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله شارحاً هذا الحديث: «أخبر ﷺ أن هذه الأمور الثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، لأن وجود الحلاوة للشيء يتبع المحبة له، فمن أحب شيئاً واشتهاه إذا حصل له مراده فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك، واللذة أمر يحصل عقيب إدراك الملائم الذي هو المحبوب أو المشتهى، فحلاوة الإيمان المتضمنة للذة والفرح، تتبع كما محبة العبد لله وذلك بثلاثة أمور: تكميل المحبة وتفريعها ودفع ضدها، فتكميلها: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، فإن محبة الله ورسوله لا يكتفى فيها بأصل الحب، بل لابد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وتفريعها: أن يحب امرء لا يحبه إلا لله، ودفع ضدها: أن يكره ضد الإيمان أعظم من كراهته الإلقاء في النار)[3].

فتبين الشاهد من الحديث على وجوب محبة النبي ﷺ وهي قوله: «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما» إذ من المعلوم أنه لا يحصل للعبد إيمان بغير محبة الله ورسوله، والناس يتفاوتون في ذلك تفاوتاً كبيراً، فمنهم من أخذ بتلك المرتبة بالحظ الأوفى فاستكمل الإيمان، ومنهم من أخذ بالحظ الأدنى، ومنهم من هو بين الأمرين.

---

(١) تيسير العزيز الحميد ص٤٧٣ ـ ٤٧٥

(٢) رواه مسلم بشرح النووي ص١٢/ ٢ برقم ٦٧

(٣) مجموع الفتاوى ص٢٠٥ ـ ٢٠٦/ ١٠

الحديث الثالث: قوله ﷺ يوم خيبر «لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله»(١).

وفي رواية أخرى «أعطين هذه الراية رجلاً يحب الله ورسوله، يفتح الله على يديه» قال عمر بن الخطاب: ماأحببت الإمارة إلا يومئذ..»(٢) قال الإمام في شرحها: «قوله: ما أحببت الإمارة إلا يومئذ» إنما كانت محبته لها من محبته لله ورسوله ﷺ ومحبتهما له والفتح على يديه)(٣).

وفي هذا الحديث فضيلة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي اكتمل إيمانه بشهادة رسول الله ﷺ له بذلك لمحبته رسول الله ومحبة الله ورسوله له وفي هذا رد ظاهر على أعداء الله من الرافضة وغيرهم الذين يلعنونه ويكفرونه قاتلهم الله أنى يؤفكون.

الحديث الرابع: عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً من الأعراب أتى النبي ﷺ فقال: يارسول الله متى الساعة؟ فقال له رسول الله ﷺ «وما أعددت لها؟» قال: حب اله ورسوله، قال: فإنك مع من أحببت» قال أنس: فما فرحنا بعد الإسلام فرحاً أشد من قوله النبي ﷺ «فإنك مع من أحببت» قال أنس: فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر فأرجو أن أكون معهم وإن لم أعمل بأعمالهم)(٤)

الحديث الخامس: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله كيف ترى

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي ص١٤٣/ ١٥ برقم ١٣٢

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي ص١٤٣/ ١٥ برقم ١٣٣

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٤٤/ ١٥

(٤) رواه مسلم في كتاب البر والصلة باب المرء مع من أحب، ص١٥٢/ ١٦ برقم ٢٦٣٩

رجلاً أحب قوماً ولم يلحق بهم؟ فقال رسول الله ﷺ «المرء مع من أحب»[١].

قال الإمام في تعليقه على الأحاديث: «قوله صلى الله عليه وسلم للذي سأله عن الساعة: «ما أعددت لها قال حب الله ورسوله قال أنت مع من أحببت» وفي روايات مع من أحب، فيه فضل حب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والصالحين وأهل الخير الأحياء والأموات ومن فضل محبة الله ورسوله امتثال أمرهما واجتناب نهيهما والتأدب بالآداب الشرعية ولا يشترط في الانتفاع بمحبة الصالحين أن يعمل عملهم إذ لو عمله لكان منهم ومثلهم، وقد صرح في الحديث الذي بعد هذا بذلك فقال أحب قوماً ولما يلحق بهم، قال أهل العربية: لما نفي للماضي المستمر فيدل على نفيه في الماضي وفي الحال بخلاف لم فإنها تدل على الماضي فقط، ثم إنه لا يلزم من كونه معهم أن يكون منزلته وجزاؤه مثلهم من كل وجه»[٢].

ب ـ ثواب محبة رسول الله ﷺ

إن محبة الرسول ﷺ عظيم أمرها، كبير فضلها، جليل شأنها، فإنها إذا تمكنت من قلب العبد المؤمن أضفت عليه حلل السعادة والهناء والإيمان والتقوى، فقام بما تقتضيه هذه المحبة تجاه خالقه تعالى من تحقيق العبودية له، وتجاه رسول الله ﷺ بالمتابعة له. وتجاه المؤمنين بالموالاة والمحبة والنصرة، وتجاه الكافرين والفاجرين بالبغض والمحاربة إلى غير ذلك من الأمور.

وإن أعظم ثواب يناله العبد في الدنيا بسبب هذه المحبة هو كمال الإيمان وذوق

(١) رواه مسلم في كتاب البر والصلة باب المرء مع من أحب، ص١٥٢/١٦ برقم ٢٦٤٠

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٥٢ ـ١٥٣/١٦

حلاوته والسرور به، كما بين رسول الله ﷺ في الحديث الآنف الذكر وهو قوله: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله...» الحديث[1] أما أعظم ثواب يناله العبد في الآخرة فهو مرافقة الحبيب المصطفىٰ صلىٰ الله عليه وسلم في الجنة، ولقد وردت أحاديث كثيرة في فضل ثواب محبته ﷺ ومنها عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً أتىٰ النبي ﷺ فقال: متىٰ الساعة؟ فقال: ما أعددت لها؟ قا: ماأعددت لها من كثير صلاة ولا صوم ولا صدقة ولكن أحب الله ورسوله، قال: أنت مع من أحببت»[2]، وقال ﷺ: «المرء مع من أحب»[3]، وروي أن رجلاً أتىٰ النبي ﷺ فقال: يارسول الله لأنت أحب إلىٰ من أهلي ومالي وإني لأذكرك فما أصبر حتىٰ أجيء فأنظر إليك. وإني إذاذكرت موتي وموتك فعرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين وإن دخلتها لا أراك، فأنزل الله تعالىٰ: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا (٦٩) ذلك الفضل من الله وكفىٰ بالله عليما﴾[4] فقرأها ﷺ عليه»[5].

قلت: لقد كان صحابة رسول الله ﷺ أشد الناس حباً له وأنساً وسروراً بقربه،

---

(١) سبق تخريجه

(٢) تقدم تخريجه

(٣) تقدم تخريجه

(٤) سورة النساء، آية ٦٩ـ ٧٠

(٥) أخرجه الطبراني في الصغير ١/ ٢٦، وأبو نعيم في الحلية ٤/ ٢٤٠، ٨/ ١٢٥، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٧ رجاله رجال الصحيح إلا عبدالله بن عمران وهو ثقة، وقال الشوكاني المقدسي حسنه، وله شواهد كما في تفسير ابن كثير ٤٦٤/ ١ تزيده قوة. انظر الصحيح المسند من أسباب النزول للشيخ مقبل بن هادي الوادعي ص٤٦ـ ٤٧.

وأكثر الخلق طاعة له وامتثالاً لأمره، وكانوا من شدة تعلقهم به يودون لو أنهم لا يفارقونه، وما قصة هذ الرجل، وهو ثوبان مولىٰ رسول الله ﷺ، كما في بعض الروايات. وفي بعضها الآخر أن الصحابة رضي الله عنهم قالوا للنبي ﷺ: كيف يكون الحال وأنت في الجنة وأنت في الدرجات العلىٰ ونحن أسفل منك كيف نراك؟ فأنزل الله هذه الآية(1) .

أقول ما هذا الذي ذكر عنهم إلا دليل علىٰ صدق محبتهم له صلىٰ الله عليه وسلم حيث كانوا يظنون أو بعضهم أنهم لن يروه أو يصاحبوه في الجنة كما تشرفوا بصحبته في الدنيا وذلك لعلو منزلته عند ربه، فأحزنهم ذلك فطمأن الله قلوبهم وبشرهم بهذه البشارة العظمىٰ ألا وهي مرافقته ﷺ وإخوانه الأنبياء وكذا الصديقين والشهداء والصالحين. لكن بشرط طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ ومتابعته. وهذه البشرىٰ تعم كل مؤمن موحد صادق في محبته وطاعته الله ولرسوله ﷺ إلىٰ قيام الساعة. وقد امتدح الله هذه المرافقة الطيبة والصحبة المباركة بقوله ﴿ **وَحَسُنَ أُوْلَٰئِكَ رَفِيقًا** ﴾(2) أجل والله، ما أحسن صحبة هؤلاء!! وما أجمل مرافقتهم!! وما أسعد من تشرف بها!! اللهم نسألك من فضلك.

كما بشر رسول الله ﷺ المحبين الصادقين بهذه البشارة العظمىٰ وأثلج صدورهم بها كما روىٰ ذلك أنس وغيره من الصحابة رضي الله عنهم عنه كما تقدم ذكره الذي فيه: «فأنت مع من أحببت» والحديث متفق عليه، وقد زاد مسلم عن أنس قوله: «فما فرحنا بعد الإسلام فرحاً أشد من قول النبي ﷺ فأنت مع من أحببت»، قال أنس: «فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر فأرجو أن أكون معهم وإن لم أعمل

---

(1) انظر تفسير البغوي ص٥٤٠/١ وتفسير ابن كثير ٤٦٣-٤٦٤/١.

(2) سورة آل عمران، الآية: [٦٩].

بأعمالهم»[1].

وأنا أقول ما قاله أنس رضي الله عنه: فأنا أحب الله ورسوله ﷺ وأبا بكر وعمر وجميع الصحابة والتابعين، فأرجو أن أكون معهم وإن لم أعمل بأعمالهم.

ج- علامات محبة الرسول ﷺ

لصدق محبة النبي ﷺ دلائل وعلامات تدل عليها وتشهد على صحتها وصدقها، وهذه العلامات كثيرة لا يتسع المجال للتوسع فيها، ولقد أشار الإمام النووي رحمه الله إلى كثير منها مستدلاً على بعضها بالأحاديث الواردة في صحيح مسلم رحمه الله. وهذه العلامات هي:

العلامة الأولى: الاقتداء به ﷺ واستعمال سنته واتباع أقواله وأفعاله وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، والتأدب بآدابه في عسره ويسره ومنشطه ومكرهه[2].

العلامة الثانية: إيثار ما شرعه صلى الله عليه وسلم وحضّ عليه على هوى النفس وموافقة الشهوة، وإسخاط العباد في رضى الله تعالى ورضاه[3].

العلامة الثالثة: كثرة ذكره ﷺ لأن من أحب شيئاً أكثر من ذكره[4].

قلت: وذلك يشمل قراء حديثه الشريف وسيرته العطرة، كما يشمل كثرة الصلاة والسلام عليه، فقد قال ﷺ «من صلى عليّ صلاة صلى الله عليه بها

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي ص١٥٣/١٦ برقم ٢٦٣٩ مكرر
(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص٣٣/٢.
(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص٣٣/٢
(٤) من شرح صحيح مسلم للنووي ص١١/١.

عشراً[١].

العلامة الرابعة: كثرة الشوق إلىٰ لقائه ﷺ فكل حبيب يحب لقاء حبيبه، وقد كان الصحابة رضي الله عنهم إذا غابوا عنه يتلهفون للقائه ويرتجزون: غداً نلق الأحبة محمداً وصحبه.

قلت: وقد أخبر عليه الصلاة والسلام عن هذه المحبة الصادقة بقوله: «من أشد أمتي لي حباً ناس يكونون بعدي يود أحدهم لو رآني بأهله وماليه»[٢].

العلامة الخامسة: تعظيمه وتوقيره ﷺ عند ذكره، وإظهار الخشوع والإنكسار عند سماع اسمه، فقد كان أصحابه النبي ﷺ بعده لا يذكرونه إلا خشعوا وكذلك كثير من التابعين منهم من يفعل ذلك محبة وشوقاً إليه، ومنهم من يفعله تهيباً وتوقيراً[٣].

العلامة السادسة: محبة من أحب النبي ﷺ ومن هو بسببه من آل بيته وصحابته من المهاجرين والأنصار، وعداوة من عاداهم وبغض من أبغضهم وسبهم، فإن من أحب شيئاً أحب من يحب وقد قال ﷺ في الحسن والحسين[٤][٥] «اللهم إني أحبهما

---

(١) رواه أحمد ص١٦٨، ٢/٣٧٢ وقال الشيخ الألباني حديث صحيح انظر صحيح الجامع ٥/٣١٦ برقم ٦٢٣٤، ٦٢٣٥

(٢) ص٣٣/ ٢

(٣) ولقد كان الإمام النووي رحمه الله من أشد الناس حرصاً علىٰ هذا ولا ريب فإنه رحمه الله من المحبين لله ورسوله قولاً وعملاً، فلا يكاد يخلو موضعاً ذكر فيه الرسول ﷺ إلا وصلىٰ عليه وسلم، رحمه الله رحمة واسعة.

(٤) (٥) * هو سبط رسول الله ﷺ وريحانته وشبيهه، أبو محمد الحسن بن علي بن أبي طالب سيد شباب أهل الجنة، ولد سنة ثلاث للهجرة فعقّ عنه جده يوم سابعه وسماه، حفظ عن جده وأبيه وأمه الأحاديث، وولي الخلافة بعد مقتل أبيه نحو سبعة أشهر، خليفة بالعراق وما وراءه من خراسان

فاحبهما»[1][2] قال الإمام «فيه حث على حبه وبيان لفضيلته رضي الله عنه»[3].

= والحجاز واليمن وغير ذلك، ثم سار إليه معاوية من الشام وسار هو إليه، فلما تقاربا كره القتال. فأرسل إلى معاوية يبذل له تسليم الأمر إليه على أن يجعل الأمر إليه بعده وشروط أخرى، فأجابه معاوية فظهرت المعجزة النبوية فيه وهي قوله ﷺ «إن ابني هذا سيد ولعل الله يصلح به بين فئتين عظمتين من المسلمين» رواه البخاري في كتاب فضائل الصحابة باب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما ٧/ ١١٨ ـ١١٩ برقم ٣٧٤٦، وأحمد ٥/ ٣٨، ٤٤، ٤٩، ٥١، وقد سمي هذا العام عام الجماعة، وذلك سنة ٤١ هـ، ثم رجع الحسن إلى المدينة وتوفي بها سنة ٤٩، وقيل ٥٠ وقيل ٥١ هـ) انظر أسد الغابة ٢/ ٩، وسير أعلام النبلاء ٣/ ٢٤٥ والإصابة ١/ ٢٢٧

* هو سبط رسول الله ﷺ وريحانته وشبيهه، أبوعبدالله الحسين بن علي بن أبي طالب، سيد شباب أهل الجنة. ولد سنة أربع للهجرة فسماه النبي ﷺ، كانت إقامته بالمدينة إلى أن خرج مع أبيه إلى الكوفة فشهد معه معارك الجمل ثم صفين ثم قتال الخوارج، وبقي معه إلى أن قتل، ثم مع أخيه حسن إلى أن سلّم الأمر إلى معاوية وتحولا معاً إلى المدينة، وبقي بها إلي أن مات معاوية فخرج إلى مكة ثم أتته كتب أهل العراق بأنهم بايعوه، فأرسل مسلم بن عقيل ليأخذ له البيعة، فبايعه آلاف الناس ثم نكث كثير منهم وقد قتل مسلماً والي الكوفة عبيد الله بن زياد ثم لما أتى الحسين ومن معه جهّز له عبيدالله جيشاً كبيراً فقتلوه ومن معه من أولاده وأصحابه إلا علي بن الحسين (زين العابدين) الذي كان مريضاً آنذاك، وأخذ رأس الحسين إلى عبيد الله فأرسله إلى يزيد ومن بقي من أهله فأدخلهم في عياله ثم أرسلهم إلى المدينة وكانت تلك الواقعة سنة ٦١هـ. انظر أسد الغابة ٢/ ١٨، وسير أعلام النبلاء ٣/ ٢٨٠، والإصابة ١/ ٣٣١.

(١) رواه مسلم بشرح النووي ص١٥٦/ ١٥ برقم ٢٤٢١ ولكن في متنه «الله إني أحبه، فأحبه، وأحب من يحبه» وأنه قال ذلك للحسن.

(٢) صحيح مسلم للنووي ص٣٣/ ٢

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٥٦/ ١٥

وقال ﷺ: «الله الله في أصحابي لا تتخذوهم غرضاً بعدي، فمن أحبهم فبحبي أحبهم، ومن أبغضهم فببغضي أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذىٰ الله، ومن آذىٰ الله يوشك أن يأخذه»[1]

وقال أيضاً: «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار»[2].

العلامة السابعة: بغض من أبغض الله ورسوله ومعاداة من عاداه ﷺ ومجانبة من خالف سنته وابتدع في دينه واستثقاله كل أمر يخالف شريعته، قال الإمام: «أما النصيحة لرسوله... ومعاداةمن عاداه وموالاة من والاه... ومحبة أهل بيته وأصحابه ومجانبة من ابتدع في سنته أو تعرض لأحد من أصحابه ونحو ذلك»[3].

العلامة الثامنة: محبة القرآن الذي جاء به ﷺ وهدي واهتدىٰ وتخلق به حتىٰ كان خلقه القرآن، وحب القرآن يعني تلاوته وتفهمه والاهتداء به، وكذلك حب السنة المطهرة والوقوف عند حدودها، قال الإمام: «وأما النصيحة لكتابه سبحانه وتعالىٰ فالإيمان بأنه كلام الله تعالىٰ وتنزيله ثم تعظيمه وتلاوته حق تلاوته وتحسينها والخشوع عندها، وإقامة حروفه في التلاوة والذب عنه لتأويل المحرفين وتعرض الطاعنين والتصديق بما فيه والوقوف مع أحكامه وتفهم علومه وأمثاله والاعتبار بمواعظه..»[4].

العلامة التاسعة: الشفقة علىٰ أمة محمد ﷺ والنصح لهم والسعي في مصالحهم ورفع المضار عنهم كما كان النبي ﷺ بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً. قال الإمام: «وأما

---

(١) تقدم تخريجه

(٢) تقدم تخريجه

(٣) شرح صحيح مسلم ٣٣/٢

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص٣٣/٢

النصيحة لعامة المسلمين وهم من عدا ولاة الأمر فإرشادهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم وكف الأذىٰ عنهم فيعلمهم ما يجهلونه من دينهم ويعينهم عليه بالقول والفعل وستر عوراتهم وسد خلاتهم ودفع المضار عنهم، وجلب المنافع لهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر برفق وإخلاص، والشفقة عليهم وتوقير كبيرهم ورحمة صغيرهم وتخولهم بالموعظة الحسنة وترك غشهم وحسدهم، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه من الخير، ويكره لهم ما يكره لنفسه من المكروه والذب عن أموالهم وأعراضهم وغير ذلك من أحوالهم بالقول والفعل، وحثهم على التخلق بجميع ما ذكرناه من أنواع النصيحة، وتنشيط هممهم إلىٰ الطاعات، وقد كان في السلف رضي الله عنهم من تبلغ به النصيحة إلىٰ الإضرار بدنياه والله أعلم)[١].

العلامة العاشرة: النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم وهي واجبة لقوله صلىٰ الله عليه وسلم: «إن الدين النصيحة، إن الدين النصيحة، إن الدين النصيحة، قالوا: لمن يارسول الله قال لله وكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[٢].

هذه علامات محبة الرسول صلىٰ الله عليه وسلم والتي أشار إليها الإمام النووي متفرقة في أثناء شرحه، ولقد جمعت ما تيسر لي منها وهناك علامات أخرىٰ ذكرها بعض أهل العلم لا يتسع المقام لذكرها[٣].

* * *

---

(١) شرح صحيح مسلم للنوي ص٣٤/ ٢

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي ص٣٣/ ٢ برقم: ٥٥

(٣) كتاب الشفا للقاضي عياض، ص ٢٤ـ٢٨/ ٢، فقد اهتم رحمه الله بذكر تلك العلامات.

المطلب الرابع

وجوب تعظيم أمره وتوقيره وبره ﷺ

إن تعظيم أمر رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم وتوقيره وبره وطاعته حياً وميتاً وعدم تقديم قول أحد أو رأيه علىٰ سنته من أعظم الواجبات علىٰ المؤمنين ومن أعظم حقوقه ﷺ عليهم، لأنه الرحمة المهداة والقدوة لمن أردا النجاة والسعادة في الدنيا والآخرة ولقد جاء الأمر للمؤمنين بهذا كله في الكتاب العزيز، فعمل به المحبون الصادقون أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان.

وقد أشار الإمام النووي رحمه الله بهذا الموضوع عند تعليقه علىٰ بعض الأحاديث الواردة في صحيح مسلم، وإليك ذلك باختصار:

أ ـ بعض الأحاديث الدالة على وجوب تعظيمه # وتوقيره

١ ـ استدل الإمام النووي رحمه الله علىٰ وجوب تعظيم أمر النبي ﷺ وتوقيره بحديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ خرج حين زاغت الشمس فصلىٰ لهم صلاة الظهر فلما سلم قام علىٰ المنبر، فذكر الساعة، وذكر أن قبلها أموراً عظاماً، ثم قال: «من أحب أن يسألني عن شيء فليسألني عنه، فوالله إلا تسألونني عن شيء إلا أخبرتكم به، مادمت في مقامي هذا. قال أنس بن مالك: فأكثر الناس البكاء حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ، وأكثر رسول الله ﷺ أن يقول «سلوني: فقام عبدالله بن حذافة فقال من أبي يارسول الله؟ قال: أبوك حذافة، فلما أكثر رسول الله ﷺ من أن يقول سلوني، برك عمر فقال: رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً، قال

فسكت رسول الله ﷺ حين قال عمر ذلك. ثم قال رسول الله ﷺ: أولى[1] والذي نفسي بيده! لقد عرضت عليّ الجنة والنار آنفاً، في عرض هذا الحائط، فلم أر كاليوم في الخير والشر»[2].

قال الإمام النووي في شرحه: «قوله: لما أكثر رسول الله ﷺ أن يقول سلوني برك عمر فقال رضينا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً فسكت رسول الله ﷺ حين قال عمر ذلك»، أما بروك عمر رضي الله عنه وقوله فإنما فعله أدباً وإكراماً لرسول الله ﷺ وشفقة على المسلمين لئلا يؤذوا النبي ﷺ فيهلكوا أو معنى كلامه رضينا بما عندنا من كتاب الله تعالى وسنة نبينا ﷺ واكتفينا به عن السؤال ففيه أبلغ كفاية»[3].

٢ ـ وعند شرحه لمعنى النصيحة الواردة في حديث «الدين النصيحة، قلنا لمن قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين»[4] قال الإمام: «وأما النصيحة لرسول الله ﷺ بعد أن ذكر أمور كثيرة تضمنتها النصيحة للرسول (وإعظام حقه وتوقيره)»[5]

٣ ـ وفي حديث أنس رضي الله عنه قال: «لقد رأيت رسول الله ﷺ والحلاق يحلقه وأطاف به أصحابه ما يريدون أن تقع شعرة إلا في يد رجل منهم»[6].

---

(١) هي كلمة تهديد ووعيد، وقيل كلمة تلهف، فعلى هذا يستعملها من كان به أمر عظيم. والصحيح المشهور أنها للتهديد، ومعناها قرب منكم ما تكرهونه وفيه قوله تعالى (أولى لك فأولى) أي قاربك ما تكره فاحذره، مأخوذ من الوئ وهو القرب.

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي، من ٩٢/ ١٥ برقم ١٣٦.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص٩٣/ ١٥

(٤) أخرجه مسلم للنووي من ٣٣/ ٢ برقم: ٩٥

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي ٣٣/ ٢

(٦) أخرجه مسلم شرح النووي ص٦٦/ ١٥ برقم ٧٤

قال الإمام: (وفيه التبرك بآثار الصالحين وبيان ما كانت الصحابة عليه من التبرك بآثاره ﷺ وتبركهم بإدخال يده الكريمة في الآنية وتبركهم بشعره وإكرامهم إياه أن يقع شيء منه في يد رجل سبق إليه)[1].

ب ـ من مستلزمات وعلامات توقير النبي ﷺ وبره

مستلزمات وعلامات توقير رسول الله ﷺ كثيرة سأقتصر منها على ما ذكره الإمام النووي رحمه الله خشية الإطالة. وأحب أن أنبه إلى أن هذا الأمر داخل في علامات محبته ﷺ ولوازمها، ومن تلك المستلزمات:

١ ـ توقير أهل بيته وعشيرته

إن مما يدخل في تعظيم رسول الله ﷺ وتوقيره، توقير وبر من لهم صلة به من أهل وأصحاب وعشيرة مؤمنين، لأن توقيرهم وبرهم الإيمان، وبغضهم أو الإساءة إليهم ضلال وعصيان، وقد نبه الإمام النووي إلى هذا الأمر فقال في بيان معنى النصيحة لرسوله (ومحبة أهل بيته وأصحابه ومجانبة من ابتدع في سنته أو تعرض لأحد من أصحابه ونحو ذلك)[2]. واستدل بنصوص من الكتاب والسنة كما يلي:

أولاً: استدل بقوله تعالى: ﴿... إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[3]. قال في شرحها: «قيل هو الشك وقيل العذاب وقيل الإثم، قال الأزهري الرجس اسم لكل مستقذر من عمل»[4].

ثانياً: ومن الأحاديث التي ذكرها الإمام النووي قال رحمه الله في شرح حديث

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص٦٧/ ١٥

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص٣٣/ ٢

(٣) سورة الأحزاب، الآية[٣٣]

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٥٨/ ١٥

زيـد بـن أرقـم[1] رضي الله عنه قـال: قام فينا رسول الله ﷺ يوماً خطيباً فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال: «أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله تعالى فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، فحث على كتاب الله عز وجل ورغب فيه ثم قال: وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي» ثلاثاً، فقيل لزيد: ومن أهل بيته؟ أليس نساؤه من أهل بيته، قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده، قالوا: ومن هم؟ قال: آل علي وآل جعفر[2] وآل عقيل[3] وآل

---

(١) هو أبو عامر أو أبو عمرو، زيد بن أرقم بن زيد بن قيس الأنصاري الخزرجي، عاش يتيماً في حجر عبدالله بن رواحة، وقد سار معه إلى مؤتة، واستصغر يوم أحد ثم شهد مع النبي ﷺ سبع عشرة غزوة أولها الخندق وروى أحاديث كثيرة عنه، وهو الذي سمع رأس المنافقين عبدالله بن أبيّ بن سلول يقول ليخرجن الأعز منها الأذل، فأخبر رسول الله ﷺ فسأل ابن أبيّ فأنكر ذلك فأنزل الله تصديق زيد آيات تتلى، شهد مع علي صفين وهو من خاصة أصحابه سكن الكوفة وتوفي بها سنة (٦ أو٨هـ). انظر أسد الغابة ٢/ ٢١٩، وسير أعلام النبلاء ٣/ ١٦٥، والإصابة ١/ ٥٤٢.

(٢) هو الصحابي الجليل الشهيد الكبير الشأن ذو الجناحين علم المجاهدين ابن عم النبي ﷺ، جعفر ابن أبي طالب الهاشمي أخو علي بن أبي طالب، يكبر علياً عشر سنين، أسلم بعد خمسة وعشرين رجلاً وهاجر الهجرتين إلى الحبشة، وكان خطيب المسلمين والمتكلم باسمهم عند النجاشي، هاجر إلى المدينة من الحبشة فوافى الرسول ﷺ والمسلمين وهم على خيبر إثر فتحها ففرح به ﷺ كثيراً وقبله بين عينيه، وأقام في المدينة أشهراً ثم أمره النبي ﷺ على جيش غزوة مؤتة بالشام، فاستشهد بعد أن أثقلته الجراح وقطعت يداه، فحزن النبي ﷺ عليه كثيراً فبشره جبريل بأن الله قد أبدله جناحين يطير بهما في الجنة وكان عمره آنذاك بضعاً وثلاثين سنة، انظر أسد الغابة ١/ ٢٨٦، وسير أعلام النبلاء ١/ ٢٠٦، والإصابة ١/ ٢٣٩.

(٣) هو ابن عم رسول الله ﷺ وأخو علي وجعفر وأكبر إخوانه وآخرهم موتاً، شهد بدراً مشركاً فأسره ففداه عمه العباس لفقره، ثم أتى مسلماً قبل صلح الحديبية وهاجر أول السنة (٨هـ) وشهد مؤتة ثم رجع فمرض مدة، وقيل إنه شهد حنيناً وثبت فيها مع النبي ﷺ، كان سريع الجواب المسكت =

عباس رضي الله عنهم، قيل: كل هؤلاء حرم الصدقة بعده؟ قال: نعم»[1].

قال الإمام في شرح ذلك: «قوله ﷺ: وأنا تارك فيكم ثقلين فذكر كتاب الله تعالىٰ وأهل بيته، قال العلماء: سميا ثقلين لعظمهما وكبير شأنهما وقيل لثقل العمل بهما»[2].

وقال أيضاً: «فتتأول الرواية الأولىٰ علىٰ أن المراد أنهن من أهل بيته الذين يساكنونه ويعولهم وأمر باحترامهم وإكرامهم وسماهم ثقلاً ووعظ في حقوقهم ونساؤه داخلات في هذا كله ولا يدخلن حين حرم الصدقة، وقد أشار إلىٰ هذا في الرواية الأولىٰ بقوله (نساؤه من أهل بيته ولكن أهل بيته من حرم الصدقة فأتفقت الروايتان»[3].

قلت: لقد نبه الإمام ابن كثير رحمه الله علىٰ أن نساء النبي ﷺ داخلات في أهل بيته فقال: «والذي لا يشك فيه من تدبر القرآن أن نساء النبي ﷺ داخلات في قوله تعالىٰ: ﴿**إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت**﴾[4] فإن سياق الكلام معهن، ولهذا قال تعالىٰ بعد هذا كله ﴿**وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ**﴾[5]

= للخصم وأعلم قريش بالنسب وبأيامها، توفي في خلافة معاوية وقيل: أول خلافة يزيد. انظر أسد الغابة ٣/ ٤٢٣، وسير أعلام النبلاء ١/ ٢١٨، والإصابة ٣/ ٤٨٧.

(١) رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل علي بن أبي طالب ص ١٤٥/ ١٥ برقم ٢٤٠١، وأحمد ٢/ ١١٤، ٤/ ٢٦٧، والدارمي في فضائل القرآن باب فضل من قرأ القرآن ٣/ ٥٢٤ برقم ٣٣١٦.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٤٦/ ١٥

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٤٦/ ١٥

(٤) سورة الأحزاب الآية ٣٣.

(٥) سورة الأحزاب، الآية: [٣٤].

أي واعملن بما ينزل الله تعالىٰ علىٰ رسول ﷺ في بيوتكن من الكتاب والسنة[1].

٢ - توقير صحابته ﷺ وموالاتهم والاستغفار لهم

من مستلزمات وعلامات توقيره ﷺ وبره، توقير أصحابه رضي الله عنهم وبرهم ومحبتهم وموالاتهم والاقتداء بهم، وحسن الثناء عليهم والاستغفار لهم، والإمساك عما شجر بينهم، ومعاداة من عاداهم وعدم ذكر أحد منهم بسوء، بل نذكر حسناتهم وفضائلهم وحميد سيرهم، ونسكت عما وراء ذلك ونلتمس لهم العذر فيما جرىٰ بينهم من الفتن وغيرها، ونحملها علىٰ أحسن التأويلات والمخارج، بدون طعن بأحد منهم أو تعصب له.

وقد اعتمد الإمام النووي رحمه الله هذا المنهج واستدل عليه بعدد من الأحاديث وإليك طرفاً من ذلك:

قوله ﷺ «لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»[2].

قال الإمام: «واعلم أن سب الصحابة رضي الله عنهم حرام من فواحش المحرمات»[3].

وقوله ﷺ: «آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار»[4].

قال الإمام في شرحه: «قد تقدم أن الآية هي العلامة، ومعنىٰ هذه الأحاديث أن

---

(١) تفسير ابن كثير، ص٤٥٢/ ٣

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص٧٥/ ١٦ برقم ٢٥٤٠

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص٧٥/ ١٦

(٤) أخرجه مسلم شرح النووي، ص٥٥/ ٢ برقم ٧٤

من عرف مرتبة الأنصار، وما كان منهم في نصرة دين الإسلام والسعي في إظهاره وإيواء المسلمين وقيامهم في مهمات دين الإسلام حق القيام وحبهم النبي ﷺ وحبه إياهم وبذلهم أموالهم وأنفسهم بين يديه، وقتالهم ومعاداتهم سائر الناس إيثاراً للإسلام، وعرف من علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قربه من رسول الله ﷺ وحب النبي ﷺ له، وما كان منه في نصرة الإسلام وسوابقه فيه، ثم أحب الأنصار وعلياً لهذا كان ذلك من دلائل صحة إيمانه وصدقه في إسلامه لسروره بظهور الإسلام والقيام بما يرضي الله سبحانه وتعالىٰ ورسوله ﷺ، ومن أبغضهم كان بضد ذلك، واستدل به علىٰ نفاقه وفساد سريرته والله أعلم)[1].

حكم الإمام النووي فيمن سب أصحاب النبي ﷺ أو انتقصهم

ذهب الإمام النووي رحمه الله إلىٰ تحريم ذلك وجعله من الفواحش فقال رحمه الله: «واعلم أن سب الصحابة رضي الله عنهم حرام من فواحش المحرمات سواءً من لابس الفتن منهم وغيره لأنهم مجتهدون في تلك الحروب متأولون كما أوضحنا في أول فضائل الصحابة من هذا الشرح، وقال القاضي: وسب أحدهم من المعاصي الكبائر ومذهبنا ومذهب الجمهور أنه يعزر ولا يقتل، وقال بعض المالكية يقتل»[2].

وقال من قبل ذلك: «وأما الحروب التي جرت فكانت لكل طائفة شبهة اعتقدت تصويب أنفسها بسببها وكلهم عدول رضي الله عنهم ومتأولون في حروبهم وغيرها، ولم يخرج شيء من ذلك أحداً منهم عن العدالة لأنهم مجتهدون اختلفوا في مسائل

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص٥٦٥/ ٢

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص٧٦٧/ ١٦

من محل الاجتهاد وكما يختلف المجتهدون بعدهم في مسائل من الدماء وغيرها ولا يلزم من ذلك نقص أحد منهم»[1].

وقال: «ولهذا اتفق أهل الحق ومن يعتد به في الإجماع على قبول شهاداتهم ورواياتهم وكمال عدالتهم رضي الله عنهم أجمعين»[2] وقال أيضاً في تعليقه على قوله ﷺ لعلي رضي الله عنه: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»[3] قال نقلاً عن القاضي: «هذا الحديث مما تعلقت به الروافض والإمامية وسائر فرق الشيعة في أن الخلافة كانت حقاً لعلي وأنه وصى له بها، قال، ثم اختلف هؤلاء فكفرت الروافض سائر الصحابة في تقديمهم غيره وزاد بعضهم تكفير علياً لأنه لم يقم في طلب حقه بزعمهم وهؤلاء أسخف مذهباً وأفسد عقلاً من أن يرد قولهم أويناظر، وقال القاضي: ولا شك في كفر من قال هذا لأن من كفر الأمة كلها والصدر الأول فقد أبطل نقل الشريعة وهدم الإسلام»[4].

وأخيراً قال رحمه الله في تعليقه على قول العباس لابن الخطاب «اقضي بيني وبين هذا الكاذب إلى آخره»[5] «قال جماعة من العلماء: معناه هذا الكاذب إن لم ينصف فحذف الجواب، وقال القاضي: قال المازري: هذا اللفظ الذي وقع لا يليق ظاهره بالعباس وحاش لعلي أن يكون فيه بضع هذه الأوصاف فضلاً عن كلها ولسنا نقطع بالعصمة إلا للنبي ﷺ ولمن شهد له بها لكنا مأمورون بحسن الظن بالصحابة

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ١٢٢،١٢١/ ١٥

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص١٢٢/ ١٥

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص١٤٢/ ١٥ برقم ٣١

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي، ص١٤٢/ ١٥

(٥) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص٦٣/ ١٢ برقم ٤٩

رضي الله عنهم أجمعين ونفي كل رذيلة عنهم إذا انسدت طرق تأويلها نسبنا الكذب إلى رواتها. قال: وقد حمل هذا المعنى بعض الناس على أن أزال هذا اللفظ من نسخته تورعاً عن إثبات مثل هذا، ولعله حمل الوهم على رواته، قال المازري: وإذا كان هذا اللفظ لابد من إثباته ولم نضف الوهم إلى رواته فأجود ما حمل عليه أنه صدر من العباس على جهة الإدلال على ابن أخيه لأنه بمنزلة ابنه وقال: ما لا يعتقده وما يعلم براءة ذمة ابن أخيه منه ولعله قصد بذلك ردعه عما يعتقد أنه مخطئ فيه وأن هذه الأوصاف يتصف بها لو كان يفعل ما يفعله عن قصد وأن علياً كان لا يراها إلا موجبة لذلك في اعتقاده وهذا كما يقول المالكي شارب النبيذ ناقص الدين والحنفي يعتقد أنه ليس بناقص فكل واحد محق في اعتقاده ولا بد من هذا التأويل لأن هذه القضية جرت في مجلس فيه عمر رضي الله عنه وهذا الخليفة وعثمان وسعد والزبير وعبدالرحمن رضي الله عنهم ولم ينكر أحد منهم هذا الكلام مع تشددهم في إنكار المنكر وما ذلك إلا لأنهم فهموا بقرينة الحال أنه تكلم بما لا يعتقد ظاهره مبالغة في الزجر»(١).

قلت: رحم الله الإمام ومن قبله القاضي عياض فما سطراه في كتبهم واعتقدوه في قلوبهم تجاه خير القرون كان نبراساً يهتدي به كل طالب علم، وكل مبتغي رشدٍ وفيه النجاة لمن طلب النجاة فإن سب المسلم العادي فسوق وعصيان كما قال ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»(٢) فكيف بمن يسب خيار المؤمنين وأفضل الناس بعد الأنبياء والمرسلين، وهم أصحاب رسول الله ﷺ الذين حبهم من حبه لأنهم أحباؤه عليه الصلاة والسلام، وبغضهم من بغضه، ولهذا نهى ﷺ عن سبهم فقال: «لاتسبوا

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص٦٣-٦٤/ ١٢

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي ص٤٧/ ٢ برقم ٦٤

أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»[١] . فلا يجوز لمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحمل على هؤلاء أدنى حقد أو غل أو يتوجه إليهم بسب أو طعن، بل يحبهم كلهم ويترضى عليهم ويبغض من يبغضهم. هذا هو منهج أهل السنة والجماعة فيهم. قال الإمام أبو جعفر الطحاوي رحمه الله: «ونحب أصحاب رسول الله ﷺ ولا نفرط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم. ونبغض من يبغضهم وبغير الحق يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيان»[٢] .

فمن سبهم أو انتقصهم فليس من أهل السنة بل هو مُبتدع ضال خبيث. وأما من كفرهم كلهم، إلا قليلاً منهم كفعل الرافضة قبحهم الله، فلا شك مسلم في كفره لأنه مكذب للقرآن الذي شهد لهم بالجنة ورضي الله عنهم ورضوا عنه، كما شهد لهم رسول الله ﷺ بالخيرية والصلاح في أحاديث كثيرة وأجمع على ذلك أهل السنة والجماعة.

حكم التفاضل بين الصحابة

وإذا علم هذا يجب أن يعتقد المسلم أن أفضل الصحابة هم الخلفاء الراشدون، أبو بكر وعمر ثم عثمان ثم علي ثم بقية العشرة المبشرين بالجنة، ثم أهل بدر ثم أهل بيعة الرضوان ثم بقية المهاجرين والأنصار ثم من أسلم من بيعة الرضوان فمن بعدهم كما هو مذهب أهل السنة والجماعة. وقد عُلم هذا الأمر من النصوص الشرعية الصحيحة من الكتاب والسنة وإجماع الأمة التي لا مجال للتفصيل فيها.

---

(١) تقدم تخريجه

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص٦٨٩/ ٢

قال الإمام النووي رحمه الله: «قال الإمام أبو عبدالله المازري: اختلف الناس في تفضيل بعض الصحابة على بعض، فقالت طائفة: لا نفاضل بل نمسك عن ذلك، وقال الجمهور بالتفضيل، ثم اختلفوا، فقال أهل السنة: أفضلهم أبو بكر الصديق، وقال الخطابية أفضلهم عمر بن الخطاب، وقالت الراوندية أفضلهم العباس، وقالت الشيعة: علي، واتفق أهل السنة على أن أفضلهم أبو بكر ثم عمر، قال جمهورهم، ثم عثمان، ثم علي، وقال بعض أهل السنة من أهل الكوفة بتقديم علي على عثمان والصحيح المشهور تقديم عثمان. قال أبو منصور البغدادي: أصحابنا مجمعون على أن أفضلهم الخلفاء الأربعة على الترتيب المذكور، ثم تمام العشرة، ثم أهل بدر، ثم أحد ثم بيعة الرضوان وممن له مزية أهل العقبتين من الأنصار، وكذلك السابقون الأولون وهم من صلى إلى القبلتين في قول ابن المسيب وطائفة، وفي قول الشعبي أهل بيعة الرضوان وفي قول عطاء ومحمد بن كعب أهل بدر. قال القاضي عياض: «وذهبت طائفة، منهم ابن عبدالبر إلى أن من توفي من الصحابة في حياة النبي ﷺ أفضل ممن بقي بعده وهذا الإطلاق غير مرضي ولا مقبول، واختلف العلماء في أن التفضيل المذكور قطعي أم لا وهل هو في الظاهر والباطن أم في الظاهر خاصة وممن قال بالقطع أبو الحسن الأشعري، قال: وهم في الفضل على ترتيبهم في الإمامة وممن قال بأنه اجتهادي ظني أبو بكر الباقلاني وذكر ابن الباقلاني اختلاف العلماء في أن التفضيل هل هو في الظاهر أم في الظاهر والباطن جميعاً، وكذلك اختلفوا في عائشة، وخديجة أيتهما أفضل وفي عائشة وفاطمة رضي الله عنهم أجمعين، وأما عثمان رضي الله عنه فخلافته صحيحة بالإجماع، وقتل مظلوماً وقتلته فسقة لأن موجبات القتل مضبوطة ولم يجر منه رضي الله عنه ما يقتضيه ولم يشارك في قتله أحد من الصحابة، وإنما قتله همج ورعاع من غوغاء القبائل وسفلة الأطراف والأرذال

حزبوا وقصدوه من مصر فعجزت الصحابة الحاضرون عن دفعهم فحصروه حتى قتلوه رضي الله عنه، وأما علي رضي الله عنه فخلافته صحيحة بالإجماع، وكان هو الخليفة في وقته لا خلافة لغيره، وأما معاوية رضي الله عنه فهو من العدول الفضلاء والصحابة النجباء رضي الله عنه»[1].

قلت: بل انعقد الإجماع على ذلك، قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: «أما تفضيل أبي بكر ثم عمر ثم عثمان وعلي فهذا متفق عليه بين علماء المسلمين المشهورين بالأمانة في العلم والدين من الصحابة والتابعين وتابعيهم»[2].

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «إن الإجماع انعقد بآخره بين أهل السنة أن ترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة»[3].

❊ ❊ ❊

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص١٢١/ ١٥

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام، ص٤٢١/ ٤

(٣) فتح الباري، ص٣٤/ ٧

المطلب الخامس

وجوب الصلاة والسلام على النبي ﷺ وفضيلتهما

١ ـ معنى الصلاة عليه وحكمها

الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ من أعظم حقوقه على أمته. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾(١)، ومعنى الصلاة عليه كما قال ابن عباس وغيره من السلف: «أن الله يرحم النبي والملائكة يدعون له»، وقال أبو العالية: «صلاة الله على النبي ﷺ ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء»، وقال سفيان الثوري وغيره: «صلاة الله الرحمة وصلاة الملائكة الاستغفار»، وقيل: «الصلاة من الله لمن دون النبي ﷺ رحمة وللنبي تشريف وزيادة تكريم»(٢).

وأما الصلاة من المؤمنين فهي عبادة مأمورون بها مثابون عليها، قال الحافظ ابن كثير مفسراً الآية السابقة: «والمقصود من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه ﷺ عنده في الملأ الأعلى بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه، ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعاً»(٣).

قال الإمام النووي رحمه الله قوله (أمرنا الله تعالى أن نصلي عليك يارسول الله

---

(١) سورة الأحزاب، الآية [٥٦]

(٢) تفسير البغوي، ص٥٤١ ـ ٥٤٢/ ١ وتفسير ابن كثير ٤٧٢/ ٣

(٣) تفسير ابن كثير، ص٤٧٢/ ٣

فكيف نصلي عليك» معناه أمرنا الله تعالىٰ بقوله تعالىٰ: (صلوا عليه وسلموا تسليماً) فكيف نلفظ بالصلاة، ومن هذا أن من أمر بشيء لا يفهم مراده يسأل عنه ليعلم ما يأتي به» قال القاضي: «ويحتمل أن يكون سؤالهم عن كيفية الصلاة في غير الصلاة، ويحتمل أن يكون في الصلاة، قال: وهو الأظهر، قلت: وهذا ظاهر اختيار مسلم، ولهذا ذكرنا هذا الحديث في هذا الموضع)[١].

وقال الإمام: (قال القاضي عياض: قوله ﷺ «من صلىٰ علي واحدة صلىٰ الله عليه عشراً» قال القاضي: معناه رحمته، وتضعيف أجره كقوله تعالىٰ (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها» وقال وقد يكون الصلاة علىٰ وجهها وظاهرها تشريفاً له بين الملائكة. كما في الحديث: «وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم»)[٢].

وقال الإمام في حكم الصلاة علىٰ النبي ﷺ: (يستحب لكاتب الحديث إذا مر بذكر الله عز وجل أن يكتب (عزّ وجل أو تعالىٰ أوسبحانه وتعالىٰ، أو تبارك وتعالىٰ، أو جلّ ذكره، أو تبارك اسمه، أو جلت عظمته، أوما أشبه ذلك) وكذلك يكتب عن ذكر النبي (ﷺ) بكمالها لا رامزاً إليهما، ولا مقتصراً علىٰ أحدهما. وكذلك يقول في الصحابي (رضي الله عنه) فإن كان صحابياً ابن صحابي قال (رضي الله عنهما) وكذلك بترضىٰ ويترحم علىٰ سائر العلماء الأخيار، ويكتب كل هذا وإن لم يكن مكتوبا في الأصل الذي ينقل منه، فإن هذا ليس رواية وإنما هو دعاء. وينبغي للقارئ أن يقرأ كل ما ذكرناه، وإن لم يكن مذكوراً في الأصل الذي يقرأ منه ولا يسأم من تكرر ذلك. ومن أغفل هذا حرم خيراً عظيماً وفوت فضلاً جسيماً»[٣].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٠٦/ ٤

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٠٩/ ٤

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص٤٢/ ١، وانظر كتاب الأذكار للنووي ص ١١٠ـ١١١.

قلت: لقد وردت أحاديث كثيرة ورد فيها الأمر بالصلاة عليه في أوقات كثيرة منها ما هو واجب وذلك كعقب سماع الآذان، وكالصلاة عليه في التشهد الأخير عليه مذهب جماعة من العلماء ومنهم أحمد والشافعي، وكذلك تجب الصلاة عليه على الخطيب يوم الجمعة على المنبر ولا تصح الخطبتان إلا بذلك لأنها عبادة إلى غير ذلك، ومنها ما هو مستحب كالصلاة عليه عند النداء وعند دخول المسجد والخروج منه، وغير ذلك[1].

كما وردت أحاديث كثيرة تذم تارك الصلاة على النبي ﷺ وتحذر من فعله وتبين ما عليه من معصية ومن ذلك:

١ - فقد قال ﷺ: «رغم أنف[2] أمرئ ذكرت عنده فلم يصلي عليّ»[3].

٢ - وقال ﷺ: «البخيل من ذكرت عنده فلم يصلي علي»[4].

٣ - وقال ﷺ: «أيما قوم جلسوا مجلساً ثم تفرقوا قبل أن يذكروا الله ويصلوا على النبي ﷺ كان عليهم من الله ترة[5] إن شاء عذبهم وإن شاء غفر الله لهم»[6] إلى غير ذلك من الأحاديث

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ص٤٧٢-٤٧٧/ ٣

(٢) أي لصق بالرغام وهو الرمل وهو كناية عن الذل والحقارة

(٣) رواه الترمذي في كتاب الدعوات باب قول رسول الله رغم أنف أمرئ ٥/ ٥١٤ برقم ٣٥٤٥ وحسنه الحاكم ١/ ٥٤٩

(٤) رواه الترمذي في كتاب الدعوات باب قول رسول الله رغم أنف أمريء ٥/ ٥١٤، برقم (٣٥٤٦) وقال حديث حسن صحيح.

(٥) الترة بكسر التاء وفتح الراء أي: نقص وحسرة وندامة. انظر المصباح المنير ص٢٤٨، والقاموس المحيط ص١٢٤٤

(٦) رواه أحمد ٢/ ٤٤٦، ٤٥٣، ٤٦٣، ٤٨١، ٤٨٤، والترمذي في كتاب الدعوات باب في القوم يجلسون ولا يذكرون الله ٥/ ٤٣٠ برقم: ٣٣٨٠، وقال هذا حديث حسن صحيح، والحاكم ١/ ٤٩٦ وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وهو صحيح كما قال الألباني في صحيح الجامع ص ١/ ٥٣١ برقم: ٢٧٣٨.

ب - حكم الصلاة على غير النبي ﷺ

اتفق العلماء على جواز الصلاة والسلام على الأنبياء عليهم السلام وعلى غيرهم إذا كانوا تبعاً لذلك، بمعنى إذا ذكروا معهم، وقد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما منع ذلك، لكن لا يصح عنه[1].

أما الصلاة على غير الأنبياء، فقد اختلف العلماء في ذلك، فذهب جماعة منهم إلى جواز ذلك، ولكن جمهور العلماء والمحققين، ومنهم الإمام النووي[2] قالوا لا يجوز إفراد غير الأنبياء بالصلاة، لأن هذا قد صار شعاراً للأنبياء، إذا ذكروا فلا يلحق بهم غيرهم فلا يقال مثلاً أبوبكر ﷺ ولا علي ﷺ وإن كان المعنى صحيحاً وهو عند الإمام مكروه كراهة تنزيه[3] وما احتج به الفريق الأول على جواز ذلك فالمراد بالصلاة الدعاء لهم ولا يجوز الصلاة على غير الأنبياء أيضاً، لأن ذلك قد صار شعار أهل البدع والأهواء من الرافضة والشيعة الذين يحضون هذا بأئمتهم فشاركوهم عند الذكر بالصلاة وساووهم بالأنبياء في ذلك، ومعلوم أن التشبه بأهل البدع منهي عنه شرعاً فتجب مخالفتهم. وأيضاً فإن السلف الصالح لم يكونوا يفردون أحداً من غير الأنبياء بالصلاة عليه، فيجب الاقتداء بهم في ذلك فقد كتب عمر بن عبدالعزيز رحمه الله إلى أحد عماله: «أما بعد فإن ناساً من الناس قد التمسوا الدنيا بعمل الآخرة، وإن ناساً من القصاص قد أحدثوا في الصلاة على خلفائهم وأمرائهم عدل الصلاة على

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ص٤٨١/ ٣

(٢) شرح صحيح مسلم ص١٠٨/ ٤

(٣) المصدر نفسه ص١٠٨/ ٤ وانظر تفسير ابن كثير ص٤٨١/ ٣، وانظر الأذكار للنووي ص ١١٠-١١١.

النبي ﷺ، فـإذا جـاءك كتـابي هذا فـمـرهـم أن تكـون صـلاتهـم عـلىٰ النبي ودعـاؤهـم للمسلمين عامة ويتركوا ما سوىٰ ذلك[1].



(١) انظر تفسير ابن كثير ص٤٨١/ ٣ وقد قال ابن كثير عن أثر عمر أنه حسن. وأيضًا شرح صحيح مسلم للنووي ص١٠٨/ ٤

المطلب السادس

من أسماء النبي ﷺ وألقابه

وردت أسماء وألقاب كثيرة لرسول الله ﷺ في الكتاب والسنة وفي كتب أهل العلم[1] وقد تكلم الإمام النووي رحمه الله على هذه الأسماء وشرحها عند شرحه حديث الرسول ﷺ قال: «أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي، الذي يُمحي بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على عقبي، وأنا العاقب»[2].

قال الإمام في تعليقه على هذا الحديث: «ذكر هنا هذه الأسماء وله ﷺ أسماء أخر ذكر أبو بكر بن العربي المالكي في كتابه الأحوذي في شرح الترمذي عن بعضهم أن لله تعالى ألف اسم ولنبيه ﷺ ألف اسم أيضاً ثم ذكر منها على التفصيل بضعاً وستين ثم قام بشرح هذه الأسماء فقال: يقال رجل محمد ومحمود إذا كثرت خصاله المحمودة، وقال ابن فارس وغيره وبه سمي نبينا ﷺ محمداً وأحمد أي ألهم الله تعالى أهله أن سموه به لما علم من جميل صفاته»[3].

وقال: «قوله ﷺ أنا الماحي الذي يمحى بي الكفر، قال العلماء المراد محو الكفر من مكة والمدينة وسائر بلاد العرب وما زوي له ﷺ من الأرض ووعد أن يبلغه ملك أمته. قالوا: ويحتمل أن المراد المحو العام بمعنى الظهور بالكلية والغلبة كما قال

---

(١) لقد ألفت كتب مستقلة في أسماء النبي ﷺ ومعانيها، انظر معجم ما ألف عن رسول الله ﷺ للدكتور صلاح المنجد ص٣٧ـ ٤٠.

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص٨٥/ ١٥ برقم ٢٣٥٤

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص٨٦/ ١٥

تعالى: ﴿ليُظهِرَهُ على الدِّينِ كُلِّه..﴾[1] وجاء في حديث آخر تفسير الماحي بأنه الذي محيت به سيئات من اتبعه فقد يكون المراد بمحو الكفر هذا ويكون كقوله تعالى: ﴿قُل للذين كفرُوا إن ينتهُوا يُغْفَرْ لهُم مَّا قَدْ سَلَفَ..﴾[2] والحديث الصحيح: «الإسلام يهدم ما كان قبله» ثم قال: قوله ﷺ: «وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على عقبي» وفي الرواية الثانية: «على قدمي» فأما الثانية فاتفقت النسخ على أنها على قدمي لكن ضبطوه بتخفيف الياء على الأفراد وتشديدها على التثنية، وأما الروايةالأولى فهي في معظم النسخ وفي بعضها قدمي كالثانية، قال العلماء معناهما يحشرون على أثري وزمان نبوتي ورسالتي وليس بعدي نبي وقيل يتبعوني».

ثم قال: قوله «والمقفى ونبي التوبة ونبي الرحمة» أما العاقب ففسره في الحديث بأنه ليس بعده نبي أي جاء عقبهم. قال بان الأعرابي: العاقب والعقوب الذي يخلف في الخير من كان قبله، ومن عقب الرجل لولده، وأما المقفى فقال شمر هو بمعنى العاقب وقال ابن الأعرابي هو المتبع للأنبياء، ويقال قفوته أقفوه وقفيته أقفيه إذا اتبعته وقافية كل شيء آخره، وأما نبي التوبة ونبي الرحمة ونبي المرحمة فمعناها متقارب ومقصودها أنه ﷺ جاء بالتوبة وبالتراحم قال الله تعالى (رحماء بينهم) (وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة)[3]. وفي حديث آخر نبي الملاحم لأنه ﷺ بعث بالقتال، قال العلماء إنما اقتصر على هذه الأسماء مع أن له ﷺ أسماء غيرها كما سبق لأنها موجودة في الكتب المتقدمة وموجودة للأمم السابقة»[4].

---

(١) سورة التوبة، الآية [٣٣]

(٢) سورة الأنفال، الآية [٣٨]

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص٨٥ـ٨٦/ ١٥.

(٤) المصدر السابق ص ٨٦/ ١٥.

ولاشك أن كثرة الأسماء والأوصاف تدل على عظمة المسمى بها وفضله وهل هناك أكرم وأفضل عند الله من نبينا محمد ﷺ.

*　　*　　*

المطلب السابع

من دلائــــــل نبوته ﷺ

اقتضت حكمته تعالىٰ أن لا يرسل رسله إلا بالدلائل والحجج والبراهين الدالة علىٰ صدقهم ورسالتهم، لكي تقوم الحجة علىٰ الناس ولا يبقىٰ لأحد في ذلك عذر. قال سبحانه: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ...﴾(١) أي بالمعجزات والحجج الباهرات والدلائل القاطعات التي تدل علىٰ صدقهم(٢) وآيات الرسل أو معجزاتهم مختلفة باختلاف أحوال أقوامهم، فقد يعطي الله أحدهم آية أو آيات بما لا يعطيها غيره، لأن المراد بتلك الآيات الدالالة علىٰ صدق النبوة التي جاء بها النبي أو الرسول، وهذه المعجزة خارقة للعادة خارجة عن قدرة البشرة(٣).

وقد تضافرت نصوص الكتاب والسنة الدالة علىٰ هذا الأمر وإنني في هذا المبحث سأقتصر علىٰ ذكر نماذج من معجزات النبي ﷺ لأن تقصي هذا الموضوع والإطالة فيه يحتاج لرسائل أو مجلدات، ولقد أشار الإمام النووي رحمه الله إلىٰ معظم هذه المعجزات وذلك عند شرحه للحديث الذي يتحدث عن تلك المعجزات منبهاً إلىٰ أن معجزات نبينا محمد ﷺ أظهر وأعظم من معجزات الرسل لوجهين هما:

---

(١) سورة الحديد، الآية [٢٥]

(٢) انظر في ذلك: تفسير البغوي ص ٢٩٩/ ٤، وتفسير ابن كثير ٢٨٣/ ٤، وفتح القدير ص ١٧٧/ ٥.

(٣) لقد أفردت كتب كثيرة جداً مستقلة بهذا الشأن جمعت معجزات النبي ﷺ ودلائل وأعلام نبوته بلغت ما يزيد علىٰ السبعين مؤلفًا، مثل دلائل النبوة للبيهقي، ودلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني وغير ذلك. انظر: أسماء تلك الكتب ومؤلفيها في معجم ما ألف عن رسول الله ﷺ ص ٧٥ - ٨٣.

١ ـ كثرة دلائل نبوته ﷺ:

قال الإمام (أو المصطفى بمعجزات أخر زائدات علي الألف والمائتين)[1].

٢ ـ لأن من معجزاته الباهرة القرآن الكريم، وهذه المعجزة قال عنها رحمه الله (المخصوص بالمعجزة الباهرة المستمرة على تكرر السنين، التي تحدي بها أفصح القرون وأفحم بها المنازعين، وظهر بها خزي من لم ينقاد لها من المعاندين، المحفوظة من أن يتطرق إليها تغيير الملحدين أعني بها القرآن الكريم كلام ربنا الذي نزل به الروح الأمين على قلبه ليكون من المنذرين بلسان عربي مبين)[2]. وإليك بعض هذه المعجزات، وابتدؤها بالمعجزة الخالدة القرآن الكريم.

أولا: القرآن الكريم المعجزة الخالدة للنبي ﷺ

قال الإمام في شرح حديث الرسول ﷺ عن أبي هريرة قال: «ما من نبي من الأنبياء إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحى الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة»[3].

وأما معاني الحديث فالحديث الأول اختلف فيه على أقوال:

أحدهما: أن كل نبي أعطي من المعجزات ما كان مثله لمن كان قبله من الأنبياء فآمن به البشر، وأما معجزتي العظيمةالظاهرة فهي القرآن الذي لم يعط أحد مثله، ولهذا قال أناأكثرهم تابعاً.

والثاني: معناه أن الذي أوتيته لا يتطرق إليه تخييل بسحر بخلاف معجزة غيره

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص١١/ ١ المقدمة.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص١١/ ١ المقدمة

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص١٦٠/ ٢ برقم: ٢٣٩ كتاب الإيمان

فإنه يخيل الساحر بشيء مما يقارب صورتها كما خيلت السحرة في صورة عصا موسى ﷺ والخيال قد يروح على بعض العوام والفرق بين المعجزة والسحر والتخييل يحتاج إلى فكر ونظر وقد يخطئ الناظر فيعتقدهما سواء.

والثالث: معناه أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم ولم يشاهدها إلا من حضرها بحضرتهم ومعجزة نبينا ﷺ القرآن المستمر إلى يوم القيامة مع خرق العادة في أسلوبه وبلاغته، وإخباره بالمغيبات وعجز الجن والإنس عن أن يأتوا بسورة من مثله مجتمعين أو متفرقين في جميع الأعصار، مع اعتنائهم بمعارضته فلم يقدروا وهم أفصح القرون مع غير ذلك من وجوه اعجازه المعروفه والله أعلم[1].

قلت: وهذه الأقوال تصب كلها وتلتقي في مصب واحد وهو أن معجزة القرآن هي أعظم معجزة من كل النواحي، ولقد لخصت فيما سبق بعض وجوه إعجاز القرآن الكريم التي تعرض لها الإمام.

ثانياً: انشقاق القمر

من المعجزات الباهرة والدلائل العظيمة على نبوة سيدنا محمد ﷺ انشقاق القمر. قال تعالى: ﴿**اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ**﴾[2].

وقد تكلم الإمام في شرحه على هذه المعجزة فقال رحمه الله: «قال القاضي انشقاق القمر من أمهات معجزات نبينا ﷺ وقد رواها من الصحابة رضي الله عنهم مع ظاهر الآية الكريمة وسياقها، قال الزجاج وقد أنكرها بعض المبتدعة المضاهين المخالفين للملة وذلك لماأعمى الله قلبه ولا إنكار للعقل فيها لأن القمر مخلوق لله

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص١٦١ـ١٦٢/ ٢

(٢) سورة القمر، الآية [١ـ٢]

تعالى يفعل فيه ما يشاء كما يفنيه ويكوره في آخر أمره. وأما قول بعض الملاحدة لو وقع هذا لنقل متواتر واشترك أهل الأرض كلهم في معرفته ولم يختص بها أهل مكة فأجاب العلماء بأن هذا الانشقاق حصل في الليل ومعظم الناس نيام غافلون والأبواب مغلقة وهم متغطون بثيابهم فقل من يتفكر في السماء أو ينظر إليها إلا الشاذ النادر وها هو مشاهد معتاد أن كسوف القمر وغيره من العجائب والأنوار والطوالع والشهب العظام وغير ذلك مما يحدث في السماء في الليل يقع ولا يتحدث بها إلا الآحاد ولا علم عند غيرهم لما ذكرناه، وكان هذا الانشقاق آية حصلت في الليل لقوم سألوها واقترحوا رؤيتها فلم يتنبه غيرهم لها، قالوا وقد يكون القمر كان حينئذ في بعض المجاري والمنازل التي تظهر لبعض الآفاق دون بعض كما يكون ظاهراً لقوم غائباً عن قوم كما يجد الكسوف أهل بلد دون بلد والله أعلم)[1].

قلت: أجل والله لا يلتفت إلى من أنكر هذه المعجزة بعد ثبوتها بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين عليها، فإن من فعل ذلك فيه شبه بالكافرين الذين رأوها بأم أعينهم فكذبوا بها وقالوا سحر مستمر، ومن لم يقنع بالكتاب والسنة والإجماع فلن يقتنع بشيء آخر. وحسبه أنه في ضلال مبين.

ثالثاً: الإسراء والمعراج

من معجزاته ﷺ العظيمة الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، والمعراج منه إلى السموات العلى كما أخبر الله عن ذلك في كتابه الكريم، قال سبحانه: **﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾**[2]، وقال تعالى أيضاً عن معراجه ﷺ

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص١١٩/١٧

(٢) سورة الإسراء آية [١].

إلىٰ السموات وما رأي فيها: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ (٢) وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ (٤) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ (٧) ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ (٩) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ (١٠) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ (١١) أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ (١٢) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ (١٥) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾(١).

وقد بين الإمام النووي رحمه الله أن هذه المعجزة وقعت لرسول الله ﷺ في مكة قبل الهجرة، وأنه أسري به بروحه وجسده يقظة لا مناماً، فقد قال في بداية شرحه لأحاديث باب الإسراء برسول الله، فقد قال: «هذا باب طويل وأنا أذكر إن شاء الله تعالىٰ مقاصده مختصرة من الألفاظ والمعاني علىٰ ترتيبها، وقد لخص القاضي عياض رحمه الله في الإسراء جملاً نفيسة فقال: «اختلف الناس في الإسراء برسول الله ﷺ فقيل: إنما كان جميع ذلك في المنام، والحق الذي عليه أكثر الناس ومعظم وعامة المتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين أنه أسرىٰ بجسده ﷺ والأثار تدل عليه لمن طالعها وبحث عنها ولا يعدل عن ظاهرها إلا بدليل ولا استحالة في حمله عليه فيحتاج إلىٰ تأويل، وقد جاء في رواية شريك في هذا الحديث في الكتاب أوهام أنكرها عليه العلماء وقد نبه مسلم علىٰ ذلك بقوله فقدم وأخر وزاد ونقص منها قوله قبل أن يوحىٰ إليه وهو غلط لم يوافق عليه فإن الإسراء أقل ما قيل فيه أنه كان بعد بعثه ﷺ بخمسة عشر شهراً، وقال الحربي كان ليلة سبع وعشرين من شهر ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة، وقال الزهري كان ذلك بعد مبعثه ﷺ بخمس سنين وقال ابن إسحاق أسري به ﷺ وقد فشا الإسلام بمكة والقبائل، وأشبه هذه الأقوال قول الزهري وابن

---

(١) سورة النجم، الآيات [١ـ١٨]

إسحاق إذا لم يختلفوا أن خديجة رضي الله عنها صلت معه بعد فرض الصلاة عليه، ولا خلاف أنها توفيت قبل الهجرة بمدة قيل بثلاث سنين وقيل بخمس، ومنها أن العلماء مجمعون على أن فرض الصلاة كان ليلة الإسراء فكيف يكون هذا قبل أن يوحى إليه»[1].

وقال: «وأما قوله في رواية شريك وهو نائم، في الرواية الآخرى بينا أن عند البيت بين النائم واليقظة فقد يحتج به من يجعلها رؤية نوم لا حجة فيه، إذ قد يكون ذلك حالة أول وصول الملك إليه، وليس في الحديث ما يدل على كونه نائماً في القصة كلها هذا كلام القاضي رحمه الله»[2].

قلت ما ذكره الإمام النووي فيما نقله عن القاضي عياض رحمهما الله هو الصحيح الذي عليه جماهير السلف والخلف من المحدثين والفقهاء وغيرهم، وقد بلغت هذه المعجزة حد التواتر وأجمع عليها المسلمون[3].

رابعا: نبوع الماء من بين أصابعه ﷺ حتى توضأ به بشر كثير

من دلائل نبوته ﷺ ما ثبت في الصحيح عن جابر بن عبدالله[4] رضي الله عنه قال: «رأيتني مع النبي ﷺ وقد حضرت العصر وليس معنا ماء غير فضلة، فجعل في

---

(١) شرح مسلم للنووي ص١٨٠، ١٨١/ ٢

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٨٢/ ٢

(٣) انظر للتدليل على ذلك على سبيل المقال تفسير الطبري من ١٧، ١٦/ ١٥ والشريعة من ٤٩٠ ـ ٤٩١، وتفسير ابن كثير ٢٣، ٢٤/ ٥ وفتح الباري ٤٥٩/ ١، ١٩٧/ ٧ وزاد المعاد ص ٤٠ ـ٤٢/ ٣ وشرح الطحاوية ص١٧١/ ١ وفتح القدير ٢٠٧/ ٣ وغيرها.

(٤) هو الصحابي الجليل أبو عبدالله، على الصحيح، جابر بن عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصاري السلمي، هو وأبوه صحابيان، شهد العقبة الثانية وتسع عشرة عزوة مع النبي ص ولم يحضر بدراً ولا أحداً منعه أبوه، كان من المكثرين للرواية عن النبي ﷺ، شهد صفين مع علي بن أبي طالب، =

إناء فأتى النبي ﷺ به فأدخل يده فيه وفرّج أصابعه ثم قال حيّا على أهل الوضوء البركة من الله، فلقد رأيت الماء يتفجر من بين أصابعه، فتوضأ الناس وشربوا، فجعلت لا آلو ما جعلت في بطني منه، فعلمت أنه بركة، فقيل لجابر كم كنتم يومئذ؟ قال ألف وأربعمائة»[1].

وفي الصحيحين عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ دعا بماء فأتي بقدح رحراح[2] فجعل القوم يتوضأون وفي لفظ لهما فرأيت الماء ينبع من تحت أصابعه ﷺ وفي لفظ لهما فتوضأ الناس وشربوا وفي لفظ البخاري فشربنا وتوضأنا، فقيل كم كنتم؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمسة عشر ومائة وفي رواية مسلم كنا زهاء الثلاثمائة[3]، وللحديث طرق وألفاظ في الصحيحين وغيرهما، وحاصلها أنهم شربوا وتوضأوا من الماء من بين أصابع رسول الله ﷺ وهم عدد كبير.

قال الإمام: «وما أكثر نظائره التي يزيد مجموعها على شرط التواتر ويحصل العلم القطعي وقد جمعها العلماء وصنفوا فيها كتباً مشهورة والله أعلم»[4] وقال: «وأما تكثير الماء فقد صح من رواية أنس وابن مسعود وجابر وعمران بن الحصين»[5].

=كف بصره في آخر عمره ومات بالمدينة سنة (٧٤هـ) وقيل (٧٧هـ) وقيل غير ذلك. انظر الاستيعاب ١/ ٢٢٢، وأسد الغابة ١/ ٢٥٧، والإصابة ١/ ٢١٤.

(١) رواه البخاري في كتاب الأشربة باب شرب البركة والماء المبارك ص١٠٤/ ١٠ برقم: ٥٦٣٩.

(٢) قال ابن الأثير الرحراح هو القريب القعر مع سعة فيه، النهاية ص٢٠٨/ ٤

(٣) رواه البخاري في عدة مواضع من صحيحه بألفا ظ مختلفة، انظر كتاب الوضوء باب التماس الوضوء إذا حانت الصلاة ١/ ٣٢٥ برقم: ١٦٩، وفي كتاب المناقب باب علامات النبوة ٦/ ٦٧١ برقم: ٣٥٧٢، ٣٥٧٦، ومسلم في كتاب الفضائل باب من معجزات النبي ﷺ ص٣١/ ١٥ برقم ٢٢٧٩

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٩٩/ ١١

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي ص٣١/ ١٥

خامساً: تكثيره الطعام

وردت أحاديث كثيرة مستفيضة في هذا المعنى ذكر االإمام النووي عدداً منها ثم قال: «وكذا تكثير الطعام، وجد منه ﷺ في مواطن مختلفة وعلى أحوال كثيرة، وصفات متنوعة»[1] وقال: «قوله في هذه الأحاديث في نبع الماء من بين أصابعه وتكثيره الطعام هذه كلها معجزات ظاهرات وجدت من رسول الله ﷺ في مواطن مختلفة على أحوال متغايرة وبلغ مجموعها التواتر»[2].

وسأقتصر على حديث جابر خشية الإطالة، فقد قال رضي الله عنه: «إن أم مالك كانت تُهدي للنبي ﷺ في عكة لها سمناً، فيأتيها بنوها فيسألون الأدم وليس عندهم شيء فتعمد إلى الذي كانت تهدي فيه للنبي ﷺ فتجد فيه سمناً فمازال يقيم لها أدم بينها حتى عصرته، فأتت النبي ﷺ فقال لها عصرتيها؟ قالت: نعم، قال (لو تركتيها مازال قائماً»[3] قال الإمام: «قوله ﷺ لو تركتيها مازال قائماً» أي موجوداً حاضراً»[4].

سادساً: حنين الجذع إلى رسول الله ﷺ لمفارقته إياه ومشي إحدى الشجرتين إلى الأخرى حين دعاهما النبي ﷺ

ومن معجزاته ﷺ أيضاً حنين جذع النخل إليه، قال جابر رضي الله عنه: «كان

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص٣١/ ١٥

(٢) المصدر نفسه ص٣١/ ١٥

(٣) رواه مسلم بشرح النووي ص٣٣/ ١٥

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص٣٣/ ١٥ وانظر ص١٦٢/ ٥، وص١٤٧، ١٥٦/ ١٢، وص٥، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٦/ ٣، وص١٥/ ١٤.

المسجد مسقوفاً على جذوع نخل فكان النبي ﷺ إذا خطب يقوم على جذر منها، فلما صنع المنبر وكان عليه فسمعنا لذلك الجذع أصواتاً كصوت العشار[1]، حتى جاء النبي ﷺ فوضع يده عليها فسكتت» وفي رواية قال جابر: «فلما كان يوم الجمعة رفع الجذر إلى المنبر فصاح صياح الصبي فنزل النبي ﷺ فضمه إليه يئن أنين الصبي، قال: كانت الجذع تبكي على ماكانت تسمع من الذكر عندها»[2].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: «ولهذا كان الحسن البصري رحمه الله إذا حدث بهذا الحديث يقول: يامعشر المسلمين الخشبة تحن إلى رسول الله ﷺ شوقاً إلى لقائه فأنتم أحق أن تشتاقوا إليه»[3].

ولقد قرر الإمام النووي رحمه الله هذه المعجزة عند تقرير معجزة أخرى لنبي من الأنبياء وهو موسى عليه السلام ومعجزته التي مشى فيها الحجر بثوبه إلى ملأ من بني إسرائيل فقال الإمام رحمه الله «وفي هذا الحديث[4] فوائد منها أن فيه معجزتين ظاهرتين لموسى عليه السلام إحداهما: مشي الحجر بثوبه إلى ملأ بني إسرائيل.

والثانية: حصول الندب في الحجر، ومنها وجود التمييز في الجماد كالحجر ونحوه ومثله تسليم الحجر بمكة وحنين الجذع ونظائره وسبق قريباً بيان هذه المسألة مبسوطة»[5].

---

(١) بكسر العين وفتحها جمع عشراء وهي الناقة التي أتى عليها من رفث الحمل عشرة أشهر.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة باب الخطبة على المنبر، ص٤٦١/ ٢ برقم ٩١٨

(٣) فتح الباري ص ٦٩٧/ ٦

(٤) مراده الحديث الذي أخرجه مسلم بشرح النووي ص١٠٣/ ١٥ برقم ٣٣٩ في باب فضائل موسى عليه السلام.

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٠٤/ ١٥

وأما مشي إحدىٰ الشجرتين للأخرىٰ حين دعاهما النبي ﷺ فهي معجزة ثابتة له ﷺ وذلك في حديث جابر بن عبدالله رضي الله عنه الطويل قال: «ذهب رسول الله ﷺ يقضي حاجته فلم ير شيئاً يستتر به، فإذا بشجرتين بشاطئ الوادي فانطلق رسول الله ﷺ إلىٰ إحداهما فأخذ بغصن من أغصانها، فقال: إنقادي عليّ بإذن الله، فانقادت كالبعير المخشوش[1] الذي يصانع قائده، وذكر أنه فعل بالأخرىٰ مثل ذلك حتىٰ إذا كان بالمنصف بينهما قال: التئما عليّ بإذن الله، فالتأمتا» وفي رواية خرىٰ، قال: «ياجابر قل لهذه الشجرة يقول لك رسول الله إلحقي بصاحبتك حتىٰ أجلس خلفكما» فزحفت حتىٰ لحقت بصاحبتها، فجلس خلفها فخرجت أحضر[2] مخافة أن يحس رسول الله ﷺ بقربي فأبتعد، وجلست أحدث نفسي، فالتفت فإذا رسول الله مقبلاً والشجرتان قد افترقتا، فقامت كل واحدة منهما علىٰ ساق، فوقف رسول الله ﷺ وقفة، فقال برأسه هكذا يميناً وشمالاً»[3].

قال الإمام: «قوله: فانقادت معه كالبعير الخشوش . . ومن هذه المعجزات الظاهرات لرسول الله ﷺ»[4].

---

(١) هو الذي يجعل في أنفه خشاش بكسر الخاء، وهو عود يجعل في أنف البعير إذا كان صعباً ويشد فيه حبل ليذل وينقاد، وقد يتمانع لصعوبته فإذا اشتد عليه وآلمه انقاد شيئاً. شرح صحيح مسلم ١٨/ ١٤٣

(٢) بضم الهمزة وإسكان الحاء وكسر الضاد أي أعدوا وأسعىٰ سعياً شديداً، شرح صحيح مسلم ص١١٢/ ١٨

(٣) أخرجه مسلم شرح النووي، ص١١٢/ ١٨ برقم ٣٠١٢

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي، ص١١٢/ ١٨

سابعا: تسليم الحجر عليه ﷺ ورجف الجبل تحته وسكونه لما ضربه برجله، وإخبار الذراع للرسول ﷺ بأنها مسمومة

ومن معجزاته ﷺ أيضاً تسليم الحجر عليه كما ثبت ذلك في صحيح مسلم قال ﷺ: «إن لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ إن لأعرفه الآن»[1] بل كان ﷺ بعد البعثة كما قالت عائشة وجابر رضي الله عنهما لا يمر بشجر ولا حجر إلا قال له السلام عليك يارسول الله[2].

قال النووي في تعليقه على الحديث الأول: «فيه معجزة له ﷺ وفيه إثبات التمييز في بعض الجمادات وهو موافق لقوله تعالى في الحجارة: (وإن منها لما يهبط من خشية الله) وقوله تعالى: (وإن من شيء إلا يسبح بحمده) وفي هذه الآية خلاف مشهور والصحيح أنه يسبح حقيقة ويجعل الله تعالى فيه تمييزاً بحبه كما ذكرنا. ومنه الحجر الذي فر بثوب موسى ﷺ وكلام الذراع المسمومة ومشي إحدى الشجرتين إلى الأخرى حين دعاهما النبي ﷺ»[3].

ثامناً: الإخبار بالمغيبات الماضية والمستقبلية

ومن دلائل نبوته ﷺ إخباره بالمغيبات الماضية والمستقبلية ومن ذلك ماجاء في حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «أتيت بمفاتيح خزائن الأرض»[4]. قال الإمام: «هذا من أعلام النبوة، فإنه إخبار بفتح هذه البلاد لأمته ووقع كماأخبر ﷺ

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي ص٢٩/ ١٥ برقم ٢٢٧٧

(٢) أخرجه أبو داوود الطيالسي في مسنده برقم ١٥٣٩، والبزار في مسنده برقم ٢٣٧٣

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص٣٠/ ١٥

(٤) أخرجه مسلم بشرح النووي ص٦/ ٢ برقم ٦١

ولله الحمد والمنة»[1].

وفي قوله ﷺ: «سيكون بعدى أمراء يمنون الصلاة»[2] قال الإمام: «فيه دليل من دلائل النبوة، وقد وقع هذا في زمن بين أمية»[3]. وأيضاً في قوله ﷺ لأبي قتادة: «احفظ علينا ميضاتك فسيكون لها نبأ»[4].

قال الإمام في تعليقه على ذلك: قوله ﷺ «فسيكون لها نبأ» هذا من معجزات النبوة[5]. وقوله ﷺ في الفرقة التي ستخرج في هذه الأمة: «سيخرجون على حين فرقة من الناس»[6].

قال الإمام: «وفي هذا الحديث معجزات ظاهرة لرسول الله ﷺ فإنه أخبر بهذا أو جرى كله كفلق الصبح ويتضمن بقاء الأمة بعده ﷺ وأن لهم شوكة وقوة خلاف ما كان المبطلون يشيعونه وأنهم يفترقون فرقتين وأنه يخرج عليه طائفة مارقة وأنهم يشددون في الدين في غير موضع التشديد ويبالغون في الصلاة والقراءة ولا يقومون بحقوق الإسلام بل يمرقون منه وأنهم يقاتلون أهل الحق، وأن أهل الحق يقتلونهم وأن فيهم رجلاً صفة يده كذا وكذا فهذه أنواع من المعجزات جرت كلها ولله الحمد)[7].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص٥/٦

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي ص١٢٦/ ٥ برقم ٢٣٩

(٣) شرح صحيح مسلم بشرح النووي ص١٢٦/ ٥

(٤) أخرجه مسلم بشرح النووي ص١٥٨/ ٥ برقم ٦٨١

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٥٨/ ٥ وانظر ص١٦٣/ ٥

(٦) أخرجه مسلم بشرح النووي ص١٤٥ـ١٤٦/ ٧ برقم ١٤٨

(٧) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٤٧/ ٧ . وانظر ص٩٩، ٠٧، ١٠٩، ١١٢، ١١٧، ١١٩، ١٥٦، ١٧٢، ١٩٤، ١٩٩/ ١٢ . وص٥١، ٨٥/ ١٣، وص٩٢/ ١٤، وص٢٧، ٣٤، ٤٨،

تاسعا: إجابة الدعوة

ومن دلائل نبوته عليه أفضل الصلاة والتسليم إجابة دعوته ومن ذلك ما جاء في حديث الاستسقاء عن أنس بن مالك أن رجلاً دخل المسجد يوم جمعة من باب كان نحو دار القضاء[1] ورسول الله ﷺ قائم يخطب فاستقبل رسول الله ﷺ قائماً، ثم قال: يارسول الله! هلكت الأموال[2] وانقطعت السبل، فادع الله يغثنا، قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه، ثم قال: اللهم أغثنا اللهم أغثنا اللهم أغثنا» قال أنس ولا والله ما نرى في السماء من سحاب ولا قزعة[3] وما بيننا وبين سلع[4] من بيت ولا دار قال فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت. قال: فلا والله! ما رأينا الشمس سبتاً[5] قال ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة المقبلة ورسول الله ﷺ يخطب فاستقبله قائماً، فقال: يارسول الله، هلك الأموال وانقطعت السبل، فادع الله يمسكها عنا. قال: فرفع رسول الله ﷺ يديه ثم قال: «اللهم حوالينا ولا علينا. الله على الأكام والظراب[6] وبطون الأودية، ومغابن

١٣٩، ١٥/١٥٤، وص ٥، ٧، ٥٧، ٦٩، ٧٢، ٧٣، ٧٩، ١١٩، ١٧٩، ١٦/١٨٠، وص ١٢٩، ١٧/١٥٧، وص١، ١١، ٢١، ٣١، ٣٣، ١٨/٣٤.

(١) من باب كان نحو دار القضاء، أي في جهتها وهي دار كانت لسيدنا عمر سميت دار القضاء لكونها بيعت بعد وفاته في قضاء دينه. انظر شرح صحيح مسلم للنووي ص ٦/١٦٩.

(٢) هلكت الأموال، المراد بالأموال هنا المواشي، خصوصاً الإبل وهلاكها من قلة الأقوات، بسبب عدم المطر والنبات

(٣) ولا قزعة: هي القطعة من السحاب، وجماعتها قزع، كقصبة وقصب. شرح صحيح مسلم للنووي ص٦/١٦٩

(٤) سلع: هو جبل بقرب المدينة، شرح صحيح مسلم للنووي ٦/١٦٩

(٥) سبتاً أي قطعه من الزان، وأصل السبت القطع انظر شرح صحيح مسلم للنووي ص٦/١٧٠

(٦) الظراب: واحدها ظرب وهي الروابي الصغار، انظر المصدر السابق ص ٦/١٧٠.

الشجرة فانقلعت. وخرج فمشىٰ في الشمس)[1].

قال الإمام رحمه الله في تعليقه علىٰ هذا الحديث: «ومراده بهذا الإخبار عن معجزة رسول الله ﷺ وعظيم كرامته علىٰ ربه سبحانه وتعالىٰ بإنزال المطر سبعة أيام متوالية متصلاً بسؤاله من غير تقديم سحاب ولا قزع ولا سبب آخر لا ظاهر ولا باطن. وهذا معنىٰ قوله: «مابيننا وبين سلع من بيت ولا دار، أي نحن مشاهدون له والسماء وليس هناك سبب للمطر أصلاً[2].

وقال: في هذا الفصل فوائد منها المعجزة الظاهرة لرسول الله ﷺ في إجابة دعائه متصلاً به حتىٰ خرجوا في الشمس)[3] ومن ذلك أيضاً دعائه لأبي هريرة رضي الله عنه فقال ﷺ: اللهم إهد أم أبي هريرة» فقام أبو هريرة، فخرجت مستبشراً بدعوة نبي الله ﷺ فلما جئت مضرب إلىٰ الباب، فإذا هو مُجاف. فسمعت أمي خشف قدمي، فقالت: مكانك ياأبا هريرة! وسمعت خفخفة الماء قال فاغتسلت ولبست درعها وعجلت عن خمارها ففتحت الباب. ثم قالت: ياأبا هريرة أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله قال فرجعت إلىٰ رسول الله ﷺ فأتيته وأنا أبكي من الفرح، قال: قلت يارسول الله أبشر قد استجاب الله دعوتك وهدىٰ أم أبي هريرة، فحمد الله وأثنىٰ عليه وقال خيراً»[4].

قال الإمام: «وفيه استجابة دعاء رسول الله ﷺ علىٰ الفور بعين المسؤول وهو من أعلام نبوته»[5].

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي ص١٦٩ ـ ١٧٠/ ٧ برقم ٨٩٧.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٦٩، ١٧٠/ ٦

(٣) المصدر نفسه ص١٧٠/ ٦

(٤) أخرجه مسلم بشرح النووي ص٤٤/ ١٦ برقم ٢٤٩١

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي ص٤٤/ ١٦

المبحث الرابع

معجزات الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم

تقدم ذكر قوله ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر . . . »الحديث[١]

وهذا الحديث قال في شرحه الإمام: «من الآيات، أي من المعجزات»[٢]، وقد فسر الإمام الآيات في هذا الحديث بالمعجزات، وفي ذلك نظر، لأن الآيات أعم من المعجزات، فهي مرادفة للعلامات، وقد بوب الإمام البخاري في صحيحه «باب علامات النبوة في الإسلام»[٣] وذكر الحافظ ابن حجر في شرح هذا الباب أن العلامات أعم من المعجزة والكرامة، وأن المعجزة أخص[٤] وإلى هذا أشار الإمام في شرحه قول هرقل: «إن يكن ما يقول حقاً إنه نبي» قال: (قال العلماء: هذا الذي قاله هرقل أخذه من الكتب القديمة ففي التوراة أو نحوه من علامات رسول الله ﷺ فعرفه بالعلامات وأما الدليل القاطع على النبوة فهو المعجزة الظاهرة الخارقة للعادة، فهكذا قاله المازري والله أعلم)[٥]

قلت: إن الأدلة على صدق النبوة والرسالة كثيرة، ولقد تنوعت الدلائل حيث

---

(١) سبق تخريجه

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٦١/ ٢

(٣) صحيح البخاري مع الفتح ص٥٨٠/ ٦، كتاب المناقب رقم الباب ٢٥.

(٤) انظر فتح الباري ص٥٨١/ ٦

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي ص٩١/ ١٢

أرجعها بعض أهل العلم إلىٰ خمسة أمور :

الأول : الآيات والمعجزات التي يجريها الله تصديقاً لرسله .

الثاني : بشارة الأنبياء السابقين بالأنبياء اللاحقين .

الثالث : النظر في أحوال الأنبياء

الرابع : النظر في دعوة الرسل .

الخامس : نصر الله وتأييده لهم[1] .

* * *

---

(١) انظر الرسل والرسالات لسليمان الأشقر ص١٢٠

المطلب الأول

تعريف المعجزة وطبيعة معجزات الأنبياء

أ - تعريف المعجزة:

يرىٰ الإمام أن المعجزة هي أمر خارق للعادة لكن «النبي يتحدىٰ بها الخلق ويستعجزهم عن مثلها ويخبر عن الله تعالىٰ بخرق العادة بها لتصديقه فلو كان كاذباً لم تنخرق العادة علىٰ يديه ولو خرقها الله علىٰ يد كاذب لخرقها علىٰ يد المعارضين للأنبياء»[١]

وخلاصة ما سبق أن الإمام يخصص اسم المعجزة بما وقع فيه التحدي من علامات النبوة فيكون خاصاً للنبي، وعلىٰ ذلك فإن الأمور التالية لا تدخل في إسم المعجزة

١ ـ الخوارق التي تعطىٰ للأنبياء وليس مقصوداً بها التحدي، كنبع الماء من بين أصابع الرسول ﷺ، وتكثيره الطعام القليل، وتسبيح الحصىٰ في كفه، وإتيان الشجر إليه، وحنين الجذع إليه، وما أشبه ذلك.

٢ ـ الخوارق التي أعطاها الله لغير الأنبياء ويسميها المتأخرون كرامات.

قلت هذا الذي ذهب إليه الإمام هو مذهب العلماء المتأخرين، وإلا فاسم المعجزة يعم كل خارق للعادة في اللغة وفي عرف الأئمة المتقدمين، كالإمام أحمد وغيره، ويسمونها: الآيات، كما بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية[٢] فاسم (الآية) هو اسم شامل لكل ما أعطاه الله لأنبيائه للدلالة علىٰ صدقهم سواء أقصد به التحدي أم لم يقصد كما جاء بذلك في القرآن الكريم(٣).

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٤٦/ ١٤

(٢) انظر مجموع الفتاوىٰ ابن تيمية ص٣١١/ ١١

(٣) انظر الرسل والرسالات، لسليمان الأشقر ص١٢٢

ب- طبيعة معجزات الأنبياء:

شاء الله تعالىٰ أن تكون معجزة محمد ﷺ نمطاً مخالفاً لمعجزات الرسل وإلىٰ هذا أشار الإمام فقال: «إن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم ولم يشاهدها إلا من حضرها بحضرتهم ومعجزة نبينا ﷺ القرآن المستمر إلىٰ يوم القيامة مع خرق العادة في أسلوبه وبلاغته، وإخباره بالغيبيات وعجز الجن والإنس عن أن يأتوا بسورة من مثله مجتمعين ومتفرقين في جميع الأعصار، مع اعتنائهم بمعارضته فلم يقدروا وهم أفصح القرون مع غير ذلك من وجوه إعجازه المعروفة والله أعلم»[1].

كما ذكر رحمه الله أن القرآن لا يتطرق إليه تخييل بسحر وشبهة بخلاف معجزة غيره من الأنبياء قد يخيل الساحر بشيء مما يقارب صورتها كما خيلت السحرة في صورة عصا موسىٰ ﷺ[2].

ولعلنا إذا استقرأنا الآيات والمعجزات التي أعطاها الله لرسله وأنبيائه نجدها تندرج تحت ثلاثة أمور: العلم، والقدرة والغنىٰ، والله أعلم[3].



(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٦٢/ ٢

(٢) صحيح مسلم للنووي ص١٦١ ـ ١٦٢/ ٢

(٣) مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام، ص٣١٢ ـ ٣١٣/ ١١ . وأيضًا الرسل والرسالات لسليمان الأشقر ١٢٣ ـ ١٢٤

المطلب الثاني

كرامـــات الأولياء[1]

مناسبة الكلام على كرامات الأولياء في مبحث آيات الأنبياء هي: أن وقوع كرامات الأولياء هو في الحقيقة معجزة للأنبياء، لأن تلك الكرامات لم تحصل لهم إلا ببركة متابعتهم لأنبيائهم، وسيرهم على هديهم[2].

ومن أصول أهل السنة التصديق بكرامات الأولياء، وما يُجري الله على أيديهم من خوارق العادات في أنواع العلم والمكاشفات وأنواع القدرة والتأثيرات[3]. وقد أثبت الإمام النووي كرامات الأولياء في مواضع عديدة في كتابه «شرح صحيح مسلم» وتعرض في أحد هذه المواضع لبيان مذاهب العلماء في ذلك، مع الإشارة إلى أمر مهم في هذا الباب، وهو أن الإمام كان من أصحاب الكرامات كما أشار إلى ذلك بعض مترجميه[4] وكان ذلك بسبب صدق إيمانه وصفاء سريرته وورعه الشديد وخوفه من الله.

أ ـ مذاهب الناس في كرامات الأولياء

ذكر الإمام مذاهب الناس في الكرامات فقال: (إن إثبات كرامات الأولياء هو مذهب أهل السنة خلافاً للمعتزلة. وأن كرامات الأولياء قد تقع باختيارهم وطلبهم وهذا هو الصحيح عن أصحابنا المتكلمين ومنهم من قال لا تقع باختيارهم وطلبهم.

---

(١) عرف بعض العلماء الكرامة بأنها: «أمر خارق للعادة يظهره الله على يد ولي من أوليائه تكريماً له، أو نصرة لدين الله، انظر: تعليقات على العقيدة الواسطية للشيخ ابن عثيمين، ص٧١. وأيضًا: لوامع الأنوار للسفاريني، ص٣٩٢/ ١٢.

(٢) شرح العقيدة الواسطية للهراس، ص٢٥٣ ـ ٢٥٤

(٣) العقيدة الواسطية ضمن مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية، ص١٥٦/ ٣

(٤) انظر كتب ترجمته التي سبقت.

وإن الكرامات قد تكون بخوارق العادات على جميع أنواعها، ونبه بعضهم، وادعى أنها تختص بمثل إجابة دعاء ونحوه وهذاغلط من قائله، وإنكار للحس بل للصواب جريانها بقلب الأعيان وإحضار الشيء من العدم ونحو)[١].

قلت: الصواب في هذه المسألة هو إثبات الكرامات مطلقاً، لكنها لا تصل إلى حد معجزات الأنبياء التي تحدوا بها أممهم، ودلت على صدق نبوتهم قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأما آيات الأنبياء التي بها تثبت نبوتهم وبها وجب على الناس الإيمان بهم، فهي أمر يخص الأنبياء، لا يكون للأولياء ولا لغيرهم، بل يكون من المعجزات الخارقة للعادات الناقضة لعادات جميع الإنس والجن غير الأنبياء»[٢].

ب- الفارق بين الكرامة وبين ما يظهر على يد بعض الناس من الخوارق

قال الإمام في الفرق بين الولي والساحر: «أحدهما وهو المشهور بإجماع المسلمين على أن السحر لا يظهر إلا على فاسق والكرامة لا تظهر على فاسق وإنما تظهر على ولي، وبهذا جزم إمام الحرمين وأبو سعد المتولي وغيرهما.

والثاني: أن السحر قد يكون ناشئاً بفعلها وبمزجها ومعاناة وعلاج، والكرامة لا تفتقر إلى ذلك كثير من الأوقات يقع اتفاقاً من غير أن يستدعيه أو يشعر به والله أعلم[٣].

وقال أيضاً: «أما الولي والساحر فلا يتحديان الخلق ولا يستدلان على نبوة ولو ادعيا شيئاً من ذلك لم تنخرق العادة لهما»[٤].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص٨٨/ ١٦ وانظر ص١٨/ ١٤

(٢) النبوات لشيخ الإسلام، ص٢٢٢

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٤٧/ ١٤

(٤) المصدر السابق، ص١٤٧/ ١٤

قلت: خرق العادة قد يظهر على يد المبطل من ساحر، وكاهن، وراهب، فيحتاج من يستدل بذلك على ولاية أولياء الله تعالى إلى فارق[1].

والجهل بهذا الفارق، والغفلة عنه قد أوقع كثيراً من المسلمين في حبائل الدجاجلة والمشعوذين من أصحاب الطرق المبتدعة الذين يسمون أنفسهم بالمتصوفة، بما يقومون به من أعمال ومخاريق شيطانية، كدخول النار، وضرب أنفسهم بالسلاح والإخبار بالغيب، إلى غير ذلك، ويدعون زوراً وبهتاناً أنها كرامات. وما هي من الكرامات في شيء. فإن الكرامات إنما تكون لأولياء الله بحق، وهؤلاء أولياء الشيطان. والعياذ بالله تعالى.

ج ـ مما اختلف في نبوتهم

أولاً: الاختلاف في نبوة الخضر وولايته:

لم يذكر اسم الخضر في القرآن، وإنما ذكرت فيه قصته مع نبي الله موسى عليه السلام. وصرحت السنة باسمه، كما في حديث ابن عباس عن أبي بن كعب عن النبي ﷺ في ذكر القصة[2].

قال الإمام: قال المازري: «اختلف العلماء في الخضر هل هو نبي أو ولي». قلت: والذي يهم من الاختلاف هو الاختلاف في نبوته وتعميره. وقد تكلم الإمام على كل من الأمرين في شرح صحيح مسلم، كما يلي بيانه:

---

(١) الرسل والرسالات للدكتور عمر سليمان الأشقر، ص١٦١

(٢) هو حديث طويل في قصة موسى عليه السلام مع الخضر أخرجه البخاري في عدة مواضع في صحيحه وأول هذه المواضع في كتاب العلم، باب ما ذكر في ذهاب موسى عليه السلام في البحر إلى الخضر. والحديث برقم ٧٤، وصحيح مسلم بشرح النووي ص١١٧ ـ ١١٩/ ١٥ برقم ١٧٠.

أولاً: الاختلاف في نبوة الخضر

قال الإمام: «اختلف العلماء في الخضر هل هو نبي أو ولي، واحتج من قال بنبوته بقوله: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾[1] فدل على أنه نبي أوحي إليه، وبأنه أعلم من موسى ويبعد أن يكون ولي أعلم من نبي وأجاب الآخرون بأنه يجوز أن يكون قد أوحى الله إلى نبي في ذلك العصر أن يأمر الخضر بذلك)[2].

- الاختلاف في تعمير الخضر

ومما وقع فيه الاختلاف في شأن الخضر القول بتعميره، وأنه لا يزال حياً بين أظهرنا، ولا يموت إلا في آخر الزمان.

قال النووي: «جمهور العلماء على أنه حي موجود بين أظهرنا وذلك متفق عليه عند الصوفية وأهل الصلاح والمعرفة وحكاياتهم في رؤيته والاجتماع به والأخذ عنه وسؤاله وجوابه ووجوده في المواضع الشريفة ومواطن الخير أكثر من أن يحصر وأشهر من أن يستر، وقال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح هو حي عند جماهير العلماء والصالحين والعامة معهم في ذلك. قال: إنما شذ بإنكاره بعض المحدثين[3].

وقال: قال الثعلبي المفسر «الخضر نبي معمر على جميع الأقوال محجوب عن الأبصار يعني عن أبصار أكثر الناس» قال وقيل: إنه لا يموت إلا في آخر الزمان حين يرفع القرآن»[4].

---

(١) سورة الكهف، الآية ٨٢

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص١١١/ ١٥

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص١١١/ ١٥

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص١١٤/ ١٦

ولقد تعرض الإمام لهذه المسألة في ثلاثة مواضع من كتابه «شرح صحيح مسلم»:

الموضع الأول: في شرح حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: « صلى النبي ﷺ صلاة العشاء في آخر حياته، فلما سلم، قام النبي ﷺ فقال أرأيتكم ليلتكم هذه، فإن رأس مائة لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد . . . »الحديث[1].

حيث قال الإمام: (وفيه احتراز من الملائكة وقد احتج بهذه الأحاديث من شذ من المحدثين، فقال الخضر عليه السلام: ميت والجمهور على حياته كما سبق في باب فضائله ويتأولون هذه الأحاديث على أنه كان على البحر لا على الأرض أو أنها عام مخصوص)[2].

والإمام في هذا الموضع لم يكن له موقف صريح من القول بحياة الخضر، بل قد يفهم منه أنه موافق للقائلين بحياته، قال الإمام ابن باز: «الذي عليه أهل التحقيق أن الخضر قد مات قبل بعثة النبي ﷺ لأدلة كثيرة معروفة في محلها، ولو كان حياً في حياة نبينا ﷺ لدخل في هذا الحديث، وكان ممن أتى عليه الموت قبل رأس المائة كما أشار إليه الشارح هنا فتنبه، والله أعلم)[3].

الموضع الثاني: في باب صفة الدجال، وتحريم المدينة عليه، وقتله المؤمن وإحيائه:

عن أبي سعيد الخدري قال أبو إسحاق: (يقال إن هذا الرجل هو الخضر عليه السلام»[4].

---

(١) أخرجه البخاري في الفتح ص٧٣ـ٧٤/ ٢ برقم ٦٠١، ومسلم في فضائل الصحابة برقم ٢١٧

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص٧٤/ ١٦

(٣) فتح الباري، ص٧٥/ ٢ الهامش٢

(٤) أخرجه مسلم للنووي، من ٥٧/ ١٨ برقم١١٢

قال الإمام (قوله أبو إسحاق يقال إن هذا الرجل هو الخضر عليه السلام . . وهذا تصريح منه بحياته عليه السلام، وهو الصحيح)[1].

وهذا القول: يقال فيه ما قيل في الموضع الأول.

والموضع الثالث: كان في باب فضائل الخضر عليه السلام.

وهذا الموضع هو أوسع المواضع التي تكلم الإمام فيها على تعمير الخضر حيث قال: في بداية كلامه (وقال الشيخ أبو عمر بن الصلاح: هو حي عند جماهير العلماء والصالحين والعامة معهم في ذلك. قال: وإنما شذ بإنكاره بعض المحدثين)[2].

ثانيا: الاختلاف في نبوة لقمان:

قال الإمام رحمه الله: «وفيه لقمان الحكيم واختلف العلماء في نبوته، قال الإمام أبو إسحاق الثعلبي: اتفق العلماء على أنه كان حكيماً ولم يكن نبياً إلا عكرمة فإنه قال كان نبياً وتفرد بهذا القول)[3].

قلت: الخلاصة أنه لا يوجد دليل على نبوة لقمان «والله تعالى لم يذكر عنه إلا أنه أتاه الحكمة، وذكر بعض ما يدل على حكمته في وعظه لابنه»[4].

* * *

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص٥٨/ ١٨

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص١١١/ ١٥

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٢٤/ ٢

(٤) تيسير الكريم الرحمن للشيخ السعدي، ص١٥٥/ ٦

المبحث الخامس

عصمة الأنبياء

الكلام في هذا المقال مبني على أصل وهو أن الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون فيما يخبرون به عن الله سبحانه، وفي تبليغ رسالاته بإتفاق الأمة، ولهذا وجب الإيمان بكل ما أوتوه[1] كما قال تعالى: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾[2] وقال تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾[3].

وهذه العصمة الثابتة للأنبياء هي التي يحصل بها مقصود النبوة والرسالة[4] ومسألة العصمة مما تعرض لها الإمام في شرح صحيح مسلم حيث بين أنها من الصفات الواجبة للأنبياء دون غيرهم، وأنها ثابتة لهم في كل حال، وتطرق إلى أمرين مما وقع فيه النزاع في هذه المسألة. وهم: عصمة الأنبياء قبل النبوة، وعصمتهم من كبائر الذنوب وصغائرها.

* * *

---

(١) مقتبس من مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ص٢٨٩/ ١٠

(٢) سورة البقرة، الآية [١٣٦]

(٣) سورة النجم، الآيتان [٣-٤]

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ص٢٩٠/ ١٠

المطلب الأول

عصمتهم في كل حال

قال الإمام: «واعلم أن النبي ﷺ معصوم من الكذب ومن تغيير شيء من الأحكام الشرعية في حال صحته وحال مرضه ومعصوم من ترك بيان ما أمر ببيانه وتبليغ ما أوجب الله عليه تبليغه»[1].

وقال الإمام نقلاً عن القاضي عياض: «واعلم أن الأمة مجتمعة على عصمة النبي ﷺ من الشيطان في جسمه وخاطره ولسانه»[2].

وفي شرح حديث زينب بنت جحش[3] عندما أرسلها نساء رسول الله ﷺ يسألنه العدل في عائشة رضي الله عنها فوقعت زينب على عائشة فقالت عائشة: فاستطالت عليّ وأنا أرقب رسول الله ﷺ وأرقب طرفه هل يأذن لي فيها، قالت فلم تبرح زينب حتى عرفت أن رسول الله ﷺ لا يكره أن انتصر قالت: فلما وقعت بها لم أنشبها[4] حين أنحيت[5] عليها قالت: فقال رسول الله ﷺ وتبسم «إنها ابنة أبي

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص ٧٦/ ١١.

(٢) المصدر السابق ص١٣٠/ ١٧

(٣) هي بنت جحش بن رئاب، وابنة عمة رسول الله ﷺ، أمها أميمة بنت عبدالمطلب بن هاشم، وهي أخت حنة، وأبي أحمد، من المهاجرات الأول كانت عند زيد مولى النبي ﷺ، وكانت من سادة النساء ديناً وورعاً وجوداً ومعروفاً، رضي الله عنها، وأحاديثها في الكتب الستة، لها أحد عشر حديثاً اتفقا لها على حديثين وروي عن عائشة قالت: كانت زينب بنت جحش تساويني في المنزلة عند رسول الله ﷺ، توفيت سنة عشرين، وصلى عليها عمر. انظر تهذيب سير أعلام النبلاء، ص٥٦/ ١. والسير، ص٢١١/ ٢

(٤) أنشبها: معناها لم أمهلها. المصدر السابق، ١٦٨/ ١٥.

(٥) أنْحَيتُ: بالنون المهملة أي قصدتها واعتمدتها بالمعارضة، المصدر السابق، ص ١٦٨/ ١٥.

بكر»[1].

قال الإمام النووي في شرحه: «اعلم أنه ليس فيه دليل على أن النبي ﷺ أذن لعائشة ولا أشار بعينه ولا غيرها بل لا يحل اعتقاد ذلك فإنه تحرم عليه خائنة الأعين، وإنما فيه أنها انتصرت لنفسها فلم ينهها وأما قوله ﷺ: إنها ابنة أبي بكر، فمعناه الإشارة إلى كمال فهمها وحسن نظرها والله أعلم»[2].

كذلك الاحتلام هم منزهون عنه لأنه من تلاعب الشيطان قال الإمام: «قولها يصبح جنباً من غير حلم، فيه دليل لمن يقول بجواز الاحتلام على الأنبياء، وفيه خلاف ما قدمناه والأشهر امتناعه، قالوا: لأنه من تلاعب الشيطان وهم منزهون عنه»[3].

وكذلك هم منزهون عن العيوب الخلقية، قال الإمام: (ومنها ما قاله القاضي وغيره أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم منزهون عن النقائص في الخلق والخُلق سالمون من العاهات والمعايب قالوا: ولا التفات إلى ما قاله من لا تحقيق له من أهل التاريخ في إضافة بعض العاهات إلى بعضهم بل نزههم الله تعالى من كل عيب وكل شيء يبغض العيون أو ينفر القلوب»[4].

* * *

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي ص١٦٨/ ١٥ برقم ٨٣

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي، ص١٦٨/ ١٥

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص١٩٢/ ٧

(٤) المصدر السابق، ص١٠٤/ ١٥

المطلب الثانى

العصمة قبل النبوة

وأشار الإمام إلى أن العصمة ممتدة من الصغر إلى الكبر فقال عن شرح حديث جابر بن عبدالله، أن رسول الله ﷺ كان ينقل معهم الحجارة للكعبة، وعليه إزاره، فقال له العباس، عمه: يابن اخي لو حللت إزارك فجعلته على منكبك دون الحجارة، قال فحله، فجعله على منكبه، فسقط مغشياً عليه، قال فما روي بعد ذلك اليوم عرياناً[1].

قال الإمام: (وفي هذا الحديث بيان بعض ما أكرم الله سبحانه وتعالى به رسوله ﷺ وأنه معصوماً محمياً في صغره عن القبائح وأخلاق الجاهلية وقد تقدم عصمة الأنبياء صلوات الله عليهم في كتاب الإيمان وجاء في رواية في غير الصحيحين أن الملك نزل فشد عليه ﷺ إزاره والله أعلم)[2].

وفي موضع آخر أشار إلى أن هذه المسألة من مواضع النزاع فقال: (اعلم أن العلماء من أهل الفقه والأصول وغيرهم اختلفوا في جواز المعاصي على الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وقد لخص القاضي رحمه الله تعالى مقاصد المسألة، فقال لا خلاف أن الكفر عليهم بعد النبوة ليس بجائز بل هم معصومون منه واختلفوا فيه قبل النبوة والصحيح أنه لا يجوز وأما المعاصي فلا خلاف أنهم معصومون من كل كبيرة)[3].

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي ص٣٠/ ٤ برقم ٧٧

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص٣٠/ ٤

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص٤٦/ ٣

قلت: هذا فيما يتعلق بالكبائر وأنهم معصومون قبل النبوة وبعدها بالإجماع ولقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية إلى كون عصمة الأنبياء قبل النبوة من مواضع النزاع[١] وفي بعض كلامه مما يدل على أن القول بالعصمة قبل النبوة مما يقوله طائفة من الرافضة وغيرهم[٢].



---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ص٢٩٢ ـ ٢٩٣/ ١٠

(٢) المصدر السابق ص٣٠٩/ ١٠

المطلب الثالث

العصمة من الكبائر والصغائر

اتفق المسلمون على عصمة الأنبياء والرسل عليهم السلام من الذنوب والمعاصي والكبائر، ومن الصغائر التي تزري بفاعلها وتسقط مروءته كرذائل الأخلاق والدناءات مما يزري بمناصبهم العالية. أما الصغائر التي لا تزري بالمنصب ولا كانت من الدناءات فاختلفوا هل تجوز عليهم؟ وإذا جازت هل وقعت أم لا؟. فذهب جماعة إلى جوازها عقلاً وقالوا لابد من تنبيههم عليها، وتوقف جماعة في ذلك، ومنعت طائفة وقوع الصغائر منهم وهو رأي كثير من المتكلمين[١].

أ - رأي الإمام النووي

قرر الإمام النووي رحمه الله فيما نقله عن القاضي عياض أن الأنبياء معصومون من الكبائر والصغائر جميعاً كما أن القاضي عياض رد على من جوز الصغائر عليهم وبالغ في ذلك بما لا مجال لذكره هنا[٢] ونقل الإمام كلاماً للمازري قال فيه «والمعاصي ضربان كبائر وصغائر، فهو معصوم من الكبائر بالإجماع، واختلفوا في إمكان وقوع الصغائر ومن جوزها منع إضافتها إلى الأنبياء على طريق التنقيص)[٣].

ونقل في موضع آخر عن القاضي عياض قال فيه: «وكذلك لا خلاف أنهم معصومون من الصغائر التي تزري بفاعلها وتحط منزلته وتسقط مروأته واختلفوا في

---

(١) انظر مجموع الفتاوى من ٣١٨/ ٤، والإحكام للآمدي ٢٤٢ ـ ٢٤٤/ ١، وإرشاد الفحول للشوكاني ص ٦٩.

(٢) انظر إكمال المعلم ص ٥٧٣ ـ ٥٧٥/ ١.

(٣) شرح صحيح مسلم النووي ص١٤٠/ ٧

وقوع غيرها من الصغائر منهم فذهب معظم الفقهاء المحدثين والمتكلمين من السلف والخلف إلىٰ جواز وقوعها منهم وحجتهم ظواهر القرآن والأخبار وذهب جماعة من أهل التحقيق والنظر من الفقهاء والمتكلمين من أئمتنا إلىٰ عصمتهم من الصغائر كعصمتهم من الكبائر وأن منصب النبوة يجل عن مواقعها وعن مخالفة الله تعالىٰ عمداً وتكلموا علىٰ الآيات والأحاديث الواردة في ذلك وتأولوها . . . ثم قال «وهذا المذهب هو الحق لما قدمناه ولأنه لو صح ذلك منهم لم يلزمنا الاقتداء بأفعالهم وإقرارهم وكثير من أقوالهم»[1] .

ب- نقد ما ذهب إليه الإمام فيما نقله عن القاضي عياض

يتبين مما سبق أن الإمام يقول بعصمة الأنبياء من الكبائر والصغائر جميعاً حيث نقل كلام القاضي وترجيحه لهذا القول مما يدلل علىٰ أن هذا رأي الإمام ومن وافقه في هذه المسألة . لكن بين شيخ الإسلام ابن تيمية أن القول بعصمة الأنبياء من الصغائر هو خلاف القول المعروف عن السلف وعن أكثر علماء الإسلام بل وخلاف المعروف من قول أكثر أهل الكلام وأهل التفسير والحديث والفقهاء . قال : «وإنما نقل ذلك في العصر المتقدم عن الرافضة ، ثم عن بعض المعتزلة ثم وافقهم عليه طائفة من المتأخرين .

وعامة ما ينقل عن جمهور العلماء أنهم غير معصومين من الإقرار علىٰ الصغائر ، ولا يقرون عليها ، ولا يقولون : إنها لا تقع بحال وأول من نقل عنهم من طوائف الأمة القول بالعصمة مطلقاً ، وأعظمهم قولاً لذلك الرافضة ، فإنهم يقولون بالعصمة حتىٰ ما يقع علىٰ سبيل النسيان ، والسهو والتأويل»[2] .

---

(١) المصدر السابق ص٤٧/ ٣

(٢) مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ص٣١٩/ ٤

ولهذا جعل شيخ الإسلام هذا القول أحد قولين ينظر فيه في مسألة العصمة حيث قال: «واعلم أن المنحرفين في مسألة العصمة على طرفي نقيض، كلاهما مخالف لكتاب الله من بعض الوجوه. قوم أفرطوا في دعوة امتناع الذنوب حتى حرفوا نصوص القرآن المخبرة بما وقع منهم من التوبة من الذنوب، ومغفرة الله لهم، ورفع درجاتهم بذلك.

وقوم أفرطوا في أن ذكروا عنهم ما دل القرآن على براءتهم منه، وأضافوا إليهم ذنوبا وعيوباً نزههم الله عنها. وهؤلاء مخالفون للقرآن، ومن اتبع القرآن على ما هو عليه من غير تحريف كان من الأمة الوسط، مهتدياً إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين)[1].

إذاً فالقول الوسط في هذه المسألة هو أن الصغائر غير المزرية بفعلها يجوز وقوعها من الأنبياء، ولكنهم لا يقرون عليها، ويسارعون بالتوبة منها والإنابة إلى الله تعالى ولذلك لم يذكر الله تعالى عن نبي شيئاً من ذلك إلا مقروناً بتوبته منه وتوبته تعالى عليه.

وبهذا يجاب عما احتج به من قال بالعصمة المطلقة من أن الأمة مأمورون بالتأسي بالنبي، وأن تجويز وقوع الصغائر منه يقدح في التأسي، فالجواب أن التأسي إنما هو فيما أقروا عليه، كما أن النسخ جائز فيما يبلغون من الأمر والنهي وليس تجويز ذلك مانعاً من وجوب الطاعة، لأن الطاعة تجب فيما لم ينسخ، فعدم النسخ يقرر الحكم، وعدم الإنكار يقرر الفعل والأصل عدم كل منهما[2].

---

(١) المصدر نفسه، ص١٥٠/ ١٥

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ص١٤٨/ ١٥ و٢٩٣/ ١٠

ثم إن قول القاضي عياض (وأن منصب النبوة يجل عن مواقعها وعن مخالفة الله تعالىٰ عمداً) أمر لا شك فيه، إذ لا يليق بهم، عليهم السلام، تعمد اقتراف ما يعلمون أنه مخالف لأمر الله، ثم إن الذين قالوا بجواز وقوع ذلك منهم لم يصرحوا بمسألة التعمد. ثم إن نصوص الكتاب العزيز قد أثبتت وقوع بعض المخالفات لعدد من الأنبياء عليهم السلام كقوله تعالىٰ حكاية عن آدم ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾(1) وقوله سبحانه في حق نوح عليه السلام حين دعا ربه في ابنه الكافر ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (45) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (46) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾(2).

ومن ذلك أيضاً ما حكاه الله عز وجل عما فعله موسىٰ عليه السلام من وكزه للقبطي وقضائه عليه حيث أراد نصرة الذي هو من شيعته قال سبحانه: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (15) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾(3).

ومن ذلك أيضاً ما ذكره عز وجل عن داود عليه السلام حين تسرّع في الحكم قبل سماع قول الخصم الثاني وتوبته من ذلك، قال سبحانه: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (21) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (22) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ

---

(1) سورة طه الآية [121]

(2) سورة هود آية [45 ـ 47]

(3) سورة القصص اية [15 ـ 16]

وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب ﴿٢٣﴾ قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم وظن داوود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب ﴿٢٤﴾ فغفرنا له ذلك وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب﴾(١).

وما ورد في حق نبينا ﷺ أيضاً كقصة أسرى بدر، وعبوسه عليه الصلاة والسلام بوجه الأعمى وغير ذلك مما عاتبه الله عليه، وقد قال الله له: ﴿ ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما ﴾(٢) إلى آخر ما هنالك، فهذه المخالفات الصادرة من الأنبياء مما ذكر الله في كتابه لا تقبل التأويل في جملتها، وإن قبل في آحادها كنسيان آدم عليه السلام، وهذا يدل على جواز وقوع الصغائر منهم عليهم السلام ولا حرج في ذلك، لأنها لا تزري بمنصبهم الشريف، فهم بشر من بني البشر يطرأ عليهم ما طرأ على البشر، وإن كانوا أنبياء معصومين، لكنهم قد تصدر منهم بعض المخالفات الصغيرة، فينبههم الله عليها فيسارعون إلى التوبة والاستغفار منها من غير تأخير، ولهذا لم يذكر في القرآن الكريم شيء مما وقع لبعض الأنبياء من هذه الأمور إلا مقروناً بالتوبة والاستغفار كقول آدم وزوجته عليهما السلام: ﴿ قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين ﴾(٣)، وقول إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿ والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾ (٤)، وقول داود عليه السلام: ﴿وظن داوود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب﴾(٥)،

(١) سورة ص الآيات من [٢١ ـ ٢٥]

(٢) سورة الفتح آية [٢]

(٣) سورة الأعراف آية [٢٣]

(٤) سورة الشعراء آية [٨٢]

(٥) سورة ص آية[٢٤]

وغير ذلك، ولا شك أن التوبة النصوح التي يقبلها الله يرفع الله بها صاحبها إلى أعظم مما كان عليه كما قال بعض السلف: كان داود عليه السلام بعد التوبة خيراً من قبل الخطيئة. وقول الآخر: لو لم تكن التوبة أحب شيء إليه تعالى لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق إليه. وقد قال تعالى: ﴿**إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين**﴾[1]، وفي الكتاب والسنة الصحيحة والكتب التي أنزلت قبل القرآن مما يوافق هذا القول ما يتعذر إحصاؤه، والرادون لذلك تأولوا ذلك بمثل تأويلات الجهمية والقدرية والدهرية لنصوص الأسماء والصفات ونصوص القدر ونصوص المعاد، وهي من جنس تأويلات القرامطة[2] الباطنية التي يعلم بالاضطرار أنها باطلة، وأنها من باب تحريف الكلم عن مواضعه، وهؤلاء يقصد أحدهم تعظيم الأنبياء فيقع في تكذيبهم[3].

وهكذا يظهر مما لا مجال للشك أنه قد وقعت لعدد من الأنبياء بعض المخالفات التي هي دون الكبائر وقد تابوا منها وقبل الله توبتهم ورفعهم بسببها درجات وهذا لا ينافي عصمتهم فلا يجوز إذاً أن يؤول ما حصل منهم على غير المعنى المراد منه، لئلا يقع المرء في المحذور ولئلا يتشبه بمن يحرفون الكلم عن مواضعه.

---

(١) سورة البقرة آية ٢٢٢

(٢) نسبة إلى حمدان بن الأشعث الذي كان يلقب بقرمط، تتلمذ على حسين الأهوازي رسول عبدالله بن ميمون القدّاح، ثم اتخذ لنفسه مقراً قرب الكوفة سماه دار الهجرة، وأخذ هو وأتباعه يشنون منه الغارات على المسلمين، وقد انتشرت دعوته في أنحاء كثيرة من العالم الإسلامي وكانت سبباً في كثير من القلاقل والحروب. وقد ذكر البغدادي أن حمدان قرمط كان من الصابئة الحرانية إضافة إلى كونه باطنياً. انظر مقالات الإسلاميين ١٠٠/١، والفرق بين الفرق ص٢٢، ٢٨٣ ـ ٢٨٦.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٠/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥

المطلب الرابع

غير الأنبياء ليس بمعصوم إلا من شهد له الرسول صلى الله عليه وسلم

وإذا تقرر ما سبق من القول بعصمة الأنبياء، فإن تلك العصمة من صفات الأنبياء التي اختصوا بها دون غيرهم لتحصيل مقصود النبوة والرسالة وقد قرر الإمام ذلك، حيث قال: (ولسنا نقطع بالعصمة إلا للنبي صلى الله عليه وسلم ولمن شهد له به)(١).

وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافاً لأهل الرفض الذين يجعلون أئمتهم معصومين كالأنبياء، وبعض أهل التصوف الذين بالغوا في تقديس شيوخهم حتى ادعوا فيهم العصمة(٢) نسأل الله تعالى أن يهدينا الصراط المستقيم، ويجنبنا صراط أهل الزيغ والضلال.



---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص٦٣/ ١٢

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية، ص٢٩٠/ ١٠

المطلب الخامس

عصمتهم في البلاغ

ومن العصمة التي أكرم الله بها الأنبياء والرسل عليهم السلام وحفظهم بها، عصمتهم فيما يخبرون به عن الله سبحانه وفي تبليغ رسالاته فيما كان طريقه القول على كل حال. وهذا مما اتفق عليه المسلمون[1]، ولهذا وجب الإيمان بكل ما أخبروا وأتوا به. قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[2] وقال سبحانه أيضاً: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[3].

أما عصمتهم عليهم السلام عن السهو والنسيان فلم تثبت عند جمهور أهل السنة خلافاً للرافضة، فإنهم يقولون بالعصمة حتى ما يقع على سبيل النسيان والسهو والتأويل. وينقلون ذلك إلى من يعتقدون إمامته، أما جماهير أهل السنة فإنهم يقولون إن الإنبياء غير معصومين من الخطأ والنسيان، بل إن ذلك يقع أحياناً ليس على سبيل التكرار والاستمرار، بل على النادر، وهم مع ذلك لا يقرون عليه، بل ينبهون من الله ويعرفون حكمه، إما على الفور وهو الراجح أو قبل مماتهم[4].

---

(١) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢٨٩ ـ ٢٩٠/ ١٠

(٢) سورة النجم، آية [٣ ـ ٤]

(٣) سورة البقرة، آية [١٣٦ ـ ١٣٧]

(٤) انظر شرح صحيح مسلم ٦١/ ٥ ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣٢٠/ ٤، وفتح الباري ١٢١/ ١، ونيل الأوطار ١٠٩/ ٣.

رأي الإمام النووي

وافق الإمام النووي المذهب الراجح في هذه المسألة فقال الإمام نقلاً عن المازري: (أما الكذب فيما طريقه البلاغ عن الله تعالىٰ فالأنبياء معصومون منه سواءً كثيره وقليله، وأما ما لا يتعلق بالبلاغ ويعد من الصفات كالكذبة الواحدة في صغير من أمور الدنيا ففي إمكان وقوعه منهم وعصمتهم منه القولان المشهوران للسلف والخلف. قال القاضي عياض: (الصحيح أن الكذب فيما يتعلق بالبلاغ لا يتصور وقوعه منهم سواء جوزنا الصغائر منهم وعصمتهم منه، أم لا وسواء قل الكذب أم كثر لأن منصب النبوة يرتفع عنه وتجويزه يرفع الوثوق بأقوالهم)[1].

أما ما ورد في الحديث من قوله ﷺ لم يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث كذبات، فنقل الإمام عن المازري أنه قال: (فمعناه أن الكذبات المذكورة إنما هي بالنسبة إلىٰ فهم المخاطب والسامع، وأما في نفس الأمر فليست كذباً مذموماً لوجهين:

أحدهما: أنه ورىٰ به فقال في سارة أختي في الإسلام وهو صحيح في باطن الأمر. وسنذكر إن شاء الله تعالىٰ تأويل اللفظين الآخرين.

والوجه الثاني: أنه لو كان كذباً لا تورية فيه لكان جائزاً في دفع الظالمين وقد اتفق الفقهاء علىٰ أنه جاء ظالم يطلب إنساناً مختبئاً ليقتله أو يطلب وديعة لإنسان ليأخذها غصباً وسأل عن ذلك وجب علىٰ من علم ذلك إخفاء وإنكار العلم به وهذا كذب جائز بل واجب لكونه في دفع الظالم فنبه النبي ﷺ عن أن هذه الكذبات ليست داخله في مطلق الكذب المذموم)[2].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٠١/ ١٥ وص٧٦/ ١١

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٠١/ ١٥، وانظر مقدمة شرح صحيح مسلم ص ٦٧/ ١.

وقال أيضاً نقلاً عن القاضي عياض: (وكذلك اتفقوا على أن كل ما كان طريقه الإبلاغ في القول فهم معصومون فيه على كل حال وأما ما كان طريقه الإبلاغ في الفعل فذهب بعضهم إلى العصمة فيه رأساً وأن السهو والنسيان لا يجوز عليهم فيه وتأولوا أحاديث السهو في الصلاة وغيرها بما سنذكره في مواصفه وهذا مذهب الأستاذ أبي المظفر الاسفرايني من أئمتنا الخراسانيين المتكلمين وغيره من المشايخ المتصوفة وذهب معظم المحققين وجماهير العلماء إلى جواز ذلك ووقوعه منهم وهذاهو الحق ثم لا بد من تنبيههم عليه وذكرهم إياه أما في الحين على قول جمهور المتكلمين وإما قبل وفاتهم على قول بعضهم ليسنوا حكم ذلك ويبينوه قبل انخرام مدتهم، وليصح تبليغهم ما أنزل إليهم)[1].



(١) شرح صحيح مسلم للنووي من ٤٧/ ٣

المطلب السادس

صفات تجوز على الأنبياء

يؤكد الإمام أن إذا كان رسل الله وإن كانوا أكرم الخلق على الله فهم مع ذلك بشر ولا يخرجون عن حالة البشرية، وأن البشر لا يعلمون من الغيب وبواطن الأمور شيئاً إلا أن يطلعهم الله تعالى على شيء من ذلك، وأنه يجوز عليه في أمور الأحكام ما يجوز على غيرهم، وأنه إنما يحكم بين الناس بالظاهر والله يتولى السرائر فيحكم بالبينة وباليمين، ونحو ذلك من أحكام الظاهر مع إمكان كونه في الباطن خلاف ذلك ولكنه إنما كلف الحكم بالظاهر، وهذا نحو قوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله[1]. . »[2].

ومن الأمور الجائزة على الأنبياء السهو والنسيان فيما ليس طريقه البلاغ مطلقاً وفيما طريقه البلاغ في القول: «فهم معصومون فيه على كل حال وأما ما كان طريقه الإبلاغ في الفعل فذهب بعضهم إلى العصمة فيه رأساً وأن السهو والنسيان لا يجوز عليهم فيه وتأولوا أحاديث السهو في الصلاة وغيرها بما سنذكره في مواضعه وهذا مذهب الأستاذ أبي المظفر الأسفرايني . . وجماهير العلماء إلى جواز ذلك وقوعه منهم وهذا هو الحق»[3]، ثم لابد من تنبيههم عليه وذكرهم إياه إما في الحين على قول جمهور المتكلمين وإما قبل وفاتهم على قول بعضهم ليسنوا حكم ذلك ويبينوه قبل

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص٥ ـ ٦/ ١٢

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص٤٧/ ٣

انخرام مدتهم وليصح تبليغهم ما أنزل إليهم[1].

ومن الأمور الجائزة على الأنبياء المرض غير الجنون قال الإمام: (والمرض يجوز عليهم بخلاف الجنون فإنه لا يجوز عليهم لأنه نقص والحكمة في جواز المرض عليهم ومصائب الدنيا تكثير أجرهم وتسلية الناس بهم ولئلا يفتتن الناس بهم ويعبدوهم لما يظهر عليهم من المعجزات والآيات البينات والله أعلم)[2].

ومن العوارض التي جرت للرسول الله ﷺ ما ثبت أنه سحر قال: «اعلم أن النبي ﷺ معصوم من الكذب ومن تغيير شيء من الأحكام الشرعية في حال صحته وحال مرضه ومعصوم من ترك بيان ما أمر ببيانه وتبليغ ما أوجب الله عليه تبليغه وليس معصوماً من الأمراض والأسقام العارضة للأجسام ونحوها مما لا نقص فيه لمنزلته ولا فساد لما عهد من شريعته، وقد سحر ﷺ حتى صار يخيل إليه أنه فعل الشيء ولم يكن فعله ولم يصدر منه ﷺ»[3].

كذلك من الأمور الجائزة عليهم عليهم الصلاة والسلام الخطأ في الاجتهاد فقد يجتهدون في حكم ما يعرض عليهم من وقائع ويحكمون وفق ما يبدولهم، فهم لا يعلمون الغيب، وقد يخطئون في إصابة الحق قال الإمام: «اختلفوا هل كان الخطأ جائزاً عليه ﷺ فذهب المحققون إلى أنه لم يكن جائزاً عليه، وذهب كثيرون إلى جوازه، ولكن لا يقر عليه بخلاف غيره»[4].

وفي موقع آخر ذكر رأي ابن الصلاح ومال إليه فقال: (وقد كان الاجتهاد جائزاً له وواقعاً منه ﷺ عند المحققين، وله مزية على سائر المجتهدين بأنه لا يقر على الخطأ

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص٤٧/ ٣.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص٦٠/٦

(٣) المصدر السابق ص٧٦/ ١١ وانظر ص٧٨-٧٩/ ١١

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي، ص٢١٢-٢١٣/١

في اجتهاده ومن نفي ذلك، وقال: لا يجوز له ﷺ القول في الأمور الدينية إلا عن وحي. فليس يمتنع أن يكون قد نزل عليه عند مخاطبته عمر رضي الله عنه وحي بما أجابه به ناسخ لوحي سبق بما قاله أولاً ﷺ)[1].

كل هذا مما قرره الإمام في شرح صحيح مسلم وهو الصواب الذي تؤيده الأدلة، وبالله التوفيق.



---

(١) المصدر السابق ص١/٢١٢

وانظر كتاب الرسل والرسالات للدكتور عمر سليمان الأشقر ص ٢٩٩.

المبحث السادس

حوض الرسـول ﷺ

تكلم الإمام النووي عن الحوض وما يتعلق به من مسائل في شرح باب إثبات حوض نبينا ﷺ وصفاته، من كتاب الفضائل حيث بين أولاً مذهب أهل السنة والجماعة ثم تطرق في الشرح إلىٰ مسائل أخرىٰ وهي كما يلي :

المطلب الأول

حكم الإيمان بالحوض ودليله

١ - رأي الإمام

ذهب الإمام رحمه الله إلىٰ القول بوجوب الإيمان بحوض نبينا محمد ﷺ وأن الله خصه بذلك وذكر أن أدلته متواترة رواها جمع غفير من الصحابة.

وقال الإمام : «قال القاضي عياض رحمه الله أحايث الحوض صحيحة والإيمان به فرض والتصديق به من الإيمان وهو علىٰ ظاهره عند أهل السنة والجماعة لا يتأول ولا يختلف فيه، قال القاضي : وحديثه متواتر النقل رواه خلائق من الصحابة»[١].

وقال في موضع آخر في قوله ﷺ : أتدرون ما الكوثر؟ فقلنا الله ورسوله أعلم، قال : فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل عليه خير كثير هو حوض يرد عليه أمته يوم

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص٤٣/ ١٥

القيامة. . . » الحديث[1]. قال الإمام (وفيه إثبات الحوض والإيمان به واجب)[2].

٢ - موافقته لمذهب أهل السنة والجماعة

لقد وافق الإمام رحمه الله مذهب أهل السنة والجماعة في وجوب الإيمان بالحوض وأن أدلة ذلك متواترة عن الصحابة وقد رواها جمع وخلائق من الصحابة.

قال شارح الطحاوية: (الأحاديث الواردة في ذكر الحوض تبلغ حد التواتر رواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابياً رضي الله عنهم ولقد استقصى طرقها شيخنا الشيخ عماد الدين ابن كثير تغمده الله برحمته، في آخر تاريخه الكبير المسمى بـ (البداية والنهاية)[3] ثم ذكر تلك الروايات وأسانيدها وطرقها.

ثم قال: «فقاتل الله المنكرين لوجود الحوض وأخلف بهم أن يحال بينهم وبينه ورده يوم العطش الأكبر»[4].

* * *

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي ص٩٧/ ٤ برقم: ٥٣

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص٩٧/ ٤

(٣) شرح الطحاوية ص٢٧٨/ ١

(٤) شرح العقيدة الطحاوية ص٢٨٢/ ١

المطلب الثانى

بيان طرق الأحاديث الواردة في الحوض

اعتنى الإمام في شرح هذا الباب ببيان الأحاديث الواردة في إثبات الحوض لنبينا ﷺ والكلام على طرقها المختلفة؛ حيث قال: «قال القاضي: وحديثه متواتر النقل رواه خلائق من الصحابة فذكره مسلم من رواية ابن عمرو بن العاص وعائشة وأم سلمة وعقبة بن عامر وابن مسعود، وحذيفة، وحارثة بن وهب، والمسنورد، وأبي ذر، وثوبان وأنس وجابر بن سمرة ورواه غير مسلم من رواية أبي بكر الصديق، وزيد بن أرقم، وأبي أمامة، وعبدالله بن زيد، وأبي يرزه، وسويد بن جبلة، وعبدالله بن الصنابعي، والبراء بن عازب، وأسماء بنت أبي بكر، وخولة بنت قيس وغيرهم.

قلت: ورواه البخاري ومسلم أيضاً من رواية أبي هريرة ورووا غيرهما من رواية عمر بن الخطاب، وعائذ بن عمر وآخرين، وقد جمع ذلك كله الإمام الحافظ أبو بكر البيهقي في كتابه البعث والنشور بأسانيده وطرقه المتكاثرات. قال القاضي وفي بعض هذا ما يقتضي كون الحديث متواتراً[1].

* * *

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص٤٣/ ١٥

المطلب الثالث

دفع الاضطراب عن أحاديث الحوض

رويت عن صفة الحوض وطوله وعرضه أحاديث كثيرة، وظهر من هذه الأحاديث بعض الاختلاف في تقدير مسافة الحوض مما جعل بعض العلماء يحكمون على تلك الأحاديث بالاضطراب.

واعتنى الإمام بإيراد تلك الأوجه المختلفة، مع ذكر إجابات بعض أهل العلم عنه. وانتهى بقوله نقلاً عن القاضي عياض: (وهذا الاختلاف في قدر عرض الحوض ليس موجباً للاضطراب فإنه لم يأت في حديث واحد بل في أحاديث مختلفة الرواة عن جماعة من الصحابة سمعوها في مواطن مختلفة ضربها النبي ﷺ في كل واحد منها مثلاً لبعد أقطار الحوض وسعته وقرب ذلك من الأفهام لبعد ما بين البلاد المذكورة لا على التقدير بالموضوع للتحديد بل للإعلام بعظم المسافة فبهذا تجمع الروايات هذا كلام القاضي. ثم قال الإمام: قلت وليس في القليل من هذه منع الكثير والكثير ثابت على ظاهر الحديث ولا معارضة والله أعلم)[1].

قلت: رحم الله القاضي عياض وأجزل ثوابه فقد بين أن الاضطراب الواقع في الروايات المختلفة في عرض وطوله لا يؤدي إلى نفي إثبات الحوض ووجوده، كما أنها وإن جاءت مثبتة له، وإن كانت بعض الروايات جاءت مختلفة عن الآخرى في تحديد عرض الحوض فذكرت أقل تقدير مما ذكرته الأخرى فإن الكثير من ذلك ثابت هو أيضاً بما هو ثابت من النصوص الواردة وليس هناك طريق لمن قال أن اضطراب

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص٤٦/ ١٥

الروايات فيه يؤدي إلىٰ ضعفها وبالتالي تدل علىٰ عدم وجوده لأن الاضطراب مدفوع بما هو ثابت وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة قال شارح الطحاوية بعد أن عرض تلك الروايات علىٰ ما فيها من اختلاف في تقرير العرض والطول (والذي يتلخص من الأحاديث الواردة في صفة الحوض، أنه حوض عظيم، ومورد كريم يُمد من شراب الجنة، من نهر الكوثر الذي هو أشد بياضاً من اللبن، وأبرد من الثلج، وأحلى من العسل، وأطيب ريحاً من المسك وهو في غاية الاتساع، عرضه وطوله سواء، كل زاوية من زواياه مسيرة شهر»)(١).



(١) شرح الطحاوية من ١/٢٨١

المطلب الرابع

صلة الحوض بالكوثر

١ - مذهب أهل السنة والجماعة

ذهب أهل السنة والجماعة إلى أن الحوض يمد من شراب الجنة، من نهر الكوثر[١].

فعلى هذا يكون الكوثر نهر داخل من الجنة، كما جاء مصرحاً في بعض الأحاديث، وماؤه يصب في الحوض خارج الجنة، فالكوثر هو مادة الحوض، كما جاء في حديث أبي ذر عن مسلم: «إن الحوض يشخب[٢] فيه ميزاب من الجنة، ومن هذا الباب يطلق على الحوض كوثر لكونه يمد منه»[٣].

٢ - رأي الإمام النووي

لقد فسر الإمام النووي الكوثر فقال: (والكوثر هنا نهر في الجنة كما فسره النبي ﷺ[٤] قال (وفيه إثبات الحوض والإيمان به واجب)[٥].

وبهذا أكد الإمام أن هناك علاقة بين الكوثر والحوض وإن لم يحققها كغيره من العلماء[٦] والراجح فيها ما ذكرته سابقاً من مذهب السلف والله أعلم.

---

(١) شرح الطحاوية ص٢٨٠/ ١

(٢) الشخب : السيلان. النهاية في غريب الحديث والأثر ص٤٥٠/ ٢

(٣) انظر فتح الباري ص٤٦٦ ـ ٤٦٧/ ١١

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص٩٦/ ٤

(٥) المصدر نفسه ص٩٧/ ٤

(٦) ابن حجر في كتابه الفتح ص٤٦٦ ـ ٤٦٧/ ١١ وانظر شرح الطحاوية ص٢٨/ ١

المطلب الخامس

متى يكون الشرب من الحوض؟ ولمن؟

١ - اختلاف الناس

اختلف متى يكون الشرب من ذلك الحوض، فقيل الميزان قبل، وقيل: الحوض.

قال الإمام القرطبي في التذكرة: (واختلف في الميزان والحوض أيهما يكون قبل الآخر؟ فقيل الميزان قبل، وقيل: الحوض، قال أبو الحسن القابسي[1] والصحيح أن الحوض قبل، قال القرطبي والمعني يقتضيه، فإن الناس يخرجون عطاشاً من قبورهم، كما تقدم، فيقدم قبل الميزان والصراط. قال أبو حامد الغزالي رحمه الله في كتاب (كشف علم الآخرة) حكى بعض السلف من أهل التصنيف أن الحوض يورد بعد الصراط، وهو غلط من قائله. قال القرطبي: هو كما قال، ثم قال القرطبي: ولا يخطر ببالك أنه في هذه الأرض، بل في الأرض المبدلة أرض بيضاء كالفضة، لم يسفك فيها دم، ولم يُعمل على ظهرها أحد قط تظهر لنزول الجبار جل جلاله لفصل القضاء)[2].

---

(١) هو الإمام الحافظ الفقيه، العلامة عالم المغرب أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري القروي القابسي المالكي صاحب «الملخص» كان عارفًا بالعلل والرجال، والفقه والأصول والكلام، مصنفًا يقظًا دينًا تقيًا، وكان ضريراً وهو من أصح العلماء كتبًا، وكان مولده سنة ٣٢٤هـ، وتوفي بالقيروان سنة ٤٠٣ من مؤلفاته البديعة كتاب «المريد في الفقه» وغير ذلك. انظر: تهذيب سير أعلام النبلاء، ص ٢٦١/ ٢.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص٢٨٢/ ١ وأيضًا التذكرة للقرطبي ص٣٦٨ ـ ١/٣٧٥

٢ - رأي الإمام النووي

ذهب الإمام النووي رحمه الله فيما نقله عن القاضي عياض أن الشرب يكون بعد الحساب والنجاة من النار فهذا الذي لا يظمأ بعده، وهذا يعني أنا الحوض يكون بعد الميزان والصراط.

قال الإمام نقلاً عن القاضي عياض: (ظاهر هذا الحديث أن الشرب منه يكون بعد الحساب والنجاة من النار فهذا هوا لذي لا يظمأ بعده، قال وقيل: لا يشرب منه إلا من قدر له السلامة من النار، قال ويحتمل أن يكون شرب منه من هذه الأمة وقدر عليه دخول النار لا يعذب فيها بالظمأ بل يكون عذابه بغير ذلك لأن ظاهر هذا الحديث أن جميع الأمة يشرب منه إلا من ارتد وصار كافراً.

ثم قال القاضي: وهذا مثله قوله ﷺ «من ورد شرب» هذا صريح في أن الواردين كلهم يشربون وإنما يمنع منه الذين يزادون ويمنعون الورود لارتدادهم)[١].

وقال في موضع آخر في شرح حديث أبي هريرة والذي جاء فيه (أن حوضي أبعد من أيلة من عون لهو أشد بياضاً من الثلج وأحلىٰ من العسل باللبن ولآنيته أكثر من عدد النجوم، وإني لأصد الناس عنه كما يصد الرجل إبل الناس عن حوضه . . .) الحديث[٢].

قال الإمام في شرحه قوله: وهل تدري ما أحدثوا بعدك، وفي الرواية الأخرىٰ قد بدلوا بعدك، فأقول سحقاً سحقاً هذا مما اختلف العلماء في المراد به علىٰ أقوال:

أحدهما: أن المراد به المنافقون والمرتدون فيجوز أن يحشروا بالغرة والتحجيل

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص٤٤/ ١٥

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي ص١١٦/ ٣ برقم ٣٦ كتاب الطهارة

فيناديهم النبي ﷺ للسيم التي عليهم فيقال ليس هؤلاء مما وعدت بهم إن هؤلاء بدلوا بعد أي لم يموتوا علي ما ظهر من إسلامهم.

والثاني: أن المراد من كان في زمن النبي ﷺ ثم ارتدوا بعده فيناديهم النبي ﷺ وإن لم يكن عليهم سيما الوضوء لما كان يعرف ﷺ في حياته من إسلامهم فيقال ارتدوا بعد.

والثالث: أن المراد به أصحاب المعاصي والكبائر الذين ماتوا على التوحيد وأصحاب البدع الذين لم يخرجوا ببدعتهم عن الإسلام وعلى هذا القول لا يقطع لهؤلاء الذين يزادون بالنار بل يجوز أن يزادوا عقوبة لهم ثم يرحمهم الله سبحانه وتعالى فيدخلهم الجنة بغير عذاب، قال أصحاب هذا القول ولا يمتنع أن يكون لهم غرة وتحجيل ويحتمل أن يكون كانوا في زمن النبي ﷺ وبعده لكن عرفهم بالسيما وقال الإمام الحافظ أبو عمرو بن عبدالبر كل من أحدث في الدين فهو من المطرودين عن الحوض كالخوارج والروافض وسائر أصحاب الأهواء، قال وكذلك الظلمة المسرفون في الجور وطمس الحق والمعلنون بالكبائر قال وكل هؤلاء يخاف عليهم أن يكونوا ممن عنوا بهذا الخبر والله أعلم)[1].

الرأي الراجح

القول الراجح في ذلك أن الشرب يكون قبل الميزان والصراط وهو ما أشار إليه القاضي عياض في أحد الأقوال التي ذكرها ونقلها الإمام النووي عنه والذي قال فيه: (وظاهر هذا الحديث أن جميع الأمة يشربون منه لا من ارتد وصار كافراً). وظاهر كلامه هنا يحمل على أن الشرب يكون قبل الميزان والصراط فمن كان كافراً مرتداً فلن يشرب منه لا قبل ولا بعد أما غير ذلك فإنهم يشربون وهو الراجح عند السلف كما ذكرت سابقاً.

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص١١٧/ ٣

وأما من يشرب منه فهذه من المسائل الخلافية والراجح فيها أن ما قرره الإمام النووي رحمه الله أن الكافر المرتد لا يشرب منه إطلاقاً، أما ما عداهم فمن أهل البدع والأهواء لمن ماتوا على التوحيد الذين لم يخرجوا ببدعتهم عن الإسلام فهم تحت مشيئته إن شاء عذبهم وإن شاء عفا عنهم ومن ذلك ورود الحوض فهم تحت مشيئة الله والله أعلم.

* * *

المبحث السابع

ختم النبوة بمحمد ﷺ

وكما يجب الإيمان بعموم رسالته ﷺ على ما سبق بيانه، يجب كذلك الإيمان بأن النبوة قد ختمت به ﷺ، وأن رسالته هي خاتمة الرسالات السماوية، فلا نبي بعده ولا رسول وعلى هذا دل الكتاب والسنة، وأجمعت عليه الأمة الإسلامية، قال تعالى: ﴿ما كان مُحَمَّدٌ أبَا أَحَدٍ مِن رِجَالِكُمْ ولَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عليما﴾ [1] وقال رسول الله ﷺ: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»[2].

رأي الإمام النووي

قرر الإمام النووي رحمه الله مذهب أهل السنة والجماعة في إثبات ختم النبوة بمحمد ﷺ وأنه لا نبي بعده قال الإمام النووي في شرح الحديث السابق (وفيه فضيلته ﷺ وأنه خاتم النبيين وجواز ضرب الأمثال في العلم وغيره)[3].

وقال رحمه الله في شرح حديث: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»[4].

---

(١) سورة الأحزاب الآية ٤٠

(٢) أخرجه البخاري مع الفتح ص٥٥٨/ ٦ برقم ٣٥٣٥، ومسلم بنحوه في الفضائل برقم ٢٠ ـ ٢٣

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص٤٢/ ١٥. وانظر مقدمة النووي في شرح صحيح مسلم ص٣١/ ٢

(٤) أخرجه مسلم بشرح النووي ص١٦٠/ ٢ برقم ٣٤٠

قال الإمام (ففيه نسخ الملل كلها برسالة نبينا ﷺ[1] كما أثبت رحمه الله نزول عيسىٰ عليه السلام في آخر الزمان وحكمه بشريعة محمد ﷺ إذ لا شرع بعد شرعه ولا رسالة بعد رسالته عليه الصلاة والسلام قال رحمه الله في باب بيان نزول عيسىٰ ابن مريم حاكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ وإكرام الله تعالىٰ هذه الأمة زادها الله شرفاً وبيان الدليل علىٰ أن هذه الملة لا تنسخ وأنه لا تزال طائفة منها ظاهرين علىٰ الحق إلىٰ يوم القيامة.

قال الإمام: (فيه الأحاديث المشهورة فنذكر ألفاظها ومعانيها وأحكامها علىٰ ترتيبها)

(فقوله ﷺ: ليوشكن أن ينزل فيكم عيسىٰ ابن مريم ﷺ حكماً مقسطاً) أما ليوشكن فهي بضم الياء وكسر الشين ومعناه ليقربن وقوله فيكم أي في هذه الأمة وإن كان خطاباً لبعضها ممن لا يدرك نزوله وقوله ﷺ «حكماً» أي نزل حاكماً بهذه الشريعة لا ينزل نبياً برسالة مستقلة، وشريعة ناسخة بل هو حاكم من حكام هذه الأمة والمقسط العادل)[2].

وفي قول الرسول ﷺ لعلي: «أنت مني منزلة هارون من موسىٰ إلا أنه لا نبي بعدي»[3]. قال الإمام النووي رحمه الله: (وفي هذا الحديث دليل علىٰ أن عيسىٰ ابن مريم ﷺ إذا أنزل في آخر الزمان ينزل حكماً من حكام هذه الأمة يحكم بشريعة نبينا محمد ﷺ ولا ينزل نبياً وقد سبقت الأحاديث المصرحة بها ذكرناه في كتاب الإيمان)[4].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٦٢/ ٢

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٦٣/ ٢

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووي ص١٤٢/ ١٥ برقم ٣٠

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٤٢/ ١٥

ورد على منكري نزول عيسى عليه السلام، فقال: (قال القاضي رحمه الله تعالى: نزول عيسى عليه السلام وقتله الدجال حق، وصحيح عند أهل السنة للأحاديث الصحيحة في ذلك وليس في العقل ولا في الشرع ما يبطله فوجب إثباته وأنكر ذلك بعض المعتزلة والجهمية ومن وافقهم وزعموا أن هذه الأحاديث مردودة بقوله تعالى (خاتم النبيين)[1] وبقوله ﷺ «لا نبي بعدي»[2] وبإجماع المسلمين أنه لا نبي بعد نبينا ﷺ، وأن شريعته مؤبدة إلى يوم القيامة لا تنسخ وهذا الاستدلال فاسد لأنه ليس المراد بنزول عيسى عليه السلام أنه ينزل نبياً مشرعاً بشرع ينسخ شرعنا. ولا في هذه الأحاديث ولا في غيرها شيء من هذا بل صحت هذه الأحاديث هنا، وما سبق في كتاب الإيمان وغيرها أنه ينزل حكماً مقسطاً بحكم شرعنا ويحيي من أمور شرعنا ما هجره الناس)[3].

قلت: ما قرره الإمام رحمه الله في شرح صحيح مسلم هو الحق الذي تؤيده الأدلة من الكتاب والسنة وهو مذهب سلف الأمة قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمها الله: (ولابد في الإيمان أن تؤمن أن محمداً ﷺ خاتم النبيين، ولا نبي بعده، وأن الله أرسله إلى جميع الثقلين الجن والإنس، فكل من لم يؤمن بما جاء به فليس بمؤمن، فضلاً عن أن يكون من أولياء الله المتقين، ومن آمن ببعض ما جاء به وكفر ببعض فهذا كافر ليس بمؤمن. . .)[4] والله تعالى الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

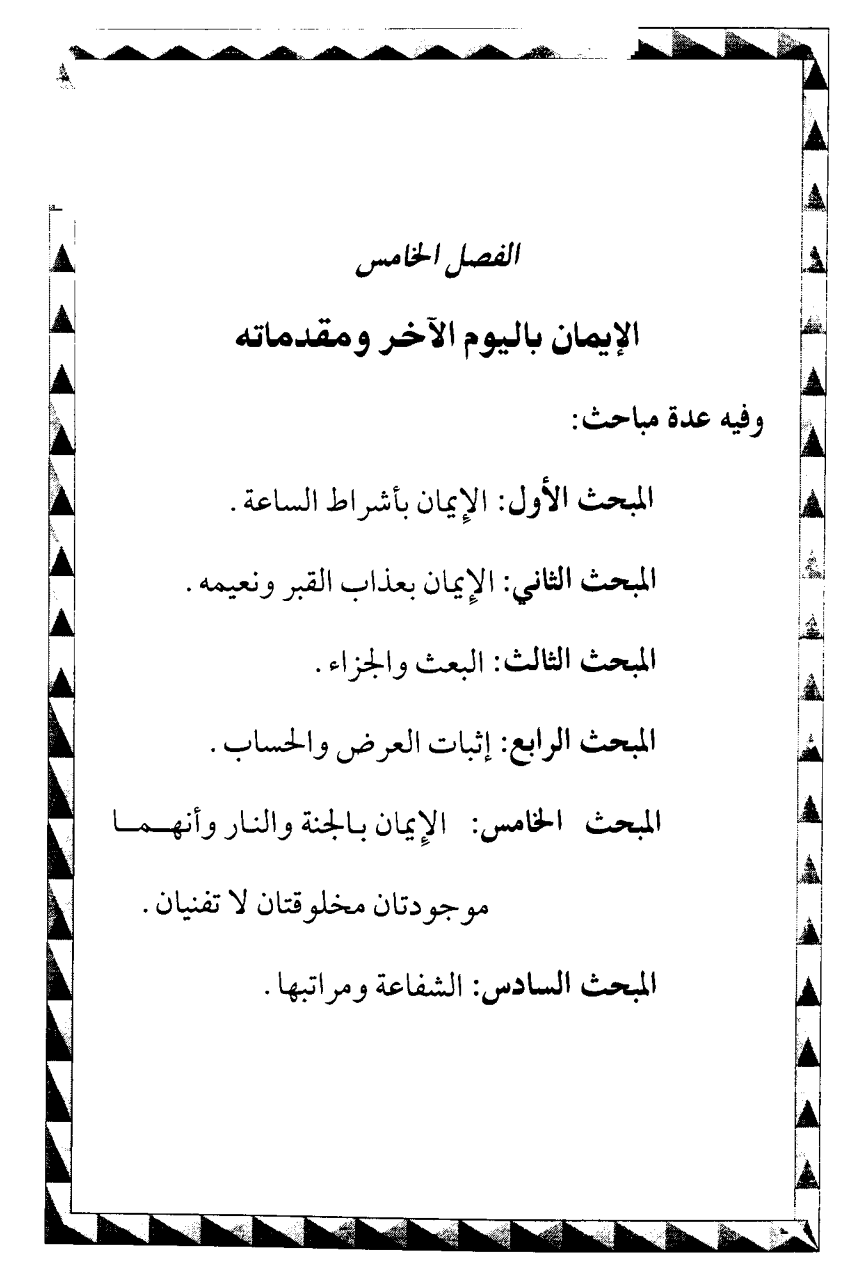
* * *

(١) سورة الأحزاب، آية ٤٠

(٢) سبق تخريجه

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص٦٠ ـ ٦١/ ١٨ كتاب الفتن

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ص١٣٠/ ١١



الفصل الخامس

الإيمان باليوم الآخر ومقدماته

وفيه عدة مباحث:

المبحث الأول: الإيمان بأشراط الساعة.

المبحث الثاني: الإيمان بعذاب القبر ونعيمه.

المبحث الثالث: البعث والجزاء.

المبحث الرابع: إثبات العرض والحساب.

المبحث الخامس: الإيمان بالجنة والنار وأنهما موجودتان مخلوقتان لا تفنيان.

المبحث السادس: الشفاعة ومراتبها.

الفصل الخامس

الإيمان باليوم الآخر ومقدماته

يجدر بي قبل أن أتكلم عن مباحث هذا الفصل بيان معنىٰ الإيمان باليوم الآخر، وأدلته من الكتاب والسنة .

• تعريفه وبعض أسمائه

المراد باليوم الآخر فناء الأكوان والعوالم كلها وانتهاء الحياة بكاملها وإقبال الحياة الآخرة وابتداؤها، وسمي باليوم الآخر لأنه لا يوم بعده، وله أسماء أخرىٰ كثيرة لا يتسع المقام للتوسع فيه (١).

ولكن من أسمائه المعاد، والمعاد في اللغة مصدر أو ظرف يعود عوداً وعودة ومعاودة أي رجع، قال ابن منظور: والمعاد المصير والمرجع والآخرة معاد الخلق، يقال أذكر المعاد أي أذكر مبعثك في الآخرة (٢).

وأما معنىٰ المعاد في الاصطلاح الشرعي: فهو (الرجوع إلىٰ الوجود بعد الفناء أو رجوع أجزاء البدن إلىٰ الاجتماع بعد التفرق وإلىٰ الحياة بعد الموت، والأرواح إلىٰ الأبدان بعد المفارقة)(٣).

---

(١) اعتنىٰ بعض أهل العلم بذكر هذه الأسماء والاستدلال عليها، منهم الغزالي في كتاب إحياء علوم الدين ٤٤/ ٤ ، والقرطبي في كتابه التذكرة في أحوال الموتىٰ والآخرة ص٢٦٢ ـ ٢٨٤/ ١ .
والحافظ ابن كثير في النهاية المسمىٰ الفتن والملاحم ص٣٥٥ ـ ٣٠٦/ ١ بتحقيق طه زيني وغيره .

(٢) لسان العرب ص ٩٢٠/ ٢ ، وأيضاً تهذيب اللغة للأزهري ١٢٨/ ٣ .

(٣) شرح المقاصد للتفتازاني ص٨٢/ ٥ بتحقيق عبدالرحمن عميرة .

وعلىٰ هذا يقال ليوم القيامة يوم المعاد، لأن الناس يعودون فيه أحياء، وهناك كلمتان مرادفتان للمعاد وهما : البعث والنشور وقال سبحانه : ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ﴾ [1]، «أي يعيدهم بعدما صاروا في قبورهم رمما ويوجدهم بعد العدم»[2].

وقال سبحانه في النشور : ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ﴾ [3]. والنشور هو البعث والمعاد وإحياء الأموات بعد الموت، يقال أنشر الله الموتىٰ فنشروا[4].

فالمراد بهذه الكلمات الثلاث (المعاد، البعث، النشور) إحياء الله تعالىٰ للإبدان بعد موتها وفنائها من أجل محاسبتها إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

ويطلق لفظ المعاد ويراد به اليوم الآخر بما فيه من تفاصيله وهو المعنىٰ ههنا .

- معنى الإيمان بالمعاد

يتضح مما سبق معنىٰ الإيمان بالمعاد وأنه هو معنىٰ الإيمان باليوم الآخر، وهو التصديق الجازم بكل ما أخبر الله عز وجل به في كتابه وعلىٰ لسان رسوله ﷺ مما يكون بعد الموت من عذاب القبر ونعيمه وما يكون من النفخ في الصور وخروج الخلق من القبور. وما يحصل يوم القيامة من الأهوال والأفزاع وتفاصيل الحشر ونشر الصحف، ووضع الميزان والصراط وورود الحوض والشفاعة لمن أذن الله له، ودخول الجنة والنار وما يحدث قبل هذه الأمور مما هو علامات أو أشراط للساعة، إلىٰ غير ذلك من الأمور التي يجب الإيمان بها لورودها في الكتاب والسنة الصحيحة والتي سيأتي تفصيل الحديث عنها إن شاء الله في المباحث الآتية .

---

(١) سورة الحج، الآية : ٧ .

(٢) تفسير ابن كثير ص ٢٠٨/ ٣ .

(٣) سورة فاطر، الآية : ٩ .

(٤) تفسير ابن كثير ص ٥١١/ ٣ ، وأيضًا فتح القدير ص ٣٤٠/ ٤ .

- بعض الأدلة على وجوب الإيمان بالمعاد (اليوم الآخر)

الإيمان بالمعاد - أو اليوم الآخر - ركن من أركان الإيمان، وأصل عظيم من أصوله العظام، لا يحكم للمرء بالإيمان إلا به، وقد تضافرت نصوص الكتاب والسنة الدالة عليه والآمرة به والمثنية على المؤمنين به المستعدين له والآمرة بمحاربة من لا يؤمن به.

١ - من ذلك قوله سبحانه في أول سورة من كتابه الكريم: ﴿الٓمٓ ① ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ② الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ③ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ④ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِن رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١).

٢ - وقوله عز وجل أيضًا: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾(٢).

٣ - وقال سبحانه آمراً بقتال منكر هذا اليوم: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ ...﴾(٣) الآية.

٤ - وأخبر عز وجل أن هذا اليوم هو وعد صادق وخبر لازم وأجل لا شك فيه فقال: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوعٌ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَشْهُودٌ ⑩③ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلاَّ لأَجَلٍ مَعْدُودٍ﴾(٤).

٥ - وأمر بالاستعداد له فقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا

---

(١) سورة البقرة، الآيات: ١ - ٥.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٧٧.

(٣) سورة التوبة، الآية: ٢٩.

(٤) سورة هود، الآية: ١٠٣ - ١٠٤.

يغرنكم بالله الغرور﴾ (1).

٦ ـ وكانت آخر آية نزلت في كتابه الكريم هي الوصية به والعمل له، قال سبحانه: ﴿واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون﴾(2).

والآيات في هذا الباب كثيرة جدًا، بل إنه لا تكاد تخلو صفحة من كتاب الله الكريم إلا وفيها الحديث عن هذا اليوم العظيم وما فيه من ثواب وعقاب، بل خصت مواضع كثيرة من القرآن الكريم للرد على شبه المنكرين له بأسلوب عذب جميل يخاطب العقل والروح معًا بما يدحض كل شبهة ويقطع كل شك في وقوع ذلك اليوم العظيم (3).

وأما النصوص من السنة الدالة على وجوب الإيمان باليوم الآخر، فهي كثيرة منها:

ـ قوله في حديث جبريل المشهور: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . . . .»(4).

ـ وقوله عليه الصلاة والسلام: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع، يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالموت ويؤمن البعث بعد الموت ويؤمن بالقدر»(5).

---

(1) سورة لقمان، الآية: ٣٣.

(2) سورة البقرة، الآية: ٢٨١.

(3) انظر: تفصيل ذلك في تفسير ابن كثير ٣/ ٥٨١ ـ ٢٨٢، وكتاب اليوم الآخرة القيامة الكبرى للدكتور عمر الأشقر ص٧٣ـ٧٦، الذي عقد مبحثًا خاصًا للأدلة على البعث والنشور وقد أجاد فيه وأفاد فجزاه الله خيرًا فليراجع.

(4) رواه مسلم وقد تقدم.

(5) رواه الترمذي في كتاب القدر باب ما جاء في الإيمان بالقدر خيره وشره ٤/ ٣٩٣، برقم ٢١٤٥.

فهذه الآيات والأحاديث وغيرها كثير جدًا تدل على وجوب الإيمان باليوم الآخر، وتبيِّن أهميته ومكانته في الإسلام .

وأما الفطرة السليمة والعقل السليم فقد دلاّ أيضًا على هذا الأمر، فإنه من المستحيل عقلاً أن يترك الناس يعملون كيفما يشاؤون ثم يتركون بلا حساب ولا عقاب ولا ثواب، فمن سيأخذ للمظلوم حقه ؟ ومن سيجازي المحسن خيرًا والمسيء شرًا إن لم يكن جمع ولقاء آخر يجمعهم برب العالمين وأعدل العادلين ليحاسب الخلق عما كانوا يعملون ؟ وقد ثبت بما لا مجال للشك فيه أن هذا الكون محدث ومخلوق، وما كان كذلك فالفناء من صفاته اللازمة التي لا تنفك بحال وصدق الله إذ يقول : ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) هَذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾[1] .

* * *

(١) سورة إبراهيم، الآيات : [٤٨ ـ ٥٢] .

* قول الإمام النووي في اليوم الآخر ومقدماته

المبحث الأول

الإيمان بأشراط[1] الساعة

أشراط الساعة هي علامات القيامة التي يعقبها قيام الساعة، وسميت بذلك لسرعة الحساب فيها، أو لأنها تفجأ الناس في ساعة فيموت الخلق كلهم بصيحة واحدة[2].

وأشراط الساعة قسمان، صغرىٰ وهي تتقدم الساعة بأزمان بعيدة، وكبرىٰ وهي التي تقارب قيام الساعة مقاربة وشيكة وسريعة.

وعلامات القيامة كثيرة جداً بينتها نصوص الكتاب والسنة، وقد تناول الإمام النووي ـ رحمه الله ـ جملة منها في كتابه شرح صحيح مسلم، إلا أنه في كثير من الأحيان لا يشير إلا إشارات عابرة إلىٰ بعضها، وقد جمعت ما تيسر لي من ذلك، وسأختصر الحديث في هذا المبحث عما نص عليه هو في هذا الأمر وأبدأ أولاً بالعلامات الصغرىٰ.

---

(١) أشراط معناها علامات، وأحدها شرط بفتح الشين والراء، وقيل مقدمات وقيل هي صغار أمورها قبل تمامها وكله متقارب، شرح صحيح مسلم للنووي، ص١٤٦/١..

وهي تأتي بمعنىٰ الإمارات قال الإمام النووي: (قوله فأخبرنا عن إماراتها) والإمارت بأثبات الهاء وحذفها هي العلامة. شرح صحيح مسلم ص١٤٢/١.

وهي أيضاً بمعنىٰ مقدمات قال الإمام قوله: «فقام فزعًا يخشىٰ أن تكون الساعة» هذا قد يستشكل من حيث أن الساعة لها مقدمات كثيرة لابد من وقوعها ولم تكن وقعت كطلوع الشمس.. شرح صحيح مسلم للنووي ص١٩١/٦.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر ص٤٢٢/٢..

المطلب الأول: بعض العلامات الصغرى

١ ـ ظهور الفتن

من علامات الساعة الصغرىٰ ظهور الفتن، قال رسول الله ﷺ: «سيكون فتنة القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي، من تشرف لها تستشرفه[١] ومن وجد ملجأ فليلذبه»[٢].

فقد نبه الإمام النووي ـ رحمه الله ـ عند شرحه لهذا الحديث أن ظهور الفتن من علامات الساعة فقال: «فمعناه بيان عظيم خطرها والحث علىٰ تجنبها والهرب منها، ومن التشبث في شيء وأن شرها وفتنتها يكون علىٰ حسب التعلق بها»[٣].

قلت: وقد دلت نصوص كثيرة صحيحة أخرىٰ علىٰ أن من علامات الساعة كثرة الهرج، وهو القتل واللغط وظهور الفتن وانتشارها ونزولها في البلاء وكبر بلائها وهولها، حتىٰ يمسئ المرء المسلم من شدة وقعها كافر أو يصبح مؤمنًا ويمسي كافرًا، وتجيء الفتنة تلو الأخرىٰ، فيقول المؤمن هذه مهلكتي ثم تنكشف وتظهر أخرىٰ، فيقول هذه هذه إلىٰ أن يشاء الله، فلا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه. فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه»[٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرًا ويمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا»[٥].

---

(١) تستشرفه: تقلبه وتصرعه، وقيل هو من الإشراف بمعنىٰ الإشفاء علىٰ الهلاك. شرح صحيح مسلم ص١٨/٨.

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي ص١٨/٧، برقم ٢٨٨٦.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٨/٨.

(٤) رواه البخاري في كتاب الفتن باب لا يأتي زمان إلا والذي بعده شر منه ص٢٢/ ١٣ برقم ٧٠٦٨.

(٥) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب الحث علىٰ المبادرة بالأعمال ص١١٤ ـ ٢/١٢٥ برقم ١٨٦.

وقال ﷺ: «إنه لم يكن نبي من قبلي إلا وكان حقًا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم على شر ما يعلمه لهم، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها وسيصيب أخرها بلاء وأمور تنكرونها وتجيء فتنة فيرقق[1] بعضها بعضًا، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي ثم تنكشف فيقول المؤمن هذه هذه، فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتي إليه . . .[2] الحديث.

وقد أرشد ﷺ المسلمين إلى ما يعصمهم من هذه الفتن والشرور والآثام فأمر بالتعوذ بالله منها وبالابتعاد عنها مع المبادرة بالأعمال الصالحة والإيمان الصحيح بالله وباليوم الآخر ولزوم الجماعة المسلمين.

ومن ذلك قوله ﷺ: «تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن»[3]. إلى آخر تلك النصوص في هذا الشأن. اللهم إنا نعوذ بك من الفتن ما ظهر منها وما بطن ونسألك الثبات على الحق إلى يوم نلقاك.

٢ ـ خروج الدجالين الكذابين أدعياء النبوة

من أمارات الساعة وأشراطها خروج الدجالين الكذابين الذين يدّعون النبوة أو

---

(١) قال النووي: (هذه اللفظة رويت على أوجه: أحدهما وهو الذي نقله القاضي عياض عن جمهور الرواة (يرقق) بضم الياء وفتح الراء وبقافين، أي يصير بعضها رقيقًا، أي خفيفًا لعظم ما بعده. فالثاني يجعل الأول رقيقًا، وقيل معناه يشبه بعضا بعضا، وقيل: بدون بعضها في بعض، ويذهب ويجيء، وقيل معناه يسون بعضها إلى بعض بتحسينها وتسويلها، والوجه الثاني فيرفق بفتح الياء وإسكان الراء وبعدها فاء مضمومة، والثالث: فيدفق بالدال المهملة الساكنة وبالفاء المكسورة أي يدفع ويصيب شرح صحيح مسلم للنووي ص١٩٥/ ١٢.

(٢) رواه مسلم في كتاب الإمارة باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء ص١٩٥ ـ ١٩٦/ ١٢، برقم ١٨٤٤.

(٣) رواه مسلم في كتاب الإمارة باب الجنة وصفة يقدمها باب عرض معقد الميت عليه في الجنة والنار ص١٦٦/ ١٧ برقم (٢٨٦٧).

يثيرون الفتنة بأباطيلهم، وقد أخبر النبي ﷺ أن عدد هؤلاء قريب من الثلاثين فقال: «لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله»(١).

قال الإمام رحمه الله: «معنى يبعث يخرج ويظهر وسبق في أول الكتاب تفسير الدجال وأنه من الدجل وهو التمويه وقد قيل غير ذلك، وقد وجد من هؤلاء خلق كثيرون في الأعصار وأهلكهم الله تعالى وقلع آثارهم وكذلك يفعل بمن بقي منهم»(٢).

قلت: صدق الإمام رحمه الله ووافق الحق حين قال أنه قد أهلك الله من ظهر منهم، وسوف يهلك من بقي منهم، لأنه لا يستبعد أن يظهر دجالون آخرون إلى أن يظهر الدجال الأكبر الأعور الكذاب ـ نعوذ بالله من فتنته فقد خطب رسول الله ﷺ يومًا فقال: «وأنه والله لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون كذابًا آخرهم الأعور الكذاب»(٣).

وأما قول من قال أنهم ظهروا جميعهم كلام فيه نظر والله أعلم ـ لأنه لم تحدد الأحاديث أسماء هؤلاء الدجاجلة مع تيقننا بأن أشهرهم وأكثرهم إفسادًا وأتباعًا قريب من ثلاثين كما بين ﷺ في الحديث السابق بل جاءت رواية صحيحة أنهم سبعة وعشرون منهم أربعة نسوة، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «في أمتي كذابون دجالون سبعة وعشرون منهم أربعة نسوة وإني خاتم النبيين ولا نبي بعدي»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام ص٧١٢/ ٦ برقم ٣٦٠٩، ومسلم بشرح النووي في كتاب الفتن باب لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل ص٣٦/ ١٨ برقم ١٥٧ .

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص٣٦/ ١٨ .

(٣) رواه أحمد بسند صحيح في المسند ص١٦/ ٥ .

(٤) رواه أحمد ص٣٥٦/ ٥، وصححه الألباني في الجامع ص٩٦/ ٤ برقم ٤١٣٤ .

ومن المعلوم تاريخياً أنهم لم يدع النبوة أربعة نسوة ويصير لهن شأن وأتباع كما كان لأول الدجالات الكذابات سجاح[1] التي ادعت النبوة وتبعها خلق كثير ولحقت بأول أدعياد النبوة مسيلمة الكذاب[2] فتزوجته، وقد حدثت ردة وفتنة عظيمة بسببهما، لكن الله عز وجل لطف بالمسلمين فقضى على مسيلمة في معركة، طاحنة ذهب ضحيتها عدد كبير من خيار الصحابة والتابعين، وذلك في عهد الخليفة الراشد أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فتابت سجاح بعد مقتل سليمة وأما رواية الدجاجلة ثلاثون فقد جاءت كما قال الحافظ ابن حجر على طريق جبر الكسر بدليل الحديث السابق وحديث (قريب من ثلاثين)[3].

٢ ـ بعثة الرسول النبي ﷺ

قال الإمام النووي في إثبات هذه العلامة: («قوله ﷺ «بعثت أنا والساعة هكذا»[4]. وفي رواية كهاتين وضم السبابة والوسطى وفي رواية قرن بينهما، قال قتادة: كفضل إحداهما على الأخرى، و . . . وأما معناه فقيل المراد بينهما شيء يسير كما بين الأصبعين في الطول، وقيل: هو إشارة إلى قرب المجاوزة)[5].

---

(١) هي سجاح بنت الحارث التميمية ادعت النبوة بعد وفاة الرسول ﷺ وكانت شاعرة أديبة عارفة بالأخبار. فتبعها خلق كثير فأقبلت بهم إلى الجزيرة تريد غزو المدينة فنزلت باليمامة فسمع بها مسيلمة فخافها وأقبل عليها جماعة من قومه وتزوج بها، فأقامت معه قليلاً ثم عادت إلى ديارها بعد علمها بخطر قتال المسلمين، فلما بلغها مقتل مسيلمة أسلمت وهاجرت إلى البصرة فتوفيت بها سنة (٥٥هـ). انظر: الإصابة ٤/ ٣٣١، الأعلام ٣/ ٧٨.

(٢) هو مسيلمة بن ثمامة بن كبير الحنفي المشهور بمسيلمة الكذاب، ولد ونشأ باليمامة، قدم النبي ﷺ في وفد بني حنيفة بعد فتح مكة وطلب منه أن يجعل له الأمر بعد فرفض ﷺ وبشره بأن الله قاتله، فلما عاد إلى اليمامة ادعى النبوية وكتب إلى النبي ﷺ رسالة يزعم فيها أنه أشرك معه في النبوة فكتب له ﷺ وسماه الكذاب وذلك سنة (١٠هـ) وبعد وفاة النبي ﷺ جهز أبو بكر رضي الله عنه جيشًا بقيادة خالد بن الوليد فأهلكه الله فقتل وأذلت جماعته وذلك سنة (١١ أو ١٢هـ). انظر: تاريخ خليفة ص ١٠٧، وسيرة ابن هشام، ص٧/ ٣، وشذرات الذهب ١/ ٢٣.

(٣) انظر فتح الباري ص ٩٣/ ١٣.

(٤) أخرجه مسلم بشرح النووي ص٧٠/ ١٨ برقم ٢٩٥٠ .

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي ص٧١/ ١٨ .

٤ ـ قتال الترك

قال رحمه الله في إثبات هذه العلامة ووقوعها كما أخبر عليه الصلاة والسلام:
«وهذه كلها معجزات لرسول الله ﷺ فقد وجد قتال هؤلاء الترك بجميع صفاتهم التي ذكرها ﷺ صغار الأعين حمر الوجوه ذلف الأنف عراض الوجوه كان وجوههم المجان المطرقة[١] يتنعلون الشعر فوجدوا بهذه الصفات كلها في زماننا وقاتلهم المسلمون مرات وقتالهم الآن»[٢].

٥ ـ اقتتال فئتين عظيمتين دعوتهما واحدة

هذه العلامة من العلامات الصغرىٰ التي وقعت في عهد الصحابة رضي الله عنهم وحيث أخبر ﷺ بوقوعها وكان ذلك من آيات نبوته ﷺ.

قال الإمام في إثباتها: (قوله ﷺ: «بؤس ابن سمية تقتلك فئة باغية».. قال العلماء: هذا الحديث حجة ظاهرة في أن عليًا رضي الله عنه كان محقًا ومصيبًا والطائفة الأخرىٰ بغاة لكنهم مجتهدون فلا إثم عليهم لذلك كما قدمناه في مواضع منها هذا الباب، وفيه معجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ من أوجه منها أن عمارًا يموت قتيلاً وأنه يقتله مسلمون وأنهم بغاة وأن الصحابة يقاتلون وأنهم يكونون فرقتين باغية وغيرها وكل هذا وقع مثل فلق الصبح ﷺ علىٰ رسول الله ﷺ الذي لا ينطق عن الهوىٰ إن هو إلا وحي يوحىٰ»[٣].

٦ ـ أن تلد الأمة ربتها

قال رحمه الله في شرح قوله ﷺ: «أن تلد الأمة ربتها» مثبتًا هذه العلامة..

(قوله ﷺ: «أن تلد الأمة ربتها» وفي الرواية الأخرىٰ ربها علىٰ التذكير وفي الأخرىٰ بعلها وقال: يعني السراري ومعنىٰ ربها وربتها سيدها ومالكها وسيدتها

---

(١) المجان: جمع مجن بكسر الميم وهو الترس والمطرقة: معناه تشبيه وجوه الترك في عرضها وتنور وجناتها بالترسة المطرقة، انظر في ذلك: شرح صحيح مسلم ص ٣٠/ ٨.
(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص٣١/ ١٨.
(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص٣٣/ ١٨.

ومالكتها. قال الأكثرون من العلماء هو إخبار عن كثرة السراري وأولادهن، فإن ولدها من سيدها بمنزلة سيدها لأن مال الإنسان صائر إلىٰ ولده. وقد يتصرف فيه في الحال تصرف المالكين، إما بتصريح أبيه له بالأذن وإما بما يعلمه بقرينة الحال أو عرف الاستعمال. وقيل معناه أن الأماء يلدن الملوك فتكون أمه من جملة رعيته وهو سيدها وسيد غيرها من رعيته. وهذا قول إبراهيم الحربي، وقيل معناه أنه تفسد أحوال الناس فيكثر بيع أمهات الأولاد في آخر الزمان فيكثر ترددها في أيدي المشترين حتىٰ يشتريها ابنها، ولا يدري ويحتمل علىٰ هذا القول، أن لا يختص هذا بأمهات الأولاد فإنه متصور في غيرهن. فإن الأمة تلد ولداً حراً من غير سيدها يشبهه أو ولداً رقيقاً بنكاح أو زنا، ثم تباع الأمة في الصورتين بيعًا صحيحًا وتدور في الأيدي حتىٰ يشتريها ولدها، وهذا أكثر وأعم من تقديره في أمهات الأولاد. وقيل في معناه غير ما ذكرناه ولكنها أقوال ضعيفة جداً أو فاسدة فتركتها، وأما بعلها فالصحيح في معناه أن البعل هو المالك أو السيد فيكون بمعنىٰ ربها علىٰ ما ذكرناه»[(١)].

٧ـ قتال اليهود

هذه العلامة ثابتة في قوله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتىٰ يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون حتىٰ يختبئ اليهودي من وراء الحجر والشجر فيقول الحجر والشجر: يا مسلم يا عبدالله هذا يهودي خلفي فتعال فاقتله (إلا) الغرقد فإنه من شجر اليهود»[(٢)]، ولقد أثبتها الإمام عند شرحه لهذا الحديث. فقال الإمام في شرحه: «والغرقد نوع من شجر الشوك معروف ببلاد بيت المقدس وهناك يكون قتل الدجال واليهود، وقال أبو حنيفة الدينوري: إذا عظمت العوسجة صارت غرقدة»[(٣)].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٤٢/١.

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي ص٣٦/١٨ برقم (٢٩٢٢).

(٣) شرح صحيح مسلم ص٣٦/١٨.

٨ـ طاعون عمواس

قال رحمه الله في إثبات وقوعه: «ذكر ابن قتيبة في المعارف عن الأصمعي أن أول طاعون كان في الإسلام طاعون عمواس بالشام في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فيه توفي أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه ومعاذ بن جبل وامرأتاه وابنه رضي الله عنهم»[١].

٩ـ نزول عيسى عليه السلام واستفاضة المال

قال رحمه الله في إثبات هذه العلامة: (قوله ﷺ ويفيض المال فهو بفتح الياء ومعناه يكثر وتنزل البركات وتكثر الخيرات بسبب العدل وعدم التظالم وتقيء الأرض أفلاذ كبدها كما جاء في الحديث الآخر.

وأيضًا تقل الرغبات لقصر الأمال وعلمهم بقرب الساعة فإن عيسىٰ عليه السلام علم من أعلام الساعة)[٢].

١٠ـ التطاول في البنيان

وهذه من العلامات الصغرىٰ ورد في إثباتها قوله ﷺ في حديث جبريل عندما سأله عن الإسلام والإيمان والإحسان وأشراط الساعة فقال ﷺ: «وأن ترىٰ الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان»[٣].

قال الإمام في شرحه: «وأما العالة فهم الفقراء والعائل الفقير والعيلة الفقر.. ومعناه أهل البادية وأشباههم من أهل الحاجة والفاقة تبسط لهم الدنيا حتىٰ يتباهون في البنيان. والله أعلم) [٤].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص٩٦/ ١ المقدمة.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٦٤/ ٢.

(٣) تقدم تخريجه.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٤٣/ ١.

وقال أيضًا: (فإن تطاول الرعاء في البنيان وفشوا المال وكون خمسين إمرأة لهن قيم واحد ليس بحرام بلا شك، وإنما هذه علامات والعلامة لا يشترط فيها شيء من ذلك، بل تكون بالخير والشر والمباح والمحرم والواجب وغيره والله أعلم»[1].

١١ ـ تقارب الزمان

يتقارب الزمان وينقص العلم. هذه من العلامات أيضًا ورد في إثباتها قوله ﷺ (يتقارب الزمان وينقص العلم)[2] قال في إثباته هذه العلامة: «ويتقارب الزمان أي يقرب من القيامة»[3].

١٢ ـ نقص العمل

من علامات القيامة الصغرىٰ نقص الأعمال أي قلتها وتعذرها. وما ورد في إثباتها قوله ﷺ: «بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرا، أو يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا يبيع دينه بعرض من الدنيا»[4].

قال الإمام: (معنىٰ الحديث الحث علىٰ المبادرة إلىٰ الأعمال الصالحة قبل تعذرها والإشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة المتراكمة كتراكم ظلام الليل المظلم لا المقمر»[5].

١٣ ـ رفع العلم وظهور الجهل

هذه من علامات الساعة وجاء في اثباتها حديث الرسول ﷺ: «إن بين يدي الساعة أيامًا يرفع فيها العلم، وينزل فيها الجهل ويكثر فيها الهرج، والهرج القتل»[6].

---

(١) المصدر نفسه، ص١٤٣/ ١ .

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي ص١٨٢/ ١٦ برقم (١٥٧) .

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٨١/ ١٦ .

(٤) مسلم بشرح النووي ص١١٤/ ٢ برقم (١١٨) .

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي ص١١٤/ ٢ .

(٦) أخرجه مسلم بشرح النووي ص١٨١/ ١٦ برقم (٢٦٧٢) .

قال الإمام: «ويقل الرجال بسبب القتل ويكثر النساء فلهذا يكثر الجهل والفساد ويظهر الزنا والخمر»[1].

١٤ـ خروج رجل من قحطان

ورد في إثبات هذه العلامة قوله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتىٰ يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه، وفي رواية: (لا تذهب الأيام والليالي، حتىٰ يملك رجل يقال له الجهجاه)[2]. وقوله ﷺ: (يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة)[3].

قال الإمام في إثبات هذه العلامة أثناء شرح الحديث الثالث: قوله ﷺ (ذو السويقتين) هي تصغير ساقي الإنسان لرقتها وهي صفة سوق السودان غالبًا، ولا يعارض هذا قوله تعالىٰ: ﴿حرمًا آمنا﴾ لأن معناه إلىٰ قرب القيامة وخراب الدنيا وقيل: يخص منه قصة ذي السويقتين. قال القاضي: الأول أظهر»[4].

١٥ـ إلقاء الشح

ورد إثبات هذه العلامة في قوله ﷺ: «يتقارب الزمان، ويقبض العلم وتظهر الفتن، ويلقي الشح ويكثر الهرج» قالوا: وما الهرج، قال: «القتل»[5].

قال الإمام في شرحه: (ويلقىٰ الشح هو بإسكان اللام وتخفيف القاف أي يوضع في القلوب ورواه بعضهم يلقي بفتح اللام وتشديد القاف أي يعطي والشح هو البخل بأداء الحقوق والحرص علىٰ ما ليس له)[6].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٨١/ ١٦.

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ٢٩/ ١٨ برقم ٦١.

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ٢٩/ ١٨ برقم ٥٧.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص

(٥) أخرجه مسلم بشرح النووي ص١٨١/ ١٦ برقم (١٥٧).

(٦) شرح صحيح مسلم ص١٨١/ ١٦.

١٦ ـ خروج نار بأرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى

أن خروج نار بأرض الحجاز تضيء أعناق الأبل ببصرىٰ علامة من علامات الساعة .

قال الإمام في إثباتها (هي من أشراط الساعة مستقلة وقد خرجت في زماننا بالمدينة سنة أربع وخمسين وستمائة (٦٥٤هـ) وكانت ناراً عظيمة جداً من جنب المدينة الشرقي وراء الحرة، تواتر العلم بها عند جميع الشام وسائر البلدان، وأخبرني من حضرها من أهل المدينة»[١] .

وقال أيضًا : قوله ﷺ : «لا تقوم الساعة حتىٰ تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرىٰ» هكذا الرواية تضيء أعناق وهو مفعول تضيء يقال أضاءت النار وأضاءت غيرها وبصرىٰ بضم الباء مدينة معروفة بالشام وهي مدينة حوران بينها وبين دمشق نحو ثلاثة مراحل»[٢] .

١٧ ـ موت الصالحين

جاء في إثبات أن موت الصالحين علامة من علامات الساعة قوله ﷺ: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من الناس ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتىٰ إذا لم يترك عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جهالاً فسألوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»[٣] .

قال الإمام رحمه الله : (هذا الحديث يبين أن المراد بقبض العلم من الأحاديث السابقة ليس هو محوه من صدور حفاظه ولكن معناه أن يموت حملته ويتخذ الناس جهالاً يحكمون بجهالاتهم فيضلون ويضلون)[٤] .

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص٢٣/ ١٨ .

(٢) أخرجه مسلم بشرح للنووي ص٢٤/ ١٨ برقم (٢٩٠٢) .

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووي ص١٨٢ ـ ١٨٣/ ١٦ برقم (٢٦٧٣) .

(٤) شرح صحيح مسلم ص١٨٣/ ١٦ .

قلت: وافق الإمام النووي رحمه الله مذهب السلف في إثبات هذه العلامات وهي كثيرة أشار الإمام إلىٰ معظمها ومن أراد الاستزادة فليراجعها في مظانها[1].

* * *

(١) كتاب التذكرة ص٢١٠ ـ ٢/٤١١ .

المطلب الثاني: العلامات الكبرى

علامات الساعة الكبرىٰ عشرة كما وضح العلماء رحمهم الله، وقد نص الإمام النووي علىٰ سبعة منها وإليك ذلك بالتفصيل:

١ ـ ظهور الدجال

فتنة ظهور الدجال من أعظم الفتن والمحن وأخطرها علىٰ الناس، وذلك لأن الدجال منبع الكفر والضلال وينبوع الفتن، ومن أجل هذا فقد أنذرت به الأنبياء أقوامهم وحذرت منه أممهم، وكان رسول الله ﷺ يستعيذ بالله منه في صلاته ويعلّم أمته[١] ذلك. وقد حذرهم منه أشد تحذير ونعته لهم نعوتًا ظاهرة جلية لا تخفىٰ علىٰ أحد منهم وبيّن أن فتنة من أكبر الفتن.

أ ـ سبب تسميته بالمسيح الدجال

أما سبب تسمية الدجال بالمسيح، فلكونه يمسح الأرض حين خروجه، أي يقطعها ولكونه إحدىٰ عينيه ممسوحة لا يبصر بها، ولأنه أعور والأعور يسمىٰ مسيحًا.

وأما سبب تسميته بالدجال، لأنه كذاب يغطي الحق ويستره ويظهر الباطل ويموّه علىٰ الناس ويلبّس عليهم، يقال دجّل إذا موّه، وقيل غير ذلك[٢]، فهو الأعور

(١) فعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يدعو في الصلاة فيقول: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال...» الحديث. رواه البخاري في كتاب الأذان باب (١٤٩) ٢/ ٣١٧. برقم ٨٣٢، ومسلم بشرح النووي في كتاب المساجد ومواضع الصلاة باب (٢٥) ٧٤/ ٣ برقم ٥٨٩، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تشهد أحدكم فيستعذ بالله من أربع يقول: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات ومن شر فتنة المسيح الدجال» رواه مسلم بشرح النووي في كتاب المساجد باب (٢٥) برقم ٥٨٨.

(٢) إكمال المعلم ١/ ٥٢٠ ـ ٥٢١، وانظر أيضًا النهاية في غريب الحديث ٢/ ١٠٢، ٤/ ٣٢٧، وشرح صحيح مسلم ٢/ ٢٠٢، وفتح الباري ص ٩٧/ ١٣، ولسان العرب ص ١/ ٩٤٨.

الدجال كما صحت بذلك الأحاديث وإليك طرفًا منها :

ب – بعض الأحاديث الدالة على فتنة الدجال

لقد تواترت[1] الأحاديث الواردة بشأن الدجال ـ أخسأه الله وأخزاه ـ ورغبة في الاختصار فإني أذكر بعض تلك النصوص :

١ ـ فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قام رسول الله في الناس فأثنى على الله بما هو أهله ثم ذكر الدجال فقال : «إني لأنذركموه وما من نبي إلا وقد أنذره قومه، ولكني سأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه، إنه أعور وإن الله ليس بأعور»[2].

٢ ـ وعن ابن عمر أيضًا أن رسول الله ﷺ ذكر الدجال بين ظهراني الناس فقال : «إن الله ليس بأعور وإن المسيح الدجال أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافئة»[3] متفق عليه[4].

٣ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ألا أخبركم عن الدجال حديثًا ما حدث به نبي قومه، إنه أعور وإنه يجيء معه مثل الجنة والنار، فالتي

---

(١) نظم المتناثر من الحديث المتواتر للكتاني المتوفي سنة (١٣٤٥هـ) ص١٤٦ برقم ٢٩٠.

(٢) رواه البخاري في كتاب الفتن باب ذكر الدجال ١٣/ ٩٦ ـ ٩٧ برقم ٧١٢٧ .

(٣) طافئة : قال النووي : (رويت بالهمز وتركه وكلاهما في صحيح الصحيح، فالمهموز (طافئة) هي التي ذهب نورها، وغير المهموز (طافية) هي التي نتأت وطفت مرتفعة، والعور في اللغة العيب. وقوله ﷺ : «إن الله ليس بأعور والدجال أعور» فبيان لعلامة بينه تدل على كذب الدجال دلال قطعية بديهية يدركها كل أحد ولم يقتصر على كونه جسمًا أو غير ذلك من الدلائل القطعية لكون بعض العوام لا يهتدي إليها) انظر : شرح صحيح مسلم ١٨/٤٧، وانظر إكمال المعلم ص ١/٥٢١ .

(٤) رواه البخاري في كتاب التوحيد باب قوله الله ﴿ولتصنع على عيني﴾ ١٣/ ٤٠١ برقم ٧٤٠٧، ومسلم في كتاب الفتن باب ذكر الدجال وصفته ١٨/٤٦ برقم ١٦٩ واللفظ له .

يقول إنها الجنة هي النار، وإني أنذرتكم به كما أنذر نوح قومه»[١].

٤ ـ وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من نبي إلا وقد أنذر أمته الأعور الكذاب، إلا إنه أعور وإن ربكم عز وجل ليس بأعور، مكتوب بين يديه ك ف ر» ـ وفي رواية ـ «الدجال ممسوح العين مكتوب بين عينيه كافر ثم تهجاها ك ف ر يقرؤه كل مسلم»[٢].

٥ ـ وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدجال يخرج وإن معه ماءً ونارًا فأما الذي يراه الناس ماءً فنار تحرق، وأما الذي راه الناس نارًا فماء بارد عذب، فمن أدرك ذلك منكم فليقع في الذي يراه نارًا فإنه ماء عذب طيب» متفق عليه[٣]. إلى غير ذلك من الأحاديث.

ج ـ موقف الإمام النووي من أحاديث الدجال

لقد سلك الإمام النووي ـ رحمه الله ـ في أحاديث الدجال مسلك أهل السنة والجماعة فأثبتها على حقيقتها وبين أن خروج الدجال من أشراط الساعة الكبرى ورد على من تأول هذه الأحاديث بكلام قوي نقله عن القاضي فقد قال عند بداية شرحه لها:

«هذه الأحاديث التي ذكرها مسلم وغيره في قصة الدجال حجة مذهب أهل الحق في صحة وجوده وأنه شخص بعينه ابتلى الله به عباده وأقدره على أشياء من مقدورات الله تعالى».

---

(١) رواه مسلم في كتاب الفتن باب ذكر الدجال وصفته وما معه ص١٨/٤٦ برقم ٢٩٣٦.

(٢) رواه البخاري في كتاب الفتن باب ذكر الدجال ١٣/ ٩٧ برقم ٧١٣١، ومسلم في كتاب الفتن ذكر الدجال وصفته وما معه ١٨/٤٧ برقم ٢٩٣٣.

(٣) رواه البخاري في كتاب الفتن باب ذكر الدجال ص ٩٧/ ١٣ برقم ٧١٢٩، ومسلم في كتاب الفتن باب ذكر الدجال وصفه وما معه ص ١٨/٤٩ برقم ٢٩٣٥.

ثم قال: «هذا مذهب أهل السنة وجميع المحدثين والفقهاء والنظار خلافًا لمن أنكره وأبطل أمره من الخوارج والجهمية وبعض المعتزلة وخلافًا للبخاري المعتزلي وموافقيه من الجهمية وغيرهم في أنه صحيح الوجود ولكن الذي يدعي مخارف وخيالات لا حقائق لها وزعموا أنه لو كان حقًا لم يوفق بمعجزات الأنبياء[1] صلوات الله وسلام عليهم وهذا غلط من جميعهم لأنه لم يدع النبوة فيكون ما معه.

كالتصديق له[2] وإنما يدعي الإلهية وهو من نفس دعواه مكذب لها بصورة حاله ووجود دلائل الحدوث فيه ونقص صورته وعجزه عن إزالة الصور الذي في عينيه وعن إزالة الشاهد بكفره المكتوب بين عينيه ولهذه الدلائل وغيرها لا يغتر به إلا رعاع من الناس لسد الحاجة والفاقه. رغبة بما يسد الرمق أو تقيه وخوفًا من أذاه لأن فتنته عظيمة جدًا تدهش العقول وتحير الألباب مع سرعة مروره في الأمر فلا يمكث بحيث يتأمل الضعفاء حاله ودلائل الحدوث فيه والنقص فيصدقه من صدقه في هذه الحالة ولهذا حذرت الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فتنته ونبهوا على نقصه ودلائل إبطاله، أما أهل التوفيق فلا يغترون به ولا يخدعون لما معه لما ذكرنا من الدلائل المكذبه له مع ما سبق لهم من العلم بحا له ولهذا يقول له الذي يقتله ثم يحييه ما ازددت فيك إلا بصيرة هذا آخر كلام القاضي رحمه الله»[3].

---

(١) وهؤلاء إنما قالوا هذا لأن آية صدق النبوة عندهم هي المعجزة، فحسب ومن هذا الباب أنكروا كرامات الأولياء وسائر الخوارق لغير الأنبياء وهذا المذهب ليس بصحيح والنبوة يمكن أن تثبت بغير المعجزة، بل إن حال النبي وسيرته أدل دليل على صدقه.

(٢) ليس هذا بصحيح، فإنه لو ادعى النبوة لم تكن هذه الخوارق دالة على صدقه، لأن حقيقته وسيرته تدل على كذبه، ولذلك لا يغتر به إلا رعاع الناس كما ذكر.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٨/٤٦.

قلت: لقد أجاد القاضي عياض رحمه الله إجادة فائقة بما ذكره آنفًا، كما أجاد إمامنا رحمه الله وأحسن الاختيار في اختيار قول القاضي[1]، والذي يوافق الحق وهو من أجمع، ما قال علماء أهل السنة في هذا الشأن فجزاه الله خيراً.

ولقد تعرض الإمام رحمه الله لكثير من المسائل المتعلقة بفتنة الدجال وشره العظيم، ومنها أن فتنته أعظم فتنة، ومدة مكثه في الأرض وعما يفعله المسلم للوقاية منه، وما الذي يدعيه عند الخروج، وما الذي يظهر على يده من الخوارق، ودخوله كل مكان إلا مكة والمدينة، وهل هو ابن صياد أم لا؟ [2]ورغبة في عدم الإطالة اقتصرت على ما سبق ومن أراد الاستزادة والتوسع في ذلك ومعرفة أخبار هذا الخبيث العظيم ليحذر فتنته فليراجع ذلك في موطنه وفي كتب السنن والمسانيد وما ألفه علماء المسلمين إلى هذا الشأن[3].

٢ ـ نزول المسيح ابن مريم عليه السلام

من علامات الساعة العظمى نزول عيسى ابن مريم عليهما السلام حكمًا مقسطًا بشريعة الإسلام في آخر الزمان، حيث يقتل الدجال ويكسر الصليب ويضع الجزية ويمكث في الأرض ما شاء الله ثم يموت ويصلي عليه المسلمون ويدفن، وقد دلت نصوص الكتاب والسنة على هذا الأمر.

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص٤٦ ـ ١٧/ ١٨، وانظر إكمال المعلم ص ٤٧٥ ـ ٨/٤٧١.

(٢) انظر شرح صحيح مسلم ص١٨٣/ ١، ٥/٧٣، ٣٧، ٤٤، ٤٦، ٤٥، ٤٧، ٥٠، ٥٨، ٦٦، ٩٦، ١٨/٩٩.

فقد تناول هذه المسائل كلها.

(٣) انظر: على سبيل المثال: كتاب الفتن في الصحيحين وكتاب الفتن والملاحم وابن كثير، وكتاب الإشاعة للبرزنجي، والإذاعة لما كان وما يكون بين بدء الساعة لصديق حسن خانة، وأشراط الساعة يوسف الوابل. وغيرها.

أ ـ بعض النصوص الدالة على نزول عيسى عليه السلام وكلام الإمام النووي بشأن بعضها .

لقد ذكر الله عز وجل في كتابه الكريم آيتين تدلان على نزول عيسى عليه السلام قبل القيامة .

الآية الأولى : هي قوله تعالى : ﴿ **وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته** ﴾(١)، أي قبل موت عيسى عليه السلام، فالضمير في (به) راجع إلى عيسى وكذلك الضمير في (موته)، ومعنى الآية أنه لا يموت عيسى حتى يؤمن به كل كتابي في عصره، والمراد به عند نزوله في آخر الزمان كما وردت بذلك الأحاديث المتواترة، كما رجح ذلك أئمة المفسرين وهوقول كثير من التابعين فمن بعدهم(٢) .

الآية الثانية : قوله تعالى : ﴿ **وإنه لعلم الساعة** ﴾(٣) . أي نزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة على قرب الساعة، ويؤيد هذا القراءة الأخرى ﴿ **وإنه لعلم الساعة** ﴾ بفتح العين واللام، أي خروجه علم من أعلام الساعة وشرط من شروطها(٤) .

فعيسى عليه السلام لم يقتله اليهود ولم يصلب ـ كما زعم النصارى ـ بل رفعه الله إليه ببدنه وروحه فهو حي في السماء الآن، ولن يموت حتى ينزل قبل قيام الساعة . قال سبحانه مكذبًا النصارى في دعواهم صلبه ﴿ **وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا (١٥٦) وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا (١٥٧) بَل رَّفَعَهُ**

---

(١) سورة النساء، الآية : ١٥٩ .

(٢) انظر : تفسير ابن جرير ص١٨ ـ ٢١/ ١٦، وتفسير البغوي ص٤٩٧/ ١، وتفسير ابن كثير ص ٥١٣ ـ ٥٢٠/ ١، وفتح القدير ٥٣٥/ ١ .

(٣) سورة الزخرف، الآية : ٦١ .

(٤) انظر : تفسير البغوي ٤/ ١٤٣ ـ ١٤٤، وتفسير ابن كثير ٤/ ١١٨ ـ ١١٩، وفتح القدير ٤/ ٥٦٢ .

اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾[1]، فهـذه عـقيـدة راسخة يجـب على المؤمن الإيمان بها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: قوله تعالى: ﴿ بل رفعه الله إليه ﴾ يبين أنه عليه السلام رفع ببدنه وروحه كما ثبت في الصحيح أنه ينزل ببدنه وروحه، إذ لو أريد موته لقال وما قتلوه بل صلبوه بل مات ...[2]، وأما قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾[3] فالصحيح الراجح من أقوال العلماء والمفسرين في ذلك أنه تعالى رفعه إلى السماء من غير وفاة لأنه قد صحت الأحاديث بل تواترت بأنه ينزل ويقتل الدجال[4].

أما الأدلة من السنة على نزول عيسى عليه السلام فهي كثيرة جدًا متواترة كما نص على ذلك غير واحد من الأئمة، وقد أجمعت الأمة على أن نزوله عليه السلام علم من أعلام الساعة لم يخالف في ذلك إلا من شذ ممن لا يلتفت إليه ولا يعتد بخلافه[1]. وإليك بعض الأحاديث الواردة في ذلك:

١ ـ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ،يفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها، ثم يقول أبو هريرة: (واقرؤ إن شئتم ﴿ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ

---

(١) انظر الشرح والإبانة ص ٢٤١، والشريعة ص ٣٨٠، وتفسير الطبري ٣/ ٢٩١، وتفسير ابن كثير ١/ ٥١١، وشرح العقيدة الطحاوية ص ٧٥٤/ ٢.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٤/ ٣٢٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٥٥.

(٤) انظر: تفسير الطبري ٣/ ٢٩١، تفسير البغوي ١/ ٣٠٨، وزاد المسير لابن الجوزي ١/ ٣٩٦، وتفسير القرطبي ٤/ ٩٨، وتفسير ابن كثير ١/ ٣٢٢، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ٤/ ٣٢٢، وفتح القدير ١/ ٣٤٤.

موته ويوم القِيامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً ﴾[(١)]).

قال الإمام، فقوله ﷺ: «ليوشكن أن ينزل فيكم عيسىٰ ابن مريم حكمًا مقسطًا فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتىٰ لا يقبله أحد»[(٢)].

قال الإمام: «أما ليوشكن فهو بضم الياء وكسر الشين، ومعناه ليقربن وقوله فيكم أي في هذه الأمة وإن كان خطاباً لبعضها بما لا يدرك نزوله»[(٣)].

قال الإمام: «حكمًا، أي ينزل حاكما بهذه الشريعة لا ينزل بنبأ رسالة مستقلة وشريعة ناسخة بل هو حاكم من حكام هذه الأمة والمقسط العادل.

قال: وقوله ﷺ: «فيكسر الصليب ويقتل الخنزير». معناه يكسره حقيقة ويبطل ما يزعمه النصارىٰ من تعظيمه، وفيه دليل علىٰ تغيير المنكرات والأباطيل وقتل الخنزير من هذا القبيل». وقال ﷺ: «فيضع الجزية فالصواب في معناه لا يقبلها ولا يقبل من الكفار إلا الإسلام، ومن بذل منهم الجزية لم يكفا عنه بها بل لا يقبل إلا الإسلام أو القتل هكذا قاله الإمام أبو سليمان الخطابي وغيره من العلماء رحمهم الله تعالىٰ. وحكىٰ القاضي عياض رحمه الله عن بعض العلماء معنىٰ هذا فقال: «وقد يكون فيض المال هنا من وضع الجزية وهو ضربها علىٰ جميع الكفرة، فإنه لا يقاتله أحد فتضع الحرب أوزارها وانقياد جميع الناس له إما بالإسلام وإما بإلقاء يد، فيضع عليه الجزية ويضربها، وهذا كلام القاضي ليس بمقبول والصواب ما قدمناه، وهو أنه لا يقبل منه إلا الإسلام فعلىٰ هذا يقال هذا خلاف حكم الشرع اليوم فإن الكتابي إذا بذل الجزية

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٩ .

(٢) رواه البخاري في عدة مواضع منها كتاب أحاديث الأنبياء باب نزول عيسىٰ ٦/ ٦٦٦ برقم ٣٤٤٨، ومسلم في كتاب الإيمان باب نزول عيسىٰ حاكمًا بشريعة محمد ﷺ ص١٦٣/ ٢ برقم ١٥٥ .

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ، ص ١٦٣/ ٢.

وجب قبولها ولم يجز قتله ولا إكراهه على الإسلام، وجوابه أن هذا الحكم ليس بمستمر إلى يوم القيامة بل هو مقيد بما قبل عيسى عليه السلام وقد أخبرنا النبي ﷺ في هذه الأحاديث الصحيحة بنسخه، وليس عيسى عليه السلام هو الناسخ بل نبينا ﷺ المبين للنسخ فإن عيسى يحكم بشرعنا، فدل على أن الأمتناع من قبول الجزية في ذلك الوقت هو شرع نبينا محمد ﷺ»[1].

وأما قوله ﷺ: «ويفيض المال» قال الإمام: «ومعناه يكثر وتنزل البركات وتكثر الخيرات بسبب العدل وعدم التظالم وتفيء الأرض أفلاذ كبدها كما جاء في الحديث الآخر وتقل الرغبات لقصر الأمال وعلمهم بقرب الساعة فإن عيسى ﷺ علم من أعلام الساعة والله أعلم»[2].

وقوله ﷺ: «حتى تكون السجدة الواحدة، خير من الدنيا وما فيها». فمعناه والله أعلم أن الناس تكثر رغبتهم في الصلاة وسائر الطاعات لقصر أمالهم وعلمهم بقرب القيامة. وقلة رغبتهم في الدنيا لعدم الحاجة إليها وهذا هو الظاهر من معنى الحديث.

وقال القاضي رحمه الله: «معناه أن أجرها خير لمصليها من صدقته بالدنيا وما فيها لفيض المال حينئذ وهوانه وقلة الشح وقلة الحاجة إليه للنفقة في الجهاد..»[3].

قلت: رد الإمام النووي على القاضي عياض قوي كما هو ظاهر وإليه تطمئن النفس، لأن عيسى عليه السلام ينزل ليقضي على الكفر ويقتلع جذوره قبل أن يتوفاه الله، فينتقم لله ممن ينتسب إليه زوراً وبهتاناً من النصارى الضالين الذين زعموا أنه صلب وقتل والذين أحلوا ما حرمه عليهم من أكل لحم الخنزير وشرب الخمر وغير ذلك، والذين عبدوه من دون الله.. فيقضي عليه السلام على شعائر كفرهم ويقتل من أبى الدخول في الإسلام منهم ومن غيرهم ويقتل الدجال إمامهم وإمام كل كافر

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٦٣ ـ ٢/١٦٤.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص٢/١٦٣.

(٣) شرح صحيح مسلم ص٢/١٦٣، وانظر فتح الباري ص١/٤٩٢، فقد ذكر قولاً قريباً من هذا.

حينئذ، فبنزوله عليه السلام يعمّ السلام أرجاء الدنيا، فإذا توفي كفر أكثر الناس فقبض الله أرواح المؤمنين وأقيمت الساعة على شرار الخلق كما صحت بذلك الأحاديث.

وأما معنى قوله ﷺ: «حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها» فلا يبعد أن يكون المراد بها كلا المعنيين أو التفسيرين اللذين ذكرهما كل من القاضي عياض والنووي، لأنه لا تعارض بينهما.

٢ ـ ومن الأحاديث الواردة أيضًا في شأن نزول عيسى عليه السلام حديث جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة، قال: فينزل عيسى ابن مريم ﷺ فيقول أميرهم تعالى صل. فيقول إن بعضكم على بعض أمراء، تكرمة لهذه الأمة»[١].

٣ ـ ومن ذلك أيضًا حديث النواس بن سمعان الكلابي[٢] قال: (ذكر رسول الله ﷺ الدجال وفيه: «... فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق. فلا يحل[٣] لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه، فيطلبه حتى يدركه بباب لدّ[٤] فيقتله»[٥]. الحديث، وفيه قصة يأجوج

---

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب نزول عيسى ابن مريم عليه السلام حاكمًا بشريعة نبينا محمد ﷺ ٢/ ١٦٦ برقم ١٥٦.

(٢) هو النواس بن سمعان بن خالد بن عمرو بن قرط العامري الكلابي، صحابي مشهور سكن الشام ويقال إن أباه قدم على النبي ﷺ فدعا له وأهدى إلى النبي نعلين فقبلهما وزوج أخته الرسول ﷺ فلما دخلت عليه تعوذت منه فتركها، وهي الكلابية وقد اختلفوا في المتعوذة كثيراً، روى النواس عن النبي ﷺ أحاديث منها ما رواه مسلم. انظر الاستيعاب ٣/ ٥٣٩، وأسد الغابة ٥/ ٤٤، والإصابة ٣/ ٥٤٩.

(٣) فلا يحل: بكسر الحاء ومعنى لا يحل لا يمكن ولا يقع. انظر: شرح صحيح مسلم ص ١٨/٥٤.

(٤) لد: بضم اللام وتشديد الدال هو بلدة قريبة من بيت المقدس. المرجع السابق ١٨/٥٤.

(٥) رواه مسلم في كتاب الفتن باب ذكر الدجال وصفته ٥٠ ـ ١٨/٥٤ واللفظ له برقم ٢١٣٧.

ومأجوج ودعاء عيسىٰ عليهم وإماتة الله لهم . إلىٰ غير ذلك من الأحاديث .

قال الإمام بعد شرحه لأحاديث نزول عيسىٰ عليه السلام : (قال القاضي رحمه الله تعالىٰ : نزول عيسىٰ عليه السلام وقتله الدجال حق وصحيح عند أهل السنة للأحاديث الصحيحة في ذلك وليس في العقل ولا في الشرع ما يبطله فوجب إثباته وأنكر ذلك بعض المعتزلة والجهمية ومن وافقهم وزعموا أن هذه الأحاديث مردود بقوله تعالىٰ : ﴿ وخاتم النبيين ﴾[1]. ويقول ﷺ : «لا نبي بعدي»[2]. وبإجماع المسلمين إنه لا نبي بعد نبينا ﷺ وأن شريعته مؤبدة إلىٰ يوم القيامة لا تنسخ ، وهذا استدلال فاسد لأنه ليس المراد نزول عيسىٰ عليه السلام أنه ينزل نبيًا بشرع ينسخ شرعنا ، ولا في هذه الأحاديث ولا في غيرها شيء من هذا بل صحت هذه الأحاديث هنا ، وما سبق في كتاب الإيمان وغيرها أنه ينزل حكمًا مقسطًا بحكم شرعنا ويحيىٰ من أمور شرعنا ما هجره الناس »[3] .

قلت : لقد أجاد الإمام ومن قبله القاضي عياض فقد أجاد في بيانه هذا وأحسن في رده علىٰ من رد الأحاديث الواردة في نزول عيسىٰ متوهمًا أنها متعارضة مع النصوص الدالة علىٰ أن النبي ﷺ هو خاتم النبيين ، والحق أنه لا تعارض البتة في ذلك لأن عيسىٰ ينزل حاكمًا بشريعة محمد ﷺ ولا ينزل بشرع جديد كما يظنه هؤلاء الذين ضلوا فردوا النصوص الصحيحة المتواترة بنزوله عليه السلام ، فلا يلتفت إلىٰ كلامهم ولا يعتد بخلافهم ، لأنه خلاف الحق . وأما قول القاضي عياض في معنىٰ «ويضع الجزية» فقد تقدم نقده بما لا داعي لتكراره . وهكذا يتبيّن بما لا مجال للشك أن نزول عيسىٰ عليه السلام حاكمًا بشريعة الإسلام أمر متفق عليه بين المسلمين لتواتر النصوص الواردة به .

---

(١) سورة الأحزاب، آية : [٤٠].

(٢) جزء من حديث أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ١٤٢/ ١٥ برقم ٣١ مكرر.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص٦٠ ـ ٦٢/ ١٨ .

ب ـ سبب تسميته عيسى ابن مريم بالمسيح

أما سبب تسمية عيسىٰ عليه السلام بالمسيح فقد قال الإمام النووي: «وأما المسيح فهو صفة لعيسىٰ عليه السلام وصفة للدجال فأما عيسىٰ فاختلف العلماء في سبب تسميته مسيحًا، قال الواحدي: ذهب أبو عبيد والليث إلىٰ أن أصله بالعبرانية مشيحا فعربته العرب وغيرت لفظه، كما قالوا: موسىٰ وأصله موشىٰ أوميتشا بالعبرانية فلما عربوه غيروه. فعلىٰ هذا لاشتقاق له، قال: وذهب أكثر العلماء إلىٰ أنه مشتق وكذا قال غيره. أنه مشتق علىٰ قول الجمهور ثم اختلف هؤلاء فحكي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لأنه لا يمسح ذا عاهة إلا برئ، وقال إبراهيم وابن الأعرابي: المسيح الصديق وقيل لكونه ممسوح أسفل القدمين لا أخمص له، وقيل: لمسح زكريا إياه وقيل لمسحه الأرض أي قطعها، وقيل لأنه خرج من بطن أمه ممسوحًا بالدهن، وقيل: لأنه مسح بالبركة. وقيل لأن الله تعالىٰ مسحه أي خلقه خلقًا حسنًا وقيل غير ذلك والله أعلم»[1].

قلت: لا مانع والله أعلم من ذلك كله، فعيسىٰ عليه السلام قد تحققت تلك الأوصاف السابقة فيه، والذي علينا هو أن نطلق عليه ونسميه بما سمّاه الله ورسوله سواء علمنا سبب التسمية أم لا.

واتضح لنا مما سبق أن مسيح الضلالة (الدجال) غير مسيح الهداية (عيسىٰ) فالأخير يقتله بيده الكريمة بعد أن يمكنه الله منه بباب ولد، ويريح العباد من شره، نعوذ بالله من فتنته.

٢ ـ يأجوج ومأجوج

من علامات الساعة الكبرىٰ خروج يأجوج ومأجوج وقد ورد ذكر هؤلاء في الكتاب الكريم وفي السنة الصحيح وبإجماع الأمة.

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ٢٠٢٢/٢ كتاب الإيمان.

أ ـ الأدلة من القرآن والسنة

النصوص الدالة على هذه العلامة كثيرة منها :

الأدلة من القرآن

١ ـ قوله تعالى : ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [١] .

٢ ـ وقال تعالى في سياقه لقصة ذي القرنين : ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿٩٨﴾ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [٢] . فهذه الآيات تدل على أن الله تعالى سخر ذا القرنين[٣] الملك الصالح لبناء السد العظيم ليحجز يأجوج ومأجوج القوم المفسدين في الأرض فإذا جاء الوقت المعلوم واقتربت الساعة اندك هذا السد وخرج يأجوج ومأجوج بسرعة عظيمة وجمع

---

(١) سورة الأنبياء، الآية : ٩٦ ـ ٩٧ .

(٢) سورة الكهف، الآية : ٩٢ ـ ٩٩ .

(٣) اختلف في اسمه فروي عن ابن عباس أن اسمه عبدالله بن الضحاك بن معد، وقيل مصعب بن عبدالله بن قنان بن الأزد ثم بن قحطان، وقيل غير ذلك، وسمي بذي القرنين لأنه قد بلغ المشارق والمغارب من حيث يطلع قرن الشيطان ويغرب وقيل غير ذلك. وكان عبداً مؤمناً صالحًا وهو غير ذي القرنين الاسكندر المقدوني فإن هذا كان كافراً وهو متأخر عن المذكور في القرآن وبينهما أكثر من ألفي سنة. انظر البداية والنهاية ٢/ ١٠٢ ـ ١٠٦ ، وتفسير ابن كثير ٣/ ٩٥ ـ ٩٦ .

كبير لا يقف أمامه أحد من البشر، فماجوا في الناس وعاثوا في الأرض فسادًا وهذا علامة على قرب النفخ في الصور وخراب الدنيا وقيام الساعة [1].

أدلة من السنة

الأحاديث الدالة على ظهور يأجوج ومأجوج كثيرة جدًا.

١ ـ منها ما ثبت في الصحيحين عن أم المؤمنين زينت بنت جحش رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ دخل عليها يومًا فزعًا يقول: «ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وحلّق بأصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب: فقلت يا رسول الله أفنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث» [2].

٢ ـ ومنها حديث النواس بن سمعان المتقدم في الدجال وعيسى وفيه: «... إذ أوحى الله إلى عيسى أني قد أخرجت عبادًا لي لا يدان [3] لأحد بقتالهم فحرّز [4] عبادي إلى الطور فيبعث الله يأجوج ومأجوج وهم من كل حدب [5] ينسلون فيمرّ أوائلهم على بحيرة طبريه فيشربون ما فيها ويمر آخرهم فيقولون لقد كان بهذه مرة ماء ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مائة دينار

---

(١) انظر: تفسير الطبري ص١٥ ـ ٢٨/ ٩٦، ٧٢/ ١٧، وتفسير ابن كثير ص٩٩ ـ ١٠٠/ ٣، وتفسير القرطبي ٣٤١ ـ ٣٤٢/ ١١، وفتح القدير ١٠٠ ـ ١٠١/ ٣.

(٢) أخرجه مسلم شرح النووي ص٣/ ١٨ برقم ٢٨٨٠ كتاب الفتن.

(٣) قال العلماء معناه لا قدرة ولا طاقة لأحد بقتالته، يقال ما لي بهذا الأمر يد وما لي به يدان لأن المباشرة والدفع إنكا تكون باليد. شرح صحيح مسلم ٥٥/ ١٨.

(٤) أي ضمّهم واجعله حرزًا لهم يقال أحرزت الشيء أحرزه إحرازًا إذا حفظته وضممته إليك وصنته عن الأخذ. المرجع السابق.

(٥) الحَدَبُ: هو كل موقع غليظ مرتفع، والجمع أحدب وحداب، والمعنى يظهرون من غليظ الأرض ومترفعها ويمشون مسرعين. المرجع السابق. وانظر النهاية ١/ ٤٣٩.

لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسىٰ وأصحابه إلىٰ الله فيرسل الله عليهم النغف[1] في رقابهم فيصبحون فرسىٰ[2] كموت نفس واحدة، ثم يهبط نبي الله عيسىٰ وأصحابه إلىٰ الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زَهَمُهُم[3] ونتنهم فيرغب عيسىٰ وأصحابه إلىٰ الله فيرسل الله طيراً كأعناق البخت[4] فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطراً فيغسل الأرض» رواه مسلم[5]. وزاد في رواية بعد قوله: «لقد كان بهذه ماء ثم يسيرون حتىٰ ينتهوا إلىٰ جبل الخمر[6] وهو جبل بيت المقدس فيقولون، لقد قتلنا من في الأرض هلم فلنقتل من في السماء، فيرمون بنشابهم[7] إلىٰ السماء فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة دماً»[8].

٣ ـ عن حذيفة بن أسيد[9] الغفاري رضي الله عنه قال: اطلع علينا رسول الله ﷺ

---

(١) النغف: بالتحريك هو دود يكون في أنوف الإبل والغنم وأحدتها نغفة. المرجع السابق ١٨/٥٥، والنهاية ٥/ ٨٧.

(٢) بفتح الفاء أي قتلىٰ الواحد فريس من فرس الذنب الشاة وافترسها إذا قتلها. المرجع السابق والنهاية ٣/ ٢٢٨.

(٣) بفتح أوله وثانيه أي دسمهم ورائحتهم الكريهة. المرجع السابق.

(٤) البخت بضم الباء وسكون الخاء هي جمال طوال الأعناق وهي لفظة معربة واحدتها بختية للأنثىٰ وبختىٰ للذكر. انظر النهاية ٣/ ٢٨٨.

(٥) رواه مسلم في كتاب الفتن باب ذكر الدجال وصفته ٥/ ١٨ برقم ٢١٣٧.

(٦) الخَمَر بفتح الخاء والميم هو الشجر المتلف الذي يستر من فيه، وقد جاء تفسيره في الحديث بأنه جبل بيت المقدس. شرح صحيح مسلم ١٨/٥٧.

(٧) النشاب يطلق علي النبل والسهام وأحدته نشابة. انظر لسان العرب ١/ ٧٥٧.

(٨) رواه مسلم في كتاب الفتن باب ذكر الدجال ٥٧/ ١٨ برقم ٢١٣٧ مكرر.

(٩) هو أبو سريحة حذيفة بن أسيد (بالفتح) بن خالد الأعور بن غفار الغفاري شهد الحديبية وبايع تحت الشجرة ثم نزل الكوفة وروىٰ أحاديث أخرج له مسلم وأصحاب السنن. توفي سنة (٤٢هـ) بالكوفة فصلىٰ عليه زيد بن أرقم. انظر أسد الغابة ١/ ٣٨٩، والإصابة ١/ ٣١٦.

ونحن نتذاكر فقال: «ما تذاكرون؟ قالوا: نتذاكر الساعة، قال: إنها لن تقوم الساعة حتىٰ تروا قبلها عشر آيات فذكر الدخان والدجال والدابة وطلوع الشمس من مغربها ونزول عيسىٰ بن مريم ويأجوج ومأجوج وثلاثة خسوف خسف بالمشرق وخسف بالمغرب وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلىٰ محشرهم»[١]. إلىٰ غير ذلك من النصوص.

ب- نص الإمام النووي على حدوث هذه العلامة

قال الإمام في شرح مصطلحات الحديث قوله تعالىٰ: «أخرجت عباد لي لا يدان لأحد بقتالهم فحرز عبادي إلىٰ الطور» فقوله لا يدان بكسر النون تثنيته، قال العلماء: معناه لا قدر ولا طاقة يقال: ما لي بهذا الأمر يد وما لي به يدان لأن المباشرة والدفع إنما يكون باليد وكانت يديه معدومتان لعجزه عن دفعه، ومعنىٰ حرزهم إلىٰ الطور أي ضمهم واجعله لهم حرزاً يقال أحرزت الشيء أحرازاً إذ حفظته وضممته إليك وجنبته عن الأخذ ووقع في بعض النسخ حزب بالحاء والزاي والباء أي أجمعهم، قال القاضي: وروىٰ حوز بالواو والزاي ومعناه نحهم وأزلهم عن طريقهم إلىٰ الطور)[٢].

٤- خروج الدابة

من علامات الساعة الكبرىٰ خروج دابة الأرض آخر الزمان تكلم الناس وتسميهم مؤمنًا وكافرًا، وذلك عند فساد الناس وتركهم أوامر الله تعالىٰ. وقد ثبت هذا الأمر بالكتاب والسنة.

---

(١) رواه مسلم بشرح النووي في كتاب الفتن باب في الآيات التي تكون قبل الساعة ص٢٢/١٨ برقم ٢٩٠١.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص٥٥/١٨، وانظر ص٣/١٨ من نفس المصدر.

أ ـ **الأدلة على ذلك :**

دليل خروج الدابة من الكتاب قوله تعالى : ﴿ **وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ** ﴾[1] ، فهذه الآية الكريمة جاء فيها ذكر خروج الدابة وأن ذلك يكون عند فساد الناس وتركهم أوامر الله وتبديلهم الدين الحق فيخرج الله لم دابة من الأرض فتكلم الناس على ذلك ليعلموا أن ذلك آية من عند الله ، قال ابن مسعود رضي الله عنه («وقع عليهم القول» يكون بموت العلماء وذهاب العلم ورفع القرآن[2])[3] .

وأما الأدلة من السنة على خروج الدابة فهي كثيرة :

١ ـ منها قوله ﷺ : «ثلاث إذا خرجت لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا طلوع الشمس من مغربها والدجال ودابة الأرض»[4] .

٢ ـ ومنها حديث حذيفة بن أسيد الغفاري المتقدم : «لن تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات ، وذكر منها الدابة»[5] .

٣ ـ ومنها قوله ﷺ : «إن أول الآيات خروجًا طلوع الشمس من مغربها وخروج الدابة على الناس ضحى وأيهما ما كانت قبل فالأخرى على إثرها قريبًا»[6] .

قال الإمام النووي : (وأما الدابة المذكورة في هذا الحديث فهي المذكورة في قوله تعالى : ﴿ **وإذا وقع القول عليهم أخرجت لهم دابة من الأرض** ﴾[7] قال المفسرون : هي

---

(١) سورة النمل ، الآية : [٨٢].

(٢) رواه مسلم بشرح النووي في كتاب الإيمان باب الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان برقم ١٥٨ .

(٣) انظر : تفسير القرطبي ١٣/ ٣٢٤، وتفسير ابن كثير ٣/ ٣٥١ـ٣٥٣ .

(٤) تقدم تخريجه ص٦٣ .

(٥) رواه مسلم في كتاب الفتن باب في الدجال وهو أهون على الله عز وجل ص٦٢/ ١٨ ، برقم ٢٩٤٠

(٦) شرح صحيح مسلم ص٢٢/ ١٨ .

(٧) سورة النمل ، الآية : [٨٢].

دابة عظيمة تخرج من صدع في الصفا، وعن ابن عمر وابن العاص أنها الجساسة المذكورة في حديث الدجال»[1].

ب ـ مكان خروج الدابة وصفتها

اختلف العلماء في مكان خروج الدابة، فقيل: من جبل الصفا بمكة، وقيل: من جبل أبي قبيس، وقيل: لها ثلاث خرجات خرجة من بعض البوادي حتىٰ يتقاتل عليها الناس وتكثر الدماء، ثم تمكث وتخرج في القرىٰ في أعظم المساجد وأكرمها وأشرفها، وقيل تخرج بين الركن والمقام، وقيل غير ذلك.

وغالب الأقوال يدور حول خروجها من الحرم المكي[2]، هو ما أشار إلىٰ الإمام النووي في كلامه[3]، والله أعلم من أين تخرج.

أما في صفتها: فقد اختلف العلماء فيها أيضًا علىٰ أقوال كثيرة ذكر الإمام النووي قولين منها فقال: هي دابة عظيمة.. ثم قال عن ابن عمر بن العاص أنها الجساسة التي تجس الأخبار للدجال.

قلت: وقيل أيضًا هي فصيل ناقة صالح، وقيل الثعبان المشرف علىٰ جدار مكة التي اقتلعها العقاب حين أرادت قريش بناء الكعبة والمراد أنها تخرج آخر الزمان.

ولقد ذكر العلماء[4] أقوالاً أخرىٰ كثيرة لا داعي لذكرها، لأن أكثرها لا يخلو من مقال، والذي يجب علىٰ المؤمن هو الإيمان بأن الله عز وجل سيخرج للناس دابة مخالفة لما يعتاده الناس تكلمهم وتختم علىٰ الكافر بالكفر وعلىٰ المؤمن بالإيمان، وأن هذا أمر خارق للعادة، كما أن خروج الشمس من مغربها خارق للعادة.

---

(١) انظر: التذكرة ص ٣٨٦ ـ ٣٩٣/ ٢، ولوامع الأنوار البهية ص١٤٤ ـ ١٤٦/ ٢.

(٢) شرح صحيح مسلم ص٢٢/ ١٨.

(٣) إكمال المعلم ص ٥٠٢/ ٨.

(٤) انظر: حكاية تلك الأقوال في صفة هذه الدابة في تفسير البغوي ص٤٢٩/ ١، وتفسير ابن كثير ٣٥٢/ ٣، ولوامع الأنوار البهية ص١٤٦ ـ ١٤٩/ ٢.

٥ـ طلوع الشمس من مغربها

طلوع الشمس من مغربها من علامات الساعة الكبرىٰ، وقد ثبت ذلك بالكتاب والسنة. فمن أدلة الكتاب والسنة نذكر:

قوله سبحانه: ﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا** ﴾(١).

فقد دلت الأحاديث الصحيحة أن المراد ببعض الآيات المذكورة في هذه الآيات هو طلوع الشمس من مغربها وهو قول معظم المفسرين(٢).

١ ـ ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنها قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتىٰ تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمن الناس أجمعون، فلذلك حيث لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا» ثم قرأ الآية السابقة»(٣).

٢ ـ وروىٰ الإمام مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال ستًا طلوع الشمس من مغربها أو الدجال أو الدخان أو الدابة أو خاصة أحدكم أو أمر العامة»(٤).

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٨.

(٢) انظر تفسير الطبري ٨/ ٦٩ ـ ١٠١، تفسير البغوي ٢/ ١٤٤، وزاد المسير لابن الجوزي ٣/ ١٥٦ ـ ١٥٧، وتفسير القرطبي ٧/ ١٤٥، وتفسير ابن كثير ٢/ ١٧٩ ـ ١٨٢.

(٣) رواه البخاري في كتاب الرقاق با (٤٠) ١١/ ٣٦٠ برقم ٦٥٠٦، ومسلم بشرح النووي في كتاب الإيمان باب بيان الزمن لا يقبل فيه الإيمان ١٦٦/ ٢ برقم ١٥٧.

(٤) رواه مسلم بشرح النووي في كتاب الفتن باب في بقية أحاديث الدجال ٦٩/ ١٨ برقم ٢٩٧٤. ومعنىٰ (أمر العامة) قال قتادة: أمر العامة القيادة. شرح صحيح مسلم ٦٩/ ١٨.

٣ ـ وعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يومًا: «أتدرون أين تذهب هذه الشمس؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: إن هذه تجري حتىٰ تنتهي إلىٰ مستقرها تحت العرش فتخر ساجدة فلا تزال كذلك حتىٰ يقال لها ارتفعي ارجعي من حيث جئت، فترجع فتصبح طالعة من مطلعها ثم تجري لا يستنكر الناس منها شيئًا حتىٰ تنهي إلىٰ مستقرها ذاك تحت العرش فيقال لها: ارتفعي اصبحي طالعة من مغربك فتصبح طالعة من مغربها، فقال رسول الله ﷺ: أتدرون في ذاكم؟ ذاك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيرًا»(١).

ب ـ رد الإمام النووي وبعض العلماء(٢) على من تأول حديث سجود الشمس.

قال الإمام النووي عقب شرحه للحديث السابق: «قال القاضي عياض رحمه الله وهذا الحديث علىٰ ظاهره عند أهل الحديث والفقه والمتكلمين من أهل السنة خلافًا لمن تأولته من الباطنية»(٣).

قلت: صدق الإمام والقاضي عياض فإن أهل الحق ومن وافقهم أخذوا بالحديث علىٰ ظاهره فلم يحرفوه أو ينكروه أو يأولوه عن ظاهره كما فعل ذلك الباطنية، وأهل البدع ومن تأثر بهم من بعض علماء المسلمين.

قال الإمام النووي: (وأما سجود الشمس فهو بتمييز وإدراك بخلق الله تعالىٰ فيها»(٤).

---

(١) رواه البخاري مختصرًا في عدة مواضع منها في كتاب التفسير باب والشمس تجري لمستقر لها ٨/ ٤٠٢ برقم ٤٨٠٢، ومسلم في كتاب الإيمان باب بيان الزمن الذي لا يقبل فيه الإيمان ١٦٧/ ٢.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٦٧/ ٢ وإكمال المعلم ص ٤٧٦ ـ ٤٧٧/ ١.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٦٧/ ٢.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ١٦٨/ ٢.

وقال الإمام أبو سليمان الخطابي رحمه الله في قوله ﷺ «ومستقرها تحت العرش» (لا ننكر أن يكون لها استقرار تحت العرش من حيث لا ندركه ولا نشاهده وإنما أخبرنا عن غيب فلا نكذب به ولا نكيفه، لأن علمنا لا يحيط به). . ثم قال عن سجودها تحت العرش: (وفي هذا إخبار عن سجود الشمس تحت العرش فلا ينكر أن يكون ذلك عند محاذاتها العرش في مسيرها والتصرف لما سخرت له، وأما قوله عز وجل: ﴿**حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة**﴾[1]. فهو نهاية مدرك البصر إياها حالة الغروب ومصيرها تحت العرش للسجود وإنما هو بعد الغروب)[2].

قال ابن حجر العسقلاني: (وظاهر الحديث أن المراد بالاستقرار وقوعه في كل يوم وليلة عند سجودها ومقابل الاستقرار المسير الدائم المعبر عنه بالجري والله أعلم»[3]. فهذه بعض الأقوال لعلماء أهل السنة على أن المراد بسجود الشمس تحت العرش هوسجود حقيقة لا كما زعمه من تأول ذلك أورده.

٦ ـ الدخان

ظهور الدخان آخر الزمان من علامات الساعة الكبرى التي دل عليها الكتاب والسنة، فمنها:

أ ـ أدلة ظهوره: قول الله تعالى: ﴿**فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى النَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ الذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُوا الْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ**

(١) سورة الكهف، الآية: ٨٦.

(٢) شرح السنة للبغوي ص٩٥ ـ ٥٦/ ١٥ بتحقيق شعيب الإرناؤوط، وفتح الباري ص٤٠٣/ ٨.

(٣) فتح الباري ص٤٠٣/ ٨.

عائدون ⑮ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ (١).

أما الأدلة من السنة على هذا الأمر فهي كثيرة منها :

١ ـ حديث حذيفة بن أسيد الغفاري المتقدم، قال: أطلع علينا رسول الله ﷺ ونحن نتذاكر الساعة فقال: «ما تذاكرون؟ قلنا: نذكر الساعة، قال: «إنها لن تقوم حتى تروا قبلها عشر آيات فذكر الدخان والدجال والدابة . . » الحديث(٢).

٢ ـ وحديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «بادروا بالأعمال ستًا: طلوع الشمس من مغربها أو الدجال أو الدخان» الحديث(٣).

٣ ـ ومنها قوله ﷺ: «إن ربكم أنذركم ثلاثًا الدخان يأخذ المؤمن كالزكمة ويأخذ الكافر فينتفخ حتى يخرج من كل مسمع منه، والثانية الدابة، والثالثة الدجال»(٤).

ب ـ اختلاف العلماء حول المراد بالدخان ومتى يحدث :

لقد اختلف العلماء رحمهم الله في المراد بالدخان الوارد في الآية والأحاديث المتقدمة على قولين :

١ ـ فذهب بعضهم إلى أن هذا الدخان هو ما أصاب قريشًا من الشدة والجوع عندما دعا عليهم النبي ﷺ حين لم يستجيبوا له. فأصبحوا في السماء كهيئة الدخان،

---

(١) سورة الدخان، الآيات: [١٠ ـ ١٦].

(٢) تقدم تخريجه .

(٣) تقدم تخريجه .

(٤) رواه ابن جرير في تفسيره عن أبي مالك الأشعري ١٥/ ١١٤، وذكره ابن كثير في تفسيره ٤/ ١٢٤ ـ ١٢٦ . وقال رواه ابن جرير الطبري وإسناده جيد، وذكر ابن حجر رواية الطبري عن أبي مالك وابن عمر وقال: (وإسنادهما ضعيف أيضًا لكن تظافر هذه الأحاديث يدل على أن لذلك أصلاً) فتح الباري ٨/ ٤٣٦ .

وإلى هذا القول ذهب عبدالله بن مسعود رضي الله عنه وتبعه جماعة من السلف[1]، وقد استدل هؤلاء بما رواه البخاري ومسلم من حديث مسروق بن الأجدع رحمه الله قال: (كنا جلوسًا عند عبدالله بن مسعود فأتاه رجل فقال يا أبا عبدالرحمن إن قاصًا يقص ويزعم أن آية الدخان تجيء فتأخذ بأنفاس الكفار ويأخذ المؤمنين منها بهيئة الزكام. فقال عبدالله وجلس وهو غضبان: (يا أيها الناس اتقوا الله، من علم منكم شيئًا فليقل بما يعلم، وما لا يعلم فليقل الله أعلم، فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم الله أعلم. فإن الله قال لنبيه ﷺ: ﴿**قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ**﴾[2]، وإن رسول الله ﷺ لما دعا قريشًا كذبوا واستعصموا عليه فقال: «اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف[3]، فأصابتهم سنة حصّت[4] كل شيء حتى كانوا يأكلون الميتة والعظام. وكان يقوم أحدهم فكان يرى بينه وبين السماء مثل الدخان من الجهد والجوع)[5]. وقال ابن مسعود أيضًا: (خمس قد مضين اللزام[6] والروم والبطشة

---

(١) انظر: تفسير الطبري ١٥/ ١١١، وتفسير البغوي ٤/ ١٤٩ ـ ١٥٠، وتفسير الطبري ١٦/ ١٣١، وتفسير ابن كثير ١٢٤ ـ ١٢٦/ ٤

(٢) سورة ص، الآية: ٨٦ .

(٣) هذا دعاء من النبي ﷺ على كفار مكة بأن يبعث الله عليهم سبع سنين مجدبة كالتي كانت في زمن يوسف عليه السلام التي ذكرها القرآن .

(٤) بفتح الحاء والصاد المشددة أي حلقت وأستأصلت .

(٥) أخرجه البخاري في كتاب التفسير في تفسير حم الدخان فارتقب يوم تأتي السماء بدخان ٨/ ٤٣٦ برقم ٤٨٢٣، ٤٨٢٤، ومسلم بشرح النووي في كتاب صفات المنافقين باب الدخان ١١٧/ ١٧ برقم ٢٧٩٨.

(٦) اللزام: هو ما جاء في قوله تعالى: ﴿**فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا**﴾ سورة الفرقان، الآية: ٧٧. أي يكون عذابًا لازمًا نتيجة تكذيبهم وهو ما وقع لكفار قريش في بدر من القتل والأسر. انظر: تفسير البغوي ٣/ ٣٨٠، وتفسير ابن كثير ٣/ ٣١٠، وشرح صحيح مسلم ١١٨/ ١٧.

والقمر والدخان)[1].

٢ ـ وذهب كثير من العلماء سلفًا وخلفًا إلىٰ أن الدخان هو من الآيات المنتظرة التي لم تأت بعد وسيقع قرب يوم القيامة، وإلىٰ هذا ذهب علي بن أبي طالب وابن عباس وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهم وغيرهم وكثير من التابعين.

وقد رجّح الإمام ابن كثير رحمه الله هذا مستدلاً بالأحاديث التي سبق ذكرها عند الاستدلال علىٰ هذه الآية (أي الدخان) وبغيرها من الأحاديث، وأيضًا بما رواه ابن جرير وغيره عن عبدالله بن أبي مليكة[2] قال: غدوت علىٰ ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ذات يوم فقال: (ما نمت الليلة حتىٰ أصبحت، قلت: لم؟ قال: قالوا: طلع الكوكب ذو الذنب فخشيت أن يكون الدخان قد طرق فما نمت حتىٰ أصبحت)[3]، قال ابن كثير رحمه الله بعد ذكره لهذا الأثر (وهذا إسناد صحيح إلىٰ ابن عباس رضي الله عنهما حبر وترجمان القرآن، وهكذا قول من وافقه من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين من الأحاديث المرفوعة من الصحاح والحسان وغيرها التي أوردوها مما فيه مقنع ودلالة ظاهرة علىٰ أن الدخان من الآيات المنتظرة مع أنه ظاهر القرآن، قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿**فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين**﴾ أي بيّن واضح يراه كل أحد وعلىٰ ما فسر به ابن مسعود رضي الله عنه إنما هو خيال رأوه في أعينهم من شدة الجوع

---

(١) رواه البخاري في كتاب التفسير باب (يوم نبطش البطشة الكبرىٰ) ٨/ ٤٣٧ برقم ٤٨٢٥. ومسلم بشرح النووي في كتاب صفات المنافقين باب الدخان ١١٧/ ١٧ برقم ٢٧٩٨ مكرر.

(٢) هو الإمام الفاضل التابعي الجليل أبو بكر عبدالله بن عبيدالله بن أبي مليكة زهير بن عبدالله بن جدعان التميمي المكي، أحد تلامذة ابن عباس رضي الله عنهما، كان قاضيًا ومؤذنًا لعبدالله بن الزبير، وكان ثقة فاضلاً كثير الحديث، روىٰ عن العبادلة الأربعة وأدرك ثلاثين من الصحابة، توفي سنة (١١٧هـ). انظر مشاهير علماء الأمصار ص٨٢، وتهذيب التهذيب ٥/ ٣٠٦ ـ ٣٠٧، وسير أعلام النبلاء ٥/ ٨٨.

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره ١٥/ ١١٣، وذكره ابن كثير في تفسيره ١٢٥/ ٤.

والجهد، وهكذا قوله تعالىٰ: ﴿ **يغشى الناس** ﴾، وقوله تعالىٰ: ﴿ **هذا عذاب أليم** ﴾ أي يقال لهم ذلك تقريعًا وتوبيخًا، وأما ما فسر به ابن مسعود رضي الله عنه فإن ذلك من كلامه والمرفوع مقدم على الموقوف)[1].

٣ ـ وقد ذهب بعض العلماء[2] إلىٰ الجمع بين هذه الآثار بأن قالوا هما دخانان ظهر أحدهما وبقيت الآية الأخرىٰ ستقع في آخر الزمان، فأما الآية الأولىٰ التي ظهرت فهي ما كانت تراه قريش كهيئة الدخان وهذا الدخان غير الدخان الحقيقي الذي يكون عند ظهور الآيات التي هي من أشراط الساعة.

قال القرطبي رحمه الله: (قال مجاهد كان ابن مسعود يقول هما دخانان قد مضىٰ أحدهما والذي بقي يملأ ما بين السماء والأرض ولا يجد المؤمن إلا كالزكمة وأما الكافر فتثقب مسامعه)[3].

وقال الإمام ابن جرير رحمه الله: (وبعد فإنه غير منكر أن يكون أحل بالكفار الذين توعدهم بهذا الوعيد ما توعدهم ويكون محلاً فيما يستأنف بعد بآخرين دخانًا علىٰ ما جاءت به الأخبار عن رسول الله ﷺ عندنا كذلك، لأن الإخبار عن رسول الله ﷺ قد تظاهرت بأن ذلك كائن، قد كان ما روي عنه عبدالله بن مسعود، فكلا الخبرين الذين رويا عن رسول الله ﷺ صحيح) [4].

ج ـ رأي الإمام النووي في المقصود بالدخان

اختار الإمام النووي رحمه الله المذهب الثالث وهو الجمع بين هذه الآثار بأن قالوا

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ١٣٩ ـ ١٤٠، وانظر النهاية في الفتن والملاحم له ١/ ١٧٢، بتحقيق د. طه زيني.

(٢) انظر التذكرة للقرطبي ص ٣٤٠ـ٣٤١/ ٢، وشرح صحيح مسلم ١٧/١١٧، وص٢٢/١٨.

(٣) التذكرة ص ٣٤١/ ٢.

(٤) تفسير الطبري ١٥/ ١١٤ ـ ١١٥.

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٢٢/ ١٨.

هما دخانان ظهر أحدهما وبقيت الآية الأخرىٰ التي ستقع في آخر الزمان فقال بعد أن ذكر الاختلاف في ذلك عقب ذكره للحديث قال الإمام: (ويحتمل أنهما دخانان للجمع بين هذه الآثار)[1]. قلت: والجمع هو أفضل الطرق ولا منافاة بين الرأيين حينئذ والله أعلم.

٧ ـ خروج النار التي تحشر الناس إلى المحشر:

آخر الآيات الكبرىٰ والعلامات العظمىٰ لأشراط الساعة وأول الآيات المؤذنة بقيام القيامة خروج نار تحشر الناس إلىٰ محشرهم.

أ ـ الأدلة على خروجها ومكان ذلك:

جاء في الروايات بأن خروج هذه النار يكون من اليمن من قعرة عدن وجاءت روايات أخرىٰ بأنها تخرج من بحر حضرموت وإليك طائفة من الأحاديث التي تبين ذلك:

١ ـ حديث حذيفة بن أسيد في ذكر أشراط الساعة وآخره قوله ﷺ: «وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلىٰ محشرهم»، وفي رواية: «نار تخرج من قعرة عدن ترحل الناس»[2].

٢ ـ وروىٰ الإمام أحمد وغيره عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «ستخرج نار من حضرموت أو من بحر حضرموت قبل يوم القيامة تحشر الناس»[3].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ١٧/١١٧.

(٢) رواه مسلم بشرح النووي في كتاب الفتن وأشراط الساعة باب في الآيات التي تكون قبل الساعة ١٨/٢٢ برقم ٢٩٠١.

(٣) رواه أحمد في المسند ٧/ ١٣٣ برقم ٥١٤٦ بتحقيق أحمد شاكر وقال عنه إسناده صحيح، والترمذي في كتاب الفتن باب (٤٢) ٤/ ٤٣١ برقم ٢٢١٧ وقال هذا حديث حسن غريب صحيح وقد صححه الشيخ الألباني. انظر صحيح الجامع ٣/ ٢٠٣ برقم ٣٦٠٣.

٣ ـ وروىٰ البخاري عن أنس رضي الله عنه أن عبدالله بن سلام لما أسلم سأل النبي ﷺ عن مسائل ومنها من أول أشراط الساعة ؟ فقال النبي ﷺ : «أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلىٰ المغرب»[1] .

ب ـ الجمع بين الأحاديث الواردة في مكانها

الجمع بين ما جاء أن هذه النار هي آخر أشراط الساعة الكبرىٰ وما جاء أنها أول أشراطها بأن يقال إن آخريتها باعتبار ما ذكر معها من الآيات الواردة معها في حديث حذيفة ، وأوليتها باعتبار أنها أول الآيات التي لا شيء بعدها من أمور الدنيا أصلاً ، بل يقع بانتهاء هذه الآيات النفخ في الصور بخلاف ما ذكر معها من الآيات الواردة في حديث حذيفة ، فإنه يبقىٰ بعد كل آية منها أشياء من أمور الدنيا[2] . أما ما جاء في بعض الروايات بأن خروجها يكون من اليمن وفي بعضها الآخر أنها تحشر الناس من المشرق إلىٰ المغرب فيجاب عن ذلك بأجوبة :

١ ـ أنه يمكن الجمع بين هذه الروايات بأن كون النار تخرج من قعر عدن لا ينافي حشرها الناس من المشرق إلىٰ المغرب وذلك أن ابتداء خروجها من قعر عدن فإذا خرجت انتشرت في الأرض كلها ، والمراد بقوله ﷺ : «تحشر الناس من المشرق إلىٰ المغرب» إرادة تعميم الحشر لا خصوص المشرق والمغرب .

٢ ـ أن النار عندما تنتشر يكون حشرها لأهل المشرق أولاً ، ويؤيد ذلك أن ابتداء الفتن دائمًا من المشرق ، وأما جعل الغاية المغرب فلأن الشام بالنسبة إلىٰ أهل المشرق مغرب .

٣ ـ يحتمل أن تكون النار المذكورة في حديث أنس كناية عن الفتن المنتشرة التي أثارت الشر العظيم والتهبت كما تلتهب النار وكان ابتداؤها من قبل المشرق حتىٰ

(١) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء باب خلق آدم وذريته ٦/ ٤١٧ ـ ٤١٨ برقم (٣٣٢٩) .

(٢) فتح الباري ١٣/ ٨٦ .

خرب معظمه وانحشر الناس من جهة المشرق إلى الشام ومصر وهما من جهة المغرب كما شوهد ذلك مراراً في عهد التتر والمغول وغيرهم . وأما النار التي في حديثي حذيفة بن أسيد وابن عمر فهي نار حقيقية والله أعلم [1] .

ج ـ تعقيب الإمام النووي على ما قاله القاضي عياض بشأن مكان خروج النار

نقل الإمام النووي قولاً للقاضي عياض قال فيه : (أما قوله ﷺ في الحديث الذي بعده لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الأبل ببصرى) . فقد جعلها القاضي عياض حاشره، قال : (ولعلها ناران يجتمعان لحشر الناس، قال : أو يكون ابتداء خروجها من اليمن ويكون ظهورها وكثرة قوتها بالحجاز هذا كلام القاضي . . .

ثم قال : (وليس في الحديث أن نار الحجاز متعلقة بالحشر بل هي آية من أشراط الساعة مستقلة وقد خرجت في زماننا نار بالمدينة سنة أربع وخمسين وستمائة وكانت ناراً عظيمة جداً من جنب المدينة الشرقي وراء الحرة تواتر العلم بها عند جميع الشام وسائر البلدان وأخبرني من حضرها من أهل المدينة)[2] .

قلت : اتضح لنا أن الأمر كما قال النووي، وأبو الفضل معذور في ذلك إن شاء الله فقد اجتهد فيما قاله آنفًا ولكنه أخطأ فله أجران إن شاء الله وما أخطأ فيه فهو مردود فقد ظن أن النارين يجتمعان وليس الأمر كما قال : وهو قد توفي قبل خروج نار الحجاز بأكثر من مائة سنة .

د ـ مكان الحشر وزمانه

المكان الذي يكون الحشر إليه في آخر الزمان هو الشام كما صحت بذلك

---

(١) فتح الباري ١٣/ ٨٦ .

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص ٥٣/ ١٨ .

الأحاديث الكثيرة ومنها :

١ ـ قوله ﷺ : «إنكم محشرون رجالاً وركبانًا وتجرون على وجوهكم ههنا وأدوا بيده إلى الشام»[١] .

٢ ـ وقال ﷺ : «الشام أرض المحشر والمنشر»[٢] إلى غير ذلك من الأحاديث .

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله : (وفي تفسير ابن عيينة عن ابن عباس رضي الله عنهما من شك أن المحشر ههنا يعني الشام فليقرأ أول سورة الحشر قال لهم رسول الله ﷺ يومئذ أخرجوا ، قالوا إلى أين؟ قال : إلى أرض المحشر)[٣] .

والسبب في كون الشام هي أرض المحشر أن الأمن والإيمان حين تقع الفتن في آخر الزمان يكون بالشام ، وقد دعا النبي ﷺ للشام بالبركة فقال : «اللهم بارك لنا في شامنا ، اللهم بارك لنا في يمننا»[٤] . وقد وردت أحاديث كثيرة في فضائل الشام والترغيب في سكنها لا مجال لذكرها ههنا[٥] ، وقد تقدم أن نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان يكون بالشام وبه يكون اجتماع المؤمنين لقتال الدجال ، وهناك يقتله المسيح

---

(١) رواه أحمد ٥/ ٣ ، ٥ بإسناد جيد ، والترمذي في كتاب صفة القيامة باب ماجاء في شأن الحشر ٤/ ٥٣٢ . برقم ٢٤٢٤ ، وقال هذا حديث حسن صحيح ، قال الحافظ ابن حجر في الفتح ١١/ ٣٨٧ ، أخرجه الترمذي وسنده قوي .

(٢) رواه أحمد ٦/ ٤٦٣ ، وابن ماجة في كتاب إقامة الصلاة باب ما جاء في الصلاة في مسجد بيت المقدس ١/ ٤٥٠ برقم : ١٤٠٧ ، وأخرجه الربعي في فضائل الشام ص١٦ ، حديث رقم (٤) وصححه الشيخ الألباني في تخريجه له .

(٣) فتح الباري ١١/ ٣٨٨ ، وانظر تفسير ابن كثير ٤/ ٣٣٠ .

(٤) رواه البخاري في كتاب الفتن باب قول النبي ﷺ الفتنة من قبل المشرق ١٣/ ٤٩ برقم ٧٠٩٤ .

(٥) للحافظ الربعي كتاب قيم بهذا الشأن سماه (فضائل الشام) جمع فيه الأحاديث الواردة في فضل الشام ومعه مناقب الشام وأهله لشيخ الإسلام ابن تيمية تخريج العلامة الشيخ الألباني فليراجع .

(١) انظر : المنهاج في شعب الإيمان للحليمي ص ١/ ٤٤٢ ، وفتح الباري ٣٨٧/ ١١ .

عليه السلام بباب لد . هذا بالإضافة إلىٰ أن أرض الشام مهبط الأنبياء ومسرىٰ رسول الله ﷺ .

زمان الحشر : وأما عن زمن الحشر فقد اختلف أهل العلم فيه ، فذهب بعض العلماء كالبيهقي والغزالي وغيرهما إلىٰ أن هذا الحشر ليس في الدنيا وإنما هو في الآخرة عند الخروج من القبور [(١)] .

وذهب جماهير العلماء ـ ومنهم الإمام النووي ـ[(٢)] إلىٰ أن هذا الحشر يكون في الدنيا قبل قيام الساعة حيث يحشر الناس أحياء إلىٰ الشام ، وأما الحشر من القبور إلىٰ الموقف فهو علىٰ خلف الصورة الواردة في حشر الناس إلىٰ الشام حيث جاء في وصف حشر الدنيا ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : «يحشر الناس علىٰ ثلاث طرائق راغبين راهبين واثنان علىٰ بعير وثلاثة علىٰ بعير وأربعة علىٰ بعير وعشرة علىٰ بعير وتحشر بقيتهم النار تقيل[(٣)] معهم حيث قالوا وتبييت معهم حيث باتوا وتصبح معهم حيث أصبحوا وتمسي معهم حيث أمسوا»[(٤)] إلىٰ غير ذلك من الأحاديث التي تدل علىٰ أن المراد به حشر الموجودين في آخر الدنيا من أقطار الأرض إلىٰ محلة المحشر بأرض الشام ، وقد ورد في هذا الحديث وغيره الركوب والأكل والنوم وإماتة النار من يتخلف ، ولو كان هذا بعد نفخة البعث لم يبق موت ولا ظهر يركب ويشتري ولا أكل ولا لبس في عرصات القيامة ، وأيضًا فإن حشر الآخرة قد جاءت به الأحاديث تبيّن بأن الناس مؤمنهم وكافرهم يحشرون حفاة عراة لا عاهات فيهم ، ففي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهم قال : قام فينا رسول الله

---

(١) انظر المنهاج في شعب الإيمان للحليمي ٤٤٢/ ١ ، وفتح الباري ٣٨٧/ ١١ .

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٦١/ ١٧ .

(٣) من القائلة القيلولة وهي كسر الحر .

(٤) رواه البخاري في الكتاب الرقاب باش الحشر ١١/ ٣٨٤ برقم ٦٥٢٢ ، ومسلم في كتاب الجنة ، ص ١٦٠ ـ ١٦١/ ١٦ برقم (٢٨٦١) .

ﷺ خطيبًا بموعظة فقال: «أيها الناس إنكم محشورون حفاة عراة غرلاً[1] ﴿**كما بدأنا أول خلق نعيده**﴾[2]. وإن أول الخلائق يكسىٰ يوم القيامة إبراهيم الخليل»[3]. فمن أين للذين يبعثون بعد الموت حفاة عراة حدائق يدفعوها في الشوارف، أو أبعرة يركبها من يساق من الموقف إلىٰ الجنة؟! إن هذا في غاية البعد»[4].

فاتضح إذًا أن الحشر الوارد في الأحاديث السابقة إنما يكون في الدنيا قبل يوم القيامة، أما حشر يوم القيامة فقد بيّنه حديث ابن عباس السابق، فمن ذهب إلىٰ خلاف ذلك فقد أخطأ وجانب الحق والصواب. والله أعلم.

* * *

---

(١) جمع أغر وهو من بقيت غرته وهي الجلدة التي يقطعها الخاتن من الذكر. انظر النهاية ٣/ ٣٦٢، وفتح الباري ١٢١/١١ ٣٩١.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤.

(٣) رواه البخاري في كتاب الرقاق باب الحشر ١١/ ٣٨٥ برقم ٦٥٢٦، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها باب فناء الدنيا وبيان الحشر ١٧/١٦٠ برقم ٢٨٦٠.

(٤) انظر النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير ١/ ٢٣٠-٢٣١، وفتح الباري ١١/ ٣٨٨-٣٨٩.

المبحث الثاني

الإيمان بعذاب القبر ونعيمه

وفيه أربعة مطالب :

المطلب الأول : تقرير الإمام النووي لمذهب أهل السنة في عذاب القبر وبعض الأدلة عليه

من أصول أهل السنة والجماعة التي يجب الإيمان بها، الإيمان بعذاب القبر ونعيمه وأنه حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة، وأنه أول منازل الآخرة .

وقد تضافرت نصوص الكتاب والسنة على إثبات عذاب القبر ونعيمه وأجمع على ذلك سلف الأمة من الصحابة والتابعين ومن سار على نهجهم، وبلغت النصوص الواردة في هذا الشأن حد التواتر [1] .

وقد قرر الإمام النووي رحمه الله مذهب أهل السنة والجماعة في هذا الأمر وخالف المنكرين لذلك ورد عليهم مستدلاً لذلك بنصوص الكتاب والسنة والعقل وإليك بعضاً من ذلك .

فمن نصوص الكتاب العزيز قول الله تعالى : ﴿ **وحاق بآل فرعون سوء العذاب * النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب** ﴾[2]، قال الإمام: (اعلم أن مذهب أهل السنة إثبات عذاب القبر وقد تظاهرت عليه دلائل الكتاب والسنة، قال الله تعالى: ﴿ **يعرضون عليها غدوا وعشيا .. الآية** ﴾[3]. وقوله

---

(١) انظر : الشرح والإبانة لابن بطة ص٢١٩ ، وأيضاً شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٧٢/ ٢ .

(٢) سورة غافر ، الآية: [٤٠].

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٦٥/ ١٧ .

تعالىٰ: ﴿يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت﴾[1].

ومن نصوص السنة التي استدل بها الإمام النووي:

١ ـ حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار، يقال هذا مقعدك حتىٰ يبعث الله إليه يوم القيامة»[2].

٢ ـ وحديث قتادة عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن العبد إذا وضع في قبره وتولىٰ عنه أصحابه إنه ليسمع قرع نعالهم قال: يأتيه ملكان فيقعدانه فيقولان له ما كنت تقول في هذا الرجل[3]، قال فأما المؤمن فيقول أشهد أنه عبدالله ورسوله. قال فيقال له انظر إلىٰ مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً من الجنة، قال نبي الله فيراهما جميعًا» قال قتادة وذكر لنا أنه يفسح له في قبره سبعون ذراعًا ويُملأ عليه خضراً[4] إلىٰ يوم يبعثون، ثم رجع إلىٰ حديث أنس قال: (وأما المنافق والكافر فيقال

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: [٢٧].

(٢) رواه البخاري في كتاب الجنائز باب الميت بعرض عليه العذاب بالغداة والعشي ٣/ ٢٨٦ برقم ١٣٧٩، ومسلم بشرح النووي في كتاب الجنة وصفة نعيمها باب عرض مقعد الميت عليه ١٦٥/١٧ برقم ٢٨٦٦.

(٣) يعني الرسول ﷺ، وإنما يقولان له بهذه العبارة التي ليس فيها تعظيم امتحانًا للمسئول لئلا يتلقن تعظيمه من عبارة السائل ثم يثبت الله الذين آمنوا. شرح صحيح مسلم ١٦٧/١٧.

(٤) الخضر: لاسم الخضر قراءتان أصحهما بفتح الخاء وكسر الضاد، والثاني بضم الخاء وبفتح الضاد والأول أشهر ومعناه يملأ نعمًا غضة ناعمة وأصله من خضرة الشجر هكذا فسروه. قال القاضي عياض: يحتمل أن يكون هذا الفسح علىٰ ظاهره وأنه يرفع عن بصره ما يجاوره من الحجب الكثيفة بحيث لا تناله ظلمة القبر ولا ضيقه إذا ردت إليه روحه. ويحتمل أن يكون علىٰ ضرب المثل والاستعارة للرحمة والنعيم كما يقال سقىٰ الله قبره، والاحتمال الأول أصح. شرح صحيح مسلم ١٦٨/١٧.

له : ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول : لا أدري كنت أقول ما يقول الناس ، فيقال لا دريت ولا تليت ويُضرب بمطارق من حديد ضربة فيصيح صيحة يسمعها من يليه من غير الثقلين»[1] .

٣ ـ وحديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « تعوذوا بالله من عذاب القبر» قالوا : نعوذ بالله من عذاب القبر ، قال : تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، قالوا : نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، قال : «تعوذوا بالله من فتنة الدجال» قالوا : نعوذ بالله من فتنة الدجال[2] . إلى غير ذلك من الأحاديث .

قال الإمام النووي رحمه الله في أحاديث استحباب التعوذ من عذاب القبر وغيره بين التشهد والتسليم : (وفيه إثبات عذاب القبر وفتنته وهو مذهب أهل الحق)[3] .

وقال : (اعلم أن مذهب أهل السنة إثبات عذاب القبر)[4] .

وقال : «المقصود أن مذهب أهل السنة إثبات عذاب القبر كما ذكرنا خلافًا للخوارج ومعظم المعتزلة وبعض المرجئة»[5] .

وقرر الإمام أن الإنسان يعرض عليه معقده في قبره فيقال له قول ﷺ : «مقعدك حتى يبعثك الله»[6] .

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز باب ما جاء في عذاب القبر ٣/ ٢٧٥ برقم ١٣٧٣ ، ومسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها باب عرض مقعد الميت عليه ١٧/٦٦٧ برقم ٢٨٧٠ .

(٢) رواه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها باب عرض مقعد الميت عليه ١٧/١٦٧ برقم ٢٨٦٧ .

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص٧٢ ـ ٥/٧٣ .

(٤) المرجع نفسه ص ١٧/١٦٥ .

(٥) المرجع السابق ص ١٧/١٦٦ .

(٦) أخرجه مسلم بشرح النووي ص١٧/١٦٦ برقم ٢٨٦٦ مكرر .

قال الإمام: (هذا تنعيم للمؤمن وتعذيب للكافر)[1].

وقال: (فنحن نشاهد الميت على حاله في قبره فكيف يسأل ويقعد ويضرب بمطارق من حديد ولا يظهر له أثر فالجواب: أن ذلك غير ممتنع بل له نظير في العادة، وهو النائم فإنه يجد لذة وألامًا لا نحس نحن شيئًا منها وكذا يجد اليقظان لذة وألمًا لا يسمعه أو يفكر فيه ولا يشاهد ذلك جليسه منه وكذا فإن جبريل يأتي النبي ﷺ فيخبره بالوحي الكريم ولا يدركه الحاضرن وكل هذا ظاهر جلي، قال أصحابنا: (وأما إقعاده المذكور في الحديث فيحتمل أن يكون مختصًا بالمقبور دون المنبوذ ومن أكلته السباع والحيتان وأما ضربه بالمطارق فلا يمتنع أن يوسع له في قبره فيقعد ويضرب والله أعلم)[2].

وقال أيضًا: (ثم المعذب عند أهل السنة الجسد بعينه أو بعضه بعد إعادة الروح إليه أو جزء منه، خالف فيه محمد بن جرير وعبدالله بن كرام وطائفة، فقالوا لا يشترط إعادة الروح، قال أصحابنا: هذا فاسد لأن الألم والإحساس إنما يكون في الحي، قال أصحابنا لا يمنع ذلك كون الميت قد تفرقت أجزاؤه. كما نشاهد في العادة أو أكلته السباع أو حيتان البحر أو نحو ذلك فكما أن الله يعيده للحشر وهو سبحانه وتعالى قادر على ذلك فكذا يعيد الحياة إلى جزء من أو أجزاء وإن أكلته السباع والحيتان»[3].

قلت: لقد أجاد الإمام رحمه الله هو وأصحابه وأحسنوا الاختيار فاختاروا مذهب السلف في كون الميت يعذب وينعم في قبره، وأن العذاب والنعيم نازلان على الروح والجسد معًا لا على الروح دون الجسد كما زعم قوم، ولا على الجسد دون

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٦٦/ ١٧ .

(٢) شرح صحيح مسلم ص١٦٦/ ١٧ .

(٣) المصدر السابق ص١٦٦/ ١٧..

الروح كما زعم آخرون، بل عليهما معًا، والنصوص الواردة في ذلك رد على كلا المذهبين كما اتفق على ذلك أهل السنة والجماعة[1].

كما استدل رحمه الله بالعقل فقال: (ولا يمنع في العقل أن يعيد الله تعالى الحياة في جزء من الجسد ويعذبه، وإذا لم يمنعه العقل وورد الشرع به وجب قبوله واعتقاده)[2].

تبقى مسألة مهمة تعرض لها الإمام أثناء شرحه وهي هل يقع العذاب على المؤمنين في القبر أم لا؟

فقال رحمه الله في تعليقه على حديث ابن عباس قال: مر رسول الله ﷺ على قبرين فقال: أما إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير [3] أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله»[4].

قال الإمام: (وأما فقه الباب ففيه إثبات عذاب القبر وهو مذهب أهل الحق خلافًا للمعتزلة»[5].

قلت: ولا شك أن هذين المقبورين مسلمان، ومع هذا صرح بأنهما يعذبان وكذلك الأحاديث التي فيها الأمر بالاستعاذة من عذاب القبر دليل على أن عذاب القبر لا يختص بالكفار.

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٧٩ ـ ٥٨٠/ ٢.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٦٥ ـ ١٦٦/ ١٧.

(٣) قال الإمام: «وما يعذبان في كبير قد ذكر العلماء فيه تأويلين. أحدهما: أنه ليس بيسير في زعمهما. والثاني: أنه ليس بكبير تركه عليهما وذكر القاضي عياض تأويلاً ثالثًا. أي ليس بأكبر الكبائر. انظر شرح صحيح مسلم ص١٧١/ ٣.

(٤) أخرجه البخاري مع الفتح ص٢٤٢/ ٣، رقم ١٣٧٨، ومسلم في الطهارة رقم (١١١).

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٧١ ـ ١٧٢/ ٣.

المطلب الثاني: هل يسمع الميت

أشار الإمام النووي إلى اختلاف العلماء في سماع الميت بعد ذكره لحديث قليب بدر فقال: (قوله ﷺ في قتلي بدر: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم)، قال المازري قال بعض الناس: الميت يسمع عملاً بظاهر هذا الحديث، ثم أنكره المازري وأدعى أن هذا خاص في هؤلاء ورد عليه القاضي عياض، وقال: يحمل سماعهم على ما يحمل عليه سماع الموتى في أحاديث عذاب القبر وفتنته التي لا مدفع لها وذلك بإحيائهم أو إحياء جزء منهم يعقلون به ويسمعون في الوقت الذي يريد الله هذا كلام القاضي وهو الظاهر المختار الذي يقتضيه أحاديث السلام على القبور والله أعلم)[١].

وقال في شرح حديث عمرو بن العاص وهو في سياقة الموت حين قال لولده.. (فإذا أنا مت فلا تصاحبني نائحة ولا نار فإذا دفنتموني فشنوا علي التراب شنا، ثم أقيموا حول قبري قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها حتى أستأنس بكم وأنظر ماذا أراجع به رسل ربي»[٢].

قال الإمام: (فيه فوائد منها إثبات فتنة القبر وسؤال الملكين وهو مذهب أهل الحق ومنها استحباب المكث عند القبر، بعد الدفن عظة نحو ما ذكر وفيه أن الميت يسمع حينئذ من حول القبر)[٣].

قلت: ما اختاره الإمام رحمه الله والذي نقله عن القاضي عياض هو الظاهر المختار الذي تدل عليه النصوص من كون الميت يسمع قرع النعال ويجيب وبهذا قال جماهير أهل السنة[٤].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٦٩ ـ ١٧٠/ ١٧، وانظر إكمال المعلم ص ٤٠٥/ ٨ .

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي ص١١٩/ ٢ برقم ١٢١ .

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص١١٩/ ٢ .

(٤) انظر : شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٧٦/ ٢ ، وفتح الباري ٢٧٧ ـ ٢٧٨/ ٣ .

وأما الجواب عما نفته أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها عن عدم سماع قتلى بدر فالجواب عنه أن يقال: إن معنى الآية التي استدلت بها، أي إنك لا تسمع سماعًا ينفعهم ولا تسمعهم إلا أن يشاء الله وقد شاء الله أن يسمعهم تقريعًا وتوبيخًا لهم لمخالفتهم نبيهم ﷺ.

ورأي ابن حجر وغيره من العلماء أن إنكار عائشة محمول على السماع المطلق من الأموات الذي لم يقيد بمسألة ولا غيرها، وأما حديث: «ما أنتم بأسمع لما أقول منهم» فالمراد به سماع مخصوص مقيد. قال الحافظ (هذا وجه من وجوه إيراد البخاري لحديث ابن عمر وقول عائشة معًا في الترجمة)[1].

قلت: هذا القول من القوة بمكان كما لا يخفى ولا يبعد أن يراد ويجاب أيضًا بالجواب السابق.

ويمكن أن يقال أن حياة البرزخ وتفصيلاتها مما لا ينبغي الخوض فيه بالرأي والعقل والمقايسة فثبت أن قتلى بدر سمعوا كما في الحديث السابق، وأنّ الميت يسمع ساعه الدفن فهذا نؤمن به ونثبته، وما عدا ذلك فالأصل فيه عدم السماع إلا بالنص»[2].

وللشيخ محمد الأمين الشنقيطي بحثًا طويلاً مفيدًا في هذه المسألة في كتابه أضواء البيان فليطلع عليه من أراد الزيادة والفائدة[3] والله الموفق.

---

(١) فتح الباري ص٢٧٨/ ٣.

(٢) الآيات البينات في عدم سماع الأموات ص٢١.

(٣) انظر: أضواء البيان للشنقيطي ص٤١٦ ـ ٤٣٩/ ٦، وانظر: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ص٢٩٨ ـ ٢٩٩/ ٤.

المطلب الثالث: مستقر الأرواح

مما له صلة بعذاب القبر ونعيمه مسألة مستقر الأرواح، وقد تعرض لها الإمام النووي في كذا موضع فقال رحمه الله: (قوله ﷺ في الشهداء (أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تساوي إلىٰ تلك القناديل . . . »[1].

قال الإمام: قال القاضي: (وفيه أن الأرواح باقية لا تفني فينعم المحسن ويعذب المسيء وقد جاء به القرآن والآثار وهو مذهب أهل السنة خلافًا لطائفة من المبتدعة قالت تفنىٰ)[2].

قال القاضي: قال: ههنا أرواح الشهداء، وقال في حديث مالك: إن نسمة المؤمن والنسمة تطلق علىٰ ذات الإنسان جسمًا وروحًا وتطلقًا علىٰ الروح مفردة وهي المراد بها في هذا التفسير في الحديث الآخر بالروح ولعلمنا أن الجسم يفنىٰ ويأكله التراب، ولقوله في الحديث حتىٰ يرجعه الله تعالىٰ إلىٰ جسده يوم القيامة، قال القاضي وذكر في حديث مالك رحمه الله تعالىٰ نسمة المؤمن. وقال هنا الشهداء لأن هذه صفتهم لقوله تعالىٰ: ﴿أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[3]. وكما فسره في هذا الحديث وأما غيرهم فإنما يعرض عليه معقدة بالغداة والعشي . .

إلىٰ أن قال: (قال القاضي: وقيل بل المراد جميع المؤمنين الذين يدخلون الجنة بغير عذاب فيدخلونها الآن بدليل عموم الحديث، وقيل بل أرواح المؤمنين علىٰ أفنية

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي ص٢٧/ ١٣ برقم ١٨٨٧ .

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص٢٨/ ١٣، وانظر إكمال المعلم ص ٦/٣٠٦ .

(٣ سورة آل عمران، الآية : ١٦٩ .

قبورهم والله أعلم)[١].

وقال أيضًا نقلاً عن القاضي عياض: (قال القاضي عياض رحمه الله في هذا الحديث: «أنه ﷺ وجد آدم ونسم بنيه من أهل الجنة والنار وقد جاء أن أرواح الكفار في سجين، قيل في الأرض السابعة، وقيل تحتها وقيل في سجن، وأن أرواح المؤمنين منعمة في الجنة، فيحتمل أنها تعرض على آدم أوقاتًا فوافق وقت عرضها مرور النبي ﷺ ويحتمل كونها في النار والجنة وإنما هو في أوقات دون أوقات بدليل قوله تعالى: ﴿ النار يعرضون عليها غدوا وعشيا ﴾ بقوله ﷺ: «في المؤمن عرض منزله من الجنة عليه، وقيل له هذا منزلك حتى يبعثك الله إليه ويحتمل أن الجنة كانت في جهة يمين آدم عليه السلام والنار في جهة شماله وكلاهما حيث شاء الله والله أعلم»[٢].

قلت: لقد اختلف العلماء في مستقر الأرواح على أقوال كثيرة[٣]:

١ - فجمهور العلماء على أن مستقر أرواح المؤمنين في حواصل طيور الجنة تذهب حيث شاءت. وقد استدل هؤلاء بما ورد من الأحاديث التي تضمّن بعضها مستقر أرواح الشهداء على الخصوص، وبعضها مستقر أرواح المؤمنين على العموم. من ذلك:

- حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أرواح الشهداء عند الله في حواصل طير خضر تسرح في أنهار الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى قناديل تحت العرش»[٤].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص ٢٩ - ٣٠/ ١٣ .

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٨٨/ ٢، وانظر إكمال المعلم ص ٣٠٦/ ٦.

(٣) انظر: حكاية هذه الأقوال وأدلتها ومناقشتها في كتاب الروح لابن القيم ص ١٥٨ - ١٨٣، وشرح العقيدة الطحاوية ص٥٧٨ - ٥٧٩ / ٢

(٤) تقدم تخريجه .

ـ وحديث أبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنما نسمة[1] المؤمن طائر يعلق[2] في شجر الجنة حتىٰ يرجعه الله إلىٰ جسده يوم يبعثه»[3].

٢ ـ وذهبت طائفة من الصحابة والتابعين إلىٰ أرواح المؤمنين عند الله ولم يزيدوا علىٰ ذلك.

٣ ـ وقال جماعة: إن أرواح المؤمنين في الجنة وأرواح الكافرين في النار.

٤ ـ وقالت طائفة: إن أرواح المؤمنين عن يمين آدم وأرواح الكافرين عن شماله.

٥ ـ وقال جماعة: أرواح المؤمنين بالجابية من دمشق وأرواح الكافرين ببرهوت بئر بحضرموت.

٦ ـ وقالت طائفة: أرواح المؤمنين في أعلىٰ عليين في السماء السابعة وأرواح الكافرين في سجين في الأرض السابعة.

٧ ـ وقال بعضهم: أرواح الشهداء في الجنة وأرواح عامة المؤمنين علىٰ أفنية قبورهم. إلىٰ غير ذلك من الأقوال.

٨ ـ وقد ذهب المحققون[4] من علماء السلف كالإمام ابن القيم وابن أبي العز

---

(١) النسمة بفتحتين والنفس وكل شيء فيه روح فهو نسمة. النهاية في غريب الحديث ٥/ ٤٩.

(٢) بفتح الياء وسكون العين وضم اللام أي يأكل ويرعىٰ. انظر المصباح المنير ص١٦١، والقاموس المحيط ص ١١٧٦.

(٣) رواه مالك في الموطأ في كتاب الجنائز ١/ ٢٠٦ برقم ٤٦، واللفظ له وأحمد في المسند ٣/ ٤٥٥، وصححه العلامة الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢/ ٧٢٩ برقم ٩٩٥، وفي تعليقه على شرح الطحاوية ص٣٩٦.

(٤) انظر كتاب الروح ص ٤٠١ ـ ٤٠٤/ ١، وشرح العقيدة الطحاوية ص ٥٨٢ ـ ٥٨٨/ ٢.

الحنفي[1] والشوكاني وغيرهم إلى القول بأن الأرواح متفاوتة في مستقرها تفاوتًا عظيمًا وليست في مكان واحد. (قال الإمام ابن أبي العز رحمه الله: الأرواح في البرزخ متفاوتة في مستقرها أعظم تفاوت، فمنها أرواح في أعلى عليين في الملأ الأعلى وهي أرواح الأنبياء والرسل عليهم السلام، وهم متفاوتون في ذلك، ومنها أرواح بعض الشهداء في حواصل طير خضر في الجنة تسرح حيث شاءت، وهي أرواح بعضهم لا كلهم، لأن من الشهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه كما في المسند أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله مالي إن قتلت في سبيل الله؟ قال: «الجنة» فلما ولى قال: «إلا الدين سارني به جبريل آنفًا»[2]، ومن الأرواح من يكون محبوسًا على باب الجنة، ومنهم من يكون محبوسًا في قبره، ومنهم من يكون في الأرض. ومنها أرواح تكون في تنور الزناة والزواني وأرواح في نهر الدم تسبح فيه وتلقم الحجارة كل ذلك تشهد له السنة»[3].



---

(١) هو الإمام علي بن علي بن محمد بن أبي العز الحنفي الأذرعي الصالحي الدمشقي، أحد علماء السلف في عصره المعروف بشدة تمسكه بالسنة، كان فقيهًا عابدًا قوي الحجة وكان قاضي قضاة دمشق ثم مصر ثم دمشق، وقد امتحن بسبب عقيدته السلفية والدعوية إليها ولمحاربته المبتدعين من الصوفية وغيرهم، من أنفع وأبرك مؤلفاته شرح الطحاوية الذي لم يشرح مثله ومن كتبه الإتباع وغير ذلك، توفي سنة (٧٩٢هـ). انظر الدرر الكامنة ٣/ ٨٧، وشذرات الذهب ٦/ ٣٢٦.

(٢) رواه أحمد ٤/ ١٣٩، ٣٥٠، وصححه الشيخ الألباني في هامش شرح الطحاوية ص٣٩٥.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٨٢ـ٥٨٨/ ٢ .

المطلب الرابع : الموت وذبحه يوم القيامة

لقد تعرض الإمام لمسألة الموت ذبحه فيما نقله عن المازري أنه يذبح يوم القيامة فقال الإمام في شرح حديث قوله ﷺ (يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش فيوقف مابين الجنة والنار فيذبح ثم يقال خلود ولا موت)(١).

قال المازري: الموت عند أهل السنة عرض يضاد الحياة، وقال بعض المعتزلة. ليس بعرض بل معناه عدم الحياة وهذا خطأ لقوله تعالىٰ: خلق الموت والحياة فأثبت الموت مخلوقًا وعلىٰ المذهبين ليس الموت بجسم في صورة كبش أو غيره فيتأول الحديث علىٰ أن الله يخلق هذا الجسم ثم يذبح مثالاً لأن الموت لا يطرأ علىٰ أهل الآخرة والكبش الأملح، قيل: هو الأبيض الخالص قاله ابن الأعرابي، وقال الكسائي هو الذي فيه بياض وسواد وبياض أكثر . . . »(٢).

قلت : الموت مرحلة بين الحياة الدنيا، والحياة الآخرة، ولهذا سمي برزخًا أي حاجزًا (٣). كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ (٤). فالحاصل أن الدور ثلاثة : دار الدنيا ودار البرزخ ودار القرار .

وقد جعل الله لكل دار أحكامًا تخصها، وركبّ هذا الإنسان من بدن ونفس، وجعل أحكام الدنيا علىٰ الأبدان، والأرواح تبعًا لها وجعل أحكام البرزخ علىٰ الأرواح، والأبدان تبع لها، فإذا كان يوم حشر الأحياء وقيام الناس من قبورهم، صار الحكم بالنعيم والعذاب علىٰ الأرواح والأجساد جميعًا (٥).

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ١٥٢/ ١٧ برقم (٢٨٤٩).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٥٢ ـ ١٥٣/ ١٧ .

(٣) البرزخ : الحاجز بين الشيئين ومن رفث الموت إلىٰ القيامة من مات دخله وبرازخ الإيمان ما بين أوله وآخره أو ما بين الشك واليقين. القاموس المحيط للفيروز أبادي ص ٢٤٩ .

(٤) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٠ .

(٥) شرح العقيدة الطحاوية ص٥٨٠/ ١٢ .

والقول الصحيح في مسألة ذبح الموت أن المذبوح هو ملك الموت [1]، وهذا الحديث وأمثاله مما يجب الإيمان به وترك الخوض في حقيقته لأن قدرة الله تعالى فوق مدارك العقول، ورحم الله امرءاً عرف قدره فوقف عنده .

* * *

(١) فتح الباري ص٤٢١/ ١١ .

المبحث الثالث

البعث والجزاء

وفيه مطلبان :

المطلب الأول : البعث والجزاء

المسألة الأولى : منهج أهل السنة والجماعة في ذلك :

لقد أثبت السلف رحمهم الله البعث وأن الله يبعث من في القبور من أجل الجزاء والحساب .

قال الإمام الطحاوي رحمه الله مقرراً هذه العقيدة : (ونؤمن بالبعث وجزاء الأعمال يوم القيامة والعرض والحساب وقراءة الكتب والثواب والعقاب والصراط والميزان)[1] .

واستدلوا على إثباته بأدلة من الكتاب والسنة :

فمن الكتاب قوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَّ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾[2] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾[3] .

وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾[4] .

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢/٥٨٨ .

(٢) سورة الحج، الآية : ٧ .

(٣) سورة الأنعام، الآية : ٣٦ .

(٤) سورة المؤمنون، الآية : ١٦ .

وقال تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾[1] .

وأما من السنة فمن ذلك قوله ﷺ :

« يبعث كل عبد على ما مات عليه[2]، وقوله: إن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق »[3] .

المسألة الثانية : تقرير الإمام النووي رحمه الله لمنهج أهل السنة والجماعة في ذلك واستدلاله بنفس أدلتهم .

لقد سار الإمام رحمه الله وفق منهج السلف الصالح في إثبات البعث والجزاء وقرر ذلك في كذا موضع من كتابه شرح صحيح مسلم فقال رحمه الله في بيانه لمعنى البعث في قوله ﷺ في معنى الإيمان: «أن تؤمن بالله ولقائه وتؤمن بالبعث الآخر »[4] .

قال رحمه الله : «وأما وصف البعث بالآخر، فقيل هو مبالغة في البيان والإيضاح وذلك لشدة الاهتمام به، وقيل سببه أن خروج الإنسان إلى الدنيا بعث من الأرحام، وخروجه من القبر للحشر بعث من الأرض فقيد البعث بالآخر للتمييز والله أعلم »[5] .

وعند تعليقه على قوله ﷺ: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن »[6] .

---

(1) سورة التغابن، الآية: ٧ .

(2) رواه مسلم بشرح النووي ص١٧٢/ ١٧ برقم ٢٨٧٧ .

(3) رواه مسلم بشرح النووي ص ١٠٧/ ١٥ برقم (٢٣٧٣).

(4) أخرجه مسلم بشح النووي كتاب الإيمان ص١٤١/ ١ برقم (١) .

(5) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٤٥/ ١ .

(6) أخرجه مسلم شرح النووي في كتاب الجنة باب الأمر بحسن الظن بالله ص ١٧٢/ ١٧ برقم ٢٨٧٧ .

قال الإمام قوله ﷺ: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن بالله الظن) وفي رواية إلا وهو يحسن الظن بالله تعالىٰ، قال العلماء: هذا تحذير من القنوط وحث على الرجاء عند الخاتمة. وقد سبق في الحديث الآخر قوله سبحانه وتعالىٰ: ﴿**أنا عند ظن عبدي** ربي﴾ قال العلماء: معنىٰ حسن الظن بالله تعالىٰ أن يظن أنه يرحمه ويعفو عنه، قالوا: وفي حالة الصحة يكون خائفًا راجيًا ويكونان سواء، وقيل: يكون الخوف أرجح فإذا دنت. أمارات الموت غلب الرجاء أو محضه لأن مقصود الخوف الانكفاف عن المعاصي والقبائح والحرص علىٰ الإكثار من الطاعات والأعمال وقد تعذر ذلك أو معظمه في هذا الحال فاستحب إحسان الظن المتضمن للافتقار إلىٰ الله تعالىٰ والإذعان له ويؤيده الحديث المذكور بعده يبعث كل عبد علىٰ ما مات عليه، ولهذا عقبه مسلم للحديث الأول. قال العلماء: معناه يبعث علىٰ الحالة التي مات عليها ومثله الحديث الآخر بعده. ثم بعثوا علىٰ نياتهم)[١].

واستدل رحمه الله بعدة أحاديث منها:

١ ـ حديث جبريل عليه السلام عندما سأل النبي ﷺ من الإيمان ذكر منه: «أن تؤمن بالله ولقائه وتؤمن بالبعث الآخر»[٢].

قال الإمام: (هو بكسر الخاء واختلف في المراد بالجمع بين الإيمان بلقاء الله تعالىٰ والبعث، فقيل اللقاء يحصل بالانتقال إلىٰ دار الجزاء والبعث بعده عند قيام الساعة، وقيل اللقاء ما يكون بعد البعث عند الحساب، ثم ليس المراد باللقاء رؤية الله تعالىٰ فإن أحد لا يقطع لنفسه برؤية الله تعالىٰ لأن الرؤية مختصة بالمؤمنين ولا يدري الإنسان بماذا يختم له[٣]).

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٧٢/ ١٧ .

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي ص١٤٣/ ١، كتاب الإيمان برقم (١).

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٤٥/ ١ كتاب الإيمان .

٢ ـ وأيضًا من الأدلة قال في شرح حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله ابن جدعان كان في الجاهلية يصل الرحم ويطعم المسكين فهل ذلك نافعه قال لا ينفعه إنه لم يقل يومًا رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين»[١].

قال الإمام: (وفي هذا الحديث أن ما كان يفعله من الصلة والإطعام ووجوه المكارم لا ينفعه في الآخرة لكونه كافر هو معنى قوله ﷺ لا يقل رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين أي لم يكن مصدقًا بالبعث ومن لم يصدق به كافر ولا ينفعه عمله)[٢].

٣ ـ ومن الأدلة ما قالته بنت لحارثة بن النعمان ـ (ما حفظت ق إلا من في رسول الله ﷺ يخطب بها كل جمعة)[٣].

قال الإمام: قال العلماء سبب اختيار (ق) أنها مشتملة على البعث والموت والمواعظ الشديدة والزواجر الأكيدة[٤].

٤ ـ وقال في شرح قوله ﷺ: «ووعدك الحق» (أي ومعنى صدق لقاءك حق أي البعث وقيل الموت، وهذا القول باطل في هذا الموضع وأنا نبهت عليه لئلا يغتر به والصواب البعث فهو الذي يقتضيه سياق الكلام وما بعده وهو الذي يرد به على الملحد لا بالموت)[٥].

٥ ـ ومن الأدلة قوله ﷺ: «يبعث كل عبد على ما مات عليه»[٦].

وبحديث قوله ﷺ: «إن الناس يبعثون يوم القيامة فأكون أول من يفيق»[٧].

٦ ـ كذلك الحديث الذي ورد في صفة البعث وأخرجه مسلم في ذكر الدجال

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ٧٣ ـ ٧٤/ ٣ برقم (٢١٤).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص٧٣ ـ ٧٤/ ٣ .

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ١٤١/ ٦ برقم (٨٧٣).

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٤٠/ ٦ كتاب الجمعة .

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي ص٤٩/ ٦ صلاة المسافرين وانظر ٥٠/ ٦ و٢٩/ ١٧ .

(٦) سبق تخريجه .

(٧) سبق تخريجه .

والنفخ في الصور وفيه ـ «ثم يرسل الله مطراً كأنه الطل، فتنبت منه أجساد الناس ثم ينفخ فيهأخرىٰ فإذا هم قيام ينظرون»(١).

وجاء في حديث أبي هريرة في بيان المدة بين النفختين قال رسول الله ﷺ (ما بين النفختين أربعون؟ قالوا: يا أبا هريرة أربعون سنة؟ قال أبيت قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت قالوا: أربعون سنة؟ قال أبيت. ثم ينزل الله من السماء ماء فينبتون كما ينبت البقل». يلقىٰ قال: ليس من الإنسان شيء إلا يبلىٰ إلا عظمًا لا تأكله الأرض أبدًا. ومنه يركب يوم القيامة قالوا: أي عظم هو يا رسول الله؟ قال: عجب الذنب)(٢).

قال الإمام: «كأنه الطل أو الظل قال العلماء: الأصح الطل بالمهملة وهذا الموافق للحديث الآخر أنه كمني الرجل»(٣).

وقال في قوله ﷺ، «ما بين النفختين أربعون . . معناه أبيت أن أجزم أن المراد أربعون يومًا أو سنة أو شهر بل الذي أجزم به أنها أربعون مجملة، وقد جاءت مفسراً من رواية غيره في غير مسلم أربعون سنة»(٤).

وقال: «عجب الذنب» أي العظم اللطيف الذي أسفل الصلب وهو رأس العصعص ويقال عجم بالميم وهو أول ما يخلق من الآدمي وهو الذي يبقىٰ منه ليعاد تركيب الخلق عليه»(٥).

وقال في موضع آخر «قوله ﷺ: «كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجم الذنب» هذا مخصوص فيخص منه الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه فإن الله حرم علىٰ الأرض

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي ص٦١/ ١٨ كتاب الفتن رقم ١١٦ .

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي ص٧٢ ـ ٧٣/ ١٨ كتاب الفتن برقم ١٤٣ .

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص٦١/ ١٨ .

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص٧٢/ ١٨ .

(٥) المصدر السابق ص ٧٣/ ١٨.

أجسادهم كما صرح به في الحديث»[1].

قلت: ما ذكره الإمام في بيان معنى عجب الذنب من أنه خاص بالأنبياء قول ضعيف والأصح ما ذكره أولاً أنه هو أصل الصلب وقيل: هو رأس العصعص[2]، وذلك يؤيده نص الحديث بقوله ﷺ: «كل ابن آدم» فعمم ولم يخصص. أما ما هو خاص بالأنبياء فإن أجسادهم لا تأكلها دودة الأرض وهذا ثابت في حديث سعيد ابن المسيب رضي الله عنه: «أن أجساد الأنبياء لا تقيم في الأرض أكثر من أربعين يومًا ثم ترفع»[3]. وقوله ﷺ: «إن أفضل أيامكم يوم الجمعة فيه خلق آدم، وفيه قبض، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، فأكثروا من الصلاة فيه. فإن صلاتكم معروضة علي، قالوا يا رسول الله وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أذهت؟ يقولون: بليت فقال: «إن الله ـ عز وجل ـ حرّم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»[4].

وما ورد في حق غيرهم من أن الأرض لا تأكل أجسادهم مثل المؤذن المحتسب والشهداء فأختلف فيهم، والراجح فيهم أن ما روى فيهم كله ضعيفًا[5].

* * *

(١) شرح صحيح مسلم ص ٧٣/ ١٨.

(٢) التذكرة للقرطبي ص٢٠٢/ ١.

(٣) التذكرة للقرطبي ص٢٠٦/ ١.

(٤) رواه أبو داود في كتاب الوتر برقم ١٥٣١، وابن ماجه في كتاب الإفاقة برقم ١٠٨٥، باب فضل الجمعة.

(٥) الألباني في ضعيف الجامع ص٣/ ٦.

المطلب الثاني : الحشر

وفيه عدة مسائل

الأولى : معنى الحشر.

الحشر في اللغة : الجمع [1].

قال القرطبي : (ومعناه الجمع)[2].

ومن أسماء يوم القيامة يوم الحشر وهو عبارة عن الجميع، وقد يكون مع الفعل إكراه قال الله تعالى: ﴿ **وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ** ﴾[3].

أي : من يسوق السحرة كرهًا [4].

المسألة الثانية : مذهب أهل السنة والجماعة في إثبات الحشر وفيه :

إن من منهج أهل السنة والجماعة إثبات الحشر .

وقد استدلوا على هذه العقيدة بأدلة كثيرة من الكتاب والسنة . فمن الكتاب قوله تعالى : ﴿ **وحشرناهم فلم نغادر منهم أحدا** ﴾[5].

وقوله تعالى : ﴿ **واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون** ﴾[6].

---

(١) القاموس المحيط للفيروز أبادي ص٣٧٥ .

(٢) التذكرة ص٢٤٦/١ .

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١١١ .

(٤) المرجع السابق، ص٢٧٠/١ .

(٥) سورة الكهف، الآية: [٤٧].

(٦) سورة البقرة، الآية: [٢٠٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾(١).

وبقوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾(٢).

وأما من السنة فمن ذلك قوله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء(٣) كقرصة(٤) النقي(٥)»(٦).

وهذه النوعين على أربعة أوجه:

أما الذي في الدنيا فقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾(٧). قال الزهري: كانوا من سبط لم يصبهم جلاء، وكان الله عز وجل: «قد كتب عليهم الجلاء . .»(٨).

والثاني: ما رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: يحشر الناس على ثلاث طرائق راغبين راهبين . .(٩).

وقال قتادة: الحشر الثاني نار تحشرهم من المشرق إلى المغرب تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا . . . ».

والحشر الثالث: حشرهم إلى الموقف قال تعالىٰ: ﴿وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ

---

(١) سورة مريم، الآية: [٦٨].

(٢) سورة مريم، الآيتان: [٨٥، ٨٦].

(٣) العفراء بالعين المهملة والمد بيضاء إلى حمرة، شرح صحيح مسلم ص ١١١/١٧.

(٤) قرصة: الخبزة القاموس المحيط ص ٦٢٦.

(٥) النقي بفتح النون وكسر القاف وتشديد الباء هو الدقيق الحوري وهو الدرمك وهو الأرض الجيدة، شرح صحيح مسلم ص ١١١/١٧.

(٦) أخرجه البخاري مع الفتح ص ٣٧٢/ ١١ برقم ٦٥٢، ومسلم في المنافقين برقم ٢٩.

(٧) سورة الحشر، الآية: ٢

(٨) التذكرة ص ٢٤٦/ ١.

(٩) أخرجه مسلم بشرح النووي ص١٦٠/ ١٧ برقم ٢٨٦١.

أحدا ﴾[1].

الحشر الرابع : حشرهم إلى الجنة والنار[2].

وقال أيضًا : «يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراء غرلا»[3].

المسألة الثالثة : تقرير مذهب الإمام لمذهب السلف.

لقد قرر الإمام النووي رحمه الله مذهب السلف في إثبات الحشر وبين أن الحشر نوعان : حشر في الدنيا . وحشر في الآخرة فأما الذي في الدنيا ورد ذكره في حديث الرسول ﷺ : «يحشر الناس على ثلاث طرائق راغبين راهبين واثنان على بعير وثلاثة على بعير وأربعة على بعير وعشرة على بعير وتحشر بقيتهم النار تبيت معهم حيث باتوا وتقيل معهم حيث قالوا وتصبح معهم حيث أصبحوا وتمسي معهم حيث أمسوا»[4].

قال الإمام في تعليقه على هذا الحديث : (قال العلماء : وهذا الحشر في آخر الدنيا قبيل القيامة وقيل النفخ في الصور بدليل قوله ﷺ (بقيتهم النار) تبيت معهم وتقيل وتصبح وتمسي . وهذا آخر أشراط الساعة كما ذكر مسلم بعد هذا في آيات الساعة»[5].

وأما الذي في الآخرة : قوله ﷺ : «يحشر الناس يوم القيام على أرض بيضاء»[6]. قال الإمام : (قال القاضي كأن النار غيرت بياض وجه الأرض إلى الحمرة)[7].

---

(١) سورة الكهف ، الآية : [٤٧].

(٢) انظر : في كل ما سبق التذكرة ص ٢٤٦ ـ ٢٥٠ /١ ، وبيان أدلة كل نوع .

(٣) مسلم بشرح النووي ص ١٦٠/ ١٧ ، برقم (٢٦٨٠مكرر) .

(٤) أخرجه مسلم بشرح النووي ١٩٠/ ١٧ برقم ٢٨٦١ .

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٦١/ ١٧ .

(٦) أخرجه مسلم بشرح النووي ص١١١/ ١٧ ، برقم ٢٧٩٠ .

(٧) شرح صحيح مسلم ص١١١/ ١٧ .

وأيضا استدل به على الحشر الذي يكون يوم القيامة .

قوله ﷺ : «يحشر الناس يوم القيامة حفاة عراة غرلاً»[1] .

قال الإمام : (الغرل بضم الغين المعجمة وإسكان الراء معناه غير مختونين جمع أغرل وهو الذي لم يختن وبقيت معه غرلته وهي قلفته وهي الجلدة التي تقطع في الختان .

قال الإمام : (والقصد أنهم يحشرون كما خلقوا لا شيء معهم ولا يفقد منهم شيء حتى الغرلة تكون معهم)[2] .

ومن الأحاديث التي استدل بها علي الحشر وأنه يكون للجميع من البشر والحيوانات قوله ﷺ : «لتؤدون الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يعاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء»[3] .

قال في تعليقه عليه : (وهذا تصريح بحشر البهائم يوم القيامة وإعادتها يوم القيامة كما يعاد أهل التكليف من الآدميين وكما يعاد الأطفال والمجانين ومن تبلغه دعوة وعلى هذا تظاهرت دلائل القرآن والسنة . قال تعالى : ﴿وإذا الوحوش حشرت﴾ وإذا ورد لفظ في الشرع ولم يمنع اجرائه على ظاهره عقل ولا شرع وجب حمله على ظاهره . قال العلماء ليس من شروط الحشر والإعادة يوم القيامة المجازاة والعقاب والثواب)[4] .

قلت : القول بحشر البهائم مختلف فيه على عدة أقوال ذكرها الإمام القرطبي في كتابه التذكرة ورجح أن البهائم تحشر لا من أجل القصاص بل لأجل شهود فضائح

---

(١) أخرجه مسلم شرح النووي ص١٥٩/ ١٧ ، برقم ٢٨٥٩ .

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٥٩/ ١٧ .

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ١١٢/١٦ برقم (٢٥٨٢).

(٤) شرح صحيح مسلم ص ١١٢/١٦ .

بني آدم وقال عنه : (هذا قول ثابت فتأمله) [1] .

وأقول: قول القاضي : (وإذا ورد لفظ في الشرع ولم يمنع من إجرائه على ظاهره عقل ولا شرع وجب حمله على ظاهره) هذا تصريح منه بتقديم العقل على النقل والذي هو سبب ما صار إليه وغيره من القول بالتأويل وصرف ظواهر النصوص عن ما وضعت له في الشرع، وهذا خطأ من القاضي عياض أقره عليه الإمام النووي إذا نقله عن وسطره في شرحه ولم يعلق عليه .

المسألة الرابعة: موقف الإمام النووي من الأحاديث الواردة في صفة حشر العباد إلى الموقف

أخرج الإمام مسلم في صفة الحشر ثلاثة أحاديث :

أحدهما : حديث ابن عباس رضي الله عنهما : «إنكم محشورون حفاة عراة غرلا ، كما بدأنا أول خلق نعيده . . الآية»[2] . وإن أول الخلائق يكسي يوم القيامة إبراهيم الخليل . . . [3] .

والثاني : حديث أبي هريرة رضي الله عنه يحشر الناس على ثلاث طرائق راغبين راهبين. واثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير وعشرة على بعير ويحشر بقيتهم النار . . [4] .

والثالث : حديث أنس رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا نبي الله كيف يحشر الكافر على وجهه ؟ قال: أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادر على أن يمشيه على

---

(١) التذكرة للقرطبي ص ١/٣٤٠ .

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٤ .

(٣) أخرجه البخاري مع الفتح ص١١/٣٣٧ برقم ٦٥٢٦ ، ومسلم بنحوه في الجنة برقم ٥٨ .

(٤) أخرجه البخاري مع الفتح ص١١/٣٣٧ برقم ٦٥٢٢ ، ومسلم في الجنة برقم ٥٩ .

وجهه يوم القيامة[1].

أما حديث ابن عباس فاتفق العلماء على أنه وارد في الحشر يوم القيامة، وروي مثله من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ أخرجه البخاري أيضًا[2].

وأما حديث أبي هريرة فوقع فيه خلاف بين العلماء، حيث حمله بعضهم على الحشر في الدنيا قبل المبعث، وحمله البعض على الحشر في الآخرة[3].

ولقد رجح الإمام النووي ـ أنه إنما يكون قبل المبعث والله أعلم[4].

وأما حديث أنس فهو في صفة حشر الكفار يوم القيامة، والله أعلم.

* * *

---

(١) أخرجه البخاري مع الفتح ص٣٣٧/ ١١، برقم ٦٥٢٣، ومسلم في الجنة، المنافقين برقم ٥٤.

(٢) أخرجه البخاري، وانظر ص٢٦٠ ـ ٢٦١/ ١ من التذكرة للقرطبي.

(٣) التذكرة للقرطبي ص٢٤٧ ـ ٢٤٨/ ١.

(٤) وهو ما رجحه القرطبي في التذكرة ص٢٤٦ ـ ٢٤٨/ ١، وشرح صحيح مسلم ص١٦١/ ١٧.

المبحث الرابع

إثبات العرض والحساب

وفيه ثلاث مطالب :

المطلب الأول : إثبات الصراط

أولاً : منهج أهل السنة والجماعة في ذلك

إن الصراط هو أول ما يعبره الناس لأجل الحساب، ولقد أجمع أهل السنة والجماعة على إثباته قال الإمام شيخ الإسلام الصابوني مقرراً عقيدة السلف : (ويؤمن أهل الدين والسنة بالبعث بعد الموت يوم القيامة، وبكل ما أخبر الله سبحانه ورسوله ﷺ به من أهوال ذلك اليوم الحق واختلاف أحوال العباد فيه والخلق فيما يرونه ويلقونه هنالك في ذلك اليوم الهائل من أخذ الكتب الإيمان والشمائل، والإجابة عن المسائل إلى سائر الزلائل والبلايا الموعودة في ذلك اليوم العظيم والمقام الهائل من الصراط والميزان ونشر الصحف التي فيها مثاقيل الذر من الخير وغيرها»[(١)].

وقال الإمام الطحاوي رحمه الله مقرراً هذه العقيدة : (ونؤمن بالبعث وجزاء الأعمال يوم القيامة والعرض والحساب وقراءة الكتب والثواب والعقاب والصراط والميزان)[(٢)].

ثانيًا : موافقة الإمام النووي لمذهب السلف :

لقد وافق الإمام النووي رحمه الله مذهب السلف في إثبات الصراط وهو الجسر المنصوب على جهنم واستدل على ذلك بعدة أحاديث منها :

---

(١) عقيدة السلف أصحاب الحديث ص ٦١ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٥٨٨ـ٥٨٩/ ٢ .

١ ـ حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن ناساً سألوا النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله هل نرىٰ ربنا يوم القيامة؟ فقال: «هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله. قال: فإنكم ترونه كذلك يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول: من كان يعبد شيئا فليتبعه ـ الحديث وفيه ـ ويضرب الصراط بين ظهراني جنهم[1] فأكون أنا وأمتي أو من يجيز[2] من الرسل بأمته ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل وكلام الرسل يومئذ اللهم سلم سلم، وفي جهنم كلاليب مثل شوك السعدان[3]. هل رأيتم شوك السعدان: قالوا: نعم يا رسول الله، قال: فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم ما قدر عظمها إلا الله، تخطف الناس بأعمالهم» متفق عليه[4].

٢ ـ ومنها حديث أبي هريرة وأبي سعيد في رؤية الله يوم القيامة: «... ثم يضرب الجسر علىٰ جهنم، قيل: يا رسول الله وما الجسر: قال: دحض مزلة[5] فيه خطاطيف وكلاليب وحسك[6] تكون بنجد فيها شويكة يقال لها السعدان، فيمر

---

(١) معناه يمد الصراط علىٰ جهنم. شرح صحيح مسلم ١٩/ ٣.

(٢) أي أول من يمضي عليه ويقطعه. الرجع السابق ١٩/ ٣.

(٣) أما الكلاليب فجمع كلوب وهي حديدة معطوفة الرأس يعلق فيها اللحم وترسل في التنور، وأما السعدان فهو نبت له شوكة عظيمة مثل الحسك من كل الجوانب. المرجع السابق ١٩/ ٣.

(٤) رواه البخاري في كتاب الرقاق باب الصراط جسم جهنم ١١/ ٤٥٣ برقم ٦٥٧٣، وفي كتاب التوحيد باب قول الله تعالىٰ: ﴿وجوه يومئذ ناضرة﴾ ١٣/ ٤٣٠ برقم ٧٤٣٧، ومسلم بشرح النووي في كتاب الإيمان باب معرفة طريق الرؤية ص١٦/ ٣ برقم ١٨٢.

(٥) أي زلق تزل فيه الأقدام ولا تستقر، ومنه دحضت الشمس إذا مالت، وحجة داحضة أي لا ثبات لها. فتح الباري ١٣/ ٤٣٨، وشرح صحيح مسلم ٣/ ٢٦.

(٦) الخطاطيف جمع خطاف بضم الخاء للفرد وهي مثل الكلاليب، والحسك شوك صلب من حديد. شرح صحيح مسلم ٢٦/ ٣.

المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب[1].

فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكدوس في نار جهنم[2]) متفق عليه[3]. إلىٰ غير ذلك من الأحاديث .

قال الإمام عقب ذكره للحديث الأول : (قوله ﷺ «ويضرب الصراط بين ظهري جهنم» هو بفتح الظاء وسكون الهاء ومعناه يمد الصراط عليها وفي هذا إثبات الصراط ومذهب أهل الحق إثباته وقد أجمع السلف علىٰ إثباته وهو جسر علىٰ متن جهنم يمر عليه الناس كلهم فالمؤمنون ينجون علىٰ حسب حالهم أي منازلهم والآخرون يسقطون فيها أعاذنا الله الكريم منها وأصحابنا المتكلمون وغيرهم من السلف يقولون إن الصراط أدق من الشعرة وأحد من السيف كما ذكره أبو سعيد الخدري - رضي الله عنه - في روايته الأخرىٰ المذكورة في الكتاب والله تعالىٰ أعلم» [4].

وقال عند تعليقه علىٰ الحديث الثاني : (قوله ﷺ : «ثم يضرب الجسر علىٰ جهنم وتحل الشفاعة» الجسر بفتح الجيم وكسرها لغتان مشهورتان وهو الصراط»[5].

---

(١) من إضافة الصفة للموصوف والأجاويد جمع أجواد وهو جمع جواد وهو الجيد الجري من المطي، والركاب أي الإبل واحدتها راحلة من غير لفظها فهو عطف علىٰ الخيل، والخيل جمع الفرس من غير لفظه . شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٢٦/ ٣.

(٢) معناه أنهم ثلاثة أقسام قسم يسلم فلا يناله شيء أصلاً، وقسم يخدش ثم يرسل فيخلص، وقسم يكردس أي يلقي فيسقط في جهنم، وتكدّس الإنسان إذا رفع درائه فسقط. المرجع السابق ص٢٦/ ٣.

(٣) رواه البخاري في كتاب الرقاق بال الصراط جسد جهنم ص٤٥٣/ ١١ برقم ٦٥٧٣، ومسلم بشرح النووي في كتاب الإيمان باب معرفة طريق الرؤية ص٢٣/ ٣ برقم ١٨٣ .

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٩/ ٣ .

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي ص٢٦/ ٣ .

وفسر الآية الكريمة الواردة في النار: (وإن منكم إلا واردها)[1]. بقوله: (والصحيح أن المراد بالورود في الآية المرور على الصراط وهو جسر منصوب على جهنم فيقع أهلها وينجو الآخرون)[2].

قلت: لاشك أن الذي قرره الإمام النووي واستدل عليه من الإيمان بالحشر والصراط أنه هو مذهب السلف الذي أجمعوا عليه. كما مر معنا سابقًا.

ولا شك أيضًا أن اختيار الإمام النووي لمعنى الورود المذكور في قوله تعالى: ﴿إن منكم إلا واردها﴾ هو المذهب الراجح عند جماهير المفسرين وأئمة السلف[3]. وهو ما تؤيده النصوص والدلائل الكثيرة كحديث حفصة[4] رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يلج النار أحد بايع تحت الشجرة، فقالت حفصة: يا رسول الله أليس الله يقول: وإن منكم إلا واردها)؟ فقال: أتشتهيه قال: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الذين اتقوا وَنَذَرُ الظَّالمينَ فيهَا جثيًّا[5]﴾[6].

---

(١) سورة مريم، الآية: ٧١.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص٤٩/١٦، وانظر ص١٩٢/١.

(٣) انظر: تفسير الطبري ص١٠/١٦، وزاد المسير ص٢٥٦/٥، وتفسير القرطبي ص١٣٦/١١، وتفسيرابن كثير ص ١٢٥-١٢٦/٣، ومجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ابن تيمية ص٢٧٩/٤، وشرح العقيدة الطحاوية ص٦٠٦/٢، والتخويف من النار لابن رجب ١٩٣، ومعارج القبول ص ٢٧٢-٢٧٩/٢.

(٤) هي بنت أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب، تزوجها النبي ﷺ بعد انقضاء عدتها من حنيس ابن حذافة السهمي، أحد المهاجرين في سنة ثلاث من الهجرة، توفيت سنة إحدى وأربعين، قام الجماعة وقيل سنة خمس وأربعين بالمدينة، صولى عليها إلى المدينة مروان. انظر تهذيب سيرأعلام النبلاء ص٥٦/١.

(٥) سورة مريم، الآية: ٧٢.

(٦) رواه مسلم في كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل أصحاب الشجرة بشرح النووي ص٤٨-٤٩/٦.

فقد أشار ﷺ إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله، بل تستلزم انعقاد سببه، فمن طلبه عدوه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه يقال نجاه الله منهم، وكذلك حال الواردين في النار يمرون فوقها على الصراط ثم ينجي الله الذي اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيًا. فقد بين ﷺ في هذا الحديث أن الورود هو الورود على الصراط[1].

نسأل الله أن يوفقنا إلى إصلاح وينجينا من غضبه وعذابه في الدنيا والآخرة.

❊ ❊ ❊

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢/٦٠٧ . وأيضًا: التذكرة للقرطبي ص ٤٠ـ١/٤٠٨ .

المطلب الثاني

إثبـات الميـزان

المسألة الأولى: مذهب أهل السنة في الميزان

أجمع أهل السنة على الإيمان بالميزان، وأن أعمال العباد توزن يوم القيامة، وأن الميزان له لسان وكفتان ويميل بالأعمال وأنكرت المعتزلة الميزان، وقالوا: هو عبارة عن العدل، فخالفوا الكتاب والسنة، لأن الله أخبر أنه يضع الموازين لوزن الأعمال ليرى العباد أعمالهم ممثلة، ليكونوا على أنفسهم شاهدين[(١)].

ونقل ابن حجر عن ابن فورك أنه قال: (أنكر المعتزلة الميزان بناء منهم على أن الأعراض يستحيل وزنها، إذ لا تقوم بأنفسها. قال: وروى بعض المتكلمين عن ابن عباس: أن الله تعالى يقلب الأعراض أجسامًا فيزنها انتهى)[(٢)].

ولقد ذهب بعض السلف[(٣)] إلى أن الميزان بمعنى العدل والقضاء ولكن الراجح ما ذهب إليه الجمهور وهو إثبات الميزان حقيقة.

المسألة الثانية: أدلة أهل السنة في إثبات الميزان وصفته

إستدل أهل السنة والجماعة على إثبات الميزان بأدلة من الكتاب والسنة.

فالتي من الكتاب قوله تعالى: ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ

---

(١) فتح الباري ص ٥٣٨/ ١٣.

(٢) المصدر السابق، ص ٥٣٨/ ١٣.

(٣) مثل مجاهد رحمه الله فأسند الطبري عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة﴾، سورة الأنبياء، آية: ٤٧. وكذلك روى عنه أنه قال: الموازين العدل، فتح الباري ص ٥٣٨-٥٣٩/ ١٣.

شيئًا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين﴾[1] وقال تعالى: ﴿فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون (١٠٢) ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون﴾[2].

ومن السنة: قوله ﷺ: (الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان)[3].

وقوله ﷺ: (كلمتان خفيفتان على اللسان، حبيبتان إلى الرحمن، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم)[4].

وغير ذلك من الأحاديث[5].

المسألة الثالثة: موافقة الإمام النووي لمذهب السلف رحمهم الله.

لقد وافق الإمام النووي رحمه الله السلف رحمهم الله في إثبات الميزان وأنه ميزان حقيقي له كفتان، وأن الذي يوزن فيه الأعمال.

ولقد استدل بالحديث السابق والذي فيه (الطهور شطر الإيمان والحمد لله تملأ الميزان).

قال رحمه الله عند شرحه: (قوله ﷺ «والحمد لله تملأ الميزان» فمعناه عظم أجره، وأنه يملأ الميزان، وقد تظاهرت نصوص القرآن والسنة على وزن الأعمال وثقل الموازين وخفتها)[6].

---

(١) سورة الأنبياء، آية: [٤٧].

(٢) سورة الالمؤمنون، آية: [١٠٢ـ١٠٣].

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ٨٤/ ٣، برقم (٢٢٣).

(٤) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ١٦/ ١٧، برقم ١/٢٩٩٤.

(٥) من أراد الاستزادة فيها فليراجع شرح الطحاوية ص ٦٠٨ـ٦١٤/ ٢.

(٦) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ٨٦/ ٣.

كما نقل قولاً للقاضي عياض جاء فيه إثبات الميزان فقال: (قوله ﷺ «يخفض القسط ويرفعه»[1].

(قال القاضي عياض قال الهروي قال ابن قتيبة: القسط الميزان وسمي قسطًا لأن القسط العدل وبالميزان يقع العدل، قال والمراد أن الله تعالىٰ يخفض الميزان ويرفعه بما يوزن من أعمال العباد المرتفعة ويوزن من أرزاقهم النازلة وهذا تمثيل لما يقدر تنزيله فشبه بوزن الميزان، وقيل المراد بالقسط الرزق، الذي هو قسط كل مخلوق يخفضه فيقتره ويرفعه فيوسعه والله أعلم)[2].

قلت: وافق الإمام النووي مذهب السلف في إثبات الميزان، ولكن ذكرت سابقًا أن القول بأن هذا «مثل» قول مرجوح، والراجح هو ما عليه أهل السنة، «كما أن القول بأن عملية الميزان إنما هي مثل حمل الميزان علىٰ ما ذكروه لجاز حمل الصراط علىٰ الدين الحق. والجنة والنار علىٰ ما يرد من الأرواح دون الأجساد من الأحزان والأفراح. والشياطين والجن علىٰ الأخلاق المذمومة، والملائكة علىٰ القوىٰ المحمودة وهذا كله فاسد لأنه رد لما جاء به الصادق، وفي الصحيحين: فيعطىٰ صحيفة حسناته[3] وقوله فيخرج له بطاقة[4]. وذلك يدل علىٰ الميزان الحقيقي، وأنما الموزون صحف الأعمال»[5].

فالصحيح أن الموازين تثقل بالكتب فيها الأعمال مكتوبة، وبها تخف كما دل

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ٢٢/ ٣، برقم (١٧٨).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص ٢٢/ ٣.

(٣) رواه البخاري في كتاب التفسير، تفسير سورة هود برقم ٤١٨٥، ومسلم في كتاب التوبة، باب ٨ برقم (٢٧٦٨).

(٤) جزء من حديث أخرجه أحمد ٢/ ٢١٣.

(٥) التذكرة ص ٣٨٣/ ٢.

عليه الحديث الصحيح والكتاب العزيز.

قال الله عز وجل: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ⑩ كِرَامًا كَاتِبِينَ﴾[1]، كما أن قول من قال أن هذا «مثل» ينقضه أنه ورد في السنة الثابتة صفة الميزان وأنه حقيقي وصفه بكفتين ولسان وأن كل كفة منهما طباق السموات والأرض[2].

* * *

(١) سورة الانفطار، الآية: [١١].

(٢) التذكرة ص ٣٨٢/ ١.

المطلب الثالث

إثبات العرض والحساب

أولاً: مذهب أهل السنة والجماعة في ذلك

قد مر معنا أن الصراط هو أول منازل الحساب، كما أن من أسماء اليوم الآخر يوم الحساب[1]. قال الإمام في شرح قوله تعالى: ﴿**مالك يوم الدين**﴾[2] إن الله تعالى هو المنفرد بالملك ذلك اليوم وبجزاء العباد وحسابهم، والدين الحساب، وقيل الجزاء[3].

ومر معنا عند إثبات الصراط أن من منهج أهل السنة والجماعة إثبات الصراط والعرض والحساب وغيرها من الأمور التي تحدث في اليوم الآخر.

واستدلوا بأدلة الكتاب والسنة على إثبات ذلك[4] فمن الكتاب استدلوا على إثبات الحساب بقوله تعالى: ﴿**فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ⑧ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا**﴾[5]. ومن السنة قال رسول الله ﷺ: «إن الله يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه وستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا؟ فيقول نعم إي رب، حتى إذا قرره بذنوبه، ورأي في نفسه أنه هلك، قال سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطي كتاب حسناته»[6].

---

(١) التذكرة للقرطبي ص٣١٥/ ١ .

(٢) سورة الفاتحة، الآية: [٣].

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص٨٩/ ٤ .

(٤) انظر: التذكرة للقرطبي ص٣١١ ـ ٣٣٢/ ١ والفتاوى لابن تيمية ص ٣٠٢/ ٤ .

(٥) سورة الإنشقاق، الآيات: ٧، ٨، ٩ .

(٦) أخرجه البخاري مع الفتح ص٩٦/ ٥ .

ثانيًا : موافقة الإمام النووي لمذهب السلف

لقد أثبت الإمام النووي رحمه الله العرض والحساب ووافق بذلك مذهب السلف رحمهم الله واستدل على إثباته بأحاديث كثيرة منها :

١ ـ حديث عائشة رضي الله عنها ـ قالت : (يا رسول الله ﷺ أليس قد قال الله : ﴿فأما من أوتي كتابه بيمينه ﴿٧﴾ فسوف يحاسب حسابا يسيرا﴾[١] . فقال : ليس ذلك الحساب، إنما ذلك العرض : من نوقش الحساب يوم القيامة عذب)[٢] .

٢ ـ وبحديث أبي هريرة رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ : «يدخل من أمتي الجنة سبعون ألف بغير حساب» الحديث[٣] .

٣ ـ وبحديث أبي ذر قال : قال رسول الله ﷺ : «إني أعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة . وآخر أهل النار خروجًا منها ، رجل يؤتي من يوم القيامة ، فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه ، وارفعوا عنه كبارها ، فتعرض عليه صغار ذنوبه ، فيقال : عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا ، فيقول : نعم . لا يستطيع أن ينكر . وهو مشفق من كبار ذنوبه أن تعرض عليه فيقال له : فإن لك مكان كل سيئة حسنة . فيقول : رب قد علمت أشياء لا أراها ههنا»[٤] .

٤ ـ وبحديث مسلم عن صنوان بن محرز ، قال : (قال رجل لابن عمر رضي الله عنه : كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى : قال : سمعته يقول : يدني المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه فيقول : هل تعرف : فيقول : رب أعرف . قال فيقول : إني سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم . قال : فيعطي

---

(١) سورة الإنشقاق، الآية رقم : ٨ .

(٢) أخرجه مسلم شرح النووي ص١٧١ / ١٧ برقم ٢٨٧٦ .

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووي ص٧٤ ـ ٧٥/ ٣ برقم ٣٦٧ .

(٤) رواه مسلم بشرح النووي ص٤١/ ٣ برقم ٢٩٠ .

صحيفة حسناته، أما الكفار والمنافقون، فينادئ بهم على رؤوس الخلائق. هؤلاء الذين كذبوا على الله»[1].

إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة في إثبات العرض والحساب.

وقال الإمام عند شرحه للحديث الأول: قوله ﷺ: «من نوقش الحساب يوم القيامة عذب» معنى نوقش استقصى عليه. قال القاضي: وقوله (عذب) له معنيان:

أحدهما: أن نفس المناقشة وعرض الذنوب والتوقيف عليها هو التعذيب لما فيه من التوبيخ.

والثاني: أنه مفض إلى العذاب بالنار ويؤيده، قوله في الرواية الأخرى هلك مكان عذب هذا كلام القاضي. وهذا الثاني هو الصحيح ومعناه أن التقصير غالب في العباد فمن استقصى عليه ولم يسامح هلك ودخل النار وكان الله تعالي يعفو ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء)[2].

قلت: ما قرره الإمام النووي واستدل عليه من الإيمان بالعرض والحساب هو مذهب السلف الذي أجمعوا عليه كما قررت سابقًا والله أعلم.

وإذا تقرر هذا فيجب على كل مسلم البدار إلى محاسبة نفسه كما قال ابن عمر رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا. وإنما حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصيته قبل الموت توبة نصوحًا، ويتدارك ما فرط من تقصير في فرائض الله عز وجل ويرد المظالم إلى أهلها حبة حبة ويستحل كل من تعرض له بلسانه ويده وسطوته بقلبه، ويطيب قلوبهم حتى يموت، ولم يبق عليه فريضة ولا مظلمة فهذا يدخل الجنة بغير حساب»[3].

---

(١) رواه مسلم بشرح النووي ص ٧١ـ ٨٢/ ١٧ برقم (٢٧٦٨).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٧١/ ١٧ .

(٣) التذكرة للقرطبي ص٣٣٣ـ ٣٣٤/ ١ .

المبحث الخامس

الإيمان بالجنة والنار وأنهما موجودتان مخلوقتان لا تفنيان

المطلب الأول : مذهب أهل السنة وتقرير الإمام النووي له:

من أصول الإيمان بالله واليوم الآخر الإيمان بوجود الجنة والنار وأنهما موجودتان معدتان وأنهما لا تفنيان، وقد أعد الله الجنة لأوليائه المتقين ورزقهم فيها كل ما لذ وطاب من صنوف البهجة والسرور والنعيم وأعد الله سبحانه النار لأعدائه الكافرين، لهم فيها من صنوف العذاب والحسرة والندم ما الله به عليهم.

وقد تضافرت نصوص الكتاب والسنة على هذا الأمر وأجمع عليه المسلمون سلفًا وخلفًا ولم يخالف فيه إلا شرذمة من المبتدعين الضالين[1]، وهم الجهمية وطائفة من المعتزلة حيث أنكروا ذلك قائلين: إن خلق الجنة والنار ووجودهما الآن عبث لا فائدة فيه والله تعالى منزه عن ذلك وزعموا أن الله ينشؤهما يوم القيامة، قال شارح الطحاوية: «وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة لما يفعله الله، وأنه ينبغي أن يفعل كذا ولا ينبغي أن يفعل كذا!! وقاسوه على خلقه في أفعالهم وقالوا: خلق الجنة قبل الجزاء عبث لأنها تصير معطلة مددًا متطاولة، فردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب تعالى، وحرفوا النصوص عن مواضعها، وضلّلوا وبدعوا من خالف شريعتهم»[2].

---

(١) انظر مقالات الإسلاميين ٢/ ١٦٨، والشريعة للآجري ص٣٨٧، وعقيد السلف أصحاب الحديث ص٦٤، والحجة في بيان المحجة للأصبهاني ١/ ٤٧١ - ٤٧٥، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٨/ ٣٠٧، وزاد المعاد لابن القيم ١/ ٦٦ - ٦٨ بتحقيق الأرناؤوط، وشرح الطحاوية ص ٦١٤- ١/٦٢٣، ولوامع الأنوار البهية للسفاريني ٢/ ٣٢٠، وغيرها.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢/٦١٥.

وقال الإمام النووي رحمه الله في شرح حديث مسروق قال: (سألنا عبدالله: «وهو ابن مسعود» عن هذه الآية: ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (1). قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك فقال أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأتي إلى تلك القناديل) (2).

قال الإمام: (فيه بيان أن الجنة مخلوقة موجودة وهو مذهب أهل السنة وهي التي أهبط منها آدم وهي التي ينعم فيها المؤمن في الآخرة هذا بإجماع أهل السنة وقالت المعتزلة وطائفة من المبتدعة أيضًا وغيرهم ليست موجودة وإنما توجد بعد البعث في القيامة قالوا والجنة التي أخرج منها آدم غيرها وظواهر القرآن والسنة تدل لمذهب أهل الحق» (3).

قلت: ما قرره الإمام النووي (4) هو الحق الموافق لمذهب أهل السنة وإليك طرفًا من الأدلة والنصوص الدالة على ذلك:

المطلب الثاني: بعض النصوص الدالة على وجود الجنة والنار وبقائهما

النصوص الواردة الدالة على خلق الجنة والنار وأبديتهما أكثر من أن تحصى وتحصر، وسأورد طرفًا منها على سبيل الإجمال:

أ ـ فمما يدل على خلق الجنة والنار ووجودهما الآن من الكتاب الكريم:

١ ـ قوله تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ

---

(1) سورة آل عمران، الآية: [١٦٩].

(2) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ٢٧ـ٢٩/ ١٣ برقم (١٨٨٧) في كتاب الإمارة.

(3) شرح صحيح مسلم للنووي ص٢٨/ ١٣ .

(4) وانظر أيضًا أقواله في هذا من شرح صحيح مسلم ص١٩١/ ٢، ٣٣/ ٣، ١٢٧/ ٤، ١٠٢/ ٥، ١٨٠/ ٦، ١٨٤/ ٦، ١٦٥/ ١٤.

شئتما ﴾ (١) .

٢ ـ وقوله عز وجل : ﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (٢) .

٣ ـ وقوله سبحانه متحدثًا عن صعود النبي ﷺ في المعراج إلىٰ السموات العلىٰ : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴾ (٣) .

٤ ـ وقوله عز وجل : ﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ (٤) .

٥ ـ وقال جل شأنه عن النار : ﴿ فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (٥) .

٦ ـ وقوله سبحانه وتعالىٰ : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴾ (٦) .

٧ ـ وقال عز من قائل : ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (٧) .

ومن أدلة السنة النبوية المطهرة :

١ ـ ما ثبت في الصحيحين عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ

---

(١) سورة البقرة، الآية : ٣٥ .

(٢) سورة آل عمران، الآية : ١٣٣ .

(٣) سورة النجم، الآيات : ١٣ ـ ١٥ .

(٤) سورة الحديد، الآية : ٢١ .

(٥) سورة البقرة، الآية : ٢٤ .

(٦) سورة الفرقان، الآية : ١١ .

(٧) سورة الفتح، الآية : ٦ .

قال: «إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي إن كانا من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار فمن أهل النار يقال هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة»[١].

٢ ـ وما ثبت من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعًا في قصة خسوف الشمس وفيه: «لقد رأيت في مقامي هذا كل شيء وعدته، حتى لقد رأيتني آخذ قطفًا من الجنة حين رأيتموني جعلت أتقدم ورأيت جهنم يحطم بعضها بعضا حين رأيتموني تأخرت..» الحديث متفق عليه[٢].

٣ ـ وقال ﷺ فيما رواه البخاري وغيره: «اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء»[٣].

٤ ـ وقال ﷺ: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيله كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله فسلوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوق عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة»[٤]. إلى غير ذلك من النصوص.

ورحم الله الإمام الآجري حيث يقول: (اعلموا رحمنا الله وإياكم أن القرآن

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجنائز باب الميت يعرض عليه مقعدة ٣/ ٢٨٦، برقم ١٣٧٩، ومسلم بشرح النووي في كتاب الجنة وصفة نعيمها باب عرض مقعة الميت من الجنة أو النار ١٦٥/ ١٧ برقم ٢٨٦٦.

(٢) رواه البخاري في كتاب العمل في الصلاة باب إذا نفلتت الدابة في الصلاة ٣/ ٩٨ برقم ١٢١٢، ومسلم بشرح النووي في كتاب الكسوف باب ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف ٦/١٨٣، برقم ٩٠٤.

(٣) رواه البخاري في عدة مواضع منها كتاب الخلق باب ما جاء في صفة الجنة ٦/ ٣٩٩ برقم ٣٢٤١، والترمذي في كتاب صفة جهنم باب ما جاء أن أكثرأهل النار النساء برقم ٢٦٠٢.

(٤) رواه البخاري، وقد تقدم تخريجه.

شاهد أن الله عز وجل خلق الجنة والنار قبل أن يخلق آدم عليه السلام، وخلق للجنة أهلاً قبل أن يخرجهم إلى الدنيا لا يختلف في هذا من شمله الإسلام وذاق حلاوة طعم الإيمان، دل على ذلك القرآن والسنة فنعوذ بالله ممن كذب بهذا) ثم ساق نصوصًا كثيرة من الكتاب والسنة برهانًا على هذا [1].

ب ـ ومما يدل على بقاء الجنة والنار وأبديتهما من نصوص القرآن الكريم قوله تعالى في الجنة وأهلها

١ ـ ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً ﴾[2].

٢ ـ وقوله: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[3].

٣ ـ وقوله: ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾[4].

٤ ـ وقوله عز وجل: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ (٤٧) لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾[5].

وقال سبحانه في أهل النار:

---

(١) الشريعة ص٣٨٧ وما بعدها.

(٢) سورة النساء، الآية: ٥٧.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٠٠.

(٤) سورة الرعد، الآية: ٣٥.

(٥) سورة الحجر، الآيتان: ٤٧ ـ ٤٨.

١ ـ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾[1].

٢ ـ وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾[2].

٣ ـ وقال عز وجل: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾[3].

إلى غير ذلك من الآيات. وحسبك أن الله سبحانه سماها دار الخلد فقال عز وجل: ﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾[4].

ومن أدلة السنة المطهرة:

١ ـ ما رواه الشيخان من حديث عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: إن رسول الله ﷺ قال: «يدخل الله أهل الجنة الجنة ويدخل أهل النار النار ثم يقوم مؤذن بينهم فيقول: يا أهل الجنة لا موت، يا أهل النار لا موت، كل خالد فيما هو فيه»[5].

٢ ـ وفي الصحيحين أيضًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ: «إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة

(١) سورة النساء، الآيتان: ١٦٨ ـ ١٦٩.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٦٥ ـ ٦٦.

(٣) سورة البقرة، الآية: ١٦٧.

(٤) سورة فصلت، الآية: ٢٨.

(٥) رواه البخاري في كتاب الرقاق باب يدخل الجنة سبعون ألفًا بغير حساب ١١/ ٤١٤ برقم ٦٥٤٤، ومسلم بشرح النووي في كتاب الجنة وصفة نعيمها باب النار يدخلها الجبارون ١٥٣/١٧ برقم ٢٨٥٠، واللفظ له.

والنار ثم يذبح ثم ينادي مناد يا أهل الجنة لا موت ويا أهل النار لا موت فيزداد أهل الجنة فرحًا إلىٰ فرحهم ويزداد أهل النار حزنًا إلىٰ حزنهم»[1].

٣ ـ وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «ينادي مناد إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا وإن لكم أن تنعموا فلا تيأسوا أبدًا فذلك قوله عز وجل: ﴿ وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ[2] ﴾[3].

٤ ـ وفي حديث الشفاعة الطويل عن أنس عن النبي ﷺ وفيه: «ثم أشفع فيحد لي حدًا فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ـ قال الراوي: فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة قال ـ فأقول: يا رب ما بقي في النار إلىٰ من حبسه القرآن ـ أي وجب عليه الخلود ـ» متفق عليه[4]، قال البخاري رحمه الله: (إلا من حبسه القرآن) يعني: قول الله تعالىٰ: ﴿ خالدين فيها ﴾[5]. إلىٰ غير ذلك من النصوص.

ج ـ ومن كلام أئمة السلف في خلق الجنة والنار وأبديتهما

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: (وقد خلقت النار وما فيها وخلقت الجنة وما فيها خلقهما الله عز وجل ثم خلق الخلق لهما لا يفنيان ولا يفني ما فيهما أبدًا، فإن احتج مبتدع بقوله تعالىٰ: ﴿ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَه ﴾[6]. ونحو هذا من متشابه

---

(١) رواه البخاري في كتاب الرقاق باب صفة الجنة والنار ١١/ ٤٢٣، برقم ٦٥٤٨، ومسلم في كتاب الجنة باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ١٧/١٥٣ برقم ٣٨٥٠ مكرر.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.

(٣) رواه مسلم في كتاب الجنة باب دوام نعيم أهل الجنة ١٧/١٤٤ برقم ٢٨٣٧.

(٤) رواه البخاري في كتاب التفسير سورة البقرة باب قول الله ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ ٨/ ١٠ برقم ٤٤٧٦، ومسلم بشرح النووي في كتاب الإيمان باب أدنىٰ أهل الجنة منزلة ٣/٤٥ برقم ١٩٣.

(٥) فتح الباري ١/ ١٨٠.

(٦) سورة القصص، الآية: ٨٨.

القرآن قيل له: كل شيء مما كتب الله عز وجل عليه الفناء والهلاك هالك، والجنة والنار خلقهما الله للبقاء لا للفناء وهما من الآخرة لا من الدنيا) [1].

وقال الإمام أبو جعفر الطحاوي رحمه الله مبينًا عقيدة أهل السنة: (والجنة والنار مخلوقتان لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان) [2].

وقال الإمام الأشعري رحمه الله: (أجمع أهل الإسلام جميعًا إلا الجهم أن نعيم أهل الجنة دائم لا انقطاع له وكذلك عذاب الكفار بالنار) [3].

وقال شيخ الإسلام الصابوني رحمه الله مبينًا عقيدة السلف أصحاب الحديث: (ويشهد أهل السنة ويعتقدون أن الجنة والنار مخلوقتان وأنهما باقيتان لا تفنيان أبدًا وأن أهل الجنة لا يخرجون منها أبدًا وكذلك أهل النار الذين هم أهلها خلقوا لها لا يخرجون منها أبدًا) [4].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة على أن المخلوقات ما لا يعدم ولا يفني بالكلية كالجنة والنار والعرش وغير ذلك، ولم يقل بفناء جميع المخلوقات إلا طائفة من أهل الكلام المبتدعين كجهم بن صفوان ومن وافقه من المعتزلة ونحوهم، وهذا قول باطل يخالف كتاب الله وسنة رسوله وإجماع سلف الأمة وأئمتها) [5].

---

(١) كتاب السنة للإمام أحمد ص٤٧ .

(٢) شرح الطحاوية ص٦١٤/ ٢ .

(٣) مقالات الإسلاميين للأشعري ٢/ ١٦٧ .

(٤) عقيدة السلف أصحاب الحديث للصابوني ص٦٦ .

(٥) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١٨/ ٣٠٧ .

المطلب الثالث: الجواب عما يتوهم من فناء الجنة والنار من بعض الآيات وعما ينسب لبعض السلف:

وردت بعض الآيات توهّم بسببها من أعمى الله قلبه بأن الجنة والنار تفنيان. من ذلك:

ـ قوله سبحانه في الجنة: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمواتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [1].

ـ وقوله تعالى في النار: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [2].

ـ وقوله عز وجل يضًا في النار: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ (١٠٦) خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [3].

وقد أجاب علماء أهل السنة عن هذا الاستثناء بأجوبة منها:

ـ أن الاستثناء منقطع وهو ما رجحه كثير من العلماء [4] فـ (إلا) بمعنى (لكن) والمعنى: لكن شاء وفعل.

ـ وقيل في الاستثناء الوارد بشأن النار: متوجه إلى أهل التوحيد فإنهم بعض من شمله المستثنى منه، وقيل: إلا مدة مكثهم في الموقف.

ـ وقيل: هو استثناء الرب ولا يفعله، كما تقول: والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك. وأنت لا تراه بل تجزم بضربه.

---

(١) سورة هود، الآية ١٠٨.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٢٨.

(٣) سورة هود، الآية: ١٠٧.

(٤) انظر: تفسير ابن جرير ١٢/ ١١٧ ـ ١١٩، وتفسير القرطبي ٩/ ٩٩ ـ ١٠٢، وشرح الطحاوية ص ٦٢٠/ ٢.

ـ وقيل : الاستثناء لإعلامهم بأنهم من خلودهم في مشيئة الله لا يخرجون عن مشيئته ولا ينافي ذلك عزيمته وجزمه لهم بالخلود، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً ﴾[1] .

ـ وقيل : الاستثناء من المتشابه وقد أكد خلود أهل الجنة والنار بالتأبيد في كثير من القرآن كما سبق ذكر بعضه، وقيل غير ذلك[2] .

وأما ما نسب إلى النبي ﷺ من أحاديث يفهم منها أن النار تفنى، وكذا ما نسب إلى بعض السلف من الصحابة كعمر وابن مسعود وأبي هريرة رضي الله عنهم أجمعين وغيرهم من السلف فكل ذلك لا يصح، فالأحاديث الواردة في هذا الشأن موضوعة. والآثار الواردة أيضًا موضوعة أو ضعيفة وعلى فرض صحتها فهي محمولة على خروج الموحدين من النار كما وضح ذلك العلماء ومنهم الإمام النووي[3] بما لا مجال لذكره ههنا .

أما ما نسب إلى الإمامين الجليلين شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم رحمهما الله من أنهما يقولان بفناء النار فهو إتهام باطل روجه المغرضون والحساد فهما يقولان بأبدية الجنة والنار. وقد سبق كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في حكايته إجماع أهل السنة والجماعة على أن الجنة والنار مخلوقتان أبديتان لا تفنيان وبيانه أن هذا القول باطل لمخالفته الكتاب والسنة وإجماع الأمة، بل إنه رحمه الله قد ألف كتابًا في

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٦ .

(٢) انظر: حكاية هذه الأقوال في تفسير الطبري ١٢/ ١١٩، وزاد المسير لابن الجوزي ٤/ ١٦٠ ـ ١٦١، وتفسير القرطبي ٩/ ٩٩ ـ ١٠٢، وشرح الطحاوية ص٦١٤/ ٢، وفتح القدير للشوكاني ٢/ ٢٥ .

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص٣٣/ ٣، وص ١٥٩/ ١٨، ورفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار للصنعاني بتحقيق الألباني ص٦٧ ـ ٨٢، دمشق. وتفسير البغوي ٢/ ٤٠٣، وفتح الباري ١١/ ٤٢٢. وكشف الأستار لإبطال إدعاء فناء النار للدكتور علي الحربي ص ٣١، وغيرها

الرد على من قال بفناء الجنة والنار كما حكى عند أحد تلامذته[1]، وكتب شيخ الإسلام المتداولة طافحة بالرد على هذه التهمة وبيان زيفها فهو رحمة الله ينكر هذا المقولة ويبدع قائلها ومذهبه هو مذهب السلف في ذلك، ومن أراد التوسع والتأكد من ذلك فيراجع مصنفاته[2]، وكذلك تلميذه ابن القيم صرح بدوام النار في كثير من مؤلفاته[3]. فقد قال رحمه الله حاكيًا مذهب أهل السنة وردًا على أهل البدع في هذا الأمر: (وقد خلقت الجنة وما فيها وخلقت النار وما فيهما خلقهما الله عز وجل وخلق الخلق لهما ولا يفنيان ولا يفنى ما فيهما أبدا، فإن احتج مبتدع أو زنديق بقول الله عز وجل: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾[4]. وبنحو هذا من متشابه القرآن قيل له: كل شيء مما كتب الله عليه الفناء والهلاك هالك والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء ولا للهلاك. وهما في الآخرة لا في الدنيا»[5].

فهذا النص وغيره كثير يدل على أنه رحمه الله يقول بدوام النار وخلود الكفار فيها وهذا هو الأولى بأن ينسب إليه، وإلى شيخه ابن تيمية رحمهما الله لا أن يفترى عليهما خاصة وأن هذا الأمر قد وقع الاتفاق عليه عند أهل السنة وتضافرت النصوص

---

(١) قد حكي ذلك الحافظ ابن عبدالهادي رحمه الله في كتابه العقود الدرية في مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية ص٤٩ وذلك أثناء سرده لمؤلفات شيخه ابن تيمية.

(٢) انظر على سبيل المثال: مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام ص ٤٠٣/ ٣، ٣٨٠/ ١٨، ٤٥/ ١٢، ٣٤٨/ ١٤، ودرء تعارض العقل والنقل ص٣٨. ٣٠٤/ ١، ١٥٧-١٥٨/ ٣، ٣٤٥/ ٨، وبيان تلبيس الجهمية ص١٥٢-١٥٧/ ١ وغيرهما.

(٣) انظر: اجتماع الجيوش الإسلامية ص٩١-ط١ المكتبة السلفية، وطريق الهجرتين ص ١٣٥-١٤٠ بتحقيق عبدالله الأنصاري، وزاد المعاد ص٦٦-٦٨/ ١ بتحقي الأرناؤوط، والوابل الصيب ص٣٤ بتحقيق بشير عيون.

(٤) سورة القصص، الآية: ٨٨.

(٥) حادي الأرواح لابن القيم ص ٤٠.

من الكتاب والسنة عليه ـ كما سبق ذكره ـ وهذان الإمامان من أشد الناس تمسكًا بمذهب السلف والدعاة إليه (١).

المطلب الرابع: الجنة فضل ورحمة من الله وليست عوضًا عن العمل

إن من منهج أهل السنة والجماعة أن الإيمان قول وعمل وأن الأعمال الصالحة سبب في دخول صاحبها الجنة وليست معاوضة عنها كما زعمت المعتزلة أن العامل مستحق لدخول الجنة على ربه بأعماله لا بالتفضل الرباني، وقد حملهم على هذا القول قاعدتهم الباطلة وهي وجوب الثواب على الله لمن أحسن(٢) مستدلين ببعض النصوص كقوله تعالى: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾(٣). في حديثه عز وجل عن أهل الجنة، وكقوله تعالى: ﴿وَنُودُوا أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾(٤). فقد قال أحد أقطابهم وهو الزمخشري في تفسيره للآية الثانية: (أي بسبب أعمالكم لا

---

(١) قد حقق كثير من الباحثين هذه المسألة وأثبتوا بالأدلة القوية إتفاق هذين الإمامين على القول بأبدية النار بما لاحتمال التوسع فيه من هؤلاء العلماء.

د/ علي بن جابر الحربي اليماني في كتابه كشف الأستار لإبطال إدعاء فناء النار المنسوب لشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم ط دار طيبة بمكة، وخليل عمان السبعي في مقدمته لكتاب توثيق الفريقين على خلود أهل الدارين لمرعي يوسف الحنبلي ص١٥ ـ ٣٠، ط دار طيبة بالرياض، والدكتور بكر أبو زيد في كتابه ابن القيم الجوزية وفي الدفاع عن عقيدة السلف ص ٥٦٧ ـ ٥٧٥، ط مؤسسة مكة للطباعة والنشر، والدكتور علي ناصر فقيهي والدكتور أحمد عطية الغامدي في مقدمتهما لكتاب الصواعق المنزلة على الجهمية والمعطلة ص ١٢ ـ ٢٠/ ١ ط الجامعة الإسلامية وغيرهم.

(٢) انظر شرح الأصول الخمسة للقاضي عبدالجبار ص٦١٤ ـ ٦١٥، والكشاف للزمخشري ١/ ٥٥٧.

(٣) سورة السجدة، الآية: ١٧، وسورة الأحقاف، الآية: ١٤، وسورة الواقعة، الآية: ٢٤.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٤٣.

بالتفضل كما تقوله المبطلة)[1].

ولا شك أن هذا المذهب ظاهر البطلان لمخالفته لنصوص الكتاب والسنة وإجماع السلف .

فقد قال عز وجل : ﴿ **وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ** ﴾[2]، وقال سبحانه مخبرًا عن أهل الجنة : ﴿ **وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ** ﴾[3].

وقال إمام المتقين ﷺ : «سددوا وقاربوا واعلموا أنه لن يدخل الجنة أحد بعمله» قالوا : ولا أنت يا رسول الله؟ قال : «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله رحمه منه وفضل»[4].

وقد نبه الإمام النووي رحمه الله إلى هذه المسألة فقال أعلم أن مذهب أهل السنة أنه لا يثبت بالعقل ثواب ولا عقاب ولا إيجاب ولا تحريم ولا غيرهم من أنواع التكليف ولا تثبت هذه كلها ولا غيرها إلا بالشرع ومذهب أهل السنة أيضًا أن الله تعالى لا يجب عليه شيء تعالى الله بل العالم ملكه والدنيا والآخرة في سلطانه يفعل فيهما ما يشاء فلا إن عذب المطيعين والصالحين أجمعين وأدخلهم النار كان عدلاً وإذا

---

(١) الكشاف للزمخشري ٢/ ١٠٦ ، ويقصد بقوله (المبطلة) أهل السنة القائلين بأن دخول الجنة فضل ورحمة من الله لا بمحض الأعمال، وهذه التهمة التي أطلقها هي من جملة الاتهامات والافتراءات التي يطلقها أهل البدع على أهل السنة وهذا من شدة حقتهم وغيظهم عليهم لتمسكهم بالحق .

(٢) سورة النور، الآية : ٢١ .

(٣) سورة الأعراف، الآية : ٤٣ .

(٤) رواه البخاري في كتاب الرقاق باب القصد والمداومة على العمل ١١/ ٣٠٠ برقم ٦٤٦٧ ، ولفظه : «لا يدخل أحدًا بالجنة عمله»، ومسلم بشرح النووي في كتاب صفات المنافقين باب لن يدخل الجنة أحد بعمله برقم ٢٨١٦ـ٢٨١٨ بألفاظ متقاربة .

أكرمهم ونعمهم وأدخلهم الجنة فهو فضل منه ولو نعم الكافرين وأدخلهم الجنة كان له ذلك ولكنه أخبر وخبره صدق أنه لا يفعل هذا بل يغفر للمؤمنين ويدخلهم الجنة برحمته ويعذب المنافقين ويخلدهم في النار عدلاً منه . .

ثم قال: (وفي ظاهر هذه الأحاديث دلالة لأهل الحق أنه لا يستحق أحد الثواب والجنة بطاعته، وأما قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[1]، ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[2]. ونحوهما من الآيات الدالة على أن الأعمال يدخل بها الجنة فلا يعارض هذه الأحاديث بل معنى الآيات أن دخول الجنة بسبب الأعمال، ثم التوفيق للأعمال والهداية للإخلاص فيها وقبولها برحمة الله تعالى وفضله فيصح أنه لم يدخل بمجرد العمل وهو مراد الأحاديث ويصح أنه دخل بالأعمال أي بسببها وهي من الرحمة والله أعلم»[3].

قلت: ما قرره الإمام النووي رحمه الله هو الحق الذي لا يجوز اعتقاد غيره وهو ما أجمع عليه السلف الصالح رحمهم الله. قال الإمام الصابوني رحمه الله حاكيًا مذهبهم في ذلك: (ويعتقدون ـ أي السلف أهل السنة ـ ويشهدون أن أحدا لا تجب له الجنة وإن كان عمله حسنًا وعبادته أخلص العبادات وطاعته أزكى الطاعات وطريقه مرتضى إلا أن يتفضل الله عليه فيوجبها بمنه وفضله، إذ عمل الخير الذي عمله لم يتسير له إلا بتيسير الله عز اسمه، فلو لم ييسره له لم يتسير ولو لم يهده لم يهتد له، أبداً بجهده وحده»[4].

قال الإمام ابن أبي العز الحنفي رحمه الله: (وأما ترتب الجزاء على الأعمال فقد

---

(١) سورة النحل، الآية: [٣٢].

(٢) سورة الزخرف، الآية: [٧٢].

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٣١ ـ ١٣٣/ ١٧ .

(٤) عقيدة السلف أصحاب الحديث للصابوني ص٩٦ ـ ٩٧ .

ضلت فيه الجبرية والقدرية (المعتزلة) وهدىٰ الله أهل السنة وله الحمد والمنة، فإن الباء التي في النفي غير الباء التي في الإثبات فالمنفي في قوله ﷺ: «لن يدخل الجنة أحد بعمله»[1]. باء العوض وهو أن يكون العمل كالثمن لدخول الجنة علىٰ ربه بعمله بل برحمة الله وفضله، والباء التي في قوله تعالىٰ: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُون﴾[2]. وغيرها باء السبب أي: بسبب عملكم، والله تعالىٰ هو خالق الأسباب المسببات فرجع الكل إلىٰ محض فضل الله ورحمته»[3].



(١) تقدم تخريجه.

(٢) سور السجدة، الآية: ١٦.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ص ٦٤٣/ ٢. وانظر أيضًا مجموع الفتاوىٰ للشيخ الإسلام ص٧٠ـ٧١/٨، وفتح القدير ص٢٠٦/ ٢.

المبحث السادس

الشفاعة [1] ومراتبها

المطلب الأول : تقرير الإمام النووي للشفاعة

من عقيدة أهل السنة والجماعة التي يجب الإيقان بها الإيمان بشفاعة النبي ﷺ وإخوانه النبيين ومن يأذن الله له يوم القيامة، كما تواترت بذلك النصوص من الكتاب والسنة .

وقد قرر الإمام النووي رحمه الله مذهب أهل السنة والجماعة في الشفاعة .

فأثبت للنبي ﷺ وغيره من الأنبياء والصالحين الشفاعة مبينًا أنواعها التي تضافرت الأدلة من الكتاب والسنة عليها، فقد قال رحمه الله نقلاً عن القاضي عياض رحمه الله : (مذهب أهل السنة جواز الشفاعة عقلاً ووجوبها سمعًا بصريح قوله تعالى : ﴿ **يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً** ﴾[2] . وقوله : ﴿ **وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى** ﴾[3] . وآمنا بها وبخبر الصادق وقد جاءت الآيات التي بلغت بمجموعها التواتر بصحة الشفاعة في الآخرة لمذنبي المؤمنين وأجمع السلف والخلف ومن بعدهم من أهل السنة عليها ومنعت الخوارج وبعض المعتزلة منها وتعلقوا بمذاهبهم في تخليد المذنبين في النار، واحتجوا بقوله تعالى : ﴿ **فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ** ﴾[4]، وبقوله تعالى : ﴿ **مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ**

---

(١) الشفاعة في اللغة مأخوذة من الشفع وهو خلاف الوتر وهو الزوج، وشفعه منعه وقوله تعالى: ﴿والشفع والوتر﴾ سورة الفجر : ٣، هو الخلق .
انظر : القاموس المحيط ص٧٣٣ .

(٢) سورة طه، الآية: ١٠٩ .

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨ .

(٤) سورة المدثر، الآية: ٤٨ .

يطاع ﴾[1]. وهذه الآيات في الكفار وأما تأويلهم أحاديث الشفاعة بكونها في زيادة الدرجات فباطل وألفاظ الحديث في الكتاب وغيره صريحة في بطلان مذهبهم وإخراج من استوجب النار»[2].

قلت: الإيمان بشفاعة النبي ﷺ يوم القيامة وغيره ممن يأذن الله بذلك أمر متفق عليه بين جميع الصحابة والتابعين لهم بإحسان وسائر أئمة المسلمين، لورود ذلك في القرآن ولتواتر الأحاديث عن النبي ﷺ الدالة على هذا الأمر حيث يشفع النبي ﷺ لأهل الموقف بإذن الله لحساب العباد، ويشفع بزيادة درجات المؤمنين، ويخرج الله آخرين بشفاعة غيره، ويخرج قومًا بلا شفاعة حتى لا يبقى في النار إلا الكافرون. وقد حكى هذا الإجماع على هذا الأمر غير واحد من أئمة السلف[3].

وقد خالف أهل البدع من الخوارج والمعتزلة وغيرهم في هذا الأمر فقالوا: من يدخل النار لا يخرج منها لا بشفاعة ولا بغيرها بناء على أصلهم الفاسد أن مرتكب الكبيرة الذي مات عليها مخلد في النار فلا يغفر الله له، وحملوا الآيات التي تنفي الشفاعة في الآخرة والواردة بحق الكافرين وأجروها على أهل الكبائر من المؤمنين، وأوّلوا الأحاديث الواردة بإخراج عصاة المؤمنين من النار، وقالوا: بأنها أخبار آحاد فلا يصح الاحتجاج بها[4].

---

(١) سورة غافر، الآية: ١٨ .

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص٣١/ ٣ .

(٣) انظر الإبانة عن أصول الديانة للأشعري ص ٧٤، والشرح والإبانة لابن بطة ص٢٢٩ ـ ٢٣١، وعقيدة السلف أصحاب الحديث للصابوني ص٥٨، والشريعة للآجري ص٣٣٨ ـ ٣٥١، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ١/ ١٤٨ ـ ١٤٩، وشرح الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص٢٨٢/ ١، وغير ذلك .

(٤) انظر : شرح الأصول الخمسة للقاضي عبدالجبار المعتزلي ص٦٨٧ ـ ٦٩٠، ودراسات إسلامية في الأصول الإباضية لبكير بن سعيد أعوشت الإباضي الجزائري ص٧٨ ـ ٨٤ .

وهذان الأصلان معلوم فسادهما وبطلانهما بأدلة الكتاب والسنة وإجماع السلف وهي أشهر من أن تذكر، ولا شك أن من تجرأ على إسقاط الاحتجاج بالأحاديث المتواترة أو الصحيحة كان الرد عليه بلا جدوى، عافانا الله من طريق البغي والضلال .

المطلب الثاني : أنواع الشفاعة ومناقشة الإمام النووي فيما نقله عن القاضي عياض ووافقه عليه فيما خالف فيه أهل السنة .

أ ـ الأنواع التي وافق فيها الإمام النووي أهل السنة :

ذكر علماء أهل السنة أن الشفاعة يوم القيامة ثمانية أنواع منها ما هو خاص بالنبي ﷺ ومنها ما هو مشترك بينه وبين غيره[1] . وقد ذكر الإمام النووي خمسة منها وذلك نقلاً عن القاضي عياض[2] فقال : (لكن الشفاعة خمسة أقسام :

أولها : مختصة بنبينا ﷺ وهي الإراحة من هول الموقف وتعجيل الحساب كما سيأتي بيانها .

الثانية : في إدخال قوم الجنة بغير حساب وهذه وردت أيضًا لنبينا ﷺ وقد ذكرها مسلم رحمه الله .

الثالثة : الشفاعة لقوم استوجبوا النار فيشفع فيهم نبنيا ﷺ ومن شاء الله تعالى وسننبه على موضعها قريبًا إن شاء الله تعالى .

والرابعة : فيمن دخل النار من المذنبين فقد جاءت هذه الأحاديث بإخراجهم من

---

(١) انظر : كتاب التوحيد لابن خزيمة ٢/ ٥٨٨، والشريعة للآجري ص٣٣٨ ـ ٣٥١، والنهاية في الفتن والملاحم لابن كثير ٢/ ٢٠٢ ـ ٢٤٨، وشرح الطحاوية ص١٨٣ ـ ١٩٢/ ١، وفتح الباري ١١/ ٤٣٥، ٤٣٦، ولوامع الأنوار البهية ٢/ ٢١١، وشرح الواسطية للفوزان ص١٥٧ ـ ١٥٨، وغير ذلك .

(٢) إكمال المعلم ١/ ٥٦٥ ـ ٥٦٦، وشرح صحيح مسلم ٣/ ٣٢/ ٣١ .

النار بشفاعة نبينا لله والملائكة وإخوانهم من المؤمنين ثم يخرج الله تعالىٰ من قال لا إله إلا الله كما جاء في الحديث لا يبقىٰ فيها إلا الكافرون .

الخامسة : في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها وهذه لا ينكرها المعتزلة ولا ينكرون شفاعة الحشر الأول [١].

قلت : القسم السادس : شفاعته ﷺ في أقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم فيشفع لهم في دخول الجنة .

والقسم السابع : شفاعته ﷺ في دخول أهل الجنة بعد الفراغ من الحساب .

والقسم الثامن : شفاعته ﷺ في تخفيف العذاب عمن يستحقه كشفاعته في عمه أبي طالب أن يخفف عنه عذابه .

والشفاعة التي اختص بها ﷺ هي النوع الأول وهي : الشفاعة العظمىٰ التي يغبطه عليها الأولون والآخرون، والنوع السابع والنوع الثامن .

والحق أن مذهب الإمام النووي في شفاعة النبي ﷺ لعمه أبي طالب لا يتضح اتضاحًا يسهل الحكم عليه وخاصة بعد ذكره خمسة أنواع من الشفاعة للنبي ﷺ ولم يذكر ما عداها كما أنه عند شرحه للحديث الوارد في شفاعة النبي ﷺ لعمه أي طالب لم يشير إلىٰ نفي أو إثبات ذلك وإذا حمل علىٰ الإثبات فهو موافق بذلك لمذهب أهل السنة والجماعة [٢] .

وإذا حمل قوله علىٰ نفي تلك الشفاعة فهو قد قال به بعض العلماء أيضًا وهو قول مرجوع غير صحيح، بل الصحيح الذي عليه جماهير أهل السنة هو إثبات هذه الشفاعة كسائر الشفاعات ولا معنىٰ لإنكار ذلك أو تأويله لثبوت الرواية به مع

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص٣١/ ٣ .

(٢) انظر : معارج القبول ص٢١٣ـ ٢٢٢/ ٢٣، وشرح العقيدة الواسطية للهراس ص٢١٧ .

التصريح منه ﷺ بالشفاعة لأبي طالب، كما سبق في الحديث الذي تقدم ولا تعارض بين هذا الحديث وغيره مما جاء في حق أبي طالب وبين قوله تعالى في الكافرين: ﴿فَمَا تنفعهم شفاعةُ الشَّافعينَ﴾(١). لأن الشفاعة المنفية في حق الكفار عامة مخصصة بأحاديث تخفيف العذاب عن أبي طالب، وهذا من خصائص النبي ﷺ، ولأن معنى المنفعة في الآية غير المنفعة في الأحاديث الواردة في أبي طالب فالمراد بها في الآية الإخراج والنجاة من النار بخلاف شفاعة ﷺ لأبي طالب فليس المراد بذلك إخراجه ولا نجاته بل بتخفيف العذاب عنه بسبب نصرته للنبي ﷺ والذب عنه. وهذا أشار إليه الإمام بقوله: (وفي هذا الحديث وما أشبهه تصريح بتفاوت عذاب أهل النار كما أن نعيم الجنة متفاوت والله أعلم)(٢).

وأحسب أن قوله هذا يشعر بإثباته شفاعة النبي ﷺ لعمه أبي طالب في تخفيف العذاب عنه فلو لم يكن يثبتها لما صرح بتفاوت عذاب أهل النار هنا والله أعلم بالصواب.

* * *

---

(١) سورة المدثر، الآية: ٤٨.

(٢) انظر: مجموع الفتاوىٰ لشيخ الإسلام ٤٤ ـ ١/٤٥ وفتح الباري ٤٣٤ ـ ١١/٤٣٦، وشرح العقيدة الطحاوية ص ١/٢٨٩.



الفصل السادس

الإيمان بالقدر وما يتعلق به من مسائل

وفيه عدة مباحث:

المبحث الأول: حقيقة القدر عند الإمام النووي.

المبحث الثاني: مراتب الإيمان بالقدر.

المبحث الثالث: موقفه من القدرية.

المبحث الرابع: مسألة احتجاج آدم وموسىٰ عليهما السلام.

المبحث الخامس: تأويل قوله تعالىٰ: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾

المبحث السادس: بيان أن الآجال والأرزاق وغيرها لا تزيد ولا تنقص عما سبق به القدر.

المبحث الأول

حقيقة القدر عند الإمام النووي

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: معنى القضاء والقدر في اللغة والإصطلاح

أ ـ معنى القضاء في اللغة

قال ابن الأثير[1] (تكرر في الحديث ذكر القضاء وأصله القطع والفصل يقال قضى يقضي قضاء فهو قاضي إذا حكم وفصل، وقضاء الشيء إحكامه وإمضاؤه والفراغ منه فيكون بمعنى الخلق)[2].

وقال الجوهري: (القضاء الحكم وأصله قضاي لأنه من قضيت والجمع الأقضية. والقضية مثله والجمع القضايا، وقضى أي حكم، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾[3])[4].

وقال الأزهري[5]: القضاء في اللغة على وجوه ومرجعها إلى الإنقطاع للشيء

---

(١) هو الإمام أبو السعادات، المبارك بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري المعروف بابن الأثير، قرأ الحديث والعلم والأدب وبرع فيها، وكان ذا بر وإحسان وخلق، له مؤلفات كثيرة منها النهاية في غريب الحديث وجامع الأصول، توفي سنة (٦٠٦هـ)، ، انظر ترجمته في مفتاح السعادة، ١/ ١٢٤، وشذرات الذهب ٥/ ٢٢.

(٢) النهاية في غريب الحديث ٤/ ٧٨، وانظر لسان العرب لابن منظور ٢/ ١١١.

(٣) سورة الإسراء، الاية: ٢٣.

(٤) الصحاح للجوهري ٦/ ٢٤٦٣.

(٥) هو أبو منصور، محمد بن أحمد الأزهري الهروي أحد الأئمة المشهورين في اللغة والأدب، كان رأسا في اللغة والفقه، ثقة ثبتًا دينًا عاش ثمانية وثمانين سنة، وله تهذيب اللغة، توفي سنة =

وتمامه وكل ما أحكم عمله أو أتم أو ختم أو أدىٰ أداء، أو أوجب أو علم أو نفذه أو أمض فقد قضى، وقد جاءت هذه الوجوه كلها في الحديث ومنه القضاء المقرون بالقدر)[1].

ب ـ معنى القدر في اللغة

قال الراغب الأصبهاني (القدر وقت الشيء المقدور له والمكان المقدر له، قال تعالىٰ: ﴿ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾[2] وقال ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا ﴾[3] أي بقدر المكان المقدر لأن يسعها)[4].

وقال ابن منظور[5]: (القدر القضاء الموافق يقال أقدر الإله كذا تقديراً، وإذا وافق الشيء الشيء، وقال ابن سيدة[6]: القدر والقدر ـ بسكون الدال وفتحها ـ القضاء والحكم وهو ما يقدره الله عز وجل في القضاء، ويحكم به من الأمور، وفي الحديث ذكر ليلة القدر، وهي الليلة التي تقدر فيها الأرزاق وتقضي)[7].

= (٣٧٠هـ). انظر ترجمته في معجم الأدباء ١٧/ ١٦٤، وسير أعلام النبلاء ١٦/ ٣١٥، ومفتاح السعادة ١/ ١١٠.

(١) لسان العرب ٢/ ١١١.

(٢) سورة المرسلات، الآية: ٢٢.

(٣) سورة الرعد، الآية: ١٧.

(٤) المفردات ص٤٠٦.

(٥) سبق ترجمته.

(٦) هو أبو الحسن، علي بن إسماعيل المعروف بابن سيدة، إمام في اللغة العربية وآدابها. توفي سنة (٤٥٨هـ) انظر ترجمته في وفيات الأعيان ١/ ٣٤٢.

(٧) لسان العرب ٢/ ٣٠، وانظر أيضًا النهاية لابن الأثير ٤/ ٢٢.

وقيل القدر: مقدار الشيء وحالاته المقدرة له وفي التنزيل ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[1] وكذلك وقت الشيء أو مكانه المقدر له[2].

ج- القضاء والقدر في المعنى الإصطلاحي الشرعي

اختلفت عبارات العلماء - رحمهم الله - في تعريف القضاء والقدر فمنهم من فرق بينهما، فعرف القضاء تعريفًا مغايرًا للقدر ومنهم من أعتبرهما شيئًا واحدًا.

فممن ذهب للتفريق بينهما الجرجاني[3] حيث قال: (القضاء: في الإصطلاح عبارة عن الحكم الكلي الإلهي في أعيان الموجودات على ما هي عليه من الأحوال الجارية في الأزل إلى الأبد.

والقدر: خروج الممكنات من العدم إلى الوجود واحدًا بعد واحد مطابقًا للقضاء، والقضاء في الأزل، والقدر فيما لا يزال، والفرق بين القضاء والقدر، هو أن القضاء وجود جميع الموجودات في اللوح المحفوظ مجتمعة، والقدر وجودها متفرقة في الأعيان بعد حصول شرائطها)[4].

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني[5]- رحمه الله - (قال العلماء القضاء هو الحكم

---

(١) سورة القمر، الآية: ٤٩.

(٢) المعجم الوسيط ٢/ ٧١٨.

(٣) هو علي بن محمد بن علي الحسيني الحنفي المعروف بالشريف الجرجاني، من كبار العلماء بالعربية، له نحو خمسين مؤلفًا من أشهرها (التعريفات). توفي سنة (٨١٦هـ)، انظر ترجمته في مفتاح السعادة ١/ ١٩٢، ١٩٣، والبدر الطالع للشوكاني ١/ ٤٨٨.

(٤) التعريفات للجرجاني ص ١٨٠-١٨١، ١٨٥.

(٥) هو شيخ الإسلام وأمير المؤمنين في الحديث، وإمام الحفاظ في زمانه أبو الفضل شهاب الدين. أحمد بن علي بن محمد الكناني العسقلاني المشهور بابن حجر العسقلاني، ولد سنة ٧٧٣هـ. وتوفي أبوه وهو صغير فنشأ يتيمًا، كان شديد الذكاء فاشتغل أولا بالتجارة بعد قراءة القرآن ثم حبب إليه طلب العلم فأقبل عليه واجتهد فيه حتى بلغ الغاية فيه، له مؤلفات عظيمة ومفيدة جدًا أهمها =

الكلي الإجمالي في الأزل، والقدر جزئيات ذلك الحكم وتفاصيله) وقال في موضع آخر (القضاء الحكم بالكليات على سبيل الإجمال في الأزل، والقدر الحكم بوقوع الجزئيات التي لتلك الكليات على سبيل التفصيل)(١) إلى غير ذلك من الأقوال.

وعكس بعض العلماء فجعلوا القضاء هو الخلق والقدر هو الحكم السابق، قال ابن بطال(٢) (القضاء هو المقضي)(٣) ومراده بالمقضي المخلوق، وهذا قول الخطابي(٤) أيضًا حيث قال (القدر اسم لما صار مقدراً عن فعل القادر كالهدم والنشر والقبض أسماء لما صدر من فعل الهادم والناشر والقابض، والقضاء في هذا معناه الخلق كقوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾(٥) أي خلقهن(٦) ـ كما قال الأصبهاني ـ.

وبناء على هذا القول يكون (القضاء من الله تعالى أخص من القدر، لأنه الفصل بين التقديرين فالقدر هو التقدير، والقضاء هو الفصل والقطع، وقد ذكر بعض العلماء

= وأعظمها شأنًا فتح الباري بشرح صحيح البخاري الذي لم يؤلف مثله في بابه قط، ومن كتبه أيضًا لسان الميزان، وتهذيب التهذيب وغيرها توفي سنة (٨٥٢هـ)، انظر ترجمته في الضوء اللامع للسخاوي ٢/ ٣٦، البدر الطالع للشوكاني ١/ ٨٧.

(١) فتح الباري ١١/ ١٥٣، ٤٨٦.

(٢) هو أبو الحسن، علي بن خلف بن بطال البكري القرطبي، ويعرف بان اللجام قال عنه ابن بشكوال كان من أهل العلم والمعرفة عني بالحديث العناية التامة وشرح صحيح البخاري في عدة أسفار رواه الناس عنه، توفي سنة ٤٧٤هـ وقيل (٤٤٩هـ). انظر: ترجمته في ترتيب المدارك، ٤/ ٨٢٧، والديباج المذهب ٢/ ١٠٥، وسير أعلام النبلاء ١٨/ ٤٧.

(٣) فتح الباري ١١/ ١٥٣، ٤٨٦.

(٤) سبق ترجمته.

(٥) سورة فصلت، الآية: ١٢.

(٦) معالم السنن شرح سنن أبي داود للخطابي ٥/ ٧٧، وانظر شرح صحيح مسلم ص ١٣٩/ ١.

أن القدر بمنزلة المعد للكيل، والقضاء بمنزلة الكيل، وهذا كما قال أبو عبيدة[1] لعمر - رضي الله عنهما - لما أراد الفرار من الطاعون بالشام أتفر من القضاء؟ قال: أفر من قضاء الله إلىٰ قدر الله)[2] تنبيهًا علىٰ أن القدر مالم يكن قضاء فمرجو أن يدفعه الله فإذا قضي فلا مدفع له، ويشهد لذلك قوله سبحانه: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾[3]، وقوله: ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾[4] أي فصل تنبيهًا أنه صار بحيث لا يمكن تلافيه)[5].

القول الراجح

وخلاصة القول: في هذا هو ما قاله الإمام الخطابي - رحمه الله - (إن القضاء والقدر أمران متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، لأن أحدهما بمنزلة الأساس، وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء، وهو القضاء، فمن رام الفصل بينهما فقد رام هدم البناء ونقضه)[6].

أما من جعل للقضاء والقدر مدلولا واحدًا مشتركًا كما ذهب إليه كثير من أهل العلم[7] ومنهم الإمام النووي - رحمه الله - فمعناه تعلق علم الله تعالىٰ بالكائنات

---

(١) هو الصحابي الجليل، السابق إلىٰ الإسلام، أحد العشرة المبشرين بالجنة، أبو عبيدة عامر بن عبد الله ابن الجراح بن هلال القرشي الفهري، شهد مع النبي ﷺ المشاهد كلها وولاه عمر قيادة الجيش الزاحف إلىٰ الشام بعد خالد بن الوليد رضي الله عنه، فتم له فتح الديار الشامية لقبه النبي ﷺ بأمين هذه الأمة. توفي بطاعون عمواس بالشام سنة (١٨هـ) رضي الله عنه وأرضاه، انظر ترجمته في حلية الأولياء ١/ ١٠٠، وصفة الصفوة ١/ ١٥٤، وأسد الغابة، ٣/ ٨٤.

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الطب باب ما ذكر في الطاعون ١٠/ ١٨٩، برقم ٥٧٢٩.

(٣) سورة مريم، الآية: ٧١.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢١٠.

(٥) المفردات في غريب القرآن للأصبهاني ص٤٠٦، ٤٠٧.

(٦) معالم السنن للخطابي ٥/ ٧٧، وانظر النهاية في غريب الحديث ٤/ ٧٨.

(٧) انظر الفصل في الأهواء والملل والنحل لابن حزم ص ٨٤-٨٥/ ٢، وفتح الباري ١١/ ٤٨٧، وعقيدة المؤمن لأبي بكر الجزائري ٣٤٥.

وإرادته لها قبل وجودها، فلا حادث إلا وقد قدره الله، أي سبق علمه به وتعلقت به إرادته[1]، وهذا ما يبدو من ظاهر الإستعمالات الإصطلاحية لهما، إذ قد يجتمعان في الإستعمال وقد ينفردان والمدلول واحد.

تعريف الإمام أحمد للقدر:

عرف الإمام أحمد بن حنبل[2] ـ رحمه الله ـ القدر فقال: (القدر قدرة الله على العباد)[3].

وقد استحسن الشيخ ابن عقيل[4] هذا الكلام جداً وقال: (هذا يدل على دقة علم أحمد وتبحره في معرفة أصول الدين)[5]. وقال الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ معلقاً على كلام ابن عقيل (وهو كما قال أبو الوفاء، فإن إنكار القدر إنكار لقدرة الله على خلق أفعال العباد وكتابتها وتقديرها، وسلف القدرية كانوا ينكرون علمه تعالى به، وهم الذي اتفق سلف الأمة على تكفيرهم، لأن القدر عند أهل السنة قدرة الله تعالى

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص ١/ ١٣٨، وص ١٤/ ١٤٥.

(٢) هو الإمام حقًا، وشيخ الإسلام صدقًا، وإمام أهل السنة والجماعة بلا ريب، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد، أحد الأئمة الأربعة المشهورين وإليه تنسب الحنابلة، بلغ الآفاق علمه وزهده وتقواه وجهاده في حمل راية السنة والذب عنها، وابتلى في ذلك ابتلاء عظيمًا، ولد سنة (١٦٤هـ) وتوفي سنة (٢٤١هـ)، انظر ترجمته في حلية الأولياء ٩/ ١٦١،، وسير أعلام النبلاء ١١/ ١٧٧، وشذرات الذهب ٢/ ٩٩.

(٣) مسائل ابن علي ٢/ ١٥٥، نقلاً عن المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد في العقيدة جمع وتحقيق عبد الله الأحمدي، ١/ ١٣٥.

(٤) هو أبو الوفاء، علي بن عقيل بن محمد البغدادي، عالم العراق وشيخ الحنابلة ببغداد في زمنه، له مؤلفات عديدة منها الفنون والفرق والرد على الأشاعرة وغير ذلك. توفي سنة (٥١٣هـ). انظر ترجمته في لسان الميزان لابن حجر ٤/ ٢٤٣، والذيل على طبقات الحنابلة لابن رجب ١/ ١٤٢.

(٥) شفاء العليل لابن القيم، ٢٨.

وعلمه ومشيئته وخلقه، فلا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بمشيئته وعلمه وقدرته)[1].

والحق أن تعريف إمام أهل السنة ـ أحمد بن حنبل ـ للقدر جامع مانع ومختصر جميل لأنه مستمد من نور القرآن الكريم كما يبنه الله عز وجل في كتابه في آيات كثيرة كقوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ**﴾[2] وقوله: ﴿**بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ**﴾[3]، وقوله: ﴿**يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ**﴾[4]، وغير ذلك من الآيات الدالة على أن الأمور كلها بيده عز وجل صغيرها وكبيرها، وأنه لا يحدث في الكون شيء إلا بإرادته ومشيئته عز وجل.

*　*　*

(١) المرجع السابق ص٥٩، ٦٠، ١١٣.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.

(٣) سورة يس، الآية: ٨٣.

(٤) سورة يونس، الآية: ٣.

المطلب الثاني

معنى الإيمان بالقضاء والقدر

يتضح لنا مما تقدم لتعريف القضاء والقدر معنى الإيمان بهما والذي يتلخص بالإعتقاد والتصديق الجازم بأن كل خير وشر هو بقضاء الله وقدره، وأنه عز وجل سبق علمه بكل شيء مخلوق وشاء وجوده وأوجده وفق ما قدره له، وأنه تعالى هو الفعال لما يريد. لا يكون شيء إلا بإذنه وإرادته، ولا يخرج شيء عن مشيئته وتقديره، لا أفعال العباد ولا غيرها، لأنه تعالي هو الخالق للعباد وأفعالهم كلها سواء، كانت خيراً أم شراً. ومع ذلك فقد أمرهم سبحانه ونهاهم جعلهم مختارين لجميع أفعالهم فليسوا مجبورين عليها، بل هي تحصل منهم بقدرتهم وإرادتهم، وأنه سبحانه يهدي من يشاء برحمته. ويضل من يشا بحكمته، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. وبهذا كله يجب الإيمان، وبه يتحقق للعبد الإيمان الشرعي المطلوب والقدر الذي جاء الأمر به. وقد دل على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر، أدلة كثيرة من الكتاب والسنة. من ذلك: قوله سبحانه ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾[1] أي خلقنا كل شيء بتقدير سابق لخلقنا له، وذلك بكتابته سبحانه في اللوح المحفوظ قبل خلق السموات والأرض فهو يقع كما كتب كمية وصورة وزماناً ومكاناً لا يتخلف في ذلك شيء[2].

وقوله تعالى أيضاً: ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾[3] أي خلق كل شيء مما يطلق عليه صفة المخلوق في العالمين العلوي

---

(١) سورة القمر، الآية: ٤٩.

(٢) انظر تفسير البغوي ٤/ ٢٦٥، وتفسير ابن كثير ٤/ ٢٤١، وأيسر التفاسير ٥/٢١٩.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٢.

والسفلي فسوّاه وهيأه لما يصلح له بحكمة على ما أراد سبحانه وتعالى دون خلل فيه ولا تفاوت[1].

ومنها قوله تعالى أيضًا: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾[2] أي قضاء مقتضيًا[3].

ومن النصوص الواردة في السنة نذكر:

١ ـ حديث جبريل المشهور حيث جاء إلى النبي ﷺ بصورة أعرابي فسأله عن الإيمان والإحسان فأجابه النبي ﷺ بقوله: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره**»[4].

ـ كما قال«**لا يؤمن عبد حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، وحتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطأه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه**»[5].

٣ ـ ومنها حديث ابن الديلمي[6] قال: (أتيت أبي بن كعب[7] فقلت له، وقع في

---

(١) انظر تفسير البغوي ٣/ ٣٦٠، وفتح القدير للشوكاني ٤/ ٦١، وتفسير السعدي ٥/ ٤٥٦.

(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٨.

(٣) فتح القدير ٤/ ٢٨٥.

(٤) رواه مسلم في كتاب الإيمان باب بيان الإيمان والإسلام ١/ ١٣٥، برقم ٨، وأبو داود في ك السنة باب في القدر ٥/ ٦٩، برقم (٤٦٩٥).

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب القدر باب الإيمان بالقدر خيره وشره ٤/ ٣٩٣، برقم (٢١٤٤) وقد صححه الألباني، انظر صحيح الجامع ٦/ ٢٠٨، برقم (٧٤٦١).

(٦) هو أبو بسر عبد الله بن فيروز الديلمي أخو الضحاك ثقة من كبار التابعين، ومنهم من ذكره في الصحابة، أبوه صحابي معروف روى عن عدد من الصحابة. انظر الإصابة ٣/ ١٣٨، وتقريب التهذيب ١/ ٥٢٢.

(٧) هو الصحابي الجليل أبو المنذر، أبي بن كعب بن قيس من بني جديلة وكان يقال له أبو الطفيل زيضًا، كان رضي الله عنه من فقهاء الصحابة وخيار وجلة الأنصار وهو ممن جمع القرآن الكريم على عهد رسول الله ﷺ وقد أمر الله نبيه عليه السلام أن يقرأ عليه القرآن وسماه باسمه ليكون أوكد لحفظ أبي =

نفسي شيء في القدر فحدثني بشيء لعل الله أن يذهبه عن قلبي قال: لو أن الله عذب أهل سمواته وأهل أرضه عذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم، ولو أنفقت مثل أحد ذهبًا في سبيل الله ما قبل الله منك حتىٰ تؤمن بالقدر وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطأك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت علىٰ غير هذا لدخلت النار، ثم قال. أتيت عبد الله بن مسعود[1] فقال مثل ذلك، ثم أتيت حذيفة بن اليمان[2] فقال مثل ذلك، قال: ثم أتيت زيد بن ثابت فحدثني عن النبي ﷺ مثل ذلك)[3].

= وأنشط له في وعيه والمحافظة عليه، توفي في خلافة عمر رضي الله عنه سنة (٢٢هـ) وقيل توفي في خلافة عثمان والأول أصح. انظر: ترجمته في مشاهير علماء الأمصار، ، ص١٢، وأسد الغابة ١/ ٤٩، والإصابة ١/ ٣١.

(١) هو أبو عبد الرحمن، عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي، من أكابر الصحابة ومن السابقين إلىٰ الإسلام، ومن المشهود لهم بالجنة، خادم رسول الله ﷺ وأحد فقهاء الصحابة، روىٰ ما يزيد علىٰ ثمانمائة حديثًا عن النبي ﷺ، وتوفي سنة (٣٢هـ) ودفن بالبقيع بالمدينة، وله بضع وستون سنة رضي الله عنه. انظر ترجمته في أسد الغابة ٣/ ٢٥٦، ٢٦٠، والإصابة ٢/ ٣٩٠، وسير أعلام النبلاء ١/ ٤٦١.

(٢) هو الصحابي الجليل كاتب رسول رسول الله ﷺ أبو عبد الله حذيفة بن اليمان العبسي حليف بني عبد الأشهل. كان رضي الله عنه من كبار المهاجرين روىٰ كثيراً من الأحاديث، استعمله عمر رضي الله عنه علىٰ المدائن فلم يزل بها حتىٰ مات سنة (٣٦هـ) رضي الله عنه وأرضاه. انظر ترجمته في مشاهير علماء الأمصار، ص٤٣، والإصابة ١/ ٣١٨، وسير أعلام النبلاء ٢/ ٣٦١.

(٣) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ١٨٢، ١٨٥، ١٨٩، وأبو داود في كتاب السنة باب في القدر ٥/ ٧٥، برقم ٤٦٩٩، وابن ماجه في المقدمة باب في القدر ١/ ٢٩، برقم ٧٧ واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٤/ ٦١٢، ٦١٣، برقم (١٩٠٢، ١٩٠٣) وقال الشيخ الألباني عنه إسناده صحيح ورجاله ثقات. انظر السنة لابن أبي عاصم ١/ ١٠٩، برقم ٢٤٥، ومشكاة المصابيح ١/ ٣٩، برقم (١١٥).

فهذه بعض النصوص التي توجب على المرء الإيمان بالقضاء والقدر وهناك نصوص كثيرة جداً حول هذا الموضوع لم أذكرها خشية الإطالة فلتراجع في مظانها[1].

* * *

(١) راجع المصادر التي تحدثت عن هذا الموضوع مثل شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٤/ ٥٣٤، وما بعدها، والشريعة للآجري ص١٤٩، وما بعدها، وكتاب القدر ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام وغير ذلك.

المطلب الثالث

أهمية وثمار الإيمان والرضا بالقضاء والقدر

١ ـ أهمية الإيمان بالقضاء والقدر

إن للإيمان بالقدر أهمية عظمى في الإسلام، فهو الركن السادس من أركان الإيمان كما جاء في حديث جبريل الآنف الذكر فلن يذوق عبد طعم الإيمان حتى يؤمن بالقدر خيره وشره، ويعلم أن ما أخطأ لم يكن ليصيبه، وما أصابه لم يكن ليخطأه كما وضح ذلك رسول الله ﷺ[١]، وفي الإيمان بالقدر يكمل إيمان العبد وتوحيده لبارئه لأن هذا الركن داخل في الإيمان بربوبية الله تعالى على خلقه، إذ إن من آمن بأن الله هو الخالق الرازق المدبر المتصرف في شئون خلقه كلهم فهو مؤمن بالقضاء والقدر وعلى هذا فلا يتم توحيد الربوبية إلا بإثبات القدر[٢] والإيمان به إيمانًا صحيحًا كما جاء في الكتاب والسنة وكما فهمه علماء السلف الصالح ـ رحمهم الله ـ، ولهذا قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ (القدر نظام التوحيد فمن وحد الله وآمن بالقدر فقد تم توحيده ومن وحد الله وكذب بالقدر نقض تكذيبه توحيده)[٣].

٢ ـ ثمار الإيمان بالقضاء والقدر

للإيمان بالقضاء والقدر ثمار كثيرة وعظيمة كانت ولا زالت سببًا في صلاح الفرد والمجتمع، ومن تلك الثمار:

أولاً: أن الإيمان بالقدر طريق الخلاص من الشرك. فقد زعم كثير من الفلاسفة أن

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب القدر باب الإيمان بالقدر خيره وشره، ٤/ ٣٩٣، برقم (٢١٤٤)، وقد صححه الألباني. انظر: صحيح الجامع، ٦/ ٢٠٨ برقم (٧٤٦١).

(٢) انظر تيسير العزيز الحميد، ص٦٨٥، ، والفتاوى السعدية ١/ ١١.

(٣) انظر: الشريعة للآجري ص ٢١٥، وأيضًا شرح العقيدة الطحاوية، ص ٣٤٨/ ٢.

الخير من الله والشر من صنع آلهة من دونه، وقد حملهم على هذا القول الفرار عن نسبة الشر إلى الله ـ كما يزعمون ـ.

وقال المجوس إن النور خالق الخير والظلمة خالقة الشر، وزعم فريق ممن ينتسب إلى الإسلام أن الله لم يخلق أفعال العباد، أو لم يخلق الكفر والضلال منها، فأثبتوا مع الله خالقين وزادوا على شرك المجوس والفلاسفة.

أما المؤمنون الموحدون، فقد آمنوا بالقدر وأيقنوا بأن هذا الكون وما فيه صادر عن الإله الخالق لكل شيء، المعبود دون سواه عز وجل الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لأنه لا يتم إيمان بالله وتوحيد له إلا بذلك، فسلم هؤلاء الموحدون من الشرك، في حين وقع فيه كل من كذب بالقدر أو نسب الخلق لغيره عز وجل، فاتضح إذًا أن الإيمان بالقدر طريق التوحيد والنجاة من الشرك.

ثانيًا: الإيمان بالقضاء والقدر طريق الإستقامة على المنهج الحق السوي في السراء والضراء: فالمؤمن بالقضاء والقدر يمضي في حياته على منهج سوي لا تبطره النعمة ولا تيئسه المصيبة، لأنه يعلم علم اليقين أن كل ما أصابه من نعم وحسنات فإنما هي من الله لا بذكائه وحسن تدبيره كما قال تعالى: ﴿**وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ**﴾[1] فلا يكون حاله كحال المترفين المتكبرين الزاعمين أن ما بأيديهم من غنى ونعم إنما هو بمحض إجتهادهم وتدبيرهم، كما قال ذلك إمامهم قارون في معرض إجابته للناصحين من قومه عندما أمروه بالمعروف ونهوه عن المنكر كما حكى الله عنه ﴿**قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي**﴾[2]، وكذلك فإن المؤمن بالقدر إذا أصابه الضراء والبلاء علم أن هذا بتقدير الله ابتلاء منه، فلا يجزع ولا ييأس بل يحتسب ويصبر ويسلم أمره لله، فيكسب ذلك في قلبه الرضا والطمأنينة قال سبحانه: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي**

---

(١) سورة النحل، الآية: ٥٣.

(٢) سورة القصص، الآية: ٧٨.

أنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾[١]، وقد امتدح الله عباده المؤمنين بذلك فقال: **﴿وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾**[٢]، كما أثنى رسول الله ﷺ عليهم بقوله: **«عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، إن أصابته شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن»**[٣].

ثالثًا: الإيمان بالقضاء والقدر يجعل العبد دائمًا على حذر: فإن المؤمن بالقضاء والقدر تجده دائمًا على حذر، فهو لا يأمن مكر الله، كما قال الله سبحانه ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[٤]، وتجده خائفًا من أن يتقلب قلبه أو ينقلب على وجهه، لأن القلوب دائمة التقلب والتغيير وهي بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، لذا تجده دائم الإتصال بالله معلق القلب بربه يدعوه ويرجوه ويستعينه ويسأله الثبات على الحق والرشد والسداد، ويخاف أن توثر فيه الفتن وله في ذلك كله قدوة بإمام الموحدين رسول الله ﷺ فقد «كان أكثر دعائه اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك، فسألته زوجته حفصة - رضي الله عنها - عن سبب كثرة دعائه بهذا الدعاء فقال لها **«إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء»**[٥].

---

(١) سورة الحديد، الآية: ٢٣، ٢٤.

(٢) سورة البقرة، الآية ١٥٥.

(٣) رواه مسلم في كتاب الزهد باب المؤمن أمره كله خير ١٨/٩٨ برقم ٢٩٩٩.

(٤) سورة الأعراف، الآية: ٩٩.

(٥) رواه مسلم في ك القدر باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء ١٦/١٦٦، برقم ٢٦٥٤.

وهذا الحذر والخوف لا يؤدي بالإنسان إلى التكاسل والخمول بل يدفعه إلى المجاهدة الدائمة والإستقامة على منهج الله والإكثار من الصالحات ومجانبة المعاصي والموبقات، لأن العبد لا يدري بما يختم له.

رابعًا: الإيمان بالقضاء والقدر يعين العبد على مواجهة الصعاب والأخطار بقلب ثابت، فالمؤمن بالقضاء والقدر يؤمن بأن كل ما يصيبه مكتوب عليه، وأن أجله ورزقه بيد الله وحده وأنه لن يموت العبد حتى يستوفيها، لذا تجده يقتحم الصعاب والأهوال مهما عظمت بقلب ثابت وهمة عالية، وقد كان هذا الإيمان من أعظم ما دفع المجاهدين إلى الإقدام في ميادين الوغى والنزال غير هيابين ولا وجلين، فكان الواحد منهم يطلب الموت في مظانه، ويرمي بنفسه في سبيل الله في أماكن يظن أن فيها نهاية حياته، ثم تراه يموت على فراشه فيبكي حيث لم يسقط شهيدًا في ميادين الجهاد وهو الذي كان يقتحم الأخطار والأهوال.

وكان هذا الإيمان من أعظم ما ثبت قلوب الصالحين والأئمة المهديين في مواجهة الظلمة والطغاة والمنحرفين لا يخافون في الله لومة لائم، لأنهم يعلمون أن الأمر كله بيد الله وأن ما قدر عليهم سيأتيهم، فكانوا لا يخافون من قول كلمة الحق خشية انقطاع الرزق أو العمر فإن الرزق بيد الله سيصل العبد، ولن يستطيع أحد رده إن كان قدره الله له، وإن منعه الله لعبد فلن يستطيع أحد إيصاله إليه قال رسول الله «يا أيها الناس اتقوا الله واجملوا في الطلب فإن نفسًا لن تموت حتى تستوفي رزقها وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله واجملوا في الطلب خذوا ما حل ودعوا ما حرم»(١) وكذلك فإن الأجل مكتوب لن يتقدم على العبد أو يتأخر لحظة واحدة قال سبحانه وتعالى: ﴿**فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ**﴾(٢).

---

(١) رواه ابن ماجه في ك التجارات باب الإقتصاد في طلب المعيشة ٢/ ٧٢٥، برقم ٢١٤٤.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣٤، وسورة النحل، الآية: ٦١.

المبحث الثاني
مراتب الإيمان بالقدر

الإيمان بالقدر يقوم على أربعة مراتب أو أركان[1]، من أقر بها جميعًا فإن إيمانه بالقدر يكون مكتملاً، ومن انتقص واحدًا منها أو أكثر فقد اختل إيمانه بذلك، وهذه الأركان هي:

١ ـ **الأول**: الإيمان بعلم الله الأزلي الشامل المحيط لكل شيء من الموجودات والمعدومات. فعلمه تعالى محيط بكل شيء، فهو عز وجل يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، ويعلم الموجود والمعدوم والممكن والمستحيل، وهو تعالى عالم بالعباد وآجالهم وأرزاقهم وأحوالهم وحركاتهم وسكناتهم وشقاوتهم وسعادتهم، ومن منهم من أهل الجنة ومن منهم من أهل النار من قبل أن يخلقهم ويخلق السموات والأرض، وكل ذلك مقتض إتصافه سبحانه بالعلم ومقتض كونه العليم الخبير السميع البصير.

وقد كثر في الكتاب والسنة تقرير هذا الأمر، قال سبحانه ﴿**هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ**﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ **لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا**﴾[3]، وقال: ﴿**أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّ**

(١) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣/ ١٤٨ ١٤٩، وشفاء العليل لابن القيم، ص٢٩، وطريق الهجرتين له، ص٩٠، وشرح الطحاوية ٣٤٤، ٣٥٣/ ٢، وتفسير السعدي ٢/ ٣٩٦ وغيرها.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٢٢.

(٣) سورة الطلاق، الآية: ١٢.

ذلك في كتاب ﴾[1]، وقال تعالى أيضًا: ﴿ **إنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ** ﴾[2]، وقال سبحانه مقررًا علمه بما لم يكن كيف يكون ﴿ **وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ** ﴾[3] في حق الكفار الذين يتمنون العودة للدنيا في الآخرة إلى غير ذلك من الآيات.

٢ ـ **الركن الثاني**: الإيمان بأن الله قد كتب في اللوح المحفوظ مقادير الخلق، فما من شيء في الكون إلا وقد علمه عز وجل وكتبه قبل حدوثه، قال سبحانه وتعالى مقررًا هذه الحقيقة ﴿ **وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ** ﴾[4] أي في اللوح المحفوظ الذي اشتمل على معلومات الله سبحانه[5].

وقال سبحانه: ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ** ﴾[6]، وقال رسول الله ﷺ: «**كتب الله مقادير الخلائق كلهم قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء**»[7].

٣ ـ **الركن الثالث**: الإيمان بمشيئة الله الشاملة وقدرته التامة النافذة على كل شيء فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فلا حركة ولا سكون في السموات ولا في الأرض

---

(١) سورة الحج، الآية: ٧٠.

(٢) سورة النجم، الآية: ٣٠.

(٣) سورة الأنعام، ، الآية: ٢٨.

(٤) سورة يونس، الآية: ٦١.

(٥) انظر تفسير البغوي ٢/ ٣٥٩.

(٦) سورة الحديد، الآية: ٢٢.

(٧) رواه مسلم في ك القدر باب حجاج آدم موسى ص ١٦٦/١٦، برقم ٢٦٥٣.

إلا بمشيئته، فلا يكون في ملكه إلا ما يريد، قال عز وجل ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾[1]. وقال ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[2]، وقال: ﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[3].

ومشيئة الله النافذة وقدرته الشاملة تجتمعان فيما كان وما سيكون، وتفترقان فيما لم يكن ولا هو كائن، فما شاء الله كونه فهو كائن بقدرته لا محالة، ومالم يشأه عز وجل لن يكون، ليس لعدم قدرته عليه فإنه علىٰ كل شيء قدير، بل لعدم مشيئته إياه قال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾[4]، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[5]، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾[6]، وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا﴾[7] إلىٰ غير ذلك من الآيات.

٤ ـ **الركن الرابع**: الإيمان بأن الله خالق كل شيء، فما من مخلوق في الأرض ولا في السماء إلا والله خالقه، لا خالق غيره ولا رب سواه، فهو سبحانه خالق وما سواه مربوب مخلوق، قال عز وجل: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾[8]، وقال: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾[9]، وقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾[10]، والآيات في هذا المعنىٰ كثيرة.

---

(١) سورة التكوير الاية: ٢٩.
(٢) سورة يس، الآية: ٨٢.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٣٩.
(٤) سورة المائدة، الآية: ٤٨.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.
(٦) سورة يونس، الآية: ٩٩.
(٧) سورة الفرقان، الآية: ٤٥.
(٨) سورة الزمر، الآية: ٦٢.
(٩) سورة يس، الآية: ٨١.
(١٠) سورة الأنعام، الآية: ١.

المبحث الثالث

موقف الإمام من القدرية

انقسم الناس في القدر إلىٰ فريقين علىٰ طرفي نقيض.

الفريق الأول: وهم المنكرون للقدر الزاعمون أن الله لا يعلم الأشياء إلا بعد وقوعها وأن الإنسان هو خالق فعل نفسه، والفريق الثاني: وهم المحتجون بالقدر (أو الجبرية) الذين يزعمون أن العبد مجبور علىٰ فعل المعاصي والآثام.

وإليك الحديث عن كل فريق مع توضيح موقف الإمام النووي منه: مع بيان منهج أهل السنة والجماعة في القدر وذلك فيما يلي:

المطلب الأول: مذهب القدرية النفاة

١ ـ حقيقة مذهبهم: ذهب بعض الضالين في أواخر عهد الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ إلىٰ نفي القدر فأطلق عليهم اسم القدرية[1].

---

(١) كان أول من تكلم بالقدر معبد الجهني المتوفىٰ سنة (٨٠هـ) وقيل بل أول من ابتدعه رجل يسمىٰ (سيويه) أو (سوسن) من أهل البصرة بالعراق، قد تلقاه عنه يأخذ عنه غيلان الدمشقي المتوفىٰ سنة (١٠٥هـ) وقد سمي هؤلاء قدرية لإنكارهم القدر. وهم فرقتان الأولىٰ الغلاة المتقدمون الذين ينكرون علم الله بالأشياء قبل وجودها ويزعمون أن الله لم يقدر الأمور أزلاً وقالوا (الأمر أنف) أي مستأنف مبتدأ بقدرة الإنسان نفسه، وقد كفر السلف الصالح هؤلاء الفرقة الثانية: المتأخرون منهم الذين أقروا بعلم الله عز وجل وأنكروا خلقه لأفعال العباد وزعموا أن العباد هم الخالقون لأفعالهم علىٰ جهة الإستقلال، ومن أشهر فرقهم المعتزلة الذين تبنوا هذا المذهب حتىٰ أصبحوا معروفين عند أهل السنة بهذا الاسم (القدرية)، انظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي ٦٢٦/ ٦٩٤/ ٧٠٦، والتبصير في الدين للأسفرايني ص٢١، ومجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية س٨٩، ٩٢، ٤٠٩، ٤٠٣، ٨/٤٥٢.

وحقيقة مذهبهم أنهم يقولون إن أفعال العباد ومعاصيهم لم تدخل تحت قضاء الله وقدره، وأنه تعالىٰ لا يعلم الأشياء إلا بعد وقوعها، فأثبتوا قدرة الله علىٰ أعيان المخلوقات وأوصافها ونفوا قدرته علىٰ أفعال المكلفين، حتىٰ جعلوا الإنسان هو خالق فعل نفسه، ولهذا سماهم علماء السلف (مجوس هذه الأمة) لأن المجوس يقولون بالأصلين الخالقين النور والظلمة زاعمين أن الخير من فعل النور والشر من فعل الظلمة، وهؤلاء القدرية كذلك ـ بل يزيدون عليهم ـ حيث زعموا أن العباد يخلقون أفعالهم بدون إرادة الله ومشيئته بل يستقلون بخلقها، فأثبتوا وجود خالقين مع الله تعالىٰ.

وقد تلقف المعتزلة[1] هذا المذهب وتبعهم الزيدية[2] ومن سار علىٰ نهجهم،

---

(١) المعتزلة فرقة من الفرق الضالة، مؤسسة واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد سموا كذلك لاعتزالهم مجلس الحسن البصري لما لم يكفر مرتكب الكبيرة، وقيل لاعتزالهم منهج أهل السنة والجماعة ويسمون أيضًا القدرية لنفيهم قضاء الله وقدره في معاصي العباد وإضافة خلقها إلىٰ فاعلها، وهم فرق كثيرة تجمعهم الأصول الخمسة، التوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن عقائدهم نفي جميع الصفات، ونفي رؤية الله في الآخرة، والقول بخلق القرآن. وتقديم العقل علىٰ النقل، وجواز الخروج علىٰ السلطان إذا جار وغير ذلك. انظر مقالات الإسلاميين ١/ ٢٣٥، والتبصرة في الدين للإسفراييني ٦٣ ـ ٦٧، والملل والنحل ص٥٨/ ١.

(٢) الزيدية فرقة من فرق الشيعة تنسب لزيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب (٧٩ ـ ١٢٢هـ) بويع له بالكوفة في خلافة هشام بن عبد الملك فقتل، وكان يفضل عليًا علىٰ أبي بكر وعمر وسائر الصحابة ويرىٰ جواز إمامة المفضول مع وجود الفاضل، ولا يتبرأ من الخلفاء الثلاثة ويرىٰ الخروج علىٰ ائمة الجور، وقد تتلمذ علىٰ يد واصل بن عطاء المعتزلي وأخذ مذهبه في الأصول وتبعه في ذلك أتباعه، وجوز الزيدية أن يكون كل فاطمي عالم زاهد شجاع سخي خرج بالإمامة يكون إمامًا واجب الطاعة، سواء كان من أولاد الحسن أو الحسين، وجوزوا خروج إمامين في قطرين يستجمعان هذه الخصال ويكون كل منهم واجب الطاعة إلا بعض فرقهم فمنعت ذلك، وقد مالت أكثر الزيدية عن القول بجواز إمامة المفضول وطعنت بالصحابة كطعن الرافضة. انظر مقالات الإسلاميين ١/ ١٣٦، والفرق بين الفرق ص٢٢، والملل والنحل ص١٧٩ ـ ١٨٠/ ١.

ومذهبهم هذا ناتج عن قولهم إن الله لا يفعل القبيح بل أفعاله كلها حسنة، لذا نفوا أن يكون الله خالقًا لأفعال العباد، لأن منها الحسن والقبيح فلو كان سبحانه هو خالقها لكان فاعلا للقبيح، وقد استدلوا لمذهبهم ببعض النصوص التي يظنون بأنها توافقهم، مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾[1]، وقوله: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[2]، وقوله: ﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[3] وغيرها وأولوا النصوص التي لا تتفق مع مذهبهم والتي تدل على شمولية خلق الله تعالى لجميع المخلوقات وإضافة فعل عباده إليه، أولوها بتأويلات سخيفة بعيدة كل البعد عن الحق تتناقض مع المذهب الحق الذي عليه أهل السنة والجماعة[4].

٢ ـ موقف الإمام النووي من القدرية

لقد كفر الإمام الغلاة من هذه الفرقة وهم الذين قالوا (لا قدر والأمر آنف) واستشهد بقول ابن عمر رضي الله عنه «فأخبرهم أني بري منهم وأنهم براء مني»[5].

قال الإمام «هذا الذي قاله ابن عمر رضي الله عنهما ظاهر في تكفير القدرية»[6].

ولاشك أن ابن عمر كان يتحدث عن هذه الطائفة، كما أن من منهج الإمام

---

(١) سورة السجدة، الآية: ٧.

(٢) سورة المؤمنون، الاية: ١٤.

(٣) سورة السجدة الاية: ١٧، والأحقاف الآية: ١٤، والواقعة، الآية: ٢٤.

(٤) انظر لمزيد من شرح مذهبهم شرح الأصول الخمسة للقاضي عبد الجبار المعتزلي ص٣٥٧ ـ ٣٦٢، وانظر أيضًا مقالات الإسلاميين للأشعري ١/ ٢٣٨ ـ ٢٤٠، ٢٩٨ ـ ٣٠٠ والفرق بين الفرق ١٨، ومعارج القبول ٢/ ٣٤٨ ـ ٣٥٤ وغيرها.

(٥) أخرجه مسلم بشرح النووي في كتاب الريمان برقم (٨).

(٦) شرح صحيح مسلم للنووي من ١٤/١.

النووي رحمه الله ـ كما مر معنا ـ أنه لا يكفر أحدًا من أهل الأهواء والبدع إلا من جحد ما يعلم من دين الإسلام ضرورة، حكم بردته وكفره[1] وهؤلاء يحجدون علم الله السابق لكل شيء ولكنه كان من منهجه في الرد على هذه الفرقة بيان بطلان قولهم وفساد مذهبهم وجهلهم، وبيان المذهب الحق في كل ما ذهبوا إليه[2] وهو في كل هذا سائر على منهج السلف رحمهم الله.

ومن ذلك قوله ـ رحمه الله ـ (وأما قوله أول من قال في القدر) معناه أول من قال بنفي القدر ثم قال قوله «ويزعمون أن لا قدر وأن الأمر أنف هو بضم الهمزة والنون أي مستأنف لم يسبق به قدر لا علم من الله تعالى «إنما يعلمه بعد وقوعه كما قدمنا حكايته عن مذهبهم الباطل وهذا القول قول غلاتهم وليس قول جميع القدرية، وكذب قائله وضل وافترى عافانا الله وسائر المسلمين»[3].

وقال أيضًا (وقد حكى أبو محمد بن تيمية في كتابه «غريب الحديث» وأبو المعالي الجويني «في الإرشاد في أصول الدين» أن بعض القدرية قالوا لسنا بقدرية بل أنتم القدرية لاعتقادكم إثبات القدر قال ابن تيمية والإمام وهذا تمويه من هؤلاء الجهلة ومباهته وتواقح فإن أهل الحق يفوضون أمورهم إلى الله سبحانه وتعالى ويضيفون القدر والأفعال إلى الله سبحانه وتعالى وهؤلاء الجهلة يضيفون إلى أنفسهم ومدعي الشيء لنفسه ومضيفه إليها أول بأن ينسب إليه عمن يعتقده لغيره وينفيه عن نفسه قال الإمام وقد قال رسول الله ﷺ «القدرية مجوس هذه الأمة» شبههم بهم لتقسيمهم الخير والشر في حكم الإرادة كما قسمت المجوس فصرفت الخير إلى يزدان والشر إلى اهرمن وبإختصاص هذا الحديث بالقدرية...»[4].

---

(١) انظر ص١٣٤/١، ٤٣/٢ من شرح صحيح مسلم.

(٢) انظر شرح صحيح مسلم على سبيل المثال ص١٣٨/١/ ١٣١٤/٦/ ١٢٥/٦ ص١١٩/١٥، ٩٢/١١، ١٠٨/١٦، ٤٢/١٢.

(٣) شرح حديث مسلم للنووي من ١٤٠/١.

(٤) المصدر نفسه ص١٣٨/١.

المطلب الثاني

مذهب الجبرية[1] المحتجين بالقدر

١ ـ حقيقة مذهبهم

وهؤلاء هم الذين غلو في إثبات القدر حتي سلبوا العبد قدرته واختياره وزعموا أنه لا فعل للإنسان أصلاً وأن حركاته بمنزلة حركة الجمادات لا قدرة عليها ولا قصد ولا إختيار. فالعبد عندهم مجبور على فعله لا إختيار له فيه، فهو كالريشة المعلقة في مهب الهواء تقلبها كيف تشاء، وأما إسناد الفعل للعبد فهو على سبيل المجاز على حسب ما يضاف الشيء إلى محله دون ما يضاف إلى محصله[2]، لأن الفعل ـ كما زعموا ـ إنما هو فعل الله أجراه على يد العبد بدون إرادة منه ولا اختيار. وقالوا إن مشيئة الله وإرادته بمعنى واحد وقد شاء ما وقع من المعاصي فهو يحبها ويرضاها، فاحتجوا بإثبات القدر على إبطال الأمر والنهي، ونفوا الحكمة والتعليل في أفعال الله كما نفوا الرحمة والقوى والأسباب، وأولوا النصوص التي تثبت للعبد العمل

---

(١) سمي هؤلاء بذلك نسبة إلى الجبر وهو نفي الفعل عن العبد ونسبته إلى الله، وكان الجهم بن صفوان الهالك سنة (١٢٨هـ) أول القائلين بذلك وكان ينكر الإستطاعات كلها، والجبرية طائفتان الأولى: الخالصة وهم الجهمية الذين يقولون بالإجبار والإضطرار وأن العبد مجبور على فعله، كالريشة في مهب الريح ليس له إرادة ولا قدرة على الفعل، والطائفة الثانية: الجبرية المتوسطة: وهم الذين يثبتون للعبد قدرة غير مؤثرة ويثبتون له ما يسمونه بالكسب في الفعل وهم الأشاعرة ومن نحا نحوهم، انظر لمزيد من التفصيل مقالات الإسلاميين ١/ ٣٣٨، والتعريفات للجرجاني ص٧٧ ودرء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ١/ ٦٣، والملل والنحل للشهرستاني ص٩٧ ـ ٧٩/ ١، ومعارج القبول ٢/ ٣٥٤ ـ ٣٦٤ وغيرها.

(٢) مجموع فتاوي شيخ الإسلام ٥/ ٤٤٤ ـ ٤٤٩، وشرح الطحاوية ص٧٩٧/ ٢، ولوامع الأنوار البهية للسفاريني ١/ ٣٠٦.

تأويلات بعيدة ما أنزل الله بها من سلطان يتجلىٰ فيها التعسف الظاهر(١).

وقد تعمقت هذه الضلالة عند طوائف من العباد والزهاد وأهل التصوف، وكان ولا يزال هذا القول علىٰ ألسنة كثير من جهال المسلمين وأهل الزيغ والزندقة. ويمثل هذا المذهب المنحرف الجهمية ومن تبعهم من الأشاعرة وأمثالهم(٢).

٢ ـ الرد على هذا المذهب

الحق أن هذا المذهب ظاهر الفساد والبطلان، وهو مخالف للكتاب والسنة وإجماع الأمة من السلف والخلف، بل ومخالف للعقول والفطر السليمة والمحسوس(٣)، وهو من أشنع البدع وأنكرها وأصحابه شر ممن أثبت الأمر والنهي ولم يثبت القدر ـ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ـ وهذا متفق عليه بين المسلمين وغيرهم من أهل الملل، بل بين جميع الخلق، فإن من احتج بالقدر وشهود الربوبية العامة لجميع المخلوقات ولم يفرق بين المأمور والمحظور والمؤمنين والكفار وأهل الطاعة وأهل المعصية، لم يؤمن بأحد من الرسل ولا بشيء من الكتب، وكان عنده آدم وإبليس سواء ونوح وقومه سواء وموسىٰ وفرعون والسابقون الأولون والكفار سواء)(٤).

---

(١) انظر مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ٨/ ٩٨، ٣٤٠ ـ ٣٤١، ٤٦٦، ٤٦٨، ٤٧٥، وشرح الطحاوية ص ٧٩٧ ـ ٧٩٨/ ٢.

(٢) خالف الأشاعرة الجهمية في هذه المسألة خلافًا لفظيًا فقالوا: العبد لافعل له البتة بل الله هو الفاعل القادر، وللعبد كسب وفعل ولا تأثير لقدرته في وجود فعله، وقالوا: إن الله أجرىٰ العادة بخلق مقدورها مقارنًا لها وأن الله يفعل عند الأسباب لا بها. انظر: المواقف في علم الكلام للأيجي ص٣١٣، وشرح جوهرة التوحيد للبيجوري ص٢٢٤ ـ ٢٢٥، وكذلك مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ٨/ ٥٩ ظظ ٦٧٢، و٩٩ و٢٥٦، ٤٦٦ ـ ٤٦٨.

(٣) انظر للرد عليهم كتاب السنة للخلال ٣/ ٥٤٩ ـ ٥٥٥، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة ٤/ ٧٠٠، والحجة في بيان المحجة ٢/ ٧٥ ـ ٧٦، وشفاء العليل ١٣ ـ ١٤.

(٤) مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ٨/ ١٠٠ ـ ١٠٦ و٢٥٦ ـ ٢٥٧ وغيرها.

ويقول أيضًا: (من يقر بتقدم علم الله وكتابه ولكنه يزعم أن ذلك يُغني عن الأمر والنهي والعمل وأنه لا يحتاج إلىٰ العمل، بل من قضي بالسعادة دخل الجنة بلا عمل أصلاً ومن قضي بالشقاوة شقي بلا عمل، فهؤلاء أكفر من المكذبين بالقدر وأضل سبيلاً، ومضمون قولهم تعطيل الأمر والنهي والحلال والحرام والوعد والوعيد، وإذا أصروا علىٰ هذا الاعتقاد كانوا أكفر من اليهود والنصارىٰ، فإن اليهود والنصارىٰ يؤمنون بالأمر والنهي والوعد والوعيد والثواب والعقاب لكن حرفوا وبدلوا وآمنوا ببعض وكفروا ببعض)[1].

٣ ـ موقف الإمام النووي من الجبرية

وافق الإمام النووي ـ رحمه الله ـ أهل السنة في رفضهم لهذا المذهب المنحرف فقال نقلاً عن الإمام الخطابي «وقد يحسب كثير من الناس أن معنىٰ القضاء القدر إجبار الله سبحانه وتعالىٰ العبد وقهره علىٰ ما قدره وقضاه وليس الأمر كما يتوهمونه، وإنما معناه الإخبار عن تقدم علم الله سبحانه وتعالىٰ بما يكون من اكتساب العبد وصدورهما عن تقدير منه وخلق لها خيرها وشرها. قال «والقدر إسم لما صدر مقدراً عن فعل القادر، يقال: قدرت الشيء وقدرته بالتخفيف والتثقيل بمعنىٰ واحد، والقضاء في هذا معناه الخلق كقوله تعالىٰ: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾[2] أي خلقهن...»[3].

* * *

---

(١) المصدر السابق ٨/ ١٠٠ـ١٠٦، ٢٥٦ـ٢٥٧ وغيرها.

(٢) سورة فصلت، الآية: ١٢.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٣٩/١.

المطلب الثالث

منهج أهل السنة والجماعة في القضاء والقدر

بعدما بينت مذاهب المنحرفين في القدر أحب أن أذكر مذهب أهل الحق في ذلك وهو ما كان عليه السلف الصالح من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين ومن تبعهم بإحسان فأقول:

١ ـ ذكر منهجهم: إن منهج أهل السنة والجماعة في القضاء والقدر هو ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وهو الإيمان بأن الله تعالىٰ خالق كل شيء ومليكه، وأنه ما شاء تعالىٰ كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون من الآجال والأرزاق والأعمال وما هم صائرون إليه من سعادة أو شقاوة قبل أن يخلقهم، وأنه تعالىٰ يهدي من يشاء ويضل من يشاء لا يُسئل عما يفعل وهو يسئلون وأنه قد جعل لعباده مشيئة وقدرة ولكنهم لا يشاؤن إلا أن يشاء سبحانه، فهو تعالىٰ الذي أوجد وأفنىٰ وأفقر وأغنىٰ، وأضل وهدىٰ، وأمات وأحيا، وهو علىٰ كل شيء قدير.

وقد دون مذهب السلف هذا كثير من أئمتهم وعلمائهم[1]، ويقول الإمام ابن القيم الجوزية ـ رحمه الله ـ ملخصاً هذا المذهب.

---

(١) انظر أقوالهم في بيان هذا المذهب الشريعة للآجري ص١٥٠ ـ ١٥٢، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة ٣/ ٥٣٤ ـ ٥٧٤ و٤/ ٥٧٧ ـ ٦٢٣، وعقيدة السلف أصحاب الحديث للصابوني ٧٥ ـ ٨٢ ولمعة الإعتقاد للمقدسي ص٢٤ ـ ٢٥ ومجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ٨/ ٤٤٩، ٤٥٢، ٤٥٩، ومنهاج السنة له ٣/ ١٢ ـ ١٣ ومختصر الصواعق المرسلة لابن القيم ص٨٥٨، وشرح الطحاوية ص ٣٢١ ـ ٣٢٢/ ١، ولوامع الأنوار البهية للسفاريني ١/ ٢٧٦ ـ ٢٤٨ وغيرها.

(ويؤمنون بأن من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأنه هو الذي يجعل المسلم مسلمًا والكافر كافراً والمصلي مصليًا، والمتحرك متحركًا وهو المقيم والعبد القائم، وهو الهادي والعبد المهتدي وأنه هو المُطعم والعبد الطائع وهو المحيي المميت والعبد الذي يحيىٰ ويموت)(١).

وينبغي أن يعلم أن الهداية والإضلال من الله تعالىٰ نوعان:

١ ـ هدىٰ دلالة: وهو الذي يقدر عليه الرسل وأتباعهم كما قال تعالىٰ: ﴿ مُنذِرٌ ولِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾(٢)، وقال تعالىٰ مخاطبًا رسول الله ﷺ: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾(٣).

٢ ـ هدىٰ هو عبارة عن خلق الإيمان في القلب والتأييد والتوفيق. وهذا الذي لا يقدر عليه إلا الله تعالىٰ، قال سبحانه وتعالىٰ ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾(٤) ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ﴾(٥) في وصفه للمؤمنين.

والهدىٰ بالمعنىٰ الأول حجة الله علىٰ خلقه لا يعذب أحدًا حتىٰ يقيمها عليهم، كما قال سبحانه ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾(٦) وهو عام لمن أحبه تعالىٰ وأبغضه، أما الهدىٰ بالمعنىٰ الثاني فهو لمن أحبه تعالىٰ تكميلاً للحجة وإظهاراً للإستغناء عن خلقه وهذا من مشيئته عز وجل(٧).

---

(١) شفاء العليل في القضاء والقدر والتعليل لابن القيم ص ٥٢.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٧.

(٣) سورة الشورىٰ، الآية: ٥٢.

(٤) سورة القصص، الآية: ٥٦.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٥.

(٦) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

(٧) انظر فتح القدير للشوكاني ٢/٤٣٨.

وقد يرد الهدىٰ ويراد به الهدىٰ العام، كما في قوله تعالىٰ: ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾(١) ومعناه أنه عز وجل قدر أجناس الأشياء، وأنواعها وصفاتها وأفعالها وأقوالها وآجالها. فهدىٰ كل واحد منها إلىٰ ما يصدر عنه وينبغي له وييسره لما خلق له وألهمه إلىٰ أمور دينه ودنياه(٢).

وقد يأتي الهدىٰ بمعنىٰ الهداية إلىٰ الجنة أو النار يوم القيامة كما قال تعالىٰ: ﴿والذين قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝٤ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾(٣)(٤).

معنى القدر

(فإنهم ـ أي السلف ـ يثبتون قدرة الله علىٰ جميع المخلوقات من الأعيان والأفعال ومشيئته العامة، وينزهونه عن أن يكون في ملكه ما لا يقدر عليه ولا هو واقع تحت مشيئته. ويثبتون القدر السابق وأن العباد يعملون ما قدره الله وقضاه وفرغ منه وأنهم لا يشاؤن إلا أن يشاء الله ولا يفعلون إلا من بعد مشيئته. وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولا تخصيص عندهم في هاتين القضيتين بوجه من الوجوه، والقدر عندهم قدرة الله وعلمه ومشيئته وخلقه فلا تتحرك ذرة فما فوقها إلا بمشيئته وعلمه وقدرته)(٥).

وعن مذهبهم في أفعال الله وأفعال العباد يقول:

---

(١) سورة الأعلىٰ، الآية: ٣.

(٢) انظر تفسير البغوي ص٤٧٥/ ١، وفتح القدير ٤٢٣/ ٥، وتفسير السعدي ٦١١/ ٧، وشفاء العليل ص٢٦٨.

(٣) سورة محمد، الآية: ٤، ٥.

(٤) انظر شفاء العليل لابن القيم ص ٦٥. فقد فصل فيه مراتب الهدىٰ والضلال في القرآن الكريم وتكلم عن كل منها بالتفصيل بما لا مجال لذكره هنا فلتراجع من ص ١٥ ـ ٨٤.

(٥) شفاء العليل في القضاء والقدر والتعليل لابن القيم ص ٥٢.

(ويثبتون مع ذلك قدرة العبد وإرادته وإختياره وفعله حقيقة لا مجازًا، وهم متفقون على أن الفعل غير المفعول، ، فحركاتهم وسكناتهم واعتقادهم أفعال لهم حقيقة، وهي مفعولة لله مخلوقة له حقيقة، والذي قام بالرب عز وجل علمه وقدرته ومشيئته وتكوينه، والذي قام بهم هو فعلهم وكسبهم وحركاتهم وسكناتهم، ، فهم المسلمون المصلون القائمون القاعدون حقيقة، وهو سبحان المقدر لهم على ذلك القادر عليه، الذي شاء منهم وخلقه لهم ومشيئتهم وفعلهم بعد مشيئته، فما يشاؤن إلا أن يشاء وما يفعلون إلا أن يشأ)[1].

هذا بإختصار مذهب السلف الإيمان بالقضاء والقدر، وهو كما ترى وسط بين الإفراط والتفريط، فهو وسط بين غلو القدرية وتفريط الجبرية، وهو المذهب الحق الواجب إتباعه لأنه مستمد من نور الكتاب والسنة.

٢ ـ كراهية السلف الخوض والجدال في القدر

لقد كان السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان يكرهون الخوض والجدال في القدر، ويذمون من خاض فيه محذرين من ذلك بشدة مقتدين بذلك برسول الله ﷺ الذي ثبت عنه كراهيته وبغضه لهذا الأمر، لما يترتب عليه من نتائج سيئة، لأن البحث عن سر القدر والنظر في دقائقه من الأمور التي استأثر الله بعلمها فلم يُطلع عليها أحد من خلقه، لا ملكًا مقربًا ولا نبيًا مرسلاً.

فعن عمرو[2] بن شعيب عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه وهم يختصمون في القدر فكأنما يُفقأ في وجهه حب الرمان[3] من الغضب فقال:

---

(١) المرجع السابق ص ٥٢.

(٢) هو عمرو بن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو بن العاص يكنى أبا إبراهيم السهمي، اضطرب قول أئمة الجرح والتعديل فيه وغالبهم على توثيقه وإنما أنكروا عليه بعض رواياته عن أبيه عن جده قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في التقريب أخرج له الأربعة توفي سنة (١١٨هـ) انظر ميزان الاعتدال للذهبي ٤/ ١٨٣، برقم ٦٣٨٣ والتقريب لابن حجر ص٤٢٣ برقم ٥٠٥٠.

(٣) أي فغضب فاحمر وجهه من أجل الغضب إحمرارًا يشبه فقأ حب الرمان في وجهه انظر النهاية في غريب الحديث لابن الأثير ٣/ ٤٦١.

أفبهذا أمرتم؟ أو ألهذا خلقتم؟ تضربون القرآن بعضه ببعض، بهذا هلكت الأمم قبلكم» قال عبد الله بن عمرو ما غبطت[1] نفسي بمجلس تخلفت فيه عن رسول الله ما غبضت نفس بذلك المجلس وتخلفي عنه[2].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (باب شرك فتح على أهل الصلاة التكذيب بالقدر فلا تجادلهم فيجري شركهم على أيديكم)[3]. وقال أيضًا (ما غلا رجل في القدر إلا خرج من الإسلام)[4].

وجاء رجل إلى علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فقال أخبرني عن القدر قال: (طريق مظلم فلا تسلكه، قال: أخبرني عن القدر، قال: بحر عميق فلا تلجه، قال أخبرني عن القدر، ، قال: سر الله فلا تكلفه، أو فلا تكشفه)[5].

وعن وهب بن منبه[6] قال: (نظرت في القدر فتحيرت، ثم نظرت فيه فتحيرت ووجدت أعلم الناس بالقدر أكفهم عنه وأجهل الناس بالقدر أنطقهم به)[7].

---

(١) أي ما استحسنت فعل نفسي، يقال غبضت الرجل أغبطه غبطًا إذا اشتهيت أن يكون لك مثل ماله (النهاية في غريب الحديث ٣/ ٣٣٩).

(٢) أخرجه ابن ماجه في المقدمة باب في القدر ١/ ٣٣، برقم ٨٥ وأحمد في المسند ٢/ ١٩٥، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٤/ ٦٢٧، برقم (١١١٩)، والحديث حسن كما قال العلامة الألباني في مشكاة المصابيح ١/ ٣٦ برقم ٩٩.

(٣) رواه الآجري في الشريعة ص٢١٥ والالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٤/ ٦٣٠ برقم ١١٢٦.

(٤) رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٤/ ٦٣٢ برقم ١١٣١.

(٥) رواه الآجري في الشريعة ص٢٠٢، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ٤/ ٦٢٩ برقم ١١٢٩.

(٦) هو أبو عبد الله، وهب بن منبه الأنباوي الصنعاني الذماري، ثقة من التابعين، كان كثير الأخبار عن الكتب القديمة لزم العبادة والزهد وطلب العلم إلى أن توفي سنة (١١٣هـ) وقيل (١١٤هـ). انظر ترجمته في مشاهير علماء الأمصار ص١٢٣، وحلية الأولياء ٤/ ٢٣.

(٧) شرح العقيدة الطحاوية ص١٣٧/ ١.

وعن أبي إدريس الخولاني[1] أنه رأىٰ رجلاً يتكلم في القدر فقام إليه فوطئ بطنه ثم قال: (إن فلانًا لا يؤمن بالقدر فلا تجالسوه فخرج الرجل)[2].

وقد سار علىٰ هذا المنهج علماء أهل السنة ـ رحمهم الله ـ فهذا الإمام الآجري[3] يقول (إنه لا يحسن بالمسلمين التنقيح والبحث عن القدر لأن القدر سر من سر الله عز وجل بل الإيمان بما جرت به المقادير من خير أو شر واجب علىٰ العباد أن يؤمنوا به، ثم لا يأمن العبد أن يبحث عن القدر فيكذب بمقادير الله الجارية فيضل عن طريق الحق)[4] ويقول الإمام الطحاوي[5] ـ وقوله من أحسن ما قيل في هذا الشأن ـ (وأصل القدر سر الله تعالىٰ في خلقه لم يطلع علىٰ ذلك ملك مقرب ولا نبي مرسل والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان وسُلم الحرمان ودرجة الطغيان، ، فالحذر من ذلك نظرًا أو فكرًا أو وسوسة فإن الله تعالىٰ طوىٰ علم القدر عن أنامه ونهاهم عن مرامه كما قال تعالىٰ: ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾[6] فمن سأل لم فعل؟ فقد رد حكم الكتاب، ومن رد

---

(١) هو عائذ بن عبد الله من كبار التابعين بالشام، كان من عباد أهل الشام وقرائهم، ولد عام حنين في حياة النبي ﷺ ولا صحبة له، سكن الشام وولاه عبد الملك بن مروان القضاء بدمشق وتوفي بها سنة (٨٠هـ) انظر ترجمته في مشاهير علماء الأمصار ص١١٢، وتهذيب التهذيب ٥/ ٨٥.

(٢) رواه ابن بطة في الإبانة ٢/ ٤٥٠.

(٣) هو أبو بكر محمد بن الحسين الآجري نسبة إلىٰ آجر من قرىٰ بغداد، كان فقيهًا شافعيًا محدثًا إمامًا عاملا صاحب سنة واتباع صاحب التصانيف الكثيرة التي من أشهرها الشريعة. توفي سنة (٣٦٠هـ) انظر ترجمته في تذكرة الحفاظ ٣/ ٩٣٦، وطبقات الشافعية للسبكي ٣/ ١٤٩.

(٤) الشريعة للآجري ص١٤٩.

(٥) هو أبو جعفر أحمد بن محمد الأزدي الطحاوي نسبة إلىٰ قرية (طحا) بصعيد مصر، كان إمامًا حافظًا محدثًا فقيهًا، ثقة ثبتًا من كبار جهابذة أهل السنة، صاحب المصنفات الكثيرة التي من أشهرها العقيدة الطحاوية ومعاني الآثار وبيان السنة، توفي سنة (٢٢١هـ) انظر ترجمته في البداية والنهاية لابن كثير ١١/ ١٧٤، وسير أعلام النبلاء ١٥/ ٢٧.

(٦) سورة الأنبياء، الآية: ٢٣.

حكم الكتاب كان من الكافرين)[1].

٣ ـ رأي الإمام النووي

أحب أن أشير ههنا إلىٰ أن الإمام النووي ـ رحمه الله ـ قد سلك هذا المسلك ودعا إليه مقتديًا بذلك بمنهج السلف حيث قال في معرض شرحه وكلامه عند شرحه الأحاديث الواردة في باب خلق الأدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته قال (وفي هذه الأحاديث كلها دلالات ظاهرة لمذهب أهل السنة في إثبات القدر وأن جميع الواقعات بقضاء الله وقدره خيرها وشرها نفعها وضرها، وقد سبق أول كتاب الإيمان قطعه صالحة من هذا قال الله تعالىٰ: ﴿ **لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ** يسألون ﴾[2] فهو ملك لله تعالىٰ يفعل ما يشاء ولا اعتراض على المالك في ملكه ولأن الله تعالىٰ لا علة لأفعاله قال الإمام أبو المظفر السمعاني[3] «سبيل معرفة هذا الباب التوقيف فيه الكتاب والسنة دون محض القياس ومجرد العقول فمن عدل عن التوقيف فيه ضل وتاه في بحار الحيرة ولم يبلغ شفاء النفس ولا يصل إلىٰ ما يطمئن به القلب لأن القدر سر من أسرار الله تعالىٰ التي ضربت من دونها الأستار، اختص الله به وحجبه عن عقول الخلق ومعارفهم لما علمه من الحكمة وواجبنا أن نقف حيث حد لنا ولا نتجاوزه وقد طوىٰ الله تعالىٰ علم القدر علىٰ العالم فلم يعلمه نبي مرسل ولا ملك مقرب، وقيل: إن سر القدر ينكشف لهم إذا دخلوا الجنة ولا ينكشف قبل دخولها والله أعلم»[4].

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٢٠/ ٢.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: ٢٣.

(٣) هو الإمام العلامة مفتي خراسان شيخ الشافعية أبو المظفر منصور بن محمد بن عبد الجبار بن أحمد التميمي، السمعاني المروزي برع في مذهب أبي حنيفة علىٰ والده العلامة أبي منصور السمعاني روىٰ عنه أولاده وعمر بن محمد السرخسي، وخلق كثير، صنف كتاب الاصطلام، انتصر لأهل السنة وكان شوكًا في أعين المخالفين، توفي سنة ٤٨٩هـ، انظر: سير أعلام النبلاء (١٩/ ١١٤) وما بعدها.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٦٠/ ١٦.

وقال في موضع آخر «في حديث قصة موسىٰ والخضر عليهما السلام حيث أشار إلىٰ جملة من القواعد والأصول والفروع والنفائس المهمة ثم قال (ومنها بيان أصل عظيم من أصول الإسلام وهو وجوب التسليم لكل ما جاء به الشرع وإن كان بعضه لا تظهر حكمته للعقول ولا يفهمه أكثر الناس وقد لا يفهمونه كالقدر . . .)[1] .

* * *

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٢٠/ ١٥ .

المطلب الرابع

منهج الإمام النووي في الإيمان بالقضاء والقدر

لقد نهج الإمام النووي منهج السلف في القضاء والقدر إلا ما ندر من المسائل وهأنذا استعرض أراه وأقواله في هذا الشأن ليستبين منهجه وذلك من خلال النقاط أو المسائل الآتية :

١ـ منهجه في بعض المسائل المتعلقة بأفعال الله

المسألة الأولى: الهدى والضلال

١ - رأي الإمام النووي في ذلك

يعتقد الإمام النووي كأهل السنة والجماعة أن الهدىٰ والضلال بيد الله وحده، فهو سبحانه الذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء، فمن يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

يقول رحمه الله مقرراً ذلك: فيما نقله عن الإمام المازري والذي ذكر فيه قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه (كلكم ضال إلا من هديته). (وفي هذا دليل لمذهب أصحابنا وسائر أهل السنة أن المهتدي هو من هداه الله وبهدىٰ الله اهتدىٰ بإرادة الله تعالىٰ ذلك وأنه سبحانه وتعالىٰ إنما أراد هداية بعض عباده وهم المهتدون ولم يرد هداية الآخرين ولو أرادها لاهتدوا خلافًا للمعتزلة، في قولهم الفاسد أنه سبحانه أراد هداية الجميع جل الله أن يريد مالا يقع أو يقع مالا يريد)[١].

وقال أيضًا نقلا عن القاضي عياض في رده على المعتزلة (وهذا على أصل أهل السنة أن العبد لا قدرة له إلا ما أراده الله تعالىٰ ويسره له وخلقه له خلافًا للمعتزلة والقدرية القائلين بأن للعبد فعلاً من قبل نفسه وقدرة على الهدىٰ والضلال والخير والشر والإيمان والكفر..)[٢].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٠٨/ ١٦ .

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص١١٩/ ١٥ .

وقال أيضًا في قوله ﷺ: «**خير الهدي هدي محمد**»(١).

(وقالت القدرية (جاء الهدي) فهو للبيان بناء على أصلهم الفاسد في إنكار القدر ورد عليهم أصحابنا وغيرهم من أهل الحق مثبتي القدر لله تعالىٰ بقوله تعالىٰ: ﴿ والله يدعو إلىٰ دار السلام ويهدي من يشاء إلىٰ صراط مستقيم ﴾ ففرق بين الدعاء والهداية)(٢).

٢ - موافقته لمذهب أهل السنة والجماعة

وهذا الذي قرره الإمام في معنىٰ الهداية والإضلال ونسبتها إلىٰ الله موافق لما عليه أهل السنة والجماعة(٣).

يقول الإمام ابن قيم الجوزية - رحمه الله - (وقد اتفقت رسل الله من أولهم إلىٰ آخرهم، وكتب الله المنزلة عليهم علىٰ أنه سبحانه يضل من يشاء ويهدي من يشاء وأنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأن الهدىٰ والضلال بيد الله تعالىٰ لا بيد العبد، والعبد هو الضال أو المهتدي فالهداية والإضلال فعله سبحانه وقدره والإهتداء والضلال فعل العبد وكسبه)(٤).

المسألة الثانية: الحكمة في أفعال الله تعالى

١ - رأي الإمام النووي رحمه الله

ذهب الإمام النووي رحمه الله إلىٰ إثبات الحكمة في أفعال الله تعالىٰ وأن الله فيما يقضي به ويحكم ويأمر حكمًا وأسرارًا قد تكون معلومة للعباد، وقد تكون خفية عنهم

---

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي ص١٣٤/ ٦ برقم (٨٦٦).

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٣٤/ ٦.

(٣) انظر تقرير ذلك في كتاب الشريعة ص١٠١ - ١٠٢، ومجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ص٧٨، ٨/٧٩، وشرح الطحاوية ص ١٣٧/ ١، وغيرها.

(٤) شفاء العليل ص١٩٠.

وأن شيئًا من ذلك لا يجب على الله تعالىٰ.

ولقد أشار إلىٰ ذلك فيما نقله عن الإمام الخطابي رحمهما الله فقال (والله تعالىٰ يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد حكمة من الله تعالىٰ، وإظهاراً لما يشاء من غيبه لمن يشاء من ملائكته وسائر خلقه، وإلا فهو غني عن الكتب والاستذكار سبحانه وتعالىٰ)[1].

٢ ـ موقف أهل السنة والجماعة

لقد وافق الإمام أهل السنة والجماعة في إثباته للحكمة في أفعال الله تعالىٰ، فهم يثبتونها ويفسرونها كما بين شيخ الإسلام ابن تيمية ذلك فقال: (وقال الجمهور من أهل السنة وغيرهم: بل هو حكيم في خلقه وأمره، والحكمة ليست مطلق المشيئة، إذا لو كان كذلك لكان كل مريد حكيمًا ومعلوم أن الإرادة تنقسم إلىٰ محمودة ومذمومة، بل الحكمة تتضمن ما في خلقه وأمره من العواقب المحمودة والغايات المحبوبة، والقول بإثبات هذه الحكمة ليس قول المعتزلة ومن وافقهم من الشيعة فقط، بل هو قول جماهير طوائف المسلمين، من أهل التفسير والفقه والحديث، والنصوص والكلام، وغيرهم)[2].

المسألة الثالثة: تعليل أفعال الله تعالى

١ ـ رأي الإمام النووي

لقد ذهب الإمام النووي رحمه الله إلىٰ نفي التعليل في أفعال الله وهو في ذلك ـ غفر الله له ـ قد وافق الأشاعرة الذين مالوا إلىٰ نفي التعليل، وخالفوا المعتزلة الذين يقولون بوجوب التعليل وهذا ظاهر من قوله رحمه الله الذي جاء فيه: (كلها دلالات

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٩٠/ ٢، وانظر المصدر نفسه ص١٦٠/ ١٦.

(٢) منهاج السنة النبوية ص١٤١، مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية ص٩٢ ـ ٩٣/ ٨.

ظاهرة لمذهب أهل السنة في إثبات القدر وأن جميع الواقعات بقضاء الله تعالى وقدره خيرها وشرها نفعها وضرها، ، وقد سبق في أول كتاب الإيمان قطعة صالحة من هذا قال الله تعالى: ﴿لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ فهو ملك لله تعالى يفعل ما يشاء ولا اعتراض على المالك في ملكه ولأن الله تعالى لا علة لأفعاله)[1].

٢ ـ مذهب أهل السنة والجماعة

لقد خالف الإمام النووي رحمه الله مذهب أهل السنة والجماعة في قوله بنفي التعليل، حيث أن مذهبهم وهو الحق إمكان التعليل في أفعال الله تعالى لأن التعليل قد ورد في القرآن الكريم في مواضع لا تكاد تخفى بأدوات متنوعة»[2] كقوله تعالى: ﴿من أجل ذلك كَتَبْنَا علَىٰ بني إِسْرَائيلَ﴾[3] وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لنعلم﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾[5].

ومما سبق يكون الإمام النووي ـ رحمه الله ـ قد قرر مذهب أهل السنة والجماعة في الحكمة وأن الله يفعل الأفعال لحكمة، ، هذه الحكمة لا يعلمها إلا هو، أما مسألة التعليل فهو قد أنكرها وأنكر أن أفعال الله تعالى تعلل بالحكم والغايات الحميدة التي تعود على الخلق بالمصالح والمنافع ويعود إلى الله تعالى حبه ورضاه لتلك الحكم وهذه الحكم مقصودة. ويفعل لأجل حصولها، كما تدل عليه النصوص من القرآن الكريم والسنة»[6]. والله أعلم.

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ١٦٠/١٦.

(٢) الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى للدكتور محمد ربيع هادي، ص١٤١.

(٣) سورة المائدة، ، الآية: ٣٢.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٤٣.

(٥) سورة الأنبياء، الآية: ١٠٧.

(٦) الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى للدكتور محمد ربيع هادي ص٧٦.

المسألة الرابعة: التحسين والتقبيح

١ ـ ما المراد بالتحسين والتقبيح العقليين ؟

المراد بهذه المسألة هو: هل الأفعال حسن وقبح يعرف بالعقل، أو ليس لها حسن وقبح يعرف بالعقل؟[١] بمعنى أن الأفعال هل تشتمل على صفات هي أحكام، وعلى صفات هي علل للأحكام، أو لا تشتمل على شيء من ذلك وإذا تصور القارئ هذا المعنى عرف ما بين المسألة والمسألة السابقة[٢] من العلاقة وذلك لأن من أثبت الحسن والقبح العقليين قال بتعليل أفعاله بالحكم، ومن نفى الحسن والقبح العقليين نفي التعليل[٣] ويؤكد هذا قول الإمام ابن القيم رحمه الله (وكل من تكلم في علل الشرع ومحاسنه وما تضمتها من المصالح ودرء المفاسد فلا يمكنه ذلك إلا بتقرير الحسن والقبح العقليين، إذا لو كان حسنه وقبحه بمجرد الأمر والنهي[٤] لم يتعرض في إثبات ذلك بغير الأمر والنهي فقط)[٥].

٢ ـ رأي الإمام النووي في ذلك:

رأي الإمام النووي في هذه المسألة لا يتفق مع مذهب أهل السنة والجماعة فإن ما

---

(١) التدمرية لشيخ الإسلام ابن تيمية ص٥٨.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ص٨/٤٣٣.

(٣) الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى ص٧٨.

(٤) يعرض ابن القيم بقوله «إذ لو كان حسنه وقبحه بمجرد الأمر والنهي»، لمذهب الأشاعرة في هذه المسألة فإنهم يقولون أن القبيح ما نهي عنه شرعاً نهي تحريم أو تنزيه، والحسن بخلافه، أي مالم ينه عنه شرعاً، كالواجب، والمندوب، والمباح، فإن المباح عند أكثر أصحابنا الأشاعرة من قبيل الحسن، وكفعل الله سبحانه فإنه حسن أبداً بالأتفاق). شرح المواقف للجرجاني ص ٢٩٣ ـ ٨/٢٩٧.

(٥) مفتاح دار السعادة لابن القيم ص٢/٤٢.

ذكر في الشرح عن مسألة التحسين والتقبيح العقليين يدل على أنه ينفي الحسن والقبح العقليين حيث قال في شرح باب الاستخلاف وتركه.

«وأما ما حكي عن الأصم[1] أنه قال: لا يجب وعن غيره أنه يجب بالعقل لا بالشرع فباطلان أما الأصم فهو محجوج بإجماع من قبله ولا حجة له في بقاء الصحابة بلا خليفة في مدة التشاور يوم السقيفة وأيام الشورى بعد وفاة عمر رضي الله عنه لأنهم لم يكونوا تاركين لنصب الخليفة بل كانوا ساعين في النظر في أمر من يعقد له.، وأما القائل الآخر ففساد قوله ظاهر لأن العقل لا يوجب شيئًا ولا يحسنه ولا يقبحه وإنما يقع ذلك بحسب العادة لا بذاته[2].

في شرح حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لن ينجي أحد منكم عمله**» قال رجل ولا إياك يا رسول الله! قال: «**ولا إياي إلا أن يتغمدني الله منه برحمة ولكن سددوا**»[3].

وقال الإمام في شرحه «أعلم أن مذهب أهل السنة أنه لا يثبت بالعقل ثواب ولا عقاب ولا إيجاب ولا تحريم ولا غيرهما من أنواع التكليف ولا تثبت هذه كلها ولا غيرها إلا بالشرع»[4].

وقال الإمام ردًا على المعتزلة في إثباتهم التحسين والتقبيح العقليين (وأما المعتزلة فيثبتون الأحكام بالعقل»[5].

---

(١) هو: شيخ المعتزلة كان دينًا وقورًا صبورًا على الفقر منقبضًا عن الدولة إلا أنه كان فيه ميل عن الإمام علي مات سنة إحدى ومئتين وله تفسير، وكتاب خلق القرآن وكتاب (اللهجة والرسل) وكتاب الحركات والرد على الملحدة والرد على المجوس والأسماء الحسنى وافتراق الأمة وأشياء عدة وكان يكون بالعراق. انظر تهذيب سير أعلام النبلاء ص٣٣٦/ ١.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص١١٣/ ١٢.

(٣) أخرجه مسلم بشرح النووي ص١٣١/ ١٧برقم (٧١).

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٣١/ ١٧، وانظر المصدر نفسه ص(٢٣/ ١١).

(٥) المصدر السابق ص١٣٢/ ١٧.

فهذا الكلام يفهم منه نفي أن يكون التحسين والتقبيح بالعقل، بل بالشرع فقط.

فكل ما سبق ذكره مما يدل على أن الإمام يوافق القائلين بنفي التحسين والتقبيح العقليين، ، وقد قال بذلك الأشاعرة، ومن وافقهم[1]، حيث جعلوا الأفعال كلها سواء في نفس الأمر، وأنها غير منقسمة في ذواتها إلى حسن وقبيح، وليس للفعل عندهم منشأ حسن ولا قبح، ، ولا مصلحة، ولا مفسدة، ولا فرق بين السجود للشيطان، والسجود للرحمن في نفس الأمر ولا بين الصدق والكذب إلا أن الشارع حرم هذا وأوجب هذا فمعنى حسنه كونه مأموراً به، لا أنه منشأ مصلحة، ومعنى قبحه كونه منهياً عنه، لا أنه منشأ مفسدة، ولا فيه صفة أقتضت حسنه أو قبحه»[2].

والأشاعرة قالوا بهذا مبالغة في مخالفة المعتزلة الذين يثبتون التحسين والتقبيح العقليين[3]، ويقولون: إن «للأفعال في أنفسها بقطع النظر عن الشرع جهة محسنة تقتضي مدحاً وثواباً للفاعل، أو جهة مقبحة تقتضي ذماً وعقاباً»[4] وإن الإنسان مكلف قبل ورود الشرع بما دل عليه العقل، كوجوب شكر النعم، ومكلف بمحاسن الأخلاق»[5] وكلا قولي الأشاعرة والمعتزلة على طرفي نقيض.

٣ ـ موقف أهل السنة والجماعة في هذه المسألة

لقد خالف الإمام النووي مذهب أهل السنة والجماعة في هذه المسألة حيث أن الحق فيها كما قال ابن القيم (هو أن الأفعال في نفسها حسنة وقبيحة، كما أنها نافعة وضارة، والفرق بينهما كالفرق بين المطعومات والمشمومات والمرئيات، ولكن لا يترتب عليهما ثواب ولا عقاب إلا بالأمر والنهي وقبل ورود الأمر والنهي لا يكون

(١) انظر منهاج السنة النبوية ص٤٤٨/ ١ ولوامع الأنوار البهية للسفاريني ص(٢٨٤/ ١).

(٢) مدارج السالكين لابن قيم الجوزية ص٢٤٤ ـ ٢٤٥/ ١.

(٣) المسائل المشتركة بين أصول الفقه وأصول الدين د/ محمد العروسي ص٧٦.

(٤) الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى للدكتور محمد ربيع هادي ص٨٥.

(٥) نفس المرجع ص٨٧.

قبيحًا موجبًا للعقاب مع قبحه في نفسه، بل هو في غاية القبح والله لا يعاقب عليه إلا بعد إرسال الرسل، فأما السجود للشيطان والأوقاف، والكذب والزنا، والظلم والفواحش كلها قبيحة في ذاتها، والعقاب عليها مشروط بالشرع»[1].

المسألة الخامسة: هل يجب على الله شيء؟

١ ـ أقوال الناس في هذه المسألة

هذه المسألة فيها قولان:

الأول: وهو قول المعتزلة وهو بناء على قولهم بالتحسين والتقبيح العقليين، قالوا بوجوب أمورًا على الله تعالى، وحرموا عليه أخرى بمحض عقولهم، . قياسًا لله تعالى على العبيد وبئس القياس[2].

فممًا أوجبوه عليه: رعاية الصلاح للعباد، والثواب على الطاعة، والعقاب على المعصيه[3]، وسموا ذلك عدلاً[4].

الثاني: وهو مذهب جماهير المسلمين، الذين خالفوهم في مذهبهم فقالوا: لا يجب على الله شيء بل له أن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد»[5].

٢ ـ رأي الإمام النووي في هذا

لقد وافق الإمام النووي القول الثاني في هذه المسألة وهو قول جماهير المسلمين، وهو أن الله لا يجب عليه شيء يفعل ما يشاء يحكم ما يريد. كما رد مقالة المعتزلة في

---

(١) مدارج السالكين ص٢٤٧/ ١، وانظر أيضًا مفتاح دار السعادة ص١٤ ـ ٦٢/ ٢ لابن القيم.

(٢) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ص٩١/ ٢٨، ولوامع الأنوار البهية ص٣٣٢ ـ٣٣٣/ ١، والقضاء والقدر للدكتور عبد الرحمن المحود ص١٧٧ ـ ١٧٩.

(٣) الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالى ص١١٢.

(٤) الملل والنحل للشهرستاني ص٤٠/ ١، وأيضًا مجموع الفتاوى ص٩١/ ٨.

(٥) القضاء والقدر للدكتور عبد الرحمن المحمود ص١٧٦.

الوجوب على الله في مواضع من الشرح ومن ذلك قوله رحمه الله في باب «لن يدخل الجنة أحد بعمله بل برحمة الله تعالى».

«ومذهب أهل السنة أيضًا أن الله تعالى لا يجب عليه شيء تعالى الله بل العالم ملكه والدنيا والآخرة في سلطانه يفعل فيهما ما يشاء فلو عذب المطيعين والصالحين أجمعين وأدخلهم النار كان عدلاً منه وإذا أكرمهم ونعمهم وأدخلهم الجنة فهو الأفضل منه ولو نعم الكافرين وأدخلهم الجنة كان له ذلك ولكنه أخبر وخبره صدق أنه لا يفعل هذا بل يغفر للمؤمنين ويدخلهم الجنة برحمة ويعذب المنافقين ويخلدهم في النار عدلاً منه. وأما المعتزلة فيثبتون الأحكام بالعقل ويوجبون ثواب الأعمال ويوجبون الأصلح ويمنعون خلاف هذا في خبط طويل لهم تعالى الله عن اختراعاتهم الباطلة المنابذة لنصوص الشرع»[1].

ونص الإمام في شرح كثير من الأحاديث على أن الله تعالى لا يجب عليه شيء في الأصل.. إلا ما أوجبه الله على نفسه ووعده الصادق، فإن وعده متحقق الوقوع كالواجبات، وعلى هذا حمل النصوص التي يشعر ظاهرها بوجوب شيء على الله.. وإلا فليس لأحد على الله تعالى حق في نعمه بل الثواب فضله، والعقاب عدله. لا يسأل عما يفعل[2].

هذا مجموع ما نص عليه الإمام في كتابة «شرح صحيح مسلم» ومنه يتضح موقفه في مسألة «هل يجب على الله شيء».

٣ ـ القول الراجح في هذه المسألة:

ما اختاره الإمام النووي هو القول الراجح وهو مذهب أهل السنة والجماعة كما

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٣١ ـ ١٧/١٣٢.

(٢) انظر شرح صحيح مسلم للنوي ص١٣١ ـ ١٧/١٣٢.

نص شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه منهاج السنة النبوية وكما قال الإمام ابن القيم في نونيته :

«ما للعباد عليه حق واجب هو أوجب الأجر العظيم الشان

كلاً ولا عمل لديه ضائع إن كان بالأطلاق والإحسان

إن عذبوا فبعد له أو نعموا بفضله والحمد للمنان»[١]

وقال شارحًا «وفي هذه الأبيات الثلاثة بيان لمذهب أهل السنة في أنه ليس للعباد حق واجب على الله ، وأنه مهما يكن من حق فهو الذي أحقه وأوجبه ، ولذلك لا يضيع عنده عمل قام على الإخلاص والمتابعة ، فإنهما الشرطان الأساسيان لقبول الأعمال فإذا توفر في عمل ما كان مقبولاً بمقتضى وعده سبحانه إيجابه واستحق صاحبه الأجر المقدر له ، ، فهو إن عذب العباد فبعد له فإنه لا يجزي على السيئة إلا سيئة مثلها ، فلا يظلم أحداً مثقال ذرة ، وإن أنعم وأثاب فبفضله ، فله الحمد أولاً وآخراً»[٢] .

* * *

(١) القصيدة النونية المسماة الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية للإمام ابن القيم مع شرحها للدكتور محمد خليل هراس ص٦٦/ ٢ .

(٢) شرح القصيدة النونية للهراس ، ص٩٩/ ٢ .

المسألة السادسة

مسألة تكليف ما لا يطاق

١ ـ اختلاف الناس في هذه المسألة

هذه المسألة متفرعة عن المسألة المعروفة بمسألة الاستطاعة[1] لأن الطاقة هي الاستطاعة[2].

وتكليف ما لا يطاق من المسائل التي وقع فيها الخلاف بين المتكلمين أنفسهم وأقوالهم في ذلك متباينة وهي كالآتي:

١ ـ جواز تكليف مالا يطاق مطلقًا، ومنه تكليف الأعمىٰ البصر، والزمن أن يسير إلىٰ مكة. وهذا قول جهم بن صفوان[3].

٢ ـ عدم جواز تكليف مالا يطاق، وقد منعوه لقبحه عقلاً، وهذا مبني علىٰ مذهبهم في أن القدرة تكون قبل الفعل فقط، حتىٰ يتحقق التكليف، ومن ثم يترتب عليه الثواب والعقاب، ولذلك منعوا أن تكون القدرة مقارنة لمقدورها، لأن معنىٰ

---

(١) قال الجرجاني: الاستطاعة هي عرض يخلقه الله تعالىٰ في الحيوان، يفعل أو يُفعل به الأفعال الاختيارية. والاستطاعة والقدرة والقوة والوسع والطاقة متقاربة في المعنىٰ في اللغة وأما في عرف المتكلمين فهي عبارة عن صفة بها يتمكن الحيوان من الفعل والترك.

التعريفات للجرجاني ص١٩، وقد اختلف المتكلمون في الاستطاعة هل يجب مقارنتها للمقدور ويمتنع تقدمها؟ أم يجب تقدمها علىٰ المقدور وتمتنع مقارنتها؟ أم تتصف بالمتقدم والمقارنة علىٰ ثلاث أقوال. انظر تفاصيلها في درء تعارض العقل والنقل ص٦٠ ـ ٦٢/ ١، والقضاء والقدر للدكتور عبد الرحمن المحمود ص١٨٠ ـ ١١٨٤.

(٢) مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية ص١٣٠/ ١٨.

(٣) مجموع الفتاوىٰ (٨/ ٢٩٧).

ذلك أن يكون تكليف الكافر بالإيمان تكليفًا بمالا يطاق؛ إذ لو أطاقه لوقع منه، فلما لم يقع منه دل على أنه غير قادر عليه، وتكليف مالا يطاق قبيح، والله لا يفعل القبيح، ، وهذا قول المعتزلة ومن وافقهم(١).

٣ ـ أن تكليف مالا يطاق جائز، وهذا مذهب الأشاعرة، وبنوا ذلك على ما في مذهبهم من أنه لا يجب على الله شيء ويقبح منه شيء. لكن الأشاعرة يقولون، إن مالا يطاق أقسام:

أ ـ أن يمتنع الفعل لعلم الله بعدم وقوعه، ، كتكليف الكافر الإيمان في حالة كفره، وهذا جائز عند جميع الأشاعرة، وهذا النوع هو مالا يستطيعه المكلف لاشتغاله بضده فقط وهو الذي منعه المعتزلة(٢).

ب ـ أن يمتنع الفعل لنفسه، ، بكونه محالاً كالجمع بين الضدين. وهذا اختلف فيه الأشاعرة، منهم من أجازه كالرازي ومنهم من منعه(٣).

جـ ـ ألا تتعلق به القدرة الحادثة عادة، كحمل الجبل، والطيران، فهذا يجوزه بعض الأشاعرة وإن لم يقع من خلال الإستقراء، وبعض المجوزين يحتج لذلك بتكليف أبي لهب الإيمان مع ورود الخبر أنه لا يؤمن(٤).

٤ ـ مذهب السلف، ، التفصيل، وذلك أن يقال: تكليف مالا يطاق على وجهين:

أحدهما: مالا يقدر على فعله لاستحالته، وهو نوعان:

---

(١) انظر: شرح الأصول الخمسة ص: ٣٩٦، والمختصر في أصول الدين لعبد الجبار الهمذاني ص٢١٨، ونظرية التكليف: عبد الكريم عثمان ص٣٠١.

(٢) شرح المواقف ص: ٣٣١ـ٣٣٢.

(٣) انظر: الإرشاد ص٢٢٦، وما بعدها، ومعالم أصول الدين للرازي ص: ٨٥ـ٨٦، ط. مكتبة الكليات الأزهرية، وشرح المواقف ص: ٣٣٢.

(٤) انظر مجموع الفتاوى ٨/ ٢٩٥، وشرح المواقف ص: ٣٣٣.

أ ـ ما هو ممتنع عادة كالمشي على الوجه والطيران، وكالمقعد الذي لا يقدر على القيام، والأخرس الذي لا يقدر على الكلام.

ب ـ وما هو ممتنع في نفسه كالجمع بين الضدين، وجعل المحدث قديمًا، ، والقديم محدثًا. ونحو ذلك.

فهذان النوعان قد اتفق حملة الشريعة على أن مثل هذا ليس بواقع، وأنه لا يجوز تكليفه[١].

والثاني: مالا يقدر عليه لا لإستحالته، ولا للعجز عنه، لكنه لتركه والاشتغال بضده. . مثل تكليف الكافر الإيمان في حال كفره، فهذا جائز خلافًا للمعتزلة، لأنه من التكليف الذي اتفق المسلمون على وقوعه في الشريعة، ولكن إطلاق تكليف مالا يطاق على هذا مما منعه جمهور أهل العلم، وإن كان بعض المتسبين إلى السنة قد أطلقه في ردهم على القدرية[٢].

٢ ـ رأي الإمام النووي

إن الإمام النووي لم يصرح برأيه في هذه المسألة، ولا تكاد تتعرف على مذهبه في هذه المسألة فلقد نقل قولاً للإمام المازري جاء فيه (وعندنا أن تكليف مالا يطاق جائز عقلاً واختلف هل وقع التعبد به الشريعة أم لا والله أعلم)[٣].

وقال في موضع أخر (عند شرح قول ابن عمر رضي الله عنه: كنا نبايع رسول الله ﷺ على الطاعة يقول لنا «فيما استطعت»[٤].

---

(١) مجموع الفتاوى ٨/ ٣٠١.

(٢) انظر: المعتمد في أصول الدين للقاضي أبي يعلى ص: ١٤٦ ـ ١٤٧، ومجموع الفتاوى ٨/ ٢٩٨ ـ ٣٠٢، ودرء التعارض ١/ ٦٠.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١٢٦/ ٢.

(٤) أخرجه مسلم بشرح النووي، ص ١١/ ١٣ برقم (١٨٦٧).

قال الإمام (فيما استطعت أي قل فيما استطعت وهذا من كمال شفقته ﷺ ورأفته بأمته يلقنهم أن يقول أحدهم فيما استطعت لئلا يدخل في عموم بيعته مالا يطيقه، وفيه أنه إذا رأى الإنسان من يلتزم مالا يطيقه ينبغي أن يقول له: لا تلتزم مالا تطيق فيترك بعضه وهو من نحو قوله ﷺ «**عليكم من الأعمال ما تطيقون**»[1].

وقال عند قوله ﷺ «**فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم**»[2].

هذا من قواعد الإسلام المهمة ومن جوامع الكلم التي أعطيها ﷺ ويدخل فيه مالا يحصى من الأحكام.

والمقصود التنبيه على أصل ذلك وهذا الحديث موافق لقول الله تعالى ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾[3]، وأما قوله تعالى: ﴿**اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ**﴾[4] ففيها مذهبان:

أحدهما: أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾.

والثاني: وهو الصحيح أو الصواب وبه جزم المحقق أنها ليست منسوخة بل قوله تعالى: ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾ مفسرة لها ومبينة للمراد بها قالوا: وحق تقاته هو امتثال أمره واجتناب نهيه ولم يأمر سبحانه وتعالى إلا بالمستطاع قال الله تعالى: ﴿**لا يكلف الله نفسًا إلا وسعها**﴾[5]، وقال: ﴿**وما جعل عليكم في الدين من حرج**﴾[6])[7].

قلت: أن إن إطلاق القول بجواز تكليف مالا يطاق ممنوع بجمهور أهل العلم، ، وذلك أن مالا يطاق ـ كما ذكرت ـ سابقًا عند بيان مذهب السلف نوعان[8].

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي، ص ١١/ ١٣.

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي ص ٨٥/ ٩ برقم (١٣٣٧).

(٣) سورة التغابن، الآية: ١٦.

(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٠٢.

(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٨٦.

(٦) سورة البقرة، الآية: [٢٨٦].

(٧) شرح صحيح مسلم للنووي ص٨٦/ ٩.

(٨) راجع ص٩٤٨ـ٩٤٩ من الرسالة.

كما أن القول بالإطلاق هو قول الجهم بن صفوان.

والإمام النووي في هذه المسألة قد وافق الإمام المازري في جواز تكليف مالا يطاق ولم يفصل هو ولا المازري، والتفصيل في هذه المسألة هو مذهب السلف وهو الحق والله أعلم.

المسألة السابعة: إضافة الشر إلى الله تعالى

١ ـ رأي الإمام النووي

يرىٰ الإمام النووي أن كل ما يحدث ويقع في الكون من الخير والشر والسعادة والشقاوة والهدىٰ والضلال كما ذكرت سابقًا والإيمان والكفر وجميع أفعال العباد وحركاتهم وسكناتهم الاختيارية والإضطرارية كل ذلك بقضاء الله تعالىٰ وقدره وقد علمه الله وكتبه في اللوح المحفوظ قبل كونه وهو واقع وحادث بمشيئته تعالىٰ وخلقه[١] وفي ذلك قال في شرح قول ﷺ: «لبيك وسعديك والخير كله في يديك والشر ليس إليك»[٢].

قال الإمام نقلاً الخطابي (قال الخطابي وغيره فيه الإرشاد إلىٰ الأدب في الثناء علىٰ الله تعالىٰ ومدحه بأن يضاف إليه محاسن الأمور «دون مساويها علىٰ جهة الأدب، وأما قوله «والشر ليس إليك» فمما يجب تأويله لأن مذهب أهل الحق أن كل المحدثات فعل الله تعالىٰ وخلقه سواء خيرها وشرها حينئذ يجب تأويله. . .)[٣].

وذكر في تأويله خمسة أقوال منها الصحيح وغيره وهي كالآتي:

---

(١) شرح أصول أعتقاد أهل السنة والجماعة لأبي القاسم اللالكائي ص١٥١ ـ ١٨٦/ ١، وعقيدة السلف أصحاب الحديث لأبي عثمان الصابوني ص٧٥ ـ ٧٨ ط١، ١٤٣١.

(٢) أخرجه مسلم بشرح النووي ص٥٢/ ٦.

(٣) المصدر السابق الصفحة نفسها ص٥٢/ ٦.

أحدها: معناه لا يتقرب به إليك قاله الخليل بن أحمد والنصر بن شميل وإسحاق بن راهوية ويحيئ بن معين وأبو بكر بن خزيمة والأزهري وغيرهم.

والثاني: حكاه الشيخ أبو حامد المزني وقال غيره أيضًا معناه لا يضاف إليك على انفراده لا يقال يا خالق القردة والخنازير ويارب الشر ونحو هذا وإن كان خالق كل شيء ورب كل شيء وحينئذ يدخل الشر في العموم.

والثالث: معناه والشر لا يصعد إليك إنما يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح.

والرابع: معناه الشر ليس شرًا بالنسبة إليك فإنك خلقته بحكمة بالغة وإنما هو شر بالنسبة إلى المخلوقين.

والخامس: حكاه الخطابي أنه كقولك فلان إلى بين فلان إذا كان عداه فيهم أو صنفوه إليهم»[1].

وقال أيضًا (قوله ﷺ **«لو كان شيء سابق القدر لسبقته العين»** فيه إثبات القدر وهو حق بالنصوص وإجماع أهل السنة ومعناه أن الأشياء كلها بقدر الله تعالى ولا تقع إلا على حسب ما قدرها الله تعالى وسبق بها علمه فلا يقع ضرر العين ولا غيره من الخير والشر إلا بقدر الله تعالى)[2].

٢ ـ القول الراجح في المسألة

أن القول الراجح في هذه المسألة هو أن إضافة الشر إلى الله معناه أن الله لا يقضي شرًا محضًا، فإن فعل الله الذي هو قدره وقضاؤه كله حسن وخير، لا شر فيه، وإنما يكون الشر في المقتضى الذي هو مفعوله ومخلوقه، ولذلك جاءت نصوص الكتاب والسنة بإضافة الشر إلى المقضي المخلوق، كقوله تعالى: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ**﴾[3] فأضاف الشر إلى ما خلقه، لا إلى خلقه. وكقوله ﷺ **في دعاء**

---

(١) شرح حديث مسلم للنووي ص٥٢/ ٦.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٤٥/ ١٤.

(٣) سورة الفلق، الآية ١ ـ ٢.

القنوت: «**وقني شر ما قضيت**»[1] فأضاف الشر إلى ما قضاه لا إلى قضائه»[2].

وهذا هو القول الصحيح وهو يتفق مع ما ذكره بعض العلماء «أي فإنك لا تخلق شراً محضاً، بل كل ما تخلقه فيه حكمة هو بإعتبارها خير ولكن قد يكون منه شر لبعض الناس. فهذا شر جزئي إضافي فأما شر كلي، أو شر مطلق، فالرب سبحانه وتعالى منزه عنه وهذا هو الشر الذي ليس إليه»[3] والله تعالى أعلم.

٢ ـ أفعال العباد:

أ ـ رأي الإمام النووي

قرر الإمام النووي مذهب السلف في هذه المسألة مبينا أن أفعال العباد خيرها وشرها مخلوقة لله تعالى ومقدرة على أصحابها وليسوا هم لها بخالقين ـ كما زعم المعتزلة ـ لأنه لا خالق إلا الله تعالى، فهو سبحانه خالق العباد وأفعالهم.

وقد أشار إلى هذا بقوله (قوله ﷺ «أضل الله عن الجمعة من كان قبلنا»[4] فيه دلالة لمذهب أهل السنة أن الهدى والإضلال والخير والشر كله بإرادة الله تعالى ومن فعله خلافاً للمعتزلة)[5].

---

(١) جزء من حديث أخرجه أبو داود من ١٣٣ ـ ١٣٤/ ٢ برقم ١٤٢٥، والترمذي بتحقيق شاكر ص٤٢٨ ـ ٤٢٩/ ٢ برقم ٤٦٤، وقال هذا حديث حسن لا نعرفه إلا من هذا الوجه والنسائي بشرح السيوطي وحاشية السندي ص٢٧٥/ ٣ برقم ١٧٤٤ ورقم (١٧٤٥٠)، وابن ماجة بتحقيق محمد مصطفى الأعظمي ص٢١٣/ ١ برقم ١١٦٧، والحديث صححه أحمد شاكر.

(٢) انظر: شرح العقيدة الطحاوية ص٥١٧/ ٢، وشرح لمعة الاعتقاد للشيخ ابن عثيمين ص٩١ ـ ٩٢.

(٣) شرح العقيدة الطحاوية، ص٥١٧/ ٢.

(٤) أخرجه مسلم بشرح النووي ص١٠٥/ ٦ برقم ١٩ ـ ٢١.

(٥) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٢٥/ ٦.

وقال أيضًا (في شرح قوله ﷺ معنى لا حول ولا قوة إلا بالله كنز من كنوز الجنة»[1].

قال الإمام (قال العلماء: سبب ذلك أنها كلمة استسلام، وتفويض إلى الله واعتراف بالإذعان له وأنه لا صانع غيره ولا راده لأمره أن العبد لا يملك شيئًا من الأمر[1].

ب ـ موافقة الإمام النووي لمذهب السلف في هذه المسألة وتحصيل مذهبهم في ذلك:

إن الذي قرره الإمام النووي آنفًا موافق لمذهب السلف يقول الإمام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: (أفعال العباد مخلوقة بإتفاق سلف الأمة وأئمتها كما نص على ذلك أئمة الإسلام الإمام أحمد بن حنبل ومن قبله وبعده حتى قال بعضهم من قال أفعال العباد غير مخلوقة فهو بمنزلة من قال إن السماء والأرض غير مخلوقة)[3].

١ ـ ذكر بعض الأدلة على أن أفعال العباد مخلوقة:

والأدلة على ذلك كثيرة جداً منها:

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾[4] فإن ما موصولة أي: وخلق الذي تصنعونه على العموم ويدخل فيها الأصنام التي ينحتونها دخولاً أوليًا، ويجوز أن تكون (ما) مصدرية أي: خلقكم وخلق عملكم، وجعلها موصولة أولى بالمقام وأوفق بسياق الكلام، ، ففيها دليل على أن أفعال العباد مخلوقة[5]، وهذه الآية تدل أيضًا على أن المنحوت مخلوق لله وهو ما صار منحوتًا إلا بفعلهم فيكون ما هو من آثار

(١) أخرجه مسلم بشرح النووي ص٢٢/٧ برقم ٤٤ ـ ٤٨.

(٢) شرح صحيح مسلم للنووي ٢٢/٧.

(٣) مجموع الفتاوى ٨/ ٤٠٦، وانظر شرح أصول إعتقاد أهل السنة ٣/ ٥٣٤ ـ ٥٧٦، وشرح الطحاوية ص ٦٣٩/٢، وغيرها.

(٤) سورة الصافات، الآية: ٩٦.

(٥) انظر تفسير البغوي ٤/ ٣١، وتفسير ابن كثير ٤/ ١٢، ١٣، وفتح القدير ٤/ ٤٠٢.

فعلهم مخلوقًا لله، ولو لم يكن النحت مخلوقًا لله لم يكن المنحوت مخلوقًا بل الخشب أو الحجر لا غير[1]، ومن الأدلة أيضًا.

٢ ـ قوله تعالىٰ: ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[2] فقد أخبر عز وجل في هذه الآية أنه خالق الأشياء كلها وأنه ربها ومليكها والمتصرف فيها وكل شيء تحت تدبيره وقهره وكلاءته[3]، فدخلت أفعال العباد في عموم كل. وما أفسد قول المعتزلة الذين يدخلون كلام الله ـ والذي هو صفة من صفاته ـ يستحيل عليه أن يكون مخلوقًا وكذا جميع أسمائه وصفاته في حين يخرجون أفعالهم التي هي مخلوقة لله! وهل يدخل في عموم كل إلا كل مخلوق[4].

٣ ـ ومن الأدلة كذلك، قوله ﷺ «المعروف كله صدقة وإن الله صانع كل صانع وصنعته ـ وفي رواية ـ إن الله خلق كل صانع وصنعته» وتلا بعض الصحابة عند ذلك ﴿ والله خلقكم وما تعملون ﴾[5][6] فأخبر عليه الصلاة والسلام أن الصناعات وأهلها مخلوقة لله تعالىٰ. وللإمام البخاري[7] ـ رحمه الله ـ كتاب نفيس بهذا الصدد سماه

---

(١) شرح الطحاوية ص ١/١٨١.

(٢) سورة الزمر، الآية: ٦٢.

(٣) انظر تفسير ابن كثير ٤/ ٥٥، وتفسير السعدي ٦/ ٤٨٩.

(٤) انظر شرح الطحاوية ص ١٨١/ ١، وتفسير السعدي ٦/ ٤٨٩.

(٥) سورة الصافات، الآية: ٩٦.

(٦) رواه البخاري في أفعال العباد ص٢٥، وابن أبي عاصم ١/ ١٥٨ برقم ٣٥٧، والحاكم في المستدرك ١/ ٣١ ـ ٣٣، وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وقال الألباني حديث صحيح انظر السلسلة الصحيحة برقم ١٦٣٧.

(٧) هو شيخ الإسلام وإمام الحفاظ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن المغيرة الجعفي مولاهم البخاري صاحب التصانيف العظيمة التي أشهر وأعظمها (الصحيح) الذي هو أصح كتاب بعد كتاب الله تعالىٰ، ولد سنة ١٩٤هـ وتوفي سنة ٢٥٦هـ. انظر ترجمته ف تذكرة الحفاظ ٥٥٥، وسير أعلام النبلاء ١٢/ ٢٩١، وتهذيب التهذيب ٩/ ٤٧.

(خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأهل التعطيل) جمع فيه الآيات والأحاديث والآثار الواردة بهذا الشأن وود فيه على المعتزلة وغيرهم فليراجع.

٢ ـ للعباد إرادة وقدرة حقيقية غير خارجة عن مشيئة الله:

ومما ينبغي الإشارة إليه ههنا إلى أنه لا يعني إعتقادنا كون أفعال العباد مخلوقة لله أن يكون العبد مسلوب المشيئة والإرادة كما تزعم الجبرية بل العبد فاعل حقيقة وله مشيئة وقدرة غير خارجة عن مشيئة الله وتقديره، بل هي تابعة لمشيئة الرب جل جلاله.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ (ومما ينبغي أن يعلم أن مذهب السلف مع قولهم الله خالق كل شيء ومليكه وربه، وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن وأنه هو الذي خلق العبد هلوعًا إذا مسه الشر جزوعًا وإذا مسه الخير منوعًا ونحو ذلك، أن العبد فاعل حقيقة وله مشيئة وقدرة، قال الله تعالى: ﴿ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ (٢٨) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾[1]، وقال: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٢٩) وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤) فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ (٥٥) وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴾[3])[4].

٣ ـ الإرادة نوعان: أن أفعال العباد تنسب إليهم فعلاً وكسبًا وإختياراً وتنسب إلى الله خلقًا وقدراً وإيجاداً، وأن للعباد مشيئة وإرادة حقيقة ولكنها تابعة لمشيئة الله سبحانه ليست مستقلة عنها، ولا سابقة لها، ، ولكن هذا لا يعني أن الله عز وجل يرضي ما يقع من العباد من الكفر والمعاصي ـ تعالى الله عن ذلك ـ فإنه عز وجل

---

(١) سورة التكوير، الآية: ٢٨ ـ ٢٩.

(٢) سورة الإنسان، الآية: ٢٩ ـ ٣٠.

(٣) سورة المدثر، الآيات: ٥٤ ـ ٥٦.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٨/ ١١٧ ـ ١١٨.

يقول: ﴿إن تكفروا فإنَّ اللَّهَ غنيٌّ عنكُمْ ولا يَرْضىٰ لعِبادِه الْكُفْرَ وإن تشكُرُوا يَرْضَهُ لكُمْ﴾[1]، ويقول: ﴿واللَّهُ لا يُحبُّ الْفَسَادَ﴾[2] وقال عقيب ما نهىٰ عنه من الشرك والظلم والفواحش والكبر ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾[3]. فالمعاصي وإن كان الله يريدها قدرًا فهو لا يحبها ولا يرضاها ولا يأمر بها بل يبغضها ويسخطها وينهي عنها وهذا هو قول السلف قاطبة ومنهجهم في ذلك، ولذا يقول المحققون[4] منهم: إن الإرادة نوعان: إرادة قدرية كونية خلقية، وإرادة دينية شرعية أمرية، وهذه الأخيرة هي المتضمنة للمحبة والرضا بخلاف الإرادة الكونية فهي المشيئة الشاملة لجميع المخلوقات. ومنشأ الضلال من التسوية بين المشيئة والإرادة وبين المحبة والرضا ـ كما قال شارح الطحاوية[5] ـ فسوىٰ بينها الجبرية والقدرية ثم اختلفوا فقالت الجبرية الكون كله بقضائه وقدره فيكون محبوبًا مرضيًا وقالت القدرية النفاة ليست المعاصي محبوبة لله ولا مرضية له فليست مقدرة ولا مقضية، فهي خارجة عن مشيئته وخلقه وقدرته، وقد دل علىٰ الفرق بين المشيئة والمحبة الكتاب والسنة والفطرة السليمة وقد تقدم ذكر بعض هذه الأدلة آنفًا.

ج: رد الإمام النووي على المعتزلة في قضية أفعال العباد وموافقته للأشاعرة في قولهم بالكسب:

شنع الإمام النووي علىٰ المعتزلة الذين يزعمون بأن أفعال العباد غير مقدرة وغير مخلوقة لله تعالىٰ، فقال نقلاً عن القاضي عياض في تعليقه علىٰ حديث (وأما الغلام

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٧.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٠٥.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٣٨.

(٤) انظر مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ابن تيمية ٨/ ٤٤٠ ـ ٤٤١، والفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان له من ١٠٥ ـ ١٠٦ وشرح الطحاوية ٦٤١ ـ ٦٤٢/ ٢.

(٥) انظر شرح الطحاوية ص٣٢٤ ـ ٣٢٧/ ١، فإنه قد أجاد وأفاد بما لا غنىٰ عنه في هذا الشأن جزاه الله خيرًا.

فطبع يوم طبع كافراً)[١].

قال الإمام (قال القاضي في هذا حجة بينة لأهل السنة لصحة أصل مذهبهم في الطبع والرين والأكنة والأغشية والحجب والسد وأشباه هذه الألفاظ الواردة في الشرع في أفعال الله تعالىٰ بقلوب أهل الكفر والضلال ومعنىٰ ذلك عندهم خلق الله تعالىٰ فيها ضد الإيمان وضد الهدىٰ، ، وهذا علىٰ أصل أهل السنة أن العبد لا قدرة له إلا ما أراده الله تعالىٰ وييسره له، ، وخلقه له خلافًا للمعتزلة، والقدرية القائلون بأن للعبد فعلاً من قبل نفسه وقدرة علىٰ الهدىٰ والضلال والخير والشر والإيمان والكفر وأن معنىٰ هذه الألفاظ نسبه الله لأصحابها وحكمه عليهم بذلك، وقالت طائفة منهم معناها خلقه علامة لذلك في قلوبهم.

والحق الذي لاشك فيه أن الله تعالىٰ يفعل ما يشاء من الخير والشر ﴿**لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون...**﴾[٢] وكما قال تعالىٰ في الذر هؤلاء للجنة ولا أبالي وهؤلاء للنار ولا أبالي فالذين قضىٰ لهم بالنار طبع علىٰ قلوبهم وختم عليها وغشاها وأكنها وجعل من بين أيديها سداً ومن خلفها سداً وحجاباً مستوراً وجعل في آذانهم وقراً وفي قلوبهم مرضًا لتتم سابقته فيهم وتمضي كلمته لأداء الحكمة ولا معقب لأمره وقضائه وبالله التوفيق»[٣].

وقال أيضًا «قوله ﷺ: لقد وفق هذا قال أصحابنا المتكلمون والتوفيق خلق قدره الطاعة والخذلان خلق قدرة المعصية)[٤].

وقال أيضًا ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ**﴾[٥] (وأراد أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالىٰ،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه بشرح النووي ص ١١٨/ ١٥ برقم (٢٣٨٠) مكرر.

(٢) سورة الأنبياء، الآية: [٢٣].

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص١١٩/ ١٥.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٥٥/ ١.

(٥) سورة الصافات، الآية: [٩٦].

وهذا مذهب أهل السنة خلافًا للمعتزلة»[٢].

ومع كونه قد أصاب الحق ووافق مذهب السلف في الاعتقاد بأن أفعال العباد مخلوقة ومقدرة لله تعالىٰ خيرها وشرها، وأن العباد لا يشاءون إلا ما شاء الله، إلا أنه ـ غفر الله له ـ قد قلد الأشاعرة ومن وافقهم ممن قال بالكسب في هذه القضية كما ذهب إلىٰ ذلك القاضي عياض والمازري وغيرهم قال الإمام النووي (فقوله لما نزلت ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾[٣] فاشتد ذلك علىٰ الصحابة رضي الله عنهم، وقالوا: لا نطيقها. قال الإمام أبو عبد الله المازري رحمه الله يحتمل أن يكون اشفاقهم وقولهم لا نطيقها لكونهم اعتقدوا أنهم يؤخذون بما لا قدرة لهم علىٰ دفعه من الخواطر التي لا تكتسب فلهذا رأوه من قبل مالا يطاق وعندنا أن تكليف مالا يطاق جائز عقلاً واختلف هل وقع التعبد به في الشريعة أم لا والله أعلم»[٤].

أقول: كلام المازري هنا والذي وافقه عليه الإمام النووي إذا لم يعلق عليه يبين منه القول بالكسب[٥] وهو ما يوافق مذهب الأشاعرة، والله أعلم.

كما أن للإمام نص آخر يؤيد ما سبق من أنه يقول بالكسب الأشعري وهو قوله التوفيق خلق قدرة علىٰ الطاعة والخذلان خلق قدرة علىٰ المعصية[٦]، قلت: ولا شك أن استخدامه لكلمة الخلق هنا يعني إيجاده بعد أن لم يوجد وهي أنها مخلوقة لله تعالىٰ مما يؤكد قوله بالكسب الذي سوف أبين معناه فيما يلي:

---

(٢) شرح صحيح مسلم ص٩٢/ ١١.

(٣) سورة البقرة، الآية: [٢٨٤].

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي، ص١٢٦/ ٢.

(٥) الكسب أصله في اللغة الجمع وهو طلبت الرزق يقال كسبت شيئًا واكتسبت بمعنىٰ أهلي خيراً وكسبت الرجل مالاً فكسبه. انظر: شفاء العليل لابن القيم ص ١٢٠.

(٦) شرح صحيح مسلم ص ٥٥/ ١.

د ـ الرد على الإمام النووي في قوله بالكسب الأشعري

لقد خالف الإمام النووي غفر الله له منهج السلف في أهم عنصر من عناصر قضية أفعال العباد ألا وهو قدرة الله وهل لها تأثير في فعل العبد أم لا؟ فنحا منحىٰ الأشاعرة القائلين بالكسب.

١ ـ تفسير معنى الكسب الأشعري

أحب قبل الرد علىٰ الإمام النووي لقوله بالكسب أن أوضح معنىٰ هذا الكسب عند الأشاعرة مدعمًا ذلك بكلامهم أنفسهم، فأقوال: الكسب عند هؤلاء القوم هو: صرف العبد قدرته وإرادته إلىٰ الفعل وإيجاد الله الفعل عقيب ذلك هو الخلق، فالفعل الواحد مقدور الله بجهة الإيجاد ومقدور العبد بجهة الكسب يقول الآمدي[1] حاكيًا مذهب الأشاعرة في هذا الأمر: (وذهب أهل الحق (قلت يقصد الأشاعرة) إلىٰ أن أفعال العباد مضافة إليهم بالإكتساب وإلىٰ الله تعالىٰ بالخلق والإختراع وأنه لا أثر للقدرة الحادثة فيها أصلا)[2].

ويقول الإيجي أيضًا: (المقصد الأول في أفعال العباد الإختيارية وأنها واقعة بقدرة الله تعالىٰ وحدها وليس لقدرتهم تأثير فيها بل الله تعالىٰ أجرىٰ عادته بأن يوجد في العبد قدرة وإختياراً، ، فإذا لم يكن هناك مانع أوجد فيه فعله المقدور مقارنًا لهما فيكون فعل العبد مخلوقًا لله إبداعًا وإحداثًا ومكسوبًا للعبد، والمراد يكسبه إياه مقارنته لقدرته وإرادته من غير أن يكون منه تأثير)[3].

٢ ـ بطلان مذهب الكسب

لاشك أن هذا المذهب ظاهر البطلان، ومخالف لمنهج السلف، وقد أراد أتباعه ـ

---

(١) هو سيف الدين أبو الحسن، علي بن محمد بن سالم الثعلبي الآمدي من كبار ومشاهير المتكلمين وله باع في الفقه وأصوله مصنفاته تقرب من العشرين منها: الأحكام في أصول الأحكام وغاية المرام في علم الكلام، توفي سنة (٦٣١هـ). انظر ترجمته في لسان الميزان ٣/ ١٤٣، ومفتاح السعادة ٢/ ١٦٠.

(٢) غاية المرام في علم الكلام للآمدي ص٢٠٧.

(٣) المواقف في علم الكلام ص٢٣٧.

والله أعلم ـ محاولة التوسط بين مذهب الجبرية ومذهب القدرية بجعلهم للعبد قدرة حادثة غير مؤثرة في فعله بخلاف ما ذهب إليه الجبرية من نفي القدرة أصلاً، وما ذهب إليه القدرية من إثبات قدرة بها يخلق الإنسان فعل نفسه، إلا أن هذه المحاولة خاطئة، لأن إثبات قدرة لا أثرلها إنما هو نفي للقدرة أصلاً، حيث إن وجودها حينئذ كعدمها، وكان اقترانها بالفعل كاقتران سائر صفات الفاعل في طوله وعرضه ولونه ـ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ[1] «ولهذا أنكر علماء السلف هذا المذهب وردوا عليه، وبينوا ما فيه من تناقض غير معقول، وأنه من محالات الكلام ووضحوا ما فيه من شبه بمذهب الجبرية وإن خالفوه خلافًا لفظيًا أو بشكل لا يعقل»[2].

وقد اعترف كبار الأشاعرة ـ أنفسهم ـ بعدم وجود فرق بين مذهبهم ومذهب الجبرية كما فعل ذلك الايجي ولهذا التزم القول بالجبر عند مناقشته للمعتزلة في موضوع الحسن والقبح العقليين فقال: (لنا أن الحسن والقبح ليسا عقليين وجوهًا الأول: أن العبد مجبور في أفعاله . .)[3].

فيكفي إذًا في بطلان هذا المذهب مجرد تصوره في العقل، حيث إنه لا يعقل بل هو من مستحيلات الكلام، هذا فضلاً عن مخالفته لمذهب أهل الحق ـ أهل السنة والجماعة ـ الذين اثبتوا للعبد قدرة حقيقية غير خارجة عن قدرة الله ولم يسلبوه القدرة بأن جعلوه مجبوراً ـ كما تعتقد الجبرية ـ ولا مستقلا بقدرته وفعله ـ كما زعمت القدرية ـ فمذهب السلف هو الوسط بين هؤلاء وأولئك ـ كما تقدم توضيح ذلك ـ وفي الأدلة التي بني عليها الرد على كل من الفريقين.

* * *

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٨/ ٤٦٧.

(٢) انظر الرد على هذا المذهب مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٨/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤ و٤٦٦ ـ ٤٦٧، وشفاء العليل لابن القيم ص٢٠ وما بعدها، وشرح الطحاوية ٧٨ ـ ٨٣/ ١، ٦٥٠ ـ ٦٥٢/ ١، وخلق أفعال العباد للبخاري ص٢٥ وما بعدها.

(٣) المواقف في علم الكلام للإيجي ص٣٠٢.

المبحث الرابع

مسألة احتجاج آدم وموسى عليهما السلام

المطلب الأول: بطلان الإحتجاج بالقدر

إن من رحمة الله تعالى بعباده أنه وهبهم العقل ليميزوا به الضار من النافع والخير من الشر وأرسل إليهم الأنبياء والرسل ليدلوهم على طريق السعادة ويحذروهم من طريق الشقاوة، وقد بين الله تعالى لهم طريق الفوز والخسران، فأمرهم بما ينفعهم ونهاهم عما يضرهم. وجعل لكل منهم حرية الإختيار في العمل والترك، مرتبًا حسابهم على ما قدموا لأنفسهم من خير أو شر دون أن يظلم عز وجل أحدًا منهم مثقال ذرة.

وهذه الحرية في العمل يحس ويقربها كل ذي عقل رشيد وفطرة سليمة. ولا يجحدها إلا كل مكابر عنيد. يشهد لهذه الحقيقة الخالدة ما أخبر به رسول الله ﷺ في الحديث الصحيح أنه «**ما من ميت إلا ويرى مكانه في الجنة أو النار. فإن كان من أهل الجنة يقال له انظر إلى يسارك هذا مقعدك من النار لو عصيت الله، وإن كان من أهل النار يقال له انظر إلى يمينك هذا مقعدك من الجنة لو اطعت الله**»(١). فكل إنسان جعل الله له مكانًا في الجنة وآخر في النار وهو سيدخل أحدهما حسب ما قدمت يداه كما قال تعالى: ﴿ **ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾(٢) في خطابه لأهل السعادة وقال عن أهل الشقاوة ﴿ **وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾(٣) إلى غير ذلك من النصوص

---

(١) رواه أحمد بهذا اللفظ ٤/ ٢٩٦، وأصل الحديث في البخاري في ك الجنائز باب الميت يعرض عليه مقعده بالغداة والعشي ٣/ ٢٨٦ برقم ١٣٧٩، وابن ماجه بنحو لفظ البخاري في ك الزهد باب ذكر القبر والليل ٢/ ١٤٢٧ برقم ٤١٧٠.

(٢) سورة النحل، الآية: ٣٢.

(٣) سورة النحل، الآية: ١١٨.

الصريحة الكثيرة، فلا يجوز إذًا لأحد أن يحتج بالقدر لأنه تعالىٰ لم يجبر أحدًا من عباده علىٰ العمل بل جعل لهم حرية الإختيار، ، وقد علم عز وجل أزلاً ما سيكون من خلقه فكتبه عليهم فهو واقع كما علمه وكتبه، فمن استحق منهم العقاب أو الثواب فبسبب ما قدمت أنفسهم وجزاء بما عملوا.

* * *

المطلب الثاني

الرد على المحتجين بالقدر

إن من يحتج بالقدر فحجته داحضة، ومن اعتذر بالقدر فعذره غير مقبول، ولو كان الإحتجاج بالقدر مقبولا لقبل من إبليس وغيره من العصاة، ولو كان القدر حجة للعباد لم يعذب الله أحداً من الخلق لا في الدنيا ولا في الآخرة، ولا أقيم حد على صاحب جريمة ولا أمر بمعروف ولا نهي عن منكر ولا جوهد في سبيل الله، ولو كان الإحتجاج بالقدر مقبولا للزم أن يكون إبليس وفرعون وقوم نوح وكل من أهلكه الله بذنوبه معذوراً، ولما كان هناك فرق بين أولياء الله وأعداء الله، ولا بين المؤمنين والكفار وأهل الجنة وأهل النار، ولا يخفى معتقد ذلك قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾[1] وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾[2] وقال أيضاً ﴿أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾[3] إلى غير ذلك من الآيات.

لذا من أصر على الإحتجاج بالقدر على فعل المعاصي وترك الواجبات، ، زاعماً أنه لا قدرة له على العمل ولا فائدة منه، لأن الشقي قد كتب شقياً وهو في بطن أمه والسعيد كذلك كان ـ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية[4] ـ أكفر من اليهود والنصارى فإن هؤلاء يؤمنون بالأمر والنهي والوعد والوعيد والثواب والعقاب، لكن حرفوا

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢١.

(٢) سورة الحشر، الآية: ٢٠.

(٣) سورة ص، الآية: ٢٨.

(٤) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٨/ ٣٦٢ ـ ٣٦٤.

وبدلوا وآمنوا ببعض وكفروا ببعض كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا (١٥٠) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا (١٥١) وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[1] فإذا كان من آمن ببعض وكفر ببعض كافراً حقًا فكيف بمن كفر بالجميع، ولم يقر بأمر الله ونهيه ووعده ووعيده بل ترك ذلك محتجًا بالقدر، فهو أكفر ممن آمن ببعض وكفر ببعض.
وهذا القول ظاهر البطلان.

* * *

(١) سورة النساء، الآيات ١٥٠ ـ ١٥٢.

المطلب الثالث

بيان معنى حديث فحج آدم موسى

قد يستدل المحتجون بالقدر على فعل المعاصي بالحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ حيث قال: «**احتج آدم وموسى، فقال له موسى: يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة، فقال له آدم: يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك التوراة بيده أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة، فقال رسول الله فحج آدم موسى فحج آدم موسى ثلاثًا**» متفق عليه[1].

والحديث ليس فيه حجة للذين يحتجون بالقدر على القبائح والمعايب، فإن آدم لم يحتج بالقضاء والقدر على الذنب، وموسى لم يلم أباه على ذنب تاب منه وتاب الله عليه واجتباه وهداه، وإنما وقع اللوم من موسى على المعصية التي أخرجت آدم وأولاده من الجنة، فاحتج آدم بالقدر على المصيبة لا على الخطيئة، فإن القدر يحتج به عند المصائب لا عند المعايب - كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من أئمة السلف -[2] فموسى لام آدم من جهة المصيبة التي أصابته وذريته بسبب فعله، ولم يلمه على المعصية نفسها. ولهذا قال لآدم خرجت من الجنة ولم يقل لماذا خالفت الأمر وعصيت الله؟ لأن الناس مأمورون بالتسليم للقدر عند المصائب التي تصيبهم بأفعال الناس أو بغير أفعالهم كما قال تعالى: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ** قلبه﴾[3] قال ابن مسعود[4] - رضي الله عنه -: (هو الرجل تصيبه فيعلم أنها من عند

---

(١) رواه البخاري في ك القدر باب تحاج آدم موسى عند الله ١١/ ٥١٣ برقم ٦٦١٤، ومسلم في ك القدر باب حجاج آدم موسى ١٦٢ - ١٦٣/ ١٦ برقم (٢٦٥٢).

(٢) انظر مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٨/ ٣١٩، وشفاء العليل ص١٢، وشرح الطحاوية ص١٣٥/ ١، وفتح القدير ١١/ ٥١٨.

(٣) سورة التغابن، الآية: ١١.

(٤) تقدمت ترجمته ص١٠٧.

الله فيرضى ويسلم)[١]، وقال سبحانه مادحًا عباده الصابرين ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الذين إذا أصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[٢].

وأما من أذنب فليس له أن يحتج بالقدر بل الواجب عليه أن يستغفر ويتوب كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾[٣] فأرشد سبحانه إلى الصبر في المصائب والإستغفار من الذنوب والمعايب.

وقد قيل في بيان غلبة آدم لموسى لأن موسى لام أباه بعد أن مات واللوم إنما يتوجه على المكلف ما دام في دار التكليف، ، فإن الأحكام جارية عليهم فيلام العاصي ويقام عليه الحد والقصاص وغير ذلك. وأما بعد أن يموت فقد ثبت النهي عن سب الأموات لأن مرجعهم إلى الله، وقد ثبت أنه لا تُثنى العقوبة على من أقيم عليه الحد، وإذا كان كذلك فلوم موسى لآدم إنما وقع بعد انتقاله عن دار التكليف وثبت أن الله قد تاب عليه فسقط عنه اللوم فلذلك عدل إلى الإحتجاج بالقدر السابق، وقيل: لما تاب الله على آدم صار ذكر ما صدر منه إنما هو كالبحث عن السبب الذي دعاه إلى ذلك فأخبر هو أن الأصل في ذلك القضاء السابق فلذلك غلب موسى بالحجة[٤].

وقال بعض العلماء إنما غلب آدم موسى بالحجة لأن موسى علم في التوراة أن الله تاب عليه فكان لومه على ذلك نوع جفاء، ، كما يقال ذكر الجفاء بعد حصول الصفاء جفاء، ولأن أثر المخالفة بعد الصفح ينمحي حتى كأنه لم يكن فلا يصادف اللوم من اللائم حينئذ محلا[٥].

---

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٨/ ٣١٩.

(٢) سورة البقرة، الآيات ١٥٥ ـ ١٥٧.

(٣) سورة غافر، الآية: ٥٥.

(٤) انظر: فتح الباري ١١/ ٥١٨، ٥١٩، وشرح النووي لصحيح مسلم ١٦/ ٢٠٣.

(٥) فتح الباري ١١/ ٥١٩.

رأي الإمام النووي

رأىٰ الإمام النووي أن غلبة آدم موسىٰ بالحجة لأن موسىٰ قد علم بالتوراة أن الله قدر علىٰ آدم أن يأكل من الشجرة فيخرجه الله من الجنة إلىٰ الأرض ليكون له نسل فيها وأبناء سعداء وأشقياء وأن الله قد شاء ذلك كله وأراده فلم يكن ذلك منه بُدّ، وهذا إنما كان لتقرير الله إخراجه من الجنة وإرادته ذلك تعالىٰ ولو شاء الله لم يخرج آدم من الجنة ولا فعل سبب خروجه من الجنة لم يكن من ذلك شيء، ولكن لما كان لابد من كونه ولو اجتمع عدد الخلائق علىٰ رد مثقال ذرة منه لم تقدر، وكان لابد من خروجه عليه السلام من الجنة وتحقق بسببه الموجب لذلك فإن كان موسىٰ قد علم هذا من التوراة فلم اللوم؟ قال: ولأن اللوم علىٰ الذنب شرعي لا عقلي، وإذا تاب الله تعالىٰ علىٰ أدم وغفر له زال عنه اللوم فمن لامه كان محجوبًا بالشرع»[1].

قلت. رأي الإمام النووي ههنا جيد لأن مضمونه أن آدم قد احتج بإبتلاء الله له بالمصيبة التي قدرها عليه وهي خروجه من الجنة بسبب معصيته لله إلىٰ الأرض التي خلقه الله للسكن فيها كما قال تعالىٰ: ﴿ **وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾(٢).

فوجود آدم في الجنة إذًا كان مؤقتًا إلىٰ أجل ولم يكن دائمًا، وخروجه منها كان لحكمة بالغة من الله ألا وهي وجود ذرية له صالحة سعيدة وأخرىٰ طالحة شقية، وهذا لن يتأتىٰ لو بقي آدم في الجنة فقوله لموسىٰ ﴿ **اصطفاك الله بكلامه** ﴾ كأن فيه ـ كما قال ابن حجر[3] ـ إشارة إلىٰ أن موسىٰ قد اطلع علىٰ عذر أبيه وعرفه بالوحي فلو استحضر ذلك ما لامه مع وضوح عذره، وفيه إشارة أيضًا إلىٰ الفضل الذي حصل

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٦٤ ـ ١٦٥/١٦.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

(٣) فتح الباري ٥٣٠/١١.

لموسى بسبب خروج أبيه من الجنة ألا وهو اصطفاء الله له وتكليمه إياه وإرساله لفرعون وغير ذلك، فكأنه قال له. لو لم يقع إخراجي الذي رتب على أكلي من الشجرة ما حصلت لك هذه المناقب لأنني لو بقيت في الجنة واستمر نسلي، ما وجد من تجاهر بالكفر الشنيع بما جاهر به فرعون حتى أرسلت أنت إليه وأعطيت ما أعطيت، فإذا كنت أنا السبب في حصول هذه الفضائل لك فكيف يسوغ لك أن تلومني؟

وعلى الرغم من ذلك فإن هذا الرأي منتقد من عدة وجوه وهي كما يلي:

١ ـ أن الحديث ليس فيه أن موسى لام أدم على المعصية، وإنما فيه أنه قال له: يا أدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة، وظاهر هذا القول أنه لامه على الإخراج من الجنة لا على الأكل من الشجرة فيكون اللوم على المصيبة التي حصلت بسبب المعصية لا على المعصية نفسها.

٢ ـ أن آدم لم يقل لموسى: أتلومني على ذنب قد تبت منه؟ وإنما قال أتلومني على أمر قدره عليّ قبل أن يخلقني».

وهذا الأمر هو إخراجه من الجنة فهو احتج بالقدر على المصيبة لا علي المعصية.

٣ ـ أن موسى أعرف بالله سبحانه وبأمره ودينه من أن يلوم على ذنب قد أخبره الله تعالى أنه تاب على صاحبه واجتباه بعده وهداه فإن هذا لا يجوز لآحاد المؤمنين أن يفعله فضلاً عن كليم الله موسي عليه السلام(١).

٤ ـ أن آدم ـ عليه السلام ـ أعلم بالله من أن يحتج بالقدر على الذنب وموسى أعلم بالله من أن يقبل هذه الحجة.

٥ ـ وأما أن ذلك كان في غير دار التكليف، ، فلم يتعرض في الحديث للدار فلم يقل آدم لموسى أتلومني على غير دار التكليف؟

وأيضاً فإن الله تعالى يلوم الملومين من عباده في غير دار التكليف فيلومهم بعد

---

(١) فتح الباري ص١١/٥١١، وانظر شرح صحيح مسلم للنووي ص١٦٤ ـ ١٦/١٦٥.

الموت ويلومهم يوم القيامة»[1].

وإذا تبين هذا تبين أن الحديث ليس وارد في الاحتجاج بالقدر على المعصية أصلاً، فلا يكون دليلاً على ذلك، بل إنما كان القدر حجة لآدم على موسى لأنه لام غيره لأجل المصيبة التي حصلت له بفعل ذلك، وتلك المصيبة كانت مكتوبة عليه.

وهذا هو جواب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله عن هذا الحديث[2] ووافقه تلميذه الحافظ ابن القيم[3] وهو أقوى في دفع شبه المستدلين بالحديث على الاحتجاج بالقدر في المعصية من القول الذي في الفتح، كما سبق على أن ابن القيم أشار إلى جواب آخر فقال بعد حكايته جواب شيخه ابن تيمية (وقد يتوجه جواب آخر، وهو أن الاحتجاج بالقدر على الذنب ينفع في موضع، ويضر في موضع، فينفع إذا احتج به بعد وقوعه والتوبة منه، وترك معاودته كما فعل آدم فيكون في ذكر القدر إذ ذاك من التوحيد ومعرفة أسماء الرب وصفاته وذكرها ما ينتفع به الذاكرة والسامع، لأنه لا يدفع بالقدر أمرًا ولا نهيًا، ولا يبطل به الحول والقوة، يوضحه أن أدم قال لموسى أتلومني على أن عملت عملاً كان مكتوبًا عليّ قبل أن أخلق، فإذا أذنب الرجل ذنبًا ثم تاب منه توبة، وزال أمره حتى كأن لم يكن فأنبه مؤنب عليه ولامه حسن منه أن يحتج بالقدر بعد ذلك، ويقول هذا أمر كان قد قدر عليّ قبل أن أخلق فأنى لم يدفع بالقدر حقًا ولا ذكره حجة على باطل ولا محذور في الاحتجاج به، وأما الموضع الذي يضر الاحتجاج به ففي الحال والمستقبل بأن يرتكب فعلاً محرمًا، أو يترك واجبًا فيلومه عليه لاءم فيحتج بالقدر على إقامته عليه وإصراره فيبطل بالاحتجاج به حقًا، ويرتكب باطلاً كما احتج به المصرون على شركهم وعبادتهم غير الله فقالوا: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا

---

(١) انظر هذه الانتقادات في مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ص١٠٨، ١٧٨، ١٧٩، ٣٠٤، ١٨/٣٠٧، وشفاء العليل لابن القيم ص١٤ ـ ١٥.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ص١٠٨، ١٧٨، ٨/٣١٩.

(٣) شفاء العليل لابن القيم ص١٨ ـ ١٩.

أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا ﴾[1]، ﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُم ﴾[2] فاحتجوا به مصريين لما هم عليه وأنهم لم يندموا على فعله، ولم يعزموا على تركه، ولم يقرو بفساده فهذا ضد احتجاج من تبين له خطأ نفسه، وندم وعزم كل العزم على أن لا يعود، فإذا لامه لائم بعد ذلك قال «كان ما كان بقدر الله».

ونكتة المسألة أن اللوم إذا إرتفع صح الاحتجاج بالقدر وإذا كان اللوم واقعًا فالاحتجاج بالقدر باطل»[3].

وهذا الجواب جيد أيضًا ولكن الجواب الذي ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية أجود وأقوى ولقد اختاره الأفاضل من علماء السلف منهم ابن أبي العز شارح الطحاوية فقال: «بل الصحيح أن آدم لم يحتج بالقضاء والقدر على الذنب، وهو كان أعلم بربه وذنبه، بل آحاد بنيه من المؤمنين لا يحتج بالقدر فإنه باطل، وموسى عليه السلام كان أعلم بأبيه وبنيه من أن يلوم آدم عليه السلام على ذنب قد تاب منه وتاب الله عليه، واجتباه وهداه وإنما دفع اللوم على المصيبة التي أخرجت أولاده من الجنة فاحتج آدم عليه بالقدر على المصيبة، لا على الخطيئة، فإن القدر يحتج به عند المصائب لا عند المعايب، وهذا المعنى أحسن ما قيل في هذا الحديث فما قدر من المصائب يجب الاستسلام له فإنه من تمام الرضى بالله ربًا وأما الذنوب فليس للعبد أن يذنب، وإذا أذنب فعليه أن يستغفر ويتوب فيتوب من المعايب، ويصبر على المصائب قال تعالى ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾[4] وقال تعالى: ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ﴾[5])[6].

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٤٨.

(٢) سورة الزخرف، الآية: ٢٠.

(٣) شفاء العليل لابن القيم ص٨٢.

(٤) سورة غافر، الآية: [٥٥].

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٢٠.

(٦) شرح العقيدة الطحاوية ص١٣٦/ ١.

وقال ابن رجب الحنبلي رحمه الله (هذا الاحتجاج من لطائف المعارف لما التقى آدم بموسى عليهما السلام عاتبه موسى على إخراجه نفسه وذريته من الجنة فأحتج آدم بالقدر السابق.

والاحتجاج بالقدر على المصائب حسن كما قال النبي ﷺ: «**إن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل**»[1] كما قيل:

والله لولا سابق الأقدار لم تبعد قط داركم عن داري

من قبل النأي جزية المقدار هل يمحو العبد ما قضاه الباري)[2]

وخلاصة الأقوال في هذه المسألة أن الاحتجاح بالقدر يكون على المصائب أما الاستدلال على المعايب كمن يسرق أو يزني أو يقتل النفس بغير حق بالقدر فهو نقص في العقل والشرع وجزاؤه التأديب، كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما سأل السارق لما سرق فقال سرقت بقدر الله فقال عمر: وأنا أقطع يدك بقدر الله. فهناك فرق شاسع بين الاستدلالين والله تعالى أعلم.

* * *

(١) أخرجه الإمام مسلم بشرح النووي ص١٧٦/ ١٦، كتاب القدر باب الإيمان للقدر والإذعان له برقم (٢٦٦٤).

(٢) لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، للحافظ ابن رجب ص٥.

المبحث الخامس

تأويل قوله تعالى ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾[1]

المطلب الأول

رأي الإمام النووي في تأويل الآية

لقد ذهب الإمام النووي ـ رحمه الله ـ في تأويل الآية إلى أن المراد بها وذلك نقلاً عن المازري في قوله (فاستحال أن الأجال التي علمها الله تعالى تزيد وتنقص فيتبين تأويل الزيادة أنها بالنسبة إلي ملك الموت أو غيره ممن وكله الله بقبض الأرواح وأمره فيها بآجال محدودة بأنه بعد أن يأمره بذلك أو يثبته في اللوح المحفوظ ينقص منه ويزيد على حسب ما سبق به علمه في الأزل، وهو معنى قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ وعلى ما ذكرناه يحمل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِندَهُ﴾[2])[3].

وقال في موضع آخر (وهو من معنى قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ فيه بالنسبة إلى علم الله تعالى وما سبق به قدره ولا زيادة بل هي مستحيلة وبالنسبة إلى ما ظهر للمخلوقين نتصور الزيادة وهو مراد الحديث)[4].

* * *

(١) سورة الرعد، الآية: ٣٩.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ٢.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٧٤/ ١٦.

(٤) شرح صحيح مسلم للنووي ص٩٣/ ١٦.

المطلب الثاني

موافقته لقول السلف في ذلك

ذهب أكثر العلماء إلىٰ ما ذهب إليه الإمام النووي رحمه الله ومن هؤلاء العلماء الحافظ ابن حجر، وشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمهما الله - قال ابن حجر العسقلاني «الذي سبق في علم الله لا يتغير ولا يتبدل والذي يجوز عليه التغيير والتبديل ما يبدو للناس من عمل العامل، ولا يبعد أن يتعلق ذلك مما في علم الحفظة والموكلين بالآدمي فيقع فيه المحو والإثبات، كالزيادة في العمر والنقص وأما ما في علم الله فلا محو فيه ولا إثبات والعلم عند الله»[1].

وبهذا يظهر لنا أن الارزاق والأعمار نوعان:

نوع جرىٰ به القدر وكتب في أم الكتاب، فهذا لا يتغير ولا يتبدل ونوع أعلم الله به ملائكته فهذا هو الذي يزيد وينقص، وكذلك قال الله تعالىٰ ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وعنده أُمُّ الْكِتَابِ﴾[2].

وأم الكتاب هو اللوح المحفوظ الذي قدر الله فيه الأمور علىٰ ما هي عليه ففي كتب الملائكة يزيد العمر وينقص، وكذلك الرزق بحسب الأسباب فإن الملائكة يكتبون له رزقًا وأجلاً فإذا وصل رحمه زيد له في الرزق والأجل وإلا فإنه ينقص له منهما»[3].

والأجل أجلان: أجل مطلق يعلمه الله، وأجل مقيد فإن الله يأمر الملك أن يكتب لعباده أجلاً فإن وصل رحمه فيأمره بأن يزيده في أجله ورزقه، والملك لا يعلم أيزاد له في ذلك أم لا لكن الله يعلم ما يستقر عليه الأمر فإذا جاء الأجل لم يتقدم ولم

---

(١) فتح الباري ص٤٨٨/ ١١.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٣٨، ٣٩.

(٣) راجع مجموع فتاوىٰ شيخ الإسلام ص٥٤٠/ ٨.

يتأخر»[1].

وقال شارح الطحاوية قولاً يشبه قول الإمام ويمثله (وقيل الزيادة والنقصان في الصحف التي في أيدي الملائكة ويحمل قوله تعالىٰ ﴿ **لكل أجل كتاب** ﴾ ﴿ **يَمْحُو اللَّهُ مَا يشاءُ وَيُثْبِتُ** ﴾ علىٰ أن المحو والإثبات من الصحف التي في أيدي الملائكة وأن قوله ﴿ وعنده أُمُّ الكتاب ﴾ اللوح المحفوظ ويدل علىٰ هذا الوجه سياق الآية وهو قوله ﴿ **لكل أجل كتاب** ﴾ ثم قال ﴿ **يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ** ﴾ أي من ذلك الكتاب . ﴿ **وَعِندَهُ أُمُّ** الكتاب ﴾ أي أصله وهو اللوح المحفوظ وقيل يمحو الله ما يشاء من الشرائع وينسخه ويثبت ما يشاء فلا ينسخه والسياق أدل علىٰ هذا الوجه من الوجه الأول . . .[2].

❊ ❊ ❊

---

(١) راجع المصدر نفسه ص٥١٧/٨ ، وانظر أيضًا القضاء والقدر للدكتور عمر سليمان الأشقر ص٦٦-٦٧ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص١٣١ ـ ١/٤٣٢ .

المبحث السادس

بيان أن الآجال والأرزاق وغيرها لا تزيد ولا تنقص عما سبق به القدر

المطلب الأول

رأي الإمام النووي

يرىٰ الإمام النووي أن لكل مخلوق أجل يموت فيه لا يتقدم عنه ولا يتأخر وأن المقتول مات بأجله الذي قتل فيه ولم يقطع القاتل عليه الأجل كما يزعم المعتزلة[(١)] ولقد تقرر بالدلائل القطعية أن الله تعالىٰ أعلم بالآجال والأرزاق وغيرها، وحقيقة العلم معرفة المعلوم علىٰ ما هو عليه فإذا علم الله أن زيدًا يموت سنة خمسمائة استحال أن يموت قبلها أو بعدها لئلا ينقلب العلم جهلاً فاستحال أن الآجال التي علمها الله تزيد وتنقص[(٢)].

* * *

(١) انظر شرح صحيح مسلم للنووي ص١٤٧/ ١٦، ص١٧٤ ـ ١٧٥/ ١٦.

(٢) انظر شرح صحيح مسلم للنووي ص٩٣/ ١٦.

المطلب الثاني

موافقة الإمام لمنهج السلف

إن الذي قرره الإمام النووي موافق لمذهب السلف الصالح يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ (المقتول كغيره من الموتى لا يموت أحد قبل أجله ولا يتأخر أحد عن أجله، بل سائر الحيوانات والأشجار لها آجال لا تتقدم ولا تتأخر فإن أجل الشيء هو نهاية عمره، وعمره مدة بقائه فالعمر مدة البقاء والأجل نهاية العمر بالإنقضاء. وقد ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال «**قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء**»(١) وثبت في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: «**كان الله ولم يكن شيء قبله وكان عرشه على الماء وكتب في الذكر كل شيء وخلق السموات والأرض ـ وفي لفظ ـ ثم خلق السموات والأرض**»(٢) وقد قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ﴾(٣) والله يعلم ما كان قبل أن يكون، وقد كتب ذلك فهو يعلم أن هذا يموت بالبطن وذات الجنب أو الهدم أو الغرق أو غير ذلك من الأسباب وهذا يموت مقتولاً إما بالسم وإما بالسيف، وإما بالحجر وإما بغير ذلك، وعلم الله بذلك وكتابته له مشيئته وخلقه لكل شيء لا يمنع المدح والذم والثواب والعقاب. فالقاتل بحق كالمجاهد في سبيل الله يثاب ويمدح والقاتل بغير حق يقتص منه ويذم)(٤).

* * *

---

(١) تقدم تخريجه ص١٠٨.

(٢) رواه البخاري في ك بدء الخلق باب ما جاء في قوله تعالى: ﴿**وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه**﴾ ٦/ ٣٣٠ ـ ٣٣١ برقم ٣١٩١.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ٣٤، وسورة النحل، الآية: ٦١.

(٤) مجموع الفتاوىٰ لشيخ الإسلام ٥١٦ ـ ٨/٥١٧.

المطلب الثالث

معنى الزيادة في العمر الواردة في الحديث لمن وصل رحمه

جاء في الحديث المتفق عليه[1] أن رسول الله ﷺ قال: **«من سره أن يُبسط له في رزقه وينسأ له في أثره فليصل رحمه»**[2].

وقد اختلف العلماء ـ رحمهم الله ـ في معنى هذه الزيادة في العمر المذكورة في هذا الحديث:

١ ـ فقال بعضهم: المراد بها البركة فيه بسبب التوفيق إلى الطاعة وعمارة العبد وقته بما ينفعه في الآخرة وحصول القوة في الجسد لأن صلة الأقارب صدقة، والصدقة تربي المال وتزيد فيه فينمو ويزكو، لأن أجل المرء مكتوب عليه وهو في بطن أمه فلا يزيد ولا ينقص.

٢ ـ وقال بعضهم: المراد بالزيادة في العمر نفي الآفات عن صاحب البر في فهمه وعقله.

٣ ـ وقيل المراد بقاء ذكره الجميل بعد الموت فلا يضمحل سريعًا كما يضمحل أثر قاطع الرحم.

٤ ـ وزعم بعضهم أن المراد بذلك قلة البقاء في البرزخ.

٥ ـ وقال بعضهم إن الزيادة على حقيقتها وذلك بالنسبة إلى علم الملك الموكل

---

(١) رواه البخاري في ك البيوع ٤/ ٣٥٣ برقم ٢٠٦٧ وفي ك الأدب ١٠/ ٤٢٩ برقم ٥٩٨٥، ومسلم بشرح النووي، في كتاب البر والصلة باب صلة الرحم وتحريم قطعها ١٦/ ٩٣ برقم ٢٥٥٧.

(٢) ينسأ بضم أوله وسكون النون بعدها أي يؤخر له. والأثر هنا الأجل وسمي كذلك لأنه يتبع لعمر أو لأنه تابع للحياة في أثرها كما قال الشاعر زهير:

المرء ما عاش ممدود له أمل ... لا ينقضي العمر حتى ينتهي الأثر

انظر: فتح الباري ٤/ ٣٥٣، وشرح النووي لمسلم ١٦/ ٩٣.

بالعمر، أما العلم الأول الذي دل عليه قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ولا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[1] فذلك بالنسبة إلىٰ علم الله، كأن يقال للملك مثلاً: إن عمر فلان مائة سنة إن وصل رحمه وستون إن قطعها، وقد سبق في علم الله أنه سيصل أو يقطع، فالذي في علم الله لا يتقدم ولا يتأخر، والذي في علم الملك هو الذي يمكن فيه الزيادة والنقصان وإليه الإشارة بقوله تعالىٰ: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[2] فالمحو والإثبات بالنسبة لما في علم الملك، وما في أم الكتاب فهو في علم الله تعالىٰ فلا محو فيه البتة ويقال له القضاء المبرم ويقال للأول القضاء المعلق، والحكمة من ذلك إبلاغ المكلف ليعلم فضل البر وشؤم القطيعة[3].

رأي الإمام النووي في معنى الزيادة في العمر

اختار الإمام النووي ـ رحمه الله ـ الرأي الأول والأخير ووصفهما بالصحيح وجعل الرأي الأخير هو مراد الحديث فقال رحمه الله (وأجاب العلماء بأجوبة الصحيح منها: أن هذه الزيادة البركة في عمره، والتوفيق للطاعات وعمار أوقاته بما ينفعه في الآخرة وصيانتها عن الضياع في غير ذلك.

والثاني: أنه بالنسبة إلىٰ ما يظهر للملائكة وفي اللوح المحفوظ ونحو ذلك فيظهر لهم في اللوح أن عمره ستون سنة إلا أن يصل رحمه فإن وصلها زيد له أربعون وقد علم الله سبحانه وتعالىٰ ما سيقع له من ذلك وهو من قوله تعالي: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ فيه بالنسبة إلىٰ علم الله تعالىٰ وما سبق به قدره ولا زيادة بل هي مستعملة وبالنسبة إلىٰ ما ظهر للمخلوقين نتصور الزيادة وهو مراد الحديث.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٣٤، وسورة النحل، الآية: ٦١.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٣٩.

(٣) انظر فتح الباري ص٣٥٣ ـ ٣٥٤/ ٤، ٤٣٠/ ١٠، وشرح الطحاوية ص ١٢٩ ـ ١٣٢/ ١.

والثالث: أن المراد بقاء ذكره الجميل بعده فكأنه لم يمت حكاه القاضي وهو ضعيف أو باطل والله أعلم)[1].

الرأي الراجح في المسألة

يظهر والله أعلم أن الرأي الأخير الذي جعله الإمام النووي هو مراد الحديث هو الراجح المختار لأن الحديث لا يتعارض مع الآية الكريمة التي تنص على أن الأجل إذا جاء لا يزيد ولا ينقص لمن تأمل ذلك، فالله تعالى قد كتب في اللوح المحفوظ لكل عبد أجله الذي لا يتغير ولا يتبدل وعلم من سيصل رحمه ممن يقطعها فكتب له الأجل على ما قدر سبق به علمه الذي لا يعتريه شك البتة فالأجل ينتهي كما قدره الله عز وجل فإن كان العبد واصلاً للرحم زيد له في عمره كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ وإن كان قاطعًا للرحم لم يزد له في أجله.

فإن الأجل نوعان ـ كما أشار كذلك شيخ الإسلام ابن تيمية[2] رحمه الله (أجل مطلق يعلمه الله وأجل مقيد يوضحه حديث «من سره أن يبسط في رزقه وينسأ في أثره فليصل رحمه»[3] فإن الله أمر الملك أن يكتب له أجلاً وقال: (إن وصل رحمه زدته كذا وكذا والملك لا يعلم أيزاد أم لا لكن الله يعلم ما يستقر عليه الأمر فإذا جاء ذلك لا يتقدم ولا يتأخر.



---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص٩٣/١٦.

(٢) انظر مجموع فتاوي شيخ الإسلام ٥١٧/٨.

(٣) متفق عليه وقد تقدم تخريجه.

المطلب الرابع

حكم تمني الموت وعلاقته بالقضاء والقدر

إن المؤمن بالله عز وجل وقضائه وقدره يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطأه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فهو يسلم أمره لله تعالى على ما ينزل به من مصائب وكروب وغيرها ويوقن أن ذلك ابتلاء من الله له وامتحان لتكفير السيئات ورفع الدرجات، لأنه يعلم أن ربه عز وجل لا يقدر لعبده المؤمن إلا الخير، وهو سبحانه يعلم وحده ما يصلح ويتناسب لأولياءه المؤمنين، من سراء وضراء يوصلهم لهذا الخير العظيم الذي هم عاجزون عن إدراك كنهه وأسبابه، لضعفهم وجهلهم كما قال تعالى: ﴿**وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾[1].

لذا كان موقف المؤمن بالقضاء والقدر أنه يزداد شكرًا إن حلت به نعمة وفضل، ويزداد صبرًا إن نزلت به مصيبة أو فقر ويسلم لله أمره فيجد عندئذ حلاوة الإيمان في قلبه وقد أشار ﷺ إلى حالة المؤمن هذه وامتدحها بقوله «**عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن**»[2].

لذا نهى الرسول ﷺ المؤمن وكره له أن يتمنى الموت إن حلت به مصيبة أو بلاء، لأن في ذلك نوع اعتراض ومراغمة للقضاء والقدر وتقصيرًا بواجب الصبر على البلاء الذي أمرنا الله به ورسوله. فقد قال ﷺ: «**لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به، فإن كان لابد متمنيًا للموت فليقل اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي**» متفق عليه[3].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.

(٢) تقدم تخريجه ص١١١.

(٣) رواه البخاري في كتاب المرضى باب تمني الموت ١٠/ ١٣٢ برقم (٥٦٧١)، ومسلم في ك الذكر باب كراهية تمني الموت لضر نزل به ٧/ ١٧ برقم ٢٦٨٠.

١ ـ رأي الإمام النووي في حكم تمني الموت:

بين الإمام النووي ـ رحمه الله ـ حكم تمني الموت فأجازه إذا كان لضرر ديني ومنعه إذا كان لضرر دنيوي فقال عند شرحه للحديث المتقدم (فيه التصريح بكراهة تمني الموت لضر نزل به من مرض أو فاقة أو محنة من عدو أو نحو ذلك من مشاق الدنيا فأما إذا خاف ضرراً في دينه أو فتنة فيه فلا كراهة فيه لمفهوم هذا الحديث وغيره وقد فعل هذا الثاني خلائق من السلف عند خوف الفتنة في أديانهم وفيه أنه إن خالف ولم يصبر على حاله في بلواه بالمرض ونحوه فليقل اللهم أحيني إن كانت الحياة خيراً لي إلخ والأفضل الصبر والسكون للقضاء)[(١)].

٢ ـ رأي أهل السنة في حكم تمني الموت والدعاء به أو بغيره من الأمور وموافقة الإمام له

لقد نص العلماء[(٢)] ـ رحمهم الله ـ أنه يجوز للمرء أن يدعو بالموت ويتمناه إذا خشي على نفسه فتنة في دينه أو ضرراً فقد فعل ذلك جماعة من السلف الصالح ـ رحمهم الله ـ منهم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فقد قال: «اللهم كبرت سني وضعفت قوتي وانتشرت رعيتي فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط»[(٣)]، أما تمني الموت لسبب ضر دنيوي من نزول مصيبة أو فقر، أو مرض، أو غير ذلك فإنه لا يجوز كما جاء النهي عن ذلك في الحديث تقدم معنا، لما في ذلك من نوع الإعتراض على القضاء والقدر وعدم التسليم لله تعالى في ذلك.

فاتضح بما ذكرت حكم تمني الموت وعلاقة هذا الأمر بالقضاء والقدر. وبقي أن أشير هنا إلى أنه لم يشرع لنا الدعاء بتغيير الأعمال لأنها قد قدرت وفرغ منها إذ لا فائدة من ذلك، ولذا أنكر النبي ﷺ على زوجته أم حبيبه[(٤)] ـ رضي الله عنها ـ عندما

---

(١) شرح صحيح مسلم للنووي ص١٧/٧.

(٢) انظر: شرح النووي لصحيح مسلم ٨/١٦، وفتح الباري ١٠/ ١٣٣.

(٣) فتح الباري ١٠/ ١٣٣.

(٤) هي أم المؤمنين أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان رضي الله عنها: تزوجها النبي ﷺ قبل إسلام أبيها =

قالت (اللهم متعني بزوجي رسول الله وبأبي أبي سفيان وأخي معاوية فقال لها ﷺ «قد سألت الله تعالىٰ لآجال مضروبة وأيام معدودة وأرزاق مقسومة لن يعجل شيئًا قبل أجله، ولن يؤخر شيئًا عن أجله، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب في النار أو عذاب في القبر كان خيرًا وأفضل»[1].

ولهذا كان الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ يكره أن يدعي له بطول العمر ويقول هذا أمر قد فرغ منه[2].

أما الدعاء بغير طول العمر، مثل طلب الوقاية من عذاب النار والفوز بالجنة وغير ذلك مما فيه الخير في الدنيا والآخرة وليس فيه اعتداء أو إثم أو قطيعة رحم، فإنه مشروع ومرغب فيه لأنه من أنواع العبادة، فقد قال النبي ﷺ: «**الدعاء هو العبادة**»[3] وأخبر عليه الصلاة والسلام أن القدر لا يرده إلا الدعاء فقال: «**لا يرد القدر إلا الدعاء**،

= أبي سفيان صخر توفي عنها زوجها الذي هاجر إلىٰ الحبشة فمات مرتدًا هناك، فأرسل النبي ﷺ إلىٰ النجاشي يخطبها فأصدقها من عنده أربعمائة (٤٠٠) دينار فلما بلغ أباها ذلك قال ذلك الفحل (يعني ﷺ) لا يقرع أنفه، أي كفء كريم لا يرد روت رضي الله عنها أكثر من ستين حديثًا، وهي أقرب زوجاته ﷺ نسبًا إليه لأنها ابنة عمه، وهي أكثر نسائه صداقًا والوحيدة التي تزوجها وهي نائية الدار عنه، كان لها رضي الله عنها حرمة وجلالة ولا سيما في دولة أخيها معاوية ولمكانه منها قيل له خال المؤمنين. توفيت سنة ٤٢هـ. انظر ترجمتها في الاستيعاب ٤/ ٢٩٦، ٢٩٩ الإصابة ٤/ ٢٩٨.

(١) رواه مسلم في ك القدر باب بيان أن الأرزاق والآجال لا تزيد ولا تنقص ١٧٤/ ١٦ بشرح النووي، برقم ٢٦٦٣، وأحمد ١/ ٣٩٠، ٤١٣.

(٢) شرح الطحاوية ص ١٣١/ ١.

(٣) رواه أحمد ٤/ ٢٧١، وأبو داود في ك الصلاة باب الدعاء ٢/ ٦١ برقم (١٤٧٩)، والترمذي في ك تفسير القرآن باب ومن سورة البقرة ٤/ ١٩٤ برقم (٢٩٦٩)، وقال حديث صحيح، وابن ماجه في ك الدعاء باب فضل الدعاء ٢/ ١٢٥٨ برقم (٣٨٢٨) والحاكم ١/ ١٩٥ وقال صحيح الاسناد ووافقه الذهبي.

ولا يزيد في العمر إلا البر وإن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»[1].

وقد ذم الله عز وجل ورسوله التاركين لهذه العبادة ـ الدعاء ـ فقال تعالى: ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾[2]، وقال رسول الله ﷺ: **«من لم يسأل الله يغضب عليه»**[3].

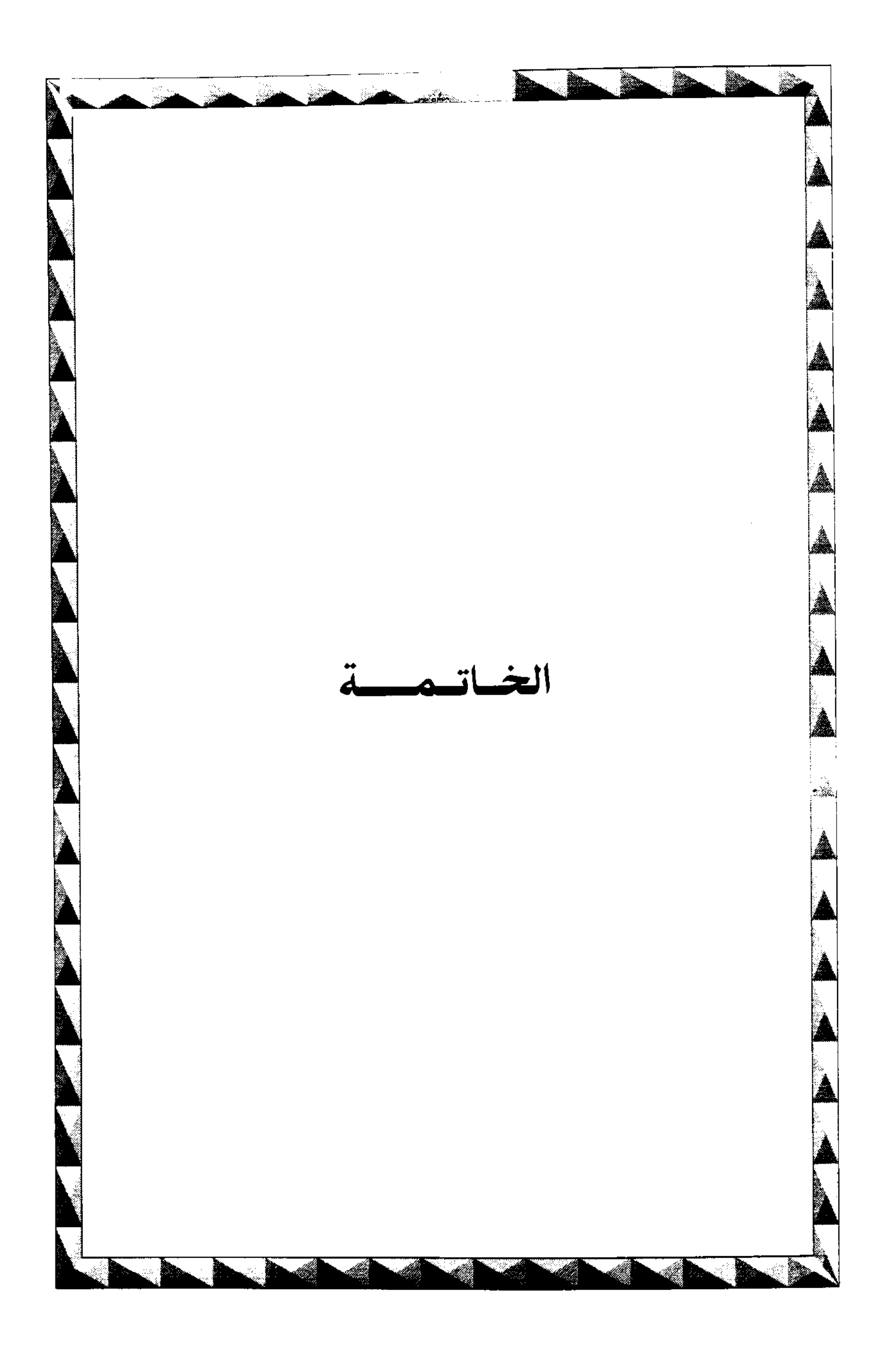
* * *

---

(١) رواه أحمد ٥/ ٢٧٧، ٢٨٠، ٢٨٢، والترمذي في ك القدر باب ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء ٤/ ٣٩٠ برقم ٢١٣٩ وابن ماجه في ك الفتن باب العقوبات ٢/ ١٣٣٤ برقم ٤٠٢٢، وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٦/ ٢٣٠ برقم ٧٥٦٤.

(٢) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(٣) رواه الترمذي في ك الدعوات باب (٢) ٥/ ٤٢٦ برقم ٣٣٧٣ وصححه الشيخ الألباني في صحيح الجامع ٢/ ٣٠٤ برقم ٢٤١٤.



الخاتمة

لقد انتهيت - بعون الله تعالىٰ وتوفيقه - من دراسة منهج الإمام النووي في تقرير مسائل الإعتقاد ومن خلال كتابه (شرح صحيح مسلم) عرضًا ونقدًا في ضوء عقيدة أهل السنة والجماعة.

وأودّ في هذه الخاتمة أن أجمل أهم النتائج التي توصلت إليها فيما يلي:

١ - أن الإمام النووي نشأ وعاش في بيئة كانت الحالة الدينية فيها مشوبة بكثير من البدع والخرافات، وكان للعقيدة الأشعرية فيها سلطان وانتشار واسع، بحيث يكون من يخالفها في خطر.

٢ - أن الإمام النووي بدأ حياته العلمية في وقت مبكر جدًا، وأخذ العلم علىٰ أيدي مشايخ وكان لاختلاف مشاربهم واتجاهاتهم وتخصصاتهم أثر كبير في مجرىٰ حياته.

٣ - أن الله تعالىٰ منح الإمام النووي مواهب نفيسة، وهيأ له أسبابًا كثيرة جعلته يبلغ إلىٰ مرتبة عليا في العلم، ويصبح أحد أعلام الأمة الإسلامية ومشاهير علمائها المعدودين.

٤ - أن علم العقيدة هو أحد العلوم التي تكلم الإمام عنها في كتاب «شرح صحيح مسلم» وغيره، وكان موقفه في بعض مسائلها موافق للسلف كموقفه من معرفة وجود الله وأنها فطرية، وأن أول واجب علىٰ المكلف الشهادتان وليس النظر وإثبات خلق الله أفعال العباد وغيرها من مسائل ولكن كان مخالفًا في بعض مسائل الأسماء، وفي باب الصفات، والذي يظهر لي والله أعلم أنه كان في هذا الباب غير محقق، فكان نقله في هذا الباب واضحًا ولم يحقق تلك الأقوال، وتأرجح مذهبه بين التفويض والتأويل مما يدل علىٰ أن الإمام لم يدرس علم العقيدة علىٰ المنهج السلفي، بل درسها علىٰ أيدي مشايخ كانوا علىٰ غير منهج السلف في العقيدة بل كانوا أشاعرة تبعًا لحالة العصر. وعندما نقل تلك الأقوال في تأويل الصفات لم يكن قد أرصد لها ما يدفعها

في نفسه كما دفع غيرها من الشبه، وخاصة أنه كان لا يخاف في الله لومة لائمة والله أعلم.

٥ ـ أن الإمام النووي قد ترك للعلماء وطلاب العلم من بعده تراثًا علميًا ضخمًا ـ خصوصًا في فنون علم الحديث واللغة ـ يحيىٰ ذكره في الدنيا ويناله أجره في الآخرة إن شاء الله تعالىٰ.

٦ ـ أن كتابه (شرح صحيح مسلم) يعدّ أهم كتبه على الإطلاق، من حيث موضوعه، ومادته العلمية، ومن حيث عناية الإمام به، وطول المدّة التي قضاها في تأليفه وتحريره.

٧ ـ أن «شرح صحيح مسلم» قد احتوىٰ علىٰ جلّ مسائل العقيدة التي يبحثها العلماء في كتب العقيدة، وذلك لأنه شرح كتاب جامع لأدلة السنة في جميع أبواب الدين. وأهمها باب العقيدة.

٨ ـ استقىٰ الإمام معلوماته في العقيدة من مصادر كثيرة متنوعة.

٩ ـ اعتمد الإمام كثيرًا في تقرير مسائل العقيدة علىٰ كلام بعض أهل العلم من شراح صحيح مسلم قبله، ومن شراح البخاري ومن غيرهم. وفي مقدمة الذين اعتمد عليهم الإمام: المازري في كتاب المعلم، والخطابي في كتابه: أعلام السنن في شرح صحيح البخاري، ومعالم السنن في شرح سنن أبي داود، وابن بطال في شرح البخاري. والقاضي عياض، والقرطبي، كلهم في شرح صحيح مسلم، وابن العربي في شرح البخاري، وشرح الترمذي.

١٠ ـ إن الإمام النووي قد عاش في القرن الذي وجد فيه وهو القرن السابع الهجري كثير من محدثي هذا القرن حتىٰ أنه كان يسمىٰ عصر المدرسة الحديثية، وكانت عامرة بما احتوته من جهابذة العلم، وكبراء محديثها فاستفاد منها خير استفادة، بحيث تخرج منها حافظًا متقنًا، وإمامًا مجتهدًا، ولغويًا متضلعًا، وزاهدًا

ورعًا. اكتسب ذلك من شيوخ أعلام وأساتذة عظام منهم المحدثون ومنهم الفقهاء ومنهم اللغويون.

١١ ـ اعتمد الإمام كثيرًا في تقرير مسائل العقيدة على كلام بعض أهل العلم من شراح صحيح مسلم قبله، ومن شراح البخاري ومن غيرهم وفي مقدمة الذين اعتمد عليهم الإمام: المازري في كتابه المعلم، والخطابي في كتابيه «أعلام السنن في شرح صحيح البخاري»، و «معالم السنن في معالم في شرح سنن أبي داود»، وابن بطال في «شرح البخاري» والقاضي عياض في كتابه المعلم، والقرطبي، كلهم في شرح صحيح مسلم. وابن العربي في شرح البخاري و (شرح الترمذي)، فهؤلاء ممن تبين للباحثة أن الإمام اعتمد عليهم أكثر من غيرهم في شرح الأحاديث بما تتضمنه من مسائل العقيدة، إضافة إلى الإمام مسلم نفسه صاحب الصحيح، مع خطأ أحيانًا في فهم مقصوده من كلامه.

وهؤلاء المذكورون غير الإمام مسلم ممن يعلم أهل العلم أنهم متأثرون بالعقيدة الأشعرية، وأنهم في كتبهم المذكورة يقررون معظم مسائل العقيدة وخصوصًا الأسماء والصفات على منهج الأشاعرة، واعتماد الإمام النووي على هؤلاء وغيرهم من العلماء ليس اعتماد تقليد في غير باب العقيدة، وإنما أخذ ببعض أقوالهم عن اجتهاد واقتناع بأنه هو الحق والصواب الموافق للأدلة حسب ما ظهر له بدليل أنه في بعض المواضع يقف منهم موقف الناقد الرّاد بما ظهر له من الأدلة.

أما في العقيدة فظهر لي والله أعلم أنه جرى فيها مجرى التقليد، فأخذ نقولهم فيها بدون تحقيق.

١٢ ـ أن الإمام لم يسر في تقريره لمسائل الاعتقاد في كتابه (شرح صحيح مسلم) على منهج واحد، وإنما كان منهجه متأرجحًا بين السلفية وا لأشعرية، بحيث تجده في بعض المسائل مع المنهج السلفي مقررًا مؤيدًا، وفي بعضها مع المنهج الأشعري مقررًا

ومؤيدًا، وهذا من حيث العموم، وأما من حيث التفصيل فكما يلي:

أولاً: في منهج الاستدلال:

* وافق السلف على الاحتجاج بأخبار الآحاد في العقيدة، ويرى أن خبر الواحد يفيد العلم إن احتفت به القرائن.

* وافق المتكلمين على تقديم العقل على النقل خاصة عند باب الأسماء والصفات فما قرره العقل ثم وافق النقل أثبته وما نفاه العقل حتى ولو قرره النقل نفاه خاصة في الصفات، ولكن وافق منهج السلف في أنه ليس للعقل حق التشريع، بل لا شرع قبل النقل، ولا تحريم ولا تحليل بدون الشرع.

ثانيًا: في الإيمان بالله وتوحيده.

* وافق السلف ضمنيًا على انقسام التوحيد إلى ربوبية، وألوهية وأسماء وصفات.

* كما وافقهم في الجملة على تعريف كلاً من هذه الأنواع الثلاثة.

ثالثًا: في توحيد الربوبية:

* قرر انفراد الله تعالى بالربوبية، وعدم جواز إطلاق لفظ (رب) بإطلاق من دون قيد إلا على الله تعالى.

* وافق السلف على أن معرفة الله في الأصل فطرية في البشر.

* وافق السلف في صحة إيمان المقلد إذا سلم من الشبهات والتزلزل.

* رد على المتكلمين في قولهم بأن معرفة الله تعالى نظرية، وفي إيجابهم النظر على العبيد، وزعمهم أنّ إيمان المقلد لا يصح.

* قرر الإمام أن معرفة الله تعالى لا تنحصر في طريقة بعينها بحيث لا يعرف الله تعالى إلا منها، وإنما الأدلة الدالة على وجود الله تعالى كثيرة ومتنوعة.

* ووافق السلف في الاستدلال علىٰ وجود الله باستخدامه نفس الأدلة التي استخدموها.

رابعًا: في توحيد الألوهية ونواقضه:

* قرر الإمام وجوب اجتناب الشرك بأنواعه، وأنه أظلم الظلم وأعظم الذنوب علىٰ الإطلاق.

* زلت قدم الإمام في بعض مسائل توحيد الألوهية، حيث جوّز الاستشفاع بالصالحين بعد موتهم، والتبرك بهم وبآثارهم وفضلاتهم الطاهرة، وجوّز شدّ الرحال إلىٰ قبورهم لقصد التبرك بها.

خامسًا: في أسماء الله تعالى:

* وافق أهل السنة والجماعة في أن أسماء الله تعالىٰ لا تنحصر في عدد معين.

* وافق أهل السنة والجماعة في مبدأ التوقيف في أسماء الله تعالىٰ.

* وافق الأشاعرة في تأويله بعض معاني الأسماء إذا كانت تدل علىٰ صفة ينفونها مثل اسم النور، والظاهر.

سادسًا: في صفات الله تعالى:

* وافق السلف في إثبات أن لله صفات كما دل عليه الكتاب والسنة.

* وافق السلف في أنّ صفات الله تعالىٰ توقيفية، فلا يوصف الله تعالىٰ إلا بما ثبت نصًا وصفه به في الكتاب أو في السنة.

* وافق السلف علىٰ أن صفات الله تعالىٰ تحذو حذو الذات، فكما أن ذات الله تعالىٰ لا تشبه الذوات، فكذلك صفاته لا تشبه الصفات. فهذه قاعدة عظيمة قررها الإمام، لكنه - مع الأسف - لم يلتزم بها عند الكلام علىٰ آحاد الصفات الإلهية، والله المستعان.

* وافق السلف في تقسيم الصفات إلىٰ ذاتية وفعلية، ولكن هذه الموافقة في

التقسيم اللفظي، وأما في المراد بكل نوع منهما فإنه لم يوافق السلف في ذلك، لما يلي:

* وافق الأشاعرة في جعل الصفات الذاتية قائمة بالله تعالىٰ أزلاً وأبدًا، وجعل الصفات الفعلية غير قائمة به سبحانه، وإنما يستحقها فيما لا يزال، وهي ثابتة له بالقدرة والإرادة.

* خالف منهج السلف في تفسير نصوص الصفات، فجوّز فيها التفويض أو التأويل.

سابعًا: في الألفاظ لم يرد في الشرع إثباتها ولا نفيها:

خالف فيها منهج أهل السنة والجماعة، حيث جرىٰ علىٰ نفيها نفيًا مطلقًا من غير استفصال. ومنهج أهل السنة هو الاستفصال فيها.

ثامنًا: في رؤية الله تعالىٰ.

* وافق أهل السنة علىٰ أن الله لا يرىٰ بالعين في الدنيا.

* وافق بعض أهل السنة علىٰ وقوع الرؤية لنبينا محمد ﷺ في ليلة الإسراء.

* وافق أهل السنة علىٰ إثبات رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة، ولكنه مع ذلك ينفي الجهة.

* يرىٰ الإمام أن الكفار لا يرون الله ألبتة في الآخرة.

تاسعًا: في مباحث الإيمان:

* وافق السلف في تعريف الإيمان وأنه: قول باللسان، واعتقاد بالقلب، وعمل بالجوارح، وأنه يزيد وينقص بالأمور المعتبرة فيه.

* قرر أن الإيمان والإسلام إذا ذكرا معًا في سياق واحد حمل الإسلام علىٰ الأعمال الظاهرة، والإيمان علىٰ الاعتقاد الباطن، وإذا ذكر كلّ منهما علىٰ حدة

تضمن معنى الآخر، فإذا اقترنا افترقا، وإذا افترقا اقترنا.

* وافق أهل السنة على أن مرتكب الكبيرة لا يكفر، بل هو مؤمن ناقص الإيمان، وإذا مات مصراً على كبيرته فهو تحت المشيئة.

عاشراً: في الإيمان بالملائكة:

* قرر أن للملائكة وظائف وأصناف كثيرة كما أثبت ذلك أهل السنة والجماعة.

* وافق السلف رحمهم الله في إثبات أن للملائكة صفات اتصفوا بها.

* قرر مذهب السلف بأن صالح البشر من الآدميين أفضل من الملائكة.

حادي عشر: في الإيمان بالكتب:

* قرر ضمنيًا وجوب الإيمان بجميع الكتب المنزلة.

* وافق أهل السنة في أن القرآن هو المعجزة الخالدة إلى يوم القيامة.

* كما وافق السلف بأن القرآن هو كلام الله، أنزله على نبيه محمد ﷺ.

ثاني عشر: في الإيمان بالرسل.

* هو موافق لأهل السنة في النبوات في الجملة.

* قرر عصمة الأنبياء من الصغائر كما هو معصومون من الكبائر، وهو خلاف القول المعروف عن السلف وأكثر أهل السنة.

* لم يكن له موقف واضح من نبوة النساء.

* قرر ختم النبوّة بمحمد ﷺ، وعموم رسالته للثقلين، وأنّه أفضل الأنبياء على الإطلاق.

* قرر مذهب السلف بالقول بجواز التفاضل بين الأنبياء ولكن ليس على وجه الحمية، بل بما فضل الله بعضهم على بعض.

ثالث عشر: في الإيمان باليوم الآخر.

* وافق أهل السنة في التصديق بفتنة القبر وعذابه ونعيمه، وأنّ ذلك على الروح والبدن معًا.

* قرر أن الأنبياء أحياء في قبورهم حياة برزخيّة، ولكنه ذكر في بعض الأحيان عبارات قد يفهم منها أن حياتهم حقيقيّة كالحياة الدنيويّة، وهذا ليس بصحيح، بل الصحيح أن حياتهم برزخيّة.

* قرر الإيمان بأشراط الساعة التي أخبرت عنها الأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ.

* أثبت الميزان يوم القيامة، وأن الذي يوزن في الميزان هو الأعمال.

* وافق أهل السنة في إثبات الشفاعة يوم القيامة، وخالف السلف في إثبات خمس أنواع من الشفاعة وغموض موقفه من شفاعة النبي ﷺ لعمه أبي طالب.

* وافق أهل السنة في وجود الجنة والنار الآن، وأنهما مخلوقتان وباقيتان بإبقاء الله لهما. وأهلهما خالدون فيهما أبدًا.

رابع عشر: في القضاء والقدر:

* وافق أهل السنة في تعريف القدر، وفي مراتبه الأربعة.

* وافق أهل السنة في خلق أفعال العباد.

* وافق الأشاعرة في القول بالكسب الأشعري.

خامس عشر: في بعض الأحكام المتعلقة بأفعال الله تعالى:

* وافق أهل السنة في إثبات الحكمة في أفعال الله تعالىٰ.

* خالف أهل السنة والجماعة في إثبات التعليل في أفعال الله تعالىٰ. حيث قال أن الله لا علة لأفعاله.

* وافق الأشاعرة في مسألة التحسين والتقبيح العقليين.

* وافق أهل السنة في عدم وجوب شيء على الله تعالى، إلا ما أوجبه الله على نفسه.

* يظهر من كلامه على مسألة تكليف ما لا يطاق أنه لا يقوله به.

سادس عشر: في الصحابة.

* وافق أهل السنة والجماعة في اعتقاد فضل الصحابة وعدالتهم، وفي محبتهم والترضي عنهم جميعًا، والكفّ عمّا شجر بينهم.

* وافق أهل السنة والجماعة على صحة خلافة الخلفاء الراشدين، وعلى أنّ ترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الخلافة.

* وافق أهل السنة والجماعة على أن الطعن في الصحابة علامة على خذلان صاحبه، وهو بدعة وضلالة.

سابع عشر: في البدع والفرق المبتدعة:

* وافق أهل السنة على إنكار البدع بأنواعها.

* جانب الصواب في تقسيمه البدع إلى حسنة وسيئة، وإلى الأحكام الخمسة.

* وافق أهل السنة والجماعة على ذم الفرق المبتدعة، والردّ على بدعهم المختلفة.

كان هذا عرضًا موجزًا لمنهج الإمام في تقرير مسائل الاعتقاد من خلال كتابه «شرح صحيح مسلم» كما توصلت إليها الباحثة من دراستها لهذا الموضوع وبناءً على ماسبق تقرر الباحثة ما يلي:

١ - لم يكن الإمام النووي أشعري المذهب في جزئيات العقيدة ولا في كلياتها، وإنما وافق الأشاعرة في مسائل، وخالفهم في مسائل أخرى في أصول مذهبهم.

٢ ـ لقد كان الإمام النووي ذابًا عن السنة، محبًا للسلف مفضلاً لمذهبهم وطريقتهم في العقيدة، كما كان ذامًا للبدعة، مبغضًا للمبتدعة، محذرًا من مذهب أهل الكلام، وله في كل ذلك كلام صريح واضح، وإن كان ينسب نفسه لعلم الكلام بقوله «أصحابنا المتكلمون» فهو ولا شك لا يقصد علم الكلام المحظور الذي بينا معناه فيما سبق.

٣ـ يعد كتاب «شرح صحيح مسلم» من كبار كتب العلم التي لا يستغني عنها عالم فضلاً عن طالب علم، وهو من الكتب التي أسهمت في الدعوة إلى عقيدة السلف الصالح في جوانب عديدة، والأخذ بمذهبهم في أمور الديانة، مع نقل جملة طيبة من أقوال علماء السلف في ذلك، وإن كان قد أخطأ في جوانب عديدة، سبق بيانها في هذا البحث.

وهو كذلك من الكتب التي أسهمت في الرد على الفرق المبتدعة بأصنافها، وفي فضح باطلهم، والتحذير من بدعهم.

وإذا ثبت هذا فالموقف الصحيح من الإمام النووي ومن كتابه شرح صحيح مسلم هو أن يترحم عليه، ويستغفر له، وأن يسأل الله تعالى أن يجزل له الأجر والثواب فيما أصاب فيه، وأن يعفو عنه ما حصل من خطأ غير مقصود، مع ضرورة بيان هذه الأخطاء لتجنّب، ولئلاّ يأخذ بها من يجهل حاله.

وهذا هو المنهج الصحيح المعروف عن أئمة أهل السنة وا لجماعة في مثل هذه المواقف.

قال الإمام ابن رجب الحنبلي ـ رحمه الله ـ: «لا يزال الناس بخير ما كان فيهم الحقّ وتبيين أوامر الرسول ﷺ التي يخطئ من خالفها، وإن كان معذورًا مجتهدًا مغفورًا له، وهذا مما خصّ الله به هذه الأمة لحفظ دينها الذي بعث الله به رسوله ﷺ أن لا تجتمع على ضلالة، بخلاف الأمم السالفة.

فههنا أمران: (أحداهما): أن من خالف أمر الرسول في شيء خطأ مع اجتهاده في طاعته ومتابعته أوامره فإنه مغفور له، لا ينقص درجته بذلك. و (الثاني): أنه لا يمنعنا تعظيمه ومحبته من تبيين مخالفة قوله لأمر الرسول ﷺ، ونصيحة الأمة بتبيين أمر الرسول ﷺ، ونفس ذلك الرجل المحبوب المعظم لو علم أن قوله مخالف لأمر الرسول، فإنه يحب من يبين للأمة ذلك، ويرشدهم إلىٰ أمر الرسول، ويردهم عن قوله في نفسه. وهذه النكتة تخفىٰ علىٰ كثير من الجهال لأسباب، وظنهم أنّ الردّ علىٰ معظم من عالم وصالح تنقّص به، وليس كذلك، وبسبب الغفلة عن ذلك تبدل دين أهل الكتاب، فإنهم اتبعوا زلات علمائهم، وأعرضوا عما جاءت به أنبياؤهم، حتىٰ تبدل دينهم، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله»[1].

وقال الشيخ حمد بن ناصر بن عثمان آل معمر [2]- رحمه الله -: «واعلم- رحمك الله - أن الرجل الجليل الذي له في الإسلام قدم صادق، وآثار حسنة، وهو من الإسلام وأهله بمكان، قد يكون منه الهفوة والزلة، وهو فيها معذور، بل مأجور لاجتهاده، فلا يجوز أن يتبع فيها، ولا يجوز أن يغمط مكانه وإمامته ومنزلته في قلوب المسلمين»[3].

قلت: في كلام هذين العالمين الفاضلين من علماء أهل السنة والجماعة بلا امتراء، في كلامهما بيان للمنهج الصحيح الذي ينبغي السير عليه، وإن كان كلامهما

---

(١) «الحكم الجديرة بالإذاعة» لابن رجب الحنبلي، (ص٤٣-٤٤).

(٢) هو أحد علماء نجد البارزين، ولد سنة (١١٦٠هـ) في «العيينة»، ونشأ في بيت حكم وإمارة، وأخذ العلم عن جماعة من العلماء الأجلاء، منهم الإمام محمد بن عبدالوهاب، وغيره، وأدرك علمًا جمًا حتىٰ قصد بالأسئلة والفتاوىٰ، وله بعض المصنفات المفيدة، توفي سنة (١٢٢٥هـ) بمكة المكرمة، رحمه الله تعالىٰ، مأخوذ باختصار من مقدمة كتاب الآتي ذكره.

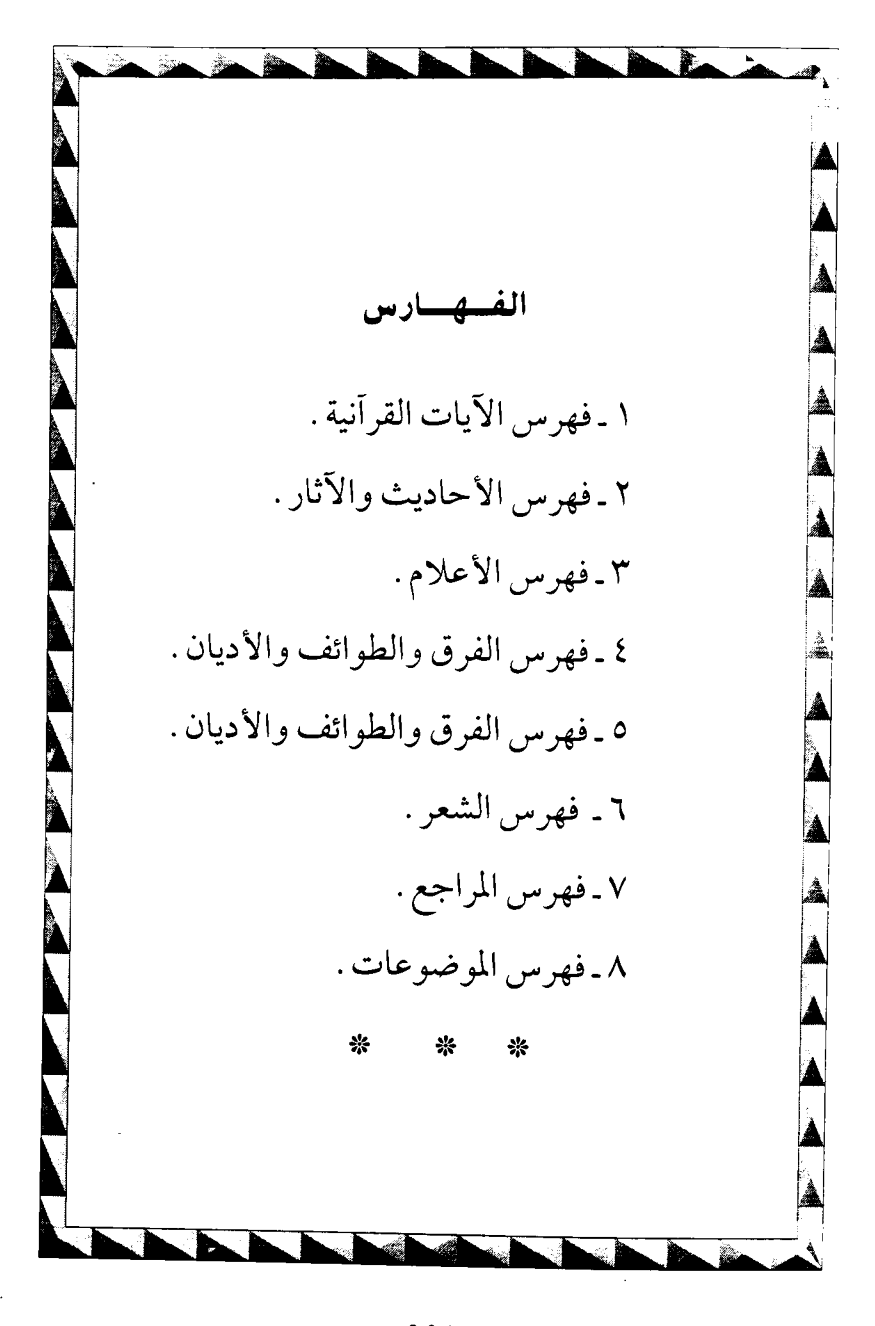
(٣) «النبذة الشريفة النفيسة في الردّ علىٰ القبوريين»، للشيخ حمد بن ناصر آل معمر، تحقيق الشيخ عبدالسلام بن برجس آل عبدالكريم، (ص١٧٤).

ينطبق على أحد فإن ممن ينطبق عليه الإمام النووي كما لا يخفى لكل ذي بصيرة، ويا ليت بعض طلبة العلم في هذا العصر يعون مثل هذه الكلمات النيرة، فيلزمون جادة الصواب من العلماء الأجلاء، فإن الله تعالى لم يكتب العصمة لأحد غير أنبيائه. وليس على وجه الأرض كتاب خال من خطأ غير كتاب الله الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾، وإذا كان كل عالم وقعت منه زلة استحق الطعن لم يبق لنا عالم، وإذا كان كل كتاب عثر فيه على خطأ ترك الاستفادة منه لم يسلم لنا كتاب بشر أبداً.

وإنما كان منهج السلف النهي عن كتب البدع التي وضعت لتقرير الباطل، والدفاع عنه. من كتب أهل الكلام وأهل التصوف وما شاكلها، وأما الكتب التي تقرر الحق وترد الباطل، ومع هذا وجدت فيها أشياء تخالف الحق اجتهاداً لا قصداً، فالصواب أنه مقبول مع التنبيه على ما فيه من خلاف الحق، وقد تمثل هذا المنهج واضحاً فيما فعله الاستاذ الدكتور أبو عبيدة في كتاب الردود والتعقبات .

حيث قام بالإشارة إلى بعض وهنات وأخطاء الإمام النووي في كتابه شرح صحيح مسلم في باب الصفات وغيره من بعض المسائل المهمات وفي الختام أسأل الله العلي القدير أن يلهمنا رشدنا ويوفقنا لاتباع كتابه وسنة رسوله ﷺ، والسير على منهج سلفنا الصالح من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وأن يجنبنا البدع والأهواء، وأن يغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا ولجميع المسلمين الأحياء منهم والأموات، إنه تعالى سميع مجيب، غفور رحيم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *



الفهـــارس

١ ـ فهرس الآيات القرآنية .

٢ ـ فهرس الأحاديث والآثار .

٣ ـ فهرس الأعلام .

٤ ـ فهرس الفرق والطوائف والأديان .

٥ ـ فهرس الفرق والطوائف والأديان .

٦ ـ فهرس الشعر .

٧ ـ فهرس المراجع .

٨ ـ فهرس الموضوعات .

* * *

فهرس الآيات القرآنية

الآيــــــــــة	رقمها	الصفحة
سورة الفاتحة		
ـ ﴿مالك يوم الدين﴾	٣	٨٧٧ـ ٨٨٠
سورة البقرة		
ـ ﴿آلم . ذلك الكتاب لا ريب فيه هدىً للمتقين﴾	١ـ٥	٨٠٠
ـ ﴿ أولئك على هدىً من ربهم﴾	٥	٩٣
ـ ﴿ إنا معكم إنما نحن مستهزئون﴾	١٤ـ١٥	٤٢٦
ـ ﴿ يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم﴾	٢١ـ٢٢	١٧٩
ـ ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة﴾	٣٠	٩٦٨
ـ ﴿ وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾	٣٤	٥٠٤
ـ ﴿ وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها﴾	٣٥	٨٨٥
ـ ﴿ ومنهم أميون لا يعلمون الكتب إلا أماني﴾	٧٨	٦٤٧
ـ ﴿ فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به﴾	٨٩	٥٠٥
ـ ﴿ من كان عدو لله وملائكته ورسله وجبريل﴾	٩٨	٦٥٧
ـ ﴿ ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم﴾	١٠٢	٥٤٣
ـ ﴿ قولوا أمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم﴾	١٣٦	٥٨٩
ـ ﴿ فإن أمنوا بمثل ما أمنتم به فقد اهتدوا﴾	١٣٧	٧٧٨
ـ ﴿ وما كان الله ليضيع إيمانكم﴾	١٤٣	٥٩٠ـ٧٦٦ـ٩٤٠
ـ ﴿ وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة . .﴾	١٥٥، ١٥٧	٩١٧ـ٩٦٧
ـ ﴿ وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فتبرأ منهم . . .﴾	١٦٧	٨٨٨
ـ ﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق . .﴾	١٧٧	٥٩٠

فهـرس الأحاديث والآثـــار

فهرس الأعــــلام

فهرس الفرق والطوائف والأديان

فهرس الشعر

الصفحة	القائل	الأبيـــات
		وكنت زينًا لأهل العلم مـفـتـخـراً على جـديد كـسـاهـم ثوبك السـمل زهدت في باطل الدنيـا وزخـرفـهـا عـزمًـا وحـزمًـا فـمـضـروب بك المثل أعـرضت عنهـا احـتقـاراً غـير محـتفل وأنت بالسـعي في أخـراك مـحـتـفل عـزفت في شـهـوات مـا لعـزم فـتى بهـا سـواك إذا عنت له قـبـل أسـهـرت في العلم عـينًا لم تذق سنة إلا وأنت به في الحكم مـشـتـغل ترى دري تربه من غـيـبـوه به أو نعـشـه على أعـواده حـملوا؟ يا مـحـيي الدين كم غـادرت من كـبـدٍ حـرى عليك وعين دمـعـهـا هطل وكم مـقـام كـحـد السـيف لا جلد يقـوي على هوله فـيـه ولا جـدل أمت فـيـه بأمـر الله منتـضـيًـا سـيـفًـا من العـزم لم يصنع له خلل وكم تواضـعت عن فـضل وعن شـرف وهـمـة هـامـة الجـوزاء تنتـعـل فـجـعت بالأمس ليـلاً كنت سـاهره لله والنوم قـد خـيطت به المقل رجـاك نور نهـار كنت صـايمه إذا الهـجـير بنار الشـمس تشـتـعل

الأبيـــات	القائل	الصفحة
يا لاهيًا لاهيًا عن هول مصرعه وضاحك السن منه يضحك الأجل لا تخل نفسك من زادٍ فإنّك من حين الولاد مع الأنفاس مرتحل وما مقام يديم السير يتبعه إلى محل تلاه سائق عجل		
(ن)		
وإذا العناية لاحظتك عيونها فم المخاوف كلهن أمان	....	٥٠
ما للعباد عليه حق واجب هو أوجب الأجر العظيم الشأن كلا ولا عمل لديه ضائع إن كان بالأطلاق والإحسان إن عذبوا فبعدله أو نعموا بفضله والحمد للمنان	ابن القيم	٩٤٦
إذا ما رأيه رفعت لمجد تلقاها عرابة اليمين	...	٣٧٥
(هـ)		
أأكتم حزني والمدامع تبديه لفقد امرىء كلَّ البرية تبكيه رأى الناس منه زهد يحيى سَمِيَّه وتقواه فيما كان يُبدي ويخفيه	أحمد بن مصعب	٤٢

الأبيات	القائل	الصفحة
ولم يرض بالدنيا ولا مال لحظة إلى عيشها فالله لا شك يرضيه تحلى بأوصاف النبي وصحبه وأتباعه هديًا فمن ذا يدانيه حديث رسول الله والفقه دأبه يضيفه في هذا وهذاك يرويه يرى الموت يحيى في إماتة بدعة وكم سنة أحيا بحسن مساعيه شكا فقده علم الحديث وحفظه وأهلوه والكتب الصحاح وقاريه إذا عدم الإسلام أشرافه أهله فلا غرو أنا في المصاب نعزيه		
(ي)		
والله لولا سابق الأقدار لم تبعد قط داركم عن داري من قبل النأي جزية المقدار هل يمحوا لعبد ما قضاه الباري	. . .	٩٧٢

فهرس المراجـــع

(أ)

- الإمام النووي للشيخ علي الطنطاوي، دار الفكر - سورية ، ضمن سلسلة أعلام التاريخ (رقم ٤).
- الإمام النووي وأثره في الحديث وعلومه، تأليف: أحمد عبدالعزيز قاسم الحداد، دار البشائر الإسلامية - بيروت، ط الأولىٰ ١٤١٣هـ.
- الإمام النووي شيخ الإسلام والمسلمين، وعمدة الفقهاء والمحدثين، للدكتور عبدالغني الدقر، ط الأولىٰ ١٣٩٥ه دار القلم - دمشق، بيروت.
- الإمام الشافعي وعلم الكلام، تأليف: محمد ربيع جوهري، ط١، الطباعة المحمدية الأزهر، ط الأولىٰ ١٤٠١هـ.
- الإمام ابن تيمية وموقفه من التأويل، تأليف: محمد السيد الجليند، الهيئة العامة لشئون المطابع - القاهرة ١٣٩٣هـ.
- إتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين، للعلامة السيد محمد بن الحسيني الزبيدي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- إرشاد طلاب الحقائق إلىٰ معرفة سنن خير الخلائق للنووي، تحقيق: الدكتور نور الدين عتر، ط الثالثة، عام ١٤١٢هـ، دار اليمامة - دمشق.
- إبطال التأويلات لأخبار الصفات، تأليف: القاضي الإمام أبي يعلي محمد بن الحسين ابن محمد بن الفراء، تحقيق: أبي عبدالله محمد بن حمد الحمود النجدي، مكتبة دار الإمام الذهبي، حولي. ط الأولىٰ عام ١٤١٠هـ.
- الأباطيل والمناكير والصحاح والمشاهير للحافظ أبي الحسين بن إبراهيم الجوزقاني الهمداني، تحقيق وتعليق: عبدالرحمن عبدالجبار القريواني، المطبعة السلفية، بنادس، الهند، ط الأولىٰ ١٤٠٣هـ.
- الإستقامة لشيخ الإسلام ابن تيمية تحقيق: محمد رشاد سالم، ط الأولىٰ ١٤٠٧هـ، توزيع مكتبة السنة، القاهرة.

- ابن القيم ودفاعه عن عقيدة السلف للدكتور أبو زيد، مؤسسة مكة للطباعة والنشر.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تأليف: محمد الأمين بن محمد المختار الجنكي الشنقيطي، عالم الكتب - بيروت.
- الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل، تأليف: محمد السيد الجليند - الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٣٩٣هـ.
- الآيات البينات في عدم سماع الأموات عند الحنفية السادات، تأليف/ العلامة نعمان ابن المفسر الشهير محمود الآلوسي، حققه وقدم له وخرج أحاديثه وعلق عليه محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٢هـ - المكتب الإسلامي.
- الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز للجهل به، لإمام المتكلمين سيف الإسلام القاضي أبي بكر بن الغيب الباقلاني البصري، تحقيق: محمد زاهد بن الحسن الكوثري، الطبعة الثانية ١٣٨٢هـ، مؤسسة الخانجي.
- اجتماع الجيوش الإسلامية للإمام ابن القيم مع بيان موقف ابن القيم من بعض الفرق. تحقيق: د. عواد عبدالله المعتق، الطبعة الثانية ١٤١٥هـ مكتبة الرشد للنشر والتوزيع - الرياض.
- إكمال المعلم بفوائد مسلم للقاضي عياض اليحصبي، تحقيق الدكتور: يحيىٰ إسماعيل، دار الوفاء - المنصورة ط الأولىٰ ١٤١٩هـ.
- إكمال إكمال المعلم بشرح صحيح مسلم للإمام أبي عبدالله الآبي ومعه مكمل إكمال إكمال المعلم للسنوسي، ضبطه وصححه: محمد سالم هاشم، دار الكتب العلمية - بيروت، ط الأولىٰ ١٤١٥هـ.
- إحياء علوم الدين، تأليف العلامة الإمام حجة الإسلام: أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي، مكتبة عبدالوكيل الدوبي - دمشق - دوريشية.
- الإبانة عن أصول الديانة للإمام أبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري - القاهرة الطبعة ١٣٨٥هـ، المطبعة السلفية - ومكتبتها. تقدي: د. صالح الفوزان، مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- أشراط الساعة، تأليف: يوسف بن عبدالله بن يوسف الوابل، الطبعة الأولىٰ ١٤٠٩هـ-

مكتبة ابن الجوزي ، المملكة العربية السعودية .
- الإشاعة لأشراط الساعة - تأليف الشريف محمد بن رسول الحسيني البرزنجي ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .
- الإذاعة لما كان وما يكون بين يدي الساعة ، تأليف : السيد محمد صديق حسن القنوجي البخاري رحمه الله ، تاريخ الطبعة ١٤٠٤هـ ، دار الإيمان - دمشق - بيروت .
- كتاب الاقتصاد في الاعتقاد للإمام الغزالي ، تقديم الدكتور : عادل العوا ، الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ - دار الأمانة - بيروت - لبنان .
- الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ، تأليف : خير الدين الزركلي - الطبعة الخامسة ١٩٨٠م . الطبعة الثالثة .
- الإبانة عن شريعة الفرق الناجية ومجانبة الفرق المذمومة ، تأليف : الشيخ الإمام أبو عبدالله عبيد الله العكبري الحنبلي ، تحقيق : رضا بن نعسان معطي ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ ، دار الراية للنشر والتوزيع - الرياض .
- كتاب الإيمان ، تأليف العلامة شيخ الإسلام ابن تيمية ، علق عليها وصححها جماعة من العلماء بإشراف الناشر ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .
- إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد ، تأليف : أبي عبدالله محمد المرتضى اليماني من مجتهدي القرن الثامن الهجري ، تاريخ الطبع ١٣١٨هـ - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .
- كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد لإمام الحرمين الجويني ، حققه د . محمد يوسف موسى ، د . علي عبدالمنعم عبدالحميد ، تاريخ الطبع ١٣٦٩هـ - مطبعة السعادة بمصر .
- الأيوبيون والمماليك في مصر والشام ، تأليف د . سعيد عبدالفتاح عاشور ، تاريخ الطبع الجديد ١٩٩٢م - دار النهضة العربية - القاهرة .
- الاتقان في علوم القرآن ، تأليف : شيخ الإسلام جلال الدين عبدالرحمن السيوطي وبالهامش إعجاز القرآن ، تأليف : القاضي أبي بكر الباقلاني ، المكتبة الثقافية - بيروت - لبنان .

- أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات، تأليف: الإمام زين الدين بدعي بن يوسف الكرمي المقدسي الحنبلي، حققه: شعيب الأرنؤوط - الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ، مؤسسة الرسالة - بيروت.
- الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة - تأليف: الإمام أبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الكاتب الدينوري، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.
- الإمام الشافعي وعلم الكلام - الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، دار الطباعة المحمدية، درب الأتراك بالأزهر.
- إرشاد طلاب الحقائق إلى معرفة سنن خير الخلائق ﷺ، للإمام محيي السنة أبي زكريا يحيى بن شرف النووي، حققه د. نور الدين عتر، الطبعة الثالثة ١٤١٢هـ - مطبعة الجيل - دمشق.
- إنباء الغمر بأنباء العمر، تأليف: الحافظ أحمد بن علي الشهير بابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد أحمد دهمان - طبع في دمشق سنة ١٣٩٩هـ.
- الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار، تأليف: أبي زكريا يحيى بن شرف الدين النووي الشافعي، تاريخ الطبع ١٤٠٧هـ، دار نعمة للطباعة - بيروت - لبنان.
- الأحكام في أصول الأحكام، تأليف: الشيخ الإمام العلامة سيف الدين أبي الحسن علي بن أبي علي بن محمد الآمدي، راجعها ودققها جامعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الحديث خلف الجامع الأزهر.
- إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول، تأليف، الإمام العلامة الفقيه المجتهد محمد بن علي بن محمد الشوكاني، تحقيق: أبي مصعب محمد سعيد البدري، طبعة جديدة مصححه، الطبعة السادسة ١٤١٥هـ، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت - لبنان.
- الإبانة عن شريعة الفرق الناجية ومجانبة الفرق المذومة، تأليف: الشيخ الإمام أبو عبدالله عبيد الله العكبري الحنبلي، تحقيق: رضا بن نعسان معطي، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ، دار الراية - الرياض.
- الأربعين في دلائل التوحيد لأبي إسماعيل الهروي، رسالة ومعه رسالة في الذب عن أبي

الحسن الأشعري لأبي القاسم عبدالملك بن عيسى بن درباس. حققهما وعلق عليهما د. علي بن محمد بن ناصر الفقيمي، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.
- أساس التقديس في علم الكلام، تأليف فخر الدين الرازي، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت ط الأولى ١٤١٥هـ.
- الأذكار من كلام سيد الأبرار، تأليف الإمام الحافظ شيخ الإسلام محيي الدين أبي زكريا يحيى ابن شرف النووي الدمشقي الشافعي، الطبعة الثالثة ١٤٠٩هـ، مؤسسة الريان - بيروت - لبنان، ومؤسسة الكتب الثقافية - بيروت - لبنان.
- أصول السنة للإمام الرباني أحمد بن محمد بن حنبل، تم التعليق بقلم عمرو عبدالمنعم سليم، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، دار السلام للطباعة الفورية.
- أعلام السنة المنشورة لاعتقاد الطائفة الناجية المنصورة، للشيخ حافظ بن أحمد الحكمي، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ، دار النور، ألمانيا الغربية.
- أصول الدين. تأليف الإمام الاستاذ أبي منصور عبدالقاهر بن طاهر التميمي البغدادي، الطبعة الأولى ١٣٤٦هـ، التزم نشره وطبعه مدرسة الآلهيات بدار الفنون التوركية باستانبول، المطبعة الدولية.
- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، تأليف الفقير إلى رحمة ربه وعفوه محمد الأمين بن محمد المختار الجنكي الشنقيطي، تاريخ الطبع ١٤١٣هـ، مكتبة ابن تيمية - القاهرة.
- كتاب الإيمان للحافظ محمد بن إسحاق بن يحيى بن منده، حققه د. علي بن محمد بن ناصر الفقيهي، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة/ تأليف: الشيخ عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشافعي المعروف بابن الأثير. دار إحياء التراث العربي - بيروت - لبنان.
- الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث تصنيف الإمام الحافظ الكبير أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي الشافعي، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ، دار الآفاق الجديدة - بيروت.
- إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، تأليف: أبي عبدالله محمد بن أبي بكر بن قيم

الجوزية. حققه الدكتور السيد الجميلي، دار ابن زيدون، ط بدون - بيروت.
- الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به لإمام المتكلمين سيف الإسلام ولسان الحق القاضي أبي بكر محمد بن الطيب القلاني البصري، وصححه السيد عزت العطار الحسيني وقام بنشره ووضع فهارسه.
- الإيمان - أركانه، حقيقته، نواقضه، تأليف الدكتور: محمد نعيم ياسين، طبعة رابعة مزيدة ومنقحة ومفهرسة.
- أوضح الإشارة في الرد على من أجاز الممنوع من الزيارة. تأليف الشيخ أحمد بن يحيى النخمي، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ. طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الإدارة العامة للطبع والترجمة - الرياض - المملكة العربية السعودية.
- الإصابة في تمييز الصحابة تأليف شهاب الدين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمد بن علي الكناني العسقلاني المصري الشافعي المعروف بابن حجر رحمه الله، تاريخ الطبع ١٨٥٣م، في بلدة كلكتا. دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.
- أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري للإمام أبي سليمان حمد بن محمد الخطابي، تحقيق: د. محمد بن سعيد بن عبدالرحمن آل سعود، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ، طبعة جامعة أم القرى.
- الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد - البيهقي الشافعي، تحقيق أحمد عصام الكاتب، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ - دار الآفاق الجديدة.
- ابن قيم الجوزية عصره ومنهجه وآراؤه في الفقه والعقائد والتصوف، الطبعة الثانية ١٣٨٧هـ - مكتبة الكليات الأزهرية.
- الأذكار من كلام سيد الأبرار، تأليف: الإمام الحافظ شيخ الإسلام محيي الدين أبي زكريا يحيى النووي الدمشقي الشافعي، اعتنى به محيي الدين الشامي، الطبعة الثالثة ١٤٠٩هـ، مؤسسة الريان - بيروت - لبنان، مؤسسة الكتب الثقافية.
- الاقتصاد في الاعتقاد للإمام الغزالي، تقديم الدكتور: عادل العوا. الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ - دار الأمانة - بيروت - لبنان.

- إرشاد الفحول إلى تحقيق علم الأصول، تأليف الإمام العلامة الفقيه: محمد بن علي الشوكاني، تحقيق أبي مصعب محمد البدري، الطبعة السادسة ١٤١٥هـ- مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت - لبنان.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة، لعز الدين بن الأشيد أبي الحسن علي بن محمد الجنذري - طبعة كتاب الشعب.
- إثبات صفة العلو لابن قدامة المقدسي، تحقيق الدكتور: أحمد بن عطية الغامدي، مؤسسة علوم القرآن - بيروت - ط الأولى ١٤٠٩هـ.
- أيسر التفاسير لكلام العلي القدير للشيخ أبي بكر الجزائري،
- أوضح الإشارة في الرد على من أجاز الممنوع من الزيارة للشيخ أحمد ابن يحيى النجمي، طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والإفتاء بالرياض، وقف لله تعالى ١٤٠٥هـ ط الأولى.
- كتاب الأسماء والصفات للبيهقي - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.
- الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة، الكتاب الثاني - القدر، تأليف الشيخ: أبو عبدالله عبد الله العكبري الحنبلي. تحقيق: د. عثمان عبدالله الأثيوبي، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، دار الراية - الرياض - جدة.

(ب)

- كتاب البعث والنشور، تأليف الحافظ أبي بكر أحمد البيهقي، تحقيق الشيخ: عامر أحمد حيدر، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ، مركز الخدمات والأبحاث الثقافية.
- بدر الدين العيني وأثره في علم الحديث تأليف صالح يوسف معتوق، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، دار البشائر الإسلامية - بيروت - لبنان.
- البحر الذخار المعروف بمسند البزار، تأليف: الحافظ أبي بكر أحمد بن عمر العتكي البزار، تحقيق د/ محفوظ الرحمن زين الله، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ، مؤسسة علوم القرآن، مكتبة العلوم والحكم - بيروت - المدينة المنورة.
- بدائع الفوائد للعلامة الإمام أبي عبدالله محمد الدمشقي، دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان.

- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للعلامة محمد الشوكاني، ط الأولىٰ سنة ١٣٤٨هـ، مطبعة دار السعادة - القاهرة.
- البيان والتبيين، تأليف: أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ. تحقيق: عبدالسلام محمد هارون، الناشر مؤسسة الخناجي بالقاهرة، طبعة دار الفكر للجميع ١٩٦٨.
- بيان تلبيس الجهمية لابن تيمية تصحيح محمد بن عبدالرحمن، بن قاسم مؤسسة قرطبة.
- ببين أبي الحسن الأشعري والمنتسبين إليه في العقيدة، تأليف أبي بكر خليل إبراهيم الموصلي، دار الكتاب العربي - بيروت - ط الأولىٰ سنة ١٤١٠هـ.
- البداية والنهاية للإمام الحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، حققه مكتب تحقيق التراث، تاريخ الطبع ١٤١٣هـ، دار إحياء التراث العربي، مؤسسة التاريخ العربي - بيروت - لبنان.
- بدائع الفوائد، تأليف: أبي عبدالله محمد بن أبي بكر بابن قيم الجوزي، عني بتصحيحه إدارة الطباعة المنيرية، طبع في مصر.
- أبو الفداء الحافظ ابن كثير الدمشقي في البداية والنهاية، الطبعة ١٩٦٦م، مكتبة المعارف - بيروت، مكتبة النصر - الرياض.
- بدائع الفوائد، تأليف: أبي عبدالله بن أبي بكر الدمشقي المشتهر بابن قيم الجوزي، عني بتصحيحه مكتبة جامعة الملك سعود - دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان.

(ت)

- تخريج أحاديث فضائل الشام ودمشق للربعي ومعه مناقب الشام وأهله، تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية ط الرابعة تاريخ ٤٠٥هـ المكتب الإسلامي بيروت - دمشق.
- التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار للحافظ أبي الفرج زين الدين ابن رجب الحنبلي. ط الأولىٰ عام ١٤٠٥هـ دار الكتب العلمية - بيروت.
- التوحيد ومعرفة أسماء الله عز وجل وصفاته علىٰ الاتفاق والتفرد - تأليف الإمام الحافظ أبي عبدالله محمد بن منده. تحقيق الدكتور: علي بن محمد بن ناصر الفقيهي.
- توضيح الكافية الشافية - تأليف عبدالرحمن بن ناصر السعدي، المطبعة السلفية ومكتبها - القاهرة ١٣٦٨هـ.

- تفسير سورة الإخلاص - تأليف الإمام ابن تيمية، تقديم الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي. تصحيح طه يوسف شاهين، دار الطباعة المحمدية، القاهرة. طبع على نسخة قرئت على الأستاذ الفاضل ألوسي زاده السيد محمود شكري. عني بتصحيحه السيد محمد بر الدين أبو فراس النعساني. مكتبة ومطبعة الإتحاد.
- التحقيق في اختلاف الحديث لابن الجوزي ومعه التنقيح لابن عبدالهادي. بتحقيق محمد حامد الفقي، ط الأولى عام ١٣٧٣هـ، مطبعة السنة المحمدية.
- ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك. تحقيق: أحمد بكر محمود - منشورات مكتبة الحياة - بيروت، ودار مكتبة الفكر - ليبيا - طرابلس ١٣٨٧هـ.
- تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الموضوعة لأبي الحسن علي بن محمد الكناني، تحقيق عبدالوهاب عبداللطيف، عبدالله محمد الصديق، ط الثانية عام ١٤٠١هـ دار الكتب العلمية - بيروت.
- تغليق التعليق على صحيح البخاري - تأليف: أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، تحقيق: سعيد عبدالرحمن موسى القزفي. المكتب الإسلامي، دار عمّار.
- تحرير ألفاظ التنبيه أو لغة الفقه للإمام محيي الدين النووي. تحقيق: عبدالغني الدّقر، ط الأولى ١٤٠٨هـ، دار القلم - بيروت - دمشق.
- التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تأليف: يوسف ابن عبدالبر، تحقيق: محمد الفلاح ج٨. تحقيق: عبدالله بن الصديق، ج٧. تحقيق: محمد بو خبزة، سعيد أحمد أعرابج ١٧.
- تهذيب الأسماء واللغات للإمام محيي الدين النووي، عينت بتصحيحه إدارة الطباعة المنيرية، دار الكتب العلمية - بيروت.
- الترخيص في الإكرام بالقيام - تأليف محي الدين النووي، تحقيق: كيلاني محمد خليفة. ط الأولى ١٤٠٩هـ دار البشائر الإسلامية - بيروت.
- تلبيس إبليس للإمام أبي الفرج بن الجوزي، تحقيق: محمد علي أبو العباس، مكتبة القرآن - القاهرة.

- التاريخ والمنهج التاريخي لابن حجر العسقلاني، تحقيق: الدكتور محمد كمال الدين عز الدين، ط الأولىٰ عام ١٤٠٤هـ، دار اقرأ - بيروت.
- تاريخ الطبري تاريخ الرسل والملوك لأبي جعفر محمد الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعارف - مصر - القاهرة.
- التفسير القيم للإمام ابن القيم، مراجعة وتقديم مكتب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية، بإشراف الشيخ إبراهيم رمضان، ط الأولىٰ عام ١٤١٠هـ، دار مكتبة الهلال - بيروت.
- تحرير تقريب التهذيب للحافظ ابن حجر العسقلاني، تأليف الدكتور بشار عواد معروف، الشيخ شعيب الأرنؤوط، ط الأولىٰ ١٤١٧هـ، مؤسسة الرسالة - بيروت.
- تقريب التدمرية، تأليف: محمد بن صالح العثيمين، دار الوطن - الرياض.
- التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، تأليف الإمام أبي المظفر الإسفراييني، تحقيق: كمال يوسف الحوت، ط الأولىٰ عام ١٤٠٣هـ، عالم الكتب - بيروت.
- توثيق الفريقين علىٰ خلود أهل الدارين، لمرعي يوسف الحنبلي، دار طيبة - الرياض.
- تاريخ الأدب العربي، تأليف: كارل بروكلمان نقله إلىٰ العربية الدكتور: عبدالحليم النجار ط الثانية، دار المعارف بمصر.
- تحفة الطالبين في ترجمة الإمام محيي الدين، تأليف: علاء الدين علي بن إبراهيم ابن العطار، ضبط نصه وعلق عليه أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سليمان، دار الصميعي - الرياض ط الأولىٰ ١٤١٤هـ.
- تاريخ التراث العربي تأليف: فؤاد سزكين، نقله إلىٰ العربية الدكتور: فهمي أبو الفضل، راجعه الدكتور: محمود فهمي حجازي، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر - القاهرة ١٩٧١.
- التعريف بالقاضي عياض، تأليف: أبي عبدالله محمد، تقديم وتحقيق: د. محمد بن شريفة. منشورات وزارة الأوقاف والشئوون الإسلامية والثقافة.

- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان - تأليف: عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق محمد زهري النجار، عالم الكتب - بيروت - ط الأولى ١٤٠٨هـ.
- تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، ط الثانية - دار المعرفة - بيروت.
- تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، تأليف: سليمان بن عبدالله بن عبدالوهاب، مكتبة الرياض الحديثة.
- التبرك أنواعه وأحكامه، تأليف: د. ناصر بن عبدالرحمن بن محمد الجديع، مكتبة الرشد - الرياض.
- التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، تأليف: شمس الدين الأنصاري القرطبي، تحقيق: فواز أحمد زمركي، دار الكتاب العربي - بيروت - ط الرابعة ١٤١٥هـ.
- التحفة المهدية شرح الرسالة التدمرية، تأليف الشيخ: فالح بن مهدي آل مهدي، تصحيح وتعليق الشيخ: د. عبدالرحمن صالح المحمود، دار الوطن - الرياض، ط الأولى ١٤١٤هـ.
- تذكرة الحفاظ للإمام أبو عبدالله شمس الدين الذهبي، دار الكتب العلمية - بيروت.
- تحقيق اسم الصحيحين واسم جامع الترمذي بقلم عبدالفتاح أبوغدة، الناشر مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب، ط الأولى ١٤١٤هـ.
- تأويل مشكل القرآن، تأليف: أبي محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي.
- تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة، دار الكتاب العربي - بيروت.
- التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية، تأليف: عبدالعزيز بن ناصر، ط الثانية ١٤٠٠هـ، مكتبة الرياض الحديثة، الرياض.
- التعليقات الزكية على العقيدة الواسطية، تأليف: عبدالله بن عبدالرحمن الجبرين، اعتنى به وأشرف عليه أبو أنس علي بن حسين أبو لوز، ط الأولى ١٤١٩هـ، دار الوطن - الرياض.
- التبرك المشروع والتبرك الممنوع، تأليف: د. علي بن نفيع العلياني، الطبعة الأولى ١٤١١هـ - دار الوطن - الرياض.

- التعـريفات للعلامة علي بـن محـمد الجرجاني، تاريخ الطبعة ١٩٦٩م - مكتبة لبنان - بيروت.
- تاريخ خليفة لابن خياط، تحقيق: أكرم بن ضياء العمري دار طيبة الرياض، ط الثانية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- تذكرة الحفاظ للإمام أبو عبدالله شمس الدين الذهبي، صحح على النسخة القديمة تحت إعانة الحكومة الهندية، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.
- تعظيم قدر الصلاة للإمام محمد بن نصر المروزي، تحقيق: د. عبدالرحمن بن عبدالجبار الفريوائي، مكتبة الدار بالمدينة المنورة، ط الأولى ١٤٠٦هـ.
- ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان، تأليف: الإمام محمد بن إبراهيم الصنعاني، تحقيق: جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الطبعة الأولي ١٤٠٤هـ - دار الكتب العلمية - بيروت.
- تجريد التوحيد المفيد للشيخ الإمام أحمد بن علي المقريزي، تعليق: إدارة الطباعة المنيرية. مطبعة الشرق - مصر.
- تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي، تأليف: محمد أحمد نوح، دار الهجرة الثقبة - الرياض. ط الأولى ١٤١٦هـ.
- تقريب التدمرية بقلم محمد بن صالح العثيمين، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - دار الوطن للنشر - الرياض.
- تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، تأليف: الشيخ سليمان بن عبدالله بن عبدالوهاب، مكتبة الرياض الحديثة.
- تهذيب اللغة لأبي منصور محمد الأزهري، تحقيق: عبدالله درويش، الدار المصرية للتأليف والترجمة.
- تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني، دار صادر - بيروت. باعتناء إبراهيم الزيبق - عادل مرشد. الطبعة الأولى ١٤١٦هـ - مؤسسة الرسالة.
- تذكرة الحفاظ للإمام أبو عبدالله شمس الدين الذهبي صحح عن النسخة القديمة المحفوظة في مكتبة الحرم المكي - دار إحياء التراث العربي - بيروت. طبعة ثانية دار الكتب العلمية -

بيروت ـ لبنان .

ـ تخريج حديث الأسماء الحسنى للإمام أحمد بن حجر العسقلاني ، تحقيق : مشهور حسن بن سلمان ، مكتبة الغرباء الأثرية المدينة المنورة ، ط الأولى ١٤١٣هـ .

ـ التنبيهات السنية على العقيدة الواسطية . تأليف عبدالعزيز بن ناصر الرشيد . الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ ـ مكتبة الرياض الحديثة ـ المملكة العربية السعودية .

ـ تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير لخاتمة الحفاظ الإمام أبي الفضل شهاب الدين بن حجر العسقلاني . تعليق : السيد عبدالله هاشم المدني ، تاريخ الطبعة ١٣٨٤هـ ـ المدينة المنورة .

ـ تتمة أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ، تأليف : محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي ، عالم الكتب ـ بيروت .

ـ التمهيد للإمام أبي بكر محمد بن الباقلاني ، عني بتصحيحه الأب رتشدرد يوسف مكارثي اليسوعي ، المكتبة ـ الشرقية ـ بيروت .

ـ تعظيم قدر الصلاة للمروزي ، مكتبة الدار بالمدينة المنورة ، ط الأولى عام ١٤٠٦هـ .

ـ التوحيد وإثبات صفات الرب ، تأليف محمد بن إسحاق بن خزيمة ، راجعه وعلق عليه محمد خليل هراس ، دار الفكر ، ط الثانية عام ١٣٩٣هـ .

ـ تصحيح المفاهيم في جوانب من العقيدة . تأليف د/ محمد آمان بن علي الجامي ، الناشر مكتبة ابن الجوزي ـ الإحساء ط الأولى ١٤٠٧هـ .

(ج)

ـ جامع الأصول من أحاديث الرسول ﷺ للإمام أبي العادات مبارك بن محمد ، ابن الأثير الجذري ، تحقيق محمد حامد الفقي . الطبعة الثانية ١٤٠٠هـ ، أعاد طبعه دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان .

ـ الجامع لشعب الإيمان للإمام المحدث أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي ، صحح وقوبل على النسخة القديمة من خزانة رئيس الكتاب ، تعليق الحافظ عزيز النقشبندي ـ الطبعة الثانية بالمطبعة العزيزية ـ حيدر آباد (الهند) .

ـ الجوهر المنضد في طبقات متأخري أصحاب أحمد ، للإمام يوسف بن الحسن الدمشقي

الحنبلي المعروف بـ(ابن المبرد)، تحقيق: د. عبدالرحمن بن سليمان العيثمين. الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ـ مكتبة الخانجي بالقاهرة.
- جامع الرسائل لابن تيمية أبي العباس عبدالحليم، تحقيق د. محمد رشاد. مطبعة المدني ـ مصر.
- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبدالله محمد القرطبي مصورة عن طبعة دار الكتب ـ تاريخ الطبعة ١٣٨٧هـ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ـ القاهرة.
- الجامع العزيز للأسئلة والأجوبة على كتاب التوحيد، تحقيق عبدالله بن جار الله الجارالله. الطبعة الأولى ١٤١٢هـ ـ دار ابن خزيمة ـ الرياض.
- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبدالله محمد الأنصاري القرطبي، الطبعة الثانية، عن طبعة دار الكتب المصرية ١٣٨٦هـ ـ دار القلم. الهيئة المصرية العامة الكتاب عام ١٩٨٧م.
- جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، للإمام المحدث أبي عمر يوسف القرطبي، تصحيح إدارة الطباعة المنيرية ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان.
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لأبي جعفر محمد الطبري، الطبعة الثانية ١٣٧٣هـ ـ شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر.
- الجامع لشعب الإيمان، تأليف: الإمام الحافظ أبي بكر البيهقي، تحقيق د. عبدالعلي عبدالحميد حامد، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ، الدار السلفية بومباي ـ الهند.
- جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثًا من جوامع الكلم، تأليف: زين الدين ابن رجب الحنبلي، تخريج وتحقيق محمد بن عبدالرازق، الركود، دار الفرقان ـ عمان ـ الأردن ط الأولى عام ١٤١١هـ.

(ح)

- الحكم الجديرة بالإذاعة من قول النبي ﷺ «بعثت بالسيف بين يدي الساعة» للإمام زين الدين ابن رجب الحنبلي، تحقيق: عبدالقادر الأرنؤوط دار المأمون للتراث ـ دمشق، بيروت ط الأولى عام ١٤١١هـ.
- الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة إملاء أبي القاسم إسماعيل بن الفضل التميمي، تحقيق: محمد بن ربيع بن هادي المدخلي، دار الراية الرياض، ط الأولى

١٤١١هـ.
- الحق الواضح المبين في شرح توحيد الأنبياء والمرسلين من الكافية الشافية، تأليف عبدالرحمن ناصر السعدي، مكتبة المعارف الرياض ط ١٤٠٦هـ.
- الحكمة والتعليل في أفعال الله تعالىٰ، تأليف الدكتور محمد ربيع هادي المدخلي، مكتبة لينا، دمنهور، ط الأولىٰ ١٤٠٩هـ.
- حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبدالله الأصبهاني، دار الكتاب العربي - بيروت - ط الخامسة ١٤٠٧هـ.

(خ)

- خبر الواحد وحجيته، تأليف الدكتور أحمد محمود عبدالوهاب الشنقيطي، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، ط الأولىٰ عام ١٤١٣هـ.
- خطط الشام، تأليف محمد كرد علي، دار العلم للملايين - بيروت ط الثانية.
- خلق أفعال العباد، للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق الدكتور عبدالرحمن عميرة، دار المعارف السعودية الرياض عام ١٣٩٨هـ.
- خوارق العادات في القرآن الكريم، تأليف: عبدالرحمن الحميضي، شركة مكتبة عكاظ - جدةو الطبعة الأولىٰ عام ١٤٠٢هـ.

(د)

- الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب، تأليف: ابن فرحون المالكي، تحقيق الدكتور محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث - القاهرة.
- درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية، تحقيق الدكتور محمود رشاد سالم، طبع هذا الكتاب علىٰ نفقة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ط الأولىٰ عام ١٣٩٩هـ.
- دعوة التوحيد أصولها . . الأدوار التي مرت بها . . مشاهير دعاتها، تأليف الدكتور محمد خليل هراس، مكتبة ابن تيمية - القاهرة، ط الأولىٰ عام ١٤٠٧هـ.
- ديوان حسان بن ثابت الأنصاري، شرح د/ يوسف عبد، دار الجيل - بيروت - ط الأولىٰ عام ١٤١٢هـ.
- الدارس في تاريخ المدارس، تأليف عبدالقادر بن محمد النعيمي، أعد فهارسه إبراهيم

شمس الدين، دار الكتب العلمية ـ بيروت ط الأولى عام ١٤١٠هـ.
ـ دراسات إسلامية في الأصول الأباضية ـ لبكير بن سعيد أعوشت ـ طبع الجزائر ط الثانية.
ـ الدر السنية في الأجوبة النجدية، جمع عبدالرحمن بن محمد بن قاسم القحطاني النجدي، مطبعة أم القرى بمكة المكرمة، ط الأولى عام ١٣٥٢هـ.

(ذ)

ـ ذيل مرآة الزمان، تأليف: قطب الدين موسى بن محمد اليويني بعناية وزارة التحقيقات الحكمية، والأمور الثقافية للحكومة العالية الهندية، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد ـ الدكن ـ الهند ـ ط الأولى.
ـ ذم التأويل للإمام موفق الدين ابن قدامة المقدسي بتحقيق بدر البدر، دار الفتح ـ الشارقة ط الأولى ١٤١٤هـ.
ـ الذيل على النهاية في غريب الحديث ولاأثر، تأليف أبي عبدالله عبدالسلام بن محمد بن عمر علّوش، دار ابن حزم ـ بيروت ط الأولى عام ١٤١٧هـ.

(ر)

ـ رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار، تأليف: السيد الإمام محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي ـ بيروت، دمشق ط الأولى عام ١٤٠٥هـ.
ـ الردود والتعقبات على ما وقع للإمام النووي من التأويل في الصفات وغيرها من المسائل المهمات، تصنيف مشهور حسن آل سلمان، دار الهجرة ـ الثقبة، الرياض ط الثانية ١٤١٥هـ.
ـ الرسالة التدمرية في تحقيق الإثبات لأسماء الله وصفاته وبيان حقيقة الجمع بين الشرع والقدر، تأليف تقي الدين أحمد بن تيمية، نشرها محب الدين الخطيب، ط الثالثة عام ١٤٠٠هـ المطبعة السلفية ومكتبتها بمكة المكرمة.
ـ رد الإمام الدارمي عثمان بن عسيد على بشر المريسي العنيد، تحقيق: محمد حامد الفقي، مطبعة أنصار السنة المحمدية ـ مصر، ط الأولى سنة ١٣٥٨هـ.
ـ الرد على الجهمية للإمام الحافظ ابن منده، تحقيق الدكتور علمين محمد بن ناصر الفقيهي،

ط الأولى ١٤٠١هـ.
- الرسالة التبوكية، تأليف شمس الدين محمد المعروف بابن قيم الجوزية، مراجعة عبدالظاهر أبي السمح، المطبعة السلفية ومكتبتها - مكة المكرمة - عام ١٣٤٧هـ.
- الرد على الأصفهاني لابن تيمية، تحقيق عبدالرحمن بن يحيى المعلمي اليماني، واستحباب زيارة خير البرية، طبع ونشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء، الرياض.
- رسائل في العقيدة، تأليف: محمد بن صالح عثيمين، دار طيبة - الرياض - طبعة عام ١٤٠٩هـ.
- الروح للإمام أبي عبدالله محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية، تحقيق الدكتور: السيد الجميلي، دار الكتاب العربي - بيروت، ط الخامسة عام ١٤١٢هـ.
- منشورات دار الكنانة الإسلامية - القاهرة، طبعة محققة ومنقحة.
- الروضة الندية شرح العقيدة الواسطية، تأليف زين بن عبدالعزيز آل فياض، دار الوطن - الرياض، ط الثالثة ١٤١٤هـ.
- الرد على الجهمية، تأليف الإمام أبي سعيد عثمان بن سعيد الدرامي، المكتب الإسلامي - بيروت ط الرابعة عام ١٤٠٢هـ.
- رسالة إلى أهل الثغر لأبي الحسن الأشعري، طبعة مكتبة العلوم والحكم، ط الأولى لعام ١٤٠٩هـ.
- الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد بن حنبل، تحقيق الدكتور عبدالرحمن عميرة، دار اللواء - الرياض، طبعة عام ١٣٩٧هـ.

(ز)

- الزواجر عن اقتراف الكبائر، تأليف أبي العباس أحمد بن محمد بن حجر المكي الهيثمي، دار المعرفة بيروت ط ١٤٠٧هـ.
- زاد المعاد في هدي خير العباد لابن القيم الجوزية، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط الثالثة ١٤٠٢هـ.
- زاد المسير في علم التفسير للإمام ابن الجوزي طبع المكتب الإسلامي - بيروت، ط الرابعة

١٤٠٧هـ.

ـ الزوائد للبزار، تحقيق صبري عبدالخالق أبو ذر، مؤسسة الكتب الثقافية ـ بيروت ط ١٤١٢هـ.

(س)

ـ سنن الترمذي لأبي عيسى محمد بن عيسى بن صورة، CAGR, 4A IWLAPI وطبعة عزت عبيد الدعاس المكتبة الإسلامية ـ استانبول.
ـ سير أعلام النبلاء للإمام شمس الدين محمد بن أحمد عثمان الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، طبع مؤسسة الرسالة، ط الثامنة ١٤١٢هـ.
ـ سنن أبي داود للإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي راجعه وعلق عليه حواشيه محمد محيي الدين عبدالحميد، دار إحياء السنة النبوية.
ـ سنن ابن ماجه للإمام أبي عبدالله بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، ط الأولى ١٤٠٣هـ، الطباعة العربية ـ السعودية ـ الرياض. طبعة بتحقيق: محمد فؤاد عبدالباقي ـ مطبعة الحلبي.
ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، للعلامة: محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف الرياض ط الثانية ١٤٠٧هـ.
ـ سنن الدارمي، للإمام عبدالله بن عبدالرحمن الدارمي السمرقندي، طبع بعناية دهمان أحمد محمد.
ـ سنن النسائي للإمام أحمد بن شعيب النسائي، شرح الحافظ السيوطي والسندي، تحقيق: مكتب تحقيق التراث الإسلامي ـ طبع دار المعرفة ـ بيروت ط الثانية ١٤١٢هـ.
ـ السنة للإمام أحمد بن محمد الخلال دراسة وتحقيق د/ عطية الزهراني، طبعة دار الراية ـ الرياض ط الأولى ١٤١٠هـ.
ـ السنة للحفاظ أبي بكر عمرو بن أبي عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني، بقلم محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ط الثانية ١٤٠٥هـ.
ـ سيرة ابن هشام (السيرة النبوية) بتحقيق وضبط مصطفى السقا، وآخرين، مطبعة الحلبي،

ط الثانية ١٣٧٥هـ.

- السنن الكبرى للإمام البيهقي، إعداد يوسف عبدالرحمن المرعشلي، دار المعرفة - بيروت.

- السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، للدكتور الشيخ مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي، ط الرابعة ١٤٠٥هـ.

(ش)

- شرح الأربعين النووية، تأليف يحيى بن شرف الدين النووي، تحقيق: عبدالله بن إبراهيم الأنصاري. المكتبة القصرية - بيروت.

- شرح العقيدة الواسطية لابن تيمية، تأليف محمد خليل هراس، راجعه الأستاذ عبدالرزاق عفيفي، مكتبة ابن تيمية القاهرة، ط الرابعة.

- شرح العقيدة الواسطية للدكتور صالح الفوزان مكتبة المعارف - الرياض، ط الخامسة ١٤١٠هـ.

- الشريعة للإمام المحدث أبي بكر محمد بن الحسين الآجري، تحقيق: محمد حامد الفقي، مكتبة دار السلام - الرياض - ط الأولى ١٤١٣هـ.

- شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، تأليف عبدالله بن محمد الغنيمان، مكتبة الدار بالمدينة المنورة ط الأولى ١٤٠٥هـ.

- شرح جوهرة التوحيد للشيخ إبراهيم القاني، شرح إبراهيم الباجوري، نسقه محمد أديب الكيلاني، عبدالكريم تتان، راجعه الأستاذ عبدالكريم الرفاعي ١٣٩٢هـ.

- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة والتابعين من بعدهم، تأليف الإمام أبي القاسم هبة الله اللالكائي، تحقيق الدكتور أحمد سعد حمدان ط الثانية ١٤١١هـ.

- شرح السنة للبغوي تحقيق: شعيب الإناؤوط، محمد زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط الأولى ١٣٩٠.

- شرح الأربعين النووية، للإمام النووي تحقيق عبدالله الأنصاري، منشورات المكتبة العصرية - صيدا - بيروت، ط الثانية ١٤٠٢هـ.

- شرح أسماء الله الحسنى للرازي، تأليف فخر الدين محمد بن عمر الخطيب الرازي،

راجعه ط عبدالرؤوف سعد ، مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة ط ١٣٩٦هـ.
- الشفا بتعريف حقوق المصطفى للإمام أبي الفضل عياض اليحصبي ، دار الكتب العلمية - بيروت ١٣٩٩هـ.
- شعبة العقيدة بين أبي الحسن الأشعري والمنتسبين إليه في العقيدة ، تأليف أبي بكر خليل إبراهيم أحمد الموصلي ، دار الكتاب العربي.
- شرح صحيح مسلم للنووي ضبط نص الصحيح ورقمت أبوابه وأحاديثه على الطبعة التي حققها محمد فؤاد عبدالباقي ، طبعة دار الكتب العلمية - بيرت ط الأولى ١٤١٥هـ، وشرح صحيح مسلم للنووي ، تحقيق : لجنة من العلماء ، راجعه الشيخ خليل أليس ، دار القلم - بيروت ، ط الثالثة.
- شرح علل الترمذي لابن رجب الحنبلي ، تحقيق الدكتور همام عبدالرحيم سعيد ، مكتبة المنار الأردن ، ط الأولى ١٤٠٧هـ.
- شأن الدعاء لأبي سليمان الخطابي ، تحقيق : أحمد يوسف الدقاق ، دار المأمون للتراث - دمشق ، بيروت ، ط الأولى ١٤٠٤هـ.
- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي ، المكتب التجاري - بيروت.
- شرح المواقف في علم الكلام للسيد الشريف الجرجاني تقديم وتحقيق د/ أحمد المهدي ، الناشر مكتبة الأزهر.
- شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، تأليف محمد بن محمد مخلوف ، دار الكتاب العربي - بيروت ط الأولى ١٣٤٩هـ.
- شرح العقيدة الطحاوية ، تحقيق جماعة من العلماء ، تخريج محمد ناصر الدين الألباني ، المكتب الإسلامي - بيروت ، ط الرابعة ١٣٩١هـ.
- شرح العقيدة الطحاوية تحقيق : د عبدالله التركي ، والأرنؤوط ، مؤسسة الرسالة - بيروت ط الرابعة.
- شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام بن تيمية ، شرح د. صالح الفوزان ، طبع إدارة البحوث العلمية ، ط الخامسة ، ١٤١١هـ، وشرح الشيخ محمد خليل هراس ، ضبط نصه وخرج أحاديثه علوي بن عبدالقادر السقاف ويليه ملحق الواسطية ، دار الهجرة ، ط

الثالثة ١٤١٥هـ.

- شرح الأصول الخمسة للقاضي عبدالجبار المعتزلي، تحقيق: د. عبدالكريم عثمان، مكتبة وهبة ـ القاهرة، ط الأولى ١٣٨٤هـ.

- شرح لمعة الاعتقاد والهادي إلى سبيل الرشاد للشيخ ابن عثيمين، دار الوطن ـ الرياض ١٤١٣هـ.

- شرح المقاصد للتفتازاني، تحقيق د/ عبدالرحمن عميرة، عالم الكتب ـ بيروت ط الأولى ١٤٠٩هـ.

- شفاء العليل في القضاء والقدر والتعليل للإمام محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، دار المعرفة ـ بيروت.

- الشرح والإبانة عن أصول الديانة للإمام عبدالله عبيد الله بن بطة العكبري، تحقيق ودراسة د/ رضا نعسان معطي ـ مطابع الصفا بمكة المكرمة ـ ط الثانية ١٤١١هـ.

- شرح أم البراهين لمحمد بن محمد بن يوسف السنوسي، مطبعة الاستقامة ١٣٥١هـ.

- شرح السنوسية الكبرى للإمام أبي عبدالله السنوسي للدكتور عبدالفتاح عبدالله بركة، دار القلم ـ الكويت ط الأولى ١٤٠٢هـ.

- شرح حديث النزول، تأليف شيخ الإسلام ابن تيمية، المكتب الإسلامي، ط الخامسة ١٣٩٧هـ.

- شرح كتاب الفقه الأكبر للملا علي القاري الحفني، مكتبة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر ط الثانية عام ١٣٧٥هـ.

- شرح العقيدة الأصفهانية لابن تيمية، تقديم حسين محمد مخلف، دار الكتب الحديثة لصاحبها توفيق عفيفي، شارع الجمهورية.

(ض)

- ضعيف الجامع الصغير وزياداته للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي ـ ط الثانية ١٣٩٩هـ.

- الضوء اللامع ـ للإمام السخاوي ـ طبع دار مكتبة الحياة ـ بيروت.

(ص)

ـ الصفات الإلهية في الكتاب والسنة، تأليف محمد بن آمان الحاجي، ط الثانية ١٤١١هـ.

ـ الصحاح في اللغة للشيخ إسماعيل بن حماد الجوهري، تحقيق: أحمد عبدالغفور عطا، ط الثانية ١٤٠٢هـ.

ـ الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، تأليف ابن قيم الجوزية، تحقيق الدكتور علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة ـ الرياض، النشرة الثانية ١٤١٢هـ. النشرة الأولى ١٤٠٨هـ.

ـ صحيح الجامع الصغير وزياداته (الفتح الكبير) تأليف محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي ـ بيروت، دمشق، ط الثانية ١٤٠٦هـ.

ـ الصحيح المسند من أسباب النزول، أعده مقبل بن هادي الوادعي، مكتبة المعارف ـ الرياض ـ ط ١٤٠٠هـ. تحقيق محمد ناصر الدين الألباني.

ـ صحيح الترغيب والترهيب للحافظ المنذري، المكتب الإسلامي ـ بيروت، ط الثانية ١٤٠٦هـ.

ـ صحيح البخاري للإمام أبي عبدالله البخاري، تحقيق: الشيخ قاسم الرفاعي، دار القلم ـ بيروت ط الأولى ١٤٠٧هـ.

ـ صفوة الصفوة للإمام ابن الجوزي، فهرسة عبدالسلام محمد هارون، مؤسسة الكتب الثقافية ـ بيروت، ط الأولى عام ١٤١٢هـ.

(ط)

ـ طبقات الحفاظ لجلال الدين السيوطي، بتحقيق على محمد عمر مكتبة وهبة ـ القاهرة، ط الأولى ١٣٩٣هـ.

ـ طبقات الشافعية الكبرى لتاج الدين السبكي، تحقيق محمود محمد الطناحي، عبدالفتاح محمد الحلو، طبعة الحلبي، ط الأولى ١٣٨٣هـ.

ـ طبقات الشافعية للإمام جمال الدين الأسنوي، تحقيق عبدالله الجبوري، دار العلوم ـ الرياض ١٤٠١هـ.

- طبقات الشافعية لأبي بكر بن أحمد تقي الدين ابن قاضي شهبة الدمشقي، تصحيح الدكتور عبدالعليم خان، رتب فهارسه الدكتور عبدالله أنيس الطباع، عالم الكتب ـ بيروت ـ ط الأولى ١٤٠٧هـ.
- طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن قيم الجوزية، تحقيق أبي حفص سيد بن إبراهيم بن صادق بن عمران، دار الحديث.
- طريق الهجرتين لابن القيم، تحقيق يوسف علي بديوي، دار ابن كثير ـ دمشق، ط الأولى ١٤١٤هـ.

(ع)

- عقيدة السلف وأصحاب الحديث للإمام الصابوني، تحقيق أبو عبدالله نبيل بن سابق السبكي، ط الأولى ١٤١٣هـ.
- العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية للإمام أبي المعالي الجويني، تحقق محمد زاهد الكوثري، المكتبة الأزهرية للتراث ١٤١٢هـ.
- علماء نجد خلال ستة قرون، تأليف عبدالله بن عبدالرحمن البسام، مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة ـ مكة المكرمة ط الأولى ١٣٩٨هـ.
- عقيدة أهل السنة والجماعة محمد الصالح العثيمين، دار عالم الكتب ـ الرياض ط الثانية ١٤٠٨هـ.
- العقيدة السلفية في كلام رب البرية وكشف أباطيل المبتدعة الروية، تأليف عبدالله بن يوسف الجديع، دار الإمام مالك ـ الرياض، ط الثانية ١٤١٦هـ.
- عقيدة المؤمن، لأبو بكر الجزائري، دار الكتب السلفية ـ القاهرة.
- عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، تأليف محمود رزق سليم، مكتبة الآداب، ومطبعتها الجماميز، ط الأولى ١٣٨٥هـ.
- العلم والبحث العلمي دراسة في مناهج العلوم، تأليف حسين عبدالحميد رضوان، المكتب الجامعي الحديث ـ إسكندرية، ط الثالثة ١٩٨٧م.
- عثرات المنجد في الأدب والعلوم والأعلام، تأليف إبراهيم القطان، دار القرآن الكريم، ط الأولى ١٣٩٢هـ.

- عقيدة أهل السنة والجماعة، بقلم محمد الصالح العثيمين، مركز شئون الدعوة ، ط الثالثة ١٤٠٩هـ، بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
- العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، تأليف الإمام محمد بن أحمد بن عبدالهادي، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكاتب العربي.

(غ)

- غاية المرام في علم الكلام لسيف الدين الآمدي، تحقيق حسن محمود عبداللطيف، مطابع الأهرام التجارية ـ القاهرة ١٣٩١هـ.

(ف)

- فوات الوفيات والذيل عليها تأليف محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر ـ بيروت.
- فضل علم السلف على علم الخلف لابن رجب الحنبلي، تحقيق : يحيىٰ مختار غزاوي، دار البشائر الإسلامية، ط الأولىٰ ١٤٠٣هـ.
- الفتوىٰ الحموية الكبرىٰ لابن تيمية، تقديم محمد عبدالرازق حمزة ويليها تحقيق المجاز والحقيقة في صفات الله، مطبعة المدني ـ القاهرة ١٤٠٣هـ.
- فتح رب البرية بتلخيص الحموية للشيخ ابن عثيمين ضمن رسائل في العقيدة دار طيبة ـ الرياض ط ١٤٠٩هـ.
- فضائح الباطنية، لأبي حامد الغزالي، تحقيق عبدالرحمن بدوي مؤسسة دار الكتب الثقافية ـ الكويت.
- الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية، راجعة أحمد حمدي إمام، دار المدني ـ جدة.
- فتح رب البرية بتلخيص الحموية لابن عثيمين ضمن رسائل في العقيدة، الرسالة الثانية دار طيبة ـ الرياض طبعة عام ١٤٠٩هـ.
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري للإمام ابن حجر العسقلاني، طبعة دار المعرفة ـ بيروت، ترقيم محمد فؤاد عبدالباقي، وتصحيح محب الدين الخطيب، وتحقيق : عبدالعزيز بن عبدالله بن باز.

- الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم الأندلسي، وضع حواشية أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية - بيروت، ط الأولى ١٤١٦هـ.
- فضائل الشام، ومعه مناقب الشام وأهله لشيخ الإسلام ابن تيمية تخريج العلامة الشيخ الألباني المكتب الإسلامي، ط الرابعة عام ١٤٠٥هـ.
- الفرق بين الفرق للإمام عبدالقاهر البغدادي، تحقيق: محمد محيي الدين، عبدالرحميد مكتبة دار التراث - القاهرة.
- الفرقان بين الحق والباطل لشيخ الإسلام ابن تيمية، تحقيق عبدالقاهر الأرناؤوط، مكتبة دار البيان دمشق - بيروت ط الثانية ١٤١٣هـ.
- فتح القدير، للإمام محمد بن علي الشوكاني، عالم الكتب، الطبعة بدون.
- فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، تأليف الشيخ عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية - بيروت.
- الفرق الإسلامية ذيل كتاب شرح المواقف للكرماني، تحقيق: سليمه عبدرب الرسول مطبعة الإرشاد - بغداد ١٩٧٣.
- فطرية المعرفة وموقف المتكلمين منها للدكتور أحمد بن سعد بن حمدان، ط الأولى دار طيبة - الرياض ١٤١٥هـ.
- فتاوى الإمام النووي (المسمى المسائل المنثورة)، دار الكتب العلمية - بيروت.

(ق)

- القول السديد في مقاصد التوحيد للعلامة عبدالرحمن بن ناصر بن سعدي، مطبعة الإمام - مصر.
- القاموس المحيط للفيروز آبادي، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة. إشراف: محمد نعيم العرقسوسي. ط السادسة ١٤١٩هـ.
- القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس فيه للدكتور. عبدالرحمن المحمود، دار النشر الدولي الرياض، ط الأولى ١٤١٤هـ، مؤسسة الرسالة.
- القواعد الكلية للأسماء والصفات عند السلف للدكتور إبراهيم محمد البريكان.
- القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، لفضيلة الشيخ ابن عثيمين، طبعة

المجموعة الاصلاحية.
- القضاء والقدر الدكتور عمر سليمان الأشقر، دار النفائس - الكويت، ط الثانية ١٤١٠هـ.
- قواعد الأحكام في مصالح الأنام للإمام أبي محمد عز الدين بن عبدالسلام السلمي، دار المعرفة - بيروت.

(ك)

- الكلمات النافعة في المكفرات الواقعة، تأليف الشيخ عبدالله بن عبدالوهاب، نشر قصي محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية ومكتبتها - القاهرة - القانية سنة ١٤٠٠هـ.
- الكلم الطيب، تأليف شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية الحراني، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي - بيروت - دمشق، ط الثالثة ١٣٩٧هـ.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تأليف: أبي القاسم جار الله الزمخشري الخوارزمي، انتشارات اقتلب تهران، وطبعة مصطفى البابي الحلبي، وأولاده - بمصر.
- الكبائر، تأليف: شمس الدين الذهبي، المكتبة الثقافية - بيروت.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، تأليف مصطفى عبدالله القسطنطيني المعروف بحاجي خليفة، طبعة محمد شرف الدين، وطبعة المكتبة الإسلامية، والمكتبة الجعفرية بطهران.
- الكواشف الجلية عن معاني الواسطية، تأليف: عبدالعزيز المحمد السلمان ١٤١٣هـ.
- كشف الأسفار لإبطال إدعاء فناء النار، للدكتور علي الحربي، المنسوب لشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، ط دار طيبة بمكة.

(ل)

- لسان العرب المحيط للعلامة ابن منظور، إعداد يوسف خياط، نديم مرعشلي.
- لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية - للشيخ السفاريني - تعليق الشيخ ابن بابطين وسليمان بن سحمان، المكتب الإسلامي - بيروت، ط الثالثة ١٤١١هـ.
- لطائف المعارف في مو اسم العام من الوظائف للحافظ ابن رجب.
- اللالئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، تأليف الإمام جلال الدين السيوطي، تخريج

أبو عبدالرحمن بن محمد بن عريضة، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط الأولى ١٤١٧هـ.
- لمعة الاعتقاد والهادي إلى سبيل الرشاد لابن قدامة المقدسي ، المكتب الإسلامي، ط الرابعة ١٣٩٥هـ.

(م)

- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية، تأليف: تقي الدين أبي العباس أحمد المقريزي، مكتبة المثنى بغداد طبعة جديدة بالأوفست.
- مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة، تأليف: جلال الدين السيوطي، تخريج أبو معاذ محمود بن إمام بن منصور، مكتبة الصحابة - جدة .
- مسائل الإيمان للقاضي أبي يعلى، تحقيق: سعود بن عبدالعزيز الخلف، دار العاصمة - الرياض، النشرة الأولى عام ١٤١٠هـ.
- مجمل اللغة/ تأليف أحمد بن فارس بن زكريا، دراسة وتحقيق زهير عبدالمحسن سلطان مؤسسة الرسالة - بيروت ، ط الأولى عام ١٤٠٤هـ.
- محاسن التأويل والتفسير، تأليف محمد جمال القاسمي، وقف على طبعه وتصحيحه وتخريج أحاديثه محمد فؤاد عبدالباقي، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط الأولى عام ١٣٧٨هـ.
- مشكاة المصابيح، تأليف: أبي عبدالله محمد بن عبدالله الخطيب التبريزي، اعتنى به محمد نزار تميم ، هيثم نزار تميم، دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت .
- المعتمد في أصول الدين للقاضي أبي يعلى محمد بن الحسين بن محمد الفراء الحنبلي البغدادي، تحقيق الدكتور وديع زيدان حدّاد، دار المشرق - بيروت .
- المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد، تأليف الإمام برهان الدين إبراهيم بن محمد بن مفلح ، تحقيق د. عبدالرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة الرشد - الرياض ط الأولى عام ١٤١٠هـ.
- مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، لأحمد بن مصطفى الشهير بطاش كبرى زاده - دار الكتب العلمية - بيروت، ط الأولى ١٤٠٥هـ. وطبعة دار الكتب الحديثة، تحقيق كامل كامل بكري، عبدالوهاب أبو النور.

- المستدرك على معجم المؤلفين/ تأليف عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط الثانية عام ١٤٠٨هـ.
- مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، تأليف الإمام أبو محمد عبدالله بن أسعد اليافعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط الثانية عام ١٤١٣هـ.
- معجم المولفين، تأليف عمر رضا كحالة، مطبعة الترقي بدمشق عام ١٣٨٠هـ.
- منهج البحث العلمي عند العرب في مجال العلوم الطبيعية والكونية، تأليف: جلال محمد موسى، تقديم الأستاذ محمد على أبو ريان، دار الكتاب اللبناني - بيروت، ط عام ١٩٨٨.
- معجم ما ألف عن رسول الله ﷺ، تأليف: صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد - بيروت، ط الأولى عام ١٤٢٠هـ.
- مختصر زوائد مسند البزار على الكتب الستة ومسند أحمد للحافظ شهاب الدين بن حجر العسقلاني، تحقيق وتقديم صبري بن عبدالخالق أبو ذر مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، ط الأولى عام ١٤١٢هـ.
- مسند أبي يعلى، تحقيق حسين سليم أسد، ط الأولى ١٤١٣هـ، طبعة دار الثقافة العربية بدمشق..
- معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد، تأليف حافظ بن أحمد الحكمي، قدم له أحمد بن حافظ الحكمي، المطبعة السلفية ومكتبتها - القاهرة، ط الثالثة عام ١٤٠٤هـ.
- المفردات في غريب القرآن، تأليف: أبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة - بيروت، ط الأخيرة ١٣٨١هـ.
- مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار للإمام الحافظ أبي حاتم محمد بن حبان التميمي البستي، تحقيق مرزوق علي إبراهيم، دار الوفاء - المنصورة، ط الأولى عام ١٤١١هـ.
- محاضرات في النصرانية ألقاها الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة، مطبعة المدني، شارع العباسية، ط الثالثة عام ١٣٨٥هـ.

- مسند أبي يعلى الموصلي تأليف الإمام الحافظ أحمد بن علي بن المثنى التميمي، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث - دمشق، بيروت، ط الأولى عام ١٤٠٤هـ.
- منهج الإمام مالك في العقيدة إعداد سعود الدعجان، مكتبة ابن تيمية - القاهرة، ط الأولى ١٤١٦هـ.
- منهج ودراسات لآيات الأسماء والصفات للشيخ الفاضل محمد الأمين الشنقيطي عام ١٣٨٥هـ.
- المغني والشرح الكبير، تأليف الشيخ الإمام موفق الدين أبي محمد بن قدامة ويليه الشرح الكبير. طبع بعناية جماعة من العلماء على نفقة دار الكتاب العربي - بيروت، ط الثانية عام ١٣٩٢هـ.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تأليف لجمال الدين ابن هشام الأنصاري، تحقيق الدكتور مازن المبارك، محمد علي حمد الله راحبة سعيد الأنصاري، دار الفكر ط الخامسة - بيروت عام ١٩٧٩م.
- مسند الإمام أحمد Ca G yayunlan وطبعة دار المعارف للطباعة والنشر بمصر، تحقيق: أحمد محمد شاكر، عام ١٣٦٧هـ.
- مجموعة التوحيد النجدية، وقف على طبعها يوسف بن عبدالعزيز النافع، المطبعة السلفية ومكتبتها القاهرة، عني بتصحيحها وإخراجها محب الدين الخطيب، عام ١٣٧٥هـ.
- معجم الشعراء للمرزباني، تأليف أبي عبيد الله محمد بن عمران بن موسى، تحقيق عبدالستار أحمد فراج، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط عام ١٣٧٩هـ.
- مختصر مسند زوائد مسند البزار على الكتب الستة ومسند أحمد للحافظ ابن حجر العسقلاني.
- الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة تأليف، ناصر بن عبدالله القفاري، ناصر بن عبدالكريم العقل، دار الصميعي - الرياض، ط الأولى، عام ١٤١٣هـ.
- المعجم الكبير تأليف الحافظ أبي القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق حمدي

عبدالمجيد السلفي .
- المواقف في علم الكلام، تأليف : عبدالرحمن بن أحمد الإيجي، عالم الكتب - بيروت .
- المحاضرات السنية في شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام بن تيمية ، شرحه الشيخ محمد الصالح العثيمين، وعلق عليه الشيخ عبدالعزيز بن باز، تحقيق : أبو محمد أشرف عبدالمقصود وبعدالرحيم، مكتبة طبرية - الرياض .
- مقاييس اللغة، تأليف أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، تحقيق : عبدالسلام محمد هارون، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه - القاهرة، ط الأولى ١٣٦٦هـ .
- المصباح المنير، تأليف العالم أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقريء، مكتبة لبنان - بيروت، عام ١٩٨٧هـ .
- المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة، جمع وتحقيق عبدالإله بن سلمان بن سالم الأحمدي، دار طيبة - الرياض، ط الأولى عام ١٤١٢هـ .
- مختصر العلو للعلي الغفار تأليف، الحافظ شمس الدين أبو عبدالله الذهبي، اختصره وحققه وخرج أحاديثه محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي دمشق ، بيروت، ط الأولى عام ١٤٠١هـ .
- من الضائع من معجم الشعراء للمرزباني، تأليف الدكتور إبراهيم السامرائي، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط الأولى عام ١٤٠٤هـ .
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، تأليف أبي عبدالله الذهبي، تحقيق علي محمد البجاوي، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط الأولى عام ١٣٨٢هـ .
- معجم الزوائد ومنبع الفوائد للإمام الهيثمي، دار الكتاب العربي - بيروت، ط الثالثة ١٤٠٢هـ، وطبعة مؤسسة المعارف - بيروت، عام ١٤٠٦هـ .
- معجم الأدباء لياقوت الحموي، طبعته الأخيرة مكتبة عيسى البابي الحلبي - مصر .
- المحلى بالآثار، تصنيف ابن حزم الأندلسي، تحقيق الدكتور، عبدالغفار سليمان البنداري، دار الكتب العلمية - بيروت ١٤٠٨هـ .
- معالم التنزيل (تفسير البغوي) للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق خالد

عبدالرحمن العك، مروان سوار، دار المعرفة ـ بيروت، ط الثالثة ١٤١٣هـ.
ـ مصلح أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين، للإمام فخر الدين محمد بن عمر الخطيب الرازي، راجعه عبدالرؤوف سعد . دار الكتاب العربي ـ بيروت ط الأولىٰ ١٤٠٤هـ.
ـ المحجة في سير الدلجة للحافظ ابن رجب الحنبلي، تحقيق يحيىٰ مختار غزاوي ، دار البشائر الإسلامية ـ بيروت، ط الثانية ١٤٠٦هـ.
ـ مختصر الصواعق المرسلة علىٰ الجهمية والمعطلة لابن قيم الجوزية ، إختصره الفاضل محمد بن الموصلي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط الأولىٰ ١٤٠٥هـ.
ـ مقدمة ابن الصلاح ومحاسن الاصطلاح، توثيق وتحقيق ة . عائشة عبدالرحمن (بنت الشاطي)، مطبعة دار الكتب ١٩٧٤م.
ـ منهج الأشاعرة في العقيدة تعقيب علىٰ مقالات الصابوني للشيخ مسفر بن عبدالرحمن الحوالي، الدار السلفية ـ الكويت، ط الأولىٰ ١٤٠٧هـ.
ـ المقصد الأسنىٰ شرح أسماء الله الحسنىٰ للإمام أبي حامد محمد بن محمد الغزالي، مكتبة الجندي بمصر.
ـ الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف د/ مانع بن حماد الجهني، ط الثالثة، دار الندوة العالمية ، عام ١٤١٨هـ.
ـ معجم المؤرخين الدمشقيين وأثارهم المخطوطة والمطبوعة . تأليف : د/ صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد ـ بيروت ١٣٩٨هـ.
ـ منادمة الأطلال ومسامرة الخيال، تأليف العلامة المتفنن عبدالقادر بدران، المكتب الإسلامي ـ دمشق.
ـ المجموع شرح المهذب للإمام محيي الدين بن شرف النووي، الناشر زكريا علي يوسف ، مطبعة العاصمة ـ القاهرة.
ـ مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة وموقف الحركات الإسلامية، المعاصرة منها، تأليف د/ ناصر بن عبدالكريم العقل، ط الأولىٰ.
ـ معالم أصول الدين للإمام الفخر الرازي، تقديم د/ سميح دغيم، دار الفكر اللبناني ـ

بيروت، ط الأولى ١٩٩٢.
- منهاج السنة النبوية، لابن تيمية، تحقيق د/ محمد رشاد سالم، ط الأولى ١٤٠٦هـ، مطبعة إدارة الثقافة والنشر بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- الموافقات في أصول الشريعة، تأليف: أبي إسحاق الشاطبي، المكتبة التجارية - بمصر.
- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، تأليف: الإمام أبو عبدالله شمس الدين ابن قيم الجوزية، مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده.
- مجموعة الرسائل والمسائل، تأليف ابن تيمية رحمه الله، تخريج السيد/ محمد رشيد رضا، لجنة التراث العربي.
- المعجم الوسيط، معجم اللغة العربية، ط الثالثة، تقديم إبراهيم مدكور.
- المستدرك على الصحيحين، لأبي عبدالله الحاكم.
- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، تأليف الإمام أبي الحسن الأشعري، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة العصرية - صيدا - بيروت، ط ١٤١١هـ.
- الملل والنحل للشهرستاني، تحقيق أمير علي مهنا، علي حسن فاعور، دار المعرفة - بيروت، ط السادسة ١٤١٧هـ.
- منهج أهل السنة والجماعة ومنهج الأشاعرة في توحيد الله تعالى، تأليف خالد بن عبداللطيف بن محمد نور، مكتبة الغرباء الأثرية - المدينة النبوية ط الأولى ١٤١٦هـ.
- موقف ابن تيمية من الأشاعرة، تأليف الدكتور عبدالرحمن بن صالح المحمود، مكتبة الرشد، الرياض، ط الثانية ١٤١٦هـ.
- معالم السنن للخطابي البستي، طبعه وصححه محمد راغب الطباخ، المطبعة العلمية - حلب، ط الأولى سنة ١٣٥٢هـ.
- مدارج السالكين - لابن القيم - تحقيق وتعليق محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي - بيروت ط الرابعة ١٤١٧هـ.
- مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب عبدالرحمن بن قاسم العاصمي النجدي وولده، طبعة ١٤١٨هـ، مؤسسة الرسالة - بيروت.
- المسائل المشتركة بين أصول الفقه وأصول الدين للدكتور محمد العروسي عبدالقادر، دار

حافظ ـ جدة ، ط الأولى سنة ١٤١٠هـ.
ـ الموطأ للإمام مالك بن أنس ـ بتصحيح وتعليق محمد فؤاد عبدالباقي ، دار الحديث ـ القاهرة .
ـ المصباح المنير لأحمد بن محمد الفيومي المقدسي ـ مكتبة لبنان .
ـ المنهاج في شعب الإيمان للحليمي .
ـ المنهل العذب الروي في ترجمة قطب الأولياء النووي ، للإمام السخاوي ، تحقيق د/ محمد العبدالخضراوي ، مكتبة دار التراث ـ المدينة المنورة .
ـ المنهاج السوي في ترجمة الإمام النووي ، للإمام جلال الدين السيوطي ، تحقيق د/ محمد العبد الخضراوي ، مكتبة دار التراث ـ المدينة المنورة .
ـ المفهم في شرح مختصر مسلم ، أو المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم للقرطبي ، تحقيق : محي الدين بن مستو ، وآخرين ، دار ابن كثير ، بيروت ط الأولى ١٤١٧هـ .
ـ مختصر الكامل في الضعفاء للإمام تقي الدين المقريزي ، تحقيق أيمن عارف الدمشقي ، منشورات مكتبة السنة ـ القاهرة ط الأولى ١٤١٥هـ .

(ن)

ـ النكت على نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر ، تأليف : ابن حجر العسقلاني ، بقلم علي ابن حسن بن علي بن عبدالحميد الحلبي الأثري ، دار ابن الجوزي .
ـ النبوات لابن تيمية تحقيق الشيخ إبراهيم رمضان ، دار الفكر اللبناني ، ط الأولى ١٩٩٢م .
ـ النبذة الشريفة النفيسة في الرد على القبور بين ، تأليف حمد بن ناصر بن عثمان آل معمر ، تحقيق عبدالسلام بن برجرس آل عبد الكريم ، دار العاصمة ـ الرياض ، النشرة الأولى ١٤٠٩هـ .
ـ نهاية الإقدام في علم الكلام للشهرستاني ، حرره الفردجيوم .
ـ النهاية في الفتن والملاحم لابن كثير ، تحقيق : محمد أحمد عبدالعزيز ، دار الحديث خلف الجامع الأزهر .
ـ نور الاقتباس في مشكاة وصية النبي ﷺ لابن عباس للحافظ زين الدين ابن رجب

الحنبلي، تحقيق: الشيخ عبدالفتاح خليفة، محمود خليفة، مطبعة مصر، ط الأولى ١٣٦٥هـ.

ـ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تأليف جمال الدين أبي المحاسن، يوسف بردي الأتابكي قدم له وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط الأولى ١٤١٣هـ.

ـ النهاية في غريب الحديث والأثر للإمام مجد الدين أبي السعادات المبارك محمد الجزري ابن الأثير، تحقيق: محمود محمد الطناحي، طاهر أحمد الزاوي، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي، ط الأولى، ١٣٨٣هـ. طبعة أنصار السنة المحمدية باكستان.

ـ نيل الأوطار بشرح منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار للإمام الشوكاني، دار الحديث ـ القاهرة.

ـ النزول والصفات ـ للدارقطني، تحقيق: د. علي بن ناصر الفقيهي، ط الأولى ١٤٠٣هـ.

ـ نظم المتناثر من الحديث المتواتر، تأليف أبي الفيض جعفر الإدريسي الكتاني، دار الكتب العلمية ـ بيروت ط ١٤٠٠هـ.

ـ نظرية التكليف تأليف الدكتور عبدالكريم عثمان، مؤسسة الرسالة ـ بيروت ط ١٣٩١هـ.

ـ النفح الشذي في شرح جامع الترمذي لابن سيد الناس، بتحقيق الدكتور: أحمد معبد عبدالكريم، ط الأولى، دار العاصمة ـ الرياض، ١٤٠٩هـ.

ـ نونية ابن القيم: (القصيدة النونية المسماة: الكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية): للإمام ابن قيم الجوزية، بشرح الدكتور: محمد خليل هراس، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط الأولى ١٤٠٦هـ.

ـ نقض المنطق لابن تيمية تحقيق: محمد بن عبدالرزاق حمزة، وسليمان بن عبدالرحمن الصفيع، تصحيح: محمد حامد الفقي دار المعرفة.

(هـ)

ـ هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، تأليف إسماعيل باشا البغدادي، وكالة المعارف استانبول سنة ١٩٥١، م ١ ط الثالثة ١٣٨٧هـ.

(و)

- وفيات الأعيان وأنباء الزمان تأليف، لأبي العباس شمس الدين ابن خلكان، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الثقافة - بيروت.
- الوابل الصيب ورافع الكلم الطيب لابن القيم الجوزية، تحقيق بشير محمد عيون، مكتبة دار البيان.

(ي)

- اليوم الآخر والقيامة الكبرىٰ، تأليف: الدكتور عمر سليمان الأشقر، مكتبة الفلاح - الكويت، ط الثانية ١٤٠٨هـ.

فهرس الموضوعات

الموضـــوع	الصفحـة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحـة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضـــــوع	الصفحـة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
المسألة الثالثة: تعليل أفعال الله تعالىٰ	٩٣٩
المسألة الرابعة: التحسين والتقبيح	٩٤١
ـ المسألة الخامسة: هل يجب علىٰ الله شيء؟	٩٤٤
المسألة السادسة: مسألة تكليف ما لا يطاق	٩٤٧
المسألة السابعة: إضافة الشر إلىٰ الله تعالىٰ	٩٥١
٢ ـ أفعال العباد	٩٥٣
أ ـ رأي الإمام النووي	٩٥٣
ب ـ موافقة الإمام النووي لمذهب السلف في هذه المسألة	٩٥٤
١ ـ ذكر بعض الأدلة علىٰ أن أفعال العباد مخلوقة	٩٥٤
٢ ـ للعباد إرادة وقدرة حقيقية غير خارجة عن مشيئة الله	٩٥٦
٣ ـ الإرادة نوعان	٩٥٦
ج ـ رد الإمام النووي علىٰ المعتزلة وبعض أفعال العباد وموافقته للأشاعرة في قولهم بالكسب	٩٥٧
د ـ الرد علىٰ الإمام النووي في قوله بالكسب الأشعري	٩٥٩
١ ـ تفسير معنىٰ الكسب الأشعري	٩٦٠
٢ ـ بطلان هذا المذهب	٩٦٠
المبحث الرابع: مسألة احتجاج آدم وموسىٰ عليهما السلام.	٩٦٢
المطلب الأول: بطلان الاحتجاج بالقدر	٩٦٢
المطلب الثاني: الرد علىٰ المحتجين بالقدر	٩٦٤
المطلب الثالث: بيان معنىٰ حديث فحج آدم موسىٰ	٩٦٦
ـ رأي الإمام النووي في ذلك	٩٦٨
ـ خلاصة الأقوال في هذه المسألة	٩٧٢
المبحث الخامس: تأويل قوله تعالىٰ ﴿يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾	٩٧٣

الموضوع	الصفحة